

فتوح الغيب

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الرب

تأليف : الإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي

الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

جميع الحقوق محفوظة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ©

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية بالأردن : (٢٠١٠ / ٧ / ٢٥٣٣)

الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٢٣١٨٠٤

ما ورد في حواشي هذا الكتاب يعبر عن رأي محققه ولا يعبر بالضرورة عن رأي الجائزة

ص.ب.: ٤٦٠٤٢ دبي - الامارات العربية المتحدة

هاتف: +٩٧١٤٢٦١٠٦٦٦

فاكس: +٩٧١٤٢٦١٠٠٨٨

الموقع على الانترنت: www.quran.gov.ae

البريد الالكتروني: Rs@quran.gov.ae

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

وحدة البحوث والدراسات

أسهم في نشر هذا الكتاب

ADIB



مصرف أبوظبي
الإسلامي

فتوح الغيب

في الكشف عن قناع الرب

وهو حاشية الطيبي على الكشاف
للإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي
المتوفى سنة ٧٤٣ هـ رحمه الله تعالى

الجزء الحادي عشر

تفسير السور من التوراة إلى نهاية التمثل

حَقَّقَ هَذَا الْجُزْءَ
الدُّكْتُورُ عُمَرُ حَسَنُ الْقِيَّامِ
الباحث بجامعة العلوم الإسلامية العالمية بالأردن

المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب
الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء

جائزة دار الفقه الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النور

مدنيّة، وهي ثنتان وستون آية، وقيل: أربع وستون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آياتٍ بينتٍ لعلكم تذكرون ﴿١﴾]

﴿سورة﴾ خبرٌ مبتدأٌ محذوف. و﴿أنزلناها﴾ صفة. أو هي مبتدأٌ موصوفٌ والخبرُ محذوف، أي: فيما أوحينا إليك سورةً أنزلناها. وقُرئ بالنصب على: زيداً صرّبه، ولا محلّ ل﴿أنزلناها﴾؛ لأنها مفسّرةٌ للمضمّر؛ فكانت في حكمه. أو على: دُونَكَ سورة، أو: اتل سورة، و﴿أنزلناها﴾ صفة. ومعنى «فَرَضْنَاهَا»: فَرَضْنَا أَحْكَامَهَا التي فيها. وأصلُ الفَرَض: القَطْع، أي: جَعَلْنَاهَا واجبةً مقطوعاً بها،

سورة النور

مدنيّة، وهي ثنتان وستون آية، وقيل: أربع وستون (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (وقرئ بالتّصّب)، قال ابنُ جنيّ: هي قراءة أمّ الدرداء، وعيسى الثّقفيّ، ورُويت عن عمّار بن عبد العزيز (٢).

قوله: (أي: جَعَلْنَاهَا واجبةً)، الراغب: الفَرَض: قَطْعُ الشَّيْءِ الصَّلْبِ والتأثيرُ فيه،

(١) قوله: «وقيل: أربع وستون» لم يرد في (ط).

(٢) «المحتسب» (٢: ٩٩) ولتتام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٦).

والتشديد للمبالغة في الإيجابِ وتوكيده. أو: لأنَّ فيها فرائضَ شتَّى، وإنك تقول: فرضتُ الفريضة، وفرضتُ الفرائض. أو: لكثرة المفروض عليهم من السلفِ ومن بعدهم.

كقطع الحديد، والفرض كالإيجاب، لكنَّ الإيجاب يُقال اعتباراً بوقوعه وثباته، والفرض بقطع الحكم فيه. قال تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾، أي: أوجبنا العمل بها. ومنه يُقال لما ألزم الحاكم من النفقة: فرض. وكلُّ موضع ورد فيه: فرض الله عليه، ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه. وما ورد من: فرض الله له، فهو في أن لا يحظره على نفسه، نحو قوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَرَضْنَا لَكُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٧] أي: سميتنَّ هنَّ مهراً، وأوجبتم على أنفسكم بذلك، وعلى هذا يقال: فرض له في العطاء، وبهذا النظر، ومن هذا الغرض قيل للعطية: فرض، وللدين: فرض، قال تعالى: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٩٧] أي: من عيّن على نفسه إقامة الحجِّ، وإضافة فرض الحجِّ إلى الإنسان دلالة على أنه غير^(١) مُعيّن الوقت^(٢).

وقال الإمام: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾: فرضنا ما بيّنَ فيها، وإنا قال ذلك؛ لأن أكثر ما في هذه السورة من باب الأحكام والحدود^(٣).

وقلت: فقوله: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ بمنزلة براءة الاستهلال؛ لأنَّ قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا...﴾ إلى آخر السورة من الأحكام كالتفصيل، ونحوه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] على ما سبق بيّانه.

قوله: (والتشديد للمبالغة)، أي: من شدّد ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وهو ابن كثير وأبو عمرو، فللمبالغة في الإيجاب^(٤).

(١) في «مفردات القرآن»: «هو»، ولعل الصواب ما أثبتناه، وهو كذلك في نسخة خطية من «المفردات» كما أشار إليه محققه.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٣٠.

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٢: ١٢٩).

(٤) انظر توجيه ذلك في «حجّة القراءات» ص ٤٩٤.

﴿نَذْكُرُونَ﴾ بتشديد الذال وتخفيفها. رفعها على الابتداء، والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه، على معنى: فيما فرض عليكم.

[﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهَادَةُ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٢]

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ أي: جلدتهما. ويجوز أن يكون الخبر: ﴿فَاجْلِدُوا﴾، وإنما دخلت الفاء؛ لكون الألف واللام بمعنى «الذي»، وتضمنيه معنى الشرط، تقديره: التي زنت، والذي زنى فاجلدهما، كما تقول: من زنى فاجلده، وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ﴾ [النور: ٤]. وقرئ بالنصب على إضمار فعل

قوله: ﴿نَذْكُرُونَ﴾ بتشديد الذال وتخفيفها، بالتخفيف: حفص وحزرة والكسائي، والباقون: بالتشديد^(١).

قوله: ﴿وَقُرِئَ بِالنُّصْبِ﴾، قال ابن جني: وهي قراءة عيسى الثقفي، وهو منصوب بمضمر، أي: اجلدوا الزانية، وتفسيره: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ وجاز دخول الفاء؛ لأنه في موضع أمر، ومأل معناه إلى الشرط، ولا يجوز: زيداً فصرته؛ لأنه خبر^(٢).

وقال الزجاج: وزعم الخليل وسيبويه أن النصب المختار، وزعم غيرهما من البصريين والكوفيين أن المختار الرفع، وكذا عندي؛ لأن الرفع كالإجماع في القراءة، وهو أقوى في العربية، لأن معناه: من زنى فاجلده، على الابتداء، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَتَادُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦]، وإنما اختار الخليل وسيبويه النصب؛ لأنه أمر، والأمر بالفعل أولى^(٣). وقد مر فيه الكلام مستقصى في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

(١) انظر «حجة القراءات» ص ٢٧٩ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [الاعراف: ٣].

(٢) «المحتسب» (٢: ١٠٠) بتصرف ملحوظ. وانظر: «البحر المحيط» (٨: ٧).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٨-٢٩).

يُفسِّره الظاهر، وهو أحسن من (سورة أنزلناها)؛ لأجل الأمر. وقُرى: (والزان) بلا ياء. والجلد: صرْبُ الجلد، يقال: جلدته، كقولك: ظهره وبطنه ورأسه. فإن قلت: أهذا حكم جميع الزنية والزواني، أم حكم بعضهم؟ قلت: بل هو حكم من ليس بمُحصنٍ منهم، فإن المُحصنَ حكمه الرجم. وشرائط الإحصان عند أبي حنيفة ست: الإسلام، والحُرِّيَّة، والعقل، والبُلُوغ، والتزوُّج بنكاحٍ صحيح، والدُخول، إذا فُقدت واحدةٌ منها فلا إحصان.

وعند الشافعي: الإسلام ليس بشرط؛ لما روي: أن النبي ﷺ رجم يهوديين. وحُجَّةُ أبي حنيفة: قوله ﷺ: «مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَلَيْسَ بِمُحْصَنٍ». فإن قلت: اللفظ يقتضي تعليق الحكم بجميع الزنية والزواني؛ لأنَّ قوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ عامٌّ في الجميع، يتناول

قوله: (وشرائط الإحصان)، عن بعضهم: أحصن الرجل: تزوج فهو مُحصنٌ، وهو أحد ما جاء على «أفعل» فهو «مُفعل». وأحصنت المرأة: عقت، وحصنتها زوجها، فهي مُحصنةٌ ومُحصنة، قال ثعلب: كل امرأة عفيفة مُحصنةٌ ومُحصنةٌ، وكل امرأة متزوجة مُحصنةٌ بالفتح لا غير.

قوله: (رجم يهوديين)، الحديث مشهورٌ مخرَّجٌ في «الصحيحين»^(١).

قال القاضي: لا يُعارضه «مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ فَلَيْسَ بِمُحْصَنٍ»^(٢)، إذ المراد المُحصن: الذي يُقتصُّ له من المسلم^(٣).

قوله: (اللفظ يقتضي تعليق الحكم بجميع الزنية والزواني)، أي: اللفظ عامٌّ، كيف يذهب على أنه حكم من ليس بمُحصنٍ؟ وتوجيهُ الجواب: آتَا لَا نُسَلِّمُ أَنَّهُ عَامٌّ، بل هو

(١) أخرجه البخاري (١٣٢٩) ومسلم (١٦٩٩) وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
 (٢) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣: ١٤٧) وإسحاق بن راهويه في «المسند». قال الدارقطني: لم يرفعه غير إسحاق، ويقال: إنَّه رجع عنه، والصواب موقوف.
 (٣) «أنوار التنزيل» (٤: ١٧٣).

المُحَصَّنَ وَغَيْرَ الْمُحَصَّنِ. قلت: الزانية والزاني يدلّان على الجنسين المنافيين لجنسي العفيف والعفيفة دلالة مُطلقة، والجنسية قائمة في الكلّ والبعض جميعاً، فأبيها قَصَدَ المتكلمُ فلا عليه، كما يفعلُ بالاسم المشترك. وقُرى: (ولا يأخذكم) بالياء، و(رأفة) بفتح الهمزة، و(رأفة) على: فعالة. والمعنى: أنّ الواجب على المؤمنين أن يتصلّبوا في دين الله ويستعملوا الجدّ والمثانة فيه، ولا يأخذهم اللين والهوادة في استيفاء حدوده، وكفى برسول الله ﷺ أسوة في ذلك؛ حيث قال:

مُطَلَّقٌ؛ فَإِنَّ لَامَ الْجِنْسِ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى مَفْهُومٍ دَلَّ دِلَالَةً مُطْلَقَةً شَائِعَةً فِي جِنْسِهِ، فَيَصِحُّ حَمْلُهُ عَلَى الْبَعْضِ وَعَلَى الْكُلِّ، فَإِذَا انْتَهَضْتَ قَرِينَةً تَعَيَّنَ الْمُرَادُ مِنْهَا كَاللَّفْظِ الْمَشْتَرَكِ؛ فَإِنَّ إِرَادَةَ أَحَدٍ مَفْهُومِيهِ إِنَّمَا تَتَعَيَّنُ عِنْدَ قِيَامِ الْقَرِينَةِ، وَقَرِينَةُ تَقْيِيدِ هَذَا الْمَطْلُوقِ آيَةُ الرَّجْمِ، وَهِيَ: «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنِيَا فَارْجُوهما»^(١) إِلَى آخِرِهَا، وَفِيهِ بَحْثٌ؛ لِأَنَّهُ لَا مَانِعَ عِنْدَهُمْ أَنْ تَجْرِيَ الْآيَةُ عَلَى الْعَامِّ الْمُحْصَصِ عَلَى مَا سَبَقَ فِي الْبَقْرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾^(٢) [البقرة: ٢٢٨]، وَرُويَ عَنِ الْمُصَنِّفِ أَنَّهُ قَالَ: الْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي الصِّفَاتِ عِنْدَ الْمَازِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ كَالْمَبْرُودِ وَغَيْرِهِ بِمَنْزِلَتَيْهِمَا فِي الْأَسْمَاءِ لِلتَّعْرِيفِ، وَعِنْدَ سَبِيوهِ هُمَا بِمَعْنَى: الَّذِي، وَالصِّفَةُ بِمَعْنَى الْفِعْلِ^(٣).

قوله: «(رأفة) بفتح الهمزة»، ابن كثير، والباقون: بإسكانها^(٤). و«رأفة» على: فعالة^(٥) شاذة^(٦). قال الزجاج: و«رأفة» مثل السامة والكابة، وفعالة من أسماء المصادر^(٧).

قوله: (والهوادة)، الجوهري: هي الصلح والميل. وقيل: الهوادة: أن لا يجيد في الأمر.

(١) سبق تخريجه.

(٢) من قوله: «وفيه بحث» إلى هنا سقط من (ط).

(٣) انظر: «المفصل» بشرح ابن الحاجب (١: ٤٨١).

(٤) وقراءة التسكين على الأصل. انظر: «حجة القراءات» ص ٤٩٥.

(٥) قوله: «على فعالة» سقط من (ح) و(ف).

(٦) وقد قرأها ابن جريج. انظر: «مختصر في شواذ القرآن» ص ١٠٠.

(٧) «معاني القرآن وإعراجه» (٤: ٢٨).

«لو سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا». وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ مِنْ بَابِ التَّهْيِيجِ وَإِلْهَابِ الْغَضَبِ لِلَّهِ وَلِدِينِهِ. وقيل: لَا تَتَرَحَّمُوا عَلَيْهَا حَتَّى تُعْطَلُوا الْخُدُودَ، أَوْ حَتَّى لَا تُوجِعُوهُمَا صَرْبًا. وفي الحديث: «يُؤْتَى بِوَالٍ نَقَصَ مِنَ الْخُدِّ سَوَاطِئًا، فيقول: رَحْمَةٌ لِعِبَادِكَ، فيقالُ لَهُ: أَنْتَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنِّي! فيؤمَّرُ بِهِ إِلَى النَّارِ. وَيُؤْتَى بِمَنْ زَادَ سَوَاطِئًا، فيقول: لِيَنْتَهُوا عَنِّ مَعْصِيكَ. فيؤمَّرُ بِهِ إِلَى النَّارِ»، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ: إِقَامَةُ حَدِّ بَارِضٍ خَيْرٌ لِأَهْلِهَا مِنْ مَطَرٍ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً. وَعَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَنْصِبَ لِلْخُدُودِ رَجُلًا

قوله: (لو سَرَقَتْ فَاطِمَةُ)، رَوَيْنَا عَنْ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: إِنَّ قُرَيْشًا أَهْمَتَهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَكَلَّمَهُ أَسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ خُدُودِ اللَّهِ؟ إِلَى قَوْلِهِ: وَابْنُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا^(١).

قوله: (وقيل: لَا تَتَرَحَّمُوا عَلَيْهَا)، هَذَا تَفْسِيرٌ آخَرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ وَالْفَرْقُ أَنَّ عَلَى الْأَوَّلِ تَحْرِيطَ عَلَى إِقَامَةِ الْحَدِّ نَفْسِهِ، وَالثَّانِي عَلَى إِقَامَتِهِ مَعَ الْإِجْمَاعِ فِيهِ، يَدُلُّ عَلَى الْأَوَّلِ قَوْلُهُ: «وَلَا يَأْخُذْكُمْ اللَّيْنُ فِي اسْتِيفَاءِ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى»، وَعَلَى الثَّانِي: قَوْلُهُ: «أَوْ حَتَّى لَا تُوجِعُوهُمَا صَرْبًا».

قوله: (إقامة حدُّ بارض)، عَنْ ابْنِ مَاجَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِقَامَةُ حَدِّ مَنْ حُدُودِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ مَطَرٍ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً فِي بِلَادِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٢).

وعن ابن ماجه والنسائي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «حدُّ يعملُ به في الأرضِ خيرٌ لأهلِ الأرضِ من أن يُمطروا أربعينَ صباحًا»^(٣)، وفي رواية النسائي: «ثلاثين صباحًا».

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥) ومسلم (١٦٨٨) والترمذي (١٤٣٠) وأبو داود (٤٣٧٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥٣٧) بإسنادٍ ضعيفٍ جدًا، وأفته سعيد بن سنان الحنفي متروك الحديث.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٩٢١٥) والنسائي (٦٨: ٨) وابن ماجه (٢٥٣٨). ولتمام الفائدة

انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» للحافظ الزبيعي (٤١٥: ٢).

عالمًا بصيرًا يَعْقِلُ كَيْفَ يَضْرِبُ. وَالرَّجُلُ يُجْلَدُ قَائِمًا عَلَى مُجْرَدِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا إِزَارُهُ؛ ضَرْبًا وَسَطًا لَا مُبْرَحًا وَلَا هَيْئًا، مُفْرَقًا عَلَى الْأَعْضَاءِ كُلِّهَا، لَا يُسْتَنَى مِنْهَا إِلَّا ثَلَاثًا: الوجه، والرأس، والفرج. وفي لفظ الجلد: إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتجاوزَ الأُمُّ إلى اللحم. والمرأة تُجْلَدُ قَاعِدَةً، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ ثِيَابِهَا إِلَّا الْحَشْوُ وَالْفَرْوُ، وَبِهَذِهِ الْآيَةِ اسْتَشْهَدَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى أَنَّ الْجِلْدَ حَدُّ غَيْرِ الْمُحْصَنِ بِلَا تَغْرِيْبٍ. وَمَا احْتَجَّ بِهِ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى وَجوبِ التَّغْرِيْبِ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِثَّةٌ وَتَغْرِيْبٌ عَامٌ»، وَمَا يُرَوَى عَنِ الصَّحَابَةِ: أَنَّهُمْ جَلَّدُوا وَتَفَوَّأُوا؛ مَنْسُوخٌ عِنْدَهُ وَعِنْدَ أَصْحَابِهِ بِالْآيَةِ،

قَوْلُهُ: (عَلَى مُجْرَدِهِ)، أَي: ظَاهِرُ بَشَرَتِهِ عَارِيًّا. الْجَوْهَرِيُّ: يُقَالُ: فَلَانٌ حَسَنُ الْجُرْدَةِ وَالْمُجْرَدُ، كَقَوْلِكَ: حَسَنُ الْعُرْيَةِ وَالْمُعْرَى، وَهَمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

قَوْلُهُ: (لَا مُبْرَحًا)، النَّهْيُ: ضَرْبٌ غَيْرُ مُبْرَحٍ: غَيْرُ شَاقٍ.

قَوْلُهُ: (وَفِي لَفْظِ الْجِلْدِ: إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَجَاوَزَ الْأُمُّ إِلَى اللَّحْمِ)، وَهُوَ الْمَعْنَى بِالْإِدْمَاجِ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْبَيَانِ، وَإِشَارَةٌ إِلَى النَّصِّ فِي الْأَصُولِ.

قَوْلُهُ: (الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِثَّةٌ)، عَنْ مُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ هُنَّ سَبِيلًا: الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِثَّةٌ وَتَفْوِي سَنَةً، وَالتَّيْبُ بِالتَّيْبِ جَلْدٌ مِثَّةٌ وَرَجْمٌ»^(١). هَذِهِ رِوَايَةٌ مُسْلِمٌ، وَالْمَعْنَى: زِنَى الْبِكْرِ بِالْبِكْرِ حَدُّهُ جَلْدٌ مِثَّةٌ، أَوْ: حَدُّ زِنَى الْبِكْرِ بِالْبِكْرِ جَلْدٌ مِثَّةٌ.

وَفِي قَوْلِهِ: «وَمَا يُرَوَى عَنِ الصَّحَابَةِ: أَنَّهُمْ جَلَّدُوا وَتَفَوَّأُوا؛ مَنْسُوخٌ»، بَحْثٌ؛ لِأَنَّ إِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ مُتَأَخَّرٌ عَنِ نَزْوْلِ الْآيَةِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَنْسُوخًا بِهَا؟ وَفِي هَذَا الْإِجْمَاعِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ غَيْرُ نَاسِخَةٍ لِلسَّنَةِ، وَهَذِهِ الزِّيَادَةُ لَيْسَتْ بِنَاسِخَةٍ لِلْآيَةِ عِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ خِلَافًا لِلْحَنَفِيَّةِ^(٢). وَرَوَيْنَا عَنِ التِّرْمِذِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضَرَبَ وَعَرَّبَ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ ضَرَبَ وَعَرَّبَ، وَإِنَّ عُمَرَ ضَرَبَ وَعَرَّبَ^(٣).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٦٩٠) وَالتِّرْمِذِيُّ (١٣٣٤) وَأَبُو دَاوُدَ (٤٤١٥).

(٢) انظُرْ بَسْطَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي «أَصُولِ السَّرْحِيِّ» (٢: ٦٥) «فَصْلٌ فِي بَيَانِ النَّاسِخِ».

(٣) «سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (١٤٣٨) وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (٧٣٠٢) وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ (٢٢٣: ٨).

أو محمولٌ على وجه التعزير والتأديب من غير وجوب. وقول الشافعي في تغريب الحرِّ واحد، وله في العبد ثلاثة أقاويل: يُعزَّب سنة كالحُرِّ، ويُعزَّب نصف سنة كما يُجلد خمسين جلدة، ولا يُعزَّب، كما قال أبو حنيفة.

وبهذه الآية تُسخ الحبس والأذى في قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء: ١٥]، وقوله: ﴿فَقَادُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦]. قيل: تسميته عذاباً دليل على أنه عقوبة. ويجوز أن يُسمَى عذاباً؛ لأنه يمنع من المعاودة، كما سُمي نكالاً.

الطائفة: الفرقة التي يُمكن أن تكون حلقة، وأقلها ثلاثة أو أربعة، وهي صفة غالبية كائنها الجماعة الحاققة حول الشيء. وعن ابن عباس في تفسيرها: أربعة إلى أربعين

قوله: (أو محمولٌ على وجه التعزير والتأديب لا على الوجوب^(١))، بناء على أن الزيادة على النصِّ نسخ، وأنه لا يُنسخ الكتاب بخير الواحد. قال القاضي: ليس في الآية ما يدفع حديث التغريب ليُنسخ أحدهما بالآخر^(٢).

قوله: (أن يُسمَى عذاباً؛ لأنه يمنع من المعاودة)، الأساس: يقال: أعذب عن الشيء واستعذب: إذا امتنع، ويقال: أعذبوا عن الآمال أشد الإعذاب، فإن الآمال تورث العفلة، وتعبُّ الحسرة.

قوله: (الجماعة الحاققة)، الراغب: الطائفة من الناس: جماعة منهم، ومن الشيء: القطعة منه، قال بعضهم: قد يقع على واحد فصاعداً، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]، والطائفة إذا أُريد بها الجمع: فجمع طائف، وإذا أُريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعاً وكنتي به عن الواحد، ويصح أن يجعل كراوية وعلامة^(٣). والخلود بالنار يؤذن بوضع الحديث.

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «من غير وجوب».

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ١٧٢).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٥٣١.

رَجُلًا مِنَ الْمَصْدُقِينَ بِاللَّهِ. وَعَنِ الْحَسَنِ: عَشْرَةٌ. وَعَنِ قَتَادَةَ: ثَلَاثَةٌ فَصَاعِدًا. وَعَنِ عِكْرَمَةَ: رَجُلَانِ فَصَاعِدًا. وَعَنِ مَجَاهِدٍ: الْوَاحِدُ فَمَا فَوْقَهُ. وَفُضِّلَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ لِأَنَّ الْأَرْبَعَةَ هِيَ الْجَمَاعَةُ الَّتِي يَثْبُتُ بِهَا هَذَا الْحَدِّ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْكَبِيرَةَ مِنْ أُمَّهَاتِ الْكِبَائِرِ؛ وَلِهَذَا قَرَّبَهَا اللَّهُ بِالشَّرْكِ وَقَتْلِ النَّفْسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ النَّاسِ، اتَّقُوا الزَّيْنَةَ فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ، ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا، وَثَلَاثٌ فِي الْآخِرَةِ: فَأَمَّا اللَّاتِي فِي الدُّنْيَا: فَيُذْهِبُ الْبَهَاءَ، وَيُورِثُ الْفَقْرَ، وَيُنْقِصُ الْعُمَرَ، وَأَمَّا اللَّاتِي فِي الْآخِرَةِ: فَيُوجِبُ السَّخَطَةَ، وَسُوءَ الْحِسَابِ، وَالخُلُودَ فِي النَّارِ»؛ وَلِذَلِكَ وَقَى اللَّهُ فِيهِ عَقْدَ الْمِثَّةِ بِكَمَالِهِ، بِخِلَافِ حَدِّ الْقَذْفِ وَشُرْبِ الخَمْرِ، وَشَرَعَ فِيهِ الْقِتْلَةَ الْهَوْلَةَ؛ وَهِيَ الرَّجْمُ، وَنَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الرَّافَةِ عَلَى الْمَجْلُودِ فِيهِ، وَأَمَرَ بِشَهَادَةِ الطَّائِفَةِ لِلتَّشْهِيرِ؛ فَوَجِبَ أَنْ تَكُونَ طَائِفَةٌ يَحْصُلُ بِهَا التَّشْهِيرُ، وَالوَاحِدُ وَالِاثْنَانِ لَيْسُوا بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ، وَاخْتِصَاصُهُ الْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَفْضَحُ، وَالْفَاسِقُ بَيْنَ صَلَاحِهِ قَوْمَهُ أَحْجَلُ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: إِلَى أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنَ الْمَصْدُقِينَ بِاللَّهِ.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣]

الْفَاسِقُ الْخَبِيثُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ الزَّيْنَةُ وَالتَّقَحُّبُ، لَا يَرِغِبُ فِي نِكَاحِ الصَّوَالِحِ

قَوْلُهُ: (الْهَوْلَةُ)، عَنْ بَعْضِهِمْ: إِدْخَالُ التَّاءِ فِي الْهَوْلَةِ عَلَى تَأْوِيلِ الْوَصْفِيَّةِ كَقَوْلِهِمْ: الْجَبَّةُ الْحَتْفَةُ، وَالْمَرَأَةُ الْكَلْبِيَّةُ، عَلَى تَأْوِيلِ الْمَهَائِلَةِ وَالْقَائِلَةِ وَالسَّلِيلَةِ.

قَوْلُهُ: (الزَّيْنَةُ وَالتَّقَحُّبُ)، الرَّاعِبُ: الزَّيْنَةُ: وَطءُ الْمَرَأَةِ مِنْ غَيْرِ عَقْدِ شَرْعِيٍّ. وَيُنْقَصِرُ، وَإِذَا مَدَّ يَصْحُحُ أَنْ يَكُونَ مُصَدَّرَ الْمُفَاعَلَةِ^(١). وَزَنًا فِي الْجَبَلِ زَنًا وَزَنُوًا، وَالزَّانَاءُ: الْحَاقِنُ بَوْلَهُ،

(١) «مفردات القرآن»، ص ٣٨٤.

من النساء واللاتي على خلافِ صِفَتِهِ، وإنما يرغبُ في فاسقةٍ خبيثةٍ من سَكَلِهِ، أو في مُشركةٍ، والفاسقةُ الخبيثةُ المُسافحةُ كذلك لا يرغبُ في نِكَاحِها الصُّلحاء من الرِّجال، وَيَنْفِرُونَ عنها، وإنما يرغبُ فيها مَنْ هو من سَكَلِها من الفَسَقَةِ والمُشركين. ونِكَاحُ المؤمنِ المدوحِ عند اللّهِ الزانيةِ ورَغْبَتُهُ فيها وانخراطُهُ فيها^(١) في سلكِ الفَسَقَةِ

ونهي الرّجل أن يُصَلِّي وهو زَناء^(٢). وقيل: الزّنى: سَفْحُ الماءِ في محلِّ مُحَرَّم، يُمدُّ ويُقصر، والقَصْرُ لغةُ الحجاز، والمدُّ لغةُ نَجْد.

الأساس: يُسَمِّي أهلَ اليَمَنِ المرأةَ القَحْبَةَ، ويقولون: لا تَتَّقِ بقولِ القَحْبَةِ، ولا تَغْتَرَّ بطُولِ الصُّحْبَةِ. وقاحَبَتِ المرأةُ: وقحَبَتِ وتَقَحَّبَتِ.

قوله: (ونِكَاحُ المؤمنِ)، إلى آخِرِهِ، هو معنى قوله: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو عطفٌ على قوله: «الفاسق الخبيث» إلى آخِرِهِ. اعلمَ أن قوله تعالى: ﴿الزَّانِ لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ يصحُّ أن يُحمَلَ على الخَيْرِ المُحْضِ، وعلى معنى النّهي، كما نصَّ عليه في آخِرِ كلامِهِ، فإذا حُمِلَ على الخَبَرِ يكونُ معنى الحُرْمَةِ في قوله تعالى: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) التنزيه، ويُسمَّى حرامًا للتغليظِ والتشديد، وإليه الإشارةُ بقوله: «لِما فيه من التشبُّه بالفَساق»، والمعنى: أن من شأنِ الفاسقِ الخبيثِ وعادتهِ ذلك، فعلى المؤمنِ أن لا يُدخِلَ نفسَهُ تحتَ هذه العادة، ويتصوَّنَ عنها كما ذكَّرَهُ، فعلى هذا: الظاهرُ أن قوله: «وقد أجازَهُ ابنُ عباسٍ رضي اللهُ تعالى عنهما»، وقوله: «أنهُ سُئِلَ عن ذلك؛ فقال: أوْلُهُ سِفاحٌ وآخِرُهُ نِكَاحٌ»^(٤) مَبْنِيٌّ على هذا الوجه، والآيةُ غيرُ منسوخة. وإذا حُمِلَ على النّهي فيكونُ قوله تعالى: ﴿وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على ظاهرِهِ مؤكِّدًا لمعنى النّهي، ويكونُ قوله: «وقيل: كان بالمدينةِ مومِراتٌ من بَغايا المُشركين» إلى آخِرِهِ، وقولُ عائشةَ رضي اللهُ تعالى عنها: «إنَّ الرّجلَ إذا زَنَى

(١) كذا في الأصل: «وانخراطه فيها».

(٢) من قوله: «وزَنًا في الجبل» إلى هنا، أثبتَه من (ط)، وسقط من (ح) و(ف).

(٣) من قوله: «وهو عطف» إلى هنا، سقط من (ط).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنّف» (١٧٠٤٦) وعبد الرزاق في «المصنّف» (١٢٧٨٥).

الْمُتَّسِمِينَ بِالزَّنَى: محرمٌ عليه محظور؛ لما فيه من التشبُّه بالفُسَّاق، وحضور موقع التُّهْمَة، والتسبُّب لسوءِ القالَةِ فيه والغيبَة، وأنواعِ المفاسد، ومجالسة الخطَّائين كم فيها من التعرُّضِ لاقتِرافِ الآثام، فكيف بمُزوجةِ الزَّواني والقحاب؟! وقد نبّه على ذلك بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]. وقيل: كانَ بالمدينةِ مُوسراتٍ من بَغايا المشركين، فرَغِبَ فقراءُ المهاجرين في نكاحهنَّ،

بامرأة، ليس له أن يتزوَّجها» مَبَيَّنِينَ^(١) على هذا، والآيةُ منسُوخة. قال القاضي: وإنَّها حُرِّمَ ذلك على المؤمنين^(٢)؛ لأنه تشبیهٌ بالفُسَّاق، ولذلك عَبَّرَ عن التنزيه بالتحريمِ مُبالغةً، وقيل: النفيُّ بمعنى النّهي، وقد قُرئَ به، والحُرْمَةُ على ظاهرها، والحكمُ مخصُوصٌ بالسبب الذي وَرَدَ فيه^(٣)، وهو نكاحُ الموسراتِ من بَغايا المشركين، أو منسُوخٌ بقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنكُمُ﴾ [النور: ٣٢] فإنه يتناولُ المُسافِحات.

قوله: (لسوءِ القالَةِ فيه)، الراغب: القالَةُ: كلُّ قولٍ فيه طَعْنٌ وغمِيزَةٌ^(٤) وقال: بعضهم: القالُ والقالَةُ: ما يَنْتَشِرُ مِنَ القول، قال الخليلُ: يوضَعُ القالُ موضعَ القائل، فيقالُ: أنا قالُ كذا، أي: قائلُهُ^(٥).

قوله: (وقد نبّه على ذلك بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ﴾)، يعني: إذا كان الصّالحونَ من الأرقاءِ والمماليكِ موصىً في حقِّهم التزوُّجُ بسببِ الصّلاح، فالخراثرُ أولى بالتوصيةِ أن يَحْتَرِزْنَ عن نكاحِ الفاسقين، والأحرارُ عن الفواسق؛ لأنَّ السببَ في شُرعيّةِ النكاحِ التحصُّنُ في الدِّين، وحفظُ الصّلاح، والتكاثُرُ مِنَ الصّلحاء، فعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] تأكيدٌ للآيةِ وموافقَةٌ لها، ولهذا كانتِ الآيةُ على هذا الوجهِ غيرَ منسُوخة.

(١) في الأصول الخطية: «مبينان» وصوابه بالنصب خبر «يكون».

(٢) من قوله: «على ظاهره مؤكداً لمعنى النهي» إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ١٧٤).

(٤) قوله: القالَةُ: كلُّ قولٍ فيه طَعْنٌ وغمِيزَةٌ ليس موجوداً في «مفردات القرآن».

(٥) «مفردات القرآن» ص ٦٨٩.

فاستأذنتوا رسول الله ﷺ؛ فنزلت. وعن عائشة رضي الله عنها: أن الرجل إذا زنى بامرأة: ليس له أن يتزوجها؛ لهذه الآية، وإذا باشرها كان زانياً. وقد أجازته ابن عباسٍ وشبّهه بمن سرق ثم شجرة ثم اشتراه.

وعن النبي ﷺ: أنه سُئل عن ذلك، فقال: «أولُه سَفَاحٌ وآخِرُه نِكَاحٌ، والحرامُ لا يُحرّمُ الحلالُ»، وقيل: المرادُ بالنِكَاحِ الوَطءُ. وليس بقولٍ؛ لأمرين: أحدهما: أن هذه الكلمةُ أينما وردت في القرآن لم تردْ إلا في معنى العَقْدِ. والثاني: فسأدُ المعنى وأداؤه إلى قولك: الزاني لا يزني إلا بزانية، والزانية لا يزني بها إلا زان. وقيل: كان نِكَاحُ الزانية

قولُه: (سَفَاحٌ)، النّهاية: السَّفَاحُ: الزّنى، مأخوذٌ من سفحتُ الماء: إذا صببته، وأراد به أن المرأة تُسافِحُ رجلاً مدةً ثم يتزوجها، وهو مكروهٌ عند بعض الصحابة، وعن بعضهم: المرأة مُسافِحٌ بها ومُسفوحٌ فيها، فتسميتها مُسافِحَةً مجازاً، كالزّانية من: زناْتُ الجبلَ، إذا علوتُ.

الانتصاف: كرهه مالكٌ نِكَاحَ المشهورين بالفاحشة، ونقل بعض أصحابه إجماع المذاهب أن للمرأة أو لوليها فسَخَ نِكَاحَ الفاسق^(١).

قولُه: (أن هذه الكلمةُ أينما وردت في القرآن لم تردْ إلا في معنى العَقْدِ)، قال الزجاج: لا يُعرف شيءٌ من ذكر النِكَاحِ في كتاب الله إلا على معنى التّزويج، قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النور: ٣٢]، ﴿إِذَا نَكَحَتِ الْمُؤْمِنَاتُ نُرُطَلَقْنَ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]^(٢).

قولُه: (وأداؤه إلى قولك: الزّاني لا يزني إلا بزانية)، قال صاحبُ «التقريب»: وليس فسادهُ لأنه بيانٌ للواضحات، بل لأنه غيرُ مُسلم، إذ قد يزني الزّاني بغيرِ الزّانية لعلم أحدهما بالزّنى، والآخرُ جاهلٌ به، يظنُّ الجِلَّ، وقال القاضي: لأنه يؤوّلُ المعنى إلى نهي الزّاني عن الزّنى إلا بزّانية، والزّانية أن يزني بها إلا زان وهو فاسد^(٣).

(١) «الانتصاف بحاشية الكشف» (٣: ٢١٢).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٢٩).

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ١٧٤).

محرماً في أول الإسلام، ثم نُسِخ، والناسخُ قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَانَ مِنكُمُ﴾ [النور: ٣٢].
وقيل: الإجماع، ورُوي ذلك عن سعيد بن المسيّب. فإن قلت: أي فرق بين معنى
الجملة الأولى ومعنى الثانية؟ قلت: معنى الأولى: صفة الزاني بكونه غير راغب في

قوله: (وقيل: الإجماع)، أي: الناسخُ الإجماع، وعن بعضهم: فيه نظر؛ لأنّ النسخ لا
يجوزُ إلا زمانَ ورودِ النصِّ، وإذا وافقَ النبي ﷺ أهلُ الاجتهادِ في حكم كان ذلك نصّاً لا
إجماعاً^(١).

قوله: (أيُ فَرَّقَ بَيْنَ مَعْنَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى وَمَعْنَى الثَّانِيَةِ؟)، يعني معنى قوله: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا
يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ﴾ يعودُ إلى قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾؛ لأنّ إسنَادَ النِّكَاحِ فِي الْجُمْلَتَيْنِ إِلَى
الزَّانِي. وَأَجَابَ بِأَنَّ الْمُسْتَدَّ إِلَيْهِ هُوَ الَّذِي يَسْتَدْعِي أَنْ يُحْكَمَ عَلَيْهِ، فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ الْمَوْصُوفُ،
وَالخَبْرُ كَالصِّفَةِ تَابِعٌ لَهُ، وَمِنْ ثَمَّ سَمِيَ ابْنُ جَنِّي الْمُبْتَدَأُ رَبَّ الْجُمْلَةِ، فَيَرْجِعُ مَعْنَى الْجُمْلَةِ
الْأُولَى إِلَى أَنَّ الزَّانِي هُوَ الَّذِي يَجْتَهِدُ فِي تَحْصِيلِ الْفَاجِرَةِ، وَيَرْغَبُ عَنِ نِكَاحِ الْعَفَافِ، وَمَعْنَى
الثَّانِيَةِ إِلَى أَنَّ الزَّانِيَةَ حُكْمُهَا أَنْ لَا يَرْغَبَ فِيهَا إِلَّا عَقَابُ^(٢) الزَّانِيَةِ، فَيَكُونُ الدَّمُّ رَاجِعاً إِلَيْهَا
بِالْأَصَالَةِ، كَمَا رَجَعَ إِلَى الزَّانِي فِي الْأُولَى بِالْأَصَالَةِ، وَإِنْ اسْتَبْعَ كُلُّ مِنْهَا ذَمَّ الْآخَرَ، وَلَوْ لَمْ
يَذْكَرِ الثَّانِيَةَ لَمْ يُعْلَمَ ذَلِكَ.

الانتصاف: ليس ما ذكره الزمخشريُّ موضّحاً لتطابقِ الجُمْلَتَيْنِ، وإيضاحه: أنّ الأقسامَ
أربعة: الزَّانِي لَا يَرْغَبُ إِلَّا فِي زَانِيَةٍ، وَالزَّانِيَةُ لَا تَرْغَبُ إِلَّا فِي زَانٍ، وَالْعَفِيفُ لَا يَرْغَبُ إِلَّا فِي
عَفِيفَةٍ، وَالْعَفِيفَةُ لَا تَرْغَبُ إِلَّا فِي عَفِيفٍ، فَذَكَرَ مِنْهَا قِسْمَانِ دَالِّانِ عَلَى الْقِسْمَيْنِ الْمَسْكُوتِ
عَنْهُمَا، فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ دَالٌّ عَلَى قَرِينِهِ، وَهُوَ انْحِصَارُ رَغْبَةِ الْعَفِيفِ فِي الْعَفِيفَةِ. وَالْقِسْمُ الثَّانِي:
يُنْفَكُ عَنْهُ الرَّابِعُ وَهُوَ انْحِصَارُ رَغْبَةِ الْعَفِيفَةِ فِي الْعَفِيفِ، وَعَبَّرَ عَنِ الزَّانِيَةِ بِمَا لَا يَنْفَكُ عَنِ
الزَّانِي، فَذَكَرَ الْأَعْفَاءَ بِسَلْبِ نِقَائِصِهِمْ، وَأَسَدَّ النِّكَاحَ فِي الْقِسْمَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ إِلَى الذُّكُورِ،
بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ جَعَلَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا زَانِيًا، وَقَدَّمَ الزَّانِيَةَ فِي الْكَلَامِ

(١) لتيام الفائدة انظر: «اللمع في أصول الفقه» لأبي إسحاق الشيرازي، ص ١٢٩.

(٢) جمع عُقْبُول، وهو البقية من الشيء.

العَفَافُ، ولكنْ في الفَوَاجِرِ. ومعنى الثانية: صِفةُ الزانيةِ بكونها غيرَ مرغوبٍ فيها للأَعْفَاءِ، ولكن للزُّنَاةِ، وهما مَعْنِيَانِ مُخْتَلِفَانِ. فإن قلت: كيف قُدِّمَتِ الزانيةُ على الزانيِ أَوَّلًا، ثم قُدِّمَ عليها ثانيًا؟ قلت: سِيقَتْ تلك الآيةُ لِعُقُوبَتِهَا على ما جَنِيَا، والمرأةُ هي المادَّةُ التي منها نَشَأَتِ الجَنَايَةُ؛ لأنها لو لم تُطْمَعِ الرَّجُلُ، ولم تُومَضْ له، ولم تُمَكَّنْه لم يَطْمَعْ، ولم يتمكَّنْ، فلمَّا كانت أصلاً وأوَّلًا في ذلك: بُدئَ بِذِكْرِهَا. وأمَّا الثانيةُ فَمَسْوُوقَةٌ لِذِكْرِ النِّكَاحِ، والرَّجُلُ أصْلٌ فيه؛ لأنه هو الرَّاعِبُ وَالخَاطِبُ، ومنه يبدأ الطَّلَبُ. وعن عمرو بن عبِيدٍ: (لا يَنْكِحُ) بِالْجَزْمِ على النهي. والمرفوعُ أيضاً فيه معنى النهي، ولكن أبلغُ وأكَدُ، كما أنَّ «رَحِمَكَ اللهُ» و«يَرَحِمُكَ»: أبلغُ من «لَيَرَحِمُكَ». ويجوزُ أن يكونَ خَبَرًا مَحْضًا، على معنى: أن عَادَتَهُمْ جاريةٌ على ذلك، وعلى المؤمنِ أن لا يُدْخِلَ نَفْسَهُ تحتَ هذه العادةِ وَيَتَصَوَّنَ عنها. وقُرئ: (وَحَرَّمَ) بفتح الحاء.

[﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ٤ - ٥]

الأوَّلُ؛ لأنَّ الأَصْلَ في الزُّنَى المرأةُ لما يَبْدُو من إِطْمَاعِهَا، والثاني في النِّكَاحِ؛ إذ المُعْتَبَرُ فيه الرَّجُلُ، وهُمُ البَادُونَ بِالْخِطْبَةِ. ولَمَّا كان الغَرَضُ تَنْفِيرَ الأَعْفَاءِ مِنَ الزُّنَى قَرَنَهُ بِالشَّرْكِ. تَمَّ كَلَامُهُ^(١). وليس بطائِلٍ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ متضمَّنٌ لمعنى القَسْمِينِ المُقَدَّرِينَ.

قولُه: (ولم تومضْ له)، الجوهري: أومضتِ المرأةُ: إذا سارقتِ النظرَ من: «ومضَّ البرقُ وميضًا»: إذا لمعَ لمعانًا خفيفًا.

قولُه: (كما أنَّ «رَحِمَكَ اللهُ» و«يَرَحِمُكَ»: أبلغُ)، وهم يَسْلُكُونَ هذه الطريقةَ للتفاوتِ، كما تهمُّ أَسْعَفُوا بِمَطْلُوبِهِمْ، فهم يُخْبِرُونَ عنه.

قولُه: (ويجوزُ أن يكونَ خَبَرًا مَحْضًا)، عطفٌ على قولِه: «والمرفوعُ أيضاً فيه معنى النهي».

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٢١٢).

الْقَذْفُ يَكُونُ بِالزَّنَى وَبِغَيْرِهِ، وَالَّذِي دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ قَدْفَهُنَّ بِالزَّنَى شَيْئَانِ؛ أَحَدُهُمَا: ذِكْرُ الْمُحْصَنَاتِ عَقِيبَ الزَّوَانِي. وَالثَّانِي: اشْتِرَاطُ أَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ؛ لِأَنَّ الْقَذْفَ بِغَيْرِ الزَّنَى يَكْفِي فِيهِ شَاهِدَانِ، وَالْقَذْفُ بِالزَّنَى: أَنْ يَقُولَ الْحُرُّ الْعَاقِلُ الْبَالِغُ الْمُحْصَنَةُ: يَا زَانِيَةً، أَوْ مُحْصَنٍ: يَا زَانِي، يَا ابْنَ الزَّانِي، يَا ابْنَ الزَّانِيَةِ، يَا وَكَدَّ الزَّنَى، لَسْتَ لِأَبِيكَ، لَسْتَ لِرِشْدَةِ. وَالْقَذْفُ بِغَيْرِ الزَّنَى أَنْ يَقُولَ: يَا آكَلَ الرَّبَا، يَا شَارِبَ الْحَمْرِ، يَا يَهُودِيَّ، يَا مَجُوسِيَّ، يَا فَاسِقَ، يَا حَيِّثَ، يَا مَاصَّ بَطْرَ أُمِّهِ؛ فَعَلِيهِ التَّعْزِيرُ، وَلَا يُبَلِّغُ بِهِ أَدْنَى حَدِّ الْعَبِيدِ؛ وَهُوَ أَرْبَعُونَ، بَلْ يَنْقُصُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو يُونُسَ: يَجُوزُ أَنْ يُبَلِّغَ بِهِ تِسْعَةٌ وَسَبْعُونَ. وَقَالَ: لِلْإِمَامِ أَنْ يُعْزَرَ إِلَى الْمِثَّةِ. وَشُرُوطُ إِحْصَانِ الْقَذْفِ خَمْسَةٌ: الْحُرِّيَّةُ، وَالْبُلُوغُ، وَالْعَقْلُ، وَالْإِسْلَامُ، وَالْعِفَّةُ.

قوله: (لَسْتَ لِرِشْدَةِ)، النِّهَايَةُ: يَقَالُ: هَذَا وَكَدَّ رِشْدَةُ: إِذَا كَانَ لِنِكَاحٍ صَحِيحٍ، كَمَا يَقَالُ فِي ضِدِّهِ: وَكَدَّ زِنِيَّةً، بِالْكَسْرِ.

قوله: (يَا يَهُودِيَّ، يَا مَجُوسِيَّ)، فِيهِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مُوجِبًا لِلتَّكْفِيرِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: فَعَلِيهِ التَّعْزِيرُ. وَفِي «الرَّوْضَةِ»: قَالَ الْمُتَوَلَّى: وَلَوْ قَالَ الْمُسْلِمُ: يَا كَافِرَ، بَلَا تَأْوِيلَ: كَفَرًا؛ لِأَنَّهُ سَمَّى الْإِسْلَامَ كُفْرًا^(١). وَفِيهَا: وَلَوْ قِيلَ لِلْمُسْلِمِ: يَا يَهُودِيَّ أَوْ: يَا مَجُوسِيَّ، فَقَالَ: لَبَيِّنِكَ: كَفَرًا^(٢).

قوله: (يَا مَاصَّ بَطْرَ أُمِّهِ)، النِّهَايَةُ: فِي الْحَدِيثِ: امْضُضْ بِبَطْرِ الْأَلَاتِ^(٣). الْبَطْرُ، بِفَتْحِ الْبَاءِ: السَّهْنَةُ الَّتِي تَقْطَعُهَا الْخَافِضَةُ مِنْ فَرْجِ الْمَرْأَةِ عِنْدَ الْخِتَانِ. وَالْعَرَبُ تُطْلِقُ هَذَا اللَّفْظَ فِي مَعْرِضِ الدَّمِّ. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: مَصِصْتُ الْمَاءَ: شَرِبْتُ مِنْهُ رَشْفًا، وَفِي الْحَدِيثِ: «مُصُّوا الْمَاءَ، وَلَا تَعْبُوا عَبًّا، فَإِنَّ الْكِبَادَ»^(٤) مِنَ الْعَبِّ. وَقَوْلُهُمُ لِلرَّجُلِ: يَا مَصَّانَ، وَلِلْمَرْأَةِ: يَا مَصَّانَةَ: شَتْمٌ.

(١) «روضة الطالبين» للنووي (٥: ٦٥).

(٢) المصدر السابق (٥: ٦٨).

(٣) هذا جزءٌ من حديثٍ طويلٍ أخرجه البخاري (٢٧٣١) من حديثِ المسورِ بنِ مخرمة.

(٤) وهو وجعُ الكبدِ.

وَقُرِي: (بأربعة شهداء) بالتنوين. و(شهداء) صفة. فإن قلت: كيف يشهدون: مُجْتَمِعِينَ أو مُتَفَرِّقِينَ؟ قلت: الواجبُ عند أبي حنيفة وأصحابه أن يَحْضُرُوا في مجلسٍ واحد، وإن جاؤوا مُتَفَرِّقِينَ: كانوا قَدْفَةً. وعند الشافعي: يجوزُ أن يَحْضُرُوا مُتَفَرِّقِينَ. فإن قلت: هل يجوزُ أن يكونَ زوجُ المقدوفةِ واحداً منهم؟ قلت: يجوزُ عند أبي حنيفة خلافاً للشافعي. فإن قلت: كيف يُجلدُ القاذِفُ؟ قلت: كما جلد الزاني، إلا أنه لا يُنزع عنه من ثيابه إلا ما يُنزعُ عن المرأة من الحشوَ والفَرُو. والقاذِفَةُ أيضاً كالزانية. وأشدُّ الضَّرْبِ: ضَرْبُ التعزير، ثم ضَرْبُ الزَّنى، ثم ضَرْبُ شُرْبِ الحَمَرِ، ثم ضَرْبُ القاذِفِ.

قوله: (وَقُرِي: «بأربعة شهداء» بالتنوين)، قال ابنُ جنِّي: هي قراءةُ عبد الله بن مسلم ابن يسارٍ وأبي زُرعة، وهذا حسنٌ في معناه، وذلك أن أسماءَ العَدَدِ مِنَ الثلاثةِ إلى العشرةِ لا تُضَافُ إلى الأوصافِ، لا يقالُ: عندي ثلاثةٌ طَرِيقِينَ^(١)، إلا إذا أُقيمتِ الصِّفَةُ مقامَ الموصوفِ، وهذا هو الوجهُ في قراءةِ الجماعةِ ﴿بأربعةً شهلاء﴾ بالإضافة، فإنهم استعملوا الشهداء استعمالَ الأسماء^(٢).

قوله: (وأشدُّ الضَّرْبِ: ضَرْبُ التعزير)، التَّهْيَاةُ: وأصلُ التعزير: المنعُ والرَدُّ، ولهذا قيل للتأديبِ الذي هو دونَ الحدِّ: تعزيرٌ؛ لأنه يَمْنَعُ الجاني أن يُعاوَدَ الذنب. وقيل: وفي كتابِ سَلالةِ «التفريد»: أشدُّ الضَّرْبِ التعزير، ثم حدُّ الزَّنى، ثم حدُّ الشُّربِ، ثم حدُّ القَدْفِ، فإنَّ التعزيرَ يُقَصُّ مِنَ العَدَدِ، وزيدٌ في وَصْفِهِ: وحدُّ الزَّنى منصوصٌ في تَغْلِيظِهِ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾، وحدُّ الشُّربِ مَتَيَّنٌ، بخلافِ القَدْفِ، فيكونُ أبلغٌ؛ ولذلك لا يُجْرَدُ في حدِّ القَدْفِ؛ لأنَّ سببَهُ غيرُ مَتَيَّنٍ.

وقال الإمامُ: قيل: أشدُّ الضَّرْبِ في الحدودِ ضَرْبُ الزَّنى، ثم ضَرْبُ شُرْبِ الحَمَرِ، ثم ضَرْبُ القاذِفِ^(٣). وقال القاضي: إنما كان ضَرْبُ القاذِفِ أخفَ؛ لِضَعْفِ سَبَبِهِ، واحتمالِ

(١) جمعُ طَرِيقٍ، على وزنِ سَكَيْت. وهو كثيرُ الإطراق، وهو موافقٌ لإحدى نُسخِ «المحتسب»، وإلا فإن ابن جنِّي قال: «عندي ثلاثةٌ ظريفين» بالطاء المعجمة والفاء.

(٢) «المحتسب» (٢: ١٠١)، ولتتام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ١٣).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٣: ٦٦٠).

قالوا: لأنَّ سببَ عقوبته مُحتَمَلٌ لِلصِّدْقِ والكذب، إلا أنه عُوقِبَ صِيَانَةً لِلأَعْرَاضِ وَرَدْعاً عَنْ هَتِكِهَا. فَإِن قُلْتَ: فإذا لم يكن المَقْدُوفُ مُحْصَنًا؟ قلت: يُعْزَرُ القَاذِفُ وَلَا يُحَدُّ، إلا أن يكونَ المَقْدُوفُ معروفًا بِمَا قُدِّفَ بِهِ؛ فَلَا حَدَّ وَلَا تَعْزِيرَ. رُدُّ شَهَادَةِ القَاذِفِ مُعَلَّقٌ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ بِاسْتِيفَاءِ الحَدِّ، فإذا شَهِدَ قَبْلَ الحَدِّ أَوْ قَبْلَ تَمَامِ اسْتِيفَائِهِ: قُبِلَتْ شَهَادَتُهُ، فإذا اسْتَوْفَى: لم يُقْبَلْ شَهَادَتُهُ أَبَدًا وَإِنْ تَابَ وَكَانَ مِنَ الأَبْرَارِ الأَتْقِيَاءِ. وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ: يَتَعَلَّقُ رُدُّ شَهَادَتِهِ بِنَفْسِ القَذْفِ، فإذا تَابَ عَنِ القَذْفِ بَانَ يَرْجِعَ عَنْهُ: عَادَ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ. وَكِلَاهُمَا مُتَمَسِّكٌ بِالآيَةِ؛ فَأَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ جَعَلَ جِزَاءَ الشَّرْطِ - الَّذِي هُوَ الرَّمِي - الجُلْدَ، وَرَدَّ الشَّهَادَةَ عَقِيبَ الجُلْدِ عَلَى التَّأْيِيدِ، فَكَانُوا مَرْدُودِي الشَّهَادَةِ عِنْدَهُ فِي أَبْدِهِمْ؛ وَهُوَ مُدَّةُ حَيَاتِهِمْ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا غَيْرَ دَاخِلٍ فِي حَيْزِ جِزَاءِ الشَّرْطِ، كَأَنَّهُ حِكَايَةٌ حَالِ الرَّاغِبِينَ عِنْدَ اللهِ بَعْدَ

صِدْقٍ مَا قَالَ؛ وَلِذَلِكَ نَقِصَّ عَدَدَهُ^(١).

قَوْلُهُ: (صِيَانَةٌ لِلأَعْرَاضِ)، العِرْضُ: النَفْسُ، صُنْتُ عِرْضِي أَي: نَفْسِي، وَفُلَانٌ نَقِي العِرْضِ، إِذَا كَانَ بَرِيئًا عَمَّا يُقْرَفُ^(٢) وَيُعَابُ بِهِ. وَقِيلَ: العِرْضُ: الحَسَبُ مِنَ مَكَارِمِ [أَخْلَاقِ] الرَّجُلِ.

قَوْلُهُ: (أَبَدًا)، الأَبَدُ: اسْمٌ لَزَمَانَ طَوِيلٍ انْتَهَى أَوْ لَمْ يَنْتَهَ، يُقَالُ: أَبَدْتُ أَيْدِيَّ، كَقَوْلِهِمْ: دَهَرُ دَاهِرٍ وَسَاعَةٌ سَوْعَاءٌ، أَي: طَوِيلَةٌ.

قَوْلُهُ: (كَلَامًا مُسْتَأْنَفًا)، أَي: مُبْتَدَأً، كَمَا قَالَ ابْنُ الحَاجِبِ فِي «شَرْحِ المَفْصَلِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُقَلِّبُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ [الفَتْحُ: ١٦]: وَالرَّفْعُ عَلَى الإِشْرَاقِ بَيْنَ ﴿يُسَلِّمُونَ﴾ وَ﴿نُقَلِّبُوهُمْ﴾ عَلَى مَعْنَى التَّشْرِيكِ بَيْنَهُمَا فِي عَامِلٍ وَاحِدٍ، كَأَنَّكَ عَطَفْتَ خَبْرًا عَلَى خَبْرٍ، أَوْ عَلَى الإِبْتِدَاءِ بِجُمْلَةٍ مُعَرَّبَةٍ إِعْرَابَ نَفْسِهَا غَيْرِ مُشْتَرِكٍ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا فِي عَامِلٍ وَاحِدٍ^(٣)،

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ١٧٤).

(٢) أَي: يُتَّهَمُ، فَهُوَ مَقْرُوفٌ بِهِ.

(٣) «الإيضاح في شرح المفصل» (٢: ٢٣).

انقضاء الجملة الشرطية. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء من الفاسقين، ويدل عليه قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والشافعي رحمه الله جعل جزاء الشرط الجملتين أيضاً، غير أنه صرّف الأبد إلى مدّة كونه قاذفاً، وهي تنتهي بالتوبة والرّجوع عن القذّف، وجعل الاستثناء متعلّقاً بالجملة الثانية. وحقّ المستثنى عنده أن يكون مجروراً بدلاً من «هم» في ﴿لَهُمْ﴾، وحقّه عند أبي حنيفة أن يكون منصوباً؛ لأنّه عن موجب، والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظّمها: أن تكون الجملة الثلاث بمجموعهنّ جزاء الشرط،

فعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ إلى آخره: عطف على الجملة الشرطية بتامها، للإعلام بأن الجملة الأولى مشتملة على حكم الرامين عند الناس في ظاهر الشرع، والثانية على حكمهم عند الله تعالى، ويدل على أنّ الثانية كذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ لأنّ هذه الفاصلة لا تليق بحال قبول الشهادة وردّها، ويمكن أن يُجاب بأن الفاصلة متعلّقة بمجموع الكلام، وأنّ قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١) جملة معترضة دخلت بين المستثنى والمستثنى منه مؤكّدة لمعنى ما اعترض فيه، والمناسبة حاصلة على أنّ التعذيب نوعان: تعذيب إلام، وتعذيب تشوير^(٢)، فإذا قبلت توبة القاذف وسمعت شهادته، كأنه غفر له ورحم عيه وأنقذ من عذاب التشوير.

قوله: (والذي يقتضيه ظاهر الآية ونظّمها: أن تكون الجملة الثلاث بمجموعهنّ جزاء للشرط^(٣))، وبيانه ما قرّره الإمام، وتلخيصه على وجهين: أحدهما: أنّ قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء مذكور عقيب جمل منسوقة بحرف النسق، وهي: ﴿فَأَجْلِدُوهُمْ﴾، ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فهي في حكم واحد، فلم يكن رجوع الاستثناء إلى بعض أولى من بعض، فوجب عودها إليها بأسرها. ونظيره قول أبي حنيفة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦]، فإنّ فاء

(١) من قوله: «إلى آخره عطف على الجملة الشرطية بتامها» إلى هنا سقط من (ط).

(٢) وهو التوبيخ والتفريع.

(٣) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «جزاء الشرط»، والمعنى واحد.

التعقيب ما دَخَلَتْ على غَسَلِ الرَّجُلِ فَقَطْ، بل على المجموع من حيث إنّ الواوَ للجَمْعِ المُطْلَقِ لا للترتيب^(١)، فإن قيل: إنّ الواوَ كما تكونُ للجَمْعِ فقد تكونُ للاستِثْناءِ، فقوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ جملةٌ خبريةٌ، والجُمْلَتانِ السابقتانِ طَلَبِيَّةٌ، ولا يجوزُ عطفُ الخبرِيةِ على الطَلَبِيَّةِ، فالواوُ: للاستِثْناءِ، بخلافه في آيةِ الوضوءِ؟

الجوابُ: إذا انتَهَضَ الجامعُ القويُّ لا يَمْنَعُ الاختلافُ مِنَ العَطْفِ، أي: من قَدْفِ المُحْصَناتِ فاجلِدوهم، ورُدُّوا شهادتهم، فسقوهم، أي: اجمعوا لهم هذه الثلاثِ إلّا الذين تابوا عن القَدْفِ، وأصلحوا فإنَّ الله تعالى يَغْفِرُ لهم فينقلِبونَ غيرَ مجلُودينَ ولا مردودينَ ولا مُفسِّقينَ. وإنَّما خولفَ في الثالثةِ بالخبرِيةِ؛ لأنَّه أبلغُ وأزَمُّ؛ ولذلك جيء بها مُعرِّفةً الخبرِ متوسِّطةً بضميرِ الفِضْلِ. وثانيهما: أنّ مجيء: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ عَقِبَ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ يَدُلُّ على أنّ العِلَّةَ في عَدَمِ قَبُولِ الشَّهادَةِ كَوْنُهُم فاسِقينَ؛ لأنَّ ترتيبَ الحُكْمِ على الوَصْفِ المناسبِ مُشعِرٌ بالعِلَّةِ، وإذا ثَبَتَ أنّ العِلَّةَ لِرَدِّ الشَّهادَةِ كَوْنُهُم فاسِقينَ، فعندَ زوالِ الفِسقِ زالتِ العِلَّةُ، فوجِبَ أن يَزولَ الحُكْمُ^(٢).

فإن قيل: إنّ الاستثناءَ لو رَجَعَ إلى الكُلِّ لوجِبَ أنه إذا تابَ أن لا يُجَلدَ، وهذا باطلٌ بالإجماع؟ وأجاب الإمامُ: أن تَرَكَ العَمَلِ فيه لِذليلِ الإجماعِ، فلم يَتَرَكَ في الباقي^(٣).

وقال القاضي: الاستثناءُ راجعٌ إلى أصلِ الحُكْمِ، وهو اقتضاءُ الشرطِ لهذه الأمورِ، ولا يلزمُه سقوطُ الحدِّ به كما قيل؛ لأنَّ من تمامِ التَّوبَةِ الاستسلامُ للحدِّ، أو الاستحلالُ^(٤).

وقلتُ: لأنَّ الغُفْرانَ إنَّما يكونُ في حقوقِ الله تعالى، وحدُّ القَدْفِ من حقوقِ العبادِ، ثم المختارُ من الوجهينِ الثاني، لأنَّ قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ جملةٌ مُعترِضةٌ بينَ المستثنى

(١) انظر تفصيل ذلك في «أحكام القرآن» للجصاص (٢: ٣٦٨).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٣: ١٦١).

(٣) المصدر السابق، (٢٣: ١٦٢).

(٤) «أنوار التنزيل» (٤: ١٧٤).

كأنه قيل: وَمَنْ قَذَفَ الْمُحْصَنَاتِ فَاجْلِدُوهُمْ وَرُدُّوهُنَّ شَهَادَتَهُمْ وَفَسِّقُوهُمْ، أي: فاجمعوا لهم الجلد والرد والتفسيق، إلا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فإن الله يغفر لهم

والمستثنى منه لتوكيد مضمون الجملة وكالتعليل لها. والواو للاستئناف لا تحيد عنه؛ لورودها على التأكيد، وتعريف الخبر بلام الجنس المؤذن بكمال هذا المعنى فيهم، وتوسط ضمير الفصل المقيّد للحضر. وكل هذا ينافي العطف، مع أن الجملتين السابقتين إنشائيتان؛ ولذلك جعل الإمام الشافعي الاستثناء متعلقًا بقوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ كما قال (١).

وقال ابن الحاجب في «الأمالي»: رجوع الاستثناء إلى الجمل كلها ليس بمستقيم، أما الجلد فلم يرجع إليه بالاتفاق، وأما قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، فإنها جيء به لتقرير تعليل منع الشهادة، فلم يبق إلا قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ (٢).

وينصّر هذا القول فعل عمر رضي الله تعالى عنه، وإجماع فقهاء التابعين على ما روينا في «صحيح البخاري» (٣): جلد عمر رضي الله عنه أبا بكره وسبل ابن معبد ونافعًا بقذف المغيرة، ثم استتابهم وقال: من تاب قبلت شهادته. وأجازة عبد الله بن عتبة، وعمر بن عبد العزيز، وسعيد بن جبير، وطاووس، ومجاهد، والشعبي، وعكرمة، والزهرري، ومحارب (٤)، وشريح، ومعاوية بن قرة.

قال بعض الناس (٥): لا تجوز شهادة القاذف وإن تاب، ثم قال: لا يجوز نكاح بغير شاهدين، وإن تزوج بشهادة محدودين: جاز. وإن تزوج بشهادة عبدنين: لم يجز، وأجاز شهادة المحدود والعبد والأمة لرؤية هلال رمضان.

(١) والذي ذكره الشافعي ظاهر جدًا، فإن الحد لا يُقام عليه إلا بعد الحكم بفسقه. انتهى من «أحكام القرآن» للكيا الهراسي الشافعي (٢: ٣٠٠).

(٢) «أمالي ابن الحاجب» (١: ٢٧١-٢٧٢).

(٣) «صحيح البخاري»، كتاب الشهادات، باب شهادة القاذف والسارق والزاني، بعد الحديث رقم (٢٦٤٧).

(٤) يعني ابن دثار كما صرح به البخاري.

(٥) يعني أبا حنيفة رحمه الله، وهو مصطلح مشهور للبخاري رحمه الله.

فَيَنْقَلِبُونَ غَيْرَ مَجْلُودِينَ وَلَا مَرْدُودِينَ وَلَا مُفْسَقِينَ. فإن قلت: الكافرُ يَقْذِفُ فيتوبُ عن الكُفْرِ فَتُقْبَلُ شهادتهُ بالإجماع، والقاذِفُ من المسلمينَ يَتُوبُ عن القَذْفِ فلا تُقْبَلُ شهادتهُ عند أبي حنيفة! كأنَّ القَذْفَ مع الكُفْرِ أهونُ من القَذْفِ مع الإسلام! قلت: المسلمون لا يَعْبَوْنَ بِسَبِّ الكُفَّارِ؛ لأنهم شُهِرُوا بِعَدَاوَتِهِمْ والطعنِ فِيهِمْ بِالْباطِلِ، فلا يَلْحَقُ المَقْذُوفَ بِقَذْفِ الكافرِ مِنَ الشَّيْنِ وَالسَّنارِ ما يَلْحَقُهُ بِقَذْفِ مُسْلِمٍ مثله، فَشُدِّدَ على القاذِفِ مِنَ المسلمينَ؛ رَدْعاً وَكُفْراً عن إحقاق السَّنارِ. فإن قلت: هل للمَقْذُوفِ أو للإمام أن يَعْفُوَ عن حَدِّ القاذِفِ؟ قلت: لها ذلك قَبْلَ أن يَشْهَدَ الشَّهَادَةَ وَيُثَبِّتَ الحَدَّ، والمَقْذُوفُ مندوبٌ إلى أن لا يُرَافِعَ القاذِفَ ولا يُطالبه بالحدِّ. ويَحْسَنُ مِنَ الإمامِ أن يَحْمَلَ المَقْذُوفَ على كَظْمِ الغَيْظِ، ويقولُ له: أَعْرِضْ عن هذا ودَعِّه لوجهِ الله، قبل ثَبَاتِ الحَدِّ، فإذا ثَبَّتَ لم يكن لواحدٍ منهما أن يَعْفُوَ؛ لأنه خالصٌ حَقُّ الله؛ ولهذا لم يَصَحَّ أن يُصَالِحَ عنه بهال. فإن قلت: هل يورثُ الحدُّ؟ قلت:

قولُه: (المسلمونَ لا يَعْبَوْنَ بِسَبِّ الكُفَّارِ) إلى آخِرِهِ، قال: صاحبُ «الفرائد»: أبو حنيفةٌ لا يَحْتَاجُ إلى هذا الجوابِ الضَّعِيفِ، والكافرُ إِنما قُبِلَتْ شهادتهُ بعدَ الإسلامِ؛ لأنَّ هذه الشهادةُ غيرُ شهادةِ الكُفْرِ، لأنَّها مستفادَةٌ مِنَ الإسلامِ، فلم تَدْخُلْ تحتَ الرَدِّ، ويَدُلُّ عليه أنَّ شهادتهُ مقبولةٌ بعدَ الإسلامِ على المسلمِ والدِّمِيِّ، وتلك الشهادةُ غيرُ مقبولةٍ على المسلمِ، ولو كان كما قال، وهو عَدَمُ حُوقِ الشَّيْنِ، لَوَجَبَ أن لا يُحَدَّ، لِعَدَمِ اعتبارِ قَذْفِهِ.

قولُه: (والسَّنارِ)، النِّهايةُ: السَّنارُ: العَيْبُ والعارُ. وقيل: هو العَيْبُ الذي فيه عارٌ، من: شَنَرَ عليه، أي: عابَه وطَعَنَ فيه.

قولُه: (لأنه خالصٌ حَقُّ الله تعالى)، عن بعضهم: حَدُّ القَذْفِ مِمَّا اجْتَمَعَ فِيهِ الحَقَّانِ، وَحَقُّ الله تعالى غالبٌ^(١) أو حَقُّ العَبْدِ غالبٌ على قولِ بعضِ أصحابِنَا^(٢)، ولم يَقُلْ أحدٌ بما قاله المصنِّفُ عُرِفَ في أصولِ الفقه.

(١) وهو الذي عليه الحنفية كما في «بدائع الصنائع» للكاساني (٧: ٥٢).

(٢) وهو مذهب الجمهور من أتباع المذاهب الأخرى. انظر: «روضة الطالبين» (١٠: ١٧٠).

عند أبي حنيفة: لا يورث؛ لقوله ﷺ: «الحدُّ لا يورث»، ويورث عند الشافعي، وإذا تاب القاذف قبل أن يثبت الحد: سقط. وقيل: نزلت هذه الآية في حسان بن ثابت حين تاب مما قال في عائشة رضي الله عنها.

[﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَمِيسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ٦-٩]

قاذف امرأته إذا كان مسلماً حراً عاقلاً بالغاً، غير محدود في القذف، والمرأة بهذه الصفة مع العفة: صح اللعان بينها إذا قذفها بصريح الزنى؛ وهو أن يقول لها: يا زانية، أو: زنت، أو: رأيتك تزنين. وإذا كان الزوج عبداً، أو محدوداً في قذف، والمرأة

قوله: (عند أبي حنيفة: لا يورث...، ويورث عند الشافعي)، قال الإمام: قال مالك والشافعي: حد القذف يورث، فإذا مات المقذوف قبل استيفاء الحد والعفو ثبت لوارثيه الحد، وكذا لو أنشأ القذف بعد موت المقذوف^(١)، وعند أبي حنيفة: لا يورث^(٢).

حجة الشافعي أن حد القذف حق الآدمي؛ لأنه يسقط بعفوه، ولا يستوفى إلا بطلبه، ويحلف المدعى عليه إذا أنكر. وقال أبو حنيفة: لو كان موروثاً لكان للزوج والزوجة نصيب فيه، وليس كذلك؛ لأنه حق ليس من قبيل المال، فلا يورث كالمضاربة والوكالة. والجواب: أن الأصح عند الشافعي أنه يرثه جميع الورثة كالمال، وفيه وجه أنه لا يرثه الزوج والزوجة؛ لأن المقصود من الحد دفع العار، وذلك لا يلحق الزوج والزوجة؛ لأن الزوجية تنقطع بالموت^(٣).

(١) انظر: «روضة الطالبين» (١٠: ١٧٠).

(٢) انظر: «بدائع الصنائع» (٧: ٥٥).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٣: ١٦٠).

مُحَصَّنَةٌ: حُدَّ، كما في قذف الأجنبيات، وما لم ترافعه إلى الإمام لم يَجِبِ اللَّعَانُ. واللَّعَانُ: أن يبدأ الرجلُ فيشهد أربع شهاداتٍ بالله إنه لمن الصادقين فيما رماها به من الزنى، ويقولُ في الخامسة: إنَّ لعنةَ الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنى. وتقولُ المرأةُ أربعَ مرَّاتٍ: أشهدُ بالله إنه لمن الكاذبين فيما رَماني به من الزنى، ثم تقولُ في الخامسة: إنَّ غَضَبَ اللَّهِ عليها إن كان من الصادقين فيما رَماني به من الزنى. وعند الشافعي رحمه الله: يُقامُ الرَّجُلُ قائماً حتى يشهد، والمرأةُ قاعداً، وتُقامُ المرأةُ والرَّجُلُ قاعداً حتى تشهد، ويأمرُ الإمامُ مَنْ يَضَعُ يده على فيه ويقولُ له: إني أخافُ إن لم تكن صادقاً أن تبوءَ بلعنةِ الله. وقال: اللَّعَانُ بمكَّةَ بين المقامِ والبيتِ، وبالمدينة على المنبرِ، وبيتِ المقدسِ في مسجده، ولعانُ المُشركِ في الكنيسةِ وحيثُ يُعظَّمُ، وإذا لم يكن له دينٌ ففي مساجدنا إلا في المسجد الحرام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، ثم يُفرَّقُ القاضي بينهما. ولا تقعُ الفُرقةُ بينهما إلا بتفريقه عند أبي حنيفة وأصحابه، إلا عند زُفرٍ؛ فإن الفُرقةَ تقعُ باللَّعَانِ. وعن عثمانَ البتيِّ: لا فُرقةَ أصلاً. وعند الشافعي رحمه الله: تقعُ بلعانِ الزوج. وتكونُ هذه الفُرقةُ في حُكْمِ التَّطْلِيقِ البائنة عند أبي حنيفة ومحمد، ولا يتأبَّدُ حُكْمُهَا، فإذا أكذَبَ الرَّجُلُ نفسه بعد ذلك فحُدَّ: جازَ أن يتزوَّجها. وعند أبي يوسف وزُفرٍ والحسن بن زياد والشافعي: هي فُرقةٌ بغيرِ طلاقٍ تُوجبُ تحريمها مؤبداً، ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه. وروى: أن آيةَ القذفِ لما نزلتُ قرأها رسولُ الله ﷺ على المنبرِ، فقام

قوله: (وعن عثمانَ البتيِّ)^(١)، قيل: هو خليفةُ الحسنِ البصريِّ، وكتبَ أبو حنيفةُ كتابَ «الرسالة» من تصنيفه إليه، والبتِّيُّ: بائعُ البتِّ، وهو الكساءُ الغليظُ.

قوله: (روى): أن آيةَ القذفِ لما نزلتُ قرأها رسولُ الله ﷺ، في هذه الرواية تخطيطٌ؛ لأنَّ حديثَ عاصم بن عديٍّ رواه البخاريُّ ومسلمٌ والنسائيُّ عن ابنِ عباسٍ من غيرِ هذا

(١) أبو عمرو عثمان بن مسلم البتيِّ، فقيه البصرة، وثقه أحمد والدارقطني، وكان صاحبَ رأيٍ وفقه. له ترجمة في «طبقات ابن سعد» (٧: ٢١) و«سير النبلاء» (٦: ١٤٨).

عاصمُ بن عديّ الأنصاريُّ فقال: جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ، إِنْ وَجَدَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا فَأَخْبَرَ جُلْدَ ثَمَانِينَ وَرَدَّتْ شَهَادَتُهُ أَبَدًا وَفُسِّقَ، وَإِنْ صَرَبَهُ بِالسِّيفِ قُتِلَ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ، وَإِلَى أَنْ يَجِيءَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَقَدْ قَضَى الرَّجُلُ حَاجَتَهُ وَمَضَى! اللَّهُمَّ افْتَحْ. وَخَرَجَ، فَاسْتَقْبَلَهُ هَلَالٌ بِنَ أُمِّيَّةَ أَوْ عُؤَيْمِرَ، فَقَالَ: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: شَرٌّ؛ وَجَدْتُ عَلَى بَطْنِ امْرَأَتِي خَوْلَةَ - وَهِيَ بِنْتُ عَاصِمٍ - شَرِيكَ بَنِ سَخْمَاءَ، فَقَالَ: هَذَا وَاللَّهِ سُؤْلِي، مَا أَسْرَعُ مَا ابْتَلَيْتَ بِهِ! فَرَجَعَا، فَأَخْبَرَ عَاصِمٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَكَلَّمَ خَوْلَةَ، فَقَالَتْ: لَا أُدْرِي، أَلْغَيْرَةِ أَدْرَكْتَهُ، أَمْ بُخْلًا عَلَى الطَّعَامِ! وَكَانَ شَرِيكَ نَزِيلَهُمْ، وَقَالَ هَلَالٌ: لَقَدْ رَأَيْتُهُ عَلَى بَطْنِهَا. فَنَزَلْتُ، وَلَا عَنَ بَيْنَهُمَا. وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عِنْدَ قَوْلِهِ وَقَوْلِهَا: أَنْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهَا: «أَمِينَ»، وَقَالَ الْقَوْمُ: آمِينَ، وَقَالَ لَهَا: «إِنْ كُنْتَ الْمُنْتِ بِذَنْبٍ فَاعْتَرِفِي بِهِ، فَالرَّجْمُ أَهْوَنُ عَلَيْكَ مِنْ غَضَبِ اللهِ، إِنْ غَضَبَهُ هَوَّ النَّارُ». وَقَالَ: «تَحَيَّنُوا بِهَا الْوَلَادَةَ، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أُصَيْهَبَ أُتَيْبِجَ يَضْرَبُ إِلَى السَّوَادِ

الْوَجْهِ»^(١). وَرَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ^(٢)، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَعْنَى أَوَّلِ هَذَا الْحَدِيثِ كَمَا أوردَهُ، وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ الْأَسَامِي.

وَأَمَّا قِصَّةُ هَلَالِ بْنِ أُمِّيَّةَ وَشَرِيكَ بْنِ سَخْمَاءَ فَقَدْ رَوَاهَا مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ^(٣)، وَلَيْسَ فِي أَوَّلِهِ ذِكْرُ عَاصِمٍ وَغَيْرِهِ. وَعَلَى الْجُمْلَةِ، مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ مَرْوِيٌّ بِرِوَايَاتٍ سَتِيٍّ، وَأَحَادِيثٌ مُتَفَرِّقَةٌ. وَمَنْ أَرَادَ تَحْقِيقَهُ فَعَلَيْهِ بِ«جَامِعِ الْأُصُولِ»^(٤).

قَوْلُهُ: (تَحَيَّنُوا بِهَا)، الْحَيْنُ: الْوَقْتُ، أَي: اطْلُبُوا وَقْتَهَا. وَالْأُصَيْهَبُ: هَذَا الَّذِي يَغْلُو لَوْنُهُ صُهْبَةً، وَهِيَ الشُّقْرَةُ، وَهِيَ تَصْغِيرُ أَصْهَبَ. وَالْأُتَيْبِجُ: تَصْغِيرُ الْأَتْبِجِ، وَهُوَ النَّاتِيُّ

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٤٧٤٥) و«صحيح مسلم» (١٤٩٢) و«سنن النسائي» (١٤٢:٦).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٢٥٥).

(٣) «صحيح مسلم» (١٤٩٦)، و«سنن النسائي» (٣٤٦٨) و(٣٤٦٩).

(٤) «جامع الأصول» (١٠:٧١٣-٧٢٣).

فهو لشريك، وإن جاءت به أوزق جعداً جمالياً خدلج الساقين فهو لغير الذي رُميت به. قال ابن عباس: فجاءت بأشبه خلق الله لشريك، فقال ﷺ: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن». وقرئ: (ولم تكن) بالتاء؛ لأن الشهداء جماعة، أو لأنهم في معنى الأنفس التي هي بدل. ووجه من قرأ (أربع) أن يتصب؛ لأنه في حكم المصدر، والعامل فيه المصدر الذي هو ﴿فَشَهْدَةُ أَحَدِهِمْ﴾، وهي مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات.

التبج، أي: ما بين الكتفين والكاهل، وقد جاء رجلٌ أتبع عظيم الجوف. والأوزق: الأسمر، والوزقة: السمرة، الجمالي: الضخم الأعضاء التام الأوصال، يقال: ناقةٌ جماليةٌ: مُشَبَّهَةٌ بِالْجَمَلِ عِظْمًا وَبَدَانَةً. وخدلج الساقين: العظيم الممتلئ الساق. كلها في «النهاية». وقال صاحب «الجامع»: وإنما جاء هذه الألفاظ مصغرة لكونها صفة للمولود^(١).

قوله: (لولا الأيمان لكان لي ولها شأن)، أي: لولا الأيمان الذي في اللعان، وفي رواية مسلم والنسائي، عن أنس: «لولا ما سبق فيها من كتاب الله لكان لي ولها شأن»، ورواية البخاري وأبي داود: «لولا ما مضى من كتاب الله».

قوله: (وهي: مبتدأ)، أي: ﴿فَشَهْدَةُ أَحَدِهِمْ﴾، والخبر المقدّر: واجب، و(أربع شهادات): في حكم المصدر، والتقدير: فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات، والجملة خبرٌ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ﴾، ودخلت الفاء في الخبر لتضمن المبتدأ معنى الشرط. قال صاحب «الكشف»: من نصب فالتقدير: فالواجب أن يشهد أحدهم أربع شهادات، فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، ومن رفع فقال: ﴿فَشَهْدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ﴾، فقد أخبر بالمرفوع عن المبتدأ، فيتحقق إذن تعلق الباء من قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾ بما يليه، وهو ﴿شَهَدَاتٍ﴾، ولا يجوز حينئذ تعليقها بقوله: ﴿فَشَهْدَةُ أَحَدِهِمْ﴾؛ لأنه أخبر عن المبتدأ، ولا يجوز بعد الإخبار عنه أن يتعلق به شيء، ومن نصب فالجاء يتعلّق بالثاني على مذهب سيويه، وبالأول على مذهب الفراء^(٢).

(١) «جامع الأصول» (٣: ٦٢) و(٥: ١٧٥) وغيرهما من المواطن.

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ٩٤٠).

وَقُرِي: (أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ)، و: (أَنْ غَضِبَ اللَّهُ) على تخفيف (أَنْ) ورفع ما بعدها. وَقُرِي: (أَنْ غَضِبَ اللَّهُ) على فعل الغَضِب.

وَقُرِي بنصب الخامستين، على معنى: ويشهد الخامسة. فإن قلت: لم خُصَّت الملائكة بأن تُحْمَسَ بغضبِ الله؟ قلت: تغليظاً عليها؛ لأنها هي أصلُ الفُجورِ وَمَنْبَعُهُ بِخِلَابَتِهَا وإطاعها، ولذلك كانت مقدّمةً في آية الجُلْد.

قوله: (وَقُرِي: «أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ»)، قرأ نافع: «أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ»، و«أَنْ غَضِبَ اللَّهُ»، بتخفيف النونِ فيها ورفع التاء وكسر الضاد، من: غَضِبَ، وَرَفَعَ ﴿اللَّهُ﴾. والباقون: بتشديد النونِ ونَصَبِ التاءِ وَفَتْحِ الضادِ وَجَرِّ الهاءِ^(١).

قوله: (على فعل الغَضِب)، يريد أنه قُرِي: «غَضِبَ»، على الفعل الماضي، وَرَفَعَ ﴿اللَّهُ﴾؛ لموافقة الرواية صورةً خطَّ الإمام^(٢)، وأما «لعنة الله عليه» فإن كانت صورتها صورةً الفعل، لكن لتكرّر الضمير في «عليه»، وعَدَمُ مُسَاعَدَتِهَا الرواية ما قُرِيَّ بالفعل، وبهذا ظهر صحّة قول الكواشي: السبعة: ما صحَّ سنده، ووافق لفظه خطَّ الإمام.

قوله: (وَقُرِي بنصبِ الخامستين)، حفص: ﴿وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ﴾ بنصبِ التاء، والباقون: برفعها.

قوله: (بخِلَابَتِهَا)، أي: خِدَاعِهَا. كما قال «والمرأة هي المادّة التي منها نشأت الخيانة؛ لأنّها لو لم تُطْمَعِ الرجلُ ولم تُؤْمَضْ له لم يَطْمَعُ». النّهاية: وفي الحديث: «لا خِلاَبَةَ»^(٣)، أي: لا خِدَاعَ، وفيه: أَنْ يَبِيعَ المحَقَلَاتِ^(٤) خِلاَبَةً، وفي أمثالهم: إذا لم تَغْلِبْ فَاخْلُبْ^(٥).

(١) انظر توجيه ذلك في «التيسير في القراءات السبع» للداني ص ١٦١، و«حجّة القراءات» ص ٤٩٥.

(٢) يعني المصحف الإمام.

(٣) هو جزءٌ من حديث صحيح أخرجه البخاري (٢١١٧) ومسلم (١٥٣٣) من حديث عبد الله ابن

عمر رضي الله عنها.

(٤) جمع محمّلة، وهي الشاة أو الناقة لا يجلبها صاحبها أياماً حتى يجتمع اللبن في ضرعها على جهة الخديعة.

(٥) انظر: «مجمع الأمثال» (١: ٣٤).

وَيَشْهَدُ لَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ لِحَوْلَةٍ: «فَالرَّجْمُ أَهْوَنُ عَلَيْكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ».

[﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ ١٠]

الفضل: التفضل. وجواب «لولا» متروك، وتركّه دالٌّ على أمرٍ عظيم لا يُكْتَنَهُ، ورُبَّ مسكوتٍ عنه أبلغ من منطوقٍ به.

[﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ١١]

الإفكُ أبلغُ ما يكون من الكذب والافتراء. وقيل: هو البُهتان لا تشعُرُ به حتى

قوله: (ويشهدُ لذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه لِحَوْلَةٍ)، يعني الذي يدُلُّ على أن التغليظَ متوجّهٌ إلى المرأة دون الرجل تخصيصه صلوات الله عليه بهذا القول إياها دون الرجل عند الملاءنة.

قوله: (وجواب «لولا» متروك، وتركّه دالٌّ على أمرٍ عظيم)، أي: لفضحككم، أو: لعاجلكم بالعقوبة، أو: لترككم خيارى في أمر الزواني حتى لا تعلموا كيف الخلاص، كما تحيّر عاصم، وقال: اللهم افتح، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ عطفٌ على ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾. هذه الآية كالتذييل لما سبق، بمعنى: من فضله ورحمته أنه بين لكم حكم اللعان، ومن كونه تواباً إذا حصلت التوبة قبل الرفع إلى الإمام، يتوب عليكم، ويستره عليكم، ومن حكمته أنه يلعنُ القاذف^(١) الكاذب، ويغضبُ على الزواني بأن يأمر بالترجم والجلد في المحصن وغيره؛ لأنه يعلم عاقبة الأمور كلها، ويضع كل شيء في موضعه^(٢).

قوله: (هو البُهتان)، البُهتُ: الأخذُ بالفضاء، بهتت بهتاً وبُهتاتاً: إذا قال عليه ما لم يفعل. والبُهيتة: بمعنى الافتراء، ومنه قول المفتري عليه: يا لبُهيتة بالكسر، على حذف المدعو.

(١) في (ح) و(ف): «يلعنُ على القاذف»، والجاذة حذف «على» فإن «يلعنُ» مما يتعدى بنفسه.

(٢) هذه الفقرة سقطت من (ط).

يَفْجَأُكَ. وأصله: الأَفْكَ، وهو القَلْبُ؛ لأنه قولٌ مأفوكٌ عن وَجْهِهِ. والمراد: ما أْفَكَ به على عائشة رضي الله عنها. والعُصبة: الجماعةُ من العَشرةِ إلى الأربعين، وكذلك العِصَابَةُ. واعصَوْصَبُوا: اجْتَمَعُوا، وهم عبدُ الله بن أبي رَأْسِ النفاق، وزيدُ بن رِفَاعَةَ، وحَسَّانُ بنُ ثابت، ومِسْطَحُ بن أَنَاثَةَ، وخَمْنَةُ بنتُ جَحْشٍ، ومَنْ سَاعَدَهُمْ. وقُرئ: ﴿كِبْرَةٌ﴾ بِالضَّمِّ والكسر، وهو عُظْمُهُ. والذي تَوْلَاهُ: عبدُ الله؛ لإِمعانه في عِدَاوَةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وانتِهَازِهِ الفُرْصِ، وطلبِهِ سَبيلًا إلى الغَمِيزَةِ.

قوله: (الأفك، وهو القلب)، النهاية: يقال: أفككُ يَأفِكُهُ إِفْكَاً: إذا صَرَفَهُ عن الشيء فقلَّبَهُ. ومنه: اتفككتِ البلدةُ بأهلِها، أي: انقلبت، فهي مُؤْتَفِكَةٌ.

قوله: (وقرئ: ﴿كِبْرَةٌ﴾ بالضَّمِّ والكسر)، قال ابنُ جِنِّي: «كِبْرَةٌ» بالضَّمِّ قراءةُ أبي رجاءٍ وحُمَيْدٍ ويعقوبٍ وغيرهم، أي: عُظْمُهُ، ومَنْ كَسَرَهُ أراد: وِزْرَهُ وإِثْمَهُ^(١). وقال الزجَّاجُ: فَمَنْ قرأ ﴿كِبْرَةٌ﴾ بالكسرِ فمعناه: مَنْ تَوَلَّى الإِثْمَ في ذلك، ومَنْ قرأ ﴿كِبْرَةٌ﴾ بالضَّمِّ أراد: مُعْظَمَهُ^(٢).

قوله: (لإمعانه)، الجوهري: أَمَعَنَ الفَرَسُ: تَبَاعَدَ في عَدْوِهِ، وَأَمَعَنَ فلانٌ بِحَقِّي: ذَهَبَ به. وَأَمَعَنَتِ الأَرْضُ: رَوِيَتْ.

قوله: (وانتهازه الفرص)، والفرصةُ في الأصل: نَوْبَةُ المَاءِ، تَفَارَصَ القَوْمُ: تَنَاقَبُوا في السَّقْيِ، ثُمَّ عَمَّتْ حَتَّى اسْتُعْمِلَتْ في كُلِّ نَوْبَةٍ.

قوله: (إلى الغمِيزَةِ)، أي: الطَّعَن. الجوهري: ليس في فلانٍ غَمِيزَةٌ، أي: مَطْعَن. الراغبُ: أصلُ الغَمِيزَةِ: الإِشارةُ بِالْجَفْنِ أو اليَدِ طَلَبًا إلى ما فيه مُعَابٍ، ومنه قيل: ما في فلانٍ غَمِيزَةٌ، أي: نَقِيسَةٌ يُشارُ بها إليه، وَجَمَعُها غَمائِزٌ. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَأُوا بِهِمْ يَتَغَمَّزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، وأصله مِنْ: غَمَزْتُ الكَبْشَ، إِذا لَمَسْتَهُ هَلْ به طِرْقٌ^(٣)، نحو: غَبَطْتَهُ^(٤).

(١) «المحتسب» (٢: ١٠٣-١٠٤)، وانظر «البحر المحيط» (٨: ٢١).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٥).

(٣) وهو القوَّةُ والسَّحْمُ.

(٤) «مفردات القرآن» ص ٦١٤.

أي: يُصِيبُ كُلَّ خَائِضٍ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ مِنْ تِلْكَ الْعُصْبَةِ نَصِيْبِهِ مِنَ الْإِثْمِ عَلَى مَقْدَارِ خَوْضِهِ، وَالْعَذَابُ الْعَظِيمُ لِعَبْدِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ مُعْظَمَ الشَّرِّ كَانَ مِنْهُ. يُحْكِي: أَنَّ صَفْوَانَ مَرَّ بِهَوْدَجِهَا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَلَأٍ مِنْ قَوْمِهِ، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ فَقَالُوا: عَائِشَةُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا نَجَتْ مِنْهُ وَلَا نَجَا مِنْهَا. وَقَالَ: امْرَأَةٌ نَبِيَّكُمْ بَاتَتْ مَعَ رَجُلٍ حَتَّى أَصْبَحَتْ ثُمَّ جَاءَ يَقْوُدُهَا!

وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لِمَنْ سَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَاصَّةً

قَوْلُهُ: (يُحْكِي: أَنَّ صَفْوَانَ^(١) مَرَّ بِهَوْدَجِهَا عَلَيْهِ)، وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِ عَلَى مَا رَوَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا وَأَنَا مَعَهُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي، فَلَمَّا رَجَعْنَا وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ آدَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ مِنْ شَأْنِي، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، خَفِيفَةَ اللَّحْمِ، وَسَارُوا، فَوَجَدْتُ عِقْدِي، وَجِئْتُ مَنْزَلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ، فَتِيَمَّمْتُ مَنْزِلِي، فَغَلَبَتْ عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ مَعْطَلٍ السُّلَمِيُّ قَدْ عَرَسَ^(٢) مِنْ وِرَاءِ الْجَيْشِ الَّذِي كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَأَذْلَجَ وَأَصْبَحَ عِنْدَ الْمَنْزَلِ، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ فَرَأَنِي فَعَرَفَنِي، وَكَانَ رَأَى قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ فَخَمَرْتُ بِجِلْبَابِي، وَاللَّهُ مَا كَلَّمَنِي بِكَلِمَةٍ سِوَى الْاسْتِرْجَاعِ، وَهُوَ حَتَّى أَنَاخَ رَاكِلَتَهُ فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا، فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقْوُدُنِي حَتَّى آتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِي شَأْنِي، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الْإِفْكِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سَلُولٍ. هَذَا مَخْتَصَرٌ مِنْ حَدِيثِ الْإِفْكِ عَلَى مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ^(٣).

قَوْلُهُ: (وَخَاصَّةً)، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَائِشَةُ وَصَفْوَانُ فِي هَذَا الْخِطَابِ دُخُولًا أَوْلِيًّا؛ إِذْ خُوِطِبَ بِذَلِكَ مَنْ سَاءَ وَخُصُّوا بِذَلِكَ خَاصَّةً، أَي: خُصُوصًا، وَخَاصَّةً: مَصْدَرٌ، كَالْخَالِيَةِ وَالْعَافِيَةِ وَالْخَالِصَةِ.

(١) ابْنُ الْمَعْطَلِ السُّلَمِيُّ، كَمَا سَيُصْرِّحُ بِهِ الطَّبِيْبِيُّ أَنْفًا.

(٢) مِنَ التَّعْرِيسِ: وَهُوَ النُّزُولُ آخَرَ اللَّيْلِ لِلْإِسْتِرَاحَةِ أَوْ النَّوْمِ.

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٦١) وَمُسْلِمٌ (٢٧٧٠) وَالنَّسَائِيُّ فِي «السِّنَنِ الْكَبْرِيِّ» (٨٨٨٢).

رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعائشة، وصفوان بن المعطل. ومعنى كونه خيراً لهم: أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم؛ لأنه كان بلائاً ميبناً ومحنةً ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية كل واحدة منها مُستقلّة بها هو تعظيمٌ لشأن رسول الله ﷺ، وتسليّة له، وتنزيهٌ لأمّ المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهيرٌ لأهل البيت، وتهويلٌ لمن تكلم في ذلك، أو سمع به فلم يحجّه أذناه، وعدّة الطافٍ للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية، وأحكامٌ وآدابٌ لا تخفى على متأملها.

[﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ١٢]

﴿بأنفسهم﴾ أي: بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات، كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وذلك نحو ما يروى: أن أبا أيوب الأنصاري قال لأمّ أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدّل صفوان أكنت تظنُّ بحرمة رسول الله ﷺ سوءاً؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدّل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ، فعائشة خيرٌ مني، وصفوان خيرٌ منك. فإن قلت: هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم؟

قوله: (أي: بالذين منهم)، «من» في ﴿منهم﴾: اتصاليّة، كقوله تعالى: ﴿الْمُنْتَفِقُونَ وَالْمُنْتَفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧].

قوله: (هلا قيل: لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم؟)، يعني: أصل الكلام هذا؛ لأن المخاطبين من بحضرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه. وقلت: الأصل أيضاً: وظننتم بها، أي: بأُمّ المؤمنين رضي الله عنها خيراً، فلم عدل عن الخطاب إلى العيبة، وعن المضمر إلى المظهر، ومن المفرد إلى الجماعة؟ وخلاصة الجواب: أن في العدول من الخطاب إلى العيبة توبيخ المخاطبين ومُعاباة شديدة وإبعاداً من مقام الرُفّي، أي: كيف سمعوا ما لا ينبغي الإصغاء إليه، فضلاً عن أن يتفوهوا به؟ وفي العدول من المضمر إلى المظهر: الدلالة على أن صفة الإيذان جامعة لهم، فينبغي لمن اشترك فيها أن لا يسمع فيمن شاركه فيها قول عائب، ولا طعن طاعن، لأن عيب أخيه عيبه، والطعن فيه طعن فيه.

ولمَّ عُدِلَ عن الخِطَابِ إلى الغيبة، وعن الضميرِ إلى الظاهر؟ قلت: لِيُبْلَغَ في التوبيخِ بطريقة الالتفات، وليُصْرَحَ بلفظِ الإيِّان؛ دلالةً على أن الاشتراك فيه مُقتَضِيٌّ أن لا يُصدَّقَ مؤمنٌ على أخيه ولا مؤمنةٌ على أختها قولَ غائبٍ ولا طاعِنٍ. وفيه تنبيهٌ على أنَّ حقَّ المؤمن إذا سَمِعَ قاله في أخيه، أن يَبَيِّنَ الأمرَ فيها على الظنِّ لا على الشكِّ، وأن يقولَ بِمِلاءٍ فِيهِ بناءً على ظنِّه بالمؤمن الخير: ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، هكذا بلفظِ المُصرِّحِ ببراءةِ ساحته، كما يقولُ المستيقِنُ المُطلِّعُ على حقيقةِ الحال. وهذا من الأدبِ الحَسَنِ الذي قَلَّ القائمُ به والحافظُ له، ولَيْتَكَ تَجِدُ مَنْ يَسْمَعُ فَيَسْكُتُ ولا يُسَيِّعُ ما سَمِعَهُ بأخوات!

[﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ

الْكَاذِبُونَ﴾ ١٣]

رَوَيْنَا عن البخاريِّ ومسلم، عن أبي هريرة، عن رسولِ الله ﷺ، أنه قال: «كُونُوا إِخْوَانًا كما أَمَرَكم، المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمُهُ، ولا يَحْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ»^(١). وعن البخاريِّ وأحمد ابن حنبلٍ، عن أبي موسى، قال: «المؤمنُ كالْبُنْيَانِ، يُشَدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(٢). ولهذا فَسَّرَ قوله: ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾: بالمؤمنينَ والمؤمناتِ، وفي العُدُولِ من المفردِ إلى الجماعةِ وسلوكِ طريقِ الكِنَايَةِ الإِشعارُ بتعظيمِ شأنِها، ورفعةِ منزلتها.

وفيه أيضًا أن النبي ﷺ أبو المؤمنين، وأزواجه أمهاتهم، واستعظامُهُ يَرْجِعُ إلى استعظامِهم، والقالةُ فيه كالقالةِ في أنفُسِهِمْ، ثم في انضمامِ لفظِ الظنِّ مَعَهُ إِدماجٌ وتنبيهٌ على أنه إذا سَمِعَ المؤمنُ في أخيه المؤمن ما يَشِينُهُ^(٣) يَبَادِرُ إلى بناءِ الأمرِ على الظنِّ الراجحِ بأنَّ الأصلَ براءةُ ساحةِ المؤمنِ عن كُلِّ سَنارٍ وَعَيْبٍ، ولا يَبَيِّنُ على الشكِّ فيه. هذا ما يَخْتَصُّ بالباطنِ. وأمَّا بالظاهر، فيُصْرِّحُ بالقولِ الدالِّ على الشَّهادةِ لَهُ بالخَيْرِ، وتزبيهِه عن كُلِّ سُوءٍ، ولا يَتَلَعَّمُ في الكلامِ، ويقولُ بِمِلاءٍ فِيهِ: هذا إِفْكٌ مُّبِينٌ، وَمِنْ ثَمَّ قال: «هذا من الأدبِ الحَسَنِ».

(١) أخرجه بهذا اللفظ البخاري (٦٩٥١) ومسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥)، وانظر تميم تحريجه في «مسند أحمد» (١٩٦٤٠).

(٣) من قوله: «النبي ﷺ أبو المؤمنين» إلى هنا سقط من (ط).

جعل الله التَّفَصِيلَةَ بين الرَّمِيِّ الصادق والكاذب ثُبُوتَ شَهَادَةِ الشُّهُودِ الأربعة وانتفاءها، والذين رَمَوْا عَائِشَةَ لم تكن لهم بَيِّنَةٌ على قولهم، فقامت عليهم الحُجَّةُ، وكانوا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ - أي: في حُكْمِهِ وشَرِيعَتِهِ - كاذبين. وهذا تَوْبِيخٌ وتعنيفٌ للذين سَمِعُوا الإِفْكَ فلم يَجِدُوا في دَفْعِهِ وإنكاره؛ واحتجاجٌ عليهم بما هو ظاهرٌ مكشوفٌ في

قوله: (أي: في حُكْمِهِ وشَرِيعَتِهِ كاذبين)، قال: «في حُكْمِهِ وشَرِيعَتِهِ»، دونَ «عِلْمِهِ»؛ لِيُؤْذِنَ بأنه تعالى إذا أحاطَ بوقوع الزَّنى علمًا، ولم يأتِ القاذفُ بالشُّهداءِ يُحْكَمُ بمقتضى الشُّهودِ، دونَ العِلْمِ؛ ولهذا قال صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ في حديثِ شَرِيكَ بنِ سَحْمَاءَ بعدَ ما رأى الوَلَدَ مُشَابِهًا لِلزَّانِي: «لولا كتابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لكان لي ولها شأنٌ».

فإن قلت: إنما اختلفَ الناسُ في أنَّ الخَبَرَ الكاذبَ هل هو: ما لا يُطابِقُ الواقعَ، أو هو: ما لا (١) يُطابِقُ اعتقادَ المُخْبِرِ، وهو أمرٌ ثالثٌ؟ قلتُ: مطابِقَةُ الواقعِ على هذا إمَّا مطابِقَةُ نفسِ الأمرِ، أو مطابِقَةُ حُكْمِ الشَّارِعِ، لأنَّ الشَّارِعَ يَقْطَعُ الحُكْمَ على الظاهرِ كما وَرَدَ: نحنُ نَحْكُمُ بالظاهرِ، واللهُ يتولَّى السُّرَاتِرَ.

قوله: (وهذا تَوْبِيخٌ وتعنيفٌ للذين سَمِعُوا الإِفْكَ)، «لولا» هاهنا فيها معنى التعنيفِ؛ لكونِ مدخولِها ماضيًا، أي: لمَ ما وُجِدَ إتيانُ الشُّهداءِ، وهَلَّا جاءتِ العُصْبَةُ الكاذبَةُ على قَدْفِهِم بالشُّهداءِ؟ يعني لمَ وَقَعَ التَّقْصِيرُ منكم أيُّها السامعونُ في طلبِ البَيِّنَةِ في الحالِ، وحين لم يُقِيموها: لِمَ (٢) ما أسرعتُم في تكذيبِهِم وتكليلِهِم في الحالِ، وتَرَكْتُمُ الشُّنْعَاءَ (٣) حتَّى فَشْتُمْ؟

وقوله: (وهذا تَوْبِيخٌ وتعنيفٌ للذين سَمِعُوا الإِفْكَ فلم يَجِدُوا في دَفْعِهِ)، وذلك أن معنى ﴿لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ﴾: لمَ توقفتُم في الرَّدِّ على الرامِينَ وتكذيبِهِم، فهَلَّا جاءوكم حينَ قَدَفُوا بالبَيِّنَةِ وَحَقَّقُوا قولَهُم بإقامةِ الشُّهداءِ الذين يَثْبُتُ بهم أمثالُ هذه الدَّعاوى؟ فإذا

(١) سقطت لفظة «لا» من (ح) و(ف).

(٢) سقطت لفظة «لِمَ» من (ح) و(ف).

(٣) يعني قائلُ السوءِ الفاحشة.

الشَّرع؛ من وُجوبِ تكذيبِ القاذِفِ بغيرِ بيِّنَةٍ، والتَّنكيلِ به إذا قَذَفَ امرأةٌ مُحصَّنةً من عُرُضِ نساءِ المسلمين، فكيفَ بأَمِّ المؤمنين الصُّدِّيقَةِ بنتِ الصُّدِّيقِ حُرْمَةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ وحبِيبَةِ حَبِيبِ اللَّهِ؟!

[﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّتْكَرِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ١٤-١٥]

﴿لَوْلَا﴾ الأولى للتَّحْضِيضِ، وهذه لامتناعِ الشَّيْءِ لوجودِ غيرِهِ. والمعنى: ولولا أَني قَضَيْتُ أَن أَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الدُّنْيَا بِضُرُوبِ النِّعَمِ الَّتِي مِنْ جُهْلَتِهَا الإِمهَالُ لِلتَّوْبَةِ، وَأَن أترَحَّمْ عَلَيْكُمْ فِي الآخِرَةِ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ؛ لَعَاجَلْتُكُمْ بِالْعِقَابِ عَلَى مَا خُضْتُمْ فِيهِ مِنْ حَدِيثِ الإِفْكِ. يُقَالُ: أَفَاضَ فِي الْحَدِيثِ، وَانْدَفَعَ، وَهَضَبَ، وَخَاضَ. ﴿إِذْ ظَرَفْتُ لِمَسَّكُمْ﴾، أَوْ لِمَ أَفَضْتُمْ. ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾: يَأْخُذُهُ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ. يُقَالُ: تَلَقَّى الْقَوْلَ وَتَلَقَّنَهُ وَتَلَقَّفَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧].

لم يأتوا بهم، قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، فَلَمْ تَوْقِفْتُمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَأَبْطَأْتُمْ فِي الْقَوْلِ بِأَنَّ هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ؟ وَكَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لِأَنَّ فِي تَقْدِيمِ الظَّرْفِ عَلَى عَامِلِهِ تَوْبِيخًا عَلَى التَّوَانِي فِي الرَّدِّ، يَعْنِي: كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْكُمْ عِنْدَ سَمَاعِكُمْ بِالْإِفْكِ تَمَّ حَيْثُئِذْ أَنْ لَا تَتَوَقَّفُوا عَنِ ظَنِّ الْحَقِيرِ، وَعَنِ تَكْذِيبِ الرَّامِينَ، وَالْقَوْلُ بِأَنَّ هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ، فَلَمْ تَوَانَيْتُمْ فِيهِ؟ قَوْلُهُ: (مِنْ عُرُضِ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ)، يُقَالُ: فَلَانٌ مِنْ عُرُضِ الْعَشِيرَةِ، أَي: شِقَّهَا، لَا مِنْ صَمِيمِهَا، وَأَصْلُ الْعُرُضِ: الْجَانِبُ. الْأَسَاسُ: وَاسْتَعْرَضَ الْخَوَارِجُ النَّاسَ: إِذَا خَرَجُوا لَا يُبَالُونَ مَنْ قَتَلُوا.

قَوْلُهُ: (﴿لَوْلَا﴾ الأولى للتَّحْضِيضِ)، يَعْنِي فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، و﴿لَوْلَا جَاءُوا﴾، وَإِنَّمَا جَعَلَهَا وَاحِدًا وَهُمَا شَيْئَانِ؛ لِأَنَّ مَفْهُومَهَا وَاحِدٌ، وَلِأَنَّ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ الْمُسْتَدْرَةَ بِـ«لَوْلَا» كَالْتَقْرِيرِ لِلأُولَى، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي جَوَابِ «هَلَا قِيلَ»: لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ: «لِيُبَالِغَ فِي التَّوْبِيخِ».

وَقُرِيَ عَلَى الْأَصْلِ: (تَلَقَّوْنَهُ)، و(إِتْلَقُونَهُ) بِإِدْغَامِ الذَّالِ فِي التَّاءِ، و(تَلَقَّوْنَهُ) مِنْ: لَقِيَهُ، بِمَعْنَى: لَقِيَهُ؛ و(تَلَقَّوْنَهُ) مِنْ إِقَاتِهِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ؛ و(تَلَقَّوْنَهُ) و(تَلَقَّوْنَهُ) مِنْ الْوَلَقِ وَالْأَلَقِ؛ وَهُوَ الْكَذِبُ؛ و(تَلَقَّوْنَهُ) مُحْكِمَةٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَعَنْ سَفِيَانَ: سَمِعْتُ أُمَّي تَقْرَأُ: (إِذْ تُثَقِّفُونَهُ)، وَكَانَ أَبُوهَا يَقْرَأُ بِحَرْفِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾، وَالْقَوْلُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْفَمِّ؟ قُلْتَ: مَعْنَاهُ: أَنَّ الشَّيْءَ الْمَعْلُومَ يَكُونُ عِلْمُهُ فِي الْقَلْبِ، فَيُتْرَجُّ عَنْهُ اللِّسَانُ، وَهَذَا الْإِفْكَ لَيْسَ إِلَّا قَوْلًا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَتِكُمْ وَيَدُورُ فِي أَفْوَاهِكُمْ مِنْ غَيْرِ تَرْجُمَةٍ عَنْ عِلْمِ

قَوْلِهِ: (وَقُرِيَ عَلَى الْأَصْلِ: «تَلَقَّوْنَهُ»)، قَالَ ابْنُ جُنَيٍّْ: قَرَأْتُ عَائِشَةَ وَابْنَ عَبَّاسَ وَابْنَ يَعْمَرَ: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ»، وَقَرَأَ ابْنُ السَّمِينِ: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ»، وَقَرَأَ الْجَمَاعَةُ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّي تَقْرَأُ: «إِذْ تُثَقِّفُونَهُ»، قَالَ: وَكَانَ أَبُوهَا يَقْرَأُ كَمَا يَقْرَأُ عَبْدُ اللَّهِ. وَقَالَ: مَعْنَى «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ»: تُسْرِعُونَ فِيهِ وَتُخْفُونَ إِلَيْهِ، وَأَصْلُهُ: تَلَقَّوْنَهُ فِيهِ أَوْ إِلَيْهِ، فَحَذَفَ حَرْفَ الْجُرِّ، وَأَوْصَلَ الْفِعْلَ. وَأَمَّا «تَلَقَّوْنَهُ» فَمَعْنَاهُ: تَلَقَّوْنَهُ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ، وَأَمَّا «تُثَقِّفُونَهُ» فَمِنْ: ثَقِفْتَ الشَّيْءَ: إِذَا طَلَبْتَهُ وَأَدْرَكْتَهُ، أَي: تَتَصَيَّدُونَ الْكَلَامَ فِي ذَلِكَ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا^(١).

رُوِيَ عَنِ الْمُصَنِّفِ أَنَّهُ قَالَ: تَلَقَّوْنَهُ، أَصْلُهُ مِنَ الْوَلَقِ، وَهُوَ السَّرْعَةُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: نَاقَةٌ وَلَقَى أَي: سَرِيعَةٌ، وَمِنْهُ الْوَلَقُ: لِلْمَجْنُونِ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ مِنْ بَابِ السُّكُونِ وَالتَّهَاسُكِ، وَالْجُنُونُ مِنْ بَابِ التَّسْرُّعِ وَالتَّهَافُتِ.

وَرَوَيْنَا عَنِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا كَانَتْ تَقْرَأُ: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ»، وَتَقُولُ: الْوَلَقُ: الْكَذِبُ^(٢)، وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: وَكَانَتْ أَعْلَمَ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهَا؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ فِيهَا، وَقَالَ ابْنُ الْأَثَرِيِّ: هُوَ مِنْ: وَلَقَ الْحَدِيثَ، أَي: أَنْشَأَهُ.

قَوْلُهُ: (وَهَذَا الْإِفْكَ لَيْسَ إِلَّا قَوْلًا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَتِكُمْ)، الْإِنْتِصَافُ: أَوْ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ تَوْبِيحًا، كَقَوْلِكَ: أَتَقُولُ ذَلِكَ بِمَلَأَ فِيكَ؟ فَإِنَّ الْقَائِلَ رَبِّمَا رَمَزَ أَوْ

(١) «المحتسب» (٢: ١٠٤-١٠٥) ولتتام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٢٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٤١٤٤).

به في القلب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، أي: تحسبونه صغيرة وهو عند الله كبيرة موجبة. وعن بعضهم: أنه جزع عند الموت،

عرض، وربما تشدق جازماً كالعالم، وقد قيل هذا في قوله: ﴿بَدَتِ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]. وقال صاحب «الفرائد»: يُمكنُ أن يُقال: فائدةٌ ذَكَرَ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أن لا يُظنَّ أنهم قالوا ذلك بالقلب؛ لأنَّ القولَ يُطلقُ على غير الصادِرِ مِنَ الأفواهِ ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقول الشاعر:

وإن أتاه خليلٌ يومَ مسألةٍ يقولُ: لا غائبٌ مالي ولا حريمُ^(٢)

وقال:

إنَّ الكلامَ لَفِي الفؤادِ وإنَّها جعلَ اللسانَ على الفؤادِ دليلاً^(٣)

ولأنَّ الذِّكْرَ باللسانِ أشنعُ وأقبحُ من الذِّكْرِ بالقلبِ، لأنَّ الذِّكْرَ باللسانِ لا يمكنُ بدونِ الذِّكْرِ بالقلبِ، والذِّكْرُ بالقلبِ يُمكنُ بدونه، فيكونُ الإثمُ مُضاعفًا.

وقلتُ: النَّظْمُ مع المصنِّفِ، لأنَّه تعالى يعدُّ على المؤمنين ما جرى منهم في حديثِ الإفكِ من تهاونهم فيه، وتغميضهم في ذلك، الأمرَ العظيمِ، كما سبقَ في قوله: ﴿أَوَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾، ﴿أَوَلَا جَاءَ أَوْ﴾، فلما فرغَ من ذِكْرِ الرَّاِمِينَ سَرَعَ في ذِكْرِ الَّذِينَ قَبِلُوا مِنْهُمْ ذَلِكَ الرَّمِيَّ، يعني: ما كَفَأَكُمْ تهاونكم في تكذيبِ الرَّاِمِينَ حتَّى بَلَغَ ذَلِكَ الأمرُ أنْفُسَكُمْ إذْ كُنْتُمْ تَأْخُذُونَ تلكَ العظيمةَ منهم، وتُلْقَوْنَهُ بِالسِّتِّكُمْ مِنْ غيرِ أنْ تُحَقِّقُوا هل يجوزُ ذلكُ أم لا؟ وحتَّى كُنْتُمْ تقولونَه أيضًا بأفواهكم مِنْ غيرِ رَوِيَّةٍ وفِكرٍ، وكنتم تحسبونُ أنه مِنْ قَبِيلِ الأراجيفِ والحُرِّافَاتِ لا تُبَالُونَ فيه وهو عندَ الله عظيم.

قوله: (كبيرة موجبة)، أي: للنار، وقيل: للخلود فيها، سواءً بينَ الشُّركِ والكبيرةِ بناءً على مذهبه^(٤).

(١) لفظة «لا» سقطت من (ح) و(ف).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) المشهورُ أنه للأختلِ التَّغْلِي، وليس في «ديوانه».

(٤) يعني: في تخليدِ أهلِ الكبائر.

فقيل له، فقال: أخافُ ذنباً لم يكن مني على بالٍ وهو عند الله عظيم. وفي كلام بعضهم: لا تقولنَّ لشيء من سيئاتك: حقير؛ فلعله عند الله نخلة وهو عندك نكير. وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام، وعلّق مسّ العذاب العظيم بها؛ أحدها: تلقّي الإفك بالستهم؛ وذلك أنّ الرجل كان يلقي الرجل فيقول له: ما وراءك؟ فيحدّثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر؛ فلم يبق بيت ولا نادٍ إلا طار فيه. والثاني: التكلم بما لا علم لهم به. والثالث: استصغارهم لذلك، وهو عظمة من العظام.

[﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ١٦]

فإن قلت: كيف جاز الفصل بين ﴿لَوْلَا﴾ و﴿قُلْتُمْ﴾؟ قلت: للظروف شأن؛ وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها؛ لوقوعها فيها، وأنها لا تنفك عنها؛ فلذلك يتسّع فيها ما لا يتسّع في غيرها. فإن قلت: فأى فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً؟ قلت: الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أوّل ما سمعوا بالإفك عن التكلم به، فلمّا كان ذكر الوقت أهمّ وجب التقديم. فإن قلت: فما معنى ﴿يَكُونُ﴾، والكلام بدونه مثلث لو قيل: ما لنا أن نتكلم بهذا؟ قلت: معناه معنى: ينبغي، ويصح، أي: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا، و: ما يصح لنا. ونحوه: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾

قوله: (نكير)، نكير النواة: نُقِرْتَهَا، وفتيلها: الحَيْطُ الذي في الثّرة، وقطميرها: الجلدَةُ الرّقيقة اللاصقة بها.

قوله: (كيف جاز الفصل بين ﴿لَوْلَا﴾ و﴿قُلْتُمْ﴾؟)، يعني: كان من حقّ الظاهر أن يقال: لولا قلتم إذ سمعتموه؛ أي: هلا قلتم: ما ينبغي لنا أن نتكلم بهذا إذ سمعتموه؟

قوله: (أن يتفادوا)، الجوهرى: تَفَادَى الرَّجُلُ مِنَ كَذَا: إِذَا تَحَامَاهُ وَانْتَرَوَى عَنْهُ.

قوله: (مثلث)، أي: مستقيم. الجوهرى: اتلأب الأمر اتلثباً: استقام.

[المائدة: ١١٦]. و﴿سُبْحَانَكَ﴾ للتعجب من عظم الأمر. فإن قلت: ما معنى التعجب في كلمة التسييح؟ قلت: الأصل في ذلك أن يُسَبَّحَ اللهُ عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل مُتَعَجَّبٍ منه، أو لتزويه الله من أن تكون حُرْمَةٌ نَبِيَّهَ فَاجِرَةٌ. فإن قلت: كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرًا كامرأة نوح ولوط، ولم يُجْزَ أن تكون فاجرة؟ قلت: لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعُوهم ويستعطفُوهم، فيجب أن لا يكون معهم ما يُنْفِرُهُم عنهم، ولم يكن الكُفْرُ عندهم مَّا يُنْفِرُ، وأما الكَشْحَنَةُ فمن أعظم المنفّرات.

[﴿يَعْظُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَبَيَّنَّ اللهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿١٧-١٨﴾]

أي: كراهة ﴿أَنْ تَعُودُوا﴾، أو: في أن تعودوا، من قولك: وعظت فلاناً في كذا

قوله: (وأما الكَشْحَنَةُ فمن أعظم المنفّرات)، المُغْرِبُ: الكَشْحَانُ بالشينِ المثلثة والخاء المعجمة: الديوث الذي لا غيره له، وكشخه وكشخته: سَمَمَتَهُ^(١). وفي حاشية «الصّحاح» بخط ابن الحبيب: قال الخليل: الكَشْحَانُ ليس من كلام العرب، بل مُعْرَبٌ، ويقال للشاتم: لا تكشخ فلاناً.

الانتصاف: لم أعلم كلاماً أبرَدَ من هذا، وكيف يخفى مثله على ذي لب^(٢).

قوله: (أو: في أن تعودوا)، يعني: ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ يقتضي الزجر والمنع، كأنه قيل: يُذَكِّرُكُمْ اللهُ وَيُخَوِّفُكُمْ في شأنِ العودِ إلى مثله.

قال أبو البقاء: حَذَفَ حرفَ الجرِّ حَمَلًا على معنى يَعْظُمُكُمْ، أي: يَزْجُرُكُمْ عن العود^(٣).

(١) «المغرب في ترتيب المعرب» (٢: ٢٢١).

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٢٢٠).

(٣) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ٩٦٧).

فَتَرَكَه. وَأَبْدُهُمْ: ما داموا أحياءً مُكَلَّفِينَ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فيه تهييجٌ لهم لِيَتَّعِظُوا، وتذكيرٌ بما يوجبُ تَرْكَ الْعُودِ؛ وهو اتِّصافُهُم بِالْإِيْمَانِ الصَّادِّ عَنْ كُلِّ مُقَبَّحٍ.

وَبَيَّنَّ اللهُ لَكُمْ الدَّلَالَاتِ عَلَى عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ بِمَا يُنْزَلُ عَلَيْكُمْ مِنَ الشَّرَائِعِ، وَيُعَلِّمُكُمْ مِنَ الْآدَابِ الْجَمِيلَةِ، وَيَعْظُمُكُمْ بِهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ الشَّافِيَةِ، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَاعِلٌ لِمَا يَفْعَلُهُ بِدَوَاعِي الْحِكْمَةِ.

[إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾]

المعنى: يُشِيعُونَ الْفَاحِشَةَ عَنْ قَصْدٍ إِلَى الْإِشَاعَةِ، وَإِرَادَةَ وَحَبِيَّةَ لَهَا. وَعَذَابُ الدُّنْيَا: الْحَدُّ، وَلَقَدْ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي وَحْسَانَ وَمُسْطَحًا، وَقَعَدَ صَفْوَانُ لِحَسَانٍ فَضْرَبَهُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، وَكَفَّ بَصْرَهُ. وَقِيلَ: هُوَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ [النور: ١١]. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالضَّمَائِرِ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ مَحَبَّةَ مَنْ أَحَبَّ الْإِشَاعَةَ، وَهُوَ مُعَاقِبُهُ عَلَيْهَا.

يقال: عَادَهُ، وَعَادَ لَهُ، وَعَادَ إِلَيْهِ، وَعَادَ فِيهِ بِمَعْنَى. وَعَادَ لَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ إِعَادَةُ الْحَالَةِ الْأُولَى نَحْوَ: عَادَ إِلَيْهِ وَفِيهِ.

وقد يكونُ الْعُودُ: ابْتِدَاءُ الشُّرُوعِ فِي الشَّيْءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٨٩] أَي: نَشْرَعُ فِيهِ ابْتِدَاءً.

قَوْلُهُ: (وَتَذَكِيرٌ بِمَا يوجبُ تَرْكَ الْعُودِ)، يَرِيدُ أَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تَتِمِيمٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْظُمُكُمْ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾، إِمَّا لِلزَّجْرِ تَهْيِيجًا، وَإِمَّا لِلتَّحْرِيزِ عَلَى الْإِتِّعَاضِ تَعْلِيلًا، نَحْوَهُ سَيَجِيءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي﴾ فِي الْمُتَمَحِّنَةِ: [١]، وَهُوَ مِنَ الشَّرْطِ الَّذِي لَا يُضْمَرُ لَهُ الْجَزَاءُ لِتَحْقِيقِهِ.

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: هُوَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾)، يعني: التَّعْرِيفُ فِي ﴿الَّذِينَ

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [٢٠]

وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب، حاذفاً جواب ﴿ وَلَوْلَا ﴾ كما حذفه ثمة.

وفي هذا التكرير مع حذف الجواب مبالغة عظيمة، وكذلك في التواب والرؤوف والرحيم.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يُشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢١]

الفحشاء والفاحشة: ما أفرط قبحه. قال أبو ذؤيب:

يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴿ للعهد، والمعهود قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ ﴾، قال: «والذي تولىه عبد الله^(١)؛ لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ» يدل عليه قوله: ﴿ هَلَمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾، وهو الذي مات منافقا.

قوله: (وكرر المنة بترك المعاجلة بالعقاب) إلى قوله: (وكذلك في التواب والرؤوف والرحيم) يريد: أنه تعالى جعل هذا المعنى أولاً خاتمة لأحكام الزاني والرامي والملاعن، ثم أتى به في حديث الإفك للإيدان بأتمها سيان في استيجاب سخط الله ونكاله ولعنه، وجعل الفاصلة هنالك ﴿ تَوَابٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١٠] وههنا ﴿ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ تنبيها على أن هذا أعظم من ذلك، وأن هذا مما لا يرفع بالتوبة، لكن بمحض رحمة ورأفته، ولهذا كَرَّرَ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ ﴾ في حديث الإفك مرارا ثلاثا. وكما جعل ذلك خاتمة لتلك الآيات جعله مفتتحا لهذه العظيمة. ويمكن أن يُحْمَلَ قول ابن عباس على هذا المعنى، وهو: من أذنب ذنبا، ثم تاب منه قبلت توبته، إلا من خاض في أمر عائشة رضي الله تعالى عنها^(٢).

(١) يعني: ابن أبي بن سلول.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨٧٥٨) بإسناد فيه مجهول، ولتمام الفائدة انظر: «تخرج

أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢: ٤٢٤).

ضرائر حِزْمِيٍّ تَفَاحَشَ غَاظُهَا

أي: أفرطتْ غَيْرُتُهَا.

والمُنْكَرُ: ما تُنْكَرُهُ النُّفُوسُ فَتَنْفِرُ عَنْهُ وَلَا تَرْتَضِيهِ. وَقُرِي: (حُطَّوَات) بفتحِ الطاءِ وَسُكُونِهَا. وَ (زَكَّى) بِالتَّشْدِيدِ، وَالضَّمِيرُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِالتَّوْبَةِ الْمُمَحَّصَةِ، لَمَا طَهَّرَ مِنْكُمْ أَحَدٌ آخَرَ الدَّهْرَ مِنْ دَنْسِ إِثْمِ الْإِفْكِ، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ يُطَهِّرُ التَّائِبِينَ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ إِذَا مَحْضَوْهَا، وَهُوَ ﴿سَمِيْعٌ﴾ لِقَوْلِهِمْ ﴿عَلَيْمٌ﴾ بِضَمِّهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ.

[﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْبُدُوا وَيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٢٢]

قوله: (ضرائر حِزْمِيٍّ تَفَاحَشَ غَاظُهَا)، أوله في «المطلع»:

هُنَّ نَشِيْجٌ بِالنَّشِيْلِ كَأْتَمَا^(١)

يَصِفُ قُدُورًا وَصَوْتَ غَلِيَانِهَا بِاللَّحْمِ. نَشَجَ نَشِيْجًا: إِذَا بَكَى حَتَّى يُسْمَعَ لَذَلِكَ صَوْتُ، وَنَشَجَ الْقِدْرُ: إِذَا غَلَى حَتَّى يُسْمَعَ لَذَلِكَ صَوْتُ. وَنَشَلُ اللَّحْمِ مِنَ الْقِدْرِ: انْتِزَاعُهُ مِنْهَا، وَالنَّشِيْلُ: لَحْمٌ يُطْبَخُ بِلا تَوَابِلِ، وَالْحِزْمِيُّ: الْمُنْسُوبُ إِلَى الْحَرَمِ، وَهُوَ مِنَ التَّغْيِيْرَاتِ فِي النِّسْبَةِ، كَمَا يُقَالُ: بَضْرِيٌّ وَبِضْرِيٌّ. تَفَاحَشَ غَاظُهَا، أَي: أَفْرَطَتْ غَيْرُتُهَا، وَإِنَّمَا خُصَّتْ بِهَا لِأَنَّ أَهْلَ الْحَرَمِ دَأْبُهُمُ الرَّحِيْلُ وَالتَّجَارَاتِ، فَإِذَا قَدِمُوا بِالتَّحْفِ وَالطَّرْفِ يَتَخَاصَمْنَ عَلَيْهَا وَيَتَغَايِرْنَ.

قوله: (والمُنْكَرُ: ما تُنْكَرُهُ النُّفُوسُ)، أَي: النُّفُوسُ الشَّرِيْفَةُ الْقُدْسِيَّةُ الطَّاهِرَةُ مِنْ أَوْصَارِ الدُّنُوبِ وَأَوْسَاخِ الْآثَامِ، وَإِلَّا فَالنَّفْسُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ مَائِلَةٌ إِلَى الشَّهَوَاتِ، وَإِلَى مَا يَدْعُوهُ الشَّيْطَانُ مِنَ اللَّذَاتِ.

قوله: (المُمَحَّصَةُ)، الْجَوْهَرِيُّ: مَحَّضْتُ الذَّهَبَ بِالنَّارِ: إِذَا خَلَصْتَهُ مِمَّا يُشَوِّبُهُ.

(١) لأبي ذؤيب الهللي. انظر: «شرح ديوان الهذليين» (١: ٧٩).

وهو من: اتلى؛ إذا حلف، افتعال من الألية. وقيل: من قولهم: ما ألوتُ جهداً، إذا لم تدخر منه شيئاً. ويشهدُ للأوّل قراءةُ الحسن: (ولا يتأل). والمعنى: لا يحلفوا على أن لا يُحسِنوا إلى المُستحقِّين للإحسان. أو: لا يقصروا في أن يُحسِنوا إليهم وإن كانت بينهم وبينهم شحناً لجنابةِ اقترافِها، فليعودوا عليهم بالعفو والصّفح، وليفعلوا بهم مثل ما يرجون أن يفعل بهم ربهم، مع كثرةِ خطاياهم وذنوبهم.

نزلت في شأنِ مسطح، وكان ابنُ خالةِ أبي بكر الصّدِّيق رضي الله عنه، وكان فقيراً من فقراء المهاجرين، وكان أبو بكرٍ يُنفقُ عليه، فلما فرطَ منه ما فرطَ آلى أن لا يُنفقَ عليه. وكفى به داعياً إلى المُجاملَةِ وتركِ الاشتغال بالمكافأة للمُسيء. ويُروى: أن رسولَ الله ﷺ قرأها على أبي بكر، فقال: بلى أحبُّ أن يغفرَ اللهُ لي. ورجع إلى مسطح نفقته، وقال: واللّهِ لا أنزعها أبداً. وقرأ أبو حيوةَ وابنُ قُطيّب: (أن توتوا) بالتاء على الالتفات، ويعضدهُ قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

[﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٣﴾]

قوله: (نزلت في شأنِ مسطح)، حديثُ الإفكِ أورده بتوامه البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ، عن عائشة رضي الله عنها، وفيه: قال أبو بكرٍ رضي الله عنه، وكان يُنفقُ على مسطح بنِ أثانةٍ لقرابته منه وفقره: والله لا أنفقُ على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة، فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ الحديث (١).

قوله: (وكان ابنُ خالةِ أبي بكر الصّدِّيق رضي الله عنه، وكان فقيراً من فقراء المهاجرين)، أراد أن الواو العاطفة بين الصّفات، يعني في قوله: ﴿أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ الواردة في شأنِ مسطح؛ للدلالة على أن هذا الموصوف جامع لها. قال القاضي: يجوز أن تكون الصّفات لموصوفاتٍ أُقيمت مقام الصّفات، فيكون أبلغ في تعليل المقصود (٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ١٨٠).

﴿الْعَفْلَكِ﴾: السَّلِيمَاتِ الصُّدُورِ، النَّقِيَّاتِ الْقُلُوبِ، اللَّاتِي لَيْسَ فِيهِنَّ دَهَاءٌ، وَلَا مَكْرٌ؛ لِأَنَّهُنَّ لَمْ يُجَرَّبْنَ الْأُمُورَ، وَلَمْ يَرُزْنَ الْأَحْوَالَ، فَلَا يَفْطُنَنَّ لِمَا تَفْطُنُ لَهُ الْمَجْرِبَاتِ الْعَرَافَاتِ. قَالَ:

وَلَقَدْ لَهَوْتُ بِطَفْلَةٍ مَيَّالَةٍ بَلْهَاءٌ تُطَلِّعُنِي عَلَى أَسْرَارِهَا

وكذلك البُلهُ من الرِّجالِ في قوله عليه الصلاة والسلام: «أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلهُ».

[﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ ٢٤ - ٢٥]

قوله: (ولقد لهوتُ بطفلةٍ بطفلة) البيت^(١)، لهوتُ: لعبت. والطفلةُ بفتح الطاء: جاريةٌ ناعمةٌ مَيَّالَةٌ، ويقال: غصنٌ مَيَّالٌ. البلهاءُ: التي لا مكرَ فيها ولا دهاء.

قوله: (أكثرُ أهلِ الجنةِ البلهُ)^(٢)، النِّهايةُ: هُوَ جَمْعُ الْأَبْلَهَةِ، وَهُوَ الْغَافِلُ عَنِ الشَّرِّ، الْمَطْبُوعُ عَلَى الْخَيْرِ، وَقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ سَلَامَةُ الصُّدُورِ وَحُسْنُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ؛ لِأَنَّهُمْ أَغْفَلُوا أَمْرَ دُنْيَاهُمْ، فَجَهَلُوا حِذْقَ التَّصَرُّفِ فِيهَا، وَأَقْبَلُوا عَلَى آخِرَتِهِمْ فَشَغَلُوا نَفْسَهُمْ بِهَا، فَاسْتَحَقُّوا أَنْ يَكُونُوا أَكْثَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَأَمَّا الْأَبْلَهُ الَّذِي لَا عَقْلَ لَهُ فَغَيْرُ مُرَادٍ فِي الْحَدِيثِ.

وقلتُ: لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامَ مَدْحٍ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُأَوَّلَ بِمَا يَنْبَغِي عَنِ الْمَدْحِ، وَكَذَلِكَ الْغَافِلَاتِ، وَلِذَلِكَ أَطْنَبَ الْمَصْنُفُ فِيهَا. وَمَنْهُ: مَا رَوَيْنَا عَنْ أَبِي دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُؤْمِنُ عِرٌّ كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ لَثِيمٌ»^(٣).

(١) البيت للنمر بن تولب، كما عزاه إليه الزمخشري في «الفائق» (١: ١٢٨).

(٢) أخرجه البزار في «المسند» (٦٣٣٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢: ٤٩٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وفي إسناده سلامة بن روح ضعفه غير واحد من نقاد الحديث.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٢) والتِّرْمِذِيُّ (١٩٦٤) والبزار في «المسند» (٨٦٢١) وأبو يعلى (٦٠٠٧) وقال التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَقُرِئَ: (يشهد) بالياء. و﴿الْحَقَّ﴾ بالنصب: صفةٌ للدين؛ وهو الجزاء، وبالرَّفْعِ: صفةٌ لله. ولو فَلَيْتَ القرآنَ كُلَّهُ وَفَتَشَّتْ عَمَّا أُوْعِدَ بِهِ مِنَ الْعُصَاةِ لَمْ تَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَلَطَ فِي شَيْءٍ تَغْلِيظُهُ فِي إِفْكِ عَائِشَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَلَا أَنْزَلَ مِنَ آيَاتِ الْقَوَارِعِ، الْمَشْحُونَةَ بِالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ، وَالْعِتَابِ الْبَلِيغِ، وَالرَّجْرِ الْعَنِيفِ، وَاسْتِعْظَامِ مَا رُكِّبَ مِنْ ذَلِكَ، وَاسْتِفْظَاعِ مَا أُقْدِمَ عَلَيْهِ؛ مَا أَنْزَلَ فِيهِ عَلَى طُرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَسَالِيبَ مُفْتَنَّةٍ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا كَافٍ فِي بَابِهِ، وَلَوْ لَمْ يُنْزَلْ إِلَّا هَذِهِ الثَّلَاثُ لَكَفَى بِهَا، حَيْثُ جَعَلَ الْقَدْفَةَ مَلْعُونِينَ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعًا، وَتَوَعَّدَهُمْ بِالْعَذَابِ الْعَظِيمِ فِي الْآخِرَةِ، وَبَانَ أَلْسَتَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا أَفْكَوْا وَبَهْتَوْا، وَأَنَّهُ يُوفِيهِمْ جَزَاءَهُمُ الْحَقَّ الْوَاجِبَ الَّذِي هُمْ أَهْلُهُ، حَتَّى يَعْلَمُوا عِنْدَ ذَلِكَ ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾، فَأَوْجَزَ فِي ذَلِكَ

قوله: (وَقُرِئَ: «يشهد» بالياء)، التَّحْتَانِي: حمزةٌ والكَسَائِي، والْباقُونَ بِالتَّاءِ^(١).

قوله: (ولو فَلَيْتَ^(٢) القرآنَ)، الجوهري: فَلَيْتُ الشَّعْرَ، إِذَا تَدَبَّرْتُهُ وَاسْتَخْرَجْتَ مَعَانِيَهُ وَغَرِيْبَهُ، عَنِ ابْنِ السَّكِّتِ.

قوله: (فأَوْجَزَ فِي ذَلِكَ)، أَي: فِي الْمَذْكُورِ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: «جَعَلَ اللَّهُ الْقَدْفَةَ مَلْعُونِينَ إِلَى آخِرِهِ».

قوله: (فأَوْجَزَ)، عَطْفٌ عَلَى «جَعَلَ»، عَلَى طَرِيقَةِ ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٣]، يَعْنِي: أَشْبَعَ الْكَلَامَ حَيْثُ لَمْ يَتْرُكْ مِنَ النَّكَالِ وَالْإِهَانَةِ وَاللَّعْنِ فِي الدَّارَيْنِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَشَهَادَةِ الْجَوَارِحِ، وَالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ بِتَوْفِيَةِ الْجَزَاءِ إِلَّا أَتَى بِهِ، وَبَالَغَ فِيهِ وَأَوْجَزَ، حَيْثُ جَاءَ بِالمَعَانِي الكَثِيرَةِ فِي الْأَلْفَاظِ القَلِيلَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَقَرَّرَ المَعَانِيَ الَّتِي تُعْطِيهَا هَذِهِ الْأَلْفَاظُ، وَيَسْتَوْفِي حَقَّهَا مِنَ البَيَانِ، أَطَالَ^(٣) وَأَطْنَبَ، وَفَصَّلَ وَأَجْمَلَ، حَيْثُ

(١) وَحِجَّةٌ مِنْ قَرَأَ بِالياءِ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهَا مَذْكَرٌ وَالْفِعْلُ مُقَدَّمٌ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْاسْمِ وَالْفِعْلِ بِقَوْلِهِ:

﴿عَلَيْتُمْ﴾، وَحِجَّةٌ مِنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ أَنَّهَا جَمَاعَةٌ. انْتَهَى بِتَصْرُفٍ مِنْ «حِجَّةِ الْقِرَاءَاتِ» ص ٤٩٦.

(٢) فِي (ح) وَ(ف): «قَلْبَتَ» بِالقَافِ وَالياءِ.

(٣) فِي (ح) وَ(ف): «لَأَطَالَ»، وَلَا وَجْهَ لَزِيادَةِ اللامِ.

وأشبع، وفصّل وأجمل، وأكدّ وكرّر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفطاعة، وما ذاك إلا الأمر.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يُسأل عن تفسير القرآن، حتى سُئل عن هذه الآيات، فقال: مَنْ أذنبَ ذنباً ثم تابَ منه قُبلتُ توبتهُ إلا مَنْ خاصّ في أمرٍ عائشة. وهذه منه مُبالغةٌ وتعظيمٌ لأمر الإفك. ولقد برأ الله تعالى أربعةً بأربعة: برأ يوسفَ عليه السلام بلسانِ الشاهد: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريمَ بإنطاقِ ولدها حين نادى من حجرها: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلوّ على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة بهذه المُبالغات. فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك! وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتنبيه على إنافة محلّ سيّد ولد آدم، وخيرة الأولين والآخرين، وحجّة الله على العالمين. ومن أراد أن يتحقّق عظمة شأنه ﷺ، وتقدّم قدمه، وإحرازه لقصبة السبق دون كلّ سابق؛ فليتلّق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله في حرمتها،

أوقع ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ بِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ إجمالاً لما سبق، وأكد وكرّر من حيث إنّ البذل، وهو قوله: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ﴾ بدّل تكرير للمُبدل وتوكيد له، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين إلا ما هو دونه في الفطاعة، وهو قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾. ويجوز أن يراد وجاء بالمذكور.

قوله: (وهذا منه مُبالغةٌ وتعظيم)، يعني: أنّ قوله: توبتهُ مَنْ خاصّ في أمر أمّ المؤمنين رضي الله تعالى عنها غير مقبولة، من باب التغليظ والمبالغة، وعليه مفهوم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآيات، أي: أنّها من باب التغليظ والمبالغة، نحو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ...﴾ [آل عمران: ٩٧]، وإليه أشار بقوله: «لم تر الله عز وجل قد غلظ في شيء تغليظه في إفك عائشة رضي الله عنها».

وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابيه. فإن قلت: إن كانت عائشة هي المرادة، فكيف قيل: ﴿المُحْصَنَاتِ﴾ [النور: ٢٣]؟ قلت: فيه وجهان؛ أحدهما: أن يُرادَ بالمُحْصَنَاتِ أزواج رسول الله ﷺ، وأن يُحْصَنَ بأنَّ مَنْ قَدَفَهِنَّ فهذا الوعيدُ لاحقٌ به، وإذا أُرِدْنَ وعائشةُ كبراهنَ منزلةً وقربةً عند رسول الله ﷺ؛ كانت المرادةُ أولاً. والثاني: أنها أمُّ المؤمنين؛ فجمعت إرادةً لها ولبناتها من نساء الأمة الموصوفات بالإحصان والعفلة والإيمان، كما قال:

قَدْنِي مِنْ نَضْرِ الْخُبَيْبِ قَدِي

أرادَ عبدَ الله بنَ الزُّبيرِ وأشياعه، وكانَ أعداؤه يُكنونه بخُبيبِ ابنه، وكانَ

قوله: (في نفي التهمة عن حجابيه)، «حجابه» أيضاً: كناية، تعظيماً لجانب رسول الله ﷺ. لله ذرّه، ما أحسنَ نظره وما أدقَّ فكره، وما أشدَّ حرصه في تعظيم جانب سيّد البشر، وخيرة الأولين والآخرين.

قوله: (وأن يُحْصَنَ)، عطفٌ على قوله: «أن يُرادَ بالمُحْصَنَاتِ» على البيان والتفسير، يعني: تخصيصُ العامِّ بأزواج الرسول ﷺ على معنى: مَنْ قَدَفَهِنَّ فهذا الوعيدُ لاحقٌ به، دونَ سائرِ النساءِ، لشرَفِهِنَّ وعلُوِّ مراتِبِهِنَّ. ولما جعلَ المُحْصَنَ الشَّرَفَ، وكانت عائشةُ كبراهنَ منزلةً، كانت المرادةُ أولاً. والحاصلُ: أن عائشةَ رضي اللهُ تعالى عنها هي المرادةُ بالمُحْصَنَاتِ لكنْ بمرّيتين.

قوله: (قَدْنِي مِنْ نَضْرِ الْخُبَيْبِ قَدِي)، تمامه:

ليس الإمامُ بالشَّحيحِ المُلحدِ^(١)

قَدْنِي: أي: حَسْبِي. المُلحد: أي: الذي ألحدَ في الحَرَمِ، أي^(٢): أقام الحَرْبَ فيه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) في (ح) و(ف): «حيث».

مَضْعُوفًا، وكُنِيته المشهورة أبو بكر، إلا أن هذا في الاسم وذلك في الصفة، فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾؟ قلت: معناه: ذو الحق البين، أي: العادل الظاهر العدل، الذي لا ظلمَ في حكمه، والمحق الذي لا يُوصَفُ بباطل. ومن هذه صفة لم تسقط عنده إساءة مُسيء، ولا إفسان مُحسن، فحقُّ مثله أن يُتَقَى وتُجْتَنَب شأَرُهُ.

[﴿الْحَيْثُوثُ لِلْحَيْثِينَ وَالْحَيْثُوثُ لِلْحَيْثِينِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾
 وَأَوْلَيْكَ مَبْرُوءٌ وَمِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْرَبٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾]

أي: ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾ من النساء، تُقَالُ أو تُعَدُّ ﴿للْحَيْثِينَ﴾ من الرجال والنساء،
 ﴿والْحَيْثُوثُ﴾ منهم يتعرَّضون ﴿للطَّيِّبَاتِ﴾ من القول.

وكذلك الطيبات والطيبون و﴿أَوْلَيْكَ﴾ إشارة إلى الطيبين، وأنهم مبرءون مما
 يقول الحيثون من خبيثات الكلام. وهو كلامٌ حارٌ مجرى المثل لعائشة وما رُميت به
 من قول لا يطابق حاتمًا في النزاهة والطيب.....

قوله: (مضعوفًا)، الجوهرية: تضعف: خلاف القوة، وأضعفت الشيء فهو مضعوف
 على غير قياس، وقيل: مضعوفًا: مضعفًا بالضعف ومضروبًا به كما يقال: رجلٌ مضعوفٌ أي:
 مضروبٌ بالركبة.

قوله: (أي: العادل الظاهر العدل)، قال القاضي: أي: الثابت بذاته، الظاهر ألوهيته،
 لا يُشاركه في ذلك غيره، ولا يُقْبَلُ إلى العواقب والعقابِ سواه^(١).

والمصنَّفُ قَبْدُ الْمُطْلَقِ - الذي لم يجرِ ﴿الْعَقْلُ﴾ - بالعدل، لاقتضاء مقام الحزاء إياه، بقريته
 قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّسُ اللَّهُ بِهِمُ الْحَوَّاءَ، وَجَعَلَ ﴿الْمَيْمِرُ﴾ رَضْفًا مَوْكِدًا لِقَوْلِهِ: ﴿الْحَقُّ﴾،
 فقال: «الظاهر العدل»، وجرَّحَ إلى الذمِّ، والقاضي بنى الكلام على القهارية، وأنه فاعل لما
 يشاء، لا رادَ حكمه، فترَكه على الإطلاق.

(١) «أنوار التنزيل» (٤): (١٨).

ويجوز أن يكون ﴿أَوْلِيَّكَ﴾ إشارة إلى أهل البيت، وأنهم مُبرَّزون مما يقول أهل

قوله: (ويجوز أن يكون ﴿أَوْلِيَّكَ﴾ إشارة إلى أهل البيت)، عطف على قوله: «أولئك: إشارة إلى الطيبين»، وما يُنبئ عن إرادة أهل البيت قوله: ﴿الْمُحَصَّنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، والآية - على الأول - عامة تذييل للكلام السابق، والمراد بالطيبين: كل من لم يُلوث جيبه بدنس الآثام، وبالخبِيثين: أضدادهم، وبالطيبات والخبِيثات: المقالات الموصوفة بها.

ولما كان الكلام مسوقاً لبرية ساحة أم المؤمنين دخلت فيها دخولاً أولياً، ومن ثم قال: «وهو كلام جار مجرى المثل لعائشة رضي الله عنها» وجعل قوله: «جار مجرى المثل» وروده مورد المثل في كونه يستحق أن يُشارَ به، ويُضرب في كل ما يصلح هذا المعنى فيه، لأن المثل قول سائر، مُثل مضر به بمورده^(١). هكذا ينبغي أن يتصور معنى المثل هنا، لا كما توهم.

وأورد على المصنّف أن لفظ المثل هاهنا ليس بجيد، ولفظ المُورد: أن المثل في هذا الكلام مُقحمٌ مُنحى مؤهّم، وهو أن يُنفى ولا يُكتَب. وأجيب: بأن المُورد غفل عن قول علماء المعاني: مثلك لا يبخل، بمعنى: أنت لا تبخل، وليس ثم مثل، وعن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] بل الحق أن لفظ المثل ليس بزائد، والمراد به ما ذكرناه: المثل لعائشة رضي الله تعالى عنها^(٢).

فإن قلت: «الخبِيثات» و«الطيبات» صفات لموصوفات، أما المقالات أو الذوات، فلم تُحصن في الوجه الأول بالمقالات. وفي الثاني بالنساء؟ قلت: إن ﴿أَوْلِيَّكَ﴾ لما كان إشارة إلى أهل البيت وفيهم الرجال والنساء، أوجب حملها على الذوات، وقد علم مما سبق من الآيات أن التبرّي مّم هو. وأما ﴿أَوْلِيَّكَ﴾ على الوجه الأول لما كان مُشاراً إلى الطيبين مُطلقاً وقد حُمِل على أولئك قوله: ﴿مُبرَّزون مما يقولون﴾، أوجب حمل «الخبِيثات» و«الطيبات» على المقالات، ليعلم أن قوله: ﴿مما يقولون لهم﴾ أي شيء هو؛ إذ الآية حينئذ مستقلة في الدلالة.

الانتصاف: وعلى الوجه الثاني يكون تفصيلاً لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿وَالرَّائِيَةَ لَآيِنِكُمْ هَا﴾

(١) من قوله: «وجعل قوله» إلى هنا، أثبتته من (ط).

(٢) من قوله: «وأجيب: بأن المُورد» إلى هنا، سقط من (ط).

الإفك؛ وأن يُرَادَ بالخبيثاتِ والطيباتِ: النساء، أي: الحَبَائِثُ يتزَوَّجْنَ الحَبَائِثَ،
والخَبَائِثُ الخَبَائِثُ. وكذلك أهلُ الطَّيِّبِ. وَذِكْرُ الرِّزْقِ الكَرِيمِ هَاهُنَا مِثْلُهُ فِي قَوْلِهِ:
﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١].

إِلَّا زَانٍ ﴿[النور: ٣]، فَصَرَّحَتْ الآيَةُ بِالْأَقْسَامِ الأربعةِ وَزِيادَةَ، وَهِيَ شَهِادَتُهَا عَلَى أَنَّ عَائِشَةَ
زَوْجَةَ أَطْيَبِ الطَّيِّبِينَ، فَلَا تَكُونُ إِلَّا طَاهِرَةً طَيِّبَةً. وَيُقَوِّي الثَّانِي أَيْضًا وَعُدُّهُمْ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرِّزْقِ
الكَرِيمِ، وَهُوَ الْمَوْعُودُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١] (١).

قَوْلُهُ: (وَذِكْرُ الرِّزْقِ الكَرِيمِ هَاهُنَا مِثْلُهُ فِي قَوْلِهِ)، أَي: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ
مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَمَلَّ صَدَلًا نَوَّتَهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:
٣١]، يَعْنِي: كَمَا أُرِيدُ بِالرِّزْقِ الكَرِيمِ هُنَاكَ الْبِشَارَةَ بِالْجَنَّةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُا
رِزْقًا كَرِيمًا﴾ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ
هَاهُنَا؛ لِأَنَّ الْآيَتَيْنِ مِثْلَانِ، وَكَمَا أَنَّ الرِّزْقَ الكَرِيمَ هُنَاكَ مَسْبُوقٌ بِأَتَيْنَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ، كَذَلِكَ
هَاهُنَا مَسْبُوقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾، وَكَمَا أَنَّ آتَيْنَا الْأَجْرَ هُنَاكَ مَسْبُوبٌ عَنْ قُنُوتِهِنَّ، كَذَلِكَ
هُنَا ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ مَسْبُوبٌ عَنْ كَوْنِهَا مُبْرَأَةً عَمَّا قِيلَ فِيهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِقُنُوتِهَا وَطَهَارَتِهَا،
وَكَمَا أَنَّ تِلْكَ الْآيَةَ فِي شَأْنِ نِسَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، كَذَلِكَ هَذِهِ فِي شَأْنِ حَبِيبَتِهِ وَصَفِيَّتِهِ، فَالْكَلَامُ
مَبْنِيٌّ عَلَى حَمْلِ الْمَطْلُوقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ.

وَجَدْتُ بِخَطِّ مَوْلَايَ وَشَيْخِي الْإِمَامِ الْمَغْفُورِ [لَهُ] بَهَاءِ الدِّينِ تَعَمَّدَهُ اللهُ بِغُفْرَانِهِ: أَنَّ
ابْنَ عَبَّاسٍ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فِي مَرَضِهَا الَّذِي مَاتَتْ فِيهِ، فَبَكَتْ، وَقَالَتْ:
أَخَافُ مَا أَقْدُمُ عَلَيْهِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَخَافِي، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا تَقْدُمِينَ إِلَّا عَلَى مَغْفِرَةِ وَرِزْقِ كَرِيمٍ. فَقَالَتْ: رَحِمَكَ اللهُ، أَهَذَا شَيْءٌ أَنْبَأَكَ
بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: بَلْ هُوَ شَيْءٌ نَبَّأَنِيهِ كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَتْ: فَاتُّلِ عَلَيَّ، فَتَلَا:
﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا،

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٢٢٥).

وعن عائشة رضي الله عنها: لقد أُعْطِيَتْ تِسْعاً ما أُعْطِيَتْهُنَّ امرأة: لقد نَزَلَ جبريلُ عليه السلام بِصُورَتِي في راحَتِهِ حينَ أَمَرَ رسولُ الله ﷺ أن يتزوَّجَنِي، ولقد تزوَّجَنِي بِكراً، وما تزوَّجَ بكراً غيري، ولقد توفِّيَ وإنَّ رأسَه لَفِي حِجْرِي، ولقد قُبِرَ في بيتي، ولقد حَفَّتْهُ الملائكةُ في بيتي، وإنَّ الوحيَ لَيَنْزِلُ عَلَيهِ في أهله فيتفرَّقون عنه، وإنَّ كان لَيَنْزِلُ عَلَيهِ وأنا معه في لِحافِهِ، وإنِّي لابنةُ خَلِيفَتِهِ وصِدِّيقِهِ، ولقد نَزَلَ عُذْرِي من

فصيحَ عليها، فقال: وما لها؟ قالوا: عُشِّيَ عليها فَرَحاً بها تَلَوْتُ. ويؤيِّدُهُ ما رَوَيْنَا عن ابنِ أبي مُليْكة، قال: استأذَنَ ابنُ عَبَّاسٍ على عائِشةَ رضيَ اللهُ تَعَالَى عنها قُبَيْلَ موتِها وهي مغلوبةٌ، قالت: أَخَشَى أن يُثْبِتِي عَلَيَّ، فقيل: ابنُ عَمِّ رسولِ اللهِ ﷺ، ومن وجوهِ المسلمين، قالت: إيذَنَوا له، فقال: كيف تجدينك؟ قالت: بخيرٍ إن اتَّقَيْتُ، قال: فأنتِ بخيرٍ إن شاء اللهُ تَعَالَى، زوجةُ رسولِ اللهِ ﷺ، ولم يَنكحْ بِكراً غيرَكَ، ونَزَلَ عُذْرُكَ مِنَ السَّمَاءِ. أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (١).

قوله: (لقد نَزَلَ جبريلُ عليه السَّلَامُ بِصُورَتِي)، رَوَيْنَا في «صحيح البخاري» عن عُرْوَةَ، عن عائِشةَ رضيَ اللهُ تَعَالَى عنهم، قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أرَيْتُكَ في المنامَ مرَّتينِ؛ إذ رَجُلٌ يَحْمِلُكَ في سَرَقَةٍ من حَرِيرٍ، فيقولُ: هذه امرأتُكَ فاكشِفْهَا، فإذا هي أنتِ، فأقولُ: إن يكن هذا من عندِ اللهِ يُمَضِّهُ» (٢). وفي روايةٍ أُخرى: «رَأَيْتُ الْمَلَكَ يَحْمِلُكَ».

النَّهَايةُ: «سَرَقَةٍ من حَرِيرٍ»: قطعَةٌ من جيِّدِ الحَرِيرِ.

قوله: (ولقد توفِّيَ وإنَّ رأسَه لَفِي حِجْرِي)، رَوَيْنَا عن البخاريِّ ومسلمٍ والتِّرْمِذِيِّ، عن عائِشةَ: «فلَمَّا كانَ يَوْمِي قَبَضَهُ اللهُ تَعَالَى بَيْنَ سَحرِي وَنَحرِي» (٣)، وفي أُخرى: «ودُفِنَ في بيتي».

قوله: (لَيَنْزِلُ عَلَيهِ وأنا معه في لِحافِهِ)، عن البخاريِّ ومسلمٍ والتِّرْمِذِيِّ، عن عائِشةَ: أن فَاطِمَةَ رضيَ اللهُ تَعَالَى عنها كَلَمَتْ رسولَ اللهِ ﷺ فقال لها: «لا تُؤذِنِي في عائِشةَ؛ فَإِنَّ

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٥٣).

(٢) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٣٨٩٥) ومُسلم (٢٤٣٨).

(٣) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (١٣٨٩) ومُسلم (٢٤٤٣).

السماء، ولقد خُلِقَتْ طَيْبَةً عند طَيْبٍ، ولقد وُعِدَتْ مغفرةً ورزقاً كريماً.

[يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾]

﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ فيه وجهان أحدهما: أنه من الاستئناس الظاهر الذي هو خلاف الاستيحاش؛ لأن الذي يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا؛ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أُذِنَ له استأنس، فالمعنى: حتى يُؤذَنَ لكم، كقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وهذا من باب الكناية والإرداف؛ لأن هذا النوع من الاستئناس يَرْدَفُ الإذن، فوُضِعَ موضع الإذن.

والثاني: أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف، استفعال من آنَسَ الشيء؛ إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً. والمعنى: حتى تَسْتَعْلِمُوا وتَسْتَكْشِفُوا

الوَحْيِ لَمْ يَأْتِنِي، وَأَنَا فِي ثَوْبٍ امْرَأَةٌ إِلَّا عَائِشَةُ»^(١).

قوله: (ولقد خُلِقَتْ طَيْبَةً عند طَيْبٍ)، «خُلِقَتْ» بالقاف، أي: طَيِّبَهَا اللهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ الطَيْبِ، أَوْ مَاتَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾.

وَيُرْوَى بِالْفَاءِ بِتَشْدِيدِ اللَّامِ، أَي: تَرَكْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَعْدَ وَفَاتِهِ فِي الْحَجْرَةِ طَيْبَةً^(٢).

قوله: (ولقد وُعِدَتْ مغفرةً ورزقاً كريماً)، ليس هذا من التسعة، بل هي الكرامة الموعودُ بها لها رضي اللهُ تَعَالَى عنها، وقولها: «ولقد أُعْطِيتُ تسعاً»^(٣) هي الكرامة المُعْجَلَةُ في الدنيا.

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨١) وأخرجه مسلم مختصراً (٢٤٤١) وهو في «سنن الترمذي» (٣٨٧٩).

(٢) هذه الفقرة وردت في الأصول الحنبلية قبل سابقتها، وأخرناها إلى هنا مراعاة لـ«الكشاف».

(٣) أخرجه أبو يعلى في «المسند» (٤٦٢٦)، وانظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٢: ٤٢٥) حيث استقصى

الحافظ الزيلعي طرق الحديث.

الحال: هل يُراد دُخولكم أم لا. ومنه قولهم: استأنس هل ترى أحداً. و: استأنستُ فلم أرَ أحداً، أي: تعرّفتُ واستعلمت. ومنه بيتُ النابغة:

..... على مُستأنسٍ وحِدٍ

ويجوزُ أن يكون من الأنس؛ وهو أن يتعرّف هل ثمّ إنسان.

وعن أبي أيوب الأنصاري: قلنا: يا رسول الله، ما الاستئناس؟ قال: «يتكلّمُ

قوله: (على مُستأنسٍ وحِدٍ). تمامه في «المطلع»:

كأن رحلي وقد زال النهارُ بنا
بذي الجليلِ على مُستأنسٍ وحِدٍ^(١)

قال الأصمعيُّ: زال النهارُ، أي: انتصف، وينا، بمعنى: علينا، الجليل: شجرٌ له خوصٌ مثلُ خوصِ النخل، وذا الجليل: موضعٌ فيه ذلك الشجرُ^(٢)، والمُستأنس: الذي يرفعُ رأسه هل يرى شيئاً أو شيئاً. وحِد: سُفود، يقال: وحِدٌ ووحِدٌ مثلُ فرْدٌ وفرْد. وقيل: المُستأنس: الذي يخافُ الأيس، شبه جملةً بحمارٍ وحشٍ مرَّ سريعاً خائفاً مما رآه.

الانتصاف: ويجوزُ على بُعيدٍ يكون معنى الآية: حتى تعلموا أن فيها إنساناً، استعمل من الأنس، والأوّل أظهر، وعدلَ من المجازِ تأديباً للمخاطبين بيانِ ثمرَةِ الاستئناس من سبلِ النفوس، والتفكيرِ عن الاستيحاء بتقديرِ عدَمِ الاستئناس^(٣).

قوله: (وعن أبي أيوب الأنصاري) الحديثُ رواه ابنُ ماجه عنه^(٤). وأما حديثُ أبي موسى فرَواه البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ وأبو داودَ عن أبي سعيد^(٥). هذا الذي ذكره المصنّفُ مختصراً منه، ومفهوماً الحديثُ يُمكنُ أن ينزَلَ في الوجوه كُلِّها على البَدَل.

قوله: (ما الاستئناس)، أي: ما المُستأنسُ في بابِ الاستئناسِ شرعاً، لقولِ جبريلَ عليه

(١) للناطقة الديباني في «ديوانه» ص ٧٧.

(٢) وهو وادٍ قرب مكة كما في «معجم البلدان» (٢: ١٥٨).

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشف» (٢: ٢٢٦).

(٤) «سنن ابن ماجه» (٣٧٠٧) بإسنادٍ ضعيفٍ لأجلِ أبي سُورةٍ منكرِ الحديث.

(٥) أخرجه البخاري (٦٦٤٥) ومسلم (٢١٥٢) والترمذي (٢٦٩٠)، وأبو داود (٥١٧٧).

الرَّجُلُ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ، يَنْحَنِحُ؛ يُؤْذِنُ أَهْلَ الْبَيْتِ». وَالتَّسْلِيمُ: أَنْ يَقُولَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلُ؟ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ؛ فَإِنْ أُذِنَ لَهُ وَإِلَّا رَجَعَ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: أَنَّهُ أَتَى بَابَ عُمَرَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُ؟ قَالَهَا ثَلَاثًا ثُمَّ رَجَعَ، وَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الاسْتِئْذَانُ ثَلَاثًا».

وَاسْتَأْذَنَ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: أَلَيْحُ؟ فَقَالَ ﷺ لَا مَرَأَةَ يُقَالُ لَهَا: رَوْضَةٌ: «قَوْمِي إِلَى هَذَا فَعَلَّمِيهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُحْسِنُ أَنْ يَسْتَأْذِنَ؛ قَوْلِي لَهُ يَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلُ»، فَسَمِعَهَا الرَّجُلُ، فَقَالَهَا، فَقَالَ: «ادْخُلُ». وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا دَخَلَ بَيْتًا غَيْرَ بَيْتِهِ: حُيِّتُمْ صَبَاحًا، وَحُيِّتُمْ مَسَاءً، ثُمَّ يَدْخُلُ، فَرَبَّمَا أَصَابَ الرَّجُلَ مَعَ امْرَأَتِهِ فِي لِحَافٍ وَاحِدٍ، فَصَدَّ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَعَلَّمَ الْأَحْسَنَ وَالْأَجْمَلَ، وَكَمْ مِنْ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الدِّينِ هُوَ عِنْدَ النَّاسِ كَالشَّرِيعَةِ الْمَنْسُوخَةِ؛ قَدْ تَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ، وَبَابُ الْاسْتِئْذَانِ مِنْ ذَلِكَ، بَيْنَا أَنْتَ فِي بَيْتِكَ، إِذْ رَعَفَ عَلَيْكَ الْبَابُ بِوَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ وَلَا تَحِيَّةٍ مِنْ تَحَايَا إِسْلَامٍ وَلَا جَاهِلِيَّةٍ، وَهُوَ مَنْ سَمِعَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَيْنَ الْأُذُنَ الْوَاعِيَةَ؟!

وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (حَتَّى تُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَتَسْتَأْذِنُوا). وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: إِنَّهَا هِيَ (حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا)، فَأَخْطَأَ الْكَاتِبُ. وَلَا يُعَوَّلُ عَلَى هَذِهِ الرَّوَايَةِ. وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي: (حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا). ﴿ذَلِكَكُمْ﴾ الْاسْتِئْذَانُ وَالتَّسْلِيمُ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِنْ تَحِيَّةٍ

السَّلَامُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: مَا الْإِيْمَانُ^(١)؟ أَي: مَا الَّذِي يُؤْمَنُ بِهِ؟

قَوْلُهُ: (رَعَفَ عَلَيْكَ الْبَابُ بِوَاحِدٍ)، الْأَسَاسُ: يَقَالُ: رَعَفَ فُلَانٌ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ، وَاسْتَرَعَفَ: تَقَدَّمَ، وَمِنْ الْمَجَازِ: بَيْنَا نَحْنُ نَذْكُرُكَ رَعَفَ بَكَ الْبَابُ. وَمَا فِي الْكِتَابِ مُتَضَمِّنٌ بِمَعْنَى: سَبَقَ وَغَلَبَ. أَي: غَلَبَ الْبَابُ تَقَدُّمًا، يَقَالُ: رَعَفَ عَلَيْكَ، أَي: سَبَقَ، مُسْتَعَارًا مِنْ رُعَافِ الدَّمِ، وَرَوَاعِفِ الْحَيْلِ: سَوَابِقُهَا، وَرَوَاعِفُ الدَّمِ: بَوَادِرُهُ.

(١) يَعْنِي: حَدِيثُ جَبْرِيلَ الْمَشْهُورِ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٠)، وَمُسْلِمٌ (٨).

الجاهليّة والدمور؛ وهو الدخول بغير إذن، واشتقاقه من الدمار؛ وهو الهلاك، كأن صاحبه دامر؛ لعظم ما ارتكب. وفي الحديث: «مَنْ سَبَقَتْ عَيْنُهُ اسْتِئْذَانَهُ فَقَدْ دَمَرَ».

وروي: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟ قال: «نعم»، قال: إنها ليس لها خادمٌ غيري، أَسْتَأْذِنُ عَلَيْهَا كُلَّمَا دَخَلْتُ؟ قال: «أَتَحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً؟» قَالَ الرَّجُلُ: لا. قال: «فَأَسْتَأْذِنُ». ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أنزل عليكم، أو: قيل لكم هذا؛ إرادة أن تذكروا وتعتظوا وتعملوا بما أمرتم به في باب الاستئذان.

[﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْتَجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ٢٨]

يَحْتَمِلُ ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ مِنَ الْإِذْنِ ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ وَاصْبِرُوا حَتَّىٰ تَجِدُوا مَنْ يَأْذَنُ لَكُمْ. وَيَحْتَمِلُ: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا وَلَكُمْ فِيهَا حَاجَةٌ فَلَا تَدْخُلُوهَا إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْاسْتِئْذَانَ لَمْ يُشْرَعْ لِثَلَاثٍ يَطَّلِعُ الدَّامِرُ عَلَى عَوْرَةِ، وَلَا تَسْبِقُ عَيْنُهُ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ النَّظَرُ إِلَيْهِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا شُرِعَ لِثَلَاثٍ يُوقَفُ عَلَى الْأَحْوَالِ الَّتِي

قوله: (مَنْ سَبَقَتْ عَيْنُهُ اسْتِئْذَانَهُ فَقَدْ دَمَرَ)^(١)، النّهاية: «مَنْ اَطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَقَدْ دَمَرَ»، وفي رواية: «مَنْ سَبَقَ طَرْفُهُ اسْتِئْذَانَهُ فَقَدْ دَمَرَ عَلَيْهِمْ»، أي: هَجَمَ وَدَخَلَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، وَهُوَ الدَّمَارُ: الْهَلَاكُ؛ لِأَنَّهُ هَجَمَ بِهَا يَكْرَهُ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ إِسَاءَةَ الْمُطَّلِعِ مِثْلُ إِسَاءَةِ الدَّامِرِ.

قوله: (أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي؟)، الحديث، أخرجه مالكٌ عن عطاء بن يسار^(٢).

قوله: (وَيَحْتَمِلُ: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا)، هذا الوجهُ أَخْصَصَ مِنَ الْأَوَّلِ مِنْ وَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا: قوله: «أَحَدًا مِنْ أَهْلِهَا»، وثانيهما: «وَلَكُمْ فِيهَا حَاجَةٌ».

(١) عزاه الحافظ الزليعي إلى الطبراني في «معجمه» ولإبراهيم الحربي في «غريب الحديث». انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٢: ٤٢٨).

(٢) هو في «الموطأ» (٢: ٢٤٠) مرسلًا. وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنّف» (١٧٨٩٠) والبحاري في «الأدب المفرد» (١٠٦٠).

يَطْوِيهَا النَّاسُ فِي الْعَادَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ وَيَتَحَفَّظُونَ مِنْ إِطْلَاعِ أَحَدٍ عَلَيْهَا؛ وَلَا تَهْ تَصْرُفُ فِي مِلْكٍ غَيْرِكَ؛ فَلَا بَدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِرِضَاهُ، وَلَا أَشْمَةَ الْعَضْبِ وَالتَّغْلِبِ. ﴿فَأَرْجِعُوا﴾ أَي: لَا تَلْحُوا فِي إِطْلَاقِ الْإِذْنِ، وَلَا تَلْجُوا فِي تَسْهِيلِ الْحِجَابِ، وَلَا تَقْفُوا عَلَى الْأَبْوَابِ مُنْتَظِرِينَ؛ لِأَنَّ هَذَا تَمَّا يَجْلِبُ الْكَرَاهَةَ وَيَقْدَحُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ خُصُوصاً إِذَا كَانُوا ذَوِي مَرْوَةٍ وَمُرْتَاضِينَ بِالْآدَابِ الْحُسْنَى. وَإِذَا نُهِِيَ عَنْ ذَلِكَ لِأَدَائِهِ إِلَى الْكَرَاهِيَةِ؛ وَجِبِ الْإِنْتِهَاءُ عَنْ كُلِّ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهَا: مِنْ قَرْعِ الْبَابِ بَعْنَفٍ، وَالتَّصْيِيحِ بِصَاحِبِ الدَّارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ تَمَّا يَدْخُلُ فِي عَادَاتِهِ مَنْ لَمْ يَتَهَدَّبْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ، وَعَنْ أَبِي عُبَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا قَرَعْتُ بَاباً عَلَى عَالِمٍ قَطْرًا وَكَفَى بِقِصَّةِ بَنِي أَسَدٍ زَاجِرَةً وَمَا نَزَلَ فِيهَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَأَدَّبُونَكَ مِنَ الْمُهْجَرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المُهْجَرَاتِ: ٤].

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَإِنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَكُمْ وَأَمَرْتُمْ بِالرُّجُوعِ فَامْتَثِلُوا وَلَا تَدْخُلُوا مَعَ كَرَاهَتِهِمْ؟ قُلْتَ: يَمُدُّ أَنْ جُزِمَ النَّهْيُ عَنِ الدَّخُولِ مَعَ فَقْدِ الْإِذْنِ وَحَدِّهِ

قَوْلُهُ: (هَلْ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَإِنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَكُمْ وَأَمَرْتُمْ بِالرُّجُوعِ فَامْتَثِلُوا وَلَا تَدْخُلُوا)، السُّؤَالُ مُتَوَجِّهُ عَلَى تَفْسِيرِهِ قَوْلُهُ: ﴿فَأَرْجِعُوا﴾ بِمَعْنَى «لَا تَلْحُوا فِي إِطْلَاقِ الْإِذْنِ، وَلَا تَلْجُوا فِي تَسْهِيلِ الْحِجَابِ»، عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِمَعْنَى النَّهْيِ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: «وَإِذَا نُهِِيَ عَنْ ذَلِكَ» لِيُطَابِقَ قَوْلُهُ: ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾. يَعْنِي: قَدْ عَلِمَ مِنْ ذَلِكَ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْأَمْرَ مَحْمُولٌ عَلَى النَّهْيِ؛ لِلْمُطَابَقَةِ، فَهَلْ يَصِحُّ إِجْرَازُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنْ يُقَالَ: وَأَمَرْتُمْ بِالرُّجُوعِ فَارْجِعُوا، أَي: فَامْتَثِلُوا؟ وَأَجَابَ: أَنْ نَعَمْ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَرْجِعُوا﴾ مَذْكَورٌ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَدْخُلُوا بِيُوتَاغِيْرَ بِيُوتَاغِيْرَ كُمْ﴾، وَلَا يَلْتَبِسُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالرُّجُوعِ النَّهْيُ عَنِ الدَّخُولِ لِأَنَّهَا قِيَامُ الْقَرِينَةِ مَعَهُ، وَهُوَ فَقْدُ الْإِذْنِ، فَيَكُونُ الْأَمْرُ بِالرُّجُوعِ بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ الدَّخُولِ مِنْ بَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْفُوا بِالْمِثَاقِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: ٨٥].

قَوْلُهُ: (فَقَدْ الْإِذْنُ وَحَدَّهُ)، «قُلُوا: «وَحَدَّهُ» مَنْصُوبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ، وَعَلَى الْمَصْدَرِ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ. فِي كُلِّ حَالٍ إِذَا قُلْتَ: رَأَيْتُهُ وَحَدَّهُ، فَكَأَنَّكَ قُلْتَ: أَوْحَدْتُهُ بِرُؤْيِي

من أهل الدار حاضرين وغائبين، لم تَبَقْ شُبُهَةٌ في كونه منهياً عنه مع انضمام الأمر بالرجوع إلى فَقْدِ الإِذْنِ. فَإِنِ قُلْتَ: فَإِذَا عَرَّضَ أَمْرٌ في دار؛ مِنْ حَرِيقٍ، أَوْ هَجُومِ سَارِقٍ، أَوْ ظُهُورِ مُنْكَرٍ يَجِبُ إنْكَارُهُ؟ قُلْتَ: ذَلِكَ مُسْتَنَى بِالْإِدْلِيلِ.

أي: الرجوعُ أَطْيَبُ لَكُمْ وَأَطْهَرُ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ سَلَامَةِ الصُّدُورِ وَالبُعْدِ مِنَ الرَّيْبَةِ، أَوْ: أَنْفَعُ وَأَنْمَى خَيْرًا. ثُمَّ أَوْعَدَ الْمُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ بِأَنَّهُ عَالَمٌ بِمَا يَأْتُونَ وَمَا يَذْرُونَ مِمَّا خُوطِبُوا بِهِ فَمُوفٌّ جَزَاءَهُ عَلَيْهِ.

[لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُدْعُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ] ﴿٢٩﴾

استثنى من البيوت التي يجب الاستئذان على دخولها: ما ليس بمسكونٍ منها؛ وذلك نحو: الفنادق - وهي الخانات - والرُّبُطِ وَحَوَانِيتِ البِيَّاعِينَ. وَالمَتَاعِ: المنفعة؛ كَالِاسْتِئْذَانِ مِنَ الْحَرِّ وَالبَرْدِ، وَإِيوَاءِ الرَّحَالِ وَالسَّلْعِ وَالشَّرَاءِ وَالبَيْعِ. وَيُرْوَى: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ آيَةً فِي الاستئْذَانِ، وَإِنَّا نَخْتَلِفُ فِي تِجَارَاتِنَا فَنَنْزِلُ هَذِهِ الخَانَاتِ، أَفَلَا نَدْخُلُهَا إِلَّا بِإِذْنٍ؟ فَنَزَلَتْ. وَقِيلَ:

إِيحَادًا، فَوَضَعَتْ وَحْدَهُ مَكَانَهُ، أَي: لَمْ أَرْ غَيْرَهُ. وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ^(١): يَحْتَمِلُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مُنْفِرِدًا فِي نَفْسِهِ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: رَأَيْتَهُ مُنْفِرِدًا، ثُمَّ وَضَعْتَ وَحْدَهُ مَوْضِعَهُ.

قوله: (فإِذَا عَرَّضَ أَمْرٌ) إِلَى آخِرِهِ، جَوَابُهُ مَحذُوفٌ، أَي: فَمَا حُكْمُهُ؟

قوله: (مُسْتَنَى بِالْإِدْلِيلِ)، وَهُوَ: الضَّرُورَاتِ تَبْيِيحُ المَحْظُورَاتِ، وَفِي كَلَامِ الفُقَهَاءِ: مَوَاضِعُ الضَّرُورَةِ مُسْتَثْنَاةٌ مِنَ قَوَائِمِ الشَّرْعِ.

قوله: (وَأَنْمَى خَيْرًا)، أَنْمَى: أَرْفَعُ، كَتَمَيْتُ الشَّيْءَ عَلَى الشَّيْءِ: رَفَعْتَهُ عَلَيْهِ، وَتَمَيْتُ الخَدِيثَ إِلَى فَلَانٍ: أَسْنَدْتَهُ وَرَفَعْتَهُ إِلَيْهِ.

(١) يعني ثعلبًا، الإمام اللغوي المعروف.

الْحَرِيَّاتِ يُتَبَرَّزُ فِيهَا. وَالْمَتَاعُ: التَّبَرُّزُ. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وَعَيْدٌ لِلَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْحَرِيَّاتِ وَالِدُورِ الْخَالِيَةِ مِنْ أَهْلِ الرَّبِيَّةِ.

[﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصَكِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ

بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ٣٠]

﴿مِنْ﴾ للتبعيض، والمرادُ غَضُّ البَصَرِ عَمَّا يَحْرُمُ، والاقْتِصَارُ بِهِ عَلَى مَا يَحِلُّ. وَجَوَزَ الْأَخْفَشُ أَنْ تَكُونَ مَزِيدَةً، وَأَبَاهُ سَيَبِيهِ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ دَخَلْتُ فِي غَضِّ الْبَصَرِ دُونَ حَفْظِ الْفُرُوجِ؟ قُلْتَ: دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ أَمْرَ النَّظَرِ أَوْسَعُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْمُحَارِمَ لَا بَأْسَ بِالنَّظَرِ إِلَى شُعُورِهِنَّ وَصُدُورِهِنَّ وَتُدَيِّبِنَّ وَأَعْضَادِهِنَّ وَأَسْوِقِهِنَّ وَأَقْدَامِهِنَّ، وَكَذَلِكَ الْجَوَارِي الْمُسْتَعْرِضَاتِ، وَالْأَجْنِبِيَّةُ يُنْظَرُ إِلَى وَجْهِهَا وَكَفْيِهَا وَقَدَمَيْهَا فِي إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ! وَأَمَّا أَمْرُ الْفَرْجِ فَمُضِيقٌ، وَكَفَاكَ فَرَقًا أَنْ أُبَيِّحَ النَّظَرَ إِلَّا مَا اسْتُنِّيَ مِنْهُ، وَحُظِرَ الْجَمَاعَ إِلَّا مَا اسْتُنِّيَ مِنْهُ.

قوله: (وَجَوَزَ الْأَخْفَشُ أَنْ تَكُونَ مَزِيدَةً، وَأَبَاهُ سَيَبِيهِ)، لَأَنَّ «مِنْ» عِنْدَهُ تَزَادٌ فِي النَّفْيِ خَاصَّةً لِتَأْكِيدِهِ وَعَمُومِهِ، وَلِذَلِكَ جَازَ: مَا جَاءَنِي مِنْ أَحَدٍ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ عِنْدِي؛ لِإِفَادَةِ تَأْكِيدِ التَّعْمِيمِ فِيهَا تَدخُلُ عَلَيْهِ، وَلَمْ يُجْزَ: مَا مِنْ زَيْدٍ قَائِمٌ، وَلَا: مَا زَيْدٌ مِنْ قَائِمٍ، لِتَعَدُّرِ مَعْنَى الْعُمُومِ فِيهَا، وَعَنِ الْأَخْفَشِ: زِيَادَتُهُ تَأْكِيدٌ فِي الْإِيجَابِ، وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤]، وَوَجْهُهُ: أَنَّهُ جَاءَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فَإِنْ لَمْ يُجْمَلْ عَلَى الزِّيَادَةِ جَاءَ التَّنَاقُضُ، وَلَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ، لِكَوْنِهِ مُحْتَمَلًا أَيْضًا غَيْرَ مَا ذَكَرَ كَمَا مَضَى فِي مَوْضِعِهِ^(١).

قوله: (وَكَفَاكَ فَرَقًا أَنْ أُبَيِّحَ النَّظَرَ)، يَرِيدُ: أَنَّ الْحُكْمَ يَقَعُ بِالْأَصَالَةِ عَلَى الْمُسْتُنِّيِ مِنْهُ، ثُمَّ إِذَا أُخْرِجَ مِنْهُ شَيْءٌ يَكُونُ ذَلِكَ الْأَمْرُ ضَرُورِيًّا؛ لِأَنَّهُ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ، فِإِذَا الْأَصْلُ

(١) هذه الفقرة (من «قوله: وجوز الأخفش» إلى هنا) قُدمت في (ح) و(ف) قبل فقرة «قوله: فإذا عرض أمر»، ووردت في (ط) هنا، وهو المناسب لترتيب «الكشاف».

ويجوز أن يراد: مع حفظها عن الإفضاء إلى ما لا يحل حفظها عن الإبداء. وعن

حفظ الفرج لثلاثيشارك البهائم، ورفع اللوم عنه لأمر عارضي، وهو بقاء النسل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥-٦]، ولا كذلك النظر، فإن العيون خلقت للنظر وتبدت إليه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، والمنع منه للضرورة، والوقوع في الفتنة، ولذلك نزلت آية الحجاب بعد الإباحة.

قوله: (ويجوز أن يراد: مع حفظها)، جواب آخر عن السؤال، وفاعل «أن يراد» قوله: «حفظها على الإبداء»، أي: يجوز أن يراد من الآية حفظ الفروج عن الإبداء، مع حفظها عن الإفضاء إلى الزنى، أي: كما يجب أن تحفظ الفروج عن الإفضاء إلى ما لا يحل، يجب أن تحفظ عن إبدائها للنظر إليها. كأنه قيل: قل للمؤمنين: يعضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم عن الإفضاء إلى ما لا يحل من الزنى، والإبداء إلى ما لا يحل من النظر إليها، وذلك من إيقاع الحفظ عليها مطلقاً، فدل على حفظها ما أمكن، والنظم يساعد هذا التأويل؛ لأن الكلام السابق حديث في الاستئذان، وجل الغرض منه المحافظة على إبداء ما يفضي إلى ما لا يحل، وكذلك اللاحق، وهو قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ عطف بالنهي عن إبداء مواقع الزين من الجسد على الأمر بإغضاء البصر تأكيداً، ولما كان النهي عن إبداء الزين كناية عن إبداء مواقعها المفضي إلى ما لا يحل، كذلك كان النهي عن إبداء الفروج المؤدي إلى ما لا يحل كناية عن النهي عن الزنى. فإذا النهي وارد على غص البصر عن الفروج لثلاثي يؤدي إلى ما لا يحل.

وهو موافق لما قال الإمام: الظاهر العموم، وفي سائر ما حرم من الزنى والمس والنظر، على أنه لو أريد حظر النظر^(١) لكان في مفهوم الخطاب ما يوجب حظر الزنى، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا نَهْرَهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣]^(٢).

(١) في (ط): «النفس».

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٣: ٢٠٥).

ومنه حديث ابن أم مكتوم: عن أم سلمة قالت: كنت عند النبي ﷺ، وعنده تيمونة، فأقبل ابن أم مكتوم، وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب، فدخل علينا، فقال: «احتجبا»، فقلنا: يا رسول الله، اليس أعمى لا يبصرنا؟ قال: «أفعميا وإن أنتما؟ ألستما تبصرانه؟». فإن قلت: لم قدم غرض الأبصار على حفظ الفروج؟ قلت: لأن النظر يزيد الزنى ورائد الفجور، والملوى فيه أشد وأكبر، ولا يكاد يُقدَّر على الاحتراس منه. الزينة: ما تزيّنت به المرأة من حليٍّ أو كحلٍّ أو خضاب، فما كان ظاهراً منها، كالخاتم والفتحة والكحل والخضاب: فلا بأس بإبدائه للأجانب، وما خفي منها، كالسوار والحلخال والدمليج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط: فلا تُبدى إلا

قولُه: (ومنه حديث ابن أم مكتوم)، الحديث، رواه الترمذي، وأبو داود مع تغيير يسير

فيه (١).

قولُه: (عن أم سلمة)، بيان الحديث ابن أم مكتوم، لا أنه يروي عنها.

قولُه: (لأن النظر يزيد الزنى ورائد الفجور)، أخذَه من قول الحماسي:

وكنت إذا أرسلت طمّك رائداً لقلبك يوماً أتعبتْك المناظرُ
رأيت السدي لا كُله أنت فادُّ عليه، ولا عن بعضه أنت صابرُ (٢)

قولُه: (الفتحة)، الفتحة... التحريك... حلقة من فضة لا فص فيها، فإذا كان فيها فص فهو الخاتم. والدمليج: المعصم، وكذلك الدمليج. والإكليل: شبه عصاة مزين بالجواهر، ويسمى التاج إكليلاً، والوشاح يسج من أديم عريضاً، ويرصع بالجواهر، وتُسده المرأة بين عاتقها وكشحيها (٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٧٨) وأبو داود (٤١١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩١٩٨) وصححه ابن حبان (٥٥٧٥) وفيه تمام تحريجه.

(٢) «الحماسة» شرح المرزوقي (٢: ١٢٣٨) وقائله مجهول. وقيل: هو لابن نباتة وهو في «ديوانه» ص ١٠٥٦، وذكره البغدادي في «معرفة الأدب» (١: ٣١٣).

(٣) وهو ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي.

لهؤلاء المذكورين. وذكر الزينة دون مَوَاقِعها: للمبالغة في الأمر بالتصون والتستر؛ لأن هذه الزين واقعة على مواضع من الجسد لا يحل النظر إليها لغير هؤلاء؛ وهي: الذراع، والساق، والعَضُد، والعنق، والرأس، والصدر، والأذن، فنهى عن إبداء الزين نفسها؛ ليعلم أن النظر إذا لم يحل إليها؛ لملاستها تلك المواقِع بدليل أن النظر

القرمَل: ما تشده المرأة في شعرها. كلها من «الصَّحاح»، وقيل: الوشاح: قِلادة طويلة تضع المرأة وسطها على عنقها ثم تخالف بين طرفيها على صدرها حتى تكون كهيئة لام ألف، ثم تديره على حقوبها.

قوله: (بدليل)، تعليل للتعليل، وهو قوله: «لِمَلابستها»، أي: النظر إنما لا يحل إلى الزين؛ لِمَلابستها تلك المواضع، يدل عليه جواز النظر إليها غير ملبسة لها.

وقوله: «كان النظر إلى المواضع^(١)»، جواب «إذا».

وقوله: «لا مقال في حله»، خبر «أن»، والشرط والجزاء خبر «أن» الأولى، تقريره يشعر بأن هذه العبارة من باب الكناية، على نحو قول الشاعر:

تبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حلت^(٢)

وقولهم: فلان طاهر الجنب نقي الدليل.

وقال صاحب «الفرائد»: هو من باب إطلاق اسم الحال على المحل، فالمراد بالزينة: مَوَاقِعها، فيكون حرمة النظر إلى المَوَاقِع بعبارة النص، لا بدلاليتها كما ذهب إليه، وعبارة النص أقوى من دلالته. اعلم أن عبارة النص كما حددها البردوي: هو العمل بظاهر ما سبق الكلام له^(٣)، ودلالة النص: هو ما ثبت بمعنى النص لغة لا اجتهاداً واستنباطاً، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا آفَى وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٢]؛ لأنها معلوم بظاهرها وبمعناها، فلا يحتاج إلى إخراج معناه بالاجتهاد.

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «المواقِع».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «أصول البردوي» بشرح العلاء البخاري (١: ٦٧).

إليها غير مُلابسة لها لا مقال في حله؛ كان النظرُ إلى المواقع أنفسها متمكناً في الحظر، ثابتَ القَدَمِ في الحرمة، شاهداً على أن النساءَ حَقُّهُنَّ أن يَحْتَطْنَ في سترها، ويتَّقِينَ الله في الكشفِ عنها. فإن قلت: ما تقول في القراميل؛ هل يحلُّ نظرها هؤلاء إليها؟ قلت: نعم. فإن قلت: أليس موقعها الظهرَ ولا يحلُّ لهم النظرُ إلى ظهرها وبطنها؟ وربَّما وَرَدَ الشَّعْرُ فَوَقَعَتِ القَرَامِيلُ على ما يُحَاذِي ما تحت الشَّرة! قلت: الأمرُ كما قلت، ولكنَّ أمرَ القراميلِ خلافُ أمرِ سائرِ الحلي؛ لأنه لا يقعُ إلا فوقَ اللباسِ، ويجوزُ النظرُ إلى الثوبِ الواقعِ على الظهرِ والبطنِ للأجانبِ فضلاً عن هؤلاء، إلا إذا كان يَصِفُ لِرِقَّتِهِ؛ فلا يحلُّ النظرُ إليه، فلا يحلُّ النظرُ إلى القراميلِ واقعةً عليه. فإن قلت: ما المرادُ

ومالٌ صاحبُ «الفرائد» إلى المَجَازِ دونَ الكناية، وإلى أن اللَّفْظَ كَلِمًا كان أسهلَّ مُتَنَاوَلًا كان أقوى دِلالةً، كما عليه الأصوليون، وذهبَ عنه إلى أن مآلَ نفيِ الحالِّ لإرادةِ نفيِ المحلِّ إلى الكناية، وإثباتِ المقصودِ بطريقِ البرهانِ، ألا ترى كيف بالغَ في قوله: «كان النظرُ إلى المواقعِ أنفسها متمكناً في الحظر، ثابتَ القَدَمِ في الحرمة».

وأيضاً، إن الكناية لا تُنافي الحقيقة، فيجوزُ أن يُرادَ النَّهْيُ عن إبداءِ ما يَتَرْتَبُ به نفسه أيضاً مُحْتَرِزاً عن كسرِ قلوبِ الفقراءِ، بخلافِ المَجَازِ؛ ولهذا قال صاحبُ «الانتصاف»: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْرِيحُ بِأَرْجُلَيْهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ ﴿يُحَقِّقُ أَنْ إِبْدَاءَ الزَّيْنَةِ مَقْصُودٌ بِالنَّهْيِ^(١)﴾. وأيضاً، لو أُريدَ المحلُّ دونَ الحالِّ كما عليه إرادةُ المَجَازِ لِلزِّمِّ أن يحلَّ للأجانبِ النظرُ إلى ما ظَهَرَ مِنْ مَوَاقِعِ الزَّيْنِ الظَّاهِرِ، وهذا باطلٌ؛ لأنَّ كلَّ بَدَنِ الحُرَّةِ عَوْرَةٌ لا يحلُّ لغيرِ الزوجِ والمَحْرَمِ النظرُ إلى شيءٍ منها إلا لضرورة، كالمعالجةِ وتحمُّلِ الشهادة، وإن كان هذا المعنى لا يُساعدُ عليه قوله: «لم سُومِحَ مطلقاً في الزَّيْنَةِ الظَّاهِرَةِ؟».

قوله: (وَرَدَ الشَّعْرُ)، عن بعضهم: وَرَدَ الشَّعْرُ: طال، يقال: فلانٌ وارِدُ الأَرْنَبَةِ: إذا كان فيها طول. الأَرْنَبَةُ: طَرْفُ الأنفِ.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٢٣٠).

بموقع الزينة؟ ذلك العَضْوُ كُلُّهُ، أم المقدار الذي تُلابِسُهُ الزينة منه؟ قلت: الصحيح أنه العَضْوُ كُلُّهُ كما فسرتُ مواقع الزينة الخفيفة، وكذلك مواقع الزينة الظاهرة: الوجه موقع الكحل في عينيه، واخضاب بالوسمة في حاجبيه وشاربيه، والعُمرة في خديه؛ والكف والقدم موقع الحاتم والسخنة والخصاب بالحناء، فإن قلت: لم يسمَّ مطلقاً في الزينة الظاهرة؟ قلت: لأنَّ سائرَها فيه حَسْرَجٌ؛ فإن المرأة لا تحبُّ بدءاً من مزاولته الأشياء بلبسها، ومن الحاجة أن يكشف وجهها، خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والكباح، وتضطُرُّ إلى المشي في سُرَّقاتٍ؛ وظهور قدميها، وخاصة الفتيات منهن، وهذا معنى قوله: **عَلَّأَ وَأَقْلَسَ بَيْتَهَا**، يعني: إلا ما تجرت العادة والهيئة على ظهوره والأصل فيه الظهور، وإنما سورج في الزينة الخفية أولئك المذكورون؛ لما كانوا يختصون به من الحاجة المضطرة إلى مداخلتهم ومخالطتهم؛ ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم، ولما في

قوله: (كما فسرتُ مواقع الزينة الخفيفة)، وهي: الذراع، والساق والمصعد، إن أجزأها^(١)، قوله: (الوجه)، وهو مبتدأ، و«موقع الكحل في عينيه» جملة من مبتدأ وخبر للمبتدأ الأول، والضمير في «عينيه» عائذ من الوجه، و«الخصاب» بالكسر، على أن المضاف محذوف تقديره: الوجه موقع الخصاب بالوسمة في حاجبه وشاربيه، والوجه موقع العُمرة في خديه. قوله: (والعُمرة)، بضم العين وسكون الميم: طلاء يتخذ من الوزر. وقد عُمرت المرأة وجهها تعديراً، أي: طلَّتْ به وجهها ليصنموا لونها في «الصباح». قوله: (أولئك المذكورون)، هو مرفوع بقوله: «سومج»، و«في الزينة الخفية»: ظرف لقلبه: «سومج».

قوله: (من الحاجة المضطرة)، قالوا: هو اسم فاعل، كقولهم: المغتاب - فض الله فمه - أكل لحم المغتاب، وبشرب دمه.

(١) هذه الفقرة قُدمت في (ج) و(د) قبل الفقرة السابقة، ووردت في (ط) هكذا، وهو الوجه السابق.

الطَّبَاحِ مِنَ النَّفَرَةِ عَنْ ثَمَاسَةَ الْقَرَّابِ، وَتَحْتَاجُ الْمَرْأَةُ إِلَى صُحْبَتِهِمْ فِي الْأَسْفَارِ لِلنِّزْوَلِ وَالرَّكُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. كَانَتْ جَيُوبُهُنَّ وَاسِعَةً تَبْدُو مِنْهَا نُحُورُهُنَّ وَصُدُورُهُنَّ وَمَا حَوْلَ الْيَهَا، وَكُنَّ يَسِدْلِينَ الْخُمُورَ بَيْنَ وَرَائِهِنَّ فَتَبْقَى مَكْشُوفَةً؛ فَأَمْرُنَ بِأَنْ يَسِدْلُنَهَا مِنْ قَدَامِهِنَّ حَتَّى يُغَطِّيَنَهَا. وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْجَيُوبِ: الصُّدُورُ تَسْمِيَةً بِمَا يَلِيهَا وَيُلَاقِبُهَا. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: نَاصِحُ الْجَيْبِ. وَقَوْلُكَ: ضَرَبْتُ بِخِيَارِهَا عَلَى جَيْبِهَا، كَقَوْلِكَ: ضَرَبْتُ بِيَدِي عَلَى الْخَائِطِ؛ إِذَا وَضَعْتَهَا عَلَيْهِ. وَعَنْ عَائِشَةَ: مَا رَأَيْتُ نِسَاءً خَيْرًا مِنْ نِسَاءِ

قَوْلُهُ: (نَاصِحُ الْجَيْبِ)، الشَّهَادَةُ: النَّصِيحُ لُغَةً: الْخُلُوصُ، يُقَالُ: تَصَحَّحْتُ وَتَصَحَّحْتُ لَهُ. وَرُغْفَاءُ: هِيَ الْكَلِمَةُ الْمَعْبُورُ بِهَا عَنْ رَجُلَةٍ إِرَادَةَ الْخَبَرِ لِلْمَنْصُوحِ لَهُ، فَقَوْلُهُ: «نَاصِحُ الْجَيْبِ» كِتَابَةٌ عَنْ كِتَابَةِ النَّصْرِ، وَتَحْلِيلُهَا: مَا يُكْتَرَهُ مِنَ الْعِلِّ وَالغُشِّ وَالْحَقْدِ وَنَحْوِهَا. وَمَعْنَى الْآيَةِ: وَتَلْقِيَنَّ مَعَانِيَهُنَّ الْعَرِضَاتِ الصَّفِيقَاتِ عَلَى صُدُورِهِنَّ لِيَسْتُرْنَ بِذَلِكَ صُدُورَهُنَّ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الشُّعُورِ وَالْأَعْنَاقِ. لَيْدُلَ عَلَيْهِ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: تُغَطِّيْ بِذَلِكَ شَعْرَهَا وَثَرَابَهَا، وَصُدُورَهَا وَسِوَالِهَا^(١)، وَهِيَ أَسَى الْعُنُقِ. وَإِنَّمَا أَمْرُنَ بِهِ، لِأَنَّ جَيُوبَهُنَّ كَانَتْ مَتَسِعَةً، وَدَلَّ عَلَى السُّمُولِ وَالْإِحَاطَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ لِأَنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَتْ نَيْبَهَا﴾ وَكَمَا تَحْتَضِرُ^(٢) وَآيَةُ: (٦٦).

قَوْلُهُ: (وَعَنْ عَائِشَةَ)، مِنَ رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ، عَنْهَا: يَرْحِمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ^(٣) الْأُولَى، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ الْآيَةَ، شَقَقْنَ أَكْثُفَ مَرْوِطِهِنَّ فَأَخْتَمْنَ بِهَا^(٤).

الشَّهَادَةُ: الرِّطُّ: الْكِسَاءُ مِنَ السَّرَفِ، وَرَبَّمَا كَانَ مِنْ خَزٍّ أَوْ غَيْرِهِ، وَالْمَرْخُلُ: الَّذِي قَدْ نَقَشَ فِيهِ نِصَاوِيرُ الرُّحَالِ.

(١) ذكره الواحدي في «التوسيط» (٣١١: ٣).

(٢) في (ج): «المهاجرات»، والصواب ما أثبتناه، وهو كذلك في «صحيح البخاري» و«سنن أبي داود» و«معناه: النساء المهاجرات، كقولها: شجر الأبد. انظر: «فتح الباري» (١١٠: ١١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٥٨) وأبو داود (٤١٠٣) واللفظ له.

الأنصار، لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدةٍ منهن إلى مِرْطِهَا المَرْحَلِ فَصَدَعَتْ منه صِدْعَةً، فَاخْتَمَرْنَ، فَأَصْبَحْنَ عَلَى رُؤُوسِهِنَّ الغِرْبَانَ. وقُرئ: (جِيُوبِهِنَّ) بكسر الجيم لأجل الياء، وكذلك (بِيُوتَا غَيْرِ بِيُوتِكُمْ) [النور: ٢٧]. قيل في ﴿نِسَائِهِنَّ﴾: هُنَّ المؤمنات؛ لأنه ليس للمؤمننة أن تتجرّد بين يدي مُشركة أو كِتَابِيَّة.

عن ابنِ عَبَّاسٍ: والظاهرُ أنه عُنِيَ بنِسَائِهِنَّ وما مَلَكَت أَيَاهُنَّ: مَنْ فِي صُحْبَتِهِنَّ وَخِدْمَتِهِنَّ مِنَ الحِرَائِرِ والإماء والنساء، كُلُّهُنَّ سِوَا فِي حِلِّ نَظَرِ بَعْضِهِنَّ إِلَى بَعْضٍ. وقيل: ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ﴾: هُم الذُّكُورُ والإناثُ جَمِيعاً.

وعن عائشة: أنها أَباحت النَظَرَ إليها لِعَبْدِهَا، وَقالت لَذُكُوان: إنك إذا وَضَعْتَنِي فِي القَبْرِ وَخَرَجْتَ فَأَنْتِ حُرٌّ. وعن سَعِيدِ بنِ المُسَيَّبِ مثله، ثم رَجَعَ وقال: لا تَغْرُنَّكُمْ آيَةُ النور؛ فَإِنَّ المِرادَ بِها الإماء.

وهذا هو الصحيح؛ لأنَّ عَبْدَ المِراةِ بِمِنزِلَةِ الأَجْنِبيِّ مِناها، خَصِيماً كان أو فَحَلاً.

قولُه: (وقُرئ: «جِيُوبِهِنَّ»)، قرأ نافعٌ وعاصمٌ وأبو عَمْرٍو وهشام: ﴿جِيُوبِهِنَّ﴾ بضم الجيم، والباقون: بكسرها^(١).

قولُه: (وكذلك «بِيُوتَا غَيْرِ بِيُوتِكُمْ»)، قال الزجّاجُ: مَنْ صَمَّ^(٢) فعلى أَصْلِ الجَمْعِ، بَيَّتْ وَبِيُوتَ، مِثْلَ قَلْبٍ وَقَلُوبٍ، وَمَنْ كَسَرَ فَلِلياءِ التي بَعْدَها، وَذلك عِنْدَ البَصْرِيِّينَ رَدِيءٌ جِداً؛ لأنَّهُ لَيسَ فِي الكِلامِ «فِعُولٌ» بِكسْرِ الفاء^(٣)، والقراءةُ شاذةٌ.

قولُه: (وهذا هو الصحيح؛ لأنَّ عَبْدَ المِراةِ بِمِنزِلَةِ الأَجْنِبيِّ)، ذَكَرَ عُبي السُّنِّيَّةِ فِي «المَعَالِمِ»: عَبْدَ المِراةِ مُحَرَّمٌ لها، فَيَجوزُ لَه، إِذا كان عَفيفاً، النَظَرَ إِلى بَدَنِ مَولِاَتِهِ إِلا ما بَينَ السُّرَّةِ والرُّكْبَةِ، كالمَحارِمِ، وَهُوَ ظاهِرُ القُرآنِ. وَرُويَ ذَلكَ عَن عائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» للداني ص ١٦١.

(٢) في (ح) و(ف): «مَنْ فَعَلَ».

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٣٨).

وعن مَيْسُونِ بِنْتِ بَخْدَلِ الْكِلَابِيَّةِ: أَنَّ مُعَاوِيَةَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَمَعَهُ خَصِيٌّ، فَتَقَنَّعَتْ مِنْهُ، فَقَالَ: هُوَ خَصِيٌّ. فَقَالَتْ: يَا مُعَاوِيَةَ، أَتَرَى أَنَّ الْمُثَلَّةَ بِهِ مُحَلَّلٌ مَا حَرَّمَ اللَّهُ؟ وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا يَحِلُّ إِمْسَاكُ الْخِصْيَانِ وَاسْتِخْدَامُهُمْ وَبَيْعُهُمْ وَشِرَاؤُهُمْ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ إِمْسَاكُهُمْ.

فإن قلت: رُوي: أَنَّهُ أَهْدِيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَصِيٌّ فَقَبِلَهُ. قلت: لَا يُقْبَلُ فِيهَا نَعْمٌ بِهِ الْبَلْوَى إِلَّا حَدِيثٌ مَكْشُوفٌ، فَإِنْ صَحَّ فَلَعَلَّهُ قَبِلَهُ لِيُعْتِقَهُ، أَوْ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ.

الإزبة: الحاجة. قيل: هم الذين يتبعونكم ليُصيبيوا من فضل طعامكم، ولا حاجة لهم إلى النساء؛ لأنهم بُلَّةٌ لَا يَعْرِفُونَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِهِنَّ. أَوْ شِيُوخٌ صُلِحَاءٌ إِذَا كَانُوا مَعَهُنَّ غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ، أَوْ بِهِمْ عَنَانَةٌ.

تعالى عنها، وَرَوَى ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى فَاطِمَةَ بَعْدَ قَدْ وَهَبَهُ لَهَا، وَعَلَى فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ثَوْبٌ إِذَا قَنَعَتْ بِهِ رَأْسَهَا لَمْ يَبْلُغْ رِجْلَيْهَا، وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رِجْلَيْهَا لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَهَا، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا تَلَقَى قَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ؛ إِنَّمَا هُوَ أَبُوكَ وَغُلَامُكَ»^(١). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ».

قوله: (تَعَمُّمٌ بِهِ الْبَلْوَى)، الْجَوْهَرِيُّ: الْبَلِيَّةُ وَالْبَلْوَى وَالْبَلَاءُ وَاحِدٌ.

الأساس: وَقَدْ يُلَى بِكَذَا، وَابْتُلِيَ بِهِ، وَأَصَابَتْهُ بَلْوَى، وَالْعِبَارَةُ كِنَايَةٌ عَنْ أَمْرٍ لَهُ خَطَرٌ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ إِذَا تَبَسَّسَ بِهِ الْبَلَاءُ نَحَامَاهُ النَّاسُ وَهَابُوهُ فَتَتَوَقَّرُ الدَّوَاعِي فِي الْإِهْتِمَامِ بِهِ لِلْإِحْتِرَازِ عَنْهُ، أَيْ: لَا يُقْبَلُ فِي أَمْرٍ يَهْتَمُّ بِشَأْنِهِ إِلَّا حَدِيثٌ مَشْهُورٌ.

قوله: (أَوْ بِهِمْ عَنَانَةٌ)، الْجَوْهَرِيُّ: رَجُلٌ عَيْنَانِ: لَا يَرِيدُ النِّسَاءَ، بَيْنَ الْعَيْنِيَّةِ، وَامْرَأَةِ عَيْنِيَّةٍ: لَا تَشْتَهِي الرِّجَالَ. وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، وَعُنِّنَ الرَّجُلُ عَنْ امْرَأَتِهِ: إِذَا حَكَمَ الْقَاضِي عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَالْإِسْمُ مِنْهُ الْعُنَّةُ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْجَوْهَرِيُّ عَنَانَةَ. وَفِي حَاشِيَةِ «الصَّحَاحِ»

(١) «معالم التنزيل» (٦: ٣٥) والحديث المذكور أخرجه أبو داود في «السنن» (٤١٠٨) والبيهقي في

«السنن الكبرى» (٧: ٩٥).

وَقُرِّي: ﴿عَبْرٌ﴾ بالنصبِ على الاستثناء أو الحال، والجَرُّ على الوصفية.

وُضِعَ الواحدُ موضعَ الجَمْعِ؛ لأنه يُقيدُ الجنسَ، ويُبيِّنُ ما بعده أنه يُرادُ به الجمعُ،

بخَطِّ ابنِ حبيبٍ: الصَّوابُ: العَيْنُ: الذي لا يتشَبَّهُ ذَكَرَهُ. وفي «المُغْرِبِ»: العُنَّةُ على رَعْمِمْ: اسمٌ مِنَ العَيْنِ، وهو الذي لا يَقْدِرُ على إثباتِ النِّسَاءِ، مِن عَنٍّ: إذا حُبِسَ في العُنَّةِ، وهي حَظِيرَةُ الإِبِلِ، أو مِن: عَنٍّ: إذا عَرَفَ؛ لأنه يَعْنُ بِمِثَالِها وشِمالاً ولا يَقْصِدُها، ولم أَعثرُ عليها إلا في «الصَّحاحِ». وفي «البصائرِ» ابنِ حبانَ التَّوْحِيدِيَّ: فلانٌ عَيْنٌ بَيْنَ التَّعْنِينِ، ولا تَقُلُّ: بَيْنَ العُنَّةِ، كما يَقولُ الفقهاءُ؛ فإنه كلامٌ مرذولٌ^(١).

وَوَجَدْتُ بخَطِّ مَولاي هِباءَ الأَمِينِ: رُوِيَ عن المصنِّفِ، أنه كَتَبَ في الحواشي: ذَكَرَ أبو حَبانَ في كتابِ «البصائرِ»: عَيْنٌ بَيْنَ التَّعْنِينِ، والعَيْنَةُ والعَيْنِيَّةُ، والعنانَةُ والعُنَّةُ كَذَبٌ على العَرَبِ، وأولاهُ بالاستعمالِ: العنانَةُ ولا يَعْرِفُكَ قولُ الفقهاءِ: بَيْنَ العُنَّةِ؛ فإنَّهم إنما يَقولونَ ذلك لِقَلَّةِ عَنايتِهِم بِلُغَةِ نَبِيهِمْ.

قوله: (وَقُرِّي: ﴿عَبْرٌ﴾ بالنصبِ)، أبو بكرٍ وابنُ عامرٍ، والناقونُ: بالجرِّ^(٢).

قال الزَّحَّاجُ: أَمَّا حَظُّرٌ ﴿عَبْرٌ﴾ فَصَنَّفَهُ لـ «التَّابِعِينَ»؛ لأنَّ «التَّابِعِينَ» هُنَا ليس بمَقْصودِهِ إلى قومٍ بأعيانِهِمْ، وإنما لِكُلِّ تابعٍ غيرِ أولي إِرْبَةِ.

وأما نَصِبُها فعلى الاستثناء، أي: لا يُبَدِّلُ رِزْيَتَهُمْ إِلَّا لِلتَّابِعِينَ إِلَّا أولي الإِرْبَةِ فلا يُبَدِّلُ رِزْيَتَهُمْ هُمْ. وإمَّا على الحال، أي: أو التَّابِعِينَ غيرِ مَرِيدِيْنَ النِّسَاءِ، أي: في هذه الحالِ^(٣).

قوله: (وُضِعَ الواحدُ)، أي: قولُ: ﴿أَوْ أَنْطَقِلُ﴾.

قوله: (وَيُبيِّنُ ما بعده)، أي: وَضَعَهُ بِـ «الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ».

(١) «المُغْرِبُ في ترتيبِ المَعرَبِ» (١٢: ٤٦٦) وانظر كلامَ التَّوْحِيدِيَّ في «البصائرِ والذخائرِ» (١: ٢٣)، وزاد بعده: «وقد مرَّ لنا - يعني الفقهاءُ - على قولٍ من اللطائفِ لسوءِ عَنايتِهِم بِلُغَةِ نَبِيهِمْ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ».

(٢) ولتَمامِ الفائدةِ انظر: «حِجَّةُ القراءاتِ» ص ٤٩٦.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٢).

وَنَحْوَهُ ﴿تَحْرِيْمُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج، ٥].

﴿لَمْ يَظْهَرُوا﴾: إمّا من ظَهَرَ على الشيء؛ إذا اطلع عليه، أي: لا يعرفون ما العورة، ولا يميزون بينها وبين غيرها؛ وإمّا من ظَهَرَ على فلان؛ إذا قَوِيَ عليه، وظَهَرَ على القرآن: أَخَذَهُ وأطافه، أي: لم يَسُدُّوا أروانَ التُّدْرِجِ على الوَطْءِ، وفُرِي: (عَوْرَات) وهي لغةٌ هُذِلِي. فإن قلت: ولماذا تذكّر الله الأعمامَ والأخوال؟ قلت: سئل الشعبيُّ عن ذلك، فقال: لئلا يَصِفَها العَمُّ عند ابنه، والخال كذلك.

ومعناه: أن سائرَ القُرَابَاتِ يَشْتَرِكُ الأبُّ والابنُ في المَحْرَمِيَّةِ إلا العَمُّ والخالُ وأبناءهما. فإذا رأها الأبُّ نَهَى وَصَفَها لابنه وليس بِمَحْرَمٍ، يُدَانِي تَصَوُّرُهُ لها بالوصفِ نَظَرَهُ إليها، وهذا أعمُّ من الدلالاتِ التليغيةِ على وجوب الاحتياطِ عليهنَّ في التسترِ. كانت المرأةُ تَضْرِبُ الأَرْضَ بِرِجْلِها؛ لِيَتَفَقَّعَ خَلْخالُها فَيَعْلَمَ أنها ذاتُ خَلْخالٍ. وقيل: كانت تَضْرِبُها بِأحْدَى رِجْلَيْها الأخرى؛ لِيَعْلَمَ أنها ذاتُ خَلْخالَيْنِ.

وإذا نُهِينَ عن إظهارِ صِرتِ الخَلِيِّ بعدما نُهِينَ عن إظهارِ الخَلِيِّ؛ عَلِمَ بذلك أنَّهُ انْتَهَى عن إظهارِ مواضعِ الخَلِيِّ ألبعُ وأبلغُ. أو أمرُ الله ونواهيهِ في كُلِّ بابٍ لا يكادُ العبدُ الضعيفُ يقدِرُ على مُراعَاتها؛ إن ضَبَطَ نَفْسَهُ واجْتَنَبَ، ولا يَجْلُو من تقصيرِ بَقَعِ منه؛ فلذلك وصَّى المؤمنينَ جميعاً بِعُويَّةٍ والاستغفارِ، وبِتأميلِ الفلاحِ إذا تابوا واستغفروا.

قوله: (وقرئ: «عورأت») (١)، في «الطلع»: «عورأت» بالتحريك؛ لأنه الأصلُ في جمعِ «فَعْلَةٍ» بالسُّكُونِ، إذا كان اسماً، والسُّكُونُ في الجَمْعِ لكان حرفِ العِلَّةِ.

قوله: (أن سائرَ القُرَابَاتِ يَشْتَرِكُ الأبُّ والابنُ في المَحْرَمِيَّةِ)، يعني: كُلٌّ مِنَ لَهُ قَرَابَةٌ كائنه وأبوه يَشْتَرِكُ معه في القُرَابَةِ كالأخ؛ فإنه لما كان محرمًا، فإنه أيضاً محرمٌ، وأبوه كذلك، والأبُّ، وابنه وأبوه كذلك إلا العَمُّ والخالُ؛ فإنهما لم يَشْتَرِكَا مع ابنيهما في المَحْرَمِيَّةِ.

(١) وعن قرأها ابن عباس في روايته عنه، وقرأها الأعمش وإسحاق. النظر: «البحر المحيط» (٨: ٦٩).

وعن ابن عباس: ثوبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية؛ لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة. فإن قلت: قد صححت التوبة بالإسلام، والإسلام يجب ما قبله، فما معنى هذه التوبة؟ قلت: أراد بها ما يقوله العلماء: إن من أذنب ذنباً ثم تاب عنه، يلزمه كل ما تذكره أن يجدد عنه التوبة؛ لأنه يلزمه أن يستمر على ندمه وعزمه إلى أن يلقى ربه. وقرئ: (أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ) بضم الهاء، ووجهه: أنها كانت مفتوحة؛ لوقوعها قبل الألف، فلما سقطت الألف؛ لالتقاء الساكنين؛ أتبعَتْ حركتها حركة ما قبلها.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٣٢]

الأيامى واليتامى: أصلهما: أيائم ويتائم، فقلبا، والأييم: للرجل والمرأة، وقد أم وأمت وتأيما: إذا لم يتزوجا بكرين كانا أو تيبين. قال:

قوله: (وَقُرِئَ: «أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ»)، قرأها ابن عامر، وفي الزخرف^(١): «أَيُّهُ السَّاحِرُ»، وفي الرحمن^(٢): (أَيُّهُ الثَّقَلَانِ) بضم الهاء في الوصل في الثلاثة، والباقون: بفتحها. ووقف أبو عمرو والكسائي عليهن: «أيها» بالألف، ووقف الباقر بغير ألف^(٣).

قال أبو علي: وهذا لا يتجه؛ لأن آخر الاسم الهاء هاهنا؛ لأنه آخر الكلمة، لجاز ضم الميم في اللهم؛ لأنه آخرها^(٤). والعدر ما ذكره المصنف: «أنها كانت مفتوحة» إلى آخره، وعن بعضهم: أنها كتبت في ثلاثة مواضع من التنزيل بلا ألف.

(١) يعني: في الآية ٤٩ منها.

(٢) يعني: في الآية ٣١ منها.

(٣) انظر: «حجة القراءات» ص ٤٩٧.

(٤) «الحجة للقراء السبعة» للفراسي (٣: ١٩٨) وفي نقل الطيبي نوع إخلال. وعبرة الفارسي ثمة: «فأما ضم ابن عامر الهاء من ﴿يَتَأَيُّهُ السَّاحِرُ﴾ فلا يتجه، لأن آخر الاسم هو الياء الثانية من «أي» فينبغي أن يكون المضموم آخر الاسم، ولو جاز أن يضم هذا من حيث كان مقترنا بالكلمة لجاز أن يضم الميم من «الهم» لأنه آخر الكلمة. انتهى.

فَإِنْ تَنكِحِي أَنْكَحْ وَإِنْ تَتَأَيَّمِي - وَإِنْ كُنْتُ أَفْتَى مِنْكُمْ - أَتَأَيَّمِ

وعن رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَيْمَةِ وَالغَيْمَةِ وَالْأَيْمَةِ وَالْكَزْمِ وَالْقَرَمِ»، والمراد: أنكحوا من تأيم منكم من الأحرار والحرائر، ومن كان فيه صلاح من غلمانكم وجواريتكم.

وَقُرئ: (من عبديكم). وهذا الأمر للندب؛ لما علم من أن النكاح أمر مندوب إليه، وقد يكون للوجوب في حق الأولياء عند طلب المرأة ذلك، وعند أصحاب الظواهر: النكاح واجب.

قوله: (فإن تنكحي أنكح)، البيت^(١). أفتى: أفعُل من الفتى، أي: أقرب إلى الشباب، و«أتأيم»: جزاء الشرط، «وإن كنت أفتى منكم»: جملة معترضة. يقول: أو أفكك في حالتي التزوج والتأيم، وإن كنت أفتى منك.

قوله: (من العيمة والغيمة)، النهاية: العيمة بالعين المهملة: شدة شهوة اللبن، وقد عام يعام ويعيم عيماً. والغيمة بالغين المعجمة: شدة العطش.

و«الكَزْمُ» بالزاي والتحريك: شدة الأكل، والمصدر ساكن، وقيل: هو البخل، من قولهم: هو أكزم البنان، أي: قصيرها، كما يقال: جعد الكف، وقيل: هو أن يريد الرجل المعروف ولا يقدر على الشيء. والقَرَمُ: شدة شهوة اللحم حتى لا يصبر عنه.

قوله: (وهذا الأمر للندب)، قال القاضي: لما تهى عما عسى يفضي إلى السفاح المخل بالنسب المقتضي للألفة وحسن التربية ومزيد الشفقة المؤدية إلى بقاء النوع، بعد الزجر عنه مبالغة فيه، أمر بالنكاح الحافظ له، والخطاب للأولياء والسادة. وفيه دليل على وجوب تزويج المولية والمملوك، وذلك عند طلبهما، وإشعاراً بأن المرأة والعبد لا يستبدان به، إذ لو استبدأ لما وجب على الولي والمولى^(٢).

(١) سبق تحريجه.

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ١٨٤).

ومما يدل على كونه مندوباً إليه، قوله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلَيْسَتْ بِسُنَّتِي، وَهِيَ النِّكَاحُ»، وعنه: «مَنْ كَانَ لَهُ مَا يَتَزَوَّجُ بِهِ فَلَمْ يَتَزَوَّجْ فَلَيْسَ مِنَّا»، وعنه: «إِنَّا نَزَوَّجُ أَحَدَكُمْ عَجَّ شَيْطَانَهُ: يَا وَيْلَهُ، عَصَمَ ابْنُ آدَمَ مِنِّي ثَلَاثِي دِينَهُ»، وعنه: «يَا عِيَاضُ، لَا تَزَوِّجُنَّ عَجُوزاً وَلَا عَاقِراً، فَإِنِّي مُكَاثِرٌ». والاحاديث فيه عن رسول الله ﷺ والآثار كثيرة.

وقلت: ويمكن أن يُفترَزَ بأنَّ الأمرَ هاهنا للوجوب؛ فإنه تعالى لما نهي المؤمنين من الرجال والنساء عما يوقعهم في النكاح من إرسال النظر الذي هو رائد القلب، وأمرهم بقصر الأبصار على المبالغة. ولم يأت من تفصيل ذلك إلا وأطلقت فيه، أقبل على الأولياء والسادة بالأمر بالنكاح خوفاً من الفساد، وأزال المانع وأزاح العلة، وهو خوف القلب، يعني: إن كان المانع ذلك فالله وأمره فهو يغنيهم من فضله إن شاء، عليهم يسقط الرزق لمن يشاء ويقدر، فأنكحوا أنتم ولا تأبوا، ثم راجع الخطبات إلى الظالمين وأمرهم بالاستعفاف، يعني: لا تلجأوا أنتم أيضاً على الأولياء بالطلب وأنتم فقراء محاييج، بل اطلبوا من أنفسكم العفة، واجملوها على العفاف حتى ينزل الله من فضله، ثم خص إرشاد تعبيد والإماء بما هو أصلح لأمرهما من الاستقلال بأنفسهما ثم التزوج بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْنُونَ الْكِنَابَ﴾ الآية، وسيجيء عن توريث من الإسلام لصاحب «الانتصاف» ما يشهد بعضه هذا البيان، فيعم ما قال المصنف وما أحسن ما شكب هذه الأمور.

قوله: (مَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي)، أي: ما أنا عليه، النهاية: في حديث حذيفة: «على غير فطرة محمد ﷺ»^(١)، أراءه دين الإسلام، أي: هو منسوب إليه.

قوله: (مَنْ كَانَ لَهُ مَا يَتَزَوَّجُ بِهِ فَلَمْ يَتَزَوَّجْ فَلَيْسَ مِنَّا)^(٢)، الانتصاف: هذا يدل على الوجوب، كقوله: «مَنْ عَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»^(٣)، «وَمَنْ شَهَرَ السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»^(٤).

(١) أخرجه البخاري (٧٩١) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٢٠١) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨٣٥٥) وفي «المعجم

الأوسط» (٩٨٩) مرسلًا، وذكره الأسي في «مجمع الزوائد» (٢٥١: ٢٥٢) وقال: إسناده حسن.

(٣) أخرجه مسلم (١٠٢) من حديث ابن هزيمة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧٥) والترمذي (١٢٥٩) من حديث ابن موسى الأشعري وقال: حديث

حسن صحيح. والنظر «الانتصاف» ابن المنير (٢: ٢٣٤).

وربّما كان واجب التّرك إذا أدّى إلى معصية أو مفسدة. وعن النبي ﷺ: «إذا أتى على أمّتي مئة وثمانون سنة فقد حلت لهم العزبة والعزلة والترهب على رؤوس الجبال»، وفي الحديث: «يأتي على الناس زمان لا تُنال المعيشة فيه إلا بالمعصية، فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة». فإن قلت: لم تحصّ الصالحين؟ قلت: ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم، ولأنّ الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليتهم يُسفنون عليهم ويُزلونهم منزلة الأولاد في الأسرة والمودة، فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبّل الوصية فيهم، وأما المُفسدون منهم فحالمهم عند مواليتهم على عكس ذلك. أو أريد بالصّلاح: القيام بحقوق النكاح. ينبغي أن تكون شريطة الله غير منسية في هذا الموعد ونظائره، وهي مشيئته، ولا يشاء الحكيم إلا ما اقتضته الحكمة وما كان مصلحة،

قوله: (في الأثرة)، الأساس هو أثيري: الذي أثيره وأقدّمه، وله عندي أثره.

قوله: (شريطة الله)، الأساس: شرط عليه كذا واشترط، وهذا شرطتي، وقد شرط فلان في عمله: تنوَّق وتكافأ شرطاً ما هي عليه.

قوله: (ينبغي أن تكون شريطة الله غير منسية في هذا الموعد)، يعني: في قوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وفي نظائره نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣-٤]، والآيتين وإن كانتا مُطلقتين في الظاهر لكنهما مُقيّدتان بالشريطة، أي: بمشيئة الله تعالى عز وجل، فلذلك قد يتخالف الغني عن التقوى، وعن النكاح في بعض الصُّور. والحاصل أن الآيتين وإن كانتا مُطلقتين في الوعد، لكنهما محمولتان على المُقيّد، وهو: إما دليل العقل فكما ذكره: «ولا يشاء الحكيم إلا ما اقتضته الحكمة، وما كان مصلحة»، وإما دليل النصّ فكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ [التوبة: ٢٨]، ومن نسى الشريطة، أي: القيّد إذا سمع ظاهر الآيتين انتصب مُعترضاً إذا كان فقيراً وما استغنى؛ يقول: ما بالي اتقيت، أو تزوجت فما استغيت، وإذا كان غنياً وافتقر يقول: ما بالي افتقرت؟ هذا تقرير كلام

ونحوه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقد جاءت الشريطة منصوصةً في قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةَ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ الْمَصْنُفُ، لَكِنَّ الْآيَةَ لَيْسَتْ بِمُطْلَقَةٍ، بَلْ هِيَ مَقِيدَةٌ بِقَوْلِهِ: ﴿عَلِيمٌ﴾ كَمَا قَالَ: «وَلَكِنَّهُ عَلِيمٌ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

قال صاحبُ «الانتصاف»: شَرَطَ المصلحةَ على قاعدته، فَحَجَرَ واسعاً من رحمة الله تعالى، واحتجاجُهُ عليه لا له؛ فَإِنَّ الْآيَةَ شَرَطَ فِيهَا المصلحةَ لا المصلحةَ.

وهنا نُكْتَبُ، وذلك أَنَا رَأَيْنَا مَنْ يَتَزَوَّجُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ الْغِنَى، وَوَعَدَ اللَّهُ تَعَالَى صِدْقَ فَلَا بَدَّ مِنْ شَرَطِ مُضْمَرٍ، فَهَمْ يُضْمِرُونَ المصلحةَ، وَنَحْنُ نُضْمِرُ المصلحةَ، فَمَنْ لَمْ يُغْنِهِ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ تَزَوُّجِهِ فَهُوَ مِمَّنْ لَمْ يَشَأْ غِنَاهُ. فَإِنْ قِيلَ: فَكَذَلِكَ الْعُزْبُ؛ فَإِنَّ غِنَاهُمْ مَعْلُوقٌ بِالمصلحةَ، وَلَيْسَ هَذَا كإضمارِ المصلحةِ فِي الْعُقْرَانِ لِلْعَاصِي، فَإِنَّ الْعُقْرَانَ شريطةُ التوحيد، وَلَهُ ارْتِبَاطٌ بِالمصلحةَ، فَإِذَا تَابَ غَيْرُ المُوَحَّدِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى، وَالمُوَحَّدُ مَقِيدٌ بِالمصلحةَ، وَهَهُنَا لَا يَقَالُ: غَيْرُ النَاكِحِ لَا يُغْنِيهِ اللَّهُ.

فجوابه: أَنَّهُ قَدْ تَكَرَّرَ^(١) فِي الطَّبَاعِ المَسَاكِينِ إِلَى الأسبابِ أَنَّ العِيَالَ سببٌ فِي الْفَقْرِ، وَعَدَمُهُ سببٌ تَوْفُرُ المَالِ، فَأَرِيدَ قَطْعَ هَذَا التَّوَهُّمِ المَتَمَكِّنَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يُنْمِي المَالِ مَعَ كَثْرَةِ العِيَالِ الَّتِي هِيَ فِي الوَهْمِ سببٌ لِقَلَّةِ المَالِ، وَقَدْ يَحْصُلُ الإِقْلَالُ مَعَ الْعُزُوبَةِ، وَالمَالِ يَقَعُ بِشَهْدِهِ، فَذَلِكَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الارتباطَ الوَهْمِيَّ بَاطِلٌ، وَأَنَّ الْغِنَى وَالفقرَ بِفِعْلِ اللَّهِ مَسَبِّبُ الأسبابِ، وَلَا يَقِفُ إِلَّا عَلَى المصلحةَ، فَإِذَا عَلِمَ النَّاكِحُ أَنَّ النِّكَاحَ لَا يُوَثِّرُ فِي الإِقْتَارِ لَمْ يَمْتَنِعْهُ مِنَ الشَّرْعِ فِيهِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ حَيْثُ: أَنَّ النِّكَاحَ لَا يَمْنَعُهُمُ الْغِنَى مِنَ فَضْلِ اللَّهِ، فَعَبَّرَ عَنِ النَّفْيِ كَوْنَهُ مَانِعاً مِنَ الْغِنَى بِوُجُودِهِ مَعَهُ. وَمَنْهُ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا﴾ [الجمعة: ١٠] ظَاهِرُهُ أَمْرٌ بِالانتشارِ عِنْدَ انقضاءِ الصَّلَاةِ، فَالمَرَادُ تَحْقِيقُ زَوَالِ المَانِعِ، وَأَنَّ الصَّلَاةَ إِذَا قُضِيَتِ فَلَا مَانِعَ مِنَ الانتشارِ، فَعَبَّرَ عَنِ نَفْيِ الانتشارِ بِهَا يَقْتَضِي تَقَاضِي الانتشارِ مبالغةً^(٢).

(١) كذا في الأصول الخطية، والذي في «الانتصاف»: «ركز»، وهو الأشبه بالصواب.

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٢٣٥).

مِنْ فَضْلِهِ **إِنْ شَاءَ رَبُّكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ** ﴿التوبة: ٢٨﴾، وَمَنْ لَمْ يَنْسَ هَذِهِ الشَّرِيطَةَ لَمْ يَتَّصِبْ مُعْتَرِضاً بَعَزَبٍ كَانَ غَنِيًّا فَأَفْقَرَهُ النِّكَاحُ، وَبِفَاسِقٍ تَابَ وَأَتَقَى اللَّهَ وَكَانَ لَهُ شَيْءٌ فَفَنِيَّ وَأَصْبَحَ مَسْكِينًا.

وعن النبي ﷺ: «التمسوا الرزق بالنكاح». وشكا إليه رجل الحاجة، فقال: «عليك بالباءة»، وعن عمر رضي الله عنه: عجب لمن لا يطلب الغنى بالباءة!

ولقد كان عندنا رجل رازح الحال، ثم رأته بعد سنين وقد انتعشت حاله وحسنت، فسألته، فقال: كنت في أول أمري على ما علمت، وذلك قبل أن أرزق ولداً، فلما رزقت بكر ولدي تراخيت عن الفقر، فلما ولد لي الثاني زدت خيراً، فلما تتاموا ثلاثة صبب الله عليّ الخير صبباً، فأصبحت إلى ما ترى. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي: غني ذو سعة لا يبرزوه إغناء الخلاق، ولكنه ﴿عَلِيمٌ﴾ ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

قوله: (رازح الحال)، الأساس: بعير رازح: ألقى نفسه من الإعياء. وقيل: هو الشديد الهزال وبه جراك، ومن المجاز: رزحت حاله، وله حال رازحة.

قوله: (بكر ولدي)، أي: أوله، ما هذا الأمر منك ب بكر ولا يثني، أي: لا بأول ولا ثان. وحاجة بكر هو أول حاجة رفعت. «تتاموا ثلاثة» مبالغة في التمام، رجل تميم، وامرأة تامّة الخلق: وثيقاه، واجتمعوا فتتاموا عشرة، وجعلته لك تماً، أي: بتامه، كل ذلك من «الأساس».

قوله: (لا يبرزوه إغناء الخلاق)، الأساس: ما رزأته شيئاً مرزئة ورزأ: ما نقضته، وفعل كذا من غير مرزئة، أي: غير نقصان وضرر.

قوله: (ولكنه ﴿عليه﴾ ييسط الرزق لمن يشاء)، هذا الاستدراك يؤذن بأن قوله: ﴿عليه﴾ تكميل لقوله: ﴿واسع﴾، كقوله:

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب^(١)

[وَلِاسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَالَّذِينَ لَا يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا، وَإِذَا تَوَّسَّعْتُمْ مِنَ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فَذَرِكُوا عَلَى الْبِقَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ مُحَصَّنًا لِنَفْسِكُمْ لِيَتَّقُوا عِرْضَ الْحَيَاةِ وَالْدُنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾]

﴿وَلِاسْتَعْفِفِ﴾: وليتجتها في العفة وظلّف النفس، كأنّ المستعفف طالبٌ من نفسه العفاف وحاملها عليه. ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: استطاعة تزوج.

ويجوز أن يراد بالنكاح ما يتكح به من المال.

﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾: ترجية للمستعفين وتقدّمه وعد بالفضل عليهم بالغنى.

قوله: (وظلّف النفس)، الأساس: ظلّف نفسه: كتمها عما لا يحل. قال ربيعة بن مقروم:

وظلّفت نفسي من لئيم المأكل^(١)

قوله: (كأنّ المستعفف طالبٌ من نفسه العفاف وحاملها عليه)، أي: حرّد من نفسه شخصاً غيره، وطلّب منه العفاف.

قوله: (أن يراد بالنكاح ما يتكح به من المال)، ومعنى هذين الوجهين قريبٌ من معنى الوجهين في ﴿طَوَّلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوَّلًا أَنْ يَكْتَسِبِ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فإن الشافعية فسرته بالزيادة في المال، والحنفية بعدم ملك فراش الحرّة^(٢).

يؤيد هذا الوجه قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فالنكاح على هذا على زنة «فعال» للالة. المطلع: هو مثل الزوام والحزام: اسم لما يقام ويحزم به.

(١) البيت في «الحيوان» (٧: ٢٦٢)، وصدّره:

ونقد أذنتُ المأل من جمع امرئ

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٢: ١٧٢) وللإطلاع على رأي الحنفية انظر: «أحكام القرآن» للخصاص

(٣: ١٠٩).

ليكونَ انتظارُ ذلكِ وتأويلُهُ لطفاً لهم في استعفافهم، ورَبطاً على قلوبهم، وليُظهِرَ بذلكِ أنَّ فضلَهُ أولى بالإعفاءِ وأدنى من الصُّلحاءِ، وما أحسَرَ ما رَتَّبَ هذه الأوامرَ: حثُّ أمرٍ أولاً بما يعصمُ من الفتنَةِ ويُبعدُ من مُواقِعَةِ المعصية؛ وهو غَضُّ البصرِ، ثم بالنكاحِ الذي يُحصِنُ به الدينَ، ويقعُ به الاستغناءُ بالخلالِ عن الحرامِ، ثم بالحملِ على النفسِ الأمانةِ بالسوءِ وعزْفِها عن الطُّمُوحِ إلى الشهوةِ عند العجزِ عن النكاحِ إلى أن يُورِّقَ القُدرةَ عليه. ﴿وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ﴾ وتُوقِعُ على الابتداءِ، أو منصوبٌ بفعلٍ مُضمرٍ يفسره ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾. كقولك: زيدا فامسره، ودخلتِ الفاءُ لتضمينِ معنى الشرطِ. والكتابُ والمكاتبةُ، كالعِتَابِ والمُعَاتبةِ؛ وهو أن يقولَ الرَّجُلُ لِمَلُوكِهِ: كاتبتك على ألفِ درهمٍ، فإنَّ أَدَاهَا عَتَقَ.

قوله: (ليكونَ انتظارُ ذلكِ وتأويلُهُ لطفاً لهم في استعفافهم)، يعني: في إيقاعِ الغنى غايةً للأمرِ بالاستعفافِ فالنتائجُ إحداهما: التوكلُ المستعينةُ نفسه على الإمساكِ عن النكاحِ ولا يستعجلُ قبلَ الاستعدادِ، لأنَّ يورِّطُ، فيها يفتضحُ من كثرةِ العيالِ وقلةِ المالِ، فتكونُ الترجيةُ لطفاً له. وثانيتهما: أنه لما رَتَّبَ الأمرَ بالاستعفافِ على تولدِ ﴿يَتَغَنَّبُهُمُ اللَّهُ مِنْ فَتْمِهِ﴾ أَذَّنَ أَنْ فَضْلَهُ أَوْلَى بالإعفاءِ؛ لأنَّ تَرَتَّبَ الحكمَ على الوصفِ المناسبِ مُشعرٌ بانعائته، وكأنه قيل: استعفوا إلى أن يغنيكم اللهُ من فضله، ففي كلامه لَفٌّ وتكرارٌ؛ لأنَّ قوله: (ليكونَ انتظارُ ذلكِ وتأويلُهُ) متعلِّقٌ بقوله: «ترجية للمؤمنين».

وقوله: (وليُظهِرَ بذلكِ)، يفهمُ: التقدمةُ زهداً بالفضلِ.

قوله: (وعزفها عن الطُّمُوحِ) النهايةُ: وفي حديثِ حارثةَ: «عزفت نفسي عن الدنيا» (١)، أي: نأفها وكرهتها، ويروى: «عزفت نفسي» بضمِّ الناءِ، أي: متعتها وعزفتها، وطمحَ بصرُّه إليه، أي: استدَّ وعلا، ومنه: «لمسحت عيناهُ إلى السماء».

(١) هو جزءٌ من حديثِ طويلٍ أخرجه البزارُ في «المستدرك» (٦٩٤٨) من طريقِ أنسِ بنِ مالكٍ. وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٨٩) وابنُ أبي شيبة في «المصنف» (٣١٠٦٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣٠، ١٥٩) من طريقِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي اللهُ عنه.

ومعناه: كتبتُ لك على نفسي أن تعتق مني إذا وفيتَ بالمال، وكتبتَ لي على نفسك أن تفيَ بذلك. أو: كتبتُ عليك الوفاءَ بالمال، وكتبتَ عليَّ العتق. ويجوزُ عند أبي حنيفة رحمه الله حالاً ومؤجلاً، ومُنَجِّماً وغيرَ مُنَجِّم؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يذكُرِ التنجيم، وقياساً على سائر العقود. وعند الشافعي رحمه الله: لا يجوزُ إلا مؤجلاً مُنَجِّماً، ولا يجوزُ عنده بنجيم واحد؛ لأنَّ العبدَ لا يملك شيئاً، فعقدُه حالاً مَنعٌ من حصولِ الغرض؛ لأنه لا يقدرُ على أداءِ البدلِ عاجلاً. ويجوزُ عقده على مالٍ قليلٍ وكثيرٍ، وعلى خِدمةٍ في مُدَّةٍ معلومة، وعلى عملٍ معلومٍ مُؤقَّت؛ مثل: حفر بئرٍ في مكانٍ بعينه معلومة الطُول والعرض، وبناء دارٍ قد أراه أجزَّها وجصَّها وما تُبنى به. وإن كاتبه على قيمته: لم يجز. فإن أداها: عتق، وإن كاتبه على وصيف: جاز؛ لقلة الجهالة، ووجوب الوَسَط. وليس له أن يطأ المَكاتبة. وإذا أدَّى عتق، وكان ولاؤه لمولاه؛ لأنه جادٌ عليه بالكسبِ الذي هو في الأصلِ له. وهذا الأمرُ للندبِ عند عامة العلماء. وعن الحسن: ليس ذلك بعزم، إن شاء كاتبٌ وإن شاء لم يُكاتب.

وعن عمر رضي الله عنه: هي عزيمةٌ من عزماتِ الله. وعن ابن سيرين مثله،

قوله: (لأنَّ الله تعالى لم يذكُرِ التنجيم، وقياساً على سائر العقود)، قال القاضي: واحتجاجُ الحنفيةِ بإطلاقه على جوازِ الكتابةِ الحالةِ ضعيفٌ؛ لأنَّ المطلقَ لا يُعمَّمُ مع أنَّ العجزَ عن الأداءِ في الحالِ يَمنعُ صحتها، كما في السَّلَمِ فيها لا يوجدُ عند المَحَلِّ^(١).

قوله: (على وصيف)، الجوهري: الوصيفُ: الخادم، غلاماً كان أو جاريةً. يقال: وصَفَ الغلامُ: إذا بلغَ الخدمة، فهو وصيفٌ بينَ الوصافة.

قوله: (وهذا الأمرُ للندبِ عند عامة العلماء)، قال القاضي: لأنَّ الكتابةَ معاوضةٌ تتضمَّنُ الإرفاقَ، فلا تجبُ كغيرها^(٢).

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ١٨٥).

(٢) المصدر السابق (٤: ١٨٥).

وهو مذهبُ داود. ﴿خَيْرًا﴾: قدرةٌ على أداء ما يُفارقون عليه. وقيل: أمانةٌ وتكسباً. وعن سلمانَ أنَّ مملوكاً له ابتغى أن يُكاتبه، فقال: أعندك مالٌ؟ قال: لا، قال: أفتأمرني أن أكلَ غُسالةِ أيدي الناس! ﴿وَأَتَوْهُمْ﴾ أمرٌ للمسلمين على وجهِ الوجوب بإعانةِ المُكاتبين وإعطائهم سَهْمَهُم الذي جعلَ اللهُ لهم من بيتِ المال، كقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، عند أبي حنيفةٍ وأصحابه. فإن قلت: هل محلُّ لمولاه إذا كان غنياً أن يأخذ ما تُصدَّق به عليه؟ قلت: نعم، وكذلك إذا لم تَفِ الصدقةُ بجميعِ البدلِ وعَجَزَ

قوله: (وهو مذهبُ داود)، هو داودُ بنُ عليٍّ الأصفهاني^(١)، وهو الذي يُرجَّح الاستصحاب^(٢) على القياس وهو من أصحابِ الظواهر.

قوله: ﴿خَيْرًا﴾: قدرةٌ على أداء ما يُفارقون عليه، وفي الحاشية: صادَرَتْهُ، وفارقتُهُ على مال، أي: صدرَ هذا وهذا وتفارَقاً عليه. والأظهرُ أنَّ التقديرَ على أداء ما تَفَعُّ الفرقةُ عليه من مالٍ أو خدمةٍ أو عملٍ.

الأساس: ومنَ المجازِ: وَقَفْتُهُ على مفارقِ الحديث، أي: على وجوهه الواضحة.

قوله: (قلت: نعم)، وكذلك إذا لم تَفِ الصدقةُ، إلى آخره، قيل: عندَ الشافعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه أنه إذا رَقَّ المُكاتب، أو أُعْتِقَ من غيرِ جهةِ الكتابة، غَرِمَ المدفوعُ إليه، إلا أن يُتْلَفَ المَالُ قَبْلَ العِتْقِ^(٣)، وإثما وجبَ الرُدُّ إذا لم يَعْتِقِ المُكاتبُ لو عَتَقَ من غيرِ جهةِ الكتابة؛ لأنه عَلِمَ من طريقِ التبيُّن أن ما صُرِفَ إلى المُكاتبِ لم يَقَعِ الموقعَ حيثُ، إذ لم يترتب عليه الغرضُ المطلوب، وبهذا يظهرُ أنَّ قياسَ ذلك على الصدقةِ التي اشترت من الفقيرِ غيرُ صحيح. وكذا إلحاقه بحديثِ بريدة، فإنه لم يحدثْ هنالك ما يظهرُ به بطلانُ صَرَفِ الصدقةِ إلى مَنْ صُرِفَتْ إليه.

(١) رأسُ المذهبِ الظاهري (ت ٢٧٠ هـ) كان كبيرَ المحلِّ في العلم والعمل، له ترجمة في «تاريخ بغداد» (٨: ٣٦٩).

(٢) يعني استصحاب الحال والبراءة الأصلية، وهو من مدارك الأصوليين المعتمدة.

(٣) لتام الفائدة انظر: «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج» للرملي (٨: ٣٩٢).

عن أداء الباقي، طاب للمولى ما أخذه؛ لأنه لم يأخذه بسبب الصدقة؛ ولكن بسبب عقد المكاتبه، كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها أو وهبت له، ومنه قوله ﷺ في حديث بَريرة: «هو لها صدقةٌ ولنا هدية». وعند الشافعي رضي الله عنه: هو إيجابٌ على المَوالِي أن يَحْطُوا لهم من مال الكتابة، وإن لم يفعلوا أُجبروا. وعن علي رضي الله عنه: يُحْطُ له الرُّبْع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يُرْضَخُ له من كتابته شيئاً، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كَاتَبَ عبداً له يُكْنَى أبا أمية، وهو أولُ عبيدِ كُوتَبَ في الإسلام، فأتاه بأولِ نَجْمٍ، فدفعه إليه عمرٌ وقال: استعِنْ به على مُكاتبتك. فقال: لو أخرته إلى آخرِ نَجْمٍ. قال: أخافُ أن لا أدرك ذلك. وهذا عند أبي حنيفة على وجهِ النَّدْب، وقال: إنه عَقْدٌ مُعَاوَضَةٌ؛ فلا يُجْبَرُ على الحَطيطة، كالبَيْع. وقيل: معنى ﴿وَأَتَوْهُمْ﴾: أَسْلِفُوهُمْ. وقيل: أُنْفِقُوا عليهم بعد أن يُؤَدُّوا وَيَعْتَقُوا. وهذا كُلُّهُ مُسْتَحَبٌّ. وروى: أنه كان حُويطِبُ بن عبد العزى مملوكٌ يقال له: الصَّبِيح، سألَ مَولاه أن يُكَاتِبَه فأبى؛ فنزلت.

كانت إماءُ أهلِ الجاهلية يُسَاعِينَ على مَوالِيهنَّ، وكان لعبدِ الله بن أبي راسٍ

قوله: (في حديث بَريرة)، وحديثها على ما رَوَاهُ البخاريُّ ومسلمٌ ومالكٌ، عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: تُصَدِّقُ على بَريرةَ بِلَحْمٍ، فقال رسولُ الله ﷺ: «هُوَ لها صَدَقَةٌ ولنا هَدِيَّةٌ»^(١). وفي أخرى لمسلم: أن النبي ﷺ أتى بِلَحْمٍ بَقَرٍ فَقِيلَ: هذا ما تُصَدِّقُ به على بَريرة، فقال: «هُوَ لها صَدَقَةٌ ولنا هَدِيَّةٌ».

قوله: (يُسَاعِينَ على مَوالِيهنَّ)، النِّهاية: المُسَاعَاةُ: الزَّنى، وكان الأَصْمَعِيُّ يجعلُها في الإماءِ دونَ الحرائِرِ؛ لِأَنَّ كُنَّ يَسْعَيْنَ لِمَوالِيهنَّ فَيَكْسِبْنَ بَضَائِبَ كانت عليهنَّ، يقالُ: سَاعَتِ الأُمَّةُ: إذا فَجَرَتْ، وساعاها فلانٌ: إذا فَجَرَ بها، وهو مُفَاعَلَةٌ مِنَ السَّعي، فأبطلَ الإسلامُ ذلك، ولم يُلِحِقِ النَّسَبَ بها، وَعفا عما كان منها في الجاهليةَ مِمَّنْ أُحِلَّ لها.

قوله: (وكان لعبدِ الله بن أبي)، الحديثُ من روايةِ مسلمٍ وأبي داود، عن جابر، أن جاريةً

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٢: ٢٢) والبخاري (١٤٩٣) ومسلم (١٠٧٥) و(١٥٠٤).

النِّفَاقِ سِتٌّ جَوَارٍ: مُعَاذَةٌ، وَمُسَيِّكَةٌ، وَأُمِيمَةٌ، وَعَمْرَةٌ، وَأَرْوَى، وَقَتِيلَةٌ، يُكْرِهِنَّ عَلَى الْبِغَاءِ، وَضَرَبَ عَلَيْهِنَّ ضُرَائِبَ، فَشَكَتْ نِثْتَانٍ مِنْهُنَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَنَزَلَتْ. وَيُكْنَى بِالْفَتَى وَالْفَتَاةَ عَنِ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «لِيَقْلُ أَحَدُكُمْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي، وَلَا يَقْلُ: عَبْدِي وَأُمَّتِي». وَالْبِغَاءُ: مَصْدَرُ الْبَغْيِ. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أُقْحِمَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ﴾؟ قُلْتَ: لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ لَا يَتَأْتَى إِلَّا مَعَ إِرَادَةِ التَّحْصَنِ، وَأَمْرِ الطَّيِّعَةِ الْمُوَاتِيَةِ

لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يُقَالُ لَهَا مُسَيِّكَةٌ، وَأُخْرَى يُقَالُ لَهَا أُمِيمَةٌ، كَانَ يَرِيدُهُمَا عَلَى الرَّنَى، فَشَكَتَا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا مُنْيَتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ﴾ الآية (١).

قَوْلُهُ: (وَفِي الْحَدِيثِ: «لِيَقْلُ أَحَدُكُمْ: فَتَايَ»)، رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «لَا يَقْلُ أَحَدُكُمْ: رَبِّي، وَلِيَقْلُ: سَيِّدِي، وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقْلُ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأُمَّتِي، وَلِيَقْلُ: فَتَايَ فَتَاتِي غُلَامِي» (٢).

قَوْلُهُ: (لِمَ أُقْحِمَ قَوْلُهُ: ﴿إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ﴾؟)، يَرِيدُ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ إِكْرَاهِهِنَّ مُطْلَقٌ، فَلَمْ يَقِدْهُ بِقَوْلِهِ: إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ؟ وَذَلِكَ يُوَهِّمُ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْإِكْرَاهِ يَنْتَفِي إِذَا لَمْ تَوْجَدْ إِرَادَةَ التَّحْصَنِ وَهُوَ لَيْسَ بِمُرَادٍ، وَهَذَا مُبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْمُعْلَقَ بِلَفْظِ ﴿إِنْ﴾ عَلَى الشَّيْءِ، يَعْدَمُ عِنْدَهُمْ عَدَمَ الْمُعْلَقِ بِهِ بِشَهَادَةِ إِجْمَاعِ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّ كَلِمَةَ ﴿إِنْ﴾ لِلشَّرْطِ، وَالشَّرْطُ هُوَ مَا يَنْتَفِي الْحُكْمُ عِنْدَ انْتِفَائِهِ. وَأَجَابَ أَنَّ الْإِكْرَاهَ إِنَّمَا يُتَصَوَّرُ إِذَا أَرَدْنَا التَّحْصَنَ، وَإِذَا أَرَدْنَا الْبِغَاءَ، فَلَا إِكْرَاهَ إِذْنًا، عَلَى أَنَّ كَلِمَةَ ﴿إِنْ﴾ الدَّالَّةُ عَلَى الشُّكِّ وَخُلُوِّ الْجُزْمِ مُؤَدِّنَةٌ بِأَثْمِنَ كُنَّ رَاغِبَاتٍ فِي الرَّنَى.

الانْتِصَافُ: لَمْ يَذْكَرْ جَوَابًا شَافِيًا، وَعِنْدِي أَنَّهُ لِلإِيقَاطِ؛ لِأَنَّ السَّامِعَ يَنْبَغِي أَنَّهُ يَحْتَرِزُ مِنْ هَذِهِ الرَّذِيلَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ زَاجِرٌ شَرْعِيًّا، إِشْعَارًا بِأَنَّ أُمَّتَهُ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلَوْلَا هَذَا لَمَّا قَوِيَ الزَّاجِرُ النَّفْسِي (٣). وَقُلْتُ: وَيَقْوِي هَذَا التَّأْوِيلَ التَّعْرِيفُ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٤).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٣٠٢٩) (٢٦) وَأَبُو دَاوُدَ (٢٣١٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٩٤٦٥) وَهُوَ ثَابِتٌ فِي «الصَّحِيحِ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٥٥٢).

(٣) «الانْتِصَافُ بِحَاشِيَةِ الْكِشَافِ» (٣: ٢٣٩) بِتَصْرُفٍ مَلْحُوظٍ عَلَى جِهَةِ الْإِخْتِصَارِ.

(٤) وَمَنْ قَرَأَهَا: ابْنُ مَسْعُودٍ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ. انظُرْ: «تَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ» (١٢: ٢٥٥).

لِلْبَغْيِ لَا يُسَمَّى مُكْرَهًا، وَلَا أَمْرُهُ إِكْرَاهًا. وكلمة ﴿إِنْ﴾ وإيثارها على «إذا» إيدانٌ بأنَّ المُسَاعِيَاتِ كَنْ يَفْعَلْنَ ذَلِكَ بِرَغْبَةٍ وَطَوَاعِيَةٍ مِنْهُمْ، وَأَنَّ مَا وُجِدَ مِنْ مُعَاذَةِ وَمُسِيكَةٍ مِنْ حَيْزِ الشَّاذِّ النَّادِرِ.

﴿عَفْوَرٌ رَحِيمٌ﴾ لهم، أو: هُنَّ، أو: لهم وهُنَّ، إنَّ تَابُوا وَأَصْلَحُوا.

وقال الإمام: ومن الناس من ذكَّرَ فيه جواباً آخَرَ وهو: أَنَّ فِي الْغَالِبِ أَنْ الْإِكْرَاءَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا عِنْدَ إِرَادَةِ التَّحْصُنِ وَالْكَلَامِ الْوَارِدُ عَلَى سَبِيلِ الْغَالِبِ لَا يَكُونُ لَهُ مَفْهُومُ الْخِطَابِ، كَمَا أَنَّ الْخُلْعَ يَجُوزُ فِي غَيْرِ حَالَةِ الشَّقَاقِ، وَلَمَّا كَانَ الْغَالِبُ فِي حَالِ الشَّقَاقِ قَالَ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ إِلَّا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] وكذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ﴾ [النساء: ١٠١]، وَالْقَصْرُ لَا يَخْتَصُّ بِحَالِ الْخَوْفِ، لَكِنْ أَجْرَاهُ عَلَى سَبِيلِ الْغَالِبِ^(١).

قوله: (لهم، أو: هُنَّ، أو: لهم وهُنَّ)، يريدُ أَنَّ ﴿عَفْوَرٌ رَحِيمٌ﴾ مُطْلَقٌ، وَالْقَرِينَةُ الدَّالَّةُ عَلَى التَّقْيِيدِ ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنِيَتِكُمْ عَلَى الْإِيغَاءِ﴾، فَيَجُوزُ أَنْ يُقَيَّدَ بِالْمُكْرَهَيْنِ إِذَا تَابُوا وَبِالْمُكْرَهَاتِ، أَوْ بِكِلَيْهِمَا جَمِيعًا، وَقُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُتْرَكَ^(٢) عَلَى إِطْلَاقِهَا فَيَدْخُلُوا فِيهِ دَخُولًا أَوْلِيَاءً، قَالَ الْقَاضِي: الثَّانِي أَوْفَقُ لِلظَّاهِرِ وَلِمَا فِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ: مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ هُنَّ عَفْوَرٌ رَحِيمٌ، وَلَا يَرِدُ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُكْرَهَةَ غَيْرُ آثِمَةٍ فَلَا حَاجَةَ إِلَى الْمَغْفِرَةِ؛ لِأَنَّ الْإِكْرَاءَ لَا يُنَافِي الْمُوَاخَذَةَ بِالذَّاتِ، وَلِذَلِكَ حُرِّمَ عَلَى الْمُكْرَهَةِ الْقَتْلُ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْقِصَاصُ^(٣).

وقلت: فعلى هذا: في قوله: «فإن الله من بعد إكراههنَّ هُنَّ» وعيدٌ شديد، وتهديدٌ عظيمٌ للمُكْرَهَةِ، وَذَلِكَ الْغُفْرَانُ وَالرَّحْمَةُ تَعْرِيفٌ، وَيُؤَيَّدُ إِيرَادَ الْجِزَاءِ عَلَى سَنَنِ الْإِخْبَارِ، وَالْإِطْنَابُ بِذِكْرِ ﴿مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ يَعْنِي انْتَبَهُوا أَيُّهَا الْمُكْرَهُونَ، أَتُنَّ مَعَ كَوْنِهِنَّ مُكْرَهَاتٍ بِنَحْوِ الْقَتْلِ وَإِتْلَافِ الْعُضْوِ، يُوَاخِذَنَّ عَلَى مَا أَكْرَهْنَ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَفْوَرٌ رَحِيمٌ فَيَتَجَاوَزَنَّ عَنْهُنَّ، فَكَيْفَ

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٣: ٢٢١).

(٢) في الأصول الخطية: «يُتْرَكَ»، وصوابه بِالْفِ الْاِثْنَيْنِ.

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ١٨٧).

وفي قراءة ابن عباس: (هَنْ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

فإن قلت: لا حاجة إلى تعليق المغفرة بهنَّ؛ لأنَّ المُكْرَهَةَ على الزنى بخلافِ المُكْرَهِ عليه في أنها غيرُ آئمة. قلت: لعلَّ الإكراه كان دون ما اعتبرته الشريعة - من إكراهٍ يقتل، أو بما يُخافُ منه التلفُ أو ذهابُ العضو، من ضربٍ عَنيفٍ أو غيره - حتى تَسَلَّمَ مِنَ الإِثْمِ، وربما قَصَّرَتْ عن الحدِّ الذي تُعذَّرُ فيه فتكون آئمة.

[﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾]

[٣٤]

(مُيِّنَات): هي الآيات التي بَيَّنَّتْ في هذه السُّورَةِ وأوضحتْ في معاني الأحكام والحدود. ويجوزُ أن يكون الأصلُ مُيَّبِنًا فيها فأتسيع في الظرف.

بِمَنْ يُكْرَهُنَّ؟ مثله قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٢].

قوله: (وفي قراءة ابن عباس: «هَنْ غَفُورٌ رَحِيمٌ»)، قال ابن جني: «وقرأها سعيد بن جبير، وقال: «هَنْ»: متعلقٌ بـ«غفور»؛ لأنه أدنى إليها، ولأنَّ «فَعُولًا» أفعَدُ في التعدي من فعيل. ويجوزُ أن يتعلَّقَ بـ«رحيم»؛ لأجلِ حرفِ الجرِّ إذا قُدِّرَ خبراً بعدَ خبر، ولم يُقدَّرْ صفةٌ لـ«غفور»، لا ممتناع تقدُّمِ الصِّفَةِ على موصوفِها، والمعمولُ إنما يصحُّ وقوعه حيث يقع عامله، وليس الخبرُ كذلك، وأيضاً، يحسنُ في الخبر؛ لأنَّ رُتْبَةَ الرَّحْمَةِ أعلى من رُتْبَةِ المَغْفِرَةِ، ولأنَّ المغفرةَ مسبَّبةٌ عنها، فكأنَّها مقدَّمةٌ معنَى وإن تأخرت لفظاً. هذا تلخيصُ كلامِ ابنِ جني^(١).

قوله: (فاتسيع في الظرف)، أي: أجري مجرى المفعول به، كقوله: «ويوم شهدناه»^(٢)، أي: آياتٍ مُيِّنَاتٍ فيها الأحكامُ والحدود.

(١) انظر: «المحتسب» (٢: ١٠٨-١٠٩).

(٢) سبق تخريجه. وتأمَّ روايته:

وَقُرِّيَ بِالْكَسْرِ، أَي: بَيَّنَّتْ هِيَ الْأَحْكَامَ وَالْحُدُودَ، جُعِلَ الْفِعْلُ لَهَا عَلَى الْمَجَازِ، أَوْ مِنْ: بَيَّنَّ، بِمَعْنَى: تَبَيَّنَ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ: قَدْ بَيَّنَّ الصُّبْحُ لَذِي عَيْنَيْنِ. ﴿وَمَثَلًا مِنْ﴾ أَمْثَالِ مَنْ (قَبْلَكُمْ)، أَي: قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ مِنْ قِصَصِهِمْ، كَقِصَّةِ يَوْسُفَ وَمَرْيَمَ، يَعْنِي: قِصَّةٌ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿وَمَوْعِظَةً﴾: مَا وَعَظَ بِهِ فِي الْآيَاتِ وَالْمَثَلِ، مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ١٢]، ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [النور: ١٦]، ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ [النور: ١٧].

[﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٣٥]

قَوْلُهُ: (وَقُرِّيَ بِالْكَسْرِ)، ابْنُ عَامِرٍ وَهَمْزَةٌ وَحَفْصٌ وَالْكَسَائِيُّ فِي الْمَوْضِعَيْنِ هُنَا وَفِي «الطلاق»، والباقون: بالفتح^(١).

قَوْلُهُ: (جُعِلَ الْفِعْلُ لَهَا عَلَى الْمَجَازِ)، كَقَوْلِهِ:

إِذَا رَدَّ عَافِي الْقَدْرِ مَنْ يَسْتَعِيرُهَا؟^(٢)

قَوْلُهُ: (قَدْ بَيَّنَّ الصُّبْحُ لَذِي عَيْنَيْنِ)، قَالَ الْمِيدَانِيُّ: «بَيَّنَّ» هَاهُنَا بِمَعْنَى: تَبَيَّنَ، يُضْرَبُ لِلْأَمْرِ الَّذِي يَظْهَرُ كُلَّ الظُّهُورِ^(٣).

قَوْلُهُ: (مَا وَعَظَ بِهِ فِي الْآيَاتِ وَالْمَثَلِ)، يَرِيدُ أَنْ قِصَّةَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِثْلُ قِصَّةِ

(١) يعني بفتح الياء. والمعنى: لا يُبَسَّ فيها. وَحَجَّتُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٨] وَالْفِعْلُ مُسْتَدٌ إِلَى اللَّهِ، فَهِيَ الْآنَ مُبَيَّنَاتٌ. انْتَهَى مِنْ «حِجَّةِ الْقِرَاءَاتِ» ص ٤٩٨.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مجمع الأمثال» (٢: ٩٩).

نظيرُ قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مع قوله: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ و﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾: قولك: زيدٌ كَرَمٌ وجُودٌ، ثم تقول: يُنْعِشُ النَّاسَ بِكَرَمِهِ وجُودِهِ. والمعنى: ذو نُورِ السَّمَاوَاتِ، وصاحبُ نُورِ السَّمَاوَاتِ، ونورِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْحَقِّ، شَبَّهَهُ

يُوسُفَ وَمَرْيَمَ فِي أَنَّهُمَا قَرِيبَا بِنَا قَرِيفَا، فَكَانَا بَرِيئَيْنِ مِنْهُ، وَكَانَتْ أَيْضاً مَوْعِظَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ﴿لَمَّا أَدْمَجَ فِيهَا ذَلِكَ الْأَدَبَ الْحَسَنَ، وَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ وَأَكْثَرُهَا مَوَاعِظُ وَسَائِرُ آيَاتِ السُّورِ مِنْ نَحْوِ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ هَدَىٰ عَدَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَابِهِمْ﴾، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ لَكِنْ يَدْخُلُ فِيهَا هَذِهِ الْمَعَانِي دُخُولاً أَوْلِيَاءً.

قَوْلُهُ: (نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ و﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾: قَوْلُكَ: زَيْدٌ كَرَمٌ وَجُودٌ، ثُمَّ تَقُولُ: يُنْعِشُ النَّاسَ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ، يَرِيدُ: أَنْ نَسَبَةَ ارْتِبَاطِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِبَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ، كَنَسَبَةِ ارْتِبَاطِ الْجُمْلَتَيْنِ فِي الْمَثَالِ، وَكَذَا حَمْلُ الْخَبَرِ عَلَى الْمَبْتَدَأِ فِي الْآيَةِ كَحَمْلِهِ فِي الْمَثَالِ. فَإِنْ قُلْتَ: الْمَثَلُ ذُو جُمْلَتَيْنِ، وَالْآيَةُ ذَاتُ جُمْلٍ ثَلَاثٍ؟ قُلْتُ: إِذَا جُعِلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكُورٍ﴾ إِلَى آخِرِهَا يَتَّصِلُ بِهِ مَبِينًا لِمَا سَبَقَ؛ فَإِنَّ الْبَيَانَ وَالْمَبِينِ مَتَّحِدَانِ فِي الْإِعْتِبَارِ، ثُمَّ اسْتَوْفَى بِقَوْلِهِ: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ لِيَنْطَبِقَ عَلَيْهِ الْمَثَالُ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: يُنْعِشُ النَّاسَ بِكَرَمِهِ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾، وَحِينَ لَمْ يَفْتَقِرْ كَرَمٌ وَجُودٌ إِلَى الْبَيَانِ تَرَكَهُ.

قَوْلُهُ: (يُنْعِشُ النَّاسَ بِكَرَمِهِ)، أَي: يَرْفَعُهُمْ، وَيُصَلِّحُ حَالَهُمْ. وَأَصْلُهُ: مِنْ نَعْشَةِ الْعَاثِرِ، وَفِي بَعْضِ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ: يَا نَاعِشِ الضَّعِيفَ، يَا مُغِيثِ اللَّهِيْفَ، وَيَا مُتَهَيِّ رَغْبَةِ الْوَضِيعِ وَالشَّرِيفِ.

قَوْلُهُ: (وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْحَقِّ)، أَي: الْمَرَادُ بِالنُّورِ: الْحَقُّ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «شَبَّهَهُ بِالنُّورِ»، أَي: شَبَّهَ الْحَقَّ بِالنُّورِ، وَالْمَرَادُ بِالْحَقِّ: كَوْنُهُمَا دَلِيلَيْنِ عَلَى وَجُودِ فَاطِرِهِمَا، وَعَظْمَةِ مُبْدِعِهِمَا، وَكَمَالِ قُدْرَةِ مُنْشِئِهِمَا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] أَي: مَا خَلَقْتَهُ إِلَّا حَقًّا. وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ:

بالنور في ظهوره وبيانه، كقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]: أي: من الباطل إلى الحق.

وأضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين: إما للدلالة على سعة إشراقه وفشوه إضاءته حتى تضيء له السماوات والأرض. وإما أن يُراد أهل السماوات والأرض، وأنهم يستضيئون به.

«شبهه بالنور في ظهوره وبيانه»، أي: جعله مبيناً ودليلاً على وحدانيته، ومآل المعنى: الله جاعلها دليلين على وحدانيته، كما نُقِلَ عن بعضهم: الله مدلول السماوات والأرض. ولما احتاج الاستدلال بهما إلى الدَّهْنِ الثَّاقِبِ، والفِكرِ الصَّائِبِ الذي لا يَلُويهِ الباطلُ يميناً وشمالاً، جعل المشبة به في كوة؛ لِيُؤْذِنَ أَنَّ المُستَضِيءَ به إِنَّمَا يَنْتَفِعُ إِذَا انْتَصَبَ مُحَاضِياً لَهُ قِبَلًا إِيَّاهُ، وكذلك المُستَدَلُّ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَى الصُّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وإليه الإشارة بقوله: «ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يميناً وشمالاً».

فإن قلت: تفسيره لقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بقوله: «للدلالة على سعة إشراقه وفشوه إضاءته» غير مطابق لقوله: «إن المصباح إذا كان في مكان متضايق كالمشكاة، كان أضواؤه له، وأجمع لنوره»، بخلاف المكان الواسع، فإن الضوء يَبَثُّ فيه ويتشتر، والواجب الموافقة بين ما يجتمع فيه المشبة والمشبة به من المعنى؟ قلت: إنما يكون كذلك أن لو كان وجه الشبه سعة الإشراق وفشوه، وإنما الوجه فرط الضياء وقوة الإنارة. والحاصل أن شبه نور الله الفاشي في قوة ظهوره بالنور المستفاد من المصباح الذي هو في المشكاة، والمراد بالفشوه والانتشار: كثرة الدلائل وظهور آثار وحدانيته في الملكوت.

قوله: (وإما أن يُراد أهل السماوات والأرض)، وهو ينظر إلى تأويل ابن عباس على ما رواه محيي السنة عنه: الله هادي أهل السماوات والأرض، فهم بنوره إلى الحق يهتدون، ويهداه من حيرة الضلالة ينجون^(١). وقال الإمام: الله هادي أهل السماوات والأرض، قول

(١) «معالم التنزيل» (٦: ٤٥).

ابن عباس والأكثرين. وقال أيضاً: القول بأن المراد بالنور: الهدى هو المختار؛ لأنه مطابق لما قبله، وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾^(١). وأقول - والعلم عند الله -: إن هذه الآية مما خاص فيها العارفون والتحارير من العلماء، وبلغت أقوالهم مبلغاً عظيماً، وكلّ تكلم على مقدار بضاعته، وجاء بها في وسعه وطاقته ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

هذا، وإن من جيلة من أفنى عمره في تحصيل صناعة أن تتحرك أريحته إذا ما لاح له من تلك الصناعة لعمه، ومما تصدّيت له، وأفنيت فيه صالح عمري معرفة الفصاحتين، ومراعاة الموافقة بين الطلبتين، أعني المقام والكلام، وكثيراً ما كانت تصدم القرحة معاني هذه الآية إذا حاولت لاقتداح زندها، وانتشاق زندها مع ما يندبني إليه أخص إخواني في الدين وأخلص أخداني في طلب اليقين، ولما اعتقدت أن التجاسر على كلام الله المجيد، والتجاسر له والتشمير للخوض فيه، مع قلة البضاعة، من أعظم ما يلزم المرء من الغرامة، كنت أقدم رجلاً وأوخر أخرى إلى أن وافق لتحريك القلم شدة الغرام، فاضطرت إلى إبراز هذه الضباة من تلك الضباة، فإن صادفها الحق فهو المرام، وإلا فإني أستغفر الله على ما بدأ مني أولاً وآخرأ.

أقول: الواجب على مُقتني صناعة البلاغة تعيين المقام، وتحريُّر الكلام، لتفحيح المرام. وتحريُّر ما نحن فيه: أن نبيّن أولاً أن النور ما هو؟ وما يقتضيه المقام من التأويل، فإذا تعيّن ذلك يُنظر بعد ذلك في حقيقة هذا التشبيه، فإنه من أي قبيل هو؟ أمن المركب العقليّ أو الوهمي، أو الحسي، أم من المُفرّق الحسيّ أو العقليّ، وعلى تقدير كونه مُفرّقاً فالمشبهات المُقدّرة ما هي؟ وما التي يجب تصحيحها حتى تُقابل بالذكورات؟ وتنصيُصها من أعظم الشؤون، والتقضي من ذلك لا يستتب إلا بعون الله تعالى وتوفيقه، وإلا بلطفه وتسديده. فالكلام مُرتّب على مطلبين:

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٣: ٢٢٤).

المطلب الأول: في الكشف عن حقيقة هذا النور:

والقول الجامع فيه ما أورده القاضي في «تفسيره» واختصره من كلام الإمامين: حجة الإسلام^(١)، والإمام فخر الدين، ولخصه: النور في الأصل: كيفية تدركها الباصرة أولاً، وبوساطتها تدرك سائر المبصرات ثانياً، كالكيفية الفائضة من النيران على الأجرام الكثيفة المحاذية لها، ويوافقه تفسيراً أهل اللغة: النور: الضياء. وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف، كقولك: زيدٌ كرمٌ أي: ذو كرم، أو على تجوز، وهو على وجوه: أ- مُنَوَّرُ السَّمَوَاتِ والأرض؛ لأن الله تعالى نَوَّرَها بالكواكب وما يفيض عنها^(٢) من الأنوار، وبالملائكة والأنبياء.

ب- مُدَبَّرٌهما، من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: نورُ القوم؛ لأنهم يهتدون به في الأمور.

ج- مُوجِدٌهما، فإن النور ظاهرٌ بذاته، مُظهِرٌ لغيره، وأصل الظهور هو الوجود، كما أن أصل الحَقَاء هو العدم، والله تعالى موجودٌ بذاته، مُوجِدٌ لما عداها.

د- الذي به يُدْرِك، أو يُدْرِكُ أهلها، ومن ثم أُطلق النور على الباصرة لتعلقها به، أو لمشاركتها له في توقّف الإدراك عليه ثم على البصيرة؛ لأنها أقوى إدراكاً، فإنها تدرك نفسها وغيرها من الكليات والجزئيات الموجودات والمعدومات، وتغوص في بواطنها وتتصرف فيها بالتركيب والتحليل، ثم إن هذه الإدراكات ليست لذاتها وإلا لما فارقتها، وهي إذن من سبب يفيضها عليه، وهو الله تعالى، أو بتوسط من الملائكة والأنبياء. ويقرب منه قول ابن عباس: هادي من فيهما، فهم يهتدون بنوره^(٣).

وقلت: قول ابن عباس من واد، وهذا من واد، فإن قول خير الأمة من وادي طور سيناء، وهذا من وادي هبم فيه ابن سيناء^(٤)، فإن معنى قوله: الله هادي العالمين ومبين ما

(١) يعني الإمام الغزالي رحمه الله.

(٢) في النسخ الخطية: «عليها»، وصوبناه من «أنوار التنزيل».

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ١٨٧).

(٤) يعني الفيلسوف المشهور.

يَهْتَدُونَ بِهِ وَيَتَخَلَّصُونَ مِنَ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالَاتِ وَوَزَوَّاتِ الزِّنْعِ وَالْجَهَالَاتِ بِوَحْيِ يُنزِّلُهُ، وَنَبِيِّ يَبْعَثُهُ.

وقد تَقَرَّرَ أَنَّ التَّأْوِيلَ الَّذِي عَلَيْهِ التَّعْوِيلُ مَا سَاعَدَ عَلَيْهِ النَّظْمُ. وَرَوَيْنَا عَنْ مُحْيِي السُّنَّةِ فِي «الْمَعَالِمِ» أَنَّهُ قَالَ: التَّأْوِيلُ: صَرَفُ الْآيَةِ إِلَى مَعْنَى مُحْتَمَلٍ مُوَافِقٍ لِمَا قَبْلَهَا وَلِمَا بَعْدَهَا غَيْرِ مُخَالَفٍ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْ طَرِيقِ الْإِسْتِنْبَاطِ^(١).

وعلى مقتضى هذه القضية وَجَبَ النَّظَرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى السَّبَاقِ وَالسِّيَاقِ، أَمَّا السَّبَاقُ فَكَمَا قَالَ الْإِمَامُ: هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وَيَبَيِّنُهُ أَنَّهَا جَاءَتْ رَابِطَةً لِقِصَّةِ بَرَاءَةِ سَاحَةِ حِجَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ الصَّدِيقَةِ بِنْتِ الصَّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، كَمَا فَسَّرَهُ الْمَصْنُفُ، وَتَخَلَّصًا مِنْهَا إِلَيْهِ، وَقَدْ كَرَّرَ هَذَا الْمَعْنَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ مِرَارًا تَرْجِيحًا إِلَى مَا هُوَ مَهْتَمٌّ بِهِ وَتَخَلُّصًا إِلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَشْرَعَ فِيهِ. مِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى فِي فَاتِحَةِ السُّورَةِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وَمِنْ ثَمَّ جَاءَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَفْصُولًا اسْتِثْنَاءً عَلَى بَيَانِ الْمَوْجِبِ، امْتِنَانًا عَلَى الْمُنزَلِ عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ؛ لِأَنَّهُ هَادِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلِ الْأَرْضِ بِإِنْزَالِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى مَا تَأْتُونَ بِهِ وَتَذَرُونَ، فَفِيهِ مَعَ الْاِمْتِنَانِ تَعْظِيمٌ شَأْنِ الرَّسُولِ ﷺ، حَيْثُ اسْتَشْهَدَ لِبَرَاءَةِ حِجَابِهِ بِمَثَلِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْجَامِعَةِ، وَفِي جَعْلِ تِلْكَ الْآيَةِ تَخَلُّصًا لِهَذِهِ، وَإِذَا مِنَ الْجَوَامِعِ الْمُحْتَوِيَةِ عَلَى الْأُمَّهَاتِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ مَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُبَيَّنَ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ.

وقوله: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مُنْبِئٌ عَنِ^(٢) أَحْوَالِ سَائِرِ الْأُمَّمِ الْخَالِيَةِ، وَالرُّسُلِ الْمَاضِيَةِ، ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ مُنْبِئَةٌ عَنِ جَمِيعِ الْآيَاتِ الْمُنذِرَاتِ وَالْمُشِيرَاتِ. وَاسْتِخْصَاصُ الْمُتَّقِينَ؛ لِأَنَّهُمُ الْجَامِعُونَ بَيْنَ مَا يَجِبُ أَنْ يُؤْتَى بِهِ، وَيُحْتَرَزَ مِنْهُ، دِلَالَةٌ بَيِّنَةٌ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ. ثُمَّ

(١) «معالم التنزيل» (١: ٤٦).

(٢) في (ط): «مبني على».

في الانتقال من ضمير التعظيم إلى اسم الذات والحضرة الجامعة خَطْبٌ جَلِيلٌ وَخَطَرٌ خَطِيرٌ وإيدانٌ بأن تلك الهداية أيضاً جامعة لما يُنَاطُ به أمورُ الدين من بَعثةِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ وغير ذلك. وأما السِّيَاقُ فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ جاء مفصلاً للاستئناف، وبيان أن الله يَخْتَصُّ بتلك الهداية مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَوَاصِّ حَضْرَتِهِ، وَأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَرَابٍ بِقِيَعَةٍ﴾، «أَوْ كَطَلْمَنَةٍ فِي بَحْرِ لَيْجِي» جاء مُقَابِلًا لهذه الآيات، والمعنى: أَنَّ أَعْمَالَهُمُ الصَّالِحَةَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مُقْتَبَسَةً مِنْ مَشَاكَاةِ النُّبُوَّةِ ضَائِعَةً، أَلَا تَرَى كَيْفَ أَوْقَعَ قَوْلَهُ: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ تنبيهاً على أَنَّ الْكَافِرَ كَانَ فَاقِدَ ذَلِكَ النُّورِ عِنْدَ عَمَلِهِ؟» وقال مُحْيِي السُّنَّةِ: أَرَادَ بِالظُّلُمَاتِ: أَعْمَالُ الْكُفَّارِ، وَبِالْبَحْرِ اللَّجِّيِّ: قَلْبُهُ، وَبِالْمَوْجِ يَغْشَى قَلْبَهُ مِنَ الْجَهْلِ وَالشُّكِّ وَالْحَيْرَةِ، وَبِالسَّحَابِ: الطَّبِيعِ وَالرَّيْنِ عَلَى قَلْبِهِ^(١).

وقلت: قوله: ﴿ظَلَمْتُمْ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ مُقَابِلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، ولهذا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. وعن الإمام: قال الأصحاب: إنه تعالى لما وَصَفَ هِدَايَةَ الْمُؤْمِنِ بِأَتَمِّهَا فِي نَهَايَةِ مِنَ الْجَلَاءِ وَالظُّهُورِ عَقَبَهَا بِأَنَّ قَالَ: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، وَلَمَّا وَصَفَ ضَلَالَةَ الْكَافِرِ بِأَتَمِّهَا فِي نَهَايَةِ الظُّلْمَةِ عَقَبَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^(٢) مُظْهِراً أَنَّ الْمَرَادَ بِالنُّورِ: الْهِدَايَةَ بِإِنزَالِ الْكُتُبِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ، شَبَّهَهَا فِي ظُهُورِهَا فِي نَفْسِهَا وَبِالْبَيَانِ وَالْجَلَاءِ، وَفِي كَوْنِهَا مَبِينًا لِغَيْرِهَا مِمَّا يُنَاطُ بِهِ أَمْرُ الدِّينِ بِالنُّورِ؛ لِأَنَّهُ ظَاهِرٌ فِي نَفْسِهِ، مُظْهِرٌ لِغَيْرِهِ.

والمطلبُ الثاني: في الكشفِ عن حقيقة التمثيل.

قال القاضي: وقد ذَكَرَ في معنى التمثيلِ وجوهٌ:

أ - تمثيلٌ للهدى الذي دَلَّ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَلَاءِ مَدْلُولِهَا وَظُهُورِ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْهُدَى بِالْمَشَاكَاةِ الْمَنْعُوتَةِ^(٣).

(١) «معالم التنزيل» (٦: ٥٢).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٩: ٢٤).

(٣) في الأصول الخطية: «المعنوية»، وصوبناه من «أنوار التنزيل».

ب - تشبيه الهدى من حيث إنه محفوظٌ بظلماتٍ أو هام الناسِ وخيالهم بالمصباح.
ج - تمثيل لما تَوَرَّ الله به قلب المؤمن - من المعارفِ والعلوم - بنور المشكاة المنبث فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبي: «مثل نور المؤمن»^(١).

د - تمثيل ما مَنَحَ اللهُ به عباده من القوى الدَّرَاكَةِ الحَمْسِ المترتبة التي ينوط بها المعاش والمعاد، وهي: الحساسة التي تُدْرِكُ بها المحسوساتُ والخيالية التي تحفظُ صورَ تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تُدْرِكُ بها الحقائق الكلية، والمفكرة التي تولدُ المعقولات لتنتج منها علم ما لا يعلم، والقوة القدسية التي تنجلي فيها لوائح الغيبِ وأسرارُ الملكوتِ المختصةُ بالأنبياءِ والأولياءِ، المعينة بقوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوْرًا نَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] بالأشياء المذكورة في الآية، وهي المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت، فإن الحساسة كالمشكاة؛ لأن محلها كالكوى، ووجهها إلى الظاهر، ولا تُدْرِكُ ما وراءها، وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات، والخيالية كالزجاجة في قبول صور المدركات من الجوانب، وضبطها للأنوار العقلية، وإنارتها بما يشتمل عليها من المعقولات. والعاقلة كالمصباح، لإضاءتها بالإدراكات الكلية، والمعارف الإلهية.

والمفكرة كالشجرة المباركة، لتأديها إلى ثمراتٍ لا نهاية لها. والزيتونة^(٢) المثمرة للزيت، الذي هو مادة المصابيح، التي لا تكون شرقية ولا غربية، لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفة في القبيلين، منتفعة^(٣) من الجانبين، والقوة القدسية كالزيت، فإنها لضياها وشدة ذكائها تكاد تضيء بالمعارف من غير تفكير ولا تعليم^(٤).

وقلت: الوجه الأول: من التشبيه المركب العقلي؛ لأن الوجه مأخوذ من الزبدة

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٢: ٢٥٩) و«مختصر شواذ القرآن» ص ١٠١.

(٢) في الأصول الخطية: «الزيتونة» بحذف الواو، والصواب إثباتها، وهو على الجادة في «أنوار التنزيل».

(٣) في الأصول الخطية: «مسعفة»، وصوبناه من «أنوار التنزيل».

(٤) «أنوار التنزيل» (٤: ١٩٠).

والخلاصة، ولهذا قال في جلاء مدلولها: وإليه مئيل المصنّف في الوجه الأول، حيث قال: «وَنُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْحَقُّ شَبَّهُهُ بِالنُّورِ فِي ظَهْوَرِهِ وَبَيَانِهِ»، وقال أيضاً: «صِفَةُ نُورِهِ الْعَجِيبَةُ الشَّانِ فِي الْإِضَاءَةِ»، فَجَعَلَ الْوَجْهَ الْإِضَاءَةَ، أَلَا تَرَى كَيْفَ اعْتَبَرَ الزُّبْدَةَ بِقَوْلِهِ: «هَذَا الَّذِي شَبَّهَتْ بِهِ الْحَقُّ نُورًا مُتَضَاعِفًا» إِلَى آخِرِهِ؟

والوجه الثاني: مِنَ الْمُرَكَّبِ الْوَهْمِيِّ، حَيْثُ تُصَوَّرُ فِي الْمَشَبَّهِ الْحَالَةَ الْمُنْتَزِعَةَ مِنَ الْمَشَبَّهِ بِهِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مَخْفُوفٌ بِظُلُمَاتٍ أَوْهَامِ النَّاسِ وَخِيَالِهِمْ^(١).

والوجه الثالث: مِنَ التَّشْبِيهِ الْمَفْرَقِ الَّذِي يُتَكَلَّفُ فِيهِ لِلْمَشَبَّهِ أَشْيَاءٌ مُتَعَدِّدَةٌ مُنَاسِبَةٌ لِمَا فِي الْمَشَبَّهَاتِ بِهَا، لَكِنَّهُ مُبْنِيٌّ عَلَى أَصُولِ الْحُكْمَاءِ، وَالْمَقَامُ يَنْبُو عَنْهُ كَمَا تَرَى.

والوجه الرابع الذي عليه قراءة أبي أقرب، وللمقصود أدهى، ولكن يفتقر إلى فضل تقرير، وذلك أنه لما تقرر في المطلب الأول أن المراد بالنور: الهداية بوحي ينزله ورسول يبعثه، فالواجب أن لا يتجاوز عن حديث الوحي والموحى إليه، فالمشبهات المناسبة صدرت الرسول ﷺ وقلبه، واللطفية الربانية فيه والقرآن نفسه وما يتأثر منه القلب عند استمداه، فهذه مراتب خمس مفيضة ومستفيضة على ترتيب فيض الله على العباد، ومن أراد الوصول فهذه السبيل، وإلا ف﴿ظُلُمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدَهُ لَوْ يَكْدُ بِرَبِّهَا وَمَنْ لَوْ يَجْعَلُ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾.

وأما التفصيل فإنه شبه صدره صلوات الله عليه بالمسكاة؛ لأنه كالكوى ذو وجهين، فمن وجه يقتبس النور من القلب المستنير، ومن آخر يقتبس ذلك النور المقتبس على الخلق، وذلك لاستعداده بانسراحه مرتين: مرة في صباه^(٢) وأخرى عند إسرائه، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، هذا تشبيه صحيح قد اشتهر عند جماعة من المفسرين.

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ١٨٩).

(٢) في (ح) و(ف): «صباه».

رَوَى محيي السنّة^(١) عن كعب: هذا مثلُ صَربِ اللهِ لَنبيِّهِ ﷺ: المشكاة: صدره، والزُّجاجة: قلبه، والمِصباحُ فيه: النُّبوة، تُوقَدُ من شجرة مباركة هي شجرة النُّبوة^(٢).

وَرَوَى الإمامُ عن بعضهم: أن المشكاة: صدرُ محمدٍ صَلَوَاتُ اللهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، والزُّجاجة: قلبه، والمِصباحُ: ما في قلبه من الدِّين^(٣).

وفي «حقائق السُّلَمِيِّ»^(٤) عن أبي سعيد الخَراز: ^(٥) المشكاة: جَوْفُ محمدٍ، والزُّجاجة: قلبه، والمِصباحُ: النُّورُ الذي فيه^(٦). ومنهُ حُطْبَةُ «المصاييح»^(٧): من مصاييحِ خَرَجَتْ عن مشكاةِ التَّقوى. وَشَبَّهَ قلبه صَلَوَاتُ اللهُ عَلَيْهِ بِالزُّجَاجَةِ المنعوتَةِ بالكوكبِ الدُّرِّيِّ لصفاته وإشراقه، وخُلوصِهِ من كُدُورَةِ الهَوَى، وَلَوثِ النَّفْسِ الأَمَّارَةِ، وانعكاسِ نُورِ اللَّطيفَةِ إليه. وَشَبَّهَتْ اللَّطيفَةَ القُدْسِيَّةَ المُزْهِرَةَ في القلبِ بِالمِصباحِ الثَّاقِبِ.

رَوَيْنَا في «مسنَدِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ»، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «القلوبُ أربعة: قلبُ أجرد، فيه مثلُ السُّراجِ يُزْهِرُ». وفيه: «أما القلبُ الأجردُ فقلبُ المؤمنِ، سِراجُه فيه نورُه»^(٨). الحديث، وأوردَه شيخنا شيخ الإسلام أبو حَفْصِ الشَّهْرَوَرْدِيُّ قَدَسَ اللهُ تَعَالَى سِرَّهُ في «العوارِف»^(٩) مُستشهداً لما سَنَحَ لَهُ في معنى الرُّوحِ والقلبِ والنَّفْسِ:

(١) في (ح) و(ف): «روى الجماعة».

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦: ٤٨).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٣: ٣٩٠).

(٤) يعني «حقائق التفسير» لأبي عبد الرحمن السلمي.

(٥) أحمد بن عيسى البغدادي (٢٨٦ هـ) من كبار المتصوفة، صحبَ السريَّ السقَطِيَّ وغيره، وعلى كلامه مواخذات، له ترجمة في «طبقات الصوفية» ص ٢٢٨، و«سير النبلاء» (١٣: ٤١٩).

(٦) «حقائق التفسير» (٢: ٤٥).

(٧) يعني «مصاييح السنة» للبغوي. الكتاب المشهور في علم الحديث.

(٨) أخرجه الإمام أحمد في «المسنَد» (١١١٢٩) والطبراني في «المعجم الصغير» (١٠٧٥) وسناده ضعيف

لضعف ليث بن أبي سُلَيْمٍ ولانقطاع، وبه أعلمه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١: ٦٣).

(٩) «عوارف المعارف» ص ٤٢١.

ولهذا المعنى سَمَّاهُ اللهُ تعالى سِرَاجاً في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، أي: سِرَاجاً يُسْتَضَاءُ به في ظُلُمَاتِ الجَهَالَةِ وَيُقْتَبَسُ من نُورِهِ أنوارُ البصائر، وَشَبَّهَ نَفْسَ القُرْآنِ بالشَّجَرَةِ المَبَارَكَةِ لِثَبَاتِ أَصْلِهَا، وَتَشَعُّبِ فُرُوعِهَا، وَتَأْدِيهَا إِلَى ثَمَرَاتِهَا لَا نِهَايَةَ لَهَا. قال اللهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] الآية. وَرَوَى مُحِبِّي السَّنَةِ عن الحسن وابن زَيْد: الشَّجَرَةُ المَبَارَكَةُ شَجَرَةُ الوَحْيِ، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾: تَكَادُ حُجَّةُ القُرْآنِ تَتَّضِحُ وَإِنْ لَمْ يُقْرَأْ^(١) وَقِيلَ: هِيَ شَجَرَةُ النُّبُوَّةِ. وقال صاحبُ «إِنْسَانِ العَيْنِ»^(٢): الشَّجَرَةُ: القُرْآنُ لَا كِذْبَ وَلَا هُزْءَ، يَكَادُ يُطْرَبُ السَّمْعَ نَظْمُهُ قَبْلَ فَهْمِهِ، وَشَبَّهَ مَا يَسْتَمِدُّهُ نُورُ قَلْبِهِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ مِنَ القُرْآنِ وَابْتِدَاءَ تَقْوِيهِ مِنْهُ بِالزَّيْتِ الصَّافِي، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فَكَمَا جَعَلَهُ سَبَبَ تَوْقِدِهِ مِنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ جَعَلَ ضَوْءَهُ مُسْتَفَاداً مِنْ انْعِكَاسِ نُورِ اللُّطِيفَةِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمَسَّهُ نَارٌ﴾، والمعنى مَا ذَكَرَ فِي «إِنْسَانِ العَيْنِ»: يَكَادُ سِرُّ القُرْآنِ يَظْهَرُ لِلخَلْقِ قَبْلَ دَعْوَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ، وَفِيهِ مُسْحَحةٌ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ:

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الخَمْرُ فَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلَتِ الأُمُرُ
فَكَأَتْهَا خَمْرٌ وَلَا قَدَحٌ وَكَأَتْهَا قَدَحٌ وَلَا خَمْرٌ^(٣)

ومنه وَصِفَتْ بِكُونِهَا لَا شَرْقِيَّةً وَلَا غَرْبِيَّةً، قال الحَسَنُ: لَيْسَتْ هَذِهِ مِنْ أَشْجَارِ الدُّنْيَا، وَلَوْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا لَكَانَتْ شَرْقِيَّةً أَوْ غَرْبِيَّةً، وَإِنَّمَا هُوَ مِثْلُ ضَرْبِهِ اللهُ لِنُورِهِ. رَوَاهُ مُحِبِّي السَّنَةِ^(٤). أَوْ نَأْخُذُ فِي مَشْرَعِ آخَرَ؛ وَهُوَ أَنَّ يُشَبَّهَ القُرْآنُ بِالمِصْبَاحِ عَلَى مَا سَبَقَ، وَنَفْسُهُ الزَّكِيَّةُ

(١) «معالم التنزيل» (٦: ٤٩).

(٢) واسمُه العَلَمِيُّ الكَامِلُ «إِنْسَانِ العَيْنِ» فِي مَعْنَى قَوْلِ الصُّوفِيَةِ زَالِ البَيْنِ» لِزَيْنِ العَابِدِينَ سِبْطِ المَرْصِفِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدٍ. ذَكَرَهُ البَغْدَادِيُّ فِي «إِيضَاحِ المَكْنُونِ فِي الذَّلِيلِ عَلَى كَشْفِ الظُّنُونِ» (١: ١٣٢).

(٣) لِلصَّاحِبِ بْنِ عِبَادٍ. انظُرْ: «خَزَانَةُ الأَدَبِ» لِابْنِ حِجَّةِ الحَمَوِيِّ (١: ٣٥٥). وَفِيهِ: «فَكَأَتْهَا... وَكَأَتْهَا».

(٤) «معالم التنزيل» (٦: ٤٨).

الطاهرة صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا بِالشَّجَرَةِ لكونِهَا ثَابِتَةً مِنْ أَرْضِ الدِّينِ، مُتَشَعِّبَةً فروعُهَا إِلَى سَمَاءِ الإِبْيَانِ، مُتَدَلِّيَةً أَنهَارُهَا إِلَى فِضَاءِ الإِخْلَاصِ وَالإِحْسَانِ، وَذَلِكَ لِاسْتِقَامَتِهَا بِمَقْتَضَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢] غَيْرَ مَائِلَةٍ إِلَى طَرَفِي الإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ الحَسَنِ: جَعَلَ اللَّهُ الدِّينَ بَيْنَ لَاءَيْنِ وَلَا تَطْعَمُوا^(١) وَلَا تَرَكَنُوا^(٢)، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾. وَيُشَبَّهُ مَا مُحْضَصٌ مِنْ تِلْكَ الثَّمَرَاتِ بَعْدَ التَّصْفِيَةِ التَّامَّةِ لِلتَّهْنِيَةِ، وَقَبُولِ تِلْكَ الأَنْوَارِ بِالزَّيْتِ الصَّافِي، لَوْفُورِ قُوَّةِ اسْتِعْدَادِهَا لِلِاسْتِضَاءَةِ، وَهِيَ الدُّهْنِيَّةُ القَابِلَةُ لِلِاسْتِعْمَالِ، وَمِنْ ثَمَّ خُصَّتْ شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ لِأَنَّ لُبَّ ثَمَرِهَا الزَّيْتُ الَّذِي تَشْتَعَلُ بِهِ المَصَابِيحُ، وَخُصَّ هَذَا الدُّهْنُ لِمَزِيدِ إِشْرَاقِهِ مَعَ قَلَّةِ الدُّخَانِ، يَكَادُ زَيْتُ اسْتِعْدَادِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، لِصَفَائِهِ وَذُكَاائِهِ، يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ يَمَسَّهُ نُورُ القُرْآنِ. رَوَى مُحَمَّدِي السُّنَّةِ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبِ القُرْطَبِيِّ: تَكَادُ مَحَاسِنُ مُحَمَّدِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ تَطْهَرُ لِلنَّاسِ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ^(٣). قَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ:

لو لم تكن فيه آيات مبيّنة كانت بداهته تُنبئك عن خبير

وفيه: أَنَّ قَلْبَهُ المُطَهَّرَ يُشْرِقُ مِنْ نُورِ القُرْآنِ، وَمَشْكَاءُ صَدْرِهِ تَهْدِي النَّاسَ إِلَى السَّبِيلِ السَّوِيِّ بِوِاسِطَةِ اسْتِقَامَةِ نَفْسِهِ الزَّكِيَّةِ عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ وَتَهْيِئَتِهَا لِقَبُولِ تِلْكَ الأَنْوَارِ، وَفِيهِ مُسْحَةٌ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَهْدِي بِهٖ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، وَفِي «حَقَائِقِ السُّلَمِيِّ»: مِثْلُ نُورِهِ فِي [قَلْبِ] ^(٤) عِبْدِهِ المُخْلِصِ [كَمِشْكَاءِ] ^(٥)، وَالمَشْكَاءُ: القَلْبُ، وَالمِصْبَاحُ: النُّورُ الَّذِي قُذِفَ فِيهِ، وَالمَعْرِفَةُ نُضِيءٌ فِي قَلْبِ العَارِفِ بِنُورِ التَّوْفِيقِ فِي مِصْبَاحِ النُّورِ، تُوقَدُ مِنْ شَجَرَةِ مَبَارِكَةِ نُضِيءٍ عَلَى شَخْصٍ مَبَارِكٍ تَتَبَّيَّنُ أُنْوَارُ بَاطِنِهِ عَلَى آدَابِ ظَاهِرِهِ، وَحُسْنِ مُعَامَلَتِهِ، زَيْتُونَةٌ لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ، جَوْهَرَةٌ صَافِيَةٌ لَا لَهَا حَظٌّ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي

(١) يعني قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: ١١٢].

(٢) يعني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرَكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

(٣) «معالم التنزيل» (٦: ٤٨).

(٤) زيادة من «حقائق التفسير» يقتضيها السياق.

(٥) زيادة من «حقائق التفسير» يقتضيها السياق.

الآخرة، لاختصاصها بمؤالاة العزيز العَفَّار ونفَرُدُّها بالفَرْدِ الجَبَّار^(١). قال الواسطي: نفسُ خَلَقَهَا اللهُ فَسَمَّاها شَجَرَةً مَبَارَكَةً وقال: **﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾** لا دُنْيَوِيَّةَ وَلَا أُخْرَوِيَّةَ، جَدَّهَا إِلَى قُرْبِهِ، وَأَكْرَمَهَا بِضِيائِهِ^(٢)، يَكَادُ ضِيَاءُ رُوحِهَا يَتَوَقَّدُ وَلَوْ لَمْ يَسْمَعْ كِتَابًا وَلَمْ يَدْعُهُ نَبِيٌّ^(٣). وقال الجُنَيْدُ: لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ: لَا هِيَ مَائِلَةٌ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا رَاغِبَةٌ فِي الآخِرَةِ، وَلَكِنَّهَا فَانِيَةٌ الحِطُّ مِنَ الأَكْوَانِ^(٤). وقلْتُ: وَعِنْدَ هَذَا نُمِسُّكُ عِنَانَ القَلَمِ وَنُنَادِي بِلِسَانِ الاضْطِرَارِ: **﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** [البقرة: ٣٢]. فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ زَعَمْتُ أَنْ التَّشْبِيهَ مِنَ المَفْرُوقِ؟ قُلْتُ: التَّكْرِيرُ فِيهِ يَسْتَدْعِي ذَلِكَ، لِأَنَّهَا مِنْ بَابِ التَّرْدِيدِ، وَهُوَ: تَكْرِيرُ المَعْنَى لِتَعْلِيْقِ الزَّائِدِ عَلَيْهِ تَقْرِيراً وَاعْتِنَاءً، قَالَ:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
لو مسها حجر مسته سراء^(٥)

فقيل: **﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ﴾** ثُمَّ قِيلَ: **﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾**، وَقِيلَ: **﴿كَمِشْكُوفَةٍ﴾** ثُمَّ قِيلَ: **﴿فِيهَا﴾** أَي: فِي المِشْكَاةِ، وَقِيلَ: **﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾** ثُمَّ أُعِيدَ المِصْبَاحُ، وَقِيلَ: **﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾** ثُمَّ أُعِيدَ الزُّجَاجَةُ، وَشُبِّهَتْ بِالكَوْكَبِ الدَّرِّيِّ لِئِنَّهُ بِهِ عَلَى كَمَالِ إِشْرَاقِ اللَّطِيفَةِ، يَعْنِي: إِذَا بَلَغَ إِشْرَاقُ الزُّجَاجَةِ المُسْتَفِيزَةَ إِلَى هَذِهِ الغَايَةِ فَمَا ظَنَّكَ بِالمِصْبَاحِ المُفِيزَةِ وَنُورِهَا؟ وَكَذَا **﴿زَيْتُونَةٍ﴾** تَكْرِيرٌ لِمَعْنَى الشَّجَرَةِ لِإِنَاطَةِ **﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾** بِهَا. قَالَ أَبُو البَقَاءِ: **﴿زَيْتُونَةٍ﴾**: بَدَلٌ مِنَ **﴿شَجَرَةٍ﴾**^(٦).

و**﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾**: تَكْرِيرٌ مَعَ البَيَانِ لِأَنَّ الجَمَلَ مِنَ الزَّيْتِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾**. وَأَمَّا النُّورُ المُتَضَاعِفُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾** فَنُورٌ صَدْرَهُ **﴿نُورٌ﴾**

(١) «حقائق التفسير» (٢: ٤٧-٤٨).

(٢) يعني الواسطي في تفسير قوله تعالى **﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾**.

(٣) في الأصول الخطية: «بضياؤها» وليس بشيء، وصوبناه من «حقائق التفسير».

(٤) «حقائق التفسير» (٢: ٤٥-٤٦).

(٥) المصدر السابق (٢: ٤٦).

(٦) لأبي نواس في «ديوانه» ص ٦.

(٧) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٩٧٠).

ونور قلبه، ونور اللطيفة ونور القرآن، وهذا التكرير والتقرير والمتممات توقفتك على استقلال كل مرتبة في معنى الإضاءة والاستضاءة، وأن التشبيه من باب التفريق، لا من باب أخذ الزبدة ولا التمثيل، وإلا فالظاهر أن يقال: مثل نوره كمصباح في زجاجة في مشكاة، وإنما لم يقل: كمشكاة فيها زجاجة فيها مصباح على الترتيب السابق؛ فإن الكوة حاوية للزجاجة وهي المصباح؛ ليلوح به إلى أن المطلوب المصباح، وأن الزجاجة تابعة، وأن المقصود من القلب ذلك النور المقذوف فيه ولولاه لكان مضغة لا يعبا بها، ومن ثم جعل فاقده فاقد القلب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، واحتجاب ذلك الهدى بهذه الحجب النورانية، ولكل منها ظهر وبطن، وحد ومطلع قلما يهتدي إليه إلا من اتبع رضوانه سبيل السلام ليهديه إلى صراط مستقيم، وفي قوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ﴾ الإشعار بأن هذه تقريرات وتلويحات بحسب الاستعدادات، وأن بيان نوره الحقيقي لا يسعه نطاق التحرير، لكن الله بعلمه الواسع يعلم حقيقة الله بكل شيء عليم.

وما أحسن طباق هذا التأويل مع قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ نَبِيٌّ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ. وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، فقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ﴾ الآية، لكونها للامتنان على المنزل إليهم، والتنبيه على عظم شأن هذه النعمة لتلقى بالشكر الواجب.

وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

وأما قوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ الآية، فعطف على سبيل التفسير على قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ﴾، وفي إيقاع ﴿مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ مفعولاً

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: صِفَةُ نوره العَجِيبَةُ الشَّانُ فِي الإِضَاءَةِ ﴿كَمِشْكُورٍ﴾ كَصِفَةِ مِشْكَاةٍ؛ وهي الكَوَّةُ فِي الجِدَارِ غَيْرُ النَافِذَةِ ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: سِرَاجٌ ضَخْمٌ ثَاقِبٌ ﴿فِي زُجَاجَةٍ﴾ أَرَادَ قَنَدِيلاً مِنْ زُجَاجِ شَاميٍّ أَزْهَرَ. شَبَّهَهُ فِي زُهرَتِهِ بِأَحَدِ الدَّرَاريِّ مِنْ الكَوَاكِبِ، وهي المِشَاهيرِ، كالمُشْتَرِي والزُّهْرَةَ والمِرْيَخِ وسُهَيْلٍ ونحوها، ﴿بِوَقْدٍ﴾ هَذَا المِصْبَاحِ ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ أي: ابْتَدَأَ ثُقُوبَهُ مِنْ شَجَرَةِ الزَّيْتُونِ، يَعْنِي: رُوِيََتْ ذُبَالَتُهُ بِزَيْتِهَا. ﴿مُبْتَرَكَةً﴾: كَثِيرَةُ المَنَافِعِ. أَوْ: لِأَنَّهَا نَبَتَتْ فِي الأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ. وَقِيلَ: بَارَكَ فِيهَا: أَي: هَذِهِ الأَرْضُ؛ حَيْثُ دُفِنَ فِيهَا سَبْعُونَ نَبِيًّا، مِنْهُمْ إِبْرَاهِيمَ. وَعَنْ النَبِيِّ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الشَّجَرَةِ زَيْتِ الزَّيْتُونِ فَتَدَاوُوا بِهِ؛ فَإِنَّهُ.....»

لِيَهْدِي، وَجَعَلَهُ مَوْصُولًا، صَلْتُهُ ﴿أَتَّبِعَ رِضْوَانَكُمْ﴾ وَجَعَلَ ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ مَفْعُولًا فِيهِ، وَ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ هِيَ المِشْكَاةُ، وَالزُّجَاجَةُ وَالْمِصْبَاحُ وَالشَّجَرَةُ وَالزَّيْتُ أَسْرَارٌ أَدْنَاهَا الإِشْعَارُ بِأَنَّ السَّالِكَ لَا يَنْفَعُهُ سُلُوكُهُ إِذَا لَمْ يُحْلِصْ فِيهِ، وَلَمْ يَتَّبِعْ رِضْوَانَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمَّا أَنْ مُتَابَعَةَ الرِّضْوَانِ، وَسُلُوكَ سُبُلِ السَّلَامِ سَبَبٌ لِهَدَايَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ، أَوْفَعَهُ مَفْعُولًا لِيُؤَدِّنَ أَنْ شُكِرَ تِلْكَ النِّعْمَةُ الخَطِيرَةُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِمُتَابَعَةِ رِضْوَانِ اللَّهِ فِي سُلُوكِ سُبُلِ السَّلَامِ، وَأَنْ شُكِرَهُ اسْتِزَادَةُ لِنِعْمَةٍ أُخْرَى أَجَلٌ مِنْهَا، وَلِتَقْيِيدِ تِلْكَ الهِدَايَةِ المُنْفَلِقَةِ، أَعْنِي: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، هَذِهِ الهِدَايَةُ المُفَسَّرَةُ المُعَلَّلَةُ، وَيُقَيَّدُ الرِّضْوَانُ وَسُبُلُ السَّلَامِ المُنْفَلِقَتَانِ بِتِلْكَ الاسْتِقامَةِ المُقَيَّدَةِ بِالمُجَازَاةِ لِلمِشْكَاةِ الأَنْوارِ، فَظَهَرَ بِهَذَا التَّقْرِيرِ المُوَافِقَةَ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وَقَوْلِهِ: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَكُمْ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] وَقَوْلِهِ: ﴿كَمِشْكُورٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية. وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.

قَوْلُهُ: (كالمُشْتَرِي والزُّهْرَةَ والمِرْيَخِ وسُهَيْلٍ)، وَلَمْ يَذْكَرْ بَقِيَّةَ السِّيَارَةِ، وَهِيَ: زُحَلٌ وَعُطَارِدٌ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَذَكَرَ سُهَيْلاً عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ الكَوَاكِبَ المَشْهُورَةَ عِنْدَ العَرَبِ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «وَهِيَ المِشَاهِيرُ»، وَسُهَيْلٌ مِنَ الأَسْمَاءِ الَّتِي جَاءَتْ مُصَغَّرَةً كَالثُّرَيَّا وَالْكُعَيْبِ وَالْكُمَيْتِ.

مَصْحَةٌ مِنَ الْبَاسُورِ». ﴿لَا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ﴾ أي: منبتها الشام. وأجودُ الزيتون: زيتونُ الشام. وقيل: لا في مَضْحَى ولا مَقْنَأة، ولكنَّ الشمسَ والظَّلَّ يَتَعَابَنِ عَلَيْهَا، وذلك أجودُ لِحْمَلِهَا وَأَصْفَى لِدُهْنِهَا. قال رسولُ الله ﷺ: «لا خيرَ في شجرةٍ في مَقْنَأة، ولا نباتٍ في مَقْنَأة، ولا خيرَ فيها في مَضْحَى». وقيل: ليست مما تَطْلُعُ عليه الشمسُ في وقتِ شُرُوقِهَا أو غُرُوبِهَا فقط، بل تُصِيبُهَا بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ جَمِيعاً، فهي

قوله: (مَصْحَةٌ مِنَ الْبَاسُورِ)^(١)، النِّهَايَةُ: وفي الحديث: «الصَّوْمُ مَصْحَةٌ»^(٢)، يُرَوَى بِكسرِ الصَّادِ وَفَتْحِهَا، وهي مَفْعَلَةٌ مِنَ الصَّحَّةِ: العَافِيَةُ. الجوهري: الباسور، بالسَّينِ وَالصَّادِ جَمِيعاً: عِلَّةٌ تَحْدُثُ فِي مَاقِ الْعَيْنِ يَسْقِي فَلَا يَنْقَطِعُ، وَقَدْ تَحَدَّثُ أَيْضاً فِي حَوَالِي الْمِقْعَدَةِ^(٣).

قوله: (ولا مَقْنَأة)، المَقْنَأَةُ: المَكَانُ الَّذِي لَا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ. النِّهَايَةُ: وفي حديثِ شَرِيكَ: أَنَّهُ جَلَسَ فِي مَقْنَوَةٍ لَهُ، أَي: مَوْضِعٍ لَا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، وَهِيَ الْمَقْنَأَةُ أَيْضاً، وَقِيلَ: هُمَا مَهْمُوزَانِ.

قوله: (وقيل: ليست مما تَطْلُعُ عليه الشمسُ في وقتِ شُرُوقِهَا أو غُرُوبِهَا فَقط)، في «المَطَّلَع»: هذا كما يقال: فلانٌ لا مُقِيمٌ ولا مُسَافِرٌ، إِذَا كَانَ يُقِيمُ وَيُسَافِرُ، يَرِيدُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُنْفَرِدٍ بِإِقَامَةٍ وَلَا سَفَرٍ، قال الفَرَزْدَقُ:

بأيدي رجالٍ لم يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ ولم تَكْثُرِ الْقَتْلَى بِهَا حِينَ سُلِّتِ^(٤)

يعني: شاموا سُيُوفَهُمْ، وَأَكْثَرُوا بِهَا الْقَتْلَى. هذا القولُ اخْتِيَارُ الزَّجَّاجِ^(٥).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٤١٩٣) وأبو نُعَيْمٍ في «الطب» (٢: ٨٠) وذكره الهيثمي في

«مجمع الزوائد» (٥: ١٢٠) وقال: رواه الطبراني وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن.

(٢) ذكره الحافظ العراقي في «تخریج أحاديث الإحياء» (٣: ٧٥) وقال: رواه الطبراني في «الأوسط» وأبو

نُعَيْمٍ في «الطب» بسندٍ ضعيف.

(٣) هذا نقلٌ غير محرَّر، وعبارة الجوهري في «الصحاح» (٢: ٥٨٩): والباسور: واحدُ البواسير، وهي

عِلَّةٌ تَحْدُثُ فِي الْمَقْعَدَةِ وَفِي دَاخِلِ الْأَنْفِ أَيْضاً. انتهى.

(٤) لم أجده في «ديوانه»، وهو في «لسان العرب» مادتي (خرر) و(شيم) و«مغني اللبيب» ص ٥٣٧.

(٥) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٥).

شرقيةً وغربيةً. ثم وصف الزيت بالصَّفَاءِ والوَبِيسِ، وأنه لتلألؤه ﴿يَكَادُ﴾ يُضِيءُ من غير نار. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: هذا الذي شَبَّهْتُ به الحقُّ نورٌ مُتَضَاعِفٌ قد تناصَرَ فيه المشكاةُ والزُّجاجةُ والمصباحُ والزَّيْتُ، حتى لم يبقَ مما يُقَوِّي النورَ وَيَزِيدُهُ إِشْرَاقاً وَيُمِدُّهُ بِإِضَاءَةٍ بَقِيَّةً؛ وذلك أَنَّ المصباحَ إِذَا كَانَ فِي مَكَانٍ مُتَضَاعِقٍ - كالمشكاة - كَانَ أَضْوَأَ لَهُ وَأَجْمَعَ لِنُورِهِ، بخلافِ المَكَانِ الواسِعِ؛ فَإِنَّ الضَّوْءَ يَنْبَثُّ فِيهِ، وَيَنْتَشِرُ، والقنديلُ أَعْوَنُ شَيْءٍ عَلَى زِيَادَةِ الإِنَارَةِ، وكذلك الزَّيْتُ وصفائِهِ. ﴿يَهْدِي اللَّهُ﴾ هَذَا النُّورِ الثَّاقِبُ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ عِبَادِهِ، أَي: يَوْفُقُ لِإِصَابَةِ الحَقِّ مَنْ نَظَرَ وَتَدَبَّرَ بِعَيْنِ عَقْلِهِ وَالْإِنصَافِ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَذْهَبْ عَنِ الجَادَّةِ الموصِلَةِ إِلَيْهِ يَمِيناً وَشِمَالاً. وَمَنْ لَمْ يَتَدَبَّرْ فَهُوَ كالأَعْمَى الَّذِي سِوَاءَ عَلَيْهِ جُنْحُ اللَّيْلِ الدَّامِسِ، وَضُحُوَّةُ النَّهَارِ الشَّامِسِ. وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (اللَّهُ نَوَّرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، أَي: نَشَرَ فِيهَا الحَقَّ وَبَثَّهُ فَأَضَاءَتْ بِنُورِهِ، أَوْ: نَوَّرَ قُلُوبَ أَهْلِهَا بِهِ. وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: (مِثْلُ نُورٍ مَنْ آمَنَ بِهِ). وَقُرْئِي: ﴿زُجَاجَةٌ الزُّجَاجَةُ﴾ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ، وَ﴿دُرِّيٌّ﴾ مَنْسُوبٌ إِلَى الدَّرِّ، أَي: أبيضٌ متلألئ. وَ(دُرِّيٌّ) بوزن

قوله: (وَقُرْئِي: ﴿زُجَاجَةٌ الزُّجَاجَةُ﴾ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ)، قَالَ ابْنُ جِنِّي: قَرَأَ نَصْرُ بْنُ عَاصِمٍ يَفْتَحُ الزَّاي فِيهِمَا، وَفِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ: بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ وَالْكَسْرِ^(١).

قوله: (و﴿دُرِّيٌّ﴾)، أَبُو عَمْرٍو وَالْكَسَائِيُّ: بِكسْرِ الدَّالِ وَالْمَدِّ وَالْهَمْزَةِ، وَأَبُو بَكْرِ وَحَمْزَةُ: بِضَمِّ الدَّالِ وَالْهَمْزِ، وَالْباقُونَ: بِضَمِّ الدَّالِ وَتَشْدِيدِ الياءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ^(٢). قَالَ ابْنُ جِنِّي: قَرَأَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: «دُرِّيٌّ» مَخْفَفَةً، وَسَعِيدُ بْنُ مُسَيْبٍ وَغَيْرُهُ: «دُرِّيٌّ» مَفْتُوحَةً الدَّالِ مَشْدُودَةً الرَّاءِ مَهْمُوزَةً، وَهَذِهِ الأَخِيرَةُ قِرَاءَةٌ غَرِيبَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ «فَعِيلًا» بِالْفَتْحِ وَتَشْدِيدِ العَيْنِ عَزِيزٌ، وَإِنَّمَا حُكِيَ مِنْهُ السَّكِينَةُ، يَفْتَحُ السَّيْنُ وَتَشْدِيدِ الكَافِ، حَكَاهَا أَبُو زَيْدٍ^(٣).

وقال الزجاج: والنحويون أجمعون لا يعرفون الوجه في «دُرِّيٌّ»؛ لأنه ليس في كلام

(١) «المحتسب» (٢: ١٠٩) ولتمام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٤٤).

(٢) انظر: «حجة القراءات» ص ٤٩٩.

(٣) «المحتسب» (٢: ١١٠) وانظر: «البحر المحيط» (٨: ٤٥).

سَكَيْتْ؛ يَدْرَأُ الظلامَ بضوئه، و(دُرِّيٌّ) كَمُرِّيْقٍ، و(دَرِيٌّ) كَالسَّكِينَةِ، عن أبي زيد؛ و(تَوَقَّدُ) بمعنى: تَتَوَقَّدُ، والفعلُ للزجاجة؛ و﴿يُوقَدُ﴾، و(تَوَقَّدُ) بالتخفيف، و(يُوقَدُ)

العَرَبِ شَيْءٌ عَلَى «فُعَيْلٍ» بِضَمِّ الْفَاءِ وَتَشْدِيدِ الْعَيْنِ، وَلَكِنَّ الْكُسْرَ جَيِّدًا بِالْهَمْزِ عَلَى وَزْنِ «فُعَيْلٍ» مِنَ النُّجُومِ الدَّرَارِيِّ الَّتِي تَدُورُ، أَي: يَنْحَطُّ وَيَسِيرُ مُتَدَافِعًا، وَجَازَ أَنْ يَكُونَ دَرِيٌّ بِغَيْرِ هَمْزٍ مَخْفَفًا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُضَمَّ الدَّالُّ وَيُهْمَزَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكَلَامِ فُعَيْلٌ^(١). رُوِيَ عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أَرَى لَهُ وَجْهًا، وَهُوَ أَنَّهُ «دُرُوٌّ» عَلَى «فُعُولٍ» مِنْ: دَرَأْتُ، كَسُبُّوحٍ، اسْتَقْبَلُ الصَّهَابَاتِ، فَرَدَّ بَعْضُهَا إِلَى الْكُسْرِ ك﴿عَيْتِيَا﴾^(٢).

وَفِي «الْبَابِ»: هُوَ «فُعَيْلٌ» غَرِيبٌ لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ إِلَّا مُرِّيْقٌ وَالْعَلِيَّةُ؛ لِأَنَّهُ مِنْ: عَلَا يَعْلُو، وَكَذَلِكَ السَّرِيَّةُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، حَكَاهَا أَبُو عَلِيٍّ^(٣). وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مِثَالُ ﴿دُرِّيٌّ﴾: فُعَيْلِيٌّ، مَنْسُوبٌ إِلَى الدَّرِّ، مَنْ فَتَحَ^(٤) الدَّالَّ فَقَالَ: «دَرِيٌّ» كَانَ لَهُ أَنْ يِهْمَزَ وَلَا يِهْمَزَ، فَمَنْ هَمْزَ أَخَذَهُ مِنْ: دَرَأَ الْكَوَاكِبَ يَدْرَأُ؛ إِذَا تَدَافَعَ مُنْقَضًا، وَمَنْ كَسَرَ فَإِنَّمَا أَصْلُهُ الْهَمْزُ فَخَفَّفَ وَبَقِيَتْ كُسْرَةُ الدَّالِّ عَلَى أَصْلِهَا^(٥).

قَوْلُهُ: (كَمُرِّيْقٍ)، وَهُوَ حَبُّ الْعُصْفُرِ وَالْقُرْطُمُ بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ.

الْأَسَاسُ: نَوْبٌ مُتَمَرِّقٌ مَصْبُوعٌ بِالسُّرِّيْقِ، وَهُوَ الْعُصْفُرُ. وَأَنْشَدَ فِي السَّكِينَةِ:

تَطْشِيْنِيْنَى أَقْبَلُ سَكِيْنَةً هِيَهَاتَ لَا أَقْبَلُ غَيْرَ الْعِتَاقِ^(٦)

قَوْلُهُ: و(تَوَقَّدُ) بِمَعْنَى: تَتَوَقَّدُ، ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو: «تَوَقَّدُ»، بِالتَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ، وَفَتَحَ الْوَاوِ وَالذَّالَّ وَالْقَافَ مُشَدَّدًا، وَأَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكَسَائِيُّ: بِالتَّاءِ مَضْمُومَةً وَإِسْكَانِ الْوَاوِ وَضَمِّ الدَّالِّ مَخْفَفًا. وَالباقونَ: كَذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُمْ قَرَّوْا بِالْيَاءِ^(٧).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٤).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٩: ٣٢٦).

(٣) «الحجة للقراء السبعة» (٣: ٢٠٠).

(٤) كذا في الأصول الخطية، والصواب: «ومن كسر» كما في «معاني القرآن وإعرابه».

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٤).

(٦) لم أهتمد إلى قائله.

(٧) انظر: «التيسير في القراءات السبع» ص ١٦٢.

بالتشديد، و(يوقد) بفتح الياء وحذف التاء؛ لاجتماع حرفين زائدين، وهو غريب؛ و(يمسسه) بالياء؛ لأن التانيث ليس بحقيقي، والصمير فاصِل.

قوله: (و«يوقد» بفتح الياء وحذف التاء)، قال ابن جني: قرأها السلمي والحسن وقتادة وغيرهم. وهي مُشكِلَةٌ؛ لأن أصله: يتوقد، فحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين في أول الفعل، والقياس في هذا إذا كانا مثلين نحو: تفكرون وتدكرون، فكره اجتماع مثلين زائدين، فحذف الثاني للخفة، وليس في «يتوقد» مثلان، لكنه شبه حرف مضارعة بمثله، يعني الياء بالتاء لكونهما زائدتين، كما شبهت التاء والنون في تعد، وتعد بالياء في يعد فحذفت الواو معها كما حذفت في يعد، ونحو من هذا قراءة ﴿نَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]، وهو يريد: ﴿نَجِّ﴾ فحذفت النون الثانية، وإن كانت أصلية، شبهها لاجتماع المثليين بالزائدة، فُشِبَّ هاهنا أصل بزائد لاتفاق اللفظين، كما شبه هنا حرف مضارعة بحرف مضارعة لا للاتفاق، بل لأتهما جميعاً زائدتان^(١).

قوله: (و«يمسسه» بالياء)، قال ابن جني: وهي قراءة ابن عباس، وإنما حسن للفصل، ولأن التانيث غير حقيقي، وإذا جاز في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧] مع علامة التانيث فيها فهو مع النار أمثل^(٢).

وأما قولهم: نعم المرأة هند فإنما جاز وإن كان التانيث حقيقياً، ولا فصل من قبل إرادة الجنس؛ لأنها فاعل نعم، والأجناس على الشباع والتنكير، وإذا أضمر الفاعل في فعله وهو مؤنث لم يحسن تذكير فعله حسنه إذا كان مظهرأ؛ فإن قولك: قام هند أعدر من قولك: هند قام، من قبل أن الفعل مُنصِبٌ بالفاعل المضمر فيه أشد من انصباغه به إذا كان مظهرأ؛ لأن أصل وضع الفعل: على التنكير.

فإذا قلت: هند قام، فالتذكير الآتي محالف للتانيث السابق، فالنفس تعافه بأول استماعه، وقولك: قام هند، فالنفس تقبل التذكير أول استماعه إلى أن يأتي التانيث^(٣).

(١) «المحتسب» (٢: ١١١) ولتعام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٤٧).

(٢) لخلوها من علامة التانيث. أفاده ابن جني في «المحتسب» (٢: ١١١).

(٣) «المحتسب» (٢: ١١١-١١٢).

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ *
 رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَحِزَّةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَلْقَبُ فِيهِ
 الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ
 بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ ٣٦-٣٨ ﴾

﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾: متعلق بما قبله، أي: كمشكاة في بعض بيوت الله؛ وهي المساجد،
 كأنه قيل: مثل نوره كما ترى في المسجد نور المشكاة التي من صفتها كَيْتٌ وكَيْتٌ؛
 أو بما بعده؛ وهو ﴿ يُسَبِّحُ ﴾، أي: يُسَبِّحُ له رجالٌ في بيوت. وفيها تكرير، كقولك:
 زيدٌ في الدار جالسٌ فيها؛ أو بمحذوف، كقوله: ﴿ فِي سَبْعِ آيَاتٍ ﴾ [النمل: ٢٧]، أي:
 سَبَّحُوا في بيوت. والمراد بالإذن: الأمر. ورَفَعُها: بناؤها، كقوله: ﴿ بِنَاهَا ﴾ * رَفَعَ سَتْرَهَا
 فَسَوَّيْنَاهَا ﴿ [النازعات: ٢٧-٢٨]، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ ﴾ [البقرة: ١٢٧]. وعن ابن
 عباس: هي المساجد، أمر الله أن تُبنى. أو: تَعْظِيمُها والرفعُ من قدرها. وعن الحسن:
 ما أمر الله أن تُرفع بالبناء، ولكن بالتعظيم.

﴿ يُذْكَرُ فِيهَا أَسْمُهُمْ ﴾ أوفق له، وهو عامٌ في كلِّ ذِكْر. وعن ابن عباس: وأن يُتلى

قوله: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾: متعلق بما قبله، أي: كمشكاة في بعض بيوت الله، فإذا زيد
 في التشبيه تصويرُ بيوتٍ مخصوصة، فزيد في تفصيله، وهو على المُفْرَقِ يُزَادُ على الصُّدُورِ
 المُنْشَرِحَةِ المُشَبَّهَةِ بِالمِشْكَاتِ الأبدانُ الزَكِيَّةُ الطَاهِرَةُ مِنْ أَوْصَارِ^(١) الذنوب، التَّقِيَّةُ مِنَ
 الأدناس البشرية، كأبدان الأنبياء والأولياء المُشَبَّهَةِ بالبيوت التي أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ. قال
 القاضي: ولا يُنَافِي جَمْعُ البيوتِ وَحدةَ المِشْكَاتِ، إذ المرادُ بها ما لهُ هذا الوصفُ بلا اعتبارِ
 وَحدةٍ ولا كَثْرَةٍ^(٢).

قوله: (أو تعظيمها)، عطفٌ على «بناؤها».

قوله: (و﴿ يُذْكَرُ فِيهَا أَسْمُهُمْ ﴾) أوفق له، وهو عامٌ في كلِّ ذِكْر، أي: أوفقٌ للتعظيم

(١) وهي الأوساخ.

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ١٩١).

فيها كتابه. وقرئ: (يُسَبِّح) على البناء للمفعول، ويُسندُ إلى أحدِ الظُّروفِ الثلاثة، أعني: ﴿لَهُ﴾ ﴿فِيهَا﴾ ﴿بِالْعُدُوِّ﴾.

من رفع البناء، قال القاضي: ﴿وَيَذْكَرُ فِيهَا﴾ عامٌّ فيما يتضمَّنُ ذِكْرَهُ حتَّى المذاكرة في أفعاله، والمباحثة في أحكامه، و﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾، أي: يُصلُّون^(١).

قوله: (وَقُرِئَ: «يُسَبِّحُ» على البناء للمفعول)، ابنُ عامرٍ وأبو بكر، والباقون: على البناء للفاعل^(٢).

قوله: (ويُسندُ إلى أحدِ الظُّروفِ الثلاثة، أعني: ﴿لَهُ﴾ ﴿فِيهَا﴾ ﴿بِالْعُدُوِّ﴾)، فحيثُ يجيءُ الكلامُ فيما يتصلُ بالفعلِ جزءاً أو ما ينفصلُ عنه فَضْلاً، ويتفرَّعُ عليه معنى الاهتمام فيما قُدِّمَ وأُخِّرَ ومعنى الإسنادِ المجازيِّ، فالوجهُ ثلاثةٌ، والاعتباراتُ تسعةٌ، أحدها: أنْ تُجْعَلَ الباءُ في ﴿بِالْعُدُوِّ﴾ مَزِيْدَةً، ويُسندُ الفعلُ إلى أوقاتِ العُدُوِّ والأصاَلِ على الإسنادِ المجازيِّ؛ لأنَّ اللهَ في الحقيقةِ هو المسيح، ولكنَّ المُسَبِّحِينَ لاهتمامهم بالتسبيح، وأنَّ أوقاتهم مستغرقةٌ فيه، لا يفترونَ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار، كما قال: ﴿رِجَالٌ لَا لِيَهُمْ تَحَنُّرٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ الصَّلَاةِ﴾، كأنها مُسَبَّحةٌ. ويؤيِّدُه قوله: «على زيادةِ الباءِ، وتُجْعَلُ الأوقاتُ مُسَبَّحةً، والمرادُ ربُّها». ومنه قولك: زيدٌ نهاره صائم، وليله قائم، لكثرةِ صيامه بالنهار، وقيامه بالليل، فالتقديمُ إذن في الفَضَلاتِ؛ لأنَّ الأصلَ تقديمُ المُسندِ إليه عليها، وتقديمُ المفعول فيه على المفعولِ له؛ لأنَّ الغاياتِ سابقةٌ في القصد، لاحقةٌ في الوجود، فقُدِّمَ ﴿لَهُ﴾ لإرادةِ مَزِيْدِ الاختصاص، كأنه قيل: يُسَبِّحُ أوقاته لأجله، وكرامةً لوجهِ الكريم، لا لشيءٍ آخر.

ويُفيدُ تقديمُ ظَرْفِ المكانِ على الزَّمانِ - على أنَّ الفعلَ أشدُّ اتصالاً بالزَّمانِ لكونه جُزْأهُ - شدةَ العنايةِ بإثارةِ تلكِ الأمكنةِ التي رُفِعَتْ لِذِكْرِ اللهِ تعالى وتسبيحه. فهذه اعتباراتُ أربعةٌ: اعتبارُ الإسنادِ، وتقديمُ المفعولِ له على المفعول فيه، وعلى ما أُقيِمَ مقامَ الفاعلِ، وتقديمُ ظَرْفِ المكانِ على الزَّمانِ.

(١) المصدر السابق (٤: ١٩١).

(٢) انظر توجيه هذا الاختيار في «حجّة القراءات» ص ٥٠١.

﴿رَجَالٌ﴾: مرفوعٌ بما دلَّ عليه ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ وهو يسبِّح له؛ و: (تُسَبِّحُ) بالتاء وكسرِ الباء. وعن أبي جعفرٍ بالتاءِ وفتحِ الباء، ووجهها: أن يُسند إلى أوقاتِ الغدوِّ والأصالِ على زيادةِ الباء، وتُجعل الأوقاتُ مُسَبَّحةً، والمرادُ ربُّها، كصيدٍ عليه يومان، والمرادُ وحشُهما. والأصال: جمعُ أصل؛ وهو العشي. والمعنى: بأوقاتِ الغدوِّ، أي:

وثانيها: أن تُجعل اللامُ في ﴿لَهُ﴾ مزيدةٌ ويُسند الفعلُ إلى الله تعالى بالحقيقة، فالتقديمُ حينئذٍ في الظرفينِ على ما سبق، فيه اعتباران: اعتبارُ الإسنادِ الحقيقيِّ، وتقديمُ ظرفِ المكانِ على الزمان.

وثالثها: أن تُجعل «في» في ﴿فِيهَا﴾ مزيدةٌ ويُسند الفعلُ إلى ضميرِ البيوتِ على المجازيِّ، وفي ذلك أن المُسَبِّحِينَ لشدةِ عنايتهم بالعكوفِ في بيوتِ الله ومُلازمتهم لها للدُّكرِ فيها، واختصاصِ الصلاةِ بها كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرَفَعَ وَيَذَكَرَ فِيهَا بِيُسَبِّحُ لَهُ﴾. فيها بِالْغَدُوِّ وَالْأَصَالِ، كأن البيوتَ مُسَبَّحةٌ، والمرادُ ربُّها، واللامُ في ﴿لَهُ﴾ بمعنى: لأجل، وتقديمه على ما سبق لمزيدِ الاختصاص، وأن إكرامِ الدِّيارِ لساكِنِها، فالاعتباراتُ ثلاثة. واللهُ تعالى أعلم.

قوله: ﴿رَجَالٌ﴾: مرفوعٌ بما دلَّ عليه ﴿يُسَبِّحُ﴾، قال الزجاجُ: المعنى على أنه لما قال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾ قيل: مَنْ يُسَبِّحُ؟ فقيل: يُسَبِّحُ له رجالٌ^(١).

قوله: (كصيدٍ عليه يومان)، قيل: الضميرُ للفرس، وقيل: للمركوب، واليومان: مصيدٌ فيها، والأوقاتُ مُسَبَّحةٌ فيها، فهو من قبيلِ الاتِّساعِ في الظُّروف، كقوله:

ويومٍ شهدناه سُلَيْماً وعامراً^(٢)

قوله: (والمعنى: بأوقاتِ الغدوِّ)، قال القاضي: و«الغدوُّ» مصدرٌ أُطلقَ للوقت، ولذلك حَسَنَ اقتراءه بـ«الأصال»^(٣).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٦).

(٢) سبق تحريجه.

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ١٩١).

بالعَدَوَات. وُقِرَى: (والإيصال)؛ وهو الدُخُول في الأَصِيل. يقال: أَصَلَ، كأظْهَرَ وأَعْتَمَ. التَّجَارَةُ: صِنَاعَةُ التَّاجِرِ، وهو الذي يَبِيعُ وَيَشْتَرِي للربح، فإمَّا أن يريد: لا يَشْغَلُهُمْ نَوْعٌ من هذه الصَّنَاعَةِ، ثم خَصَّ البِيعَ؛ لأنَّه في الإلهاء أدخُلُ؛ مِن قِبَلِ أن التاجر إذا أَجْهَتْ له بَيْعَةٌ رابحة - وهي طَلَبَتُهُ الكُلِّيَّةُ من صِنَاعَتِهِ - أهْتَهُ ما لا يُلهِيهِ شَيْءٌ يَتَوَقَّعُ فِيهِ الرِّبْحُ في الوَقْتِ الثَّانِي؛ لأنَّ هذا يَقيِنُ ذلك مَظْنُونٌ؛ وإمَّا أن يُسَمَّى الشَّرَى تِجَارَةً؛ إطلاَقاً لِاسْمِ الجِنْسِ على النَوْعِ، كما تقول: رُزِقَ فلانٌ تِجَارَةً رابحةً؛ إذا أَجَّهَ له بَيْعٌ صالِحٌ أو شَرَى. وقيل: التَّجَارَةُ لِأهلِ الجَلْبِ، تَجَرَ فلانٌ في كذا؛ إذا جَلَبَهُ. التَّاءُ في «إقامة» عَوْضٌ من العَيْنِ الساقِطَةِ للإِعْلالِ، والأصل: إِقوامٌ، فلَمَّا أُضِيفَتْ أُقِيمَتِ الإِضَافَةُ مَقامَ حَرْفِ التَّعْوِيزِ؛ فَأَسْقَطْتُ، ونحوه:

وَأَخْلَفُوكَ عِدَّ الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا

قوله: (ثُمَّ خَصَّ البِيعَ)، أي: التَّجَارَةَ، جِنْسٌ تَحْتَهُ أنواعٌ من الشَّرَى والبِيعِ وغيرِهما، فَخَصَّ البِيعَ بالذِّكْرِ، كما خَصَّ جَبْرِيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَلَكَيْكُمُوهُ وَرُسُلِهِ وَجَبْرِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨]. وقوله: «وهي طَلَبَتُهُ الكُلِّيَّةُ من صِنَاعَتِهِ» اعتراضٌ بَيْنَ إذا وجوابه.

قوله: (وقيل: التَّجَارَةُ لِأهلِ الجَلْبِ)، لَمَن يَجْلُبُ الأمتعةَ مِن بَلَدٍ إلى بَلَدٍ للبِيعِ.

الأساس: جَلَبَ الشَّيْءَ واجْتَلَبَهُ، والجَلْبُ مرزوقٌ، واشتَرى مِنَ الجَلْبِ. فعلى هذا: لا حاجةَ إلى ذِكْرِ الشَّرَى؛ فَإِنَّهُ إِنما يَجْلُبُ للبِيعِ لا للشَّرَى.

قوله: (التَّاءُ في «إقامة» عَوْضٌ)، قال الزَّجَّاجُ: أصلُها: أَقَوَمْتُ الصَّلَاةَ إِقواماً، ولكن قَلِبَتِ الواوُ أَلْفاً، فَاجْتَمَعَتْ أَلْفانٌ فَحُذِفَتْ إِحداهُما؛ لِالتَّقاءِ السَّاكِنَيْنِ، فَبَقِيَ أَقَمْتُ الصَّلَاةَ إِقاماً، وأَدخَلَتِ الهاءُ عَوْضاً مِنَ المَحذوفِ، وقامتِ الإِضَافَةُ هاهنا في التَّعْوِيزِ مَقامَ الهاءِ المَحذوفةِ^(١).

قوله: (وَأَخْلَفُوكَ عِدَّ الأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا)^(٢)، صدره:

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

وتقلَّبُ القلوب والأبصار: إمَّا أن تتقلَّب وتغيَّر في أنفسها؛ وهو أن تضطرب من الهول والفرع وتشخص، كقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]؛ وإمَّا أن تتقلَّب أحوالها وتغيَّر فتفقَه القلوب بعد أن كانت مطبوعاً عليها لا تفقه، وتُبصر الأبصار بعد أن كانت عمياً لا تُبصر. ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم، كقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: ٢٦]، والمعنى: يُسبِّحون ويخافون؛ ليجزئهم ثوابهم مضاعفاً ويزيدهم على الثواب تفضلاً. وكذلك معنى قوله: ﴿الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: المثوبة الحسنى وزيادة عليها من التفضل. وعطاء الله عز وجل: إمَّا تفضل، وإمَّا ثواب، وإمَّا عوض،

إِنَّ الْخَلِيطَ أَجْدُوا الْبَيْنَ فَاَنْجَرِدُوا

أي: مَضُوا وأسرعوا. والخليط بمعنى المخالط، والمراد به الجمع، وعد الأمر، أي: العدة.

قوله: (والمعنى: يُسبِّحون ويخافون)، يريد أن قوله: ﴿بِخَافُونَ يَوْمًا﴾ صفة بعد صفة لرجال، والصفة الأولى: ﴿لَا تُلْهِمُهُمْ بُحْرَةً وَلَا بُعْجًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي: تسبيح الله لقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾، فذكر الله مظهر وضع موضع المضمَر.

قوله: (وكذلك معنى قوله: ﴿الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾)، يعني: كما أن الزيادة في هذه الآية من الفضل، كذا يجب أن تُفسر الزيادة في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ لأن المطلق محمول على المقيد، إذا كانا عن سبب واحد؛ ولأنه إذا لم يذكر المزيّد فوجب أن يكون من جنس المزيّد عليه وإن كان من غير جنسه، فلا بد من الذكر، كقولك: أعطاني فلان ديناراً وزيادة، إذا كانت الزيادة من جنس الدينار، ولا تقول: أردت بالزيادة الثواب فيبطل تفسير الزيادة بالرؤية كما هو مذهب أهل السنة، ولم يعلم أن الكل من فضله: الجزاء، والزيادة، والرؤية، وغير ذلك، وتفسير الزيادة بالرؤية وارد عن الصادق المصدوق كما سبق بيانه.

قوله: (وعطاء الله تعالى إمَّا تفضل وإمَّا ثواب وإمَّا عوض)، فالتفضل على ما سبق

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾ ما يتفضلُ به ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فأما الثوابُ فله حساب، لكونه على حَسَبِ الاستحقاق.

[﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٣٩]

السَّرَاب: ما يُرى في الفلاة من ضوءِ الشَّمسِ وقتَ الظَّهيرة، يَسْرُبُ على وجه الأرض كأنه ماءٌ يُجْرِي. والقيعة: بمعنى القاع، أو جمعُ قاع؛ وهو المنبسطُ المُستوي من الأرض، كجيرةٍ في جَار.

وَقُرَى: (بقيعات) بناءً مَمْطُوطَةً، كدِيَمَاتٍ وقِيَمَاتٍ، في دِيَمَةٍ وقيمة. وقد جَعَلَ

في سُورَةِ النَّحْلِ عن بعضِ العَدَلِيَّةِ هُو: إيصالُ مَنَفَعَةٍ خالصةٍ إلى الغيرِ مِنْ غيرِ استحقاقٍ يَسْتَحِقُّ بذلك حَمْدًا وثناءً ومدحاً وتعظيماً، ووصفٌ بأنه مُحْسِنٌ مُجْمَلٌ، وإن لم يفعلْه لم يَسْتَوْجِبْ بذلك مدحاً وذكماً. والثوابُ هُو: الجزاءُ على أعمالِ الخيرِ، والعَوَضُ هُو البَدَلُ عن الفاتتِ، كالسَّلَامَةِ التي هي بَدَلُ الألمِ، والنَّعَمِ التي هي في مُقابَلَةِ البَلَايا والمِحَنِ والزَّايَا والفتنِ.

قوله: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ﴾ ما يتفضلُ به ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، يعني: ﴿يَرْزُقُ﴾ مُطلقٌ يجبُ أن يُقدَّرَ بأحدِ المذكورينِ: الجزاءِ أو التفضُّلِ، والأوَّلُ مُمتنعٌ؛ لأنه بمعنى الثوابِ، والثوابُ له حسابٌ، فلا يُقالُ فيه: بغيرِ حساب، فَبَقِيَ أن يُقَيَّدَ بالثاني، ويقالُ: واللَّهُ يَرْزُقُ ما يتفضلُ به بغيرِ حساب.

قوله: ﴿بقيعات﴾ بناءً مَمْطُوطَةً، أي: ممدودة، قال ابنُ جَنِّي: «قيعات» بالتاء: جَمْعُ قِيعة، كدِيَمَةٍ ودِيَمَاتٍ وقيَمَةٍ وقِيَمَاتٍ، ويجوزُ أن يكونَ جَمْعُ قاع، كَنارٍ^(١) ونيرة، وجارٍ وجيرة، ومثله أخٌ وإخوة؛ لأنَّ أَخاً عندنا فَعْلٌ، وحكى عبدُ الله بنُ إبراهيمَ قال: سَمِعْتُ

(١) قوله: «قاع كنار» سقط من (ح) و(ف).

بعضهم (بقيعة) بتاءٍ مُدَوَّرة، كَرَجَلٍ عِزْهَاءَ. شَبَّهَ مَا يَعْمَلُهُ مَنْ لَا يَعْتَقِدُ الْإِيمَانَ وَلَا يَتَّبِعُ الْحَقَّ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يَحْسِبُهَا تَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَتُنَجِّيهِ مِنْ عَذَابِهِ ثُمَّ يَحْتَسِبُ فِي الْعَاقِبَةِ أَمْلَهُ وَيَلْقَى خِلَافَ مَا قَدَّرَ؛ بِسَرَابٍ يَرَاهُ الْكَافِرُ بِالسَّاهِرَةِ وَقَدْ غَلَبَهُ

[مَسْلَمَةٌ] ^(١) يَقْرَأُ: كَسَرَابٍ بَقِيْعَاءَ، بِالْأَلْفِ وَالْهَاءِ بَعْدَهَا، نَحْوَ: فِعْلٍ وَفِعْلَاءَ، كَرَجُلٍ عِزَّهُ وَعِزْهَاءَ: الَّذِي لَا يَقْرُبُ النِّسَاءَ وَاللَّهْوَ.

قَوْلُهُ: (بِسَرَابٍ يَرَاهُ الْكَافِرُ)، مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: «شَبَّهَ مَا يَعْمَلُهُ»، يَعْنِي: شَبَّهَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ بِمَنْ لَا إِيْمَانَ لَهُ، وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهَا تَنْفَعُهُ ثُمَّ يَحْتَسِبُ فِي الْعَاقِبَةِ، بِسَرَابٍ يَرَاهُ الْكَافِرُ، إِلَى آخِرِهِ. إِنَّمَا قَيَّدَ الْمَشَبَّهَ بِهِ بِرُؤْيَا الْكَافِرِ وَجَعَلَ أَحْوَالَهُ مَا يَلْقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا مُطْلَقًا؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَيْدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾؛ لِأَنَّهُ مِنْ تَمَتَّةِ أَحْوَالِ الْمَشَبَّهِ بِهِ، وَهَذَا الْأَسْلُوبُ أَبْلَغُ؛ لِأَنَّ خَيْبَةَ الْكَافِرِ أَدْحَلَ، وَحُصُولُهُ عَلَى أَمْرٍ خِلَافَ مَا يَأْمُلُهُ أَعْرَقَ، وَنَحْوُهُ فِي التَّشْبِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٧]، فَإِنَّ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ هُمُ الَّذِينَ يَذْهَبُ حَرْثُهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ، بِخِلَافِ مُطْلَقِ الْحَرْثِ، كَذَلِكَ هَاهُنَا. وَمَا أَدَلَّهُ مِنْ قَاطِعٍ عَلَى بُطْلَانِ مَذْهَبِ الْفَلَسَافَةِ، وَمَنْ يَرِيدُ الْهُدَايَةَ مِنْ غَيْرِ الْمَتَابَعَةِ؛ فَإِنَّهُ يَتَوَهَّمُ أَنَّ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ مُتَابَعَةِ الْوَهْمِ هُوَ الْحَقُّ الْبَحْثُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ فِي الْخَاتِمَةِ بُطْلَانُهُ، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ، يَعْرِفُ حَيْثُ نَزَّ: أَفَرَسُ تَحْتَهُ أَمْ حَمَارٌ؟ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى مُقْتَنِي عِلْمِ الْمَعْقُولِ الَّذِينَ أَضَلَّهُمُ الْوَهْمُ الْمَعْلُولُ الْإِنْتِبَاهُ فِي آخِرِ عَهْدِهِمْ، وَالتَّبَرُّيُّ عَنْهُ فِي خَاتِمَةِ أَمْرِهِمْ لَمَّا عَرَفُوا أَنَّهُ كَسَرَابٌ بِقِيْعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً.

الرَّاعِبُ: الْحِسْبَانُ: أَنْ يَحْكَمَ لِأَحَدٍ نَقِيضَيْنِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخْطِرَ الْآخَرَ بِبَالِهِ فَيَحْسِبُهُ، وَيَعْقِدُ عَلَيْهِ الْأَصْبَعُ، وَيَكُونُ بِمَعْرِضٍ أَنْ يَعْتَرِيَهُ فِيهِ شَكٌّ، وَيُقَارِبُ ذَلِكَ الظَّنَّ، لَكِنَّ الظَّنَّ أَنْ يُخْطِرَ النَّقِيضَيْنِ بِبَالِهِ فَيَغْلِبَ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ ^(٢).

قَوْلُهُ: (بِالسَّاهِرَةِ)، الْجَوْهَرِيُّ: يَقَالُ: السَّاهِرُ: ظَلَّ السَّاهِرَةَ، وَهِيَ وَجْهُ الْأَرْضِ، وَمِنْهُ

(١) قَوْلُهُ: «مَسْلَمَةٌ»: سَقَطَ مِنَ الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ، وَأُبْتِنَاهُ مِنْ «الْمَحْتَسِبِ».

(٢) «مَفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ» ص ٢٣٤.

عطش يوم القيامة، فيحسبه ماء، فيأتيه فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية الله عنده يأخذونه فيعتلونه إلى جهنم فيسقونه الحميم والعساق، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣]، و﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية، قد كان تعبد ولبس المسوخ والتمس الدين في الجاهلية، ثم كفر في الإسلام.

[﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُدُّهُ لَتْرِيكَدَرِيهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [٤٠]

اللُّجِّيُّ: العميق الكثير الماء، منسوب إلى اللُّج؛ وهو معظم ماء البحر. وفي ﴿أَخْرَجَ﴾ ضمير الواقع فيه. ﴿لَتْرِيكَدَرِيهَا﴾ مبالغة في: لم يرها؛ أي: لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها. ومثله قول ذي الرمة:

إذا غيّر النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكُدْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةٍ يَبْرَحُ

أي: لم يقرب من البراح، فما باله يبرح! شبه أعمالهم أولاً في قوَاتِ نفعها وحضور

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، قال: هي الأرض البيضاء المستوية، سُميت بذلك لأن السراب يجري فيها، من قولهم: عَيْنٌ سَاهِرَةٌ: جارية الماء، وفي صِدْهَا: نائمة.

قوله: (فيعتلونته)، الأساس: عتلة؛ إذا أخذ بتلبيبه فجره إلى حبس أو نحوه ﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِنَّ سَوَاءَ أَلْبَجِيرٍ﴾ [الدخان: ٤٧].

قوله: (وهم الذين قال الله فيهم)، يعني: من لا يعتقد الإيآن ولا يتبع الحق، ويعمل الأعمال الصالحة، وفُسرَت الآية في موضعها بأن قيل: عملت ونصبت في أعمال لا يجدي عليها في الآخرة.

قوله: (إذا غيّر النَّأْيُ الْمُحِبِّينَ) البيت^(١)، الرسيس: الشيء الثابت الذي لزِمَ من بقية

(١) لذي الرمة في «ديوانه» ص ١٠٨.

صَرَّهَا بَسْرَابٍ لَمْ يَجِدْهُ مَنَّ خَدَعَهُ مِنْ بَعِيدٍ شَيْئاً، وَلَمْ يَكْفِهِ حَيِيَّةً وَكَمْدًا أَنْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً كَغَيْرِهِ مِنَ السَّرَابِ، حَتَّى وَجَدَ عِنْدَهُ الزَّبَانِيَّةَ تَعْتَلُهُ إِلَى النَّارِ، وَلَا تَقْتُلُ ظَمَاءً بِالْمَاءِ. وَشَبَّهَهَا ثَانِيًا فِي ظُلْمَتِهَا وَسَوَادِهَا؛ لَكُونِهَا بَاطِلَةً، وَفِي حُلُوهَا عَنْ نُورِ الْحَقِّ بِظُلْمَاتٍ مِتْرَاكِمَةٍ مِنْ لُجِّ الْبَحْرِ وَالْأَمْوَاجِ وَالسَّحَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ لَمْ يُؤَلِّهِ نُورَ تَوْفِيْقِهِ وَعِصْمَتِهِ وَلُطْفِهِ، فَهُوَ فِي ظُلْمَةِ الْبَاطِلِ لَا نُورَ لَهُ.

وهذا الكلام مجراه مجرى الكنايات؛ لأنَّ الألفاظ إنما تَرَدَّفُ الإيَّانَ والعملَ، أو كَوْنَهُمَا مُتْرَقِّبَيْنِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]،

هُوَ أَوْ سُقِّمَ فِي الْبَدَنِ. يَبْرَحُ: أَي: يَزُولُ، يُقَالُ: يَبْرَحُ بَرَحًا: إِذَا زَالَ مِنْ مَوْضِعِهِ، وَمِنْهُ: لَا أَبْرَحُ كَذَا أَي: لَا أَزَالُ.

قَوْلُهُ: (وَمَنْ لَمْ يُؤَلِّهِ - أَي: لَمْ يُعْطِهِ - نُورَ تَوْفِيْقِهِ وَعِصْمَتِهِ وَلُطْفِهِ فَهُوَ فِي ظُلْمَةِ الْبَاطِلِ)، يُرِيدُ: أَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾، ظَاهِرُهُ: أَنَّ مَنْ لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ الْإِيَّانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ لَيْسَ لَهُ إِيَّانٌ وَلَا عَمَلٌ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّهُ تَذْيِيلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَظُلْمَتٍ﴾ إِلَى آخِرِهِ. وَلَمَّا لَمْ يُوَافِقْ مَذْهَبَهُ، عَدَّلَ مِنَ التَّصْرِيحِ إِلَى التَّلْوِيْحِ وَقَالَ: «وَمَنْ لَمْ يُؤَلِّهِ نُورَ تَوْفِيْقِهِ» فَيَكُونُ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَحْدُوفًا وَالْجُمْلَةُ كَمَا هِيَ مَعَ الْحَذْفِ كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ إِيَّانِهِمْ وَعَمَلِهِمُ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّ الْإِلْفَافَ لَازِمُ الْإِيَّانِ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحِ.

قَوْلُهُ: (أَوْ كَوْنَهُمَا مُتْرَقِّبَيْنِ)، نَصَبُ عَطْفٍ عَلَى «الْإِيَّانِ وَالْعَمَلِ»، أَي: الْإِلْفَافُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لَازِمًا لِلْإِيَّانِ وَالْعَمَلَ الصَّالِحِ أَوْ لَازِمًا لَتَرْقُبِ حَصُولِهِمَا. وَقَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: التَّقْدِيرُ: وَمَنْ لَمْ يُؤَلِّهِ نُورَ تَوْفِيْقِهِ وَعِصْمَتِهِ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ: لَا نُورٌ لُطْفِ التَّوْفِيْقِ الَّذِي يَسْبِقُ الْإِيَّانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ الْمُتْرَقِّبَيْنِ، وَلَا نُورُ الْعِصْمَةِ الَّذِي يَرْدُفُ وَيَلْحَقُ الْإِيَّانَ وَالْعَمَلَ الْحَاصِلَيْنِ. وَقَلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٥] اسْتِشْهَادٌ لِقَوْلِهِ: «إِنَّ الْإِلْفَافَ إِنَّمَا تَرْدُفُ الْإِيَّانَ وَالْعَمَلَ»؛ لِأَنَّ الْهُدَايَةَ هِيَ الدَّلَالَةُ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَهُ فِي مَوْضِعِهِ بِقَوْلِهِ: «لَنَزِيدَنَّهُمْ هُدَايَةَ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ وَتَوْفِيْقِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا

وقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]؟ وقرئ: (سحابٌ ظلمات) على الإضافة. و(سحابٌ ظلمات)، برفع «سحابٌ» وتنوينه وجرُّ «ظلماتٍ» بدلاً من «ظلماتٍ» الأولى.

[﴿الزُّرَّارَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّيْتُ كُلَّ قَدَعٍ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ، وَتَسْبِيحُهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ * وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ٤١ - [٤٢

﴿صَافَاتٍ﴾: يصففن أجنحتهنَّ في الهواء. والضميرُ في ﴿عَلِمَ﴾ لـ ﴿كُلُّ﴾ أو الله، وكذلك في ﴿صَلَاتُهُ، وَتَسْبِيحُهُ﴾، والصلاة: الدُّعاء. ولا يبعد أن يُلهم الله الطيرَ دُعاءه وتَسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكادُ العقلاء يبتدون إليها.

[﴿الزُّرَّارَ أَنَّ اللَّهَ يُزِجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ﴾

زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٠]»، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧] دَلَّ على أن إضلالَ الله تعالى مسبوقةٌ بظلمهم. وقال في تفسيره: إنَّ مشيئةَ الله تعالى تابعةٌ لحِكمته، من إضلالِ الظالمينَ وخذلانهم، والتخلية بينهم وبينَ شأنهم عند رزقهم. وكلُّ ذلك تكلفاتٌ وتعسفاتٌ عن الطريقِ السوي.

قوله: (والضميرُ في ﴿عَلِمَ﴾ لـ ﴿كُلُّ﴾ أو الله تعالى، وكذلك في ﴿صَلَاتُهُ، وَتَسْبِيحُهُ﴾، قال صاحبُ «التقريب»: إذا عاد ضميرُ ﴿عَلِمَ﴾ إلى الله تعالى فليُعدَّ الأخيرانِ إلى «كُلِّ»؛ لثلاثيَ المبتدأ عن عائدٍ إليه، إلا أن يُقدَّرَ منه. وقلتُ: الضميرُ إذا كان لـ ﴿كُلِّ﴾، كان قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تكميلاً لإردافِ العظيمةِ الكاملةِ والقدرةِ التامةِ صفةِ العِلْمِ الشاملةِ، وإذا كان لله تعالى كان تذييلاً لقوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدَعٍ عَلَيْهِ صَلَاتُهُ، وَتَسْبِيحُهُ﴾، ثم الآيةُ بجُمليتها مع ما يتلوها من الآياتِ المشتملةِ على دلائلِ الآفاقِ والأنفسِ مُستطردةٌ لِذِكْرِ التَسبيحِ في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ، فِيهَا بِالْفُؤَادِ وَأَلْأَصَالِ﴾ * ﴿رِجَالٌ﴾، ثم قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ جيءَ به تكريراً وترجيحاً لقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ الآية، ليتخلَّصَ منه إلى نوعٍ آخرٍ من قبائحِ رأسِ النفاقِ ودُويه.

وَيُنزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ
يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ * يَقْلِبُ اللَّهُ أَيْدِيَ النَّهَارِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٣-٤٤﴾

﴿يُنزِجِي﴾: يَسُوق. ومنه: البضاعةُ المُرْجاة: التي يُرْجِيها كُلُّ أَحَدٍ لا يَرْضاها.
والسَّحَابُ يكون واحداً، كالعماء، وجمعاً كالرَّباب.

ومعنى تأليف الواحد: أنه يكون قَزَعاً فَيَضُمُّ بعضه إلى بعض. وجازَ بينه وهو
واحد؛ لأنَّ المعنى: بينَ أجزاءه، كما قيلَ في قوله:

..... بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ

والرُّكَّام: المتراكِمُ بعضه فوق بعض.

قوله: (والسَّحَابُ يكونُ واحداً كالعماء)، قال أبو زيد: هو شِبُه الدَّخَانِ يَرَكَّبُ رُؤُوسَ
الجبال. والرَّبابُ: السَّحَابُ الأبيض، الواحدُ: رِبَابَةٌ. القَزَعُ: قِطْعٌ مِنَ السَّحَابِ رقيقة،
الواحدُ: قَزَعَةٌ. الراغب: أصلُ السَّحْبِ: الجَرُّ، كَسَحَبِ الذَّيْلِ، ومنه السَّحَابُ إِمَّا جَرُّ
الرَّيْحِ له، أو لانجِراهِ في مرَّه. والسَّحَابُ: العَيْمُ فيه ماءٌ، أو لم يكن، ولهذا يقال: سَحَابٌ
جَهَامٌ^(١). قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَأَى اللَّهَ يُرْسِلِي سَحَابًا مِمَّنْ يُولُفُ يَبْنُهُ﴾، وقد يُدَكَّرُ السَّحَابُ، ويُرادُ بها
الظِّلُّ والظَّلْمَةُ على طريق التشبيه: ﴿مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ الآية^(٢).
يقال: سَحَابٌ مَرَكُومٌ، أي: مُتراكِمٌ، والرُّكَّامُ: ما يُلقَى بعضه على بعض، والرُّكَّامُ يوصَفُ به
الرَّمْلُ والجَيْشُ، ومُتْرَكِمُ الطَّرِيقِ: جادُّته التي فيها رُكْمَةٌ، أي: أثرُ مُتراكِمٍ^(٣).

قوله: (كما قيل في قوله: بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ)، أو له:

قِفَا نَبِّكَ مِنْ ذَكَرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ
بِسِقْطِ اللَّوِيِّ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ^(٤)

(١) يعني لا ماء فيه.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣٩٩.

(٣) «المصدر السابق» ص ٣٦٥.

(٤) لا مرئ القيس في «ديوانه» ص ٨.

والوَدُق: المطر. ﴿مِنْ خِلَالِهِ﴾: مِنْ فُتُوْقِهِ وَمَخَارِجِهِ، جَمْعُ خَلَلٍ، كَجِبَالٍ فِي جَبَلٍ. وَقُرَى: (مَنْ خَلَّلَهُ)، ﴿وَيُنزَّلُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَ(يَكَادُ سَنًا) عَلَى الْإِدْغَامِ، وَ(بُرْقَهُ) جَمْعُ بُرْقَةٍ؛ وَهِيَ الْمَقْدَارُ مِنَ الْبَرَقِ، كَالْغُرْفَةِ وَاللُّقْمَةِ؛ وَ(بُرْقَهُ) بِضَمِّتَيْنِ لِلِاتِّبَاعِ، كَمَا قِيلَ فِي جَمْعِ فُعْلَةٍ: فُعْلَاتٌ، كظُلُمَاتٍ؛ وَ(سَنَاءُ بَرَقَةٍ) عَلَى الْمَدِّ الْمَقْصُورِ، بِمَعْنَى الضَّوْءِ،

قال ابنُ الأنباريِّ: الدَّخُولُ، وَحَوْمَلٌ، وَالْمِرْقَاةُ: مَنَازِلُ كِلَابٍ^(١). اعْلَمْ أَنَّ الْفَاءَ فِي «فَحَوْمَلٍ» هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ دَخُولِ «بَيْنَ» عَلَى «حَوْمَلٍ». قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: لَا يُقَالُ: رَأَيْتُكَ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو، بِالْفَاءِ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ: بَيْنَ أَهْلِ الدَّخُولِ، فَأَهْلِي حَوْمَلٍ^(٢).

وَذَهَبَ الْمَصْنُفُ إِلَى أَنَّ كَلًّا مِنَ الدَّخُولِ وَحَوْمَلٍ مَكَانٌ ذُو قِطْعٍ مُتَّجَاوِرَاتٍ، فَالْبَيْنُ دَاخِلٌ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى التَّأْوِيلِ، أَي: بَيْنَ أَمَاكِنِ الدَّخُولِ فَأَمَاكِنِ الْحَوْمَلِ. وَقَالَ الرَّجَّاجُ: جَازًا: مَا زِلْتُ أَدُورُ بَيْنَ الْكُوفَةِ، وَلَمْ يَجْزُ أَدُورُ بَيْنَ زَيْدٍ حَتَّى تَقُولَ: وَعَمْرٍو؛ لِأَنَّ الْكُوفَةَ اسْمٌ يَتَضَمَّنُ أَمَكِنَةً كَثِيرَةً، فَكَأَنَّكَ قُلْتَ: مَا زِلْتُ أَدُورُ بَيْنَ طُرُقِ الْكُوفَةِ^(٣).

قَوْلُهُ: (وَالْوَدُقُ: الْمَطَرُ)، الرَّاعِبُ: الْوَدُقُ: قِيلَ: مَا يَكُونُ خِلَالَ الْمَطْرِ كَأَنَّهُ غُبَارٌ. وَقَدْ يُعْبَرُ بِهِ عَنِ الْمَطْرِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَرَى الْوَدُقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، وَيُقَالُ لِمَا يَبْدُو فِي الْهَوَاءِ عِنْدَ شِدَّةِ الْحَرِّ: وَدِيقَةٌ^(٤).

قَوْلُهُ: ﴿وَيُنزَّلُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، قَرَأَ كُلُّهُمْ إِلَّا ابْنَ كَثِيرٍ وَأَبَا عَمْرٍو: «يَكَادُ سَنًا»، عَلَى الْإِدْغَامِ: السُّوسِيُّ عَنِ أَبِي عَمْرٍو.

قَوْلُهُ: (وَ«سَنَاءُ بَرَقَةٍ»)، قَالَ ابْنُ جَنِّي: هِيَ قِرَاءَةٌ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ. السَّنَاءُ مَمْدُودَةٌ: الشَّرْفُ، يُقَالُ: رَجُلٌ ظَاهِرُ النَّبْلِ وَالسَّنَاءِ، وَالسَّنَا مَقْصُورَةٌ: الضَّوْءُ، وَعَلَيْهِ قِرَاءَةُ الْكَافَّةِ.

(١) «شرح القوائد السبع الطوال» لابن الأنباري ص ١٩.

(٢) نقله ابن الأنباري في المصدر السابق.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٤٩).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٨٦١.

والممدود بمعنى العلو والارتفاع، من قولك: سَنِي، للمرتفع؛ و(يُذْهِبُ بِالْأَبْصَارِ) على زيادة الباء، كقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥]، عن أبي جعفر المَدَنِيِّ. وهذا من تعديد الدلائل على رُبوبيّته وظهور أمره؛ حيث ذَكَرَ تَسْبِيحَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكُلِّ مَا يَطِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ودعاءهم له، وابتهاهم إليه، وأنه سَخَّرَ السَّحَابَ التَّسْخِيرَ الَّذِي وَصَفَهُ وَمَا يُحْدِثُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِهِ حَتَّى يَنْزِلَ الْمَطْرُ مِنْهُ، وأنه يَقْسِمُ رَحْمَتَهُ بَيْنَ خَلْقِهِ وَيَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، وَيُرِيهِمُ الْبَرْقَ فِي السَّحَابِ الَّذِي يَكَادُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ؛ لِيَعْتَبِرُوا وَيَحْذَرُوا، وَيُعَاقِبُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَيُخَالِفُ بَيْنَهُمَا بِالطُّولِ وَالْقِصْرِ، وَمَا هَذِهِ إِلَّا بَرَاهِينٌ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ عَلَى وُجُودِهِ وَثَبَاتِهِ، وَدَلَائِلُ مُنَادِيَةٌ عَلَى صِفَاتِهِ، لِمَنْ نَظَرَ وَفَكَّرَ وَتَبَصَّرَ وَتَدَبَّرَ. فَإِنْ قُلْتَ: مَتَى رَأَى

ويجوز أن يكون الممدود للمبالغة في قوة صَوْنِهِ وَصِفَاتِهِ، كقولك: هذا صَوْنٌ كَرِيمٌ، أي: هو في غاية قوّته وإنارته، فلو كان إنساناً لكان كريماً شريفاً^(١).

قوله: (على زيادة الباء)، قال الزجاج: لم يقرأ بها غير أبي جعفر المَدَنِيِّ، وَوَجْهَهَا فِي الْعَرَبِيَّةِ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: ذَهَبْتُ بِهِ وَأَذْهَبْتُهُ^(٢). وَالْمَصْنُفُ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهَا لِلتَّأَكِيدِ، وَقَدْ نَقَلْنَا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْحَرِيرِيِّ جَوَازَ الْجَمْعِ بَيْنَ حَرْفِي التَّعْدِيدِ، وَعَلَيْهِ قِرَاءَةٌ مِنْ قَرَأَ: «تُنَبِّئُ بِالذُّهْنِ»، بِضَمِّ التَّاءِ.

قوله: (وهذا من تعديد الدلائل على رُبوبيّته)، هذا إشارة إلى المذكور من ابتداء قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخِرُ لَهُ﴾، وَتِلْكَ الدَّلَائِلُ تَسْبِيحُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَتَسْبِيحُ الطَّيْرِ، وَدَعَاؤُهُمْ، وَتَسْخِيرُ السَّحَابِ، وَقِسْمَةُ رَحْمَتِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ يَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ، وَإِرَاءَتُهُ الْبَرْقَ وَسَنَاهُ بِحَيْثُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ، وَتَقْلِيْبُهُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارَ بِالطُّولِ وَالْقِصْرِ.

قوله: (وما هذه إلا براهين في غاية الوضوح على وجوده [وثباته]، ودلائل مُنَادِيَةٌ عَلَى صِفَاتِهِ)، يعني: وجود هذه الأشياء يدلُّ على وجود مُبْدِعِهَا وَخَالِقِهَا؛ لِأَنَّ الْمُمْكِنَ لَا يَدُلُّهُ

(١) «المحتسب» (٢: ١١٤) ولتمام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٥٨).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٥٠).

رسول الله ﷺ تسبيح مَنْ في السماوات ودعاءهم، وتسبيح الطير ودُعاءه، وتنزيل المطر من جبالِ بَرْدٍ في السماء، حتى قيل له: ﴿أَلَزَّرَ﴾؟ قلت: عَلِمَهُ من جهة إخبارِ الله إِيَّاهُ بذلك على طريقِ الوَحْيِ. فإن قلت: ما الفرقُ بين ﴿مِنْ﴾ الأولى والثانية والثالثة في قوله: ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾، ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾، ﴿مِنْ بَرْدٍ﴾؟ قلت: الأولى لا ابتداءً الغاية، والثانية للتَّبَعِيضِ، والثالثة للبيان. أو الأولى للابتداء، والآخرة للتبعيض. ومعناه: أنه يُنزل البَرْدَ من السماء من جبالٍ فيها، وعلى الأوَّلِ مفعولٌ ﴿وَيُنزِلُ﴾ ﴿مِنْ جِبَالٍ﴾. فإن قلت: ما معنى ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرْدٍ﴾؟ قلت: فيه مَعْنِيَانِ؛ أحدهما: أن يَخْلُقَ اللهُ في السماء جبالَ بَرْدٍ كما خَلَقَ في الأرض جبالَ حَجَرٍ. والثاني: أن يريدَ الكثرةَ بِذِكْرِ الجبالِ، كما

من مُوجِدٍ يُوجِدُهُ، وكونُها واقعةً على صفاتٍ عجيبةٍ غريبةٍ تَدُلُّ على عِلْمِ مُنشئِها، وحِكْمَةِ مُفَطِّرِها^(١)، ولذلك قال: «لَمَنْ نَظَرَ وَفَكَّرَ وَتَبَصَّرَ» على النَّشْرِ.

قوله: (عَلِمَهُ مِنْ جِهَةِ إخبارِ الله تعالى ... على طريقِ الوَحْيِ)، قال صاحبُ «الفرائد»: يمكنُ أن يقالَ: عَلِمَهُ بِالْمُكاشَفَةِ، وَبُنُورِ زَائِدٍ عَلَى نُورِ الْعَقْلِ، أَوْ بِلِإِراءَةِ اللهُ تعالى إِيَّاهُ كما أَرَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥].

قوله: (والثالثة للبيان)، قال القاضي: ﴿مِنْ بَرْدٍ﴾: بيانٌ للجبالِ، والمفعولُ محذوفٌ، أي: يُنزلُ مُبْتَدَأً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرْدٍ^(٢).

قوله: (أن يُريدَ الكثرةَ بِذِكْرِ الجبالِ)، قال القاضي: أي: مِنْ قِطْعِ عِظامِ تُشْبهُ الجبالَ في عِظَمِها، وقيل: المرادُ بالسَّماءِ المُظَلَّةُ، وفيها جبالٌ مِنْ بَرْدٍ كما في الأرضِ جبالٌ مِنْ حَجَرٍ، وليس في العقلِ قاطِعٌ يَمْنَعُهُ^(٣).

(١) كذا في الأصول الخطية، والأشبه بالصواب أن يقال: فاطرها، لأنه من: فَطَرَ، لا من: أَنْطَرَ. انظر: «مفردات القرآن» ص ٦٤٠.

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ١٩٤).

(٣) «المصدر السابق» (٤: ١٩٤).

يقال: فلان يملك جبلاً من ذهب.

[﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٤٥]

وُقِرَّ: (خلق كل دابة). ولما كان اسم الدابة موقعا على المميز وغير المميز؛ غلب المميز فأعطي ما وراءه حكمه، كأن الدواب كلهم مميزون، فمن ثم قيل: ﴿فَمِنْهُمْ﴾، وقيل: ﴿مَنْ يَمْشِي﴾ في الماشي على بطن والماشي على أربع قوائم. فإن قلت: لم نكر الماء في قوله: ﴿مِنْ مَاءٍ﴾؟ قلت: لأن المعنى: أنه خلق كل دابة من نوع من الماء

قوله: (فمن ثم قيل)، تفريع لما بعده على ما قبله، يعني: ضمنت قوله: ﴿خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ معنى التغليب، ولذلك أتى بضمير العقلاء وضم معه من المختص بالمميزين، ولولا إرادة التغليب لم يستقم قوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي﴾ إلى آخره.

وتلخيصه أن الأول مجمل في إرادة التغليب، فبين بالثاني المراد منه، كما أن قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قرينة دالة على إرادة التغليب في ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةَ كُلُّهُمْ﴾ [الحجر: ٣٠]، ولو حمل على باب قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِنًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩]، وجمعه بالواو والنون لجاز، لأن الكلام لما كان مسوقا لإظهار قدرة الله وكمال حكمته، وأن هذه الأشياء دلائل دالة مرشدة على ذلك، أُجري عليها ما كان مجرى على العقلاء، ومن ثم قدم الماشي على البطن على الماشي على القدمين وعلى الأربع، لأن الأول أدل على القدرة، والثاني من الثالث^(١).

قوله: (لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء)، تلخيص الجواب: أن التنكير إما للإفراد نوعاً، فإنه تعالى خلق كل نوع من أنواع الدواب من ماء مختص بذلك النوع، فخلق نوع الإنسان من ماء مختص به، وخلق الفرس من ماء مختص به، وعلى هذا، وإما للإفراد شخصاً، فإنه تعالى خلق كل دابة من ماء مخصوص بها وهو النطفة، ثم اختلقت هذه

(١) من بداية فقرة: «قوله: (فمن ثم قيل) تفريع» إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

مُخْتَصِّ بَتَلِكِ الدَّابَّةِ، أَوْ: خَلَقَهَا مِنْ مَاءٍ مَخْصُوصٍ؛ وَهُوَ النُّطْفَةُ، ثُمَّ خَالَفَ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ النُّطْفَةِ؛ فَمِنْهَا هَوَامٌّ، وَمِنْهَا بَهَائِمٌ، وَمِنْهَا نَاسٌ، وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُقِيَ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفِضَلٌ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ﴾ [الرعد: ٤]. فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا بِالْهُ مُعْرَفًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؟ قُلْتَ: قَصَدَ ثُمَّ مَعْنَى آخَرَ؛ وَهُوَ أَنَّ أَجْنَاسَ الْحَيْوَانِ كُلَّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ الَّذِي هُوَ جِنْسُ الْمَاءِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ وَإِنْ تَخَلَّلَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا وَسَائِطٌ، قَالُوا: خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ رِيحٍ خَلَقَهَا مِنَ الْمَاءِ، وَالْجَنِّ مِنْ نَارٍ خَلَقَهَا مِنْهُ، وَآدَمَ مِنْ تَرَابٍ خَلَقَهُ مِنْهُ. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَاءَتْ الْأَجْنَاسُ الثَّلَاثَةُ عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ؟ قُلْتَ: قُدِّمَ مَا هُوَ أَعْرَفُ فِي الْقُدْرَةِ، وَهُوَ الْمَاشِي بَغَيْرِ آلَةٍ مُشْبِيٍّ مِنْ أَرْجُلٍ أَوْ قَوَائِمٍ، ثُمَّ الْمَاشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، ثُمَّ الْمَاشِي عَلَى أَرْبَعٍ. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سُمِّيَ الزَّحْفُ عَلَى الْبَطْنِ مَشْيًا؟ قُلْتَ: عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ، كَمَا قَالُوا فِي

النُّطْفَةُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الدَّوَابِّ. وَقَالَ الْقَاضِي: هَذَا عَلَى تَنْزِيلِ الْغَالِبِ مِنْزَلَةَ الْكُلِّ؛ إِذْ مَنْ الْحَيَوَانَاتِ مَا يَتَوَلَّدُ لَا مِنْ نُطْفَةٍ^(١).

قَوْلِهِ: (قَصَدَ ثَمَّةً مَعْنَى آخَرَ)، يَعْنِي: قَصَدَ هَاهُنَا إِلَى مَعْنَى الْإِفْرَادِ شَخْصًا أَوْ نَوْعًا كَمَا سَبَقَ، فَنَكَرَ الْمَاءَ وَقَصَدَ ثَمَّةً إِلَى مَعْنَى الْجِنْسِ وَأَنَّ حَقِيقَةَ الْمَاءِ مَبْدَأُ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ فَعَرَفَهُ، وَأَشَارَ إِلَيْهِ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ» حَيْثُ قَالَ: أَيُّ: وَجَعَلْنَا مَبْدَأَ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ هَذَا الْجِنْسَ الَّذِي هُوَ جِنْسُ الْمَاءِ^(٢).

وَقَالَ صَاحِبُ «الْإِنْتِصَافِ»: وَتَحْرِيرُ الْفَرْقِ أَنَّ الْأُولَى: بَيَّنَّ أَنَّ الْقُدْرَةَ خَلَقَتْ مِنْ وَاحِدٍ أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةً، وَالثَّانِيَةُ: الْقَصْدُ فِيهَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ الْمُتَّفِقَةَ مِنْ جِنْسِ الْمَاءِ الْمُخْتَلِفِ، فَالْأُولَى: إِخْرَاجُ مُخْتَلِفٍ مِنْ مُتَّفِقٍ، وَالثَّانِيَةُ: إِخْرَاجُ مُتَّفِقٍ مِنْ مُخْتَلِفٍ^(٣).

قَوْلِهِ: (عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِعَارَةِ)، أَيُّ: اسْتَعِيرَ لِلزَّحْفِ عَلَى الْبَطْنِ الْمَشْيَ، جَعَلَهُ الْمَصْنُفُ

(١) «المصدر السابق» (٤: ١٩٤).

(٢) «مفتاح العلوم» ص ٨٠.

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٢٤٧).

الأمر المستمر: قد مشى هذا الأمر، ويقال: فلان لا يتمشى له أمر. ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفلة، والمشفر مكان الشفة، ونحو ذلك؛ أو على طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع المشين.

[لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦ - ٤٧﴾]

﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى القائلين: آمنا وأطعنا. أو إلى الفريق المتولي منهم، فمعناه على الأول: إعلام من الله بأن جميعهم مُتَنَفِّ عنهم الإيذان، لا الفريق

من قبيل الاستعارة، حيث قال: «كما قالوا في الأمر المستمر، قد مشى هذا الأمر»، لكن قوله: «استعارة الشفة مكان الجحفلة»، يُنبئ أنه ليس من قبيل الاستعارة؛ لأنه عند صاحب «المفتاح» مجازٌ مُرْسَلٌ خالٍ عن الفائدة. قال: كما استعمل الجورسن في أنف إنسان، وأنه موضوعٌ لمعنى الأنف مع قيد أن يكون مرسوناً، وإتما كان خالياً عن الفائدة؛ لأن الجورسن والأنف كالمترادفين^(١). والحق أن ما في الآية من المجاز المرسل لا الاستعارة.

قوله: (الجحفلة)، الجوهري: للحافر كالشفة للإنسان.

قوله: (فمعناه على الأول: إعلام)، إذا قدر ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى القائلين ﴿آمَنَّا﴾ يكون ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة؛ إيداناً بارتفاع درجة كفر الفريق المتولي منهم، وانحطاط درجة أولئك، وعلى أن يكون إشارة إلى الفريق المتولي منهم يكون ﴿ثُمَّ﴾ للاستبعاد، ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: كيف يدخلون في زمرة المؤمنين الذين يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يعرضون، ويتجاوزون عن الفريق المؤمنين، ويرغبون عن تلك المقالة؟ وهذا بعيدٌ عن العاقل المميز.

يؤيد هذا التأويل سؤال الإمام: فإن قيل: كيف حكي عن كلهم أنهم يقولون: آمنا، ثم حكي عن فريق منهم التولي، وكيف يصح أن يقول في جميعهم: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾؟

(١) «مفتاح العلوم» ص ١٦١.

المتوَلَّى وحده. وعلى الثاني: إعلامٌ بأنَّ الفريقَ المتوَلَّى لم يكن ما سبق لهم من الإيمانِ إيماناً، إنما كان ادِّعاءً باللسانِ من غيرِ مواطاةِ القلبِ؛ لأنه لو كان صادراً عن صحَّةٍ مُعتقِدٍ وطُمأنينةِ نفسٍ: لَمْ يَتَعَقَّبْهُ التوَلَّى والإعراض. والتعريفُ في قوله: ﴿يَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالةٌ على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عَرَفَتْ؛ وهُمُ الثابِتُونَ المُستقيمون على الإيمان، الموصوفون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥].

[وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُنْ لَّهُمُ الْغَنُّ يَأْتُوا
إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٨ - ٤٩﴾]

معنى ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: إلى رسولِ الله، كقولك: أعجبتني زيدٌ وكرَّمه، تريد: كَرَّم زيد. ومنه قوله:

عَلَسْتُهُ قَبْلَ الْقَطَا وَفَرَطُهُ

وجوابه المشارُّ إليه بقوله: «أولئك الذين تولَّوا»، لا الجملةُ الأولى، ولو رَجَعَ إلى الأولى يصحُّ أيضاً^(١).

وأما معنى تكريرِ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ﴾ فإنه من بابِ الترجيع والشروع في مَشْرَعٍ آخَرَ من ذِكْرِ المنافقين وأحوالهم.

قوله: (معنى ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: إلى رسولِ الله)، أي: ذكُرُ «الله» هنا تمهيدٌ لذكرِ رسولِ الله ﷺ، وإشعارٌ بإظهارِ مكانته ﷺ، يؤيدُه إفراؤُ الضميرِ في قوله: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ وقوله: ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

قوله: (عَلَسْتُهُ قَبْلَ الْقَطَا وَفَرَطُهُ)، أوَّلُهُ في «المطلع»:

وَمَنْهَلٍ مِنَ الْفَلَا فِي أَوْسَطِهِ^(٢)

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٢١).

(٢) انظر «مجالس نعلب» (١: ٣١٣) وروايته ثَمَّة:

وَمَنْهَلٍ مِنَ الْفَلَا فِي أَوْسَطِهِ من ذا وهذا وذافي مَسْقَطِهِ

أراد: قَبْلَ فَرَطِ الْقَطَا. رُوي: أنها نزلت في بَشْرِ الْمُنَافِقِ وَخَصَمِهِ الْيَهُودِيَّ حِينَ اخْتَصَمَا فِي أَرْضٍ، فَجَعَلَ الْيَهُودِيُّ يُجْرُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَالْمُنَافِقُ يُجْرُهُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، وَيَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَحِيفُ عَلَيْنَا.

رُوي: أَنَّ الْمُغِيرَةَ بْنَ وَائِلٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حُصُومَةٌ فِي مَاءٍ وَأَرْضٍ، فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: أَمَّا مُحَمَّدٌ فَلَسْتُ آتِيَهُ وَلَا أَحَاكُمُ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يُبْغِضُنِي وَأَنَا أَخَافُ أَنْ يَحِيفَ عَلَيَّ. ﴿إِلَيْهِ﴾: صَلَاةٌ ﴿يَأْتُونَ﴾؛ لِأَنَّ «أَتَى» و«جَاءَ» جَاءَا مَعْدَتَيْنِ بِ«إِلَى»، أَوْ يَتَّصِلُ بِ﴿مُدْعَيْنَ﴾؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى: مُسْرِعِينَ فِي الطَّاعَةِ، وَهَذَا أَحْسَنُ لِتَقْدِيمِ صَلَاتِهِ وَدَلَالَتِهِ عَلَى الْاِخْتِصَاصِ.

والمعنى: أنهم لمعرفتهم أنه ليس معك إلا الحقُّ السُّمُّ والعدلُ البَحْتُ؛ يَزَوَّرُونَ عَنِ الْمُحَاكَمَةِ إِلَيْكَ إِذَا رَكِبَهُمُ الْحَقُّ؛ لِثَلَا تَنْتَزِعَهُ مِنْ أَحْدَاقِهِمْ بِقَضَائِكَ عَلَيْهِمْ لِحُصُومِهِمْ، وَإِنْ ثَبَّتَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَى خَصْمٍ أَسْرَعُوا إِلَيْكَ وَلَمْ يَرْضَوْا إِلَّا بِحُكُومَتِكَ؛ لِتَأْخُذَ لَهُمْ مَا ذَابَ لَهُمْ فِي ذِمَّةِ الْخَصْمِ.

الغَلَسُ: ظُلْمَةُ اللَّيْلِ، وَالتَّغْلِيْسُ: السَّيْرُ بَغَلَسٍ، وَالْفَرَطُ: جَمْعُ الْفَارِطِ كَالرُّكْعِ وَالرَّاعِ وَهُوَ السَّابِقُ إِلَى الْمَاءِ قَبْلَ الْوَارِدَةِ لِيَهَيَّءَ لَهُمُ الدَّلَاءُ.

قوله: (الْحَقُّ السُّمُّ)، أي: الْحُكْمُ الَّذِي يَلْحَقُهُمْ بِسَمَاعِهِ مَرَارَةً فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْكِرَاهَةِ. النَّهْيَةُ: قَالَ شُرَيْحٌ لِحَمَاةٍ أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا عَلَى شَيْءٍ: «لَتَرْكَبَنَّ مِنْهُ مَرَارَةً الدَّفْنَ» أي: مَا يَمُرُّ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَالسَّتِيكُمُ الَّتِي بَيْنَ أَذْقَانِكُمْ.

قوله: (الْبَحْتُ)، أي: الْخَالِصُ، «يَزَوَّرُونَ» أي: يَعْدِلُونَ عَنْهُ وَيَمِيلُونَ.

قوله: (وَإِنْ ثَبَّتَ لَهُمْ حَقٌّ عَلَى خَصْمٍ أَسْرَعُوا إِلَيْكَ وَلَمْ يَرْضَوْا إِلَّا بِحُكُومَتِكَ)، دَلَّ عَلَى الْخَضِرِ تَقْدِيمِ صَلَاةِ ﴿مُدْعَيْنَ﴾ عَلَيْهِ.

قوله: (مَا ذَابَ لَهُمْ)، أي: مَا وَجِبَ. الْأَسَاسُ: وَمَنْ الْمَجَازُ: ذَابَ لِي عَلَيْهِ حَقٌّ: ثَبَّتَ

[﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ٥٠]

ثُمَّ قَسَمَ الْأَمْرَ فِي صُدُودِهِمْ عَنْ حُكُومَتِهِ إِذَا كَانَ الْحَقُّ عَلَيْهِمْ بَيْنَ أَنْ يَكُونُوا مَرْضَى الْقُلُوبِ مُنَافِقِينَ، أَوْ مُرْتَابِينَ فِي أَمْرِ نُبُوَّتِهِ، أَوْ خَائِفِينَ الْحَيْفَ فِي قَضَائِهِ. ثُمَّ أَبْطَلَ خَوْفَهُمْ حَيْفَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أَي: لَا يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ

وَوَجِبَ، وَيُقَالُ لِمَنْ أَنْصَحَ (١) حَاجَةَ إِنْسَانٍ وَأَتَمَّهَا: أَذَابَ حَاجَتَهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ الْمَنْصُورِ لِابْنِ عِمْرَانَ: بَلَّغْنِي أَنْكَ لَبِخِيلٌ، فَقَالَ: مَا أَجْدُ فِي حَقِّ، وَلَا أَذُوبُ فِي بَاطِلٍ.

قَوْلُهُ: (ثُمَّ أَبْطَلَ خَوْفَهُمْ حَيْفَهُ)، يَرِيدُ أَنَّهُ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ صُدُودَهُمْ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذَا كَانَ الْحَقُّ عَلَيْهِمْ كَانَ بَاطِلًا فَجَاءَ بِالتَّقْسِيمِ، أَي: لَا يَخْلُو أَنْ نَشَأَ ذَلِكَ الصَّدُودُ عَنِ نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُصَدِّقُونَهُ فِي شَيْءٍ، أَوْ عَنِ عَدَمِ ثَبَاتِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَرُسُوخِهِمْ فِيهِ فَيَرْتَابُونَ فِيهِ وَفِي أَحْكَامِهِ، أَوْ عَرَفُوا أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ وَهُمْ يُرِيدُونَ الْبَاطِلَ، فَجِيءَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إِضْرَابًا عَمَّا أَثَبَّتَهُ «بَل»، فِي ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ﴾.

قَالَ الْقَاضِي: بَلْ إِضْرَابٌ عَنِ الْقِسْمَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ لِتَحْقِيقِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ. وَوَجْهُ التَّقْسِيمِ: أَنَّ امْتِنَاعَهُمْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِحَلِّلِ فِيهِمْ، أَوْ فِي الْحَاكِمِ، وَالثَّانِي إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُحَقَّقًا عِنْدَهُمْ أَوْ مَتَوَقَّعًا، وَكِلَاهُمَا بَاطِلَانِ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا الثَّانِي فَلِأَنَّ مَنْصِبَ نُبُوَّتِهِ، وَقَرِظَ أَمَانَتَهُ يَمْنَعُهُ، فَتَعَيَّنَ الْأَوَّلُ، وَظَلَمَهُمْ يَعُمُّ حَلْلَ عَقِيدَتِهِمْ، وَمِثْلَ نَفُوسِهِمْ إِلَى الْحَيْفِ (٢). وَفَسَّرَ الْقَاضِي قَوْلَهُ: ﴿أَمْ ارْتَابُوا﴾ بِقَوْلِهِ: بِأَنْ رَأَوْا مِنْكَ تُهْمَةً، فَزَالَ يَقِينُهُمْ بِكَ (٣). وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «أَوْ مُرْتَابِينَ فِي أَمْرِ نُبُوَّتِهِ».

(١) فِي (ط): «لَنْ أَنْجِحَ».

(٢) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» (٤: ١٩٦).

(٣) «الْمَصْدَرُ السَّابِقُ» (٤: ١٩٦).

عليهم؛ لمعرفة بحاله، وإنما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم ويتم لهم جحوده، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله ﷺ، فمن ثم يأبون المحاكمة إليه.

[﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٥١]

وعن الحسن: (قول المؤمنين) بالرفع، والنصب أقوى؛ لأن أولى الاسمين بكونه اسماً لـ «كان» أو غلها في التعريف، و﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ أو غل؛ لأنه لا سبيل عليه للتكثير، بخلاف (قول المؤمنين)، وكان هذا من قبيل «كان» في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مریم: ٣٥]، ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ [النور: ١٦].

وقلت: الحق أن «بل» إضراب عن نفس التقسيم، يعني: دَعِ التقسيم، فإنهم هم الكاملون في الظلم الجامعون لتلك الأوصاف على الكمال، فلذلك صدوا عن حكومتك، يدل عليه إثبات اسم الإشارة، والخطاب، وتعريف الخبر بلام الجنس، وتوسيط ضمير الفضل، والله تعالى أعلم.

قوله: (والنصب أقوى)، قال ابن جني: والرفع قراءة علي رضي الله عنه والحسن، والنصب قراءة الجماعة. وهو أقوى؛ لأن من شرط اسم كان أن يكون أعرف من خبرها، وقوله: ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا﴾ أعرف من: ﴿قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن «أن» وصلتها تشبه المضمَر من حيث إنه لا يجوز وصفها، كما لا يجوز وصف المضمَر، والمضمَر أعرف، ومثله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [الأعراف: ٨٢] (١). وقال صاحب «المطلع»: أن يقولوا أو غل؛ لأنه لا سبيل عليه للتكثير، بخلاف قول المؤمنين؛ لأنه يتحمل أن يختزل عنه الإضافة فبقي منكراً.

قوله: (وكان هذا من قبيل «كان») أي: لفظة «كان» هنا من قبيل «كان» في قوله:

وَقُرئَ: (لِيُحَكِّمَ) على البناء للمفعول. فإن قلت: إلامَ أُسندَ (يُحَكِّمَ) ولا بُدَّ له من فاعل؟ قلت: هو مُسندٌ إلى مصدره؛ لأنَّ معناه: لِيُفَعَلَ الحُكْمَ بينهم، ومثله: جُمِعَ بينهما، وألَّفَ بينهما. ومثله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] فيمن قرأ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ منصوباً، أي: وقع التقطُّعُ بينكم. وهذه القراءةُ مُجاوِبَةٌ لقوله: ﴿دُعُوا﴾.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥]، أي: بمعنى: ما يصحُّ وما ينبغي وما يستقيم، قال صاحبُ «المطلع»: إنَّها صحَّ واستقامَ أن يقولَ المؤمنونَ: سَمِعْنَا وأطعنا، ولهذا قال الفراءُ في معناه: إنَّما كان ينبغي أن يكونَ قولَ المؤمنينَ إذا دُعوا إلى الله ورُسولِهِ أن يقولوا: سَمِعْنَا وأطعنا^(١). والتحقيقُ في هذا التركيبِ ما ذَكَرَهُ صاحبُ «الانتصاف». قال: فائدةُ دخولِ «كان» المبالغةُ في نفيِ الفعلِ الداخِلِ هُوَ عليه بتعديدِ جهةِ نفيهِ عموماً باعتبارِ الكونِ وخصوصاً باعتبارِ خصوصيةِ الفعلِ بعدَ ما كان، فهو نفيٌّ مرَّتَيْنِ^(٢).

وقال القاضي: من عادته تعالى إنباعُ ذكْرِ المُبطلِ ذكْرَ المُحقِّقِ، والفَضْلُ لنفيِ ما أثبتَ فيهم عن غيرِهِم والتنبية على ما ينبغي بعدَ إنكارِهِ لِمَا لا ينبغي^(٣).

قوله: (وهذه القراءةُ مُجاوِبَةٌ لقوله: ﴿دُعُوا﴾)، يعني: أن المدعوا إليه في الآية: الله تعالى ورُسولُهُ صَلَوَاتُ الله عليه، و﴿لِيُحَكِّمَ﴾ على القراءة المشهورة: مُسندٌ إلى ضميرِ الرُسولِ ﷺ وحده، فاحتيج - للتجاوُبِ بَيْنَ الكلامينِ - إلى أن يُقال: إنَّ ذكْرَ الله تمهيدٌ، كقولك: أعجبني زيدٌ وكرمه.

وأما إذا قُرئَ: «لِيُحَكِّمَ»، مجهولاً^(٤)، وأُسندَ إلى المصدرِ، يعمُّ الحاكمَ فيقعُ التجاوبُ بينهما ولم يفتقرْ إلى ذلك التأويل.

(١) «معاني القرآن» للفراء (٢: ٢٥٨).

(٢) لم أجدَه في مِظتته من «الانتصاف»، فلعلَّه قاله في موطنٍ آخرَ منه.

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ١٩٦).

(٤) وقد قرأ بها أبو جعفر يزيد بن القعقاع كما في «مختصر شواذ القرآن» ص ١٠٢. وقرأ أيضاً: «لِيُحَكِّمَ» بضم الياء وكسر الكاف من الإحكام.

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ ﴾ [٥٢]

قُرئ: (وَيَتَّقِهِ) بكسر القاف والهاء مع الوصل وبغير وصل، وبسكون الهاء، وبسكون القاف وكسر الهاء. شبه تقه بكتف فخفف، كقوله:

قَالَتْ سُلَيْمَى: اشْتَرْنَا سَوِيْقًا

ولقد جمع الله سبحانه في هذه الآية أسباب الفوز.

قوله: (قُرئ: «وَيَتَّقِهِ» بكسر القاف والهاء مع الوصل)، قرأها نافع وابن كثير وابن ذكوان والكسائي وخلف، وبغير وصل: قالون عن نافع وعن هشام رواية، وبسكون الهاء: أبو عمرو وأبو بكر وحلاد، وسكون القاف وكسر الهاء: حفص^(١). قال صاحب «المطلع»: قراءة العامة: «ويتقهي» بياء ملفوظة بعد الهاء، وهو الأصل فيما إذا تحرك الحرف قبل الهاء كما في يؤده ويؤته. ورؤي عن نافع بكسر الهاء ولا يبلغ بها الياء، لأن حركة ما قبل الهاء ليست تلزم، ألا ترى أنه اختير حذف الياء في ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ في الرفع مثل عليه؟ وقرأ أبو عمرو: «وَيَتَّقِهِ» ساكنة الهاء، وذلك أن ما يلحق هذه الهاء من الواو ومن الياء زائد، فرد إلى الأصل وحذف الزيادة. وقرأ حفص ساكنة القاف مكسورة الهاء. قال ابن الأنباري: وهو على لغة من يقول: لم أر زيدا، ولم أشتري طعاماً ولم يتق زيدا، يسقطون الياء منه للجزم، ثم يسكنون ما قبلها، قال:

وَمَنْ يَتَّقِ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَهُ وَرَزَقَ اللَّهُ مُؤْتَابًا وَغَادًا

قوله: (قالت سُلَيْمَى: اشترنا سويقاً)، تمامه:

وَهَاتِ خُبْرَ الْبُرِّ أَوْ دَقِيقًا^(٢)

شبه المنفصل بالمتصل فصار نزل فلذا خفف.

قوله: (ولقد جمع الله في هذه الآية أسباب الفوز)، يعني: الفاء في ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ﴾

(١) انظر توجيه هذه الاختيارات في «إعراب القراءات السبع وعللها» لابن خالويه (٢: ١١١).

(٢) ذكره في «اللسان» (بخس) باختلاف في الرواية، وعزاه للعداير الكندي.

وعن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرها: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾ في فرائضه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ في سننه ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه ﴿وَيَتَّقَهُ﴾ فيما يستقبل. وعن بعض الملوك: أنه سأل عن آية كافية، فتليت له هذه الآية.

[﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ٥٣]

جهد يمينه: مستعارٌ من جهد نفسه: إذا بلغ أقصى وسعها؛ وذلك إذا بالغ في اليمين وبلغ غاية شدتها ووكادتها.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: من قال: بالله؛ فقد جهد يمينه. وأصل: «أقسم جهد اليمين»: أقسم بجهد اليمين جهداً، فحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه

الْفَائِزُونَ ﴿جَزَائِيَّةٌ، مُؤَدَّةٌ بَأَنَّ مَا بَعْدَهَا مَسْبِيَّةٌ عَمَّا قَبْلَهَا، مِمَّا تَضَمَّنَهُ الشَّرْطُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَالْحَشِيَّةِ وَالتَّقْوَى، وَهِيَ جَامِعَةٌ لِعُمُومِ أَحْوَالِ الْمُكَلَّفِ؛ فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ فِي الْآنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ، وَحَشِيَّةُ اللَّهِ عَلَى مَا مَضَى، إِنْ قَرِطَ مِنْهُ تَقْصِيرٌ فَيَتَدَارَكُهُ، وَتَقْوَى اللَّهِ فِيمَا يَسْتَقْبَلُ مِنْ تَرْكِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَذَرَهُ، وَالْإِثْبَانِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ إِثْبَانُهُ، كَمَا أُشَارَ إِلَيْهِ حَبْرُ الْأُمَّةِ، فَعَمَّ الْأَوْقَاتَ بِأَسْرَاهَا وَالْأَفْعَالَ بِأَجْمَعِهَا، مِنْ فَعَلٍ مَا يَنْبَغِي، وَتَرْكِ مَا لَا يَنْبَغِي؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، أَي: الْكَامِلُونَ فِي الْفَوْزِ بِمَبَاغِيهِمْ وَمَطَالِبِهِمْ. ثُمَّ الْآيَةُ كَمَا هِيَ تَدْبِيرٌ لِمَا سَبَقَ، وَتَعْرِيفٌ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَبِالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، بَأَنَّ الْأَوَّلِينَ هُمُ الْفَائِزُونَ بِمَبَاغِيهِمْ، وَالْآخِرِينَ هُمُ الدَّامِرُونَ الْخَاسِرُونَ، فَالآيَةُ مِنَ الْجَوَامِعِ.

قوله: (أقسم بجهد اليمين جهداً)، هو كقولك: فلان جهد نفسه، أي: يستفرغ طاقته، وكان لليمين وسعاً وطاقاً وهو يجهد في استفرغه منها، وإليه الإشارة بقوله: «جهد يمينه» مستعارٌ من جهد نفسه، النهاية: جهد الرجل في الشيء: إذا جد فيه وبالغ، ومنه الجهاد، وهو استفرغ ما في الوسع والطاق من قول أو فعل. والاجتهاد: بذل الوسع في طلب أمر.

مُضَافاً إِلَى الْمَفْعُولِ، كَقَوْلِهِ: ﴿فَضَرَبَ الرَّقَابَ﴾ [محمد: ٤] وَحُكْمُ هَذَا الْمَنْصُوبِ حَكْمُ الْحَالِ، كَأَنَّهُ قَالَ: جَاهِدِينَ أَيَّانَهُمْ. وَ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، أَوْ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ الْخَبْرُ، أَي: أَمْرُكُمْ وَالَّذِي يُطَلَّبُ مِنْكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ مَعْلُومَةٌ لَا يُشَكُّ فِيهَا

الرَّاعِبُ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أَي: حَلَفُوا وَاجْتَهَدُوا فِي الْحَلْفِ أَنْ يَأْتُوا بِهِ عَلَى أَبْلَغِ مَا فِي وَسْعِهِمْ، وَالِاجْتِهَادُ: أَخَذَ النَّفْسَ بِبَذْلِ الطَّاقَةِ وَتَحْمِيلِ الْمَشَقَّةِ، وَيُقَالُ: جَهَدْتُ رَأْيِي وَأَجْهَدْتُهُ: اتَّعَبْتَهُ بِالْفِكْرِ، وَالْجِهَادُ وَالْمُجَاهِدَةُ: اسْتِفْرَاغُ الْوُسْعِ فِي مُدَافَعَةِ الْعَدُوِّ^(١).

وَأَقْسَمَ: أَي: حَلَفَ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْقَسَامَةِ، وَهُوَ أَيَّانٌ تُقَسَّمُ عَلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ، ثُمَّ صَارَ اسْمًا لِكُلِّ حَلْفٍ. وَقَسِيمُ الْوَجْهِ، أَي: صَبِيحُهُ، وَالْقَسَامَةُ: الْحُسْنُ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْقِسْمَةِ، كَأَنَّمَا أُوتِيَ كُلُّ مَوْضِعٍ نَصِيبَهُ مِنَ الْحُسْنِ وَلَمْ يَتَفَاوَتْ، وَقِيلَ: إِنَّمَا قِيلَ: مُقَسَّمٌ؛ لِأَنَّهُ يُقَسَّمُ بِحُسْنِهِ الطَّرْفِ، وَلَا يَثْبُتُ فِي مَوْضِعٍ دُونَ مَوْضِعٍ^(٢).

قَوْلُهُ: (أَي: أَمْرُكُمْ وَالَّذِي يُطَلَّبُ مِنْكُمْ)، إِلَى آخِرِهِ، هَذِهِ الْوَجُوهُ يَجْمَعُهَا مَعْنَيَانِ بِحَسَبِ تَفْسِيرِ «الْمَعْرُوفَةِ»، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَنَافِقِينَ كَانُوا يُبَالِغُونَ فِي الْإِقْسَامِ بِأَنَّكَ إِنْ أَمَرْنَا أَنْ نَخْرُجَ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا خَرَجْنَا، فَقِيلَ لَهُمْ: طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ، أَي: مَعْرُوفَةٌ بِالْفِعْلِ لَا يُشَكُّ فِيهَا أَنَّهَا طَاعَةٌ أَوْ مَعْرُوفَةٌ بِأَنَّهَا بِالْقَوْلِ دُونَ الْفِعْلِ، فَإِذَا فَسَّرْتَ بِالْفِعْلِ احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ خَبْرَ مُبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ كَمَا قَالَ أَوَّلًا: أَمْرُكُمْ وَالَّذِي يُطَلَّبُ مِنْكُمْ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ مَعْلُومَةٌ لَا يُشَكُّ فِيهَا، كَطَاعَةِ الْخُلَّصِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ إِذَا اسْتَنْفَرُوا إِلَى الْجِهَادِ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ مِنْ غَيْرِ رَيْبٍ وَلَا إِقْسَامٍ، أَوْ مُبْتَدَأٌ خَبْرُهُ مَحذُوفٌ، بَأَنَّ يُقَالُ: طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ، أَي: بِالْفِعْلِ أَمْثَلُ وَأَوْلَى بِكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّانِ الْكَاذِبَةِ، فَقَوْلُهُ: «بِكُمْ» مُتَعَلِّقٌ بِالْأَمْثَلِ وَالْأَوْلَى عَلَى التَّنَازُعِ، وَإِذَا فَسَّرْتَ بِالْقَوْلِ وَبِإِعْرَافِ مِنْهُمْ وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ أَنَّهَا طَاعَةٌ بِالْقَوْلِ دُونَ الْفِعْلِ، كَانَ خَبْرَ مُبْتَدَأٍ مَحذُوفٍ، فَيُقَالُ طَاعَتُكُمْ مَعْرُوفَةٌ بِأَنَّهَا بِالْقَوْلِ دُونَ الْفِعْلِ. وَاخْتِيَارُ الزَّجَاجِ الْوَجْهَ الثَّانِيَّ مِنَ التَّقْرِيرِ الْأَوَّلِ، حَيْثُ قَالَ: طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ أَمْثَلُ، أَي: أَمْثَلُ مِنْ قَسَمِكُمْ

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٠٨.

(٢) «المصدر السابق» ص ٦٧.

ولا يُرتاب، كطاعة الخُلص من المؤمنين الذين طابَق باطنُ أمرهم ظاهره، لا أيمانٌ تُقسِمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها. أو: طاعتكم طاعةً معروفةً بأنها بالقول دون الفعل. أو: طاعةً معروفةً أمثلُ وأولى بكم من هذه الأيمان الكاذبة.

وقرأ اليزيدي: (طاعةً معروفةً) بالنصبِ على معنى: أطيعوا طاعةً. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ﴾ يعلم ما في ضمائركم ولا يخفى عليه شيءٌ من سرائركم، وإنه فاضِحكم لا محالةً ومجازيكم على نفاقكم.

[﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٥٤﴾]

صَرَفَ الكلامَ عن الغيبيةِ إلى الخطابِ على طريقةِ الالتفات، وهو أبلغُ في تَبَكيتهم.

بما لا تصدقون فيه، وفي الكلام دليلٌ عليه؛ لأنه قال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن أُمِرُوا لَيُخْرِجَنَّ﴾ واللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ورائِ ما في قلوبهم، فقال: ﴿قُلْ لَا نَقْسِمُوكُمْ بِطَاعَةِ مَعْرُوفَةٍ إِنَّا اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، وقال: ويجوزُ: «طاعةً معروفةً» على معنى: أطيعوا طاعةً معروفةً، لأنهم أقسموا إذا أمروا أن يطيعوا، فقليل: أطيعوا طاعةً معروفةً، ولا أعلمُ أحداً قرأها، فإن لم تُرَو فلا تُقرأ^(١).

قوله: (صَرَفَ الكلامَ عن الغيبيةِ إلى الخطاب)، قال صاحبُ «التقريب»: عدَل عن الغيبيةِ في ﴿أَقْسَمُوا﴾ إلى الخطابِ في ﴿تَوَلَّوْا﴾، يريدُ أن قوله: فإن تَوَلَّوْا ليس من تنمّةِ كلام الرسول ﷺ المأمور به أن يُبلِّغ إليهم من قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، بل هو تعقيبٌ لأمر الله رسوله وملتصلاً بما قبله. المعنى: وأقسموا بالله جهْدَ أيمانهم قُلْ كذا وكذا، فإن تَوَلَّوْا أيها المخاطبون فإنَّ عليه ما حُمِّلَ وعليكم ما حُمِّلْتُمْ. والظاهرُ أنه تعالى أمرَ رسوله ﷺ بأن يقول هُـم: وأطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ ولا تخافوا مَصْرَّتْهم، فكان أصلُ الكلام: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فإن تَوَلَّوْا فإنَّها عليكم ما حُمِّلْتُمْ، وعليهم ما حُمِّلُوا، بمعنى:

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٥١).

يريد: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَمَا ضَرَرْتُمْوهُ، وإنما ضَرَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ؛ فَإِنَّ الرِّسُولَ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا مَا حَمَلَهُ اللَّهُ وَكَلَّفَهُ مِنْ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ، فإذا أَدَّى فَقَدْ خَرَجَ عَنْ عَهْدَةِ تَكْلِيفِهِ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَعَلَيْكُمْ مَا كَلَّفْتُمْ مِنَ التَّلْقِيِّ بِالْقَبُولِ وَالْإِذْعَانِ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَوَلَّيْتُمْ فَقَدْ عَرَّضْتُمْ نُفُوسَكُمْ لِسُخْطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُ فَقَدْ أَحْرَزْتُمْ نَصِيحَتَكُمْ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى، فَالْنَفْعُ وَالضَّرْرُ عَائِدَانِ إِلَيْكُمْ، وَمَا الرِّسُولُ إِلَّا نَاصِحٌ وَهَادٍ، وَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُبَلِّغَ مَا لَهُ نَفْعٌ فِي قَبُولِكُمْ، وَلَا عَلَيْهِ ضَرَرٌ فِي تَوَلِّيَكُم. وَالْبَلَاغُ: بِمَعْنَى التَّبْلِيغِ، كَالْأَدَاءِ: بِمَعْنَى التَّأْدِيَةِ. وَمَعْنَى ﴿الْمَيْثُ﴾: كَوْنُهُ مَقْرُونًا بِالْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ.

[﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ

فَمَا يَضُرُّوكَ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ، عَلَى الْمَاضِي وَالْغَيْبَةِ فِي ﴿تَوَلَّوْا﴾ فَصَرَفَ الْكَلَامَ إِلَى الْمَضَارِعِ، وَالْخَطَابُ فِي تَوَلَّوْا بِحَذْفِ إِحْدَى التَّائِينَ، بِمَعْنَى فَمَا ضَرَرْتُمْوهُ، وَإِنَّمَا ضَرَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ لِتَكُونِ الْمَوَاجِهَةَ بِالْخَطَابِ أَبْلَغَ فِي تَبَكُّيْتِهِمْ، وَلَسْنَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّفَاتَا مُحْضًا؛ لِأَنَّ الْاِلْتِفَاتَ هُوَ: الْاِنْتِقَالَ مِنْ إِحْدَى الصِّيغِ الثَّلَاثِ إِلَى الْأُخْرَى، بَلْ هُوَ عَدُولٌ مِنْ صِيغَةٍ إِلَى صِيغَةٍ، قَالَ أَوْلَى: «صَرَفَ الْكَلَامَ»، وَثَانِيًا: «عَلَى طَرِيقَةِ الْاِلْتِفَاتِ»، وَنَحْوُ هَذَا الْمَعْنَى مَرَّ فِي الْبَقْرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وَفِي كَلَامِ الْوَاحِدِيِّ مَا يُؤَيِّدُ هَذَا التَّفْسِيرَ^(١)، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قوله: (من الخروج عن الضلالة): بيان لـ «نصيبتكم»، ولولا البيان لكان «نصيبتكم» استعارة على الخروج من الضلالة إلى الهدى، وقوله: «أحرزتم» حيثئذ كالترشيح لهذا التشبيه، شبه هذا المعنى بالنصيب الوافي من أنصبا القِدَاحِ، وَهُوَ الْمُعَلَّى، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَحْرَزْتُمْ الْقِدْحَ الْمُعَلَّى.

(١) انظر: «الوسيط في التفسير» للواحدى (٢: ٣٢٦).

خُلُفَاءَ، كَمَا فَعَلَ بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ حِينَ أَوْرَثَهُمْ مِصْرَ وَالشَّامَ بَعْدَ إِهْلَاكِ الْجَبَابِرَةِ، وَأَنْ

بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الظَّاهِرِ مَنَاسِبٌ لِأَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِلْمَغْفِرَةِ وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ، وَتَوْسِيطُهُ دَلٌّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ الْأَصْلُ فِي الْإِعْتِبَارِ، وَأَنَّ الْأَعْمَالَ كَالتَّابِعَةِ لَهُ، فَتَأْتِي الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِي الْإِسْتِخْلَافِ دُونَ تَأْثِيرِهِ فِي إِثْبَاتِ الْمَغْفِرَةِ وَالْأَجْرِ الْعَظِيمِ، وَنَحْوَهُ فِي الْإِعْتِبَارِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] أَخْرَجَ إِسْمَاعِيلَ عَنِ الْمَفْعُولِ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ الْأَصْلَ فِي الْعَمَلِ، وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَالتَّابِعِ لَهُ، وَلَوْ قَدَّمَهُ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ. وَمِنْ ثَمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ، قَالَ الْإِمَامُ: جَهْرُ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْفَاسِقَ حَالَ فِسْقِهِ لَا يَجُوزُ عَقْدُ الْإِمَامَةِ لَهُ، وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الْفِسْقَ الطَّارِئَ هَلْ يُبْطِلُ الْإِمَامَةَ أَوْ لَا^(١)؟

قُلْتُ: وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ: لَا، رَوَيْنَا عَنْ مُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ، عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ قَالَ: سَأَلَ سَلْمَةَ بْنَ يَزِيدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَنَا حَقَّهُمْ، وَيَمْنَعُونَنَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ^(٢)، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي الثَّلَاثَةِ، فَجَذَبَهُ الْأَشْعَثُ فَقَالَ: اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ^(٣).

وَعَنْ مُسْلِمٍ وَالدَّارِمِيِّ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا وَمَنْ وُتِّي عَلَيْهِ وَال، فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئاً مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَيَكْرَهُهُ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلَا يَنْزِعَ عَنْ يَدَا مَنْ الطَّاعَةَ»^(٤)، فَعَلِيَ هَذَا لَا يَجُوزُ الطَّعْنُ فِي الْخُلَفَاءِ بَعْدَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ.

قَوْلُهُ: (حِينَ أَوْرَثَهُمْ مِصْرَ)، إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا

(١) «مفاتيح الغيب» (٤: ٣٨).

(٢) قَوْلُهُ: «ثُمَّ سَأَلَهُ فَأَعْرَضَ عَنْهُ» سَقَطَ مِنْ (ح) وَ(ف).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٨٤٦) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢١٩٩).

(٤) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٨٥٥) وَالدَّارِمِيُّ (٢٨٣٩).

يَمَكِّنُ الدِّينَ الْمُرتَضَى؛ وَهُوَ دِينُ الإِسْلَامِ، وَتَمَكِينُهُ: تَثْبِيتهُ وَتَوطِيدُهُ؛ وَأَنْ يُؤْمِنَ سِرْبَهُمْ
وَيَزِيلَ عَنْهُمْ الخَوْفَ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ؛ وَذَلِكَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ مَكَثُوا بِمَكَّةَ
عَشْرَ سِنِينَ خَائِفِينَ، وَلَمَّا هَاجَرُوا كَانُوا بِالمَدِينَةِ يُصْبِحُونَ فِي السِّلَاحِ وَيُمْسُونَ فِيهِ،
حَتَّى قَالَ رَجُلٌ: مَا يَأْتِي عَلَيْنَا يَوْمٌ نَأْمَنُ فِيهِ وَنَضَعُ السِّلَاحَ؟! فَقَالَ ﷺ: «لَا تَغْبُرُونَ
إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَجْلِسَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فِي المَلَأِ العَظِيمِ مُحْتَبِيًا لَيْسَ فِيهِ حَدِيدَةٌ»، فَأَنْجَزَ اللهُ
وَعْدَهُ وَأَظْهَرَهُمْ عَلَى جَزِيرَةِ العَرَبِ، وَافْتَتَحُوا بَعْدُ بِلَادَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، وَمَزَقُوا

يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا ﴿ [الأعراف: ١٣٧] يريدُ جهاتِ أرضِ مِصرَ
الشرقية والغربية.

قوله: (وتوطيده)، الجوهرية: وَطَدْتُ الشَّيْءَ أَطَدُهُ وَطَدًّا، أَي: أَثْبَتُهُ وَثَقَلْتَهُ، وَالتَّوْطِيدُ
مِثْلُهُ.

قوله: (وَأَنْ يُؤْمِنَ سِرْبَهُمْ)، النهاية: يُقَالُ: فَلَانٌ أَمِنٌ فِي سِرْبِهِ - بالكسر - أَي: نَفْسِهِ.
وَفَلَانٌ وَاسِعُ السَّرْبِ، أَي: رَخِيئُ البَالِ، وَفِي الحَدِيثِ: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ»^(١)،
وَيُرْوَى بِالفَتْحِ، وَهُوَ المَسْلُوكُ وَالمَطْرِيقُ.

قوله: (لَا تَغْبُرُونَ)، الجوهرية: غَبَرَ الشَّيْءُ يَغْبُرُ، أَي: بَقِيَ، وَالمَغَابِرُ: الباقِي. وَالمَغَابِرُ:
المَاضِي، وَهُوَ مِنَ الأَضْدَادِ.

قوله: (مُحْتَبِيًا لَيْسَ فِيهِ حَدِيدَةٌ)، عِبَارَةٌ عَنِ غَايَةِ الأَمْنِ وَرِخَاءِ البَالِ. الحَبْوُ: هُوَ أَنْ يُضْمَّ
الإِنْسَانُ رِجْلَيْهِ إِلَى بَطْنِهِ بِثَوْبٍ وَيَجْمَعُهَا مَعَ ظَهْرِهِ، وَيُسُدُّهَا عَلَيْهَا، وَالحَدِيثُ المَشْهُورُ عَنِ
عَدِيِّ فِي هَذَا المَعْنَى^(٢) يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ: «بَعْدُ»، أَي: بَعْدَ فَتْحِ جَزِيرَةِ العَرَبِ بِبِلَادِ المَشْرِقِ
وَالمَغْرِبِ.

(١) هُوَ جِزْءٌ مِنَ حَدِيثِ أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي «الأدب المفرد» (٣٠٠) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٣٤٦) وَابْنُ مَاجَةَ
(٤١٤١) مِنَ حَدِيثِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الحَطْمِيِّ عَنِ أَبِيهِ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حَبَّانَ (٦٧١) مِنَ حَدِيثِ
أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) انظُرْ حَدِيثَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» (١٨٢٨٦) وَ«سِنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٩٥٣).

مُلْكِ الْأَكَاسِرَةِ وَمَلَكَوَا خَزَائِنَهُمْ، وَاسْتَوْلُوا عَلَى الدُّنْيَا، ثُمَّ خَرَجَ الَّذِينَ عَلَى خِلَافِ سِيرَتِهِمْ فَكَفَرُوا بِتِلْكَ الْأَنْعُمِ وَفَسَقُوا؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «الْخِلَافَةُ بَعْدِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ يُمَلِّكُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ فَتَصِيرُ مُلْكًا، ثُمَّ تَصِيرُ بَرِّزِي: قَطَعَ سَبِيلَ، وَسَفَكَ دَمًا، وَأَخَذَ أَمْوَالٍ بَغَيْرِ حَقِّهَا». وَقُرِئَ: (كَمَا اسْتَخْلَفَ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، ﴿وَلِيَبَدِّلَهُمْ﴾^(١) بِالتَّشْدِيدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ الْقَسَمُ الْمُنْتَلَقِيُّ بِاللَّامِ وَالنُّونِ فِي ﴿لَيْسَتْخَلِفْنَهُمْ﴾؟ قُلْتَ: هُوَ مَحذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: وَعَدَّهُمُ اللَّهُ، وَأَقْسَمَ لَيْسَتْخَلِفْنَهُمْ، أَوْ: نُزِّلَ وَعَدُّ اللَّهِ فِي تَحْقُوقِهِ بِمَنْزِلَةِ الْقَسَمِ، فَتُلْقَى بِمَا يُتَلَقَّى بِهِ الْقَسَمُ، كَأَنَّهُ: أَقْسَمَ اللَّهُ لَيْسَتْخَلِفْنَهُمْ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَحَلُّ ﴿يَعْبُدُونِي﴾؟ قُلْتَ: إِنْ جَعَلْتَهُ اسْتِثْنَاءً: لَمْ يَكُنْ لَهُ مَحَلٌّ، كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: مَا هُمْ يُسْتَخْلَفُونَ وَيُؤْمِنُونَ! فَقَالَ: يَعْبُدُونِي. وَإِنْ جَعَلْتَهُ حَالًا عَنِ وَعْدِهِمْ، أَيْ: وَعَدَّهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ فِي حَالِ عِبَادَتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ: فَمَحَلُّهُ النَّصْبُ. ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾: يَرِيدُ كُفْرَانَ النِّعْمَةِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿فَكَفَرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]. ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ

قَوْلُهُ: (ثُمَّ تَصِيرُ بَرِّزِي)، النِّهَايَةُ: وَفِي حَدِيثِ أَبِي عُبَيْدَةَ: أَنَّهُ «سَيَكُونُ بُرُوءٌ وَرَحْمَةٌ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ يَكُونُ بَرِّزِي وَأَخَذَ أَمْوَالٍ بَغَيْرِ حَقِّ»، الْبَرِّزِي^(١) بِكَيْسِ الْبَاءِ وَتَشْدِيدِ الزَّايِ الْأُولَى وَالْقَصْرِ: السَّلْبُ وَالتَّغْلِبُ، مِنْ بَرَّهْ ثِيَابَهُ وَابْتَرَّهْ: إِذَا سَلَبَهُ إِيَاهَا، وَ«قَطَعَ سَبِيلَ» نَصَبٌ، إِذَا عَطَفُ بَيَانَ لِقَوْلِهِ: «بَرِّزِي» أَوْ بَدَّلَ مِنْهُ. وَنَحْوُهُ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ سَفِينَةَ^(٢)، وَلَيْسَ فِي رِوَايَتِهِ «بَرِّزِي».

قَوْلُهُ: (هُوَ مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: وَعَدَّهُمُ اللَّهُ وَأَقْسَمَ لَيْسَتْخَلِفْنَهُمْ)، قَالَ الزَّجَّاجُ: إِنَّمَا جَاءَتْ اللَّامُ لِأَنَّ: وَعَدُّهُ بِكَذَا أَوْ كَذَا، وَوَعَدْتُهُ لِأَكْرِمَتِهِ، بِمَنْزِلَةِ: قُلْتُ؛ لِأَنَّ الْوَعْدَ لَا يَنْعَقِدُ إِلَّا بِقَوْلِ^(٣).

(١) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةُ: «الْبَرِّزِي» وَصَوَائِبُهُ بِالْأَلْفِ الْمَقْصُورَةِ كَمَا ذَكَرَهُ الطَّبِييُّ.

(٢) انْظُرْ: «مُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَد» (٥: ٢٢٠) وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَانَ (٦٩٤٣).

(٣) «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ» (٤: ٥١).

الْفَنَاسِقُونَ ﴿١﴾ أي: هُمُ الْكَامِلُونَ فِي فِسْقِهِمْ؛ حَيْثُ كَفَرُوا تِلْكَ النِّعْمَةَ الْعَظِيمَةَ وَجَسَرُوا عَلَى عَمَلِهَا. فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ فِي هَذِهِ آيَةٍ دَلِيلٌ عَلَى أَمْرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ؟ قُلْتَ: أَوْضَحُ دَلِيلٌ وَأَبْيَنُهُ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمُ هُمْ.

قوله: (وَجَسَرُوا عَلَى عَمَلِهَا)، أي: اجترأوا على تحقيرها وازدراءها.

قوله: (لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمُ هُمْ)، والظاهر أن «هم» الأولُ فَضْلٌ، والثاني خبرٌ «إن»، فيفيدُ تخصيصَ المسندِ بالمسندِ إليه، أي: هذه الأوصافُ مُنْحَصَرَةٌ فِيهِمْ، وَمَخْتَصَةٌ بِهِمْ لَا تَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِهِمْ. وَلِعَمْرِي هُمُ الَّذِينَ اقْتَبَسُوا الدِّينَ وَالتَّقْوَى وَالتَّقْوَى مِنْ مِشْكَاتِ النُّبُوَّةِ، وَكُلُّ النَّاسِ عِيَالُهُمْ فِيهِ، وَمِنْهُمْ انْتَشَرَ نُورُ الْإِسْلَامِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، وَهُمْ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يُقَالَ فِيهِمْ:

هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ لِلدِّينِ وَالتَّقَى وَنَاهِيكَ بِالْقَوْمِ الَّذِينَ هُمُ هُمْ

أي: هُمُ الْأَخْيَارُ وَالْأَشْرَافُ كَمَا عَرَفْتَ. كَقَوْلِ الْحَرِيرِيِّ:

قَدْ بَاعَتْ الْأَسْبَاطُ قَبْ لِي يَوْسُفًا وَهُمْ هُمْ^(١)

وقد يجيء للذم، قال:

رَفَوْنِي وَقَالُوا يَا خَوِيلِدُ لِمَ تُرَعُ فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوَجُودَ: هُمُ هُمْ^(٢)

أي: هُمُ الْأَعْدَاءُ. رَفَوْنِي: أَي: سَكَّنُونِي بَعْدَ الْحَوْفِ.

قال الإمام: وجه الاستدلال أن هذا خطابٌ مع جماعة الحاضرين في حاضرة الرسالة صلوات الله على صاحبها بإيصال الخلافة إليهم، وأن يُمكنَ لهم دينهم المرصّي، وأن يُبدئهم بعد الحوف أئماً، ولا يُمكنُ حملُ هذا إلا على هؤلاء الأربعة؛ لأن من ادعى الروافض إمامته ما كانوا متمكّنين من إظهار دينهم وما زال الخوف عنهم؛ بل كانوا أبدأً في التقيّة والخوف،

(١) انظر: «مقامات الحريري» (١: ٢٧٠).

(٢) لأبي خراش الهذلي. انظر: «شرح أشعار الهذليين» (٣: ١٢١٧).

[﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ٥٦]

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ معطوفٌ على ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصلٌ وإن طال؛ لأنَّ حقَّ المعطوف أن يكون غيرَ المعطوف عليه. وكرّرت طاعةَ الرسول؛ تأكيداً لوجوبها.

فَوَجَبَ مَحْمُلُهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَنَا مَتَمَكِّينَ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِمْ غَيْرَ خَائِفِينَ^(١).
وقال: وفيه دليلٌ على صحّةِ التَّبَوُّعِ بِالْإِخْبَارِ عَنِ الْغَيْبِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ^(٢)، وخلافةُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، إذ لم يَجْتَمِعِ الموعودُ والموعودُ عليه، أي: العملُ الصَّالِحُ لغيرِهِم بالإجماع.
قوله: (وليس ببعيد أن يقع بين المعطوف والمعطوف عليه فاصلٌ...؛ لأنَّ حقَّ المعطوف أن يكون غيرَ المعطوف عليه)، أي: الحقُّ المُغَايِرَةُ، لا أن لا يقع بينهما فاصل. وقال صاحبُ «التقريب»: لأنَّ طَوْلَ الفِضْلِ يُحَقِّقُ المُغَايِرَةَ المَطْلُوبَةَ بَيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، يريدُ أن الواجبُ أن يكونَ بَيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه المُغَايِرَةُ، وعندَ القُرْبِ لا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ، فَإِنَّ المُجَاوِرَةَ مَظَنَّةُ الاتِّصَالِ بِخِلَافِ المِضَافِ والمِضَافِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ شِدَّةَ اتِّصَالِهَا مَانِعَةٌ مِنْ دُخُولِ فَضْلِ بَيْنَهُمَا، ولهذا تَكَلَّمُوا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَامِرٍ: ﴿قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] بِنُضْبِ الأَوْلَادِ وَجَرِّ الشُّرَكَاءِ^(٣)، عَلَى أَنَّ لِلْفِضْلِ والتَّأخِيرِ فَوَائِدَ، مِنْهَا: الإِشْعَارُ بِأَنَّ الجُمْلَةَ المُتَخَلَّلَةَ وَهُوَ ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ الآيةُ، مِمَّا هُوَ يُهْتَمُّ بِشَأْنِهِ، وَأَنَّهَا مُتَّصِلَةٌ بِهَا يَتَعَلَّقُ بِالمَعطُوفِ عَلَيْهِ وَهُوَ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ كَمَا سَبَقَ. قَالَ القَاضِي: وَلَا يَبْعُدُ عَطْفُ ذَلِكَ عَلَى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾، فَإِنَّ الفَاصِلَ وَعَدُّ عَلَى المَأْمُورِ بِهِ^(٤).

ومنها: أنَّ في تأخير المعطوف عن قوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ إعلماً بنوع اتصالٍ به، وبيانه ما مرَّ أيضاً، وهو: إنَّ أَطَعْتُمْ وَأَمْتُمْ فَقَدْ أَحْرَزْتُمْ نَصِيحَتَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٢٥).

(٢) «المصدر السابق» (٢٤: ٢٤).

(٣) وقد جرى في هذا الاختيار على مذهب الكوفيين في جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه. لتمام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٢٧٣، وانظر الكلام على قراءة ابن عامر في سورة الأنعام.

(٤) «أنوار التنزيل» (٤: ١٩٨).

[﴿لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَكَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَنَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ ٥٧]

وَقُرِي: (لا يَحْسَبَنَّ) بالياء، وفيه أوجه: أن يكون ﴿مُعْجِزِينَكَ فِي الْأَرْضِ﴾ هما المفعولان. والمعنى: ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أحداً يُعْجِزُ اللّهَ فِي الْأَرْضِ حَتَّى يَظْمَعُوا هُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ. وهذا معنى قوِيٌّ جَيِّدٌ.

ومنها: التوكيد؛ لأنه لو لم يُؤخَّرْ لم يُحْتَجَّ إلى إناطةِ أَطِيعُوا الرُّسُولَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ عَلَى مِثَالِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

ومنها: الإيدانُ بِشَرَفِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَمَحَلِّهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأَتْمَا أَمَّا الْعِبَادَاتِ، وَبُعْدُهَا مَرْتَبَةً عَنِ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ مِنْ بَابِ عَطَفِ جَبْرِيلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ^(١)، وَمِنْ ثَمَّ رَتَّبَ الْأَوَّلَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وَعَلَى الثَّانِي بِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾. قَوْلُهُ: (وَقُرِي: «لَا يَحْسَبَنَّ» بالياء)، ابْنُ عَامِرٍ وَحَمَزَةٌ، وَالْبَاقُونَ: بِالتَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ^(٢).

قَوْلُهُ: (هُمَا الْمَفْعُولَانِ)، أَحَدُهُمَا أَحَدًا، مُعْجِزِينَ. وَثَانِيهَا: الْأَرْضَ لِتَقْدِيرِ الْإِسْتِقْرَارِ، وَإِنَّمَا جَازَ وَصَفُ أَحَدًا بِالْجَمْعِ وَإِيقَاعُهُ مَوْقِعَ الْمَبْتَدَأِ؛ لِكَوْنِهِ نِكْرَةً فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا يَنْكُرُونَ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧] صِفَةً لِأَحَدٍ؛ لِأَنَّهُ عَامٌّ، وَعَلَى الثَّانِي وَالثَّلَاثِ: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ لَفَوْ^(٣) ﴿مُعْجِزِينَكَ﴾.

قَوْلُهُ: (وهذا معنى قوِيٌّ جَيِّدٌ)، وفيه التَّفَاتَانِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَهَا التَّفَتُّ مِنَ الْعَيْبَةِ إِلَى الْخُطَابِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ فَإِنَّ تَوَلَّوْا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ عَلَى مَا سَبَقَ، عَادَ إِلَى الْعَيْبَةِ وَإِقَامَةِ الْمُظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ، أَي: لَا يَحْسَبَنَّ الْبُعْدَاءُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِنَزْعِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرُسُولِهِ عَنْ عُنُقِهِمْ أَحَدًا يَحْمِيهِمْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْإِسْتِصَالِ حَتَّى

(١) يعني قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨].

(٢) لتبام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٥٥.

(٣) أي: ظرفُ لَفَوْ لـ ﴿مُعْجِزِينَكَ﴾.

وأن يكون فيه ضميرُ الرسول؛ لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وأن يكون الأصل: لا يحسبَنهم الذين كفروا مُعْجِزِينَ، ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الأول، وكان الذي سوغ ذلك أن الفاعل والمفعولين لما كانت لشيء واحد، اقتنع بذكر اثنين عن ذكر الثالث؛ وعطف قوله: ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ﴾ على ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾؛ كأنه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله، وما واهم النار. والمراد

يطمعوا في مثل ذلك، فإن الله لا يعجزه أحدٌ، فيقهرهم في الدنيا بالاستئصال، ويحجزهم في الآخرة بعذاب النار. وينصّر هذا التأويل قوله: «المراد بهم المُقْسِمُونَ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ»، وأما أن الوجه الأول أحسن من الثاني، وهو أن يكون فاعل «يحسبن» رسول الله ﷺ؛ لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، فلأنه على هذا لا يحسن ذلك الحسن، إذا قيل: إنه التفات من خطابهم بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بمعنى: أن أولئك البعداء إنما يمتنعون عن الطاعة لما حسبوا أن لهم ناصرًا ينصّرهم ويمنعهم من عذابنا حين لم يُطيعونا، وأما كونه أقوى منه؛ فإن نفي الحسبان وإثبات العجز هم على سبيل الكناية، كما قال: «لا يحسبن الذين كفروا أهدأ يعجز الله في الأرض حتى يطمعوا في مثل ذلك» أقوى من نفي الحسبان عن رسول الله ﷺ وإثبات العجز لهم تصريحاً.

وأما كونه أحسن من الثالث؛ فلأن نفي الحسبان وإثبات العجز لهم تصريحاً أخط من إثبات العجز لهم كنايةً. وأما كونه أقوى منه، فلأنه لا يحتاج حينئذ إلى حذف أحد المفعولين من باب حسبت، وإلى العذر بجوازه كما قال، لأنه ضعيف.

قوله: (وأن يكون الأصل: لا يحسبَنهم الذين كفروا)، قال الزجاج: المعنى: لا يحسبن الذين كفروا إياهم مُعْجِزِينَ، كما تقول: زيدٌ حسبته قائماً، تريد: حسب زيدٌ نفسه قائماً، وهذا في باب ظننتُ تطرح فيه النفس، يقال: ظننتني أفعال، ولا يقال: ظننت نفسي أفعال، ولا يجوز ضربتي، ليستغني عنها بضربتُ بنفسي^(١).

قوله: (وعطف قوله: ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ﴾ على ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾)، والظاهر

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٥٢).

بهم: المقسمون جهداً أيمانهم.

[يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَعْتِدَّ نَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾]

أمر بأن يستأذن العبيد. وقيل: العبيد والإماء والأطفال الذين لم يتعلموا من الأحرار ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ في اليوم واللييلة: قبل صلاة الفجر؛ لأنه وقت قيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة؛ وبالظهيرة؛ لأنها وقت وضع الثياب للقائلة؛ وبعد صلاة العشاء؛ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب

لا يصح عطف الإخباري على الإنشائي، ولهذا أوله وقال: «كأنه قيل: الذين كفروا لا يفوتون الله ومآواهم النار»، وقال صاحب النظم: الثاني معطوف على مُضَمَّر، أي لا يحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض بل مقدور عليهم ومحاسبون ومآواهم النار، هذا يقرب إلى ما قدرناه فيه فيقهرهم في الدنيا بالاستئصال، ويخزيهم في الآخرة بعذاب النار.

قوله: (أمر بأن يستأذن العبيد)، قال القاضي: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَعْتِدَّ نَكُمْ﴾ رجوع إلى تتمّة الأحكام السالفة بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيها سلف من الأحكام، وغيرها^(١)، والوعد عليها، والوعد عن الإعراض عنها، والمراد به خطاب الرجال والنساء، علّب فيه الرجال، وليس في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ ما يُنَافِي قوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٢٧] فينسخه؛ لأنه في الصبيان والمماليك، وذلك في الأحرار البالغين^(٢).

(١) في الأصول الخطية: «وغيره» وصوبناه من «أنوار التنزيل».

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ١٩٩).

النَّوْمِ. وَسَمِيَ كُلٌّ وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ عَوْرَةً؛ لِأَنَّ النَّاسَ يَحْتَلُّ تَسْتُرَهُمْ وَتَحْفُظُهُمْ فِيهَا.

وَالْعَوْرَةُ: الْخَلْلُ. وَمِنْهَا: أَعْوَرَ الْفَارِسَ، وَأَعْوَرَ الْمَكَانَ، وَالْأَعْوَرَ: الْمَخْتَلُّ الْعَيْنَ. ثُمَّ عَدَّرَهُمْ فِي تَرْكِ الْاسْتِثْنَانِ وَرَاءَ هَذِهِ الْمَرَّاتِ، وَبَيَّنَّ وَجْهَ الْعُدْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي: أَنَّ بَكُمْ وَبِهِمْ حَاجَةً إِلَى الْمَخَالِطَةِ وَالْمُدَاخَلَةِ: يَطُوفُونَ عَلَيْكُمْ لِلخِدْمَةِ،

قَوْلُهُ: (وَأَعْوَرَ الْفَارِسَ)، وَهُوَ إِذَا بَدَأَ فِيهِ مَوْضِعُ خَلَلِ الضَّرْبِ قَالَ:

لَهُ الشَّدَّةُ الْأُولَى إِذَا الْقِرْنُ أَعْوَرَ^(١)

الرَّاعِبُ: الْعَوْرَةُ: سَوْءَةُ الْإِنْسَانِ، وَذَلِكَ كِنَايَةٌ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْعَارِ، لِمَا يَلْحَقُ فِي ظَهْرِهِ مِنَ الْعَارِ، أَي: السَّمَدَةِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ النِّسَاءُ عَوْرَةً، وَمِنْ ذَلِكَ: الْعَوْرَاءُ: لِلْكَلِمَةِ الْقَبِيحَةِ، وَعَوْرَتْ عَيْنُهُ عَوْرًا، وَعَارَتْ عَيْنُهُ عَوْرًا وَعَوْرَتْهَا، وَعَنْهُ اسْتُعِيرَ: عَوْرَتْ الْبِئْرَ، وَقِيلَ لِلْغُرَابِ: أَعْوَرَ لِحْدَةَ نَظَرِهِ وَذَلِكَ لِعَكْسِ الْمَعْنَى، لِذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:

وَصِحَّاحِ الْعَيُونَ يُدْعَوْنَ عَوْرًا

وَالْعَوَارُ وَالْعَوْرَةُ: شِقُّ فِي الشَّيْءِ، كَالثَوْبِ وَالْبَيْتِ وَنَحْوِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ بَيُّوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الْأَحْزَابُ: ١٣] أَي: مُتَخَرِّقَةٌ مُمَكِّنَةٌ لِمَنْ أَرَادَهَا، وَمِنْهُ يُقَالُ: فَلَانٌ يَحْفَظُ عَوْرَتَهُ، أَي: خَلَّلَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِلْكَ عَوْرَاتُ لَكُمْ﴾ أَي: نِصْفُ النَّهَارِ، وَآخِرُ النَّهَارِ، وَبَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَيَّ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أَي: لَمْ يَبْلُغُوا الْخُلْمَ^(٢) وَالْمُعَاوَرَةَ^(٣).

قَوْلُهُ: (وَبَيَّنَّ وَجْهَ الْعُدْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾)، قَالَ الْقَاضِي: أَي: هُمْ طَوَّافُونَ، وَهُوَ اسْتِثْنَانٌ لِبَيَانِ الْعُدْرِ السُّرِّحِصِّ فِي تَرْكِ الْاسْتِثْنَانِ وَهُوَ الْمَخَالِطَةُ وَكَثْرَةُ الْمُدَاخَلَةِ، وَفِيهِ

(١) ذكره الجوهري في «الصحاح» (عور) لرجل يصف الأسد.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٥٩٥.

(٣) قوله: «والمعاورة» زيادة من الطيبي في هذا السياق. وهي واردة في سياق آخر من كلام الراغب.

وتطوفون عليهم للاستخدام؛ فلو جُزم الأمر بالاستئذان في كل وقت، لأدى إلى الحرج. وروى: أن مُدْلَجَ بن عمرو - وكان غلاماً أنصاريّاً - أرسله رسول الله ﷺ وقت الظهر إلى عمر رضي الله عنه ليدعوه، فدخل عليه وهو نائم، وقد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر: لو ددت أن الله عز وجل نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ، فوجده وقد أنزلت عليه هذه الآية.

وهي إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر. وقيل: نزلت في أسماء بنت أبي مرشد،

دليل على تعليل الأحكام^(١).

قوله: (نهى آباءنا وأبناءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا)، قيل: «لا» مزيدة لتأكيد النهي، كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] حملهم على ذلك أن عدم الدخول لا يجوز أن يكون منهياً، والمنهى الدخول، ومن ثم طرحتها صاحب «المطلع» وقال: أن يدخلوا علينا.

قلت: الوجه أن يُقدَّر مضافاً ويكون مفعولاً له لقوله: «نهى آباءنا»، أي: لو ددت أن الله عز وجل نهى هؤلاء عما هم عليه من الفعل القبيح إرادة أن لا يدخلوا علينا إلا بالإذن، ويجوز أن يكون مفعولاً له لقوله: لو ددت، على تقدير اللام، يعني: لو ددت أن ينهى لئلا يدخلوا علينا إلا بإذن، وحذف اللام مع «أن» جائز^(٢)، وإن لم يكن فعلاً لفاعل الفعل المعلن، بخلافه في غيرها.

قوله: (نزلت في أسماء بنت [أبي] مرشد)، بالثاء المثناة، ويروى: «أبي مرشد» بالشين المعجمة، وفي «الاستيعاب» بالشين المعجمة^(٣).

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٠٠).

(٢) وعن جوزه من النحاة ابن خروف الأندلسي. انظر: «شرح الأشموني» (٢: ١٢٣).

(٣) «الاستيعاب» (٤: ١٧٨٥) وفيه: «مرشد» بالثاء المثناة، والرواية بالشين المعجمة قد ذكرها ابن الأثير

في «أسد الغابة» (٦: ١٦).

قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلها يكونان في لحاف واحد. وقيل: دخل عليها غلامٌ لها كبير في وقتٍ كرهت دخوله، فأنت رسول الله ﷺ، فقالت: إنَّ خَدَمَنَا وغلماننا يدخلون علينا في حالٍ نكرهها. وعن أبي عمرو: (الحلم) بالسُّكون. وقرئ: «ثلاث عَوْرَاتٍ» بالنَّصبِ بدلاً عن «ثَلَاثَ مَرَّتٍ»، أي: أوقات ثلاث عَوْرَات. وعن الأعمش: (عَوْرَات) على لغة هذيل.

فإن قلت: ما محلُّ «لَيْسَ عَلَيْكُمْ»؟ قلت: إذا رفعت «ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ» كان ذلك في محلِّ الرفع على الوصف. المعنى: هنَّ ثلاث عَوْرَات مخصوصة بالاستئذان.

قوله: (وَقُرِئَ: «ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ» بالنَّصب)، حمزة والكسائي وأبو بكر، والباقون: بالرفع^(١).

قوله: (أي: أوقات ثلاث عَوْرَات)، روى صاحب «المطلع»، عن صاحب النظم: «ثَلَاثَ مَرَّتٍ» بمعنى: ثلاثة أوقات؛ لأنها لو كانت على ظاهرها لوجب أن يكون الأمر واقعاً على ثلاث دُفَعَات، فإذا جاوزها ارتفع الأمر، فيجوز الدخول بعدها، ويدلُّ على أنَّ المراد الأوقات قوله تعالى: «مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ» فإتباعاً مفسراً لقوله: «ثَلَاثَ مَرَّتٍ».

قوله: (وعن الأعمش: «عَوْرَاتٍ»، على لغة هذيل)، قالوا: إنَّ كلَّ «فَعْلَةٍ» إذا كانت ساكنة الحشو صحيحةً تُحرَّك في الجمع عَيْنُهَا إذا كانت اسماً، وإن كانت صفةً فَتُسَكَّن، وإن كان عَيْنُهَا معتلاً فَتُسَكَّن أيضاً، اسماً كان أو صفةً، إلا على مذهب هذيل، فإنهم يجرِّكونها. وقال الزجاج: والإسكان أكثر؛ لِثِقَلِ الحركَةِ على الواو، يقال: طَلْحَةٌ وطلَّحات، وجرَّةٌ وجرَّات، ويجوز في لَوَزَةٍ: لَوَزَاتٌ، والأجودُ بالسُّكون^(٢).

(١) انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٠٥.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٥٢).

وإذا نصبت لم يكن له محل، وكان كلاماً مقررراً للأمر بالاستئذان في تلك الأحوال

قوله: (وإذا نصبت - أي: «ثلاث عورات» - لم يكن له محل)، فإن قلت: ما هذا الاختصاص؟ لم لا يجوز أن يكون محل ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ نصباً على أن يكون وصفاً لـ «ثلاث عورات»، وهو بدلٌ من ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ وأن يكون جملةً مؤكدةً إذا قُدِّرَ: هُنَّ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ، على الابتداء والخبر؟ قلتُ: لهذا السؤال تصدى صاحبُ «التقريب» للتقرير بأن قال: إنَّ حُكْمَ رَفْعِ الْحَرْجِ وراءها مقصودٌ في نفسه، فإذا وَصَفَ بِهِ «ثلاث عورات» نصباً، وهو بدلٌ من ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ كان التقدير: لَيْسَتْ عَلَيْكُمْ فِي ثَلَاثِ عَوْرَاتٍ مَخْصُوصَةً بِالِاسْتِئْذَانِ، وَيَدْفَعُهُ وَجُوهٌ مُسْتَفَادَةٌ مِنْ عِلْمِ الْمَعَانِي، أَحَدُهَا: اشْتِرَاطُ تَقَدُّمِ عِلْمِ السَّامِعِ بِالْوَصْفِ، وَهُوَ مُتَنَفٍ، إِذْ لَمْ يَعْلَمْهُ إِلَّا مِنْ هَذَا. وَثَانِيهَا: جَعْلُ الْحُكْمِ الْمَقْصُودِ وَصْفًا لِلظَّرْفِ، فَيَصِيرُ غَيْرَ مَقْصُودٍ. وَثَالِثُهَا: أَنَّ الْأَمْرَ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي الْمَرَّاتِ الثَّلَاثِ حَاصِلٌ وَصِفَتْ بِأَنَّ لَا حَرْجَ وَرَاءَهَا أَوْ لَمْ تُوصَفْ، فَيَضِيعُ الْوَصْفُ. وَأَمَّا إِذَا وَصِفَ الْمَرْفُوعُ بِهِ فَيَزُولُ الرَّوَافِعُ؛ لِأَنَّهُ ابْتِدَاءٌ تَعْلِيمٍ، أَيْ: هُنَّ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ مَخْصُوصَةً بِالِاسْتِئْذَانِ، وَصِفَةٌ لِلخَبَرِ لَا لِلظَّرْفِ، وَلَمْ يَتَّقِدْ أَمْرُ الْاسْتِئْذَانِ بِهِ، فَلْيَتَأَمَّلْ فَإِنَّهُ دَقِيقٌ جَلِيلٌ. تَمَّ كَلَامُهُ.

وقلتُ: الذي عندي - والله أعلم -: أَنَّ ﴿ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ﴾ إِذَا قُرِئَ مَرْفُوعاً كَانَ خَبَرٌ مَبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، وَالْجُمْلَةُ مَقْرَّرَةٌ لِمَعْنَى مَا سَبَقَ فَيَصِحُّ جَعْلُ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ صِفَةً؛ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ كَمَا هِيَ بِرُمَّتِهَا كَلَامٌ مَقْرَّرٌ لِمَعْنَى مَا سَبَقَ عَلَى طَرِيقَةِ الطَّرْدِ وَالْعَكْسِ لِذِلَالَةِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ عَلَى الْأَمْرِ بِالِاسْتِئْذَانِ فِي الْأَوْقَاتِ الْمَخْصُوصَةِ بِالْمَنْطُوقِ، وَذِلَالَةُ هَذَا الْكَلَامِ عَلَيْهِ بِالْمَفْهُومِ؛ لِأَنَّ رَفْعَ الْجُنَاحِ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ يُوْذَنُ بِثَبُوتِ الْجُنَاحِ فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «هُنَّ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ مَخْصُوصَةً بِالِاسْتِئْذَانِ»، وَإِذَا جُعِلَ «ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ» وَحْدَهُ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ ظَرْفًا مِثْلَهُ مَبِينًا لِمَا قُصِدَ فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى، وَهُوَ إِظْهَارُ كِمَالِ الْكِرَاهَةِ فِي الدَّخُولِ بِغَيْرِ الْاسْتِئْذَانِ؛ لِأَنَّ لَفْظَ ﴿عَوْرَاتٍ﴾ أَذَلُّ فِي الْكِرَاهَةِ مِنَ السَّابِقِ، نَحْوَهُ قَالَ الشَّاعِرُ:

أقولُ له ارحلْ لا تُقيمَنَّ عندنا
وإلا فكنْ في السرِّ والجهرِ مُسليماً^(١)

(١) لم أهتدِ إلى قائله.

خاصة. فإن قلت: بِمَ ارتفع ﴿بَعْضُكُمْ﴾؟ قلت: بالابتداء، وخبره ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾، على معنى: طائفٌ على بعض، وحذف؛ لأنَّ ﴿طَوَافُونَ﴾ يدلُّ عليه. ويجوزُ أن يرتفع بـ«يطوف» مُضمراً لتلك الدلالة.

[وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَنْذِرُوا كَمَا اسْتَنْذَرْنَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾]

﴿الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ﴾ أي: مِنَ الْأَحْرَارِ دُونَ الْمَالِكِ. ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: يريد:

وجاء قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ مقررًا لذلك بالمفهوم صَحَّ واستقام وحصل أيضاً الطردُّ والعكس، وإليه أشار بقوله: «وكان كلاماً مقررًا للأمر بالاستئذان»، وأما إذا وُصِفَ المبدلُ بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ ولا ارتياب أن الصفة المخصصة مبينة للمراد من الموصوف، فيكون المقصودُ من إجراء الكلام رَفَعَ الْحَرَجَ مِنَ الدَّخُولِ فِي غَيْرِ الْأَوْقَاتِ الْمَذْكُورَةِ، لا الأمر بالاستئذان في الأوقات المخصصة؛ لأنَّ البدلَ هُوَ المقصودُ بالذكر، وكان خُلْفاً مِنَ الْقَوْلِ؛ لأنَّ المقصودَ الأولى: الاستئذان في الأوقات المخصصة، وَرَفَعَ الْحَرَجَ فِي غَيْرِ الْأَوْقَاتِ تَابِعٌ لَهُ؛ لِقَوْلِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوِ دِدْتُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَمَى آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَخَدَمَنَا أَنْ لَا يَدْخُلُوا عَلَيْنَا هَذِهِ السَّاعَاتِ إِلَّا يَأْذَنُ، ثُمَّ انْطَلَقَ مَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ^(١)، فَظَهَرَ مِنْ هَذَا أَنَّ تَأْسِيسَ صَاحِبِ «التَّقْرِيبِ» كَلَامَهُ عَلَى قَوْلِهِ: «أَنَّ حُكْمَ رَفَعَ الْحَرَجَ مَقْصُودٌ فِي نَفْسِهِ» ضَعِيفٌ، وَبِنَاءِهِ عَلَيْهِ الْوَجُوهَ وَاهٍ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله: ﴿الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ﴾ أي: مِنَ الْأَحْرَارِ دُونَ الْمَالِكِ، يريدُ ﴿مِنْكُمْ﴾ للبيان، فإنَّ الأطفالَ يَشْمَلُ الْأَحْرَارَ وَالْمَالِكِ بَيْنَهُمَا بقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ لِيَخْتَصَّ بِالْأَحْرَارِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَتْ فِيكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ اتِّصَالِيَّةً، قَالَ الْقَاضِي: وَاسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ أَوْجَبَ اسْتِثْنَاءَ اللَّعْبِدِ الْبَالِغِ عَلَى سَيِّدَتِهِ، وَجَوَابُهُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمُ: الْمَعْهُودُونَ الَّذِينَ جُعِلُوا قَسِيماً لِلْمَالِكِ فَلَا يَنْدَرِجُونَ فِيهِمْ^(٢).

(١) انظر: أسباب النزول» للواحد ص ٣٨٠، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم الأصبهاني (٥٧١٣).

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٠٠).

الذين بلغوا الحلم من قبلهم؛ وهم الرجال، أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ الآية [النور: ٢٧]، والمعنى: أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك، ثم خرجوا من حدّ الطفولة بأن يحتلموا أو يبلغوا السنّ التي يُحكّم فيها عليهم بالبلوغ؛ وجب أن يفطموا عن تلك العادة ويحملوا على أن يستأذِنوا في جميع الأوقات كما الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن. وهذا مما الناس منه في غفلة، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة. وعن ابن عباس: آية لا يؤمن بها أكثر الناس: آية الإذن، وإني لأمر جارتي أن تستأذن عليّ. وسأل عطاء: أستأذن

قوله: (ذُكِرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ)، يعني: لا بُدَّ للظرف الذي وقَعَ صلة للذين من متعلّق، فإذا جُعِلَت القرينة قوله: وإذا بلغ الأطفال، فالمعنى: الذين بلغوا الحلم من قبلهم، وإذا جُعِلَت سياق الآيات فالمعنى: الذين ذكروا من قبلهم، أي: في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ [النور: ٥٨].

قوله: (أَنْ يُفْطَمُوا)، الأساس: ومن المجاز: فَطَمْتُهُ عَنْ عَادَةِ الشُّؤْمِ، ولأفطمتك عما أنت عليه. وفي الحديث: «الإمارة حلوة الرضاع مرّة الفطام»^(١).

قوله: (وَإِنِّي لَأَمْرُ جَارَتِي)، أي: زوجتي. الجوهري: امرأة الرجل: جارتُه، قال الأعشى^(٢):

أَجَارَتْنَا بَيْنِي فَإِنَّكَ طَالِقَةٌ

وَعَمَامَةٌ:

فَإِنَّ أُمُورَ النَّاسِ غَادٍ وَطَارِقَةٌ^(٣)

(١) لم أهد إليه بهذا اللفظ. لكن قد ثبت عند البخاري (٧١٤٨) من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرصعة ونسيت الفاطمة».

(٢) في (ح) و(ف): «الأعمش»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(٣) للأعشى في «ديوانه» ص ٣١٣.

على أختي؟ قال: نعم وإن كانت في حَجْرِكَ تَمُونَهَا، وتلا هذه الآية. وعنه: ثلاثُ آياتٍ جَدَّهِنَّ النَّاسُ: الإِذْنُ كُلُّهُ، وقولُهُ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَرَكُمُ﴾ [الحجرات: ١٣]، فقال ناسٌ: أعظْمُكُمْ بيتاً؛ وقولُهُ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ [النساء: ٨]. وعن ابن مسعود: عليكم أن تَسْتَأْذِنُوا على آبائكم وأُمَّهاتكم وأخواتكم.

وعن الشعبي: ليست منسوخة، فقليل له: إنَّ الناس لا يَعْمَلُونَ بها، فقال: اللهُ المُسْتَعَان. وعن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: يقولون: هي منسوخة، ولا والله ما هي منسوخة، ولكنَّ النَّاسَ تَهَاوَنُوا بها. فإن قلت: ما السنُّ التي يُحْكَمُ فيها بالبُلُوغِ؟ قلت: قال

قوله: (أعظْمُكُمْ بيتاً)، النهاية: بيتُ الرجل: دارُهُ وَقَصْرُهُ وَشَرَفُهُ، قال العباسُ رضي اللهُ تعالى عنه يمدحُ النبيَّ ﷺ:

حَتَّى احْتَوَى بَيْتَكَ الْمُهَيْمِينَ مِنْ
خِنْدِفَ عَلِيَاءَ تَحْتَهَا النُّطُقُ (١)

أراد شَرَفُهُ في أعلى خِنْدِفِ بيتاً، والمُهَيْمِينُ: الشاهد، أي: الشاهدُ بِفَضْلِكَ، والنُّطُقُ: جَمْعُ نَطَاقٍ، وهي أَعْرَاضٌ مِنْ جِبَالٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، أي: نَوَاحٍ وَأَوْسَاطٌ مِنْهَا، شُبِّهَتْ بِالنُّطُقِ الَّتِي يُشَدُّ بِهَا أَوْسَاطُ النَّاسِ صَرَبَهُ مَثَلًا فِي ارْتِفَاعِهِ وَتَوَسُّطِهِ فِي عَشِيرَتِهِ وَجَعَلَهُمْ تَحْتَهُ بِمَنْزِلَةِ أَوْسَاطِ الْجِبَالِ، يقول: حَتَّى احْتَوَى شَرَفُكَ الشَّاهِدُ عَلَى فَضْلِكَ أَعْلَى مَكَانٍ مِنْ نَسَبِ خِنْدِفٍ.

قوله: (اللهُ المُسْتَعَان)، وهي كنايةٌ عن عَجْزِهِ عن إقامةِ المعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، لتغيُّرِ الزمانِ وفسادِ الإخوانِ.

(١) من قصيدته المعروفة في مدح رسول الله ﷺ ومطلعها:

مِنْ قَبْلِهَا طَبَسَتْ فِي الظَّلَالِ وَفِي مَسْتَوْدِعٍ حَيْثُ يُخَصِّفُ الْوَرُقُ

انظر: «السيرة النبوية» لابن كثير (١: ١٩٥)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» لابن الأثير

(١: ١٥٨).

أبو حنيفة: ثمانى عشرة سنة فى الغلام، وسبع عشرة فى الجارية، وعمامة العلماء على خمس عشرة فىهما. وعن على رضي الله عنه: أنه كان يعتبر القامة، ويقدره بخمسة أشبار، وبه أخذ الفرزدق فى قوله:

ما زال مُدَّ عَقَدَتْ يَدَاهُ إِزَارَهُ وَسَمًا فَأَدْرَكَ خَمْسَةَ الْأَشْبَارِ

واعْتَبَرُ غَيْرُهُ الْإِنْبَاتِ.

وعن عثمان رضي الله عنه: أنه سُئِلَ عن غلام، فقال: هل اخضرَّ إزاره؟

قوله: (ما زال مُدَّ عَقَدَتْ يَدَاهُ)، البيت، يرثى^(١) الفرزدق يزيد بن المهلب. وسأ: أي: علا وبلغ الرفعة.

وأدرك أي: لحق، ويحتمل أن يراد بخمسة الأشبار: ارتفاع قامته، وأن يراد بها القبر. قال:

عَجَبًا لِأَرْبَعِ أَذْرُعٍ فِي خَمْسَةِ فِي جَوْفِهِ جَبَلٌ أَشْمٌ كَبِيرٌ^(٢)

يقول: لم يزل مُدَّ عَقَدَتْ إِزَارَهُ، أي: بلغ سن التمييز، وليس السراويل إلى أن ارتفع، وبلغ مبلغ الرجال، أو إلى أن مات ودُفِنَ فى خمسة أشبار من الأرض، كان أميراً، والاستشهاد على المعنى الأول، وبعده:

يُدْنِي خَوَافِقَ مِنْ خَوَافِقَ تَلْتَقِي فِي ظِلِّ مُعْتَبِطِ الْغُبَارِ مُشَارِ

الخوافق: الرايات، وإنا يريد به: كان يقود الجيوش إلى الجيوش ويحضّر الحروب، ومُعْتَبِطُ الْغُبَارِ: يريد مكاناً لم يُقاتل فيه قبله، ولم ينزله غبار حتى أثاره.

قوله: (هل اخضرَّ إزاره؟)، أي: نبت شعر عانته؟ أسند الاخضرار إلى الإزار على المجاز، لأنه مما اشتمل عليه الإزار.

(١) كذا قال الإمام الطيبى رحمه الله تعالى. والذي جزم به البغدادي أنه قاله فى مدح آل المهلب، وخصّ

منهم يزيد بن المهلب. انظر: «خزانة الأدب» (١: ٢١٢).

(٢) البيت لعبد الله بن محمد التميمي، كما فى «الحماسة» ص ٣٩٦ بشرح التبريزي.

[﴿ وَالْفَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٦٠]

القاعد: التي قعدت عن الحيض والولد؛ لكبرها. ﴿ لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾: لا يطمعن فيه. والمراد بالثياب: الثيابُ الظاهرة، كالمِحففة والجلباب: الذي فوق الخمار، ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾: غير مُظهرات زينة، يريد: الزينة الحفيفة التي أَرادها في قوله: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]، أو: غير قاصداتٍ بالوضع

قوله: (القاعد: التي قعدت عن الحيض)، الأساس: قعدَ عن الأمر: تركه، وقعدله: اهتم به، ونخلة قاعدة: لم تحمِل. قال ابنُ السكيتِ رحمه الله تعالى: لم تدخلها الهاء لاختصاصها بالمرأة، فإذا أردت القعودَ بمعنى الجلوسِ قلت: قاعدة^(١)، وقيل: القاعد: على طريق النسبة، كالحائض والطامث، ومجمعت على فواعل، لأن التاء مقدرةٌ فيها؛ لأن الصفة إذا كانت مُدكرة لا تُجمع على فواعل، والفوارس: شاذ.

قوله: (والجلباب: الذي فوق الخمار)، النهاية: الجلباب: الإزار والرداء، وقيل: المِحففة، وقيل: هو كالمِحففة تُغطِّي به المرأة رأسها وظهرها وصدرها، وجمعه جلابيب.

قوله: (يريد: الزينة الحفيفة التي أَرادها في قوله: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ [النور: ٣١])، قلت: فعلى هذا التعريف متعينٌ ليشير به إلى ما عهده، لكن هذا مُطلقٌ وذاك مقيد، فيُحْمَلُ المُطلق على المقيد إذا كانا عن سببٍ واحدٍ ليصح ما قال.

ومعنى ﴿ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾: قاصداتٌ بالوضع التبرُّج، على تضمين التبرُّج معنى القصد بوساطة الباء، فحينئذ يكونُ معناه: غير قاصداتٍ بالوضع إظهاراً ما يجب إخفاؤه من الزينة فيتفق المعنيان.

الانتصاف: لم يذكر الزمخشري أن هذا التركيب من أيِّ بابٍ هو؟ وعندي أنه من باب:

على لاحقٍ لا يُبتدى بمنازه

(١) انظر: «إصلاح المنطق» لابن السكيت ص ٣٤١.

التبرُّج، ولكن التخفُّفَ إذا احتجَّنَ إليه. والاستعفافُ من الوضع خَيْرٌ لهنَّ. لَمَّا ذَكَرَ الجائزَ عَقِبَهُ بالمستحبِّ؛ بعثاً منه على اختيارِ أفضلِ الأعمالِ وأحسنِها، كقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٠]. فإن قلت: ما حقيقةُ التبرُّج؟ قلت: تكلفُ إظهارِ ما يجب إخفاؤه، من قولهم: سفينة بارج: لا غطاءَ عليها. والبرج: سعةُ العين، يُرى بياضُها مُحيطاً بسوادها كلُّه لا يَغِيبُ منه شيء، إلا أنه اختصَّ بأن تنكشَفَ المرأةُ للرِّجالِ بإبداءِ زينتها وإظهارِ محاسنها. وبدا وبرَّرَ بمعنى: ظهر، من أخوات: تَبَرَّجَ وتَبَلَّجَ، كذلك.

[﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ أَيْمَانُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيِّنَاتٌ لَكُمْ لِكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [٦١]

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَذْهَبُونَ بِالضُّعْفَاءِ وَذَوِي الْعَاهَاتِ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَإِلَى بُيُوتِ قَرَابَاتِهِمْ وَأَصْدِقَائِهِمْ فَيُطْعِمُونَهُمْ مِنْهَا، فَخَالَجَ قُلُوبَ الْمُطْعَمِينَ وَالْمُطْعَمِينَ رِيَّةً فِي ذَلِكَ، وَخَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ فِيهِ حَرَجٌ، وَكَرِهُوا أَنْ يَكُونَ أَكْلًا بَغِيرَ حَقٍّ؛ لِقَوْلِهِ

أي: لا منارَ فيه فیهْتَدَى به. كذا هاهنا لا زينةَ لهنَّ فیتبرَّجنَ بها، وإذا كان استعفافُ هؤلاءِ خيراً لهنَّ فما ظنُّكَ بذواتِ الرِّبِّيةِ؟ وأبلغُ من ذلك جَعْلُهُ عَدَمَ وَضْعِ الثِّيَابِ مِنَ القواعدِ مِنَ الاستعفافِ، إيذاناً بأنَّ وَضْعَ الثِّيَابِ لا مَدْخَلَ لَهُ فِي العِقَّةِ، هذا في القواعدِ، فكيف بالكواعبِ^(١)؟ وقلت: وهذا معنی حسنٌ دقيقٌ.

(١) «الاتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٢٥٥).

تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، فقيل لهم: ليس على الضعفاء ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ - يعني: عليكم وعلى من في مثل حالكم من المؤمنين - حَرَجٌ في ذلك.

وعن عكرمة: كانت الأنصارُ في أنفسها قَرَازةً، فكانت لا تأكلُ من هذه البيوت إذا استغنوا. وقيل: كان هؤلاء يتوقفون مجالسة الناس ومواكلتهم؛ لما عسى يؤدي إلى الكراهة من قبلهم؛ ولأن الأعمى ربما سبقت يده إلى ما سبقت عين أكيله وهو لا يشعر، والأعرج يتفصح في مجلسه ويأخذ أكثر من موضعه فيضيّق على جلسيه، والمريض لا يخلو من رائحة تؤذي أو جرح يبض أو أنف يذّن، ونحو ذلك. وقيل: كانوا يخرجون إلى الغزو ويحلفون الضعفاء في بيوتهم، ويدفعون إليهم المفاتيح، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم، وكانوا يتحرّجون. حُكي عن الحارث بن عمرو:

قوله: (يعني: عليكم وعلى من في مثل حالكم)، يريد أن أنفسكم في الآية عبارة عن أمثال الرجل في عقله القرابة، كما قال: ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] في وجه.

رَوَى محيي السنة عن مجاهد: وكان أهل الزمانة^(١) يدخلون على الرجل لطلب الطعام، فإذا لم يكن عنده ما يطعمهم ذهب بهم إلى بيوت من سّماه الله تعالى في هذه الآية، وكان أهل الزمانة يتحرّجون من ذلك الطعام، ويقولون: ذهب بنا إلى بيت غيره؟ فأنزل الله هذه الآية^(٢).

قوله: (قزازة)، الجوهري: التَقَزَزُ: التَّنَطُّسُ والتَّبَاعُدُ مِنَ الدَّنَسِ. وقد تَقَزَزَ من أكلِ الصَّبِّ وغيره، وهو رجلٌ قَزَزٌ بالضمِّ، والفتحُ والكسرُ لغات.

قوله: (أو جرح يبض، أو أنف يذّن)، الجوهري: بَضَّ الماءُ يَبِضُّ: إذا سَالَ قليلاً قليلاً. الذنينُ: مُحَاطٌ يَسِيلُ مِنَ الأنفِ، والذنانُ بالضمِّ: مثله.

(١) وهي العاهة تُصيب الإنسان.

(٢) «معالم التنزيل» (٦: ٦٣).

أنه خَرَجَ غَازِيَا وَخَلَّفَ مَالِكََ بْنَ زَيْدٍ فِي بَيْتِهِ وَمَالِيهِ، فَلَمَّا رَجَعَ رَأَى مَجْهُودًا، فَقَالَ: مَا أَصَابَكَ؟ قَالَ: لَمْ يَكُنْ عِنْدِي شَيْءٌ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي أَنْ أَكَلَّ مِنْ مَالِكَ؛ فَقِيلَ: لَيْسَ عَلَى هَؤُلَاءِ الضُّعْفَاءِ حَرَجٌ فِيمَا تَحَرَّجُوا عَنْهُ، وَلَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ هَذِهِ الْبُيُوتِ.

وهذا كلامٌ صحيح، وكذلك إذا فُسِّرَ بأنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَ عَلَيْهِمْ حَرَجٌ فِي الْقَعُودِ عَنِ الْغَزْوِ، وَلَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنَ الْبُيُوتِ الْمَذْكُورَةِ؛ لِالْتِقَاءِ الطَّائِفَتَيْنِ فِي أَنْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَنْفِيٌّ عَنْهَا الْحَرَجُ. ومثَالُ هَذَا: أَنْ يَسْتَفْتِيَكَ مَسَافِرٌ عَنِ الْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ، وَحَاجٌّ مُفْرِدٌ عَنِ تَقْدِيمِ الْحَلْقِ عَلَى النَّحْرِ، فَقُلْتَ: لَيْسَ عَلَى الْمَسَافِرِ حَرَجٌ أَنْ يُفْطِرَ، وَلَا عَلَيْكَ يَا نَحَاجٌّ، أَنْ تُقَدِّمَ الْحَلْقَ عَلَى النَّحْرِ. فَإِنْ قُلْتَ: هَلَا ذَكَرَ الْأَوْلَادُ! قُلْتَ: دَخَلَ ذِكْرُهُمْ تَحْتَ قَوْلِهِ: ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾؛ لِأَنَّ وِلْدَ الرَّجُلِ بَعْضُهُ، وَحُكْمُهُ حُكْمُ نَفْسِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ أَطِيبَ مَا يَأْكُلُ الْمَرْءُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنْ وُلِدَهُ مِنْ كَسْبِهِ». وَمَعْنَى ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾: مِنَ الْبُيُوتِ الَّتِي فِيهَا أَزْوَاجُكُمْ وَعِيَالُكُمْ؛ وَلِأَنَّ الْوَالِدَ أَقْرَبُ مِمَّنْ عَدَدَ مِنَ الْقَرَابَاتِ، فَإِذَا كَانَ سَبَبُ الرَّخْصَةِ هُوَ الْقَرَابَةُ: كَانَ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ مِنْهُمْ أَوْلَى. فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاكِحُهُ﴾؟

قَوْلُهُ: (وهذا كلامٌ صحيح، وكذلك إذا فُسِّرَ بأنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَ عَلَيْهِمْ حَرَجٌ فِي الْقَعُودِ عَنِ الْغَزْوِ)، أَي: يَصِحُّ الْعَطْفُ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي نَفْيِ الْحَرَجِ. وَذَلِكَ أَنَّ مِنْ شَرْطِ الْعَطْفِ أَنْ يَشْتَرِكَا فِي التَّحَادِ تَصَوُّرٍ مِنْ تَصَوُّرَاتِهِمَا، يَعْنِي: فِي عَطْفِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ عَلَى ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ بَعْدُ، لِكَوْنِ رَفْعِ الْحَرَجِ عَنِ الْأَعْمَى سَبَبُهُ غَيْرُ السَّبَبِ الَّذِي يَأْكُلُ مِنَ تِلْكَ الْبُيُوتِ، لَكِنْ إِذَا نُظِرَ إِلَى أَنَّ الْجُمْلَتَيْنِ يَجْمَعُهُمَا مَعْنَى نَفْيِ الْحَرَجِ يَصِحُّ الْعَطْفُ، رَوَى مُحِبِّي السُّنَّةِ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: تَرَلَّتِ الْآيَةُ رُخْصَةً لِهَؤُلَاءِ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ. وَقَالَ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ كَلَامٌ مَنْقُوعٌ عَمَّا قَبْلَهُ^(١).

(١) «معالم التنزيل» (٦: ٦٤).

قلت: أموال الرجل إذا كان له عليها قِيمٌ ووَكِيلٌ يَحْفَظُهَا: له أن يأكل من ثمرِ بستانه ويشرب من لبنِ ماشيته.
وملك المفتاح: كونها في يده وحفظه. وقيل: بيوت الممالك؛ لأن مال العبد لمؤلاه.
وقرئ: (مفتاحه). فإن قلت: فما معنى ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؟ قلت: معناه: أو بيوت أصدقائكم. والصديق يكون واحداً وجمعاً، وكذلك الخليلُ والقطين والعدو، يُحكى

قوله: (أموال الرجل إذا كان له عليها قِيمٌ)، أي: «ما» عبارة عن الأموال، وما وُكِّلْتُمْ بحفظه فهو عطفٌ على «بيوت»، و«من»: لابتداء الغاية، والمعنى: ليس عليكم جناح أن يبتدئ أكلكم من شيء تقومون بحفظه من بستان أو ما أشبهه، فيباح أكل ثمرة البستان ولبن الماشية.
وملك المفتاح كناية عن كون الشيء تحت يد الشخص وتصرفه على الوجه الآتي، وهو قوله: «وقيل: بيوت الممالك»، ﴿مَا مَلَكَتُمْ﴾: عطفٌ على المضاف إليه، و«ما» استعملت في العقلاء على إرادة الوصفية، وهي الملكة والملوكية.

قوله: (وقرئ: «مفتاحه»)، قال ابن جني: وهي قراءة قتادة، وهو جنس وإن كان مضافاً، وقد جاء قولهم: قد منعت العراق قفيزها ودرهمها، ومنعت مصر إردتها^(١).
قوله: (والصديق يكون واحداً وجمعاً)، أي: المراد بـ ﴿صَدِيقِكُمْ﴾ هنا الجمع، الانتصاف: قال الزخسري في سرِّ إفراده في ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]: أفردته دون الشافعين تنبيهاً على قلة الأصدقاء، فإن الإنسان قد يجتمعي له ويشفع من لا يعرفه، ويجوز أن يراد في الآيتين الجمع، وأن يراد الأفراد، ويكون ذلك سره. والصديق هو: الذي يوافقك في سره وعلنه.

الجوهري: الصداقة: الخلة، والمصداقة: المخالفة. رجلٌ صديق.
والقطين: الحدم، وقطين الدار: حسن السكن^(٢)، وقيل: القطين: جمع، مثل غاز وعزبي، وعازب وعزيب. قال زهير:

(١) «المحتسب» (٢: ١١٦) ولتمام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٧١).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وعبارة الصحاح: «والقطينة: سكن الدار».

عن الحسن: أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد استلوا سِلاّلاً من تحت سريره فيها الخبيصُ وأطايبُ الأطعمة وهم مكبّون عليها يأكلون، فتهلّلت أساريرُ وجهه سروراً، وضحك، وقال: هكذا وجدناهم، هكذا وجدناهم. يريدُ كُبراءَ الصحابةِ ومن لقيهم من البدرين. وكان الرجلُ منهم يدخل دارَ صديقه وهو غائبٌ فيسألُ جاريتَه كيسَه فيأخذُ ما شاء، فإذا حَضَرَ مَولاهَا فأخبرته أعتقها سروراً بذلك. وعن جعفر بن محمد: من عظم حُرمة الصديق أن جعله الله من الأُنس والثقة والانبساط وطرح الحشمة بمنزلة النفس والأب والأخ والابن.

وعن ابن عباس: الصديقُ أكبرُ من الوالدَيْن؛ إنَّ الجهنميين لَمَّا استغاثوا لم يستغيثوا بالآباءِ والأمّهات، فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

رأيتُ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتهم قطيناً لهم حتى إذا أنبتَ البقلُ^(١)

قوله: (فتهلّلت أساريرُ وجهه)، الجوهرى: الشُرُرُ: جمعُ أسرارِ الكفِّ والجبهة، وهي خُطوطُها، وجمعُ الجَمعِ أسارير.

قوله: (وكان الرجلُ منهم يدخلُ دارَ صديقه)، وروى حُجّة الإسلام في «الإحياء»: جاء فتُحَّ الموصليُّ إلى منزل أخ له، وكان غائباً، فأمر أهله فأخرجتُ صندوقه ففتحه، وأخرج حاجته، فأخبرت الجارية مَولاهَا فقال: إن صدقتِ فأنتِ حُرّةٌ لوجهِ الله تعالى، سروراً بما فعل^(٢).

قوله: (وطرح الحشمة)، أبو زيد: حَشَمْتُ الرجلَ وأحشمتُه بمعنى، وهو أن يجلسَ إليك فتؤذيه وتغضبه. ابن الأعرابي: حَشَمْتُ: أخجلته، والاسمُ الحشمة، وهو الاستحياء، والغضبُ أيضاً.

(١) «ديوان زهير» ص ١٢.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٢: ١٧٤).

وقالوا: إذا دَلَّ ظاهرُ الحالِ على رضا المالك، قامَ ذلك مقامَ الإذنِ الصَّريحِ، وربما سَمَّج الاستئذانُ وثقل، كمن قُدِّمَ إليه طعامٌ فاستأذَنَ صاحبه في الأكلِ منه. ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي: مُجْتَمِعِينَ أو مُتَفَرِّقِينَ. نزلتْ في بَنِي لَيْثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ كِنَانَةَ، كانوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ وَحَدَهُ، فَرَبَّمَا فَعَدَّ مُنْتَظِرًا نَهَارَهُ إِلَى اللَّيْلِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُؤَاكِلُهُ أَكَلَ ضَرُورَةً. وقيل: في قومٍ من الأنصار: إذا نَزَلَ بِهِمْ ضَيْفٌ لَا يَأْكُلُونَ إِلَّا مَعَ ضَيْفِهِمْ. وقيل: تَحَرَّجُوا عَنِ الْجُمُوعِ عَلَى الطَّعَامِ؛ لِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِي الْأَكْلِ وَزِيَادَةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ مِنْ هَذِهِ الْبُيُوتِ لِتَأْكُلُوا فَبَدَّنُوا بِالسَّلَامِ عَلَى أَهْلِهَا الَّذِينَ هُمْ مِنْكُمْ دِينًا وَقَرَابَةً ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: ثَابِتَةً بِأَمْرِهِ، مَشْرُوعَةً مِنْ لَدُنْهُ. أَوْ: لِأَنَّ التَّسْلِيمَ وَالتَّحِيَّةَ طَلَبُ سَلَامَةٍ وَحَيَاةٍ لِلْمُسْلِمِ عَلَيْهِ وَالمَحْيَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَوَصَفَهَا بِالْبِرْكََةِ وَالتَّطِيبِ؛ لِأَنَّهَا دَعْوَةٌ مَوْمِنٍ لِمَوْمِنٍ يُرْجَى بِهَا مِنَ اللَّهِ زِيَادَةٌ

قوله: (أَكَلَ ضَرُورَةً)، تَمَسَّكَ بِمَا رُوِيَ: «شَرُّ النَّاسِ مَنْ أَكَلَ وَحَدَهُ، وَضَرَبَ عَبْدَهُ، وَمَنَعَ رَفْدَهُ»^(١). والوعيدُ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ لِمَنْ بَاشَرَ الْخِصَالَ الثَّلَاثَ دُونَ الْإِفْرَادِ بِالْأَكْلِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] الآية. وعن بعضهم: فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْمُنَاهِدَةِ وَهِيَ الْمُعَاظَةُ وَالمُنَاهِضَةُ، وَهُوَ أَنْ يَشْتَرِيَ أَحَدُهُمْ لِحْمًا وَالأَخْرُ خُبْرًا^(٢). وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «وَقَالُوا إِذَا دَلَّ ظَاهِرُ الْحَالِ عَلَى رِضَى الْمَالِكِ».

قوله: (أَوْ: لِأَنَّ التَّسْلِيمَ وَالتَّحِيَّةَ طَلَبُ سَلَامَةٍ)، فَعَلَى هَذَا ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ مَتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿تَحِيَّةً﴾ صِلَةٌ لَهَا، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: «والمَحْيَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». وَقَالَ الْقَاضِي: فَإِنَّهَا طَلَبُ لِلْحَيَاةِ وَهِيَ مِنْ عِنْدِهِ^(٣). وَعَلَى الْأَوَّلِ كَانَ ظَرْفًا مُسْتَقَرًّا صِفَةً لِتَحِيَّةٍ؛ وَهَذَا قَالَ: «مَشْرُوعَةً مِنْ لَدُنْهُ».

(١) أخرجه عبد بن حميد في «المسند» (٦٧٥) والطبراني في «مسند الشاميين» (١٤٣٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٣: ٤٢٦).

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٠٢).

الخير وطيب الرزق. وعن أنس قال: خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشرَ سنين - ورُوي: تسعَ سنين - فما قال لي شيءٌ فعلته: لِمَ فعلته؟ ولا قال لي شيءٌ كسرتُه: لِمَ كسرتُه؟ وكنتُ واقفاً على رأسه أصبُ الماءَ على يديه فرفع رأسه فقال: «ألا أعلمُك ثلاثَ خِصالٍ تتنفعُ بها؟». قلت: بلى بأبي وأمي يا رسولَ الله. قال: «متى لقيتَ من أمتي أحداً فسلمتَ عليه يطلُّ عُمرُك، وإذا دخلتَ بيتك فسلمتَ عليهم يكثرُ خيرُ بيتك، وصلَّ صلاةَ الضُّحى فإنها صلاةُ الأبرارِ الأوابين». وقالوا: إن لم يكن في البيتِ أحدٌ فليقل: السلامُ علينا من ربِّنا، السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين، السلامُ على أهلِ البيتِ ورحمةُ الله. وعن ابنِ عبَّاس: إذا دخلتَ المسجدَ فقل: السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين. ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وانتصب ﴿تَحِيَّةٌ﴾ بـ«سَلِّمُوا»؛ لأنها في معنى تسليماً، كقولك: قعدتُ جُلوساً.

قوله: (عن أنس قال: خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشرَ سنين)، رَوينا عن البُخاريِّ ومسلم وأبي داودَ والترمذي، عن أنس قال: خدمتُ النبي ﷺ عشرَ سنين، والله ما قال لي: أف قط، ولا قال لي شيءٌ: لم فعلتَ كذا، وهلا فعلتَ كذا^(١)؟ وفي رواية لمسلم: خدمتُ تسعَ سنين فما أعلمُه قال لي قط: لم فعلتَ كذا وكذا، ولا عاب علي شيئاً قط.

قوله: (صلاةُ الأبرارِ الأوابين)، رَوينا عن مسلم، عن زيد بن أرقم أن رسولَ الله ﷺ خرجَ على أهلِ قباءَ وهم يُصلُّون، فقال: «صلاةُ الأوابين إذا رمضتَ الفِصالَ»^(٢).

النهاية: الأوابين: جمعُ أواب، وهو الكثيرُ الرجوعِ إلى الله تعالى بالتوبة، وقيل: هو المطيع. وقيل: المسبح، يريدُ صلاةَ الضُّحى عند ارتفاعِ النَّهارِ وشِدَّةِ الحرِّ. قال القاضي: كرَّرَ اللهُ قوله: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ ثلاثاً لمزيدِ التأكيد، وتفخيمِ الأحكامِ المختمةِ به، وفصلِ الأوليينِ بها هو المقضي لذلك، وهذا بها هو المقصودُ منه، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: الحقُّ والخيرُ في الأمور^(٣).

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨) ومسلم (٢٣٠٩) وأبو داود (٤٧٧٦) والترمذي (٢٠١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٨).

(٣) «أنور التنزيل» (٤: ٢٠٢).

[إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾]

أراد عزَّ وجلَّ أن يُريهم عِظَمَ الجِنَايَةِ فِي ذَهَابِ الذَّاهِبِ عَنِ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ، فَجَعَلَ تَرَكَ ذَهَابِهِمْ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ثَالِثَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ، وَجَعَلَهُمَا كَالْتَشْبِيهِ لَهُ وَالْبَسَاطَ لِذِكْرِهِ، وَذَلِكَ مَعَ تَصْدِيرِ الْجُمْلَةِ بِ﴿إِنَّمَا﴾، وَإِيقَاعِ «الْمُؤْمِنِينَ» مُبْتَدَأً مُخْبِرًا عَنْهُ بِمَوْضُوعِ أَحَاطَتْ صَلَاتُهُ بِذِكْرِ الْإِيمَانَيْنِ، ثُمَّ

قوله: (كالتشبيب له)، النهاية: في حديث أمِّ مَعْبِدٍ: فَلَمَّا سَمِعَ حَسَّانُ شِعْرَ الْهَاتِفِ سُبَّ يُجَاوِبُهُ أَي: ابْتَدَأَ فِي جَوَابِهِ، مِنْ تَشْبِيهِ الْكُتُبِ، وَهُوَ الْإِبْتِدَاءُ بِهَا، وَالْأَخْذُ فِيهَا، وَلَيْسَ مِنَ التَّشْبِيهِ فِي الشُّعْرِ وَهُوَ تَرْقِيقُهُ بِذِكْرِ النِّسَاءِ، يَرِيدُ أَنْ يَقُولَهُ: ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ تَمْهِيدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ عَلَى طَرِيقَةٍ: أَعْجَبَنِي زَيْدٌ وَكَرُمُهُ، وَأَصْلُهُ: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ، فَجَعَلَهُ تَمْهِيدًا لِهَذَا الْمَعْنَى تَفْخِيمًا لَهُ، وَتَعْظِيمًا لِمَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ.

قوله: (وإيقاع «المؤمنين» مبتدأ)، يعني: عَرَّفَ الْمُبْتَدَأَ تَعْرِيفَ جِنْسٍ، وَأَوْقَعَ الْخَبَرَ مَعْرَفًا مَوْضُوعًا مُشْتَمَلًا عَلَىٰ صِلَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْإِيمَانَيْنِ عَلَى مَنَوَالٍ:

أنا أبو النجم وشعري وشعري^(١)

فالمعنى: الْمُؤْمِنُونَ هُمُ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَا يَسْتَحَقُّونَ أَنْ يُسَمَّوْا مُؤْمِنِينَ حَقًّا، وَلَمَّا كَانَ ذِكْرُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ تَوَطُّةً لِذِكْرِ مَا بَعْدَهُ، رَجَعَ الْمَعْنَى إِلَى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ: الْكَامِلُونَ الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا أَنْ يُسَمَّوْا مُؤْمِنِينَ هُمْ: الَّذِينَ إِذَا كَانُوا مَعَهُ فِي أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ. .

(١) سبق تخريجه.

عَقَبَهُ بِمَا يَزِيدُهُ تَوْكِيداً وَتَشْدِيداً؛ حَيْثُ أَعَادَهُ عَلَى أَسْلُوبٍ آخَرَ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَنْذِرُونَكَ أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وَضَمَّنَهُ شَيْئاً آخَرَ؛ وَهُوَ: أَنَّهُ جَعَلَ الاسْتِئْذَانَ كَالْمِصْداقِ لِصِحَّةِ الْإِيْمَانَيْنِ، وَعَرَّضَ بِحَالِ الْمُنَافِقِينَ وَتَسْلُلِهِمْ لِوَأْدَانِ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَنْذِرُوهُ﴾: لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ وَيَأْذَنَ لَهُمْ، أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ عَلَّقَ الْأَمْرَ بَعْدَ وُجُودِ اسْتِئْذَانِهِمْ بِمَشِيئَتِهِ وَإِذْنِهِ لِمَنْ اسْتَصَوَّبَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ؟ وَالْأَمْرُ الْجَامِعُ: الَّذِي يُجْمَعُ لَهُ النَّاسُ، فَوُصِفَ الْأَمْرُ بِالْجَمْعِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ؛ وَذَلِكَ

قَوْلُهُ: (عَقَبَهُ بِمَا يَزِيدُهُ تَوْكِيداً [وَتَشْدِيداً]، حَيْثُ أَعَادَهُ عَلَى أَسْلُوبٍ آخَرَ)، يَعْنِي: لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُكْرِّرَ هَذَا الْمَعْنَى تَوْكِيداً وَتَقْرِيراً، أَعَادَ الْمَعْنَى وَقَلَبَهُ، فَجَعَلَ مَعْنَى مَا تَضَمَّنَ بِهِ الْمُسْنَدُ مُسْنَداً إِلَيْهِ، وَمَا تَضَمَّنَ بِهِ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ مُسْنَداً، حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَنْذِرُونَكَ أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

فَأَفَادَ الْأَوَّلَ حَضَرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمُسْتَأْذِنِينَ، وَالثَّانِي عَكْسَهُ، تَعْرِيفاً بِحَالِ الْمُنَافِقِينَ، وَتَسْلُلِهِمْ لِوَأْدَانِ، كَمَا قَالَ: «وَمَا اكْتَفَى بِذَلِكَ، بَلْ أَوْعَعَ أَوْلِيَّكَ خَبيراً، وَعَقَبَهُ ذِكْرَ الْإِيْمَانَيْنِ؛ لِيُؤْذَنَ بِأَنَّ أَوْلِيَّكَ مَحْقُوقُونَ بِأَنْ يُسَمَّوْا مُؤْمِنِينَ لِمَا اكْتَسَبُوا مِنْ صِفَةِ الْاسْتِئْذَانِ، وَاجْتَنَبُوا مِنَ التَّسْلُلِ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَةِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «جَعَلَ الْاسْتِئْذَانَ كَالْمِصْداقِ لِصِحَّةِ الْإِيْمَانَيْنِ».

قَوْلُهُ: (أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ عَلَّقَ الْأَمْرَ بَعْدَ وُجُودِ اسْتِئْذَانِهِمْ؟)، يَعْنِي: لَا بَدَّ مِنْ قَيْدِ: «وَيَأْذَنَ لَهُمْ»؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا اسْتَنْذَرْتُكَ﴾ مَرَّتُبٌ عَلَيْهِ بِالْفَاءِ، وَمُعْلَقٌ بِهِ إِذْنُهُ.

قَوْلُهُ: (فَوُصِفَ الْأَمْرُ بِالْجَمْعِ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ)، وَهُوَ يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ إِسْنَاداً مَجَازِيّاً؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْأَمْرِ يَجْمَعُ النَّاسَ لِأَمْرِهِ وَشَأْنِهِ، فَوُصِفَ بِصِفَةِ مَنْ هُوَ بِسَبَبِهِ، وَثَانِيهَا: أَنْ يَكُونَ اسْتِعَارَةً مَكْنِيَّةً، حَيْثُ شُبِّهَ بِإِنْسَانٍ خَطِيرٍ يَجْمَعُ النَّاسَ لِشَأْنِهِ، نَحْوَهُ قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾.

الرَّاعِبُ: الْجَمْعُ: ضَمُّ الشَّيْءِ بِتَقْرِيبِ بَعْضِهِ مِنْ بَعْضٍ، يُقَالُ: جَمَعْتُهُ فَاجْتَمَعَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أَي: عَلَى أَمْرٍ لَهُ خَطَرٌ اجْتَمَعَ لِأَجْلِ النَّاسِ، فَكَأَنَّ

نحو مُقاتلةِ عدوّ، أو تشاورٍ في خَطبٍ مُهِمٍّ، أو تَضامٍ لإرهابِ مُحالِفٍ، أو تماشحٍ في حِلْفٍ، وغير ذلك. أو الأمرُ الذي يعُمُّ بضرره أو بنفعه. وقُرئ: (أمرٍ جميع). وفي قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أنه خَطبٌ جليل لا بُدَّ لرسولِ الله ﷺ فيه من

الأمرِ نفسَه جمعهم، ويقال للمجموع: جَمْعٌ وجميعٌ وجماعةٌ، والجماعُ يقالُ في أقوامٍ متفاوتةٍ، وأجمعتُ كذا أكثرَ ما يقالُ فيما يكونُ جمعاً يُتوصَلُ إليه بالفكرة، نحو: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]، وجميعٌ، وأجمَعُ وأجمعونُ يُستعملُ لتأكيدِ الاجتماعِ على الأمرِ، وأما أجمعونُ فوصفٌ به المعرفة، ولا يجوزُ نَصْبُهُ على الحال، نحو قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٢٠]، ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]، وأما جميعٌ فقد يُنصبُ على الحالِ نحو قوله: ﴿أَهْلِطُوا مِنهَا جَمِيعاً﴾ [البقرة: ٣٨]، ومسجدُ الجامع، أي: الأمرُ الجامع أو الوقتُ الجامع، واستجمَعَ الفرسُ جزيّاً، وضرَبَه بجمع كَفَّه: إذا جمعَ أصابعه وضرَبَه^(١).

قوله: (أو تماشح في حلف)، التماسحُ: إمّا باليد كالمبايعة، أو بما يؤكدُ به الحلف، كما رَوَى صاحبُ «النهاية» أنّ بني عبدِ منافٍ أخرجتْ جفنةً مملوءةً طيباً فوضعتها لأحلافهم، وهم أسدٌ وزهرةٌ وتيممٌ، في المسجدِ عندَ الكعبة، ثم غَمَسَ القومُ أيديهم فيها، وتعاقدوا^(٢). هذا هو المرادُ من كلامِ المصنّف.

قوله: (أو الأمر الذي يعُمُّ بضرره أو بنفعه)، عطفٌ على «الأمرُ الجامع: الذي يُجمَعُ له الناسُ»، وعلى هذا الناسُ يجتمعونُ له من غيرِ تَطَلُّبٍ، نحو الأعيادِ والجمعة، أو نحو نزولِ نازلةٍ وحادثة، ولهذا قال في الوجهِ الأوّل: «يُجمَعُ له الناسُ».

قوله: (وقرئ: «أمرٍ جميع»)^(٣)، المطلع: جميعٌ: بمعنى جامع، أو مجموعٌ له.

قوله: (وفي قوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾)، يعني: في تخصيصِ هذا اللفظِ

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٠١.

(٢) في (ط): «وتعاقدوا».

(٣) انظر: «مختصر شواذ القرآن» ص ١٠٣.

ذوي رأي وقوة، يُظَاهِرُونَهُ عَلَيْهِ وَيُعَاوِنُونَهُ وَيَسْتَضِيءُ بِأَرَائِهِمْ وَمَعَارِفِهِمْ وَتَجَارِيهِمْ فِي كِفَايَتِهِ، فَمُفَارَقَةُ أَحَدِهِمْ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ مِمَّا يَشُقُّ عَلَى قَلْبِهِ، وَيُسَعِّثُ عَلَيْهِ رَأْيَهُ، فَمِنْ ثَمَّ غَلَّظَ عَلَيْهِمْ وَضَيَّقَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَ فِي الْأَسْتِثْنَانِ، مَعَ الْعُذْرِ الْمَبْسُوطِ وَمَسَاسِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَاعْتِرَاضِ مَا يُهْمُّهُمْ وَيَعْنِيهِمْ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾. وَذَكَرَ الْأَسْتِغْفَارَ لِلْمُسْتَأْذِنِينَ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَحْسَنَ الْأَفْضَلُ أَنْ لَا يُحَدِّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِالذَّهَابِ وَلَا يَسْتَأْذِنُوا فِيهِ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَكَانَ قَوْمٌ يَتَسَلَّلُونَ بِغَيْرِ إِذْنٍ.

وقالوا: كذلك ينبغي أن يكون الناس مع أئمتهم ومقدميهم في الدين والعلم: يُظَاهِرُونَهُمْ وَلَا يَحْذَلُونَهُمْ فِي نَازِلَةٍ مِنَ النَّوَازِلِ وَلَا يَتَفَرَّقُونَ عَنْهُمْ. وَالْأَمْرُ فِي الْإِذْنِ مُفَوَّضٌ إِلَى الْإِمَامِ: إِنْ شَاءَ إِذْنٌ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَأْذَنْ، عَلَى حَسَبِ مَا اقْتَضَاهُ رَأْيُهُ.

[﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٦٣]

إذا احتاج رسول الله ﷺ إلى اجتماعكم عنده لأمرٍ فدعاكم فلا تفرقوا عنه إلا بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الداعي. أو: لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يُسمي بعضكم بعضاً، ويُناديه باسمه الذي سماه به أبواه، ولا تقولوا: يا محمد، ولكن: يا نبي الله، ويا رسول الله، مع التوقير والتعظيم والصوت المخفوض والتواضع. ويحتمل: لا تجعلوا دعاء الرسول ربه مثل ما يدعو صغيركم كبيركم، وفقيركم غنيكم، يسأله حاجةً قريباً أجابه ورباً

مُدْمَجٌ مَعْنَى خَطَرِ الْأَمْرِ وَصَعُوبَتِهِ؛ لِأَنَّ اجْتِمَاعَ أَمْثَالِهِمْ لَا يَكُونُ فِي أَمْرٍ هَيِّنٍ، وَفِي تَعْقِيبِ ذَلِكَ بِالْأَسْتِغْفَارِ تَمِيمٌ لِمَعْنَى الْكِرَاهَةِ مِنْهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي إِذْنِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَذْنِ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ لِمَا عَسَى أَنْ يَأْذَنَ وَهُوَ غَيْرُ مُسَامِحٍ فِيهِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ الْأَحْسَنَ الْأَفْضَلَ أَنْ لَا يُحَدِّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِالذَّهَابِ».

رَدَّهُ؛ فَإِنَّ دَعَوَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَسْمُوعَةٌ مُسْتَجَابَةٌ. ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾: يَنْسَلُونَ قَلِيلًا قَلِيلًا. وَنَظِيرُ تَسَلَّلَ: تَدَرَّجَ، وَتَدَخَّلَ.

وَاللَّوَاذُ: الْمَلَاوِذَةُ؛ وَهُوَ أَنْ يَلُودَ هَذَا بِذَاكَ وَذَاكَ بِهَذَا. يَعْنِي: يَنْسَلُونَ عَنِ الْجَمَاعَةِ فِي الْحَفِيَّةِ عَلَى سَبِيلِ الْمَلَاوِذَةِ وَاسْتِتَارِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ. وَ﴿لِوَاذًا﴾ حَالٌ، أَي: مُلَاوِذِينَ. وَقِيلَ: كَانَ بَعْضُهُمْ يَلُودُ بِالرَّجُلِ إِذَا اسْتَأْذَنَ فَيَأْذَنُ لَهُ، فَيَنْطَلِقُ الَّذِي لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ مَعَهُ. وَقُرِئَ: (لِوَاذًا) بِالْفَتْحِ. يُقَالُ: خَالَفَهُ إِلَى الْأَمْرِ؛ إِذَا ذَهَبَ إِلَيْهِ دُونَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]؛

قَوْلُهُ: ﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾ [يَنْسَلُونَ] قَلِيلًا قَلِيلًا، الرَّاعِبُ: سَلَّ الشَّيْءُ مِنَ الشَّيْءِ: نَزَعَهُ، كَسَلَّ السَّيْفِ مِنَ الْعَمْدِ، وَسَلَّ الشَّيْءُ مِنَ الْبَيْتِ عَلَى سَبِيلِ السَّرِيقَةِ، وَسَلَّ الْوَالِدُ مِنَ الْأَبِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْوَالِدِ: سَلِيلٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، أَي: مِنَ الصَّفْوِ الَّذِي يُسَلُّ مِنَ الْأَرْضِ، قِيلَ: السَّلَالَةُ: كِنَايَةٌ عَنِ النَّطْفَةِ تُصَوَّرُ دُونَهُ صَفْوًا مَا يَحْصُلُ مِنْهُ، وَالسَّلُّ: مَرَضٌ يُنَزَعُ بِهِ اللَّحْمُ وَالْقُوَّةُ، وَقَدْ أَسْأَلَهُ اللَّهُ (١).

قَوْلُهُ: (وَاللَّوَاذُ: الْمَلَاوِذَةُ)، وَأَنْشَدَ صَاحِبُ «الْمَطْلَعِ» قَوْلَ الطَّرِمَاحِ:

تُلاوِذُ مِنْ حَرِّ كَأَنْ أَوَارَهُ يُذِيبُ دِمَاعَ الضَّبِّ، فَهُوَ خَدْوَعٌ (٢)

أَوَارُ الشَّمْسِ وَالنَّارِ: حَرَّهَا. خَدَعَ الضَّبُّ فِي جُحْرِهِ: دَخَلَ. قَالَ الْفَرَّاءُ: لِوَاذًا: مَصْدَرٌ لِوَاذٍ، وَلَوْ كَانَ مَصْدَرًا لَلَّذْتُ لَكَانَ لِوَاذًا، كَمَا تَقُولُ: قُمْتُ إِلَيْكَ قِيَامًا وَقَاوَمْتُكَ قَوَامًا (٣).

الرَّاعِبُ: ﴿لِوَاذًا﴾ مِنْ قَوْلِهِمْ لِوَاذٌ يُلَاوِذُ: إِذَا اسْتَتَرَ بِهِ، أَي: يَسْتَتِرُونَ فَيَلْتَجِئُونَ بِغَيْرِهِمْ، وَاللَّوِذُ: مَا يُطِيفُ بِالْجَبَلِ (٤).

(١) «مفردات القرآن» ص ١٨٤.

(٢) «ديوان الطرميح» ص ٨٧.

(٣) «معاني القرآن» للفراء (٢: ٢٦٢).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٧٥٠.

وخالفه عن الأمر؛ إذا صدَّ عنه دونه.

ومعنى ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾: الذين يصدُّون عن أمره دون المؤمنين، وهم المنافقون، فحذف المفعول؛ لأنَّ الغرض ذكرُ المخالف والمخالف عنه.

قوله: (خالفه إلى الأمر^(١))، قال: خالفته إلى الماء؛ إذا وردتُه وصدَّر عنه، وخالفته عن الماء؛ إذا صدَّرت عنه وورد هو.

قوله: (فحذف المفعول؛ لأنَّ الغرض ذكرُ المخالف والمخالف عنه)، يعني: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ متضمنٌ معنى يصدُّون، ولذلك عدِّي بعن وصدَّ متعدِّ يستدعي مفعولاً به، وهو ما قدره «دون المؤمنين» وترك ذكره؛ لأنَّ الغرض تقييح أمر المخالف، وتعظيم أمر المخالف عنه، فذكر الأهم، وترك ما لا اهتمام به، فدون بمعنى: قدام، كقول الأعشى:

تُربِك القَدَى مِن دُونِهِ وَهِيَ دُونُهُ^(٢)

والأمر واردٌ على عموم المَجَاز، ولذلك قال: «عن طاعته ودينه»، قال القاضي: يُخَالِفُونَ أمره بترك مقتضاه، ويديئون سَمْتاً خلافَ سَمْتِهِ، واستدلَّ به على أنَّ الأمر للوجوب، فإنه يدلُّ على أنَّ ترك مقتضى الأمر مقتضى لأحد العذابين^(٣).

وقال ابنُ الحاجب: عدَّى ﴿يُخَالِفُونَ﴾ بـ«عن» لِمَا فِي المُخَالَفةِ مِن معنى التباعِدِ والحَيْدِ، كأنه قال: الذي يَحِيدُونَ عن أمره بالمُخَالَفةِ، وهو أبلغٌ مِن إذا قيل: يُخَالِفُونَ أمره، وقد استدلَّ به^(٤) على أنَّ الأمر يقتضي الوجوب، لِمَا تَضَمَّنَتْهُ الآيةُ مِنَ الوعيدِ على المُخَالَفةِ، فإن قلت: الآيةُ متضمنةٌ للأمر بالحدِّ لِمَنْ يُخَالَف، وحدُّ المُخَالَفِ العذابُ لا يُفِيدُهُ بعدَ المُخَالَفةِ لِحُصُولِ السببِ المُقتضى له، وقبلها لا يحدُّ عذاباً؟ قلت: المعنى:

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «خالفه عن الأمر».

(٢) «ديوان الأعشى» ص ٢٦٩. وتمام البيت:

إذا ذاقها من ذاقها يتمطئ

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٠٤).

(٤) من قوله: «على أنَّ ترك مقتضى» إلى هنا، سقط من (ط).

فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ وَقَعَتْ مِنْهُمْ الْمُخَالَفَةَ ذَلِكَ، فَيَسْتَدْرِكُوا مَا فَعَلُوهُ بِالتَّوْبَةِ، وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا لِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ^(١). تَمَّ كَلَامُهُ.

وقال محيي السنة في «المعالم»: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، قيل: معناه: يُعْرِضُونَ عَنْ أَمْرِهِ، وَيَنْصَرِفُونَ عَنْهُ بغيرِ إِذْنِهِ^(٢).

وقلت: هذا هو التفسير الذي عليه التعويل، ويُساعدُ عليه النظمُ والتأويلُ؛ لأنَّ الأمرَ حينئذٍ بمعنى الشَّانِ، واحدُ الأمورِ، وبيانه: أنَّ ما قبلَهُ حديثٌ في الأمرِ الجامعِ، وهو الأمرُ الذي يُجْمَعُ لَهُ النَّاسُ، وَمَدْحٌ مِنَ لَزِمَ مَجْلِسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ولم يذهب عنه، وَذَمٌّ مِنَ فَرَاقِهِ بغيرِ الإذْنِ، وَالِاسْتِغْفَارِ فِي حَقِّ مَنْ فَارَقَ بِالِإذْنِ؛ لأنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَأَذِنَ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ﴾ يُؤْذِنُ أَنَّ الْقَوْمَ ثَلَاثٌ فِرَقٌ: الْمَأْذُونُ فِي الذَّهَابِ بَعْدَ الْاسْتِذْنَانِ، وَالْمُتَخَلِّفُ عَنْهُ، ثُمَّ الْمُتَخَلِّفُ إِذَا أَنْ يَدُومَ فِي مَجْلِسِهِ وَلَمْ يَذْهَبْ، وَهُمْ السَّابِقُونَ الْكَامِلُونَ، أَوْ يَتَسَلَّلَ لِوَأْدَاءِ، وَهُمْ الْمَنَافِقُونَ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ مَتَرْتَّبٌ عَلَى الْقِسْمِ الثَّلَاثِ عَلَى سَبِيلِ الْوَعِيدِ، وَالْفِعْلُ الْمَضَارِعُ يُفِيدُ مَعْنَى الدَّابِّ وَالْعَادَةِ، وَقَدْ أُقِيمَ الْمُظْهَرُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ مِنْ غَيْرِ لَفْظِهِ السَّابِقِ عِلَّةً لِاسْتِحْقَاقِهِمْ فِتْنَةَ الدَّارَيْنِ.

وَرَوَى الْإِمَامُ عَنِ الْأَخْفَشِ، أَنَّ «عَنْ»: صِلَةٌ، وَقَالَ غَيْرُهُ: مَعْنَاهُ: يُعْرِضُونَ عَنْ أَمْرِهِ وَيَمِيلُونَ عَنْ سُنَّتِهِ، فَدَخَلَتْ «عَنْ» لِتَضْمِينِ الْمُخَالَفَةِ مَعْنَى الْإِعْرَاضِ^(٣)، كَذَا فِي «الْوَسِيطِ»^(٤) وَ«الْمَطْلَعِ».

وَأَمَّا اسْتِدْلَالُ الْأُصُولِيِّينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وَجُوبِ الْأَمْرِ فَهُوَ إِتْمَانُهَا بِصَحْحِ وَتَمِّمِ إِذَا جُعِلَ قَوْلُهُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ تَذْيِيلًا لِلآيَتَيْنِ جَمِيعًا، وَبِرَادُ بِالْأَمْرِ مَا يَشْمَلُ

(١) «أمالي ابن الحاجب» (١: ٢٦٧-٢٦٨) باختصارٍ ملحوظ.

(٢) «معالم التنزيل» (٦: ٦٨).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٤٠).

(٤) «الوسيط» للواحد (٣: ٣٣١).

الضميرُ في ﴿أَمْرٍوهُ﴾ لله سبحانه، أو للرَّسُولِ ﷺ، والمعنى: عن طاعته ودينه. ﴿فِتْنَةٌ﴾: حِنَّةٌ في الدنيا، ﴿أَوْ يُصِيبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وعن ابن عباس: ﴿فِتْنَةٌ﴾: قتل. وعن عطاء: زَلْزَلٌ وأهوال. وعن جعفر بن محمد: يُسَلِّطُ عليهم سُلْطَانٌ جائر.

[﴿الْآيَاتِ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٦٤]

أَدْخَلَ ﴿قَدْ﴾؛ لِيُؤَكِّدَ عِلْمَهُ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمُخَالَفَةِ عَنِ الدِّينِ وَالنِّفَاقِ، وَمَرَجَعُ تَوْكِيدِ الْعِلْمِ إِلَى تَوْكِيدِ الْوَعِيدِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ «قَدْ» إِذَا دَخَلَتْ عَلَى الْمَضَارِعِ كَانَتْ بِمَعْنَى «رَبِّمَا»، فَوَافَقَتْ «رَبِّمَا» فِي خُرُوجِهَا إِلَى مَعْنَى التَّكْثِيرِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ:

فَإِنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الْفِنَاءِ فَرَبِّمَا أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُودِ وَوُفُودُ

وَنَحْوُهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

أَخِي ثِقَّةٌ لَا تُهْلِكُ الْحَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يَهْلِكُ الْمَالُ نَائِلُهُ

والمعنى: أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَخْتَصَّةٌ بِهِ خَلْقًا وَمُلْكًا وَعِلْمًا،

الْأَمْرَيْنِ مَعًا: الشَّانَ، وَالطَّلَبَ، كَمَا آذَنَ بِهِ كَلَامُ الْمُصَنِّفِ وَأَشْرَنَا إِلَيْهِ. أَمَّا مَعْنَى الشَّانِ فَقَدْ أَوْمَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ﴾، وَأَمَّا مَعْنَى الطَّلَبِ فَقَدْ أَشِيرَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

قَوْلُهُ: (فَإِنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الْفِنَاءِ)، الْبَيْتُ (١)، الْوُفُودُ: طُلَّابُ الْحَاجَاتِ. يَقُولُ: إِنْ مِتَّ وَصِرْتَ مَهْجُورَ السَّاحَةِ، فَرَبِّمَا أَزْدَحَمْتَ الْوُفُودَ فِيمَا مَضَى مِنْ حَيَاتِكَ عَلَى بَابِكَ.

فكيف تخفى عليه أحوال المنافقين، وإن كانوا يجتهدون في سترها عن العيون وإخفائها؟ وسيتبئهم يوم القيامة بما أبطنوا من سوء أعمالهم، وسيُجازيهم حق جزائهم.

والخطابُ والغيبَةُ في قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يجوزُ أن يكونا جميعاً للمنافقين على طريق الالتفات. ويجوزُ أن يكونَ ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ عامّاً، و﴿يُرْجَعُونَ﴾ للمنافقين. والله أعلم.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ النُّورِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بَعْدَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ فِيهَا مَضَى وَفِيهَا بَقِيَ».

قوله: (فكيف تخفى [عليه] أحوال المنافقين، وإن كانوا يجتهدون في سترها عن العيون وإخفائها؟)، هذا معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ لأنه قال فيه: «وهم المنافقون»، وهذا أيضاً يُقوي بيانَ النَّظْمِ السابق.

قوله: (ويجوزُ أن يكونَ ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ عامّاً)، أي: في المنافقين والمؤمنين، أما في المؤمنين وأحوالهم فمن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، وأما في المنافقين وخبئهم فمن قوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾، فيكونُ تسليةً ووعداً بالنسبة إلى المؤمنين، وتهديداً بالنسبة إلى المنافقين، وتخويفاً في الدنيا، ووعداً في العقبى خاصاً في حق المنافقين؛ لأنَّ قوله: ﴿فَيُنْزِلُ اللَّهُ السُّورَةَ﴾ ينزل على المؤمنين، ولذلك غيرَ التغليب في الخطابِ بأنتم إلى الغيبةِ في ﴿فَيُنْزِلُ اللَّهُ السُّورَةَ﴾.

تَمَّتِ السُّورَةُ

واللهُ الموفقُ للصواب

* * *

سورة الفرقان

مكية، سبعون وسبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ * ١-٢]

البركة: كثرة الخير وزيادته. ومنها: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفيه معنيان:

سورة الفرقان

مكِّيَّة، وهي سبعون وسبع آيات^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: (البركة: كثرة الخير وزيادته)، الجوهري: البركة: النماء والزيادة، وتبارك الله، أي: بارك، مثل قاتل، وتقاتل، إلا أن «فاعل» يتعدى، و«تفاعل» لا يتعدى.

الراغب: أصل البركة: صدر البعير، وبرك البعير: ألقى بركه، واعتبر منه معنى اللزوم، وبركاء الحرب وبروكاؤهما^(٢): للمكان الذي يلزمه الأبطال، وابترك الدابة: وقفت^(٣) وقوفاً كالبروك، وسُمي محبس الماء بركة. والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، سُمي بذلك

(١) في (ط): «مدنية، وهي سبع وسبعون آية».

(٢) قوله: «وبركاء الحرب وبروكاؤهما»، لم يرد في (ط)، وفيها بدلاً منه: «وبراكاؤها».

(٣) في (ط): «وابترك الدابة: وقف».

تزايد خيره، وتكاثر. أو: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله. والفرقان: مصدر فرق بين الشيئين؛ إذا فصل بينهما وسمي به القرآن؛ لفصله بين الحق والباطل. أو لأنه لم ينزل جملة واحدة، ولكن مفروقاً، مفصلاً بين بعضه وبعض في الإنزال. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَقْنَاهُ لِنُقَرِّأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكِّثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ [الإسراء: ١٠٦]؟ وقد جاء الفرقُ بمعناه، قال:

ومُشْرِكِي كَافِرٍ بِالْفُرْقِ

لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة، والمبارك: ما فيه ذلك الخير، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ﴾ [الأنبياء: ٥٠] تنبيهاً على ما يُفيض منه من الخيرات الإلهية. ولما كان الخير الإلهي مصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا ينحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مبارك، وفيه بركة^(١). ولنسبة هذه الصفة إلى جنابه الأقدس، وهل كانت من الصفات الإضافية والذاتية، قال: «تزايد خيره وتكاثر، أو: تزايد عن كل شيء، وتعالى عنه في صفاته وأفعاله». وعلى المعنى الأول يقال: تبارك الذي نزل هذا القرآن الكريم.

الفرقان: الفارق بين الحلال والحرام، الذي عمّت منافعه، وعمت عوائده، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠] وعلى الثاني يقال: تعاطم في ذاته، وتبارك في صفاته الذي نزل هذا القرآن العظيم الفرقان الفارق بين الحق والباطل، الذي بذت فصاحته نطق كل ناطق، وشقت بلاغته غبار كل سابق، ومنه قوله تعالى: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]. وقال القاضي: البركة تتضمن معنى الزيادة، وترتبه على إنزال القرآن لما فيه من كثرة الخير، أو لدلالته على تعاليه^(٢).

قوله: (ومُشْرِكِي كَافِرٍ بِالْفُرْقِ)^(٣)، الفرقُ بضم الفاء: بمعنى الفرقان، كالحُسرِ بمعنى

(١) «مفردات القرآن» ص ١١٩-١٢٠.

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٠٥).

(٣) ذكره الجوهري في «الصحاح» (فرق) من غير عزو لأحد.

وعن ابن الزبير: (على عباده)؛ وهم: رسول الله ﷺ وأُمَّته، كما قال: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]. والضميرُ في ﴿يَكُونُ﴾ لـ ﴿عَبْدِهِ﴾ أو لـ ﴿الْفُرْقَانِ﴾. وتعضدُ رجوعه إلى «الفرقان» قراءة ابن الزبير. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: للجنِّ والإنس ﴿نَذِيرًا﴾: مُنذِرًا، أي: مخوِّفًا. أو: إنذارًا،

الحُسران، والياءُ في «مُشركي»: للنسبة، زيدت للمبالغة، كأحمريِّ في أحمَر، وقال: في ياءِ النسبِ زيادةُ قوَّةٍ في الفعل، كالخصوصيةِ في الخُصوص.

قوله: (وعن ابن الزبير: على عباده)، قال ابن جنِّي: وَجْهُهُ أَنَّ الْإِنْزَالَ وَإِنْ كَانَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ مُوَصَّلًا لَهُ إِلَى الْعِبَادِ وَمُحَاطِبًا بِهِ لَهُمْ، صَارَ كَأَنَّهُ مَنزَّلٌ عَلَيْهِمْ، وَلِذَلِكَ كَثُرَ فِيهِ خُطَابُ الْعِبَادِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَهُمْ، وَالتَّرغِيبِ وَالتَّرْهيبِ الْمَضْرُوفِ إِلَيْهِمْ^(١).

قوله: (وتعضدُ رجوعه إلى «الفرقان» قراءة ابن الزبير)، يعني: «نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى عِبَادِهِ»؛ لِأَنَّ الضَّمِيرَ الْمَفْرَدَ لَا يَصِحُّ عَوْدُهُ إِلَى الْجَمْعِ، وَلَا بُدُّ لَهُ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ يَكُونُ فُرْقَانًا، وَيَعْتَضِدُ رَجُوعَهُ إِلَى الْعَبْدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِنُنذِرَ قَوْمًا﴾ [يس: ٥-٦].

وقلتُ: وفي اختصاصِ التَّنْذِيرِ دُونَ الْبَشِيرِ سُلُوكُ طَرِيقِ بَرَاعَةِ الْاسْتِهْلَالِ، وَالْإِيذَانُ بِأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مُشْتَمَلَةٌ عَلَى ذِكْرِ الْمُعَانِدِينَ الْمُتَخَذِينَ لِلَّهِ وَلَدًا وَشَرِيكًا، الطَّاعَتِينَ فِي كِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُؤَيِّدُ تَأْوِيلَ ﴿تَبَرَّكْ﴾ بِقَوْلِهِ: «تَزَايَدَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَتَعَالَى عَنْهُ» - لِإِفَادَتِهِ صِفَةَ الْجَلَالِ وَالْهَيْبَةِ - وَإِيذَانُهُ بِتَعَالِيهِ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَلِذَلِكَ جَعَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُ، مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تَوْطِئَةً وَتَمْهيدًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَنْخِذْ لَدَا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وَأَزْدَقَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لِأَنَّ مَرَّ مَرَارًا أَنَّ كَوْنَهُ بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمُفْطِرُهُمَا، وَمَالِكُهُمَا، مُنَافٍ لِاتِّخَاذِ الْوَالِدِ وَالشَّرِيكِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

(١) «المحتسب» (٢: ١١٧)، ولتعام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٧٩).

كالتنكير بمعنى الإنكار، ومنه قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر: ١٦]. ﴿الَّذِي لَهُ﴾ رفع على الإبدال من ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾، أو رفع على المدح، أو نصب عليه. فإن قلت: كيف جاز الفصل بين البَدَلِ والمُبَدَلِ منه؟ قلت: ما فصل بينهما بشيء؛ لأنَّ المُبَدَّلَ منه صَلَاتُهُ ﴿نَزَّلَ﴾، و﴿لِيَكُونَ﴾ تعليلٌ له، فكانَّ المُبَدَّلَ منه لم يتمَّ إلا به. فإن قلت: في الخلق معنى التقدير، فما معنى قوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾؟ كانه: وقدَّرَ كُلَّ

قوله: ﴿الَّذِي لَهُ﴾ رَفَعُ عَلَى الْإِبْدَالِ مِنْ ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾، وهذا أوجهٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ نَصْبًا أَوْ رَفْعًا عَلَى الْمَدْحِ؛ لِأَنَّ مِنْ حَقِّ صَلَاةِ الْمَوْصُولِ أَنْ تَكُونَ مَعْلُومَةً عِنْدَ الْمُخَاطَبِ، وَكَوْنُهُ تَعَالَى نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عِبْدِهِ لِلإِنذَارِ لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا عِنْدَ الْعَانِدِينَ، فَأَبْدَلَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُ مُلْكٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بياناً وتفسيراً، وليس كذلك المدح. وقال القاضي: الجملة وإن لم تكن معلومة، لكنها - لقوة دليلها - أُجْرِيتْ مَجْرَى الْمَعْلُومِ وَجُعِلَتْ صَلَاةً^(١).

قوله: (في الخلق معنى التقدير)، الراجب: الخلق أصله: التقدير المستقيم، ويُستعمل في: إبداع الشيء من غير أصلٍ واحتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النحل: ٣] أي: أبدعها، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ويُستعمل في: إيجاد الشيء من الشيء، نحو: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤]، وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وأما الذي يكون بالاستحالة فقد جعله الله لغيره في بعض الأحوال، قال تعالى: ﴿وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وأما قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فيوهم أنه يصح أنه يوصف غيره بالخلق، ومعناه: أحسنُ المُقَدِّرِينَ^(٢).

الأساس: خَلَقَ الْحَرَارَ الْأَدِيمَ، وَالْحَيَاطُ الثَّوْبَ: قَدَّرَهُ قَبْلَ الْقَطْعِ، وَقَدَّرَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ: قَاسَهُ وَجَعَلَهُ عَلَى مِقْدَارِهِ. وَمِنَ الْمَجَازِ: خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ: أَوْجَدَهُ عَلَى تَقْدِيرٍ أَوْجَبَتْهُ الْحِكْمَةُ.

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٠٥).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٢٩٦.

شيء فقدّره! قلتُ: المعنى: أنه أحدثَ كلَّ شيءٍ إحدائاً مُراعى فيه التقديرُ والتسوية، فقدّره وهياًه لما يصلحُ له، مثاله: أنه خلَقَ الإنسانَ على هذا الشكلِ المقدّرِ المسوّى الذي تراه، فقدّره للتكاليفِ والمصالحِ المنوطة به في بابيّ الدّين والدنيا، وكذلك كلُّ حيوانٍ وجمادٍ جاء به على الجبلةِ المُستوية المقدّرة بأمثلةِ الحكمةِ والتدبير، فقدّره لأمرٍ ما ومصلحةٍ مُطابقاً لما قدّر له غير متجافٍ عنه. أو: سُمّي إحدائاً اللهُ خَلَقاً؛ لأنه لا يُحدث شيئاً لحكمتهِ إلا على وجهِ التقدير من غيرِ تفاؤُت، فإذا قيل: خَلَقَ اللهُ كذا، فهو بمنزلةِ قولك: أحدثتُ وأوجدتُ من غيرِ نظرٍ إلى وجهِ الاشتقاق، فكأنه قيل: وأوجدتُ كلَّ شيءٍ فقدّره في إيجاده لم يوجده مُتفاوتاً. وقيل: فجعل له غايةً ومنتهى. ومعناه: فقدّره للبقاء إلى أمدٍ معلوم.

والجوابُ الأوّلُ مبنيٌّ على أن الخلقَ على الحقيقة، فالواجبُ أن يُفسّرَ قوله: ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ بما يُخالفه، وهو: ما قاله وهياًه لما يصلحُ له، وهو قولُ الزجاج: خَلَقَ اللهُ الحيوانَ وَقَدَّرَ لَهُ ما يُصلحُه وَيُقِيمُه^(١).

والثاني مُفرّغٌ على المَجاز، وذلك أن إحدائاً اللهُ تعالى شيءٌ لما لم يكن إلا على وجهِ التقدير، لأنه حكيماً، سُمّي مُطلقاً إحدائاًه بالخلقِ لما فيه معنى التقدير. والفرقُ بينَ الوجهين: أن التقديرَ والتسويةَ على الأوّلِ مقصودٌ بذكرِ الخلق، وعلى الثاني غيرُ مقصود، لكن لازمٌ له، ولذلك قال أولاً: مُراعى فيه التقدير، فالفاءُ على الأوّلِ: للتعقيبِ مع الترتيب، وعلى الثاني: للتعقيبِ مطلقاً، نحو قوله تعالى: ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فإن الفاءَ: للتعقيب. المعنى: فاعزموا على التوبةِ فاقتلوا أنفسكم من قبل أن اللهُ تعالى جعلَ توبتهم قتلَ أنفسهم، ويجوزُ أن يكونَ القتلُ تمامَ توبتهم فيكون المعنى: فتوبوا فاتبعوا التوبةَ القتلُ تامةً لتوبتكم^(٢).

(١) «معاني القرآن وإعراجه» (٤: ٥٧).

(٢) انظر: «الكشاف» (٢: ٤٨٩ - ٤٩٠).

[﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِمْ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ٣]

الخلق بمعنى الافتعال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، والمعنى: أنهم آثروا على عبادة الله سبحانه عبادة آلهة لا عجز أبيض من عجزهم، لا يقدرُونَ على شيءٍ من أفعالِ الله ولا من أفعالِ العباد؛ حيث لا يفتعلون شيئاً وهم يفتعلون؛ لأنَّ عبدتهم يصنعونهم بالنَّحتِ والتصوير، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ أي: لا يستطيعون لأنفسهم دَفَعَ ضررِ عنها أو جلبَ

قوله: (كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧])، قال فيه: «واختلافُهم الإفك: تسميتُهم الأوثانَ آلهةً وشركاءَ الله عزَّ وجلَّ، أو سَمَى (١) الأصنامَ: إفكاً، وعملهم لها، ونحتهم: خَلَقًا للإفك» (٢)، يعني: مقام إنكارِ اتِّخَاذِ الأندادِ مِنْ دُونِ اللَّهِ يقتضي تحقيرَ شأنِ الأصنامِ، وهذا المعنى أدخلَ مِنَ الظاهرِ فيما قُصِدَ مِنْهُ كما قُصِدَ الخليلُ عليه السَّلَامُ في الآيةِ المُستشهدِ بها، ولَمَّا قُسِّرَتِ القرينةُ الثانيةُ بذلك قُسِّرَتِ الأولى بما يُشاكلها، وفيه إثباتُ الخالقِيَّةِ للعبد، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، ولو أجزأهما على الظاهرِ كان أبعَدَ مِنَ التعسُّفِ، وَاتَّفَقَتِ القرائنُ إلى آخرِ الآيةِ في النفي عنها ما هو ثابتٌ للمعبودِ بالحقِّ لأنَّ المعبودَ ينبغي أن يكونَ خالقاً ومُدبِّراً ومثيباً ومُعاقباً، ويَدُلُّ على أن النفعَ والضررَ ليس إلا إلى الله قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ولا يقتضي هذا المقامُ مِنَ المبالغةِ ما يقتضيه ذلك، وإن شئتَ فجزَّبِ التأكيداتِ فيه مِنْ: «إنها» و«إن» والتكريرِ وغيرها، فهذا مقامُ الشكَايةِ، وذلك مقامُ التوبيخِ والتفريعِ (٣).

(١) في (ط): «وسمى».

(٢) «المصدر السابق» (١٢: ١٥٣).

(٣) في (ط): «والتفريع والتوبيخ».

نفع إليها وهم يستطيعون، وإذا عجزوا عن الافتعال ودفِع الضَّرر وجَلِبِ النفع التي يقدر عليها العبادُ كانوا عن الموت والحياة والنُّشور التي لا يقدر عليها إلا الله أعجز.

[وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا

ظَلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾]

﴿قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ قيل: هم اليهود. وقيل: عدَّاسٌ مولى حُوَيْطِبِ بْنِ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ، ويسارٌ مولى العلاءِ بنِ الحَضْرَمِيِّ، وأبو فكيهة الرُّومِي. قال ذلك النَّضْرُ بنُ الحارثِ بنِ عبد الدار. «جاء» و«أتى» يُسْتَعْمَلَانِ فِي مَعْنَى فَعَلَ، فَيُعَدَّيَانِ تَعْدِيَتَهُ، وَقَدْ يَكُونُ عَلَى مَعْنَى: وَرَدُّوا ظَلْمًا، كَمَا تَقُولُ: جِئْتُ الْمَكَانَ. وَيَجُوزُ أَنْ يُحْدَفَ الْجَارُ وَيُوصَلَ الْفِعْلُ. وَظَلْمُهُمْ: أَنْ جَعَلُوا الْعَرَبِيَّ يَتَلَقَّنُ مِنَ الْعَجَمِيِّ الرُّومِيِّ كَلَامًا عَرَبِيًّا أَعْجَزَ بِفَصَاحَتِهِ جَمِيعَ فَصْحَاءِ الْعَرَبِ. وَالزُّورُ: أَنْ يَهْتُوهُ بِنَسْبَةٍ مَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ إِلَيْهِ.

[وَقَالُوا اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾]

﴿اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: مَا سَطَّرَهُ الْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ نَحْوِ أَحَادِيثِ رُسْتَمٍ وَأَسْفَنْدِيَاذَ، جَمْعُ: اسْطَارٍ أَوْ اسْطُورَةٍ، كَأَخْدُوته، ﴿أَكْتَتَبَهَا﴾: كَتَبَهَا لِنَفْسِهِ وَأَخَذَهَا، كَمَا تَقُولُ: اسْتَكَبَ الْمَاءُ وَاصْطَبَّهُ: إِذَا سَكَبَهُ وَصَبَّهُ لِنَفْسِهِ وَأَخَذَهُ. وَقُرئ: (اكتتبها) على البناء للمفعول، والمعنى: اكتتبها كاتبٌ له؛ لأنه كان أُمِّيًّا لَا يَكْتُبُ بِيَدِهِ، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ إِعْجَازِهِ، ثُمَّ حُدِفَتِ اللَّامُ؛ فَأَفْضَى الْفِعْلُ إِلَى الضَّمِيرِ؛ فَصَارَ اِكْتَتَبَهَا إِيَّاهُ كَاتِبٌ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]،

قوله: (وقد يكون على معنى: وَرَدُّوا)، أي: اسْتَعْمِلَ «جاء» بِمَعْنَى «وَرَدَ» قَلِيلًا، وَمِنْهُ: جِئْتُ الْمَكَانَ، أَي: وَرَدْتَهُ. وَاخْتِيرَ ذَلِكَ لِبَلَاغَتِهِ وَوَجَازَتِهِ، إِذْ لَوْ قِيلَ: فَقَدْ ظَلَمُوا فِي ذَلِكَ وَقَالُوا قَوْلًا زُورًا، لِأَطَالِ وَفَاتِ الْاسْتِعَارَةِ، وَقَوْلُهُ: «وَيَجُوزُ أَنْ يُحْدَفَ الْجَارُ»، مُشْعِرٌ بِأَنَّ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ مَبْنِيٌّ عَلَى التَّضْمِينِ، وَالثَّانِي عَلَى الْمَجَازِ.

ثم بُنيَ الفعل للضمير الذي هو «إياه»؛ فانقلَبَ مرفوعاً مُستترأً بعد أن كان بارزاً منصوباً، وبقيَ ضميرُ الأساطير على حاله؛ فصار (اكتتَبَهَا) كما ترى. فإن قلت: كيف قيل: ﴿اكتتَبَهَا فهِ تُمَلَّى عَلَيْهِ﴾ وإنما يقال: أُملِيتُ عليه فهو يكتتَبُها؟ قلت: فيه وجهان؛ أحدهما: أرادَ اكتتابها، أو طلبه فهي تُمَلَّى عليه. أو كتبت له وهو أمِّي فهي

قوله: (ثم بُنيَ الفعل للضمير الذي هو «إياه»)، فانقلَبَ مرفوعاً مُستترأً، قال صاحب «الفرائد»: لِقائل أن يقول: إن كان قوله: «له» مفعولاً بحرف، وجب أن لا يجوزَ بناءُ الفعل له مع المفعول به المتعدى إليه بغير حرف، وإن كان مفعولاً له، وهو الوجه؛ لأن المعنى اكتتَبَهَا كاتبٌ له، أي: لأجله، وجب أن لا يبنى له. أما الأوَّلُ فلائِه قال في «المفصل»: «للمفعول به المتعدى إليه بغير حرفٍ من الفضل على سائر ما لا يُبنى له»، إلى آخر الفصل^(١). وأما الثاني فلائِه قال فيه^(٢): «المفاعيلُ سواءً في صحَّةِ البناءِ له إلا المفعولُ الثاني من بابِ «عَلِمْتُ»، والثالثُ من بابِ^(٣) «أَعَلِمْتُ»، والمفعولُ معه والمفعولُ له».

وقلت: يُمكنُ أن يُقالَ: إنه مفعولٌ بحرف، ولما حذَفَ الجارَّ أوصلَ الفعل، وأقيمَ مقامَ الفاعلِ على القلبِ للمبالغة، ونحوه سَبَقَ في قوله تعالى: ﴿يَسْخِجُ لَهُ فِيهَا﴾ [النور: ٣٦] في إقامةِ ﴿لَهُ﴾ مقامَ الفاعل. قال ابنُ جنِّي: «اكتتَبَهَا»: قراءةُ طلحةَ بنِ مُصرِّف، وإنما هو: استكتبها، وهو على القلبِ، أي: استكتب له، ومثله قراءةُ مَنْ قرأ ﴿قُدْرُوها نَقِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦] أي: قُدْرَتْ لهم، والقلبُ بابٌ وشواهدُه كثيرةٌ.

وأما قراءةُ العامَّةِ ﴿اكتتَبَهَا﴾ فمعناها: استكتبها، ولا يكونُ معناه: كتَبها بيده؛ لأنه ﷺ كان أمياً لا يكتبُ، وليس مُمتنعاً أن يكونَ ﴿اكتتَبَهَا﴾ بمعنى: كتَبها؛ لأنه على رأيه وأمره، كقولنا: صرَبَ الأميرُ اللَّصَّ^(٤).

(١) «المفصل» بشرح ابن الحاجب (٢: ٥٨).

(٢) يعني في «المفصل» (٢: ٥٦).

(٣) في (ط): «في».

(٤) «المحتسب» (١: ١١٧-١١٨). ولتأمام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٨٢).

تُملى عليه، أي: تُلقى عليه من كتابه يتحفّظها؛ لأنَّ صورةَ الإلقاءِ على الحافظِ كصورةِ الإلقاءِ على الكاتبِ. وعن الحسن: أنه قولُ الله سبحانه يُكذِّبهم. وإنما يستقيم أن لو

قوله: (وعن الحسن أنه قولُ الله)، أي: ﴿أَكْتَبَهَا﴾ قولُ الله عزَّ وجلَّ يُكذِّبهم في نسيئهم الاكتتابَ إلى رسولِ الله ﷺ بإملاءِ أهلِ الكتابِ، لا قولُ المشركين^(١)، وأوردَ المصنّف: «وإنما يستقيم ذلك أن لو فُتحتِ الهمزةُ» في ﴿أَكْتَبَهَا﴾ لكنّها مكسورةٌ دالةٌ على أنّها همزةٌ «افتعل»، ولو كانت همزةُ الاستفهامِ لكانت مفتوحةً، وهمزةُ الاستفهامِ إنّما تُحذفُ إذا دَلَّ عليها الدليلُ، نحو قوله:

بَسْبَعِ رَمَيْنَ الْجَمْرَ أَمْ بِشَانِ^(٢)

ووجهُ تصحيح قولِ الحسن أن تُجعلَ الآيةُ على أسلوبِ قولِ جرير:

أَفْرُحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِرَامَ^(٣)

لأنه إخبارٌ في معنى التوبيخ والتقرير، ومنه قوله تعالى في الأعراف: ﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِمْ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، قال المصنّف: إنه على الإخبار، أي: فعلتُم هذا الفعلَ الشنيعَ، توبيخاً لهم وتقريعاً. وقُرئ: «ءَأَمَنْتُمْ»، بحرفِ الاستفهامِ، ومعناه الإنكارُ والاستبعاد^(٤).

أما إفادةُ الخيرِ معنى التوبيخ والتقرير؛ فلأنَّ الأصلَ في الإخبارِ الساذجِ خُلُوُّ ذَهْنِ المخاطَبِ عن فائدةِ الخبرِ، وإذا أُلقيَ إليه الجملةُ وهو عالمٌ بفائدتها تولد بحسبِ قرائنِ الأحوالِ ما ناسبَ المقامَ، فاللهُ سبحانه وتعالى ما حكى كلامهم لإعلامِ المخاطبينَ فائدته، بل للتوبيخ والتقرير؛ فإنهم لما قالوا: ﴿أَسْتَطِيرُ الْأَوْلِيَيْنِ﴾ قال اللهُ تعالى حاكياً معنى

(١) انظر: «جامع البيان» للطبري (١٧: ٣٩٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) لحضرمي بن عامر يخاطب جزءَ بن سنان حين اتهمه بالسرورِ بأخذِ ديةِ أخيه القتيل. انظر: «مشاهد الإنصاف» (٣: ٢٦٤).

(٤) انظر: «الكشاف» (٦: ٥١٣)، ولتتام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٢٩٣.

فُتِحَتِ الهمزةُ للاستفهام الذي في معنى الإنكار. ووجهه أن يكون نحو قوله:

أَفْرَحُ أَنْ أُزْرَأَ الْكِرَامَ

وَحَقُّ الْحَسَنِ أَنْ يَقِفَ عَلَى ﴿الْأَوَّلِينَ﴾. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: دائماً، أو

كلامهم على سبيل المبالغة توبيخاً وتقريعاً: نَعَمْ صَدَقْتُمْ، هُوَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكَتَبَهَا فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ دَائِمًا، كَمَا إِذَا سَمِعْتَ بَمَنْ وَقَعَ فِيكَ: أَنَا ذَلِكَ الْفَاعِلُ الصَّانِعُ، وَلَسْتُ تُرِيدُ إِعْلَامَهُ بِذَلِكَ، بَلْ تَقَلَّتْ كَلَامَهُ لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ^(١). أَمَا قَوْلُ جَرِيرٍ^(٢):

أَفْرَحُ أَنْ أُزْرَأَ الْكِرَامَ وَأَنْ أُورَثَ ذُوْدًا شِصَائِصًا نَبَلًا

فلفظه إخبار، ومعناه الإنكار؛ لانطوائه تحت حكم قول مَنْ قَالَ لَهُ: أَتَفْرَحُ بِمَوْتِ أَخِيكَ وَبِوَرَاثَةِ إِبِلِهِ؟ وَالَّذِي لِأَجْلِهِ طَرَحَ هَمْزَةَ الْإِنْكَارِ إِرَادَةً أَنْ يُصَوِّرَ قُبْحَ مَا رَزَى بِهِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: نَعَمْ مِثْلِي يَفْرَحُ بِرِزْيَةِ الْكِرَامِ، وَبِأَنْ يَسْتَبَدَلَ مِنْهُمْ ذُوْدًا يَقْلُ طَائِلُهُ. وَهُوَ مِنَ التَّسْلِيمِ الَّذِي تَحْتَهُ كُلُّ الْإِنْكَارِ.

الشصوصُ: الناقَةُ الْقَلِيلَةُ اللَّبَنِ. وَالنَّبَلُ: الصُّغَارُ، وَالنَّبَلُ الْكِبَارُ، وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ. وَيُقَالُ: النَّبَلُ: جَمْعُ نَبِيلٍ، كَكْرِيمٍ وَكَرَمٍ. وَالنَّبْلَةُ^(٣): الْعَطِيَّةُ، وَبَعْضُهُمْ يُنْشِدُ بِالضَّمِّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى. وَالذُّودُ مِنَ الْإِبِلِ: مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى الْعَشْرِ، وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لَا وَاحِدَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا.

قوله: (وَحَقُّ الْحَسَنِ^(٤) أَنْ يَقِفَ عَلَى ﴿الْأَوَّلِينَ﴾)، لاختلافِ القائلين، أو لأنَّ لتقدير الاستفهام فيه مجالاً، كقوله تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]، و﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧]، وَقَالَ صَاحِبُ «الكواشي»: عَلَى الْمَشْهُورِ لَا وَقَفَ، لِأَنَّ «اكَتَبَهَا» حَالٌ، أَي: أَسَاطِيرُ مُكْتَبَةٌ.

(١) قوله: «والتوبيخ» سقط من (ط).

(٢) سبق تخريجه وأنه لحضرمي بن عامر وليس لجرير كما قال المصنف رحمه الله.

(٣) في (ط): «والنبيلة».

(٤) يعني: الحسن البصري، تفريقاً على قراءته المذكورة.

في الخُفْيَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَشِيرَ النَّاسَ، وَحِينَ يَأْوُونَ إِلَى مَسَاكِينِهِمْ.

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [٦]

أي: يعلم كل سر خفي في السماوات والأرض، ومن جملته ما تُسرُّونه أنتم من الكيِّد لرسوله ﷺ، مع علمكم أن ما تقولونه باطلٌ وزور، وكذلك باطنُ أمرِ رسولِ الله ﷺ، وبرأته مما تبهتُّونه به، وهو يُجازيكم ويُجازيه على ما علم منكم وعلم منه. فإن قلت: كيف طابق قوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ هذا المعنى؟ قلت: لِمَا كان ما تقدّمه في معنى الوعيد عقبه بما يدلُّ على القُدرة عليه؛ لأنه لا يُوصَفُ بالمغفرة والرحمة إلا القادرُ على العقوبة،

قوله: (بما يدلُّ على القُدرة عليه؛ لأنه لا يُوصَفُ بالمغفرة والرحمة إلا القادرُ على العقوبة)، يعني: لا يقال: رَحِمَ فلانٌ، أو: غَفَرَ فلانٌ، إلا لمن له القُدرةُ على العقوبة والانتقام، لا للعاجز الضعيف، وأنشد لابن هانئ^(١):

فَعَفَوْتَ عَنِّي عَفْوً مُقْتَدِرٌ
حَلَلْتُ لَهُ نِقَمٌ فَأَلْغَاها

فَدَلَّ قَوْلُهُ: ﴿ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ عَلَى الْقُدْرَةِ التَّامَّةِ الْكَامِلَةِ بِالْكِنَايَةِ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْكِنَايَةَ لَا تُنَافِي إِرَادَةَ الْحَقِيقَةَ وَلَا تَسْتَدْعِيهَا أَيْضًا. وَهَهُنَا قَامَتِ الْقَرِينَةُ عَلَى إِرَادَةِ مُجَرَّدِ الْاِقْتِدَارِ الْعَظِيمِ. نَعَمْ، فِي إِثَارِهَا تَعْيِيرٌ لَهُمْ، وَنَعْيٌ عَلَى فَعْلِهِمْ، يَعْنِي: إِنَّكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ بِحَيْثُ يَتَصَدَّى لِعَذَابِكُمْ مَنْ صَفْتُهُ الْغُفْرَانُ وَالرَّحْمَةُ.

قال صاحبُ «الفرائد»: يمكنُ أن يُقالَ: ذَكَرَ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَعْنَى لِأَجْلِ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّ هَذِهِ الذُّنُوبَ الْعَظِيمَةَ الْمُتَجَاوِزَةَ عَنِ الْحَدِّ مَفْقُودَةٌ إِنْ تَابُوا، وَأَنَّ رَحْمَتَهُ وَاصِلَةٌ إِلَيْهِمْ بَعْدَهَا، وَأَنَّ لَا يَبْأَسُوا مِنْ رَحْمَتِهِ بِمَا فَرَطَ مِنْهُمْ مَعَ إِصْرَارِهِمْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَادَاةِ وَالْمُخَاصَمَةِ الشَّدِيدَةِ.

(١) يعني أبا نواس. والبيت في «ديوانه» ص ٤٥٩.

أو هو تنبيهٌ على أنهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يُصَبَّ عليهم العذاب صَبًّا، ولكن صَرَفَ ذلك عنهم أنه غفورٌ رحيمٌ يُمهِّلُ ولا يُعاجِلُ.

[﴿ وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُنْفِقُ إِلَيْهِ كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ ٧ - ٨]

قوله: (أو هو تنبيهٌ على أنهم استوجبوا)، هذا الوجهُ أوفقٌ لتأليفِ النَّظْمِ، وذلك أن قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُنزِلَ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ جوابٌ عن قولهم: ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَبْتَهُ ﴾، وقولهم: ﴿ اسْتَطِيرَ الْأَوْلِيَيْنِ ﴾ على الأسلوبِ الحكيمِ، أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ: ليس هذا من افترائي ولا هو مُمَلَى عَلَيَّ، بل مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ مَنْ يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وما في دَخَلِكُمْ مِنَ الدَّغَلِ^(١) والدَّهَاءِ والمَكْر؛ لأنكم تَعْلَمُونَ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْاِفْتِرَاءِ، ولا هو من الأساطير؛ لأنه أَعْجَزَكُمْ عن أَخْرِكُمْ بِفَصَاحَتِهِ، وأنه تَضَمَّنَ أخباراً عن الْمُغَيَّبَاتِ، وأسراراً مكتوبةً لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، لكنْ غَرَضُكُمْ الصَّدُّ عن سَبِيلِ اللهِ، ومَجْرَدُ الْعِنَادِ، ويؤيِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَاءَهُمْ ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ وإِقْحَامُهُ بَيْنَ كَلَامِهِمْ، فسبحانَهُ ما أَرْحَمَهُ وما أَجَلَّهُ؛ حيث أمهَلَكُم ولم يُعاجِلِكُم بالاسْتِئْصَالَ لهذه العظيمة! فإذَنْ في قوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ معنى التَعْجِبِ كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾.

وقال القاضي: ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾، فلذلك لا يَعَجَلُ في عُقُوبَتِكُمْ على ما تقولون مع كمالِ قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا، واستحقاقِكُمْ أن يُصَبَّ عَلَيْكُمْ صَبًّا^(٢).

وقلتُ: انظُرْ أَيُّهَا الْمَتَأَمِّلُ في هذا الجوابِ الصَّادِعِ، والنُّورِ السَّاطِعِ، والنَّظْمِ الْفَاتِقِ، فسبِّحَ اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ.

(١) بالتحريك وهو الفساد.

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٠٧).

وَقَعَتِ اللَّامُ فِي الْمُصْحَفِ مَفْصُولَةً عَنْ ﴿هَذَا﴾ خَارِجَةً عَنْ أَوْضَاعِ الْخَطِّ الْعَرَبِيِّ، وَخَطُّ الْمُصْحَفِ سُنَّةٌ لَا تُغَيَّرُ، وَفِي هَذَا اسْتِهَانَةٌ وَتَصْغِيرٌ لِشَأْنِهِ، وَتَسْمِيَةٌ بِالرَّسُولِ سُخْرِيَّةٌ مِنْهُمْ وَطَنَزٌ، كَأَنَّهُمْ قَالُوا: مَا لِهَذَا الزَّاعِمِ أَنَّهُ رَسُولٌ! وَنَحْوَهُ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]؛ أَي: إِنَّ صَحَّ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ فَمَا بِالْهَ حَالُهُ مِثْلَ حَالِنَا ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ كَمَا نَأْكُلُ، وَيَتَرَدَّدُ فِي الْأَسْوَاقِ لَطَلَبِ الْمَعَاشِ كَمَا نَتَرَدَّدُ؟! يَعْنُونَ أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مُسْتَغْنِيًا عَنِ الْأَكْلِ وَالتَّعِيْشِ. ثُمَّ نَزَلُوا عَنْ اقْتِرَاحِهِمْ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا إِلَى اقْتِرَاحِ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا مَعَهُ مَلَكٌ، حَتَّى

قَوْلُهُ: (وَقَعَتِ اللَّامُ فِي الْمُصْحَفِ مَفْصُولَةً عَنْ ﴿هَذَا﴾ خَارِجَةً عَنْ أَوْضَاعِ الْخَطِّ الْعَرَبِيِّ)، قَالَ شَارِحُ «الرَّائِيَّةِ»^(١): كَتَبَ ﴿مَالِ هَذَا﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ: فِي الْكَهْفِ: ﴿مَالِ هَذَا أَلْكَتَبِ﴾ [الكهف: ٤٩]، وَفِي الْفُرْقَانِ: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾. أَمَّا ﴿مَالِ الَّذِينَ﴾ فَهُوَ فِي الْمَعَارِجِ لَا غَيْرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المعارج: ٣٦]، وَكَذَلِكَ: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: ٧٨] حَرْفٌ وَاحِدٌ فِي النِّسَاءِ، جَمِيعُ ذَلِكَ كُتِبَ مَفْصُولًا مِنَ اللَّامِ، وَهِيَ لَامُ الْجَزْرِ تَنْبِيْهًا عَلَى الْأَصْلِ، وَعَلَى أَنَّهُ زَائِدٌ لَيْسَ مِنَ الْكَلِمَةِ، وَجُعِلَ مُتَّصِلًا بِهَا وَمُنْفَصِلًا مِمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ مَا قَدْ اتَّصَلَ بِهَا غَيْرُهَا.

وَقَالَ غَيْرُهُ: وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ تُكْتَبَ مَوْصُولَةً بِهَا بَعْدَهَا؛ لِأَنَّهَا لَامُ الْإِضَافَةِ، وَلَا يَظْهَرُ مَعْنَاهَا إِلَّا بِهَا بَعْدَهَا، وَإِنَّمَا كُتِبَتْ فِي هَذِهِ الْأَحْرُفِ مَقْطُوعَةً لِكثْرَةِ اسْتِعْمَالِ اللَّامِ مَعَ «مَا» الَّتِي لِلْاسْتِفْهَامِ، كَقَوْلِهِمْ: مَا لَهُ وَمَا لَكَ؟ بِمَعْنَى: مَا حَالُكَ وَمَا شَأْنُكَ؟ فَتَوَهَّمُوا أَنَّ اللَّامَ مِنْ «مَا» فَوَصَلُوهَا بِهَا، وَقَطَّعُوهَا عَمَّا بَعْدَهَا، كَمَا قَطَّعُوا الشَّانَ وَالْحَالَ عَمَّا بَعْدَهَا.

(١) وهي منظومة في علم رسم المصحف تُسَمَّى «العقيلة» من تصنيف الإمام الشهير أبي محمد القاسم ابن فيره الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) وقد شرحها غير واحد من العلماء منهم: الإمام علم الدين علي بن محمد السخاوي (ت ٦٤٣ هـ) سَمَّاهُ «الوسيلة إلى كشف العقيلة»، وشرحها أيضاً الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (ت ٧٣٢ هـ) وسَمَّاهُ «جميلة أرباب المرصد». انظر: «كشف الظنون» (٢: ١١٥٩).

يَتَسَانَدًا فِي الْإِنذَارِ وَالتَّخْوِيفِ. ثُمَّ نَزَّلُوا - أَيْضًا - فَقَالُوا: وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَرْفُودًا بِمَلَكٍ فَلْيُكُنْ مَرْفُودًا بِكَتَبٍ يُلْقَى إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ يَسْتَظْهِرُ بِهِ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْصِيلِ الْمَعَاشِ. ثُمَّ نَزَّلُوا فَاقْتَنَعُوا بِأَنْ يَكُونَ رَجُلًا لَهُ بَسْتَانٌ يَأْكُلُ مِنْهُ وَيَرْتَرِّقُ كَمَا الدَّهَاقِينُ وَالْمَيَاسِيرُ. أَوْ: يَأْكُلُونَ هُمْ مِنْ ذَلِكَ الْبَسْتَانِ فَيَتَنَفَعُونَ بِهِ فِي دُنْيَاهُمْ وَمَعَاشِهِمْ. وَأَرَادَ بِالظَّالِمِينَ: إِيَّاهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ، وَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِّ؛ لِيُسَجَّلَ عَلَيْهِمُ بِالظُّلْمِ فِيمَا قَالُوا. وَقُرِئَ: (فِيكَوْنُ) بِالرَّفْعِ، (أَوْ يَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ) بِالْيَاءِ، وَ(نَأْكُلُ)، بِالنُّونِ. فَإِنْ قَلَّتْ:

قوله: (مرفودًا)، الجوهري: الرَّفْدُ: العطاءُ والصَّلَة، والرَّفْدُ بِالْفَتْحِ: المصدرُ، تقولُ: رَفَدْتُهُ أَرْفُدُهُ رَفْدًا: أَعْطَيْتَهُ، وَكَذَلِكَ: إِذَا أَعْتَيْتَهُ.

قوله: (كما الدهاقين)، «ما» هذه كافةٌ ومُهَيَّئَةٌ لدخولِ الكافِ على الجملة، أي: كما الدهاقينُ كذلك.

قوله: (أَوْ: يَأْكُلُونَ هُمْ مِنْ ذَلِكَ)، عطفٌ على قوله: «يَأْكُلُ مِنْهُ»، أي: تكونُ له جَنَّةٌ يَتَنَفَعُ هُوَ بِهَا بِأَنْ يَأْكُلَ بَعْضُ أَثْمَارِهَا، وَيَبِيعَ بَعْضُهَا وَيَرْتَرِّقُ مِنْهَا، كَمَا تَفْعَلُ الدَّهَاقِينُ بِبَسَاتِينِهِمْ الَّتِي أَرْزَاقُهُمْ مُنْحَصِرَةٌ فِيهَا، أَوْ: هُمْ يَتَنَفَعُونَ مِنَ الْجَنَّةِ بِالْأَكْلِ وَبَسَائِرِ مَعَاشِهِمْ. وَالحَاصِلُ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ الْأَكْلَ فِي الْمَنَافِعِ لِأَنَّهُ الْعَرَضُ الْأَعْظَمُ مِنْهَا، وَالْوَجْهَانِ مَبْنِيَانِ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ فِي يَأْكُلُ.

قوله: (وَقُرِئَ: «فِيكَوْنُ» بِالرَّفْعِ، «أَوْ يَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ» بِالْيَاءِ)، وهما شاذتان^(١)، وَ(نَأْكُلُ) بِالنُّونِ: قِرَاءَةٌ حَمِزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ، وَالْبَاقُونَ: بِالْيَاءِ^(٢). قَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: وَالْقِرَاءَةُ فِي «أَوْ تَكُونُ» بِالتَّاءِ الْقَوَائِي، وَقُرِئَ بِالْيَاءِ خَارِجَ السَّبْعَةِ^(٣) اعْتِدَادًا بِالْفَضْلِ، كَمَا جَاءَ فِي

(١) انظر: «مختصر شواذ القرآن» ص ١٠٤.

(٢) وَحِجَّةٌ مَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ فَخَصَّهُ - يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ - بِالْوَصْفِ وَلَمْ يَقُلْ ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ فَيَدْخُلُوا مَعَهُ فِي الْوَصْفِ. انْتَهَى مِنْ «حِجَّةِ الْقِرَاءَاتِ» ص ٥٠٧. وَهُوَ الَّذِي رَجَّحَهُ مَكِّي بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي «الْكَشْفِ عَنْ وَجْهِ الْقِرَاءَاتِ» (٢: ١٤٤) وَقَالَ: وَالْيَاءُ الْاِخْتِيَارُ، لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ عَلَى ذَلِكَ، وَلِأَنَّ قَبْلَهُ لَفْظٌ غَيْبِيٌّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي اقْتِرَاجِهِمْ.

(٣) وَمَنْ قَرَأَ بِهَا الْأَعْمَشُ وَقَتَادَةَ. انظر: «البحر المحيط» (٨: ٨٤).

ما وَجَّهَ الرَّفْعِ وَالنَّصْبِ فِي (فِي كَوْن)؟ قُلْتُ: النَّصْبُ؛ لِأَنَّهُ جَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾ بِمَعْنَى «هَلَا»، وَحُكْمُهُ حُكْمُ الاسْتِفْهَامِ، وَالرَّفْعُ عَلَى أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿أَنْزَلَ﴾، وَمَحَلُّهُ الرَّفْعُ،

سُورَةُ الْأَنْعَامِ (١) وَالْقَصَصِ (٢) فِي قِرَاءَةِ الزِّيَّاتِ وَعَلِيٍّ، فَقَرَأَ «مَنْ يَكُونُ» بِالْيَاءِ، وَالتَّحْتَانِي، وَغَيْرُهُمَا لَمْ يُعْتَدَّ بِالْفُضْلِ فَانْتَهَوْا لِتَأْنِيثِ «الْجَنَّةِ»، وَكَأْتَهُمْ أَرَادُوا التَّوْفِيقَ وَالطَّاعَةَ وَالْمُطَابَقَةَ (٣).

قَوْلُهُ: (وَمَحَلُّهُ الرَّفْعُ)، أَي: مَحَلُّ ﴿أَنْزَلَ﴾؛ لِأَنَّهُ لَوْ وَقَعَ مَوْقَعَهُ الْمَضَارِعُ لَكَانَ مَرْفُوعًا؛ لِأَنَّكَ إِنَّمَا تَقُولُ ابْتِدَاءً: لَوْلَا يَقُولُ، بِالرَّفْعِ، وَقَدْ عَطَفَ عَلَيْهِ ﴿يُلْقَى﴾ وَ﴿تَكُونُ﴾ وَالْحَالُ أَنَّهُمَا مَرْفُوعَانِ، وَالْعَطْفُ يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَا مَنْصُوبَيْنِ؛ لِكَوْنِهَا فِي حُكْمِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَرْفُوعٌ لَا غَيْرُ. قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: ﴿أَوْ يُلْقَى﴾ ﴿أَوْ تَكُونُ﴾: مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿أَنْزَلَ﴾؛ لِأَنَّ ﴿أَنْزَلَ﴾ بِمَعْنَى: يُنْزَلُ، أَوْ: ﴿يُلْقَى﴾ بِمَعْنَى: أُلْقِيَ (٤).

وَقَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ كِلَاهُمَا بِالرَّفْعِ لَا غَيْرُ، دَاخِلٌ فِي التَّخْصِصِ وَبِئْسَ جَوَابٌ لَهُ (٥).

وَقُلْتُ: الْوَجْهُ فِي قِرَاءَةِ «فِي كَوْنٍ» بِالرَّفْعِ أَنْ يُجْعَلَ مِنْ تَتَمَّةِ ﴿أَنْزَلَ﴾ مَرْتَبًا عَلَيْهِ غَيْرِ مُسْتَقَلٍّ اسْتِقْلَالًا «أَلْقَى» وَ«يَكُونُ»؛ لِكَوْنِ مُطَابَقًا لِقِرَاءَةِ النَّصْبِ، وَعَلَيْهِ الْمَعْنَى، أَلَا تَرَى كَيْفَ قَدَّرَ: «ثُمَّ نَزَّلُوا عَنْ اقْتِرَاحِهِمْ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا إِلَى اقْتِرَاحِ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا مَعَهُ مَلَكٌ حَتَّى يَتَسَانَدَا فِي الْإِنذَارِ» إِلَى آخِرِهِ؟

(١) يَعْنِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَنْقُورُ أَسْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَذِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥].

(٢) يَعْنِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِيهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَذِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧].

(٣) «كَشْفُ الْمَشْكَلَاتِ» لِلْبَاقُولِيِّ (٢: ٩٦٧) وَهَذِهِ الْفَقْرَةُ وَرَدَتْ فِي (ط) هُنَا، وَوَرَدَتْ فِي (ح) وَ(ف) قَبْلَ فِقْرَةٍ: «قَوْلُهُ: كَمَا الدَّهَاقِينَ».

(٤) «التَّبْيَانُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» (٢: ٩٨١).

(٥) «كَشْفُ الْمَشْكَلَاتِ» لِلْبَاقُولِيِّ (٢: ٩٦٥-٩٦٦).

ألا تراك تقول: لولا يُنزَل، بالرَّفَع؟ وقد عَطَفَ عليه ﴿يُلَقَى﴾، و﴿تَكُونُ﴾ مرفوعين، ولا يجوزُ النصبُ فيها؛ لأنها في حُكْمِ الواقعِ بعد ﴿لَوْلَا﴾، ولا يكون إلا مرفوعاً. والقائلون: هم كفَّارُ قُرَيْشٍ: النضرُ بن الحارث، وعبدُ الله بنُ أبي أمية، وتوفلُ بن خويلد، ومن ضامهم. ﴿مَسْحُورًا﴾: سُحِرَ فغَلِبَ على عَقْلِهِ. أو: ذا سحر؛ وهو الرِّثَّة؛ عَنَّا أنه بشرٌ لا ملك.

[﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [٩]

﴿ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ﴾ أي: قالوا فيك تلك الأقوالَ واخترَعُوا لك تلك الصِّفَاتِ والأحوالَ النادرة؛ من: نبوةٍ مُشتركةٍ بين إنسانٍ وملك، وإلقاءِ كنزٍ عليك من السماء، وغير ذلك، فَبَقُوا متحيرين ضلَّالًا، لا يَجِدُونَ قولًا يَسْتَقِرُّون عليه. أو: فَضَلُّوا عن الحقِّ فلا يَجِدُونَ طريقاً إليه.

قوله: (وهي^(١) الرِّثَّة)، الجوهري: الرِّثَّة: السَّحَرُ، مهموزٌ، ويجمَعُ على: رِثين، والهَاءُ عَوَضٌ مِنَ الْيَاءِ؛ تقولُ منه: رأيتُه، أي: أصَبْتُ رِثَتَهُ.

الأساس: كلُّ ذي سَحَرٍ يتنفَسُ وهو الرِّثَّة. ومن المجازِ: سَحَرَهُ، وهو مَسْحُورٌ، وإِنَّمَا سُمِّيَ السَّحَرُ استعارةً، لأنه وقتُ إدبارِ اللَّيْلِ وإقبالِ النَّهَارِ فهو مُتنفَسٌ^(٢).

قوله: (أو: فَضَلُّوا عن الحقِّ)، عطفٌ على قوله: «فَبَقُوا متحيرين»، وعلى الأوَّلِ متعلِّقٌ ﴿ضَلُّوا﴾ غيرُ منويٍّ، و﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ هو نفسُ الضَّلَالِ؛ لأنَّ كلَّ مَنْ كان مُتَحِيرًا لا يَثْبُتُ على شيءٍ، وعلى الثاني: مُتعلِّقٌ ﴿ضَلُّوا﴾ مقدَّرٌ، وهو: عنِ الحقِّ، والفاءُ في الوجهِ الأوَّلِ كالفاءِ في ﴿فَأَقْبَلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] على وجه. ومن ثمَّ لم يأتِ المصنِّفُ في التقديرِ بالفاءِ. وفي الثاني: للتثيبتِ؛ ولهذا صرَّحَ بها.

(١) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي المطبوع: «وهو»، والأمر قريب.

(٢) يعني مُتنفَسٌ الصبح كما في «أساس البلاغة» (سحر).

[﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ

لَكَ قُصُورًا ﴾ [١٠]

تَكَاتَرَ خَيْرٌ ﴿ الَّذِي إِنْ شَاءَ ﴾ وَهَبَ لَكَ فِي الدُّنْيَا ﴿ خَيْرًا ﴾ نَمَا قَالُوا؛ وَهُوَ أَنْ يُعَجَّلَ لَكَ مِثْلَ مَا وَعَدَكَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْجَنَّاتِ وَالْقُصُورِ. وَقُرئ: (وَيَجْعَلُ) بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى ﴿ جَعَلَ ﴾؛ لِأَنَّ الشَّرْطَ إِذَا وَقَعَ مَاضِيًا، جَازَ فِي جَزَائِهِ الْجَزْمَ وَالرَّفْعُ، كَقَوْلِهِ:

قَوْلُهُ: (وَهُوَ أَنْ يُعَجَّلَ لَكَ مِثْلَ مَا وَعَدَكَ فِي الْآخِرَةِ)، قَالَ السَّجَاوُنْدِيُّ: وَلَوْ عَجَّلَ لَارْتَفَعَ الْاِخْتِيَارُ وَلَمْ يَتَبَيَّنْ فَضْلُ مَنْ تَابَعَ مَعَ الْفَقْرِ بِحُسْنِ الْاِخْتِيَارِ.

نَزَلَ مَعَ الْآيَةِ رِضْوَانٌ بِمِفَاتِيحِ الْخَزَائِنِ، فَنَظَرَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إِلَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَالْمُسْتَرِيدِ، أَي: انظُرْ مَاذَا يَعْرِضُ عَلَيَّ، فَظَنَّ جِبْرِيلُ أَنَّهَا اسْتِشَارَةٌ، فَأَوْمَى إِلَى الْأَرْضِ، أَي: تَوَاضَعُ، فَقَالَ ﷺ: «أَجُوعُ يَوْمَيْنِ وَأَشْبَعُ يَوْمًا».

وَقُلْتُ: رَوَيْنَا فِي «المصابيح»^(١): قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبُّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، فَإِذَا جُعْتُ تَصَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ»^(٢)، وَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ». أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ^(٣) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: (وَقُرئ: «وَيَجْعَلُ» بِالرَّفْعِ)، ابْنُ كَثِيرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو بَكْرٍ، وَالْباقُونَ: بِالْجَزْمِ^(٤).

(١) «مصابيح السنة» (٣: ٤٢٦) برقم (٤٠٣٢).

(٢) فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ: «ذَكَرْتُكَ» دُونَ وَאו، وَالمُثَبَّتِ مِنْ مِصَادِرِ التَّخْرِيجِ.

(٣) «سنن الترمذي» (٢٣٤٧) وَأَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «المسند» (٢٢٢٤٤). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

(٤) عَطَفُوا عَلَى مَوْضِعِ ﴿إِنْ شَاءَ﴾، وَالمَعْنَى: إِنْ يَشَاءُ يُجْعَلُ لَكَ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا. انظُر: «حجّة

وَأَن آتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ: لَا غَائِبَ مَالِي وَلَا حَرِمٌ

ويجوزُ في ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ﴾ إذا أدغمت: أن تكون اللامُ في تقديرِ الجزمِ والرفعِ جميعاً. وُقِرَى بالنصب، على أنه جوابُ الشرطِ بالواو.

[﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أَلْقَاوْا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ١١ - ١٤]

قوله: (وَأَن آتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ)^(١)، خليلٌ: مشتقٌ من الخلة، وهي الحاجةُ والفقرُ. والحريمُ: الحرمانُ. قال أبو عبيدٍ: يقالُ: مألٌ حريمٌ: إذا كان لا يُعطى منه. وقال صاحبُ «الفرائدِ»: يمكنُ أن يُقالَ: ارتفاعٌ ﴿يَجْعَلُ﴾ على أنه جملةٌ مُبتدأَةٌ معطوفةٌ على الجملةِ الشرطيةِ، أي: يزيدُ على ما قالوا. وهذا قولُ الزجاجِ، قال: وَمَن رَفَعَ فعلى الاستثنا، والمعنى: سَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا، أي: سَيُعْطِيكَ اللهُ أَكْثَرَ مِمَّا قَالُوا^(٢).

قوله: (وُقِرَىٰ بِالنَّصْبِ عَلَىٰ أَنَّهُ جَوَابُ الشَّرْطِ بِالْوَاوِ)، قال ابنُ جنِّي: قرأَ عبيدُ الله بنُ موسى وطلحةُ بنُ سليمانَ: «وَيَجْعَلُ لَكَ» بالنصبِ على أنه جوابُ الجزاءِ بالواو، كقولنا: إن تأتيني آتِكُ وأُحسِنَ إليكَ، وجازتْ إجابتهُ بالنصبِ لِمَا لم يكن واجباً إلا بوقوعِ الشرطِ من قبَله، وليس قوياً مع ذلك، ألا تراه أنه بمعنى قولك: أفعلُ كذا إن شاء اللهُ؟ ثمَّ كلامه^(٣). وقيل: هذا ضعيفٌ عند سيويه، والذي جَوَّزَه شبهُ الجزاءِ بأحدِ الأشياءِ الستةِ في أنه مُعلَّقٌ بالشرطِ، وكأنه غيرٌ موجبٍ فيكونُ الشرطُ من الأشياءِ الستةِ التي تُجابُ بالفاء. وقيل: إنَّما نَصَبَ في جوابِ الشرطِ والجزاءِ لأنَّهما ليسا بواقعيينِ حالِ المُشارطةِ، فكانا كالتمنيِّ.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٥٩).

(٣) «المحتسب» (٢: ١١٨) ولتاهم الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٨٦).

﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ عطفٌ على ما حكى عنهم، يقول: بل أتوا بأعجب من ذلك كله؛ وهو تكذيبهم بالساعة. ويجوز أن يتصل بما يليه، كأنه قال: بل كذبوا بالساعة، فكيف

قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾: عطفٌ على ما حكى عنهم، وهو قوله: ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا لَرَجُلًا مَسْحُورًا﴾، يدلُّ عليه قوله: ﴿صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل﴾ أي: قالوا فيك تلك الأقوال، إلى آخره، يعني: كذبوك، وأنكروا نبوتك فيما قالوا: ما ل هذا الرسول، وكذا وكذا، بل أتوا بما هو أبلغ من ذلك، وهو تكذيبهم إياي بإنكار مجيء الساعة. رَوَيْنَا عَنِ الْبَخَارِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ»، إِلَى قَوْلِهِ: «فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَعَمَ أَيُّ لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ»^(١). وَعَلَى هَذَا: قَوْلُهُ: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ، مُؤَكِّدٌ لِمَعْنَى مَضْمُونِ الْكَلَامِ، وَمَسْأَلَةٌ لِقَلْبِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، يَعْنِي: لَا تَحْتَفَلْ بِمَا قَالُوهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ اقْتِرَاحَاتٌ وَعِنَادٌ وَضَلَالٌ وَخَيْرَةٌ، أَلَا تَرَى كَيْفَ تَمَادَى تَكْذِيبُهُمْ إِلَى أَنْ كَذَّبُوا مَا يَلْزَمُ مِنْهُ تَكْذِيبِي؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ إِيْتِيَانِ الْآيَاتِ النَّبَوَّةِ وَقَدْ حَصَلَ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعْطِيكَ خَيْرًا مِمَّا اقْتَرَحُوهُ، لَكِنْ لَا يَنْفَعُ ذَلِكَ فِيهِمْ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُمْ مُعَانِدُونَ.

قوله: ﴿وَيَجُوزُ أَنْ يَتَّصَلَ بِمَا يَلِيهِ﴾، وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ شَاءَ جَعَلْ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ الآية، فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل﴾ وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلْ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ الآيتين، كالجواب عن قولهم: ﴿مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ﴾ إلى آخره، على سبيل التعريض التوبيخي، ويكون قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ إضراباً عن قوله: ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، يدلُّ عليه قوله: ﴿فَكَيْفَ يَلْتَفِتُونَ إِلَى هَذَا الْجَوَابِ﴾.

قال الإمام: أجاب الله تعالى عن شبههم بوجه، أحدها: قوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل﴾، وبيانه: أن الذي يُمَيِّزُ الرَّسُولَ عَنْ غَيْرِهِ هُوَ الْمُعْجِزَةُ^(٢)، وهذه الأشياء

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٢).

(٢) في (ح) و(ف): «المعجز»

يَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ هَذَا الْجَوَابِ؟ وَكَيْفَ يُصَدِّقُونَ بِتَعْجِيلٍ مِثْلِ مَا وَعَدَكَ فِي الْآخِرَةِ وَهَمَّ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ؟! السَّعِيرُ: النَّارُ الشَّدِيدَةُ الِاسْتِعَارَ. وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ. ﴿رَأَتْهُمْ﴾ مِنْ قَوْلِهِمْ: دُورَهُمْ تَرَاءَى وَتَنَاطَرَ، وَمِنْ قَوْلِهِ ﷺ:

المذكورة لا يَدَّخُ شَيْءٌ مِنْهَا فِي الْمُعْجِزَةِ^(١)، كَأَنَّهُ قِيلَ: انظُرْ كَيْفَ اسْتَعَلَّ الْقَوْمُ بِضَرْبِ هَذِهِ الْأَمْثَالِ الَّتِي لَا فَائِدَةَ فِيهَا؛ لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا، وَأَرَادُوا الْقَدْحَ فِي نُبُوتِكَ، فَلَمْ يَجِدُوا إِلَى الْقَدْحِ فِيهِ سَبِيلًا.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾، أَي: مِنَ الَّذِي ذَكَرُوهُ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا كَالْكَثْرِ وَالْجَنَّةِ، وَفَسَّرَ الْخَيْرَ بِقَوْلِهِ: ﴿جَنَّتٍ﴾ فَبَنَىٰ بِذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُعْطِيَ الرُّسُولَ ﷺ كُلَّ مَا ذَكَرُوهُ، لَكِنَّهُ تَعَالَىٰ يُعْطِي عِبَادَهُ بِحَسَبِ الْمَصَالِحِ، أَوْ عَلَىٰ وَفَىٰ الْمَشِيئَةِ، وَلَا اعْتِرَاضَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ.

وثالثها: قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ لِأَنَّهُ قِيلَ: لَيْسَ مَا تَعَلَّقُوا بِهِ شُبْهَةٌ عِلْمِيَّةٌ، بَلِ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَىٰ تَكْذِيبِكَ تَكْذِيبُهُمْ بِالسَّاعَةِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يُكْذِبُونَ بِالسَّاعَةِ فَلَا يَرْجُونَ ثَوَابًا وَلَا عِقَابًا وَلَا يَتَحَمَّلُونَ كُفْلَةَ النَّظَرِ وَالْفِكْرِ؛ فَلِهَذَا لَا يَتَفَعَّلُونَ بِهِ يُورَدُ عَلَيْهِمْ مِنَ الدَّلَائِلِ^(٢).

وأما قولُ المصنِّفِ: «وكيف يُصَدِّقُونَ بِتَعْجِيلٍ مِثْلِ مَا وَعَدَكَ فِي الْآخِرَةِ؟» فَمَبْنِيٌّ عَلَىٰ أَنَّ ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ مَخْتَصَةٌ بِالْآخِرَةِ، وَمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا لَا يَكُونُ إِلَّا مُشَابِهَةً بِهَا حَتَّىٰ يَسْتَبَيِّنَ لَهُ أَنْ يَقُولَ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ إِضْرَابًا^(٣) عَنِ قَوْلِهِ: ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وَفِيهِ تَعَسُّفُ الْقَوْلِ^(٤).

قوله: ﴿رَأَتْهُمْ﴾، مِنْ قَوْلِهِمْ: دُورَهُمْ تَرَاءَى، أَي: مِنْهُ فِي كَوْنِهِ اسْتِعْمَالًا تَجَازِيًّا مِثْلَهُ:

(١) قوله: «في المعجز» سقط من (ح) و(ف)، وأثبتناه من (ط)، وفي «مفاتيح الغيب»: «المعجزة».

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٥٢-٥٤).

(٣) في الأصول الخطية: «إضراب» بالرفع، ولعل ما أثبتناه هو الأشبه بالصواب.

(٤) في (ط): «وفيه تعسف».

«لا تَرَأَى نارَهُمَا»، كأنَّ بعضَهَا يَرَى بعضاً على سبيل المَجَاز. والمعنى: إذا كانت منهم بَمَرَأَى الناظِرِ في البُعْدِ سَمِعُوا صوتَ غَلِيَانِهَا. وشَبَّه ذلك بصوتِ المُتَغَيِّظِ والزَّافِرِ. ويجوزُ أن يُرادَ: إذا رَأَتْهم رَبَانِيَّتُهَا تَغَيُّظُوا وَزَفَرُوا غَضَباً على الكُفَّارِ

لأنَّ جهنَّمَ لا تُرى كما أنَّ النَّارَ لا تُرى، فهو عبارةٌ عن مسافةٍ يتمكَّنُ فيها الرَّائِي من (١) النَّظَرِ إلى المَرْتَبِيِّ.

قوله: (لا تَرَأَى نارَهُمَا) (٢)، النَّهْيُ: معناه: يجبُ على المسلم أن يُبَاعِدَ منزله عن منزلِ المُشْرِكِ، ولا يَنْزِلَ بالمنزلِ الذي إذا أُوقِدَتْ فيه نَارُهُ تَلوْحُ وتَظْهَرُ لِنَارِ المُشْرِكِ إذا أوقَدَهَا في منزله؛ وأصلُ تَرَأَى: تَرَأَى، فَحَذَفَ إحدى التَّاءينِ تَخْفِيفاً، والتَّرائِي: تفاعلٌ مِنَ الرُّؤْيَةِ، وإسنادهُ إلى النَّارِينِ مَجَازٌ.

وقلتُ: إذا جَعَلَ قوله: ﴿رَأَتْهُم﴾ مجازاً كان قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً﴾ ترشيحاً.

قوله: (وشَبَّه ذلك)، أي: صوتَ غَلِيَانِهَا.

قوله: (ويجوزُ أن يُرادَ: إذا رَأَتْهم رَبَانِيَّتُهَا)، فالضَّميرُ في ﴿رَأَتْهُم﴾ لِلزَّبَانِيَّةِ؛ لأنَّ السَّعِيرَ يَدُلُّ عليها كما أنَّ الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿فَلَهُنَّ نُكُلًا مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١] لِلْمَيْتِ؛ لأنَّ الآيَةَ لما كانت في الميراثِ عَلِمَ أنَّ التَّارِكَ هو المَيْتِ، قال الإمامُ: هذا قولُ الجَبَّائِيِّ، والرُّؤْيَةُ والتَغَيُّظُ عندنا يجبُ إجراؤُهُما على الظاهرِ؛ فإنه لا امتناعُ في أن تكونَ النَّارُ حَيَّةً مَغْتَاطَةً على الكُفَّارِ. والمعتزلةُ لما جَعَلُوا البِنْيَةَ شَرْطاً في الحَيَاةِ احتاجوا إلى التَّأويلِ (٣).

الانتصافُ: لا حاجةُ إلى المَجَازِ؛ لأنَّ رُؤْيَةَ جهنَّمَ جائِزةٌ، وقد تظاهرتِ الظواهرُ بوقوعِ هذا الجائزِ، نحوَ قوله: ﴿تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، ومَحَاجَّتِهَا معَ الجَنَّةِ (٤)، وقولها: ﴿هَلْ مِنْ مُزِيدٍ﴾

(١) في (ط): «على».

(٢) هو جزءٌ من حديثٍ أخرجه أبو داود (٢٦٤٧) من حديثِ جرير بن عبد الله البجلي، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٧٤٤) من حديثِ خالد بن الوليد رضي الله عنه.

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٥٥).

(٤) يعني ما ثبت من قوله ﷺ: «تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ» الحديثُ أخرجه البخاري (٤٨٥٠) وابن حبان (٧٤٤٧) وغيرهما من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه.

وشهوة للانتقام منهم. الكَرْبُ مع الضيق، كما أَنَّ الرَّوْحَ مع السَّعة؛ ولذلك وَصَفَ اللهُ الجَنَّةَ بأنَّ عَرْضَهَا السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ، وجاء في الأحاديث: أَنَّ لكلِّ مؤمنٍ من القُصور والجنان كذا وكذا. ولقد جَمَعَ اللهُ على أهل النار أنواعَ التَّضييق والإرهاق؛ حيثُ ألقاهم في مكانٍ ضيقٍ يتراضون فيه تراصاً، كما رُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ في تفسيره: أَنه يَضيقُ عليهم كما يَضيقُ الرُّجُ في الرُّمَحِ، وهم مع ذلك الضَّيِّقِ مُسَلَّسُونَ مُقَرَّنُونَ في السِّلاسل، قُرِنَتْ أَيْدِيهِمْ إلى أعناقهم في الجوامع. وقيل: يُقَرَّنُ مع كلِّ كافرٍ شيطانُهُ في سِلسلة، وفي أرجلهم الأصفادُ. والشُّور: الهلاك، ودُعاؤُهُ: أَن يُقال: وَأُبُوراه، أي:

[ق: ٣٠]، و«اشتكت النارُ إلى ربِّها»^(١)، ولو فُتِحَ بابُ التَّأويلِ في أحوالِ المَعادِ لَجَرَّ إلى مذهبِ الفلاسفةِ حَدَثَهُم اللهُ، ونحن متعبدون بالظاهر ما لم يَمْنَعِ مانعٌ^(٢).

قوله: (وشهوةٌ للانتقام منهم)، يجوزُ أن يكونَ متعلِّقاً بقوله: «وزفروا»، على اللَّفِّ والنَّشرِ، تقديره: تَغَيَّبُوا غَضَباً على الكُفَّارِ، وزفروا شهوةً للانتقام منهم. الجوهري: الزفيرُ: اغتراقُ النَّفسِ للشَّدة. كأنَّ الزافرَ عندَ الانتقامِ يَلتدُّ ويتخلَّصُ من تلك الشَّهوة.

قوله: (والإرهاق)، يقالُ: أرهقه عُسراً: كَلَّفَه إِيَّاه. يقال: لا تُرهقني ولا أرهقك، أي: لا تُعسِّرني ولا أعسِّرك.

قوله: (يتراضون فيه)، الجوهري: رَضِضْتُ الشَّيْءَ أَرَضُهُ رَضاً: أَلصَقْتَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ. وتراصَّ القومُ، أي: تلاصَّقوا.

قوله: (في الجوامع)، الجوهري: الجامعةُ: العُلُّ؛ لأنَّها تَجْمَعُ اليَدَيْنِ إلى العُنُقِ.

قوله: (وأبُوراه)، الراغبُ: قوله تعالى: ﴿وَأَدْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾ هو أن يقول: يا حَقَّتْهُ، ويا حَسَرَتاه! ونحو ذلك من ألفاظِ التَّأسُّفِ، والمعنى: يَحْصُلُ لَهُمْ غَمومٌ كثيرةٌ^(٣).

(١) هو جزءٌ من حديثٍ أخرجه البخاري (٥٣٧) من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٢٦٧).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٣١٥.

تعال يا ثُبورُ فهذا حينُك وزمانُك. ﴿لَا تَدْعُوا﴾ أي: يقال لهم ذلك. أو: هُم أَحَقَّاءُ بأن يقال لهم، وإن لم يكن ثمَّ قول. ومعنى ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾: أنكم وقَعتم فيما ليس ثُبورُكم فيه واحداً، إنما هو ثُبورٌ كثير؛ إمَّا لأنَّ العذاب أنواعٌ والأوانُ كلُّ نوعٍ منها ثُبور؛ لشدَّته وفضاعته. أو لأنَّهم كلُّما نَضِجَتْ جُلُودهم بَدَّلوا غيرَها، فلا غايةً لهلاكهم.

[﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾]

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَأَنَّ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٥-١٦﴾

الراجعُ إلى الموصولين محذوف، يعني: وُعِدَها الْمُتَّقُونَ وما يشاءونه. وإنما قيل: ﴿كَانَتْ﴾؛ لأنَّ ما وَعَدَهُ اللهُ وحده فهو في تحقِّقه كأنه قد كان. أو: كان مكتوباً في اللوح قبل أن يَرَاهم بأزمِنه مُتطاولة أنَّ الجنةَ جزاؤهم ومَصيرهم. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾؟ قلتُ: هو كقوله: ﴿نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾

قوله: (أو لأنهم كلُّما نَضِجَتْ جُلُودهم بَدَّلوا غيرَها)، فالكثرةُ على هذا ليست للتحديد، ولهذا قال: «لا غايةً لهلاكهم».

قوله: (يعني: وُعِدَها الْمُتَّقُونَ)، بيانٌ لتقريرِ الراجعِ إلى الموصولِ الأوَّل، وهي: ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾، وقوله: «وما يشاءونه بيانٌ لتقديرِ الراجعِ إلى الموصولِ الثاني وهو: ﴿مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ﴾».

قوله: (ما معنى قوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا﴾)، يعني: قد عَلِمَ من قوله: ﴿جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ كَوْنُ الجنةِ جزاءهم ومَصيرهم، فما هذا التكرير؟ فأجاب: إنها كالتذييل لها إرادةٌ لمزيدٍ مدحِ المكانِ لتبَّحُّحِ ساكنيه، كما أن قوله: ﴿نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١] تذييلٌ لقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسْنَانٍ خضراءٍ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَالْمُهَلِّ يُسْقَوْنَ فِيهَا مِنْ لَذَّةٍ تُغَيَّرُ بِمِثْلِهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسْنَانٍ خضراءٍ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَالْمُهَلِّ يُسْقَوْنَ فِيهَا مِنْ لَذَّةٍ تُغَيَّرُ بِمِثْلِهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسْنَانٍ خضراءٍ يُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَالْمُهَلِّ يُسْقَوْنَ فِيهَا مِنْ لَذَّةٍ تُغَيَّرُ بِمِثْلِهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، ودلالتهُ على المدحِ

[الكهف: ٣١]، فَمَدَحَ الثَّوَابَ وَمَكَانَهُ، كما قال: ﴿بَشِّرِ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَقَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، فَذَمَّ الْعِقَابَ وَمَكَانَهُ؛ لِأَنَّ النِّعِيمَ لَا يَتِمُّ لِلْمُتَنَعِّمِ إِلَّا بِطَيْبِ الْمَكَانِ وَسَعَتِهِ وَمُوَافَقَتِهِ لِلْمُرَادِ وَالشَّهْوَةِ، وَإِلَّا تَنَغَّصَ، وَكَذَلِكَ الْعِقَابُ يَتَضَاعَفُ بِغَثَائِهِ الْمَوْضِعِ وَضَيْقِهِ وَظُلْمَتِهِ وَجَمْعِهِ لِأَسْبَابٍ

مِنْ جِهَةِ تَنْكِيرِهِ، أَي: جِزَاءً مُؤَفَّرًا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْوَصْفِ، وَإِرْدَافُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَصِيرًا﴾ أَي: مَصِيرًا لَا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، فَالْجِزَاءُ هُنَا كَالثَّوَابِ فِي تِلْكَ الْآيَةِ، وَالْمَصِيرُ كَالْمُرْتَقِقِ، وَاجْتِمَاعُهُمَا كَالْتَّمِيمِ لِمَا يَتِمُّ بِهِ مَا يُطْلَبُ مِنَ الْمَكَانِ مِنَ التَّرَفُّهِ وَالتَّنَعُّمِ. قَالَ الْقَاضِي: إِضَافَةُ الْجَنَّةِ إِلَى الْخُلْدِ لِلْمَدْحِ، أَوْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى خُلُودِهَا، أَوْ التَّمْيِيزِ عَنْ (١) جَنَاتِ الدُّنْيَا (٢).

قَوْلُهُ: (فَذَمَّ الْعِقَابَ وَمَكَانَهُ)، يَعْنِي: قَدَّمَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَلْقَاكَ﴾ الْآيَةَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ الْآيَةَ؛ لِيُؤْذِنَ بِأَنَّ النِّعِيمَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِطَيْبِ الْمَكَانِ وَسَعَتِهِ وَمُوَافَقَتِهِ لِلْمُرَادِ، فَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْمَصِيرَ مَعَ الْجِزَاءِ، وَأَنَّ الْعِقَابَ يَتَضَاعَفُ بِضَيْقِ الْمَوْضِعِ وَظُلْمَتِهِ وَجَمْعِهِ لِأَسْبَابِ الْاجْتِوَاءِ، وَلِذَلِكَ ذَكَرَ ﴿وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا﴾ وَذَكَرَ ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، وَلَعَلَّ قَوْلَهُ: «فَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْمَصِيرَ مَعَ ذِكْرِ الْجِزَاءِ» وَارْدٌ عَلَى الْإِبْهَامِ شَمَلَ الْجِزَاءَيْنِ وَالْمَصِيرَيْنِ، فَظَهَرَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُقَابِلَةٌ لِتِلْكَ الْآيَاتِ، يُدْرُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ﴾، فَإِنَّ الْمَشَارَ إِلَى الْعِقَابِ وَالْمَكَانِ الضَّيِّقِ، وَتَسْمِيَتُهُ بِاخْتِيارٍ لِلتَّهْكُمِ وَالسُّخْرِيَّةِ؛ لِيُزِيدَ فِي غَيْظِهِمْ، أَوْ أَنَّ ذِكْرَ ثَوَابِ الْعَدُوِّ وَتَنْعِيمِهِ سَبَبٌ لِتَغْيِظِ الْعَدُوِّ وَتَحْسُرِهِ.

قَوْلُهُ: (بِغَثَائِهِ الْمَوْضِعِ)، الْأَسَاسُ: حَدِيثُكُمْ غَثٌ، وَسَلَا حُكْمَ رَثٌ، وَأَغَثٌ فَلَانٌ فِي كَلَامِهِ: إِذَا تَكَلَّمْتَ بِهَا لَا خَيْرَ فِيهِ، وَسَمِعْتُ صَبِيًّا مِنْ هُدَيْلٍ يَقُولُ: غَثَّتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ. فَلَا بُدَّ لَنَا مِنَ الْخُرُوجِ.

(١) فِي (ط): «أَوْ لِلتَّمْيِيزِ مِنْ».

(٢) «أَنْوَارِ التَّنْزِيلِ» (٤: ٢٠٩).

الاجتواء والكرَاهة؛ فلذلك ذكر المصير مع ذكر الجزاء. والصميرُ في ﴿كَانَ﴾ لـ ﴿مَا يَشَاءُونَ﴾. والوعد: الموعود، أي: كان ذلك موعوداً واجباً على ربك إنجازَه، حقيقةً أن يُسأل ويُطلب؛ لأنه جزاءٌ وأجرٌ مُستحقٌّ. وقيل: قد سألَه الناسُ والملائكةُ في دعواتهم: ﴿رَبَّنَا وَآئِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿آئِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ [غافر: ٨].

[﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ ١٧-١٨]

قوله: (الاجتواء)، يقال: اجتويتُ البلدَ: إذا كرهتَ المقامَ به، وإن كنتَ في نعمة.

قوله: (أي: كان ذلك موعوداً واجباً على ربك إنجازَه)، قال القاضي: وما في «على» من معنى الوجوب؛ لامتناع الخُلفِ في وَعْدِهِ، ولا يلزمُ منه الإلجاءُ إلى الإنجاز؛ فإن تعلقَ الإرادةُ بالموعودِ مُقدِّمٌ على الوعدِ الموجبِ للإنجاز^(١).

وقال الإمام: قالوا: الواجبُ هو الذي لو لم يُفعلْ لاستحقَّ تاركُه الذمَّ، أو أنه: الذي يكونُ عدمُه مُمتنعاً، فعلى التقديرين يلزمُ أن يكونَ مُلجأً إلى الفعل، والمُلجأُ إلى الفعل لا يكونُ قادراً، ولا يكونُ مُستحقاً للثناءِ والمدحِ؟ وأجاب: أن فعلَ الشيءِ مُتقدِّمٌ على الإحْبَابِ عن فعلِهِ، وعن العِلْمِ بفعلِهِ، فيكونُ ذلك الفعلُ فعلاً لا على سبيلِ الإلجاء، فكان قدرُ مُستحقِّ للثناءِ والمدحِ^(٢).

ومعنى قوله: ﴿وَعَدًا مَسْئُولًا﴾: من حقِّه أن يكونَ مسؤولاً؛ لأنه حقٌّ واجب. ثم بحكم الاستحقاقِ على قولِ المعتزلة، أو بحكم الوعدِ على قولِ أهلِ السُّنة.

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢١٠).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٦٠).

﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، ﴿فَيَقُولُ﴾ كلاهما بالنون والياء. وقرئ: (نَحْشُرُهُمْ) بكسر الشين. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يريد: المعبودين من الملائكة والمسيح وعزير. وعن الكلبي: الأصنام يُنطِقُها الله. ويجوز أن يكون عامًّا لهم جميعاً. فإن قلت: كيف صحَّ استعمال «ما» في العقلاء؟ قلت: هو موضوع على العموم للعقلاء وغيرهم، بدليل قولك إذا رأيت شبحاً من بعيد: ما هو؟ فإذا قيل لك: إنسان، قلت حينئذ: مَنْ هو؟ ويدلُّك قولهم: «مَنْ» لما يعقل. أو أريد به الوصف، كأنه قيل: ومعبودهم، ألا تراك تقول إذا أردت السؤال عن صفة زيد: ما زيد؟ تعني: أطويل أم قصير؟ أفتية أم طيب؟

قوله: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، ﴿فَيَقُولُ﴾ كلاهما بالنون)، ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء: حَفْصٌ. والباقون: بالنون. و«نقول» بالنون: ابن عامر، وبالياء: غيره^(١).

قوله: (وَقَرِئَ: «نَحْشُرُهُمْ» بكسر الشين)، قال ابن جني: قرأها الأعرج، وهذا وإن كان قليلاً في الاستعمال، فإنه قويٌّ في القياس، وذلك أن «يَفْعُلُ» في المتعدِّي أقيس من «يَفْعُلُ»، فَضْرَبَ يَضْرِبُ أقيس من: قَتَلَ يَقْتُلُ؛ وذلك أن «يَفْعُلُ» إنما بابها الأقيس أن يأتي في مضارع «فَعْلٌ»، كظرف يظرف^(٢).

قوله: (ويجوز أن يكون عامًّا لهم جميعاً)، يابأه جوابُ المعبودين، وهو قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا﴾؛ لأنهم ملائكة معصومون وأنبياء معصومون، كما قاله في موضعه، فلا يدخل فيه الأصنام، لكن عدل إلى «ما» إجراءً للمعبودين مجرئ غير ذوي العقول تحقيراً لشأنهم لغاية قصورهم عن معنى الربوبية، وتنبهها على المجانسة المنافية للألوهية.

قوله: (ويدلُّك قولهم: «مَنْ» لما يعقل)، يعني: يُفَسِّرُ «مَنْ» بـ«ما»، ولا يُفَسِّرُ «ما» بـ«مَنْ»، فدلَّ أن «ما» أعمُّ من «مَنْ».

(١) انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٠٨.

وهذه الفقرة سقطت من (ط).

(٢) «المحتسب» (٢: ١١٩).

فإن قلت: ما فائدة «أنتم» و«هم»؟ وهلا قيل: أضللتهم عبادي هؤلاء، أم هم ضلوا السبيل! قلت: ليس السؤال عن الفعلِ ووجوده؛ لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب، وإنما هو عن متوَلَّيه، فلا بدَّ من ذكره وإيلائه حَرَفَ الاستفهام؛ حتى يُعْلَمَ أنه المسؤولُ عنه. فإن قلت: فإله سبحانه قد سبقَ علمه بالمسؤول عنه، فما فائدة هذا السؤال؟ قلت: فائدته: أن يُجيبوا بما أجابوا به، حتى يبيكتَ عبدتهم بتكذيبهم إياهم، فيُبْهتُوا وَيَنْخَزِلُوا وتزيدَ حَسْرَتُهُمْ، ويكونَ ذلك نوعاً مما يلحقهم من غَضَبِ الله وعذابه، وَيَغْتَبِطُ الْمُؤْمِنُونَ وَيَفْرَحُوا بِحَالِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ من فضيحة أولئك، ولتكونَ حكايةُ ذلك في القرآنِ لُطْفاً للمكَلَّفِينَ. وفيه كسرٌ بيِّنٌ لقولِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يُضِلُّ عِبَادَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ،

قوله: (لأنه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب)، يعني: السؤال سؤال عتاب، وهو يستدعي حصول الفعل من الضالين، ليصحَّ توجهُ العتابِ إلى المعبودين، والغرضُ تفرُّقُ الضالين وتوبيخهم، فوجبَ أن يُسألَ عن فاعلِ الفعل، لاعتِنِ الفعلِ نفسه.

قوله: (ويَنْخَزِلُوا)، أي: ينقطعوا. الأساس: انخَزَلَ في مِشِيته: استرخى، وأقدمَ على الأمرِ ثم انخزلَ عنه، أي: ارتدَّ وضمَّعَ، وانخَزَلَ عن جوابِ ما قلتَ له.

قوله: (وفيه كسرٌ بيِّنٌ لقولِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يُضِلُّ عِبَادَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ)، إلى آخره. قال صاحبُ «التقريب»: والمعنى: أنتم أضللتموهم أم هم ضلُّوا؟ وهذا أعمُّ من أنهم ضلُّوا بأنفسهم أو أضلَّهُم غيرهم، فلا يدلُّ على الخاصِّ كما تبجَّح به صاحبُ «الكشاف».

وقال صاحبُ «الفرائد»: أما الجوابُ عن قوله: «فَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ إِضْلَالِهِمْ، وَيَسْتَعِيدُونَ به أن يكونوا مُضِلِّينَ» إنَّهَا تَبَرَّؤُوا واستعاضوا به منه؛ لأنهم يستحقُّون العذابَ بإضلالهم، ولم يكن منهم إضلالٌ، فيجبُ عليهم أن يقولوا ذلك ليندفعَ عنهم ما يستحقُّون به من العذاب. وذلك أنهم مسؤولون عما يفعلون، والله تعالى لا يسألُ عما يفعل، فيلحقُ بهم النقصانُ إن ثبتَ عليهم، ولا يُمكنُ لحوقه به؛ لأنه يفعلُ ما يشاء ويحكمُ ما يريد، ولا يسألُ عما يفعل. وعن قوله: «ولقد نرَّهوه حينَ أضافوا» إلى آخره، هو أن قوهم: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ﴾.

آخِرِهِ، لا يُنَافِي نِسْبَةَ الإِضْلَالِ إِلَيْهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ. وَأَيْضاً، مَا يُؤَدِّي إِلَى الإِضْلَالِ إِذَا كَانَ مِنْهُ وَكَانَ مَعْلُوماً لَهُ أَنَّهُمْ يَصِلُونَ بِهِ، كَانَ فِيهِ مَا فِي الإِضْلَالِ بِالْحَقِيقَةِ، فَوَجِبَ - عَلَى مَذْهَبِهِ - أَنْ لَا يَجُوزَ عَلَيْهِ أَيْضاً. وَعَنْ قَوْلِهِ: «وَلَوْ كَانَ هُوَ الْمُضِلُّ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَكَانَ الْجَوَابُ الْعَتِيدُ أَنْ يَقُولَ: بَلْ أَنْتَ أَضَلَلْتَهُمْ»، هَذَا غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى مَا سَأَلَهُمْ إِلَّا عَنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ: إِضْلَالِهِمْ إِيَّاهُمْ، أَوْ إِضْلَالِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ، فَكَيْفَ يَكُونُ بَلْ أَنْتَ أَضَلَلْتَهُمْ جَوَاباً عَتِيداً؟ بَلْ هُوَ جَوَابٌ لِمَنْ قَالَ: مَنْ أَضَلَّهُمْ، وَاللَّهُ الْهَادِي.

وَقَالَ الْإِمَامُ: قَالَتِ الْمُعْتَزَلَةُ: لَوْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ﴾ دَلًّا عَلَى مَا ذَكَرْتُمُوهُ لَلزِمَ أَنْ يَصِيرَ اللَّهُ تَعَالَى مَحْجُوجاً. وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ الْعَرَضُ ذَلِكَ، بَلِ الْعَرَضُ أَنْ يَصِيرَ الْكَافِرُ مَحْجُوجاً مُفْحَماً مَلُوماً؟ وَأَجَابَ أَصْحَابُنَا بِأَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الضَّلَالِ إِنْ لَمْ تَصْلُحْ لِلْإِهْتِدَاءِ فَالِإِضْلَالُ مِنَ اللَّهِ، وَإِنْ صَلُحَتْ لَمْ تَرْتَجَّحْ مُصَدِّرَتُهَا لِلضَّلَالِ عَلَى مُصَدِّرَتِهَا لِلْإِهْتِدَاءِ إِلَّا بِمُرْجَّحٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَعِنْدَ ذَلِكَ يَعُودُ السُّؤَالُ (١).

ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ: إِنَّ الْإِسْتِفْهَامَ فِي ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي﴾ وَارْدٌ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيعِ لِلْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى كَانَ عالِماً فِي الْأَزَلِ بِحَالِ الْمَسْئُولِ عَنْهُ، كَمَا قِيلَ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي وَآمِجُوا إِلَيْهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وَفَائِدَتُهُ أَنَّ الْمَعْبُودِينَ لَمَّا بَرَّوْا أَنْفُسَهُمْ، أَحَالُوا ذَلِكَ الضَّلَالِ إِلَيْهِمْ، صَارَ تَبَرُّؤُهُمْ عَنْهُمْ أَشَدَّ فِي حَسْرَتِهِمْ وَحَيْرَتِهِمْ، فَوَافَقَ جَوَابُهُمْ هَذَا: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ جَوَابَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ (٢) [المائدة: ١١٦].

وَقَالَ الْقَاضِي: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاؤَهُمْ﴾ بِأَنْوَاعِ النَّعْمِ، فَاسْتَفْرَقُوا فِي الشَّهَوَاتِ، حَتَّى غَفَلُوا عَنْ ذِكْرِكَ، أَوْ التَّذَكُّرِ لِأَنَّكَ، وَالتَّدْبِيرِ فِي آيَاتِكَ، وَهُوَ نِسْبَةُ الضَّلَالِ إِلَيْهِمْ مِنْ

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٦١).

(٢) «المصدر السابق» (٢٤: ٦٢).

حَيْثُ إِنَّهُ بِكَسْبِهِمْ، وَإِسْنَادُهُ إِلَى مَا فَعَلَ اللَّهُ بِهِمْ فَحَمَلَهُمْ عَلَيْهِ، وَهُوَ عَيْنُ مَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ فَلَا يَنْتَهِي حُجَّةَ عَلَيْنَا لِلْمَعْتَزِلَةِ، ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ ❖ أي: في قضائك هالكين^(١).

وقلت: ولما كان السؤال على^(٢) التعريض التوبيخي، والمقصود تبييتهم، والزام الحجة عليهم، وتفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، أجابوا أولاً بما يدل على تبرؤهم من نسبة الإضلال إلى أنفسهم بأقصى ما يمكن من المبالغة خذلاناً لهم، وكان من حق الظاهر: أنا ما أضللناهم، فأطنبوا بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ❖ إلى آخره، تعجباً، أي: كيف يصح منا أن نصفك بما لا يليق بجلالك، ونحن عالمون بالتقديس، وكيف يستقيم لنا أن نحمل غيرنا أن يتولونا دونك، ونحن العابدون. وثانياً: بما يدل على أن الكفرة هم ضلوا السبيل، لكن بتقدير الله وإضلاله، فأطنبوا في تعبيرهم بقوله: «لكن متعتهم» إلى آخره، يعني: متعتهم بطول العمر وسعة الرزق حتى يجعلوا ذلك سبباً في زيادة الشكر من قبول الذكر الذي عرض عليهم وهو القرآن، والتمسك بمقتضاه من تصديق من جاء به لكونه معجزة، والإيمان بما فيه من إثبات التوحيد والحشر والنشر، فعمسوا ذلك وجعلوه سبباً للثبات على اتخاذ الشركاء، حتى جرهم ذلك إلى ترك الذكر وعدم المبالاة به، كقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ❖ [الواقعة: ٨٢].

وينصُّ القول بأن المراد بالذكر القرآن قوله: «والذكر: ذكر الله والإيمان به، أو القرآن»، وما نقله محيي السنة في «تفسيره»: ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ ❖ تركوا الموعظة والإيمان بالقرآن^(٣).

ويُساعدُ هذا التأويل قضية النظم، فإن قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ ❖ متصل بأول السورة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْذَ لَدَاوَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ ❖ [الفرقان: ٢]، وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ ❖ أي: اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً زَعَمُوا أَنَّهَا أَوْلَادُ اللَّهِ وَشُرَكَاءُ لَهُ

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢١١).

(٢) في (ط): «عن».

(٣) «معالم التنزيل» (٦: ٧٦).

حيث يقول للمعبودين من دونه: أنتم أضللتهم، أم هم ضلوا بأنفسهم؟ فيتبرؤون من إضلالهم ويستعيذون به أن يكونوا مضلين، ويقولون: بل أنت تفضلت من غير سابقة على هؤلاء وآبائهم تفضل جواد كريم. فجعلوا النعمة التي حقها أن تكون سبب الشكر، سبب الكفر ونسيان الذكر، وكان ذلك سبب هلاكهم، فإذا برأت الملائكة والرسل أنفسهم من نسبة الإضلال - الذي هو عمل الشياطين - إليهم، واستعادوا منه، فهم لربهم الغني العدل أشد تبرئة وتنزيهاً منه، ولقد نزهوه حين أضافوا إليه

في الإلهية، وأدى ذلك إلى تكذيبهم الذكر - أي: القرآن - أولاً بقولهم: ﴿إِن هَذَا إِلَّا إِفْكٌ أُفْكِرْتَهُ﴾، و﴿أَسْطِيطِرُ﴾، وتكذيبهم الرسول ﷺ ثانياً بقولهم: «مال هذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق»، فرضوا بالإله أن يكون حجراً، وأبوا الرسول أن يكون بشراً، وتكذيبهم الله آخراً، حيث أنكروا البعث والحشر، وإليه الإشارة بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ كما مر أنه مستلزم لتكذيب الله.

وتحرير المعنى: ويوم نحشرهم وما اتخذوا من دون الله أولياء، حينئذ يعلمون أنهم أول من يخاصمهم ويتخذهم إذا سئلوا: أنتم أضللتهم عبادي أن كنتم أولياءهم وشركاء الله، وأنتم حملتموهم على ذلك القول والتكذيب، أم هم من عند أنفسهم تفوهوا به؟ فيجيبون بما يلقيهم الحجر، أي: هؤلاء الكافرون للنعمة هم الذين عكسوا الأمر وضلوا، وحققت عليهم كلمة العذاب والبوار، يدل عليه قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَظِيمُونَ صَرَفًا وَلَا نَصْرًا﴾، فظهر من بيان النظم أنهم لو أجابوا بقوله: بل أنت (١) أضللتهم، أبعدوا المرعى.

قوله: (ويستعيذون به أن يكونوا مضلين، أي: يستعيذون بالله من أن يكونوا مضلين، ويقولون): عطف على «فيتبرؤون»، والفاء نتيجة مجموع قوله: «حيث يقول للمعبودين من دونه: أنتم أضللتموهم أم هم ضلوا بأنفسهم؟».

(١) في (ط): «أنتم»، والمثبت من (ط) و(ح)، وهو الصواب.

التفَضُّلُ بالنعمة والتمتعِ بها، وأسندوا نسيانَ الذِّكرِ والتسبُّبِ به للبواري إلى الكفِّرة، فشرَّحوا الإضلالَ المجازيَّ الذي أسنده اللهُ تعالى إلى ذاته في قوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الرعد: ٢٧]، ولو كان هو المُضِلُّ على الحقيقة لكانَ الجوابُ العتيدُ أن يقولوا: بل أنت أضللتهم. والمعنى: أنتم أوقعتموهم في الضلالِ عن طريقِ الحقِّ؟ أم هم ضلُّوا عنه بأنفسهم؟ وضلَّ: مُطَاوَعٌ أضلَّهُ، وكانَ القياسُ: ضلَّ عن السبيلِ، إلَّا أنهم تَرَكُوا الجارَّ كما تَرَكُوهُ في: هَدَاهُ الطَّرِيقَ، والأصلُ: إلى الطَّرِيقِ، وللطَّرِيقِ. وقولهم: أضلَّ البعيرَ، في معنى: جَعَلَهُ ضالًّا، أي: ضائعًا، لَمَّا كَانَ أَكْثَرُ ذَلِكَ بتفريطٍ مِنْ صاحِبِهِ وَقَلَّةِ احتياطٍ في حِفْظِهِ قيل: أضلَّهُ، سواءَ كَانَ مِنْهُ فِعْلٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ. ﴿سُبْحَانَكَ﴾: تعجَّبَ مِنْهُمْ، قد تعجَّبوا مِمَّا قِيلَ لَهُمْ؛ لأنهم ملائكةٌ وأنبياءٌ معصومون، فما أبعدهم عن الإضلالِ الذي هو مختصٌّ بإبليسَ وحزبه. أو نَطَقُوا بـ ﴿سُبْحَانَكَ﴾؛ ليدُلُّوا على أنهم المُسَبِّحُونَ المُقَدِّسُونَ المُوسُّمُونَ بذلك، فكيف يَلِيقُ بحالهم أن يُضِلُّوا عباده؟! أو قَصَدُوا به تنزيهه عن الأنداد، وأن يكونَ له مَلَكٌ أو نبيٌّ أو غيرُهُما نِدًّا.....

قوله: (فشرَّحوا الإضلالَ المجازيَّ)، يعني: قوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الرعد: ٢٧] مجملٌ لما عُلِمَ، بدليلِ الحُسْنِ والقُبْحِ العَقْلِيَّيْنِ أَنَّهُ لا يَجُوزُ إِسْنَادُ الإضلالِ إلى اللهِ، وإسنادهُ إليه تعالى على المَجَازيِّ، ولا بُدَّ مِنْ بَيَانِ العِلاقَةِ، وبيانُها ما يُعَلِّمُ مِنْ قولِ المَعْبُودِينَ هاهنا: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَاكَأَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ فَبَيَّنَّا أَنَّ العِلاقَةَ هِيَ مَتَّعُهُم بِالنِّعَمِ المُؤَدِّي إلى البَطَرِ والطُّغْيَانِ.

قوله: (وقولهم: أضلَّ البعيرَ)، متصلٌ بقوله: «الإضلالُ المَجَازيُّ»: الذي أسنده اللهُ إلى ذاته»، يعني: أَنَّ العَرَبَ أيضاً تقولُ: أضلَّ البعيرَ، في معنى: جَعَلَهُ ضالًّا، فإنَّ أحداً لا يَتَحَرَّى في إضلالِ بعيره، لكنَّ إذا أهْمَلَ في حِفْظِهِ كأنه تَسَبَّبَ في إضلالِهِ، فأسندوا الإضلالَ إليه على المَجَازِ، وإذا جازَ إِسْنَادُ الفِعْلِ إلى غيرِ الفاعِلِ بهذه المَلابِسةِ الضَّعِيفَةِ، فلأنَّ يَجُوزُ الإِسْنَادُ إليه بالتمتعِ أُولَى، وإليه أومى بقوله: «سواءٌ كانَ مَعَهُ فِعْلٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ»، والجوابُ ما نَقَلْنَاهُ عن صاحِبِ «الفرائد» .

ثم قالوا: ما كان يصح لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحداً دونك، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا على أن يتولونا دونك؟! أو: ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما تولاهم الكفار. قال الله تعالى: ﴿فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ [النساء: ٧٦] يريد الكفرة، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقرأ أبو جعفر المدني: (تَتَّخَذَ) على البناء للمفعول.

قوله: (ثم قالوا: ما كان يصح لنا)، «ثم» هاهنا: للتراخي في الإخبار، يعني: جعلوا ﴿سُبْحَانَكَ﴾ توطئة وتمهيداً لقولهم: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ إنا على إرادة مُطْلَقِ التعجب مما قيل لهم من قوله: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي﴾، أو نطقوا بكلمة التسييح كناية عن البراءة عن أنفسهم ذلك القول، أو أرادوا موضوعها اللغوي من التنزيه والتقديس، قدسوا ساحة جلال الله عما لا يليق بحضرة من الند والصد، أما قوله: «ما كان يصح لنا ولا يستقيم ونحن معصومون أن نتولى أحداً دونك»، إلى آخره، فمبني على التقديس.

قوله: (أو: ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين)، مبني على الإضلال الذي بنى عليه الوجهين الأولين، والظاهر أن «أو» في قوله: «أو ما كان ينبغي لنا»: للإباحة، فيصح جعل كل من الوجهين لكل من الوجوه الثلاثة، ويصح الجمع بينهما كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين.

قوله: (وقرأ أبو جعفر المدني: «تَتَّخَذَ» على البناء للمفعول)، قال ابن جني: وهي قراءة زيد بن ثابت وأبي الدرداء وأبي جعفر ومجاهد والحسن وغيرهم. فعلى هذا ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ في موضع المفعول به، أي: ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء، ودخلت «من» زائدة لمكان النفي، كقولك: اتخذت زيدا وكيلاً، فإن نقيت قلت: ما اتخذت زيدا من وكيل، وهذا في المفعول به، وأما قراءة الجماعة فقوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ في موضع المفعول به، كقولك: صربت رجلاً فإن نقيت قلت: ما صربت من رجل^(١).

(١) «المحتسب» (٢: ١٢٠) ولتعام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٩١).

وقال الزجَّاجُ: هذه القراءةُ خطأ؛ لأنَّك تقولُ: ما اتَّخَذْتُ مِنْ أَحَدٍ وَلِيًّا، ولا يجوزُ: ما اتَّخَذْتُ أَحَدًا مِنْ وَلِيٍّ؛ لأنَّ «مِنْ» إِنَّمَا دَخَلَتْ لِأَنَّهَا تَنْفِي وَاحِدًا فِي مَعْنَى جَمِيعٍ، تقولُ: ما مِنْ أَحَدٍ قَائِمًا، وما مِنْ رَجُلٍ مُجِبًّا لِمَا يُضْرُّهُ، ولا يجوزُ ما رَجُلٌ مِنْ مُجِبِّ لِمَا يُضْرُّهُ، ولا وَجْهٌ عِنْدَنَا لِهَذَا الْبِتَّةِ، ولو جازَ هذا لجازَ في قولِهِ: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٌ﴾ [الحاقة: ٤٧]، إِلَّا أَنْ يُسْقِطَ «مِنْ» الثَّانِيَةَ فَيُقَالُ: أَنْ تَتَّخَذَ مِنْ دُونِكَ أَوْلِيَاءَ، فَيَصِحُّ الْكَلَامُ، وَيَصِحُّ الْمَعْنَى. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: وَأَجَازَ الْقَرَاءَةُ هَذِهِ الْقَرَاءَةُ عَلَى ضَعْفٍ، وَزَعَمَ أَنَّهُ يَجْعَلُ ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ هُوَ الْاسْمُ، وَيَجْعَلُ الْخَبَرَ مَا فِي «تَتَّخَذُ»، كَأَنَّهُ يَجْعَلُهُ عَلَى الْقَلْبِ^(١).

ونقل صاحبُ «المطلع» عن صاحبِ النِّظْمِ أَنَّهُ قَالَ: الَّذِي يُوَجِبُ سُقُوطَ هَذِهِ الْقَرَاءَةِ أَنَّ «مِنْ» لَا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى مَفْعُولٍ لَا مَفْعُولَ دُونَهُ، فَإِذَا كَانَ قَبْلَ الْمَفْعُولِ مَفْعُولٌ سِوَاهُ لَمْ يَحْسُنْ دُخُولُ «مِنْ»، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] فقوله: ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾ لَا مَفْعُولَ سِوَاهُ، وَلَوْ قَالَ: مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ أَحَدًا مِنْ وَلَدٍ، يَحْسُنُ فِيهِ دُخُولُ «مِنْ»؛ لِأَنَّ الْإِتِّخَاذَ مَشْغُولٌ بِ«أَحَدٍ». كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ﴾ قَدْ قَامَتِ النُّونُ الْمَضْمُومَةُ فِيهِ مَقَامَ الْمَفْعُولِ، وَسُغِلَ الْإِتِّخَاذُ بِهِ، فَلَمْ يَقْتَضِ «مِنْ» فِي الْمَفْعُولِ الَّذِي بَعْدَهُ.

وقلتُ: فَعَلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ ابْنَ جِنِّيَّ أَجَازَ أَنْ يُزَادَ «مِنْ» فِي الْمَفْعُولِ الثَّانِي، وَأَبَى الزَّجَّاجُ إِلَّا أَنْ تُزَادَ فِي الْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ. وَذَهَبَ صَاحِبُ النِّظْمِ إِلَى أَنْ يُزَادَ فِي مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، وَبَنَى الْمَصْنُوفُ كَلَامَهُ عَلَى كَلَامِ الزَّجَّاجِ، حَيْثُ قَالَ: «وَالثَّانِيَةُ مِنَ الْمُتَعَدِّيِّ إِلَى مَفْعُولَيْنِ»، أَي: قَرَاءَةُ أَبِي جَعْفَرٍ، أَحَدُهُمَا: مَا أُقِيمَ مَقَامَ الْفَاعِلِ، وَالثَّانِي: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ عَلَى أَنْ تَكُونَ «مِنْ» تَبْعِيضِيَّةً لَا زَائِدَةً.

ولِنَاصِرِ قَوْلِ ابْنِ جِنِّيَّ عَلَى قَوْلِ الزَّجَّاجِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْمَثَالَ الَّذِي آتَى بِهِ الزَّجَّاجُ غَيْرُ مَنَاسِبٍ لِلآيَةِ؛ لِأَنَّ الْمَفْعُولَ الْأَوَّلَ فِي الْآيَةِ خَاصٌّ، وَكَذَا فِي الْمَثَالِ الَّذِي آتَى بِهِ ابْنُ جِنِّيَّ، فَيَصِحُّ التَّعْمِيمُ فِي الثَّانِي، كَمَا قَالَ: مَا اتَّخَذْتُ زَيْدًا مِنْ وَكَيْلٍ، أَي: أَيِّ وَكَيْلٍ كَانَ مِنْ أَصْنَافِ

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٦٠-٦١).

وهذا الفعل - أعني «اتَّخَذَ» - يتعدَّى إلى مفعولٍ واحد، كقولك: اتَّخَذَ وَلِيًّا، وإلى مفعولين، كقولك: اتَّخَذَ فُلَانًا وَلِيًّا، قال اللهُ تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] فالقراءة الأولى مِنَ المتعدِّي إلى واحد؛ وهو ﴿مِنَ أَوْلِيَاءَ﴾، والأصل: أَنْ تَتَّخَذَ أَوْلِيَاءَ، فزيدت ﴿مِنَ﴾ لتأكيد معنى النفي. والثانية مِنَ المتعدِّي إلى مفعولين؛ فالأول: مَا بُنِيَ لَهُ الْفِعْلُ، والثاني: ﴿مِنَ أَوْلِيَاءَ﴾، و﴿مِنَ﴾ للتَّبَعِيضِ، أي: لَا تَتَّخَذُ بَعْضَ أَوْلِيَاءَ. وتنكيرُ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ مَخْصُوصُونَ؛ وَهُمْ الْجِنُّ وَالْأَصْنَامُ. وَالذِّكْرُ: ذَكَرُ اللهُ وَالْإِيَابَانُ بِهِ. أَوْ: الْقُرْآنَ وَالشَّرَائِعَ. وَالْبُورُ: الْهَلَاكُ، يُوصَفُ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ، وَيَجُوزُ

الْوُكْلَاءُ، كَذَا فِي الْآيَةِ: مَا تَتَّخِذُ نَحْنُ مِنْ دُونِكَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْوِلَايَةِ؛ فَإِنَّ الْوَلِيَّ قَدْ كَانَ مَعْبُودًا وَنَاصِرًا وَمَالِكًا وَمَخْدُومًا، بِخِلَافِ قَوْلِ الزَّجَّاجِ: مَا اتَّخَذْتُ أَحَدًا مِنْ وَلِيٍّ، فَإِنَّ فِيهِ الْعُمُومَ فِي الْمَفْعُولِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، فَإِذَنْ لَا حَاجَةَ إِلَى جَعْلِ «مِنَ» تَبَعِيضًا.

بَقِيَ عَلَى الْمَصْنُفِ سَوْأَلٌ آخَرٌ، وَهُوَ أَنَّ «مِنَ» إِذَا كَانَتْ لِلتَّبَعِيضِ، فَلِمَ نَكُنْ أَوْلِيَاءَ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: مَا صَحَّ لِلْكَفَّارِ أَنْ يَتَّخِذُونَا مِنْ دُونِكَ بَعْضَ أَوْلِيَائِهِمْ؟ وَأَجَابَ: أَنَّ الْقَائِلِينَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ، فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ الْبَاقِي الْجِنُّ وَالْأَصْنَامَ؛ لِأَنَّ الْمَعْبُودِينَ مُنْحَصِرُونَ فِي هَؤُلَاءِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِيمَا سَبَقَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْبُودُونَ عَامًّا، قَالَ السَّجَّاءُ وَنَدِيُّ: تَقُولُ: اتَّخَذْتَهُ مِنْ أَوْلِيَائِي، وَحَسِبْتَهُ مِنْ أَصْفِيَائِي، وَالْمَعْنَى: مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُحَسِبَ مِنْ بَعْضِ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْوِلَايَةِ، فَضْلًا مِنَ الْكُلِّ؛ فَإِنَّ الْوَلِيَّ قَدْ يَكُونُ مَعْبُودًا وَمَالِكًا وَمَخْدُومًا. أَوْ التَّقْدِيرُ: تَتَّخِذُ مَعْبُودِينَ مِنْ أَوْلِيَاءَ، أَي: مِنْ جِهَةِ أَوْلِيَاءَ، فَحُذِفَ مَفْعُولُ الْإِتِّخَاذِ مَعَهُودًا، ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١].

قَوْلُهُ: (وَالْبُورُ^(١): الْهَلَاكُ)، أَي: هُوَ مُصَدَّرٌ يَسْتَوِي فِي الْوَصْفِ بِهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ، وَالتَّشْبِيهُ وَالتَّذْكِيرُ وَالتَّأْنِيثُ، وَأَنْشَدَ صَاحِبُ «الْمَطْلَعِ» لِلزَّبْعَرِيِّ يَمْدَحُ النَّبِيَّ ﷺ:

(١) في (ط): «والبوار».

أن يكون جمع بائر، كعائذ وعوذ.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ
مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ [١٩]

هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة، وخاصة إذا انضم إليها الالتفات

يا رسولَ الملِكِ إنَّ لسانِي^(١) راتقٌ ما فتقتُ إذ أنا بُورٌ

أي: مُصلِحٌ ما أفسدتُ، ورافئٌ ما مرّقتُ، يعتذرُ إليه مما ذكرَ في أشعاره في حالِ شركه،
والله أعلمُ بصحته.

قوله: (كعائذ وعوذ)، الجوهري: العوذ: الحديثاتُ السَّاجِجُ مِنَ الطَّبَاءِ وَالإِبِلِ وَالْحَيْلِ،
واحدتها عائذٌ.

قوله: (هذه المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة)، قال صاحبُ «المطلع»: حَقُّ
الكلام أن يُقالَ: إن قُلْتُمْ: إِيْتَهُمْ مَعْبُودُنَا وَأَهْلُنَا، فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ، وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأَهَّلَ
الْكَاتِبُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ
فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، أي: لا تعتذروا بأن لم يأتكم رسولٌ، فالآن قد جاءكم
ما أعدركم. وقولُ القائل:

قالوا: خراسانُ أقصَى ما يُرادُ بنا ثم القُفُولُ، فقد جئنا خراسانا^(٢)

أي: فإن قالوا: تلك مقصِدُنَا فقد جئناهُ، فأين القُفُولُ؟ تمَّ كلامُهُ.

وقيل: التقديرُ: قالوا: تلك مقصِدُنَا ثم القُفُولُ إلى مَأْمِنٍ كُلِّ أَحَدٍ، أي: قال: إن
صَدَقْتُمْ فقد جئناهُ، فأين القُفُولُ؟ أمَّا حَذْفُ القَوْلِ مِنَ الآيَةِ؛ فَلأنَّ التَّقْدِيرَ: قال اللهُ تَعَالَى،
أَوِ الملائكةُ: إِيْتَهُمْ مَعْبُودُونَ وَسُفْعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ، فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ. وَالدَّلِيلُ عَلَى المُقَدَّرِ

(١) البيت لعبدالله بن الزبيري، بكسر الزاي المشددة. ذكره الجوهري في «الصحاح» (بور).

(٢) سبق تخريجه.

وحذف القول، ونحوها قوله عزَّ وعلَا: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ فَدَّ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ قَرْوٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، وقول القائل:

قالوا: خراسان أقصى ما يراؤ بنا ثم القُفُول، فقد جئنا خراسانا

وقرى: ﴿نَقُولُونَ﴾ بالتاء والياء. فمعنى من قرأ بالتاء: فقد كذبوكم بقولكم: إنهم آلهة. ومعنى من قرأ بالياء: فقد كذبوكم بقولهم: ﴿سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يُبْعَثُ لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِن أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨]. فإن قلت: هل يختلف حكم الباء مع التاء والياء؟ قلت: إي واللَّهِ! هي مع التاء كقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ [ق: ٥] والجارُّ

الآخر قوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾. وأما المفاجأة فيمن تعقب القصة بالفاء التي تستدعي ما يترتب عليه، كأن السامع لم ينتظر ما بعد الفاء بتقديم ما يترتب عليه ففوجئ به. وهذا أسلوب رائع حسن. وأما الالتفات فيمن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، كأنه قيل: أنتم المخصوصون أيها المكذبون بأن يفعل بكم ما تستحقونه من الفضيحة والنكال ولا يمهلكم فيه.

قوله: (وقرى: ﴿نَقُولُونَ﴾، بالياء والتاء)، المشهورة: بالتاء الفوقانية، وبالياء التحتانية: (١) شاذة (٢).

قوله: (قلت: إي والله)، إلى آخره، أي: حكم الباء في ﴿بِمَا نَقُولُونَ﴾ مع قراءة التاء الفوقانية حكم ﴿كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٥] في كون الباء صلة، وما تقولون: مفعول به، والبدل بدل الاشتغال، كأنه قيل: فقد كذبوا قولكم، أو: الذي تقولونه.

وحكم الباء مع الياء التحتانية حكم: كتبت بالقلم، فالباء للالة، أي: كذبوكم، باستعانة قولهم: ﴿سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يُبْعَثُ لَنَا﴾ الآية.

(١) قوله: «التحتانية» سقط من (ط) و(ح) و(ف).

(٢) وعن قرأ بها: أبو حيوة وابن الصلت عن قُتَيْب. انظر: «البحر المحيط» (٨: ٩٣).

والمجرور بدل من الضمير، كأنه قيل: فقد كذبوا بما تقولون. وهي مع الباء كقولك: كَتَبْتُ بِالْقَلَمِ. وقُرئ: ﴿تَسْتَطِيعُونَ﴾ بالتاء والياء أيضاً. يعني: فما تستطيعون أنتم - يا كفار - صرَفَ العذاب عنكم. وقيل: الصَّرَفُ: التَّوْبَةُ. وقيل: الحِيلَةُ، من قولهم: إنه ليتصرَّف، أي: يَحْتَالُ. أو: فما يستطيعُ أهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب، أو أن يحتالوا لكم. الخطابُ على العموم للمكلفين، والعذابُ الكبير لاحقٌ بكلِّ مَنْ ظَلَمَ، والكافرُ ظالم؛ لقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، والفاسقُ ظالم؛

قوله: (وقرئ): ﴿تَسْتَطِيعُونَ﴾، بالتاء والياء)، حَفْصٌ: بالتاء القَوَاقِي، والباقون بالياء^(١).

قوله: (الخطابُ على العموم للمكلفين)، يعني: في قوله: ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ﴾ لدلالة (مَنْ) الشَّرْطِيَّة؛ لأتَمَّا موضوعةٌ للعموم، فكلُّ مَنْ يَصْدُقُ عليه أنه يظلم؛ فإنه داخلٌ فيه، والفاسقُ الذي لم يَتُبْ ظالمٌ لقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] وفيه لَمَحَةٌ من مذهبه. وذهب عنه أن الخطابَ مع الكفرة المعاندين الذين نحن بصددهم من أولِ السُّورَةِ، فكيف وقد سَبَقَ ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ وهذه الآيةُ كالحاتمة لما يجري عليهم من الأحوال والنكال من لدنِّ قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾؟ يعني ﴿وَمَنْ يَظْلِمُ﴾ أي: يَدُمُ مِنْكُمْ، أي: على ما هو عليه، بعد تلك البيِّناتِ الشافية التي ما تَرَكَتْ مِنَ الرُّوَادِعِ والزَّوْاجِرِ بَقِيَّةً، يُدْفَعُ عَذَاباً كَبِيراً. ثُمَّ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ تَهْدِيدِهِمْ ووعيدِهِمْ شَرَعَ فِي تَسْلِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَا نَالَهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] مِنَ الْحُزَنِ وَضِيقِ الصَّدْرِ، أي: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ الآية. فأين يَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ حَدِيثُ الْفَسَّاقِ؟

قال صاحبُ «الفرائد»: يجبُ أن يُحْمَلَ الظُّلْمُ عَلَى الشِّرْكِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي الشِّرْكِ بِدَلِيلٍ مَا تَقَدَّمَ، وَلِأَنَّ الْحَمْلَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ «الكَشَافِ» يُوَدِّي إِلَى أَنَّ الظُّلْمَ مَعَ الْإِيمَانِ

(١) والمعنى على قراءة التاء: أي: فقد كذبتكم الملائكة بما تقولون، أي: في قولكم: إنهم آهة. انظر: «حجة

لقوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَنْبَأْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]. وُقرئ: (يُذْفَهُ) بالياء، وفيه ضميرُ الله، أو ضميرُ مصدرٍ ﴿يُظْلَمُ﴾.

[﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾]

الجملةُ بعد ﴿إِلَّا﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوف. والمعنى: وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ أَحَدًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَكَلِينَ وَمَاشِينَ. وإنما حُذِفَ اكتفاءً بالجاءِ والمجرور، أعني

يَسْتَلْزِمُ الْعَذَابَ الْكَبِيرَ وَلَا يَجُوزُ الْعَفْوُ وَالتَّجَاوُزُ، وليس كذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

قوله: (وُقرئ: «يُذْفَهُ» بالياء) التَّحْتَانِيَّةُ: شاذة^(١).

قوله: (وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ أَحَدًا مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَكَلِينَ)، فَوَضَعَ «أَكَلِينَ»^(٢) موضع: ﴿إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ﴾، فَيَأْكُلُونَ: صفةٌ لقوله: «أَحَدًا» المحذوف، وقوله: ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أيضاً صفةٌ مبيِّنةٌ له، ولهذا قال: «وإِنَّمَا حُذِفَ اِكْتِفَاءً بِالْجَاءِ وَالْمَجْرُورِ، أَعْنِي «مِنَ الْمُرْسَلِينَ»»، فلو جَعَلَهُ حَالًا كَانَ لَهُ وَجْهٌ؛ لِأَنَّ ذَا الْحَالِ مَوْصُوفٌ.

قال أبو البقاء: كُسِرَتْ «إِنَّ» لِأَجْلِ اللامِ فِي الْخَبَرِ، وَقِيلَ: وَلَوْ لَمْ تَكُنِ اللامُ لَكُسِرَتْ أَيْضًا؛ لِأَنَّ الْجُمْلَةَ حَالِيَّةً؛ إِذِ الْمَعْنَى: إِلَّا وَهْمٌ يَأْكُلُونَ^(٣)، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: وَأَمَّا دُخُولُ «إِنَّهُمْ» بَعْدَ «إِلَّا» فَعَلَى تَأْوِيلٍ: مَا أَرْسَلْنَا رِسَالًا إِلَّا وَهْمٌ يَأْكُلُونَ، أَوْ: وَإِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ، وَحُذِفَتْ «رُسُلًا» لِأَنَّ «مِنَ» فِي قَوْلِكَ: ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى مَا حُذِفَ. وَإِنَّمَا مَثَلُ اللامِ بَعْدَ إِلَّا فَقَوْلُ الشَّاعِرِ:

(١) انظر: «مختصر شواذ القرآن» ص ١٠٤.

(٢) قوله: «فوضع أكليين» سقط من النسخة (ف).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٩٨٣).

﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ونحوه قوله عزَّ مِنْ قائل: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ، مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصفات: ١٦٤] على معنى: وما منَّا أحدٌ. وقرئ: (وَيَمْشُونَ) على البناء للمفعول، أي: تمشيتهم حوائجهم، أو الناس. ولو قرئ: (يَمْشُونَ) لكان أوجه لولا الرواية. وقيل: هو احتجاج على مَنْ قال: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾

ما أنظياني ولا سألتهما إلا واني لحاجز^(١) كرمي^(٢)

يريد: أعطاني^(٣).

وقال صاحبُ «المطلع»: وكسرة «إن» لكان الابتداء، كما لو قيل: إلا وهم يأكلون، لا لكان اللام، ودخولها وخروجها سواء، كما يقال: ما قدم علينا أميرٌ إلا إنه مُكْرِمٌ لي.

قوله: (وَقُرئ: «وَيَمْشُونَ»)، قال ابن جنِّي: «يَمْشُونَ» بضمَّ الياء، وفتح الشين المعجمة: قراءة علي رضي الله عنه وعبد الرحمن بن عبد الله، كقولك: يُدْعُونَ إلى المشي، وكلُّ حاملٍ على المشي وجاء على «فعل» لتكثير فعلهم، إذ هم عليهم السلام جماعة. ولو كانت «يَمْشُونَ» بضمَّ الشين لكانت أوفق، لقوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ﴾، إلا أن معناه: يُكثرون المشي^(٤). يعني: يوافقهُ من حيث إسنادُ الفعل إليهم، وإن أُريدَ به التكثير، ولم يُرد في يأكلون، وفيه الإشعارُ بأن المشي في الأسواق أشدُّ قبحاً من الأكل للتشبيه بالسوقي.

قوله: (وقيل: هو احتجاج)، عطفٌ من حيث المعنى على قوله: «والمعنى: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين»، على أنه وجه آخر، والظاهر أن الأول واردٌ على التسلية، يؤيدُه عطفُ قوله: «وقيل: هو تسلية له» على قوله: «وهذا تصبير» تفسيراً للافتنان، فيكون التصبير متفرعاً على الوجه الثاني، والتسلية على الأول، والثاني قولُ الزجاج، قال: هذا

(١) في (ط): «ولحاجري»، وسقط منها لفظ: «كرمي».

(٢) البيت لكثير في «ديوانه» (٢: ٦٦).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٦٢).

(٤) «المحتسب» (٢: ١٢٠) ولتتام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ٩٤).

[الفرقان: ٧]. ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: مِحْنَةٌ وابتلاء. وهذا تصبيرٌ لرسولِ الله ﷺ على ما قالوه واستبدعوه، من أكله الطعامَ ومشييه في الأسواق بعدما احتجَّ عليهم بسائر الرُّسل، يقول: وجرت عادتي وموجب حكمتي على ابتلاء بعضكم - أيها الناس - ببعض.

احتجاج عليهم في قوله: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] فقيل: كذلك كان من خلا من الرسل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فكيف يكون محمدٌ بدعاً من الرسل (١)؟

وقلت: قول الزجاج لا يساعد عليه النظم؛ لأنه قد أُجيب عن تعنتهم بقوله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ﴾ على ما سبق بيانه، لكن الله تعالى لما حكى عنهم تكذيبهم القرآن والرسل والإعادة، وعقَّب ذلك بالوعيد الشديد والتهديد العظيم، وبما يفضحهم على رؤوس الأشهاد مسألة للرسول، وشرحاً لصدره صلوات الله عليه، وجعل خاتمة كل ذلك قوله: ﴿ومن يظلم منكم﴾ الآية، أعاد بذكر ما هو من جنس قصته صلوات الله عليه مزيداً للانشراح، يؤيده الخطاب في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ﴾، فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ تسلية من قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ﴾ ليتأسى بهم، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ تسلية من تعبيرهم له بالفقر حين قالوا: ﴿أَوْ يُلقُوا إِلَيْهِ كَثُراً﴾ [الفرقان: ٨]، ألا ترى كيف عقبها بقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ أي: عالماً بالصواب فيما يتلى به وغيره. فلا يضيق صدرك ولا يستخفنك أقاويلهم.

قوله: (وجرت عادتي)، قالوا: ولو قال: وجرت سنتي، كان أقرب إلى الأدب؛ لأنها صفة نفسانية (٢). الراغب: العادة: اسم لتكرير الفعل أو الانفعال حتى يصير ذلك سهلاً تعاطيه كالطبع، ولذلك قيل: العادة طبيعة ثانية (٣).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٦٢).

(٢) والأولى بالصواب أن يستشهد له بقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ لِسَنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

(٣) «مفردات القرآن» ص ٥٩٤.

والمعنى: أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم، وبمناصبتهم لهم العداوة، وأقاويلهم الخارجة عن حد الإنصاف، وأنواع أذاهم، وطلب منهم الصبر الجميل، ونحوه ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وموقع ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ بعد ذكر الفتنه موقع ﴿أَيْكُمْ﴾ بعد الابتلاء في قوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧ الملك: ٢] ﴿بَصِيرًا﴾: عالماً بالصواب فيما يبتلي به وغيره، فلا يضيقر صدرك، ولا تستخفك أقاويلهم، فإن في صبرك عليها سعادتك وفوزك في الدارين. وقيل: هو تسلية له عما عيروه به من الفقر، حين قالوا: ﴿أَوَيْلَيْكَ إِلَيْهِ كَنَزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةً﴾ [الفرقان: ٨]، وأنه جعل الأغنياء فتنه للفقراء؛ لينظر هل يصبرون، وأنها حكمته ومشيئته، يُغني من يشاء ويُفقر من يشاء. وقيل: جعلناك فتنه لهم؛ لأنك لو كنت غنياً صاحب كنوز وحنان لكان ميلهم إليك وطاعتهم لك للدنيا،

قوله: (وموقع ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ بعد ذكر الفتنه موقع ﴿أَيْكُمْ﴾ بعد الابتلاء)، وقال بعضهم: ﴿أَيْكُمْ﴾ ليس بتعليق لسبق المفعول الأول، ولكن جملة واقعة موقع المفعول الثاني، وكذلك ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾، لأن قوله: ﴿بَعْضٌ﴾ دال على أن التقدير: وجعلنا بعضكم فتنه بعض أتصبرون؛ لأن معمول المصدر لا يتقدم عليه بل هو دال على معموله. وقال صاحب «التقريب»: يريد أنه ليس بتعليق، لذكر المفعول الأول فيها، وفيه نظر سيأتي في «الملك».

وقلت: نعم، إنه ليس بتعليق لقوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾؛ لأنه أحد مفعوليه، ولكنه تعليق لفعل مضمّر يدل عليه المذكور كما وجد بخط المصنف: إن تعلق قوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ بقوله: ﴿فَتْنَةً﴾ تعلق ﴿أَيْكُمْ﴾ بقوله: ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ والمعنى: وجعلنا بعضكم لبعض فتنه لنعلم أيكم أحسن صبراً، كما ابتليناكم لنعلم أيكم أحسن عملاً. وقد صرح بعيد هذا بما يُنبئ عن هذا المعنى، وهو قوله: «وأنه جعل الأغنياء فتنه للفقراء لينظر هل يصبرون».

قوله: (وقيل: جعلناك فتنه لهم)، أي: للمشركين، هو عطف على قوله: «أنه ابتلى المرسلين بالمرسل إليهم، وبمناصبتهم لهم».

أو تمزوجةً بالدُّنيا، فإنما بعثناك فقيراً؛ لتكونَ طاعةً مَنْ يُطِيعُكَ خائصةً لوجهِ اللهِ مِنْ غيرِ طَمَعٍ دُنْيَوِيٍّ. وقيل: كان أبو جهلٍ والوليدُ بن المغيرةِ والعاصُ بنُ وائلٍ ومَنْ في طبقتهم يقولون: إن أسلمنا وقد أسلمَ قَبْلُنَا عَمَارٌ، وصُهَيْبٌ، وبلالٌ، وفلانٌ وفلانٌ؛ ترفعُوا علينا إذلاًّ إلا بالسابقة. فهو افتتانٌ بعضهم ببعض.

[﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا نَآ لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ ٢١]

أي: لا يأملون لقاءنا بالخير؛ لأنهم كفّروا. أو: لا يخافون لقاءنا بالشرِّ. والرجاء في لغةٍ نهماءة: الخوفُ، وبه فُسرَ قوله تعالى: ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، جعلت الصيرورةُ إلى دارِ جزائه بمنزلةِ لقائه لو كان مَلَقِيًّا. اقترَحُوا من الآيات: أَنْ يُنَزَّلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ فَتُخَبِّرَهُمْ بِأَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ حَتَّى يُصَدِّقُوهُ. أَوْ يَرَوْا اللَّهَ جَهْرَةً فَيَأْمُرَهُمْ بِتَصَدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ. ولا يخلو: إمَّا أن يكونوا عالمين بأنَّ اللهَ لا يُرسل الملائكةَ إلى غير

وقوله: (وقيل: كان أبو جهل) عطفٌ على «لو كنت غنياً صاحبَ كنوز»؛ لأنه فتنَةٌ للمشركين ونوعٌ آخرٌ من الفتنَةِ بسببِ غناهم وفقرِ عَمَارٍ وصُهَيْبٍ وبلالٍ ومَنْ في طبقتهم مِنْ أصحابِ الصُّفَّةِ.

قوله: (لا يأملون لقاءنا بالخير)، الراغب: الرجاء: ظَنُّ يَقْتَضِي حُصُولَ مَا فِيهِ مَسْرَّةٌ. وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] قيل: ما لكم لا تخافون، ووجهُ ذلك الرجاءُ والخوفُ يتلازمان، قال تعالى: ﴿وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾^(١) [التوبة: ١٠٦].

قوله: (بمنزلةِ لقائه لو كان مَلَقِيًّا)، إشارةٌ إلى مذهبه^(٢).

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٤٦.

(٢) يعني من نفي رؤية الله تعالى، كما هو مذهبُ المعتزلة.

الأنبياء، وأنَّ الله لا يصحُّ أن يُرى، وإنما علَّقوا إيمانهم بما لا يكون. وإما أن لا يكونوا عالمين بذلك، وإنما أرادوا التعنُّتَ باقتراح آياتِ سوى الآياتِ التي نزلتْ وقامت بها الحجَّةُ عليهم، كما فعل قومُ موسى حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]. فإن قلت: ما معنى ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾؟ قلت: معناه: أنهم أضْمَرُوا الاستكبارَ عن الحقِّ؛ وهو الكُفْر والعِنادُ في قلوبهم واعتقُدوه، كما قال: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]. ﴿وَعَتَوْا﴾: وتجاوزوا الحدَّ في الظلم. يقال: عتا علينا فلانٌ. وقد وصف العتوَّ بالكبير، فبالغَ في إفراطه، يعني: أنهم لم يجسروا على هذا القولِ العظيم، إلا لأنهم بلَّغوا غايةَ الاستكبار وأقصى العتوِّ. واللامُ: جوابُ قَسَمٍ محذوف. وهذه الجملةُ في حُسن استئنافها غايةٌ، وفي أسلوبها قولُ القائل:

وجارةُ جَسَّاسٍ أبانا بناها
كُلَيْبًا علَّتْ نابٌ كَلَيْبٌ بواؤها

قوله: (وإنما علَّقوا إيمانهم بما لا يكون)، أي: بالمحال، أي: لا يؤمنُ أبداً، هذا إنما يصحُّ أن لو كان القومُ معتزلةً غيرَ مستقيم، والقومُ هم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، وهم المعاندون السابقون. وقد أُقيِمَ المظهرُ مقامَ المضمَر، وذلك أنه تعالى لما سألَ رسوله صلواتُ الله عليه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ عادَ إلى تقييح نوعٍ آخرٍ من أفعالهم وهو إنكارهم لقاء الله، وأنَّ الله تعالى دارُ جزاء.

قوله: (وهذه الجملةُ في حُسن استئنافها^(١) غايةً)، أي: قوله: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ جملةٌ قَسَمِيَّةٌ يستدعي أن يتلقَى بها من يُبالغُ في الإنكار، كأنه لما قالوا: لولا أنزلَ علينا الملائكةُ أو ترى ربنا، حملَ السامعُ على أن يقول: ما أشدَّ استكبارهم! وما أكبرَ عتوهم! لأنها اشتملتْ على أمر يقتضي التعجُّب منهم، فلا يتمالك أن يترك ذلك القول، فوضع موضعه: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا﴾؛ لأنه أثبتُ وأبلغُ من ذلك.

قوله: (وجارةُ جَسَّاسٍ)، البيت^(٢)، جَسَّاسٌ: قاتلُ كُلَيْبٍ، وجارتهُ بسوسُ امرأة.

(١) في (ف): «استيفانها».

(٢) لرجلٍ من بني بكر. ذكره الزمخشري في «المستقصى في أمثال العرب» (٢: ١٧٨).

وفي فحوى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ تعجب، ألا ترى أن المعنى: ما أشد استكبارهم؟! وما أكبر عتوهم؟! وما أعلى ناباً بواؤها كليب؟!

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [٢٢]

والناب: ناقة بسوس، رماها كليب فقتلها، فشكت إلى جساس، فقال: لأقتلن غداً فخلاً هو أعظم من ناقتك، فبلغ ذلك كليباً، فظن أنه فخله المسمى بعليان^(١)، فقال: دون عليان^(٢) خرط القتاد، وكان جساس يعني بالفحل نفس كليب. ذكره الميداني^(٣).

أبانا: أي: قابلنا من البوء، وهو التساوي في القصاص، وأبائه بفلان: إذا قتلته به. والبوء في القود: مهموز، أي: ما أعلى ناباً بواؤها كليب، فلما قتل مهلهل بجيراً^(٤) قال: بؤ بشنع نعل كليب.

قوله: (وفي فحوى هذا الفعل)، الجوهرى: الفحوى: معنى الكلام ولحنه.

الأساس: عرفت ذلك في فحوى كلامه: أي: فيما تنسمت^(٥) من مراده بما تكلم، وأفحيته: خاطبت ففهمت مراده، ونحوه اللحن.

وهذا الذي ذكره قريب من الاصطلاح؛ لأن إفادة هذا التركيب معنى التعجب مفهوم موافق للخطاب، فإن ناقة يكون مثل كليب بواؤها مما يتعجب منها، ونحوه قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ [الصف: ٣] أي: ما أكبر المقت!

(١) في (ط): «بعليان».

(٢) في (ط): «عليان».

(٣) «مجمع الأمثال» (٢: ٢٦٩).

(٤) وهو ابن الحارث بن عباد، فارس بكر وسيدها، وكان قد اعتزل الحرب، وبعث ولده بجيراً ليصلح بدمه بين الحيين. فلما قال مهلهل ما قال، شمر الحارث للحرب، وأذاق التغليبيين من الوقائع المنكرة لا سيما في يوم «تحلاق اللمم» على ما هو معروف في كتب التاريخ.

(٥) في (ط): «انسمت».

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ منصوبٌ بأحدِ شَيْئَيْنِ: إمَّا بما دَلَّ عليه ﴿لَا بُشْرَى﴾، أي: يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ يُمنَعونَ البُشرى، أو يَعْدُمونها، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتكرير؛ وإمَّا بإضمارِ «اذكُرْ»، أي: اذكُرْ يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ، ثم قال: ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

وقوله: ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ إمَّا ظاهرٌ في موضعِ ضمير، وإمَّا لأنه عامٌّ فقد تناوَهَمُ بعمومه. ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ذَكَرَهُ سيبويه في بابِ المصادرِ غيرِ المتصرفَةِ المنصُوبَةِ بأفعالٍ

قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾: منصوبٌ بأحدِ شَيْئَيْنِ، الوجهانِ ذَكَرَهما الزجَّاجُ، ثم قال: لا يجوزُ أن يَنْتَصِبَ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ بقوله: ﴿لَا بُشْرَى﴾؛ لأنَّ ما اتَّصَلَ بـ«لا» لا يَعْمَلُ فيما قبلَهُ^(١).

وقال صاحبُ «الفرائد»: يمكنُ أن يكونَ منصوباً بـ«يُنزَّلُ» المضمرِ لقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةَ﴾، كأنه قيل: يُنزَّلُ الملائكةَ يومَ يَرَوْنَهُمْ، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: منصوبٌ بقوله: ﴿لَا بُشْرَى﴾، لا يقال: كيف يكونُ وقتُ الرؤيَةِ وقتاً للإِنزال؛ لأننا نقولُ: الظرفُ يَحْتَمِلُ ذلكَ لَسَعَتِهِ. ولَمَّا كانَ قوله: ﴿لَا بُشْرَى﴾ يَصِحُّ أن يكونَ عاملاً فلا وَجَهَ لَجَعْلِ مدلولِهِ عاملاً. وقلتُ: قولُ صاحبِ «الفرائدِ» لا مَزِيدَ عليه؛ لأنه إذا انتَصَبَ بـ«يُنزَّلُ» التَّامُّ الكلامانِ؛ لأنَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ﴾، وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ نُشِّرُ لقوله: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ﴾، وقوله: ﴿أَوْ نَرَى﴾ كما سيجي إن شاء الله.

قوله: ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ إمَّا ظاهرٌ في موضعِ ضمير، وإمَّا لأنه عامٌّ، قال القاضي: ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ إمَّا عامٌّ يتناولُ حُكْمَهُ حُكْمَهُمْ مِنْ طَرِيقِ البُرْهَانِ، ولا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ البُشْرَى لعامةِ المجرِمينَ حينئذٍ نَفْيِ البُشْرَى بالعَفْوِ والسَّفَاعَةِ في وقتِ آخَرَ. وإمَّا خاصٌّ ووُضِعَ موضعَ ضميرِهِم تسجيلاً على جُزْمِهِم وإشعاراً بما هو المانعُ للبُشْرَى، والموجبُ لما يُقابِلُها^(٢).

قوله: (في بابِ المصادرِ غيرِ المتصرفَةِ)، أي: التي لا تُسْتَعْمَلُ إلا منصوبةً على المصدرِ،

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٦٣).

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢١٣).

متروك إظهارها، نحو: معاذَ الله، وقعدَكَ، وعمركَ، وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدوٍّ موثور، أو هجوم نازلة، أو نحو ذلك، يضعونها موضع الاستعاذة. قال سيبويه: ويقولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ: أتفعلُ كذا وكذا؟ فيقول: حَجْرًا. وهي من حَجَرَه؛ إذا منَعَه؛ لأنَّ المُستعِيدَ طالِبٌ من اللّهِ أن يَمنعَ المكروهَ فلا يَلحقَه، فكان المعنى: أسألُ اللّهُ أن يَمنعَ ذلكَ منَعًا ويَحجِرَه حَجْرًا. ومجيئه على فِعْلٍ أو فُعْلٍ في قراءة الحسن، تصرّف فيه لاختصاصه بموضع واحد، كما كان قعدَكَ وعمركَ كذلك،

وعمركَ: مصدرٌ عند سيبويه^(١)، قيل: معنى عمركَ الله: عمركَ الله، أي: سألتُ الله عمركَ، وإذا صحَّ أن عمركَ الله بمعنى عمركَ الله وجب أن يكون مصدرًا منصوبًا لعمركَ الملتزم حذفه، واسمُ الله: المفعول الثاني، ومعنى قعدَكَ الله، أسألُ أن يقعدَكَ، أي: يُبثِّتَكَ. هذا التقديرُ مُخالفٌ لما في «الصَّحاح» و«الأساس»، كما سيجيء.

قوله: (عدوٌّ موثور)، النّهاية: أنا الموتورُ الثائر^(٢)، أي: صاحبُ الوتر، الطالبُ بالثأر، والموتورُ: المفعول.

قوله: (على فِعْلٍ أو فُعْلٍ)، «فِعْلٌ» بالكسر: قراءةُ العامّة، وبالضمّ: قراءةُ الحسَن^(٣). قال صاحبُ «المطلع»: قرأه الحسَنُ: «حَجْرًا» بضمّ الحاء، وفي معناه: حَرَامًا مُحْرَمًا. قال الجوهري: الحَجْرُ: الحرام، يُكسَرُ ويضمُّ ويُفْتَحُ، والكسرُ أفصحُ.

قوله: (تصرّف فيه)، أي: أن أصلَ ﴿حَجْرًا﴾ الفتحُ من: حَجَرَه حَجْرًا: منَعَهُ، كما قال،

(١) انظر: «الكتاب» لسيبويه (١: ٣٢٢) «باب من المصادر ينتصب بإضمار الفعل المتروك إظهاره».

(٢) قائل ذلك هو محمد بن مسلمة رضي الله عنه. وهو جزءٌ من حديث حسن الإسناد أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٥١٣٤) وأبو يعلى في «المسند» (١٨٦١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩: ١٣١) وفي «دلائل النبوة» (٤: ٢١٥) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦: ١٤١) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات.

(٣) ومن قرأ بها أيضاً الضحّاك وأبو رجاء. وهو لغةٌ فيه. انظر: «الدرّ المصون» للسمين الحلبي (٥: ٢٥٠).

وَأُنشِدْتُ لِبَعْضِ الرَّجَازِ:

قَالَتْ وَفِيهَا حَيْدَةٌ وَذُعْرٌ عَوِذُ بَرِّي مِنْكُمْ وَحُجْرٌ

فَإِنْ قُلْتُ: فَإِذْ قَدْ ثَبَّتَ أَنَّهُ مِنْ بَابِ الْمَصَادِرِ، فَمَا مَعْنَى وَصْفِهِ بِمَحْجُورٍ؟ قُلْتُ:

فَلَمَّا اخْتَصَّ بِمَوْضِعٍ تَصَرَّفُوا فِيهِ بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ؛ وَذَلِكَ أَنَّ ﴿حَجْرًا تَحْجُورًا﴾ إِنَّمَا يُقَالُ عِنْدَ لِقَاءِ عَدُوٍّ وَهَجُومٍ نَازِلَةٍ؛ فَإِنَّهُ - هَكَذَا - عِبَارَةٌ عَنِ الْاسْتِعَاذَةِ، فَلِذَلِكَ تَصَرَّفُوا فِيهِ، كَمَا أَنَّ قَعْدَكَ اللَّهُ لَمَّا كَانَ عِبَارَةً عَنِ الْيَمِينِ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ بِحَقِّ صَاحِبِكَ الَّذِي هُوَ صَاحِبُ كُلِّ نَجْوَى، وَكَذَا عَمَرِكَ اللَّهُ، مَعْنَاهُ: بِتَعْمِيرِكَ اللَّهُ، أَي: بِإِقْرَارِكَ لَهُ بِالْبَقَاءِ تَصَرَّفُوا فِيهَا، كَذَا فِي «الصُّبْحَانِ».

الْأَسَاسُ: قَعْدَكَ اللَّهُ وَقَعِيدَكَ اللَّهُ لَا أَفْعَلُ، قَالَ جَرِيرٌ:

قَعِيدُكُمْ اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ لَهُ أَلَمْ تَسْمَعَا بِالْبَيْضَتَيْنِ الْمُنَادِيَا^(١)

وَهِيَ قَعِيدَتُهُ: لِامْرَأَتِهِ.

وَقَالَ الرَّاعِبُ: الْحِجْرُ: الْمَمْنُوعُ مِنْهُ بِتَحْرِيمِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِمُ أَنْعَمُ فَحَرَكْتُ حِجْرًا﴾ [الْأَنْعَامُ: ١٣٨]، ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا تَحْجُورًا﴾، كَانَ الرَّجُلُ إِذَا لَقِيَ مَنْ يَخَافُ يَقُولُ ذَلِكَ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ الْكُفَّارَ إِذَا رَأَوْا الْمَلَائِكَةَ قَالُوا ذَلِكَ ظَنًّا أَنَّ ذَلِكَ يَنْفَعُهُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا تَحْجُورًا﴾ أَي: مَنَعًا لَا سَبِيلَ إِلَى رَفْعِهِ وَدَفْعِهِ^(٢).

قَوْلُهُ: (قَالَتْ وَفِيهَا حَيْدَةٌ) الْبَيْتُ^(٣)، الْحَيْدَةُ: الْمَيْلُ. وَالذُّعْرُ: الْخَوْفُ.

(١) كَذَا قَالَ الزَّمخَشَرِيُّ فِي «أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ» (قَعْد) وَلَمْ أَجِدْهُ فِي «دِيْوَانِ جَرِيرٍ» وَعِزَاهُ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي «لِسَانِ الْعَرَبِ» (قَعْد) لِلْفِرْزَدِقِ.

(٢) «مَفْرَدَاتُ الْقُرْآنِ» ص ٢٢٠.

(٣) عِزَاهُ الزَّمخَشَرِيُّ لِبَعْضِ الرَّجَازِ. وَعِزَاهُ أَبُو عُبَيْدٍ الْبَكْرِيُّ لِلْحَطِيبَةِ، كَمَا فِي كِتَابِهِ «فَصَلِّ الْمَقَالَ فِي شَرْحِ كِتَابِ الْأَمْثَالِ» ص ٣٢٤، وَلَمْ أَجِدْهُ فِي «دِيْوَانِهِ».

جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر، كما قالوا: ذيلٌ ذائلٌ، والذَّيلُ: الهوان؛ و: مَوْتُ مائتٌ. والمعنى في الآية: أنهم يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه، وهم إذا رأوهم عند الموت أو يوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم؛ لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون، وقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو الموثور والشدة النازلة. وقيل: هو من قول الملائكة، ومعناه: حراماً محرماً عليكم الغفران والجنّة، أو البشري، أي: جعل الله ذلك حراماً عليكم.

[﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ ٢٣]

ليس هاهنا قدومٌ ولا ما يُشبهه القدوم، ولكن مُثَلَّتْ حَالٌ هَوْلَاءٍ وَأَعْمَاهِمُ التِّي

قوله: (ذَيْلٌ ذَائِلٌ)، قال في «الأساس»: يقال: أذالهُ: أهانهُ، وذالٌ بنفسِه، وهو في ذَيْلِ ذَائِلٍ، أي: في هَوَانٍ شديد، وهو في موتِ مائتِ أي: شديد.

قوله: (وقيل: هو من قول الملائكة)، فعلى هذا: ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ حَالٌ مِنْ «الملائكة» على تقدير: وهم يقولون، وعلى الأول: عطفٌ على ﴿ يَرَوْنَ ﴾.

قوله: (ليس هاهنا قدومٌ ولا ما يُشبهه القدوم)، فإن قلت: في قوله: «ولا ما يُشبهه القدوم»، بعد قوله: «ليس هاهنا قدوم» إيباءً إلى أن ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ في الآية ليس على حقيقته، ولا استعارة؛ لأن نفي التشبيه يستدعي ذلك، فإن الاستعارة مجازٌ مسبوقةٌ بالتشبيه، ثم أخذ في بيان طريق الاستعارة التي هي التشبيه قائلًا: «مُثَلَّتْ حَالٌ هَوْلَاءٍ» إلى قوله: «بحال قوم خالفوا سُلْطَانَهُمْ»، فما معنى هذا الكلام؟

قلت: معنى قوله: «لا يُشبهه القدوم»، أنك إذا جعلت هذا القدوم استعارةً لم يجز أيضاً أن تُجْرِيَهُ على حقيقته في الممثل به أيضاً مجازاً؛ لأن المراد مجرّد القَصْدِ إلى إفساد ما يملكونه، ألا ترى كيف فسّر قوله: «فقدّم إلى أشياءهم» بقوله: «وقصد إلى ما تحت أيديهم».

قال في «الأساس»: قَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ، وَقَدِمَ الْبَلَدَ، وَقَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ، وَهَوْلَاءِ الْقَادِمُونَ، وَمِنْ الْمَجَازِ: وَإِنَّكَ لَقَادِمٌ عَلَى عَمَلِكَ.

عَمَلُهَا فِي كُفْرِهِمْ مِنْ: صِلَّةِ رَحِمٍ، وَإِغَاثَةِ مَلْهُوفٍ، وَقِرَى ضَيْفٍ، وَمَنْ عَلَى أُسِيرٍ،
وغير ذلك من مكارمهم ومحاسنهم - بحال قوم خالفوا سُلطانهم واستعصوا عليه،
فقدِم إلى أشياءهم، وقصد إلى ما تحت أيديهم فأفسدها ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها
أثراً ولا عثيراً. والهباء: ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شبيهة بالغبار، وفي أمثالهم:
«أقل من الهباء». ﴿مَنْثُورًا﴾: صفة للهباء، شبهه بالهباء في قلته وحقارته عنده، وأنه
لا يُنتفع به، ثم بالمنثور منه؛ لأنك تراه منتظماً مع الضوء، فإذا حركت الريح رأيتَه قد
تناثر وذهب كل مذهب. ونحوه قوله: ﴿كَمَصْفٍ مَّاكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]، لم يكف أن

واستعمال «قدِم» في المثل به مُستعارٌ لقصدٍ قوي، وعزم صميم، كأنه وصل بتلك
العزيمة إلى مقصده، كما يقدم المسافر إلى عِزَّة أهله، وينصره في الآية قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً
مَنْثُورًا﴾ أي: أردت ذلك، فجعلته كذلك، قيل: أجرى الكلام على ذلك بناء على معتقده؛
لأنه مُنكرٌ للصفات. قال ابن عباس: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ أي: عمدنا، قال أهل الطريقة: أطلعناهم
على أعمالهم فنظروا إليها بعين الرضا فسقطوا عن أعيننا^(١).

قوله: (ولا عثيراً)، الجوهري: العثيرُ: الغبارُ، بتسكينِ الثاء، ولا يقال: عثير؛ لأنه ليس
في الكلام «فَعِيلٌ» بفتح الفاء إلا فهِيد^(٢)، وهو مصنوع. وفي نسخة: «عثير» بفتح العين
وسكون الياء التحتانيّ مثال العيَّه؛ الأثر. يقال: ما رأيت لهم أثراً ولا عثراً، وهو تأكيدٌ
للأثر وإتباع له.

قوله: (لم يكف)، شبه عملهم بالهباء، ولم يكتف به، حتى جعله متناثراً، ومثل هذا
الإرداف يُسمَّى في البديع: بالتميم والإيغال^(٣). قالت الخنساء:

(١) نقله أبو عبد الرحمن السلمي في «حقائق التفسير» (٢: ٦٠) عن ابن عطاء رحمه الله.

(٢) وهو الصلْبُ الشديد.

(٣) لتمام الفائدة انظر: «تحرير التحبير» لابن أبي الأصبغ المصري ص ٢٠٧.

شَبَّهَهُم بِالْعَصْفِ حَتَّى جَعَلَهُ مُؤَوْفَاً بِالْأَكَالِ، وَلَا أَنْ شَبَّهَ عَمَلَهُمْ بِالْهَبَاءِ حَتَّى جَعَلَهُ مُتَنَاثِرًا. أَوْ مَفْعُولٌ ثَالِثٌ لَجَعَلْنَاهُ، أَي: فَجَعَلْنَاهُ جَامِعًا لِحَقَارَةِ الْهَبَاءِ وَالتَّنَاطُرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، أَي: جَامِعِينَ لِلْمَسْخِ وَالْحَسْءِ. وَلَا مُ الْهَبَاءِ وَأَوْ، بِدَلِيلِ الْهَبُوءَةِ.

[﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ٢٤]

المُسْتَقَرُّ: الْمَكَانُ الَّذِي يَكُونُونَ فِيهِ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِمْ مُسْتَقَرِّينَ يَتَجَالَسُونَ وَيَتَحَادَثُونَ. وَالْمَقِيلُ: الْمَكَانُ الَّذِي يَأْوُونَ إِلَيْهِ لِلِاسْتِرْوَاحِ إِلَى أَزْوَاجِهِمْ وَالتَّمَتُّعِ بِمُغَازَلَتِهِنَّ وَمُلاَمَسَتِهِنَّ، كَمَا أَنَّ الْمُتَرَفِّينَ فِي الدُّنْيَا يَعِيشُونَ عَلَى ذَلِكَ التَّرْتِيبِ. وَرُوي: أَنَّهُ يُفْرَغُ مِنَ الْحِسَابِ فِي نِصْفِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَيَقْبَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ فِي

أَعْرُ أَيْلِجُ تَأْتَمُّ الْهَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارٌ^(١)

مَا كَفَاهَا أَنْ جَعَلْتَهُ عَلِمًا فِي الْهَدَايَةِ، حَتَّى جَعَلْتَهُ فِي رَأْسِهِ نَارًا.

قَوْلُهُ: (مُؤَوْفَاً بِالْأَكَالِ)، أَي: مُصَابًا بِآفَةِ الْأَكَالِ، يُقَالُ: أَصَابَهُ أَكَالٌ فِي رَأْسِهِ وَأَسْنَانِهِ، أَي: تَأْكَلُ.

قَوْلُهُ: (فَجَعَلْنَاهُ جَامِعًا لِحَقَارَةِ الْهَبَاءِ وَالتَّنَاطُرِ)، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَفْعُولَ الثَّالِثَ بِمَنْزِلَةِ الْخَبَرِ، كَقَوْلِكَ: هَذَا حُلُوٌّ حَامِضٌ، أَي: جَامِعٌ لِهَذَيْنِ الطَّعْمَيْنِ.

قَوْلُهُ: (فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِمْ مُسْتَقَرِّينَ يَتَجَالَسُونَ وَيَتَحَادَثُونَ)، وَإِنَّمَا حَمَلَ ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَالْجَنَّةُ أَيْدَا مُسْتَقَرُّهُمْ وَمُقَامُهُمْ؛ لِيَصِحَّ حَمْلُ ﴿مَقِيلًا﴾ عَلَى مَعْنَى الْحُلُوءَةِ، لِيَجْمَعَ بَيْنَ حَالَتِي التَّعْظِيمِ وَالتَّتَرُّفِ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ التَّكْمِيلِ.

قَوْلُهُ: (وَرُوي: أَنَّهُ يُفْرَغُ مِنَ الْحِسَابِ فِي نِصْفِ الْيَوْمِ)^(٢)، فَيَقْبَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، فَعَلَى

(١) «ديوان الخنساء» ص ٣٨٦.

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «نِصْفِ ذَلِكَ الْيَوْمِ».

النار. وفي معناه قوله عزّ و علا: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَكَبِرُونَ﴾ [يس: ٥٥ - ٥٦]، قيل في تفسير الشُّغْل: افتِضاض الأَبْكَار. ولا نَوْمَ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ مَكَانٌ دَعَتِهِمْ وَاسْتَرَوْاحَهُمْ إِلَى الْحُورِ مَقِيلًا

هذا الْمُسْتَقَرُّ: هُوَ الْمَقِيلُ، وَمِنْ ثَمَّ لَمَّا سَأَلَ - أَي: عَنِ نَفْسِهِ - الْإِمَامُ: وَقَالَ: الْآيَةُ تُدَلُّ عَلَى أَنَّ مُسْتَقَرَّهُمْ غَيْرُ مَقِيلِهِمْ؟ أَجَابَ بِأَجْوِبَةٍ، مِنْهَا: أَنَّهُ بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنَ الْمَحَاسِبَةِ، وَالذَّهَابِ إِلَى الْجَنَّةِ، يَكُونُ وَقْتُ الْقَيْلُولَةِ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَا يَتَنَصَّفُ النَّهَارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقِيلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ^(١). وَفِي «شَرْحِ السَّنَةِ»: لَا يَتَنَصَّفُ النَّهَارُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، حَتَّى يَقِيلَ هَوْلَاءٌ وَهَوْلَاءٌ^(٢). وَقَالَ الْإِمَامُ: يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِأَحَدِهِمَا الْمَصْدَرُ وَالزَّمَانُ، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ زَمَانَهُمْ وَمَكَاتِهِمْ أَطْيَبُ مَا يُتَخَيَّلُ مِنَ الْأَمَكِيَّةِ وَالْأَزْمِنَةِ^(٣).

قوله: (وفي معناه)، أي: وفي معنى ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ إِذَا حَمِلَ عَلَى أَنَّهُمْ يَأْوِنُونَ إِلَى الْمَقِيلِ لِلْإِسْتِرَاحِ إِلَى أَزْوَاجِهِمْ، وَالتَّمَتُّعِ بِمُغَازَلَتِهِمْ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «افتِضاض الأَبْكَار».

قوله: (ولا نوم في الجنة، وإنما سُمِّيَ)، إِلَى آخِرِهِ. شُرُوعٌ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ: ﴿مَقِيلًا﴾، بِالْإِسْتِرَاحِ إِلَى الْأَزْوَاجِ وَالتَّمَتُّعِ بِمُغَازَلَتِهِمْ، يَعْنِي: أَنَّهُ تَعَالَى أَثْبَتَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ مَقَامَ الْقَيْلُولَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ لَا نَوْمَ فِي الْجَنَّةِ فَلَا قَائِلَةَ، فَإِذْ ذُنِ الْمَقِيلُ عِبَارَةً عَمَّا تَسْتَلْزِمُهُ مِنَ الْإِسْتِرَاحَةِ وَالِدَّعَةِ؛ لِأَنَّ الْمَقِيلَ: مَقَامُ النَّوْمِ فِي الْقَائِلَةِ، وَالْحَلُولَةَ مَعَ الْأَزْوَاجِ، وَالتَّفَكُّهُ مَعَهُنَّ، سَبَّهَ مَكَانَ اسْتِرَاحَتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الْحُورِ الْعَيْنِ بِمَا تُعْرَفُ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَكَانِ الْإِسْتِرَاحِ عِنْدَ الْقَيْلُولَةِ، فَاسْتَعِيرَ اسْمَ الْمَقِيلِ لَهُ، وَوُصِفَ بِالْحُسْنِ إِرَادَةَ حُسْنِ سَاكِنِيهِ عَلَى طَرِيقِ الْكِنَايَةِ، كَقَوْلِهِ:

يَبِيتُ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللَّوْمِ بَيْتُهَا^(٤)

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٧٢)، وانظر الأثر المذكور عن ابن مسعود في «جامع البيان» للطبري (١٩): (٥٥٦)، و«الدار المنثور» (١١: ١٥٨).

(٢) «شرح السنة» (١٥: ٢٠١).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٧٢).

(٤) سبق تخريجه.

على طريق التشبيه. وفي لفظ الأحسن رمز إلى ما يترزين به مقيّلهم من: حُسن الوجوه، وملاحة الصُور، إلى غير ذلك من التحاسين والزّين.

[﴿ وَيَوْمَ نَسْفُكُ السَّمَاءَ بِالْغَمَمِ نُنزِلُ الْمَلَكَةَ نَزِيلاً ﴾ ٢٥]

وَقُرئ: ﴿ تَشَقَّقُ ﴾ والأصل: تَشَقَّقُ، فحذف بعضهم التاء، وغيره أدغمها. ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها؛ جعل الغمام كأنه الذي تُشقُّ به السماء،

فعل هذا ليس «أحسن» لأفعل التفضيل.

وقال الإمام: إنه تعالى لما بيّن حال الكُفّار في الحَسارِ الكُليّ، والحَيِّية التامة، شرّع في وَصْف أهل الجنة، وأنّ مُستقرّهم خيرٌ من مُستقرّ أهل النارِ على نحو: العسل أحلى من الحقل^(١). هذا أوفق لتأليف النَّظم، ولقول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: لا يتنصفُ النهارُ من يوم القيامة حتى يقيّل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

قولُه: (من التحاسين)، قيل: هو جمع التحسين، وهو مصدرٌ في الأصل ثم أوقع اسماً لما يُحسّنُ به من الزخارف، ونظيره التصاريفُ والتضاعيفُ لُصروفِ الزمانِ وإثناء الشيء.

قولُه: (وَقُرئ: ﴿ تَشَقَّقُ ﴾)، الكوفيون وأبو عمرو: ﴿ تَشَقَّقُ ﴾ هنا وفي «ق»؛ بتخفيف الشين، والباقون: بتشديدها^(٢).

قولُه: (جعل الغمام كأنه الذي تُشقُّ به السماء)، قال أبو علي: قيل: معناه: تَشَقَّقُ السماءُ بسببِ الغمام، ولما كان طلوعه سبباً لتشقُّقها جعل الغمام كأنه يشقُّها، أو معناه: تَشَقَّقُ به السماءُ وعليها غمام^(٣)، كما يقال: ركب الأمير بسلاحه، وخرج بشيابه، أي: وعليه ثيابه وسلاحه.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٧٢).

(٢) انظر توجيه القراءتين في «حجّة القراءات» ص ٥١٠.

(٣) انظر: «الحجّة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٣: ٢٠٩-٢١٠).

كما تقول: شُقَّ السَّنامُ بالشَّفرة، وانشَقَّ بها. ونظيره قوله: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]. فإن قلت: أي فرق بين قولك: انشَقَّتِ الأرضُ بالنبات، وانشَقَّتْ عن النبات؟ قلت: معنى انشَقَّتْ به: أن اللّه شَقَّها بطلوعه فانشَقَّتْ به. ومعنى: انشَقَّتْ عنه: أن التربة ارتفعت عنه عند طلوعه. والمعنى: أن السماء تفتتحُ بغيام يخرج منها، وفي الغمام الملائكةُ ينزلون وفي أيديهم صحائفُ أعمالِ العباد. وروي: تَنشُقُ سماءُ سماء، وتَنزِلُ الملائكةُ إلى الأرض. وقيل: هو غمامٌ أبيض رقيق، مثل الضباب، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم. وفي معناه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]. وقرئ: (وتُنزل الملائكة)، (وتُنزل)، (وتُنزل الملائكة)، (وتُنزلت الملائكة)، (وأُنزل الملائكة)، (وتُنزل الملائكة)، (وتُنزل الملائكة).

قوله: (وانشَقَّ بها)، لكونِ الشَّفرة سبباً فيه، وآله له. الجوهري: الشَّفرةُ بالفتح: السكينُ العظيم. وشَفرةُ السيف: حدّه.

قوله: (ونظيره قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾)، قال (١): «الباءُ في ﴿به﴾ مثلها في قولك: فَطَرْتُ العودَ بالقدومِ فانفَطَرَ به، يعني: أنها تَنفطرُ بشدة ذلك اليوم، فالضميرُ يعودُ إلى اليوم، والمرادُ وَصَفُ اليوم بالشدة. وأن السماءَ على عِظَمِها وإحكامِها تَنفطرُ فيه، فما ظنُّك بغيرها من الخلاق؟

قوله: (مثل الضباب)، الضبابُ، بفتح الضاد: سحابةٌ تَغشى الأرض كالدخان، والجمعُ: الضبابُ، قاله الجوهري.

قوله: (وقرئ: «وتُنزل»)، ابن كثير: «وتُنزل»، بتوئين الثانية ساكنة، وتخفيف الزاي ورفع اللام، و«الملائكة»: بالنصب، والباقون: بتوئين واحدة وتشديد الزاي وفتح اللام، ورفع «الملائكة» (٢).

قوله: (وتُنزل الملائكة)، على حذفِ التوئن وضمِّ التوئن الباقية وتشديد الزاي وكسرها،

(١) يعني الزمخشري في «الكشاف» (١٦: ١٠١).

(٢) لتهايم الفائدة انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (٢: ١٤٥) و«حجة القراءات» ص ٥١٠.

على حذف النون الذي هو فاء الفعل من نُزِّل؛ قراءة أهل مكة.

[﴿ الْمَلِكُ يَوْمَ ذَلِكَ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ٢٦]

الحقُّ: الثابت؛

ونُصِبَ «الملائكة». قال ابنُ جني: روي عن ابنِ كثيرٍ وأهلِ مكة، أصله، «نُزِّل»، حذَفَ النونَ التي هي فاءُ الفعلِ لِالتقاءِ النونينِ استخفافاً، وشبَّهها بما حُذِفَ مِنْ أَحَدِ المثلينِ الزائدينِ^(١) في نحو: تَفَكَّرُونَ، وَتَطَهَّرُونَ، مِنْ: تَتَفَكَّرُونَ وَتَتَطَهَّرُونَ. وَرَوَى عبدُ الوهابِ عن أبي عمرو: «وَنُزِّلَ الملائكة»، بضمِّ النونِ وكسرِ الزاي خفيفةً. وهذا غيرُ معروف؛ لأنَّ «نُزِّلَ» لا يتعدَّى إلى مفعولٍ به فبني هنا للملائكة. فإن قلت: قد جاء «فُعِلَ» مما لا يتعدَّى نحو: جُنِّ، ولا يقال: جَنَّهُ اللهُ، بل: أجنَّهُ اللهُ؟ قلت: هو شاذٌّ، والقياسُ عليه مردودٌ. فهذه إما أن تكونَ لغةً طارقةً لم تقعْ إلينا، وإما أن يكونَ من حذفِ المضاف، أي: نزل نزولِ الملائكة، فحذفِ المضاف، وأقيمَ المضافُ إليه مقامه، قال العجاج:

حتى إذا اصطفوا له حذارا

فـ«حذاراً»: منصوبٌ مصدرًا لا مفعولاً به، يُريدُ: اصطفوا اصطفاً حذار، فإن قلت: فما معنى نُزِّلَ نزولُ الملائكة؟ قلت: إنه على قولك: هذا نزولٌ منزل، وصعودٌ مصعودٌ، وَصَرَبٌ مضروب، وقريبٌ منه: وقد قيلَ قولٌ، وقد خيفَ منه خوفٌ، فاعرف ذلك فإنه أمثل ما يحتاجُ به لهذه القراءة^(٢).

وفي «اللوامح»^(٣): ومعنى «نُزِّلَ به نزولُ الملائكة»: نُزِّلَ نازِلُ الملائكة، أي: نازلٌ من الملائكة.

(١) في النسخ الخطية: «الزائدين». وصوبناه من «المحتسب».

(٢) «المحتسب» (٢: ١٢٠-١٢٢) بتصرفٍ ملحوظ.

(٣) لأبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد المقرئ الرازي مقرئ فاضل عارف بالأدب، مؤلف كتاب «جامع الوقوف»، وله شعرٌ في الزهد. (ت ٤٥٤ هـ) ترجمته في «غاية النهاية» (١: ٣٦١). وكتابه «اللوامح». ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (٢: ١٥٦٧).

لأنَّ كُلَّ مُلْكٍ يَزُولُ يَوْمَئِذٍ وَيَبْطُلُ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا مُلْكُهُ.

[﴿ وَيَوْمَ يَعْضُ الظُّلُمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ * يَوْمَئِذٍ لَيْتَنِي

قوله: (لأنَّ كُلَّ مُلْكٍ يَزُولُ يَوْمَئِذٍ)، هذا التعليلُ مَبْنِيٌّ عَلَى تَعْلِيْقِ الحُكْمِ بِالوَصْفِ، أَيْ: إِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ الحَقَّ بِمعْنَى الثَّابِتِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ المُلْكَ بِهِ بَعْدَ تَقْيِيدِهِ بِيَوْمَئِذٍ، وَأَوْقَعَ ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾ خَبْرًا، فَإِنَّ قِيلَ: إِنَّ المُلْكَ الثَّابِتَ لِلرَّحْمَنِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَهَمَّ بِدَلِيلِ الخُطَابِ أَنَّ مُلْكَ الغَيْرِ زَالٌ وَبَطْلٌ يَوْمَئِذٍ، نَحْوُهُ: فِي العَنَمِ السَّائِمَةِ زَكَاةٌ^(١). قَالَ الزَّجَّاجُ: ﴿الحَقُّ﴾ صِفَةٌ لـ ﴿المُلْكَ﴾، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ المُلْكَ الَّذِي هُوَ المُلْكَ حَقًّا مُلْكَ الرَّحْمَنِ يَوْمَ القِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]؛ لِأَنَّ المُلْكَ الزَّائِلَ كَأَنَّهُ لَيْسَ بِمُلْكَ^(٢).

عَنْ بَعْضِهِمْ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: فَضَّلَ بَيْنَ الصِّفَةِ وَالمَوْصُوفِ، وَالفَضْلُ بَيْنَهُمَا بِالظَّرْفِ فَصِيحٌ، وَبَيْنَ المِضَافِ [والمِضَافِ] إِلَيْهِ يَجُوزُ فِي ضَرُورَةِ الشُّعْرِ، كَقَوْلِهِ:

هُمَا أَخْوَا فِي^(٣) الحَرْبِ مَنْ لَا أَخَالَه^(٤)

وَقَالَ أَبُو البَقَاءِ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مَعْمُولُ المُلْكَ، أَوْ مَعْمُولٌ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ اللَّامُ، وَلَا يَعْمَلُ فِيهِ الحَقُّ؛ لِأَنَّهُ مُصَدَّرٌ مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ^(٥).

(١) سبق تخريجه.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٦٥).

(٣) في (ط): «هما أخواني».

(٤) تمام البيت:

إِذَا خَافَ يَوْمًا نَبَوَّةَ فِدْعَاهُمَا

وقد اختلفَ في نسبة البيت، فالذي جزم به سيبويه في «الكتاب» (١: ١٨٠) أنه لدُرْزَا بنتِ عُبَيْبَةَ مِنْ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، وَعِزَاهُ المَرْزُوقِيُّ فِي «شرح الحماسة» ص ١٠٨٢ لِعَمْرَةَ الخُثَعِمِيَّةِ تَرْتِي ابْنَتَهَا، وَهُوَ الأَشْبَهُ بِالصَّوَابِ.

(٥) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٩٨٤).

لَوْ أَخَذَ فَلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ
خَذُولًا ﴿٢٧ - ٢٩﴾

عَضُّ اليَدَيْنِ وَالْأَنَامِلِ، وَالسُّقُوطُ فِي اليَدِ، وَأَكْلُ البَنَانِ، وَحَرْقُ الأَسْنَانِ وَالْأَرْمِ، وَقَرَعُهَا: كِنَايَاتٌ عَنِ الغَيْظِ وَالْحَسْرَةِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ رَوَادِفِهَا، فَتَذَكَّرُ الرَادِفَةُ وَيُدَلُّ بِهَا عَلَى المَرْدُوفِ، فَيَرْتَفِعُ الكَلَامُ بِهِ فِي طَبَقَةِ الفَصَاحَةِ، وَيَجِدُّ السَامِعُ عِنْدَهُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الرَّوْعَةِ وَالاسْتِحْسَانِ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ لَفْظِ المَكْنَى عَنْهُ. وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَكَانَ يُكْثِرُ مُجَالَسَةَ رَسولِ اللهِ ﷺ. وَقِيلَ: اتَّخَذَ ضِيافَةً، فَدَعَا إِلَيْهَا رَسولَ اللهِ ﷺ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْ طَعَامِهِ حَتَّى يَنْطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فَفَعَلَ، وَكَانَ أَبِيُّ بْنُ خَلْفِ صَدِيقَهُ، فَعَاتَبَهُ وَقَالَ: صَبَأْتَ يَا عُقْبَةُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ آلَى أَنْ لَا يَأْكُلَ مِنْ طَعَامِي وَهُوَ فِي بَيْتِي، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ فَشَهِدْتُ لَهُ وَالشَّهَادَةُ لَيْسَتْ فِي نَفْسِي، فَقَالَ: وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرَامٌ إِنْ لَقِيتَ مُحَمَّدًا فَلَمْ تَطَأْ قَفَاهُ وَتَبَزَّقْ فِي وَجْهِهِ وَتَلَطِّمْ عَيْنَهُ؛ فَوَجَدَهُ سَاجِدًا فِي دَارِ النَّدْوَةِ فَفَعَلَ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «لَا أَلْفَاكَ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ إِلَّا عَلَوْتُ رَأْسَكَ بِالسَّيْفِ»، فَقَتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ، أَمَرَ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِقَتْلِهِ. وَقِيلَ: قَتَلَهُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَقْلَحِ الأَنْصَارِيِّ،

قَوْلُهُ: (وَالْأَرْمِ)، الجوهري: الأَرْمُ: الأَضْرَاسُ، كَأَنَّهُ جَمْعُ أَرَمٍ، يُقَالُ: فَلَانٌ يَحْرِقُ عَلَيْكَ الأَرْمَ، إِذَا تَغَيَّظَ فَحَكَ أَضْرَاسَهُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ.

قَوْلُهُ: (عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَقْلَحِ)، أَقْلَحُ: صَحَّ بِالقَافِ فِي «المَغْرِبِ»^(١)، وَفِي «الاسْتِيعَابِ»^(٢): عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي أَقْلَحِ، بِالقَافِ؛ الَّذِي بِأَسْنَانِهِ خُضْرَةٌ أَوْ خُفْرَةٌ، وَبِهِ كُنْيَةُ جَدِّ عَاصِمِ.

(١) «المغرب في ترتيب المعرب» (٢: ١٩١).

(٢) «الاستيعاب» (٢: ٧٧٩).

وقال: يا محمد، إلى من الصبية؟ قال: «إلى النار». وطعن رسول الله ﷺ أياً بأحد، فرجع إلى مكة فمات. فاللام في ﴿الظالم﴾ يجوز أن تكون للعهد، يراد به عقبة خاصة، ويجوز أن تكون للجنس؛ فيتناول عقبة وغيره. تمنى أن لو صحب الرسول وسلك معه طريقاً واحداً؛ وهو طريق الحق، ولم تشعب به طرق الضلالة والهوى. أو أراد: أي كنت ضالاً لم يكن لي سبيل قط، فليتنى حصلت لنفسي في صحبة الرسول سبيلاً. وقرئ: (يا ويلتي) بالياء، وهو الأصل؛ لأن الرجل يُنادي ويلته، وهي هلكته، يقول لها: تعالي فهذا أوئك. وإنما قلبت الياء ألفاً، كما في صحارى ومدارى. فلان: كناية عن الأعلام، كما أن الهن كناية عن الأجناس، فإن أريد بالظالم عقبة، فالمعنى: ليتني لم أتخذ أياً خليلاً، فكنت عن اسمه. وإن أريد به الجنس، فكل من اتخذ من المضلّين خليلاً كان لخليله اسم علم لا محالة، فجعله كناية عنه. ﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾: عن

قوله: (إلى من الصبية؟)، النهائية. الصبية: جمع صبي، والصبوة القياس، والأول أكثر استعمالاً.

قوله: (فاللام في ﴿الظالم﴾)، الفاء نتيجة، يعني: اللام في ﴿الظالم﴾ على أنها نزلت في عقبة بن أبي معيط: للعهد، وعلى أن تكون الآية عامة تكون للجنس، فعلى هذا دلّ قوله: «وقيل نزلت في عقبة بن أبي معيط» على قول آخر مقدر.

قوله: (أو أراد أنني كنت ضالاً)، عطف على جملة قوله: «تمنى أن لو صحب»، وهو تفسير لقوله: ﴿وَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾، فالتنكير في ﴿سَيْلًا﴾ إما للإفراد شخصاً، وهو سبيل الحق فيقدر الضلال عاماً ليتناول جميع طرق الضلال، ولهذا قال: طرق الضلالة بعد قوله: «طريقاً واحداً»، وإما للشبوح، فالضلال - على هذا - مطلق أيضاً، وإليه الإشارة بقوله: «لم يكن لي سبيل قط»، وقال: «سبيلاً»، أي: أي سبيل كان.

قوله: (ومدارى)، الجوهري: المذرى: القرن، وربما تصلح بها الماشطة قرون النساء، وهي شيء كالمسلة.

ذُكِرَ اللهُ، أو القرآن، أو موعظة الرَّسول. ويجوزُ أن يريدَ نُطْقَهُ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ، وَعَزَمَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَالشَّيْطَانُ: إِشَارَةٌ إِلَى خَلِيلِهِ، سَمَّاهُ شَيْطَانًا؛ لِأَنَّهُ أَضَلَّهُ كَمَا يُضِلُّ الشَّيْطَانُ، ثُمَّ خَذَلَهُ وَلَمْ يَنْفَعَهُ فِي الْعَاقِبَةِ. أَوْ أَرَادَ إِبْلِيسَ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى مُحَالَةِ الْمُضِلِّ وَمُخَالَفَةِ الرَّسُولِ، ثُمَّ خَذَلَهُ. أَوْ أَرَادَ الْجِنْسَ وَكُلَّ مَنْ تَشَيَّبَنَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ﴾ حِكَايَةَ كَلَامِ الظَّالِمِ، وَأَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ. ﴿أَتَّخَذْتُ﴾: يُقْرَأُ عَلَى الْإِدْغَامِ وَالْإِظْهَارِ، وَالْإِدْغَامُ أَكْثَرُ.

[﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيِّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ * ٣٠ - ٣١]

﴿الرَّسُولُ﴾: مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقَوْمُهُ: قُرَيْشٌ، حَكَى اللهُ عَنْهُ شَكْوَاهُ قَوْمِهِ إِلَيْهِ. وَفِي هَذِهِ الْحِكَايَةِ تَعْظِيمٌ لِلشَّكَايَةِ، وَتَخْوِيفٌ لِقَوْمِهِ؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَانُوا إِذَا التَّجَاؤا إِلَيْهِ وَشَكَّوْا إِلَيْهِ قَوْمَهُمْ: حَلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ وَلَمْ يُنْظَرُوا.

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ مُسَلِّيًا وَمُوَاسِيًا وَوَاعِدًا النَّصْرَةَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ قَبْلَكَ مُبْتَلًى بِعَدَاوَةِ قَوْمِهِ، وَكَفَاكَ بِي هَادِيًا إِلَى طَرِيقِ قَهْرِهِمُ وَالْإِنْتِصَارِ مِنْهُمْ، وَنَاصِرًا لَكَ عَلَيْهِمْ. ﴿مَهْجُورًا﴾: تَرَكُوهُ وَصَدُّوا عَنْهُ وَعَنِ الْإِيمَانِ بِهِ. وَعَنْ

قَوْلُهُ: (نُطِقَهُ بِشَهَادَةِ الْحَقِّ)، أَي: نُطِقَ عُقْبَةَ بِالشَّهَادَتَيْنِ كَمَا مَرَّ.

قَوْلُهُ: (أَوْ أَرَادَ الْجِنْسَ)، فَعَلَى هَذَا الْجُمْلَةُ مُعْتَرِضَةٌ مَذْبُولَةٌ، وَعَلَى التَّعْيِينِ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا.

قَوْلُهُ: ﴿أَتَّخَذْتُ﴾ يُقْرَأُ عَلَى الْإِدْغَامِ وَالْإِظْهَارِ، ابْنُ كَثِيرٍ وَحَفْصٌ: بِالْإِظْهَارِ، وَالْبَاقُونَ: بِالْإِدْغَامِ^(١).

قَوْلُهُ: (مُوَاسِيًا)، الْجَوْهَرِيُّ: أَسَيْتُهُ تَأْسِيَةٌ: أَي عَزَيْتُهُ.

(١) انظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (١: ١٦٠).

النبي ﷺ: «من تعلّم القرآن وعلمه وعلّق مُصحفاً لم يتعهده ولم ينظر فيه، جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب العالمين، عبدك هذا اتخذني مهجوراً، اقض بيني وبينه». وقيل: هو من هجر؛ إذا هذى، أي: جعلوه مهجوراً فيه، فحذف الجار، وهو على وجهين؛ أحدهما: زعمهم أنه هذيانٌ وباطلٌ وأساطيرُ الأولين. والثاني: أنهم كانوا إذا سمعوه هجروا فيه، كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]. ويجوز أن يكون المهجورُ بمعنى الهجر، كالمجلود والمعقول. والمعنى: اتخذوه هجراً. والعدوُّ: يجوزُ أن يكون واحداً وجمعاً، كقوله: ﴿فَاتَّبَعْتُمُ عَدُوِّي﴾ [الشعراء: ٧٧]. وقيل: المعنى: وقال الرسولُ يومَ القيامة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً * الَّذِينَ يُحْمَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [٣٢ - ٣٤]

قوله: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا﴾، أي: بإنشاد الأناشيد وإنشاء الأراجيز، وبالمكاء والتصديّة.

قوله: (ويجوزُ أن يكون المهجورُ بمعنى الهجر)، عطفُ على قوله: ﴿مَهْجُورًا﴾ تَرْكُوهُ، كالمجلودِ بمعنى الجلادة، والمعقولُ بمعنى العقل، والمعنى: اتخذوه هجراً، أي: نفَسَ الهجرِ مبالغةً، هذا على قول الكوفيّين، لأنَّ صاحبَ «الكتاب» لم يُثبتِ الواردَ على وَزْنِ المفعول.

الراغب: الهجرُ والهجرانُ: مُفَارَقَةُ الإنسانِ غَيْرَهُ إمَّا بِالْبَدَنِ، أَوْ بِاللِّسَانِ، أَوْ بِالْقَلْبِ، وقوله تعالى: ﴿يَرْبِّ إِن قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ فهذا هجرٌ بالقلب، أو بالقلبِ واللِّسَانِ^(١).

قوله: (وقيل: المعنى: وقال الرسولُ يومَ القيامة)، عطفُ على قوله: «حَكَى اللهُ عَنْهُ شُكْوَاهُ قَوْمَهُ إِلَيْهِ».

(١) «مفردات القرآن» ص ٨٣٣.

﴿نَزَلَ﴾ هاهنا بمعنى أنزل لا غير، كخُبرَ بمعنى أخبر، وإلا كان مُتدافِعًا. وهذا أيضاً من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدالّة على شراذمهم عن الحقّ وتجاويزهم عن أتباعه. قالوا: هلا أنزل عليه دفعةً واحدة في وقتٍ واحد كما أنزلت الكتب الثلاثة! وما له أنزل على التفاريق؟! والقائلون: قُريشٌ. وقيل: اليهود. وهذا فضولٌ من القول ومُماراةٌ بما لا طائل تحته؛ لأنّ أمرَ الإعجازِ والاحتجاجِ به لا يَحْتَلِفُ بنزوله جملةً واحدة أو مُفَرَّقًا. وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ جوابٌ لهم، أي: كذلك أنزل مُفَرَّقًا، والحكمةُ فيه: أن نقوي بتفريقه فؤادك؛ حتى تَعِيَهُ وَتَحْفَظَهُ؛ لأنّ المُتَلَقِّنَ إنما يقوى قلبه على حفظِ العِلْمِ شيئاً بعد شيء، وجزءاً عَقِيْبَ جزء، ولو أُلْقِيَ عليه جملةً واحدة لَبَعَلَ به وتعيّاً بحفظه، والرسولُ ﷺ فارقتُ حاله حال موسى وداودَ وعيسى؛ حيثُ كان أمياً لا

قوله: (وإلا كان مُتدافِعًا)، أي: مدفوعاً بجملةٍ واحدة، يعني: أنهم اعتراضوا أنّ القرآنَ لَمْ فُرِّقْ نزولُهُ، ولم يُنَزَّلْ جملةً واحدة؟ فلو ذهبتَ إلى قولك: هلا فُرِّقَ نزولُهُ جملةً واحدة؟ لَوَقَعَتْ في التناقض.

عن بعضهم: ﴿نَزَلَ﴾: على التفريق، بخلاف «أُنزِلَ»، وهاهنا بمعنى واحد، كقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وهذا من التفاضل والتعريض، كما في «عسى» و«كاد» في إثبات «أن» وحذفها.

قوله: (فُضُولٌ مِنَ الْقَوْلِ)، فُضُولٌ: جمعُ فَضْلٍ، غَلَبَ على ما لا خيرَ فيه، يُخَالِفُ الْجَمْعُ الواحدَ في قولهم: لَهُ فَضْلٌ، وفيه فُضُولٌ.

قوله: (لَبَعَلَ بِهِ)، بكسرِ العَيْنِ. الأساس: بَعَلَ بِالْأَمْرِ: إِذَا عَيَّ بِهِ.

الراغب: قِيلَ لَفَحَلَ النَّخْلُ: بَعَلَ، تشبيهاً بالبعلِ مِنَ الرِّجَالِ، وَاسْتَبَعَلَ النَّخْلُ: عَظَمَ وَتَصَوَّرَ مِنَ البَعْلِ الَّذِي هُوَ النَّخْلُ قِيَامُهُ فِي مَكَانِهِ، فَقِيلَ: بَعَلَ فَلَانٌ بِأَمْرِهِ: إِذَا أَذْهَسَ وَتَبَّتْ فِي مَكَانِهِ ثَبَاتِ النَّخْلِ فِي مَكَانِهِ، كقولهم: ما هُوَ إِلَّا شَجَرٌ، فَيَمْنُ لَا يَبْرَحُ^(١).

(١) «مفردات القرآن» ص ١٣٥.

يقرأ ولا يكتب، وهم كانوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بُدُّ من التلقين والتحفظ،
فأنزل عليه منجماً في عشرين سنة، وقيل: في ثلاث وعشرين. وأيضاً: فكان ينزل على
حسب الحوادث وجوابات السائلين؛ ولأن بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتى
ذلك إلا فيما أنزل مفرقاً. فإن قلت: «ذلك» في ﴿كَذَلِكَ﴾ يجب أن يكون إشارة
إلى شيء تقدمه، والذي تقدم هو إنزاله جملة، فكيف فسرتَه بذلك أنزلناه مفرقاً؟

قوله: (في عشرين سنة، وقيل: في ثلاث وعشرين)، رَوَيْنَا عن البخاري ومسلم والترمذي،
عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت
ويرى الضوء ولا يرى شيئاً سبعمائة سنة وثمانين سنة يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشرًا (١).

وفي رواية: أنزل على النبي ﷺ وهو ابن أربعين سنة، فمكث ثلاث عشرة سنة، ثم أمر
بالهجرة، فهاجر إلى المدينة، فمكث بها عشر سنين، ثم توفي صلوات الله عليه وآله وصحبه
أجمعين.

قوله: (وأيضاً: فكان ينزل)، عطف على قوله: «أن يوحى بتفريقه فؤادك»، وهذا الوجه
يتضمن فوائده، منها: أن الحوادث السانحة تقتضي أحكاماً متجددة موافقة لها.

ومنها: أن أسئلة السائلين تستجد أجوبة مطابقة لها.

ومنها: أن المصالح تختلف بحسب الأزمان والأوقات، فزمان قلة العدد والعدد
يستدعي أن يقال: ﴿لَكَرْدِيْنِكُمْ وَلِي دِيْنٍ﴾ [الكافرون: ٦]، وزمان كثرة الشوكة يوجب أن
يخاطبوا بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِيْنَ﴾ [التوبة: ٥].

قوله: (فكيف فسرتَه بذلك أنزلناه مفرقاً؟)، يؤيد به تفسيره قبل هذا وقوله:
﴿كَذَلِكَ﴾: جواب لهم، أي: كذلك أنزل مفرقاً يعني: إذا كان هذا جواباً عن قولهم
كان المشار إليه المقدم ذكره: ﴿لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً﴾، فكيف تفسر بقولك: «كذلك أنزل
مفرقاً؟» وتلخيص الجواب: أن مفهوم قوله: هلا أنزل عليه جملة؟ ذلك؛ لأنهم إذا طلبوا أن
ينزل عليه جملة فهم منه أنهم أنكروا الحالة الموجودة، وهو النزول مفرقاً. وهذا الجواب من

(١) أخرجه البخاري (٣٨٥١). ومسلم (٢٣٥١) والترمذي (٣٦٥٢).

قلت: لأن قولهم: لولا أنزل عليه جملة، معناه: لِمَ أنزل مفرقاً؟ والدليل على فساد هذا الاعتراض: أنهم عجزوا عن أن يأتوا بنجم واحد من نجومه، ومُحَدِّثوا بسورة واحدة من أصغر السور، فأبرزوا صفحة عجزهم، وسجلوا به على أنفسهم حين لأذوا.....

القول بالموجب، أي: نعم، هو كما يقولون أنزل مفرقاً على خلاف ما أنزلت الكتب الثلاثة، أي: التوراة والإنجيل والزبور، والحكمة فيه أن يُقَوِّي بتفريقه فؤاد الرسول ﷺ، حتى يعينه ويحفظه ويبين لأُمته ما يسنح له من الحوادث المتجددة، ويجيب أسئلة السائلين، ويُظهر ما يقتضيه الوقت من الأحكام، وينسخه بحسب المصالح، وفي الكلام التفات، والله تعالى أعلم.

قوله: (فأبرزوا صفحة عجزهم)، الأساس: نَظَرَ إليه بَصْفَحَ وَجْهَهُ، أي: بجانيه، وكتبَ صَفْحَتِي الورقة. شَبَّهَ عَجْزَهُمُ المكنونَ فيهم بكتابٍ فيه أسرارٌ لا يُكشَفُ، تشبيهاً بليغاً، ثم حِيلَ أنه كتابٌ بعينه، فأخذ الوهم في تصويره بصورته، وإثبات ما يلازم الكتاب عند العرض من الصَّفحة، ثم شبه هذا المتوهمُ بمثله من المحقق، ثم أطلق المحقق وأريد المتوهم، وأضيف إلى المشبه الأول، ليكون قرينة مانعة عن إرادة الحقيقة، فهي من الاستعارة المكنية المستلزمة للتخييلية، كأنهم أقرؤا بالعجز، وكتبوا على أنفسهم كتاباً، وشهروا عن صفحاته بين الناس، فعلى هذا: «وسجلوا على أنفسهم» ترشيحٌ للاستعارة، والدليل على التسجيل بالعجز اختيارهم أمرين دل كل واحد على أن السيل قد بلغ الزبي، أحدهما اختيارهم الحرب على الإتيان بأقصر سورة، كما قال في الخطبة: فما عرضوا عن معارضة الحجة إلا ليعلمهم أن البحر قد زخر فطم على الكواكب.

وثانيهما: الطعن بقولهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، فهذا دل على أن إفحامهم بلغ غايته؛ لأن ديدن المحجوج عليه أن يتشبت بها هو عليه، وإليه الإشارة بقوله: «كأنهم قدروا على تفاريقه حتى يقدروا على جملة».

قوله: (لاذوا)، الأساس: لاذَ به لِيَاذًا، ولَاوَدْتُهُ لِيَاوَاذًا، واعتصم بلوذ الجبل بجانيه.

بالمُنَاصِبَةِ، وَفَرِعُوا إِلَى الْمُحَازَبَةِ، ثُمَّ قَالُوا: هَلَّا نَزَلَ جُمْلَةً وَاحِدَةً! كَأَنَّهُمْ قَدَرُوا عَلَى تَفَارِيْقِهِ حَتَّى يَقْدَرُوا عَلَى جُمْلَتِهِ! ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ ﴿كَذَلِكَ﴾، كَأَنَّهُ قَالَ: كَذَلِكَ فَرَّقْنَاهُ وَرَتَّلْنَاهُ. وَمَعْنَى تَرْتِيلِهِ: أَنْ قَدَّرَهُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ، وَوَقَفَةً عَقِيبَ وَقْفَةٍ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَأَمَرْنَا بِتَرْتِيلِ قِرَاءَتِهِ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، أَي: اقْرَأْهُ بِتَرْسُلٍ وَتَثْبُتٍ، وَمِنْهُ حَدِيثُ عَائِشَةَ فِي صِفَةِ قِرَاءَتِهِ ﷺ: لَا كَسْرُكُمْ هَذَا، لَوْ أَرَادَ السَّامِعُ أَنْ يَعِدَّ حُرُوفَهُ لَعَدَّهَا. وَأَصْلُهُ: التَّرْتِيلُ فِي الْأَسْنَانِ؛ وَهُوَ تَفْلِيحُهَا، يُقَالُ: تُغَرَّرُ رَتْلًا، وَمُرْتَلٌّ، وَيُشَبَّهُ بِنَوْرِ الْأَقْحُوَانِ فِي تَفْلِيحِهِ. وَقِيلَ: هُوَ أَنْ نَزَلَهُ مَعَ كَوْنِهِ مُتَفَرِّقًا عَلَى تَمَكُّثٍ وَتَمَهُّلٍ فِي مُدَّةٍ مُتَبَاعِدَةٍ؛ وَهِيَ عَشْرُونَ سَنَةً، وَلَمْ يُفَرِّقْهُ فِي مُدَّةٍ مُتَقَارِبَةٍ. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾ بِسُؤَالٍ عَجِيبٍ مِنْ سُؤَالَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ، كَأَنَّهُ مِثْلُ فِي الْبُطْلَانِ، إِلَّا أَتَيْنَاكَ نَحْنُ بِالْجَوَابِ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَحِيدُ عَنْهُ، وَبِمَا هُوَ أَحْسَنُ مَعْنَى وَمُؤَدَّى مِنْ سُؤَالِهِمْ. وَلَمَّا كَانَ التَّفْسِيرُ هُوَ التَّكْشِيفَ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ؛ وَضَعَ مَوْضِعَ مَعْنَاهُ،

قَوْلُهُ: (بِالْمُنَاصِبَةِ)، الْأَسَاسُ: نَصَبْنَاهُمْ حَرْبًا، وَنَاصَبْنَاهُمْ مُنَاصِبَةً، وَنَصَبْتُ لِفُلَانٍ: عَادِيَّتَهُ نَصْبًا.

قَوْلُهُ: (وَمَعْنَى تَرْتِيلِهِ: أَنْ قَدَّرَهُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ)، الرَّاعِبُ: الرَّتْلُ: اتِّسَاقُ الشَّيْءِ وَانْتِظَامُهُ عَلَى اسْتِقَامَةٍ، يُقَالُ: رَجُلٌ رَتَّلَ الْأَسْنَانَ، وَالتَّرْتِيلُ: إِسْرَافُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْفَمِّ بِسُهُولَةٍ وَاسْتِقَامَةٍ. قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] (١).

قَوْلُهُ: (لَا كَسْرُكُمْ)، النِّهَايَةُ: وَفِي صِفَةِ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ سَرْدًا (٢)، أَي: يَتَابَعُهُ، وَيَسْتَعْجَلُ فِيهِ.

قَوْلُهُ: (وَلَمَّا كَانَ التَّفْسِيرُ هُوَ التَّكْشِيفَ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ وَضَعَ مَوْضِعَ مَعْنَاهُ)،

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٤١.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥٦٨) ومسلم (٢٤٩٣) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها.

فقالوا: تفسيرُ هذا الكلامِ كَيْتٌ وكَيْتٌ، كما قيل: مَعْنَاهُ كَذَا وكَذَا.

يعني: قوله: ﴿تَفْسِيرًا﴾ في قوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وَضَعَ مَوْضِعَ «مَعْنَى وَمُؤَدَّى»، أي: أَحْسَنَ مَعْنَى وَمُؤَدَّى مِنْ سَوَالِهِمْ، فَهُوَ مِنْ وَضَعَ السَّبَبِ مَوْضِعَ الْمَسَبِّ؛ لِأَنَّ التَّكْشِيفَ سَبَبُ ظَهْوَرِ الْمَعْنَى وَكَشْفِهِ، فَفِيهِ الْمُبَالِغَةُ مَعَ الْإِيْجَازِ.

قال صاحبُ «الفرائد»: وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: وَأَحْسَنَ مَعْنَى فِي غَايَةِ الْحُسْنِ وَكِمَالِهِ، وَلَا يُقَدَّرُ: مِنْ سَوَالِهِمْ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: اللَّهُ أَكْبَرُ لَهُ الْكِبْرِيَاءُ كُلُّهَا. قُلْتُ: فَإِذَا يَفُوتُ مَعْنَى التَّسْلِيَةِ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: لِأَتَمِّهِمْ بِكَ مَا اقْتَرَحُوهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً﴾ فَإِنَّ تَنْزِيلَهُ مُفْرَقًا أَحْسَنُ مِمَّا اقْتَرَحُوهُ لِفَوَائِدِ شَتَى، وَعَلَى هَذَا جَمِيعُ مَا اقْتَرَحُوهُ. وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «أَوْ لَا يَأْتُونَكَ بِحَالٍ وَصِفَةٍ عَجِيبَةٍ، يَقُولُونَ: هَلَّا كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَكَ، إِلَّا أَعْطَيْنَاكَ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا هُوَ أَحْسَنُ كَشْفًا مِنْ ذَلِكَ».

قوله: (فقالوا: تفسيرُ هذا الكلامِ كَيْتٌ وكَيْتٌ، كما قيل: معناه كذا وكذا)، قال الحريريُّ في «دُرَّةِ الْغَوَاصِّ فِي أَوْهَامِ الْخَوَاصِّ»: يُقَالُ: قَالَ فُلَانٌ: كَيْتٌ وَكَيْتٌ، فَيُوهَمُونَ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ: كَانَ مِنَ الْأَمْرِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ، وَقَالَ فُلَانٌ: ذَيْتٌ وَذَيْتٌ، فَيَجْعَلُونَ «كَيْتٌ وَكَيْتٌ» كِنَايَةً عَنِ الْمَقَالِ؛ كَمَا أَتَمُّهُمُ يُكْتَبُونَ عَنِ مِقْدَارِ الشَّيْءِ وَعِدَّتِهِ بِلَفْظَةِ: كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُونَ: قَالَ فُلَانٌ مِنَ الشَّعْرِ كَذَا وَكَذَا بَيْتًا، وَاشْتَرَى الْأَمِيرُ كَذَا وَكَذَا عَبْدًا، وَالْأَصْلُ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ «ذَا» فَأَدْخَلَ عَلَيْهَا كَافُ التَّشْبِيهِ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ انْخَلَعَ مِنْ «ذَا» مَعْنَى الْإِشَارَةِ، وَمِنَ الْكَافِ مَعْنَى التَّشْبِيهِ؛ لِأَنَّكَ لَسْتَ تُشِيرُ إِلَى شَيْءٍ، وَلَا تُشَبِّهُ شَيْئًا بِشَيْءٍ؛ وَإِنَّمَا تُكْنِي بِهَا عَنِ عَدَدِ مَا، وَالْكَافُ لَمَّا امْتَزَجَتْ بِ«ذَا»، وَصَارَتْ مَعَهُ كَالْجُزْءِ الْوَاحِدِ نَاسَبَتْ لِفِظَتِهَا لِفِظَةَ «حَبْدًا» الَّتِي لَا يَجُوزُ أَنْ يَلْحَقَهَا عِلَامَةُ التَّأْنِيثِ، فَتَقُولُ: عِنْدَهُ كَذَا وَكَذَا جَارِيَةً، وَعِنْدَ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ إِذَا قَالَ مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِكَلَامِ الْعَرَبِ: لِفُلَانٍ عَلَيَّ كَذَا كَذَا دَرَهْمًا، لَزِمَ لَهُ أَحَدُ عَشْرَ دَرَهْمًا؛ لِأَنَّهُ أَقَلُّ الْأَعْدَادِ الْمُرَكَّبَةِ، وَإِنْ قَالَ: لَهُ عَلَيَّ كَذَا وَكَذَا دَرَهْمًا، لَزِمَ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ دَرَهْمًا؛ لِكُونِهِ أَوَّلَ الْأَعْدَادِ الْمَعْطُوفَةِ^(١). وَعَنْ بَعْضِهِمْ: يُقَالُ: كَانَ مِنَ الْأَمْرِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ.

(١) «دُرَّةُ الْغَوَاصِّ» ص ١١٧.

أو: لا يأتونك بحالٍ وِصْفَةٍ عَجِيبَةٍ، يقولون: هَلَّا كَانَتْ هَذِهِ صِفَتَكَ وَحَالِكَ، نَحْوًا: أَنْ يُقْرَنَ بِكَ مَلَكٌ يُنذِرُ مَعَكَ، أَوْ يُلْقَى إِلَيْكَ كَنْزٌ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ، أَوْ يُنَزَّلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ جَمَلَةً - إِلَّا أَعْطَيْنَاكَ نَحْنُ مِنَ الْأَحْوَالِ مَا يَحِقُّ لَكَ فِي حِكْمَتِنَا وَمَشِيئَتِنَا أَنْ تُعْطَاهُ، وَمَا هُوَ أَحْسَنُ تَكْشِيفًا لِمَا بُعِثَتْ عَلَيْهِ وَدَلَالَةً عَلَى صِحَّتِهِ. يَعْنِي: أَنَّ تَنْزِيلَهُ مَفْرَقًا، وَتَحْدِيثَهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِبَعْضِ تِلْكَ التَّفَارِيقِ كُلَّمَا نَزَلَ شَيْءٌ مِنْهَا أَدْخَلَ فِي الْإِعْجَازِ وَأَنْوَرُ لِلْحُجَّةِ مِنْ أَنْ يُنَزَّلَ كُلُّهُ جَمَلَةً وَيُقَالُ لَهُمْ: جِئْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْكِتَابِ فِي فَصَاحَتِهِ مَعَ بُعْدٍ مَا بَيْنَ طَرَفَيْهِ. كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ حَامِلَكُمْ عَلَى هَذِهِ السُّؤَالَاتِ أَنْكُمْ تُضَلُّونَ سَبِيلَهُ وَتَحْتَقِرُونَ مَكَانَهُ وَمَنْزَلَتَهُ، وَلَوْ نَظَرْتُمْ بَعَيْنَ الْإِنْصَافِ

بِكسْرِ التَّاءِ وَفَتْحِهَا، وَأَصْلُ التَّاءِ فِيهَا هَاءٌ، وَإِنَّمَا صَارَتْ تَاءً فِي الْوَصْلِ. وَحَكَى أَبُو عُبَيْدَةَ: كَانَ مِنَ الْأَمْرِ كَيْهٌ وَكَيْهٌ بِالْهَاءِ، وَيُقَالُ: كَيْهَهُ، كَمَا يُقَالُ: لَيْمَهُ، فِي الْوَقْفِ.

قوله: (أَوْ لَا يَأْتُونَكَ بِحَالٍ وَصِفَةٍ)، عطفٌ على قوله: «وَلَا يَأْتُونَكَ بِسُؤَالٍ عَجِيبٍ».

قوله: (مَعَ بُعْدٍ مَا بَيْنَ طَرَفَيْهِ)، أي: ابْتِدَائِهِ وَانْتِهَائِهِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ طَوْلِهِ.

قوله: (كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ حَامِلَكُمْ عَلَى هَذِهِ السُّؤَالَاتِ)، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ:

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ الْقَوْمُ الَّذِينَ أُوْرِدُوا هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ عَلَى سَبِيلِ التَّعَنُّتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَوَضَعَ الْمُظْهَرَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ إِشْعَارًا بِتَوْهِينِهِمْ، وَتَحْقِيرًا لِشَأْنِهِمْ، قَالَ الْقَاضِي: وَهُوَ ذَمٌّ مَنْصُوبٌ، أَوْ مَرْفُوعٌ، أَوْ مُبْتَدَأٌ خَبَرَهُ ﴿أُولَئِكَ سُوءُ مَكَانًا﴾، وَالْمُفْضَلُ عَلَيْهِ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ^(١).

قوله: (وَلَوْ نَظَرْتُمْ بَعَيْنَ الْإِنْصَافِ)، أي: هُوَ مِنْ بَابِ الْكَلَامِ الْمُنْصِفِ وَإِرْخَاءِ الْعِنَانِ،

فَصَلَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ اسْتِثْنَاءً؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُسَلِّيًا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمِثْلِ الْإِحْسَانِ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ حَرَّكَ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِأَنْ يُسْأَلَ: فِإِذَنْ بِمَاذَا أُجِيبُهُمْ وَمَا يَكُونُ قَوْلِي لَهُمْ؟ قِيلَ لَهُمْ: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢١٧).

يعني: مقصودكم عن هذا التعنت تحقير مكاني، وتضليل سبيلي، وما أقول لكم: أنتم كذلك، بل أقول: ﴿الَّذِينَ يَحْتَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ الآية. فانظروا بعين الإنصاف، وتفكروا: من الذي هو أولى بهذا الوصف منا ومنكم؛ ليعلموا أن مكانكم شرٌّ من مكاننا، وسبيلكم أضلُّ من سبيلنا.

وعليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْلِيَاكُمْ لَعَلَّٰ يُهْدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤] يبعثهم على الفكر في حال أنفُسِهِم وما هم عليه من العنت والفساد، وحال نفسِهِ والمؤمنين وما هم عليه من الإصلاح، ليعلموا أن المؤمنين على هدى، وهم على ضلال.

فالمكان على هذا التفسير: المنزلة، و﴿الَّذِينَ يَحْتَرُونَ﴾: مُبتدأ، و﴿أُولَٰئِكَ﴾: خبره، والجُمْلَةُ مستأنفة، و﴿شَرٌّ﴾ و﴿أَضَلُّ﴾ محمولان على التفضيل؛ ولذلك قال: «وفي طريقته: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] لمجيء متعلق «شر» و﴿قُلْ﴾ منصوصاً فيه، وأن المثوبة مُفسَّرة، بالعقوبة على زعمهم ودعواهم.

وأما معنى الأفضلية فهو كما قال: كان اليهودُ - لُعِنوا - يزعمون أن المسلمين ضالُّون، مُستوجبون للعقاب، فقبل لهم: مَن لَعَنَهُ اللَّهُ شَرٌّ عقوبة في الحقيقة واليقين من أهل الإسلام في زعمكم ودعواكم^(١)، وإلى هذا المعنى أشار هاهنا بقوله: «إنكم تُضللون سبيله وتحتقرون مكانه»، فقوله: «ويجوز أن يراد بالمكان: الشرف والمنزلة، إلى آخره، ليس بوجه آخر، ولكنه مبني على قوله: «وتحتقرون مكانه ومنزلته»، يعني: هذا المكان يجوز أن يُحمل على الشرف والمنزلة كما سبق، وعلى الدار والسكن أيضاً، والتأويل التأويل.

قال صاحب «الفرائد»: يُمكن أن يقال: ليس المراد أن مكانهم شرٌّ من مكانه، وسبيلهم أضلُّ من سبيله، والمراد أن مكانهم، وهو جهنم، فيه كل الشر، وسبيلهم في الضلالة في غاية الكمال، كأنه قيل: لا مكان شرٌّ من مكانهم، وهو جهنم، ولا سبيل أضلُّ من سبيلهم، وهو

(١) انظر: «الكشاف» (٥: ٤٠٧).

وأنتم من المسحوبين على وجوههم إلى جهنم، لَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَكَانَكُمْ شَرٌّ مِنْ مَكَانِهِ، وَسَبِيلَكُمْ أَضَلُّ مِنْ سَبِيلِهِ. وفي طريقته قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنِ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ الآية [المائدة: ٦٠]. ويجوز أن يُرادَ بالمكان الشرف والمنزلة، وأن يُرادَ الدارُ والمسكن، كقوله: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].
ووصفُ السبيل بالضلال من المجازِ الحكميِّ.

الإشراك بالله، وما هم عليه من الأفعال والأحوال، فعلى هذا التقدير: هم الذين يُحشرون على وجوههم، و«هم» يرجع إلى الضمير في ﴿يَأْتُونَكَ﴾، ويُمكن أن يكون ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَأْتُونَكَ﴾، و﴿أَوْلِيَّاتِكُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾: كلامٌ مستأنفٌ، والمرادُ من قوله: ﴿شَكْرٌ﴾ و﴿وَأَضَلُّ﴾ الكمالُ والكُلُّ كما مرَّ، والله الهادي.

قلتُ: هذا التأويلُ إنما يحسنُ إذا حُجِلَ المكانُ على الشرفِ والمنزلة، ويُحمَلُ ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ منصوباً أو مرفوعاً على الذمِّ كما قال القاضي^(١)، و﴿أَوْلِيَّاتِكُمْ﴾: جملةٌ مُستأنفةٌ تسلياً لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. المعنى: ولا يأتونك بحالٍ أو صفةٍ عجيبةٍ يريدونَ بذلكَ حطَّ منزلتِكَ عندَ الناسِ إلَّا أعطيناكَ نحنَ من الأحوالِ والرِّفعةِ ما هوَ أحسنُ تكشيفاً، كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فلا تُبالِ بهم ولا بكيدِهم، أعني الذين يُحشرونَ على وجوههم منكوبينَ مخذولينَ امتهاناً بهم أو لثك شراً منزلةً، وأضلُّ سبيلاً.

قوله: (كقوله تعالى: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا﴾)، وَجْهُ التشبيه: يجوزُ أن يكونَ من حيثِ الدارِ والمسكن، وأن يكونَ من حيثِ الشرفِ والمنزلة، والمعنى: إن نظرتُم بعينِ الإنصافِ وحالكم أنكم تُسحبونَ على وجوهكم إلى جهنمَ دليلينَ مُهانينَ، وحالُ المؤمنينَ بخلافِ ذلك، لَعَلِمْتُمْ الآنَ أن مكانكم أبلغُ في الشرِّ من مكانِ المؤمنينَ، كما تزعمونَ أن مقامكم خيرٌ من مقامهم ونديكم أحسنُ من نديهم.

قوله: (من المجازِ الحكميِّ)، من المجازِ الذي يتعلَّقُ بحُكمِ الكلامِ لا باللفظِ، يعني: أن الحُكمَ مُعدَّى من مكانه الأصليِّ إلى غيره، كما تقولُ: أثبتَ الرِّبيعُ البقلَ؛ فإنَّ حُكمَ

(١) في «أنوار التنزيل» (٤: ٢١٧) كما مرَّ آنفاً.

وعن النبي ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَثْلَاطٍ: ثُلُثٌ عَلَى الدَّوَابِّ، وَثُلُثٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ، وَثُلُثٌ عَلَى أَقْدَامِهِمْ يَنْسِلُونَ نَسْلًا».

[﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا * فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ ٣٥-٣٦]

الأصل: أُنْبِتَ اللهُ البَقْلَ وَقَتَ الرَّبِيعِ، فَعُدِّيَ مِنْهُ وَأُسْنِدَ إِلَى الرَّبِيعِ مَبَالِغَةً. كَذَلِكَ هَاهُنَا، الْأَصْلُ: أَوْلَيْتُكَ أَضْلُ مِنْهُ فِي السَّبِيلِ، فَأَسْنَدَ الضَّلَالَ إِلَى السَّبِيلِ مَبَالِغَةً، حَيْثُ جُعِلَ تَمْيِيزًا لِيُؤْذَنَ أَنْ سَبِيلَهُمْ ضَالٌّ لِقُوَّةِ الضَّلَالِ فِيهِمْ، نَحْوُ: مَكَانٌ سَائِرٌ.

قوله: (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَثْلَاطٍ)، الحديث، من رواية الترمذي، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفًا مُشَاةً، وَصِنْفًا رُكْبَانًا، وَصِنْفًا عَلَى وَجُوهِهِمْ»، قيل: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ يَمْشُونَ عَلَى وَجُوهِهِمْ؟ قال: «إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمَشِّيَهُمْ عَلَى وَجُوهِهِمْ، أَمَا إِنَّهُمْ يَتَّقُونَ بِوَجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكٍ»^(١).

قال القاضي: صِنْفُ الْمَشَاةِ: الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ خَلَطُوا صَالِحَ أَعْمَالِهِمْ بِسَيِّئِهَا، وَلِعَلَّهُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ، وَالرُّكْبَانُ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَيَجْتَنِبُونَ عَنِ السَّيِّئَاتِ، يُسْرِعُونَ إِلَى مَا أُعِدَّ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ إِسْرَاعَ الرُّكْبَانِ، وَلِعَلَّهُمُ السَّابِقُونَ^(٢).

وقلت: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾: الْكُفَّارُ وَالْمَشْرُكُونَ، وَلِعَلَّهُمْ أَصْحَابُ الشَّمَالِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي سُمُْورٍ وَجَمِيمٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مَنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِيْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧].

قوله: (يَنْسِلُونَ نَسْلًا)، الجوهري: نَسَلَ فِي الْعَدْوِ، يَنْسِلُ، نَسْلًا وَنَسْلَانًا، أَي: أَسْرَعَ.

(١) أخرجه الترمذي (٣١٤٢). وأصله في «الصحیح»، أخرجه البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦)

وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) لم أجده في «أنوار التنزيل»، فلعلّه في «شرح المصايح» للقاضي البيضاوي.

الوزارة لا تُنافي النبوة؛ فقد كان يُبعث في الزمن الواحد أنبياءً ويؤمنون بأن يُؤازِرَ بعضهم بعضاً. والمعنى: فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم، كقوله: ﴿أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقْ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: فَضْرَبَ فأنفلق. أراد اختصارَ القصة فذكر حاشيتها أولها وآخرها؛ لأنها المقصود من القصة بطولها، أعني: إلزام الحجة ببعثة الرُّسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم. وعن علي رضي الله عنه: (ودمّرتمهم)، وعنه: (فدمّرأهم). وقرئ: (فدمّرأثم) على التأكيد بالنون الثقيلة.

قوله: (يؤازِرَ بعضهم بعضاً)، الجوهري: الوَزْرُ: المَلْجَأُ. وأصل الوَزْرُ: الجبل. والوَزْرُ: الإثم، والثقل والمكاره، والسَّلاحُ. الوزيرُ: المُؤازِرُ، كالأكيل والمؤاكل؛ لأنه يَحْمِلُ عنه وزره، أي: ثقله.

قوله: (وقرئ: «فدمّرأثم» على التأكيد بالنون)، قال ابن جني: هي قراءة عليٍّ ومسلمة، كأنه أمر موسى وهارون عليهما السلام أن يُدمّرأثم، وألحق نون التوكيد ألف التثنية، كما تقول: أضربان زيدا ولا تقتلان جعفرأ^(١).

وقال صاحب «المطلع»: فإن قيل: لم يكونوا كذبوا بالآيات حين أمر بالذهاب إليهم، فكيف وُصفوا؟ قلنا: المعنى اذهبوا بآياتنا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا المتقدمة مع الرُّسل الماضية.

وقال الإمام: إنه تعالى بعد أن تكلم في التوحيد وإثبات النبوة والجواب عن شبهات المنكرين، شرع في ذكر القصص على السنن المعلوم، فبدأ بقصة موسى عليه السلام، أي: لست يا محمد بأول من أرسلناه فكذب وآتيناه الآيات فردد، فقد آتينا موسى التوراة وقوينا عضده بأخيه هارون، مع ذلك فقد رد وكذب، وكذلك الرُّسل قاطبة^(٢).

وقلت: إن الله تعالى لما حكى بقوله: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ وسلاه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ جاء بتفصيل ذلك،

(١) «المحتسب» (٢: ١٢٢) ولتنام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ١٠٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٨٠).

[﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [٣٧]

كانهم كذبوا نوحاً ومن قبله من الرسل صريحاً، أو كان تكذيبهم لواحد منهم تكديباً للجميع. أو لم يروا بعثة الرسل أصلاً، كالبراهمة. ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾، وجعلنا

وبدأ بقصة موسى وفرعون مجملًا، ونسب بقصة نوح، وثلاث بعاث، ثم أجمل بقوله: ﴿ وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾.

قوله: (أو لم يروا بعثة الرسل أصلاً)، التعريف في قوله: ﴿ كَذَبُوا الرُّسُلَ ﴾ إما للعهد، والمراد: رسل مخصوصون، فهو المراد من قوله: «كذبوا نوحاً ومن قبله»، وإما لاستغراق الجنس، فهو المراد من قوله: «تكذيبهم لواحد منهم تكديب للجميع»، وذلك أن لكل فرد من أفراد تلك الحقيقة حكم الجميع، فمن كذب واحداً لزم منع تكديب الجميع؛ لأن وجه دلالة المعجز على الصدق مشترك فيهم، وعليه قوله تعالى: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وإما للجنس، وهو المراد من قوله: «أو لم يروا بعثة الرسل أصلاً»، أي: كذبوا هذا الجنس المسمى بالرسل، كقولهم: فلان يركب الخيل، وما له إلا فرس واحد. والوجه الثاني والثالث: كنيان متقابلتان لهما يلزم في الثاني من تكديب نوح تكديب الرسل قاطبة، ومن الثالث عكسه، والفرق بين الوجه الثاني والثالث: هو أن التكديب في الثاني تابع للوصفية حيثما وجدت ترتب عليها التكديب وفي الثالث تابع للماهية، والله أعلم^(١).

قوله: (كالبراهمة)، قيل: هم قوم لا يجوزون على الله بعثة الرسل، والبراهمة: إدامة النظر، وسكون الطرف، وبرهم: إذا فتح عينيه وأحد النظر. قال الشهرستاني^(٢) صاحب «الملل والنحل»: الهند أمة كبيرة، وآراؤهم مختلفة، والبراهمة انتسبوا إلى رجل منهم يقال له برهأم، قد مهد لهم نفي النبوات أصلاً، وقرّر استحالة ذلك في العقول^(٣).

(١) من قوله: «والفرق بين الوجه الثاني» إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

(٢) في الأصول الخطية: «الشارستاني»، والجادة ما أثبتناه.

(٣) «الملل والنحل» ص ٢٤٥.

إغراقهم، أو قَصَّتْهُمْ. ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ إمَّا أن يُعْنَى بهم قومُ نوح، وأصله: وأَعْتَدْنَا لهم، إلا أنه قَصِدَ تَظْلِيمَهُمْ فَأَظْهَرَ؛ وإمَّا إن يَتَنَاوَلَهُمْ بَعْمُومِهِ.

[﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ * وَكَلَّا صَرَّيْنَا لَهُ الْأُمَمَلَّ وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَنْبِيرًا﴾ ٣٨-٣٩]

عَطَفَ عَادًا عَلَى «هُمْ» فِي ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧] أَوْ عَلَى الظَّالِمِينَ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: وَوَعَدْنَا الظَّالِمِينَ. وَقُرَى: ﴿وَتَمُودًا﴾ عَلَى تَأْوِيلِ الْقَبِيلَةِ، وَأَمَّا الْمُنْصَرَفُ فَعَلَى تَأْوِيلِ الْحَيِّ، أَوْ لِأَنَّهُ اسْمُ الْأَبِ الْأَكْبَرِ. قِيلَ فِي أَصْحَابِ الرَّسِّ: كَانُوا قَوْمًا مِنْ عِبْدَةِ الْأَصْنَامِ أَصْحَابِ أَبَارٍ وَمَوَاشٍ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ شُعَيْبًا فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَتَمَادَوْا فِي طُغْيَانِهِمْ وَفِي إِيْذَانِهِ، فَبَيَّنَّا لَهُمْ حَوْلَ الرَّسِّ - وَهُوَ

قَوْلُهُ: (قَصِدَ تَظْلِيمَهُمْ فَأَظْهَرَ)، أَي: وَضَعَ الظَّاهَرَ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ تَظْلِيمًا لَهُمْ، مِنْ: ظَلَمَهُ، أَي: قَالَ لَهُ: إِنَّكَ ظَالِمٌ، أَوْ نَسَبَهُمْ إِلَى الظُّلْمِ لِيُؤْذِنَ أَنْ تَعَذِّبَهُمْ وَإِغْرَاقَهُمْ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ، وَأَنْ لَا يَظْلَمَ أَظْهَرُ مِنْهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عَلَى وَضْعِ الْمُضْمَرِ مَوْضِعَ الْمُظْهَرِ عَطَفَهُ عَلَى ﴿أَعْرَفْنَا﴾ لِيَجْمَعَ لَهُمْ نِكَالَ الدَّارَيْنِ، وَعَلَى الْعُمُومِ مِنْ بَابِ التَّذْيِيلِ فَيَدْخُلُوا فِي الْعَامِّ دَخُولًا أَوْلِيًّا.

قَوْلُهُ: (لِأَنَّ الْمَعْنَى: وَوَعَدْنَا الظَّالِمِينَ)، يَعْنِي: قَوْلُهُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فِي مَعْنَى الْوَعِيدِ، أَي: وَوَعَدْنَا الظَّالِمِينَ، ثُمَّ عَطَفَ عَادًا وَثَمُودَ عَطَفَ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ مِبَالِغَةً، لِأَنَّهُمْ رُؤُوسُ الظُّلْمَةِ وَالْأَوْحِدِيُّونَ فِيهِ.

قَوْلُهُ: (وَقُرَى: ﴿وَتَمُودًا﴾)، حَفْصٌ وَحَمْرَةٌ: بغير تنوين، والباقون: بالتنوين (١).

قَوْلُهُ: (أَصْحَابِ أَبَارٍ)، الْجَوْهَرِيُّ: الْبَشَرُ: جَمْعُهَا فِي الْقِلَّةِ: أَبْوَرٌ وَأَبَارٌ، بِهَمْزَةٍ بَعْدَ الْبَاءِ.

(١) فَمَنْ تَرَكَ التَّنْوِينَ جَعَلَهُ اسْمًا لِقَبِيلَةٍ، فَاجْتَمَعَتْ عَلَتَانِ: التَّعْرِيفُ وَالتَّنْبِيهُ، فَامْتَنَعَ مِنَ الصَّرْفِ، وَمَنْ نَوَّنَ جَعَلَهُ اسْمًا مَذْكَرًا لِحَيٍّ أَوْ رَيْسٍ. انْتَهَى مِنْ «حِجَّةِ الْقِرَاءَاتِ» ص ٣٤٤-٣٤٥. وَلِتَهَامِ الْفَائِدَةِ انظُر: «الْكَشْفُ عَنْ وَجْهِ الْقِرَاءَاتِ السَّبْعِ» (١: ٥٣٣).

البر غير المطوية عن أبي عبيدة - انهارت بهم، فحُسِفَ بهم وبديارهم. وقيل: الرُسُ: قريةٌ بفلج اليمامة، قتلوا نبيهم فهلكوا، وهم بقيَّةُ ثمودَ قومِ صالح. وقيل: هم أصحابُ النبيِّ حنظلة بنِ صفوان، كانوا مبتليين بالعنقاء، وهي أعظمُ ما يكون من الطير، سُميت لطولِ عُنقها، وكانت تسكنُ جبلهم الذي يقال له: فتخ^(١)، وهي تنقضُّ على صبيانهم فتختطفهم إن أعوزها الصيِّدُ، فدعا عليها حنظلة، فأصابته الصاعقة، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا. وقيل: هم أصحابُ الأخدود، والرُسُ: هو الأخدود. وقيل: الرُسُ بأنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار. وقيل: كذبوا نبيهم ورُسوه في بر، أي: دسوه فيها. ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين ذلك المذكور، وقد يذكر الذكْرُ أشياءً مختلفةً ثم يُشير إليها بـ«ذلك»، ويحسب الحاسبُ أعداداً متكاثرة ثم يقول: فذلك كَيْتٌ وكَيْت، على معنى: فذلك المحسوبُ، أو المعدود. ﴿ضَرَيْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾: يَبْنَاهُ

قوله: (البر غير المطوية)، أي: غير المبنية. الأساس: طوى البناء باللين، والبر: بالحجارة، وهي الطوي والأطواء.

قوله: (قرية بفلج اليمامة)، النهاية: فلج بفتح الحين: قرية عظيمة من ناحية اليمامة، وموضع باليمن من مساكن عاد، وبسكون اللام: وإد قريب من البصرة.

قوله: (حنظلة بن صفوان)، روى محمي السنة عن سعيد بن جبير: كان لهم نبي يقال له: حنظلة بن صفوان، فقتلوه فأهلكهم الله^(٢). وأما حديث العنقاء فما وجدته إلا في «مجمع الأمثال» للميداني^(٣).

قوله: (يقال له: فتخ)، قيل: صحَّ بالتاء المثناة من فوق والحاء المعجمة، وبالحاء غير المعجمة: رواية، وبالجم والياء التحتاني أيضاً، ذكره صاحب «الإيضاح» في «شرح المقامات».

(١) في الأصل الخطي: «فيح»، وفي المطبوع: «فتح»، والمثبت من نص «الكشاف» من (ط) وسيتكلم عليه الطيبي باستيفاء.

(٢) «معالم التنزيل» (٦: ٨٤).

(٣) «مجمع الأمثال» (١: ٢٠١).

القصص العجيبة من قصص الأولين، ووصفنا لهم ما أجرؤا إليه من تكذيب الأنبياء وجرى عليهم من عذاب الله وتدميره. والتبشير: التفتيت والتكسير. ومنه: التبهر؛ وهو كسار الذهب والفضة والزجاج. و﴿وَكُلًّا﴾ الأول منصوب بما دل عليه ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَل﴾؛ وهو: أنذرنا، أو: حدّزنا. والثاني: بـ ﴿تَبَرَّنَا﴾؛ لأنه فارغ له.

[﴿وَلَقَدْ آتَوْنَا الْقَرْيَةَ الَّتِي آمَطَرْتَ مَطَرَ السَّوَاءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا﴾ ٤٠]

أراد بالقرية «سدوم» من قري قوم لوط، وكانت خمساً، أهلك الله تعالى أربعاً بأهلها وبقيت واحدة. ومطر السوء: الحجارة، يعني: أن قريشاً مروا مراراً كثيرة في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء ﴿أَفْكَمَ يَكُونُوا﴾ في مرارٍ مروهم ينظرون إلى آثار عذاب الله ونكاله ويذكرون؟ ﴿بَلْ كَانُوا﴾ قوماً كفراً بالبعث، لا يتوقعون ﴿شُورًا﴾ وعاقبة، فوضع الرجاء موضع التوقع؛ لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن، فمن ثم لم ينظروا ولم يذكروا، ومروا بها كما

قوله: (أراد بالقرية: سدوم، من قري قوم لوط عليه السلام)، وعن بعضهم: سدوم عظمها وعمورها وأدوما وصبوائيم^(١) وصغر^(٢)، نجت صغر^(٣)، وهلكت البواقي، وفي حاشية موثوق بها: سدوم بالذال المعجمة، ذكره الأزهرى^(٤). والجوهري بالذال غير المعجمة.

قوله: (لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن)، يريد أن حقيقة الرجاء انتظار الخير.

(١) في (ط): «وصبوايم».

(٢) وتُلفظ: زُعْرُ أيضاً وهو الأشهر. انظر: «معجم البلدان» (٣: ٤١١).

(٣) لأن أهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة كما جزم به البغوي في «معالم التنزيل» (٦: ٨٥).

(٤) في «تهذيب اللغة» (١٢: ٣٧٤) وخطأ من قالها بالذال.

مَرَّتْ رِكَابِهِمْ. أَوْ: لَا يَأْمَلُونَ نُشُورًا كَمَا يَأْمَلُهُ الْمُؤْمِنُونَ؛ لَطَمَعِهِمْ فِي الْوَصُولِ إِلَى ثَوَابِ أَعْمَالِهِمْ. أَوْ: لَا يَخَافُونَ، عَلَى اللُّغَةِ التَّهَامِيَّةِ.

[﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخَازُوكَ إِلَّا هُزُّوْا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُوْلًا * إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبْرَنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيْلًا ﴾ ٤١ - ٤٢]

«إِنَّ» الأولى: نافية، والثانية: مخففة من الثقيلة. واللام هي الفارقة بينهما. واتخذ هُزُّوًّا: في معنى: استهزأ به، والأصل: اتَّخَذَهُ مَوْضِعَ هُزْءٍ، أَوْ مَهْزُوءٍ أَيْ بِهِ. ﴿أَهْذَا﴾ محكي بعد القول المضمر. وهذا استصغار، و﴿بَعَثَ اللهُ رَسُوْلًا﴾ وإخراجه في معرض

الراغب: الرجاء: ظَنُّ حُصُولِ مَا فِيهِ مَسْرَّةٌ^(١). الأساس: أرجو من الله المغفرة، وَرَجَوْتُ فِي وَكْدِي الرُّشْدَ، وَأَتَيْتُ فَلَانًا رَجَاءً أَنْ يُحْسِنَ إِلَيَّ، وَالكَافِرُ لَا يَرْجُو بَلْ يَتَوَقَّعُ؛ لِأَنَّ التَّوَقُّعَ: التَّرَقُّبُ. الأساس: تَوَقَّعْتُ: تَرَقَّبْتُ وَقَوَّعَهُ.

قوله: (أَوْ: لَا يَأْمَلُونَ)، فعلى هذا الرجاء على حقيقته.

قوله: (أَوْ: لَا يَخَافُونَ)، الأساس: وَمَنْ الْمَجَازِ اسْتِعْمَالُ الرَّجَاءِ فِي مَعْنَى الْخَوْفِ وَالْإِكْتِرَاطِ، يُقَالُ: لَقِيْتُ هَوْلًا مَا رَجَيْتُهُ وَمَا ارْتَجَيْتُهُ.

قوله: (وهذا استصغار)، مبتدأ وخبر.

قوله: ﴿وَبَعَثَ اللهُ رَسُوْلًا﴾، في موضع الابتداء على حكاية القرآن، والخبر: «سُخْرِيَّةً»، أَي: بَعَثُهُ، وَحَدَفَ الضَّمِيرَ. وَيُرْوَى: «بَعَثَ اللهُ» عَلَى الْمَصْدَرِ.

قال الإمام: ﴿أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُوْلًا﴾ تفسير لقوله: ﴿إِنَّ يَنْخَازُوكَ إِلَّا هُزُّوًّا﴾ فاستحقره بقوله: ﴿أَهْذَا﴾، واستهزؤوا به بقولهم: ﴿رَسُوْلًا﴾، وهُم مُنْكَرُونَ، ذَلِكَ جَهْلٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ اسْتِهْزَاءَ وَالْإِحْتِقَارَ إِذَا أَنْ يَقَعَ بِصُورَتِهِ أَوْ صِفَتِهِ، أَمَّا الْأَوَّلُ

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٤٦.

التسليم والإقرار، وهم على غاية الجحود والإنكار: سُخْرِيَّةٌ واستهزاء، ولو لم يستهزئوا لقالوا: أهذا الذي زعم - أو ادعى - أنه مبعوث من عند الله رسولاً؟ وقولهم: ﴿إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا﴾ دليل على فَرَطٍ مُجَاهِدَةٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في دَعْوَتِهِمْ، وبَذْلِهِ قُصَارَى الوُسْعِ والطاقة في استِعْطَافِهِمْ، مع عَرْضِ الآياتِ والمُعْجَزَاتِ عَلَيْهِمْ حتى شَارَفُوا - بزعمهم - أن يَتْرَكُوا دِينَهُمْ إلى دينِ الإسلام، لولا فَرَطُ لِحَاجَتِهِمْ واستمسَاحِهِمْ بعبادة آلهتهم.....

فباطل؛ لأنه صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ كان أَحْسَنَ مِنْهُمْ خِلْقَةً على أن لم يكنْ يَدَّعِي ذلك. وأما الثاني فكذلك؛ لأنه صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ادَّعَى التَّمْيِيزَ عَنْهُمْ بِإِظْهَارِ الْمُعْجَزَةِ، وَأَتَمَّ مَا قَدَرُوا على القَدْحِ في حُجَّتِهِ، ففي الحَقِيقَةِ هُمُ الَّذِينَ اسْتَحَقُّوا أَنْ يُبْزَأَ بِهِمْ، وَيُحَقَّرَ شَأْنُهُمْ، ثُمَّ إِتَمَّ لِيُوقَاحَتِهِمْ قَلْبُوا الْقَضِيَّةَ، وذلك يَدُلُّ على أنه ليس للمُبْطِلِ في أَكْثَرِ الأَوْقَاتِ إِلا السَّفَاهَةُ^(١).

قوله: (ولو لم يستهزئوا لقالوا: أهذا الذي زعم أنه مبعوث من عند الله رسولاً؟)، لأن من مقتضى الظاهر أن يُتْرَجَموا عن مُعْتَقِدِهِمْ بقولهم: أهذا الذي زعم أنه مبعوث من عند الله؟ فلما أتوا بالفعل الماضي وأوقعوا رسولاً حالاً من المفعول، وجعلوا الجملة صلة الموصول، أعلموا بأنه مقرر عندهم أنه رسولٌ ثابتُ الرِّسَالَةِ، فلو لم يُحْمَلْ على الاستهزاء؛ لأن القومَ كَفَرُوا مُعَانِدَةً، لا يكون له معنى.

قوله: (دليل على فَرَطٍ مُجَاهِدَةٍ الرَّسُولِ ﷺ في دَعْوَتِهِمْ)، قال الإمام: وتَدُلُّ الآيةُ على اعترافِ القومِ بأنهم ما اعترضوا على الدلائلِ كُلِّهَا إِلا بِمَحْضِ الجُمُودِ والتقليد، لأن قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ إشارةٌ إلى الجُمُودِ والإصرار، كدأبِ الجُهَالِ، وإلى أنهم مقهورونَ تحتِ حُجَّتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وما كان في أيديهم إِلا مَجْرَدُ الوَاقِحَةِ. وإلى أنهم سَلِمُوا في آخِرِ الأَمْرِ قُوَّةَ الحُجَّةِ وَرَزَانَةَ العَقْلِ، فالقومُ لَمَّا جَمَعُوا بَيْنَ الاستهزاء والاستحقار، وبَيْنَ رَزَانَةِ العَقْلِ وقُوَّةِ الحُجَّةِ، دَلَّ على أنهم كانوا متحيرين في أمره^(٢).

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٨٥).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٨٥).

و«لولا» في مثل هذا الكلام جارٍ - من حيث المعنى لا من حيث الصنعة - مجرى التقييد للحكم المطلق. ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ ودلالةٌ على أنهم لا يفوتونه وإن طالت مدة الإمهال، ولا بدّ للوعيد أن يلحقهم، فلا يغرّتهم التأخير. وقوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ كالجواب عن قولهم: ﴿إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا﴾؛ لأنه نسبةٌ لرسول الله إلى الضلال من حيث لا يضلُّ غيره إلا من هو ضالٌّ في نفسه. ويروى: أنه من قول أبي جهل لعنه الله.

[أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿٤٣﴾]

مَنْ كَانَ فِي طَاعَةِ الْهَوَى فِي دِينِهِ يَتَّبِعُهُ فِي كُلِّ مَا يَأْتِي وَيَذَرُ، لَا يَتَبَصَّرُ دَلِيلًا وَلَا يُصْغِي إِلَى بُرْهَانٍ، فَهُوَ عَابِدٌ هَوَاهُ، وَجَاعِلُهُ إِلَهَهُ، فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ هَذَا الَّذِي لَا يَرَى

قوله: (و«لولا» في مثل هذا الكلام جارٍ - من حيث المعنى لا من حيث الصنعة - مجرى التقييد للحكم المطلق)، ويروى: لا من حيث الصنعة، بالنون والعين المهملة، أي: صنعة أهل النحو، يعني: أن صنعة النحو تقتضي أن يأتي بعد كلمات الشرط جملتان: شرطٌ وجزاء، وقد يؤتى في بعض المواضع الذي يراد تقييد الجملة المتقدمة بشرط محذوف جوابه، كقولك: آتيك غداً إن تركني فلان، فقولك: إن تركني: تقييدٌ لا من حيث الصنعة؛ لأن «إن» ليست بموضوعةٍ للقيّد، قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا﴾ [المتحنة: ١]، متعلقٌ بـ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، يعني: لا تتولّوا أعدائي إن كنتم أوليائي. وقول النحويين في مثله: هو شرطٌ جوابه محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، وحكم «لولا» حكم كلمات الشرط في اقتضاء الجملتين، وتقدير الربط بينهما.

قوله: (مَنْ كَانَ فِي طَاعَةِ الْهَوَى)، «مَنْ»: شرطيةٌ، أو موصولةٌ، والخبرُ أو الجزاءُ قوله: «فَهُوَ عَابِدٌ هَوَاهُ»، وقوله: «فَيَقُولُ»، مرتبٌ عليهما، والهمزة في ﴿أَرَأَيْتَ﴾ للتقرير والإنكار، يعني: إذا كان الشأن كذلك فيقول الله لرسوله: أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَنْتَ تَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَتُجْبِرُهُ عَلَى الْإِسْلَامِ؟ وإليه الإشارة بقوله: «هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هَوَاهُ» إلى آخره، ويجوز أن يكون قوله: «فَهُوَ عَابِدٌ هَوَاهُ» معطوفاً على «يَتَّبِعُهُ فِي كُلِّ مَا يَأْتِي وَيَذَرُ»، «فَيَقُولُ» جزاء الشرط، أي: كوثم على هذه الحالة الشنيعة، سببٌ لأن يُنكِرَ اللهُ تعالى على رسوله

معبوداً إلا هواه: كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى؟ أفتتوكل عليه وتُجبره على الإسلام وتقول: لا بد أن تُسلم شئت أو أبيت، ولا إكراه في الدين؟ وهذا كقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]. ويُروى: أن الرجل منهم كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر. ومنهم الحارث بن قيس السهمي.

[﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

سَكِيلًا﴾ ٤٤]

﴿أَمْ﴾ هذه مُنْقَطَعَةٌ، معناها: بلْ أتحسبُ، كأن هذه المذمَّة أشدُّ من التي تقدَّمتها حتى حُقَّت بالإضراب عنها إليها؛ وهي كوثهم مَسْلُوبِي الأَسْمَاعِ والعقول؛ لأنهم لا يُلْقُونَ إلى استماع الحقِّ أذناً ولا إلى تدبُّره عقلاً، ومُشَبَّهِينَ بالأَنْعَامِ التي هي مَثَلٌ في الغفلة والضلالة، ثم أرجح ضلالةً منها. فإن قلت: لِمَ أُخِرَ هواه، والأصل قولك: اتَّخَذَ الهوى إلهاً؟ قلتُ: ما هو إلا تقديمُ المفعولِ الثاني على الأوَّلِ للعناية،

ويقول: هذا الذي لا يرى معبوداً إلا هواه. هذا التقديرُ أوفقٌ لتفسيرِ الآية؛ لأن قولَه: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾ واقعٌ جزاءً للشرط، وهو معنى قولَه: «فيقولُ لرسوله هذا الذي» ليؤذِنَ بأنَّ الجزاءَ لا يستقيمُ إلا بتقديرِ الإخبارِ والقول. وقد أكَّدَ اللهُ سبحانه وتعالى الإنكارَ حيثُ أخرجَ الشرطَ والجزاءَ مُخْرَجَ الإنكارِ، وأقحَمَ حرفَ الإنكارِ بينَ الشرطِ والجزاءِ على ضميرِ الفاعلِ المعنويِّ ليدلَّ على أن الوكيلَ هو اللهُ تعالى، ليس غيره أحدًا^(١).

قوله: (أفتتوكلُ عليه؟)، قيل: هو مُطَاوَعٌ وكَلَّه: جعله وكيلًا، يقال: توكلتُ لي على فلانٍ حتى تأخذَ حقِّي منه.

قوله: (ما هو إلا تقديمُ المفعولِ الثاني على الأوَّلِ للعناية)، الانتصاف: وفيه نُكْتَةُ إفادةِ الحضر، فإنَّ الجملةَ قبلَ دخولِ ﴿أَرَأَيْتَ﴾ و﴿اتَّخَذَ﴾ مبتدأً، وخبرُ المبتدأ: ﴿إِلَهُهُ﴾،

(١) في (ط): «ليس غيره أحدًا».

والخبر: ﴿هَوْنُهُ﴾. وتقديم الخير كما عَلِمْتَ يُفِيدُ الحَضْرَ، فكأنه قال: أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَتَّخِذْ مَعْبُودَهُ إِلَّا هَوَاهُ؟ وذلك أَبْلَغُ فِي ذَمِّهِ وَتَوْبِيخِهِ^(١).

وقال صاحب «الفرائد»: تقديم المفعول الثاني يُمكن، حيث يمكن تقديم الخير على المبتدأ، والمعرفتان إذا وَقَعتا مبتدأ وخبراً فالمتقدّم هُو المبتدأ، فقوله: كما تقول: عَلِمْتُ مُنْطَلِقاً زِيداً، ليس بسديد، ويمكن أن يقال: المتقدّم هاهنا يُشعرُ بالثبات، بخلاف المتأخر، فتقديم ﴿إِلَهَهُ﴾ يُشعرُ بأنه لا بدَّ مِنْ إله، فهو كقولك: اتَّخَذَ ابْنَهُ غُلَامَةً، فإنه يُشعرُ بأنَّ له ابناً، ولا يُشعرُ بأنَّ له غُلاماً. فهذا فائدة تقديم ﴿إِلَهَهُ﴾ على ﴿هَوْنُهُ﴾.

وقلت: لا يُشكُّ في أن مَرْتَبَةَ المبتدأ التقديم، وأن المَعْرِفَيْنِ^(٢) أيها قُدِّمَ فهو المبتدأ، لكن صاحب المعاني لا يَقْطَعُ نَظْرَهُ مِنْ أَصْلِ المعنى، فإذا قيل: زيدُ الأسدُ، فالأسدُ هُو المَشَبَّهُ به أصالةً، ومَرْتَبَتُهُ التَّأخِيرُ عَنِ المَشَبِّهِ بلا نزاع، فإذا جعلته مبتدأ في قولك: الأسدُ زيدٌ، أزلته عن مَقَرِّهِ الأَصْلِيِّ للمبالغة، وما يعني بالمُقَدِّمِ إِلَّا المَزَالَ عَنِ مَكَانِهِ، لا القَارَّ فِيهِ، فالمَشَبَّهُ به هاهنا: الإلهُ، والمَشَبَّهُ: الهوى؛ لأنهم نَزَلُوا أهواءهم في المتابعة منزلة الإله، وإليه الإشارة بقوله: «اتَّخَذَ الهوى إلهاً»، فقدَّم المَشَبَّهُ به الأَصْلِيَّ، وأوقعهُ مَشَبَّهًا؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ الهوى في باب استحقاق العبادَةِ لها أقوى مِنَ الإلهِ تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَلْبَسْتُمْ لِلرِّبَا أَسْمَاءً﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ولمَّحَ صاحبُ «المفتاح» إلى هذا المعنى في كتابه^(٣). وإِنَّمَا قال المَوْلَفُ: «ما هُوَ إِلَّا تقديمُ المفعولِ» على الحَضْرَ، لئلا يتوهَّم متوهَّمٌ خلافه، وأمَّا المثالُ الذي أوردَه صاحبُ «الفرائد» فمعنى قوله: اتَّخَذَ ابْنَهُ غُلَامَةً، جعلَ ابْنَهُ كالغلامِ يَخْدُمُهُ في مهنةِ أهله، وقوله: اتَّخَذَ غُلَامَةً، ابْنَهُ جعلَ غُلَامَةً ابْنَهُ^(٤) مُكْرَمًا مدللاً.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٢٨٢).

(٢) في (ط): «المعرفتين».

(٣) «مفتاح العلوم» ص ١٥٣.

(٤) قوله: «جعل غلامه ابنه» سقط من (ط).

كما تقول: عَلِمْتُ مُنْطَلِقًا زِيدًا؛ لفضل عنايتك بالمنطلق. فإن قلت: ما معنى ذِكْرِ الأكثر؟ قلت: كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَمْ يَصِدَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَّا دَاءً وَاحِدًا؛ وَهُوَ حُبُّ الرِّيَاسَةِ، وَكَفَى بِهِ دَاءً عُضَالًا. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جُعِلُوا أَضَلَّ مِنَ الْأَنْعَامِ؟ قُلْتُ: لِأَنَّ الْأَنْعَامَ تَنْقَادُ لِأَرْبَابِهَا الَّتِي تَعْلِفُهَا وَتَتَعَهَّدُهَا، وَتَعْرِفُ مَنْ يُحْسِنُ إِلَيْهَا مَنْ يُسِيءُ إِلَيْهَا، وَتَطْلُبُ مَا يَنْفَعُهَا وَتَجْتَنِبُ مَا يَضُرُّهَا، وَتَهْتَدِي لِمَرَاعِيهَا وَمَشَارِبِهَا، وَهَؤُلَاءِ لَا يَنْقَادُونَ لِرَبِّهِمْ، وَلَا يَعْرِفُونَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ إِسَاءَةِ الشَّيْطَانِ الَّذِي هُوَ عَدُوُّهُمْ، وَلَا يَطْلُبُونَ الثَّوَابَ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الْمَنَافِعِ، وَلَا يَتَّقُونَ الْعِقَابَ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ الْمَضَارِّ وَالْمَهَالِكِ، وَلَا يَهْتَدُونَ لِلْحَقِّ الَّذِي هُوَ الْمَشْرَعُ الْهَنِيُّ، وَالْعَذَابُ الرَّوِيُّ.

[﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ٤٥-٤٦]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ ﴾: أَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى صُنْعِ رَبِّكَ وَقُدْرَتِهِ؟ وَمَعْنَى مَدَّ الظِّلَّ: أَنْ

قَوْلُهُ: (وَالْعَذَابُ^(١) الرَّوِيُّ)، أَي: الْمُرْوِي، وَهُوَ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ؛ لِأَنَّ الرَّوِيَّ فِي الْحَقِيقَةِ: الرِّيَانُ، وَهُوَ الرَّجُلُ، وَهُوَ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ، كَالْحَكِيمِ بِمَعْنَى الْمُحْكِمِ فِي أَحَدِ الْأَقْوَالِ. الْأَسَاسُ: وَمَاءٌ رَوَاءٌ وَرَوِيٌّ: وَلِلْوَارِدِ فِيهِ: رِيٌّ. وَرَوِيْتُ عَلَى أَهْلِي، وَرَوَيْتُ لَهُمْ وَرَوَيْتُهُمْ: اسْتَقَيْتُ لَهُمْ، وَمِنَ الْمَجَازِ: سَحَابٌ رَوِيٌّ: عَظِيمُ الْقَطْرِ، وَكَأْسٌ رَوِيَّةٌ.

قَوْلُهُ: (أَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى صُنْعِ رَبِّكَ وَقُدْرَتِهِ؟)، قَالَ الْقَاضِي: أَصْلُهُ: أَلَمْ تَنْظُرْ إِلَى الظِّلِّ كَيْفَ مَدَّهُ رَبُّكَ، فَغَيَّرَ النَّظْمَ إِشْعَارًا بِأَنَّ الْمَقْضُولَ لَوْضُوحَ بُرْهَانِهِ، وَهُوَ دِلَالَةٌ حُدُوثِهِ وَتَصَرُّفِهِ عَلَى الْوَجْهِ النَّافِعِ بِأَسْبَابٍ مُمَكِّنَةٍ، وَأَنَّ ذَلِكَ فَعَلُ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ، كَالْمَحْسُوسِ الْمَشَاهِدِ الْمُرْتِيِّ، أَوْلَمْ يَنْتَهَ عِلْمُكَ إِلَى أَنَّ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ، وَذَلِكَ فِيمَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، وَهُوَ أَطْيَبُ الْأَحْوَالِ؛ فَإِنَّ الظِّلْمَةَ الْخَالِصَةَ تُنْفِرُ الطَّبِيعَ وَتَسُدُّ النَّظَرَ، وَشِعَاعُ الشَّمْسِ يُسَخِّنُ الْجَوَّ، وَيَبْهَرُ الْمُبْصِرَ وَلِذَلِكَ وَصَفَ بِهِ الْجَنَّةَ فَقَالَ: ﴿ وَظِلِّي مَمْدُورٌ ﴾ [الواقعة: ٣٠] (٢).

(١) في (ط): «والعذاب».

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٢٠).

جَعَلَهُ يَمْتَدُّ وَيَنْبَسِطُ فَيَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ أي: لاصقاً بأصل كلِّ مُظِلٍّ مِنْ جَبَلٍ وَبِنَاءٍ وَشَجَرَةٍ، غَيْرِ مُنْبَسِطٍ؛ فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ أَحَدٌ. سَمِيَ انْبِسَاطَ الظِّلِّ وَامْتِدَادَهُ تَحْرُكًا مِنْهُ، وَعَدَمَ ذَلِكَ سُكُونًا. وَمَعْنَى كَوْنِ الشَّمْسِ دَلِيلًا: أَنَّ النَّاسَ يَسْتَدْلُونَ بِالشَّمْسِ وَبِأَحْوَالِهَا فِي مَسِيرِهَا عَلَى أَحْوَالِ الظِّلِّ، مِنْ كَوْنِهِ ثَابِتًا فِي مَكَانٍ وَزَائِلًا، وَمَتَّسِعًا وَمَتَقَلِّصًا، فَيَبْنُونَ حَاجَتَهُمْ إِلَى الظِّلِّ وَاسْتِغْنَاءَهُمْ عَنْهُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ. وَقَبْضُهُ إِلَيْهِ: أَنَّهُ يَنْسَخُهُ

وقلتُ: ولو قيل: ألم تر إلى الظِّلِّ كيف مَدَّهُ؟ كان الانتقال من الأثر إلى المؤثر، والذي عليه التلاوة عكسه، والمقام يقتضيه، لأن الكلام في تفرغ القوم، وتجهيلهم في اتخاذهم الهوى إلهًا مع وضوح هذه الدلائل؛ ولذلك جعل ما يدل على ذاته مُقَدِّمًا على أفعاله في سائر آياته ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا﴾. رَوَى السُّلَمِيُّ فِي «الْحَقَائِقِ»، عَنْ بَعْضِهِمْ: مَخَاطَبَةُ الْعَامِّ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧] وَمَخَاطَبَةُ الْخَاصِّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ (١).

قوله: (سمى انبساط الظِّلِّ وامتداده تحركًا منه، وعدم ذلك سُكُونًا)، يعني: قُوبِلَ ﴿مَدَّ الظِّلِّ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿سَاكِنًا﴾، وَمُقَابِلُ السُّكُونِ الْحَرَكَةُ، فَيَكُونُ إِطْلَاقُ مَدِّ الظِّلِّ وَبَسْطُهُ عَلَى الْحَرَكَةِ مِنْ بَابِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ مُلَابِسِهِ أَوْ سَبَبِهِ.

فإن قلت: لم عدل عن «متحركًا» إلى «مدَّ» وهو أظهر من «مدَّ» في تناوله الانبساط والامتداد؟ قلت: ليدمج فيه معنى الانتفاع المقصود بالذات، وهو معرفة أوقات الصَّلوات؛ فإن اعتبار الظِّلِّ فيها بالامتداد دون الانبساط، وتَمَمَّ معنى الإدماج بقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: بالتدرج (٢) والمهل لمعرفة الساعات والأوقات، وفيه لَمَحَةٌ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلِّ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٨].

(١) «حقائق التفسير» (٢: ٦٢).

(٢) في (ط): «بالتدرج».

بُضِعَ الشَّمْسُ. ﴿سَيِّرًا﴾ أي: على مَهْلٍ. وفي هذا القَبْضِ الِيسِيرِ شيئاً بعد شيءٍ مِنْ المنافعِ ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَرُ، ولو قُبِضَ دَفْعَةً واحدةً لَتَعَطَّلَتْ أَكْثَرُ مَرِاقِ النَّاسِ بِالظَّلِّ والشَّمْسِ جميعاً. فَإِنْ قَلَتْ: ﴿ثُمَّ﴾ في هَذَيْنِ المَوْضِعَيْنِ كَيْفَ مَوْعُهَا؟ قُلْتُ: مَوْعُهَا لِبَيَانِ تَفَاضُلِ الأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: كَأَنَّ الثَّانِيَّ أَعْظَمُ مِنَ الأَوَّلِ، والثَّالِثُ أَعْظَمُ مِنْهَا، تَشْبِيهاً لِتَبَاعُدِ مَا بَيْنَهُمَا فِي الفَضْلِ بِتَبَاعُدِ مَا بَيْنَ الحَوَادِثِ فِي الوَقْتِ. وَوَجْهٌ آخَرٌ: وَهُوَ أَنَّهُ

قَوْلُهُ: (بُضِعَ الشَّمْسُ)، النِّهَايَةُ: الضُّحَى: ضَوْءُ الشَّمْسِ إِذَا اسْتَمَكَّنَ مِنَ الأَرْضِ، وَهُوَ كَالْقَمَرِ لِلْقَمَرِ.

قَوْلُهُ: (كَأَنَّ الثَّانِيَّ أَعْظَمُ مِنَ الأَوَّلِ) لِأَنَّ فِي إِزَالَةِ الظِّلِّ بِالشَّمْسِ دَلِيلًا عَلَى جُودِهِ، فَلَوْلا الشَّمْسُ مَا عُرِفَ الظِّلُّ، وَأَمَّا الِانْتِفَاعُ بِهِمَا فَالِانْتِشَارُ فِي النَّهَارِ، وَالهُدُوءُ فِي اللَّيْلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الإسراء: ٦٦]، وَمَا يَحْضُلُ مِنْ وَجُودِ اللَّيْلِ مِنَ الرُّطُوبَةِ الَّتِي يَنُمُو بِهَا النَّامِيُّ، وَتَصْبِغُ الفُؤَاكِهِ، وَمِنْ وَجُودِ النَّهَارِ الإِنْضَاجُ، وَأَكْثَرُ الِاسْتِمْتَاعِ. وَكَوْنُ الثَّالِثِ، أَي: قَبْضِ الظِّلِّ قَبْضًا يَسِيرًا، أَعْظَمَ مِنَ الثَّانِي، لِأَنَّ فِيهِ الحِصُولَ وَالإِزَالََةَ مَعَ التَّدْرُجِ وَالمَهْلِ، فَتَحْضُلُ تِلْكَ الفَائِدَةُ مَعَ مَعْرِفَةِ السَّاعَاتِ وَالأَوْقَاتِ المُنَوَّطَةِ عَلَيْهَا أَكْثَرُ أَحْكَامِ الشَّرْعِ؛ وَلِأَنَّ فِي التَّدْرُجِ الِاسْتِنْسَاسَ، وَفِي الفُجَاءَةِ التَّوَحُّشَ.

قَوْلُهُ: (تَشْبِيهاً لِتَبَاعُدِ مَا بَيْنَهُمَا)، يَعْنِي: «ثُمَّ» هَاهُنَا اسْتِعَارَةٌ تَبَعِيَّةٌ، حَيْثُ شَبَّهَ بَعْدَ المَرْتَبَةِ بِالْبَعْدِ الزَّمَانِيِّ، ثُمَّ اسْتَعِيرَ لِجَانِبِ المُشَبَّهِ لَفْظَةً «ثُمَّ»، وَليْسَ المَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ المَدِّ بِزَمَانٍ مَتْرَاحٍ جَعَلَ الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا، فَيَجِبُ الحَمْلُ عَلَى المَجَازِ، وَكَذَلِكَ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾.

قَوْلُهُ: (وَوَجْهٌ آخَرٌ)، وَهَذَا الوَجْهُ مُبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ «ثُمَّ» مُجْرَى عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَهِيَ التَّرَاخِي فِي الزَّمَانِ، وَلا شَكَّ أَنَّ الظُّلْمَةَ سَابِقَةٌ عَلَى النُّورِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَيْلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ، وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ»، أَخْرَجَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي «مُسْنَدِهِ» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو (١).

(١) أَخْرَجَهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «المُسْنَدِ» (٦٦٤٤) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٦٤٢) وَالبَيْهَقِيُّ فِي «السنن الكبرى» (٤: ٩) وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

مَدَّ الظِّلَّ حِينَ بَنَى السَّمَاءَ كَالْقَبَةِ الْمَضْرُوبَةِ، وَدَحَا الْأَرْضَ تَحْتَهَا فَأَلْقَتْ الْقَبَّةُ ظِلَّهَا عَلَى الْأَرْضِ فَيَنَانًا مَا فِي أَدِيمِهِ جُوبٌ لَعَدَمِ النَّيْرِ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا مُسْتَقِرًّا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، ثُمَّ خَلَقَ الشَّمْسَ وَجَعَلَهَا عَلَى ذَلِكَ الظِّلِّ، أَي: سَلَّطَهَا عَلَيْهِ وَنَصَبَهَا دَلِيلًا مَتَّبِعًا لَهُ كَمَا يُتَّبَعُ الدَّلِيلُ فِي الطَّرِيقِ، فَهُوَ يَزِيدُ بِهَا وَيَنْقُصُ، وَيَمْتَدُّ وَيَتَقَلَّصُ، ثُمَّ نَسَخَهُ بِهَا فَقَبَضَهُ قَبْضًا سَهْلًا يَسِيرًا غَيْرَ عَسِيرٍ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ قَبْضَهُ عِنْدَ قِيَامِ

قوله: (فَيَنَانًا)، الأساس: وَغُصْنٌ فَيَنَانٌ: كَثِيرُ الْأَفْنَانِ، وَهُوَ فِي ظِلِّ عَيْشٍ وَفَيَنَانٍ شَجَرَةٌ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: ظِلُّ فَيَنَانٍ، أَي: ظَلِيلٌ، وَصَرَفَهُ حَيْثُ جَعَلَهُ فَيَعَالًا مِنَ الْفَنَنِ، وَأَصْلُهُ فِي الشَّجَرِ، يُقَالُ: شَجَرَةٌ فَيَنَانَةٌ. وَفِي «الصَّحاح»: رَجُلٌ فَيَنَانٌ: طَوِيلُ الشَّعْرِ وَحَسَنُهُ، وَهُوَ فَعْلَانٌ، جَعَلَهُ مِنَ الْفَيْئَةِ. قِيلَ: وَأَطْبَقَ الْإِمَامَانِ عَلَى أَنَّهُ مُنْصَرِفٌ، وَالْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ مَنَعَهُ الصَّرْفَ فِي قَوْلِهِ:

فَيَنَانٌ^(١) مَا فِي أَدِيمِهِ جُوبٌ^(٢)

وَهُوَ وَهْمٌ مِنْهُ، كَمَا وَهَمَ الطَّائِيُّ^(٣) فِي قَوْلِهِ:

وَالنَّبِيعُ عُرْيَانٌ مَا فِي عُوْدِهِ نَمْرٌ

قوله: (ما في أديمه جوبٌ)، هو جمع جوبة. الجوهري: الجوبة: الفرجة في السحاب^(٤) وفي الجبال. وانجابت السحابة: انكشفت، والجوبة: موضع ينجاب في الحرّة، والجمع جوبٌ.

(١) في (ط): «والظل فينان»، وفي (ح) و(ف): «وللظل فينان»، والظاهر أنها زيادة مقحمة.

(٢) «ديوان أبي نواس» ص ٤ وصدّر البيت:

إِذَا تُنَّتُهُ الْغُصُونُ جَلَّلَنِي

(٣) يعني أبا تمام الشاعر المشهور، ولم أهتد إليه في «ديوانه».

(٤) ومنه الحديث المشهور في باب الاستسقاء في الخطبة يوم الجمعة وفيه: «فما يُشِيرُ بيده إلى ناحية من

السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة» أخرجه البخاري (٩٣٣) ومسلم (٨٩٧) من

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الساعة بقبض أسبابه؛ وهي الأجرام التي تُلقى الظلّ، فيكون قد ذكّر إعدامه بإعدام أسبابه، كما ذكّر إنشاءه بإنشاء أسبابه، وقوله: ﴿قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾: يدلُّ عليه، وكذلك قوله ﴿يَسِيرًا﴾، كما قال: ﴿ذَلِكَ حَسْرَةٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤].

[وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَيْلَ لِيَأْسًا وَالنَّوْمَ سُباتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾]

شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر. والسُّبات: الموت. والمسبوت: الميت؛ لأنه مقطوع الحياة، وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِالْأَيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]. فإن قلت: هلأ فسرته بالراحة؟ قلت: النُّشور في مُقابلته ياباه.....

قوله: ﴿قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ يدلُّ عليه، أي: يدلُّ على أن المراد قبض الظلّ وإعدامه. وَصَفَ الْقَبْضَ بِالْيَسِيرِ؛ لأنَّ إتيان الساعة وأماراتها^(١) عليه يسيرٌ، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَسْرَةٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]. وفائدة إيلنا في ﴿قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ وصيغة الجمع: القبض التام كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُمَسِكُ فَلَا مَرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

قوله: (هلأ فسرته بالراحة؟)، يعني: السُّبات لفظٌ مُشتركٌ الجوهري: السُّبات: النَّوْمُ، وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتًا﴾ [النبا: ٩]، وقال: المسبوت: الميت، والمعشّي عليه، وكذلك العليل إذا كان مُلقى كالنائم.

الأساس: جعل الله النَّوْمَ سُباتًا: مَوْتًا، وأصبح فلانٌ مسبوتًا: ميتًا، فلم خصصته بالموت؟ وأجاب: أن النَّظْمَ والتقابل هو القرينة المُخصّصة^(٢).

فإن قلت: ﴿النَّهَارَ نُشُورًا﴾ في مقابل ﴿الَيْلَ لِيَأْسًا﴾ و﴿وَالنَّوْمَ سُباتًا﴾ لا قرينة لها؟ قلت: تكرير ﴿جَعَلَ﴾ يدلُّ على أن النَّوْمَ داخلٌ في حكم ﴿جَعَلَ﴾ الأول، وأن النَّشْرَ في النهار يُقابلها لاشتغال النَّشُورِ على الظُّهور والبعث.

فإن قلت: وقد فسر القاضي بها حيث قال: جعل النَّوْمَ سُباتًا: راحةً للأبدان، بقطع

(١) في (ط): «وأمارتها».

(٢) في (ف): «هو القرينة المحضّة».

إِبَاءِ الْعَيْوِفِ الْوِرْدَ وَهُوَ مُرْتَقٍ. وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهاراً
لنعتمته على خلقه؛ لأن الاحتجاب بستر الليل،

المشاغل، وأصل السبب: القطع، أو موتاً؛ لأنه قطع الحياة ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ذائشور،
أي: انتشار يتشور فيه الناس للمعاش، أو بعث من النوم بعث الأموات^(١). والمصنف أباه
كل الإباء، وضرب له المثل.

قلت: قد تقرر أن السبب لفظة مشتركة وهي مفتقرة إلى قرينة مبينة، والقرينة
﴿نُشُورًا﴾ لتقابلها، فجعلها حقيقة شرعية أولى من اللغوية التي بمنزلة المجاز على أن
المقام لا يساعده اللغوية؛ لأنه إذا اتفق تفسير الآية مع الآيات السابقة واللاحقة في المعنى
وتضمنت نكتة زائدة، كان أحسن من الاختلاف، والخلو عن تلك اللطيفة، وفي السابقة
حديث من معنى الإيجاد والإعدام، حيث فسّر القَبْضُ بالإعدام، والمد بالابيجاد. واللاحقة
فيها ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾، فالآيات مع دلالتها على القدرة الباهرة، ومع إظهار النعمة
فيها الدلالة على الحشر والنشر، وبه رمز المصنف بقوله: «والنوم واليقظة» أي: عبرة فيهما
لمن اعتبر.

قوله: (إِبَاءِ الْعَيْوِفِ الْوِرْدَ وَهُوَ مُرْتَقٍ)، الأساس: وهو يعاف الطعام والشراب،
والمياه. [قال:

وَإِنِّي لَشَرَابٌ^(٢) الْمِيَاهُ إِذَا صَفَّتْ وَإِنِّي إِذَا كَدَّرْتَهَا لَعَيْوِفٌ

وناقة عيوف: تشم الماء ثم تدعه. وفيه^(٣) له رونق، أي: حسن وبهاء، وذهب رونقه.
ورنقه: كدره، كأن معناه: ذهب برونقه الذي هو صفاؤه والمعنى: قوله: ﴿نُشُورًا﴾ يمنع
تفسير السبب بالنوم الذي هو الراحة؛ لعدم التقابل، امتناع ناقة تكره الماء الصافي، والحال
أنها عرضت على الماء الكدر.

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٢١).

(٢) قوله: «قال: وإنني لشراب المياه» سقط من (ح) و(ف).

(٣) يعني في «أساس البلاغة» (رنق).

كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية! والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة: أي عبرة فيها لمن اعتبر! وعن لقمان: أنه قال لابنه: يا بني، كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشئ.

[«وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا» ﴿٤٨﴾]

قُرئ: (الرِّيح)،

قوله: (كم فيه لكثير من الناس من فوائد)، كم هنا: خبرية، وهي خبر أن، وفي معناه أنشد أبو الطيب:

وكم لظلام الليل عندك من يد تُخبر أن المانوية^(١) تكذب
وقاك ردى الأعداء تسري عليهم وزارك فيه ذو الدلال المحجب^(٢)

قوله: (والنوم واليقظة)، «النوم»: مبتدأ، والخبر: «أي: عبرة»، على تأويل: مقول عند ذكرهما: أي عبرة فيهما، «وشبههما بالموت والحياة» جملة معترضة لتأكيد معنى العبرة فيهما. وقيل: هي حال، وليس بشيء، وفي نسخة: «وشبههما» بالرفع: عطف تفسيري.

قوله: (قُرئ: «الرِّيح»)، قرأها ابن كثير وحده^(٣)، وقرأ عاصم ﴿بُشْرًا﴾ بالباء مضمومة وإسكان الشين، وابن عامر: بالنون مضمومة، وإسكان الشين، وحمزة والكسائي: بالنون مفتوحة وإسكان الشين، والباقون: بالنون مضمومة وضم الشين^(٤)، وابن السميع:

(١) وهم أتباع ماني القائلين بأن الخبر من النهار، وأن الشر من الليل، فعرض بهم المتنبي هذا التعريض اللطيف.

(٢) «ديوان المتنبي» بشرح العكبري (١: ١٧٨).

(٣) وقد سبق تعليل هذا الاختيار في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ﴾ [البقرة: ١٦٤]. انظر: «حجة القراءات» ص ١١٨.

(٤) وقد سبق تفسير هذا الحرف في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]. انظر: «حجة القراءات» ص ٢٨٥.

و(الرِّيَاحُ نَشْرًا) إحياء، و(نُشْرًا) جمع نُشُور؛ وهي المَحْيِيَّة؛ و(نُشْرًا) تخفيف: نُشْر، و(بُشْرًا) تخفيف بُشْر؛ جمع بُشُورِ وِبُشْرَى. و﴿بَيِّنٌ يَدْنَى رَحْمَتِهِ﴾ استعارةٌ مَلِيحَةٌ، أي: قُدَامَ المَطَرِ.

﴿طَهُورًا﴾: بليغاً في طهارته. وعن أحمد بن يحيى: هو ما كان طاهراً في نفسه مُطَهَّرًا لغيره. فإن كان ما قاله شَرْحاً لبلاغته في الطهارة؛ كان سَدِيداً، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأَنْفَالُ: ١١]، وإلا فليس «فَعُولٌ»

«الرِّيَاحُ بُشْرَى»، بالباءِ مثل: حُبْلِ. قال ابن جني: «بُشْرَى»: مصدرٌ وَقَعَ موقعَ الحَالِ، أي: مُبَشِّرَةٌ، نحو قولهم: جاء زيدٌ رَكُضاً، أي: رَاكِضاً، وهَلَمَّ جَرّاً، أي: جَاراً أو مُنَجَّراً^(١). قوله: ((نُشْرًا): إحياء)، على أن «نُشْرًا»: حَالٌ مِنْ ضميرِ الفاعلِ، وقوله: «وَنُشْرًا»: جَمْعُ نُشُورًا، وهي المَحْيِيَّةُ على أنه حَالٌ مِنَ المَفْعُولِ.

قوله: (استعارةٌ مَلِيحَةٌ)، إمَّا ترشيحيَّةٌ، إذا قُرئَ: ﴿بُشْرًا﴾ بالباءِ، سَبَبَ المَطَرِ بِالرَّحْمَةِ، ثم استعيرَ لَهُ الرَّحْمَةُ وَرَشَحَهَا بقوله: ﴿بُشْرًا﴾، قال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ [التوبة: ٢١]، ثم جعلها بينَ يَدَيْهِ تَمِيماً لها؛ لأنَّ البشيرَ يَتَقَدَّمُ المُبَشَّرَ به، ويجوزُ أن تكونَ تَمثيليَّةً، و﴿بُشْرًا﴾ مِنْ تَمَمَةِ الاستعارةِ، وداخلٌ في جُمليتها، ومَنْ قرأ «نُشْرًا» بالتَّوْنِ كان تجریداً لها؛ لأنَّ النُّشْرَ يُنَاسِبُ السَّحَابَ.

قوله: (وعن أحمد بن يحيى)، وهو أبو العباسِ ثعلبٌ. قال ابنُ الأنباريِّ: كان إمامَ الكوفيِّينَ في النُّحُوِّ واللُّغَةِ في زمانِهِ، وكان ثقةً دِيناً مشهوراً بصدقِ اللُّهْجَةِ والمعرفةِ بالغريبِ. وقال المبردُ: أعلمُ الكوفيِّينَ ثعلبٌ، فذكرَ القراءَ فقال: لا يَعشُرُهُ^(٢).

قوله: (فإن كان ما قاله شَرْحاً لبلاغته في الطهارة؛ كان سَدِيداً..... وإلا فليس «فَعُولٌ»

(١) «المحتسب» (٢: ١٢٣) وزاد ابن جني: «ومنه قولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَا بَيْتَكَ سَعِيًّا﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي: ساعات. انتهى. ولتأَمُّ الفائدةِ انظر: «البحر المحيط» (٥: ٧٧).

(٢) انظر: «نزهة الألباء» للأنباري ص ٢٢٨. وقوله: «لا يَعشُرُهُ» أي: لا يبلغ علمُهُ عَشْرَ علمِهِ.

من التفعيل في شيء

من التفعيل في شيء، قال القاضي: «فَعُولٌ» غَلَبَ في معنَيَيْنِ، أحدهما: اسمٌ كالْوَضوءِ والوَقُودِ؛ لِمَا يُتَوَضَّأُ وَيُوقَدُ بِهِ. وثانيهما: للمبالغة، كالشُّكُورِ والغُفُورِ. وقد جاء للمفعول كَالضُّبُوثِ، وللمصدرِ كَالقَبُولِ، وللإسم كَالذَّنُوبِ^(١).

وقال صاحبُ «المُغْرِبِ»: وما حُكِيَ عن ثعلبٍ إن كان زيادةً بيانٍ لنهائيته في الطَّهارةِ، فصوابٌ حسنٌ، وإلا فليس فَعُولٌ من التفعيلِ في شيء، وقياسُ هذا على ما هو مشتقٌّ من الأفعالِ المتعدية، كقَطُوعٍ ومَنُوعٍ، غيرُ سَدِيدٍ^(٢). ونَقَلَ صاحبُ «المطلع» عن «بسيط»^(٣) الواحدِيّ، أنه قال: أجاد أبو القاسمِ الزجاجيُّ^(٤) في تفسيرِ الطَّهَورِ، وكشَفَ عن حقيقةِ المعنى فقال: الطَّهَورُ: اسمٌ للماءِ الذي يُتَطَهَّرُ بِهِ، ولا يجوزُ إلا أن يكونَ طاهراً في نفسه، مُطَهَّراً لغيره؛ لأنَّ عُدُولَ العَرَبِ عن صيغةِ «فَاعِلٍ» إلى «فَعِيلٍ» أو «فَعُولٍ» لزيادةِ المعنى؛ لأنَّ اختلافَ الأبنيةِ لاختلافِ المعاني، فكما لا يجوزُ التسويةُ بينَ صابِرٍ وصَبُورٍ، وشاكرٍ وشُكُورٍ، كذلك في: طاهرٍ وطَّهَورٍ، والشَّيءُ إذا كان طاهراً في نفسه لا يجوزُ أن يكونَ مِن جِنْسِهِ ما هو أظَهَرُ منه حتَّى تصفَه بطَّهَورٍ لزيادةِ طَهَارَتِهِ، ولا كذلك قادرٌ وقديرٍ، وغافرٌ وغُفُورٍ، لأنَّ هذه نُعُوتٌ تَحْتَمِلُ الزِّيادَةَ، والطَّهارةُ ليست كذلك، فإذا نَقَلنا الطاهرَ إلى طَّهَورٍ لم يكنْ إلا لزيادةِ المعنى، وذلك المعنى ليس إلا التطهيرَ.

فإن قيل: بناءُ الطَّهَورِ مِن: طَهَّرَ يَطْهَرُ طَهارةً، وهو لازمٌ، فكيف يجوزُ تعديته بتطهيرِ غيره؟ قلنا: النَّظَرُ في هذه اللفظةِ أدَّى إلى أن فيه معنى التطهيرِ؛ لأنه لا يجوزُ إطلاقه على الماءِ

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٢٢).

(٢) «المُغْرِب في ترتيب المُعْرَب» (٢: ٢٩).

(٣) وهو أكبر مصنفاته في «التفسير»، ولم يُطْبِعْ بَعْدُ.

(٤) شيخ العربية أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النحوي، صاحب التصانيف، وتلميذ

العلامة أبي إسحاق الزجاج وهو منسوب إليه، توفي سنة ٣٣٧ هـ. ترجمته في «سير أعلام النبلاء»

(١٥: ٤٧٥).

والطَّهْرُ على وجهين في العربيَّة: صِفَةٌ، واسمٌ غيرُ صِفَةٍ؛ فالصِّفَةُ: قولُك: ماءٌ طَهُورٌ، كقولك: طاهرٌ، والاسمُ: قولُك لِمَا يُتَطَهَّرُ به: طَهُورٌ، كالوَضُوءِ، والوَقُودِ، لِمَا يُتَوَضَّأُ به وتُوَقَّدُ به النار. وقولهم: تَطَهَّرْتُ طَهُورًا حَسَنًا، كقولك: وَضُوءًا حَسَنًا، ذَكَرَهُ سِيبَوِيه، ومنه قوله ﷺ: «لا صَلَاةَ إِلَّا بِطَهُورٍ» أي: طَهَارَةٍ. فَإِن قُلْتَ: ما الذي يُزِيلُ عن الماءِ اسمَ الطَّهْرِ؟ قُلْتَ: تَيَقُّنُ مُحَالِطَةِ النِّجَاسَةِ، أو غَلَبَتْهَا على الظَّنِّ، تَغَيَّرَ أَحَدُ أوصافِهِ الثلاثة أو لم يَتَغَيَّرْ،

الذي ليس بمُطَهَّرٍ، لأنَّ العَرَبَ لا تُسَمِّي الشَّيْءَ الذي لا يَقَعُ به التَّطَهِيرُ طَهُورًا، فَمِنَ هذا الوجهِ يجب أن يُعَلَّمَ، لا من التَّعَدِّيِّ واللُّزومِ.

فإن قيل: هذا يُشكِّلُ بقوله عَزَّ وَجَلَّ في صِفَةِ شَرَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ: ﴿وَسَقَمَهُمْ رَبُّهُمْ سَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، وبقولِ جَرِيرٍ:

عَذَابُ الشَّيْءِ رِيْقُهُنَّ طَهُورٌ^(١)

قُلْنَا: لِمَا وَصَفَ اللهُ تَعَالَى المَاءَ في الدُّنْيَا بِالطَّهَارَةِ، فَجَعَلَهُ طَهُورًا، وَهَذَا غَايَةٌ ما يُوصَفُ به المَاءُ، وَصِفَ ذَلِكَ الشَّرَابُ أَيْضًا بِهَذَا الوَصْفِ لِيَعْتَقِدَ فِيهِ مِنَ الطَّهَارَةِ ما اعتَقَدْنَاهُ فِيهَا وَصَفَهُ مِنَ المَاءِ، وَإِن كَانَ ذَلِكَ أَرْفَعَ وَأَشْرَفَ، وَكَذَلِكَ جَرِيرٌ لِمَا عَلِمَ أَنَّ غَايَةَ وَصْفِ المَاءِ أَن يُقَالَ: طَهُورٌ، سَبَبُ الرِّيْقِ بِالمَاءِ، وَأَحَبُّ أَن يُزِيلَ عن الرِّيْقِ سِمَةَ النِّجَاسَةِ فلم يُمكنه أَن يَصِفَهُ إِلَّا بِمَا يُوصَفُ به المَاءُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قال: عَذَابُ الشَّيْءِ، فَوَصَفَهَا بِالعُدْوَةِ، وَهِيَ مِنَ صِفَةِ المَاءِ، فَكَمَا أَنَّ العَذْبَ حَقِيقَةٌ في المَاءِ مَجَازٌ في غَيْرِهِ، كَذَلِكَ الطَّهْرُ حَقِيقَةٌ في المَاءِ مُسْتَعَارٌ في الرِّيْقِ، وَهَذَا واضِحٌ جِدًّا. انتهى كلامُ الزُّجَاجِيِّ. الزُّجَاجِيُّ: بِالْجِيمِ الخَفِيفَةِ.

(١) لم أجده في «ديوانه»، وذكره السريُّ الرقاعي في «المحبِّ والمحبوب» ص ١٨، وصدَّر البيت:

إلى رُجِّعِ الأَكْفالِ غَيِّدِ مِنَ الصُّبَا

وقَبَلَهُ:

خَلِيلِي هَلْ فِي نَظْرَةٍ إِنْ نَظَرْتُهَا أَدَاوِي بِهَا قَلْبًا عَلَيَّ فُجُورٌ!؟

أو استعماله في البدن لأداء عبادة عند أبي حنيفة، وعند مالك بن أنس: ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور. فإن قلت: فما تقول في قوله ﷺ حين سئل عن بئر بضاعة فقال:

قوله: (أو استعماله في البدن)، عطف على «تَيَقَّنُ مُحَالِطَةَ النَّجَاسَةِ»، وفيه إشعار بأن الماء المستعمل مسلوب عنه الطهورية فيبقى طاهراً.

قوله: (وعند مالك بن أنس)، قال صاحب «الجامع»: هو صاحب المذهب أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر من بني حمير ابن سبأ الأكبر^(١). وأنس بن مالك من الأنصار من بني النجار، صاحب رسول الله ﷺ.

قوله: (فما تقول في قوله ﷺ حين سئل عن بئر بضاعة؟)، يعني: هذا الحديث يقوي مذهب مالك ما لم يتغير أحد أوصافه فهو طهور^(٢)، ومذهب الشافعي: الماء الكثير كذلك^(٣). وخلاصة الجواب: أن ما ذكره أبو حنيفة هو حكم الماء الراكد، وبئر بضاعة ماؤها جار.

قلت: أما حديث بئر بضاعة فعن أبي داود والترمذي والنسائي، عن أبي سعيد الخدري قال: قيل: يا رسول الله، إنه يستقى لك من بئر بضاعة، ويلقى فيه لحوم الكلاب وخرق المحائض وعذر الناس؟ فقال ﷺ: «إن الماء طهور لا ينجسه شيء»^(٤).

(١) «جامع الأصول» (١: ١٨٠).

(٢) يوضحه قول ابن العربي المالكي في «أحكام القرآن» (٣: ١٤٢٠): وقد فاضت الطوسي الأكبر - يعني الإمام أبا حامد الغزالي رحمه الله - في هذه المسألة مراراً، فقال: «إن أخلص المذاهب في هذه المسألة مذهب مالك؛ فإن الماء طهور ما لم يتغير أحد أوصافه؛ إذ لا حديث في الباب يعول عليه، وإنما المعول على ظاهر القرآن وهو قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ أَلْسَمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وهو ما دام بصفاته، فإذا تغير عن شيء منها خرج عن الاسم بخروجه عن الصفة، ولذلك لم يجد البخاري إمام الحديث والفقهاء في الباب خبراً صحيحاً يعول عليه، قال: «باب إذا تغير وصف الماء». انتهى.

(٣) لأن الكثرة عند الشافعية تدفع حكم الاستعمال، انظر: «الوسيط» للغزالي (١: ١٢٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٦٦) والترمذي (٦٦) والنسائي (١: ١٤١) وقال الترمذي: حديث حسن.

«الماء طَهُورٌ لا يَنْجِسُهُ شَيْءٌ إِلَّا مَا غَيَّرَ لَوْنَهُ أَوْ طَعْمَهُ أَوْ رِيحَهُ»؟ قلتُ: قال الواقديُّ: كان بئرُ بُضَاعَةَ طريقاً للماء إلى البساتين.

[﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ ٤٩]

وإنما قال: ﴿مَيْتًا﴾؛ لأنَّ «البلدة» في معنى «البلد» في قوله: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيْتٍ﴾ [فاطر: ٩]، وأنه غيرُ جارٍ على الفعل كَفَعُولٍ ومفعولٍ ومفعيلٍ. وقرئ: (نُسْقِيَهُ)

قال أبو داود: سُئِلَ قَيْمٌ بئرُ بُضَاعَةَ عن عُمُقِهَا؟ قال: إذا كَثُرَ كان إلى العانة، وإذا نَقَصَ كان دونَ العَوْرَةِ، قال أبو داود: قَدَرْتُ^(١) بئرَ بُضَاعَةَ، فإذا عَرَضُهَا سِتَّةُ أَذْرُعٍ.

وقلتُ: الظاهرُ من هذه الرِّواية أنَّها كانت راکدةً، والله أعلم. قال صاحبُ «النهاية»: هي بئرٌ معروفةٌ بالمدينة، والمحفوظُ ضمُّ الباء، وأجازَ بعضهم كسرها، وحكى بعضهم بالصاد المهملة، وعن بعضهم: بُضَاعَةُ: اسمُ امرأةٍ نُسِبَتْ إليها البئرُ.

قوله: (لأنَّ «البلدة» في معنى «البلد»)، أي: لم يُقَل: «مَيْتَةٌ»؛ لأنَّ معنى «البلد» و«البلدة» واحدٌ.

الراغب: البَلْدُ: المكانُ المحيطُ المحدودُ. وَسَمِيَ الْمَفَازَةُ^(٢) بلدًا لكونها مَوْطِنًا للوحوش، والمقبرة بلدًا لكونها مَوْطِنًا للأموات^(٣).

قوله: (وأنه غيرُ جارٍ على الفعل)، أي: «المَيْتُ» ليس على وِزَانِ الفعل، فيكون مُلَحَقًا بالأسماء، كالذَّبِيحَةِ والنَّطِيحَةِ. قيل: إنَّ نَحْوَ «فاعل» جارٍ على «يَفْعَلُ» من حيث الحركاتُ والسَّكِّنَاتُ، ونَحْوُ «مفعول» جارٍ على «يُفْعَلُ»؛ لأنَّ أصله «مُفْعَلٌ»، وأما نحوُ «فَعُولٍ» و«مِفْعَالٍ» و«مِفْعِيلٍ» و«فَعِيلٍ» بمعنى «مفعولٍ» فليس جارياً على الفعل، فيستوي فيه المذكورُ والمؤنَّثُ.

(١) وفي «سنن أبي داود»: وَقَدَّرْتُ أَنَا بئرَ بُضَاعَةَ بردائي، مَدَدْتُهُ عَلَيْهَا ثُمَّ دَرَعْتُهُ فَإِذَا عَرَضُهَا سِتَّةُ أَذْرُعٍ.

(٢) في (ح) و(ف): «المغارة» بِالْعَيْنِ الْمُعْجَمَةِ.

(٣) «مفردات القرآن» ص ١٤٣.

بالفتح. وسقى، وأسقى: لغتان. وقيل: أسقاها: جعل له سقياً. الأناسي: جمع إنسي، أو إنسان، ونحوه: ظراي في ظربان، على قلب النون ياء، والأصل: أناسين وظرايين. وقرئ بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل، كقولك: أناعم، في: أناعيم. فإن قلت: إنزال الماء موصوفاً بالطهارة وتعليقه بالإحياء والسقي يؤذن بأن الطهارة شرط في صحة ذلك، كما تقول: حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش. قلت: لَمَا كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء، وصفاً بالطهور إكراماً لهم، وتتمياً للمنة عليهم، وبيانا أن من حقهم حين أراد الله لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثرها في بواطنهم ثم في ظواهرهم،

قوله: (ونحوه: ظراي)، الجوهري: هي دويبة كاهرة ممتنة الريح، يقال: ظري على فغلى هو جمع، مثل: حجلي جمع، حجل، وربما مد وجمع على ظراي، مثل: حرباء وحراي، كأنه جمع ظراي.

وقال الزجاج: «أناسي»: جمع إنسي، ككُرسِي وكُراسِي، أو جمع أناسين، كسراحين وسرحان^(١).

قوله: (إنزال الماء موصوفاً بالطهارة)، يعني: لا شك أن في إنزال الماء من السماء لأجل إحياء الأرض، وسقي الأنعام مناسبة، وأي مناسبة لطهورية الماء في هذا المعنى؟ وأجاب: أن أجل تلك العلة سقي الأناسي، وأنه هو المقصود الأول، فيجب امتيازُه عن سائرهما بما يختص بهما، وأشرف العراض في الإنعام عليهم تعرضهم لما يفوزون به على السعادة العظمى، والحياة الأبدية من العبادة، وهي لا تحل إلا بطهارة الظاهر والباطن، فعلى المكلف أن يتعرف شكر هذه النعمة بقلبه، ويظهر أثره على جوارحه، وإليه الإشارة بقوله: «أن يؤثرها في بواطنهم ثم في ظواهرهم».

قوله: (وأرادهم عليها)، الأساس: وأرادَه على الأمر: حمّله عليه.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٧١).

وَأَنْ يَرْبُؤُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مُخَالَطَةِ الْقَاذِرَاتِ كُلِّهَا كَمَا رَبَّأَ بِهِمْ رَبُّهُمْ. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خَصَّ الْأَنْعَامَ مِنْ بَيْنِ مَا خَلَقَ مِنَ الْحَيَوَانَ الشَّارِبِ؟ قُلْتُ: لِأَنَّ الطَّيْرَ وَالْوَحْشَ تُبْعَدُ فِي طَلَبِ الْمَاءِ فَلَا يُعَوِّزُهَا الشَّرْبُ بخلاف الأنعام، ولأنها قِنية الأناسي، وعامة منافعهم متعلقة بها، فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالإنعام بسقيهم. فإن قلت: فما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة؟ قلت: معنى ذلك: أن عليّة الناس وجُلهم مُنيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء، ففيهم غنية عن سقي السماء، وأعقابهم - وهم كثير منهم - لا يُعيشهم إلا ما يُنزل الله من رحمته وسقيا سبائه، وكذلك قوله: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ يريدُ بعض بلاد هؤلاء المُبتعدين عن مظانّ الماء. فإن قلت: لِمَ قُدِّمَ إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟ قلت: لأنّ حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقُدِّم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواسيهم، لم يعدموا سقياهم.

قوله: (وَأَنْ يَرْبُؤُوا بِأَنْفُسِهِمْ)، الجوهري: المرأاة: المرقة، وقولهم: إني لأربأ بك عن هذا الأمر، أي: أرفعك عنه.

قوله: (أَنَّ عَلِيَّةَ النَّاسِ)، الأساس: العليّة: جمع عليّ، أي: شريف رفيع، مثل: صبيّ وصبيّة، وفي استعمالهم: عليّة الناس: أكثرهم، يقولون: عليّة متاعك رديء. وفي قول المصنّف: «عليّة الناس وجُلهم» ثم في «وأعقابهم، وهم كثير منهم»: لطيفة^(١)، وأن المراد من ﴿وَأَنْفُسِي كَثِيرًا﴾: كثير في أنفسهم، وإن كانوا بقايا أكثر الناس.

قوله: (وَلَأَنْهُمْ إِذَا ظَفَرُوا بِمَا يَكُونُ سُقْيَا أَرْضِهِمْ)، جواب آخر، والجواب الأوّل مبنيّ على تقدّم الأسباب على المسببات، والثاني على تقديم ما يشتدّ فيه الاحتياج إلى الماء ويكثر به الانتفاع، فإن انتفاع الإنسان بحياة الأرض أكثر، واهتمامه بسقياها أشدّ من سقيا الأنعام، ثم اهتمامه بسقيا الأنعام أقدم من سقيا نفسه؛ لأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم

(١) في (ج) و(ف): «وهي لطيفة».

[وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كَثُورًا ﴿٥٠﴾]

يريد: ولقد صرّفنا هذا القول بين الناس في القرآن وفي سائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل، وهو ذكّر إنشاء السحاب وإنزال القطر؛ ليفكروا ويعتبروا، ويعرفوا حق النعمة فيه، ويشكروا، ﴿فَأَبَىٰ﴾ أكثرهم إلا كفران النعمة وجحودها وقلة الاكتراث لها. وقيل: صرّفنا المطر بينهم في البلدان المختلفة والأوقات المتغيرة، وعلى الصفات المتفاوتة من: وابل، وطلّ، وجود، ورذاذ، وديمة، ورهام، فأبوا إلا الكفور، وأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يذكروا صنع الله ورحمته.

ومواشيهم لم يعدموا سقيهم. وهذا الجواب أحسن، ولمعنى الإيغال والتتيميم أجمع؛ إذ ليس اهتمام من يقرب الأودية والأنهار ومنابع الماء، كاهتمام من هو بعيد منها، فعلى هذا المراد بالناسي: أصحاب البوادي والمتبعدون من مظان الماء.

قال صاحب «الفرائد»: على هذا لم يلزم أن يكون المراد من الظهور المطر؛ لأن إحياء الأرض وسقي الأنعام، لا يقتضيان كون الماء مطهراً.

قلت: قد مرّ أن دلالة الظهور على تلك اللطيفة بحسب الرمز والتلويح، على أن سلوك طريق الإدماج، وإشارة النصّ دأب البلغاء، وطريقة الفقهاء.

قوله: (وقلة الاكتراث)، الأساس: كثرته الأمر: أي: حرّكه، وأراك لا تكثرث لذلك؛ ولا تعبأ به.

قوله: (من وابل، وطلّ)، الوابل: المطر الشديد، والطلّ: أضعف المطر، والجود: المطر البالغ، والرذاذ: المطر الضعيف، والرّهمة: المطر الضعيف الدائم، والديمة: المطر الذي يدوم أياماً ثلاثة أو أكثر.

قوله: (مطرنا بنوء كذا)، الأنواء ثمان وعشرون منزلة من منازل القمر، كل منزلة نوء. قوله: «مطرنا بنوء كذا»^(١)، أي: في وقت سقوط هذه المنزلة، وقد مضى شرّحها، وسيجيء في سورة يسّ مستقصى.

(١) هذا مستفاد مما أخرجه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهني.

وعن ابن عباس: ما من عام أقل مطراً من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء. وتلا هذه الآية. ورؤي: أن الملائكة يعرفون عدد المطر ومقداره في كل عام؛ لأنه لا يختلف، ولكن تختلف فيه البلاد. ويترزع من هاهنا جواباً في تنكير البلدة والأنعام والأناسي، كأنه قال: لنحیی به بعض البلاد الميتة، ونسقي بعض الأنعام والأناسي، وذلك البعض كثير. فإن قلت: هل يكفر من ينسب الأمطار إلى الأنواء؟ قلت: إن كان لا يراها إلا من الأنواء ويحسد أن تكون هي والأنواء من خلق الله: فهو كافر، وإن كان يرى أن الله خالقها وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها: لم يكفر.

قوله: (وعن ابن عباس: ما من عام أقل مطراً^(١))، إلى قوله: «وتلا هذه الآية» دلالة الآية عليه أن معنى التصريف: التحويل الكثير، يعني: صرّفنا ما قسمنا من المطر بينهم في البلدان المختلفة بحسب اختلاف احتياجهم، أو لمجرد المشيئة.

قوله: (ويترزع من هاهنا)، أي: من هذا التأويل جواباً عن السؤال الماضي، أي: قوله: «فما معنى تنكير الأنعام والأناسي»؟ وذلك أن إنزال المطر إذا كان بقدر احتياج الناس إليه واستغنائهم عنه، فلا بد من التصريف؛ فإن من أناخ بقرب الأودية والأنهار ومنايع الماء لم يبلغ احتياجه إلى سقي الماء احتياج من هو بعيد من ذلك.

وأما بيان النظم فإنه تعالى لما قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وعَلَّه بحياة البلدة الميتة، وسقي بعض الأنعام وبعض الأناسي، عرف أن ذلك كان بقدر الاحتياج ولا بد من قادر مختار عالم بجزئيات أحوال المخلوقين، حتى يحول إلى كل من ذلك ما يحتاج إليه، فليل: ولقد صرّفنا، وجيء بالجملة القسمة، لإبطال زعم من يزعم أن ذلك بسبب الأنواء.

قوله: (وقد نصب الأنواء دلائل وأمارات عليها: لم يكفر)، النهاية: وإنما غلظ النبي ﷺ في أمر الأنواء؛ لأن العرب كانت تنسب المطر إليها، فأما من جعل المطر من فعل الله تعالى،

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٢: ٤٠٣) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣: ٣٦٣).

[﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا * فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾

جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥١-٥٢﴾]

يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ لخففنا عنك أعباءَ نذارةِ جميعِ القرى. و﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ نبيًّا يُنذرها، وإنما قَصَرْنَا الأَمْرَ عَلَيْكَ، وَعَظَّمْنَاكَ بِهِ، وَأَجَلَلْنَاكَ، وَفَضَّلْنَاكَ عَلَى سَائِرِ الرُّسُلِ، فَقَابِلْ ذَلِكَ بِالتَّشَدُّدِ وَالتَّصَبُّرِ، وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ فِيمَا يُرِيدُونَكَ عَلَيْهِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهَذَا تَهْيِيجَهُ وَتَهْيِيجَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَحْرِيكَهُمْ. وَالضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ، أَوْ لِتَرْكِ الطَّاعَةِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ: ﴿فَلَا تُطِيعُ﴾،

وأراد بقوله: «مُطِرْنَا بِنُورٍ كَذَا» أي: في وقتِ كذا، وهو هذا النورُ الفلانيُّ، فإنَّ ذلك جائزٌ، أي: أن الله تعالى قد أجرى العادةَ أن يأتِيَ بالمطرِ في هذه الأوقات.

وأحسنُ منهما قولُ الإمام: «مَنْ جَعَلَ الْأَفْلاكَ وَالكَواكِبَ مُسْتَقَلَّةً باقتضاءِ هذه الأشياءِ فلا شكَّ في كُفْرِهِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهُ تَعَالَى جَبَلَهَا عَلَى خَوَاصِّ وَصِفَاتٍ تَقْتَضِي هَذِهِ الْحَوَادِثَ فَلَعَلَّ لَا يَبْلُغُ خَطَأُهُ إِلَى حَدِّ الْكُفْرِ»^(١).

قوله: (أَوْ لِتَرْكِ الطَّاعَةِ)، يعني: أن الضَّمِيرَ المَحْرُورَ فِي ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ لِلْقُرْآنِ، وَالمَعْنَى مَا سَبَقَ، وَإِنَّمَا أَخَّرَ «وَلَا تُطِيعُ» عَنِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ﴾ وَفِي التَّنْزِيلِ مُقَدِّمٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَلَا تُطِيعُ﴾ مَرَّتَبٌ بِالفَاءِ عَلَى مَا سَبَقَ، وَلَمَّا لَمْ يَصِحَّ أَنْ يَكُونَ مَرَّتَبًا عَلَيْهِ ظَاهِرًا انْتَزَعَ مِنْ مَفْهُومِ السَّابِقِ وَالتَّلَاحِقِ، وَهُوَ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ ﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾ مَعْنِيَيْنِ، وَجَعَلَهَا مَرَّتَبَيْنِ وَعَظَفَ «وَلَا تُطِيعُ» بِالْوَاوِ عَلَيْهَا، أَوْ لِتَرْكِ الطَّاعَةِ الدَّالُّ عَلَيْهِ «وَلَا تُطِيعُ»، يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَجِدُّونَ وَيَجْتَهِدُونَ فِي أَنْ تَمِيلَ إِلَيْهِمْ وَتَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمُ الباطلةَ لِتَوْهِينِ أَمْرِكَ فَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، وَجَاهِدْهُمْ بِتَرْكِ طَاعَتِهِمْ جِهَادًا كَبِيرًا.

وفي قوله: «وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ فِيمَا يُرِيدُونَكَ عَلَيْهِ» إشارةٌ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؛ لِأَنَّهُ إِنْكَارٌ عَلَى حِرْصِهِ عَلَى إِسْلَامِهِمْ وَتَهَالِكِهِ فِيهِ، حَيْثُ كَانَ يَبْدُلُ فِيهِ

(١) «مفاتيح الغيب» (٩٩: ٢٤).

وُسْعَهُ وَمَجْهُودَهُ، وَبَلَغَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ خَوِطَبَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ كِدْتُمْ تَرَكَنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، وبقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ وَإِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]، ولذلك قال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَقُولُونَ﴾ أي: اتحسب أنك إن أعطتهم فيما يريدونك عليه يَسْمَعُونَ قولك، أو يَعْقِلُونَ الآياتِ، وَيَشْكُرُونَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا. أَلَا تَرَى كَيْفَ عَفَلُوا عَنْ أَظْهَرِ الْأَشْيَاءِ دِلَالَةً وَهُوَ مَدُّ الظِّلِّ وَقَبْضُهُ، وَعَمَطُوا أَعْظَمَ النِّعَمِ كُفْرَانًا، وَهُوَ جَعْلُ اللَّيْلِ لِيَأْسَ لَهُمْ، وَالنَّهَارِ نُشُورًا، وَإِرْسَالُ الرِّيَّاحِ وَإِنزَالُ الْمَاءِ لِإِحْيَاءِ أَرْضِيهِمْ وَاسْتِقَاءِ مَوَاشِيهِمْ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَيْفَ تُطِيعُهُمْ فِيمَا يُرِيدُونَكَ، كَأَنَّكَ لَمْ تَسْتَقِلْ بِأَعْبَاءِ النَّذَارَةِ، وَلَوْ شِئْنَا لَحَقَّقْنَا عَنْكَ وَإِنَّمَا قَصَرْنَا الْأَمْرَ عَلَيْكَ تَفْضِيلًا لَكَ عَلَى سَائِرِ الرُّسُلِ، فَقَابِلْ ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَالْجِهَادِ الْكَبِيرِ، وَلَا تُطِيعُهُمْ فِيمَا يُرِيدُونَكَ عَلَيْهِ، وَجَاهِدْهُمْ بِالْقُرْآنِ جِهَادًا كَبِيرًا.

وَلَا بَدَّ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ، لَا مَا قِيلَ: إِنَّهَا تُدَلُّ عَلَى التَّأْدِيبِ وَعَلَى أَنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا مِثْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، لِأَنَّ الْفَاءَ لِلْسَّبِيَّةِ، وَالْأَمْرَ بِالْجِهَادِ الْمُؤَكَّدَ بِقَوْلِهِ: ﴿جِهَادًا﴾، وَوَصَفَهُ بِالْكَبِيرِ بَعْدَ النَّهْيِ عَنِ طَاعَةِ الْكُفْرَةِ مُوجِبٌ لِذَلِكَ؛ فَإِنَّ عِظَمَ السَّبَبِ يُدَلُّ عَلَى عِظَمِ الْمَسَبِّ وَعَكْسِيهِ، وَإِلَيْهِ يُنْظَرُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعثُ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ وَأَسْوَدٌ». الْحَدِيثُ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ (١).

وَيَعْضُدُهُ مَا ذَكَرْنَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ وَارْتِدُّ عَلَى تَنْجِجِ بَرَاعَةِ الْاسْتِهْلَالِ، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى: فَإِنَّ إِنزَالَ الْقُرْآنِ وَتَخْصِيصَهُ بِمَا يُدَلُّ عَلَى كَوْنِهِ فَارِقًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَكَوْنِ مَنْزِلِهِ مَعْظَمًا فِي ذَاتِهِ مَبَارَكًا فِي صِفَاتِهِ مُوجِبٌ لِأَنَّهُ لَا يَخْتَصُّ إِندَارُ رُسُولِهِ بِقَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ، بَلْ يَكُونُ لِلْعَالَمِينَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ نَذِيرًا، فَإِذَا الْمَعْنَى الَّذِي سَيَقَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ لَهُ: الْحَدِيثُ فِي الرُّسُولِ وَإِنذَارِهِ، وَبَقِيَّةُ الْمَعَانِي دَائِرَةٌ عَلَيْهِ، وَمِنْ ثَمَّ كَرَّرَ إِلَى ذِكْرِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ مِنْ دَلَائِلِ الْآفَاقِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٥) وَمُسْلِمٌ (٥٢١).

والمراد: أَنَّ الْكُفَّارَ يَجِدُونَ وَيَجْتَهِدُونَ فِي تَوْهِينِ أَمْرِكَ، فَقَابِلَهُمْ مِنْ جِدِّكَ وَاجْتَهِدْكَ وَعَضُّكَ عَلَى نَوَاجِذِكَ بِمَا تَغْلِبُهُمْ بِهِ وَتَعْلُوهُمْ. وَجَعَلَهُ جِهَادًا كَبِيرًا؛ لَمَا يَحْتَمِلُ فِيهِ مِنَ الْمَشَاقِّ الْعِظَامِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَرْجَعَ الضَّمِيرُ فِي ﴿بِهِ﴾ إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ مِنْ كَوْنِهِ نَذِيرَ كَافَّةِ الْقَرْيِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ بَعَثَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا لَوَجِبَتْ عَلَى كُلِّ نَذِيرٍ مُجَاهَدَةٌ قَرْيَتِهِ، فَاجْتَمَعَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تِلْكَ الْمُجَاهَدَاتُ كُلُّهَا، فَكَبُرَ جِهَادُهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَظُمَ، فَقَالَ لَهُ: ﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾ بِسَبَبِ كَوْنِكَ نَذِيرًا كَافَّةِ الْقَرْيِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾: جَامِعًا لِكُلِّ مُجَاهَدَةٍ.

[وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا] ﴿٥٣﴾

سَمَى الْمَائَيْنِ الْكَثِيرِينَ الْوَاسِعَيْنِ: بَحْرَيْنِ. وَالْفُرَاتِ: الْبَلِيغِ الْعُدُوبَةِ حَتَّى يَضْرِبَ

وَالْأَنْفُسَ قَاتِلًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾، ثُمَّ أَعَادَ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وَهَهُنَا نَكْتَةٌ شَرِيفَةٌ، وَهِيَ أَنَّهُ تَعَالَى لَهَا خَصٌّ ذَكَرَ النَّذِيرَ فِي الْفَاتِحَةِ أَمْسَكَ عَنْ ذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَحِينَ قَرَنَهُ بِالْبَشِيرِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَتَى بِذِكْرِ الْفَرِيقَيْنِ، أَعْنِي: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، لِتَكُونَ الْخَاتِمَةُ مُشْتَمِلَةً عَلَى ذِكْرِ الْأَوْلِيَاءِ فَلَا تَخْلُو السُّورَةُ مِنْ ذِكْرِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قَوْلُهُ: (وَعَضُّكَ عَلَى نَوَاجِذِكَ)، الْأَسَاسُ: وَمَنْ الْمَجَازِ: عَضَّ عَلَى نَاجِذِهِ: إِذَا بَلَغَ أَشَدَّهُ وَاسْتَحْكَمَ، وَعَضَّ فِي الْعِلْمِ وَغَيْرِهِ بِنَاجِذِهِ: إِذَا أَتَقَنَهُ. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: عَضَّ نَاجِذَهُ عَلَى كَذَا: جَدَّ فِيهِ مُسْتَنْفِدًا وَسُعَهُ: النَّوَاجِذُ: أَضْرَاسُ الْحُلْمِ، لِأَنَّهُ يُنْبُتُ بَعْدَ الْبُلُوغِ.

قَوْلُهُ: (فَقَالَ لَهُ: ﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾ بِسَبَبِ كَوْنِكَ نَذِيرًا كَافَّةِ الْقَرْيِ)، فِيهِ دِلَالَةٌ عَلَى عِظَمِ مَنَزِلَتِهِ، وَجَلَالَةِ قَدْرِهِ، قَالَ:

فَإِنَّ الْهَمُومَ بِقَدْرِ الْهَمَمِ

قَوْلُهُ: (وَالْفُرَاتِ: الْبَلِيغِ الْعُدُوبَةِ)، سُمِّيَ بِالْفُرَاتِ؛ لِأَنَّهُ يَفْرُتُ الْعَطَشَ، أَي: يَكْسِرُ

إلى الحلاوة. والأجاج: نقيضه. ومَرَجَهما: خَلَّاهما مُتجاوِرَين

به على القلب، كما سُمِّي نفاخاً لأنه يَنْفُخ العَطَسَ، والأجاجُ: كأنه من أجيح النار، وهو اضطرابه، أي: مَقُولاً فيها عَذْبُ فُراتٍ، وهذا مِلْحُ أجاجٍ، وفي هذه الآية حَذْفٌ كما ذَكَرنا آنفاً كما في قول أبي الدرداء: وَجَدْتُ النَّاسَ اخْبُرُ تَقْلَهُ^(١)، أي: مَقُولٌ فيهم هذا القول.

قوله: (وَمَرَجَهما: خَلَّاهما مُتجاوِرَين)، قال الزَّجَّاجُ: يقال: مَرَجْتُ الدَّابَّةَ وأَمَرَجْتُها: إذا خَلَّيْتها تَرَعَى، والمَرَجُ من هذا سُمِّي، ويقال: مَرَجْتُ عَهودَهُم وأماناتِهِم: إذا اِخْتَلَطَتْ وَفَسَدَتْ^(٢).

وقال ابن عباس: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾، أي: أرسَلهما في مَجاريهما كما تُرسلُ الحَيْلُ في المَرَجِ، وفي معناه: قولُ البَحْرَينِ يَصِفُ بَرَكَةَ^(٣):

تَنْصَبُ فِيها وَفودُ المِائِ مُعْجَلَةٌ كالحَيْلِ خارِجَةٌ مِنْ حَبْلِ مُجْرِيها^(٤)

الراغب: أصلُ المَرَجِ: الحَلْطُ، والمَرَجُ: الاختِلاطُ، يقال: مَرَجَ أمرُهُم، أي: اِخْتَلَطَ، وَمَرَجَ الخائِمُ في أَصْبُعِي فهو مارِجٌ، وأمرٌ مَرِيحٌ، أي: مُخْتَلِطٌ، قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ﴾ [الرحمن: ١٩]، مِنْ قولِهِم: مَرَجٌ. ويقالُ للأَرْضِ التي يَكثُرُ فيها النَّباتُ ومَرَجٌ فيها الدَّوابُّ: مَرَجٌ، وقولُهُ: ﴿مِنْ مَارِجٍ مِنْ نارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] أي: لِهيبٍ مُخْتَلِطٍ، وأَمَرَجْتُ الدَّابَّةَ في المَرَعَى^(٥): أرسَلْتُها فيه^(٦).

(١) مِنَ القَلْبِ وهو البُغْضُ، يريدُ أَنَّك إذا خَبَرْتَ النَّاسَ قَلْبَيْهِم وَكْرهَتَ مِعاشرَتِهِم. انظر: «مجمع الأمثال» (٢: ٣٦٣).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٧٢).

(٣) وهي بَرَكَةُ المتوكل الخليفة العباسي المشهور.

(٤) «ديوان البحري» (١: ٣٥).

(٥) في (ج) و(ف): «الرعي».

(٦) «مفردات القرآن» ص ٧٦٤.

متلاصقين، وهو بقدرته يفصلُ بينهما ويمنعهما التمازج. وهذا من عظيم اقتداره. وفي كلام بعضهم: وبحرانٍ أحدهما مع الآخر ممزوج، وما العذبُ منها بالأجاج ممزوج. ﴿بَرَزَخًا﴾: حائلاً من قدرته، كقوله عزَّ وعلا: ﴿بَغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوَنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، يريدُ: بغيرِ عمدٍ مرئية؛ وهو قدرته. وقرئ: (مَلِخٌ) على فَعَلٍ. وقيل: كأنه حُذِفَ من مالِحٍ تخفيفاً، كما قال:

قوله: (وَقَرِئَ: «مَلِخٌ»)، قال ابنُ جِنِّي: وهي قراءةٌ طلحةُ بنِ مُصَرِّفٍ، وأنكره أبو حاتم^(١). ويجوزُ أن يُرادَ به: مالِح، فحذَفَ الألفُ تخفيفاً كما ذكرنا قبلَ من قوله:

أصبحَ قلبي صَرِداً
لا يشتهي أن يَرِداً
إلا عَراداً عَرِداً
وصلياناً بَرِداً
وعنكناً مُلتَبِداً^(٢)

يريد: عارداً بارداً.

وقد أجاز ابنُ الأعرابي: «مالِح»، وأنشدوا:

بَصْرِيَّةٌ تزوجتُ بصرياً
يُطعمُها المالحَ والطَّرياً

وفي ما قرئَ على أحمدَ بنِ يحيى، فاعترفَ بصحته: سمكُ مالحٍ وماءُ مالحٍ، وإنما يقالُ: مملوِّحٌ ومليحٌ، هذا أفصحُ، والأوَّلُ يقالُ^(٣).

«صَرِداً»، صَرَدَ الرَّجُلُ - بالكسر - يَصْرُدُ صَرِداً ومُصْرَداً: يَجِدُ البَرْدَ سريعاً. والعَرادُ:

(١) يعني: السَّجِسْتَانِي.

(٢) في (ط): «ملتدا».

(٣) «المحتسب» (٢: ١٢٤-١٢٥).

وَصَلِيَانًا بَرْدًا

يريد: باردًا. فإن قلت: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ما معناه؟ قلت: هي الكلمة التي يقولها المتعوذ، وقد فسرناها، وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له: حجراً محجوراً، كما قال: ﴿لَا يَتَّبِعَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] أي: لا يتبعني أحدهما على صاحبه بالمجازة، فانتفاء البغي ثم كالتعوذ هاهنا،

تَبَّتْ. وَالصَّلِيَانُ: بَقْلَةٌ، وَهِيَ فِعْلِيَانٌ، الْوَاحِدَةُ صَلِيَانَةٌ. وَالْعِنَكْتُ أَيْضًا: تَبَّتْ. وَالتَّبَدَّتْ (١) الشَّجَرَةُ: كَثُرَ أَوْ رَاقَهَا.

وقال الشارح: زَعَمَتِ الْأَعْرَابُ فِي صَرْبِ أَمْثَالِهَا عَلَى لِسَانِ الْبَهَائِمِ. أَنَّ الضَّفْدَعِ كَانَ ذَا ذَنْبٍ، وَأَنَّ الضَّبَّ سَلَبَ ذَنْبِهِ، وَذَلِكَ أَتَمَّهَا خَاطِرًا فِي الظَّمِ أَيْهَا أَصْبَرُ، وَكَانَ الضَّبُّ مَمْسُوحَ الذَّنْبِ، فَخَرَجَا فِي الْكَلَالِ فَصَبَرَ الضَّبُّ يَوْمًا، فَناداهُ الضَّفْدَعُ: يَا صَبُّ وَرْدًا وَرْدًا، فَقَالَ الضَّبُّ: أَصْبَحَ قَلْبِي صَرْدًا، إِلَى آخِرِهِ، فَناداهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَأَجَابَهُ كَمَا أَجَابَهُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، فَلَمَّا كَانَ الثَّلَاثُ نَادَاهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، وَبَادَرَ الضَّفْدَعُ إِلَى الْمَاءِ، فَتَبِعَهُ الضَّبُّ وَأَخَذَ ذَنْبَهُ.

قوله: (وقد فسرناها) (٢)، أي: قلنا: في أول السورة، إن معناه سؤال الرجل من الله تعالى أن يمنع منه ما يخاف منه فيتعوذ منه قائلًا: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، كقول السامري: ﴿لَا مَسَاسَ﴾ [طه: ٩٧]، ومعلوم أن هذا الجعل يعني قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ لا يكون حقيقة، فقوله: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ كقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]، كما أن ﴿لَا يَتَّبِعَانِ﴾ هناك بمعنى: لا يتبعني أحدهما على صاحبه مجازاً؛ لأن إثبات البغي ونفيه لا يتصور إلا فيما يصح وصفه بالبغي، كذلك قول: حجراً محجوراً، لا يكون إلا فيما يصح منه القول.

(١) في (ط): «والتتدت».

(٢) في (ط): «فسرناه».

جُعِلَ كُلُّ واحدٍ منهما في صورة الباغي على صاحبه، فهو يتعوذ منه، وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة.

[وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾]

أراد: فقسم البشر قسمين: ذوي نسب، أي: ذكورا يُنسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان، وفلانة بنت فلان، وذوات صهر؛ أي: إنانا يُصاهر بهن، ونحوه قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ بَيْنَهُ الرِّزْقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ [القيامة: ٣٩]. ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ حيثُ خَلَقَ مِنَ النُّطْفَةِ الواحدة بَشَرًا نَوْعَيْنِ: ذَكَرًا وَأُنثَى.

قوله: (جُعِلَ كُلُّ واحدٍ)، شروع في بيان المجاز، ولما كان هذا المجاز استعارة، والاستعارة مسبوقة بالتشبيه، قال: «في صورة الباغي»، شبه البحرَين بطائفتين متقابلتين تُريد كُلُّ واحدةٍ منهما بغيَ صاحبتها ومضادتها، ثم إنها امتنعا من ذلك لمانع قوي ودافع مجبر، فكما يقال ثمة لا امتناع الاختلاط: إتما لا يبغيان، كذلك قيل هاهنا: لا يبغيان، فهو استعارة مصرحة تمثيلية، ثم بولغ فيها هاهنا، حيث جعل هذا المعنى المستعار كالمفوظ والمقول، كما قال: «كأن كل واحد من البحرَين يتعوذ من صاحبه»، فانقلبت المصرحة مكنية. ولا ارتياب أن الاستعارة كلما كانت أبعد من التشبيه وأوغل في التخيل^(١)، كانت أحسن، والمكنية أبعد من المصرحة، فكما أن التشبيه مقدمة للمصرحة، كذلك المصرحة مقدمة للمكنية؛ فإنك تقول أولاً: المنيّة سبع، ثم تدخل المشبه في جنس المشبه به في المصرحة، وإذا أردت المبالغة جعلت المشبه عين المشبه به في التخيل، ثم يتخيل له لازمه قائلاً: أياب المنيّة نشبت بفلان، كذلك هاهنا، جعل كل واحد من البحرَين بعد تشبيههما بطائفتين متقابلتين وإدخال المشبه في جنس المشبه به إدخالاً بليغاً في صورة الباغي على صاحبه، فهو يتعوذ منه، ولهذا قال: «وهي من أحسن الاستعارات».

قوله: (خَلَقَ مِنَ النُّطْفَةِ الواحدة بَشَرًا نَوْعَيْنِ)، «نوعين» بدل من «بشراً»؛ لأنه جنس،

(١) في (ط): «التخيل».

[﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿

[٥٥]

الظَّهِيرِ وَالْمُظَاهِرِ، كَالْعَوِينِ وَالْمُعَاوِنِ. وَفَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفَاعِلٌ غَيْرُ عَزِيزٍ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْكَافِرَ يُظَاهِرُ الشَّيْطَانَ عَلَى رَبِّهِ بِالْعَدَاوَةِ وَالشَّرْكِ. رُوي: أَنهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالظَّهِيرِ: الْجَمَاعَةَ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَلْمَلَيْتُكَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرًا﴾ [التَّحْرِيمِ: ٤]، كَمَا جَاءَ: الصَّدِيقُ وَالْحَلِيطُ. وَيُرِيدُ بِالْكَافِرِ: الْجِنْسَ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ مُظَاهِرٌ لِبَعْضٍ عَلَى إِطْفَاءِ نُورِ دِينِ اللَّهِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَكَانَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا الْفِعْلَ - وَهُوَ عِبَادَةٌ مَا لَا

ولذلك أفرَدَ الضَّمِيرَ فِي «جَعَلَهُ». قَالَ الْقَاضِي: ﴿بَشْرًا﴾: ذَا أَعْضَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَطِبَاعٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَجَعَلَهُ قَسَمَيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ^(١).

وَقُلْتُ: الْمَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشْرًا﴾ مُطْلَقٌ دَلَّ عَلَى شَائِعٍ فِي جِنْسِ الْمَاءِ، فَتَقْيِيدُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿بَشْرًا﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ النُّطْفَةُ الْوَاحِدَةُ، ثُمَّ تَقْسِيمُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ دَلَّ عَلَى نَوْعَيْنِ: ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَإِنَّمَا عَدَلَ عَنِ الذَّكْرِ وَالْأُنْثَى؛ لِیُؤْذِنَ بِالْإِنْشَاعِ نَصَبًا فَالْنُّطْفَةُ الْوَاحِدَةُ نُطْفَةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِذْنِ الْآيَةِ عَلَى وَزَانِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النِّسَاءُ: ١].

قَوْلُهُ: (وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالظَّهِيرِ: الْجَمَاعَةَ)، قَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ: «يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: هُمْ نَجِيٌّ، كَمَا قِيلَ: هُمْ صَدِيقٌ، لِأَنَّهُ بَرَزَتْهُ الْمَصَادِرُ»^(٢)، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: وَجِيفٌ وَوَجِيبٌ.

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَكَانَ الَّذِي يَفْعَلُ هَذَا الْفِعْلَ)، عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «إِنَّ الْكَافِرَ يُظَاهِرُ الشَّيْطَانَ»، وَالْجُمْلَةُ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ تَذْيِيلٌ لِمَا يَتَضَمَّنُ الْكَلَامَ السَّابِقَ مِنَ الْمَعْنَى، فَعِلَى الْأَوَّلِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إِنْجَابٌ عَنِ اسْتِعْظَامِ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِأَنَّ عَادَةَ الْكَافِرِ أَنْ يُظَاهِرَ الشَّيْطَانَ، وَعَلَى الثَّانِي، الْكَلَامُ نَعَى عَلَيْهِمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ، وَأَتَمَّ

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٢٤).

(٢) انظر: «الكشاف» (٨: ٤٠٧).

يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ - عَلَى رَبِّهِ هَيِّنًا مَهِينًا، مِنْ قَوْلِهِمْ: ظَهَرْتُ بِهِ؛ إِذَا خَلَفْتَهُ خَلْفَ ظَهْرِكَ لَا تَلْتَفْتُ إِلَيْهِ، وَهَذَا نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿أَوْلَيْتَكَ لَأَخْلُقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧].

[﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ٥٦-٥٧]

مثال ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾، - والمراد: إِلَّا فَعَلَ مَنْ شَاءَ - واستثنائه عن الأجر: قول

مَنْ لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِمْ، وَإِلَىٰ صَنِيعِهِمْ؛ لِأَتَمِّمْ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَفِيهِ شَائِبَةٌ مِنْ مَعْنَى الْإِنْكَارِ، ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْكَافِرَ عَلَىٰ رَبِّهِ «هَيِّنًا مَهِينًا».

قوله: (وهذا نحو قوله: ﴿أَوْلَيْتَكَ لَأَخْلُقَ لَهُمْ﴾) إلى قوله: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، يعني: نَحْوَ فِي إِرَادَةِ الْمَجَازِ عَنْ عَدَمِ الِاتِّفَاتِ دُونَ الْكِنَايَةِ. وَهُوَ عَلَىٰ مَذْهَبِهِ، لِأَنَّ نَفْيَ الرَّؤْيَةِ عَمَّنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ الرَّؤْيَةُ كِنَايَةٌ عَنْ عَدَمِ الْمُبَالَغَةِ عَمَّنْ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَجَازٌ. كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ إِذَا كَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ظَهَرْتُ بِهِ، إِذَا خَلَفْتَهُ خَلْفَ ظَهْرِكَ هُنَا: مَجَازٌ عَنْ عَدَمِ الِاتِّفَاتِ لَا كِنَايَةٌ كَمَا مَرَّ.

قوله: (- والمراد: إِلَّا فَعَلَ مَنْ شَاءَ - واستثنائه من الأجر)، «استثنائه»: مجرور، عطف تفسيري على قوله: «إِلَّا مَنْ شَاءَ» والاستثناء من باب قوله: ﴿لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٥٦]. قال صاحب «الفرائد»: يمكن أن يُقال: التقدير: إِلَّا مَالٌ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ: لِأَنَّ الْأَجْرَ هُنَا: الْمَالُ، وَالْمَعْنَى: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ تَبْلِيغِ الْوَحْيِ مَالًا، إِلَّا مَالٌ مَنْ يَتَّخِذُ بِإِنْفَاقِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا، أَي: يَتَّقَرَّبُ إِلَيْهِ، وَيَطْلُبُ الدَّرَجَةَ عِنْدَهُ، وَذَلِكَ الْمَالُ الْمَسْئُولُ لَهُ، لَا لِي.

وقلت: هذا المعنى لا يستقيم في قوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، فَوَجَبَ حَمْلُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ الْمَعْنَى، وَمَا ذَكَرَهُ أُشَارَ إِلَيْهِ الْمَصْنُفُ بِقَوْلِهِ: «وقيل: المراد التقرب بالصدقة».

ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال: ما أطلبُ منك ثواباً على ما سعيْتُ
 إلا أن تحفظَ هذا المَالَ ولا تُضيِّعه. فليس حفظُك المَالَ لنفسك من جنسِ الثواب،
 ولكن صَوْرَهُ هو بصُورةِ الثواب وسَمَاهُ باسمه، فأفادَ فائدَتَيْنِ؛ إحداهما: قَلْعُ شُبْهَةِ
 الطَّمَعِ في الثواب من أَصلِهِ، كأنه يقول لك: إن كان حفظُك للمالِك ثواباً فإني أطلبُ
 الثواب. والثانية: إظهارُ الشَّفَقَةِ البالغةِ وأنتَ إن حَفِظْتَ مالَكَ: اعتدَّ بحفظِكَ ثواباً
 ورضيَ به كما يرضى المُنَابُ بالثواب. ولَعَمْرِي إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كان مع المبعوثِ
 إليهم بهذا الصَّدِدِ وفوقه. ومعنى اتَّخَذَهُم إلى الله سبيلاً: تقرُّبُهُم إليه وطلَبُهُم عنده
 الزُّلْفَى بالإيمان والطاعة. وقيل: المرادُ التقرُّبُ بالصَّدَقَةِ والنفقة في سبيلِ الله.

[﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُدُوبَ عِبَادِهِ ۗ ﴾

خَيْرًا ﴿ ٥٨ ﴾

أمره بأن يَتَّقَ به وَيُسندَ أمره إليه في استِكفاءِ شُرورِهِم، مع التمسُّك بقاعدةِ
 التوكُّلِ وأساسِ الالتجاء؛ وهو طاعته وعبادته وتَنزِيهُهُ وتَحْمِيدُهُ، وعَرَفَهُ أَنَّ الْحَيَّ
 الذي لا يموت، حَقِيقٌ بأن يُتَوَكَّلَ عليه وحده ولا يُتَكَلَّ على غيره من الأحياء الذين

قوله: (اعتدَّ بحفظِكَ ثواباً)، من الاعتداد، وظنَّ «اعتدَّ» مخففاً^(١)، قيل: هو من العتيد:
 الحاضرِ المَهْيَأِ، وقد عتَدَهُ تعتيداً أو أعتدَّهُ إعتاداً، وفاعلُ «اعتدَّ» ضميرُ المَالِ، أي: إن حَفِظْتَ
 مالَكَ هي لك بسببِ حِفْظِكَ ثواباً، ومنفعته يوماً احتاج إليه، ويُروى: «اعتدَّ» و «رضي»
 معروفاً. وَالضَّمِيرُ للقاتلِ المشفقِ.

قوله: (وعَرَفَهُ أَنَّ الْحَيَّ الذي لا يموتُ حَقِيقٌ بأن يُتَوَكَّلَ عليه وحده)؛ لأنَّ أصلَ
 الكلام: تَوَكَّلْ عَلَيَّ، ثم: تَوَكَّلْ على الله، فَحَصَّ الْحَيَّ الذي لا يموتُ بِالذِّكْرِ؛ ليكونَ تعريضاً
 بأنَّ غيره لا يصحُّ أن يُتَوَكَّلَ عليه، أمَّا الأصنامُ فإتِّها أُمواتٌ لا يُكْفَى أمرٌ مَنْ يُتَوَكَّلَ عليها.

(١) قوله: «وظن اعتد مخففاً» سقط من (ط).

يَمُوتُونَ. وعن بعضِ السَّلَفِ: أنه قرأها فقال: لا يصحُّ لذي عقلٍ أن يثقَ بعدها بمخلوق. ثم أراه أن ليسَ إليه من أمرِ عباده شيءٌ، آمنوا أم كفروا، وأنه خيرٌ بأحوالهم كافٍ في جزاءِ أعمالهم.

[الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
الرَّحْمَنُ فَسْتَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾]

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: يعني في مدَّةٍ مقدارها هذه المدَّة؛ لأنه لم يكن حينئذٍ نهارٌ ولا ليل. وقيل: ستة أيام من أيام الآخرة، وكلُّ يوم ألف سنة. والظاهر أنها من أيام الدنيا. وعن مجاهدٍ: أولها يوم الأحد، وآخرها الجمعة. ووجهه: أن يسمِّي الله تعالى ملائكته

وأما الأحياء الذين يموتون؛ فإنهم إذا ماتوا ضاع المتوكِّل؛ ولهذا قال: «لا يصحُّ لذي عقلٍ أن يثقَ بعدها بمخلوق»، أو نقول: إن التركيبَ من بابِ ترتبِ الحكم على الوصفِ المناسب، وهو أن المتوكِّل إذا عَلِمَ أن المتوكَّل عليه دائمٌ باقٍ يعتمدُ عليه بشرائره^(١)، ولا يتورَّعُ خاطرُه إلى العيرِ، بخلافه إذا لم يكن كذلك، فإذا لا يصحُّ التوكُّلُ إلَّا على الحيِّ الذي لا يموت، وهو الله تعالى، فصَحَّ الحَضْرُ.

قوله: (ثم أراه أن ليسَ إليه من أمرِ عباده شيءٌ)، يعني أمرَ رسولِهِ ﷺ أولًا أن يفرضَ أمرَه إلى الحيِّ الذي لا يموت، ويستكفي به من شرورِ الأعداء، ثم أعلمه ثانياً بأنه كافٍ في دفعِ أعدائه يكافئهم فيما يحاولونه من العداوة، يعني: أن الله تعالى كافي أمورِك، وأمورِ أعدائك.

قوله: (ووجهه)، أي: وجهُ قولِ مجاهد، وذلك أن الأيامَ عبارةٌ عن حركاتِ الشمسِ في السَّمَوَاتِ، وقَبْلَ السَّمَوَاتِ لا أيام، فلا يُسمَّى بالأحدِ ولا بالجمعة، لكنَّ الله تعالى قدَّرَ المدَّةَ قَبْلَ السَّمَوَاتِ، ثم خَلَقَ السَّمَوَاتِ والشمسَ وأدارها عليها، ورتَّبَ أمرَ العالمِ على ما هو عليه في مقدارِ مدَّةٍ هي مدَّةُ ستَّةِ أيامٍ من أيام الدنيا، وسمَّى ملائكتِهِ الحاضرينَ تلكَ الأيامَ المقدَّرةَ بالأحدِ والاثنيْنَ والجمعة.

(١) وهي أطرافُ الشيء. والمرادُ به جمعُ القلبِ بالكليَّةِ على الله تعالى وعدمِ الالتفاتِ إلى الأغيار.

تلك الأيام المقدرة بهذه الأسماء، فلما خلق الشمس وأدارها وترتّب أمر العالم على ما هو عليه، جرّت التسمية على هذه الأيام. وأمّا الداعي إلى هذا العدد - أعني الستة دون سائر الأعداد - فلا نشك أنه داعي حكمة؛ لعلمنا أنه لا يُقدّر تقديراً إلا بداعي حكمة، وإن كنا لا نطلع عليه ولا نهتدي إلى معرفته. ومن ذلك: تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار تسعة عشر، وحملة العرش ثمانية، والشهور اثني عشر، والسموات سبعا، والأرض كذلك، والصلوات خمسا، وأعداد النُصب والحدود والكفارات،

قوله: (وحملة العرش ثمانية)، وعن بعضهم: حملة العرش أربعة. وزوي أنه صلوات الله عليه وسلامه لما سمع بيت أمية بن أبي الصلت يصف العرش:

رَجُلٌ وَتَوْرٌ عِنْدَ رِجْلِ يَمِينِهِ وَالنَّسْرُ أُخْرَى ثُمَّ لَيْثٌ مُرْصَدٌ^(١)

قال: «صدق^(٢)». هم اليوم أربعة^(٣)، ويضم إليهم أربعة أخرى يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَلَكِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] يسترزق كل لما يشبهه، والله أعلم بحقيقته. والذي ورد في المعتمد عن الترمذي وأبي داود وابن ماجه، عن العباس، عن رسول الله ﷺ في حديث طويل: «أن حملة العرش ثمانية أو عال^(٤)». وأشار إليه المصنّف في سورة الحاقة^(٥).

قوله: (وأعداد النُصب)، وهو جمع نصاب، أي: القدر الذي تجب فيه الزكاة.

(١) «ديوان أمية بن أبي الصلت» ص ١٨٥. ووقع في رواية «الديوان»: و«النسر لليسرى».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢٣١٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد ضعيف.

(٣) هذا ورد في حديث آخر، أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده» (١٠)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وإسناده ضعيف أيضاً.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٢) وأبو داود (٤٧٢٥) وابن ماجه (١٩٣) والبيزار (١٣١٠) وصححه الحاكم في «المستدرک» (٢: ٢٨٨) وتعقبه الذهبي بضعفه لأجل يحيى بن العلاء، وجهالة عبدالله بن عميرة.

قلت: الأوعال: تيبوس الجبال.

(٥) انظر: «الكشاف» (١٥: ٦١٩).

وغير ذلك. والإقرارُ بدواعي الحكمة في جميع أفعاله، وبأنَّ ما قدره حقٌّ وصوابٌ هو الإيمان، وقد نصَّ عليه في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزدادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١]، ثم قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وهو الجواب - أيضاً - في أن لم يخلقها في لحظة، وهو قادرٌ على ذلك. وعن سعيد بن جبیر: إنما خلقها في ستة أيام وهو يقدرُ على أن يخلقها في لحظة؛ تعليماً لخلق الرُفُق والثبُت. وقيل: اجتمع خلقها يوم الجمعة فجعله الله عيداً للمسلمين. ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ مُبتدأ، و ﴿الرَّحْمَنُ﴾ خبره؛ أو هو صفة لـ ﴿الْحَيِّ﴾ [الفرقان: ٥٨]، و ﴿الرَّحْمَنُ﴾: خبرٌ مبتدأٌ محذوف، أو بدلٌ عن المُستترِ في ﴿أَسْتَوَى﴾. وقرئ: (الرحمن) بالجرِّ صفة لـ ﴿الْحَيِّ﴾. وقرئ: ﴿فَسْتَلَّ﴾، والباء في ﴿بِهِ﴾ صلة «سَلَّ»، كقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] كما تكون «عن» صلته في نحو قوله: ﴿ثُمَّ لَنُنشِئَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]. ﴿فَسْتَلَّ بِهِ﴾؛ كقولك: اهتمَّ به، واعتنى به، واشتغلَّ به. وسأل عنه، كقولك: بحث عنه؛ وفشَّ عنه، ونقرَّ عنه. أو صلة ﴿خَيْرًا﴾، وتجعل ﴿خَيْرًا﴾ مفعول «سَلَّ»،

قوله: (اجتمع خلقها يوم الجمعة)، أي: تكامل خلقها. الأساس: رجلٌ مجتمِعٌ: استوت لحيته وبلغت غايةً شبايه.

قوله: (وقرئ: ﴿فَسْتَلَّ﴾)، كلُّهم إلا ابن كثير والكسائي^(١).

قوله: (كما تكون «عن» صلته)، قيل: الكاف في محلِّ النَّصْبِ على مصدرٍ ما دلَّ عليه قوله: «والباء في ﴿بِهِ﴾ صلة «سَلَّ»، كأنه قيل: يجوزُ كونُ الباءِ صلةً «سَلَّ» جوازاً مثل جوازِ كونِ «عن» صلته، و«ما» في «كما تكون» مصدريةٌ، والكاف بمعنى مثل، والمضاف محذوف، وإنما لم يقدرُ كوناً مثل كونِ «عن» صلته؛ لأنَّ كان الناقصة لا تنصبُ المصدرَ.

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» ص ٧٣.

تريدُ: فسئل عنه رجلاً عارفاً يُخبرُك برحمته. أو: فسئل رجلاً خبيراً به وبرحمته. أو: فسئل بسؤاله خبيراً؛ كقولك: رأيتُ به أسداً، أي: برؤيته، والمعنى: إن سألتَه وجدته خبيراً. أو تجعله حالاً عن الهاء، تريد: فسئل عنه عالماً بكل شيء. وقيل: الرحمن: اسمٌ من أسماء الله.....

قوله: (أو: فسئل بسؤاله خبيراً)، عطفٌ على قوله: «فسئل عنه»، وفي الكلام لفٌ ونشُرٌ من غير ترتيب: فالمثالان الأولان نشُرٌ لقوله: «أو صلةٌ ﴿خَبيراً﴾»، وبقية الأمثلة نشُرٌ لقوله: «صلةٌ (سئل)»، ولا يستقيم على هذا أن يتعلّق الباء بـ ﴿خَبيراً﴾، لأنه على منوالِ رأيتُ به أسداً، وهو من باب التجريد، إذ التقدير: فسئل بسؤالِ الله خبيراً، وهو الخبيرُ نفسه عزَّ وجلَّ.

قال السجاوندي: «فسئل به خبيراً» نحو قولك في الشجاع إذا لقيته: لقيتُ به كيثاً هَضُوماً، وفي الجواد: إذا سألتَه: سألتُ به الغيث، فلا حاجة إلى تقدير سؤالك إياه لفظاً وإن فهم ذلك معنى، ولا إلى جعل الباء قائماً مقام «عن» وإن ورد في قول الشاعر:

فإن تسألوني بالنساءِ فإنني خبيرٌ بأدواءِ النساءِ طيبٌ^(١)

أي: عن النساء، وعلى تقدير «عن» يجوز أن يراد بالخبير: ابنُ سلام^(٢)، أي: عارفاً بصفته يُخبرُك عن جلاله قدره.

قوله: (وقيل: الرحمن: اسمٌ من أسماء الله تعالى)، عطفٌ على قوله: «فسئل بسؤاله»؛ لأنه مثله في تعلّق الجار بالفعل، و﴿خَبيراً﴾: مفعولٌ «سل»، وخبيراً على الوجهين الأولين: يجوزُ أن يراد به كلُّ من هو متّصفٌ بصفة الخبرة، لما قال تارة: رجلاً عارفاً، وأخرى: رجلاً خبيراً، والضميرُ في ﴿بِهِ﴾ للرحمن على تقدير مضاف، وعلى الثالث والرابع:

(١) سبق تخريجه.

(٢) يعني عبدالله بن سلام رضي الله عنه، كان من أحبار اليهود وعلماهم، ثم أسلم وحسن إسلامه، وبشّره النبي ﷺ بالجنة.

الضَّمِيرُ اللهُ تعالى، والخَبِيرُ هُوَ اللهُ تعالى، وَعَلَى الْوَجْهِ الْأَخِيرِ الْمُرَادُ بِالْخَبِيرِ: عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ، وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى لَفْظِ ﴿الرَّحْمَنُ﴾، وَالْوَجْهُ أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُ: ﴿فَسَتَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ عَلَى مَعْنَى التَّجْرِيدِ، وَأَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ اللهُ، لِيَكُونَ كَالْتَّمِيمِ لِمَعْنَى الْعِلْمِ الَّذِي يُعْطِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الرَّحْمَنُ﴾، كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَكَفَى بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ تَمِيمٌ لِمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾.

بيان الأول ما رَوَى الإمامُ عن الكَلْبِيِّ: أَنَّهُ قَالَ: فَسَلَّ الْخَبِيرَ بِذَلِكَ، يَعْنِي: بِمَا ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْإِسْتِوَاءِ فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ^(١).

وقال محيي السنة: أيها الإنسان، لا تَرَجِعْ فِي طَلْبِ الْعِلْمِ بِهَذَا إِلَى غَيْرِي^(٢).

وبيان الثاني هُوَ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَكَفَى بِهِ يَذُنُوبَ عِبَادِهِ خَيْرًا﴾ وَعِيدٌ لِأَعْدَائِهِ، وَوَعْدٌ بِإِنْتِصَارِهِ مِنْهُمْ، فَيَكُونُ مُؤَكِّدًا لِلْأَمْرِ بِالتَّوَكُّلِ، وَنَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَتَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ قَوْلُهُمْ: «عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ»، فِي تَوْكِيدِ أَمْرٍ يُجَبَّرُ بِهِ، وَتَصَدِيقِ الْمُخْبِرِ.

رَوَى الْمِيدَانِيُّ: أَنَّ الْمَثَلَ لِمَالِكِ بْنِ جُبَيْرِ الْعَامِرِيِّ، وَتَمَثَّلَ بِهِ الْفَرَزْدَقُ لِلْحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حِينَ أَقْبَلَ يَرِيدُ الْعِرَاقَ فَلَقِيَهُ وَهُوَ يَرِيدُ الْحِجَازَ، فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: «عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ»؛ قَلُوبُ النَّاسِ مَعَكَ، وَسَيُفْهِمُ مَعَ بَنِي أُمِّيَّةَ، وَالْأَمْرُ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَ الْحُسَيْنُ: صَدَقْتَنِي^(٣).

المعنى: تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ لَا سِوَا فِي أَذَى قَوْمِكَ، وَمَا نَالَكَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ وَعِنَادِهِمْ؛ فَإِنَّ اللهُ تَعَالَى خَبِيرٌ بِأَحْوَالِهِمْ، كَافٍ فِي جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ، وَتَوَكَّلْ عَلَى الْمَدْبُرِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَهُوَ الرَّحْمَنُ الَّذِي مِنْهُ

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٠٥) باختلاف ملحوظ في النقل. ولتمام الفائدة انظر: «الوسيط» للواحدى (٣: ٣٤٤).

(٢) «معالم التنزيل» (٦: ٩١).

(٣) انظر: «مجمع الأمثال» (٢: ٢٤).

مذكور في الكتب المتقدمة، ولم يكونوا يَعْرِفُونَهُ؛ فقليل: فسَلَّ بهذا الاسم مَنْ يُخْبِرُكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، حتى تعرفَ مَنْ يُنْكِرُهُ. وَمِنْ ثَمَّ كَانُوا يَقُولُونَ: مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا الَّذِي بِالْيَمَامَةِ، يَعْنُونَ مُسَيْلِمَةَ، وكان يقال له: رَحْمَنُ الْيَمَامَةِ.

[﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ ﴿٦٠﴾]

﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ يجوزُ أن يكون سُؤْلاً عن المسمَّى به؛ لأنهم ما كانوا يَعْرِفُونَهُ بهذا

الاسم،

جلائلِ النَّعَمِ، وبِيَدِهِ أَرْزَمَةُ أُمُورِكِ، وَمَلَكَوَتْ كُلَّ شَيْءٍ، فاعلَمَ ذلكَ علماً يقيناً وَنَصّاً مِنْ اللَّهِ لَا رَيْبَ فِيهِ، فَإِنَّ مَنْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِذَا قِيلَ لَهُ: اخْضَعْ لِلرَّحْمَنِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ، قَالَ: ﴿﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾﴾ هذا التفسيرُ مبنيٌّ على قولِ المصنِّف: «الَّذِي خَلَقَ صِفَةَ لِلْحَيِّ، وَالرَّحْمَنُ: خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ».

قال الإمام: ﴿﴿الَّذِي خَلَقَ﴾﴾ متَّصِلٌ بقوله: ﴿﴿الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾﴾ لأنه تعالى لَمَّا كَانَ خَالِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا كَانَ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ وُجُوهِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ سَائِرِ الْمَضَارِّ، وَأَنَّ النَّعَمَ كُلَّهَا مِنْ جِهَتِهِ، فَحِينَئِذٍ لَا يَجُوزُ التَّوَكُّلُ إِلَّا عَلَيْهِ^(١).

قوله: «اسمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى»، قال الزَّجَّاجُ: اسْمُ «الرَّحْمَنِ» مَذْكُورٌ فِي كِتَابِ الْأَوَّلِينَ. وَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى، وَمَعْنَاهُ: ذُو الرَّحْمَةِ الَّتِي لَا غَايَةَ بَعْدَهَا فِي الرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّ فَعْلَانَ بِنَاءَ الْمَبَالِغَةِ، تَقُولُ: رَجُلٌ رَيَّانٌ وَعَطْشَانٌ؛ إِذَا كَانَ فِي النَّهَائِيَةِ مِنَ الرَّيِّ، وَكَذَلِكَ فَرِحَانٌ وَجَدْلَانٌ^(٢). وَقَالَ ثَعْلَبٌ: إِنَّهُ عَبْرَانِيٌّ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ «رَحْمَنٌ»، بِالْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ، إِذْ لَوْ كَانَ عَرَبِيًّا لَمَا أَنْكَرَتِ الْعَرَبُ وَقَدْ أَنْكَرُوهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾﴾، وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُشْتَقًّا مِنَ الرَّحْمَةِ لَمَا حَسُنَ تَقْدِيمُهُ عَلَى الرَّحِيمِ؛ لِأَنَّهُ أَشَدُّ مِبَالِغَةً مِنْهُ حِينَئِذٍ.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٠٣).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٧٣).

والسؤال عن المجهول بـ«ما». ويجوز أن يكون سؤالاً عن معناه؛ لأنه لم يكن مستعملاً في كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم. أو لأنهم أنكروا إطلاقه على الله تعالى. ﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: للذي تأمرنا به، بمعنى: تأمرنا بسجوده؛ على قوله:

أمرتُك الخيرَ

أو: لأمرِك لنا. وقرئ بالياء، كأن بعضهم قال لبعض: أنسجدُ لما يأمرنا محمدٌ ﷺ، أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو. وفي ﴿وَرَادَهُمْ﴾ ضميرٌ ﴿أَسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾؛ لأنه هو المقول.

[﴿نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ٦١]

البروج: منازل الكواكب السبعة السيارة: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت،

قوله: (والسؤال عن المجهول بـ«ما»)، كما تقول لشبح زُفَع لك عن بعيد لا تشعرُ به: ما هو؟ فإذا شعرت أنه إنسان، قلت: مَنْ هو؟

قوله: (﴿لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، أي: للذي تأمرنا به)، قال أبو البقاء: «ما» موصولة، أو نكرة موصوفة، أي: لِمَا تَأْمُرُنَا بالسجود له، ثم بسجوده ثم تأمرنا، هذا قول أبي الحسن، وعلى قول سيبويه حَدَفَتْ ذلك كله من غير تدرج^(١).

قوله: (وقرئ بالياء)، المعالم: حمزة والكسائي: بالياء، والآخران: بالتاء الفوقانية^(٢).

قوله: (لأنه هو المقول) مُعلِّله مقدر، يعني: وضع ﴿أَسْجُدُوا﴾ موضع قول: ﴿أَسْجُدُوا﴾، وجاز؛ لأنه هو المقول، وضعاً للمقول موضع القول، فالمعلل قولنا: جاز^(٣).

(١) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ٩٨٩).

(٢) «معالم التنزيل» (٦: ٩٢) وانظر توجيه ذلك في «حجّة القراءات» ص ٥١١.

(٣) من قوله: «قوله: لأنه هو المقول» إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

وسُمِّيت بالبُرُوج التي هي القصورُ العالية؛ لأنها لهذه الكواكبِ كالمنازلِ لسكَّانها. واشتقاقُ البُرُج من التبرُّج؛ لظهوره. والسَّراج: الشمسُ، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]. وقرئ: «سُرْجًا»؛ وهي: الشمسُ والكواكبُ الكبارُ معها. وقرأ الحسنُ والأعمشُ: (وقُمراً منيراً)؛ وهي جمعُ ليلةِ قَمَرَاءَ، كأنه: وذا قُمَرٍ مُنيراً؛ لأنَّ اللَّيالي تكون قُمراً بالقَمَرِ؛ فأضافه إليها. ونظيره في بقاء حُكْمِ المضاف بعد سُقوطه وقيامِ المضاف إليه مقامه قولُ حَسَّان:

بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ

يريد: ماء بَرَدَى، ولا يبعُدُ أن يكونَ القَمَرُ بمعنى القَمَرِ؛ كالرُّشْد والرَّشْد، والعُرْبُ والعَرَبُ.

[﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ٦٢]

قوله: (وقرئ: «سُرْجاً»)، بضمَّتَيْن: حمزةٌ والكسائيُّ، والباقون: بكسرِ السِّينِ وفتحِ الرَّاءِ وألفٍ بعدها^(١).

قوله: (وذا قُمَرٍ)، وهو عبارةٌ عن القمرِ، لأنَّ القمرَ صاحبُ اللَّيالي اللَّاتي يَكُنَّ قمرَاءَ بالقمرِ، فيرجعُ حاصلُ هذه القراءةِ إلى المشهورة.

قوله: (بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ)، أوَّلُه لحَسَّان:

يَسْتَقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ^(٢)

يريدُ: ماء بَرَدَى، وهو نَهْرُ دِمَشقَ. وَمِنْ ثَمَّ ذَكَرَ «يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ»، مَضَى شَرْحُه فِي أوَّلِ البقرة.

(١) وحبَّةٌ مَنْ قرأ بالإفرادِ والتوحيدِ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه. انتهى من «حبَّة القراءات» ص ٥١٢.

(٢) سبق تخريجه.

الخَلْفَةُ من خَلَفَ، كالرُّكْبَةِ من رَكِبَ؛ وهي الحالةُ التي يَخْلُفُ عليها اللَّيْلُ والنَّهَارُ كُلُّ واحدٍ منهما الآخرَ. والمعنى: جَعَلَهُمَا ذَوِي خِلْفَةٍ، أي: ذَوِي عُقْبَةٍ، أي: يَعْقُبُ هذا ذاكَ وذاك هذا. ويقال: اللَّيْلُ والنَّهَارُ يَخْتَلِفَانِ، كما يقال: يَعْتَقِبَانِ، ومنه قوله: ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ويقال: بفلانٍ خِلْفَةٌ واختِلافٌ؛ إذا اختلف كثيراً إلى مُتَبَرِّزِهِ.

قوله: (وهي الحالةُ التي يَخْلُفُ عليها اللَّيْلُ والنَّهَارُ كُلُّ واحدٍ منهما الآخرَ)، يريدُ أنْ ﴿خِلْفَةٌ﴾ مفردٌ لفظاً، ومتعدّدٌ معنىً. قال أبو البقاء: ﴿خِلْفَةٌ﴾: مفعولٌ ثانٍ أو حالٌ، وأفردَ لأنَّ المعنى: يَخْلُفُ أحدهما الآخرَ، فلا يَتَحَقَّقُ هذا إلاَّ منهما^(١).

قوله: (ذَوِي عُقْبَةٍ)، رُوِيَ بضمِّ العَيْنِ وكسْرِها. العُقْبَةُ بالضمِّ: النُّوبَةُ. تقول: تَمَّتْ عُقْبَتُكَ، ويقالُ: ما يَفْعَلُ ذلك إلاَّ عُقْبَةُ القَمَرِ، إذا كان يَفْعَلُهُ في كُلِّ شهرٍ مرةً.

قوله: (يَعْقُبُ هذا ذاكَ، وذاك هذا)، قال الزَّجَّاجُ: هذا قولُ أهلِ اللُّغَةِ، وأنشدوا الزُّهَيْرِ:

بها العَيْنُ والأَرَامُ يَمْشِيَنَّ خِلْفَةً وأُطْلَاؤُها يَنْهَضَنَّ مِنْ كُلِّ مَجْتَمِ

وجاء في التفسيرِ أيضاً: ﴿خِلْفَةٌ﴾: مختلفان^(٢)، قال الله تعالى: ﴿وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [آل عمران: ١٩٠]^(٣).

ورَوَى مُحِبِّي السُّنَةِ، عن مُجاهدٍ: يعني: جَعَلَ كُلُّ واحدٍ منهما مُخَالَفاً لصاحِبِهِ، فَجَعَلَ هذا أبيضَ وهذا أسود^(٤).

وقلتُ: وفي كلامِ الزَّجَّاجِ إشعارٌ بأنَّ قولَ مُجاهدٍ على خِلافِ اللُّغَةِ، ولهذا اعتدَرَ لَهُ المصنِّفُ بقوله: «ويقال: اللَّيْلُ والنَّهَارُ يَخْتَلِفَانِ، كما يقال: يَعْتَقِبَانِ»، إلى آخرِهِ.

(١) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ٩٩٠).

(٢) في الأصول الخطية: «مختلفات»، والمثبت من «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٧٤) وهو الأشبه بالصواب.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٧٤)، وانظر البيت في «ديوان زهير» ص ١٧.

(٤) «معالم التنزيل» (٦: ٩٣) وانظر: «جامع البيان» للطبري (١٧: ٤٨٦).

وَقُرِئَ: ﴿يَذْكُرَ﴾، و (يَذْكُرُ)، وعن أبي بن كعب: (يَتَذَكَّرُ). والمعنى: لينظر في اختلافها الناظر، فيعلم أن لا بدَّ لانتقالها من حالٍ إلى حالٍ وتغيُّرهما من ناقلٍ ومغيِّرٍ، ويستدلُّ بذلك على عِظَمِ قُدْرَتِهِ، وَيَشْكُرُ الشَّاكِرُ عَلَى النِّعْمَةِ فِيهِمَا مِنَ السُّكُونِ بِاللَّيْلِ

قوله: (وَقُرِئَ: ﴿يَذْكُرَ﴾ و «يَذْكُرُ»)، حمزة: «أَنْ يَذْكُرَ» بإسكانِ الدَّالِ وَضَمِّ الكافِ مُخَفَّفًا، وَالباقونَ: بفتحِهما مشدَّدَيْنِ^(١).

قوله: (وَيَشْكُرُ الشَّاكِرُ عَلَى النِّعْمَةِ فِيهِمَا)، عطفٌ على قوله: «لِيَنْظُرَ فِي اخْتِلَافِهَا النَّاظِرُ»، وفيه إشارةٌ إلى أَنَّ قوله: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ﴾ وقوله: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكْرًا﴾ نَشْرُ المعنى اللَّفِّ في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، فَإِنَّ مَجْرَدَ الْإِنْتِقَالِ وَالتَّغْيِيرِ يَدُلُّ عَلَى نَاقِلٍ وَمُغَيِّرٍ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَكَوْنُ ذَلِكَ الْإِنْتِقَالِ مُؤَدِّيًّا إِلَى النِّفْعِ الْعَظِيمِ يَدُلُّ عَلَى مُنْعَمٍ وَاسِعِ النِّعْمَةِ، وَهُمَا يَوْجِبَانِ الْمَعْرِفَةَ وَالْعِبَادَةَ، وَ«أَوْ» في قوله: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكْرًا﴾: لِلتَّخْيِيرِ وَالإِبَاحَةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩] عَلَى مَا مَرَّ، أَوْ لِلجَمْعِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿عَذْرًا أَوْ نَذْرًا﴾ [المرسلات: ٦]، وَمِنْ ثَمَّ أَتَى الْمُصَنِّفُ بِالوَاوِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، أَي: فِي لِيَنْظُرَ، وَيَشْكُرَ، وَفِي «وَقَتَيْنِ لِلْمَتَذَكِّرِينَ وَالشَّاكِرِينَ».

ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكْرًا﴾ تَعْرِيفٌ بِأَنَّ الَّذِينَ قَالُوا: وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا؟ أَمْ أَبَوَاتُ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ جُحُودًا وَعِنَادًا، وَامْتَنَعُوا عَنِ الشُّكْرِ لِأَلَانِهِ عُنُوتًا وَاسْتِكْبَارًا، وَتَصْرِيحٌ بِأَنَّ الَّذِينَ تَوَسَّمُوا بِعِبَادِ الرَّحْمَنِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ لِيُقَابِلَ قَوْلَهُمْ: ﴿أَنْسَجِدُ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾. قَالَ الْإِمَامُ: إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا حَكَى عَنِ الْكُفَّارِ مَزِيدَ النَّفْرِ ذَكَرَ بَعْدَهُ مَا لَوْ تَفَكَّرُوا فِيهِ لَعَرَفُوا وَجُوبَ السُّجُودِ وَالْعِبَادَةِ، فَقَالَ: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ يَعْنِي: أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ مَا تَفَكَّرُوا فِي هَذِهِ الْقُدْرَةِ، وَمَا شَكَرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ^(٢).

(١) وَحِجَّةٌ مَنْ قَرَأَ بِالتَّشْدِيدِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩] وَالْمَعْنَى هُوَ مَا ذَكَرَهُ

الزَّمَخْشَرِيُّ. انظُرْ: «حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» ص ٥١٣.

(٢) «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ» (٢٤: ١٠٦-١٠٧).

والتصرف بالنهار، كما قال عزّ وعلا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]؛ أو ليكونا وقتين للمتدكرين والشاكرين، من فاته في أحدهما وردّه من العبادة قام به في الآخر. وعن الحسن رحمه الله: من فاته عمله من التذكّر والشكر بالنهار كان له في الليل مُستعتب، ومن فاته بالليل كان له في النهار مُستعتب.

[﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ ٦٣]

قوله: (أو ليكونا وقتين)، عطف من حيث المعنى على جملة قوله: «لِيَنْظُرُوا فِي اخْتِلَافِهَا». قوله: (من فاته في أحدهما وردّه ... قام به في الآخر)، رَوينا عن الشيخين وغيرهما، عن أنس: «إِذَا رَقَدَ أَحَدُكُمْ عَنِ الصَّلَاةِ أَوْ غَفَلَ عَنْهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]»^(١).

قوله: (كان له في الليل مُستعتب)، الجوهرى: عَبَّ عَلَيْهِ، أَي: وَجَدَ عَلَيْهِ، قَالَ الْخَلِيلُ: الْإِعْتَابُ: مَخَاطَبَةُ الْإِدْلَالِ، وَمُذَاكِرَةُ الْمَوْجِدَةِ، وَقِيلَ: الْإِعْتَابُ: إِزَالَةُ الْعَتَبِ، وَهَمْزُهُ لِلسَّلْبِ، وَالْإِعْتَابُ بِمَعْنَى الرِّضَا، وَالِاسْتِعْتَابُ: طَلَبُ الْإِعْتَابِ.

النهائية: اسْتَعْتَبَ: طَلَبَ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ، كَمَا تَقُولُ: اسْتَرْضَيْتُ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزِدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتَبُ»^(٢) أَي: يَرْجِعُ عَنِ الْإِسَاءَةِ، وَيَطْلُبُ الرِّضَا، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: «وَلَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ»^(٣)، أَي: لَيْسَ بَعْدَهُ اسْتِرْضَاءٌ.

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧) ومسلم (٦٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) هو جزء من حديث أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٠٩٧) وابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (١٨٨) من حديث الحسن البصري عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، وفي سنده انقطاع، وبه أعله الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٣: ١٦٥) وزاد: ذكره ابن المبارك في كتاب «الزهدة» بلاغاً. وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يُجَرِّجْهُ ولده في «مسند الفردوس».

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ مبتدأ خبره في آخر السورة، كأنه قيل: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ﴾ هذه صفاتهم ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥]. ويجوز أن يكون خبره ﴿الَّذِينَ يَمْسُونَ﴾. وأضافهم إلى الرحمن تخصيصاً وتفضيلاً. وقرئ: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ)، وقرئ: «يُمْسُونَ». ﴿هَوْنًا﴾ حال، أو صفةٌ للمشي، بمعنى: هيين، أو: مَشِيًا هِينًا؛ إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة. والهون: الرفق واللين، ومنه الحديث: «أحبب حبيبك هوناً ما».....

قوله: (وأضافهم إلى الرحمن تخصيصاً)، فيكون تعريضاً بالذين قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، فعل هذا المختار أن يكون «عباد الرحمن»: مبتدأ، و﴿الَّذِينَ يَمْسُونَ﴾ وما عطف عليه: خبراً ليقابل الاستكبار، والامتناع عن السجود.

قوله: (وقرئ: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ»)^(١)، العباد: من العبادة، وهو أن يفعل ما يرضاه الرب، والعباد: من العبادة، وهو أن يرضى ما يفعله الرب^(٢).

قوله: (إلا أن في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة)، فيه إيحاء إلى أن جعله حالاً أو وقع من جعله وصفاً؛ لأن المبالغة على الحال راجع إلى ذواتهم، وفي الوصف إلى حالهم؛ لأن الأصل في الحال أن يقال: يمسون على الأرض هيين، فوضع موضعه هوناً.

قوله: (ومنه الحديث: «أحبب حبيبك هوناً ما»)، تمامه: «عسى أن يكون بغيصك يوماً ما، وأبغض بغيصك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»^(٣)، أي: لا تفرط في حبه

(١) بضم العين وتشديد الباء، هكذا ضبطت في (ط)، وعن قرأها البياني، كما في «مختصر شواذ القرآن» ص ١٠٥.

(٢) هذا التفسير على قراءة: «وَعِبَادُ» بضم العين وتخفيف الباء، من العبادة وهي مُصْطَلَحٌ مُحدثٌ من ألفاظ الصوفية وأهل العرفان، ولا إخال الزمخشري قد قصد الإشارة إليها.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢١) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٦٨) من حديث علي بن أبي طالب، وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه الترمذي (١٩٩٧) والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٤٣) و«المعجم الأوسط» (٣٣٩٥).

وقوله: «المؤمنون هينون لينون»، والمثل: «إذا عَزَّ أخوك فهُنَّ»، ومعناه: إذا عاسَرَ فياسِرُ. والمعنى: أنهم يمشون بسكينة ووقارٍ وتواضع، لا يضرُّون بأقدامهم ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً؛ ولذلك كره بعض العلماء الركوب في الأسواق، ولقوله: ﴿وَيَكْشُوبُ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وبُغِضه، وارتُق في كل ذلك. مذكورٌ في «أخبار الشهاب»^(١)، والشيخ أبو الفضائل الصَّغَانِيُّ جعله من الموضوعات في «كشف الحجاب»، وفي «الدر الملتقط»^(٢).

قوله: (المؤمنون هينون لينون)، روى الإمام أحمد بن حنبل في «مسنده»، عن ابن مسعود: حُرِّمَ على النارِ كلُّ هينٍ لينٍ، سهلٍ قريبٍ من الناس^(٣).

قوله: (إذا عَزَّ أخوك فهُنَّ)، قال الميداني: قال أبو عبيد: معناه: مياسرتك صديقك ليست بضم ركبك منه فيدخلك الحمية به، إنما هو حسن خلقٍ وتفضل، فإذا عاسرك فياسره. قال المفضل: المثل لهذيل بن هبيرة الثعلبي، وكان أغار على بني صبة، فغنم فأقبل بالغنائم فقال له أصحابه: اقسمها بيننا، فقال: إني أخاف أن تشاغلتم بالاقتسام أن يدرِّكم الطلب، فأبوا، فقال: إذا عَزَّ أخوك فهُنَّ^(٤).

قوله: (ولقوله: ﴿وَيَكْشُوبُ فِي الْأَسْوَاقِ﴾)، يعني: لأجل ما وصف الله تعالى العباد بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، ووصف الرسل بقوله: ﴿وَيَكْشُوبُ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ كره بعض العلماء الركوب في الأسواق، أوقع المعلل بين العلتين.

(١) يعني «مسند الشهاب» للقضاعي (٦٩٠).

(٢) قوله: «وفي الدر الملتقط» سقط من (ح) و(ف).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣٩٣٨) والترمذي (٢٤٨٨) وأبو يعلى في «المسند» (٥٠٥٣) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٥٦٢) وصححه ابن حبان (٤٦٩) وهو حديث حسن بشواهده. انظر تمام تنقيده ونخرجه في التعليق على «مسند أحمد».

(٤) «مجمع الأمثال» (١: ٢٢-٢٣).

﴿سَلِّمًا﴾: تسلّمًا منكم لا تُجاهلُكم، ومُتاركةً، لا خيرَ بيننا ولا شرًّا، أي: نتسلّم منكم تسلّمًا، فأقيمَ السلامُ مقامَ التسلّم. وقيل: قالوا سدادًا من القولِ يسلمون فيه من الإيذاء والإثم. والمرادُ بالجهل: السّفه وقلةُ الأدب وسوء الرّعة، من قوله:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وعن أبي العالِيّة: نسختها آية القتال. ولا حاجة إلى ذلك؛ لأنّ الإغضاء عن السّفهاء وتركُ المقابلة مُستحسنٌ في الأدب والمروءة والشريعة، وأسلمٌ للعرض والورع.

[﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ ٦٤]

البيّتوتة: خلافُ الظّلول؛ وهو أن يدركك الليل، نيمتَ أو لم تنم. وقالوا: من

قوله: (تسلّمًا منكم لا تُجاهلُكم)، روى صاحبُ «المطلع» عن الزّجاج وأبي عليّ: تتسلّم منكم تسلّمًا، أي: لا تُجاهلُكم ولا نلتبسُ بشيءٍ من أمرِكُم، وهو الجهلُ^(١). وقلتُ: هو معنى قوله: «ومتاركةً لا خيرَ بيننا ولا شرًّا».

قوله: (سدادًا من القول)، وهو قولُ مقاتلِ بن حَيّان^(٢)، أي: قالوا قولًا يسلمون فيه من الإثم. قالوا: هذا ليس بسديد؛ لأنّ المراد: أنهم يقولون هذه اللفظة لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنَعِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]. قال الحريريُّ في «درة العوّاص»: السّدادُ، بالفتح: القصدُ في الدّين والسّبيل، والسّدادُ بالكسر: البُلغة، وكلُّ ما سدّدتَ به شيئًا^(٣).

قوله: (وسوء الرّعة)، الجوهرِي: قد ورعَ يرعُ بالكسرِ فيها ورعًا ورعةً. يقال: فلانٌ سيئُ الرّعة، أي: قليلُ الورع.

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٤: ٧٤).

(٢) ذكره الطبري في «جامع البيان» (١٧: ٤٩٣) والواحدي في «الوسيط» (٣: ٣٤٥).

(٣) «درة العوّاص» ص ١٢٥.

قرأ شيئاً من القرآن في صَلَاتِهِ وَإِنْ قَلَّ فَقَدْ بَاتَ سَاجِداً وَقَائِماً. وقيل: هما الرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْمَغْرَبِ وَالرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الْعِشَاءِ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ وَصِفٌ لَهُمْ بِأَحْيَاءِ اللَّيْلِ أَوْ أَكْثَرِهِ. يُقَالُ: فَلَانٌ يَظُلُّ صَائِماً وَيَبِيتُ قَائِماً.

[﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾ ٦٥-٦٦]

﴿غَرَاماً﴾: هَلَاكاً وَخُسْرَاناً مُلِحِحاً لَازِماً. قَالَ:

وَيَوْمَ النَّسَارِ وَيَوْمَ الْجِفَا
رِ كَانَا عَذَاباً وَكَانَا غَرَامَا

وقال:

إِنْ يُعَاقَبُ يَكُنْ غَرَاماً وَإِنْ يُعْطَى
طِ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي

قوله: ﴿غَرَاماً﴾ هَلَاكاً وَخُسْرَاناً مُلِحِحاً، الرَّاعِبُ: الْغَرْمُ: مَا يَنْوِبُ الْإِنْسَانَ فِي مَالِهِ مِنْ ضَرَرٍ بغيرِ جِنَايَةٍ مِنْهُ. يُقَالُ: غَرِمَ كَذَا غُرْمًا وَمَغْرَمًا، وَأُغْرِمَ فَلَانٌ غَرَامَةً، وَالغَرِيمُ يُقَالُ لِمَنْ لَهُ الدَّيْنُ وَلَمْ يَنْ عَلَيْهِ الدَّيْنُ. وَالغَرَامُ: مَا يَنْوِبُ الْإِنْسَانَ مِنْ شِدَّةٍ وَمُصِيبَةٍ. وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الْغَرَامُ: الشَّرُّ الدَائِمُ، وَالْعَذَابُ^(١).

قوله: (يَوْمَ النَّسَارِ وَيَوْمَ الْجِفَارِ)^(٢)، الْجَوْهَرِيُّ: النَّسَارُ، بِكسْرِ النَّونِ: مَاءٌ لِبَنِي عَامِرٍ، وَيَوْمَ نِسَارٍ لِبَنِي أَسِيدٍ وَذُبْيَانَ عَلَى بَنِي جُشَمَ بْنِ مُعَاوِيَةَ. وَقَالَ: الْجِفَارُ أَيْضاً: مَاءٌ لِبَنِي تَمِيمٍ بَنَجْدٍ، وَمِنْهُ: يَوْمَ الْجِفَارِ، وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ^(٣).

قوله: (إِنْ يُعَاقَبُ) الْبَيْتُ^(٤)، لَا يُبَالِي: أَي: لَا يَكْتَرُثُ بِقَوْلِ إِنْ يُعَاقَبُ الْأَعْدَاءُ يَكُنْ غَرَاماً، وَإِنْ يُعْطَى الْأَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي بِإِعْطَائِهِ الْكَثِيرَ.

(١) «مفردات القرآن» ص ٦٠٦.

(٢) البيت لبشير بن أبي خازم في «ديوانه» ص ١٩٠.

(٣) هذه الفقرة سقطت من (ط).

(٤) للأعشى في «ديوانه» ص ١٦٧.

ومنه: الغريم؛ لإلحاحه ولزأمه. وَصَفَهُمْ بِإِحْيَاءِ اللَّيْلِ سَاجِدِينَ وَقَائِمِينَ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بِذِكْرِ دَعْوَتِهِمْ هَذِهِ؛ إِيدَانًا بِأَنَّهُمْ مَعَ اجْتِهَادِهِمْ خَائِفُونَ مُبْتَهَلُونَ إِلَى اللَّهِ فِي صَرْفِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتًا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].
 ﴿سَاءَتْ﴾ فِي حُكْمِ «بِئْسَتْ»، وَفِيهَا ضَمِيرٌ مُبْهَمٌ يَفْسِّرُهُ «مُسْتَقْرًا»، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، مَعْنَاهُ: سَاءَتْ مُسْتَقْرًا وَمَقَامًا هِيَ. وَهَذَا الضَّمِيرُ هُوَ الَّذِي رَبَطَ الْجُمْلَةَ بِاسْمِ «إِنْ» وَجَعَلَهَا خَبْرًا لَهَا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿سَاءَتْ﴾ بِمَعْنَى: أَحْزَنْتُ. وَفِيهَا ضَمِيرٌ اسْمِ «إِنْ». وَ﴿مُسْتَقْرًا﴾ حَالٌ أَوْ تَمْيِيزٌ، وَالتَّعْلِيلَانِ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَا مُتَدَاخِلَيْنِ وَمُتْرَادِفَيْنِ، وَأَنْ يَكُونَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَحِكَايَةً لِقَوْلِهِمْ.

قوله: (ساءت مستقرًا ومقامًا هي)، قال صاحب «المطلع»: فإن قيل: كيف ذكّر المفسّر والمفسّر مؤنث؟ قلت: لما أنّ المفسّر بمعنى الدار والمنزلة، وجب تأويل المفسّر به، كأنه قيل: ساءت الدار أو المنزلة داراً أو منزلةً، وإتيا وجب تأنيته نظراً إلى المخصوص بالذم كما نظّر ذو الرمة في الزورق إلى تأويل السفينة، حيث كان المخصوص بالمدح مؤنثاً في قوله:

أَوْ حَرَّةٌ عَيْطَلٌ تَبْجَاءُ مَجْفَرَةٌ دَعَائِمُ الزُّورِ نَعْمَتُ زُورُقِ الْبَلَدِ^(١)

الحرّة: الناقة الكريمة، والعَيْطَلُ: الطويلة العنق. التَّبْجُ: شديد التَّبْجِ، وَهُوَ الظَّهْرُ، وَقِيلَ: مَا بَيْنَ الْكَاهِلِ إِلَى الظَّهْرِ، وَالْمَجْفَرَةُ: الشديدة الجفرة وهي الوَسَطُ، وَالزُّورُ: أَعْلَى الصَّدْرِ.

قوله: (وفيها ضمير اسم «إن»)، وقال صاحب «المطلع»: والتأنيث لاسم «إن»، وهي جهنم، لأنه ضميرها.

قوله: (يصح أن يكونا متداخِلين)، أي: يكون قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا﴾ تعليلاً لقوله: ﴿أَصْرَفَ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ﴾ تعليلاً لقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ﴾

(١) «ديوان ذي الرمة» ص ٢٠٣.

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [٦٧]

قُرئ: ﴿ يَقْتُرُوا ﴾ بكسر التاء وضمها، و: (يُقْتَرُوا) بتخفيف التاء وتشديدها. والقتر والإقتار والتقتير: التضييق الذي هو نقيض الإسراف. والإسراف: مجاوزة الحد في النفقة. وصفهم بالقصد الذي هو بين الغلو والتقصير، وبمثله أمر رسول الله ﷺ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقيل: الإسراف إنما هو الإنفاق في المعاصي، فأما في القرب فلا إسراف. وسمع رجل رجلاً يقول: لا خير في الإسراف. فقال: لا إسراف في الخير. وعن عمر بن عبد العزيز: أبه شكر عبد الملك بن مروان حين زوجه ابنته وأحسن إليه، فقال: وصلت الرحم وفعلت وصنعت، وجاء بكلام حسن، فقال ابن لعبد الملك: إنما هو كلام أعدّه لهذا المقام، فسكت عبد الملك، فلما كان بعد أيام دخل عليه والابن حاضر، فسأله عن

غراماً، وكونها مترادفتين أن يكونا تعليلين لقوله: ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾، قال الإمام: كلاهما يمكن أن يكون ابتداء كلام الله، ويمكن أن يكون حكاية لقولهم، فقوله: ﴿ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ إشارة إلى كونها مضرّة خالصة عن شوائب النفع.

وقوله: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقْرَأًا وَمَقَامًا ﴾ إشارة إلى كونها دائمة، والفرق بين المستقر والمقام فإن المستقر للعصاة من أهل الإيمان، فإنهم يستقرون فيها ولا يقيمون، والإقامة للكفار^(١).

قوله: قُرئ: ﴿ يَقْتُرُوا ﴾، بكسر التاء وضمها، نافع وابن عامر: «ولم يُقْتَرُوا» بضم الياء وكسر التاء، من الإقتار، وابن كثير وأبو عمرو: بفتح الياء وكسر التاء، والباقون: بفتح الياء وضم التاء^(٢).

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٠٩).

(٢) انظر توجيه هذه الاختيارات في «حجّة القراءات» ص ٥١٣-٥١٤.

نَفَقَتِهِ وأحواله، فقال: الحَسَنَةُ بين السَّيِّئَتَيْنِ، فعرف عبدُ الملك أنه أراد ما في هذه الآية، فقال لابنه: يا بُنَيَّ، أهذا أيضاً مما أعدّه؟! وقيل: أولئك أصحابُ محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتَّعَمُّمِ واللَّذَّةِ، ولا يلبسون ثوباً للجَمَالِ والزَّيْنَةِ، ولكن كانوا يأكلون ما يسدُّ جُوعَتَهُمْ ويُعِينُهُمْ على عبادة ربِّهم، ويلبسون ما يسرُّ عَوْرَاتِهِمْ ويكفُّهم من الحرِّ والقرِّ، وقال عمرُ رضي الله عنه: كفى سرفاً أن لا يشتري رجلاً شيئاً إلا اشتراه فأكله. والقوام: العدلُ بين الشَّيْئَيْنِ لاستقامة الطَّرْفَيْنِ واعتدالهما. ونظيرُ القوامِ مِنَ الاستقامة: السَّوَاءُ مِنَ الاستواء.

قوله: (الحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ)، أي: الاقتصادُ، وهو حَسَنَةٌ بَيْنَ الإسرافِ والتقتيرِ، وهما سَيِّئَتَانِ، ومن كلام بعضهم:

كِلَا طَرَفِي [قَصْدٌ] الْأُمُورِ ذَمِيمٌ^(١)

وخيرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا.

قوله: (وقيل: أولئك أصحابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ)، عطفٌ على قوله: «وَصَفَّهُمْ بِالْقَصْدِ الَّذِي هُوَ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ»، وعلى الأوَّلِ كان عامّاً فيهم وفي غيرهم. والمرادُ بالإِنْفَاقِ الوَسْطُ: السَّخَاوَةُ التي هي بَيْنَ التَّبْذِيرِ والبُخْلِ. وعلى الثاني، الوَسْطُ: عبارةٌ عن الإِنْفَاقِ على أَنفُسِهِمْ بها لا يَلْبُغُ إلى حَدِّ التَّلَذُّذِ وَالتَّعَمُّمِ، بل يكونُ سَدًّا للجُوعَةِ، وَسِرًّا العُورَةِ.

قوله: (وَنظِيرُ الْقَوَامِ مِنَ الاستقامة: السَّوَاءُ مِنَ الاستواء)، يعني: نَظِيرُهُ في عِلَّةِ التَّسْمِيَةِ به، لا أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْهُ؛ لأنَّ الثَّلَاثِيَّ لا يُشْتَقُّ مِنَ المَزِيدِ، أي: إِنَّمَا قُلْنَا: قَوَاماً لِلشَّيْءِ الَّذِي هُوَ عَدْلٌ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ لاسْتِقَامَةِ الطَّرْفَيْنِ، وكذلك السَّوَاءُ مِنَ الاستواء.

(١) للإمام الخطابي، ذكره الثعالبي في «يتيمة الدهر» (٢: ٩٤) وصَدْرُ البيت:

وَلَا تَغُلْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ

وَقَبَّلَ الْبَيْتَ:

تَسَامَحْ وَلَا تَسْتَوْفِ حَقَّكَ كُلَّهُ وَأَبِيقِ فَلَـمَ يَسْتَقْصِرِ قَطُّ كَرِيمِ

والبیتان ذکرهما الخطابی فی کتابه «العزلة» ص ٢٣٧.

وَقُرِي: (قَوَامًا) بالكسر؛ وهو ما يُقَامُ به الشيء، يقال: أنتَ قَوَامُنَا، بمعنى: ما تُقَامُ به الحاجةُ لا يَفْضَلُ عنها ولا ينقص. والمنصوبان - أعني ﴿بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ - جائزٌ أن يكونا خَبَرَيْنِ معاً، وأن يُجْعَلَ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ لغوًا، و﴿قَوَامًا﴾ مُسْتَقْرًا، وأن يكونَ الظرفُ خَبْرًا، و﴿قَوَامًا﴾ حالًا مؤكدة. وأجازَ الفراءُ أن يكونَ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ اسمَ «كان»، على أنه مبنيٌّ؛ لإضافته إلى غيرِ متمكِّن، كقوله:

لَمْ يَمْنَعِ الشَّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ

قوله: (وَقُرِي: «قَوَامًا»، بالكسر)، قال ابنُ جِنِّي: قرأها حَسَانُ بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ صاحبُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها وَيَرْوي عنه قَتَادَةُ^(١). القَوَامُ بالفتح: الاعتدالُ في الأمر، وبالكسر: مِلاكُ الأمرِ وَعِصَامُهُ، فلو افْتَضَرَ على قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ كانَ كافيًا، ف﴿قَوَامًا﴾ تأكيدٌ، وجارٍ مَجْرَى الصِّفَةِ، أي: توَسَّطًا مُقْبِيًا للحالِ وناظرًا، كالصِّفَاتِ المؤكدة، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَؤُةِ الثَّالِثَةِ الْآخِرَى﴾ [النجم: ٢٠] فالأخرى توكيدٌ^(٢).

قوله: (وَأَنْ يُجْعَلَ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ لغوًا، و﴿قَوَامًا﴾ مُسْتَقْرًا)، قيل: إطلاقُ المُسْتَقَرِّ على ﴿قَوَامًا﴾ مع أنه غيرُ ظَرْفٍ؛ لمزاوجَةِ الكلام، وهو كونه مذكورًا معَ الظرف، وهو بينَ ذلك. قال ابنُ الحاجب: المُسْتَقَرُّ: ما كانَ خَبْرًا محتاجًا إليه، وسُمِّيَ مُسْتَقْرًا؛ لأنه يتعلَّقُ بالاستقرار، فالاستقرارُ فيه هو مُسْتَقَرٌّ فيه، أي: موضعٌ للتقرير، ثم حَذَفَ لفظَةَ «فيه» اختصارًا، واللغو: هو ما لو حَذَفَ لكانَ الكلامُ مُسْتَعْنَى عنه.

قوله: (لم يَمْنَعِ الشَّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ)، تمامه:

حَمَامَةٌ فِي عُصُونِ ذَاتِ أَوْقَالٍ^(٣)

(١) ذكره ابن حبان في «الثقات» (٤: ١٦٤) برقم (٢٣٠٠) وقال: يروي المراسيل، روى عنه قتادة.

(٢) «المحتسب» (٢: ١٢٥).

(٣) البيت لأبي قيس بن رفاعة يصفُ ناقته، كما في «مشاهد الإنصاف» (٢: ٤٢٢).

وهو من جهة الإعراب لا بأس به، ولكن المعنى ليس بقوي؛ لأن ما بين الإسراف والتقتير قوامٌ لا محالة؛ فليس في الخبر الذي هو مُعتمدٌ الفائدةُ فائدةً.

منها: ضميرُ الراحلة. الأوقال: جمعُ وقل، وهو الحجارة. أي: في عُصُونِ نابتةِ بأرض ذاتِ أوقال، وقيل: الوقل: شجرُ المقل، يقول: لم يمنع الراحلة الشربَ إلا صوتُ حمامة، أي: إتها حديدَةُ الحس، فيها فزعٌ وذعرٌ لحدةِ نفسها. والاستشهادُ في قوله: «غيرَ أن نطقت»، وهو فاعلٌ «يمنع»، وإتها بُني؛ لإضافته إلى المَبني.

قوله: (فليس في الخبر الذي هو مُعتمدٌ الفائدةُ فائدةً)، وفائدته: بيانُ اتصافِ المخبرِ عنه بالخبر، فيجبُ أن يكونَ وَصْفُ الشيءِ بغيره؛ لئيفيدَ لا بنفسه لئلا يؤدِّي إلى أن يقال: وكان القوامُ قواماً. وأجابَ عنه صاحبُ «المطلع»: أن ما بينَ الإسرافِ والإقتارِ لا يلزمُ أن يكونَ قواماً، أي: عدلاً؛ لأنه يجوزُ أن يكونَ دونَ الإسرافِ بقليل، أو فوقَ الإقتارِ بقليل فما بينهما وَسَطٌ، بسكونِ السَّينِ، يتناولُ العَدْلَ وغيره، فالتقديرُ: وكان الوسطُ من ذلك قواماً. والجوابُ عنه: أنه يلزمُ من هذا الحرجُ المنفي في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] فإن في إيقاعِ قواماً على ما قرَّره الدلالةُ على مُراعاةِ حاقِّ الوسط، بمعنى أن قوله: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ كانَ يَحْتَمِلُ معنى الوسطِ بالسُّكونِ الذي هو اسمٌ مُبهمٌ لدخولِ الدائرة، فأخبرَ بقوله: ﴿قواماً﴾ أن المرادَ منه الوَسَطُ بالتحريك، الذي هو اسمٌ لعَيْنِ ما بينَ طرفي الشيءِ كمركزِ الدائرة، ولا ارتيابَ أن مراعاةَ ذلك متعذِّرٌ ولا يتيسَّرُ إلا بالنُدرة.

وقال صاحبُ «الفرائد»: ما أورده صاحبُ «الكشاف» على الفراءِ وارداً عليه في قوله: «المنصوبان - أعني ﴿بَيْنَ ذَلِكَ قواماً﴾ - جائزٌ أن يكونا خبرينِ معاً، ويُمكنُ أن يُقال: المرادُ من القوامِ العَدْلُ، فصَحَّ أن يكونَ خبراً لـ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ولا يخلو عن فائدة».

والجوابُ عنه ما ذكره ابنُ جني، أن الثانيَ جارٍ مجرَى الصِّفةِ المؤكِّدة، كأنه قيل: كان إنفاقُهُم وَسَطاً بسكونِ السَّينِ البتَّة، لا أن الإنفاقَ في عَيْنِ الوسطِ لا يتجاوزُهُ أصلاً، كما يلزمُ من الاسمِ والخبرِ إذا اتَّحدا معنى. والجوابُ عن قوله: المرادُ من القوامِ العَدْلُ: هو ما أُجيبَ عن صاحبِ «المطلع».

[﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ٦٨ - ٧٠]

﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: حَرَمَهَا. والمعنى: حَرَّمَ قَتْلَهَا. و﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ متعلق بهذا القتل المحذوف. أو بـ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ﴾. ونفي هذه المَقْبَحَاتِ الْعِظَامِ عن الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين؛ للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم، كأنه قيل: والذين برّاهم الله وطهرهم مما أنتم عليه. والقتل بغير حق يدخل فيه الوأد وغيره. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، أي الذنوب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك» قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»، فأنزل الله تصديقه. وقرئ: (يلقى) فيه أثاماً). وقرئ: (يلقى) بإثبات الألف، وقد مر مثله. والأثام: جزاء الإثم، بوزن الوبال والسكال ومعناها، قال:

قوله: (ونفي هذه المَقْبَحَاتِ الْعِظَامِ عن الموصوفين بتلك الخلال العظيمة في الدين للتعريض بما كان عليه أعداء المؤمنين من قريش)، يعضد ما ذهبنا إليه من أن قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ مقابل للفائلين: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، فمدحهم الله بتلك الخلال الحميدة التي تختص بأوليائه ثم نفى عنهم هذه الخصال الرذيلة التي عليها أعداؤه.

قوله: (عن ابن مسعود رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله، أي الذنوب أعظم؟)، الحديث بتمامه، أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما^(١).

قوله: (وقرئ: «يلقى»، بإثبات الألف)، قال في «المطلع»: جعل أثر الجازم حذف الحركة من المعتل لا حذف الألف كقوله:

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦).

جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى عَقُوقًا وَالْعُقُوقُ لَهُ أَثَامٌ

وقيل: هو الإثم. ومعناه: يلقى جزاءً أثام. وقرأ ابن مسعود: (أَيَّامًا)، أي: شداًند،
يقال: يومٌ ذو أَيَّامٍ؛

ألم يأتيك - والأنباء تُنمي - بما لاقت لبونُ بني زياد^(١)

«والأنباء تُنمي»: جملةٌ معترضةٌ، و«بما لاقت»: متعلقٌ ب«يأتيك».

قوله: (جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ) البيت^(٢)، العُقُوقُ: العاق، والعُقُوقُ، بالضم: مصدرٌ، وهو تَرْكُ بَرِّ الوالدَيْنِ وَقَطْعُهُ، وكذا في الرَّحِمِ، وعُقُوقًا: نَصَبٌ على الحال، ومعناه: جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ شَرًّا جزاءً عاقًا والعُقُوقُ لَهُ جزاءٌ سيئٌ.

قوله: (وقيل: هو الإثم، ومعناه: يلقى جزاءً أثام^(٣)) يريدُ أن «الأثام» إمَّا أن يُرادَ به جزاءُ الإثمِ كالثوابِ لجزاءِ الطاعة، وإمَّا أن يُرادَ به مُطلقُ الإثمِ، فحينئذٍ يَحْتَاجُ إلى تقديرٍ مضاف، وهو المرادُ بقوله: «ومعناه: يلقى جزاءً أثام».

الأساس: كانوا يَفْزَعُونَ مِنَ الأثامِ^(٤) أشدَّ ما يَفْزَعُونَ مِنَ الأثامِ، وهو وَيَأَلُ الإثمِ، قال:

لقد فَعَلْتَ هَذي النَّوى بِى فَعَلَّةٌ أَصَابَ النَّوى قَبْلَ الماتِ أَثامُها^(٥)

قوله: (يومٌ ذو أَيَّامٍ)، الأساس: ويومٌ ذو أَيَّامٍ: كأيام. قال النابغة:

(١) البيت لقيس بن زهير العبسي. انظر: «الأغاني» (١٧: ٢٠١). وانظر توجيه القراءة في «البحر المحيط» (٨: ١٣٠).

(٢) ذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (٢: ٨١) وعزاه لبلعاء بن قيس الكناني. ونقله أبو علي الفارسي في «الحجة للقرء السبعة» (٣: ٢١٦) وقال: وأنشد - يعني أبا عبيدة - لمسافع العبسي. فليُحَرَّر.

(٣) زاد في (ح): «الأساس: كانوا يَفْزَعُونَ مِنَ الأثام».

(٤) في الأصول الخطية: «الأثام» وصوبناه من «أساس البلاغة».

(٥) ذكره الزمخشري في «أساس البلاغة» (أثم) من غير عَزْوٍ لأحد.

لليوم العَصِيب. ﴿يُضَعَّفُ﴾ بدلٌ من ﴿يَلْتَقِ﴾؛ لأنها في معنى واحد، كقوله:

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطَبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجَجًا

وقُرى: (يُضَعَّفُ)، و(نُضَعَّفُ له العذاب)، بالتَّوْنِ ونصبِ العذاب. وقُرى

إِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ بَغْضَائِهِمْ يَوْمَ (١) كَأَيَّامِ (٢)

وذكر في أيام العربِ كذا، أي: في وقائعها. ﴿وَذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أي: بدمادِمِهِ على الكُفْرَةِ.

قوله: (لليوم العَصِيب) الأساس: عصب القومُ بفلانٍ: أحاطوا به، وَوَجَدْتَهُمْ عاصِبِينَ به، ومنه: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧] وَعَصَبُ صَبٍ، وقيل: اعصَوْصَبَ واعصَبُصَبَ، والقومُ: إذا اجتمعوا، واليومُ: إذا اجتمعت فيه الشدائد.

قوله: (متى تأتينا تُلمِم) البيت (٣)، «تلمم»، أي: تنزل، وهو بدلٌ من «تأتينا»، والألفُ في «تأججًا» للشنية، وذكُرَ لتغليبِ الحطبِ على النار. وقيل: تأججَنَ بالتَّوْنِ الخفيفة، كقوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعًا﴾ [العلق: ١٥]، وكقولِ الشاعر:

وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا (٤)

أي: فاعبُدُنْ، وقد مضى في «آلِ عمران» تحقيقُ هذا البدلِ عن ابنِ جني.

قوله: (وقُرى: «يُضَعَّفُ» و«نُضَعَّفُ»)، ابنُ عامرٍ وأبو بكر: «يُضَاعَفُ لَهُ» «ويُخْلَدُ» برفعِ الفاءِ والذال، والباقون: بجزْمِهما، وابنُ كثيرٍ وابنُ عامرٍ على أصلِهما: يُخْدِفَانِ الألفَ ويشدّدانِ العَيْنَ (٥).

(١) في (ط): «يومًا».

(٢) «ديوان النابغة الذبياني» ص ٨٢.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه من «ديوان الأعشى».

(٥) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع (٢: ١٤٧) و«حجّة القراءات» ص ٥١٤.

بالرفع على الاستئناف، أو على الحال، وكذلك (يُخَلَّدُ) وقرئ: (ويُخَلَّدُ) على البناء للمفعول مخففاً ومثقلاً، من الإخلاق والتخليد. وقرئ: (وتُخَلَّدُ) بالبناء على الالتفات، ﴿يُبَدِّلُ﴾ مخفف ومثقل، وكذلك ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾. فإن قلت: ما معنى مُضَاعَفَةِ العذاب وإبدال الحسنات سيئات؟ قلت: إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه. وإبدال السيئات حسنات: أنه يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات:

قوله: (وَقُرِئَ: «تُخَلَّدُ»^(١) بالبناء على الالتفات)، قال ابن جني: قرأ طلحة بن سليان: «نُضَعَّفُ» بالنون، و«العذاب» بالنصب، «وتُخَلَّدُ فيه»: جزم، أي: تُخَلَّدُ فيه أيها المضعف على ترك العيبة إلى الخطاب^(٢).

في «علل القرآن»^(٣) للأزهري: اتفق القراء كلهم على «يُخَلَّدُ» بفتح الياء وضم اللام^(٤). قوله: (﴿يُبَدِّلُ﴾، مخفف ومثقل)، أي: قرئ: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بتثقيل الدال: سبعة، وبالتخفيف: شاذ^(٥).

قوله: (وإبدال الحسنات سيئات)، خلاف ما في التلاوة.

قوله: (وإبدال السيئات حسنات: أنه يمحوها بالتوبة ويثبت مكانها الحسنات)، قال محيي السنة: ذهب جماعة إلى أن هذا التبديل في الدنيا؛ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والسدي، والضحاك: يُبَدِّلُهُمُ اللهُ بِقَبَائِحِ أَعْمَالِهِمْ فِي الشَّرْكِ مَحَاسِنَ الْأَعْمَالِ فِي الْإِسْلَامِ، فَيُبَدِّلُهُمُ بِالشَّرْكِ إِيْمَانًا، وَيَقْتُلُ الْمُؤْمِنِينَ قَتْلَ الْمُشْرِكِينَ، وَبِالزُّنَا عِقَّةً وَإِحْصَانًا.

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «وتُخَلَّدُ».

(٢) «المحتسب» (٢: ١٢٥-١٢٦).

(٣) وهو ما لم يُطبع من مصنفاته. ذكره الداودي في «طبقات المفسرين» (٢: ٦٦) بلفظ: «علل القراءات».

(٤) وهذا الذي نقله الإمام الطيبي قد ذكره الإمام الأزهري في كتابه الآخر «معاني القراءات» ص ٣٤٣.

(٥) وهي رواية عن عاصم كما في «مختصر شواذ القرآن» ص ١٠٥.

وقال سعيد بن المسيّب ومكحول: يُبدّل الله سيئاتهم التي عملوها في الإسلام حسنات يوم القيامة، يدُلُّ عليه حديث أبي ذرّ، قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار، يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويُجَبَّأ عنه كبارها، فيقال له: عملت يوم كذا وكذا وهو مُقِرٌّ لا يُنكِر، وهو مشفقٌ من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة حسنة، فيقول^(١): إن لي ذنوباً ما أراها هاهنا». قال أبو ذرّ: فلقد رأيت النبي ﷺ ضحك حتى بدت نواجذُه. رواه الترمذي^(٢). ورواه مسلم^(٣) أيضاً عن أبي ذرّ مع تغيير فيه.

فهذه المعاملة مع مَنْ هو آخرُ الناس خروجا من النار، فكيف بالمؤمنِ التائبِ الآتي بالأعمالِ الصالحة؟

ورَوَى الإمامُ عن سعيد بن المسيّب ومكحول: تُمَحَى السيئةُ ويُثَبَّتُ لَهُ بِدَلَّهَا الحسنةُ، لِمَا وَرَدَ: «لِيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ أَنَّهُمْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ»، قيل: مَنْ هم؟ قال: «الذين يُبدّلُ اللهُ سيئاتهم حسنات»^(٤)، ولا يبيعدُ ذلك من حيث الدليل؛ فإن التائبِ النادمِ كلما تَحَسَّرَ على ذنبٍ صدرَ منه واستغفرَ اللهُ تعالى لأجلِهِ أو خَضَعَ واستكانَ، نَالَ مِنَ الرَّفْقِ مِنَ اللهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ مَا لَا يَنَالُهُ بِالطَّاعَةِ.

ثُمَّ النَّظْمُ يُسَاعِدُ هَذَا التَّأْوِيلَ، فَإِنَّ الإِشَارَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ مَا سَبَقَ مِنَ الشَّرِكِ بِاللَّهِ، وَقَتْلِ النَّفْسِ الْمُحَرَّمَةِ، وَالزَّانَا، وَقَدْ تَرْتَّبَ عَلَيْهِ مَضَاعِفَةُ الْعَذَابِ، وَالتَّخْلِيدُ وَالْإِهَانَةُ، وَاسْتَشْتَى مِنَ الوَعِيدِ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ الْآتِي بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَحِيَتِيذٌ لَمْ يُفِدْ إِذَا عُقِبَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾، وَفُسِّرَ بِمَحْوِ الذُّنُوبِ وَإِثَابِ

(١) في (ح) و(ف): «فيقال».

(٢) «معالم التنزيل» (٦: ٩٧) والحديث أخرجه الترمذي (٢٥٩٦) والبغوي في «شرح السنة» (١٥): (١٩٢).

(٣) «صحيح مسلم» (١٩٠).

(٤) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٢٩). وانظر الأثر المذكور في «جامع البيان» للطبري (١٧: ٥١٧).

الإيمان، والطاعة، والتقوى. وقيل: يُبَدِّهُم بالشُّرك إيماناً، وبقتلِ المسلمين قتلَ المشركين، وبالزنى عِفَّةً وإحصاناً.

[﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [٧١]

يريد: وَمَنْ يترك المعاصي وَيَنْدَمُ عليها وَيَدْخُلُ في العملِ الصالحِ فإنه بذلك تائبٌ إلى الله ﴿ مَتَابًا ﴾ مَرْضِيًّا عنده مُكْفَرًا للخطايا محصلاً للثواب. أو: فإنه تائبٌ متاباً إلى الله الذي يَعْرِفُ حقَّ التائبين ويفعلُ بهم ما يَسْتَوْجِبُون، والذي يَجِبُ التَّوَابِينَ

الإيمان والطاعة والتقوى إفاضة ما إذا قيل: بِفَضْلِ اللَّهِ عليهم بالثواب والكرامات، وأن يُبَدِّلَ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا سَيِّئًا إيراداً إبدالِ السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ بعد اسم الإشارة الْمُؤَدِّينَ بأن ما يَرِدُ عَقِيبَهُ جَدِيرٌ بِمَنْ قَبْلَهُ؛ لِأَجْلِ اكْتِسَابِهِ الْخِلَالَ الْحَمِيدَةَ، والمذكورُ قَبْلَهُ: التائب، وَالْخِصَالُ الْحَمِيدَةُ: الإِيَانُ والأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، فلا بدَّ إِذَا مِنْ أَمْرٍ آخَرَ زَائِدٍ وليس ذلك إلا الثواب في الآخرة.

ويؤيدُهُ قولُهُ: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي: غفوراً حيث حَطَّ عنهم بالتوبة والإيمان مُضَاعَفَةَ الْعَذَابِ، وَالْخُلُودَ فِي النَّارِ وَالْإِهَانَةَ، رَحِيمًا حيثُ بَدَّلَ سَيِّئَاتِهِمْ بِالْثَوَابِ الدَّائِمِ، وَالْكَرَامَةِ فِي الْجَنَّةِ، وكذا تذييلُ الكلامِ بقولِهِ: ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ المُفَسِّرِ بقولِهِ: «مَتَابًا مَرْضِيًّا عنده مُكْفَرًا للخطايا، محصلاً للثوابِ وإلى الله الذي يَعْرِفُ حقَّ التائبين ويفعلُ بهم ما هُوَ أهْلُهُ، وَيَجِبُ التَّوَابِينَ»، وَأَنْتَ قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ التَّذْيِيلَ كالتأكيِدِ لِلْمُذْيَلِ، فلا بدَّ مِنْ مُرَاعَاةِ مَعْنَى الثَّوَابِ فِيهِ لِيَصِحَّ.

قولُهُ: ﴿ مَتَابًا ﴾ مَرْضِيًّا عنده مُكْفَرًا، وذلك أَنَّ الشَّرْطَ وَالْجِزَاءَ إِذَا اتَّحَدَا مَعْنَى مُجْمَلِ الْجِزَاءِ عَلَى نَهَايَةِ مَا يَحْتَمِلُهُ مِنَ الْمَعْنَى، وَنَحْوَهُ قَوْلُهُمْ: مَنْ أَدْرَكَ الصَّغَانَ (١) فَقَدْ أَدْرَكَ. قولُهُ: (أو: فإنه تائبٌ متاباً إلى الله)، يعني: أُعِيدَ الْمَعْنَى لِيُنَاطَ بِهِ صَرِيحُ اسْمِهِ الْجَامِعِ؛

(١) في (ح) و(ف): «الصَّغَانَ» بالضاد المعجمة، وصوابه بالصاد المهملة وتشديد الميم، كما في (ط)، وهو من مراعي العرب الشريفة في بلاد بني تميم، وكانت العربُ تتمدَّحُ بنزوله وتفعلُ هذا القول. انظر: «مجمع الأمثال» (١: ٨٦).

ويحبُّ المتطهِّرين. وفي كلامِ بعضِ العَرَبِ: لَلَّهْ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ مِنَ الْمُضِلِّ الْوَاجِدِ،

لِيُؤْذَنَ بِهِ أَنْ مَنْ تَكُونَ تَوْبَتُهُ إِلَى مِنْ اسْمِهِ اللَّهُ فَأَعْظِمُ تَوْبَتِهِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ اسْمَهُ الْأَعْظَمَ جَامِعٌ لِسَائِرِ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى وَأَسْمَاءِ الْعُظْمَى، وَلَهُ فِي كُلِّ مَقَامٍ تَجَلُّ بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ ذَلِكَ الْمَقَامِ، وَالْمَقَابِلِ لَهُ. وَهَذَا الْمَقَامُ مَقَامُ التَّوْبَةِ، فَالْتَّجَلِّي بِوَصْفِ التَّوَابِيَةِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «إِلَى اللَّهِ الَّذِي يَعْرِفُ حَقَّ التَّائِبِينَ، وَيَفْعَلُ بِهِمْ مَا يَسْتَوْجِبُونَ، وَالَّذِي يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»، وَالَّذِي يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ فَرَحًا لَا فَرَحَ فَوْقَهُ.

قَوْلُهُ: (لَلَّهْ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ)، رَوَيْنَا عَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَلَّهْ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ بِأَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَنَامَ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ»^(١).
الدَّوِيَّةُ: الْفَلَاةُ وَالْمَفَازَةُ. وَالرَّاحِلَةُ: الْبَعِيرُ الَّذِي يَرْكَبُهُ الْإِنْسَانُ، وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ مَتَاعَهُ، وَالْفَرَحُ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: غَايَةُ الرِّضَا.

يَقُولُ الْعَبْدُ الْعَاصِي الْغَرِيْبُ فِي بَخْرِ الْمَعَاصِي: أَنَا أَتَوَسَّلُ بِهَا صَدَرَ عَنْ صَدْرِ حَبِيْبِكَ لِقَبُولِ تَوْبَتِي وَخَوْحَوْبَتِي: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبوءُ لَكَ بِذُنُوبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ، عَنِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ^(٢).

بَاءً بِإِثْمِهِ يَبُوءُ بَوَاءً، أَي: رَجَعَ بِهِ، وَصَارَ عَلَيْهِ. وَتَقُولُ: بَاءً بِحَقِّهِ، أَي: أَقْرَأَ، وَذَا يَكُونُ أَبْدَأَ بِهَا عَلَيْهِ، لَا لَهُ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٠٨) وَمُسْلِمٌ (٢٧٤٤) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٤٩٧).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٠٦) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٣٩٣) وَالنَّسَائِيُّ (٨: ٢٤٦).

والظمانِ الوارد، والعقيمِ الوالد. أو: فإنه يرجعُ إلى اللهِ وإلى ثوابه مُرجعاً حسناً، وأيُّ مُرجع!

[﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ ٧٢]

يُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ يَنْفِرُونَ عَنْ مُحَاضِرِ الْكَذَّابِينَ وَمَجَالِسِ الْخَطَّائِينَ فَلَا يُخْضِرُونَهَا وَلَا يَقْرَبُونَهَا؛ تَنْزُهَا عَنْ مَخَالِطَةِ الشَّرِّ وَأَهْلِهِ، وَصِيَانَةً لِدِينِهِمْ عَمَّا يَثْلِمُهُ؛ لِأَنَّ مُشَاهَدَةَ الْبَاطِلِ شَرِكَةٌ فِيهِ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي النَّظْرَةِ إِلَى كُلِّ مَا لَمْ تُسَوِّغْهُ الشَّرِيعَةُ: هُمْ شُرَكَاءُ فَاعِلِيهِ فِي

قوله: (أو فإنه يرجعُ إلى اللهِ وإلى ثوابه مُرجعاً حسناً)، وعلى هذا معنى «يتوب»: يرجعُ لُغَةً.

فإن قلت: لِمَ وَضَعَ فِي الْوَجْهَيْنِ السَّابِقَيْنِ «تائب» في موضع «يتوب»، وَصَرَخَ فِي الْأَخِيرِ بِالْمُضَارِعِ حَيْثُ قَالَ: يَرْجِعُ؟ قلت: لِيُؤْذَنَ فِي الْوَجْهَيْنِ أَنَّ الْمُضَارِعَ لِلِاسْتِمْرَارِ وَالِدَوَامِ، وَفِي الْأَخِيرِ بَأَنَّ الثَّوَابَ مُتَنَظَّرٌ.

فإن قلت: ما الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَجْهِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي حِينَ جَعَلَ الْمَوْصُوفَ فِي الْأَوَّلِ ﴿مَتَابًا﴾ وَفِي الثَّانِي اللَّهُ تَعَالَى، وَالشَّرْطُ وَالْجَزَاءُ مُتَّحِدَانِ فِيهِمَا؟ قلت: ما ذَكَرْنَا أَنَّ الْقَصْدَ الْأَوَّلِيَّ فِي التَّكْرِيرِ عَلَى الْأَوَّلِ إِلَى جَعْلِ الْجَزَاءِ عَيْنَ الشَّرْطِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، فَوَصَفَ مَصْدَرَ الْفِعْلِ، وَعَلَى الثَّانِي إِلَى مَجْرَدِ إِنَاطَةِ اسْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْمُنَوِّطِ بِهِ، فَوَصَفَ مَا جَلَبَ لَهُ الْمُكَرَّرَ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ.

قوله: (يَنْفِرُونَ عَنْ مُحَاضِرِ الْكَذَّابِينَ)، فَالشَّهَادَةُ بِمَعْنَى الْحُضُورِ، وَالزُّورُ بِمَعْنَى الْبَاطِلِ، النَّهْيَةُ: الزُّورُ: الْكَذِبُ، وَالْبَاطِلُ، وَالتُّهْمَةُ. الْأَسَاسُ: وَفِي صَدْرِهِ زُورٌ: اعْوَجَاجٌ، وَهُوَ شَاهِدُ زُورٍ.

قوله: (ما لم تسوّغه الشريعة) فيدخل فيه أبنية الظلمة وما يلحق بمسجد الضرار، هذا بطريق العموم، ويمكن سلوك طريق الخصوص ويُحمل اللغو مجازاً على ما نسقته من الأبنية، وقد استعار جريراً في الأعيان في قوله:

الإثم؛ لأن حضورهم ونظرهم دليل الرضا به، وسبب وجوده، والزيادة فيه؛ لأن الذي سلط على فعله هو استحسان النظارة ورغبتهم في النظر إليه، وفي موعظ عيسى بن مريم صلوات الله عليه: إياكم ومجالسة الخطّائين. ويحتمل أنهم لا يشهدون شهادة الزور، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وعن قتادة: مجالس الباطل. وعن ابن الحنفية: اللهو والغناء. وعن مجاهد: أعياد المشركين. اللغو: كل ما ينبغي أن يلغى ويُطرح. والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو والمشتغلين به مروا معرضين عنهم، مكرمين أنفسهم عن التوقف عليهم والخوض معهم، كقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]،

ويذهب بينها المرثي لغواً كما ألفت بالدية الحواراً

وهي استعارة مصرحة تحقيقية، فالقرينة استعمال المرور فيه، فالمناسب أن يحمل الشهود على الحضور، ويجعل الزور استعارة عنها؛ لأنها باطلة كما استعير ﴿شَفَا جُرْفٍ هَكَارٍ﴾ [التوبة: ١٠٩] للقاعدة الباطلة لمسجد الضرار، فيكون اللغو مظهراً وُضع موضع المضمر، كأنه قيل: لا يحضرون تلك المشاهد، وإذا مروا بها مروا غير ملتفتين إليها ولا يجيلون النظر إليها استحساناً؛ لأن قصدهم في البناء سلب نظر الخلق إليها. قال أبو حامد في «الإحياء»: إن السلاطين في زماننا هذا ظلمة قلما يأخذون شيئاً على وجهه بحقه؛ فلا محلّ معاملتهم ولا معاملة من يتعلّق بهم، حتى القاضي، ولا التجارة في الأسواق التي بنوها بغير حق، والورع اجتناب الرُبط والمدارس والقناطر التي بنوها بالأموال المغصوبة التي لا يعلم مالكها^(١).

قوله: (هو استحسان النظارة)، واستحسان ما قضى الإسلام بقبحه، يضرب إلى الكفر، ولهذا قيل: الابتهاز^(٢) بالذنب أعظم من ركوبه، والابتهاز: أن يقول: فعلتُ، وقد فعل.

(١) من قوله: «قوله: ما لم تسوغه الشريعة» إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

(٢) في (ح) و(ف): «الانتهاز»، وكذا ورد فيها فيما سيأتي بعد كلمات.

وعن الحسن: لم تُسْفَههم المعاصي. وقيل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا

قوله: (عن الحسن: لم تُسْفَههم المعاصي)، روى محيي السنة عن الحسن والكَلْبِيِّ: اللغو: المعاصي كلها، يعني: إذا مرُّوا بمجالس يُعصَى اللهُ فيها مرُّوا مُسرِّعين مُعْرِضين، إذ لو وَقَفَ أو لم يُعْرِضْ، بل نَظَرَ، عُدَّ سَفِيهاً، يقال: تَكَرَّمَ فلانٌ عَمَّا يَشِينُهُ: إذا تَنَزَّهَ وأكْرَمَ نَفْسَهُ عنه^(١).

ثم هذه الخاتمة، أعني: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ إذا فُسِّرَ قوله: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ بأنهم يَنْفِرُونَ عن محاضر الكذابين والخطائين، على أن ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بمعنى يَحْضُرُونَ، كانت كالتَّمِيم له، وإذا فُسِّرَ بأنهم لا يَشْهَدُونَ شهادة الزورِ كانت كالتكميل له، ويجوز أن يكون تَمِيماً على تفسير الحسن، لأنَّ مَنْ وَقَفَ مواقفَ السُّفهاءِ سَفَهُ، ويكون قَدْحاً في عَدَلِيته.

قوله: (إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا)، عَبَّرَ أولاً عن سَماع اللغو بالمرورِ به؛ لأنَّ المرورَ به دَلَّ على المرورِ على أصحابه، ودَلَّ ذلك على سَماعه منهم. وثانياً: عن الإعراض عنه بالمرورِ به. على تلك الحالة؛ فإنَّ الكريمَ إذا مَرَّ بِاللَّغْوِ أعرَضَ عنه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. قال:

وأعرَضَ عن شتم اللئيم تكراً^(٢)

وتخصيصُ المرورِ بالذكر؛ للإيدانِ بأنَّ ذلك دَأْبُهُم وعادَتُهُم، قال تعالى: ﴿حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيهاً فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، أي: استمرَّت بذلك الحَمَلِ الخفيفِ ولم يُثِقِلْها قَطُّ. قال الزَّجَّاجُ: فَمَرَّتْ به، معناه: استمرَّت به، قعدت وقامت ولم يُثِقِلْها^(٣). ونحوه في المعنى قولُ الشاعر:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبني
فمَصَّيتُ ثَمَّةً قلتُ لا يعنيني^(٤)

(١) «معالم التنزيل» (٦: ٩٩).

(٢) سبق تخريجه من «ديوان حاتم الطائي».

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٣٩٥).

(٤) سبق تخريجه.

وَصَفَحُوا. وقيل: إذا ذكروا النكاح كَنُوا عنه.

[﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [٧٣]

﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا﴾ ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، كما تقول: لا يلقاني زيدٌ مسلماً، هو نفي للسلام لا للقاء. والمعنى: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها

أي: هذا الإعراض والصفح شيمتي وخلقي، ولذلك قرنه بحرف التقليل المفيد للتكثير تليخاً، كقوله:

قد أتركُ القِرْنَ مُصَفَّرًا أَنَامِلُهُ^(١)

قوله: (كَنُوا عنه)، أي: بالغشيان والمسييس والمباشرة والإتيان دائمين مُستمرين.

قوله: (ليس بنفي للخرور، بل^(٢) إثبات له ونفي للصمم والعمى)، يعني: أدخل حرف النفي على المُنْبَت، وأريد نفي ما يتبعه، كقولك: ما هو بمؤمنٍ مُحَادِع. والنكته في التعريض بمن هو ليس على صفتهم، ولذلك قال: «لا كالذين يُذَكَّرُونَ بها فتراهم مُكَيِّبِينَ عليها، إلى قوله: «وهو كالصَّمِّ والعُمَيَانِ»، وما أحسن إقتران هذا الوصف مع قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرًّا كِرَامًا﴾ لا يختلط جدهم بهزل، وحقهم بباطل، فإذا اعتراهم الهزل تنزهوا عنه كل تنزه، وإذا اشتغلوا بالحق لا يحوم الباطل حوله، ومنه قول المنصور لابن عمران: بَلَّغْنِي أَتَكَ بَخِيلٌ. قال: ما أجد في حق، ولا أدوب في باطل، أو يقال: إذا مرُّوا بالهزل مرُّوا مُكْرَمِينَ متغافلين متغابين، كأنهم ما سمعوه ولا نظروا إليه، وإذا حاولوا الجِدَّ أقبلوا إليه بسرَّ شريهم واجتنبوا عن أن يكونوا كالغافلين عنه لا يسمعونه بأذانٍ واعية، ولا يُبصرونه بأعينٍ راعية. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ زُمْرَتِهِمْ بِرَحْمَتِكَ الْوَاسِعَةِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

(١) سبق تخريجه.

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «وإنها هو».

سَامِعُونَ بِأَذَانٍ وَّاعِيَةٍ، مُبْصِرُونَ بَعْيُونَ رَاعِيَةٍ، لَا كَالَّذِينَ يُذَكَّرُونَ بِهَا فَتَرَاهُمْ مُكَيِّبِينَ عَلَيْهَا مُقْبِلِينَ عَلَى مَنْ يُذَكَّرُ بِهَا، مُظْهِرِينَ الْحِرْصَ الشَّدِيدَ عَلَى اسْتِمَاعِهَا، وَهُمْ كَالصُّمِّ الْعَمِيَانِ؛ حَيْثُ لَا يَعُونَهَا وَلَا يَتَبَصَّرُونَ مَا فِيهَا، كَالْمُنَافِقِينَ وَأَشْبَاهِهِمْ.

[﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ٧٤]

قُرَى: ﴿ذُرِّيَّتَنَا﴾، و﴿وَذُرِّيَّتِنَا﴾، و﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ و﴿قُرَاتٍ أَعْيُنٍ﴾. سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَرْزُقَهُمْ أَزْوَاجًا وَأَعْقَابًا عَمَلًا لِلَّهِ، يُسْرُونَ بِمَكَانِهِمْ، وَتَقَرُّ بِهِمْ عُيُوثُهُمْ. وَعَنْ مُحَمَّدٍ

قَوْلُهُ: (سَامِعُونَ بِأَذَانٍ وَّاعِيَةٍ، مُبْصِرُونَ بِأَعْيُنٍ^(١) رَاعِيَةٍ)، خَبَّرَ بَعْدَ خَبَرٍ، لِقَوْلِهِ: «وَهُمْ». قَوْلُهُ: (وَقُرَى^(٢)): «ذُرِّيَّتَنَا» و﴿وَذُرِّيَّتِنَا﴾، الْحَرَمِيَّانِ^(٣)، وَابْنُ عَامِرٍ وَحَفْصٌ: «ذُرِّيَّاتِنَا» بِالْأَلْفِ عَلَى الْجَمْعِ، وَالباقونَ: بِغَيْرِ الألفِ عَلَى التَّوْحِيدِ^(٤).

قَوْلُهُ: (سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يَرْزُقَهُمْ أَزْوَاجًا وَأَعْقَابًا عَمَلًا لِلَّهِ)، فَإِذَنْ، التَّقْدِيرُ: هَبْ لَنَا أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّاتٍ مُطِيعِينَ لَكَ، وَلَمَّا كَانَتْ طَاعَتُهُمْ سَبَبًا لِسُرُورِهِمْ وَوَضَعَ الْمَسَبَّبَ مَوْضِعَ السَّبَبِ لِلْمِبَالِغَةِ، وَأَنَّ الْمَطْلُوبَ الْأَوَّلِيَّ بِالْأَوْلَادِ طَاعَةُ اللَّهِ، وَجَعَلَ هَذَا الدُّعَاءَ مِنْ جُمْلَةِ صِفَاتِ الْكَمَلَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عِظَمِ مَنْزِلَةِ مَنْ يَطْلُبُ النِّكَاحَ لِدَلَالَتِهِ، وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الدَّاعِي، فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَّصِفُ بِذَلِكَ؟

وقولُهُ: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، كَالتَّكْمِيلِ لِلدُّعَاءِ، أَي: اجْعَلْنَا كَامِلِينَ فِي أَنْفُسِنَا، وَمُكْمَلِينَ لغيرِنَا، وَفِي جَعَلِ الْمُتَّقِينَ مُتَّقِينَ إِشَارَةٌ إِلَى عُلُوِّ دَرَجَةِ الْإِمَامِ. قَوْلُهُ: (يُسْرُونَ بِمَكَانِهِمْ وَتَقَرُّ بِهِمْ عُيُوثُهُمْ)، «وَتَقَرُّ بِهِمْ»: عَطْفٌ تَفْسِيرِيٌّ لـ«يُسْرُونَ»،

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيَّةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «بَعْيُونَ».

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيَّةِ، وَفِي نَصِّ «الْكَشَافِ» مِنْ (ط)، وَفِي الْأَصْلِ الْخَطِيِّ مِنْهُ وَالْمَطْبُوعِ: «قُرَى».

(٣) يَعْنِي ابْنَ كَثِيرٍ الْمَكِّيَّ وَنَافِعًا الْمَدَنِيَّ.

(٤) انظُر: «حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» ص ٥١٥.

ابن كعب: ليس شيءٌ أَقْرَ لَعَيْنِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَرَى زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَهُ مُطِيعِينَ لِلَّهِ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الْوَالِدُ إِذَا رَأَاهُ يَكْتُبُ الْفِقْهَ. وَقِيلَ: سَأَلُوا أَنْ يُلْحَقَ اللَّهُ بِهِمْ أَزْوَاجُهُمْ وَذُرِّيَّتُهُمْ فِي الْجَنَّةِ؛ لِيَتِمَّ لَهُمْ سُرُورُهُمْ. أَرَادَ: أُنْمَةٌ، فَكَتَفَى بِالوَاحِدِ؛ لِدَلَالَتِهِ عَلَى الْجِنْسِ، وَلِعَدَمِ اللَّبْسِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]. أَوْ أَرَادُوا: اجْعَلْ كُلَّ وَاحِدٍ مَنَا إِمَامًا. أَوْ أَرَادَ جَمَعَ آمَّ، كَصَائِمٍ وَصِيَامٍ. أَوْ أَرَادُوا: اجْعَلْنَا إِمَامًا وَاحِدًا لِأُمَّحَادِنَا وَاتَّفَاقِ كَلِمَتِنَا. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرِّيَاسَةَ فِي الدِّينِ يَجِبُ أَنْ تُطَلَّبَ وَيُرْغَبَ فِيهَا. وَقِيلَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ. فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مَنْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَرْوَجِنَا﴾ مَا هِيَ؟ قُلْتَ: يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بَيَانِيَّةً، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَبْ لَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ، ثُمَّ بُيِّنَتِ الْقُرَّةُ وَفُسِّرَتْ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَرْوَجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا﴾، وَمَعْنَاهُ: أَنْ يَجْعَلَهُمُ اللَّهُ لَهُمْ قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ: رَأَيْتُ مِنْكَ أَسَدًا، أَي: أَنْتَ أَسَدٌ؛ وَأَنْ تَكُونَ ابْتِدَائِيَّةً عَلَى مَعْنَى: هَبْ لَنَا مِنْ جِهَتِهِمْ مَا تَقَرُّ بِهِ عَيُونُنَا مِنْ طَاعَةٍ وَصَلَاحٍ.

وَالظَّاهِرُ الْعَكْسُ؛ لِأَنَّهُ بَصَدَدٍ أَنْ يُفَسَّرَ «قُرَّةَ أَعْيُنٍ» بِالسُّرُورِ، كَأَنَّهُ ادَّعَى الشُّهْرَةَ، وَأَنَّهُ الْأَصْلُ فِي الْإِعْتِبَارِ.

النَّهَايَةُ: وَفِي حَدِيثِ الْإِسْتِسْقَاءِ: «لَوْ رَأَى لَقَرَّتْ عَيْنَاهُ»^(١)، أَي: لَسَرَ بِذَلِكَ وَفَرِحَ، وَحَقِيقَتُهُ: أَبْرَدَ اللَّهُ دَمْعَةَ عَيْنَيْهِ؛ لِأَنَّ دَمْعَةَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ بَارِدَةٌ، وَنُقِلَ عَنِ الْأَصْمَعِيِّ: دَمْعَةُ السُّرُورِ بَارِدَةٌ، وَدَمْعَةُ الْحُزْنِ حَارَةٌ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: أَسَخَنَ اللَّهُ عَيْنَيْكَ، وَقِيلَ: أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنَيْهِ: أَعْطَاهُ مَا يُسَكِّنُ بِهِ عَيْنَهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى غَيْرِهِ، مِنْ: قَرَّرَ يَقْرُرُ مِنْ بَابِ صَرَبَ - إِذَا تَبَّتْ.

قَوْلُهُ: (وَأَنْ تَكُونَ ابْتِدَائِيَّةً عَلَى مَعْنَى: هَبْ لَنَا مِنْ جِهَتِهِمْ)، فِي كَلَامِهِ إِشْعَارًا بِأَنَّ «مِنْ» الْبَيَانِيَّةَ تَجْرِيدِيَّةٌ، لِقَوْلِهِ: «وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ: رَأَيْتُ مِنْكَ أَسَدًا»، وَ«مِنْ» الْإِبْتِدَائِيَّةُ بِمَعْنَى: لِأَجْلِ، كَذَا قَدَّرَ فِي الْمَالَئِدَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣]^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الدَّعَاءِ» (٢١٨٠) وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ» (٦: ١٤١) مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انْظُرْ: «الْكَشَافُ» (٥: ٤٥٩).

فإن قلت: لِمَ قال: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ فنكّر وقلل؟ قلت: أمّا التنكير فلاجل تنكير القُرَّة؛ لأنّ المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، كأنه قال: هَبْ لنا منهم سروراً وفرحاً. وإنما قيل: ﴿أَعْيُنٍ﴾ دون عُيُون؛ لأنه أراد أَعْيُنَ الْمُتَّقِينَ، وهي قليلة بالإضافة إلى عُيُونِ غَيْرِهِمْ، قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، ويجوز أن يقال في تنكير ﴿أَعْيُنٍ﴾: إنها أَعْيُنٌ خَاصَّةٌ؛ وهي أَعْيُنُ الْمُتَّقِينَ.

[﴿أَوْلَيْتِكَ فِيهَا حَسَنَاتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ٧٥-٧٦]

المراد: يُجْزَوْنَ العُرْفَاتُ؛ وهي العَلَالِيُّ فِي الْجَنَّةِ، فوَحَّدَ اقْتِصَاراً عَلَى الْوَاحِدِ الدَّالِّ

قوله: (ويجوز أن يُقال في تنكير ﴿أَعْيُنٍ﴾)، عطف على قوله: «أمّا التنكير فلاجل تنكير القُرَّة»، وفي هذا العطف على الجواب بعد السؤال الثاني نوع بلاغة؛ فإنه لما أجاب عن سؤال التنكير بقوله: أمّا التنكير فلاجل تنكير القُرَّة فهم أنّ المضاف تابع للمضاف إليه، وكان المراد من التنكير في المضاف التفضيم والتعظيم، فنكّر المضاف إليه لذلك، أي: سروراً لا يُكْتَنُّ كُنْهُهُ. ولما أجاب عن سؤال البناء وأنّ «أَعْيُنٌ» جمعٌ بُنِيَتْ لِلْقَلَّةِ لِيُؤْذَنَ بِهِ إِلَى تَقْلِيلِ صَاحِبِهَا وَهُمْ الْمُتَّقُونَ، قال: «إنها أَعْيُنٌ خَاصَّةٌ»، والتنكير تنكير التقليل؛ لِيُنَاسِبَ الْبِنَاءَ فِي التَقْلِيلِ، كأنه قُرَّةٌ أَعْيُنِ الشَّاكِرِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ.

الانتصاف: والظاهر أن المحكيّ كلامٌ كلٌّ واحدٍ من المتّقين، أي: يقول كلُّ واحدٍ منهم: اجعل لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرَّةً أَعْيُنَ، وهذا أحسنٌ من تأويله؛ فإنّ المتّقين، وإن كانوا قليليين، فهم كثيرون في أنفسهم، وقلتهم بالنسبة إلى غيرهم. والمعتبر في جمع القلة أن يكون الشيء قليلاً في نفسه لا بالنسبة^(١).

قوله: (وهي العَلَالِيُّ فِي الْجَنَّةِ)، الجوهري: العُلَيَّةُ: العُرْفَةُ، والجمعُ: العَلَالِيُّ، وهو فَعِيلَةٌ مَثَلُ مَرِيْقَةٍ، وأصله: عُلْيُوءٌ، فأبدلت الواو ياءً وأدغمت، وهي من: عَلَوْتُ.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٢٩٦).

على الجنس، والدليل على ذلك: قوله: ﴿وَهُمْ فِي الْعُرْفَةِ أَمْتُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، وقراءة مَنْ قرأ: (في العُرْفَةِ). ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: بصبرهم على الطاعات، وعن الشهوات، وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم، وعلى الفقر، وغير ذلك. وإطلاقه لأجل الشيعاء في كلِّ مَصْبُورٍ عليه.

قوله: (والدليل على ذلك)، أي: على أن المراد بـ«العُرْفَةِ» الجنس: مجيئها في «سبأ» جمعاً وإفراداً، فإن حمزة أفرَدَ بها مُفْرَدًا، والجماعةُ أجمعوا على جمعها^(١)، فدلَّ قراءةُ الجمعِ على أن المراد من الإفرادِ الجنسُ ليتوافقَ القراءتان، ويُمكنُ أن يُقال: القرينةُ هي إثباتُ العُرْفَةِ الواحدة للجماعة. وأما فائدةُ العدولِ في هذا المقامِ فلا تُحدِثُ ترتبَ الحكمِ على الأوصافِ المشتركة بخلافه في «سبأ»، فإنه مرَّتَبٌ على الإيِّانِ والعملِ الصَّالحِ مُطلقاً. ولا ارتيابَ في التفاوتِ في الأعمالِ، فناسَبَ الجمعُ لِيَتَفَاوَتْ الجزاءُ بحسبِ العَامِلِينَ. وأما إفرادُ حمزة فيها فَمِنْ بابِ حَمَلِ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ^(٢).

قوله: (وإطلاقه لأجل الشيعاء في كلِّ مَصْبُورٍ عليه)، يعني: لم يُؤْتِ بمتعلِّقِ صَبُورٍ لثَلَا يُقْتَصَرَ عليه، فيتناولُ كلَّ مَصْبُورٍ عليه إلى أن يُحاطَ به.

فإن قلت: قد تَقَرَّرَ أَنَّ اسْمَ الإِشَارَةِ إِذَا عُقِبَ بِهِ مَنْ أُجْرِيَ عَلَيْهِ الأَوْصَافَ دَلَّ عَلَى أَنَّ المَذْكُورَ قَبْلَهُ جَدِيدٌ بِمَا بَعْدَهُ لِأَجْلِ تِلْكَ الأَوْصَافِ الجَارِيَةِ عَلَيْهِ، فَإِذَنْ السَّبَبُ فِي أَنَّهُمْ يُجَزَوْنَ العُرْفَةَ تِلْكَ الأَوْصَافُ الَّتِي أُجْرِيَتْ عَلَى عِبَادِ الرَّحْمَنِ، فَكَانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ أَنْ يُجَاءَ بِدَلِّ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: بِمَا فَعَلُوا كِنَايَةً عَنِ تِلْكَ المَذْكُورَاتِ بِأَسْرِهَا، فَمَا فائِدَةُ العُدُولِ؟ قلتُ: الإيِّدَانُ بِأَنَّ مَلَائِكَةَ العِبَادَاتِ الصَّبْرُ، وَأَنَّ حَبْسَ النَفْسِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ هِيَ الطَّلِبَةُ، وَقَطْعُهَا عَنِ مُشْتَهَاتِهَا هِيَ المَرَامُ.

الراغِبُ: الصَّبْرُ: حَبْسُ النَفْسِ عَمَّا يَقْتَضِيهِ الهَوَى، وَتَخْتَلَفُ مَوَاقِعُهُ وَرَبِّهَا يُخَالَفُ بَيْنَ أَسْمَائِهِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ مَوَاقِعِهِ. فَإِنْ كَانَ فِي مَصِيبَةٍ فيقالُ: صَبْرٌ لا غَيْرُ، وَصِدْهُ الجُرْعُ،

(١) انظر: «حجّة القراءات» ص ٥١٥.

(٢) هذه الفقرة وردت في (ط) هنا، ووردت في (ح) و(ف) بعد الفقرة التالية.

وَقُرَى: ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾، كقوله: ﴿وَلَقَنَّهُمْ نَصْرَةً﴾ [الإنسان: ١١]، و(يَلْقَوْنَ)، كقوله: ﴿وَيَلْقَىٰ آثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] والتحيّة: دُعاءٌ بالتَّعمير. والسلام: دُعاءٌ بالسَّلامة، يعني: أن الملائكة يُحيُّونهم ويُسلمون عليهم. أو: يُحيِّي بعضهم بعضاً ويسلم عليه. أو يُعطون التَّبقيّة والتخليد مع السَّلامة من كلِّ آفة. اللَّهُمَّ وُقِّنا لطاعتك، واجعلنا مع أهل رحمتك، وارزُقنا ممَّا ترزُقهم في دارِ رضوانك.

[﴿قُلْ مَا يَعْجَبُوكُمْ بِرَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ٧٧]

لَمَّا وَصَفَ عِبَادَةَ الْعِبَادِ، وَعَدَّدَ صَالِحَاتِهِمْ وَحَسَنَاتِهِمْ، وَأَثْنَى عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِهَا،

وإن كان في مُحارية سُمِّي شجاعةً، وُضدَّها الجُبْنُ، وإن كان في نائبةٍ مُضجرةٍ سُمِّي صاحبه رَحِيبَ الصَّدْرِ، وُضدَّه ضَيْقُ الصَّدْرِ، وإن كان في إمساكِ النَّفسِ عنِ الفُضُولِ سُمِّي قناعةً وعِفَّةً، وُضدَّها الحِرْصُ والشَّرْه، وإن كان في إمساكِ الكلامِ في الضَّميرِ سُمِّي كِتْمَانًا، وُضدَّه الإفشاءُ وعلى هذا يقاسُ جميعُ الفضائلِ مِنَ الأخلاقِ وِردائِلِها^(١).

قوله: (وَقُرَى: ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾)، بالتشديد، كلُّهم إلا أبا بكرٍ وحزرةً والكسائي؛ فإنَّهم قرؤوا: «وَيَلْقَوْنَ» بالتخفيف^(٢).

قوله: (أَوْ يُعْطُونَ التَّبْقِيَّةَ)، عطفٌ على قوله: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُحْيَوْنَهُمْ»، هذانِ الوجهانِ مَبْنِيَّانِ على القراءتَيْنِ على تشديدِ ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾ وتخفيفِهِ، فعلى التشديدِ المناسبُ أن يكونَ التَّحيَّةُ بمعنى الدُّعاءِ بالتَّعمير، أي: تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَيُحْيَوْنَهُمْ وَيُسَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ، وعلى التَّخْفِيفِ التَّحيَّةُ بمعنى التَّبْقِيَّةِ والتخليد، أي: يَلْقَوْنَ الْبَقَاءَ وَالتَّخْلِيدَ مَعَ السَّلامَةِ، لكنَّ فَسْرَ الْمَصْنُفِ يَلْقَوْنَ بقوله: «يُعْطُونَ»، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَنَّهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]، أي: أعطاهم، وفي بعضِ الحواشي: التَّحيَّةُ مُسْتَقَّةٌ مِنَ الْحَيَاةِ، وَهِيَ التَّبْقِيَّةُ فِي الْحَقِيقَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُنَا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، أَي: التَّبْقِيَّاتُ لَهُ تَعَالَى.

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٧٤.

(٢) انظر: «حجة القراءات» ص ٥١٥.

وَوَعَدَهُمُ الرِّفْعَ مِنْ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ؛ أَتْبَعَ ذَلِكَ بَيَانًا أَنَّهُ إِنَّمَا اكْتَرَتْ بِأَوْلَئِكَ وَعَبَاءِ
بِهِمْ وَأَعْلَى ذِكْرِهِمْ وَوَعَدَهُمْ مَا وَعَدَهُمْ، لِأَجْلِ عِبَادَتِهِمْ، فَأَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يَصْرِّحَ
لِلنَّاسِ، وَيَجِيزَ لَهُمُ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْاِكْتِرَاتَ لَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّمَا هُوَ لِلْعِبَادَةِ وَحَدَّهَا لَا لِمَعْنَى
آخَرَ، وَلَوْ لَا عِبَادَتُهُمْ لَمْ يُكْتَرَتْ لَهُمُ الْبَتَّةَ، وَلَمْ يُعْتَدَّ بِهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا عِنْدَهُ شَيْئًا يُبَالَى بِهِ.
وَالدَّعَاءُ: الْعِبَادَةُ. وَ﴿مَا﴾ مُتَضَمِّنَةٌ لِمَعْنَى الْاِسْتِفْهَامِ، وَهِيَ فِي مَحَلِّ النِّصْبِ، وَهِيَ عِبَارَةٌ
عَنِ الْمَصْدَرِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَيُّ عَبَاءٍ يَعْبَأُ بِكُمْ لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ؟ يَعْنِي: أَنْكُمْ لَا تَسْتَأْهِلُونَ
شَيْئًا مِنَ الْعَبَاءِ بِكُمْ لَوْلَا عِبَادَتُكُمْ. وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ: مَا عَبَأْتُ بِهِ: مَا اعْتَدَدْتُ بِهِ مِنْ
فَوَادِحِ هُمُومِي وَمَا يَكُونُ عَيْنًا عَلَيَّ، كَمَا تَقُولُ: مَا اكْتَرْتُ لَهُ، أَي: مَا اعْتَدَدْتُ بِهِ مِنْ
كَوَارِثِي وَمَا يُمْنِي. وَقَالَ الزَّجَّاجُ فِي تَأْوِيلِ ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾: أَيُّ وَزْنٍ يَكُونُ لَكُمْ
عِنْدَهُ؟ وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿مَا﴾ نَافِيَةً. ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾: يَقُولُ: إِذَا أَعْلَمْتُمْ أَنَّ حُكْمِي
أَيُّ لَا أَعْتَدُّ بِعِبَادِي إِلَّا لِعِبَادَتِهِمْ، فَقَدْ خَالَفْتُمْ بِتَكْذِيبِكُمْ حُكْمِي، فَسَوْفَ يَلْزِمُكُمْ
أَثْرُ تَكْذِيبِكُمْ حَتَّى يَكْبِتَكُمْ فِي النَّارِ. وَنَظِيرُهُ فِي الْكَلَامِ أَنْ يَقُولَ الْمَلِكُ لِمَنْ اسْتَعَصَى
عَلَيْهِ: إِنَّ مِنْ عَادَتِي أَنْ أُحْسِنَ إِلَى مَنْ يُطِيعُنِي وَيَتَّبِعُ أَمْرِي، فَقَدْ عَصَيْتَ فَسَوْفَ تَرَى
مَا أَجَلُّ بِكَ بِسَبَبِ عِصْيَانِكَ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: مَا يَصْنَعُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُهُ إِيَّاكُمْ إِلَى
الْإِسْلَامِ. وَقِيلَ: مَا يَصْنَعُ بِعِبَادِكُمْ لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ مَعَهُ آلِهَةً. فَإِنْ قُلْتَ: إِلَى مَنْ يَتَوَجَّهَ
هَذَا الْخِطَابُ؟ قُلْتَ: إِلَى النَّاسِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَمِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ عَابِدُونَ وَمُكْذِبُونَ
عَاصُونَ، فَخُوطِبُوا بِمَا وُجِدَ فِي جِنْسِهِمْ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّكْذِيبِ.

قوله: (من فوادح همومي) وكوارثي، الجوهرية: فدَحَه الدَّيْنُ: أَثْقَلَهُ، وَأَمْرٌ فَادِحٌ، إِذَا
عَالَهُ وَهَيَّظَهُ، وَكَرَّهَهُ الْعَمَّ يَكْرَهُهُ، بِالضَّمِّ، أَي: اسْتَدَّ عَلَيْهِ، وَبَلَغَ مِنْهُ الْمَشَقَّةَ.

قوله: (فخوطينوا بما وُجِدَ في جنسهم من العبادَةِ والتكذيبِ)، أَي: الْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ:
﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ متوجهٌ إِلَى جِنْسِ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدِ

بنوع من أنواع هذا الجنس، وإتباعاً صَحَّ ذلك لَمَّا وَجِدَ في صنفٍ من الأصنافِ التَّكْذِيبُ، وفي صنفِ العبادَةِ، وهو قَرِيبٌ من قوله:

فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ صَرَبُوا بِهِ نَبَا بِيَدَيْ وَرَقَاءَ عَنِ رَأْسِ خَالِدٍ^(١)

فقد أسند الضرب إلى بني عبس مع قوله: نبا بيدي ورقاء.

وقلت: ما أبعد هذا التأويل؛ فإن الآية منه على صريح وعويل، أم كيف يتصور أن يدخل الأنبياء والصالحون من التابعين في خطاب ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾؟ والوجه أن يكون الخطاب متوجهاً إلى قريش، لا سبياً واللزام مفسرٌ بيوم بدر.

روينا عن البخاري ومسلم، عن عبد الله^(٢): خمسٌ قد مضين: الدخان، والقمر، والرؤم، والبطشمة، واللزام^(٣)، وفي رواية الترمذي: اللزام: يوم بدر^(٤).

وروى البرقاني^(٥) عن الشيخين: اللزام: يوم بدر، وفي «معالم التنزيل»: ما يفعل بعدايكم لولا شرككم؟ أي: دعاؤكم الآلهة، كما قال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]. وقيل: فقد كذبتم أيها الكافرون، فخطب أهل مكة، يعني: أن الله دعاكم بالرسول إلى توحيده وعبادته، فكذبتم الرسول ولم تحبوه^(٦).

وقال صاحب «الفرائد»: أصل الكلام: لولا دعاؤكم - أي: عبادتكم - لم يعبا بكم،

(١) البيت للفرزدق كما في «النقائص» ص ٣٨٤، و«الحيوان» للجاحظ (٣: ٩٧).

(٢) يعني ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٦٧) ومسلم (٢٧٩٨).

(٤) «سنن الترمذي» (٣٢٥٤)، وصححه ابن حبان (٤٧٦٤).

(٥) هو العلامة شيخ الفقهاء والمحدثين أبو بكر أحمد بن محمد البرقاني الشافعي له مسند ضمنه ما اشتمل عليه البخاري ومسلم، توفي سنة ٤٢٥ هـ. ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٧: ٤٦٤).

(٦) «معالم التنزيل» (٦: ١٠٠).

وَقُرئ: (فقد كَذَّب الكافرون). وقيل: يكونُ العذابُ لَزَامًا. وعن مجاهد: هو القتلُ يومَ بَدْر، وأنه لُوْزِمَ بينَ القَتلى لَزَامًا. وَقُرئ: (لَزَامًا) بالفتحِ بمعنى اللُّزوم، كالثَّبَات

لكن لم تكن عبادتكم؛ لأنه أرسل الرسول إليكم فقد كذبتموه فلم يعبأ بكم، فقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لَزَامًا﴾ واقع موقع لم يعبأ بكم.

والتَّظْمُ يساعِدُ هذا التأويل؛ لأن هذه السُّورة الكريمة على ما سبقَ مشتملة على بيانِ عِنَادِ كَفَارِ قُرَيْشٍ، وتكذيبهم آياتِ الله وتسميتهم القرآنَ بأساطيرِ الأولين، وطعنهم في الرسول: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧]، كما شرَّحناه. وأما ذِكْرُ الْمُؤْمِنِينَ فتعريضُ لهم وقد صرَّحَ به في قوله: «وَنَفِي هَذِهِ الْمُقَبَّحَاتِ الْعِظَامَ عَنِ الْمُوصُوفِينَ بِتِلْكَ الْخِصَالِ الْعَظِيمَةِ فِي الدِّينِ لِلتَّعْرِيزِ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ أَعْدَاءُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ»، ثم إنَّ هذه الخاتمةَ ناظرةً إلى الفاتحة، أي: ﴿بَارِكْ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] المعنى: قد أُنذِرَ وبألغ فيه، ويبيِّنُ بالآياتِ^(١) الظاهرة، والبراهين الباهرة، تصريحاً وتعريضاً، أنَّ الحكمةَ في الإيجادِ معرفةُ الخالق، أمَّا تصريحاً ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْذِرَ أَوْ أَرَادَ سُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وأمَّا تعريضاً ففي عدِّ فضائلِ المؤمنين، وإذا أعلمكم رسولي أنَّ حُكْمِي ذلك، وأني لا أعتدُّ بعبادي إلا بعبادتهم، فقد خالفتم أنتم بتكذيبكم كتابي ورسولي حكمتي في الإيجاد، فسوف يلزمكم أثرُ تكذيبكم، وهو الاستئصالُ يومَ بَدْر، والعذابُ السَّرمَدُ في النارِ يومَ القيامة، وبالله التوفيق.

قوله: (وَقُرئ: «لَزَامًا» بالفتح)^(٢)، في «المطلع»: «لَزَامًا» بالفتح، بمعنى: اللُّزوم، كالثَّبَاتِ والثَّبُوت، وبالكسر: بمعنى المَلَازِمَة، وكلاهما وَصِفٌ بالمصدرِ بمعنى: مُلَازِمًا أو لَزِمًا.

(١) في (ط): «الآيات».

(٢) وتمن قرأ بها أبو السَّهال كما في «مختصر شواذ القرآن» ص ١٠٥. ولتأمام الفائدة انظر: «البحر المحيط»

والثبوت. والوجهُ أنَّ تَرَكَ اسمَ «كان» غيرَ منطوقٍ به بعدما علم أنه مما تُوعَدُ به،
لأجل الإبهام وتناول ما لا يكتنهُه الوصفُ. واللهُ أعلم بالصواب.

عن رسولِ الله ﷺ: «مَنْ قرأ سُورَةَ الْفُرْقَانِ لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِأَنَّ
السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ نَصَبٍ».

قولُه: (وَالْوَجْهُ أَنَّ تَرَكَ اسمَ «كان» غيرَ منطوقٍ به)، يريدُ أنه غيرُ ملفوظ، لكنّه مُضمَّرٌ
بالبال، لقولِه: «بعدَ ما عَلِمَ أنه مما تُوعَدُ به».

واللهُ تعالى أعلمُ

* * *

سورة الشعراء

مكية، إلا قوله ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ إلى آخر السورة
وهي مثنان وسبع وعشرون آية، وفي رواية: ست وعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[﴿طسّر﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١-٢﴾]

﴿طسّر﴾ بتفخيم الألف وإمالتها، وإظهار النون، وإدغامها. ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾:

سورة الشعراء

مكية، إلا قوله: ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ إلى آخر السورة.
وهي مثنان وسبع وعشرون آية، وفي رواية: ست وعشرون آية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿﴿طسّر﴾ بتفخيم الألف﴾، أبو بكرٍ وحمزةٌ والكسائيُّ: بإمالة فتحه الطاء، والباقون: بإخلاص فتحها. وأظهر حمزةٌ النونَ من هجاءِ السينِ عند الميم، وأدغمها الباقون^(٢).

(١) كذا في (ف)، وفي (ط): «سورة الشعراء، مكية، وهي مثنان وعشرون وسبع آيات».
(٢) وحجته من أدغم أن هذه الحروف لما كانت متصلة بعضها ببعض، لا يوقف على شيء منها دون شيء، ولا يفصل في الخط شيء عن شيء أدغم لاشتراك النون مع الميم في الغنة...، وحجته من أظهر أن هذه الحروف المقطعة مبنية على الانفصال والوقف عليها ولذلك لم تُعرب، فجرت في الإظهار على حكم الوقف عليها وانفصالها مما بعدها. انتهى من «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (٢: ١٥٠).

الظاهر إعجازه، وصحة أنه من عند الله. والمراد به السورة أو القرآن، والمعنى: آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين.

[لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾]

البخع: أن يبلغ بالذبح البخاع - بالباء -؛ وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك

قوله: (الظاهر إعجازه)، أراد أن المبين من أبان بمعنى بان.

قوله: (المراد به السورة أو القرآن)، اعلم أن ﴿طسّر﴾ إما أن يجعل اسماً للسورة، أو تعداداً لحروف التهجي، والثاني إما واردة على قرع العصا^(١)، أو تقدمةً لدلائل الإعجاز كما سبق في الفواتح، ثم المناسب أن يفسر الكتاب بالقرآن إذا جعل ﴿طسّر﴾ اسماً لله، ويكون مبتدأً وتلك: مبتدأ ثانٍ، وآيات الكتاب: الخبر، والجُملة خبرُ المبتدأ الأول، وإذا جعل تعداداً للحروف يفسر الكتاب بالسورة، ويُقدّر مضافاً كما قال: «آيات هذا المؤلف من الحروف المبسوطة تلك آيات الكتاب المبين»، يعني: آيات المؤلف من هذه الحروف، وهو القرآن، كآيات هذه السورة المتحدى به، فأنتم عجزتم عن الإتيان بمثل هذه السورة، فحكمتم تلك الآيات كذلك. و﴿تلك﴾ على هذه: إشارة إلى القريب إعلماً ببعد المنزلة والتناهي في الرتبة، وفي الوجه الأول: الإشعار بالتحدي بهذه السورة أيضاً، يعني: هذه السورة من جملة المتحدى به فأتوا بمثلها.

قوله: (البخع: أن يبلغ بالذبح البخاع - بالباء -)، الموحدة. قال ابن الأثير في «النهاية»: بحثت في كتب اللغاة والطب والتشريح فلم أجد بخاع بالباء. وفي «الكواشي» وأهل اللغاة: النخاع بالنون والخاء والعين. الجوهري: النخاع بضم النون: الحيط الأبيض الذي في جوف الفقار. الواحدي: قال جماعة من المفسرين: باخع نفسك: قاتل نفسك^(٢)، يقال: بخع الرجل نفسه: إذا قتلها غيظاً من شدة وجده بالشيء. وأنشد الزجاج لذي الرمة:

(١) يعني على سبيل التنبيه. وهو مستفاد من مثل قوله العرب، وقد سبق بيانه.

(٢) «الوسيط» للواحدي (٣: ٣٥٠).

أقصى حدِّ الذابح، و«لعلَّ» للإشفاق، يعني: أشفقُ على نفسك أن تقتلها حسرةً على ما فاتك من إسلام قومك، ﴿أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾: لئلا يؤمنوا، أو لامتناع إيمانهم، أو خيفةً أن لا يؤمنوا. وعن قتادة: (باخعُ نفسك) على الإضافة.

[﴿إِنْ دُشِّأَ نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَائَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ٤]

ألا أيهذا الباخعُ الوجدِ نفسه بشيءٍ نحته عن يديه المقادير^(١)

المعنى: ألا أيهذا الذي أهلك الوجدُ نفسه^(٢). وفي «الأساس»، في بابِ الباءِ مع الخاء: بَخَعَ الشاةُ: بَلَغَ بِذَبْحِهَا الْفِقَارَ، وَمِنَ الْمَجَازِ: بَخَعَهُ الْوَجْدُ: إِذَا بَلَغَ مِنْهُ الْمَجْهُودَ، وَأَنْشَدَ بَيْتَ ذِي الرُّمَّةِ.

قوله: (يعني: أشفقُ على نفسك أن تقتلها حسرةً على ما فاتك من إسلام قومك)، دَلَّ على الأمرِ بالإشفاقِ قضيةَ الإنكارِ، أي: إِنَّكَ تَفْعَلُ ذَلِكَ فَلَا تَفْعَلْ. قال الإمامُ: لَمَّا بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى أَنَّ الْكِتَابَ مُبَيَّنٌّ لِلْأَشْيَاءِ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَفْسَكَ﴾ مُنْبَهًا عَلَى أَنَّ الْكِتَابَ وَإِنْ بَلَغَ فِي الْبَيَانِ كُلَّ غَايَةٍ فَلَا مَدْخَلَ لَهُ فِي إِيمَانِهِمْ، لِمَا سَبَقَ أَنَّ حُكْمَ اللهِ بِخِلَافِهِ، فَلَا تُبَالِغُ فِي الْحَزَنِ وَالْأَسْفِ؛ لِأَنَّكَ إِنْ بِالَغْتِ فِيهِ كُنْتَ بِمَنْزِلَةٍ مَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ، ثُمَّ لَا يَنْتَفِعُ بِذَلِكَ أَصْلًا، فَصَبْرَهُ وَعَزَاهُ وَعَرَفَهُ أَنْ عَمَّهُ لَا يَنْفَعُ، كَمَا أَنَّ مَجْرَدَ وَجُودِ الْكِتَابِ وَوُضُوحِهِ لَا يَنْفَعُ^(٣).

قوله: (أو خيفةً أن لا يؤمنوا)، إِنَّمَا قَدَّرَ الْوَجْهَيْنِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكَ بَخِعٌ نَفْسَكَ﴾، وَلَيْسَ بِفَعْلٍ لِفَاعِلِ الْفِعْلِ الْمُعْلَلِ، فَكَانَ مِنَ الظَّاهِرِ ذِكْرُ حَرْفِ التَّعْلِيلِ، وَإِنَّمَا تُرِكَ لِأَنَّ فِي «أَنَّ» دِلَالَةً عَلَيْهِ لَمَّا اطَّرَدَ حَذْفُ الْجَارِ مِنْهُ، أَوْ أَنَّهُ فِعْلٌ لَهُ عَلَى تَقْدِيرِ الْمُضَافِ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: «خِيفَةَ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا».

(١) «ديوان ذي الرمة» ص ٣٣٨.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٣: ٢٦٨).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١١٩).

أراد: آية مُلجئة إلى الإيمان قاصرة عليه. ﴿فَظَلَّتْ﴾ معطوفٌ على الجزاء الذي هو ﴿نُزِّلَ﴾؛ لأنه لو قيل: أنزلنا، لكان صحيحاً. ونظيره: ﴿فَأَصَدَّقَ وَأَكُنْ﴾ [المنافقون: ١٠]،

قوله: (آية مُلجئة إلى الإيمان)، عن بعضهم: الآية عند أهل السنة غير مُلجئة كما قالت المعتزلة، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلِئِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لِلْإِيمَانِ﴾ [الأنعام: ١١١]، والآيات من الله ليست بعلة للإيمان، وإنما هي أسبابٌ توجب الاعتبار على سبيل الاختيار، وفيه بحثٌ. قال الواحدي: أعلم الله تعالى أنه لو أراد أن يُنزل ما يضطرهم إلى الطاعة لَقَدَرَ على ذلك. وقال ابن جرير: ولو شاء لأراهم أمراً من أمره لا يعمل أحدٌ بعده منهم معصية الله^(١).

وقال القاضي: «آية»، أي: دالة مُلجئة إلى الإيمان^(٢).

قوله: ﴿فَظَلَّتْ﴾ معطوفٌ على الجزاء الذي هو ﴿نُزِّلَ﴾، فالفاء إذن: للتعقيب، والأوجه أن الفاء للسببية؛ لأن الإنزال سببٌ للخضوع.

قوله: (لو قيل: أنزلنا، لكان صحيحاً)، يعني: ﴿فَظَلَّتْ﴾: معطوفٌ على المضارع الذي لو استعمل بدله الماضي لكان صحيحاً، كما أن «أكن»^(٣) معطوفٌ على «أصدق»، على أنه لو قيل: «أصدق» مجزوماً لكان صحيحاً، ويمكن أن يقال: إن فائدة وضع ﴿نُزِّلَ﴾ موضع «أنزلنا» استحضار صورة إنزال تلك الآية العظيمة المُلجئة إلى الإيمان، وحصول خضوع رعايهم عند ذلك في ذهن السامع ليُتَعَجَّبَ منه، وإلا لم يصح عطف الماضي على المستقبل بحرف التعقيب، أو جعل الماضي مسبباً عن المستقبل، أو يقال: الأصل^(٤) «فتظلل» فوضع الماضي موضعه ليؤذن بسرعة الانفعال، وأن نزول الآية لقوة سلطانه بمنزلة أن لم يتوقف حصول الخضوع عند وجوده، فكأنه قد مضى فهو يُجبرُ عنه، وإلى هذا المعنى يُنظرُ قوله: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَأَنْجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

(١) «الوسيط» (٣: ٣٥٠) وانظر: «جامع البيان» للطبري (١٧: ٥٤٥).

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٣١).

(٣) في (ط): «لكن»، وهو تحريف.

(٤) في (ح) و(ف): «الأمثل».

كأنه قيل: أَصَدَّق. وقد قرئ: (لو شئنا لأنزلنا)، وقرئ: (فَتَظَلَّلُ أَعْنَاقَهُمْ). فإن قلت: كيف صحَّ مجيء ﴿خَضِعِينَ﴾ خبراً عن الأعناق؟ قلت: أصل الكلام: فظَلُّوا لها خاضعين، فأقحمت الأعناق؛ لبيان موضع الخضوع،

قوله: (وقرئ: «فَتَظَلَّلُ»)، على فك الإدغام^(١). قال الحريري في «درة الغواص»: فك الإدغام ضعيف؛ لأن العرب استعملت الإدغام طلباً للخفة، واستثقالاً للنطق بالحرفين المتماثلين، ورأت أن إبراز الإدغام بمنزلة اللفظ المكرر والحديث المعاد، ثم لم تفرق بين الماضي والمستقبل، وتصاريف المصادر وقد يشتمل قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] على الإدغام في الفعل الماضي والمستقبل. وهذا الحكم مطرد في كل ما جاء من الأفعال المضاعفة على وزن فَعَلَ وأَفْعَلَ وفاعَلَ وأَفْعَلَّ وتفاعَلَ واستفَعَلَ، نحو: مَدَّ الحَبْلَ، وأَمَدَّ، ومادَّ، وامتدَّ وتمادَّ، واستمدَّ، اللهم إلا أن يتصل به ضمير المرفوع أو يؤمر به جماعة التانيث، نحو: رَدَدْتُ ورَدَدْنَا واردةً وامتدَدْنَا؛ لسكون آخر المتماثلين. وقد جَوَزَ الإدغام والإظهار في الأمر للواحد، كقولك: رُدَّ واردةً، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وفي قوله: ﴿وَمَنْ يُسَاقِ الله﴾ [الأنفال: ١٣]، فأما ما عدَا هذه المواطن فلا يجوز إبراز التضعيف إلا في ضرورة، قال قنَبُ ابن أمِّ صاحب^(٢) [في الأفعال]^(٣):

مَهْلًا أَعَادَلُ قَد جَرَبْتِ مِنْ خُلُقِي أَيْ أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ صَنَنْتُوا

وقد شدَّ قوْلُهُمْ: قَطِطَ شَعْرُهُ، وَمَشَيْتِ الدَّابَّةُ، وَلَجَحَتْ عَيْنُهُ، أَيْ: التَّصَقَّتْ، وَضَبِبَتِ البُلْدُ: إِذَا كَثُرَ ضِبَابُهُ. وَصَكِكْتَ مِنَ الصَّكِّكَ فِي القَوَائِمِ؛ كُلُّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا يُقَاسُ عَلَيْهِ^(٤).

(١) انظر: «البحر المحيط» (٨: ١٤٠).

(٢) هو قنَب بن ضمرة من شعراء العصر الأموي يقال له: «ابن أم صاحب» كان في أيام الوليد بن عبد الملك، توفي نحو ٩٥ هـ. ترجمته في «الأعلام» (٥: ٢٠٢).

(٣) قوله: «في الأفعال»: لم يرد في الأصول الخطية، وأثبتناه من «درة الغواص».

(٤) «درة الغواص في أوهام الخواص» ص ١٠٢-١٠٣.

وَتَرِكَ الْكَلَامَ عَلَى أَصْلِهِ، كَقَوْلِهِ: ذَهَبَتْ أَهْلُ الْيَمَامَةِ، كَأَنَّ الْأَهْلَ غَيْرُ مَذْكُورٍ. أَوْلَمَّا
وُصِفَتْ بِالْخُضُوعِ الَّذِي هُوَ لِلْعُقْلَاءِ، قِيلَ: ﴿خَضِعِينَ﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿لِي سَجِدِينَ﴾
[يوسف: ٤]. وقيل: أعناقُ الناس: رؤسُاؤُهُم ومُقدِّمُوهُم، شُبِّهُوا بِالْأَعْنَاقِ كَمَا قِيلَ
لَهُم: الرُّؤُوسُ، وَالنَّوَاصِي، وَالصُّدُورُ، قَالَ:

فِي مَخْفَلٍ مِّنْ نَّوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودٍ

قَوْلُهُ: (وَتَرِكَ الْكَلَامَ عَلَى أَصْلِهِ)، أَي: تَرَكَ بَاقِيَ الْكَلَامِ عَلَى أَصْلِهِ، أَي: لَمْ يُعَيِّرْ، وَقِيلَ:
﴿خَضِعِينَ﴾ خَاضِعِينَ، وَحَقُّهُ: «خَاضِعَةٌ».

قَوْلُهُ: (كَقَوْلِهِ: ذَهَبَتْ)، أَي: آتَتْ الْفِعْلَ، وَأَصْلُهُ مُذَكَّرٌ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِسْتِعْمَالِ:
«ذَهَبَتْ الْيَمَامَةُ»، وَالْأَهْلُ مُتَّحَمٌ لِبَيَانِ الذَّاهِبِينَ، فَتَرَكَ ذَهَبَتْ عَلَى مَا كَانَ، وَفِي أَصْلِ
السِّيَرَاتِي: النَّحْوِيُّونَ يَجْعَلُونَ: ذَهَبَتْ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، وَشَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ^(١)، مِمَّا يَجُوزُ فِي
الشَّعْرِ، وَأَبُو الْعَبَّاسِ^(٢) يُمَيِّزُهُ فِي الْكَلَامِ، وَاحْتَجَّ بِهَذَا الْوَجْهِ فِي الْآيَةِ، فَكَانَتْ قَالَ: فَظَلُّوا لَهَا
خَاضِعِينَ، وَاعْتَمَدَتْ عَلَى أَصْحَابِ الْأَعْنَاقِ، وَكَذَلِكَ: شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ
الصَّدْرَ، وَاعْتَمَدَتْ عَلَى مَا أُضِيفَ الصَّدْرُ إِلَيْهِ.

قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: لَمَّا أُضِيفَ الْأَعْنَاقُ إِلَى الْمَذْكُورِ، وَكَانَتْ مُتَّصِلَةً بِهِمْ فِي الْخِلْقَةِ، أُجْرِيَ
عَلَيْهَا حُكْمُهُمْ. وَقَالَ الْكَسَائِيُّ: ﴿خَضِعِينَ﴾ هُوَ: حَالٌ مِّنَ الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ، لَا مَنَ
«الْأَعْنَاقِ»، وَهَذَا بَعِيدٌ فِي التَّحْقِيقِ؛ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ جَارٍ عَلَى غَيْرِ فَاعِلٍ «ظَلَّتْ»، فَيَفْتَقِرُ إِلَى إِبْرَازِ
ضَمِيرِ الْفَاعِلِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: خَاضِعِينَ هُمْ^(٣)، وَكَذَا فِي «الْكَشْفِ»^(٤).

قَوْلُهُ: (فِي مَخْفَلٍ مِّنْ نَّوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودٍ)، أَوْلُهُ:

(١) هذا منتزَعٌ من قول الأعشى في «ديوانه» ص ١٨٣:

وَتَشْرَقُ بِالْقَوْلِ الَّذِي قَدْ أَدَعَتْهُ كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَاةِ مِنَ الدَّمِ

(٢) يعني المبرِّد، كبير نُحَاةِ الْبَصْرَةِ فِي زَمَانِهِ. وَانظُرْ كَلَامَهُ فِي كِتَابِهِ «الْمَقْتَضِبِ» (١: ٢٤٨).

(٣) «البيان في إعراب القرآن» (٢: ٩٩٣).

(٤) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ٩٨٢).

وقيل: جماعات الناس. يقال: جاءنا عُتُقٌ من الناس؛ لَفُوجٍ منهم. وقرئ: (فظلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لها خاضعةً).

وعن ابن عباس: نزلت هذه الآيةُ فينا وفي بني أمية. قال: ستكونُ لنا عليهم الدَّولةُ، فتدُلُّ لنا أَعْنَاقَهُمْ بعد صُعوبة، ويلحقُهُم هوانٌ بعد عزة.

ومشهدٍ قد كفيَتْ الغائبينَ به (١)

أراد بالمشهد: المجلس، أي: رُبَّ مشهدٍ عظيم الشأنٍ تكلمتُ فيه وخاصمتُ عن الغيبِ عنه، وكشفتُ الغمَّةَ، وآتيتُ بالحجَّةِ بقلبٍ ثابت.

قوله: (وقيل: جماعاتُ الناس)، الأساس: ومنَ المجاز: أتاني عُتُقٌ من الناس؛ للجماعةِ المتقدمة، وجاءوا رَسَلاً رَسَلاً، وَعُتُقاً عُتُقاً، والكلامُ يأخذُ بعضُه بأعناقٍ بعض. قال العجاج:

حتى بدت أَعْنَاقُ صُبحِ أبلِجاء (٢)

ويُفهمُ من تقابلِ «رَسَلاً رَسَلاً»، لقوله: «عُتُقاً عُتُقاً»: أن (٣) في إطلاقِ الأَعْنَاقِ على الجماعاتِ اعتبارَ الهيئَةِ المُجمِعة، فالمعنى: فظَلُّوا خاضعينَ مُتجمِعينَ على الخُضوعِ، متفقينَ عليه لا يخرُجُ أحدٌ منهم عنه، كقولك للجماعة: هم يدُ، وفائدةُ الوَجْهِ الأوَّلِ، وهو إقحامُ العنقِ، تصويرُ حالةِ الخُضوعِ إدخالاً للرَّوعة.

والوجهُ الثاني من بابِ إجراءِ ما لا يعقلُ مجرَى العُقلاءِ مبالغةً لَخُضوعِهِم، فكأنه سَرى منهم إليها.

والثالثُ من إطلاقِ الجزءِ على الكلِّ؛ فإنَّ المتكبرَ إنما يظهرُ تجرُّه في عُنُقِهِ، وليَّه له؛ ولهذا سُمِّي المَلِكُ بالصَّيْدِ يقال: ملكٌ أصيدٌ؛ لا يلتفتُ من زهوه يميناً وشمالاً.

(١) ذكره ابن منظور في «لسان العرب» (نصاً) وعزاه لأمِّ قُبَيْسِ الضَّبِّيَّة.

(٢) تمامه - كما في «أساس البلاغة» (عنق):

تسورُ في أعجازِ ليلٍ أذعجا

(٣) في (ط): «أي».

[﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ٥ - ٦]

أي: وما يُجَدِّد لهم اللهُ بَوَاحِيهِ موعظةً وتذكيراً، إلا جَدَّدوا إعراضاً عنه وكفراً به.

قوله: (أي: وما يُجَدِّدُ لهم اللهُ بَوَاحِيهِ موعظةً وتذكيراً، إلا جَدَّدوا إعراضاً عنه وكفراً به)، فإن قلت: هَبْ أَنْ قَوْلَهُ: ﴿ مُحَدَّثًا ﴾ يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ، لَكِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ وَقَوْلَهُ: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا ﴾ وَقَوْلَهُ: ﴿ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ لَا يَدُلُّ إِلَّا عَلَى الْمُضِيِّ، فَمِنْ أَيْنَ قَالَ: «إِلَّا جَدَّدُوا إِعْرَاضًا»؟ وَلِذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ: الْآيَةُ مِنْ تَمَامِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنْ كُنَّا نَنْزِلُ عَلَيْكُمْ ﴾، فَسَبَّهَ تَعَالَى أَنَّهُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى أَنْ يَجْعَلَهُمْ مُؤْمِنِينَ بِالْإِلْجَاءِ رَحِيمٌ بِهِمْ، حَيْثُ يَأْتِيهِمْ بِالْقُرْآنِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، وَيَكْرُرُهُ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ عَلَى جَدٍّ وَاحِدٍ فِي الْإِعْرَاضِ وَالتَّكْذِيبِ وَالاسْتَهْزَاءِ^(١).

قلتُ: المصنَّفُ ما اعتَبَرَ التَّجَدُّدَ وَالاستِمْرَارَ مِنْ لَفْظِ ﴿ مُحَدَّثًا ﴾، بَلْ مِنْ وَقُوعِ الْمُضَارِعِ مُقَابِلًا لِلْمُضِيِّ، وَهُوَ: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ ﴾ كَمَا اعتَبَرُوهُ مِنْ وَقُوعِ الْمُضَارِعِ فِي حَدِّ الْمُضِيِّ فِي قَوْلِهِمْ: لَوْ نُحْسِنُ إِلَيْكَ لَشَكَرْتُمْ. قَالَ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ»: فَصَدَّوْا بِ«نُحْسِنُ»: أَنْ إِحْسَانَهُ مُسْتَمِرٌّ الْاِمْتِنَاعِ فِيهَا مَضَى وَقْتًا فَوْقَ تَمَّ، وَأَمَّا لَفْظَةُ ﴿ مُحَدَّثًا ﴾ فَلِتَوْكِيدِ مَعْنَى التَّجَدُّدِ وَالاستِمْرَارِ فِيهَا يَأْتِيهِمْ^(٢).

وَأَمَّا قِضِيَّةُ النِّظْمِ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُتَّصِلَةٌ مَعْنَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ طَسَّرَ ﴾ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾، فَإِنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمَ أَوْلَى أَنَّهُ أَنْزَلَ هَذَا الْكِتَابَ الْكَرِيمَ فِي نِهَاجِ مِنَ الْوُضُوحِ وَالبَيَانِ، وَأَتَمَّ مَا رَفَعُوا لَهُ رَأْسًا، ثُمَّ نَبَّهَ ثَانِيًا عَلَى أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ مَعَ وَضُوحِ آيَاتِهِ إِنَّمَا أَنْزَلَ عَلَى سَبِيلِ التَّدْرِجِ؛ لِيَكُونَ أَدْخَلَ فِي التَّذْكِيرِ، وَأَنْجَعَ فِي الْاِتِّعَاضِ بِهِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَابِلُوا كُلَّ حِصَّةٍ مِنْهُ بِتَكْذِيبٍ وَاسْتَهْزَاءٍ، كُلُّ ذَلِكَ تَسْلِيَةً لِحَبِيبِهِ ﷺ لِثَلَا يَذْهَبَ بِنَفْسِهِ حَسْرَاتٍ؛ وَلِذَلِكَ أَوْقَعَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ تَنْسَى ﴾ الْآيَتِينَ اعْتِرَاضًا، يَعْنِي: انظُرْ إِلَيْهِمْ وَإِلَى مَا

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١١٩).

(٢) «مفتاح العلوم» ص ١٠٧.

فَعَلُوا بِمَثَلِ هَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ، وَبِمُنزِلِهِ، عَلَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَن يَقْسِرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَهُمْ مُهَانُونَ خَاضِعُونَ، فَأَشْفِقْ عَلَى نَفْسِكَ أَنْ تَقْتُلَهَا حَسْرَةً عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْ إِسْلَامِهِمْ.

وأنت يا أيها المتأمل في كتاب الله المجيد إذا أمعنت النظر فيما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة وجدته نازلاً تسلياً لقلب الحبيب صلوات الله وسلامه عليه من تكذيب القوم إياه، والظعن فيما أنزل إليه والاستهزاء به؛ ألا ترى كيف ذكّل كل قصة من القصص المذكورة فيها بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وجعل كالتخلص إلى قصة أخرى وكالمهتّم بشأنه، فيرجع إليه إذا وجد له مجالاً، يعني: لا تتحسّر على إصرارهم على الكفر، وتكذيبهم ما أنزلنا عليك، إن ربك عزيز ينتقم منهم، ويرحم عليك بأن يقدر لك من يؤمن بك إن لم يؤمن هؤلاء. ومن ثم قرّن معه وقدم عليه كل مرة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، وإليه الإشارة بقوله: «هو العزيز في انتقامه من الكفرة، الرحيم لمن تاب» وأحسن. يعني: لك التأسي بربك مع كبريائه وجلاله، وبالأنبياء عليهم السلام السالفة؛ ولذلك بدأ سبحانه وتعالى بأمر نفسه، وذكر أنه تعالى أنزل عليهم دليل السمع، فأعرضوا وكذبوا واستهزأوا، ونصب لهم الدلائل الظاهرة، وأراهم آيات يفتح بها أعينهم: من إنبات كل صنّف بهيج، وما التفتوا ولا رفّعوا له رأساً، ثم فصل ذلك بتلك الفاصلة، وقرّنها بتلك القرينة، ونثى بقصة موسى عليه السلام وختمها أيضاً بتلك الفاصلة والقرينة، وثّلت بقصة الخليل عليه السلام وختمها بها، وهلمّ جرّاً إلى آخر السورة.

انظر - أيها المتأمل في كتاب الله المجيد، المستخرج للطائفه من قعر بحره، الملتقط لدرره بغوص فكره - إلى رفعة منزلة سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه، ونباهة قدره، كأنه التنزيل بجملمته نازل لتسكين بادرته^(١)، وتسلي حزنه، وتثبيت خلده، ورباطة جأشه، وتهذيب أخلاقه، وإرشاد أمته، مع مراعاة ألفاظ التلويح والتعريض والرمز، كالمناغاة بين المتحابين، والله درّ شيخنا شيخ الإسلام أبي حفص الشهروردي قدس الله تعالى روحه حيث

(١) وهي أول ما يبدر من الإنسان حين يعتره الغضب.

فإن قلت: كيف خولفَ بين الألفاظ والغرض واحد، وهي: الإعراض والتكذيب والاستهزاء؟ قلت: إنما خولفَ بينها لاختلاف الأغراض، كأنه قيل: حين أعرضوا عن الذكر فقد كذبوا به، وحين كذبوا به فقد خفَّ عندهم قدره وصار عُرْضَةً للاستهزاء والسُّخرية؛ لأنَّ مَنْ كان قابلاً للحقِّ مُقبِلاً عليه، كان مصدقاً به لا محالة، ولم يُظنَّ به التكذيب، ومَنْ كان مصدقاً به كان موثقاً له. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ وعيدٌ لهم

قال: بينَ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] وبينَ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم: ٤] مناسبةٌ تُشعرُ بقولِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ الصُّدَيْقَةِ بنتِ الصُّدَيْقِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا: كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ^(١)، وفيه رمزٌ غامضٌ وإيحاءٌ خفيٌّ إلى الأخلاقِ الربَّانية، وهو أتمُّها احتسَمَتِ الحضرةُ الإلهيةُ بأن تقول: بأنه صلواتُ الله عليه وسلامه كان متخلِّقاً بأخلاقِ الله تعالى، فعَبَّرَتْ بقولها: «كان خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»، استحياءً من سُبُحاتِ الجلال، وسِتْراً للحالِ بلُطفِ المقال، وهذا من وفورِ عِلْمِها وكَمالِ أدبِها^(٢)؛ لأنَّ الله تعالى أبرَزَ إلى الخَلْقِ أسماءَ منبئةٍ عن صفاتِ الكمال، وما أظهرَها لهم إلا ليدعوهم إليها، ولولا أنه تعالى أودعَ في القُوَى البَشَرِيَّةِ التخلُّقَ بالأخلاقِ ما أبرَزَها لهم، لكنَّ يَخْتَصُّ برحمته من يشاء.

قوله: (والغرض واحد)، وهو دَفْعُهُ والكُفْرُ بِهِ، كما قال: إعراضاً عنه وكُفْرًا به. وتلخيصُ الجواب: منعُ ذلك، وأن المرادَ التدرُّجَ من غَرَضٍ إلى غَرَضٍ هو المقصودُ، وتصويرُ معنى ما صدرَ منهم من الاستهزاء، وأنه نتيجةُ التكذيبِ المسبَّبِ عن الإعراض، فالفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ عاطفةٌ كما مرَّ، وفي قوله: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ سببيةٌ فصيحةٌ؛ لأنَّ مدخولها وعيدٌ للمستهزئ، والوعيدُ مسبوقٌ بحصولِ الاستهزاء؛ ولذلك قَدَّرَ: «فقد خفَّ عندهم قدره»، وصار عُرْضَةً للاستهزاء والسُّخرية.

(١) هذا جزءٌ من حديثٍ أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٨) ومسلم (١٤٥٠) وأبو داود (٢٠٦٣) وغيرهم، وانظر تمامَ تحريجه في «مسند أحمد» (٢٥٨١٣).

(٢) انظر كلامَ الشُّهروردي في كتابه «عوارف المعارف» (١: ٢٢٣) ونقل عن الجُنَيْدِ رحمه الله أنه قال: كان خُلُقُهُ ﷺ عظيماً، لأنه لم يكن له هِمَّةٌ سوى الله تعالى.

وإنذارٌ بأنهم سيُعلمون إذا مسَّهم عذابُ الله يومَ بَدْرٍ ويومَ القيامة ﴿مَا﴾ الشيءُ الذي كانوا يستهزئون به؛ وهو القرآن، وسيأتِيهم أنبأؤه وأحواله التي كانت خافيةً عليهم.

[﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمًا بَلَّغْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٧-٩]

وَصَفَّ الزَّوْجَ - وهو الصنفُ من النبات - بالكَرَم، والكريمُ: صِفَةٌ لكلِّ ما يُرضى ويُحَمَّد في بابِه، يقال: وجهُ كَرِيم؛ إذا رُضِيَ في حُسْنِه وجماله، وكتابٌ كريم: مَرْضِيٌّ في معانيه وفوائده، وقال:

حَتَّى يَشُقَّ الصُّفُوفَ مِنْ كَرَمِهِ

أي: مِنْ كَوْنِهِ مَرْضِيًّا فِي شَجَاعَتِهِ وَأَبْسِهِ. وَالنَّبَاتُ الْكَرِيمُ: الْمَرْضِيُّ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ

قَوْلُهُ: (حَتَّى يَشُقَّ الصُّفُوفَ مِنْ كَرَمِهِ)، أَوْلَهُ:

وَلَا يَجِئُ الْمَلْقَاءَ فَارْسُهُمْ

قَبْلَهُ:

لَا يُسَلِّمُونَ الْغَدَاةَ جَارَهُمْ حَتَّى يَزِلَّ الشَّرَاكُ عَنْ قَدَمِهِ (١)

أي: إِلَّا إِذَا مَاتَ صَاحِبُهُ. لَا يَجِئُ: لَا يَجِئُنُ، وَانْتِصَابُ «الْمَلْقَاءِ» عَلَى حَذْفِ «عَنْ» وَإِصَالِ الْفِعْلِ. وَقَوْلُهُ: «حَتَّى يَشُقَّ الصُّفُوفَ مِنْ كَرَمِهِ»، يَرِيدُ: إِلَى أَنْ يَشُقَّهَا كَرَمًا مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَا يَرْضَى بِأَدْنَى الْمَنْزِلَتَيْنِ فِي الْمَلْقَاءِ بِنَفْسِهِ، بَلْ يَأْتِي إِلَى النَّهَائِيَةِ فِي الْعُلُوِّ، أَي: مِنْ كَوْنِهِ مَرْضِيًّا فِي شَجَاعَتِهِ وَأَبْسِهِ. وَأَمَّا قَوْلُ الْمَصْنُفِ: «وَالكَرَمُ صِفَةٌ لِكُلِّ مَا يُرَضَى وَيُحَمَّدُ فِي بَابِهِ»، فَبَيَانٌ لِلْقَدْرِ الْمَشْتَرَكِ فِيمَا يُطَلَّقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْكَرَمِ، وَالْقَدْرُ الْمَشْتَرَكُ مِنَ الْإِعْتِبَارِ الْمَجَازِيِّ. قَالَ فِي «الْأَسَاسِ»: «وَمِنَ الْمَجَازِ: كَرَمُ السَّحَابِ تَكْرِيماً: جَادَ بِمَطَرِهِ، وَأَرْضٌ مَكْرَمَةٌ لِلنَّبَاتِ، إِذَا جَادَ نَبَاتُهَا، وَلَا يَكْرُمُ الْحَبُّ حَتَّى يَكْتُرَ الْعَصْفُ».

(١) لرجلٍ من حميرٍ كما في «مشاهد الإنصاف» (٣: ٣٠٠)، و«ديوان الحماسة» (١: ١٢٢).

من المنافع. ﴿إِنَّ فِي﴾ إنبات تلك الأصناف ﴿لآيَةً﴾ على أن مُنبتَها قادرٌ على إحياء الموتى، وقد عَلِمَ اللهُ أن أكثرهم مطبوعٌ على قلوبهم، غيرُ مرجوٍ إيمانهم ﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من الكفرة ﴿الرَّحِيمُ﴾ لمن تابَ وآمَنَ وعمل صالحاً. فإن قلت: ما معنى الجمع بين «كم» و«كل»؟ ولو قيل: كم أنبتنا فيها من زوج كريم^(١)؟

قوله: ﴿إِنَّ فِي﴾ إنبات تلك الأصناف ﴿لآيَةً﴾ على أن مُنبتَها قادرٌ على إحياء الموتى، إشارة إلى بيان النظم، وأن الذِّكْرَ المُحَدَّثَ المُطْلَقَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ﴾ مقيِّدٌ بَقَيْدِ إنبات الحشرِ والنشر، وأن المقدَّرَ بعدَ همزة الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الاستهزاء والتكذيب، وهو المعطوفُ عليه، أي: أكذَّبوا بالبُعْثِ، ولم يَرَوْا إلى الأرضِ؟ وعليه قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

قوله: (ما معنى الجمع بين «كم» و«كل»؟ ولو قيل: كم أنبتنا فيها من زوج كريم)، أي: لو قيل لكان كافياً، وأجاب: أن مقامَ بيانِ كمالِ قدرةِ الله تعالى يقتضي إيرادَ ما يستوعبُ الأصنافَ كُلِّها مع بيانِ تكاثرِها، ولا يحصلُ ذلك إلا بالجمع بينَ كم وكل. ونقل صاحبُ «الانتصاف» الجواب، ثم قال: فيكونُ المرادُ بالتكثيرِ: الأنواع، والظاهرُ أن المرادَ به آحادُ الأزواجِ والأنواع، فلو أسقطت «كُلًّا» وقلت: انظرُ إلى الأرضِ كم أنبتَ اللهُ تعالى فيها من الصِّنْفِ الفُلانيِّ، لكنتُ مُكثِّراً آحادَ ذلك الصِّنْفِ، فإذا أدخلتُ «كلَّ» أدنستُ بتكثيرِ آحادِ كلِّ صِنْفٍ لا آحادِ صِنْفٍ مُعَيَّنٍ^(٢).

وقلت: ها هنا صورٌ ثلاث:

إحداها: كم أنبتنا فيها من زوج كريم، فالكثرةُ في آحادِ صِنْفٍ، لا آحادِ كلِّ صِنْفٍ. وثانيتهما: أنبتنا فيها كلَّ زوج، فليسَ فيها إلا استيعابُ الأصنافِ المعلومة. وثالثتها: ما عليه التلاوة، فالكلُّ: لإحاطةِ جميعِ الأصنافِ، وكم: لكثرةِ أفرادِ كلِّ صِنْفٍ من تلك الأصنافِ،

(١) استدرك هنا على حاشية الأصل الخطي من «الكشاف»: «كان كافياً» وصحَّح عليه، ثم قال: «كان

كافياً، بغير خطه (أي الزمخشري)، هكذا في الحاشية. مصححه». انتهى.

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٠٠).

قلت: قد دلَّ «كُلُّ» على الإحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل، و«كَمَّ» على أن هذا المحيط مُتَكَاثِرٌ مُفْرَطٌ الكثرة، فهذا معنى الجمع بينهما، وبه نبه على كمال قدرته. فإن قلت: فما معنى وصف الزوج بالكريم؟ قلت: يحتمل معنيين؛ أحدهما: أن النبات على نوعين: نافع وضار، فذكر كثرة ما أنبت في الأرض من جميع أصناف النبات النافع، وخلق ذكر الضار. والثاني: أن يعمَّ جميع النبات نافعاً وضاراً، ويصفهما جميعاً

وهو المراد من قوله: فإذا أدخلت «كُلَّ» أدنّت بتكثير آحاد كلِّ صنف. هذا شرح كلامه، لكن هذا التركيب لا يُفيد إلا ما قال المصنّف كما سنقرُّه.

وقيل: على ما ذكره المصنّف: «من»: بيان، والأولى أن يُقال: إتماً للابتداء، أو للتبعض، أي: أبنّنا من كلِّ صنفٍ أفراداً كثيرة، ونباتاتٍ متعدّدة، فيكون إشارة إلى كثرة الأفراد من كلِّ صنف، و«كُلُّ»: إشارة إلى الإحاطة بجميع الأصناف، و«كَمَّ»: إشارة إلى كثرة الأفراد من أيِّ صنفٍ فرّص من هذه الأصناف، ويجوز أن يكون هذا المعنى هو مراد المصنّف، وظاهر كلامه يؤهم خلافه.

وقلت: معنى كلام المصنّف: «أن هذا المحيط متكاثراً»: أن هذا الذي أحاط بأزواج النبات متكاثراً، فالمحيط: الكلُّ، والمحاط به: الأصناف والظاهر معه؛ لأن مدخول «كَمَّ» قوله: «أَبْنَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ»، فيلزم تكاثراً هذا المجموع، فيدخل فيه آحاد كلِّ صنف، بدليل الخطاب؛ لكون المقام مقام مُبالغة، ولهذا تبعه الإمام، ونقل ألفاظ «الكشاف» بعينها من غير تغيير^(١). وقال القاضي: «كُلُّ»: لإحاطة الأزواج، و«كَمَّ»: لكثرتها^(٢)، فظهر أن فائدة الجمع بين «كَمَّ» و«كُلُّ»: التكميل، إذ لو اقتصر على أحدهما لم يُعلم المعنى الآخر، ولهذا قال: «وبّه به على كمال قدرته».

قوله: (والثاني: أن يعمَّ جميع النبات نافعاً وضاراً)، فعلى هذا: الصفة مادحة، وعلى الأول: فارقة.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٢٠).

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٣٢).

بالكُرمِ وبنبّه على أنه ما أنبت شيئاً إلا وفيه فائدة؛ لأنّ الحكيم لا يفعل فعلاً إلا لغرضٍ صحيحٍ ولحكمةٍ بالغة، وإن غفل عنها الغافلون، ولم يتوصّل إلى معرفتها العاقلون. فإن قلت: فحين ذكّر الأزواج ودلّ عليها بكلمتي الكثرة والإحاطة، وكانت بحيث لا يُحصيها إلا عالمُ الغيب، كيف قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾؟ وهلا قال: آيات؟ قلت: فيه وجهان: أن يكون ذلك مُشاراً به إلى مصدر ﴿أُنْبِئْنَا﴾، فكأنه قال: إن في الإنباتِ لآيةً أي آية! وأن يُراد: أن في كلّ واحدةٍ من تلك الأزواج لآية. وقد سبقَتْ لهذا الوجه نظائرٌ.

[﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ١٠-١١]

سجّل عليهم بالظلم بأن قدّم القوم الظالمين، ثم عطّفهم عليهم عطّف البيان، كأن معنى القوم الظالمين وترجمته: قوم فرعون، وكأنها عبارتان تعقبان على مؤدّي واحد، إن شاء ذكّرهم عبّر عنهم بالقوم الظالمين، وإن شاء عبّر بقوم فرعون. وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين: من جهة ظلمهم أنفسهم بكفرهم

قوله: (إلا لغرضٍ صحيح)، وعن بعضهم: الغرض من الغرضة، وهي العقدّة، كما سُميت الحاجة حاجةً وهي الشوكة، والله تعالى يتعالى عن ذلك؛ لأنها ما لم يقضيا تكون عقدّة في قلب الطالب والمحتاج.

قوله: (وقد سبقَتْ لهذا الوجه نظائرٌ)، ونظيره في هذه السورة قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، أي: كلّ واحدٍ منا، ومنه قولهم: دخلنا على الأمير فكسّانا حلّة، أي: كلّ واحدٍ منا.

قوله: (وقد استحقوا هذا الاسم من جهتين)، يعني: إنّما سُموا بالظالمين وصار كاللقب لهم؛ لما عهد منهم ظلمهم أنفسهم ولبنى إسرائيل، فجيء بقوله: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ كشفاً لذلك المعنى، وتشديداً لذلك الاسم، كما أنّ الحق إنّما يثبت على الغريم بتاً إذا كتبت الصكّ وسجّل عليه، وإليه الإشارة بقوله: «سجّل عليهم بالظلم».

وشرارتهم، ومن جهة ظلمهم لبني إسرائيل باستعبادهم لهم. قُرئ: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ بكسر النون، بمعنى: ألا يتقونني، فحذفت النون؛ لاجتماع النونين، والياء؛ للاكتفاء بالكسرة. فإن قلت: بِمَ تعلق قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾؟ قلت: هو كلامٌ مُستأنفٌ أتبعه عزَّ وجلَّ إرساله إليهم للإنذار، والتسجيل عليهم بالظلم؛ تعجيباً لموسى عليه السلام من حالهم التي شُنعت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب وقلَّة خوفهم وحذرهم

قوله: (وشرارتهم)، الأساس: طارت من النار شرارة وشررة، وتقول: كان أبوك نار شرارة، وأنت منها شرارة.

قوله: (هُوَ كلامٌ مستأنف)، قال أبو البقاء: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يُقرأ بالياء على الاستئناف، وبالتاء على الخطاب، والتقدير: يا قوم فرعون^(١).

قوله: (أتبعه الله^(٢)) عزَّ وجلَّ إرساله، أي: أتبع الله تعالى بقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ قوله: ﴿أَنْتِ أَلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وهو كلامٌ مشتملٌ على إرسال الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون المسجل بقوله: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، فقوله: «تعجيباً»: مفعولٌ له لأتبعه، وذلك أنه تعالى لما قال: ﴿أَنْتِ أَلْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ توطئة، ثم بيَّنه بقوله: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ تسجيلاً، وبيَّن عليهم ذلك المعنى بقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾، فهو كالتميم للمعنى. وأمَّا معنى التعجيب فكأنه قيل: يا موسى إنا انتهت تماديهم في الظلم، وإنا بلغ زمان إنذارهم وأوان تخويفهم بأيامي وعقابي فيتقون، ما أعجب حالهم في الظلم!

قال صاحب «الفرائد»: يُمكن أن يُقال في الغيبة: أتت قوم فرعون قائلاً قولي لهم: ألا يتقون، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، أي: فقل

(١) «التيان في إعراب القرآن» (٢: ٩٩٤).

قلت: والقراءة بالياء هي قراءة الجمهور. وقرأ أبو قلابة وغيره بالتاء على الالتفات إنكاراً وغضباً على المخاطب. انظر: «البحر المحيط» (٧: ٨).

(٢) لفظ الجلالة لم يرد في الأصل الخطي من «الكشاف» ولا في المطبوع، لكنه ورد في نص «الكشاف» من (ط)، وثبت هنا في الأصول الخطية.

من أيام الله. ويحتمل أن يكون «لَا يَتَّقُونَ» حالاً من الصَّمِيرِ فِي ﴿الظَّالِمِينَ﴾، أي: يَظْلِمُونَ غيرَ مَتَّقِينَ اللَّهَ وَعِقَابِهِ، فَأُدْخِلْتُ هَمْزَةَ الْإِنْكَارِ عَلَى الْحَالِ. وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: (أَلَا تَتَّقُونَ) عَلَى الْخَطَابِ؛ فَعَلَى طَرِيقَةِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِمْ، وَجَبَّهِمْ، وَضَرَبَ وُجُوهِهِمْ بِالْإِنْكَارِ، وَالغَضَبِ عَلَيْهِمْ، كَمَا تَرَى مَنْ يَشْكُو مَنْ رَكِبَ جُنَايَةً إِلَى بَعْضِ أَحْصَانِهِ وَالْجَانِي حَاضِرٌ، فَإِذَا انْدَفَعَ فِي الشَّكَايَةِ وَحَرَ مَزَاجُهُ وَحَمِيَ غَضَبُهُ فَطَعَّ مَبَاثَّةً صَاحِبِهِ وَأَقْبَلَ عَلَى الْجَانِي يُوَبِّخُهُ وَيُعْتَفُّ بِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَلَا تَتَّقَى اللَّهَ! أَلَمْ تَسْتَسِحِّحْ مِنَ النَّاسِ! فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا فَائِدَةُ هَذَا الْإِلْتِفَاتِ، وَالْخَطَابُ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ وَالسَّلَامُ فِي وَقْتِ الْمُنَاجَاةِ، وَالْمُلْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ غَيْبٌ لَا يَشْعُرُونَ؟ قُلْتَ: إِجْرَاءُ ذَلِكَ فِي تَكْلِيمِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ فِي مَعْنَى إِجْرَائِهِ بِحَضْرَتِهِمْ وَإِلْقَائِهِ إِلَى مَسَامِعِهِمْ؛ لِأَنَّهُ مُبَلَّغُهُ وَمُنْهِيهِ وَنَاشِرُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَهُ فِيهِ لُطْفٌ وَحِثٌّ عَلَى زِيَادَةِ التَّقْوَى، وَكَمْ مِنْ آيَةٍ أُنْزِلَتْ فِي شَأْنِ الْكَافِرِينَ وَفِيهَا أَوْفَرُ نَصِيبٍ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ تَدْبُرُ أَلْهَا وَاعْتِبَاراً بِمُورِدِهَا. وَفِي ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ - بِالْيَاءِ وَكَسْرِ النُّونِ -

لهم قولي: إني قريبٌ، أو مُبَلِّغاً قولي، وكذا في قراءة كسرِ النُّونِ، وفي الخطابِ قائلاً لهم: أَلَا تَتَّقُونَ، وفي الأوجه (١): أَلَا تَتَّقُونَ: منصوبُ المحلِّ على أنه مفعولٌ، لأنه مَقُولٌ.

قوله: (من أيام الله)، أيامُ الله تعالى: وقائعهُ مَمَّنْ مَضَى مِنَ الْأُمَمِ، كَقَوْلِهِمْ: أَيَّامُ الْعَرَبِ لَوْ قَائِعُهُمْ، وَالْيَوْمُ يُعْتَبَرُ بِهِ عَنِ الشَّدَةِ.

قوله: (وجبَّههم)، الأساس: جَبَّهْتُهُ: ضَرَبْتُ جَبَّهْتَهُ، وَمِنَ الْمَجَازِ: جَبَّهْتُهُ: لَقَيْتَهُ بِمَا يَكْرَهُ، وَلَقِيتُ مِنْهُ جَبَّهَةً، أَي: مَذَلَّةً وَأَذَى، وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ:

حَيَّيْتَ عَنْهَا أَيَّهَا الْوَجْهُ وَلِغَيْرِكَ الشَّحْنَاءُ وَالْجَبَّةُ

قوله: (أخصَّائه)، قيل: هُوَ جَمْعُ «خِصِّيصٍ»، أَي الْمَخْصُوصِ.

قوله: (وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين)، الأوَّلُ مِنْ عِبَارَةِ النَّصِّ، وَالثَّانِي مِنْ إِشَارَتِهِ.

(١) فِي (ط): «وَفِي «أَلَا» وَجْهٌ».

وجه آخر؛ وهو أن يكون المعنى: ألا يا ناس اتقون، كقوله: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ [النمل: ٢٥].

[﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَٰؤُلَاءِ﴾ ١٢-١٣]

و﴿وَيَضِيقُ﴾ و﴿يَنْطَلِقُ﴾ بالرفع؛ لأنها معطوفان على خبر «إِنَّ»، وبالنصب؛ لعطفهما على صلة «أَنْ». والفرق بينهما في المعنى: أَنَّ الرفع يُفيد أَنَّ فيه ثلاث عِلَل:

قوله: (ألا يا ناس اتقون)، هذا من بابِ حَذْفِ المُنَادِي، وحقُّ الكِنَايَةِ هكذا: ألا يا اتقون، وألا يا اسجدوا، ولكن في الإمام كُتِبَا متصِلَيْنِ، ونحوه قولُ الشاعر:

ألا يا اسلَمي يا دار مَيِّ على البلي ولا زال مُنْهَلًا بَجَر عَائِكِ القَطْرُ^(١)

أي: ألا يا دارُ، فحُذِفَ المُنَادِي.

قوله: (وبالنصب)، قال القاضي: قرأ يعقوبُ: «يَضِيقُ»، «ولا يَنْطَلِقُ»، بالنصب^(٢).

قوله: (أَنَّ الرفع يُفيد أَنَّ فيه ثلاث عِلَل)، قال القاضي: رتَّب استدعاء ضمِّ أخيه إليه وإشراكه^(٣) له في الأمرِ على الأمورِ الثلاثة: خوفُ التَكْذِيبِ، وضيقُ القلبِ انفعالاً عنه، وازديادُ الحُبْسَةِ في اللِّسانِ بانقباضِ الرُّوحِ إلى باطنِ القلبِ عندَ ضيقِهِ بحيثُ لا يَنْطَلِقُ، لأنَّها إذا اجتمعتْ مَسَّتِ الحاجةُ إلى مُعِينٍ يقوِّي قلبه، ويُنوِّبُ منابه، حتَّى لا تَخْتَلَّ دعوتهُ ولا تَنْبَرَّ حُجَّتُهُ^(٤).

(١) لذي الرمة في «ديوانه» ص ٢٩٠.

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٣٣). ولتمام الفائدة انظر: «معاني القرآن» للفرّاء (٢: ٢٧٨) حيث قال: «وقوله: «ويضيقُ صدري» مرفوعةٌ لأنها مردودةٌ على «أخاف»، ولو نُصِبَتْ بالردِّ على «يكذبون» كانت نَصْباً صواباً والوجهُ الرفعُ، لأنه أخبر أن صدره يضيق، وذكر العلة التي كانت بلسانه، فتلك مما لا يُجَاف، لأنَّها قد كانت». انتهى.

(٣) في الأصول الخطية: «واشراكه»، وهو على الجادة في «أنوار التنزيل».

(٤) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٣٣).

خَوْفَ التَّكْذِيبِ، وَضِيقَ الصَّدْرِ، وَامْتِنَاعَ انْطِلاقِ اللِّسَانِ، وَالنَّصْبَ عَلَى أَنَّ خَوْفَهُ مَتَعَلِّقٌ بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ. فَإِنْ قُلْتَ: فِي النَّصْبِ تَعْلِيقُ الْخَوْفِ بِالْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، وَفِي جُمْلَتِهَا نَفْيُ انْطِلاقِ اللِّسَانِ، وَحَقِيقَةُ الْخَوْفِ إِنَّمَا هِيَ غَمٌّ يَلْحَقُ الْإِنْسَانَ لِأَمْرٍ سَيَقَعُ، وَذَلِكَ كَانَ واقِعاً، فَكَيْفَ جازَ تَعْلِيقُ الْخَوْفِ بِهِ؟ قُلْتَ: قَدْ عُلِقَ الْخَوْفُ بِتَكْذِيبِهِمْ وَبِمَا يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِهِ مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ، وَالْحُبْسَةِ فِي اللِّسَانِ زَائِدَةٌ عَلَى مَا كَانَ بِهِ، عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْحُبْسَةَ الَّتِي كَانَتْ بِهِ قَدْ زَالَتْ بِدَعْوَتِهِ. وَقِيلَ: بَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ يَسِيرَةٌ. فَإِنْ قُلْتَ: اعْتِذَارُكَ هَذَا يَرُدُّهُ الرَّفْعُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِنِّي خَائِفٌ ضِيقَ الصَّدْرِ غَيْرُ مُنْطَلِقِ اللِّسَانِ. قُلْتَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا قَبْلَ الدَّعْوَةِ وَاسْتِجَابَتِهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ الْقَدْرَ الْيَسِيرَ الَّذِي بَقِيَ بِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَكُونَ مَعَ حُلِّ الْعُقْدَةِ مِنْ لِسَانِهِ مِنَ الْفُصْحَاءِ الْمَصَاقِعِ الَّذِينَ

قَوْلُهُ: (عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْحُبْسَةَ الَّتِي كَانَتْ بِهِ قَدْ زَالَتْ بِدَعْوَتِهِ)، يَعْنِي بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاحْتَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [طه: ٢٧]، وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمَتَوَقَّعَ زِيَادَةَ الْحُبْسَةِ عَلَى تَقْدِيرِ بَقَائِهَا، أَوْ مُعَاوَدَتِهَا عَلَى تَقْدِيرِ زَوَالِهَا إِنْ زَالَتْ بِالْكُلِّيَّةِ وَلَوْ بَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ.

قَوْلُهُ: (اعْتِذَارُكَ هَذَا يَرُدُّهُ الرَّفْعُ)، يَعْنِي: قَدْ أُجِبْتُ أَنَّ مَا يَخَافُ عَلَيْهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَتَوَقَّعاً، لَا واقِعاً، وَأَنَّ الْمَرَادَ بِالْحُبْسَةِ: الزَّائِدَةُ الطَّارِئَةُ، أَوْ مُعَاوَدَةُ الزَّائِلِ، هَذَا عَلَى تَقْدِيرِ النَّصْبِ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ «يَضِيقُ»، «وَلَا يَنْطَلِقُ»: مَعْطُوفَانِ عَلَى «يُكْذِبُونَ» ﴿﴾، وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ الرَّفْعِ فَلَا؛ لِأَنَّهَا مَعْطُوفَانِ عَلَى «أَخَافُ»، فَلَمْ يَكُونَا مَتَوَقَّعَيْنِ؛ لِأَنَّ الْخَوْفَ غَيْرُ مُسَلِّطٍ عَلَيْهِمَا، فَيَلْزَمُ الْوَقُوعُ كَالْخَوْفِ، وَأَنَّ الْمَعْنَى: إِنِّي خَائِفٌ ضِيقَ الصَّدْرِ، وَإِنِّي غَيْرُ مُنْطَلِقِ اللِّسَانِ، وَالْوَاجِبُ اتِّفَاقُ الْقِرَاءَتَيْنِ فِي أَصْلِ الْمَعْنَى. وَأَجَابَ بِمَا يَجْمَعُ الْقِرَاءَتَيْنِ فِي الْمَعْنَى، وَذَلِكَ أَنَّ قِرَاءَةَ الرَّفْعِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَائِنٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ: ﴿وَاحْتَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [طه: ٢٧] وَقِرَاءَةُ النَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ بَعْدَهُ، فَاخْتِلَافُ الزَّمَانَيْنِ دَافِعٌ لِلتَّنَاقُضِ الْوَاقِعِ بَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ، وَفِيهِ بَحْثٌ، فَاخْتَارُ هِيَ الْقِرَاءَةُ بِالرَّفْعِ الَّتِي عَلَيْهَا الْجُمْهُورُ.

قَوْلُهُ: (الْمَصَاقِعُ)، الْأَسَاسُ: صَقَعَ الدِّيكُ، وَخَطَبْتُ بِصَقْعٍ، مُجَهَّرٌ فِي خُطْبَتِهِ، وَقِيلَ: الْمِصْقَعُ: الْخُطْبَةُ الْبَلِيغَةُ، كَأَنَّهُ يَقْصِدُ كُلَّ صُقْعٍ مِنَ الْكَلَامِ، أَي: كُلِّ نَاحِيَةٍ.

أوتوا سَلَاطَةَ الأَلْسِنَةِ وَبَسْطَةَ المَقَالِ، وَهَارُونَ كَانَ بَتْلَكَ الصِّفَةِ، فَأَرَادَ أَنْ يُقَرَّنَ بِهِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِخَى هَكَرُوتٍ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]. وَمَعْنَى: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾: أَرْسِلْ إِلَيْهِ جَبْرِيلَ، وَاجْعَلْهُ نَبِيًّا، وَأَزْرِنِي بِهِ، وَاشْدُدْ بِهِ عَضْدِي، وَهَذَا كَلَامٌ مُخْتَصَرٌ، وَقَدْ بَسَطَهُ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ، وَقَدْ أَحْسَنَ فِي الاِخْتِصَارِ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾، فَجَاءَ بِهَا يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الاسْتِنْبَاءِ، وَمِثْلُهُ فِي تَقْصِيرِ الطَّوِيلَةِ وَالْحُسْنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبًا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ نَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦]؛ حَيْثُ اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ طَرَفِي القِصَّةِ أَوْلَهَا وَآخِرَهَا؛ وَهَمَا: الإِنذَارُ وَالتَّدْمِيرُ، وَدَلَّ بِذِكْرِهِمَا عَلَى مَا هُوَ الغَرَضُ مِنَ القِصَّةِ الطَّوِيلَةِ كُلِّهَا؛ وَهُوَ أَنَّهُمْ قَوْمٌ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللهِ، فَأَرَادَ الإِزَامَ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا، فَأَهْلَكَهُم. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَاعَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَأْمُرَهُ اللهُ فَلَا يَتَقَبَّلُهُ بِسَمْعِ وَطَاعَةٍ مِنْ غَيْرِ تَوْقُفٍ وَتَشْبِيهِ بِعَلَلٍ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللّهَ مِنْ وَرَائِهِ؟ قُلْتُ: قَدْ امْتَثَلَ وَتَقَبَّلَ، وَلَكِنَّهُ التَّمَسَّ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَعْضُدَهُ بِأَخِيهِ.....

قَوْلُهُ: (سَلَاطَةُ الأَلْسِنَةِ)، الأَسَاسُ: امْرَأَةٌ سَلِيطَةٌ: طَوِيلَةُ اللِّسَانِ صَخَابَةٌ، وَرَجُلٌ سَلِيطٌ، وَقَدْ سَلَطَ سَلَاطَةً، وَقِيلَ: رَجُلٌ سَلِيطٌ، أَي: فَصِيحٌ حَدِيدُ اللِّسَانِ.

قَوْلُهُ: (وَقَدْ بَسَطَهُ فِي غَيْرِ هَذَا المَوْضِعِ) مِنْهُ: فِي طِه: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِ * هَارُونَ إِخَى * أَشْدُدْ بِهَذَا أَزْرِي * وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

قَوْلُهُ: (بِهَا يَتَضَمَّنُ)، وَهُوَ الإِرْسَالُ؛ لِأَنَّ مَا تَثَبَّتْ بِهِ النُّبُوَّةُ هُنَا إِرْسَالُ المَلِكِ.

قَوْلُهُ: (وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللّهَ تَعَالَى مِنْ وَرَائِهِ)، قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠]: «هَذَا مِثْلٌ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَفُوتُونَهُ كَمَا لَا يَفُوتُ فَائِثُ الشَّيْءِ المُحِيطَ بِهِ»، وَالمَعْنَى: كَيْفَ سَاعَ لَهُ التَّوَقُّرُ وَالتَّعَلُّلُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ سُلْطَانَ اللهِ وَقَهْرَهُ مَانِعٌ لذلِكَ، وَأَنَّهُ تَحْتَ قَهْرِهِ لَا يَفُوتُهُ أَحَدٌ؟ وَقَوْلُهُ: «وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ اللّهَ تَعَالَى»: حَالٌ مُقَرَّرَةٌ لِجِهَةِ الإِشْكَالِ.

قَوْلُهُ: (قَدْ امْتَثَلَ وَتَقَبَّلَ، وَلَكِنَّهُ التَّمَسَّ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْضُدَهُ بِأَخِيهِ)، قَالَ الإِمَامُ:

حتى يَتَعَاوَنَا عَلَى تَنْفِيذِ أَمْرِهِ وَتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ، فَمَهَّدَ قَبْلَ التَّمَايَسِ عُذْرَهُ فِيهَا التَّمَسُّهُ، ثُمَّ التَّمَسَّ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتَمَهَّيْدُ الْعُذْرِ فِي التَّمَايَسِ الْمُعِينِ عَلَى تَنْفِيذِ الْأَمْرِ لَيْسَ بِتَوَقُّفٍ فِي امْتِثَالِ الْأَمْرِ، وَلَا بِتَعَلُّلٍ فِيهِ، وَكَفَى بِطَلَبِ الْعَوْنِ دَلِيلًا عَلَى التَّقَبُّلِ لَا عَلَى التَّعَلُّلِ.

[﴿ وَهَلُمَّ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ ١٤]

أراد بالذَّنْبِ: قَتْلَهُ الْقَبْطِيَّ. وقيل: كان خَبَارًا فرعونَ، واسمه فَاثُونٌ. يعني: ولهم عِيٌّ تَبِعَةٌ ذَنْبٌ؛ وهي قَوْدُ ذَلِكَ الْقَتْلِ، فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِي بِهِ، فَحَذَفَ الْمُضَافَ. أو سَمَّى تَبِعَةَ الذَّنْبِ ذَنْبًا، كَمَا سُمِّيَ جَزَاءُ السَّيِّئَةِ سَيِّئَةً. فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ أُبَيِّنْتُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الثَّلَاثُ عَلَلًّا، وَجَعَلْتَهَا تَمَهِيدًا لِلْعُذْرِ فِيهَا التَّمَسُّهُ، فَمَا قَوْلُكَ فِي هَذِهِ الرَّابِعَةِ؟ قُلْتَ: هَذِهِ اسْتِدْفَاعٌ لِلْبَلِيَّةِ الْمُتَوَقَّعَةِ، وَفَرَّقُ مِنْ أَنْ يُقْتَلَ قَبْلَ أَدَاءِ الرِّسَالَةِ، فَكَيْفَ يَكُونُ

لَيْسَ فِي التَّمَايَسِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ اسْتَعْفَى مِنَ الذَّهَابِ، بَلْ مَقْصُودُهُ فِيهِ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ الذَّهَابُ عَلَى أَقْوَى الْوَجْهِ فِي الْوُضُوعِ إِلَى الْمَرَادِ، وَاخْتَلَفُوا فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا فَهُوَ غَيْرُ عَالِمٍ بِأَنَّهُ يَبْقَى حَتَّى يُوَدِّيَ الرِّسَالَةَ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا أَمْرٌ بِذَلِكَ بِشَرِّطِ التَّمَكُّنِ، وَالْأَقْرَبُ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَعْلَمُونَ إِذَا حَمَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَدَاءِ الرِّسَالَةِ أَنَّهُ يُمَكِّنُهُمْ مِنْهُ، وَأَتَمَّهُمْ سَيِّقُونَ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ^(١).

قوله: (حتى يَتَعَاوَنَا فِي^(٢) تَنْفِيذِ أَمْرِهِ)، وَأَنْشَدَ فِي مَعْنَاهُ:

فقلت ادعي وأدعُ فإن أُندي لصوتٍ أن ينادي داعيان^(٣)

قوله: (تَبِعَةٌ ذَنْبٌ)، التَّبِعَةُ وَالتَّبَاعَةُ: حَقٌّ يَجِبُ لِلْمَظْلُومِ قَبْلَ الظَّالِمِ، يُقَالُ: لِي قَبْلَ فُلَانٍ تَبِعَةٌ وَتَبَاعَةٌ، أَي: ظُلَامَةٌ.

النَّهَائِيَّةُ: التَّبِعَةُ: مَا يَتَّبِعُ الْمَالَ مِنْ نَوَائِبِ الْحَقُوقِ، وَهُوَ مِنْ تَبِعْتُ الرَّجُلَ بِحَقِّي.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٢٣).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «على».

(٣) ذكره القالي في «الأمالي» (٢: ٩٠) وعزاه للفرزدق، وقيل: هو لميثار بن شيبان النمرى كما في «لسان العرب» (ندی)، وعزاه الزمخشري في «المفصل» ص ٣٢٧ لربيعة بن جَسْم.

تعلُّلاً؟ والدليل عليه: ما جاء بعده من كلمة الرَّدع، والموعِد بالكلاءة والدفْع.

[﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِمَا يَدْتُنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْآتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ * قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ١٥ - ٢٢]

جَمَعَ اللهُ له الاستجابتين معاً في قوله: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا﴾؛ لأنه استدفعه بلاءهم فوَعَدَهُ الدفْع بَرَدْعِهِ عن الخوف، والتمس منه المؤازرة بأخيه فأجابته بقوله: اذْهَبَا، أي: اذهب أنت والذي طلبته؛ وهو هارون. فإن قلت: علامَ عطف قوله: ﴿فَاذْهَبَا﴾؟ قلت: على الفعل الذي يدلُّ عليه ﴿كَلَّا﴾، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظنُّ، فاذْهَب أنت وهارون. وقوله: ﴿مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ من مجاز الكلام، يريد: أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حَضَرَ واستمع ما يجري بينكما وبينه، فأظهركما وغلبكما وكَسَرَ شوكتة عنكما ونكسه. ويجوز أن يكونا خَبْرَيْنِ لـ«إِن»، أو يكون ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ مُسْتَقْرَأً، و﴿مَعَكُمْ﴾ لَغَوًّا. فإن قلت: لِمَ جعلت ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ قرينة ﴿مَعَكُمْ﴾ في

قوله: (من مجاز الكلام)، أي: الاستعارة، بدليل قوله: كالناصر الظهير، حيث صرَّح بأداة التشبيه، وقد عرفت أن الاستعارة مجازٌ والعلاقة فيها: التشبيه.

قوله: (ويجوز أن يكونا خَبْرَيْنِ)، إلى آخره، وعلى الأول: كان ﴿مَعَكُمْ﴾ حالاً من ضمير ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾، أي: مُسْتَمِعُونَ مُشْبِهَيْنِ بالناصر والظهير، والمراد بقوله: «مُسْتَقْرَأً» أنه خبرٌ «إِن»، و﴿مَعَكُمْ﴾ متعلقٌ به قُدِّم عليه.

قوله: (لم جعلت ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ قرينة ﴿مَعَكُمْ﴾؟)، أي: مُقَارِنًا لَهُ في جعله مجازاً، أي: استعارة تمثيلية.

كونه من بابِ المجاز، والله تعالى يوصف على الحقيقة بأنه سميع و سامع؟ قلت: ولكن لا يوصف بالمستمع على الحقيقة؛ لأن الاستماع جار مجرى الإصغاء، والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ أُسْمِعَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، ويقال: استمع إلى حديثه، وسمع حديثه، أي:

قوله: (لأن الاستماع جار مجرى الإصغاء^(١))، فيه نظر؛ لأن السمع في الحقيقة إدراك بحاسة السمع، وهو أيضاً مما لا يجوز على الله تعالى حقيقة. ولما استعمل هذا في مطلق الإدراك كذلك ذلك، وعليه كلام القاضي: الاستماع الذي بمعنى الإصغاء عبارة عن السمع الذي هو لطلق إدراك الحروف والأصوات^(٢). نعم، لو لم يأت بالتعليل كان يحتمل كلامه أولاً أن السامع والسميع مما أُذِنَ فيهما الإطلاق على الله تعالى، وورد في أسائه الحسنى فجرباً لذلك مجرى الحقيقة في مطلق الإدراك، بخلاف المستمع الذي يعطيه معنى ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾. قال الإمام في «لوامع البيئات»: لفظ السامع والسميع موضوع في اللغة لهذا الانكشاف والتجلي، فلما وردا في حق الله تعالى اعتقدنا بثبوت جنس هذا الانكشاف، لا نوع منه؛ لأن الانكشافات الحاصلة لله تعالى بالنسبة إلى انكشافات العبيد كنسبة ذاته المقدسة إلى ذواتهم، ولما كان لا مشاركة بين الذاتين إلا في الاسم، فكذا القول في الانكشافين. والعمدة أن الحاصل عند عقول الخلق من معاني صفات الله تعالى خيالات ضعيفة، ورسوم خفية، جلت صفاته عن مشابهة صفات المحدثات، وتقدست صمديته عن مناسبة الممكنات.

قوله: (والاستماع من السمع بمنزلة النظر من الرؤية)، يعني: كما أن النظر تقليب الحدقة نحو المرئي التماساً لرؤيته، كذلك الاستماع: استعمال حاسة السمع نحو المسموع التماساً لسماعه، كالإصغاء، والله أعلم.

(١) زاد في الأصول الخطية هنا: «من السمع»، ولا يستقيم مع لفظ «الكشاف» إلا بإضافة «والاستماع» قبله، فيصير مكرراً مع الفقرة التالية.

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٣٣).

أصغى إليه وأدركه بحاسة السَّمع، ومنه قوله ﷺ: «مَنْ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ صَبَّ فِي أُذُنِهِ الْبَرَمُ». فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا تُنَيِّ الرُّسُولُ كَمَا تُنَيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا رَسُولَ رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]؟ قُلْتُ: الرُّسُولُ يَكُونُ بِمَعْنَى الْمُرْسَلِ، وَبِمَعْنَى الرِّسَالَةِ، فَجُعِلَ ثُمَّ بِمَعْنَى الْمُرْسَلِ؛ فَلَمْ يَكُنْ بَدَأَ مِنْ تَنْبِيئِهِ، وَجُعِلَ هَاهُنَا بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ؛ فَجَازَ التَّسْوِيَةُ فِيهِ إِذَا وُصِفَ بِهِ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالتَّشْبِيهِ وَالْجَمْعِ، كَمَا يُفْعَلُ بِالصِّفَةِ بِالْمُصَادِرِ، نَحْوُ: صَوْمٌ، وَزَوْرٌ. قَالَ:

أَلْكُنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرُّسُولِ لِي أَعْلَمُهُمْ بِنَوَاحِي الْخَبَرِ

فَجَعَلَهُ لِلْجَمَاعَةِ. وَالشَّاهِدُ فِي الرُّسُولِ بِمَعْنَى الرِّسَالَةِ: قَوْلُهُ:

لَقَدْ كَذَّبَ الْوَاشُونَ مَا فَهَتُ عِنْدَهُمْ بَسِيرٌ وَلَا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولٍ

قَوْلُهُ: (الْبَرَمُ)، ذَكَرَ صَاحِبُ «النِّهَايَةِ» الْحَدِيثَ (١)، ثُمَّ قَالَ: الْبَرَمُ: هُوَ الْكُخْلُ الْمَذَابُ.

قَوْلُهُ: (وَزَوْرٌ)، النِّهَايَةُ: الزُّورُ: الزَّائِرُ، وَالْأَصْلُ مُصَدَّرٌ وَوُضِعَ مَوْضِعَ الْاسْمِ، كَصَوْمٍ وَتَوْمٍ بِمَعْنَى صَائِمٍ وَنَائِمٍ، وَقَدْ يَكُونُ الزُّورُ جَمْعَ زَائِرٍ كِرَاكِبٍ وَرَكْبٍ. وَفِي نُسْخَةٍ بَدَلَّ «الْبَرَمُ»: الْآنُكُ (٢). وَفُسِّرَ بِالْبَرَمِ وَالْمُتَبَرِّمِ، وَيُرْوَى الْحَدِيثُ بِالثَّلَاثِ، وَهَذِهِ الصِّغَةُ صِيغَةُ الْجَمْعِ كَالْأَبْحُرِ، وَصِيغَةُ الْفَرْدِ شَاذٌ فِيهِ كَالْأَسَدِ وَالْأَسْرُبِ، عَجْمَةُ الْآنُكِ.

قَوْلُهُ: (أَلْكُنِي) الْبَيْتُ (٣)، أَلْكُنِي: أَرْسَلَنِي، وَالْأَلُوكُ: الرِّسَالَةُ، وَقِيلَ: تَحَمَّلَ رِسَالَتِي إِلَيْهِ، وَقِيلَ: اجْعَلْنِي رَسُولًا، وَالرُّسُولُ فِيهِ بِمَعْنَى الرُّسُلِ لِإِضَافَةِ خَيْرٍ إِلَيْهِمْ، وَلِقَوْلِهِ: أَعْلَمُهُمْ.

قَوْلُهُ: (لَقَدْ كَذَّبَ الْوَاشُونَ) الْبَيْتِ، قَبْلَهُ لِكَثِيرٍ:

(١) ذَكَرَهُ الزَّيْلَعِيُّ فِي «تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْكِشَافِ» (٢: ٤٧٣) وَقَالَ: غَرِيبٌ جَدًّا، ثُمَّ عَزَاهُ لِابْنِ الْأَثِيرِ فِي «النِّهَايَةِ»، وَنَقَلَ كَلَامَهُ فِي تَفْسِيرِ مَعْنَاهُ.

(٢) وَهُوَ الرِّصَاصُ الْمَذَابُ.

(٣) لِأَبِي ذُوَيْبِ الْهَنْدَلِيِّ. انظُرْ: «شَرْحُ دِيْوَانِ الْهَنْدَلِيِّ» (١: ١١٣).

ويجوز أن يوحد؛ لأنَّ حُكْمَهَا لتسائُدِهما واتِّفَاقِهما على شريعة واحدة، واتِّحَادِهما لذلك وللأُخُوَّةِ كان حُكْمًا واحدًا، فكأنهما رسولٌ واحد. أو أُريدَ أنَّ كلَّ واحدٍ منَّا. ﴿أَنْ أَرْسِلَ﴾ بمعنى: أي أرسل؛ لتضمَّنَ الرِّسُولِ معنى الإرسال. وتقول: أُرْسِلْتُ إليك إنِ افْعَلْ كذا؛ لما في الإرسال من معنى القول، كما في المُنَادَاةِ والكَتَابَةِ ونحو ذلك. ومعنى هذا الإرسال: التَّخْلِيَةُ والإِطْلَاقُ، كقولك: أُرْسِلَ البازِي، يريد: خَلَّهْم يَذْهَبُوا معنا إلى فِلَسْطِينَ، وكانت مَسْكَنَها. ويُروى: أَنهما انطَلَقا إلى بابِ فِرْعَوْنَ فلم يُؤذَنَ لهما سَنَةً، حتى قال البَوَّابُ: إِنَّ هاهنا إنسانًا يزعم أنه رسولُ ربِّ العالمين، فقال:

خَلَّفْتُ رَبِّ الرَّاغِصَاتِ إِلَى مِنِي خَلَالَ الْمَلَأِ يَمْدُدْنَ كُلَّ جَدِيلِ

بعده:

فلا تعجَلِي يا عَزْرُ أَنْ تَفْهَمِي بِنُصْحِ أَتَى الواشونَ أَمْ بِحُبُولِ^(١)

الحُبُولُ: جَمْعُ حَبَلٍ. الأساس: وَمَنْ المَجَازُ: رَقَصَ البعيرُ رَقْصًا وِرْقَاصًا: حَب، وَأَزْرقَصُوا في سَيْرِهِم وتَرَقَّصُوا: ارتفعوا وانخَفَّضُوا، خلالَ المَلَأِ: وَسَطَ الناسِ، والجَدِيلُ: الحَبْلُ المَفْتُولُ والزَّمَامُ المَجْدول. «ما» في قوله: «ما فُهِتُ»: نافيةٌ، يقال: ما فُهِتُ بكلمة، أي: ما تَكَلَّمْتُ.

في الاستشهاد بقوله: «ولا أرسَلْتُهُم برسولٍ» نظرٌ؛ لأنه يُحْتَمَلُ أن يكونَ بمعنى المرسل.

قوله: (ويُروى: أَنهما انطَلَقا إلى بابِ فِرْعَوْنَ فلم يُؤذَنَ لهما)، إلى قوله: «فعرَفَ موسى عليه السلام فقال له: ﴿أَلَمْ نُرِيكَ﴾: «بيانٌ لوجهِ اتِّصالِ قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرِيكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ بقوله: ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ﴾، ولما يَحْتَاجُ إليه مِنَ المَقْدَرَاتِ لِيَتَّصَلَ صدرُ هذه الآية بعَجَزِ تلك. والعَجَبُ أن قولَ المؤلف: «فأديا إليه الرِّسالة» بعدَ قوله: «فقال: أئذَنَ له» من هذا الباب، لكونِ التقدير: فذهبَ البَوَّابُ إليهما فأذِنَ لهما بالدُّخولِ، فدَخَلَا. لكن في كلام المصنِّفِ فاءٌ فصِيحةٌ.

(١) «ديوان كثير عزة» ص ١٧١.

اِذْنُ لَهُ لَعَلْنَا نَضْحُكَ مِنْهُ، فَأَذْيَا إِلَيْهِ الرِّسَالَةَ، فَعَرَفَ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ: ﴿أَلَمْ نُزَيِّنْكَ؟﴾
 حُذِفَ: فَآتَىا فرعونَ فقالا له ذلك؛ لأنه معلومٌ لا يشتبه، وهذا النوعُ من الاختصارِ
 كثيرٌ في التنزيل. الوليد: الصبيُّ؛ لقرب عهده من الولادة. وفي روايةٍ عن أبي عمرو:
 (من عُمرِكَ) بسكون الميم. ﴿سَيْنِينَ﴾ قيل: مكثَ عندهم ثلاثينَ سنةً. وقيل: وكزَّ
 القِبْطِيُّ وهو ابنُ ثنْثي عشرة سنة، وفرَّ منهم على أثرها، والله أعلمُ بصحيح ذلك.
 وعن الشعبيِّ: (فَعَلْتَك) بالكسر، وهي قِتْلَةُ القِبْطِيِّ؛ لأنه قَتَلَهُ بالوَكْزَةِ؛ وهو ضربٌ
 من القتل. وأما الفَعْلَةُ؛ فلأنها كانت وكزَّةً واحدة عدَّد عليه نعمته من تربيته وتبليغه
 مبلغَ الرِّجال، ووبَّخه بما جرى على يده من قتلِ خبَّازِه، وعظَّم ذلك وفضَّعه بقوله:
 ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يجوزُ أن يكونَ حالاً، أي: قتلته
 وأنتَ لذاك من الكافرينِ بِنِعْمَتِي. أو: وأنتَ إذ ذاك ممَّن تكفَّرهم الساعةَ. وقد افترى
 عليه أو جهَلَ أمرَه؛ لأنه كان يُعائِشُهم بالتَّقِيَّة، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَعَلَا عَاصِمٌ مَنْ يَرِيدُ

قوله: (وعظَّم ذلك وفضَّعه بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الَّتِي فَعَلْتَ﴾)، الانتصاف: وَجْهٌ
 تفضيحه أنه أتى به مجملاً إيداناً بأنه لفظاً لا ينطقُ به، كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ آلَمٍ مَا
 غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾
 [النجم: ١٦].

قوله: (وقد افترى عليه أو جهَلَ أمرَه)، يتعلَّق بقوله: «أو أنتَ إذ ذاك ممَّن تكفَّرهم
 الساعةَ»، أي: قال: فرعونُ ذلك القول، وقد افترى، المعنى: كنتَ مثلهم حينئذٍ، وفي دينهم،
 وداخلاً في زمرتهم، كأنه قال: وكنتَ منا، ومن ديننا.

وقوله: «فإنَّ اللهَ عاصمٌ»، تعليلٌ لنسبة اللعينِ إلى الافتراءِ وتجهيله.

قوله: (بالتَّقِيَّة)، النِّهَايَةُ: التَّقِيَّةُ وَالتَّقَاةُ بِمَعْنَى، وَهُوَ أَنْ يَتَّقِيَ الرَّجُلُ النَّاسَ، وَيَرَى
 الصُّلْحَ وَالتَّفَاقُ، وَالباطنُ بخلافِ ذلك، وعليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ
 مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوهُ مِنْهُمُ نَجَسًا﴾ [آل عمران: ٢٨]، أي: يُوافِقُهُم ظاهراً، ويُخالفُهُم

أَنْ يَسْتَنْبِئَهُ مِنْ كُلِّ كَبِيرَةٍ وَمِنْ بَعْضِ الصَّغَائِرِ، فَمَا بِالْ كُفْرِ! وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿حُكْمًا عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنَ الْكٰفِرِينَ بِالنَّعْمِ، وَمَنْ كَانَتْ عَادَتُهُ كُفْرَانَ النَّعْمِ لَمْ يَكُنْ قَتْلُ خَوَاصِّ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بَدْعًا مِنْهُ. أَوْ بِأَنَّهُ مِنَ الْكٰفِرِينَ بِفِرْعَوْنَ وَإِهْيَتَهُ. أَوْ مِنَ الَّذِينَ كَانُوا يَكْفُرُونَ فِي دِينِهِمْ، فَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ آهَةٌ يَعْبُدُونَهُمْ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرِكْ وَآءِ الْهَتَكِ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وَقُرِئَ: (وَإِهْيَتَكِ)، فَأَجَابَهُ مُوسَى صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِأَنَّ تِلْكَ الْفَعْلَةَ إِنَّمَا فَرَطْتُ مِنْهُ وَهُوَ ﴿مِنَ الضَّالِّينَ﴾ باطنًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: كُنْ وَسَطًا وَامشِ جَانِبًا^(١).

قَوْلُهُ: (وَمِنْ بَعْضِ الصَّغَائِرِ)، وَهُوَ مَا يُنْفَرُ، كَالْكَذِبِ وَالتَّطْفِيفِ، وَفِيهِ خِلَافٌ سِيَجِيءُ فِي التَّمْلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٢).

قَوْلُهُ: (وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ حُكْمًا عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنَ الْكٰفِرِينَ بِالنَّعْمِ)، فَعَلِيَ هَذَا: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ اعْتِرَاضٌ أَوْ تَذْيِيلٌ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: «وَمَنْ كَانَتْ عَادَتُهُ كُفْرَانَ النَّعْمِ لَمْ يَكُنْ قَتْلُ خَوَاصِّ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بَدْعًا مِنْهُ»، كَمَا سَبَقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، وَقَوْلُهُ: «أَوْ بِأَنَّهُ مِنَ الْكٰفِرِينَ» أَيْضًا عَلَى الْإِعْتِرَاضِ، فَالْكَافِرُونَ فِي الْآيَةِ يَجُوزُ أَنْ يُفَسَّرَ بِالْكَفْرَانِ الَّذِي هُوَ فِي إِزَاءِ النَّعْمَةِ وَالْمَقَابِلِ لِلشُّكْرِ، وَأَنْ يُفَسَّرَ بِالَّذِي هُوَ مَقَابِلٌ لِلْإِيْمَانِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ إِمَّا: حَالٌ، أَوْ: تَذْيِيلٌ، وَالْكَفْرُ عَلَى الْوَجْهَيْنِ فِيهِ الْأَوْجُهُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْكِتَابِ.

قَوْلُهُ: (فَقَدْ كَانَتْ لَهُمْ آهَةٌ يَعْبُدُونَهُمْ)، مُتَفَرِّغٌ عَلَى مَعْنَى الْكُفْرِ بِهَذَا التَّأْوِيلِ، أَي: يَجُوزُ اسْتِعْمَالُ لَفْظِ الْكُفْرِ مِنْ كُلِّ مَنْ تَدَيَّنَ بِدَيْنٍ، وَيَعْبُدُ مَعْبُودًا، سِوَاءً كَانَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا فَيَمُنُ يُجَالِفُ نَحْلَتَهُ، أَي: أَنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ بِمَعْبُودِنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(١) ذَكَرَهُ الْمِيدَانِيُّ فِي «مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ» (٢: ١٥٧) وَفَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: أَي: تَوَسَّطَ الْقَوْمَ وَزَايَلَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ.

(٢) وَهِيَ مَسْأَلَةٌ فِيهَا خِلَافٌ مَنْصُوبٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَمَنْ أَجَادَ وَأَطَالَ النَّفْسَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْإِمَامَ النَّظَارَ الْقَاضِي عِيَاضُ فِي كِتَابِهِ النَّفِيسِ «الشَّافَا» بِحَاشِيَةِ الشُّمْنِيِّ (٢: ٦٩-٨٥).

أي: الجاهلين. وقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (من الجاهلين) مُفسّرة. والمعنى: من الفاعلين فَعَلَ أُولِي الجَهْلِ والسَّفَه، كما قال يوسف لإخوته: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]؛ أو المُخْطِئِينَ كَمَنْ يَقْتُلُ خَطَأً من غير تَعَمُّدٍ للقتل، أو الذاهبين عن الصواب، أو الناسين، من قوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَهُمَا فَتُكْرِأِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وكذَّب فرعون، ودَفَعَ الوصفَ بالكُفْر عن نفسه، وبرأ ساحتَه بأن وَضَعَ ﴿الصَّالِينَ﴾ موضع ﴿الْكَافِرِينَ﴾؛ ربناً بمحلٍّ من رُشْحِ النَّبُوَّةِ عن تلك الصِّفَةِ، ثم كَرَّرَ على امتنانه عليه بالتربية، فأبطله من أصله، واستأصله من سنخه، وأبى أن تُسَمَّى نعمته إلا نعمة؛ حيث بيّن أن حقيقة إنعامه عليه تَعْبِيدُ بني إسرائيل؛ لأنَّ تَعْبِيدَهُمْ وَقَضَاهُمْ بِذَبْحِ أَبْنَائِهِمْ هُوَ السَّبَبُ فِي حُصُولِهِ عِنْدَهُ وَتَرْبِيَّتِهِ، فَكَأَنَّهُ امْتَنَّ عَلَيْهِ بِتَعْبِيدِ قَوْمِهِ

قوله: (أو الذاهبين عن الصواب)، عطفٌ على قوله: «أي: الجاهلين».

قوله: (أو الناسين)، من قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَهُمَا فَتُكْرِأِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢]، يعني: جاء الضلال بمعنى النسيان كما في هذه الآية؛ لأن التذكير لا يكون إلا بعد النسيان لا الضلال الحقيقي.

قوله: (ربناً بمحلٍّ من رُشْحِ النَّبُوَّةِ)، رَبَّاتٌ بِنَفْسِي عن عمل كذا، وإني لأربأ بك عن هذا الأمر، أي: أرفعك عنه ولا أرضاه لك، ومن المجاز: هُوَ مُرْشِحٌ لِلخِلافةِ، وأصله ترشيحُ الطَّبِيبِ وَلَدَهَا لَتُعَوِّدَهُ المَشِيَّ فترشّح، وقد رشّح: إذا مشى، وأمه مُرْشِحٌ، وأرشحت، كما يقال: مُشِدِنٌ وَأَشَدَّنْتُ، وَرُشِحَ فلانٌ لأمير كذا وترشّح له: كل ذلك في «الأساس». وعن بعضهم: يقال: فلانٌ يُرْشِحُ لِلوزارة: أي يُرَبِّي وَيؤهل لها، من ترشيح الأم ولدها: تقليد اللبّن، وهو أن تجعله في فيه إلى أن يقوى على المصّ.

قوله: (من سنخه)، أي: من أصله. الجوهري: وأسناخ الأسنان: أصولها، صحَّ «سنخ» بكسر السين عن تصحيح الصغاني، وإنما قال: «سنخه»؛ لأن قوله: ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا﴾ متضمنٌ لإبطال امتنانه، كما سنقرُّه إن شاء الله تعالى.

إِذَا حُقِّقْتُ، وتعييدُهم: تذليلُهم واتخاذهم عبيداً. يقال: عَبَدْتُ الرَّجُلَ وَأَعْبَدْتُهُ؛ إِذَا اتَّخَذْتَهُ عَبْدًا. قال:

عَلَامٌ يُعْبِدُنِي قَوْمِي وَقَدْ كَثُرَتْ فِيهِمْ أَبَاعِرُ مَا شَاؤُوا وَعِبْدَانُ!

فإن قلت: «إذن» جوابٌ وجزاء معاً، والكلامُ وقع جواباً لفرعونَ، فكيف وَقَعَ جِزَاءٌ؟ قلتُ: قولُ فرعونَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك﴾ فيه معنى: إنك جازيتَ نعمتي

قوله: (إِذَا حُقِّقْتُ)، أي: إِذَا حُقِّقَتِ التَّيْبَةُ وَالْمِنَّةُ الَّتِي امْتَنَّ بِهَا فِرْعَوْنُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَتْ تَعْبِيدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ نِقْمَةً لَا نِعْمَةً، فَهُوَ مِنْ تَعْكِيْسِ الْكَلَامِ، وَيُرْوَى: «حُقِّقْتُ» بفتح التاء، أي: إِذَا حُقِّقَتِ النَّظَرُ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ.

قوله: (قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك﴾) إِلَى آخِرِهِ، قِيلَ: هَذَا الْجَوَابُ لَا يُلَائِمُ قَوْلَهُ: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ اعْتَرَفَ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ جَاهِلًا أَوْ نَاسِيًا، لَكِنِ الْمَعْنَى: لَمَّا قَالَ: جَازَيْتَ نِعْمَتِي بِمَا فَعَلْتَ، أَجَابَهُ بِأَنَّ تِلْكَ صَادِرَةٌ مِنَ الْجَهْلِ وَالنَّسْيَانِ لَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْقَصْدِ، وَكُنْتُ إِذْ ذَاكَ جَاهِلًا، فَخِضْتُ فَفَرَزْتُ، فَوَهَبَ اللَّهُ تَعَالَى النَّبُوَّةَ، وَالآنَ أَنَا نَبِيٌّ بِخِلَافِ مَا كُنْتُ. وَقُلْتُ: فَإِذَنْ ﴿إِذَا﴾ جَوَابٌ وَعُذْرٌ فَأَيْنَ الْجِزَاءُ؟ وَجَوَابُ الْمَصْنُفِ مُوقُوفٌ عَلَى مَعْرِفَةِ أَصُولِ خَمْسَةِ: النَّحْوِ، وَالْمَعَانِي، وَاللِّيَانِ، وَالْبَدِيعِ، وَالْأَصُولِ. أَمَّا النَّحْوُ فَإِنَّ «إِذَنْ» مَوْضُوعٌ عَلَى أَنَّ يَكُونُ جَوَابًا وَجِزَاءً مَعًا^(١)، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَدْخُولُهُ مِمَّا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُسَبَّبًا عَنْ مَعْنَى الْقَوْلِ السَّابِقِ، نَحْوَ قَوْلِكَ: إِذَنْ أَكْرِمُكَ لَمَنْ قَالَ: أَنَا آتِيكَ؛ فَإِنَّ إِكْرَامَكَ مُسَبَّبٌ عَنْ إِتْيَانِهِ. فَهَاهُنَا الْجَوَابُ ظَاهِرٌ، لَكِنَّ الْجِزَاءَ عَلَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ مُسَبَّبًا عَنْ كَلَامِ فِرْعَوْنَ خَفِيٌّ، فَلَا بَدَّ مِنْ بَيَانِهِ. فَالْتَقْدِيرُ: إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتَ أَنْكَ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ، وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ النِّعْمَةُ إِلَّا تَعْبِيدَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَنَا جَازَيْتَكَ أَيْضًا بِتِلْكَ الْمَجَازَاةِ، وَهِيَ قَتْلُ الْقَبْطِيِّ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: «لَأَنَّ نِعْمَتَهُ كَانَتْ عِنْدَهُ جَدِيرَةً بِأَنْ تُجَازَى

(١) وهو الذي جزم به سيبويه فقال: معناها الجواب والجزاء. وقال الشلويني في كل موضع، وقال أبو علي الفارسي: في الأكثر، وقد تتمحض للجواب. لتيام الفائدة انظر: «مغني اللبيب» لابن هشام ص ٣٠.

بنحو ذلك الجزاء». ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِذَا أَلَمْنَا الْأَثْمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]، قال بعضهم: تقديره: إن كان الأمر على ما تصفون بأنا نحنًا، إنا إذن لمن الأثمين^(١).

وأما المعاني؛ فإن عطف قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ على الكلام السابق من باب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آمَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ١٥] على رأي صاحب «المفتاح»: كان اللعين أخبر عن حصول تربيته له عليه السلام، وعن حصول جزائه عليه السلام عن تلك التربية.

وأما البيان فإن هذا الترتيب على أسلوب قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، يعني: ويجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون التكذيب، أي: وضعتكم التكذيب موضع الشكر، وإليه الإشارة بقوله: «إِنَّكَ جَارَيْتَ نِعْمَتِي بِهَا فَعَلْتَ».

وأما الأصول فإن الجواب مبني على قاعدة القول بالموجب، وهو تسليم مقتضى قول المستدل مع بقاء الخلاف^(٢)، فإن الكليم عليه السلام قرَّر ما جعله اللعين جزاءً لفعله، حيث قال: ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾، فلما قرَّر ما جعله اللعين جزاءً لفعله أتى بقوله: ﴿إِذَا﴾، هذا معنى جواب المصنّف عن السؤال. ثم علق بالجواب ما قلعه من سنخه بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَنْهَى عَلَى أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وإليه الإشارة بقوله: «ثم كرر على امتنانه عليه بالتربية فأبطله».

وأما البديع فإن وضع قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ موضع الكافرين كالتميم صوناً عن إبهام تصوّر ما ينافي النبوة من الكفر، وإليه الإشارة بقوله: «ودفع الوصف بالكفر عن نفسه بأن وضع الضالين موضع الكافرين، ربناً بمحل من رشح للنبوة»، وهذا لما شارك التميم

(١) من قوله: «فالتقدير: إذا كان الأمر» إلى هنا، أثبتته من (ط)، وسقط من (ح) و(ف).

(٢) وسبب الخلاف: أن المعلل يظن أن ما أتى به مستلزم لمطلوبه من حكم المسألة المتنازع فيها مع كونه غير مستلزم، فلا يقطع النزاع بتسليمه. انظر: «البحر المحيط في أصول الفقه» للبدر الزركشي (٤: ٢٦٢).

بها فعلت، فقال له موسى: نعم فعلتها مجازياً لك، تسليماً لقوله؛ لأن نعمته كانت عنده جديرة بأن تُجازى بنحو ذلك الجزاء. فإن قلت: لِمَ جُمع الضميرُ في ﴿مِنْكُمْ﴾ و﴿خَفَّتْكُمْ﴾ مع إفراده في ﴿تَمُنَّهَا﴾ و﴿عَبَدَتْ﴾؟ قلت: الخوفُ والفرارُ لم يكونا منه وحده، ولكن منه ومن مَلَيْتِهِ الْمُؤْتَمِرِينَ بِقَتْلِهِ، بدليلِ قوله: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]، وأمّا الامتنانُ فمنه وحده، وكذلك التَّعْبِيدُ.

فإن قلت: «تلك» إشارة إلى ماذا؟ و﴿أَنْ عَبَدَتْ﴾ ما محلُّها من الإعراب؟ قلت: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى خَصْلَةٍ شَنْعَاءٍ مُبْهَمَةٍ، لا يُدرى ما هي إلا بتفسيرها،

في إرادة الصيانة قلنا: هو كالتميم؛ لأن التميم هو: تقييدُ الكلام بتابع يُفيدُ مبالغةً، أو صيانةً عن احتمالِ المكروه. قال أبو الطيّب:

وَمَحْتَقِرُ الدُّنْيَا احْتِقَارَ مَجْرَبٍ يَرَى كُلَّ مَا فِيهَا - وَحَاشَاكَ - فَانِيَا^(١)

وتحريره: أنه لما قال: ﴿الَّذِينَ نُرِيكَ فِيهَا وَلَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ و﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ كما قررناه، أي: إني ربيتك، وأحسنُ إليك لِتَفْعَلَ ما تَقَرَّرَ به عَيْنِي، وَتَشْكُرُ إِحْسَانِي إِلَيْكَ؛ لما تَقَرَّرَ في النُّفُوسِ أَنْ شُكِرَ الْمُنْعَمُ وَاجِبٌ، فَعَكَسَتْ الْقَضِيَّةُ وَقَابَلَتْهَا بِالْكَفْرَانِ؟ أَجَابَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الصَّالِّينَ﴾، يعني: سَلِمْتُ أَنْ شُكِرَ الْمُنْعَمُ وَاجِبٌ، وَأَيُّ عَكْسَتْ الْمُجَازَاةَ، لَكِنْ أَيْنَ النَّعْمَةُ؟ فَإِنَّ تِلْكَ التَّرْبِيَةَ الَّتِي مَنَنْتَ بِهَا عَلَيَّ كَانَتْ مَسْبَبَةً عَنْ تَعْبِيدِ قَوْمِي، فَهِيَ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُجَازَى بِتِلْكَ الْمُجَازَاةِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «نَعَمْ، فَعَلْتَهَا مُجَازِيًا لَكَ، تَسْلِيمًا لِقَوْلِهِ: لِأَنَّ نِعْمَتَهُ عِنْدَهُ كَانَتْ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُجَازَى بِذَلِكَ الْجِزَاءِ»، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى خَصْلَةٍ شَنْعَاءٍ مُبْهَمَةٍ، يعني: تَصَوَّرَ نَبِيُّ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَهُ: ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أنها نعمةٌ، فتكونُ خَصْلَةً شَنْعَاءً، فَأَشَارَ إِلَيْهَا، وَجَعَلَهَا مُبْتَدَأً، وَأَخْبَرَ عَنْهَا، ثُمَّ بَيَّنَّ عَنْهَا كَمَا تَقُولُ: هَذَا أَحْوَكُ، فَلَا يَكُونُ هَذَا إِشَارَةً إِلَى غَيْرِ الْأَخ.

(١) «ديوان المتنبي» بشرح الواحدي (١: ٣١٢).

وَمَحَلُّ ﴿أَنْ عَبَدْتَ﴾ الرَّفْعُ؛ عطفُ بيانٍ لـ ﴿تِلْكَ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنْ دَاوِرَ هَتُولَاءَ مَقْطُوعٍ﴾ [الحجر: ٦٦]. والمعنى: تعبيدك بني إسرائيل نعمةً تمنُّها عليّ! وقال الزجاج: ويجوزُ أن يكون ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب، المعنى: إنما صارت نعمةً عليّ لأنَّ عبَدْتَ بني إسرائيل؛ أي: لو لم تفعل ذلك لكفّلني أهلي ولم يلقوني في اليَمِّ.

[﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَارِبُ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٣]

لَمَّا قَالَ لَهُ بَوَّابُهُ: إِنَّ هَاهُنَا مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ لَهُ عِنْدَ دُخُولِهِ: ﴿وَمَارِبُ الْعَالَمِينَ﴾؟

قوله: (وَمَحَلُّ ﴿أَنْ عَبَدْتَ﴾ الرَّفْعُ؛ عطفُ بيانٍ لـ ﴿تِلْكَ﴾)، فالتقدير: تعبيدك بني إسرائيل نعمةً تمنُّها عليّ، يعني: تَمُنُّ عليّ بتربيتك إياي، وفي الحقيقة تعبيدُ بني إسرائيل أَدَى إلى تربيتي، وكان امتنانك عليّ بقولك: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِتْنًا وَلِيدًا وَلَيْسَتْ فِتْنًا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ﴾ امتناناً عليّ بتعبيد بني إسرائيل، فأطلق السبب، وأريد المسببُ إيجازاً، وإليه الإشارة بقوله: «لأنَّ تعبيدهم، وقضدهم بذبح أبنائهم، هو السببُ في حصوله عنده». قال محيي السنّة: الكلام متضمنٌ للإنكار، أي: كيف تَمُنُّ عليّ بالتربية وقد عبَدْتَ قَوْمِي؟ وَمَنْ أَهْيَنَ قَوْمُهُ ذَلَّ، فتعبيدك بني إسرائيل قد أحبطَ إحسانك إليّ^(١).

قوله: (ويجوزُ أن يكون ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب)، فالمشارُ إليه حينئذٍ معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِتْنًا وَلِيدًا﴾، والإخبارُ على ظاهره، وإليه الإشارةُ بقوله: «لو لم تفعل ذلك لكفّلني أهلي».

قوله: (لَمَّا قَالَ لَهُ بَوَّابُهُ: إِنَّ هَاهُنَا مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، قَالَ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ^(٢)): ﴿وَمَارِبُ الْعَالَمِينَ﴾؟)، قلتُ: هذا نَظْمٌ مَحْتَلٌّ لَسَبْقِ المَقَاوِلَةِ بَيْنَهُمْ، كما أشارَ إليه:

(١) «معالم التنزيل» (٦: ١١٠).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «عند دخوله».

«فَأَدْيَا الرِّسَالَةَ، فَعَرَفَ موسى عليه السَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ»، أي: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وقال الإمام: لم يُقَلِّ لموسى عليه السَّلَامُ: وما رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ إِلَّا وَقَدْ دَعَاهُ إِلَى طَاعَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يُبَيِّنُ ذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تَمَّ كَلَامُهُ (١). وَالنَّظْمُ يُسَاعِدُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَهُمَا بِقَوْلِهِ: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَا مِمْتَثِلَيْنِ مُؤَدِّيَيْنِ لِتِلْكَ الرِّسَالَةِ بَعِيْنَهَا عِنْدَ اللَّعِينِ، وَعِنْدَ ذَلِكَ أَنْكَرَ اللَّعِينُ ذَلِكَ الْكَلَامَ مَفْصَلًا، رَدَّ أَوْلَا صَدَرَ الْكَلَامِ، وَكُوْنَتْهَا رَسُولَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ الرَّثْبِيُّ لَيْسَ وَوَلِيدًا﴾ إِلَى آخِرِهِ. وَثَانِيًا بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وَلِذَلِكَ جِيءَ بِالْوَاوِ الْعَاطِفَةِ، وَكَرَّرَ ﴿قَالَ﴾ لِلطُّوْلِ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: أَنْتَ الرَّسُولُ؟ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ وَتَقْرِيرُ الْأَوَّلِ: أَلَمْ نَعْرِفْكَ؟ أَمَا كُنْتَ عِنْدَنَا رَضِيْعًا صَغِيرًا وَنَحْنُ رَبِّيْنَاكَ سِنِينَ كَالْأَوْلَادِ، وَعَرَفْنَاكَ أَيْضًا كَافِرَ النُّعْمَةِ، حَيْثُ جَازَيْتَ تِلْكَ النُّعْمَةَ بِقَتْلِ بَعْضِ خَدَمِنَا، فَمِنْ أَيْنَ أَنْتَ وَالرِّسَالَةُ؟ فَأَنْكَرَ نُبُوْتَهُ بِتَحْقِيْرِ شَأْنِهِ وَكُفْرَانِهِ النُّعْمَةَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ رِذَائِلِ الْأَخْلَاقِ، وَأَدْمَجَ فِيهِ مَعْنَى الْاِمْتِنَانِ، وَأَجَابَهُ بِهِ موسى عليه السَّلَامُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَعَلَّمْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ الْآيَةَ، مُسَلِّمًا مُقْتَضَاهُ، وَمُثْبِتًا رِسَالَتَهُ، وَمُبْطِلًا إِنْعَامَهُ، يَعْنِي: هَبْ أَيْ كُنْتُ كَمَا تَقُولُ: صَبِيْبًا رَضِيْعًا عِنْدَكُمْ، قَاتِلًا لِلنَّفْسِ، وَذَلِكَ كَيْفَ يَقْدَحُ فِي دَعْوَى رِسَالَتِي؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَاعِلٌ مُخْتَارٌ يَخْتَصُّ بِرِسَالَتِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ مِنْهُ، فَاخْتَارَنِي لِلرِّسَالَةِ، وَوَهَبَ لِي حُكْمًا.

فَوِزَانُ هَذِهِ الْآيَةِ وَزَانُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧]، يَعْنِي: إِنِّي كُنْتُ غَيْرَ عَالِمٍ بِالشَّرَائِعِ، وَطَرِيقَةِ السَّمْعِ، فَوَهَبَ لِي مَعْرِفَةَ الْأَحْكَامِ، وَجَعَلَنِي مُرْسَلًا، ثُمَّ كَرَّرَ إِلَى جَوَابِ مَا أَدْمَجَ اللَّعِينُ فِي الْاِعْتِرَاضِ مِنَ الْاِمْتِنَانِ قَائِلًا: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، فَأَبْطَلَهُ مِنْ أَصْلِهَا تَبْرِيًّا مِنْ تِلْكَ الرِّذِيلَةِ الَّتِي نَسَبَهَا إِلَيْهِ مِنْ كُفْرَانِ النُّعْمِ،

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٢٧).

وفيه أن كُفْرَانَ نعمة الكافر قبيحٌ، فكيف بنعمة المسلم، فضلاً عن نعم الله تعالى السابغةً ظاهراً وباطناً؟ ثم كَرَّ اللَّعِينُ إلى قولِ موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بعد ما ألقمه نبيُّ الله الحَجَرَ في إنكارِ الرِّسالةِ مُستفهماً ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ يعني: هَبْ أَنْتَ رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْ لَكَ رَبًّا وَهَبْ لَكَ حُكْمًا، وَجَعَلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فما تعني بقولك: رَبِّ الْعَالَمِينَ، وما قَصْدُكَ فيه وفي تخصيصه؟ أتعني به التعريضُ بإنكارِ إلهيتي أم غيرَ ذلك؟ يَدُلُّ عليه قوله تعالى بعدَ هذا: ﴿لَئِنْ أَخَذْتَنِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾.

وقولُ المؤلِّفِ: «والذي يَلِيْقُ بحالِ فرعونَ ويَدُلُّ عليه الكلامُ: أن يكونَ سؤاله هذا إنكاراً لأنَّ يكونَ للعالمينَ رَبٌّ سِوَاهُ»، فأجابَه عليه السلامُ بما فيه إنكارُ إلهيته، وأن يكونَ رَبًّا للعالمينَ تعريضاً من قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، أي: أنت أحقرُّ من ذلك وأدُلُّ؛ فإنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وما بينهما إن كنتَ أنتَ وهؤلاءِ البهائمُ الذين اتَّخَذُوا إلهًا وَسَمَوْكَ رَبًّا الْعَالَمِينَ مِنَ الَّذِينَ يُحَقِّقُونَ الْأَشْيَاءَ بِالنَّظَرِ الصَّحِيحِ الذي يُؤَدِّمُهُم إلى الإيقان، هل تَدْرُونَ ما معنى العالمِ، فإنَّ العالمَ الذي تَدْعُونَ أَنَّهُ رَبُّهُ عبارةٌ عن: كُلِّ ما عَلِمَ به الخلائقُ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وما بينهما، فهل تَيَقَّنْتُمْ أَنَّهُ خالِقُهَا، ورازقُ مَنْ فيها، ومُدَبِّرُ أُمُورِهَا، أم تَقُوهُونَ بذلكُ جُزْأً رَمِيًّا على العَمِيَاءِ؟ وتكريرُ لفظِ الرَّبِّ وإعادتهُ في كُلِّ مرَّةٍ لتعظيم ما نُسَبوا إليه، فعندَ ذلكَ احتدَّ اللَّعِينُ وقال لمن حوله: أَلَا تَرَوْنَ هَذِهِ الْجُرْأَةَ وَتَسْمَعُونَ هَذِهِ الْعَظِيمَةَ، وَهِيَ نَسْبَةُ الْجَهْلِ إِلَيْنَا عَجْزاً؟ فَتَنَى نَبِيُّ اللَّهِ التَّقْرِيعَ بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ مَفْصَلاً لَدَلِكِ الْمُجْمَلِ، فَإِنَّ الْآيَاتِ الْمَشَاهِدَةَ تَنْقَسِمُ إلى دَلِيلِي الْأَفَاقِ وَالْأَنْفُسِ، نَبَّهَ به على غباوتِهِمْ، وَأَنَّ الرَّبَّ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُتَقَدِّمًا على المَرُوبِ وَمُتَأَخِّرًا عَنْهُ، فَكَيْفَ تَتَّخِذُونَهُ رَبًّا لَكُمْ؟ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَوَّلُونَ قَدْ تَقَدَّمُوا عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ سَيَمُوتُ قَبْلَكُمْ أَوْ قَبْلَ أبنائِكُمْ، فَحَيْثُ زَادَ في تَفَرُّعِهِ، وَشَدَّةَ شَكِيمَتِهِ، وَنَسِيَتِهِ إلى الجُنُونِ اسْتِكْبَاراً وَعِنَاداً، وَتَهَكَّمَ به بقوله: ﴿رَسُولُكُمْ﴾، وَتَوَكَّيْده بَوْصَفِ يَدُلُّ على مزيدِ تَقْرِيعِ التَّهَكُّمِ بِرِسالَتِهِ سَفَاهَةً.

فَعَادَ نَبِيُّ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى تَقْرِيعِ ثالِثِ بقوله: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، عَرَضَ به أَنَّ الرَّبَّ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَادِرًا على ما في يَدِهِ وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مِشَارِقَ

يريد: أي شيء رب العالمين؟ وهذا السؤال لا يخلو: إما أن يريد به: أي شيء هو من الأشياء التي شوهدت وعُرفت أجناسها؟ فأجاب بما يُستدل به عليه من أفعاله

الأرض ومغاربها ليست في تصرّفه، ولا يملك منها على شيء ولا أحاطَ منها علماً بشيء، وذبله بقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ رَدّاً لِنَسِيَةِ الْجُنُونِ إِلَيْهِ عَلَى طَرِيقِ الْمَسَاكِلَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ، أَي: كَيْفَ تَنْسُبُونَ إِلَيَّ الْجُنُونَ وَأَنْتُمْ مَسْلُوبُو الْعُقُولِ فَاقْدُوا اللَّبَّ، حَيْثُ لَا تُمَيِّزُونَ بَيْنَ هَذِهِ الشُّوَاهِدِ، وَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ. وَلَمَّا عَجَزَ اللَّعِينُ عَنِ الْحِجَاجِ عَدَلَ إِلَى التَّخْوِيفِ بِالسَّجْنِ دَابَّ الْمُفْحَمِ الْمَبْهُوتِ.

ولما قهره نبي الله ﷺ في الاحتجاج انتقل إلى نوع آخر من الدليل، وهو إظهار المعجزة قائلاً: ﴿أَوَلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾، فعلى هذا هو متعلق بأول المحاجة من لدن وقعت المكالمة مع اللعين، يعني: أو تقر بتوحيد الله تعالى وبرسالتني لو جئتكم بما يدل على ذلك دلالة ظاهرة مكشوفة عياناً من انقلاب العصا حية، ونزع اليد من الجيب مشرقة؟

هذا أوضح من تقرير المصنّف، وأوفق لتأليف النظم.

ولعله يقرب من هذا المعنى قول صاحب «المفتاح»: ويحتجّل أن يكون فرعون قد سأل بـ «ما» عن الوصف؛ لكون رب العالمين عنده مشتركا بين نفسه وبين من دعا إليه موسى عليه السلام، لجهله، وفرط عتوه، وتسويل نفسه الشيطانية له بتسليم أولئك البهائم له إياها، وادعائهم له بذلك، وتلقيبهم إياه برب العالمين، وشهرته فيما بينهم بذلك إلى درجة دعت السحرة إذ عرفوا الحق، وقالوا: آمنا برب العالمين، إلى أن يعقبوه بقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [نفيًا] ^(١) لاتباهم أن يعنوا فرعون ^(٢)، وكذا فسّر المصنّف هذه الآية ^(٣).

قوله: (أي شيء هو من الأشياء التي شوهدت وعُرفت أجناسها؟) قال صاحب «المفتاح»: ولكون «ما» للسؤال عن الجنس، وللسؤال عن الوصف وقع بين فرعون وبين موسى عليه السلام ما وقع؛ لأن فرعون كان جاهلاً بالله تعالى معتقداً أن لا موجوداً مستقلاً

(١) زيادة لازمة من «مفتاح العلوم».

(٢) «مفتاح العلوم» ص ١٣٩.

(٣) انظر: «الكشاف» (١١: ٣٥٧ - ٣٥٨).

الخاصّة؛ ليعرّفه أنه ليس بشيءٍ ممّا شوهد وعُرف من الأجرام والأعراض، وأنه شيءٌ مخالفٌ لجميع الأشياء، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ وإمّا أن يريد به: أيُّ شيءٍ هو على الإطلاق؛ تفتيشاً عن حقيقة الخاصّة ما هي، فأجابته بأنّ الذي إليه سبيلٌ وهو الكافي في معرفته معرفةً ثباته بصفاته، استدلالاً بأفعاله الخاصّة على ذلك. وأمّا التفتيش عن حقيقة الخاصّة التي هي فوق فطر العقول، فتفتيش عمّا لا سبيل إليه، والسائل عنه مُتَعَنِّتٌ غيرُ طالبٍ للحقّ. والذي يليق بحال فرعون ويَدُلُّ عليه الكلام: أن يكون سؤاله هذا إنكاراً لأنّ يكون للعالمين ربّ سواه؛ لادّعائه الإلهيّة، فلما أجاب موسى بما أجاب، عَجَبَ قومه من جوابه؛ حيثُ نسب الربوبية إلى غيره، فلما ثنى بتقرير قوله، جنّنه إلى قومه وطنز به؛ حيثُ سمّاه رسولهم، فلما ثلث بتقرير آخر احتدّ واحتدّم، وقال: ﴿لَيْنِ أَنْتَخَذْتَ لَهَا غَيْرِي﴾ [الشعراء: ٢٩]، وهذا يدلُّ على صحّة هذا الوجه الأخير.

بنفسه سوى أجناس الأجسام، كأنه قال: أيُّ أجناس الأجسام هو؟ وحين كان موسى عليه السلام عالماً بالله عزّ وجلّ، أجاب عن الوصف تنبيهاً على النّظر المؤدّي إلى العلم^(١)، وهو المراد من قول المصنّف: «فأجاب بما يستدلُّ به عليه من أفعاله الخاصّة؛ ليعرّفه أنه ليس بشيءٍ ممّا شوهد وعُرف من الأجرام»، أراد أن الجواب من الأسلوب الحكيم، أرشده بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ مُوقِنِينَ﴾ إلى طريق المعرفة وتحصيل الإيقان، يعني: من تكون هذه الأجرام العظامُ مربوبهٌ ومخلوقه، وهو مالكها ومدبّر أمرها، لا يكون هو من جنسها.

قوله: (وهو الكافي في معرفته)، أي: هذا القدر من المعرفة كافٍ للمُسترشد دون المعانِد المتعنّت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَعْنِي آيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قوله: (واحتدّم)، الجوهري: احتدمت النار: التهتت، واحتدّم صدر فلان غيظاً، وقيل: يومٌ محتدّم: شديد الحرّ، واحتدّم الدّم: اشتدّت حرّته حتى يسودّ.

[﴿ قَالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ ٢٤]

فإن قلت: كيف قيل: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ على التثنية، والمرجوع إليه مجموع؟ قلت: أريد: وما بين الجنسين، فُعل بالمضمَر ما فَعَلَ بالظاهر من قال:

في الهيجا جمالين

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾؟ وأين عن فرعون ومَلِيهِ الإيقان؟ قلت: معناه: إن كان يُرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إليه النظر الصحيح نَفَعَكُم هذا الجواب، وإلا لم يَنفَع. أو: إن كنتم مُوقِنين بشيءٍ قَطُّ، فهذا أولى ما تُوقِنون به؛ لظهوره وإنارة دليبه.

قوله: (والمرجوع إليه مجموع)، المراد به: ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وفي عكسه قوله: ﴿وإن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، حيث جمع بعد التثنية، لأنها في معنى الجمع والناس^(١).

قوله: (في الهيجا جمالين)، قبله:

سعى عقالاً فلم يترك لنا سبداً فكيف لو قد سعى عمرو وعقالتين
لأصبح الناس أوباداً فلم يجدوا عند التفرق في الهيجا جمالين^(٢)

عَمْرُو: تنازع فيه العاملان. يقال: ما له سَبْدٌ ولا لَبْدٌ، أي: شيءٌ، وأصلُ السَّبْدِ: الشعر. والعقَالُ: صدقةٌ عام، وانتصابه على الظرف، أوباداً: جَمْعُ وَبْدٍ، أي: هَلَكِي، والوَبْدُ: سيئُ الحال، وحاصله أنه يجوزُ تثنيةُ الجَمْعِ على تأويلِ الجماعتين.

قوله: (أو: إن كنتم مُوقِنين بشيءٍ قَطُّ)، يريد أن قوله: ﴿مُوقِنِينَ﴾ مُطْلَقٌ خُصَّ بِقَيْدِ

(١) هذه الفقرة وردت في (ح) و(ف) بلفظ: «قوله: (والمرجوع إليه مجموع)، يعني المراد بالمشرق والمغرب: المشرق والمغرب؛ لأن الشمس تطلع كل يوم من مشرق، وتغرب في مغرب، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وأجاب بها أجاب.

(٢) البيتان لعمر بن العلاء الكلبي، ذكرهما البغدادي في «خزانة الأدب» (٧: ٥٤٥).

[﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ: أَلَا تَسْمَعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾] [٢٥-٢٨]

فإن قلت: ومن كان حوله؟ قلت: أشراف قومه، قيل: كانوا خمس مئة رجلٍ عليهم الأساور، وكانت للملوك خاصة. فإن قلت: ذكُر السماوات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها، فما معنى ذكُرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكُر المشرق والمغرب؟ قلت: قد عمَّ أولاً، ثم خصَّص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم؛ لأنَّ أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه، وما شاهد وعان من الدلائل على الصانع، والناقل من هيئة إلى هيئة وحالٍ إلى حالٍ من وقت ميلاده إلى وقت وفاته، ثم خصَّص المشرق والمغرب؛ لأنَّ طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها

قرينة المقام، وهو الكلام في الاستدلال والنظر في الإلهية، أو ترك على إطلاقه، بمعنى: إن وُجد منكم شيء من هذه الحقيقة، فهذا أولى، ويمكن أن يجرى على العموم ليدخل فيه ما سبق له الكلام دخولاً أولاً.

قوله: (لأنَّ أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه)، هذا يشعر بأن الترقِّي في الاحتجاجات الثلاثة بحسب اعتبار قلة النظر وقرب المنظور فيه؛ فإن الدلائل المثبتة في السموات والأرض وما بينهما أبعد متناً وأولاً من النظر من دليل أنفسهم وآبائهم فقط؛ لأنَّ الأول مشتول عليه وعلى الآفاقية أيضاً، والثاني أبعد منظوراً من الثالث؛ لأنَّ المنظور في الثاني الانتقال من هيئة إلى هيئة، ومن حالٍ إلى حالٍ من وقت ميلاده إلى وقت وفاته في نفس الناظر وأنفس آبائه، ولا كذلك النظر في طلوع الشمس وغروبها في فصول السنة، وإليه الإشارة بقوله: «ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله عليه السلام».

قوله: (الخافقين)، الخافقان: أفقا المشرق والمغرب؛ قال ابن السكيت: لأنَّ الليل والنهار يخفقان فيهما بسرعة^(١)، من خفقان الطائر؛ إذا صفق^(٢) بجناحيه، وخفوق الرؤية.

(١) «إصلاح المنطق» ص ٣٩٧.

(٢) في (ح) و(ف): «خفق».

في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة وحسابٍ مُستوٍ من أظهر ما استدلَّ به؛ ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمرود بن كنعان، فبهت الذي كَفَرَ. وقُرئ: (رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)، (الذي أرسل إليكم) بفتح الهمزة. فإن قلت: كيف قال أولاً: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ وآخرًا: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟ قلت: لاينَ أولاً، فلما رأى منهم شدة الشكيمة في العنادِ وقلة الإصغاء إلى عَرَضِ الْحُجَجِ خَاشِنَ وَعَارِضَ «إِنَّ رَسُولَكُمْ لَمَجْنُونٌ»، بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَالَ لَيْنٍ أَخَذَتْ إِلَهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [٢٩]

فإن قلت: ألم يكن: لأسجُنَنَّك أخصرَ من ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ ومؤدياً مؤداه؟ قلت: أمّا أخصرُ فنعم، وأمّا مؤدُّ مؤداه فلا؛ لأنَّ معناه: لأجعلنك واحداً ممن عرفتَ حالهم في سُجوني. وكان من عادته أن يأخذَ من يريد سجنه فيطرحه في هوة ذاهية في الأرض بعيدة العمق فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أشدَّ من القتل وأشدَّ.

﴿قَالَ أَوْلُو جِبْتِكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [٣٠]

وقال صاحبُ «المفتاح»: ومنَ التعليل: الخافقان؛ للمشرق والمغرب^(١) ويؤيده ما في «المغرب» عن الأزهرى: خَفَقَ النَّجْمُ: إذا غاب، ومنه: الخافقان؛ للمشرق والمغرب^(٢).

قوله: (لاينَ أولاً)، إلى قوله: «خَاشِنَ وَعَارِضَ». قال الإمام: أراد بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: إن كنتَ منَ العقلاءِ وعرفتَ أن لا جوابَ عن سؤالِكَ إلا ما ذكرتُ؛ لأنك طلبتَ تعريفَ حقيقته، وقد أرشدتُك أنه لا يمكن^(٣).

(١) «مفتاح العلوم» ص ١٠٦.

(٢) «المغرب» (١: ٢٦٢)، وانظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٧: ٣٨).

(٣) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٢٩).

الواوُ في قوله: ﴿أُولَوِ جِئْتِكَ﴾ وأوُ الحال، دخلت عليها همزةُ الاستفهام. معناه: أتفعلُ بي ذلك ولو جئتُك بشيءٍ مُبين؟ أي: جائياً بالمعجزة. وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادقُ في دَعْوَاهُ؛ لأنَّ المُعْجِزَةَ تصديقٌ من الله لمُدَّعِي النُّبُوَّةِ، والحكيمُ لا يُصدِّقُ الكاذبَ.

قوله: (أتفعلُ بي ذلك، ولو جئتُك بشيءٍ مُبين؟)، يريدُ أنَّ عاملَ الحالِ وصاحبها: ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لَا تَجْمَعَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾، فجعلَ وعيده تخلصاً للانتقالِ إلى نوعٍ آخرَ من الدليل. قال القاضي: المُعْجِزَةُ جامعةٌ بينَ الدلالةِ على وجودِ الصانعِ وحِكْمَتِهِ، والدلالةِ على صِدْقِ مُدَّعِي نُبُوَّتِهِ^(١).

قلتُ: ويُمكنُ أن يُقالَ: إنَّ الواوِ في ﴿أُولَوِ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ عاطفةٌ، وهي تستدعي معطوفاً عليه، وهو ما سَبَقَ في أوَّلِ المِكالمةِ بينَ نبيِّ الله تعالى وعدوِّه. والهمزةُ مُقَحِّمَةٌ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه للتقرير. المعنى: أو تُقرُّ بالوحدانيةِ وبرسالتِي إن جئتُك بعدَ الاحتجاجِ بالبراهينِ القاهرةِ والمُعْجِزاتِ الباهرةِ الظاهرةِ؟ كما سَبَقَ تقريرُهُ، و«لو» بمعنى «أن» غيرِ عزيز.

ويؤيِّدُ هذا التاويلُ ما في الأعراف: ﴿قَدْ جِئْتَكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِبَيِّنَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿ [الأعراف: ١٠٥-١٠٦]. قال المصنِّفُ: «إِنْ كُنْتَ جِئْتَ مِنْ عِنْدِ مَنْ أَرْسَلْتَ بَأْيَةٍ فَأْتِ بِهَا، وَأَحْضِرْهَا عِنْدِي، لِيَصِحَّ دَعْوَاكَ وَيَبْتَدَأَ صِدْقُكَ»^(٢).

قوله: (وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادقُ)، يعني: في سياقِ هذا التركيبِ أدمَجَ معنى أنَّ المُعْجِزَةَ تصديقٌ من الله تعالى لمُدَّعِي النُّبُوَّةِ، والحكيمُ لا يُصدِّقُ الكاذبَ.

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٣٦).

(٢) انظر: «الكشاف» (٦: ٥١٥).

ومن العَجَب أن مثل فرعون لم يَخَفَ عليه هذا، وَخَفِيَ على ناسٍ من أهل القِبْلَةِ؛ حيثُ جَوَّزوا القبيحَ على الله حتى لَزِمَهُم تصديقُ الكاذبين بالمُعْجِزاتِ! وتقديرُهُ: إن كنتَ من الصادقين في دَعْوَاكَ أتيتَ به، فحُذِفَ الجزاءُ؛ لأنَّ الأمرَ بالإتيانِ به يدلُّ عليه.

[﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِنَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ * وَرَزَعَ يَدَهُ، فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٢-٣٣﴾]

﴿ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾: ظاهرُ الثُعْبَانِيَّةِ، لا شيءٌ يُشْبِهُ الثُعْبَانَ، كما تكون الأشياءُ المزوَّرةُ

قوله: (ومن العَجَب أن مثل فرعون لم يَخَفَ عليه [هذا])، وقد خَفِيَ^(١) على ناسٍ من أهلِ القِبْلَةِ، حيثُ جَوَّزوا القبيحَ على الله عَزَّ وَجَلَّ حتى لَزِمَهُم تصديقُ الكاذبين بالمُعْجِزاتِ)، قال صَاحِبُ «الانتصافِ»: هذا تعريضٌ بتفضيلِ فرعونَ على أهلِ السُّنَّةِ، وحُكْمٌ على القَدَرِيَّةِ أنَّ فيهم نصيباً من الفراعنة، إذ كلُّ أحدٍ يزعمُ أنه خالقٌ ومُبدِعٌ لأفعاله، وجُحودٌ على الله تعالى أن يفعلَ إلا ما واطأَ عقولهم، وأنه حَسَنٌ في الشاهد^(٢).

وقلتُ: المصنَّفُ بنَى كلامه على الحُسنِ والقُبْحِ العَقْلِيِّينَ، ثم سَنَّعَ على أهلِ السُّنَّةِ، ولا يَلْزَمُ من قولهم: يفعلُ الله ما يشاء، ويحكمُ ما يريد، وأنه لا يوجدُ شيءٌ في الكائناتِ إلا بإرادته ومشيئته: تصديقُ الكاذبين بالمُعْجِزاتِ؛ لأنه ظَهَرَ وَعَلِمَ بالاستقراءِ أنه تعالى ما حَكَمَ ولا أرادَ تصديقَ الكاذبين بالمُعْجِزاتِ؛ ولهذا قَطَعَ الأصحابُ بأنَّ سُنَّةَ الله جَرَتْ على أن لا يُظهِرَ المُعْجِزَةَ على يدِ الكاذبِ.

هذا، وإن تفسيره لقوله: ﴿إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ يخالفُ جَعَلَهُ ﴿أَوَلَوْ جِئْتِكَ﴾ حالاً وتقريراً للعطفِ الذي ذَهَبْنَا إليه؛ لأنَّ الكلامَ على الحالِ في السُّجْنِ، لا في إثباتِ النبوةِ، وتصديقه بالمُعْجِزَةِ، واللهُ تعالى أعلم.

قوله: (لا شيءٌ يُشْبِهُ الثُعْبَانَ)، توكيدٌ لقوله: «ظاهرُ الثُعْبَانِيَّةِ»؛ لأنَّ الله تعالى حَمَلَ «ثُعْبَانَ» على صَمِيرِ العَصَا، فيُتَوَهَّمُ أنه مثلُ: زيدٌ هو أسدٌ، فأزال التوهّمَ بقوله: «لا شيءٌ يُشْبِهُ الثُعْبَانَ»، يدلُّ عليه قوله: ﴿مُبِينٌ﴾.

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «وخفي» دون لفظة «قد».

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٠٩).

بالشعوذة والسحر. ورؤي: أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت
مقبلة إلى فرعون، وجعلت تقول: يا موسى، مُرني بما شئت. ويقول فرعون: أسألك
بالذي أرسلتك إلا أخذتها، فأخذها فعادت عصا. ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾ دليل على أن بياضها
كان شيئاً يجتمع النظارة على النظر إليه؛ لخروجه عن العادة، وكان بياضاً ثورياً. رؤي:
أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: فهل غيرها؟ فأخرج يده، فقال له: ما هذه؟
قال: يدك، فما فيها؟ فأدخلها في إبطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يُغشي الأبصار ويسدُّ
الأفق.

[﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ

فَمَاذَا مَرُونَ﴾ ﴿٣٤ - ٣٥﴾

قوله: (بالشعوذة)، الأساس: فلان شعوذي، ومُشعوذ، ومُشعِبذ، وعملها الشعوذة،
والشعِبذة، وهي: خفة في اليد، وأخذ كالسحر، وقيل للبريد: الشعوذي، لخفته.

قوله: (إلا أخذتها)، أي: ما أطلب منك إلا أخذها، كقول ابن عباس رضي الله عنهما:
بالإيواء والنصر إلا جلستم، وقد دخل مجلساً غاصاً من الأنصار، قال صاحب «المقتبس»:
والقسَمُ يُسَلِّكُ فِيهِ الطَّرَائِقُ؛ لكثرة وقوعه في كلامهم، والفعل والمصدر لما كانا في اتصال
من جهة التواليد والتناشؤ^(١)، جاز أن يقع كل منهما موقع صاحبه، يدل على ما يدل عليه
الآخر. وفي «ربيع الأبرار»: أمر الحجاج بقتل رجل، فقال: أسألك بالذي أنت غداً بين يديه
أذل موقفاً مني بين يديك اليوم إلا عفوت عني، فعفا عنه^(٢).

قوله: (يدك، فما فيها؟)، وهو من جملة المَقُول، أي: هو يدك، فأني شيء فيها؟ أي: ليس
فيها معجزة ولا عجب، وقال بعضهم: معنى ما هذه: أي شيء فيها من الآية؟

(١) في (ح) و(ف): «والتناشر»، وهو تحريف.

(٢) «ربيع الأبرار» (١: ١١٤).

فإن قلت: ما العامل في ﴿حَوْلَهُ﴾؟ قلت: هو منصوبٌ نصبتن: نصبٌ في اللفظ، ونصبٌ في المحل؛ فالعامل في النصب اللفظي ما يُقدَّر في الظرف، والعامل في النصب المحليّ - وهو النصب على الحال -: ﴿قَالَ﴾. ولقد تحيّر فرعون لما أبصر الآيتين، وبقِيَ لا يدري أيُّ طرفيه أطول، حتى زلَّ عنه ذكرُ دعوى الإلهية، وخطَّ عن منكبيه كبرياء الربوبية، وارتعدت فرائضه، وانتفخ سحره خوفاً وفرقاً؛ وبلغت به الاستكانة لقومه

قوله: (نَصَبٌ فِي اللَّفْظِ، وَنَصَبٌ فِي الْمَحَلِّ)، قال صاحبُ «المَطَّلَع»: العاملُ فِي النَّصْبِ اللَّفْظِيُّ: مَا يُقَدَّرُ فِي الظَّرْفِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، تَقْدِيرُهُ: لِلْمَلَأِ مُسْتَقَرِّينَ، أَوْ مُجْتَمِعِينَ حَوْلَهُ، وَالْعَامِلُ فِي الْمَحَلِّيِّ، وَهُوَ النَّصَبُ عَلَى الْحَالِ، قَالَ: تَقْدِيرُهُ: قَالَ لَهُمْ وَهُمْ حَوْلَهُ.

قوله: ﴿قَالَ﴾، خبر لقوله: «والعامل»، والجُمْلَةُ، وَهُوَ النَّصَبُ عَلَى الْحَالِ: مَعْتَرِضَةٌ، أَي: قَالَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ﴾ عَامِلٌ فِي ﴿حَوْلَهُ﴾ وَهُوَ حَالٌ.

قوله: (لا يدري أيُّ طرفيه أطول)، مثل في التحير. عن بعضهم يقال: بقي فلان حيران لا يدري أيُّ طرفيه أطول، لطول يترأى له الشبح شبحين، قال الميداني: قال الأصمعي: معناه: لا يدري أنسبُ أبيه أفضلُ أم نسبُ أمه. وقال غيره: يقال: إن وسط الإنسان: سرته، والطرفُ الأسفلُ أطولُ من الأعلى، وهذا يكادُ يجهدُه أكثرُ الناسِ حتى يُقدَّرَ له. وقال ابنُ الأعرابي: طرفاه: ذكره ولسانه، يُضْرَبُ فِي نَفْيِ الْعِلْمِ^(١).

قوله: (فرائضه)، الفريضة: اللَّحْمُ بَيْنَ الْجَنْبِ وَالْكَيْفِ الَّذِي لَا يَزَالُ يُرْعَدُ مِنَ الدَّابَةِ. قوله: (وانتفخ سحره)، بالخاء المعجمة^(٢)، وفي نسخةٍ صحيحة: بالجيم، من قولهم: «هنيئاً لك النافجة» أي: المُعْظَمَةُ لِمَالِكَ. وَالسَّحْرُ: الرَّثَةُ.

الأساس: وانتفخ سحره، وانتفخت مساحره، إذا ملَّ وجبن. وانتفخ منه سحري: إذا يسئت، يقال: وأنا منه غيرُ صريمٍ سحر: غير قانط.

(١) انظر: «مجمع الأمثال» (٢: ٢١٤).

(٢) يريد: أن لفظه «انتفخ» بالخاء المعجمة، وليس كلامه رحمه الله في لفظه «سحره»، كما قد يتوهم.

الذين هم بزعمه عبيدُه وهو إلههم - أن طَفِقَ يُؤَامِرُهُم ويعترف لهم بما حَذَرَ منه وتوقَّعه وأحسَّ به من جِهَةِ موسى وغلبته على مُلكِه وأرضه، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَدْحٌ عَلِيمٌ﴾ قولٌ باهتٌ إذا غلبَ ومُتمحِّلٌ إذا ألزم. ﴿تَأْمُرُونَ﴾ مِنَ الْمُؤَامَرَةِ؛ وهي المُشاورة. أو مِنَ الأَمْرِ الذي هو ضدُّ النهي. جعل العبيدَ آمِرِينَ وربَّهم مأموراً لِمَا استولى عليه من فرطِ الدَّهْشِ والحَيْرَةِ. و«ماذا» منصوبٌ، إمَّا لكونه في معنى المصدر، وإمَّا لأنه مفعولٌ به من قوله:

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ.....

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدَّائِنِ خَشِيرِينَ * يَا تَوَكُّبْ بِكُلِّ سَخَّارٍ عَلِيمٍ﴾

[٣٦-٣٧]

قُرئ: (أَرْجِئْهُ) و﴿أَرْجِئْهُ﴾، بالهمزِ والتخفيف، وهما لغتان. يقال: أَرْجَأْتَهُ وَأَرْجِئْتَهُ؛

قوله: (مِن جِهَةِ موسى عليه السَّلامُ)، «مِن»: بيانُ «ما» في «بما حَذَرَ منه».

قوله: (و«ماذا» منصوبٌ، إمَّا لكونه في معنى المصدر)، أي: أيُّ أمرٍ تَأْمُرُونَ؟ قال في قوله: ﴿مَاذَا أُجِئْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة: ١٠٩]: «﴿مَاذَا﴾: مُتَّصِبٌ بـ﴿أُجِئْتُمْ﴾ انتصابَ مصدره، على معنى: أيُّ إجابةٍ أُجِئْتُمْ»^(١)؟

قوله^(٢): (قُرئ: «أَرْجِئْهُ»)، ابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ، والباقون: بالتخفيف. قال صاحبُ «الكشَفِ»: «قالوا أَرْجِئْهُ وَأَخَاهُ»، و«أَرْجِئْهُ»، باختلاسِ الكسرة، كلُّ ذلك في السبعة، والأصل: «أَرْجِئْهُ» بالضَّمِّ والإشباع، ثم يليه «أَرْجِئْهُ» بضمِّ الهاءِ مِن دونِ الإشباعِ اكتفاءً بالضَّمِّ عن الواو، ثم «أَرْجِئْهُ» بكسرِ الهاءِ؛ لِمُجاوَرَةِ الجيمِ، ولا

(١) انظر: «الكشاف» (٥: ٥٢٥).

(٢) نُصِّ هذه الفقرة في النسخة (ط) هو: «قوله: (أَرْجِئْهُ) و﴿أَرْجِئْهُ﴾»، قال الشيخ برهانُ الدين الجعبريُّ رحمه الله تعالى: أبو عمرو: «أَرْجِئْهُ»، بالهمزِ والضَّمِّ، وابنُ كثيرٍ وهشام: كذا مع الصلَّة، وابنُ ذكوان: بالهمزِ والكسرِ، وعاصمٌ وحمة: بإسكانِ الهاءِ بلا همزٍ، وكذا ورشٌ والكسائيُّ مع الياءِ.

إذا أحرته. ومنه: المرجئة؛ وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق، ويقولون: هم مرجؤون لأمر الله. والمعنى: أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة. وقيل: احبسّه. ﴿حَشْرِينَ﴾ شَرْطًا يَحْشُرُونَ السَّحْرَةَ،

اعتداداً بالحاجز، أعني: الهمزة الساكنة. فأما مَنْ قال: ﴿أَرْجِهْ﴾ فَبِهِ مِنْ: أَرْجَيْتُهُ، دُونَ أَرْجَأْتُهُ، بِلَا هَمْزٍ، وَالْهَمْزَةُ أَفْصَحُ، فَلَمَّا حَذَفَ الْيَاءَ لِلأَمْرِ أَشْبَعَ الْهَاءَ، وَكَسَرَهَا لِمُجَاوَرَةِ الْجِيمِ، وَأَضْعَفُ الْوَجُوهُ «أَرْجِهْ» بِاسْكَانِ الْهَاءِ، لِأَنَّ هَذِهِ الْهَاءَ إِنَّمَا تُسَكَّنُ فِي الْوَقْفِ، لَكِنَّهُ أَجْرَى الْوَضَلِ بِجَرَى الْوَقْفِ^(١).

قوله: (وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق، ويقولون: هم مرجؤون لأمر الله)، الانتصاب: حرّف في تفسير المرجئة، فأهل السنة هم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق، ويرجعون أمرهم إلى المشيئة، فإن كان المرجئة هؤلاء فاشهدوا أنا مرجئة^(٢).

النهاية: المرجئة: فرقة من فرق الإسلام، يعتقدون أنه لا يضُرُّ مع الإيمان معصية، كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة، سُموا مرجئة؛ لاعتقادهم أن الله تعالى أرجأ تعذيبهم على المعاصي^(٣)، أي: أخره عنهم، والمرجئة تُهَمْزُ وَلَا تَهْمَزُ، وكلاهما بمعنى التأخير.

قوله: (شَرْطًا يَحْشُرُونَ)، يريد أن ﴿حَشْرِينَ﴾ صفة موصوفٍ هُوَ مفعولٌ به.

النهاية: الأشرط: العلامات، واحديثها: شَرَطُ بالتحريك، وبه سُميت شَرَطُ السُّلْطَانِ؛ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ عِلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا، هَكَذَا قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ^(٤). وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّهُ أَنْكَرَ هَذَا التَّفْسِيرَ، وَقَالَ: أَشْرَاطُ السَّاعَةِ: مَا يُنْكَرُهُ النَّاسُ مِنْ صِغَارِ أُمُورِهَا قَبْلَ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ^(٥). وَشَرَطُ السُّلْطَانِ: نُخْبَةٌ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ يُقَدِّمُهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ جُنْدِهِ.

(١) «كشف المشكلات»، للباقولي (٢: ٩٨٦).

(٢) «الانتصاب بحاشية الكشاف» (٣: ٣١١).

(٣) لتام الفائدة انظر: «الجمل والنحل» للشهرستاني ص ٦٠.

(٤) في «غريب الحديث» (١: ٣٤).

(٥) «غريب الحديث» للخطابي (٢: ٢٥٢).

وعارَضُوا قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، بقولهم: ﴿يَكُلُّ سَحَابٌ﴾، فجاؤوا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة؛ ليطامِنُوا من نفسه ويُسكِنُوا بعضَ قلبه. وقرأ الأعمش: (بكل ساحر).

[﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمَقَّتِ يَوْمَ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلْنَا نَنْبَغُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْفَٰلِغِينَ﴾ ٣٨ - ٤٠]

اليومُ المعلوم: يومُ الزينة. وميقاته: وقت الضحى؛ لأنه الوقت الذي وقته لهم موسى - صلوات الله عليه - من يوم الزينة في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]. والميقات: ما وُقت به، أي: حُدِّد من زمانٍ أو مكان. ومنه: مواقيت الإحرام. ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ استبطاءٌ لهم في الاجتماع، والمرادُ منه: استعجالهم واستحثاثهم، كما يقول الرجل لعلامة: هل أنت مُنطلق؟ إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق، كأنها يُحَيِّل له أنَّ الناس قد انطلقوا وهو واقف، ومنه قولُ تَابِطٍ شَرًّا:

هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينَارٍ لِحَاجَتِنَا أَوْ عَبْدَ رَبِّ أَخَاعُونَ بِنِجْرَاقِ؟

يريد: ابعثه إلينا سريعاً ولا تُبطئ به. ﴿لَعَلْنَا نَنْبَغُ السَّحَرَةَ﴾ أي: في دينهم إن غلبوا موسى، ولا نتبع موسى في دينه. وليس غرضهم اتِّباع السحرة، وإنما الغرض الكليُّ: أن لا يتبعوا موسى،

قوله: (وعارَضُوا قَوْلَهُ)، لم يُرَدِّ بالمُعَارَضَةِ الاعتراض، بل: المُقَابَلَةُ؛ فإنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ قابَلُوهُ بقولهم: ﴿يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾.

قوله: (هل أنت باعثُ دينارٍ؟)، البيت (١). هل أنت: حثٌّ وتحريضٌ على الاستحثاث. دينار: اسمُ رجل، وكذا عبدُ ربِّ، و«عبدُ ربِّ»: منصوبٌ معطوفٌ على محلِّ «دينار»، وأخا عَوْنٍ: منادى لا تُعْت، ويجوزُ أن يكون عطفَ بيانٍ لـ «عبدُ ربِّ».

(١) البيت لتأبط شراً في «ديوانه» ص ٢٤٥، في قسم المختلط النسبة مما ليس من شعره ونُسب إليه.

فساقوا الكلام مساق الكناية؛ لأنهم إذا اتبعوهم لم يكونوا متبعين لموسى.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [٤١ - ٤٢]

وَقُرئ: (نَعِم) بالكسر، وهما لغتان. ولَمَّا كان قوله: ﴿ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا ﴾ في معنى جزاء الشرط؛ لدلالته عليه، وكان قوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ معطوفاً عليه ومُدخلاً في حكمه؛ دخلت ﴿ إِذَا ﴾ قازةً في مكانها الذي تقتضيه من الجواب والجزاء. وَعَدَّهم أن يجمع لهم إلى الثوابِ على سحرهم الذي قَدَّروا أنهم يَغلبون به موسى: القُرْبَةَ عنده والزُّلفى.

﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ وَعَصَبِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [٤٣ - ٤٤]

قوله: (فساقوا الكلام مساق الكناية)، يعني: لم يُرد بقوله: ﴿ نَبَّحَ السَّحَرَةُ ﴾: اتباعهم حقيقة، فكيف وإنه مُدعٍ للإلهية؟ وإرادته دَفْعُ موسى عليه السلام فقط.

قوله: (نَعِم) بالكسر^(١)، الكسائي.

قوله: (ولمَّا كان قوله: ﴿ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا ﴾ في معنى جزاء الشرط)، يعني: قد تَقَرَّرَ أن الجزاء لا يتقدَّم على الشرط؛ لأنه مُسَبَّبٌ عنه، فإذا تقدَّم ما في معنى الجزاء عليه ينبغي أن يُقدَّرَ مثله بعده، فحكم ﴿ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا ﴾ كذلك، وقد عطفَ عليه قوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾، والمعطوفُ له حكمُ المعطوفِ عليه، فصَحَّ حينئذٍ دخولُ «إذا» فيه؛ فكأنهم لما قالوا: إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، فهل لنا مِن أَجْرٍ؟ أُجيبوا بقوله: ﴿ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾، أي: إِن غَلَبْتُمْ فلكمُ الأجرُ والقُرْبَةُ. وهو قريبٌ من التأويلِ الذي سَبَقَ في قوله تعالى: ﴿ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾.

(١) يعني بكسر العين. وهما لغتان. انظر: «حُجَّةُ القراءات» ص ٢٨٢.

أَقْسَمُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ، وَهِيَ مِنْ أَيْتَانِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَهَكَذَا كُلُّ حَلْفٍ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَا يَصِحُّ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا الْحَلْفُ بِاللَّهِ مَعْلَقًا بِبَعْضِ أَسْمَائِهِ أَوْ صِفَاتِهِ، كَقَوْلِكَ: بِاللَّهِ، وَالرَّحْمَنِ، وَرَبِّي، وَرَبِّ الْعَرْشِ، وَعِزَّةِ اللَّهِ، وَقُدْرَةِ اللَّهِ، وَجَلَالِ اللَّهِ، وَعَظْمَةِ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ وَلَا بِأُمَّهَاتِكُمْ وَلَا بِالطَّوَاغِيَتِ، وَلَا تَحْلِفُوا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ». وَلَقَدْ اسْتَحَدَّثَ النَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ فِي إِسْلَامِهِمْ جَاهِلِيَّةً نُسِيتْ لَهَا الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَوْ أَقْسَمَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ كُلِّهَا

قَوْلُهُ: (مَعْلَقًا بِبَعْضِ أَسْمَائِهِ)، حَالٌ مِنَ الْحَلْفِ، وَ«بِبَعْضِ أَسْمَائِهِ أَوْ صِفَاتِهِ»: لَفٌّ، وَقَوْلُهُ: «بِاللَّهِ وَالرَّحْمَنِ» هُمَا اسْمَانِ اللَّهِ تَعَالَى خَاصَّانِ بِهِ، وَقَوْلُهُ: «رَبِّ الْعَرْشِ وَرَبِّي» هُمَا اسْمَانِ اللَّهِ تَعَالَى غَالِبَانِ، وَهَذِهِ الْأَرْبَعُ: نَشَرُّ لِقَوْلِهِ: «أَسْمَائِهِ» وَقَوْلُهُ: «وَعِزَّةِ اللَّهِ، وَقُدْرَةِ اللَّهِ، وَجَلَالِ اللَّهِ، وَعَظْمَةِ اللَّهِ»، هَذِهِ الْأَرْبَعُ: نَشَرُّ لِقَوْلِهِ: «أَوْ صِفَاتِهِ»، وَالْمُرَادُ بِالْأَسْمِ هَاهُنَا: مَا يَصِحُّ حَمْلُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَبِالْصِّفَةِ: خِلَافُهُ، فَيَقَالُ: اللَّهُ الرَّحْمَنُ وَالرَّبُّ، وَلَا يَقَالُ: اللَّهُ الْعِزَّةُ وَالْقُدْرَةُ. مَضَى تَمَامَ تَقْرِيرِهِ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِمَا آغْوَيْنِي﴾ [الحجر: ٣٩] عَلَى الْقَسَمِ.

قَوْلُهُ: (الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى)، عَنْ بَعْضِهِمْ: الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى: هِيَ زَمَانٌ وَكَلْدٌ قَابِلِيلٌ؛ بُعِثَ إِلَيْهِمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْأُخْرَى بُعِثَ إِلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (لَا تَحْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ)، الْحَدِيثُ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ، وَلَا بِالْأَنْدَادِ، لَا تَحْلِفُوا بِاللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا إِلَّا وَأَنْتُمْ صَادِقُونَ»^(١). وَرَوَى النَّسَائِيُّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «لَا تَحْلِفُوا بِأَبَائِكُمْ، وَلَا بِالطَّوَاغِيَتِ»^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٣٢٥٠) وَالنَّسَائِيُّ (٥: ٧) وَابِيهَيْقِي فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (١٠: ٢٩) وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَانَ (٤٣٥٧).

(٢) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (٧: ٧) وَابِيهَيْقِي فِي «السَّنَنِ الْكُبْرَى» (١٠: ٢٩) وَانظُرْ تَمَامَ تَخْرِيجِهِ فِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَد» (٢٠٦٢٤).

وصفاته على شيء: لم تُقبل منه، ولم يُعتدَّ بها حتى يُقسِمَ برأس سلطانه، فإذا أقسمَ به فتلكَ عندهم جَهْدُ اليمين التي ليس وراءها حلفٌ لحالف.

[﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ * فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ٤٥-٤٨]

﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾: ما يقبلونه عن وجهه وحقيقته بسخرهم وكيدهم، ويُزورونه فيُخيّلون في جبالهم وعصبيّهم أنها حياتٌ تسعى، بالتّمويه على الناظرين. أو: إفكهم. سمى تلك الأشياء إفكاً مُبالغة. روي: أنهم قالوا: إن يك ما جاء به موسى سحراً فلن يعلب، وإن يك من عند الله فلن يخفى علينا، فلما قدفَ عصاه فتلقفت ما أتوا به، علموا أنه من الله؛ فآمنوا. وعن عكرمة: أصبحوا سحرةً وأمسوا شهداء. وإنما عبّر به عن الخُرور بالإلقاء؛ لأنه ذكر مع الإلقاءات، فسلك به طريق المُشاكلة. وفيه أيضاً - مع مُراعاة المُشاكلة - أنهم حين رأوا ما رأوا، لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين، كأنهم أخذوا فطرحوا طرْحاً. فإن قلت: فاعلُ الإلقاء ما هو لو صرّح به؟ قلت: هو الله عزَّ وجلَّ بما خوّلهم من التوفيق. أو إيمانهم. أو ما عاينوا من المعجزة الباهرة، ولك أن لا تُقدّر فاعلاً؛ لأنَّ (ألقوا) بمعنى خروا وسقطوا. ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ عطفُ بيانٍ لربِّ العالمين؛ لأنَّ فرعونَ - لعنةُ الله عليه - كان يدعي

قوله: (أو: إفكهم)، وعلى هذا: «ما» مصدرية، وسمى مأفوكهم بالإفك مُبالغة، لأنَّ المعنى لا يتناولُه. الجوهري: لِقِفْتُ الشيءَ - بالكسر - ألقفُهُ لِقْفاً، وتلقفتُهُ أيضاً، أي: تناولتُهُ بسرعة.

قوله: (ولك أن لا تُقدّر فاعلاً)، قال صاحبُ «الفرائد»: هذا منظورٌ فيه؛ لأنَّ المُعدى إلى مفعولٍ لا بدُّ له من الفاعل، وإذا أُسندَ إلى المفعولِ صار الفاعلُ متروكاً، وما ذكّر، من لوازم معناه، لا معناه.

قلت: أراد بقوله: «أن لا تُقدّر فاعلاً»: أن لا يُخصَّص، على نحو: قِيلَ الخارجِجي، فإن

الرَّبُّوبِيَّةَ، فَأَرَادُوا أَنْ يَعْرِزِلُوهُ. وَمَعْنَى إِضَافَتِهِ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ: أَنَّهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ هَذَانِ، وَالَّذِي أَجْرَى عَلَى أَيْدِيهِمَا مَا أَجْرَى.

[﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْتَمُونَ
لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٤٩]

﴿فَلَسَوْفَ نَعْتَمُونَ﴾ أي: وبإل ما فعلتم.

[﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٠ - ٥١]

الضَّرِّ وَالضَّيْرَ وَالضُّورَ: وَاحِدٌ، أَرَادُوا: لَا ضَرَرَ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ، بَلْ لَنَا فِيهِ أَعْظَمُ

الْمَقْصُودَ حُصُولَ قَتْلِهِ، وَكَوْنَهُ مَقْتُولًا، لَا أَنَّ الْقَاتِلَ مَنْ هُوَ؟ كَذَا الْقَصْدُ هُنَا، كَوْنُهُمْ مُلْقِينَ سَاقِطِينَ، لَا أَنَّ الْمُلْقِيَ مَنْ هُوَ؟

قَوْلُهُ: (أَنَّهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ)، خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، الْجُمْلَةُ: خَبْرٌ «مَعْنَى إِضَافَتِهِ»، وَالضَّمِيرُ فِي «أَنَّهُ» رَاجِعٌ إِلَى الرَّبِّ الْمَحذُوفِ، وَفَاعِلٌ يَدْعُو: «هَذَانِ»، يَرِيدُ أَنْ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ عَطْفٌ بَيَانٌ لـ «رَبِّ الْعَالَمِينَ»، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَمَّنْ عُرِفَتْ إِلَهِيَّتُهُ بِوَسْطِيَّتَيْهِمَا.

قَوْلُهُ: (لَا ضَرَرَ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ)، عَلِمَ أَنَّهُمْ أَجَابُوا الْمَلْعُونَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَا ضَيْرَ﴾، وَعَلَّلُوهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾، وَالْمَصْنُفُ فَسَّرَهُ بِوَجْهِهِ، أَحَدُهَا: اعْتَبَرَ فِي ﴿لَا ضَيْرَ﴾ جَمِيعَ مَا تَهَدَّدَ بِهِ الْمَلْعُونَ مِنَ الْقَطْعِ وَالصَّلْبِ، حَيْثُ أَتَى بِاسْمِ الْإِشَارَةِ فِي قَوْلِهِ: «لَا ضَرَرَ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ»، ثُمَّ أَتَى فِي الْعِلَّةِ بِمُتَعَدِّدٍ: «مِنْ تَكْفِيرِ الْخَطَايَا وَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ وَالْأَعْوَاضِ. وَالثَّوَابُ: هُوَ الْجِزَاءُ عَلَى أَعْمَالِ الْحَيْرِ، وَالْأَعْوَاضُ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُعْتَزَلَةُ هِيَ: السَّلَامَةُ الَّتِي هِيَ بَدَلُ الْأَلَمِ، وَالنَّعْمُ الَّتِي هِيَ مُقَابِلَةُ لِلْبَلَايَا وَالسَّحْنِ وَالرَّزَايَا وَالْفِتَنِ»^(١).

وِثَانِيهَا: قَوْلُهُ: «وَلَا ضَيْرَ عَلَيْنَا فِيمَا تَوَعَّدْنَا بِهِ مِنَ الْقَتْلِ»، اعْتَبَرَ وَعَيْدَهُ بِجُمْلَتِهِ، وَعَبَّرَ

(١) انظر بتسط هذه المسألة في «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار ص ٤٨٣ - ٤٩٣.

النفع؛ لِمَا يَحْصُلُ لَنَا فِي الصَّبْرِ عَلَيْهِ لَوْجِهِ اللهُ، مِنْ تَكْفِيرِ الْحَطَايَا وَالثَّوَابِ الْعَظِيمِ،
 مَعَ الْأَعْوَاضِ الْكَثِيرَةِ. أَوْ: لَا ضَيْرَ عَلَيْنَا فِيْمَا تَتَوَعَّدُنَا بِهِ مِنَ الْقَتْلِ، إِنَّهُ لَا بَدَّ لَنَا مِنْ
 الْإِنْقِلَابِ إِلَى رَبِّنَا بِسَبَبِ مِنْ أَسْبَابِ الْمَوْتِ، وَالْقَتْلُ أَهْوَنُ أَسْبَابِهِ وَأَرْجَاهَا. أَوْ: لَا
 ضَيْرَ عَلَيْنَا فِي قَتْلِكَ، إِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَنَا انْقَلَبْنَا إِلَى رَبِّنَا انْقِلَابَ مَنْ يَطْمَعُ فِي مَغْفِرَتِهِ وَيَرْجُو
 رَحْمَتَهُ؛ لِمَا رُزِقْنَا مِنَ السَّبْقِ إِلَى الْإِيمَانِ. وَخَبَرَ ﴿لَا﴾ مَحْذُوفٌ، وَالْمَعْنَى: لَا ضَيْرَ فِي ذَلِكَ،
 أَوْ: عَلَيْنَا. ﴿أَنْ كُنَّا﴾ مَعْنَاهُ: لِأَنَّ كُنَّا، وَكَانُوا أَوَّلَ جَمَاعَةٍ مُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، أَوْ
 مِنْ رَعِيَّةِ فِرْعَوْنَ، أَوْ مِنْ أَهْلِ الْمَشْهَدِ. وَقُرئ: (إِنْ كُنَّا) بِالْكَسْرِ، وَهُوَ مِنَ الشَّرْطِ الَّذِي
 يَجِيءُ بِهِ الْمُدِلُّ بِأَمْرِهِ، الْمُتَحَقِّقُ لِحَصَّتِهِ، وَهُمْ كَانُوا مُتَحَقِّقِينَ أَنَّهُمْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ. وَنظِيرُهُ

عنه بالقتل^(١)، وَعَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ: إِنَّهُ لَا بَدَّ لَنَا مِنَ الْإِنْقِلَابِ إِلَى رَبِّنَا، وَالْإِنْقِلَابُ حِينَئِذٍ عِبَارَةٌ
 عَنِ الرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا بَدَّ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْهُ، وَأَسْبَابُ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ تَعَالَى كَثِيرَةٌ، وَلِهَذَا
 قَالَ: «وَالْقَتْلُ أَهْوَنُ أَسْبَابِهِ».

وثالثها: «أَوْ لَا ضَيْرَ عَلَيْنَا فِي قَتْلِكَ، فَاعْتَبَرَ فِي هَذَا الْوَجْهِ نَفْسَ الْقَتْلِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبَارِ
 تَفْصِيلِهِ، وَلَا الْوَعِيدِ بِهِ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمَوْتِ حِينَئِذٍ، وَعَلَّلَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّكَ إِنْ قَتَلْتَنَا انْقَلَبْنَا إِلَى
 رَبِّنَا انْقِلَابَ مَنْ يَطْمَعُ فِي مَغْفِرَتِهِ»، فَأَدْخَلَ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ فِي التَّعْلِيلِ، وَجَعَلَهُ بَدَلًا مِنْهُ، وَفِيهِ
 إِظْهَارُ الرَّغْبَةِ فِي الْقَتْلِ، يَعْنِي: إِنَّهُ مَطْلُوبُنَا، لِمَا يَحْصُلُ مِنْهُ الْفَوْزُ بِهَذِهِ الْبُغْيَةِ السَّيِّئَةِ. وَذَكَرَ
 وَجْهًا رَابِعًا فِي الْأَعْرَافِ، وَهُوَ: «أَنَا جَمِيعًا، يَعْتَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَفِرْعَوْنَ، نَنْقَلِبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى،
 فَيَحْكُمُ بَيْنَنَا»^(٢)، أَي: يَنْتَقِمُ لَنَا مِنْكَ بِمَا فَعَلْتَ بِنَا، وَيُثَبِّتُنَا عَلَى مَا قَاسَيْنَا مِنْكَ؛ لِأَنَّا نَطْمَعُ أَنْ
 يَغْفِرَ لَنَا وَأَنْتَ لَا تَطْمَعُ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

قوله: (الْمُدِلُّ بِأَمْرِهِ)، الْأَسَاسُ: تَدَلَّتِ الْمَرْأَةُ عَلَى زَوْجِهَا، وَذَلِكَ أَنْ تُرِيَهُ جُرْأَةً
 عَلَيْهِ فِي تَعْنُجٍ وَتَشْكُلٍ، كَأَنَّهَا تُخَالِفُهُ وَلَيْسَ بِهَا خِلَافٌ، وَأَدَّلَ عَلَى قَرِيْبِهِ، وَعَلَى مَنْ لَهُ عِنْدَهُ
 مَنْزِلَةٌ، وَهُوَ مُدِلٌّ بِفَضْلِهِ وَبِشَجَاعَتِهِ، وَمِنْهُ أَسَدٌ مُدِلٌّ، وَأَمَّا تَنْظِيرُ الْآيَةِ بِالْمَثَالِ فَلْتَمِيمٍ مَعْنَى

(١) لفظة «بالقتل» سقطت من (ح) و(ف).

(٢) انظر: «الكشاف» (٦: ٥١٥).

قول العامل لمن يؤخر جُعلته: إِنْ كُنْتُ عَمَلْتُ لَكَ فَوْقَنِي حَقِّي. ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضَاتِي﴾ [المتحنة: ١] مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك.

[﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنْكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ * فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ ٥٢ - ٥٥]

قُرئ: ﴿أَسْرٍ﴾ بقطع الهمزة ووصلها، و(سِرٌّ). ﴿إِنْكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾: علَّل الأمر بالإسراء باتباع فرعون وجنوده آثارهم. والمعنى: أُنِي بِنَيْتِ تَدْبِيرِ أَمْرِكُمْ وَأَمْرِهِمْ عَلَىٰ أَنْ تَتَقَدَّمُوا وَيَتَّبِعُوكُمْ، حَتَّىٰ يَدْخُلُوا مَدْخَلَكُمْ، وَيَسْلُكُوا مَسْلَكَكُمْ مِنْ طَرِيقِ الْبَحْرِ، فَأُطْبِقُهُ عَلَيْهِمْ فَأَهْلِكُهُمْ. وَرُوي: أَنَّهُ مَاتَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ بَيْوتِهِمْ وَوَلَدٌ،

الانكسار، وَهَضُمِ الْحَقُّ الَّذِي يُعْطِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ كقوله عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الذِّكْرِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

قوله: (قُرئ: ﴿أَسْرٍ﴾ بقطع الهمزة)، نافع وابن كثير: بِالْوَصْلِ، وَالْباقُونَ: بِالْقَطْعِ (١).

قوله: و(«سِرٌّ»)، أَي: وَقُرئ: «سِرٌّ»، مِنْ السَّيْرِ (٢).

قوله: (علَّل الأمر بالإسراء باتباع فرعون)، كانه قيل: أسر بعبادي، لأن فيه نجاتكم وهلاك القوم، وليس باتباعهم عرضاً للأمر بالإسراء ظاهراً؛ لأنَّ العَرَضُ فِي الأَمْرِ بالإسراء إهلاك القوم باتباعهم، ونجاة موسى عليه السلام وقومه، لكنَّ الإهلاك لَمَّا كَانَ مُسَبِّباً عَنِ الأَتْبَاعِ وَوَضَعَ مَوْضِعَهُ، نَحْوَهُ: أَعَدَدْتُ الخَشْبَةَ أَنْ يَمِيلَ الحائِطُ فَأَدْعِمُهُ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بقوله: «إِنِّي بَنَيْتُ تَدْبِيرَ أَمْرِكُمْ وَأَمْرِهِمْ» إِلَى آخِرِهِ؛ لِأَنَّ إِعْدَادَ الخَشْبَةِ لِإِدْعَامِ الحائِطِ إِذَا مَالَ تَدْبِيرٌ.

(١) فمن قرأ بالوصل فعلى الاشتقاق من «سرى يسري»، ومن قرأ بالقطع فمن «أسرى يسري»، قال ابن زنجلة: وهما لغتان فصيحتان نزل بهما القرآن. قال الله تعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ. لِيَلٰٓءَ﴾ [الإسراء: ١]

[الإسراء: ١] وقال سبحانه: ﴿إِذَا يَسِرُّ﴾ [الفجر: ٤]: انظر: «حجّة القراءات» ص ٣٤٧.

(٢) وقرأ بها الصاني كما في «مختصر شواذ القرآن» ص ١٠٦.

واشتغلوا بموتاهم حتى خَرَجَ موسى بقومه. ورُوي: أَنَّ اللَّهَ أوحى إلى موسى: أنِ اجمع بني إسرائيل، كُلَّ أربعةِ أبياتٍ في بيت، ثم اذْبَحُوا الجِداءَ، واضرِبُوا بدمائها على أبوابكم، فإنِّي سأمرُّ الملائكةَ أن لا يدخلوا بيتاً على بابهِ دَمٌ، وسأمرُّهم بقتلِ أبكارِ القِبْطِ، واخْبِزُوا خُبزاً فطيراً؛ فإنه أسرعُ لكم، ثم أسِرْ بعبادي حتى تنتهيَ إلى البحرِ فيأتيك أمري. فأرسلَ فرعونُ في أثره ألفَ ألفٍ وخمسةَ مئةِ ألفِ مَلِكٍ مُسَوَّرٍ، مع كُلِّ مَلِكٍ ألفٌ، وخرَجَ فرعونُ في جَمعِ عظيمٍ، وكانت مُقدِّمتهُ سبعَ مئةِ ألفٍ، كُلُّ رَجُلٍ على حصانٍ وعلى رأسه بَيْضَةٌ. وعن ابنِ عَبَّاسٍ: خَرَجَ فرعونُ في ألفِ ألفٍ حِصَانٍ سوى الإناث؛ فلذلك استقلَّ قومَ موسى وكانوا سِتِّ مئةِ ألفٍ وسبعين ألفاً، وسَمَّاهم شِرْذِمَةً قليلين. ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ محكي بعد قولِ مُضَمَّرٍ. والشِّرْذِمَةُ: الطائفةُ القليلةُ، ومنها قَوْلُهُمْ: ثوبٌ شِراذِمٌ؛ للذي يَلِي وتقطعُ قطعاً. ذكرهم بالاسمِ الدالِّ على القلَّةِ، ثم جعلَهُم قليلاً بالوصفِ، ثم جَمَعَ القليلَ فجعل كلَّ حِزْبٍ منهم قليلاً،

قوله: (الجِداءُ)، الجِداءُ: جَمعُ جَدْيٍ، والأجداءُ أيضاً.

قوله: (فيأتيك أمري)، عن بعضهم: أمري، أي: شأني، أو عُقوبتي، من قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٨٢]، ومن قوله: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]. وقلتُ: ويمكنُ أن يكونَ واحدَ الأوامرِ، وهو قوله تعالى: ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلِقَ﴾.

قوله: (ثوبٌ شِراذِمٌ)، وَصَفُ الواحدِ بِشِراذِمٍ كَوَصْفِ الإزارِ بالسراويلِ في أحدِ القولينِ، وتَظهيره: الحِصَانُ جِرٌّ للمُنتَفِخِ البَطْنِ.

قوله: (فجعل كلَّ حِزْبٍ منهم قليلاً)، يريدُ أن الأصلَ أن يقالَ: «لشِرْذِمَةٌ قليلةٌ»، فعدَل إلى: ﴿قَلِيلُونَ﴾، لِيُوَازِنَ بتفرُّقِهِم أحزاباً. الانتصافُ: يعني: قَللَهُم، من أربعةِ أوجهٍ: عبَّرَ عنهم بـ«شِرْذِمَةٌ»، ووَصَفَهُم بالقلَّةِ، وجَمَعَ وَصَفَهُم، لِيَعْلَمَ أن كلَّ حِزْبٍ منهم قليلٌ، واختارَ جَمعَ السَّلَامَةِ المفيدَ للقلَّةِ، وفيه وجهٌ خامسٌ: جَمعُ الصِّفَةِ والموصوفِ مُفردٌ، وهو

واختارَ جَمَعَ السلامة الذي هو للقلة، وقد يُجَمَع القليلُ على أَقَلَّةٍ وَقُلُلٍ. ويجوزُ أن يريد بالقلة: الذلَّة والقماءة، ولا يريد قلة العدد. والمعنى: أنهم لقلَّتْهم لا يُبالي بهم ولا يتوقَّع غلبتْهم وعلوَّهم، ولكنهم يفعلون أفعالاً تُغيظنا وتُضيِّقُ صدورنا، ونحن قومٌ من عادتِنا التيقُّظ والحذر واستعمال الحُرْم في الأمور، فإذا خرَّج علينا خارج سارَعنا إلى حَسْم فساده. وهذه معاذيرُ اعتدَّرَ بها إلى أهل المدائن؛ لئلا يُظنَّ به ما يكسر من قَهْرِهِ وسُلْطانه.

قد يكونُ مبالغةً للَصُوقِ الصِّفَةِ بالموصُوفِ وتناهيهِ فيها، كقولك: «مِعى جِيعاً»^(١)، وههنا الأصلُ: «لَشِرْذِمَةٌ قليلة»، كقولهِ تعالى: ﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩]؛ لتناهيهِم في القلة، ويبقى نظراً؛ فإن هذا المعنى هل ينفي الوجوه الأربعة، أو يذهب منها شيئاً؟ فتأمِّله^(٢).

قال صاحب «الإنصاف»^(٣): ينبغي أن لا يُسقطَ منها شيئاً، إذ هو مبالغةٌ في أحدها، وهو وَصْفُهُم بالقلة.

قلت: بل هو عينُ ما قال المصنِّفُ: «ثم جمع القليلَ فجعلَ كلَّ حزبٍ منهم قليلاً»، واستشهدَ بقوله: «ثوبٌ شِراذم»، كما أن القائلَ جعلَ كلَّ جزءٍ من أجزاء المِعى خالياً من الغذاء، صُفراً من الطعام، مبالغةً في الجوع. قال صاحبُ «الكشف»: جمع «قليلاً» بالواو والنون؛ لموافقةِ رؤوس الآي، وإن أفردَها جازاً؛ لأنَّ لفظَ «الشِرْذِمَةِ» مفردٌ^(٤).

قوله: (والقماءة)، الأساس: وقد فَمُوَّ قِماءةً وَقِمِىَ قَمَأً: إذا ذَلَّ وصَغُرَ في الأعيُن.

(١) سبق تخريجه.

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشف» (٣: ٣١٤).

(٣) في (ح) و(ف): «الانتصاف»، ولا يستقيم، فإن ابن المُثَنَّبِ صاحبَ «الانتصاف» قد ختمَ بَحْثَهُ بقوله: «أو يُسقطُ منها شيئاً ومُخْلِفه» فتعقبه علم الدين العراقي صاحب «الإنصاف» بقوله: ينبغي أن لا يُسقطَ منها شيئاً.

(٤) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ٩٨٧).

وَقُرِي: (حَدِرُونَ) و﴿حَدِرُونَ﴾ و(حَادِرُونَ) بالدال غير المعجمة. فالحَدِرُ: اليَقِظُ، والحَادِرُ: الذي يَجِدُّ حَدْرَهُ. وقيل: المُودِي في السِّلَاحِ، وإنما يفعل ذلك حَدْرًا واحتياطاً لنفسه. والحَادِرُ: السَّمِينُ القَوِي. قال:

أَحِبُّ الصَّبِيَّ السَّوَّءَ مِنْ أَجْلِ أُمَّه وَأُبْغِضُهُ مِنْ بُغْضِهَا وَهُوَ حَادِرٌ

أراد أنهم أقوياء أشداء. وقيل: مُدَجِّجُونَ في السِّلَاحِ، قد كَسَبَهُمْ ذلك حَدَارَةٌ في أجسامهم.

قوله: (وَقُرِي: «حَدِرُونَ» و﴿حَدِرُونَ﴾)، الكوفيون وابن ذكوان: «حَادِرُونَ» بالألف، والباقون: بغير ألف^(١).

قوله: (و«حَادِرُونَ» بالدال) المهملة، قال ابن جني: قرأها ابن أبي عمار^(٢): الحَادِرُ: القَوِيُّ الشَّدِيدُ، ومنه: الحَادِرَةُ الشَّاعِرُ، وَحَدَرَ الرَّجُلُ، إِذَا قَوِيَ جِسْمُهُ وَامْتَلَأَ لَحْمًا وَشَحْمًا^(٣).

قوله: (فالحَدِرُ)، اليَقِظُ، الحَادِرُ: الذي يُجِدُّ حَدْرَهُ. هذا التفاوتُ معلومٌ بين الصِّفَةِ المشبَّهة، وبين اسم الفاعل. قال الزجاج: وجاء في التفسير أن معنى «حَادِرُونَ»: مُؤَدُّونَ، أي: ذُورُ أَدَاةٍ وَسِلَاحٍ. وَالسِّلَاحُ: أَدَاةُ الحَرْبِ، فَالحَادِرُ: المُسْتَعِدُّ، وَالحَدِرُ: المُتَيَقِّظُ^(٤).

الجوهري: آدى الرَّجُلُ، أي: قَوِيَ، من الأداة، فهو مُؤَدُّ بالهمز، أي: شاكٍ في السِّلَاحِ، وَرَجُلٌ مُدَجِّجٌ، أي شاكٍ في السِّلَاحِ.

قوله: (وقيل: مُدَجِّجُونَ في السِّلَاحِ)، عطفٌ على قوله: «أَتَمُّهم أَقْوِيَاءُ أَشْدَاءُ»، أي:

(١) وهما لغتان، يقال: حَدِرَ يُحَدِرُ فهو حَدِرٌ وَحَادِرٌ، إلا أن «حَادِرًا» فيه معنى الاستقبال. انتهى من «الكشف عن وجوه القراءات السبع» (٢: ١٥١).

(٢) في (ط): «قرأها أبو عمار»، والمثبت هو الموافق لما في «المحتسب». وابن أبي عمار هو أبو العباس محمد ابن موسى الصوري الدمشقي، مقرر مشهور، أخذ القراءة عن ابن ذكوان وغيره، توفي سنة ٣٠٧ هـ. ترجمته في «غاية النهاية» (٢: ٢٦٨).

(٣) «المحتسب» (٢: ١٢٨).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٩٢).

﴿ فَأَخْرَجْنَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ [٥٧-٦٠]

وعن مجاهد: سمّاها كنوزاً؛ لأنهم لم يُنفقوا منها في طاعة الله. والمقام: المكان، يريد: المنازل الحسنة والمجالس البهيّة. وعن الضحّاك: المنابر. وقيل: السُرر في الحجال. ﴿ كَذَلِكَ ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: النصب على: أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه؛ والجّر على أنه وصف لـ «مقام»، أي: لمقام كريمٍ مثل ذلك المقام الذي كان لهم؛ والرفع على أنه خبرٌ لمبتدأٍ محذوف، أي: الأمرُ كذلك.....

قال: حاذرون، وأراد أنهم شاكون في السلاح، بالكناية؛ لأن الرجل الشديد القوي لا يتخلو في مثل هذه المواطن من السلاح؛ لأن ادعاء القوة والشدة لازمه التدجج في السلاح. وإليه الإشارة بقوله: «قد كسبهم ذلك حدارة في أجسامهم».

قوله: (سمّاها كنوزاً؛ لأنهم لم يُنفقوا منها في طاعة الله عزّ وجلّ)، مأخوذٌ مما رواه عن ابن عمّار رضي الله تعالى عنهما: كلُّ ما أدت زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم تؤدّ زكاته فهو الذي ذكر الله تعالى وإن كان على وجه الأرض^(١).

قوله: (وقيل: السُرر^(٢) في الحجال)، الجوهرى: الحَجَلَة - بالتحريك -: واحدة حِجَالٍ العروس، وهو بيت يزین بالثياب والأسيرة والشثور.

قوله: (أي: الأمرُ كذلك)، هذا الوجه أقوى الوجوه، ليكون قوله: ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ عطفاً عليه، والجملتان معترضتان بين المعطوف عليه وهو ﴿ فَأَخْرَجْنَهُمْ ﴾ وبين ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ ﴾؛ لأن الاتباع عَقِبَ الإخراج، لا الإيراث. قال الواحدي: إن الله تعالى ردّ بني إسرائيل إلى مصر بعد ما أغرق فرعون وقومه وأعطاهم جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٥٧) وفي «المعجم الأوسط» (٨٢٧٩) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤: ٨٢) ورجح كونه موقوفاً. وأصل الحديث ثابت في «الصحيح» أخرجه البخاري (١٤٠٤)، ولتمام الفائدة انظر: «الدر المنثور» للسيوطي (٧: ٣٢٩).

(٢) في (ح) و(ف): «السور» والمثبت من (ط)، وهو الصواب، جمع سرير.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾: فَلَحِقُوهُمْ. وُقِرَى: (فَاتَّبَعُوهُمْ)، ﴿مُشْرِقِينَ﴾: داخلين في وقتِ الشُّرُوقِ، مِنْ شَرَقِ الشَّمْسِ شُرُوقًا؛ إِذَا طَلَعَتْ.

[﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ * وَأَرْزَأْنَا نَمَّ الْأَخْرِيِّينَ ﴿٦١ - ٦٤﴾]

(سيهدين) (١) طريق النجاة من إدراكهم وإضرارهم. وقُرَى: (إنا لمدركون) بتشديد الدال وكسر الراء، من أدرك الشيء؛ إذا تتابع ففني، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، قال الحسن: جهلوا علم الآخرة. وفي معناه بيت «الحماسة»:

أَبْعَدَ بَنِي أُمِّي الَّذِينَ تَتَابَعُوا أَرْجِي الْحَيَاةَ أَمْ مِنَ الْمَوْتِ أَجْزَعُ!

والعقار والمساكن (٢)، وعلى أن يكون ﴿كَذَلِكَ﴾: صفة مصدر محذوف لـ «أخرجنا» مع ما قيّد توكيداً، ويكون ﴿وَأَوْزَنَّا﴾: عطفاً على ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾، لا بد من تقدير نحو: فأرذنا إخراجهم، وإيراث بني إسرائيل ديارهم، فخرجوا وأتبعوهم.

قوله: ﴿﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾: فَلَحِقُوهُمْ﴾، ليس تفسيراً لقوله: ﴿﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾﴾، بل هو مقدر، والفاء في ﴿﴿فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ﴾﴾ فصيحة تستدعي هذا المقدر ليتصل بقوله تعالى: ﴿﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾﴾. قال الواحدي: فلما تراءى الجمعان، أي: تقابلاً، بحيث يرى كل فريق صاحبه (٣).

قوله: (أبعد بني أمي)، البيت (٤). الاستفهام للتوَجُّع والاستبعاد والإنكار على نفسه

(١) هذه قراءة يعقوب وصلًا ووقفًا، والحسن وصلًا، وقراءة الجماعة: ﴿سَيَهْدِينِ﴾.

(٢) «الوسيط» للواحد (٣: ٣٥٤).

(٣) «الوسيط» للواحد (٣: ٣٥٤).

(٤) للبراء بن ربيعي الفقعسي، من شعراء «الحماسة»، ويَعُدُّه:

ثانية كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطي ما أشاء وأنتع

انظر: «شرح الحماسة» للمرزوقي (١: ٨٤٩) برقم (٢٧٧).

والمعنى: إِنَّا لَمُتَابِعُونَ فِي الْهَلَاكِ عَلَى أَيْدِيهِمْ، حتى لا يبقى منَّا أَحَدٌ.

الْفِرْقُ: الجزء المتفَرِّقُ منه. وقُرئ: (كل فِلْق)، والمعنى واحد. والطَّودُ: الجَبَلُ العَظِيمُ المُنْتَظَدُ فِي السَّمَاءِ.

﴿وَأَرْزَلْنَا نَمَّ﴾ حيثُ انْفَلَقَ الْبَحْرُ ﴿الْآخِرِينَ﴾: قومَ فرعون، أي: قَرَبَانَاهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أو أدْتَيْنَا بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَجَمَعْنَاهُمْ حَتَّى لَا يَبْجُؤَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، أو قَدَّمْنَاهُمْ إِلَى الْبَحْرِ.

بالترجئة، أي: لَا يَحْسُنُ الطَّمَعُ فِي الْحَيَاةِ بَعْدَ إِخْوَانِي الَّذِينَ انْقَرَضُوا وَانْدَرَجَ وَاحِدٌ إِثْرَ وَاحِدٍ، وَلَا أَجْزَعُ مِنَ الْمَوْتِ عَقِيبَ التَّفْجَعِ بِهِمْ.

قوله: (الْفِرْقُ: الجزء المتفَرِّقُ^(١) منه)، التعريفُ في «الْفِرْقُ»: للعهدِ في قوله: ﴿كُلُّ فِرْقٍ﴾، والضميرُ في منه عائِدٌ إِلَى الْبَحْرِ.

الراغب: الْفِرْقُ يُقَارِبُ الْفَلْقَ، لَكِنَّ الْفَلْقَ يُقَالُ اعْتِبَارًا بِالْإِنْشِقَاقِ، وَالْفِرْقُ اعْتِبَارًا بِالْإِنْفِصَالِ، وَالْفِرْقُ: الْقِطْعَةُ الْمُنْفِصِلَةُ، وَمِنْهُ الْفِرْقَةُ: لِلْجَمَاعَةِ الْمُنْفِرَةِ مِنَ النَّاسِ، وَالْفِرْقِيُّ: الْجَمَاعَةُ الْمُنْفِرَةُ عَنِ الْآخِرِينَ. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفِرْقًا يَلْعُونُ أَلَيْسَتْ لَهُمُ بِالْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، ﴿فَفِرْقًا كَذَّبَتْمْ وَفِرْقًا نَقَلْنُوهُنَّ﴾^(٢) [البقرة: ٨٧].

قوله: (الْمُنْتَظَدُ)، الأساس: ما هُوَ إِلَّا طَوْدٌ مِنَ الْأَطْوَادِ، وَهُوَ الْجَبَلُ الْمُنْتَظَدُ فِي السَّمَاءِ الذَّاهِبُ صُعْدًا.

قوله: (أو قَدَّمْنَاهُمْ إِلَى الْبَحْرِ)، عطفٌ على قوله: «قَرَبْنَاهُمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»، فـ«أَرْزَلْنَا» - على هذا - كنايةٌ عن «قَدَّمْنَا».

قال الواحديُّ: قَرَبْنَا إِلَى الْبَحْرِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ حَتَّى أَعْرَقْنَاهُمْ^(٣).

(١) كذا في الأصول الخطية، وكذا في نص «الكشاف» من (ط)، وفي المطبوع، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف»: «الْمُنْفَرِقُ» بالنون، وضبطها هكذا بالحركات.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٣٢.

(٣) «الوسيط» للواحدي (٣: ٣٥٤).

وَقُرئ: (وَأَزَلَقْنَا) بالقاف، أي: أزللنا أقدامهم، والمعنى: أذهبنا عزهم، كقوله:

تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَقَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا وَذُبْيَانًا إِذْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ

ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبي إسرائيل يساً فيزلقهم فيه.

[﴿ وَأَجْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ ٦٥ - ٦٦]

عن عطاء بن السائب: أن جبريل كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، فكان يقول لبي إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم، ويستقبل القبط فيقول: رويدكم يلحق آخركم. فلما انتهى موسى إلى البحر قال له مؤمن آل فرعون، وكان بين يدي موسى: أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيتك آل فرعون؟ قال: أمرت بالبحر. ولا يدري موسى ما يصنع، فأوحى الله تعالى إليه: أن أضرب بعصاك البحر، فصربه فصار منه اثنا عشر طريقاً: لكل سببط طريق. ورؤي: أن يوشع قال: يا كليم الله، أين أمرت؟ فقد غشيتنا فرعون والبحر أمامنا! قال موسى: هاهنا. فخاض يوشع الماء، وصرّب

قوله: («وَأَزَلَقْنَا»، بالقاف)، قال ابن جنّي: هي قراءة عبد الله بن الحارث^(١).

قوله: («تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا»، البيت)^(٢). عبس وذبيان: قبيلتان. ثل عرشها: أي زال ملكها؛ فإن العرش كناية عن الملك، وفي المثل: زلت نعله: يضرب لمن نكب وزالت نعمته^(٣).

(١) «المحتسب» (٢: ١٢٩) وقد نزع ابن جنّي في تفسير هذا الحرف إلى غير ما ذهب إليه الزمخشري، قال ابن جنّي: «من قرأ: «وَأَزَلَقْنَا» بالفاء، فالآخرون موسى عليه السلام وأصحابه، ومن قرأها بالقاف فالآخرون فرعون وأصحابه. أي: أهلكنا ثم الآخرين، أي: فرعون وأصحابه». انتهى.

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى في «ديوانه» بشرح ثعلب ص ٩١. وروايته ثمة:

تَدَارَكْتُمَا الْأَحْلَافَ قَدْ ثُلَّ عَرْشُهَا

قال ثعلب: الأحلاف: عبس وفرارة.

(٣) انظر: «مجمع الأمثال» (١: ٣٢٢).

موسى بعصاه البحرَ فدخلوا. وروى: أن موسى قال عند ذلك: يا مَنْ كان قبلَ كلِّ شيءٍ، والمكوّن لكلِّ شيءٍ، والكائن بعدَ كلِّ شيءٍ. ويقال: هذا البحرُ هو بحر القلزم. وقيل: هو بحرٌ من وراء مصر، يقال له: إساف. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ آية آية! وآية لا تُوصف! وقد عاينها الناسُ وشاع أمرُها فيهم.

[﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٧-٦٨﴾]

وما تنبّه عليها أكثرهم، ولا آمنَ بالله. وبنو إسرائيل: الذين كانوا أصحابَ موسى، المخصوصون بالإنجاءِ قد سألوه بقرّة يعبدونها، واتخذوا العجل، وطلبوا رؤيةَ الله جهرة. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المتّقى من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه.

[﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ بَنَاءُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ

لَهَا عَنكِيفِينَ ﴿٦٩-٧١﴾]

كان إبراهيمُ صلوات الله عليه يعلم أنهم عبدةُ أصنام، ولكنه سأهم لئريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العباداة في شيء، كما تقول للتاجر: ما مالك؟ وأنت تعلم أن ماله الرقيق، ثم تقول له: الرقيقُ جمال وليس بهال. فإن قلت: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ سؤال عن المعبودِ فحسب، فكان القياسُ أن يقولوا: أصناماً، كقوله تعالى: ﴿وَسَعَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْو﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠]. قلت: هؤلاء قد جاؤوا بقصة أمرهم كاملة كالمبتهجين بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم، وعلى ما قصدوه

يقول: تداركتما حال القبيلتين بعد انهدامهما وتضعضهما^(١).

قوله: (﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المتّقى من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه)، وقد سبق أن هذا التذييل تسلل لحبيبه ﷺ.

(١) في (ح) و(ف): «وتضعضهما».

مِنْ إِظْهَارِ مَا فِي نَفْسِهِمْ مِنَ الْإِبْتِهَاجِ وَالْإِفْتِخَارِ. أَلَا تَرَاهُمْ كَيْفَ عَطَفُوا عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿نَعْبُدُ﴾ ﴿فَنَنْظِلُ لَهَا عَنكِفِينَ﴾ ﴿وَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلَى زِيَادَةِ ﴿نَعْبُدُ﴾ وَحَدَهُ؟ وَمِثَالُهُ أَنْ تَقُولَ لِبَعْضِ الشُّطَّارِ: مَا تَلْبَسُ فِي بِلَادِكَ؟ فَيَقُولُ: أَلْبَسُ الْبُرْدَ الْأَتْحَمِيَّ، فَأَجْرُ ذَيْلِهِ بَيْنَ جَوَارِي الْحَيِّ. وَإِنَّمَا قَالُوا: نَظَلُّ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا بِالنَّهَارِ دُونَ اللَّيْلِ.

[﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ ٧٢ - ٧٣]

لَا بَدَّ فِي ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾ مِنْ تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمِضَافِ، مَعْنَاهُ: هَلْ يَسْمَعُونَ دَعَاءَكُمْ.

قَوْلُهُ: (الْبُرْدَ الْأَتْحَمِيَّ)، وَأَنْشَدَ الْجَوْهَرِيُّ:

وَعَلِيهِ أَتْحَمِيٌّ نَسَجُهُ مِنْ نَسِجِ هَوْرَمَ

عَزَلْتَهُ أُمَّ حِلْمِي كَلَّ يَوْمَ وَزَنَ دَرَاهِمَ^(١)

وَأَنْشَدَ الْمَصْنُفُ فِي «الْأَسَاسِ»: زَانَهُ مِنَ الثَّنَاءِ الْأَهْتَمِيَّ، بِأَبْيِهِ مِنَ الْبُرْدِ الْأَتْحَمِيَّ.

قَوْلُهُ: (كَانُوا يَعْبُدُونَهَا بِالنَّهَارِ دُونَ اللَّيْلِ)، أَي: هَذَا أَيْضاً تَتِمِيمٌ لِمَعْنَى الْإِبْتِهَاجِ وَالْإِفْتِخَارِ، أَي: يَعْبُدُهَا جَهْرًا لَا سِرًّا، وَلَا يَلْبَسُ فِي عِبَادَتِهَا لَبِنًا قَلِيلًا بَل طَوِيلًا، ثُمَّ لَا يَكُونُ ذَلِكَ اللَّبْنُ إِلَّا خُضُوعًا وَخُشُوعًا؛ لِأَنَّ الْإِعْتِكَافَ عِبَادَةً مَعْرُوفَةً.

قَوْلُهُ: (لَا بَدَّ فِي ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾ مِنْ تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمِضَافِ)، قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ [آل عمران: ١٩٣]: يَقُولُ: سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ كَذَا، فَتَوَقَّعُ الْفِعْلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَحْذِفُ الْمَسْمُوعَ؛ لِأَنَّكَ وَصَفْتَهُ بِهَا يَسْمَعُ، أَوْ جَعَلْتَهُ حَالًا مِنْهُ فَأَعْنَاكَ عَنْ ذِكْرِهِ، وَلَوْلَا الْوَصْفُ أَوْ الْحَالُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ، وَأَنْ يُقَالَ: سَمِعْتُ كَلَامَ فُلَانٍ^(٢)، وَهَهُنَا قَرِينَةُ الْمَحْذُوفِ الظَّرْفِ، وَهُوَ ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾، فَإِنَّ فِيهِ دِلَالَةً عَلَى الدُّعَاءِ.

(١) انظر: «الصحاح» (٥: ١٨٧٧).

قلت: قوله: «حِلْمِي» هو بالخاء المعجمة، أي: صديقي.

(٢) انظر: «الكشاف» (٤: ٣٨٥).

وقرأ فتادة: (يُسْمِعُونَكُمْ)، أي: هل يُسْمِعُونَكُمْ الجوابَ عن دعائكم؟ وهل يَقْدِرُونَ على ذلك؟ وجاءَ مُضَارِعاً مع إيقاعه في «إذ» على حكاية الحالِ الماضية. ومعناه: استحضروا الأحوالَ الماضية التي كُنْتُمْ تَدْعُونَهَا فيها، وقولوا: هل سَمِعُوا أو أَسْمَعُوا قط؟ وهذا أبلغُ في التَّبَكُّيتِ.

[﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ٧٤-٨٢]

لَمَّا أَجَابُوهُ بِجَوَابِ الْمُقَلِّدِينَ لِآبَائِهِمْ قَالَ لَهُمْ: رَقُّوا أَمْرَ تَقْلِيدِكُمْ هَذَا إِلَى أَقْصَى غَايَاتِهِ؛ وَهِيَ عِبَادَةُ الْأَقْدَمِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ آبَائِكُمْ، فَإِنَّ التَّقْدِيمَ وَالْأَوْلِيَّةَ لَا يَكُونُ بُرْهَانًا عَلَى الصَّحَّةِ، وَالْبَاطِلُ لَا يَنْقَلِبُ حَقًّا بِالْقَدَمِ، وَمَا عِبَادَةٌ مَنْ عَبَدَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ إِلَّا عِبَادَةٌ أَعْدَاءٍ لَهُ. وَمَعْنَى الْعِدَاوَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]؛ وَلِأَنَّ الْمُغْرِبِيَّ عَلَى عِبَادَتِهَا أَعْدَى أَعْدَاءِ الْإِنْسَانِ؛ وَهُوَ الشَّيْطَانُ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿عَدُوٌّ لِي﴾ تَصْوِيرًا لِلْمَسْأَلَةِ فِي نَفْسِهِ، عَلَى مَعْنَى: أَنِّي فَكَّرْتُ فِي أَمْرِي

قَوْلُهُ: (وَجَاءَ مُضَارِعاً مَعَ إِيقَاعِهِ فِي «إذ»)، وَذَلِكَ أَنَّ إِذْ يَجْعَلُ الْمُضَارِعَ فِي مَعْنَى الْمَاضِي، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، وَفَائِدَتُهُ: اسْتِحْضَارُ جَمِيعِ الْأَحْوَالِ الْمَاضِيَةِ وَقْتًا فَوْقَ تَمَّتْ، يَعْنِي: قُولُوا لَنَا: هَلْ قَدِرُوا عَلَى السَّمْعِ أَوْ الْإِسْمَاعِ قَطُّ فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ؟ وَهُوَ أَدْخَلَ فِي الْإِلْزَامِ مِنْ لَوْ قِيلَ: إِذْ دَعَوْتُمْوهم.

قَوْلُهُ: (وَالِأَنَّ الْمُغْرِبِيَّ)، عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «وَمَعْنَى الْعِدَاوَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ﴾».

قَوْلُهُ: (قَالَ: ﴿عَدُوٌّ لِي﴾ تَصْوِيرًا لِلْمَسْأَلَةِ)، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا بَكَتَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَفْعَلُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ مَا أَجَابُوهُ إِلَّا بِالتَّقْلِيدِ الْمَحْضِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أَرَادَ أَنْ يُصَوِّرَ لَهُمْ بَطْلَانَ التَّقْلِيدِ، قَالَ: أَخْبِرُونِي مَا

فَرَأَيْتُ عِبَادِي لَهَا عِبَادَةً لِلْعَدُوِّ، فَاجْتَنَّبْتُهَا وَأَثَرْتُ عِبَادَةَ مَنْ الْخَيْرُ كُلُّهُ مِنْهُ، وَأَرَاهِمُ
بِذَلِكَ أَنَّهَا نَصِيحَةٌ نَصَحَ بِهَا نَفْسَهُ أَوَّلًا وَبَنِي عَلَيْهَا تَدْبِيرَ أَمْرِهِ؛ لِيَنْظُرُوا فَيَقُولُوا: مَا
نَصَحَنَا إِبْرَاهِيمُ إِلَّا بِمَا نَصَحَ بِهِ نَفْسَهُ، وَمَا أَرَادَ لَنَا إِلَّا مَا أَرَادَ لِرُوحِهِ؛ لِيَكُونَ أَدْعَى لَهُمْ
إِلَى الْقَبُولِ، وَأَبْعَثَ عَلَى الْاسْتِمَاعِ مِنْهُ، وَلَوْ قَالَ: فَإِنَّ عَدُوَّكُمْ، لَمْ يَكُنْ بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ،
وَلأنَّهُ دَخَلَ فِي بَابٍ مِنَ التَّعْرِيزِ، وَقَدْ يَبْلُغُ التَّعْرِيزُ لِلْمَنْصُوحِ مَا لَا يَبْلُغُهُ التَّصْرِيحُ؛
لأنَّهُ يَتَأَمَّلُ فِيهِ، فَرَبَّمَا قَادَهُ التَّأَمُّلُ إِلَى التَّقَبُّلِ. وَمِنْهُ مَا يُحْكِي عَنِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: أَنَّ
رَجُلًا وَاجَهَهُ شَيْءٌ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ بِحَيْثُ أَنْتَ لَأَحْتَجْتُ إِلَى أَدَبٍ. وَسَمِعَ رَجُلٌ
نَاسًا يَتَحَدَّثُونَ فِي الْحِجْرِ، فَقَالَ: مَا هُوَ بَيْتِي وَلَا بَيْتِكُمْ. وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ: يَجِيئَانِ فِي
مَعْنَى الْوَحْدَةِ وَالْجَمَاعَةِ. قَالَ:

كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ، هَلْ عَرَفْتُمْ أَنَّ تِلْكَ الْعِبَادَةَ كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ
عِبَادَةُ الْأَعْدَاءِ، وَهَلْ رَأَيْتُمْ عَاقِلًا يَعْبُدُ عَدُوَّهُ، وَمَنْ صَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ، وَيَبْرَكُ عِبَادَةُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ، وَرَزَقَهُ، وَأَحْيَاهُ، وَأَمَاتَهُ؟
فَعَرَّضَ بِالْكَلَامِ اسْتِدْرَاجًا لِيَكُونَ أَدْخَلَ فِي النَّصْحِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «رَبِّمَا قَادَهُ التَّأَمُّلُ
إِلَى التَّقَبُّلِ».

قَوْلُهُ: (وَلأنَّهُ دَخَلَ فِي بَابٍ مِنَ التَّعْرِيزِ)، نَحْوَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي
فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]، وَهَذَا التَّعْرِيزُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكِنَايَةِ، وَأَنْ يَكُونَ
مِنَ الْمَجَازِ. فَإِذَا قِيلَ: إِنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ عَدُوًّا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ
مَجَازًا، وَإِلَّا فَيَكُونُ كِنَايَةً، وَنَحْوَهُ قَوْلُكَ: أَدَيْتَنِي فَسْتَعْرِفُ. قَالَ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ»:
إِذَا أُرِدَتْ بِهِ الْمُخَاطَبَةُ وَمَعَ الْمُخَاطَبِ إِنْسَانًا آخَرَ، كَانَ مِنَ الْكِنَايَةِ، وَإِنْ لَمْ تُرَدَّ إِلَّا غَيْرَ
الْمُخَاطَبِ كَانَ مِنَ الْمَجَازِ^(١).

قَوْلُهُ: (وَسَمِعَ رَجُلٌ نَاسًا يَتَحَدَّثُونَ)، قِيلَ: هُوَ عَلِيُّ بْنُ سَنَدٍ مُجَاوِرٌ مَكَّةَ. وَالْحِجْرُ
بِكسْرِ الْحَاءِ: الْحَطِيمُ الْمُدَارُ بِالْبَيْتِ.

(١) «مفتاح العلوم» ص ١٨٠.

وَقَوْمٌ عَلَيَّ ذَوِي مِثْرَةٍ أُرَاهُمْ عَدُوًّا وَكَانُوا صَدِيقًا

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]، شُبِّهَا بِالْمَصَادِرِ لِلْمُوازَنَةِ، كَالْقَبُولِ وَالْوَلُوعِ، وَالْحَيْنِ وَالصَّهِيلِ. ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ استثناءٌ مُنْقَطِعٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَكِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَهُوَ يَهْدِينِي، يريد: أَنَّهُ حِينَ أْتَمَّ خَلْقَهُ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ،

قَوْلُهُ: (وَقَوْمٌ عَلَيَّ ذَوِي مِثْرَةٍ)، البيت^(١)، مِثْرَةٌ: أَي مُجَادِلَةٌ وَمُخَاصِمَةٌ. المِثْرَةُ بِالْهَمْزِ: الدُّخْلُ وَالْعَدَاوَةُ، وَجَمْعُهَا مِثْرٌ، يريد: أَنَّهُ أَطْلَقَ العَدُوَّ عَلَى الجَمَاعَةِ، وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ يَجِيئَانِ بِمَعْنَى الوَحِدَةِ وَالجَمَاعَةِ، قَالَ صَاحِبُ «الفرائد»: يُمَكِّنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الصَّدِيقَ وَالْعَدُوَّ كَالرُّسُولِ فِي أَنَّهُ يُقَالُ لِلوَاحِدِ وَالتَّثْنِيَةِ وَالجَمْعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الجَمْعَ بِمَنْزِلَةِ الوَاحِدِ فِي الاتِّفَاقِ عَلَى المَعْنَى المَقْصُودِ.

قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾: استثناءٌ مُنْقَطِعٌ، قَالَ صَاحِبُ «الكشف»: لِأَنَّهُ تَعَالَى لَيْسَ مِنْ جُمْلَةِ الأَعْدَاءِ أَخْبَرَ عَنِ الأَصْنَامِ بِأَنَّهُمْ أَعْدَاءٌ، ثُمَّ أَخَذَ فِي حَدِيثِ آخَرَ، فَقَالَ: لَكِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ^(٢). وَقَالَ أَبُو البَقَاءِ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا؛ لِأَنَّ آبَاءَهُمْ قَدْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى وَغَيْرَ الله^(٣). وَالاخْتِيَارُ الأَوَّلُ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ تَخَلَّصَ إِلَى الأَوْصَافِ الآتِيَةِ. وَذَهَبَ أَبُو البَقَاءِ وَصَاحِبُ «الكشف» أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي﴾: مُبْتَدَأٌ، وَ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾: الخَبَرُ^(٤)، وَمَا بَعْدَهَا مِنْ ﴿الَّذِي﴾: صِفَاتُ ﴿الَّذِي﴾ الأَوَّلَى، وَيَجُوزُ إِدْخَالُ الوَاوِ فِي الصِّفَاتِ، وَقِيلَ: المَعْطُوفُ: مُبْتَدَأٌ، وَخَبْرُهُ مَحذُوفٌ اسْتِغْنَاءً: بِخَبَرِ الأَوَّلِ^(٥)، وَضَعَّفَ صَاحِبُ «الكشف» هَذَا.

وَقُلْتُ: الأَوَّلُ أَيْضًا ضَعِيفٌ، وَالأَوَّلَى مَا عَلَيْهِ ظَاهِرُ كَلَامِ المَصْنُفِ، أَنَّ الكُلَّ صِفَاتُ

(١) لم أمتد إلى قائله.

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ٩٩١).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٩٩٧).

(٤) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ٩٩١).

(٥) هذه عبارة أبي البقاء العكبري في «التبيان» (٢: ٩٩٧).

عَقَبَ ذَلِكَ هِدَايَتَهُ الْمُتَّصِلَةَ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ إِلَى كُلِّ مَا يُصْلِحُهُ وَيَعِينُهُ، وَإِلَّا فَمَنْ هَدَاهُ إِلَى أَنْ يَغْتَدِيَ بِالدَّمِ فِي الْبَطْنِ امْتِصَاصًا؟ وَمَنْ هَدَاهُ إِلَى مَعْرِفَةِ الثُّدِيِّ عِنْدَ الْوِلَادَةِ؟ وَإِلَى مَعْرِفَةِ مَكَانِهِ؟ وَمَنْ هَدَاهُ لِكَيْفِيَّةِ الْارْتِضَاعِ؟ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هِدَايَاتِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿مَرَضْتُ﴾ دون «أمرضني»؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَسْبَابِ الْمَرَضِ يَحْدُثُ بِتَفْرِيطٍ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي مَطَاعِمِهِ وَمَشَارِبِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: لَوْ قِيلَ لِأَكْثَرِ

لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَالْفَاءُ فِي ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾: لِلتَّعْقِيبِ لَا لِلتَّسْبِيبِ، كَمَا يَلْزَمُ مِنْ كَلَامِهِمَا، وَيَعْبُدُهُ (ثُمَّ) فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِي يُبَيِّنُ لِي شَيْئًا مِمَّا كُنْتُ لَا أَفْقَهُ﴾؛ لِأَنَّهَا لِلتَّرَاخِي فِي الزَّمَانِ كَمَا أَنَّ تِلْكَ الْفَاءُ لِغَيْرِ التَّرَاخِي لِتَقَابُلِهِمَا.

قَوْلُهُ: (عَقَبَ ذَلِكَ هِدَايَتَهُ الْمُتَّصِلَةَ)، يَعْنِي: عَطْفُ ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ بِالْفَاءِ - وَهُوَ جُمْلَةٌ مِنْ اسْمٍ وَفِعْلٍ مُضَارِعٍ - مُفِيدٌ لِمَعْنَى الْإِسْتِمْرَارِ، وَفِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى ﴿خَلَقَنِي﴾ وَهُوَ مَاضٍ، لِيَدُلَّ عَلَى الْإِتِّصَالِ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ بِقَوْلِهِ: «فَمَنْ هَدَاهُ إِلَى مَعْرِفَةِ الثُّدِيِّ» إِلَى قَوْلِهِ: «مِنْ هِدَايَاتِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ» وَإِلَى دَارِ الْقَرَارِ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [يونس: ٩]، وَعَلَى هَذَا الْعَمُومِ يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَى ﴿يَهْدِينِ﴾، لَا عَلَى الْمُتَعَارَفِ، وَإِلَّا فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: «فَمَنْ هَدَاهُ» إِلَى آخِرِهِ؟ وَنَحْوَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] عَلَى مَعْنَى: أَعْطَى خَلْقَتَهُ كُلَّ شَيْءٍ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَيَرْتَفِقُونَ بِهِ، ثُمَّ عَرَفَهُمْ كَيْفَ يَرْتَفِعُونَ بِهَا أَعْطَاهُمْ وَكَيْفَ يَتَوَصَّلُونَ إِلَيْهِ، وَ«ثُمَّ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِثْلُ الْفَاءِ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ، وَبَيَّنَّ بِهَا تَفْضِيلَ الْهِدَايَةِ عَلَى الْإِعْطَاءِ.

قَوْلُهُ: (لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَسْبَابِ الْمَرَضِ يَحْدُثُ بِتَفْرِيطٍ مِنَ الْإِنْسَانِ)، وَفِي مَعْنَاهُ أَنْشَدَ صَاحِبُ «الْمَطَّلَعِ»:

عدوك من صديقك مستفاداً	فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه	يكون من الطعام أو الشراب ^(١)

(١) البيتان لابن الرومي في «ديوانه» ص ١٠٨.

الموتى: ما سبب آجالكم؟ لقالوا: التَّخَم. وقُرى: (خطايي)، والمراد: ما يندُر منه من بعض الصَّغائر؛ لأنَّ الأنبياءَ مَعْصُومُونَ مُخْتَارُونَ عَلَى الْعَالَمِينَ. وقيل: هي قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله لسارة: هي أُختي.....

وقال صاحب «الانتصاف»: وقال غيره: هو أدب مع الله تعالى: بنسبة النعمة إليه، ولعل الزمخشري عدل عن هذا لأن إبراهيم عليه السلام نسب الإمامة إلى الله تعالى وهو أشد من المَرَض، وهو أيضاً يردُّ على الزمخشري؛ فإن الموت أيضاً يكون بتسيب وتفريط، ويمكن الفرق بين الموت والمَرَض بأن يقال: إن الموت: قضاء محتوم على جميع البشر، بخلاف المَرَض، فكم من معافى منه إلى أن يموت، فلا يكون بنسبته إلى الله تعالى سوء أدب، ويؤيده أن كل ما ذكِر مع غير المَرَضِ ذكْرُه جَزْماً وَبَناً، وأما المَرَضُ فَجَعَلَهُ مَعَ الشَّرْطِ (١).

وقلت - والله تعالى أعلم -: قد سبق أن قوله تعالى: ﴿فَأَنهَمُ عَدُوٌّ لِي﴾ واردة على الاستدراج وإرخاء العنان، فيكون قوله: ﴿الْأَرْبَ الْعَلَمِينَ﴾ تَخْلُصاً (٢) منه إلى التمكن من إجراء الأوصاف التي يَصْحَحُ بها معنى الإلهية من كونه خالقاً رازقاً، مُحْيِياً وَمُمِيتاً، مُعَاقِياً وَمُثِيباً، تربية لمعنى النصح والاستدراج، وبعثاً على التفكر والتدبر، وأما ذكْر المَرَضِ وَالشِّفَاءِ فَكَالتَابِعِ لِمَعْنَى الإِطْعَامِ وَالسَّقْيِ، وَلِذَلِكَ تَرَكَ فِيهِمَا الْمَوْصُولَ إِلَى الشَّرْطِ وَالْجِزَاءِ، فَرُوعِيَتْ فِيهِمَا تِلْكَ النُّكْتَةُ، وَلَا يَصِحُّ مِثْلُهَا فِي تِلْكَ الْقَرِينَةِ. وفي «المطلع»: دخول «هو» دليل على أنه لا يهدي ولا يطعم ولا يسقي ولا يمرض ولا يشفي إلا الله تعالى وحده، وذلك أنهم كانوا يقولون: المَرَضُ مِنَ الزَّمَانِ، وَمِنَ الْأَعْدِيَةِ، وَالشِّفَاءُ مِنَ الْأَطْبَاءِ وَالْأَدْوِيَةِ.

قوله: (التَّخَم)، الجوهري: وَجَمَ الرَّجُلُ بِالْكَسْرِ، أَي: اتَّخَمَ، وَقَدْ اتَّخَمْتُ مِنَ الطَّعَامِ، وَعَنِ الطَّعَامِ، وَالاسْمُ التَّخْمَةُ بِالتَّحْرِيكِ، وَالْجَمْعُ تَخْمَاتٌ وَتَخَمٌ.

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣١٩).

(٢) في الأصول الخطية: «تَخْلُصٌ»، والجادة النصب.

وما هي إلا معاريضُ كلام، وتخييلات للكفرة، وليست بخطايا يُطلب لها الاستغفار. فإن قلت: إذا لم يندُرْ منهم إلا الصغائرُ وهي تقعُ مكفرة، فما له أثبتَ لنفسه خطيئةً أو خطايا وطَمِعَ أن تُغفَرَ له؟ قلتُ: الجوابُ ما سبق لي: أنَّ استغفارَ الأنبياءِ تواضعٌ منهم لرَبِّهم، وهضمٌ لأنفسِهِم، ويدلُّ عليه قوله: ﴿أَطْمَعُ﴾ ولم يجزم القول بالمغفرة. وفيه تعليمٌ لأَمَمِهِم، وليكونَ لطفاً لهم في اجتنابِ المعاصي والحدَرِ منها، وطلبِ المغفرة مما يفرطُ منهم. فإن قلت: لِمَ علّقَ مغفرةَ الخطيئةِ بيومِ الدين، وإنما تُغفَرُ في الدنيا؟ قلتُ: لأنَّ أثرها يتبيّنُ يومئذٍ، وهو الآن خفيٌّ لا يُعلم.

[رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٣ - ٨٩﴾]

الحُكْم: الحِكْمَة، أو الحُكْم بين الناس بالحقِّ. وقيل: النبوة؛ لأنَّ النبيَّ ذو حِكْمَة وذو حُكْم بين عبادِ الله. والإلحاقُ بالصالحين: أن يوفِّقه لعملٍ ينتظمُ به في جملتهم، أو يجمعَ بينه وبينهم في الجنة. ولقد أجابه حيثُ قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قوله: (وما هي إلا معاريضُ كلام)، سبق تحقيقه في أوّل البقرة.

قوله: (ويدلُّ عليه قوله: ﴿أَطْمَعُ﴾ ولم يجزم)، أي: يدلُّ على أن استغفارَ إبراهيم عليه السلام كان لمجرّد التواضع، لا لطلبِ الغفرانِ عن الذنوب، لأنَّهُ لو كان طلباً للغفرانِ كان الواجبُ الجزمُ في الطلب، لا الظنُّ والرّجاء. قال الإمام: هذا الكلام لا يستقيم إلا على مذهبتنا، حيثُ نقول: لا يجبُ على الله شيءٌ، وأنه يحسُنُ منه كلُّ شيء، ولا اعتراض لأحدٍ عليه^(١).

قوله: (أو يجمعَ بينه وبينهم)، عطفٌ على: «أن يوفِّقه لعملٍ ينتظمُ به»، وكلا الوجهين حسنان، لكنَّ الأوّل أوفقٌ لتأليفِ النظم؛ لأنَّ قوله: ﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾: طلبٌ للعِلْم

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٢٥).

والإخزاء: من الخزي؛ وهو الهوان، أو من الخزاية؛ وهي الحياء.

والنُبوة و﴿وَالْحَقِّي بِالصَّلِيحِينَ﴾ طلبٌ للعمل بمقتضى العلم، ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي
الْآخِرِينَ﴾ طلبٌ للذكر الجميل المُستلزم لتكميل الغير بعد طلب كمال النفس، ﴿وَأَجْعَلْنِي
مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾: طلبٌ لجمع الشمل معهم في دار الكرامة. وقال القاضي: ﴿وَلَا تُخَيِّرْنِي
يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا تُعَاتِبْنِي على ما فرطتُ ولا تنقص مرتبتي عن مرتبة بعض الوراث^(١).

الراغب: الصّدقُ والكذبُ أصلهما في القول، وقد يُستعملان في كلِّ ما يحقُّ ويحصلُ
في الاعتقاد، نحو: صدق ظني، وفي فعل الجوارح، نحو: صدق في القتال: إذا وقي حقه
وفعل ما يجب، وكذب في القتال، ويُعبّر عن كلِّ فعل فاضل ظاهراً وباطناً: بالصدق،
فيضاف إليه، قال تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾، سأل بحيث إذا أثنى عليه من
بعده، لم يكن ذلك الشناء كذباً قال:

إذا نحن أثينا عليك بصالح فأنت كما تُثني وفوق الذي تُثني^(٢)

قوله: (أو من الخزاية)، بفتح الخاء، النهاية: يقال: خزي يخزي خزاية، أي: استحياء،
فهو خزيان، وخزي يخزي خزياً، أي: ذلّ وهان.

الراغب: خزي الرجل: لحيته انكساراً إما من نفسه أو من غيره، فالأول هو الحياء
المفرد، ومصدره الخزاية، ورجل خزيان وامرأة خزيا وجمعه خزايا، وفي الحديث: «اللهم
احشُرنا غير خزايا ولا نادمين»^(٣).

والثاني: يقال: هو صرّب من الاستخفاف، ومصدره الخزي، ورجل خزٍ - قال تعالى:

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٤٤).

(٢) لأبي نواس في «ديوانه» ص ٤١٥ من قصيدة في مدح الأمين مطلعها:

ملككت على طير السعادة واليمن وحزت إليك الملك مُقبل السن

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٩)، والبزار في «المسند» (٣٧٢٤)، والنسائي في «السنن

الكبرى» (١٠٣٧٠)، وغيرهم من حديث رفاعة الزرقعي.

وهذا أيضاً من نحوِ استغفارِهم مما عَلِمُوا أنه مغفور. وفي ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ضميرُ العباد؛ لأنه معلوم، أو ضميرُ ﴿الضَّالِّينَ﴾، وأن يُجعل من جُملةِ الاستغفارِ لأبيه، يعني: ولا

﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: ٣٣] - وأخزى يقالُ منها^(١)، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ [آل عمران: ١٩٢] يَحْتَمِلُهَا^(٢).

قوله: (وهذا أيضاً من نحوِ استغفارِهم مما عَلِمُوا أنه مغفور)، ردُّ إلى قوله: «أنَّ استغفارَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ تواضعٌ منهم، وهَضْمٌ لأنفسِهِم»، يعني: أنَّ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ معصومونَ عنِ الذُّنوبِ التي تَسْتوجبُ الاستغفارَ، لكنَّ استغفارَهم لأنفسِهِم تواضعٌ منهم، ولغيرِهِم مِنَ الضَّالِّينَ إيدانٌ بما عَلِمُوا أنَّ ذلكَ الغيرَ مغفورٌ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾، فإنه عليه الصَّلَاةُ والسَّلامُ ما قال: ﴿وَأَعْفِرْ لِي﴾ إلا بعدما ظنَّ أنه خارجٌ من زُمرَةِ الضَّالِّينَ مُنْخِرِطٌ في سبيلِ المغفورين، ولذلك قال: ﴿كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] تفسيرٌ لهذه الآية. قال القاضي: إنَّ كان هذا الدُّعاءُ بعدَ موته فلعله كان لظنِّه أنه كان يُحفي الإيْمَانَ تَقِيَّةً من نُمرود^(٣)، ولذلك وعدَه به، أو لأنه لم يُمنعَ بعدُ من الاستغفارِ للكُفَّارِ^(٤).

قوله: (وأن يُجعل من جُملةِ الاستغفارِ لأبيه)، عطفٌ تفسيريٌّ على قوله: «أو: ضميرُ الضَّالِّينَ»، يعني: إذا جُعِلَ الضَّميرُ في ﴿يُبْعَثُونَ﴾ للعبادِ يكونُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ من جُملةِ الأدعيةِ السابقةِ مُستقلةً بنفسِها، معطوفةٌ عليها كما سَبَقَ، وإذا جُعِلَ الضَّميرُ للضَّالِّينَ يكونُ من تَمَّةِ الاستغفارِ لأبيه عطفاً على قوله: ﴿وَأَعْفِرْ لِي﴾ فحسبُ، والأوَّلُ أوفق؛ لأنَّ قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ بَدَلٌ من قوله: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، وهو عامٌّ في الضَّالِّينَ وغيرِهِم.

(١) يعني من الخزي والحزاية كما هي عبارة الراغب في «المفردات».

(٢) «مفردات القرآن» ص ٢٨١.

(٣) وهو الملك الطاغية الذي حاجه إبراهيم عليه السلام على المعروف من قصته في سورة البقرة.

(٤) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٤٤).

تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُ الضَّالُّونَ وَأَبِي فِيهِمْ. ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ﴾: إِلَّا حَالٌ مَنْ آتَى اللَّهَ ﴿يَقْلِبُ سَلِيمٍ﴾، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ:

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ

وما ثوابه إلا السيف. وبيانه: أن يقال لك: هل لزيد مالٌ وبنون؟ فتقول: ماله وبنوه: سلامةٌ قلبه، تريدُ نفيَ المالِ والبنينَ عنه، وإثباتَ سلامةِ القلبِ له بدلاً عن ذلك. وإن شئتَ حملتَ الكلامَ على المعنى، وجعلتَ المالَ والبنينَ في معنى الغنى،

قوله: (وهي من قوله^(١): تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ)^(٢)، أي: من أسلوبِ نفيِ الشيءِ على المبالغة، يعني: إن عُدَّ الضَّرْبُ تَحِيَّةً، فتَحِيَّتُهُمْ ذلك. قال صاحبُ «المفتاح»: ﴿يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ * إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ يَقْلِبُ سَلِيمٍ: مُقَدَّرٌ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، وَهُوَ إِلَّا سَلَامَةٌ مَنْ آتَى اللَّهَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ بِقِرَائِنِ الْكَلَامِ، مَنْزِلَةُ السَّلَامَةِ الْمُضَافَةِ مَنْزِلَةَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ بِطَرِيقِ قَوْلِهِمْ: عِتَابُ فُلَانٍ السَّيْفُ، وَأَنْيَسُهُ الْأَصْدَاءُ^(٣). وقال الذُّبْيَانِيُّ:

وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلًا لَا أَسْأَلُهَا عَيْتٌ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مَنْ أَحَدٍ^(٤)

إِلَّا أَوَارِي... الْبَيْتِ.

أراد: إن كان الأَرِيُّ يُعَدُّ أَحَدًا فَلَا أَحَدَ فِيهِ إِلَّا إِيَّاهُ، فالمعنى: يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا سَلَامَةَ الْقَلْبِ إِنْ عُدَّ مَالًا وَبَنِينَ، وَلَا ارْتِيَابَ فِي أَمْتِهَا لَيْسَتْ بِمَالٍ وَلَا بَنِينَ، فَإِذَا لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ الْبَتَّةَ.

قوله: (وإن شئتَ حملتَ الكلامَ على المعنى، وجعلتَ المالَ والبنينَ في معنى الغنى)، أي

(١) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي المطبوع: «وهو من قولهم»، وهو أنسب.

(٢) سبق تحريجه.

(٣) «مفتاح العلوم» ص ٢١٩.

(٤) «ديوان النابغة الذبياني» ص ١٣٠.

جعلتها نوعين لجنس الغنى، كما جعلها الله تعالى في معنى الزينة في قوله تعالى: ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، ولما ناسب سلامة القلب هذا المعنى؛ لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه، أدخلته فيها ثم أخرجت بالاستثناء أحد أنواع هذا الجنس، وهو سلامة القلب، ومنه ما رَوينا عن أحمد بن حنبلٍ والثَّرمذِيِّ وابنِ ماجه، عن ثوبان رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية؛ قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: لو عَلِمْنَا أَيُّ الْمَالِ خَيْرٌ اتَّخَذْنَاهُ، فقال رسول الله ﷺ: «أَفْضَلُ الْمَالِ لِسَانٌ ذَاكِرٌ، وَقَلْبٌ شَاكِرٌ، وَزَوْجَةٌ صَالِحَةٌ تُعِينُ الْمُؤْمِنَ عَلَى إِيْمَانِهِ»^(١).

والبوجهان متقاربان، والفرق هو أن القصد في الأول نفي المدعى على البت بإثبات ما يقابله ويُناقضه، والقصد في الثاني إدخاله في جنس ما يُخالفه لمعنى مجازي يشتركان فيه، ثم إخراجُه منه، وسيجيء تحقيق هذا الأسلوب، والاختلاف فيه في التمل إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، والله أعلم.

ويمكن أن يُحمَل على معنى الزينة؛ بأن يُقال: يوم لا ينفع زينة قط إلا زينة من حلِّي قلبه بالإخلاص، وبالرضا عن الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٤٦]، إذ المعنى بالباقيات: ما يبقى لصاحبه من الأعمال ولم يجعله هباءً منثوراً بالرياء والسُّمعة؛ ولذلك أُوتِرَ لفظه «أتى»، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ [النمل: ٨٩]، أي: لم يتركها للغير رياءً، وكما تستدعي كلمة «خير» إدخال الباقيات في معنى الزينة، كذلك توجب كلمة «إلا» إدخال سلامة القلب في حكم ﴿أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ﴾ المعبران بالزينة. رَوَى السُّلَمِيُّ عن بعضهم: علامة سلامة القلب أن يُرى راضياً عن الله تعالى في جميع الأفعال غير متخلل قلبه خلافه بكل حال. وقال أبو عثمان: وهو على أربع منازل: السلامة عن الشُّرك، وعن الأهواء المضلَّة، وعن الرياء والعُجب، وعن ذكر كل شيء سوى الله تعالى^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٤٤٦) والترمذي (٣٠٩٤) وابن ماجه (١٨٥٦) وقال الترمذي:

هذا حديث حسن.

(٢) «حقائق التفسير» للسلمي (٢: ٧٩) بتصرف يسير.

كانه قيل: يوم لا يَنْفَعُ غِنَى إِلَّا غِنَى مَنْ أتى الله بقلبٍ سليم؛ لأنَّ غِنَى الرَّجُلِ فِي دينه بسلامة قلبه، كما أنَّ غِنَاهُ فِي دُنْيَاهُ بِمَالِهِ وَبَنِيهِ. ولك أن تجعل الاستثناء مُنْقَطِعاً، ولا بدَّ لك مع ذلك من تقديرِ المضاف؛ وهو الحال، والمرادُ بها سلامة القلب، وليست هي من جنسِ المالِ والبَّينِ حتى يؤولَ المعنى إلى أنَّ المَالَ والبَّينِ لا يَنْفَعان، وإنما يَنْفَعُ سلامةُ القلبِ. ولو لم يُقدَّرِ المضافُ لم يتحصَّلْ للاستثناء معنى. وقد جعل ﴿مَنْ﴾

قوله: (ولا بدَّ لك مع ذلك من تقديرِ المضاف)، يعني: إنَّك إن حملت الاستثناء على الانقطاع فلا تستغني عن تقديرِ المضاف، كما أنَّك ما استغنيت في الاتِّصالِ من تقديرِ حالٍ، أي سلامة، أو غِنَى.

قوله: (ولو لم يُقدَّرِ المضافُ لم يتحصَّلْ للاستثناء معنى)، قال صاحبُ «التقريب»: إذ شرطُ المنقطع: أن يصحَّ إسنادُ الفعلِ الأوَّلِ إليه ولا يدخلُ في المستثنى منه. قيل: فيه نظر؛ لأنَّنا إذا قدرنا المضافَ يكونُ التقديرُ: لكنَّ حالٌ من أتى الله بقلبٍ سليم يَنْفَعُهُ، ويستقيمُ المعنى، وكذلك لو لم يقدر، ويكونُ التقديرُ: لكنَّ من أتى الله بقلبٍ سليم يَنْفَعُهُ حاله، يستقيمُ المعنى. وإذا استقامَ المعنى على التقديرينِ بناءً على أنه لا بدَّ في الاستثناءِ المُنْقَطِعِ من جعلِ إلَّا بمعنى لكن، وتقديرِ الخبرِ بعدَ ذلك، فلا يتعيَّنُ تقديرُ المضافِ، ولا يفسدُ المعنى إذا لم يُقدَّر، ويؤيِّدُهُ قولُ أبي البقاء: أي: لكنَّ من أتى الله يَسْلَمُ أو يَنْفَعُ^(١).

وقلت: لكنَّ مرادَ المصنِّفِ من قوله: «ولو لم يُقدَّرِ المضافُ لم يتحصَّلْ للاستثناء معنى» شيءٌ آخر، وهو أنَّ المذكورَ بعدَ حرفِ الاستثناءِ كلمةٌ ﴿مَنْ﴾، وهو بمعنى النفسِ أو الشخص، وليس المعنى أن نفسَ الآتي تَنْفَعُهُ، أو تَنْفَعُ أحداً بالدفعِ أو الشفاعةِ أو النصرة، لكنَّ المعنى: لا يَنْفَعُهُ إلَّا سلامةُ قلبه، فلا بدَّ من التأويلِ كيفَ ما كان، ويبدلُ على أنَّ المستدعيَ للمضافِ لفظُ ﴿مَنْ﴾ قوله: «وقد جعلَ ﴿مَنْ﴾ مفعولاً لـ ﴿يَنْفَعُ﴾؛ لأنَّ على هذا التأويلِ لا يُحتاجُ إلى تقديرِ المضافِ، كأنه قيل: لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بنونٌ أحداً إلَّا رجلاً سَلِمَ قلبه مع ماله. قال أبو البقاء: ﴿إِلَّا مَنْ أتى الله﴾ متَّصلاً، وفي موضعٍ نَصِبٍ بدلاً من المحذوفِ،

(١) «التيبان في إعراب القرآن» (٢: ٩٩٧).

مفعولاً لـ ﴿يَنْفَعُ﴾، أي: لا ينفَعُ مَالٌ ولا بنون، إلا رَجُلًا سَلِمَ قلبه مع ماله؛ حيثُ أنفقَه في طاعة الله، ومع بنيه؛ حيثُ أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع. ويجوزُ على هذا ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من فتنَةِ المالِ والبنين. ومعنى سلامة القلب: سلامته من آفاتِ الكُفْرِ والمعاصي، ومما أكرم الله تعالى به خليفه ونبّه على جلالته محله في الإخلاص: أن حكى استثناءه هذا حكاية راضٍ بإصابته فيه، ثم جعله صفةً له في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصفات: ٨٤]. ومن بدع التفاسير: تفسيرُ بعضهم السَّلِيمَ باللديغ من خَشْيَةِ الله.

أو استثناء منه، أي: لا ينفَعُ مَالٌ ولا بنونَ أحداً إلا من آتى، والمعنى أن المالَ إذا صُرِفَ في وجوه البرِّ، والبنينَ الصالحينَ يُنتَفَعُ بهم من نُسبِ إليهم وإلى صلاحهم، أو: هو في موضع رَفَعٍ على البدلِ من فاعلِ ﴿يَنْفَعُ﴾ وغلَبَ من يعقل، والتقديرُ: إلا مالٌ من، أو بنو من؛ فإنه ينفَعُ نَفْسَهُ أو غيره بالشفاعة^(١).

قولُه: (ومعنى سلامة القلب: سلامته من آفاتِ الكُفْرِ والمعاصي)، قال الإمام: المرادُ: سلامة القلبِ عن الجهلِ، والأخلاقِ الرذيلة، وكما أن صحّة البدنِ وسلامته: عبارةٌ عن حصولِ ما ينبغي من استقامة المزاجِ والتركيبِ والاتصال، ومرضه: عبارةٌ عن زوالِ إحدى تلك الأمور، كذلك سلامة القلبِ: عبارةٌ عن حصولِ ما ينبغي له، وهو العلمُ والخُلُقُ الفاضل، ومرضه: عبارةٌ عن زوالِ أحدهما، والمعنى: بقلبٍ سليم الخالي عن العقائدِ الفاسدة، والميلِ إلى شهواتِ الدنيا ولذاتها^(٢). ويتبعُ ذلك الأعمالُ الصالحات، إذ من علامة سلامة القلبِ تأثيره إلى الجوارح.

قولُه: (تفسيرُ بعضهم بالسَّلِيمِ باللديغ)، في «حقائق السَّلْمِيِّ»^(٣) عن بعضِ العارفين: السَّلِيمُ في لسانِ العرب: اللديغُ، واللديغُ هو القَلَقُ المُزعِج، فكأنه يقول: قلبٌ لا يهدأ من الجزعِ والنزعِ من مخافة القطيعة.

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٩٩٧-٩٩٨).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٥١).

(٣) «حقائق التفسير» (٢: ٧٨).

وقول آخر: هو الذي سَلِمَ وَسَلَّم وَأَسْلَمَ وَسَلَّم. وما أحسنَ ما رَتَّب إبراهيمُ عليه السلامَ كلامه مع المشركين، حينَ سأَلَهُمْ أَوْلَا عَمَّا يَعْبُدُونَ سِوَالِ مَقَرَّرٍ لَا مُسْتَفْهِمٍ، ثم أنحى على آهتِهِمْ فَأَبْطَلَ أَمْرَهَا بِأَنَّهَا لَا تُضَرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ على تقليدهم آباءهم الأقدمين، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهةً فضلاً أن يكون حُجَّةً، ثم صَوَّرَ المسألةَ في نَفْسِهِ دَوْنَهُمْ حتى تَخَلَّصَ منها إلى ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَعَلَا، فعظَّم شأنه، وعدَّدَ نِعَمَتَهُ مِنْ لَدُنْ خَلْقِهِ وإنشائه إلى حين وفاته، مع ما يُرْجَى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دَعَاهُ بِدَعَوَاتِ الْمُخْلِصِينَ، وابتَهَلَ إليه ابتَهَالِ الْأَوَابِينَ، ثم

قوله: (وقول آخر)، يجوزُ أن يُحْمَلَ على بدع التفسير؛ لأن التفسيرَ الصَّحِيحَ شَرَطُهُ أن يكونَ مُطَابِقاً لِلْفِظِّ مِنْ حَيْثُ الِاسْتِعْمَالُ، سَلِيماً مِنَ التَّكْلُفِ، عَرِيّاً عَنِ التَّعَسُّفِ، أَرَادَ هذا المفسِّرُ أن قوله تعالى: ﴿يَقْلِبُ سَلِيمٍ﴾ مُطَابِقٌ، والمقامُ يقتضي الحَمْلَ على معانٍ متعدِّدة، سَلِيمٌ، سَلِمَ، وَأَسْلَمَ، وَسَلَّمٌ، وَأَسْتَسَلَّمَ، أَي: سَلِمَ مِنَ الشَّرِكِ وَالْمَعَاصِي، وَسَلَّمَ نَفْسَهُ وَابْنَهُ لِحُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَلَّمٌ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَحَارِبَ أَعْدَاءِهِ، وَأَسْلَمَ حَيْثُ نَظَرَ فَعَرَفَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وَأَسْتَسَلَّمَ: انْقَادَ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَذْعَنَ لِعِبَادَتِهِ.

قوله: (ثم أنحى على آهتِهِمْ). الأساس: انْتِحَاهُ: قَصَدَهُ، وَأَنْحَى عَلَيْهِ بِاللُّوَائِمِ: إِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ. وعن بعضهم: وحقيقته الإتيانُ من ناحية، وعلى هذا قراءةٌ من قرأ: «فاليومَ نُنجِيكَ بِبَدَنِكَ» أي: نُلقِيكَ على ناحية من قارعة الطريق^(١).

قوله: (ثم صَوَّرَ المسألةَ في نَفْسِهِ)، يعني في قوله: ﴿فَأَنهَمُ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ كما قال: قال: «عدوُّ لي» تصويرٌ للمسألةِ في نَفْسِهِ على معنى: أَنِّي فَكَّرْتُ في نَفْسِي، إلى آخِرِهِ، ومعنى قوله: «حتَّى تَخَلَّصَ منها»: أَنَّهُ جَعَلَ تَصْوِيرَ المسألةِ كالتخَلُّصِ إلى ثناءِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَمْدِهِ وَتَعْظِيمِ شَأْنِهِ وَتَعْدِيدِ آيَاتِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى آخِرِهِ.

(١) وقد قرأ بها إسماعيل المكيُّ وابن السَّمِيفِغ وغيرهما. انظر: «مختصر شواذ القرآن» ص ٥٨، و«البحر المحيط» (٦: ١٠٣).

وَصَلَّهٖ بِذِكْرِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَثَوَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ، وَمَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ مِنَ النَّدَمِ وَالْحَسْرَةِ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَتَمَنَّى الْكُرَّةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيُؤْمِنُوا وَيُطِيعُوا.

[﴿ وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴾ فَكَبَّكُوا فِيهَا لَهُمُ وَالْغَاوُونَ ﴾ وَجَحَدُوا بِإِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ ٩٠-٩٥]

الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويغتنطون بأنهم المحشورون إليها، والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها، قال الله تعالى: ﴿ وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٣١]، وقال: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الملك: ٢٧]، تجتمع عليهم الغموم كلها والحسرات، فتجعل النار بمرأى منهم، فيهلكون غمًا في كل لحظة، ويوبخون على

قوله: (وتمَنَّى الكُرَّةَ)، عطف على «النَّدَمِ والحسرة»، والمراد بالدفع في قوله: «وما يُدْفَعُ إِلَيْهِ المُشْرِكُونَ» هو قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ * ﴿لَا مَنْ أَى اللَّهُ يَقْلِبُ سَلِيمٍ ﴾ * أي: لا يَنْفَعُ شَيْءٌ قَطُّ، إِلَّا النَّدَمَ عَلَى مَا قَوَّرْتُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْإِثْبَانِ بِسَلَامَةِ الْقَلْبِ، وَإِلَّا الْحَسْرَةَ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ، وَلَا يُمْنِيهِمُ الْكُرَّةَ إِلَى الدُّنْيَا لِيُؤْمِنُوا وَيَتَعَطَّوْا، وَمَنْ تَمَّ حُجِمَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ بِقَوْلِهِ: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَفِي ضَلَالِ مُبِينٍ ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كُرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ إِنَّمَا تُحَسِّنُ عَلَى رَأْيِ صَاحِبِ «الْمِفْتَاحِ»^(١)، وَذَلِكَ أَنْ يُحْمَلَ قَوْلُهُ: ﴿ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ عَلَى مَعْنَى لَا يَنْفَعُ شَيْءٌ مَا حُمِّلَ قَوْلُكَ: لَا يَنْفَعُ زَيْدٌ وَلَا عَمْرُو، عَلَى مَعْنَى: لَا يَنْفَعُ إِنْسَانٌ مَا.

قوله: (فتجعل النار بمرأى منهم)، إِلَى آخِرِهِ، تَفْصِيلُ لِقَوْلِهِ: «تُجْمَعُ عَلَيْهِمُ الْغَمُومُ كُلُّهَا»، وَالْفَاءُ فِي «فِيهِلِكُونَ غَمًا»: لِلتَّسْبِيبِ لِأَنَّ النَّظَرَ إِلَى النَّارِ سَبَبٌ لِلْغَمِّ، وَفِي «فِيَقَالُ لَهُمْ»: لِلتَّعْقِيبِ، أَيْ: إِذَا قُصِدَ التَّوْبِيخُ يُقَالُ ذَلِكَ الْقَوْلُ. وَقَوْلُهُ: «لَأَتَمُّهُمْ وَأَهْلَتُّهُمْ» وَقَوْلُهُ: «وَقُودِ النَّارِ» تَعْلِيلُ لِقَوْلِهِ: «يُوبَخُونَ»، أَيْ: يُقَالُ لَهُمْ: أَيْنَ أَهْلَتُّكُمْ؟ وَهِيَ حَاضِرَةٌ مَعَهُمْ

(١) انظر: «مفتاح العلوم» ص ٢١٩.

إشراكهم، فيقال لهم: أين آلهتكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم؟ أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم؟ لأنهم وآلهتهم وقود النار، وهو قوله: ﴿فَكَبِّجُوا فِيهَا هُمْ﴾ أي: الآلهة ﴿وَالْغَاوِينَ﴾: وعبدتهم الذين بُرِّزَتْ لهم الجحيم. والكبْكبة: تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا أُلقيَ في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها. اللهم أجزنا منها يا خير مُستجار. ﴿وَيَحْنُودُ إِبْلِيسَ﴾: شياطينه، أو متبعوه من عصاة الإنس والجن.

[﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ * تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نَسَوْنَكُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صِدْقٍ جَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٩٦ - ١٠٤]

يجوزُ أن يُنطقَ الله الأصنامَ حتى يَصِحَّ التناولُ والتخاصم. ويجوزُ أن يجري ذلك بين العصاة والشياطين. والمرادُ بالمجرمين الذين أضلُّوهم: رؤسائهم وكبرائهم، كقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وعن

في النار، للتوبيخ، وفي معنى قوله: ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ الترقِّي والمبالغة، أي: كيف يُخلصونكم من عذاب النار، بل كيف يقديرون على خلاص أنفسهم منها؟ فوضع ينتصرون، وهو من انتصر منه، أي: انتقم، موضع الاستخلاص مبالغة وتهكماً. وقوله: «وهو قوله تعالى: ﴿فَكَبِّجُوا فِيهَا﴾ بيان لمعنى قوله: آتهم وآلهتهم وقود النار». قال الواحدي: وقيل لهم في ذلك اليوم على وجه التوبيخ: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله هل ينصرونكم؟ أي: يمنعونكم من العذاب ﴿أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ يمتنعون منه؟ ثم يؤمر بهم فيلقون في النار، فكذلك قوله تعالى: ﴿فَكَبِّجُوا فِيهَا﴾ (١).

قوله: (يجوزُ أن يُنطقَ الله تعالى الأصنامَ)، يعني: أن الضمير في ﴿قَالُوا﴾ للأصنام والغاوين وجنود إبليس، يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله.

(١) «الوسيط» للواحي (٣: ٣٥٦).

السُّدِّيُّ: الأُولون الذين اقتدَيْنَا بهم. وعن ابنِ جُريج: إبليس، وابنُ آدمَ القاتل؛ لأنه أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ وأنواعَ المعاصي. ﴿فَمَالَنَا مِنْ شَفِيعِينَ﴾ كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ كما نرى لهم أصدقاء؛ لأنه لا يتصادقُ في الآخرة إلا المؤمنون، وأما أهل النار فيبينهم التعادي والتباغض، قال اللهُ تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]؛ أو: ﴿فَمَالَنَا مِنْ شَفِيعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ من الذين كُنَّا نَعُدُّهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون في أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله، وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس. أو أرادوا: أنهم وقَعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والأصدقاء لا يَنْفَعونهم ولا يَدْفَعون عنهم، فقصدوا بنفسيهم: نفي ما يتعلّق بهم من النفع؛ لأن ما لا يَنْفَعُ: حُكْمُه حُكْمُ المَعْدوم. والحميم: من الاحتمام؛ وهو الاهتمام،

قوله: (أو أرادوا: أنهم وقَعوا في مهلكة)، يريد: دَلَّ مجموعُ قولهم: ﴿فَمَالَنَا مِنْ شَفِيعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ على سبيل الكناية وأخذ الزُبدة على الإيقاع في المَهلكة، ثم الفرقُ بين الوجوه الثلاثة أنهم - في الأول - نفّوا ابتداء الشفعاء والأصدقاء رأساً، كما قال: ﴿فَمَالَنَا مِنْ شَفِيعِينَ﴾ كما نرى للمؤمنين، ولا صديق كما نرى لهم، وفي الثاني: أثبتوا في الدنيا شفعاء وأصدقاء، فلما أصْلُوها هناك نفّوها، وفي الثالث: وجدوها حاضرَيْنِ هنالك، لكن حين لم يَنْفَعُوهم جعلوهم كالمعدومين؛ لأن ما لا يَنْفَعُ حُكْمُه حُكْمُ المَعْدوم، وقد فسّر بالوجوه الثلاثة قوله: ﴿إِنَّ شُرَكَاءَكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢].

قوله: (والحميم: من الاحتمام؛ وهو الاهتمام)، النهاية: وفي حديث أبي بكر رضي اللهُ عنه: أن أبا الأعور السُّلَمي قال له: «إنا جئناك في غيرِ مُحَمَّة»، يقال: أحمت الحاجة: إذا أهمت ولزمت^(١).

الراغب: الحميم: الماءُ الشَّدِيدُ الحرارة، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ [محمد: ١٥]، وسُمِّي العرقُ حميماً على التشبيه. وقوله تعالى: ﴿فَمَالَنَا مِنْ شَفِيعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ فهو

(١) ذكره ابن الأثير في «النهاية» (١: ٤٢٨).

وهو الذي يُهْمُهُ ما يُهْمُكَ. أو مِنَ الحَامَةِ بمعنى الخاصَّة؛ وهو الصديق الخاص. فإن قلت: لِمَ جُمع الشافعُ وُجِّدَ الصديق؟ قلت: لكثرة الشُّفَعَاء في العادة وقلَّة الصديق، ألا ترى أنَّ الرَّجُل إذا امْتَحَنَ بِإِرْهَاقِ ظالمٍ نَهَضَتْ جَمَاعَةٌ وافرة من أهلِ بَلَدِهِ لشفاعته؛ رحمةً له وحسبةً، وإن لم تَسْبِقْ له بأكثرِهِم معرفة؟ وأما الصِّدِّيق - وهو الصادقُ في ودادِكَ الذي يُهْمُهُ ما أهِمُّكَ - فأعزُّ من بَيِّضِ الأَنْوَق. وعن بعضِ الحُكَمَاء: أنه سُئِلَ عن الصديق، فقال: اسمٌ لا معنى له. ويجوزُ أن يريدَ بالصديق: الجَمْع. الكثرة: الرَّجعة إلى الدنيا. و«لَوْ» في مثلِ هذا الموضعِ في معنى التمنيِّ، كأنه قيل: فليت لنا كثرة؛ وذلك لِما بينَ مَعْنَيْ «لَوْ» و«ليت» مِنَ التلاقي في التقدير.

القريبُ المُشْفِقُ، فكأنه الذي يَحْتَدُّ حَمَايَةً لِدَوِيهِ، واحْتَمَّ فلانٌ لفلان: احتدَّ، وذلك أبلغ من اهتَمَّ، لِما فيه من معنى الاحتمام، وعُبِّرَ عن الموتِ بِالْحِمَامِ^(١) كقولهم: حُمَّ كذا، أي: قُدِّرَ، والحُمَّى سُمِّيَتْ بِذلك إمَّا لِما فيها من الحرارة المُفْرِطَةِ، وعلى ذلك قوله صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عليه: «الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ»^(٢)، وإمَّا لِما يَعْرِضُ فِيهِ مِنَ الحَمِيمِ، أي: العَرَقِ، وإمَّا لكونها مِنْ أَمَارَاتِ الموت؛ لقولهم: الحُمَّى بَرِيدُ الموت، وقيل: بابُ الموت^(٣).

قوله: (أو مِنَ الحَامَةِ بمعنى الخاصَّة)، الأساس: وهو مولايَ الأحمِّ، أي: الأخصُّ والأحبُّ.

قوله: (فأعزُّ من بَيِّضِ الأَنْوَقِ)، الجوهرى: الأَنْوَقُ، على فَعُولٍ: طائرٌ، وهو الرِّخْمَةُ، وفي السَّمَلِ: أعزُّ من بَيِّضِ الأَنْوَقِ؛ لأنَّها تُحْرِزُهُ ولا يَكادُ يُظْفَرُ بها، لأنَّ أوكارها في رؤوس الجبالِ والأماكنِ الصَّعْبَةِ البعيدة.

قوله: (لِما بينَ مَعْنَيْ «لَوْ» و«ليت» مِنَ التلاقي في التقدير)، بيان لوجه العلاقة، يعني: كما يُقَدَّرُ بـ«لَوْ» غيرُ الواقع، نحو: لو كان لي مالٌ لَحَجَّجْتُ، يُقَدَّرُ بـ«ليت» غيرُ الواقع،

(١) في (ح) و(ف): «بالحامة».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٢٥٤-٢٥٥.

ويجوز أن تكون على أصلها، ويُحذف الجواب؛ وهو: لَفَعَلْنَا كَيْتَ وَكَيْتَ.

[﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾]

[١٠٥-١١٠]

القوم: مؤنثة، وتصغيرها قُوَيْمَةٌ. ونظيرُ قوله: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ - والمراد نوح عليه السلام -: قولك: فلانٌ يركب الدوابَّ ويلبسُ البرودَ، وما له إلا دابةٌ وبرد. قيل:

نحو: لَيْتَ الشَّبابَ يعودُ، وإنما الفرقُ أنَّ الثاني يُستعملُ في طلبِ ما لا يمكنُ حصولُه حقيقةً، قال صاحبُ «المفتاح»: إذا قلتَ: لو يأتيني زيدٌ فيُحدِّثني، بالنصبِ، طالباً لحصولِ الوقوعِ فيما يُفيدُ «لو» من تقديرِ غيرِ الواقعِ واقِعاً، وكذا التَّمَنِّي، فعلى هذا: ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ منصوبٌ على جوابِ التَّمَنِّي^(١).

قوله: (ويجوز أن تكون على أصلها)، أي: على الامتناع، فعلى هذا ﴿فَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفٌ على ﴿كِرَّةٌ﴾، أي: لو أن لنا أن نَكِرَّ فنكون، أي: فأن نكون، قاله أبو البقاء^(٢)، وعن بعضهم: قوله: ﴿فَتَكُونُ﴾ في تقديرِ المصدرِ عطفاً على «أن»، أي: لو بُتَّ حصولُ الكِرَّةِ فنكون من المؤمنين لَفَعَلْنَا.

قوله: (ونظيرُ قوله: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ... قولك: فلان)، مبتدأٌ وخبر. قال صاحبُ «الانتصاف»: مَنْ كَذَبَ نَبِيًّا واحداً فقد كَذَبَ وَجْهَ دِلَالَةٍ معجزته على الصِّدْقِ، وهذا مشرَّكٌ بينَ الجميعِ، فَمَنْ كَذَبَ واحداً فقد كَذَبَ الجميعِ، وهو معنى قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^(٣) [البقرة: ٢٨٥]، وقال صاحبُ «الفرائد»: يُمكنُ أن يُقالَ: إنهم لما كذبوا نوحاً ومن قبله كذبوا إرسالَ الله أصلاً، كأثمهم كذبوا المرسلين، ولما أنكروا إرسالَ نوح عليه السلامَ كأثمهم مُنكروا المرسلين.

(١) «مفتاح العلوم» ص ١٣٧.

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٩٩٨).

(٣) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٢٣).

﴿أَخُوهُمْ﴾؛ لأنه كانَ منهم، من قولِ العَرَبِ: يا أخا بني تميم، يريدون: يا واحداً منهم. ومنه بيتُ «الحماسة»:

لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ
في النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالَ بَرّهَانَا

كان أميناً فيهم مشهوراً بالأمانة، كمحمدٍ صلوات الله عليه وسلامه في قريش. ﴿وَأَطِيعُونَ﴾ في نُصْحِي لَكُمْ وفيما أدعوكم إليه من الحقِّ. ﴿عَلَيْهِ﴾: على هذا الأمر، وعلى ما أنا فيه، يعني: دُعَاءَهُ وَنُصْحَهُ. ومعنى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾: فاتَّقُوا اللَّهَ فِي طَاعَتِي، وَكَرَّرَهُ؛ لِيُؤَكِّدَهُ عَلَيْهِمْ وَيَقَرَّرَهُ فِي نُفُوسِهِمْ، مع تعليق كلِّ واحدٍ منهما بَعَلَّةٍ: جَعَلَ عِلَّةَ الْأَوَّلِ كَوْنَهُ أَمِيناً فِيهِمْ، وفي الثاني حَسَمَ طَمَعَهُ عَنْهُمْ.

قوله: (لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ)، البيت (١)، يَنْدُبُهُمْ: أي: يَدْعُوهُمْ، يقول: لا يَسْأَلُونَ مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِغَاثَةِ حُجَّةً، وَلَا يُرَاجِعُونَهُ فِي كَيْفِيَّةِ مَا أَلْجَأُوا إِلَيْهِمْ فِيهِ، لَكِنَّهُمْ يُعَجِّلُونَ الْإِغَاثَةَ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: الْأُخُوَّةُ إِمَّا فِي الدِّينِ أَوْ فِي النَّسَبِ أَوْ فِي الشَّبهِ (٢)، قال اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف: ٤٨] أي: شَبَّهَتْهَا فِي الْإِعْجَازِ (٣).

قوله: (جَعَلَ عِلَّةَ الْأَوَّلِ كَوْنَهُ أَمِيناً فِيهِمْ)، يعني: لَمَّا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ رَتَّبَ عَلَيْهِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، يعني: إِذَا كُنْتُ رَسُولاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا مَنْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ، وَمِنْ لَوَازِمِ الْمَعْرِفَةِ الْحَشْيَةُ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وَإِذَا كُنْتُ أَمِيناً يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُطِيعُونِي؛ لِأَنَّ نُصْحِي لَا يَكُونُ عَنْ غَدْرٍ وَخِيَانَةٍ، وَلَمَّا قَالَ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمُ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَتَّبَ عَلَيْهِ أَيْضاً ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾، يعني: مَنْ يَدْعُوكُمْ إِلَى مَا يَنْفَعُكُمْ دُنْيَا وَدِيناً بِلَا شَائِبَةٍ طَمَعِ

(١) سبق نخرجه.

(٢) في (ح) و(ف): «النسبة»، وهو خطأ.

(٣) واشتراكها في الصِّحَّةِ وَالْإِبَانَةِ وَالصِّدْقِ. انظر: «مفردات القرآن» ص ٦٨.

[﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَزْدَلُونَ﴾ ١١١]

وَقُرئ: (وَأَتْبَاعُكَ) جمعُ تَابِع، كشاهد وأشهد. أو جمع تَبِع، كبطل وأبطال. والواو للحال. وحقها أن يُضمر بعدها «قَدْ» في: ﴿وَأَتْبَعَكَ﴾. وقد جُمع الأزدل على الصِّحَّةِ وعلى التفسير في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا﴾ [هود: ٢٧] والرذالة والنذالة: الحِيسَةُ والدَّناءة. وإنما استرذلوهم لأنضاع نَسَبِهِمْ وَقَلَّةِ نَصِيهِمْ من الدنيا. وقيل: كانوا من أهل الصُّناعات الدنيئة، كالحياكة والحجامة والصُّناعة لا تُزري بالديانة، وهكذا كانت قُرَيْش تقول في أصحاب رسول الله ﷺ، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك، حتى صارت من سياتهم وأماراتهم. ألا ترى إلى هِرْقَل حين سأل أبا سفيان عن أتباع

يجبُ عليكم طاعته، وإذا كان ربُّ العالمين هو الذي يكفل أجره يجبُ عليكم شكره والحدُّر من كُفْرانِ نعمته، واللهُ تعالى أعلم.

قوله: (وَقُرئ: «وَأَتْبَاعُكَ»)، قال ابنُ جني: قرأها ابنُ مسعودٍ والضحاكُ وابنُ السَّمِيعِ، وفيها وجهان، أحدها: «أَتْبَاعُكَ»: مرفوعٌ بالابتداء، و«الأزدلون»: الخبر، وثانيهما: أن يكونَ «أَتْبَاعُكَ» معطوفاً على الضميرِ في «نُؤْمِنُ»، أي: نُؤْمِنُ بكِ وَأَتْبَاعُكَ الأزدلون؟ والأزدلون: وَصَفٌ لـ«أَتْبَاعُكَ»، ويجوزُ العطفُ لوقوع الفصل بقوله ﴿لَكَ﴾^(١).

قوله: (وَالصُّنَاعَةُ لَا تُزْرِي بِالْديَانَةِ)، أنشد أبو العتاهية في المعنى:

وليس على عبدٍ تقِيّ نقيصةٌ إذا صحَّحَ التقوى وإن حاك أو حجَمَ^(٢)

قوله: (حتى صارت من سياتهم)، أي: صارت مُتَابِعَةً من اتَّضَعَ نَسَبُهُ وَقَلَّ نَصِيهِ من الدُّنيا من أماراتٍ من اتَّسَمَ بِسِمَةِ الثُّبُوتِ وعلاماتٍ من انتصَبَ لمُنَاصِبِ الرِّسَالَةِ.

قوله: (ألا ترى إلى هِرْقَل حين سأل أبا سفيان) روينا عن البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: حدَّثني أبو سفيان من فيه إلى في قال: انطلقتُ في المُدَّةِ التي كانت بيني

(١) «المحتسب» (٢: ١٣١)، ولتمام الفائدة انظر: «البحر المحيط» (٨: ١٧٦).

(٢) «ديوان أبي العتاهية» ص ٢٠٦.

رسول الله ﷺ، فلما قال: ضَعَفَاءُ النَّاسِ وَأَرَادَهُمْ. قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك؟ وعن ابن عباس: هم الغاغَةُ. وعن عكرمة: الحَاكَةُ وَالْأَسَاكِفَةُ. وعن مقاتل: السَّفِلَةُ.

[﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ

الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ أَنَا إِلَّا أَنْذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ١١٢ - ١١٥]

﴿وَمَا عَلِمِي﴾: وأي شيء علمي؟ والمراد: انتفاء علمه بإخلاص أعمالهم لله وإطلاعه على سر أمرهم وباطنه. وإنما قال هذا؛ لأنهم قد طعنوا مع استرذالهم في إيمانهم، وأنهم لم يؤمنوا عن نظير وبصيرة، وإنما آمنوا هوى وبدية، كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]. ويجوز

وبين رسول الله ﷺ، قال: فبيننا أنا في الشام إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل، فقال هرقل: هل هاهنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، فدُعيت في نفر من قريش فأجلسوني بين يديه، وأصحابي خلفي، ثم قال لترجمانه: سلهُ كيف حسبه فيكم؟ قال: قلت: هو فينا ذو حسب، إلى أن قال: أتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، وساق الحديث إلى أن قال: سألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أو أشرافهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل^(١). هذا مختصر من حديث طويل.

قوله: (الغاغة)، الجوهري: الغاغة من الناس هم الكثير المختلطون، وعن بعضهم: الغاغة: السَّفِلَةُ يَصْحَبُونَ فِي الْفِتَنِ النَّاسَ، وتعود بالله من قوم إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا.

قوله: (الأساكفة)، الأساس: هو إسكاف من الأساكفة، وهو الخراز، وقيل: كل صانع.

قوله: ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾، بغير همز، أي: ظاهره، من بَدَأَ، أي: ظهر. ويهمز، أي: قلْدوك بدية من غير تفكير وتروؤ.

(١) أخرجه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

أَنْ يَتَغَابَى لَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُفَسِّرُ قَوْلَهُمْ: الْأَرْدَلِينَ، بِمَا هُوَ الرِّذَالَةُ عِنْدَهُ، مِنْ سُوءِ

قَوْلِهِ: (أَنْ يَتَغَابَى لَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ)، النَّهْيَاةُ: الْعَبِيُّ: الْقَلِيلُ الْفِطْنَةُ، وَقَدْ عَبَّيَ يَغْبِي غَبَاوَةً، وَمِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ: تَغَابَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَصِحُّ لَكَ، أَي: تَغَافَلْ، وَفِي مَعْنَاهَا أَنْشَدَ صَاحِبُ «الْمِفْتَاحِ»:

أَتَتْ تَشْتَكِي عِنْدِي مُزَاوَلَةَ الْقِرَى وَقَدْ رَأَتْ الضَّيْفَانَ يَنْحُونُ مَنْزِلِي
فَقُلْتُ - كَأَنِّي مَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا - هُمُ الضَّيْفُ جِدِّي فِي قِرَاهِمُ وَعَجَلِي^(١)

وعن بعضهم: التَّغَابَى مِنَ الْأَخْلَاقِ الْكِرَامِ، وَالتَّجَاهُلُ مِنَ الْأَخْلَاقِ السُّفْهَاءِ، قَالَ:

لَيْسَ الْعَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابَى^(٢)

وَفِي الْحَدِيثِ: «عَظَّمُوا أَقْدَارَكُمْ بِالتَّغَابَى»^(٣)، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا: ﴿وَأَتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾، وَعَنُوا الَّذِينَ لَا نَسَبَ لَهُمْ وَلَا نَصِيبَ مِنَ الدُّنْيَا، خُيِّلَ لَهُمْ أَنَّهُمْ عَنُوا بِالْأَرَادِلِ: مَنْ لَا إِخْلَاصَ^(٤) لَهُ مِنَ الْعَمَلِ، وَلَمْ يُؤْمِنْ عَنِ نَظَرٍ وَبَصِيرَةٍ، فَأَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ * إِنَّ حَسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾، أَي: مَا عَلِمِي بِإِخْلَاصِ أَعْمَالِ الْأَرَادِلِ، وَلَا لِي إِطْلَاعٌ عَلَى سَرَائِرِهِمْ إِنْ كَانَ لَهُمْ عَمَلٌ سَيِّئٌ أَوْ حَسَنٌ، فَاللَّهُ مُحَاسِبُهُمْ وَمُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ أَرَاهُمْ أَنَّهُ مَا عَرَفَ مِنَ الْأَرَادِلِ وَالْأَنْدَالِ إِلَّا ذَلِكَ، وَنَحْوُهُ سَبَقَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، وَقَوْلِهِ ﷺ: «سَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ»^(٥)، ثُمَّ جَاءَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ * تَتَمِيمًا لِمَا خَطَأَهُمْ فِيهِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «وَقَصَدَ بِذَلِكَ رَدَّ اعْتِقَادِهِمْ وَإِنْكَارَ أَنْ يُسَمِّيَ الْمُؤْمِنَ رَذُلًا وَإِنْ كَانَ أَفْقَرَ النَّاسِ وَأَوْضَعَهُمْ نَسَبًا»، قَالَ:

أَبِي الْإِسْلَامِ لَا أَبَ لِي سِوَاهُ إِذَا افْتَخَرُوا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيمٍ^(٦)

(١) «مفتاح العلوم» ص ١٤٥.

(٢) ذكره ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١: ٩٦) من غير عزو لأحد.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (ج) و(ف): «أخلاق».

(٥) أخرجه البخاري (١٣٦٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٦) سبق تخريجه.

الأعمال وفساد العقائد، ولا يلتفت إلى ما هو الرذالة عندهم، ثم يبني جوابه على ذلك فيقول: ما عليّ إلا اعتبار الظواهر، دون التفتيش عن أسرارهم والشقّ عن قلوبهم، وإن كان لهم عمل سيّئ، فالله مُحاسِبُهُمْ ومُجَازِيهِمْ عليه، وما أنا إلا مُنذِرٌ لا محاسب ولا مُجَازٍ ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ذلك، ولكنكم تجهلون فتتساقون مع الجهل حيث سيركم. وقصد بذلك ردّ اعتقادهم وإنكار أن يسمّى المؤمن رذلاً، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسباً، فإن الغنى غنى الدّين، والنسبُ نسبُ التقوى. ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: ليس من شأني أن أتبع شهواتكم وأطيب نفوسكم بطرد المؤمنين الذين صحّ إيمانهم طمعاً في إيمانكم، وما عليّ إلا أن أنذركم إنذاراً بيّناً بالبرهان الصحيح الذي يتميّز به الحقُّ من الباطل، ثم أنتم أعلمُ بشأنكم.

فعلی هذا، التعريف في ﴿الْأَرذَلُونَ﴾: للجنس، وعلى الأول: للعهد، لما كان بين نبيّ الله ﷺ وبين القوم ناس أراذل بادي الرأي بزعمهم، ولذلك استشهد بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧].

قوله: (رذلاً)، بسكون الدال المعجمة. الجوهري: الرذُل: الدونُ الحسيس.

قوله: (فإن الغنى غنى الدّين)، رويناه عن البخاريّ ومسلم والترمذي، عن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»^(١).

قوله: (ليس من شأني أن أتبع شهواتكم)، يريد أن إيلاء الضمير حرف النفي في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، نحو قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، دلّ على أنّهم زعموا أنه موصوفٌ بصفتين، إحداهما: أتباع أهوائهم بطرد المؤمنين؛ لأجل أن يؤمنوا. وثانيتهما: أنه نذيرٌ مبين؛ لأنه جوابٌ عن قولهم: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَأَتَّبِعَكَ الْأَرذَلُونَ﴾ فقصر الحكم على الثاني دون الأول، وإليه الإشارة بقوله: ما عليّ إلا أن أنذركم إنذاراً مبيناً، إلى قوله: «ثم أنتم أعلمُ بشأنكم».

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٥١) وغيرهما.

[﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْبُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ * قَالَ رَبِّ إِنَّا قَوْمٌ كَذَّبُونَ * فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَيَحِيًّا وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَيْحِنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهَوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾]

[١١٦ - ١٢٢]

ليس هذا بإخبارٍ بالتكذيب؛ لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد: إني لا أدعوك عليهم لما غاظوني وأذوني، وإنما أدعوك لأجلِك ولأجل دينك، ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك، فاحكمهم ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ﴾. والفتاحة: الحكومة. والفتاح: الحاكم؛ لأنه يفتح المستغلق، كما سُمِّيَ فيصلاً؛ لأنه يفصل بين الخصومات. الفلُّك: السفينة، وجمعه: فُلُك: قال الله تعالى: ﴿وَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِرَ﴾ [فاطر: ١٢]؛ فالواحد بوزن قُفْلٍ، والجمع بوزن أُسَدٍ، كَسَرُوا فُعْلًا عَلَى فُعْلٍ، كما كَسَرُوا فَعْلًا عَلَى فُعْلٍ؛ لأنها أخوان في قولك: العَرَبُ والعُرَبُ، والرَّشْدُ والرُّشْدُ. فقالوا: أُسَدٌ وأُسَدٌ،

قوله: (ليس هذا بإخبارٍ بالتكذيب)، يعني قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّا قَوْمٌ كَذَّبُونَ﴾ وذلك أنهم لما تَوَعَدُوا بقولهم: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ كان من حق الظاهر أن يقول: يا ربِّ، إن قومي أُوعدوني بأن يَرْجُموني، لكن رَفَعَ حِصَّةَ نَفْسِهِ مِنَ الْبَيْنِ، وَرَفَعَ قِصَّةَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالذِّينِ، وَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي لَا أَدْعُوكَ عَلَيْهِمْ لِمَا أُوعدوني بِالرَّجْمِ، وَإِنَّمَا أَدْعُوكَ لِأَنَّهُمْ كَذَّبُونِي فِي وَحْيِكَ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعَلْنَا إِنَّهُمْ لَيَحْزُنُنَّكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَتَّابِتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وما رَوَيْنَا عَنِ الْبَخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَمَالِكٍ وَأَبِي دَاوُدَ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا: مَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ (١).

قوله: (لأنها أخوان)، ذَكَرَ أَبُو عَلِيٍّ (٢) فِي «الْقَصْرِيَّاتِ» أَنَّ الضَّمَّةَ فِي «فَعْلٌ» مُنْزَلَةٌ

(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧) والإمام مالك (٣٣٥١) وأبو داود (٤٧٨٧) وغيرهم.

(٢) في (ط): «أبو زيد»، وليس بشيء، فـ«القصريات» هو «التذكرة القصيرية» أو «المسائل القصيرية» لأبي علي الفارسي رحمه الله تعالى.

وفُلك وفُلك. ونظيره: بعيرٌ هجان، وإبلٌ هجان، ودُرُع دِلاص، ودُرُوع دِلاص، فالواحد بوزن كِناز، والجمعُ بوزن كِرَام. والمشحون: المملوء، يقال: شَحَنَها عليهم خَيْلاً ورجالاً.

[كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هوداً ألا ننقون * إني لكم رسول أمين * فأنقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجرى إلا على رب العالمين * أتنبون بكل ربيع آية تبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فأنقوا الله وأطيعون *] [١٢٣ - ١٣١]

قُرئ: ﴿بِكُلِّ ربيع﴾ بالكسر والفتح؛ وهو المكان المرتفع. قال المسيب بن علس:

منزلة الفتحين في «فعل»، يعني: أن الضمة التي هي أثقل الحركات قائمة مقام ثنتين خفيفتين.

قوله: (دروع دِلاص)، الأساس: درعٌ دِلاصٌ ودلامص، ودروعٌ دِلاصٌ ودُلص: مَلْسَاء بَرَاقة.

قوله: (الواحد بوزن كِناز)، الأساس: وكنزُ التمر: الوعاء. وكنزتُ الجرابَ فاكنزتَ، إذا ملأته جداً، وناقَةٌ كِنازُ اللحم.

قوله: (شَحَنَها عليهم خَيْلاً)، الضميرُ للمدينة. الجوهرى: شَحَنْتُ البلدَ بالخيل: ملأته.

قوله: (وهو المكان المرتفع)، الراغب: الريعُ: المكانُ المرتفعُ الذي يبدو من بعيد، الواحدة رَيْعَةٌ، ورَيْعانُ كُلُّ شيء: أوائله التي تبدو، وفيه استعيرَ الرَيْعُ للزيادة والارتفاع الحاصل^(١).

قوله: (قال المسيبُ)، المسيبُ: صَحَّ بكسرِ الياء، وهو خالُ الأعشى، سُمِّيَ مُسَيْباً

(١) «مفردات القرآن» ص ٣٧٢.

في الآلِ يَرْفَعُهَا وَيَخْفِضُهَا رِيعٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَحْلٌ

ومنه قولهم: كم رِيعُ أَرْضِكَ؟ وهو ارتفاعُها. والآية: العَلَمُ. وكانوا مَن يَهْتَدُونَ بالنُّجُومِ في أسْفَارِهِمْ، فَاتَّخَذُوا في طُرُقِهِمْ أَعْلَاماً طَوَالاً فَعَبَّثُوا بِذَلِكَ؛ لأنهم كانوا مُسْتَعْتِنِينَ عنها بالنجوم. وعن مجاهد: بنوا بكلَّ رِيعِ بُرُوجِ الحَمَامِ. والمصانع: مَا خُذُ الماء. وقيل: القُصُورُ المُشِيدَةُ والحُصُونُ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ تَرْجُونَ الخلودَ في الدنيا.

لأن [أباه] ^(١) استرعاها إبلاً فسيبها وأبهل أصرتها ^(٢)، فقال له: سيبت إبلي، فسُمِّي مسيباً ^(٣).

قوله: (في الآلِ يَرْفَعُهَا)، البيت، عَلس، بفتح العَيْنِ المهملة: صَرَبٌ مِنَ الحِنطة، تكون حَبَّتَانِ في قشرة. الجوهرى: العلس: القراد الضخم، وبه سُمِّي الرجلُ. يَصِفُ الشاعرُ ظُعناً. الآل: السراب، والسحل: الثوب لا يُبرَمُ غَزْلُهُ. الجوهرى: السحل: ثوبٌ أبيضٌ من الكُرْسُفِ مِن ثيابِ اليَمَنِ.

قوله: (لأنهم كانوا مُسْتَعْتِنِينَ عنها بالنجوم)، الانتصاف: وليس بعَبَثٍ؛ لأن الحاجة قد تدعو إليه لغيَمٍ مُطْبِقٍ أو غيره ^(٤).

قوله: (وقيل: القُصُورُ المُشِيدَةُ والحُصُونُ)، هذا أظهرُ من العبثِ من المصانع، لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. قال الإمام: البناءُ على المرتفعِ إنما كان مذموماً لدلالته على السرفِ والحِيلاءِ، واتخاذُ القُصُورِ لدلالته على الأملِ الطويلِ والغفلةِ عن أن الدنيا دارٌ تمرُّ، لا دارٌ مقرٌّ ^(٥).

(١) في الأصول الخطية: «لأنه استرعاها»، والتصويب من «خزانة الأدب» (٣: ٢٢٦).

(٢) يقال: أبهل الإبلى وعَبَّهأها، أي: أهملها، كما في «لسان العرب» لابن منظور (أبهل) و(عبهل).

(٣) وقيل بل سُمِّي بيتَ قاله وهو قوله:

فإن سركم أن لا تزوب لقاحكم
غزاراً فقولوا للمسيب يَلْحَقِ

انظر: «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (١: ١٧٤-١٧٥).

(٤) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٢٦).

(٥) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٥٧).

أَوْ تُشْبِهُ حَالَكُمْ حَالٍ مَن يَخْلُدُ. وَفِي حَرْفِ أُبَيٍّ: (كَانَكُمْ). وَقُرَى: (تُخْلَدُونَ) بِضَمِّ التَّاءِ مُخَفَّفًا وَمَشْدَدًا. ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بِسَوِّطٍ أَوْ سَيْفٍ كَانَ ذَلِكَ ظَلْمًا وَعُلُوًّا، وَقِيلَ: الْجَبَّازُ: الَّذِي يَقْتُلُ وَيَضْرِبُ عَلَى الْغَضَبِ. وَعَنِ الْحَسَنِ: يُبَادِرُونَ تَعْجِيلَ الْعَذَابِ، لَا تَتَشَبَّهُونَ مَتَفَكِّرِينَ فِي الْعَوَاقِبِ.

[﴿وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ * وَحَنَنْتِ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٣٢ - ١٣٥]

بَالِغٍ فِي تَنْبِيهِهِمْ عَلَى نِعَمِ اللَّهِ؛ حَيْثُ أَجْمَلَهَا ثُمَّ فَصَّلَهَا مُسْتَشْهِدًا بِعِلْمِهِمْ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ أَيْقَظَهُمْ عَنْ سِنَةِ غَفْلَتِهِمْ عَنْهَا حِينَ قَالَ: ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾، ثُمَّ عَدَّدَهَا عَلَيْهِمْ وَعَرَّفَهُمُ الْمُنْعِمَ بِتَعْدِيدِ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَأَنَّهُ كَمَا قَدَّرَ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ

قَوْلُهُ: (تُشْبِهُ حَالَكُمْ حَالٍ مَن يَخْلُدُ)، لَعَلَّ هَذَا وَارِدٌ عَلَى الْإِسْتِعَارَةِ التَّمثِيلِيَّةِ، نَزَلَ فَعَلَهُمْ مَنزِلَةَ الرَّجَاءِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ * فَقُولَا لَهُ، قَوْلَا لَيْسَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى ﴿[طه: ٤٣-٤٤]﴾، قَالَ: «أَذْهَبَا عَلَى رَجَائِكُمَا وَطَمَعِكُمَا، وَبَاشِرَا الْأَمْرَ مَبَاشِرَةً مَن يَرْجُو وَيَطْمَعُ أَنْ يُثْمِرَ عَمَلُهُ»^(١).

قَوْلُهُ: (كَانَ ذَلِكَ ظَلْمًا وَعُلُوًّا)، فِيهِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ جَزَاءٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾، فَآتَى بِالْجَزَاءِ نَفْسَ الشَّرْطِ لِلْمَبَالِغَةِ، وَأَوْقَعَ ﴿جَبَّارِينَ﴾ حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ فِي ﴿بَطَشْتُمْ﴾. قَالَ الْقَاضِي: ﴿بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ أَي: مُتَسَلِّطِينَ غَاشِمِينَ بِلَا رَأْفَةٍ وَلَا قَصْدٍ تَأْدِيبٍ وَنَظَرٍ فِي الْعَاقِبَةِ^(٢)، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «يَتَبَادِرُونَ فِي تَعْجِيلِ الْعَذَابِ» أَي: تَعْدِيبِ النَّاسِ.

قَوْلُهُ: (وَأَنَّهُ كَمَا قَدَّرَ)، عَطَفَ عَلَى «تَعْدِيدِ»، أَي: عَرَّفَهُمُ الْمُنْعِمُ بِأَنَّهُ كَمَا قَدَّرَ، أَشَارَ بِهَذَا إِلَى اتِّصَالِ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ بِهَا قَبْلَهُ.

(١) انظر: «الكشاف» (١٠: ١٧٦-١٧٧).

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٤٨).

النعمة، فهو قادرٌ على الثواب والعقاب، فاتَّقوه. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]. فإن قلت: كيف قرَنَ البينَ بالأنعام؟ قلت: هم الذين يُعينونهم على حفظها والقيام عليها.

[﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ * إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [١٣٦-١٤٠]

فإن قلت: لو قيل: أوعظت أو لم تعظ، كانَ أخصرَ، والمعنى واحداً! قلت: ليس المعنى بواحد، وبينهما فرق؛ لأنَّ المراد: سواءً علينا أفعلتَ هذا الفعلَ الذي هو الوعظ، أو لم تكن أصلاً من أهله ومُباشره، فهو أبلغُ في قلةِ اعتدادهم بوعظه من قولك: أم

قوله: (ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾)، يعني: صَمَّ وَصَفَ الْقَهَّارِيَّةَ مَعَ وَصَفِ الرَّحْمَانِيَّةِ.

قوله: (كيف قرَنَ البينَ بالأنعام؟)، يعني: الجُمعُ بينهما كالجُمعِ بينَ البينِ والأنعام، وأجاب: أتهم كانوا أصحابَ مواشٍ، وجُلُّ اهتمامهم بشأنها، مُحتاجينَ إلى مَنْ يُعينهم على حفظها فمَنَ عليهم بالبينَ لذلك، كما أن قومَ نُوحٍ عليه السلامُ كانوا أربابَ بساتينَ وسائرِ الأموالِ قيلَ لهم: ﴿وَيَمْدُدْكَرَ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينَ وَيَجْعَلْ لَكَرْجَنَّتَ وَيَجْعَلْ لَكَرْجَنَّتَ﴾ [نوح: ١٢].

قوله: (لأنَّ المراد: سواءً علينا أفعلتَ هذا الفعلَ الذي هو الوعظُ، أم^(١) لم تكن أصلاً من أهله)، يعني: أتوا في طَرَفِ الإثباتِ بالفعلِ الصَّريحِ الذي دَلَّ على حصُولِهِ منه مرةً، وفي النَّفيِ باسمِ الفاعلِ على الاستغراقِ، نفوا أن يكونَ من زمرةٍ مَنْ حصلَ منهم هذا الفعلُ، واستهزأوا فيه، أي: سواءً علينا أجددتَ الوعظَ أم استمررتَ على ما كنتَ عليه من الإمساكِ عنه والحمولِ فيه. واعلمَ أنَّ في أكثرِ النَّسخِ: «أو لم تعظُ»، بحرفِ التَّرديدِ، والصَّوابُ «أم» كما هو في بعضِ النَّسخِ.

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «أو».

لَمْ تَعْظَ. مَنْ قَرَأَ: (خَلَقُ الْأَوَّلِينَ) بالفتح، فمعناه: أَنْ مَا جِئْتَ بِهِ اخْتِلاقُ الْأَوَّلِينَ وَتَحَرُّصُهُمْ، كَمَا قَالُوا: ﴿أَسْطِغِرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]. أَوْ: مَا خَلَقْنَا هَذَا إِلَّا خَلَقُ الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ، نَحْيَا كَمَا حَيُّوا، وَنَمُوتُ كَمَا مَاتُوا، وَلَا بَعَثَ وَلَا حِسَابَ. وَمَنْ قَرَأَ: ﴿خُلِقُ﴾ بِضَمَّتَيْنِ، وَبِوَاحِدَةٍ، فمعناه: مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ إِلَّا خُلِقَ الْأَوَّلِينَ وَعَادَتُهُمْ، كَانُوا يَدِينُونَهُ وَيَعْتَقِدُونَهُ، وَنَحْنُ بِهِمْ مُقْتَدُونَ. أَوْ: مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا عَادَةٌ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهَا النَّاسُ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ أَوْ: مَا هَذَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ مِنَ الْكُذْبِ إِلَّا عَادَةُ الْأَوَّلِينَ، كَانُوا يُلْفِقُونَ مِثْلَهُ وَيُسْطَرُونَهُ.

[﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَاءَ أَمِينٌ * فِي جَنَّتِ وَعَيْبُونَ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هَاضِمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ

قال ابنُ الحاجب في الفصلِ بينَ «أو» و«أم» - في قولك: أزيدُ عندك أو عمروُ، وأزيدُ عندك أم عمروُ -: إنك في الأولِ لا تعلمُ كونَ أحدهما عندَه، فأنت تسألُ عنه؛ وفي الثاني تعلمُ أن أحدهما عندَه إلا أنك لا تعلمُه بعينه، فأنت تطالبُه بالتعيين^(١). وذكرَ كلاماً حاصله يؤوُلُ إلى أنهم استعملوا الهمزةَ و«أم» في معنى التسويةِ مجرداً من غيرِ استفهام، نحو: سواءٌ عليّ أقبُتُ أم قعدتُ، واستعملوا الجُمْلَتَيْنِ، والثانيةَ معطوفةً بـ«أو» في معنى الحال، كقولك: أضربَ زيداً قام أو قعدتُ، ثم قال: فمِثْلُ ذَلِكَ يَلْتَبِسُ فِيهِ مَوْضِعُ «أم» بمَوْضِعِ «أو»، وكثيراً ما ترى في كلامِ المتأخِّرينَ وأشعارهم لا يُفَرِّقُونَ بينهما، وسرُّ استعمالِ «أم»: أن تَسْبِقَها الهمزةُ، واستعمالِ «أو»: أن لا تَسْبِقَها الهمزةُ^(٢).

قوله: (خَلَقُ الْأَوَّلِينَ)، بفتحِ الخاءِ وسكونِ اللامِ: ابنُ كثيرٍ وأبو عمروُ والكسائيُّ، وبضمِّها: الباقون^(٣).

(١) انظر: «الإيضاح في شرح المفصل» (٢: ٢٠٩).

(٢) «الإيضاح في شرح المفصل» (٢: ٢٠٩-٢١١).

(٣) ولتمام الفائدة انظر: «حجة القراءات» ص ٥١٨.

يُبَوِّئُ قَدْرَهُمْ * فَانْقُورُوا لِلَّهِ وَاطِيعُونَ * وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٤١-١٥٢﴾

﴿أَتُنزَكُونَ﴾ يجوز أن يكون إنكاراً لأن يُتَرَكَوا مُجَلِّدِينَ فِي نَعِيمِهِمْ لَا يُزَالُونَ عَنْهُ، وَأَنْ يَكُونَ تَذْكَيراً بِالنُّعْمَةِ فِي تَخْلِيَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ وَمَا يَتَنَعَّمُونَ فِيهِ مِنَ الْجَنَّاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، مَعَ الْأَمْنِ وَالذِّعَةِ، ﴿فِي مَا هُنَّآ﴾: فِي الَّذِي اسْتَقَرَّ فِي هَذَا الْمَكَانِ مِنَ النَّعِيمِ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، وَهَذَا - أَيْضاً - إِجْمَالٌ ثُمَّ تَفْصِيلٌ. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿وَنَخْلٍ﴾ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾، وَالْجَنَّةُ تَتَنَاوَلُ النَّخْلَ أَوَّلَ شَيْءٍ كَمَا يَتَنَاوَلُ النَّعْمَ الْإِبِلَ كَذَلِكَ مِنْ بَيْنِ الْأَزْوَاجِ، حَتَّى أَنْهَمَ لِيَذْكُرُوا الْجَنَّةَ وَلَا يَقْصِدُونَ إِلَّا النَّخِيلَ؛ كَمَا يَذْكُرُونَ النَّعْمَ وَلَا يُرِيدُونَ إِلَّا الْإِبِلَ، قَالَ زُهَيْرُ:

..... تَسْقِي جَنَّةً سُحْقًا

قوله: (والذِّعَةُ)، الجوهرية: الذِّعَةُ: الْحَفْضُ، وَالْهَاءُ عَوَظٌ مِنَ الْوَاوِ، وَرَجُلٌ مُتَدَبِّعٌ، أَي: صَاحِبُ دَعَاةٍ وَرَاحَةٍ.

قوله: (وهذا - أيضاً - إجمالٌ ثم تفصيل)، يعني: كما أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَمْدَكُم بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مُجْمَلٌ، وَتَفْصِيلُهُ: ﴿أَمْدَكُم بِأَنْتَعِمُوا وَبَيْنَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وَارْدٌ عَلَى الْمَبَالِغَةِ فِي التَّنْبِيهِ عَلَى نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى، كَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فِي مَا هُنَّآ آمِنِينَ﴾ مُجْمَلٌ، وَتَفْصِيلُهُ: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هُنَّآ هَضِيمٌ﴾ وَارْدٌ عَلَى الْمَبَالِغَةِ فِي التَّنْبِيهِ عَلَى نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا ظَهَرَ أَنَّ الْوَجْهَ الثَّانِي، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ﴿أَتُنزَكُونَ﴾ تَذْكَيراً لِلنُّعْمَةِ وَالْهَمْزَةُ لِلتَّقْرِيرِ لَا الْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ أَوَّلِي، لِأَنَّهُ أَوْفَقٌ لِتَأْلِيفِ النَّظْمِ.

قوله: (يتناولُ النَّعْمَ الْإِبِلَ كَذَلِكَ)، أَي: يَتَنَاوَلُ النَّعْمَ أَوَّلَ شَيْءٍ مِنَ الْإِبِلِ مِنْ بَيْنِ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْأَنْعَامِ، هَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْعُرْفِ وَالْأَمْكِنَةِ، وَقَوْمٌ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا أَعْرَابًا، وَأَكْثَرُ بَسَاتِينِهِمْ نَخِيلٌ وَأَعْظَمُ أَمْوَالِهِمْ إِبِلٌ.

قوله: (تَسْقِي جَنَّةً سُحْقًا)، أَوْلُهُ:

قلت: فيه وجهان: أن يُحَصَّ النَّخْلُ بِإِفْرَادِهِ بعد دُخُولِهِ فِي جُمْلَةِ سَائِرِ الشَّجَرِ؛ تَنْبِيْهًا عَلَى انْفِرَادِهِ عَنْهَا بِفَضْلِهِ عَلَيْهَا، وَأَنْ يَرِيدَ بِالْجَنَّاتِ: غَيْرَهَا مِنَ الشَّجَرِ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ يَصْلُحُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَعْطَفَ عَلَيْهَا النَّخْلَ. الطَّلَعَةُ: هِيَ الَّتِي تَطْلُعُ مِنَ النَّخْلَةِ كَنَصْلِ السَّيْفِ فِي جَوْفِهِ شِمَارِيخُ الْقِنُو. وَالْقِنُو: اسْمٌ لِلخَارِجِ مِنَ الْجَذَعِ كَمَا هُوَ بَعْرُجُونُهُ وَشِمَارِيخُهُ. وَالْهَضِيمُ: اللَّطِيفُ الضَّامِرُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: كَشَّخَ هَضِيمًا، وَطَلَعَ إِنْاثِ النَّخْلِ

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرَبِي مُقْتَلَةٌ مِنْ التَّوَاضِحِ (١)

غَرَبِي: دَلْوِي، مُقْتَلَةٌ، أَي: نَاقَةٌ مُدَلَّلَةٌ، نَخْلَةٌ سَحُوقٌ: بَعِيدَةٌ الطُّولِ فِي السَّمَاءِ.

قَوْلُهُ: (لِأَنَّ اللَّفْظَ يَصْلُحُ لِذَلِكَ)، لِأَنَّ ﴿جَنَّتِ﴾ مُطْلَقٌ يَصْلُحُ لِلْكُلِّ وَلِلْبَعْضِ، وَقَرِينَةٌ لِإِرَادَةِ الْبَعْضِ: عَطْفُ ﴿وَتَخَلَّى﴾ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (الطَّلَعَةُ: هِيَ الَّتِي تَطْلُعُ مِنَ النَّخْلَةِ)، الْمَغْرِبُ: الطَّلَعُ: مَا يَطْلُعُ مِنَ النَّخْلَةِ، وَهُوَ الْكُمُّ قَبْلَ أَنْ يَنْشَقَّ، وَيُقَالُ لِمَا يَبْدُو مِنَ الْكُمِّ: طَلَعٌ أَيْضًا، وَهُوَ شَيْءٌ أَيْضٌ يُشْبِهُ بِلُونَهُ الْأَسْنَانَ، وَبِرَائِحَتِهِ الْمَيِّ (٢).

قَوْلُهُ: (شِمَارِيخُ)، النَّهْيَاةُ: الْعِشْكَالُ: الْعِذْقُ، وَكُلُّ غَضَنِ مِنْ أَغْصَانِهِ شِمَارِيخٌ، وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْبُسْرُ، وَالْمَرْجُونُ: الْعُودُ الْأَصْفَرُ الَّذِي فِيهِ شِمَارِيخُ الْعِذْقِ، وَهُوَ فُعْلُونَ مِنَ الْإِنْعِرَاجِ، وَهُوَ الْإِنْعِطَافُ، وَالْوَاوُ وَالنُّونُ زَائِدَتَانِ.

الْمَغْرِبُ: الْعِذْقُ، بِالْفَتْحِ: النَّخْلَةُ، وَبِالْكَسْرِ: الْكِبَاسَةُ، وَهِيَ عُتُقُودُ الثَّمَرِ.

قَوْلُهُ: (وَالْهَضِيمُ: اللَّطِيفُ الضَّامِرُ)، الرَّاعِبُ: الْهَضِيمُ: شَدَخٌ مَا فِيهِ رَخَاوَةٌ، يُقَالُ: هَضَمْتُهُ فَانْهَضَمَ، وَذَلِكَ كَالْقَصَبَةِ الْمَهْضُومَةِ الَّتِي يُزَمَّرُ بِهَا، وَبِزِمَارٍ مُهْضَمٍ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَخَلَّى طَلْعُهَا هَضِيمًا﴾ أَي: دَاخِلٌ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ، كَأَنَّهَا شُدِخَ، وَالْهَاضُومُ: مَا يَهْضُمُ الطَّعَامَ وَيَطْنُ هَضُومًا، وَكَشَّخَ مَهْضَمًا، وَامْرَأَةٌ هَضِيمَةٌ الْكَشْحِينُ (٣).

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في «ديوانه» ص ٤١.

(٢) «المغرب في ترتيب المغرب» (٢: ٢٤).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٨٤٢.

فيه لُطف، وفي طلع الفَحاحيل جَفَاء، وكذلك طَلَعَ البَرْنِيُّ اللُّطْفُ مِنَ طَلَعِ اللُّونِ، فذَكَرَهُم نِعْمَةً اللهُ فِي أَنْ وَهَبَ لَهُمْ أَجْوَدَ النَّخْلِ وَأَنْفَعَهُ؛ لِأَنَّ الإِنَاثَ وَوَادَةَ التَّمْرِ، وَالبَرْنِيُّ: أَجْوَدُ التَّمْرِ وَأَطْيَبُهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ أَنْ نَخِيلَهُمْ أَصَابَتِ جَوْدَةَ المُنَابِتِ وَسَعَةَ المَاءِ، وَسَلِمَتْ مِنَ العَاهَاتِ، فَحَمَلَتِ الحِمْلَ الكَثِيرَ، وَإِذَا كَثُرَ الحِمْلُ هَضُمَ، وَإِذَا قَلَّ جَاءَ فَاحِراً. وَقِيلَ: الهَضِيمُ: اللِّينُ النَّضِيجُ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَنَخَلَ قَدْ أَرَطَبَ ثَمْرَهُ. قرأ الحسن: (وَتَنَحْتُونَ) بفتح الحاء. وقرئ: (فَرِهَيْنَ)، و: ﴿فَرِهَيْنَ﴾. والفَراهة: الكَيْسُ والنَّشَاطُ، وَمِنْهُ: خَيْلٌ فُرْهَةٌ. اسْتَعِيرَ لِامْتِثَالِ الأَمْرِ وَارْتِسَامِهِ طَاعَةَ الأَمْرِ

قوله: (الفَحاحيل)، المُغْرِبُ: الفُحَالُ: واحِدُ فَحاحيلِ النَّخْلِ خَاصَّةً، وَهُوَ: مَا يُلْقَحُ بِهِ مِنْ ذَكَرِ النَّخْلِ، وَالفَحْلُ عَامٌّ فِيهَا وَفِي الحَيَوَانِ، وَجَمْعُهُ: فُحُولٌ وَفُحُولَةٌ^(١).

قوله: (مِنَ طَلَعِ اللُّونِ)، المُغْرِبُ: اللُّونُ: بفتح اللام: الرَّدِيُّ مِنَ التَّمْرِ، وَأَهْلُ المَدِينَةِ يُسَمُّونَ النَّخْلَ كُلَّهُ مَا خَلَا البَرْنِيُّ وَالعَجْوَةُ: الأَلْوَانُ، وَيُقَالُ لِلنَّخْلَةِ اللَّيْنَةُ: اللُّونَةُ، بِالكسْرِ وَالضَّمِّ^(٢).

قوله: (وَإِذَا قَلَّ جَاءَ فَاحِراً)، الجَوْهَرِيُّ: نَخْلَةٌ فَخُورٌ، أَي: عَظِيمَةٌ الجِذْعُ غَلِيظَةٌ السَّعْفُ. الأَسَاسُ: رُطْبٌ فَاحِرٌ: كَبِيرٌ ضَخْمٌ، وَتَقُولُ: إِذَا قَلَّ التَّمْرُ جَاءَ فَاحِراً.

قوله: (وَقَرِيءُ: «فَرِهَيْنَ»)، الكَوْفِيُّونَ وَابْنُ عَامِرٍ: ﴿فَرِهَيْنَ﴾ بِالْأَلْفِ. وَالباقونَ: بِغَيْرِ الأَلْفِ^(٣).

قوله: (اسْتَعِيرَ لِامْتِثَالِ الأَمْرِ وَارْتِسَامِهِ طَاعَةَ الأَمْرِ)، يَعْنِي: عُدِلَ عَنِ أَنْ يُقَالَ: وَلَا تَمَثَّلُوا أَمْرَ المُسْرِفِينَ، إِلَى قَوْلِهِ: لَا تُطِيعُوا أَمْرَ المُسْرِفِينَ، وَالفَرْقُ أَنَّ الطَّاعَةَ إِنَّمَا تَكُونُ

(١) «المغرب في ترتيب المعرب» (٢: ١٢٥).

(٢) المصدر السابق (٢: ٢٥٢).

(٣) فمن قرأ بغير ألف فعل معنى الأشير والبطر، ومن قرأها بالألف فعل معنى الحذق والنشاط. انظر:

«حجة القراءات»، ص ٥١٩.

المطاع. أو جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكمي، والمراد الأمر، ومنه قولهم: لك عليّ امرأة مطاعة، وقوله تعالى: ﴿وَاطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]. فإن قلت: ما فائدة قوله: ﴿وَلَا يُضِلُّوْنَ﴾؟ قلت: فائدته: أنّ فسادهم فسادٌ مُصمّت ليس معه شيءٌ من الصّلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصّلاح.

[﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِنَايِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ

الصّٰدِقِينَ﴾ ١٥٣-١٥٤]

للأمر لا للأمر كما أنّ الامتثال يكون للأمر لا للأمر، يقال: أمر زيداً فأطاعه، ويقال: أمره فامتثل أمره. المغرب: امتثل أمره: احتذاه وعمل على مثاله، وقوله: من عادة محمد بن الحسن رحمه الله في تصانيفه أن يُمثّل بكتاب الله تعالى، فكأنه ظنّ أنه بمعنى «يقندي»، فعذاه تعديته^(١).

قوله: «وارتسامه»، الجوهرى: رَسَمْتُ لَهُ كَذَا فَارْتَسَمَهُ، أي: امثله.

قوله: (على المجاز الحكمي)، أي: الإسناد المجازي، قال صاحب «المفتاح»: إنّها سُمِّيَ حُكْمِيًّا لِتَعَلُّقِهِ بِالْحُكْمِ^(٢).

قوله: (لك عليّ امرأة مطاعة)، الجوهرى: معناه: لك عليّ امرأة أُطِيعَكَ فيها، وهي الممرّة الواحدة من الأمر، ولا تقل: إمرة بالكسر، إنّها الإمرة من الولاية.

قوله: (فسادٌ مُصمّت)، المغرب: بابٌ مُصمّتٌ: مُغلقٌ، وحقيقة المُصمّت: ما لا جوفَ له، وحائطٌ مُصمّت: لا فُرْجَةَ فيه^(٣). والتركيب من باب الطرد والعكس، وفائدته التوكيد والمبالغة كما سيجيء في الروم.

(١) «المغرب في ترتيب المعرب» (٢: ٢٥٨).

(٢) «مفتاح العلوم» ص ٧٣.

(٣) «المغرب في ترتيب المعرب» (١: ٤٨١).

المُسْحَرُ: الذي سُحِرَ كثيراً حتى غلب على عقله. وقيل: هو من السَّحَر: الرِّثَّة، وأنه بَشَر.

[قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٥-١٥٦﴾]

الشُّرب: النَّصِيبُ من الماء، نحو السَّقْيِ والقَيْت؛ للحظِّ من السَّقْيِ والقُوت. وُقِرَّيٌّ بالضمِّ. رُوي: أنهم قالوا: تُريد ناقةً عَشْرًا تَخْرُجُ من هذه الصَّخْرَةِ، فَنَلِدُ سَقْبًا. فقعد صالحٌ يتفكَّر، فقال له جبريلُ: صلِّ ركعتينِ وسلِّ ربَّكَ الناقة، ففعل، فخرجتِ الناقة وبسركت بين أيديهم، وتنجت سقبا مثلها في العظم. وعن أبي موسى: رأيت مصدرها فإذا هو ستون ذراعاً. وعن قتادة: إذا كان يومُ شربها شربت ماءهم كلَّه، ولهم شرب يوم لا تشرب فيه الماء. ﴿يسوء﴾: بضرب أو عقير أو غير ذلك. عظم اليوم؛ لخلول العذاب فيه،

قوله: (من السَّحَر: الرِّثَّة)، الجوهري: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ يقال: المُسْحَرُ: الذي حُلِقَ ذَا سَحَر^(١).

قوله: (وأنه بَشَرٌ)، عطف - من حيث التفسير - على قوله: «من السَّحَر: الرِّثَّة»، وفي كلامه إشعاراً بأن قولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ كناية عن كونه بشراً؛ لأن قولهم: هو ذو سحر: كناية عن الحيوان، وجمعه بالواو والنون يُخَصُّه بالبشر، وقيل: هو خبرٌ بعد خبر لقوله: «هو».

قوله: (نحو السَّقْيِ)، الراغب: يقالُ للنَّصِيبِ من السَّقْيِ: سَقْيٌ، وللأرضِ التي تُسَقَّى: سَقْيٌ، لكونها مفعولين كالتنقض^(٢).

قوله: (وتنجت سقبا)، الجوهري: السَّقْبُ: الذَّكَرُ من ولدِ الناقة، ولا يقالُ للأنثى: سَقْبَةٌ، ولكن: حائل.

(١) في (ط): «ذارئة».

(٢) «مفردات القرآن» ص ٤١٦.

ووصفُ اليومِ به أبلغُ من وصفِ العذابِ؛ لأنَّ الوقتَ إذا عظم بسببِهِ كانَ موقعُهُ من العِظَمِ أشدَّ.

[﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٥٧-١٥٩]

وروي: أن مسطعاً ألقاها إلى مضيق في شعب، فرماها بسهم فأصاب رجلها فسقطت، ثم ضربها قدار. وروي: أن عاقرها قال: لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين، فكانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أترضين؟ فتقول: نعم، وكذلك صبياتهم. فإن قلت: لم أخذهم العذاب وقد ندموا؟ قلت: لم يكن ندمهم ندم تائبين، ولكن ندم خائفين أن يعاقبوا على العقير عقاباً عاجلاً، كمن يرى في بعض الأمور رأياً فاسداً ويبنى عليه، ثم يندم ويتحسر كندامة الكسعي. أو: ندموا ندم تائبين

قوله: (ووصفُ اليومِ به أبلغُ)، لأنه حينئذٍ من باب الكناية.

قوله: (ويتحسر كندامة الكسعي)، أي: كتحسر الكسعي عند الندامة. قال الميداني: هو رجل من كسعة، واسمه محارب بن قيس، أنه كان يرعى إبلاً له بوادٍ مغشيب، فبصر نبعة^(١) في صخرة، فأعجبته، فجعل يتعهدّها، حتى إذا أدركت قطعها واتخذ منها قوساً وخسة أسهم، ثم خرج حتى أتى موارد حُمير^(٢) فكمن فيها، فمرّ قطع فرمى غيراً منها فأنفذ فيه وجازه، وأصاب الجبل فأورى ناراً، فظن أنه أخطأه، هكذا خمس مرات، ثم عمد إلى قوسه فصرّب بها حجراً فكسرها، فلما أصبح نظراً إلى الحُمير مطرحةً حوله، وأسهمه بالدم مضرّجةً، فنديم على كسر القوس، فشدّ على إبهامه فقطعها، وأنشأ يقول:

ندمتُ ندامةً لو أنّ نفسي تطاوعني إذنٌ لقطعْتُ حمسي
تبين لي سفاهة الرأي مني لعمرُ أبيك حين كسرتُ قوسي

(١) وهي الشجرة التي يتخذ من أغصانها السهام.

(٢) يعني حُمير الوحش.

ولكن في غير وقت التوبة؛ وذلك عند مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ. وقال عز وجل: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [النساء: ١٨]. وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد. وهو بعيد. واللام في ﴿العذاب﴾: إشارة إلى ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦].

[﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ﴾ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْفِقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَانْقَرُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا * بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ * ١٦٠ - [١٦٦]

أراد بـ ﴿الْعَالَمِينَ﴾: الناس، أي: أتأتون من بين أولاد آدم - على فرط كثرتهم، وتفاوت أجناسهم، وغلبة إناثهم على ذكورهم في الكثرة - ذكراهم كأن الإناث قد أعوزنكم؟! أو: أتأتون أنتم من بين من عداكم من العالمين الذكران! يعني: إنكم -

وقال الفرزدق:

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسَعِيِّ لَمَّا غَدَتُ مِنِّي مُطْلَقَةً نَوَارًا^(١)

وقال آخر:

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسَعِيِّ لَمَّا رَأَتْ عَيْنَاهُ مَا فَعَلْتُ يَدَاهُ^(٢)

قوله: (ولكن في غير وقت التوبة، وذلك عند مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ)، فعلى هذا: الفاء في ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ فصيحة، أي: فَعَقَرُوهَا فَرَأُوا الْعَذَابَ فَنَدِمُوا فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ.

قوله: (ذُكْرَانِهِمْ)، نصبٌ مفعولٌ «أتأتون».

قوله: (قد أعوزنكم)، أعوزهُ الشيءُ: إذا احتاج إليه فلم يقدر عليه.

(١) «مجمع الأمثال» (٢: ٣٤٨).

(٢) البيت لمحارب بن قيس كما في «لسان العرب» (كسع).

يا قوم لوط - وحدكم مختصون بهذه الفاحشة. والعالمون على هذا القول: كل ما ينكح من الحيوان. ﴿مَنْ أَرْوَجِكُمْ﴾ يصلح أن يكون تبييناً لـ ﴿مَا خَلَقَ﴾، وأن يكون للتبعض، ويُراد بـ ﴿مَا خَلَقَ﴾: العَضُو المَبَاحِ منهم. وفي قراءة ابن مسعود: (ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم)، وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم. العادي: المتعدّي في ظلّمه، المتجاوز في الحدّ، ومعناه: أترتّبون هذه المعصية على عظيمها؟! ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ في جميع المعاصي، فهذا من جملة ذلك. أو: بل أنتم قوم أحقّاء بأن تُوصّفوا بالعدوان؛ حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة.

قوله: (وَالْعَالَمُونَ عَلَى هَذَا [القول]: كل ما ينكح)، أي: الناكح، وعلى الأول: مراده المنكوح، فيختصّ بالعقلاء؛ يقال: فلان ناكح بني فلان، أي: ذات الزوج منهم، ونكحها زوجها، وطبها، والنكاح في الوطء حقيقة، وفي التزوّج مجاز^(١)، ثم إن العالم إمّا: اسم لذوي العلم، فهو المعنى بقوله: «من عداكم من العالمين»، أو: لكل ما علم به الخالق، فهو المعنى به بهذا التفسير، فاختصّ الأول بالناس، لقرينة ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ﴾، والثاني بالحيوان لتلك القرينة، فـ «من» - على الأول - بيان للذكوران، وعلى الثاني: بيان للضمير في ﴿أَتَأْتُونَ﴾، وعلى الأول يجوز أن يكون تبعضاً، ذكر في الأعراف في قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] أنّها تبعض^(٢).

قوله: (وَأَنْ يَكُونَ لِلتَّبْعِيضِ، وَيُرَادُ بِـ ﴿مَا خَلَقَ﴾: العَضُو المَبَاحِ)، فـ «من»: منصوب؛ بدل من: ﴿مَا خَلَقَ﴾. المعنى: أجمعون بين إثبات الذكوران، وترك ما أصلح لكم ربكم من العَضُو المَبَاحِ في النساء؟ ويؤيدّه قراءة ابن مسعود.

قوله: (أو: بل أنتم قوم أحقّاء بأن تُوصّفوا بالعدوان)، هذا مبني على أن ﴿عَادُونَ﴾ مُطلَقٌ، ولا يُقال في أيّ شيء كان عداوتهم، وعلى الأول مجرّى على العموم في جميع ما يصحّ فيه العدوان من المعاصي.

(١) من بداية هذه الفقرة إلى هنا، سقط من (ط).

(٢) انظر: «الكشاف» (٦: ٤٥٨).

[﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ بِئَلْوِطْلِكَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ ١٦٧]

﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ﴾ عن تَهْنِئتنا وتقبیح أمرنا ﴿لَتَكُونَنَّ﴾ من جُمْلَةٍ مَن أَخْرَجْنَاهُ مِن بَيْنِ أَظْهَرِنَا وَطَرَدْنَاهُ مِن بَلَدِنَا. وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا يُخْرِجُونَ مَن أَخْرَجُوهُ عَلَى أَسْوَأِ حَالٍ: مِن تَعْنِيفِ بِهِ، وَاحْتِبَاسِ لِأَمْلَاكِهِ. وَكَمَا يَكُونُ حَالُ الظَّلْمَةِ إِذَا أَجْلَوْا بَعْضَ مَن يَغْضَبُونَ عَلَيْهِ، وَكَمَا كَانَ يَفْعَلُ أَهْلُ مَكَّةَ بِمَن يُرِيدُ المَهَاجِرَةَ.

[﴿قَالَ إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِّنَ الْفَالِقِينَ﴾ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَجَنِّتَهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِينَ * ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٦٨ - ١٧٥]

و﴿مِنَ الْفَالِقِينَ﴾ أبلغ من أن يقول: إِنِّي لَعَمَلِكُمْ قَالٍ، كما تقول: فلان من العلماء، فيكون أبلغ من قولك: فلان عالم؛ لأنك تشهد له بكونه معدوداً في زمرتهم، ومعروفة مساهمته لهم في العلم. ويجوز أن يريد: من الكاملين في قلاكم. والقلبي: البغض الشديد،

قوله: (و﴿مِنَ الْفَالِقِينَ﴾ أبلغ من أن يقول: إِنِّي لَعَمَلِكُمْ قَالٍ)، الانتصاف: كثيراً ما ورد في القرآن خصوصاً في هذه السورة من التعبير عن الفعل إلى الصفة المشتقة، وجعل الموصوف واحداً من جمع؛ لأن التعبير بالفعل يفهم وقوعه خاصة، وأما بالصفة وجعل الموصوف واحداً من جمع، فيفهم أمراً زائداً، وهو جعل ذلك سمة للموصوف ثابتة التعلق كاللقب المشهور، ولو قلت - مكان قوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧]-: رَضُوا بِأَن يَتَخَلَّفُوا، لم يزد على الإخبار بتخلفهم، والمثلوا مع الخوالف ﴿أَلْحَنَّهُمْ لَقَبًا رَدِيئًا وَصَيَّرَهُمْ نَوْعًا رَّذَلًا﴾. تَمَّ كَلَامُهُ (١).

قوله: (ويجوز أن يريد: من الكاملين)، عطف على قوله: «كما تقول: فلان من العلماء»، ومن حيث المعنى اللام: للعهد، وعلى الثاني: للجنس، وأريد: قوم مشهورون؛ لأن الجنس إذا أطلق على بعضه في مقام المدح جمل على الكمال. قال أبو البقاء: تقديره: إِنِّي لَعَمَلِكُمْ

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٣٠).

كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد. وفي هذا دليل على عظم المعصية، والمراد: القلي من حيث الدين والتقوى، وقد تقوى همّة الدين في دين الله حتى تقرب كراهته للمعاصي من الكراهة الجبليّة. ﴿مَتَّاعِمُلُونَ﴾ من عقوبة عملهم، وهو الظاهر. ويحتمل أن يريد

لِقَالِ مَنْ الْقَالِينَ؛ فـ«من»: صفة للخبر متعلّقة بمحذوف، واللام متعلّقة بالخبر المحذوف، وبهذا تخلص من تقديم الصلّة على الموصول، إذ لو جعلت ﴿مَنْ الْقَالِينَ﴾ الخبر لأعملته في ﴿لِعَمَلِكُمْ﴾^(١).

قوله: (من عقوبة عملهم، وهو الظاهر)، وذلك من وجهين، أحدهما: أن استعمال النجاة في الخلاص من العقوبة أظهر من استعماله في العصمة عن الذنوب، وثانيهما: دلالة الدعاء بعد قولهم: ﴿لَيْنَ لَمَّا تَنَتَّهِ يَلُوطُ﴾ إلى آخره، على أنه عليه السلام حصل على بأس عظيم من إيمان القوم فأذن بأن الإنذار لم يسجد فيهم فلم يبق إلا حلول العذاب.

ولا بد من تحرير هذا المقام والنظر فيه بحسب تأدية الألفاظ للمعاني الواقعة، والواقع أن القوم هلكوا بعدايتين: التدمير، وإمطار الحجارة، كما قال: «المراد بتدميرهم: الاتفالك»، وأما الأمطار، فعن قتادة: أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة، ويُدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٢٨٢]، فإذا لا بد من بيان إفادة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ وإفادة «ثم» في ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ﴾، «وَأَمْطَرْنَا»، فإذا قلنا: إن «ثم» عطفت «دَمَرْنَا» على «فَنَجَّيْنَاهُ» يلزم أن يكون العذاب ثلاثة، فلا بد من تأويل «فَنَجَّيْنَاهُ» إما بمعنى الاستجابة، أي: استجابة التنجية لم تتخلف عن الدعاء، أو تقدير الإرادة حتى يصحّ العطف، وفي قول المصنّف إشعاراً بأن قوله: وَنَجَّيْنَاهُ المراد منه: التنجية من العذاب الكائن قبل التدمير والإمطار لقوله: «لم يكن العبور صفتها»^(٢) وقت تنجيتهم، والمعنى على التأويل الصحيح: قال لوط: ربّ نجني وأهلي مما يعملون، فاستجبنا دعاءه في تنجيتهم وأهله إلا عجوزاً قدرنا عبورها، ثم دمَرنا الآخرين وأمطرنا عليهم.

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٠٠).

(٢) يعني امرأة لوط عليه السلام.

بالتَّنَجِيَةِ: العِصْمَةُ. فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا﴾؟
 قُلْتَ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُ عَصَمَهُ وَأَهْلَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْعَجُوزَ، فَإِنَّمَا كَانَتْ غَيْرَ مَعْصُومَةٍ مِنْهُ؛
 لَكُونَهَا رَاضِيَةً بِهِ وَمُعِينَةً عَلَيْهِ وَمُحَرِّشَةً، وَالرَّاضِي بِالْمَعْصِيَةِ فِي حُكْمِ الْعَاصِي. فَإِنْ
 قُلْتَ: كَانَ أَهْلُهُ مُؤْمِنِينَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا طَلَبَ لَهُمُ النِّجَاةَ، فَكَيْفَ اسْتُنشِيتِ الْكَافِرَةَ
 مِنْهُمْ؟ قُلْتَ: الْاسْتِنَاءُ إِنَّمَا وَقَعَ مِنَ الْأَهْلِ، وَفِي هَذَا الْأَسْمِ لَهَا مَعَهُمْ شِرْكَةٌ بِحَقِّ
 الزَّوْجِ وَإِنْ لَمْ تُشَارِكْهُمْ فِي الْإِيْمَانِ. فَإِنْ قُلْتَ: ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾ صِفَةٌ لَهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِلَّا
 عَجُوزًا غَابِرَةً، وَلَمْ يَكُنِ الْغُبُورُ صِفَتَهَا وَقَدْ تَنَجَّيْتَهُمْ. قُلْتَ: مَعْنَاهُ: إِلَّا عَجُوزًا مُقَدَّرًا
 غُبُورَهَا. وَمَعْنَى ﴿الْغَابِرِينَ﴾: فِي الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ غَيْرِ النَّاجِينَ. قِيلَ: إِنَّمَا هَلَكْتَ مَعَ
 مَنْ خَرَجَ مِنَ الْقَرْيَةِ بِمَا أَمْطَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحِجَارَةِ. وَالْمُرَادُ بِتَدْمِيرِهِمْ: الْإِتِّفَاكُ بِهِمْ،
 وَأَمَّا الْإِمطَارُ: فَعَنْ قِتَادَةَ: أَمْطَرَ اللَّهُ عَلَى سُذَّازِ الْقَوْمِ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ فَأَهْلَكَهُمْ.
 وَعَنْ ابْنِ زَيْدٍ: لَمْ يَرْضَ بِالْإِتِّفَاكِ حَتَّى أَتْبَعَهُ مَطْرًا مِنْ حِجَارَةٍ. وَفَاعِلُ «سَاءَ مَطَرٌ»
 الْمُنْدَرِينُ - وَلَمْ يُرَدِّ بِالْمُنْدَرِينَ قَوْمًا بِأَعْيَانِهِمْ - إِنَّمَا هُوَ لِلْجِنْسِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ
 مَحذُوفٌ؛ وَهُوَ مَطَرُهُمْ.

قَوْلُهُ: (قِيلَ: إِنَّمَا هَلَكْتَ)، قِيلَ: هُوَ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ: «أَنَّ مَعْنَى الْغَابِرِينَ هُوَ: غَيْرُ النَّاجِينَ؛
 لِأَنَّهَا هَلَكْتَ بِهَا وَقَعْتَ عَلَيْهَا مِنَ الْحِجَارَةِ مَعَ قَوْمِهَا الْخَارِجِينَ مِنْ تِلْكَ الْبَلَدَةِ، وَهُوَ الْمُرَادُ
 بِكُونِهَا فِي الْغَابِرِينَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي الْبَلَدَةِ الْمُوَبَّقَةِ الْمُتَقَلِّبَةِ عَلَى أَهْلِهَا.
 قَوْلُهُ: (الْإِتِّفَاكُ بِهِمْ)، أَفْكَهَ عَنِ الشَّيْءِ يَأْفِكُهُ إِفْكَاءً: صَرَفَهُ، وَاتَّفَكَتِ الْبِلَادُ بِأَهْلِهَا:
 هَلَكَتْ.

قَوْلُهُ: (سُذَّازِ الْقَوْمِ)، وَهُمُ الَّذِينَ يَكُونُونَ فِي الْقَوْمِ وَلَيْسُوا مِنْ قَبِيلَتِهِمْ».

قَوْلُهُ: (إِنَّمَا هُوَ لِلْجِنْسِ)، قِيلَ: لِأَنَّ فَاعِلَ «سَاءَ» وَ«بِئْسَ» وَ«نِعْمَ» مَشْرُوطٌ بِأَنْ يَكُونَ
 جِنْسًا أَوْ مِزَاجًا إِلَى جِنْسٍ؛ لِيَكُونَ الْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ تَفْسِيرًا لَهُ، فَيَحْصُلُ فِي الْكَلَامِ إِهْمَامٌ
 وَتَفْسِيرٌ، فَيَتِمُّكُنْ فِي الذَّهْنِ فَضْلٌ تَمَكُّنٌ، وَيَحْصُلُ بِهِ مَزِيدٌ مَدْحٌ أَوْ ذَمٌّ^(١).

(١) لِتِهَامِ الْفَائِدَةِ انظر: «الإيضاح في شرح المُفَصَّل» (٢: ٩٧).

[﴿كَذَّبَ أَحْصَبُ لَيْكَةَ الْمُرْسَلِينَ﴾ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٧٦-١٨٠]

قُرئ: ﴿أَحْصَبُ لَيْكَةَ﴾ بالهمزة وتخفيفها، وبالجرّ على الإضافة، وهو الوجه. ومن قرأ بالنصب وزعم أن (لَيْكَةَ) - بوزن «لَيْلَةَ» - اسم بلد؛ فتوهم قاد إليه خطأ المصحف؛ حيث وُجِدَتْ مكتوبةً في هذه السورة وفي سورة صاد بغير ألف. وفي

قوله: (قُرئ: ﴿أَحْصَبُ لَيْكَةَ﴾ بالهمزة وتخفيفها)، الحرّميان وابنُ عامر: «أصحاب لَيْكَةَ» بلام مفتوحة من غير همزة بعدها ولا ألف قبلها وفتح التاء، والباقون: بالألف واللام مع الهمزة وحُفْضِ التاء وتخفيفها، وبالجرّ على الإضافة: شاذة^(١).

قوله: (ومن قرأ بالنصب وزعم أن «لَيْكَةَ» - بوزن «لَيْلَةَ» - اسم بلد؛ فتوهم)، قال في «الكواشي»: هذا تحكّم ظاهر، ولعله كان مع آدم عليه السلام حين علّم آدم الأسماء كلها وضبطها إلى وقت دعواؤه.

وقلت: روى الإمام محمد بن إسماعيل البخاري في «صحيحه»: الأيكة وليكة: الغيضة^(٢).

وقال الزجاج: ويجوز - وهو حسن جداً - «لَيْكَةَ» بغير ألف على الكسر، على أن الأصل: الأيكة، وألقيت الهمزة فقليل: لَيْكَةَ، وأهل المدينة يفتحون - على ما جاء في «التفسير»^(٣) - اسم المدينة التي كان أرسل إليهم شعيب عليه السلام. وكان أبو عبيد القاسم بن سلام يختار هذه القراءة، لأن «لَيْكَةَ» لا تنصرف، وذكر أنه اختارها لموافقة الكتاب مع ما جاء في التفسير^(٤): كان المدينة تُسمى لَيْكَةَ، وتُسمى الغيضة التي تُضَمُّ هذا الشجر^(٥).

(١) انظر: حجة القراءات ص ٥١٩.

(٢) انظر: «صحيح البخاري» كتاب التفسير، سورة الشعراء قبل الحديث (٤٧٦٨)، وليس فيه لفظ: «الغيضة».

(٣) في (ح) و(ف): «التقسيم».

(٤) من قوله: «اسم المدينة» إلى هنا، سقط من (ط).

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ٩٨).

المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه، وإنما كتبت في هاتين السورتين على حكم لفظ اللفظ، كما يكتب أصحاب النحو: «لان» و«لولى»، على هذه الصورة؛ لبيان لفظ المخفف، وقد كتبت في سائر القرآن على الأصل، والقصة واحدة، على أن (ليكة) اسم لا يعرف. وروى: أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر مُلتف، وكان شجرهم الدوم. فإن قلت: هلا قيل: أخوهم شعيب، كما في سائر المواضع؟ قلت: قالوا: إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة. وفي الحديث: أن شعيباً أخوا مدّين، أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة.

[﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجْلَةَ الْأُولَى﴾ ١٨١ - ١٨٤]

الكيل على ثلاثة أضرب: واف، وطيف، وزائد. فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء، ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف، ولم يذكر الزائد، وكأن تركه عن الأمر والنهي دليل على أنه إن فعله فقد أحسن، وإن لم يفعله فلا عليه. قرئ: (بالقسطاس)

قوله: (كما يكتب أصحاب النحو: «لان» و«لولى»)، على هذه الصورة لبيان لفظ المخفف)، قال الزجاج: الأولى بسكون اللام وإثبات همزة أجود اللغات، وبعدها «لولى» بضم اللام وطرح همزة، والقياس: إذا تحركت اللام أن يسقط ألف الوصل؛ لأن ألف الوصل إنما اجتلبت لسكون اللام، وقد قرئ: «عاد اللولى»^(١) على هذه اللغة^(٢)، فعلى هذا «لان» أصله: الآن، فألقت حركة همزة الثانية على لام التعريف حين خُففت، وحذفت همزتها فصار: لان، ذكر في كتاب «خط المصحف» أن في مصحف عبد الله وأبي: «لولى» بلا همزة. قوله: (الدوم)، الجوهرى: هو شجرة المقل.

(١) يعني قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠].

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٥: ٧٧) ولتتام الفائدة انظر: «حجة القراءات» ص ٦٨٧.

مضموماً ومكسوراً؛ وهو الميزان، وقيل: القَرَسْطُون، فإن كان من القِسط؛ وهو العَدْلُ وجُعِلَتِ العَيْنُ مُكْرَّرَةً: فَوَزَنَهُ فُعْلَاسٌ، وإلا فهو رُبَاعِيٌّ. وقيل: هو بالرُّومِية العَدْلُ. يقال: بَخَسْتُهُ حَقَّهُ؛ إذا نَقَصْتَهُ إِيَّاهُ. ومنه قِيلَ لِلْمَكْسِ: البَخْسُ، وهو عَامٌّ فِي كُلِّ حَقٍّ ثَبِتَ لِأَحَدٍ أَنْ لَا يُهَيِّضَ، وَفِي كُلِّ مَلِكٍ

قوله: (وقيل: القَرَسْطُون)، قيل: القرسطون: القَبَانُ الصَّغِيرُ، وَهُوَ لُغَةٌ رُومِيَّةٌ^(١).

قوله: (فَوَزَنَهُ: فُعْلَاسٌ)، قيل: فيه نظْرٌ، وَالصَّوَابُ أَنْ وَزَنَهُ: فُعْلَاعٌ؛ لِأَنَّ التَّكْرِيرَ يَقْتَضِي أَنْ يُوزَنَ بِمَا قَبْلَهُ. فَإِنْ قُلْتَ: فَعَلَّ ذَلِكَ لَعَدَمِ «فُعْلَاعٍ» كَمَا قِيلَ فِي بُطْنَانَ؟ قُلْتَ: ذَلِكَ لَوْجُودِ «فُعْلَانَ»، نَحْوِ عُثْمَانَ وَعُفْرَانَ، وَأَمَّا فُعْلَاسٌ فَلَمْ يُوْجَدْ أَصْلًا. وَأَيْضًا فَقَدْ تَنَكَّلْتُ هُنَا عَلَى فَرَضِ كَوْنِهِ مِنَ الْقِسْطِ وَتَكْرِيرِ الْعَيْنِ، فَعَلَى هَذَا يَجِبُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِمَا تَقَدَّمَ جَزْمًا.

فإن قيل: عدولُ المصنّف إلى أَنْ وَزَنَهُ «فُعْلَاسٌ» إشارةً إلى أَنَّهُ لَيْسَ هَذَا بِالْحَقِيقَةِ تَكْرِيرًا لِلْعَيْنِ، فَإِنَّ الْعَيْنَ لَا تُضَاعَفُ وَحَدَّهَا مَعَ تَخْلُلِ اللَّامِ؛ لِسَمَا يَلْزَمُ مِنَ الْفَصْلِ الْمَمْتَنِعِ عِنْدَهُمْ، وَلِذَلِكَ قَالُوا: لَا تُرَادُ الْفَاءُ وَحَدَّهَا مَطْلَقًا.

قُلْتَ: قَدْ صَرَّحَ بِتَكْرِيرِ الْعَيْنِ، فَكَيْفَ يُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ، فَهُوَ وَارِدٌ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَيْضًا، إِلَّا أَنْ يُقَالَ: فِي عِبَارَتِهِ تَسَاهُلٌ، عَلَى أَنَّ الْكُوفِيَّيْنَ يُجَوِّزُونَ مِثْلَ هَذِهِ الزِّيَادَةِ.

قوله: (وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ حَقٍّ ثَبِتَ لِأَحَدٍ)، فِيهِ الْكَلَامُ تَرَقَّى، ذَكَرَ أَوَّلًا الْأَمْرَ بِإِيْفَاءِ الْكَيْلِ، وَأَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ عَلَى الطَّرْدِ وَالْعَكْسِ، ثُمَّ تَرَقَّى إِلَى الْأَمْرِ بِالْعَدْلِ فِي الْمَوَازِينِ فَإِنَّهَا أَكْثَرُ اسْتِعْمَالًا مِنَ الْمِكَايِلِ، ثُمَّ جَاءَ بِهَذَا الْعَامِّ، ثُمَّ بِأَعْمَ مِنْهُ: ﴿وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، فَإِنَّ بَخْسَ الْأَشْيَاءِ أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْمِكَايِلِ أَوْ الْمِيزَانِ، وَالْعَتُوُّ أَعْمٌ مِنْ تَقْيِصِ الْحَقُوقِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْفُسَادِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «وَذَلِكَ نَحْوَ قَطْعِ الطَّرِيقِ وَالْغَارَةِ وَإِهْلَاكِ الزَّرْعِ».

(١) وذكره الجواليقي في «المعرب» ص ٢٧٥، أعني القبان، ولم يذكر القرسطون.

أَنْ لَا يُغْصَبَ عَلَيْهِ مَالُكَ وَلَا يُتَحَيَّفَ مِنْهُ، وَلَا يُتَصَرَّفَ فِيهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ تَصَرُّفًا شَرْعِيًّا. يقال: عَثِيَ فِي الْأَرْضِ وَعَثَى وَعَاثَ، وَذَلِكَ نَحْوُ: قَطَعَ الطَّرِيقَ، وَالغَارَةَ، وَاهْلَاكَ الزُّرُوعَ، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مَعَ تَوَلِّيهِمْ أَنْوَاعَ الْفُسَادِ، فَتُهُوا عَنْ ذَلِكَ. وَقُرِيَ: (الْجُبْلَةُ) بوزن الْأُبْلَةِ. و: (الْجِبْلَةُ) بوزن الْخِلْقَةِ، وَمَعْنَاهُنَّ وَاحِدٌ، أَيْ: ذَوِي الْجِبْلَةِ، وَهُوَ كَقَوْلِكَ: وَالخَلْقَ الْأَوَّلِينَ.

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

[١٨٥-١٨٦]

فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو هاهنا وتركيها في قصة ثمود؟ قلت: إذا دخلت الواو فقد قصد معنيين كلاهما مُنافٍ للرسالة عندهم: التَّسْحِيرُ والبَشَرِيَّةُ،

قوله: (أَنْ لَا يُغْصَبَ عَلَيْهِ مَالُكَ)، قَالَ نَوْرُ الدِّينِ الْحَكِيمُ: هَذَا الْاسْتِعْمَالُ غَيْرُ مُوَافِقٍ لِمَا ذَكَرَهُ فِي «الْمَفْصَلِ»^(١) فِي قَوْلِهِ: غَضِبْتُ عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ.

مَنْ «الصَّحَّاحُ». الْعَصْبُ: أَخَذَ الشَّيْءَ حُكْمًا ظَلَمًا، تَقُولُ: غَضِبْتُهُ مِنْهُ، وَغَضِبْتُهُ عَلَيْهِ. فَمَا فِي «الْمَفْصَلِ» هُوَ الصَّحِيحُ الْمُعْتَوَّلُ عَلَيْهِ، وَالْعُدْرُ فِي هَذَا الْاسْتِعْمَالِ أَنَّهُ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ لَا يَغْصَبَ مَالُكَ حَالَ كَوْنِهِ مُتَسَلِّطًا عَلَيْهِ شَرْعًا.

قوله (وَقُرِيَ: «الْجُبْلَةُ»)، قَالَ ابْنُ جَنِّي: وَهِيَ قِرَاءَةُ الْحَسَنِ بِخِلَافِ^(٢) وَأَبِي حُصَيْنٍ^(٣).

قوله: (الْأُبْلَةُ)، الْجَوْهَرِيُّ: الْأُبْلَةُ، بِالضَّمِّ وَتَشْدِيدِ اللَّامِ: الْفِدْرَةُ^(٤) مِنَ التَّمْرِ، أَيْ الْقِطْعَةُ، وَالْأُبْلَةُ: اسْمُ مَدِينَةٍ إِلَى جَنْبِ الْبَصْرَةِ.

قوله: (إِذَا دَخَلْتَ الْوَاوُ فَقَدْ قُصِدَ مَعْنَيَانِ)، إِلَى آخِرِهِ. فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا بَيَانُ خَاصِيَّةِ

(١) انظر: «المفصل» للزمخشري (٢: ٤٩).

(٢) يعني بخلاف في الرواية عنه.

(٣) «المحتسب» (٢: ١٣٢).

(٤) بالفاء والذال الساكنة، وهي القطعة من الشيء.

وَأَنَّ الرَّسُولَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسَحَّرًا، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَشَرًا، وَإِذَا تُرِكَتِ الْوَاوُ فَلَمْ يُقْصَدِ إِلَّا مَعْنَى وَاحِدٍ؛ وَهُوَ كَوْنُهُ مُسَحَّرًا، ثُمَّ قَرَّرَ بِكَوْنِهِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ. فَإِنْ قُلْتَ: «إِنْ» الْمُخَفَّفَةَ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَلَا مِثْلَهَا كَيْفَ تَفَرَّقَتَا عَلَى فِعْلِ الظَّنِّ وَثَانِي مَفْعُولِيهِ؟ قُلْتُ: أَصْلُهُمَا أَنْ يَتَفَرَّقَا عَلَى الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ، كَقَوْلِكَ: إِنْ زَيْدٌ لَمْ يُنْطَلِقْ، فَلَمَّا كَانَ الْبَابَانِ - أَعْنِي: بَابَ «كَانَ» وَبَابَ «ظَنَنْتَ» - مِنْ جِنْسِ بَابِ الْمَبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ، فَعَلَ ذَلِكَ فِي الْبَابَيْنِ، فَقِيلَ: إِنْ كَانَ زَيْدٌ لَمْ يُنْطَلِقْ، وَإِنْ ظَنَنْتَهُ لَمْ يُنْطَلِقْ.

التركيب، فما بيان الأبلغية واختصاص الواو بموضع دون موضع؟ قلت: التركيب بدون الواو في قصة ثمود يُفيد التوكيد والتقرير، والقطع بأنه بشرٌ مثلهم، أي: لا ينبغي أن نؤمن برسالاتك إلا بشيءٍ تمتاز به عنا؛ ولهذا قالوا: ﴿فَأَتِيَتْ بِهَا بَنَاتُهُنَّ بِسُرُورٍ وَأُنْصَفُوا بِهَا نَصْفًا وَاعْتَمَدُوا بِحَمْلَتِهَا أَهْلًا مُقْتَضِينَ﴾. والقوم أنصفوا في الطلب، ولهذا قال: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ لَكُمْ وَأَمَّا قَوْمٌ فَسُوءُوا الْبَيْتَ حَمَلًا﴾. وأما قومٌ سُعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِنَّهُمْ أَتَبَتُوا لَهُ شَيْئِينَ: كَوْنَهُ مُسَحَّرًا، وَكَوْنَهُ بَشَرًا مِثْلَهُمْ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُسْتَقِلٌّ فِي الْمَنْعِ مِنْ كَوْنِهِ رَسُولًا، يَعْنِي: نَحْنُ وَأَنْتَ فِي عَدَمِ صِلَاةِ الرِّسَالَةِ لِكُونِنَا بَشَرًا سَوَاءً، وَلَكَ الْمَزِيدُ عَلَيْنَا فِي كَوْنِكَ مُسَحَّرًا دُونِنَا، ثُمَّ أَكْدُوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، وَالظَّنُّ بِمَعْنَى الْيَقِينِ؛ وَلِذَلِكَ أَدْخَلَ «إِنْ» وَاللَّامَ. وَلَمَّا كَانَ هَذَا الرَّدُّ أَبْلَغَ مِنَ الْأَوَّلِ مَا طَلَبُوا الْبُرْهَانَ كَمَا طَلَبُوا، حَيْثُ قَالُوا: ﴿فَأَتِيَتْ بِهَا بَنَاتُهُنَّ بِسُرُورٍ وَأُنْصَفُوا بِهَا نَصْفًا وَاعْتَمَدُوا بِحَمْلَتِهَا أَهْلًا مُقْتَضِينَ﴾، بَلْ قَطَعُوا بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْيَأْسِ مِنْ إِيْمَانِهِمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾. استهزاء كما قَطَعَ قُرَيْشٌ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنْ كَانَتْ هَذَاهُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾. [الأنفال: ٣٢]، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى رَمَزَ بِقَوْلِهِ: «وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ أَدْنَى مَيْلٍ إِلَى التَّصْدِيقِ لَمَا أَخْطَرُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ»، ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى اسْتِمْرَارَهُمْ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ﴾. أَي: اسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ وَكَذَّبُوهُ تَكْذِيبًا غَيْبَ تَكْذِيبِ، هَذَا مَعْنَى الْفَاءِ وَالتَّكْرِيرِ فِي ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، وَاتَّصَلَ بِذَلِكَ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ.

انظر أيها المتأمل في إعجاز التنزيل ومواقع هذه الحروف الثلاثة، أعني: الواو والفاءين، لثلاث تغفل عن موقع كل حرف، فتكون أهلاً لأن تحوَّص فيه، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [١٨٧]

قُرئ: ﴿كِسْفًا﴾ بالسكون والحركة، وكلاهما جمع كِسْفَةٍ، نحو: قَطَعَ وَسَدَّرَ. وقيل: الكِسْفُ والكِسْفَةُ، كالرَّيْعِ والرَّيْعَةُ؛ وهي القِطْعَةُ. وكَسَفَهُ: قَطَعَهُ. والسَّمَاءُ: السَّحَابُ، أو المُظَلَّةُ. وما كان طلبهم ذلك إلا لتصميمهم، كالجحود والتكذيب، ولو كان فيهم أدنى مَيْلٍ إلى التصديق لَمَا أخطَرُوهُ ببالهم فضلاً أن يطلبوه. والمعنى: إن كُنتَ صادقاً أنك نبيٌّ، فادعُ الله أن يُسْقِطَ علينا كِسْفًا من السماء.

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً مِّنْ عَمَلِي ﴾ [١٨٨]

﴿رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً مِّنْ عَمَلِي﴾ يريد: أن الله أعلم بأعمالكم وبما تستوجبون عليها من العقاب، فإن أراد أن يعاقبكم بإسقاط كِسْفٍ من السماء فَعَلْ، وإن أراد عقاباً آخرَ فإليه الحُكْمُ والمَشِيئَةُ.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ * إِن فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [١٨٩]

﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ الله بنحو ما اقترحووا من عذابِ الظُّلَّةِ إن أرادوا بالسَّمَاءِ السَّحَابَ،

قوله: ﴿قُرئ: ﴿كِسْفًا﴾ بالسكون والحركة)، بالحركة: حَفْصٌ، والباقون: بالسُّكُون^(١).

قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ الله بنحو ما اقترحووا من عذابِ الظُّلَّةِ، يعني: الظُّلَّةُ في عذابِ يومِ الظُّلَّةِ عَيْنُ السَّمَاءِ في قوله: ﴿كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ فالسَّمَاءُ إن أريدَ بها السَّحَابُ فَأَخَذَهُمُ اللهُ تعالى بنحو ما اقترحووا وإن أريدَ به المُظَلَّةُ فقد خالفَ بهم.

وقلت: المُخَالَفَةُ أنسبُ على أن يُفسَّرَ قولُ شُعَيْبٍ عليه السَّلَامُ على غيرِ ما فسَّرَه المصنِّفُ بأن يُجَعَلَ من بابِ الأسلوبِ الحكيمِ؛ فإنهم حينَ طلبوا إسقاطَ الكِسْفِ مِنَ السَّمَاءِ

(١) انظر: «حجة القراءات» ص ٥٢٠.

وإن أرادوا المظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم. يروى: أنه حبس عنهم الريح سبعا، وسلط عليهم الومد، فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا سرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما، فاجتمعوا تحتها، فأمرت عليهم نارا فاحترقوا. وروى: أن شعيبا بعث إلى أمتين: أصحاب مدين، وأصحاب الأيكة، فأهلكت مدين بصيحة جبريل، وأصحاب الأيكة بعداب يوم الظلة. فإن قلت: كيف كثر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كثر؟ قلت: كل قصة منها كتزليل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتح بها افتتحت به صاحبها، وأن تختتم بها اختتمت

عنادا وجنودا، قال: ربي أعلم بعملكم وبما تستحقونه من العذاب؛ فإنه فوق ما تطلبونه؛ ولذلك عاقبهم بحبس الريح، وتسليط الومد، ثم أمطرت عليهم نارا فاحترقوا كما قال (١).

قوله: (وسلط عليهم الومد)، الجوهرى: الومد والومدة بالتحريك: شدة حر الليل.

قوله: (فأهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام)، قالوا: الصواب: برجة الأرض، لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ﴾ [الأعراف: ٩١]، والصيحة كانت لقوم صالح عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، وفيه نظر، لما ورد في سورة الأعراف في حق قوم صالح وشعيب: الرجفة، وفي سورة هود في حقها: الصيحة (٢).

قوله: (كيف كثر في هذه السورة)، يعني قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وفي آخرها: ﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِزُّ الرَّحِيمِ﴾.

قوله: (كل واحد منها تدلي بحق)، الأساس: ومن المجاز: أدلى بحقه وحجته: أحصرها، وأدلى بهال فلان إلى الحكام: رفته.

(١) من قوله: «وقلت: المخالفة» إلى هنا، سقط من (ط).

(٢) من قوله: «وفيه نظر» إلى هنا، أثبت من (ط)، وسقط من (ح) و(ف).

به، ولأن في التكريرِ تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور، ألا ترى أنه لا طريقَ إلى تحفُّظ العلوم إلا ترديدُ ما يرادُ تحفُّظُه منها، وكلِّما زاد ترديدهُ كان أمكنَ له في القلب وأرسخَ في الفهم وأثبتَ للذكر وأبعدَ في النسيان؟ ولأنَّ هذه القصصَ طُرقتَ بها آذانٌ وُقِرَّ عن الإنصاتِ للحق، وقلوبٌ غُلف عن تدبُّره، فكُوِّرتْ بالوعظ والتذكير، وروِجتْ بالترديد والتكرير لعلَّ ذلك يفتحُ أذناً، أو يفتقُ ذهنًا، أو يَصقُلُ

قوله: ﴿أَوْ يَفْتِقُ ذَهْنًا﴾، مِنْ فَتَقِ الْفَجْرِ: انشِقَاقِهِ، لَعَلَّهُ أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانَا رَتَقًا فَفَنَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، أَوْ مِنَ الْفَتَقِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الْإِفْتِضَاضِ تَشْبِيهًا لِلنِّكَاحِ بِالْأَبْكَارِ^(١).

ذَكَرَ مِنْ فَوَائِدِ التَّكْرِيرِ وَعَدَّهَا خِصَالًا ثَلَاثًا، أَوْ لَهَا: أَنَّ الْفَائِدَةَ رَاجِعَةٌ إِلَى الْقَصَصِ وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا كَافِيَةٌ فِي الْإِعْتِبَارِ مَزْجَرَةٌ لِلزَّاجِرِينَ.

وِثَانِيَّتُهَا: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ التَّكْرِيرَ فِي نَفْسِهِ مَفِيدٌ وَمَوْثِقٌ فِي نَفْسِهِ وَبِهِ تَحْصُلُ الْمَلَكَاتُ.

وِثَالِثُهَا: أَنَّ الْفَائِدَةَ رَاجِعَةٌ إِلَى الْمَخَاطِبِينَ وَمُؤَذِّنَةٌ بِأَتَمِّهِمْ مِنَ الْمَصْمُومِينَ الَّذِينَ لَا تَنْجَعُ فِيهِمْ السَّمَوَاعِظُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَهَذَا الْوَجْهُ هُوَ الْمَقْصُودُ فِي الْإِيرَادِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ؛ لِأَنَّ السُّورَةَ مِنْ مُفْتَتِحِهَا إِلَى مُخْتَمِمِهَا مَشْحُونَةٌ بِذِكْرِ الْمُعَانِدِينَ مِنْ قَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذِكْرُ الْقَصَصِ لَوْعِيدِهِمْ وَتَسْلِيَةِ لِقَلْبِ حَبِيبِهِ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يُنَافِي فِي إِعْتِبَارِ الْفَائِدَتَيْنِ الْأَخِيرَتَيْنِ، وَمِنْ ثَمَّ وَصَلَ قَوْلَهُ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ * أَي: حَفَظَكَهُ وَأَثَبَتْهُ فِي قَلْبِكَ إِثْبَاتَ مَا لَا يُنْسَى حَتَّى اتَّصَلَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بَيَانًا لِعِنَادِهِمْ، وَتَقْرِيرًا بِأَنَّ كَلَامَ مِنَ الْقَصَصِ مُسْتَقَلَّةٌ. قَالَ الْقَاضِي: ﴿وَلِئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تَقْرِيرٌ لِحَقِيقَةِ تِلْكَ الْقَصَصِ، وَتَنْبِيهُ عَلَى إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَثُبُوتِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِنَّ الْإِخْبَارَ عَنْهَا تَمَّ لَمْ يَعْلَمْهَا لَا يَكُونُ إِلَّا وَخِيًّا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى^(٢).

(١) في (ح) و(ف): «بالإنكار» بالنون، وفي (ط): «تشيهاً للنكات بالأفكار»، والجاذة ما أثبتناه.

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٥٢).

عَقْلًا طَالَ عَهْدُهُ بِالصَّقْلِ، أَوْ يَجْلُو فَهَمَّا قَدْ غَطَى عَلَيْهِ تَرَائِكُمُ الصَّدَا.

[**﴿وَلَئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾** ١٩٢-١٩٦]

﴿وَلَئِنَّهُ﴾: وإنَّ هذا التنزيل، يعني: ما نُزِّلَ من هذه القِصَصِ والآيات. والمراد بالتنزيل: المنزل. والباءُ في **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ﴾** و(نَزَلَ به الرُّوح) على القراءتين للتعدية. ومعنى (نَزَلَ بِهِ الرُّوح): جعل الله الرُّوحَ نازلاً به **﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾** أي: حَفَظَكَ وَفَهَمَكَ إِيَّاهُ، وَأَثَبْتَهُ فِي قَلْبِكَ إِبْثَاتَ مَا لَا يُنْسَى، كقوله تعالى: **﴿سُقْرُوتَكَ فَلَا تَنْسَى﴾** [الأعلى: ٦]. **﴿بِلِسَانٍ﴾** إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ**﴿الْمُنذِرِينَ﴾**، فيكون المعنى: لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان، وهم خمسة: هودٌ، وصالح، وشُعيب، وإسماعيل، ومحمدٌ عليهم السلام.

قوله: (على القراءتين للتعدية)، ابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ وحمزةٌ والكسائيُّ: «نَزَلَ به» بتشديد الزاي «الرُّوحَ الْأَمِينِ» بِنَصْبِهَا^(١)، والباقون: بتخفيفِ الزاي والرفعِ للاسمين.

قوله: (ومعنى «نَزَلَ به الرُّوح»): جعلَ اللهُ تعالى الرُّوحَ نازلاً به **﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾**، هذا بيان اتصالِ **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** بقوله: **﴿لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** وكيفيّة التنزيل من ربِّ العالمين، يعني: كان ذلك التنزيلُ بواسطة ملكٍ مُقَرَّبٍ مُطَاعٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ، وفيه رَمْزٌ إلى قوله بعد ذلك: **﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيمُونَ﴾**، ثُمَّ فِي تَعَلُّقِ **﴿بِلِسَانٍ﴾** بقوله: **﴿نَزَلَ﴾** تَمِيمٌ هَذَا المعنى؛ وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: «وفي هذا الوجه أن تنزله بالعربية...تنزيلُ له على قلبك»، وفي اختلافٍ مجيء **﴿لِسَانٍ﴾** من التنكير في التنزيل، والتعريف في التفسير، حيث قال: «المعنى: نَزَلَهُ بِاللِّسَانِ العَرَبِيِّ» الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْأَصْلَ التَّعْرِيفُ فِيهِ؛ وَأَنَّهُ لِلْعَهْدِ، وَأَوْثَرَ التَّنْكِيرُ فِي التَّنْزِيلِ؛ لِيُؤَدِّنَ بِالتَّعْظِيمِ وَالتَّفْخِيمِ.

(١) وَحُجَّتُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ أَمَى عَقِيبِ الْخَبْرِ عَنِ تَنْزِيلِ الْقُرْآنِ وَهُوَ قَوْلُهُ: **﴿وَلَئِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** وَالتَّنْزِيلُ مُصَدَّرٌ «نَزَلَ» بِالتَّشْدِيدِ. فَكَانَ قَوْلُهُ: **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾** كَانَ مُرَدُّوهُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى لِيَكُونَ آخِرَ الْكَلَامِ مَنْظُومًا عَلَى لَفْظِ أَوَّلِهِ إِذْ كَانَ عَلَى سِيَاقِهِ. انْتَهَى بِحَرْوْفِهِ مِنْ «حُجَّةِ الْقِرَاءَاتِ» ص ٥٢١.

وَمَا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِ﴿ نَزَلَ ﴾، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: نَزَّلَهُ بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ؛ لِتُنْذِرَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ نَزَّلَهُ بِاللِّسَانِ الْأَعْجَمِيِّ، لَتَجَافَوْا عَنْهُ أَصْلًا، وَلَقَالُوا: مَا نَصْنَعُ بِهَا لَا نَفْهَمُهُ، فَيَتَعَذَّرُ الْإِنْدَارُ بِهِ. وَفِي هَذَا الْوَجْهِ: أَنَّ تَنْزِيلَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِسَانُكَ وَلِسَانُ قَوْمِكَ تَنْزِيلٌ لَهُ عَلَى قَلْبِكَ؛ لِأَنَّكَ تَفْهَمُهُ وَتَفْهَمُهُ قَوْمُكَ، وَلَوْ كَانَ أَعْجَمِيًّا لَكَانَ نَازِلًا عَلَى سَمْعِكَ دُونَ قَلْبِكَ؛ لِأَنَّكَ تَسْمَعُ أَجْرَاسَ حُرُوفٍ لَا تَفْهَمُ مَعَانِيَهَا وَلَا تَعْبَهُهَا، وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ عَارِفًا بَعْدَةَ لُغَاتٍ، فَإِذَا كَلَّمَ بَلُغْتَهُ الَّتِي لُقِّنَهَا أَوْلًا وَنَشَأَ عَلَيْهَا وَتَطَبَّعَ بِهَا، لَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ إِلَّا إِلَى مَعَانِي الْكَلَامِ يَتَلَقَّاهَا بِقَلْبِهِ وَلَا يَكَادُ يَفْطَنُ لِلْأَلْفَاظِ كَيْفَ جَرَتْ، وَإِنْ كَلَّمَ بِغَيْرِ تِلْكَ اللَّغَةِ وَإِنْ كَانَ مَاهِرًا بِمَعْرِفَتِهَا، كَانَ نَظْرُهُ أَوْلًا فِي أَلْفَاظِهَا ثُمَّ فِي مَعَانِيهَا، فَهَذَا تَقْرِيرٌ أَنَّهُ نَزَلَ عَلَى قَلْبِهِ لِتُرْوِلَهُ بِلسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ. ﴿وَلِئِنَّهُمْ﴾: وَإِنَّ الْقُرْآنَ، يَعْنِي: ذَكَرَهُ مُثَبَّتٌ فِي سَائِرِ الْكُتُبِ السِّمَاوِيَّةِ. وَقِيلَ: إِنَّ مَعَانِيَهُ فِيهَا، وَبِهِ يُجْتَبَجُّ لِأَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ

قوله: (وقيل: إن معانيه فيها)، وفيه إشعارٌ بأنَّ الوجهَ هو الأول؛ لأنَّ المقصودَ في الإيرادِ إثباتُ النبوة، وتقرُّيعُ المُكذِّبِينَ على أنَّ القرآنَ المجيدَ نازلٌ من عندِ الله نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ إِقَاءِ الْجِنِّ: ﴿وَمَا يَلْبِغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ إِيهَاءٌ إِلَى بَيَانِ إِعْجَابِهِ، وَأَنَّهُ بِنَفْسِهِ دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ، وَمُبَشَّرٌ عَلَى لِسَانِ الْأَقْدَمِينَ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وَالضَّمِيرُ فِي ﴿يَعْلَمَهُ﴾ رَاجِعٌ إِلَى الْقُرْآنِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَإِذَا يَتْلُو عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ [القصص: ٥٣]. وَلَقَدْ أَنْصَفَ الْمَصْنُفُ مِنْ نَفْسِهِ فِي الْفُرُوعِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَفِي كَثِيرٍ مِمَّا يُحَاكِيهِ، لَيْتَهُ مَا بَالَعَ فِي الْأَصُولِ، تَجَاوَزَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ.

وقال صاحبُ «التقريب»: وفي الاحتجاجِ نَظْرٌ؛ لِأَنَّهُ عَلَى حَدِّفِ الْمُضَافِ، وَهُوَ الْمَعَانِي، لَا عَلَى تَسْمِيَّتِهَا قُرْآنًا. وَلِنَاصِرِ الْقَوْلِ الثَّانِي أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِئِنَّهُمْ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هُوَ هَذَا بَعَيْنُهُ؛ كُرِّرَ لِإِنَاطَةِ مَعْنَى آخَرَ بِهِ، وَهُوَ بِمَعْنَى اسْمِ الْإِشَارَةِ، وَالْمَشَارُ إِلَيْهِ مَا سَبَقَ مِنَ الْقَصَصِ وَالآيَاتِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَلِئِنَّهُمْ لَنَنْزِيلُ﴾، يَعْنِي: مَا نَزَلَ مِنْ هَذِهِ الْقَصَصِ وَالآيَاتِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: إِنَّ هَذَا الْمَذْكُورَ مُنَزَّلٌ عَلَيْكَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَمَعَانِيهِ

في جواز القراءة بالفارسية في الصلاة على أن القرآن قرآن إذا تُرجم بغير العربية، حيث قيل: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَىٰ زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾؛ لكون معانيه فيها. وقيل: الضمير لرسول الله ﷺ، وكذلك في ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وليس بواضح.

[﴿أَوْ لَرِيكَنٌ هُمَّ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ، طَمَّوْا نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ﴾ [١٩٧]

وقرى: ﴿يَكُنْ﴾ بالتذكير، و﴿آيَةٌ﴾ بالنصب على أنها خبره، و﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ هو الاسم. وقرى: (تكن) بالتأنيث، وجعلت (آيَةٌ) اسماً، و﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ خبراً، وليست كالأولى؛ لوقوع النكرة اسماً والمعرفة خبراً، وقد خُرج لها وجه آخر؛ ليُتخلص من ذلك، فقيل: في ﴿يَكُنْ﴾ ضمير القصة، و﴿آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ﴾ جملة واقعة موقع الخبر. ويجوز على هذا أن يكون (هم آيَةٌ) هي جملة الشان، و﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ بدلاً عن (آيَةٌ). ويجوز مع نصب «الآية» تانيث (تكن)، كقوله: ﴿ثُمَّ لَرَتَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ [الأنعام: ٢٣] ومنه بيت لبيد:

مُنزَلٌ فِي سَائِرِ الْكُتُبِ؛ وَلِذَلِكَ يُصَدِّقُهُ عِلْمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَيْثُ وَجَدُوهُ مُوَافِقًا لِمَا فِي كُتُبِهِمْ. وَعَلَىٰ هَذَا سَائِرُ الْمَعَانِي مِنْ إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ، وَتَأْسِيسِ الْأَحْكَامِ، وَالْحَثِّ عَلَىٰ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ. وَأَمَّا الْإِحْتِجَاجُ بِهِ عَلَىٰ جَوَازِ الْقِرَاءَةِ بِالْفَارْسِيَّةِ فَمُشْكِلٌ. وَاللَّهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

قوله: (وقرى: ﴿يَكُنْ﴾ بالتذكير)، قرأ ابن عامر بالتاء الفوقانية، و﴿آيَةٌ﴾ بالرفع، والباقون: بالياء والنصب.

قوله: (وقد خُرج لها وجه)، في «المطلع»: قال أبو علي الفارسي: إذا اجتمع في باب كان معرفة ونكرة، فالذي يجعل الاسم منهما المعرفة كما في المبتدأ والخبر، وقد يجيء على قلبه في الشعر إذا اضطر إليه، ولا يجوز في التنزيل، ووجهه أن في ﴿يَكُنْ﴾ ضمير القصة، و﴿آيَةٌ﴾: خبر مبتدأ متقدم عليه، فالجملة في موضع نصب، كما تقول: كان زيدٌ مُنطلقٌ، على معنى: كان الأمر هذا.

قوله: (ويجوز مع نصب «الآية» تانيث «تكن»)، لأن المراد بالعلم الآيَةُ، كقولهم: من كانت أمك، قال: وإنما أنت لوقوع الخبر مؤنثاً.

فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَّدَتْ إِقْدَامُهَا

وَقُرئ: (تعلمه) بالتاء. وعلماء بني إسرائيل: عبد الله بن سلام وغيره، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا بُدئَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]. فإن قلت: كيف حُطَّ في المصحف ﴿عَلَّمْتُوا﴾ بواوٍ قبل الألف؟ قلت: حُطَّ على لغةٍ من يُميل الألف إلى الواو، وعلى هذه اللغة كُتِبَت الصَّلوة والزكوة والرِّبوا.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ * أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَوَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ [٢٠٧ - ١٩٨]

الأعجم: الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة واستعجام. والأعجمي مثله، إلا أن فيه لزيادة ياء النسبة زيادة تأكيد. وقرأ الحسن: (الأعجميين). ولما كان من يتكلم

قوله: (فمضى وقدمها)، البيت^(١)، يصف الحمار والأتان.

وعرّدت: تأخرت وجبنت، والتعريد: التأخير والجبن، وقيل: الإقدام بمعنى التقدمة؛ ولذلك أنت فعلها، وقيل: لاكتسابه التانيث من المضاف إليه. والاستشهاد في تانيث الفعل لتانيث الخبر، وإن كان الاسم، أي: إقدامها، مُدْكَراً، والضمير في إقدامها للأتان. يقول: مضى العير نحو الماء وقدم الأتان لثلاثاً يتأخر، وكانت إقدام الأتان عادة من العير إذا هي تأخرت عن الجبن.

قوله: (وقرأ الحسن: الأعجميين)، قال: ابن جني: هذه القراءة عذر في القراءة المجتمع عليها، وتفسير للغرض فيها، وذلك أن ما كان من الصفات على أفعل وأثناء فعلاء لا يجمع بالواو والنون عجماء، ولكن سببه أنه يريد الأعجميين، ثم حذف ياء النسب، وجعل جمعها

(١) من معلقته المشهورة. انظر «شرح المعلقات العشر» للتبريزي ص ٢٢٣، وانظر «ديوانه» ص ١٠١.

بلسان غير لسانهم لا يفقهون كلامه، قالوا له: أعجم وأعجمي، شبهوه بمن لا يفصح ولا يبين، وقالوا لكل ذي صوت من البهائم والطيور وغيرها: أعجم، قال حميد:

ولا عربياً شاقه صوت أعجماً

﴿سَلَكْنَهُ﴾: أدخلناه ومكناؤه. والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن على رجلٍ عربيٍّ

بالواو والنون ذليلاً عليها، وأمانة لإرادتها كما جعلت صحة الواو في عواور أمانة لإرادة الياء في عواوير^(١).

قوله: (ولا عربياً شاقه صوت أعجماً)، قبله:

دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرَحَّهَ وَتَرُنَّا	وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقَ إِلَّا حَمَامَةٌ
لِنَائِحَةٍ فِي نَوْحِهَا مُتَنَدِّمًا	تَعَنَّتْ عَلَى غُصْنٍ عِشَاءَ فَلَمْ تَدَعْ
فَصِيحًا وَلَمْ تَقْفَرْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا	عَجِبْتُ لَهَا أَنِّي يَكُونُ غَنَاؤُهَا
وَلَا عَرَبِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمًا ^(٢)	وَلَمْ أَرِ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا

يصف صوت قُمريٍّ. ساق حُرٍّ: ذكر القُماري. متندماً: لائماً. فغرفاه: أي فتحه، ويقال لكل صوت من البهائم والطيور: أعجم.

قوله: (والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن)، بيان لنظم قوله: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَهُ﴾ بالمعاني السابقة، فقوله: «إنا أنزلنا هذا القرآن على رجلٍ عربيٍّ بلسانٍ عربيٍّ مبين» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُ مُعْجِزٌ لَّا يُعَارَضُ﴾ بـ «كلامٍ مثله» إشارة إلى قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾. وقوله: «وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. وقوله: «ولو نزلناه على بعض الأعاجم» إلى آخره، إشارة إلى الآية الأخيرة، هذا، وإن ظاهر قوله:

(١) «المحتسب» (٢: ١٣٢).

(٢) الأبيات لحميد بن ثور الهلالي في «ديوانه» ص ٢٤-٢٧. وذكر المبرِّد في «الكامل» (٢: ١٠٢٨) أبياتاً جياذاً منها.

بلسانٍ عربيٍّ مُبين، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه مُعجز لا يُعارض بكلام مثله، وانضمَّ إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على أن البشارة بإنزاله وتخليته المنزل عليه وصفته في كتبهم، وقد تضمَّنت معانيه وقصصه، وصحَّ بذلك أنها من عند الله، وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به وجحدوه، وسمَّوه شعراً تارة، وسحراً أخرى، وقالوا: هو من تلفيق محمدٍ وافتراءه. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْمَىٰ الَّذِي لَا يُحْسِنُ الْعَرَبِيَّةَ، فضلاً أن يَقْدِرَ عَلَىٰ نَظْمِ مِثْلِهِ﴾ ﴿فَفَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ هكذا فصيحاً مُعجزاً متحدى به، لكفروا به كما كفروا، ولتمحللوا لجحودهم عُذراً، ولسمَّوه سحراً. ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾ أي: مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم، وهكذا مكناه وقررناه فيها، وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة من الكفر به والتكذيب له وضعناه فيها، فكيفما فعل بهم وصنع وعلى أي وجه دُبر أمرهم، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده وإنكاره، كما قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].....

«مثل ذلك السلك سلكناه في قلوبهم»، وقوله: «لا يؤمنون به» موضح لقوله: ﴿سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ مُشيرٌ بأن المشار إليه هو قوله: ﴿سَلَكْنَاهُ﴾، حيث جعله صفة مصدرٍ محذوف، وجعل ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بياناً له، ولو جعل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، و﴿سَلَكْنَاهُ﴾ الخبر ليكون المشار إليه ما تضمَّن معنى الآيات السابقة من مُفتتح السورة، وهو ما ذكره: «وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به وجحدوه وسمَّوه شعراً»، إلى قوله: «لكفروا به كما كفروا، ولتمحللوا لجحودهم» إلى آخره. وكان قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ استئنافاً لبيان موجب ذلك السلك على مذهب أهل السنة، لجاء^(١) النَّظْمُ غير متعسف. قال القاضي في سورة الحجر: وفيه دليل على أنه تعالى يوجد الباطل في قلوبهم^(٢).

قوله: (وتخليته المنزل)، يقال: حليت الرجل تخليته: وصفت حليته.

(١) قوله: «لجاء النَّظْمُ» متعلق بقوله: «ولو جعل» وقد طال الفصل بينهما.

(٢) «أنوار التنزيل» (٣: ٣٦٣).

فإن قلت: كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟ قلت: أراد به الدلالة على تمكُّنه مُكذَّباً في قلوبهم أشدَّ التمكُّن، وأثبتَه فجعلَه بمنزلة أمرٍ قد جُبلوا عليه وفُطروا. ألا ترى إلى قوله: هو محبوبٌ على الشحِّ؟ يريدون: تمكَّن الشحُّ فيه؛ لأنَّ الأمور الخلقية أثبتت من العارضة، والدليل عليه: أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه؛ وهو قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. فإن قلت: ما موقع ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ من قوله: ﴿سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾؟ قلت: موقعه منه موقع الموضح والمُلخَّص؛ لأنه مَسوقٌ لثباته مُكذَّباً مجحوداً في قلوبهم، فأُتبع ما يقرُّر هذا المعنى من أنهم لا يزالون على التكذيب به وجحوده حتى يُعابِنوا الوعيد. ويجوز أن يكون حالاً، أي: سَلَكْنَاهُ فِيهَا غير مؤمنٍ به. وقرأ الحسن: (فتأيتهم) بالتاء، يعني: الساعة، و(بغته) بالتحريك. وفي حرف أبي: (ويروه بغته). فإن قلت: ما معنى التعقيب في قوله: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ ﴿فَيَقُولُوا﴾؟ قلت: ليس المعنى ترادف رؤية العذاب ومفاجأته وسؤال النظرية فيه في الوجود، وإنما المعنى ترتبها في الشدة، كأنه قيل: لا يؤمنون بالقرآن حتى تكون رؤيتهم للعذاب فما هو أشد منها؛ وهو لحوقه بهم مفاجأة، فما هو أشد منه؛ وهو سؤالهم النظرية. ومثال ذلك: أن تقول لمن تعظه: إن أسأت مَقَّتكَ الصالحون فَمَقَّتَكَ اللهُ، فإنك لا تقصد بهذا الترتيب أن مَقَّت اللهُ يوجد عقب مَقَّتِ الصالحين، وإنما قصدك إلى ترتيب

قوله: (كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته؟)، يعني: إذا رجع الضمير من قوله: ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ إلى المنزلة، كان معناه ما قال: «وعلى مثل هذه الحال، وهذه الصفة وضعناه فيها»، فكيف يجوز إسنادُه إلى الله تعالى؟ وأجاب: أنه أريد بالإسناد إلى الله تعالى الدلالة على تمكُّن المنزلة في قلوبهم حال كونه مُكذَّباً به على سبيل الكناية، فقوله: «مُكذَّباً»: حال مؤكِّدة من الضمير في «تمكُّنه»، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَبِهْ﴾ [الأحاف: ٧]، وقيل: حال مقدرة، وفي «المطلع»: الضمير في سَلَكْنَاهُ للشرك والتكذيب، قال ابن عباس والحسن وغيرهما: سَلَكْنَا الشَّرْكَ والتكذيب في قلوب مشركي مكة^(١).

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦: ١٢٩).

شِدَّةَ الأَمْرِ عَلَى المُسِيءِ، وَأَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِسَبَبِ الإِسَاءَةِ مَقْتُ الصَّالِحِينَ، فَمَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ مَقْتِهِمْ؛ وَهُوَ مَقْتُ اللهِ، وَتَرَى «ثُمَّ» يَقَعُ فِي هَذَا الأُسْلُوبِ فِيحُلُّ مَوْقِعِهِ. ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ تَبَكَّيْتُ لَهُمْ بِإِنْكَارِ وَتَهَكُّمِ، وَمَعْنَاهُ: كَيْفَ يَسْتَعْجِلُ العَذَابَ مَنْ هُوَ مُعَرَّضٌ لِعَذَابٍ يَسْأَلُ فِيهِ مِنْ جِنْسٍ مَا هُوَ فِيهِ اليَوْمَ مِنَ النَّظَرَةِ وَالإِمهَالِ طَرَفَةً عَيْنٍ فَلَا يُجَابُ إِلَيْهَا؟! وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حِكَايَةً تَوْبِيخٍ يُوَبِّخُونَ بِهِ عِنْدَ اسْتِنظَارِهِمْ

قوله: (وترى)، أي: وأنت ترى لفظة «ثم»، يريد أن «ثم» إذا وقعت فيما لم يصح فيه معنى ما وضعت له من التراخي في الزمان، حُلَّتْ عَلَى التَّرَاخِي فِي الرُّتْبَةِ، فَفَعَلَ بِالْفَاءِ نِينَ هَاهُنَا، أَعْنِي فِي قَوْلِهِ: ﴿فِيَأْتِيهِمْ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿فَيَقُولُوا﴾ حَيْثُ لَمْ يَسْتَقِيمَا أَنْ يَجْرِيَا عَلَى مَوْضِعَيْهَا مِنَ التَّعْقِيبِ مَا فَعَلَ بِ«ثُمَّ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧].

قوله: (تبكيت لهم بإنكار وتهكم)، والتبكيُّ من بَكَتَهُ بِالْحُجَّةِ، أَي: غَلَبَهُ. البَكْتُ: القَطْعُ، و«من» في «من النظرة»: بيان «ما» في «ما هو فيه»، ومعنى التبكيِّ: أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ: ﴿فِيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿ عَقَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إِسْكَاتًا لَهُمْ مَعَ إِنْكَارِ وَتَهَكُّمِ، أَي: كَيْفَ يَسْتَعْجِلُونَ مَا حَالُهُ مَا ذُكِرَ، وَهِيَ أَنَّهُ مَا يَأْتِيهِمْ بَغْتَةً، وَيَسْأَلُونَ عِنْدَ ذَلِكَ الإِمهَالَ فَلَا يُمَهَّلُونَ، وَالعَاقِلُ لَا يَسْتَعْجِلُ مَا فِيهِ دِمَارُهُ. وَهَذَا مَعْنَى التَّبَكِّيِّ؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ جَارٍ عَلَى العُرْفِ وَالْعَادَةِ، وَالعَاقِلُ لَا يَدْفَعُ الكَلَامَ المُنْصِفَ^(١) وَهَذَا قَالَ: «مِنْ جِنْسٍ مَا هُوَ [فِيهِ] اليَوْمَ مِنَ النَّظَرَةِ».

قوله: (مُعَرَّضٌ لِعَذَابِ)، أي: مَنْصُوبٌ لَهُ. الجوهري: وَعَرَّضْتُ فَلَانًا لِكَذَا، فَتَعَرَّضَ هُوَ لَهُ.

قوله: (يُوبِّخُونَ بِهِ عِنْدَ اسْتِنظَارِهِمْ)، أَي: يُوَبِّخُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ حِينَ يَطْلُبُونَ الإِمهَالَ بِقَوْلِهِمْ: هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ؟ وَ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ عَلَى هَذَا: مُضَارِعٌ وَقَعَ مَوْقِعَ المَاضِي عَلَى حِكَايَةِ الحَالِ المَاضِيَةِ فِي الدُّنْيَا، وَكَانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ: أَفِعْدَابِنَا اسْتَعْجَلْتُمْ؟

(١) في (ح) و(ف): «المصنف».

يومئذ، و﴿يَسْتَعِجِلُونَ﴾ على هذا الوجه حكاية حال ماضية. ووجه آخر: متصل بما بعده؛ وذلك أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن ولا لاحق بهم، وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن، فقال عزّ وعلا: ﴿أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ أشراً وبطراً واستهزاءً واتكالا على الأمل الطويل؟! ثم قال: هَبْ أَنْ الْأَمْرَ كَمَا يَعْتَقِدُونَ مِنْ تَمْتِعِهِمْ وَتَعْمِيرِهِمْ، فَإِذَا لِحَقَّتْهُمْ الْوَعِيدُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَنْفَعُهُمْ حِينَئِذٍ مَا مَضَى مِنْ طُولِ أَعْمَارِهِمْ وَطِيبِ مَعَايِشِهِمْ. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عِظْنِي، فلم يزدَه على تلاوة هذه الآية. فقال ميمون: لَقَدْ وَعَظْتَ فَأَبْلَغْتَ. وقرئ: (يُمْتَعُونَ) بالتحفيف.

قوله: (ووجه آخر: متصل بما بعده)، يعني بقوله: ﴿أَفَرَوَيْتَ﴾، ويتم الكلام عند قوله: ﴿يَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ ثم يبتدئ من قوله: ﴿أَفِعْدَابِنَا﴾ على تأويل: أنتهزئون فستعجلون بعدابنا؟ فالفاء في ﴿أَفِعْدَابِنَا﴾ عطف على هذا المقدّر، وفي ﴿أَفَرَوَيْتَ﴾ للتسيب، أي: استهزأؤهم ذلك سبب لأن يتعجب منهم ويقال لكلّ سامع: أرايت إن متعنأهم سنين، فإذا ن الهزمة في ﴿أَفَرَوَيْتَ﴾: مضمحة لمزيد الإنكار والتعجب وعلى الأول الفاء في ﴿أَفَرَوَيْتَ﴾: عاطفة، عطفت ﴿أرايت﴾ على مقدّر، أي: أخبر فيتعجب؟ والهزمة غير مضمحة فتكون الجملة^(١) مستقلة.

قوله: (ثم قال: هَبْ أَنْ الْأَمْرَ كَمَا يَعْتَقِدُونَ)، هو معنى قوله تعالى: ﴿أَفَرَوَيْتَ﴾ أي: أخبرني ﴿إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾.

قوله: (لَقَدْ وَعَظْتَ فَأَبْلَغْتَ)، يعني: هذه الآية من الجوامع في باب الوعظ. رَوَيْنَا عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَعُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطًّا؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطًّا؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٢)، الحديث.

(١) في (ط): «الكلمة».

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٠٧).

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا مَا مُنْذِرُونَهُ * ذِكْرًا وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [٢٠٨ - ٢٠٩]

﴿ مُنْذِرُونَ ﴾ رُسل يُنْذِرُونَهُمْ ﴿ ذِكْرًا ﴾ منصوبة بمعنى تذكُّر؛ إمَّا لأنَّ «أَنْذَرَ»، و«ذَكَرَ» مُتَقَارِبَانِ، فكأنه قيل: مُذَكَّرُونَ تذكُّرًا. وإمَّا لأنها حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿ مُنْذِرُونَ ﴾، أي: يُنْذِرُونَهُمْ ذَوِي تذكُّرٍ. وإمَّا لأنها مَفْعُولٌ لَهُ؛ عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُمْ يُنْذِرُونَ لِأَجْلِ المَوْعِظَةِ وَالتَّذْكَرَةِ. أو مرفوعةً عَلَى أَنَّهَا خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، بِمَعْنَى: هَذِهِ ذِكْرِي. وَالجُمْلَةُ اعْتِرَاضِيَّةٌ. أو صِفَةٌ بِمَعْنَى: مُنْذِرُونَ ذَوُو ذِكْرِي. أو جُعِلُوا ذِكْرِي؛ لِإِمْعَانِهِمْ فِي التَّذْكَرَةِ وَإِطْنَابِهِمْ فِيهَا. وَوَجْهٌ آخَرٌ؛ وَهُوَ أَنَّ تَكُونَ ﴿ ذِكْرًا ﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿ أَهْلَكْنَا ﴾ مَفْعُولًا لَهُ، وَالمَعْنَى: وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ أَهْلِ قَرِيْبَةٍ ظَالِمِينَ إِلَّا بَعْدَمَا أَلْزَمْنَاهُمُ الحُجَّةَ بِإِرْسَالِ المُنْذِرِينَ إِلَيْهِمْ؛ لِيَكُونَ إِهْلَاكُهُمْ تذكُّرًا وَعِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ، فَلَا يَعْصُوا مِثْلَ عَصِيَانِهِمْ، ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فَتُهْلِكُ قَوْمًا غَيْرَ ظَالِمِينَ. وَهَذَا الِوَجْهُ عَلَيْهِ المَعْوَلُ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ عَزَلْتَ الوَاوُ عَنِ الجُمْلَةِ بَعْدَ ﴿ إِلَّا ﴾ وَلَمْ تُعْزَلْ عَنْهَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَهَذَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ [الحجر: ٤]؟ قُلْتُ: الأَصْلُ عَزَلُ

قَوْلُهُ: (لِإِمْعَانِهِمْ فِي التَّذْكَرَةِ)، أَي: مِبَالِغَتِهِمْ، كَقَوْلِكَ: رَجُلٌ عَدْلٌ، وَيُقَالُ: أَمَعَنَ الفَرَسُ: تَبَاعَدَ فِي عَدْوِهِ، وَأَمَعَنَ فِي السَّيْرِ: أَبْعَدَ وَأَسْرَعَ.

قَوْلُهُ: (تذكُّرًا وَعِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ)، الجَوْهَرِيُّ: العِبْرَةُ: الأَسْمُ مِنَ الاعتِبَارِ. وَعَنْ بَعْضِهِمْ: العِبْرَةُ: الحَالَةُ الَّتِي يُعْبَرُ بِهَا مِنْ مَنْزِلَةِ الجَهْلِ إِلَى مَرْتَبَةِ العِلْمِ، وَهَذَا سُمِّيَ القِيَاسُ عِبْرَةً، وَمِنْهُ العِبَارَةُ وَالعِبْرَةُ.

قَوْلُهُ: (وَهَذَا الِوَجْهُ عَلَيْهِ المَعْوَلُ)، أَي: الاعتِمَادُ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لِمَا يَبِينُ أَنَّ أَوْلَئِكَ المُشْرِكِينَ المُسْتَهْزِئِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَلَا بِالرُّسُولِ حَتَّى يَرَوْا العَذَابَ الأَلِيمَ حِينَ لَا تَنْفَعُهُمُ الآيَاتُ، أَتَى هَذِهِ الآيَةُ بَيَانًا لِاسْتِحْقَاقِهِمُ العَذَابَ وَالاستِثْصَالَ، وَأَنَّ يُجْعَلُوا نَكَالًا وَعِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ كَمَا جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الأُمَّمِ السَّالِفَةِ وَالقُرُونِ الخَالِيَةِ.

الواو؛ لأن الجملة صفة لـ ﴿قَرِيَّةٍ﴾، وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف، كما في قوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامُنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

[﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَبْغَى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ ٢١٠ - ٢١٢]

كانوا يقولون: إنَّ مُحَمَّدًا كَاهِنٌ، وما يتنزَّل عليه من جنس ما يتنزَّل به الشياطين على الكهنة، فكذبوا بأن ذلك مما لا يتسهَّل للشياطين ولا يقدرُون عليه؛ لأنهم مرَّجُمون بالشُّهب معزُولون عن استماع كلام أهل السماء. وقرأ الحسن: (الشَّيَاطُونُ)، ووجهه: أنه رأى آخره كآخر يَبْرِينِ وفِلَسْطِينِ، فتخيَّر بين أن يُجْرِي الإعراب على النون، وبين أن يُجْرِيه على ما قبله، فيقول: الشَّيَاطِينُ والشَّيَاطُونُ، كما تخيَّرت العربُ بين أن يقولوا: هذه يَبْرُونُ ويَبْرِينُ، وفِلَسْطُونُ وفِلَسْطِينُ. وحقُّه أن تَشْتَقَّه من الشَّيْطُوطة؛ وهي الهلاك،

قوله: (وإذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف)، يعني: ليس افتقار القرية في إهلاكها إلى بعثة الرسول لإلزام الحجَّة، كافتقارها إلى سبق التقدير، وضرب الأجل، وكم من قرية أهلكت ولم يصل إليها نذيرٌ، نعم، قد يصل إليها إنذارهم.

وقد اعترض صاحبُ «الفرائد» ومنع صحة دخول الواو بين الصفة والموصوف، وجوابه ما سبق في «الكهف».

قوله: (أن تَشْتَقَّه من الشَّيْطُوطة)، عن بعضهم، أو من شَاطِط، أي: احترق من نار الغضب، وبعضهم جعل نونه أصلية، قال أمية بن أبي الصلت في وصف سليمان:

أيما شاطين عصاه عكاه ثم يلقى في السجن والأغلال^(١)

عكاه: قيده.

(١) «ديوان أمية بن أبي الصلت» ص ٤٤٥.

كما قيل له: الباطل. وعن الفراء: غلَطَ الشيخُ في قراءته: (الشَّيَاطُونُ)، ظنَّ أنها النونُ التي على هجاءَيْن. فقال النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ: إن جازَ أن يُحتَجَّ بقولِ العَجَّاجِ ورُؤْيُة، فهلَّا جازَ أن يُحتَجَّ بقولِ الحسَنِ وصاحِبِهِ! - يريد: مُحَمَّدَ بنَ السَّمِيفِعِ - مع أَنَا نَعْلَمُ أَنَّهُمَا لم يَقْرَأْ به إِلا وقد سَمِعَا فِيهِ!

قوله: (النونُ التي على هجاءَيْنِ)، وفي الحاشية: الكوفيون يُسَمُّونَ جَمْعَ السَّلَامَةِ الجَمْعَ على هجاءَيْنِ، أي: ظنَّ أَن النُّونَ هِيَ النُّونُ التي تَجِيءُ بَعْدَ واوِ الجَمْعِ ويائه. وقال الزَّجَّاجُ: وَقَرَأَ الحَسَنُ: «وما تَنَزَّلَتْ به الشَّيَاطُونُ»^(١)، وَهُوَ غَلَطٌ عِنْدَ النُّحَوِيِّينَ، وَمُخَالَفٌ لِلْمَصْحَفِ وَالْقُرْآنِ^(٢).

وقال ابنُ جِنِّي بعدَ إطنابِهِ في تصحيحِ هذه القراءة: وعلى كُلِّ حالٍ، فدِ الشَّيَاطُونُ غَلَطٌ.

وقلت: والعجب من المصنّف كيف قام على ساقِ جدِّه في التَّمَحُّلِ لهذه القراءة التي ليست تَثْبُتُ لا روايةً ولا درايةً، ويقولُ: «مع أَنَا نَعْلَمُ أَنَّهُمَا لم يَقْرَأْ به إِلا وقد سَمِعَا فِيهِ»، ويتقاعَدُ إِذَا سَمِعَ مِنَ الأئِمَّةِ المشاهيرِ وأعلامِ المسلمينِ أَدْنَى خِلافٍ، كابنِ عامِرٍ وحَمزة، لا سِوَا فِي هذه السُّورَةِ فِي «لَيْكَةَ» عَنِ الحَرَمِيِّينَ وابنِ عامِرٍ^(٣).

قوله: (فقال النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ)، قال ابنُ الأَنْبَارِيِّ: هُوَ أَخَذَ العِلْمَ عَنِ الخَلِيلِ وَعَنِ فَصْحَاءِ العَرَبِ، وَأَخَذَ عَنْهُ أَبُو عُبَيْدِ القَاسِمِ بنُ سَلامٍ، وَصَنَّفَ كِتَابًا^(٤).

قوله: (بقولِ العَجَّاجِ)، هُوَ: عَجَّاجُ بنُ رُؤْيَةَ الرَاجِزُ السَّعْدِيُّ مِنَ بني سَعْدِ بنِ تَمِيمٍ.

(١) في (ح) و(ف): «الشَّيَاطِينُ» وليس بشيء.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٠٣). وعبارته الأخيرة: «ومخالفة عند القراء للمصحف».

(٣) وهو مما سبق بيانه.

(٤) «نزهاة الألباء» ص ٨٥.

[﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمَعْدِيَةِ﴾ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿

[٢١٣-٢١٤]

قد عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُحَرِّكَ مِنْهُ؛ لِأَزْدِيَّاتِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّقْوَى. وَفِيهِ لُطْفٌ لِسَائِرِ الْمَكَلَّفِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ نَقَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]، ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]. فِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يُؤَمَّرَ بِإِنْذَارِ الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ مِنْ قَوْمِهِ، وَيَبْدَأُ فِي ذَلِكَ بِمَنْ هُوَ أَوْلَى بِالْبَدَاءَةِ، ثُمَّ بِمَنْ يَلِيهِ، وَأَنْ يُقَدِّمَ إِنْذَارَهُمْ عَلَى إِنْذَارِ غَيْرِهِمْ، كَمَا رُوِيَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ قَالَ: «كُلُّ رَبِّاءٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضِعٌ تَحْتَ قَدَمِي هَاتَيْنِ، وَأَوَّلُ مَا أَضَعُهُ رَبِّاءُ الْعَبَّاسِ». وَالثَّانِي: أَنْ يُؤَمَّرَ بِأَنْ لَا يَأْخُذَهُ مَا يَأْخُذُ الْقَرِيبَ لِلْقَرِيبِ مِنَ الْعَطْفِ وَالرَّافَةِ، وَلَا يُجَابِيهِمْ فِي

قَوْلِهِ: (كُلُّ رَبِّاءٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضِعٌ)، رَوَيْنَا عَنْ التِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ وَالدَّارِمِيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْأَحْوَصِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ رَبِّاءٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضِعٌ، لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَنْظَلِمُونَ وَلَا تُظَلَمُونَ»^(١).

وَعَنْ ابْنِ مَاجَةَ وَالدَّارِمِيِّ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ: أَنَّ آخِرَ مَا نَزَلَ آيَةُ الرَّبِّاءِ^(٢). وَكَذَلِكَ عَنِ الْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٣).

قَوْلُهُ: (تَحْتَ قَدَمِي)، أَي: مُهَدَّرٌ. يَقُولُ الْمُوَادِعُ لِصَاحِبِهِ: اجْعَلْ مَا سَلَفَ تَحْتَ قَدَمَيْكَ: طَاهَةً وَأَقَمَعَةً.

قَوْلُهُ: (أَنَّ يُؤَمَّرَ بِأَنْ لَا يَأْخُذَهُ مَا يَأْخُذُ الْقَرِيبَ)، الْفَرْقُ أَنَّ «أَفْعَلَ» عَلَى الْأَوَّلِ عَلَى بَابِهِ، وَعَلَى هَذَا الْمَجْرَدِ الزِّيَادَةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الْأَوَّلِ: «الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ»، وَفِي الثَّانِي: «الْقَرِيبُ لِلْقَرِيبِ».

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (٣٠٥٥) وَأَبُو دَاوُدَ (٣٣٣٦) وَالدَّارِمِيُّ (٢٥٣٤) وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٠٨٧) وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ (٢٢٧٦) وَالدَّارِمِيُّ (١٢٩) وَانظُرْ تَمَامَ تَحْرِيجِهِ فِي «مُسْنَدِ أَحْمَدَ» (٢٤٦).

(٣) «صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ» (٤٥٤٤).

الإندارِ والتخويف. ورُوي: أنه صَعِدَ الصَّفَا لَمَّا نزلتْ، فنادى الأقرَبَ فالأقربَ فخذأ فخذأ، وقال: «يا بني عبدِ المطلبِ، يا بني هاشمِ، يا بني عبدِ منافٍ، يا عباسُ عمَّ النبيِّ، يا صفيَّةَ عمَّةَ رسولِ الله، إني لا أمليكَ لَكُمْ مِنَ الله شيئاً، سلُوني مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ».

ورُوي: أنه جَمَعَ بني عبدِ المطلبِ - وهم يومئذٍ أربعون رجلاً، الرجلُ مِنْهُم يأكلُ الجذعةَ، ويشربُ العُسَّ - على رجلٍ شاةٍ وَقَعِبٍ مِنْ لَبَنِ، فأكلُوا وشربُوا حتى صَدَرُوا، ثم أُنذَرَهُمْ فقال: «يا بني عبدِ المطلبِ، لو أخبرْتُكُمْ أَنَّ بسَفْحِ هذا الجبلِ خيلاً أَكْبَتُمْ مُصَدِّقِي؟» قالوا: نَعَمْ. قال: «فإني نذيرٌ لَكُمْ بينَ يَدَيَّ عذابٍ شديدٍ».

ورُوي: أنه قال: «يا بني عبدِ المطلبِ، يا بني هاشمِ، يا بني عبدِ منافٍ، افتدُوا أنفُسَكُمْ مِنَ النارِ

قوله: (ورُوي: أنه صَعِدَ الصَّفَا)، الحديثُ مرُويٌّ عن الأئمةِ مع اختلافٍ كثيرٍ^(١)، وأما حديثُ جَمَعَ بني عبدِ المطلبِ قد ذَكَرَهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ في «مُسْنَدِهِ»^(٢) مع اختلافٍ أيضاً. وأما ذِكْرُ عائشةَ وَحَفْصَةَ في الروايةِ الأخيرةِ فَيُتَوَهَّمُ أنَّهما كانتا زوجتينِ لرسولِ الله ﷺ حينئذٍ، وليس كذلك، فإنه صَلَّواتُ الله وسلامُهُ عليه تزَوَّجَ بهما بعدَ قدومه المدينةَ.

قوله: (يا عباسُ عمَّ النبيِّ ﷺ)، تَرَقَّى في القريبِ مِنَ العمِّ وإلى العمَّةِ في الأشخاصِ، كما تَرَقَّى مِنْ بني عبدِ المطلبِ إلى بني عبدِ منافٍ في القبيلةِ.

قوله: (ويشربُ العُسَّ)، الجوهرِي: العُسُّ: القَدْحُ العظيمُ، والرِّفْدُ أكبرُ منه. والقَصْبُ: قَدْحٌ صغيرٌ. و«على رجلٍ»: متعلِّقٌ بـ«جَمَعَ».

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٤٩٧٠) و«صحيح مسلم» (٢٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «مسند الإمام أحمد» (١٣٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضوان الله عليه.

فإني لا أغني عنكم شيئاً»، ثم قال: «يا عائشة بنت أبي بكر، ويا حفصة بنت عمر، ويا فاطمة بنت محمد، ويا صفيّة عمة محمد، اشترين أنفسكن من النار فإنني لا أغني عنكن شيئاً».

﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ أَبْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا نَعْمَلُونَ ﴾

[٢١٥ - ٢١٦]

الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب، ومنه قول بعضهم:

وَأَنْتَ الشَّهِيرُ بِخَفْضِ الْجَنَاحِ فَلَا تَسْكَ فِي رَفْعِهِ أَجْدَلًا

ينهاه عن التكبر بعد التواضع. فإن قلت: المتبعون للرّسول هم المؤمنون، والمؤمنون

قوله: (فإني لا أغني عنكم)، أي: لا أدفع، قال تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

قوله: (مثلاً)، أي: صارت الاستعارة التمثيلية لكثرة استعمالها مثلاً في التواضع، وبلغ مبلغ الأمثال السائرة.

قوله: (وأنت الشهير) ^(١)، أي: المشهور بالتواضع. الأجدل: الصّقر، جدالته، أي: قوته.

قوله: (المتبعون للرّسول هم المؤمنون)، توجيه السؤال أن قوله: ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ظاهراً غير صالح لأن يقع بيانا لقوله تعالى: ﴿ لِمَنِ أَبْعَكَ ﴾؛ لأن ﴿ لِمَنِ أَبْعَكَ ﴾ لا إبهام فيه، ولا يحتمل غير المؤمنين.

(١) لم أهد إلى قائل البيت.

هم المتَّبِعُونَ للرسول، فما معنى قوله: ﴿لَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟ قلت: فيه وَجْهان: أن يُسَمِّيَهُمْ قَبْلَ الدخولِ في الإيْمان مؤْمِنِينَ؛ لِمُشارِفَتِهِمْ ذلك، وأن يريدَ بالمؤْمِنِينَ المصدِّقِينَ بالسُنَّتِهم، وهم صِنْفان: صِنْفٌ صدَّقَ واتَّبَعَ رسولَ الله فيما جاء به، وصِنْفٌ ما وُجِدَ منه إلا التصديقَ فَحَسَبُ، ثم إمَّا أن يكونوا مُنافِقِينَ أو فاسِقِينَ، والمنافقُ والفاسِقُ لا يُحْفَظُ لهما الجَنَاح. والمعنى: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عَشِيرَتِكَ وَغَيْرِهِمْ، يعني: أَنْذِرْ قَوْمَكَ، فَإِنْ اتَّبَعُوكَ وَأَطَاعُوكَ فَاحْفَظْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، فَإِنْ عَصَوْكَ وَلَمْ يَتَّبِعُوكَ فَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مِنَ الشَّرْكِ بِاللَّهِ وَغَيْرِهِ.

[﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرِنَكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٢١٧ - ٢٢٠]

﴿وَتَوَكَّلْ﴾ على الله يَكْفِكَ شَرَّ مَنْ يَعَصِيكَ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ.....

وأجابَ مِنْ وَجْهَيْنِ: أحدهما: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يرادُ بِهِمُ الَّذِينَ لم يُؤْمِنُوا بعدُ، بل شارَفُوا لأنَّ يُؤْمِنُوا، كالمؤَلَّفَةِ مجازاً باعتبارِ ما يُؤوَلُّ، وكانَ مِنْ اتَّبَعَكَ شائعاً فَيَمَنَ آمَنَ حَقِيقَةً، وَمَنْ آمَنَ مجازاً، فَيَبَيَّنَ بقوله: ﴿مِنْ﴾ أَنَّ المرادَ بِهِمُ المِشارِفُونَ، أي: تواضَعُ لهُؤلاءِ استمالَةً وتألِيفاً. وثانيهما: أن يرادَ بالمؤْمِنِينَ: الَّذِينَ قالوا: آمَنَّا، وهم صِنْفان: صِنْفٌ صدَّقَ واتَّبَعَ، وصِنْفٌ ما وُجِدَ مِنْهُمُ إلا التصديقُ، فقليل: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وأريدَ بَعْضُ الَّذِينَ صدَّقُوا واتَّبَعُوا، أي: تواضَعُ لَهُمْ مَحَبَّةً وموَدَّةً، ف«مِنْ» - على الأول: بيانٌ، وعلى الثاني: تَبعِيضٌ، وموقِعُهُ موقِعُ البَدَلِ ﴿لَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾، والتقديرُ: واحْفَظْ جَنَاحَكَ لِبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ، وهُمُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ، وَمِنْ ثَمَ فَصَلَّاهُمْ بقوله: «إِنْ اتَّبَعُوكَ وَأَطَاعُوكَ فَاحْفَظْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، فَإِنْ عَصَوْكَ وَلَمْ يَتَّبِعُوكَ فَتَبَرَّأْ مِنْهُمْ». والذي هُوَ أَجْرَى على أَفانينِ البلاغةِ أن يَحْمَلَ الكلامُ على أُسلوبِ وَضْعِ المَظْهَرِ موضعِ المَضمَرِ، وأنَّ الأصلَ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ مِنْهُمْ، فعدَّلَ إلى «المؤْمِنِينَ»، لِيَعْمَ وَلِيُؤذِنَ أَنَّ صِفَةَ الإيْمانِ هِيَ التي تَسْتَحِقُّ أن يُكرَمَ صاحبُها، وَيَتواضَعُ لاجلِها مِنَ اتَّصَفَ بها، سواءً كانَ مِنْ عَشِيرَتِكَ أو مِنْ غَيْرِهِمْ.

والتوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره. وقالوا:

قوله: (والتوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره)، هذا موافق لكلام الشيخ العارفي الأنصاري^(١): التوكل: كلة الأمر كله إلى مالكه، والتعويل على وكالته^(٢). لكن قوله الآخر: «التوكل: من إن ذمته أمر لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية لله» من أخط مراتب التوكل وأدناها. وقال العارفي: التوكل على ثلاث درجات، كلها تسير مسير العامة، الأولى: التوكل مع الطلب ومُعاطاة السبب على نية شغل النفس ونفع الخلق وترك الدعوى. والثانية: التوكل مع إسقاط الطلب وغض العين عن السبب اجتهاداً في تصحيح التوكل، وقمع تشريف النفس، وتفرغاً لحفظ الواجبات. والثالثة: التوكل مع معرفة التوكل النازعة إلى الخلاص من علة التوكل، وهو أن يعلم أن ملكة الحق تعالى للأشياء ملكة عزرة لا يشاركه فيها مُشارك، فيكفل شركته إليه، فإن من ضرورة العبودية أن يعلم العبد أن الحق هو مالك الأشياء وحده^(٣). وعنى بقوله: «مع معرفة التوكل النازعة إلى الخلاص من علة التوكل»: أن يعلم أن الله تعالى لم يترك أمراً مهملاً، بل فرغ من الأشياء كلها وقدرها، وإن اختلف منها شيء في العقول، أو تشوش في المحسوس، أو اضطرب في المعهود المدبر، وشأنه سوق المقادير إلى المواقيت، فالتوكل: من أراح نفسه من كد النظر، ومطالعة السبب، سُكوناً إلى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين، وهو أن يعلم أن الطلب لا يجمع، والتوكل لا يمنع، ومتى طالع بتوكله عوضاً كان توكله مدخولاً، وقضه معلولاً، وإذا خلص من رِق هذه الأسباب، ولم يلاحظ في توكله سوى خالص حق الله عز وجل، كفاه الله تعالى كل مهم.

وإلى المرتبة الأولى الإشارة بترتب الأمر بالتوكل على وصف الرحيم؛ فإن من رحمته تعالى جعله صلوات الله وسلامه عليه سبباً لإرشاد الخلق: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً﴾

(١) يعني الإمام أبو إسحاق الهروي صاحب «منازل السائرين» الذي شرحه ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين».

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢: ١٢٦).

(٣) المصدر السابق (٢: ١٢٩-١٣٥).

المتوكل من إن دهمته أمرٌ لم يُحاول دفعه عن نفسه بما هو معصيةٌ لله، فعلى هذا إذا وقع الإنسان في محنةٍ ثم سأل غيره خلاصه، لم يخرج من حدِّ التوكل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله. وفي مصاحف أهل المدينة والشام: (فتوكل)، وبه قرأ نافع وابن عامر، وله محملان في العطف: أن يُعطف على ﴿فَقُلْ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، أو ﴿فَلَا تَنْعُ﴾ [الشعراء: ٢١٣]. ﴿عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾: على الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرُك عليهم برحمته. ثم أتبع كونه رحيماً على رسوله ما هو من أسباب الرحمة؛ وهو ذكراً ما كان يفعلُه في جوف الليل من قيامه للتهجد، وتقلُّبه في تصفُّح أحوال المهتجدين من أصحابه؛ ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون، ويستبطن سرَّ أمرهم، وكيف يعبدون الله، وكيف يعملون لآخرتهم، كما يُحكى: أنه حين نُسَخَ فرضُ قيام الليل، طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون؛ لحرصه عليهم وعلى ما

[الأنبياء: ١٠٧]، وإلى المرتبة الثانية الإشارة بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلُبُ فِي السَّجْدِ﴾، أي: حين تتفرغ لأداء حفظ الواجبات؛ لأن في حفظ الواجبات تصحيح أمر التوكل، وفي الإخلاص فيها، بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، الموصى إليه بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، فمع تشرف النفس، وإلى الرتبة الثالثة الإشارة بقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزِ﴾، كما قال العارف: «أن يعلم أن ملكة الحق تعالى للأشياء ملكة عزة، لا يُشاركه فيها مُشارك». ولعل السر في تقديم هذا الاسم على الوصفين الأخيرين اقتضاء مقام التسلي عن المشاقِّ اللاحقة من القوم إليه، لأن قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ عطف على قوله: ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، كأنه قيل: فإن لم ينتفعوا بإنذارك ولم ينجع فيهم وعظك تبرأ منهم، وكل أمرك وأمرهم إلى العزيز الغالب القاهر، واشتغل بدعوة من يقبل دعوتك، وبلغ إليهم ما أنزل إليك من الرحمة من ربك، واخفص جناحك لهم رحمة؛ لأنك رحمة مُهداة إلى الخلق، وتفرغ لعبادة ربك بالليل والنهار.

قوله: (حين نُسَخَ فرضُ قيام الليل)، أي: بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنَّ لَنْ تُخْصَوْهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠] أي: أسقط عنكم.

يوجدُ منهم من فعلِ الطاعات وتكثيرِ الحسنات، فوجدَها كيبوت الزنابير لما سمِعَ منها من دندنَتهم بِذِكْرِ الله والتلاوة. والمرادُ بـ ﴿السَّاجِدِينَ﴾: المصلُّون. وقيل: معناه: يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة. وتقلُّبه في الساجدين: تصرفه فيما بينهم بقيامه ورُكوعه وسُجوده وقعوده إذا أمَّهم. وعن مقاتل: أنه سأل أبا حنيفة رحمه الله: هل تحبُّ الصلاة في الجماعة في القرآن؟ فقال: لا تحضرنِي، فتلا له هذه الآية. ويحتملُ أنه لا يخفى عليه حالُك كلِّما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما تقوله ﴿أَلْعَلِيمُ﴾ بما تنويه وتعمله. وقيل: هو تقلُّبُ بصره فيمن يصلي خلفه، من قوله عليه السلام: «أَتِمُّوا الرُّكُوعَ والسُّجُودَ، فواللهِ إني لأراكم من خلفِ ظهري إذا ركعتم وسجدتم». وقرئ: (ويقلُّبك).

[﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُنْفِقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهمْ كَذِبُوث﴾ ٢٢١-٢٢٣]

﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: هم الكهنة والمتنبئة،

قوله: (من دندنَتهم)^(١)، في «الفاثق»: الدندنَةُ: كلامٌ أرفع من الهَيَمَةِ تُردِّده في صدرك تسمعُ نعمته ولا يفهم.

قوله: (قوله: إني لأراكم خلفَ^(٢) ظهري)، رَوينا في «صحيح البخاري» عن أنسٍ، قال: أُقيمت الصلاة، فأقبل علينا رسولُ الله ﷺ بوجهه، فقال: «أقيموا صُفوفكم وتراصُّوا؛ فإني أراكم من وراءِ ظهري»^(٣). وفي رواية أبي داودَ عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ كان يقول: «استَوُوا، استَوُوا، فوالذي نفسي بيده إني لأراكم من خلفي كما أراكم من بين يدي»^(٤).

(١) «الفاثق في غريب الحديث» (١: ٤٤٠).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «من خلف».

(٣) أخرجه البخاري (٧١٩).

(٤) لم أجده في «سنن أبي داود»، وهو في «مسند أحمد» (١٣٨٦٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كشيق، وسطيح،

قوله: (كشيق وسطيح)، وهما كاهنان، ومُسيلمة وطليحة متنبیان.

فأما شقُّ فهو ابنُ صعبِ بنِ رُهمِ بنِ نذيرِ بنِ بشيرِ. وقصته - على ما رواه الشيخُ أبو الوفاء المَهديُّ بنُ محمدِ البغداديُّ في كتابِ «مقاماتِ العلماء»: أن ربيعةَ بنَ نصر اللخمي، من ملوكِ اليمَن، رأى رؤيا هالته، فلم يدعِ كاهناً ولا ساحراً ولا مُنجماً من أهلِ مملكته إلا جَمَعَهُم إليه، ثم قال لهم: أخبروني بتأويلِ رؤيا رأيته، فقالوا: اقضض علينا نُخْرِكَ، فقال: لم يعرفِ تأويلها إلا من يعرفُها قبلَ أن أخبره بها، فقال رجلٌ من أولئك القوم: إن كان الملكُ يريدُ هذا فليبعثْ إلى سطيح وسيق؛ فأحضَرَ الملكُ الشق، فقال الملكُ: أخبرني رؤياي، فإنك إن أصبتها أصبتَ تأويلها. قال: رأيتُ جُمجمةً خرَجتَ من ظلمة فوقعتْ بأرضِ تهامة فأكلتُ منها كلَّ ذاتِ جُمجمة. قال له: ما أخطأتَ يا شقُّ منها شيئاً، فما عندك في تأويلها؟ قال: أحلفُ بما بينَ الحرتينِ من إنسانٍ لينزلنَ أرضكمُ السودان، فليغلبنَ على كلِّ طفلةِ البنان، وليملكُنَ ما بينَ أُبينَ إلى نجران. قال الملكُ: وأبيك يا شقُّ، إن هذا لنا لغائظٌ موجه، فمتى هو كائنٌ، أي زمني أم بعده؟ قال: بل بعده بزمان، ثم يستنقذكم منهم عظيمٌ ذو شأن، ويُذيقهم أشدَّ الهوان. قال: ومن هذا العظيمُ الشأن؟ قال: غلامٌ ليس بدني ولا بديء، يخرجُ من بيتِ ذي يزن، قال: فهل يدومُ ملكه أم ينقطع؟ قال: بل ينقطعُ برسولٍ مُرسَلٍ يأتي بالحقِّ والعدلِ من أهلِ الدين والفضل، يكونُ الملكُ في قومه إلى يومِ الفصل. قال: وما يومُ الفصل؟ قال: يومٌ تُجرى فيه الولايةُ يدعى فيه من السماءِ بدعواتٍ يسمَعُها الأحياءُ والأموات، قال: أحقُّ ما تقولُ يا شقُّ؟ قال: وربُّ السماءِ والأرضِ وما بينهما إنَّ ما أنبأتُك به لحقٌّ، وكان قد قدمَ على الملكِ سطيحٌ قبله فأخبره بنحوِ ما أخبره شقُّ لا يختلفُ إلا في ألفاظٍ، منها: قوله: بل ينقطع، قال: ومن يقطعُ؟ قال: نبيُّ زكيٍّ يأتيه الوحيُّ من قبلِ العليِّ. قال: ومن هذا النبيُّ؟ قال: رجلٌ من ولدِ غالبِ بنِ فهرِ بنِ مالكِ بنِ النضرِ؟ يكونُ الملكُ في قومه إلى آخرِ الدهر، قال: وهل للدَّهرِ من آخر؟ قال: نعم، يومٌ يُجمعُ فيه الأولونَ والآخرون، ويسعدُ فيه المُحْسِنونَ ويشقى فيه المُسيئون، قال: أحقُّ ما تُخبرنا يا سطيح؟ قال: نعم، والشفقُ والغسقُ، والفلقُ إذا اتسق، إنَّ ما نبأتُك لحقٌّ، فلما فرغَ الملكُ

من مسألتهما وَقَعَ في نَفْسِهِ أَنَّ الَّذِي قَالَا لَهُ كَاتِنٌ مِنْ أَمْرِ الْحَبِشَةِ، فَجَهَّزَ بَيْنَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ فَسَكَنُوا الْحَيْرَةَ، فَمِنْ بَقِيَّةِ رِبِيعَةَ بْنِ نَضْرٍ كَانَ النُّعْمَانُ بْنُ الْمُنْذَرِ.

وَأَمَّا سَطِيحٌ فَهُوَ ابْنُ رِبِيعَةَ بْنِ عَدِيٍّ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ مَازِنٍ، وَحَدِيثُهُ عَلَى مَا رَوَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي كِتَابِ «الْوَفَاءِ»، قَالَ: لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ارْتَجَسَ إِيوَانُ كَسْرَى وَسَقَطَتْ مِنْهُ أَرْبَعُ عَشْرَةَ شُرْفَةً، وَغَاصَتْ بِحَيْرَةَ سَاوَةً، وَخَدَّتْ نَارُ فَارَسٍ، وَلَمْ تَحْمُدْ قَبْلَ ذَلِكَ بِالْفِ عَامٍ، وَرَأَى الْمُؤَبِّدَانُ^(١) إِبِلًا صِعَابًا تَقْوُدُ خَيْلًا عِرَابًا قَدْ قَطَعَتْ دَجَلَةَ، وَانْتَشَرَتْ فِي بِلَادِهَا، فَأَصْبَحَ كَسْرَى فَرِعًا مِمَّا رَأَى، فَتَصَبَّرَ تَشَجُّعًا، ثُمَّ رَأَى أَنَّ لَا يَكْتُمُ ذَلِكَ عَنْ وُزْرَائِهِ وَمَرَازِيئِهِ، فَلَيْسَ تَاجَهُ وَقَعَدَ عَلَى سَرِيرِهِ، وَجَمَعَهُمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ فِيمَ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ؟ قَالُوا: لَا، فَبَيْنَاهُمْ كَذَلِكَ إِذْ وَرَدَ خَبْرُ خَمُودِ النَّارِ، فَازْدَادَ عَمًا إِلَى عَمِّهِ، فَقَالَ: الْمُؤَبِّدَانُ: وَأَنَا، أَصْلَحَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلِكِ، قَدْ رَأَيْتُ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا، فَقَالَ: مَاذَا يَكُونُ هَذَا يَا مُؤَبِّدَانُ؟ قَالَ: حَادِثٌ يَكُونُ مِنَ عِنْدِ الْعَرَبِ، فَكَتَبَ كَسْرَى إِلَى النُّعْمَانِ: أَمَّا بَعْدُ، فَوَجَّهْ إِلَيَّ رَجُلًا عَالِمًا بِمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ عَبْدَ الْمَسِيحِ الْعَسَانِيَّ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ قَالَ: هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ بِمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلُكَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: لِيخْبِرَنِي الْمَلِكُ؛ فَإِنْ كَانَ عِنْدِي مِنْهُ عِلْمٌ أَخْبَرْتُهُ، وَإِلَّا أَخْبَرْتُهُ بِمَنْ يَعْلَمُهُ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا رَأَى، فَقَالَ: عِلْمٌ ذَلِكَ عِنْدَ خَالِ لِي يَسْكُنُ مَشَارِفَ الشَّامِ يُقَالُ لَهُ: سَطِيحٌ، قَالَ: فَأَتَيْهِ فَاسْأَلْهُ عَمَّا سَأَلْتُكَ عَنْهُ وَأَتِنِّي بِجَوَابِهِ، فَرَكِبَ عَبْدَ الْمَسِيحِ رَاحِلَتَهُ حَتَّى قَدِمَ عَلَى سَطِيحٍ وَقَدْ أَشْفَى عَلَى الْمَوْتِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَحَيَّاهُ فَلَمْ يُجِزْ جَوَابًا، فَأَنْشَدَ آيَاتًا، فَلَمَّا سَمِعَ سَطِيحٌ شَعْرَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: عَبْدُ الْمَسِيحِ عَلَى جَهْلِ مُشِيحٍ، جَاءَ إِلَى سَطِيحٍ، وَقَدْ أَوْقَى عَلَى الصَّرِيحِ بَعَثَكَ مَلِكُ سَاسَانَ، لِارْتِجَاسِ الْإِيوَانِ، وَخَمُودِ النَّيْرَانِ، وَرُؤْيَا الْمُؤَبِّدَانِ، وَذَكَرَهَا بَعَيْنَيْهَا ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ الْمَسِيحِ، إِذَا كَثُرَتِ التَّلَاوَةُ، وَبُعِثَ صَاحِبُ الْهَرَاوَةِ، وَفَاضَ وَادِي سَمَاوَةَ، وَغَاصَتْ بِحَيْرَةُ سَاوَةً، وَخَدَّتْ نَارُ فَارَسٍ، فَلَيْسَتْ الشَّامُ لِسَطِيحٍ شَامًا، يَمْلِكُ مِنْهُمْ مَلُوكٌ وَمَمْلِكَاتٌ، عَلَى عَدَدِ الشُّرَفَاتِ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، ثُمَّ قَضَى سَطِيحٌ مَكَانَهُ، فَلَمَّا قَدِمَ عَبْدُ الْمَسِيحِ عَلَى كَسْرَى أَخْبَرَهُ بِقَوْلِ سَطِيحٍ، فَقَالَ:

(١) وهو قاضي قضاة المجرس.

ومُسَيْلِمَةَ، وَطَلِيحَةَ، ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾: هُمُ الشَّيَاطِينُ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُحْجَبُوا بِالرَّجْمِ يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى فَيَخْتَطِفُونَ بَعْضَ مَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ مِمَّا أُطْلِعُوا عَلَيْهِ مِنَ الْغُيُوبِ، ثُمَّ يُوحُونَ بِهِ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ أَوْلِيَاءِكَ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ فِيمَا يُوحُونَ بِهِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ يُسْمِعُونَهُمْ مَا لَمْ يَسْمَعُوا. وَقِيلَ: يُلْقُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ السَّمْعَ، أَي: الْمَسْمُوعَ مِنْ

إِلَى أَنْ يَمْلِكَ مَنَّا أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَدْ كَانَتْ أُمُورٌ. فَمَلَكَ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ أَرْبَعِ سِنِينَ، وَمَلَكَ بَاقُونَ إِلَى خِلَافَةِ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ (١).

وَأَمَّا طَلِيحَةُ فَقَدْ رَوَى مُحِبِّي السُّنَّةِ: هُوَ طَلِيحَةُ بْنُ خُوَيْلِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَكَانَ طَلِيحَةُ آخِرَ مَنْ ارْتَدَّ وَادَّعَى النُّبُوَّةَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَوَّلَ مَنْ قَتَلَ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَهْلِ الرُّدَّةِ، فَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَيْهِ فَهَزَمَهُمْ بَعْدَ قِتَالٍ شَدِيدٍ، وَأَفَلَّتْ طَلِيحَةُ، فَمَرَّ عَلَى وَجْهِهِ هَارِبًا نَحْوَ الشَّامِ. ثُمَّ إِنَّهُ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ (٢).

وَأَمَّا مُسَيْلِمَةُ فَقَدْ رَوَى أَيْضًا مُحِبِّي السُّنَّةِ أَنَّهُ قَالَ: اسْمُهُ ثُمَامَةُ (٣) بِنُ قَيْسٍ، وَكَانَ قَدْ تَنَبَّأَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي آخِرِ سِنَةِ عَشْرٍ، وَزَعَمَ أَنَّهُ اشْتَرَكَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي النُّبُوَّةِ، وَكَتَبَ: مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُحَمَّدِ رَسُولِ اللَّهِ، أَمَّا بَعْدُ: إِنْ الْأَرْضُ نَصَفُهَا لِي، وَنَصَفُهَا لَكَ، فَأَجَابَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». فَبَعَثَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ فِي جَيْشٍ كَثِيرٍ حَتَّى أَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ وَحْشِيٍّ، وَكَانَ وَحْشِيٌّ يَقُولُ: قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ (٤)، وَشَرَّ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ (٥)، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(١) انظر: «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزي (١: ١٦٥-١٦٨).

(٢) «معالم التنزيل» (٣: ٧١).

(٣) في (ح) و(ف): «ندام»، وفي (ط): «ندام»، والجماعة ما أثبتناه، وهو على الصواب في «معالم التنزيل».

(٤) يعني حمزة عم النبي ﷺ.

(٥) «معالم التنزيل» (٣: ٧٠).

الملائكة. وقيل: الأفَّاكون يُلقون السَّمعَ إلى الشياطين فيتلقون وحيهم إليهم. أو يُلقون المسموعَ من الشياطين إلى الناس. وأكثرُ الأفَّاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يُوحوا إليهم، وترى أكثرَ ما يحكمونَ به باطلاً وزوراً. وفي الحديث: «الكلمةُ يحفظُها الجنِّي فيقرُّها في أُذنٍ وليِّه فيزيدُ فيها أكثرَ من مئةِ كذبةٍ». والقرُّ: الصَّبُّ. فإن قلت: كيف دخل حرفُ الجرِّ على ﴿مَنْ﴾ المتضمِّنة لمعنى الاستفهام، والاستفهامُ له صدرُ الكلام؟ ألا ترى إلى قولك: أعلى زيد مررت؟ ولا تقول: على أزيد مررت؟ قلت: ليس معنى التضمُّن أن الاسمَ دَلَّ على معنيَّين معاً: معنى الاسم، ومعنى الحرف، وإنما

قوله: (الكلمةُ يحفظُها - ويُروى: يحفظُها^(١) - الجنِّي)، الحديثُ من رواية البخاريِّ ومسلم، عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: سألتُ ناسَ رسولِ الله ﷺ عن الكُهَّان، فقال لهم: «ليسوا بشيء». قالوا: يا رسولَ الله، فإنهم يُحدِّثون أحياناً^(٢) بالشيءِ يكونُ حقاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «تلك الكلمةُ من الحقِّ يحفظُها^(٣) الجنِّي فيقرُّها في أُذنٍ وليِّه قرَّ الدجاجة، فيخلطونَ فيها أكثرَ من مئةِ كذبةٍ^(٤)».

النهاية: الحَظْفُ: استلابُ الشيءِ وأخذُه بسُرعة، ومنه حديثُ الجنِّ: يحفظونَ السَّمعَ، أي: يسترِقونَه ويستلبونَه. والقرُّ: ترديدُ الكلامِ في أُذنِ المخاطبِ حتى يفهمَه، تقول: قرَّرتُه فيه أقرَّه قرّاً، وقرَّ الدجاجة: صوتُها إذا قطعته. وفي حديث: «فيأتي بها إلى الكاهن فيقرُّها في أُذنه كما تقرُّ القارورة، إذا أفرغ فيها^(٥)». وهذا المعنى هو الذي عناه المصنِّف بقوله: «والقرُّ: الصَّبُّ».

(١) في (ح) و(ف): «تحفظها»، ورسمت في (ط): «يحفظها» في الموضعين، غير أن الياء لم تنقط في الأول منها، والحادثة ما أثبتناه.

(٢) في الأصول الخطية: «أخباراً»، وليس بشيء، وصوبناه من «صحيح البخاري».

(٣) في (ط): «يحفظها».

(٤) أخرجه البخاري (٦٢١٣) ومسلم (٢٢٢٨) وغيرهما.

(٥) هو جزءٌ من حديثٍ أخرجه البخاري (٥٧٦٢) ومسلم (٢٢٢٨) من حديثِ عائشة رضوان الله عليها.

معناه: أن الأصل أمن، فحُذِفَ حرفُ الاستفهام واستمرَّ الاستعمالُ على حذفه، كما حُذِفَ من «هل»، والأصل: أهل. قال:

أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم؟

فإذا أدخلتَ حرفَ الجرِّ على «من» فقدَّرتِ الهمزةَ قبلَ حرفِ الجرِّ في ضميرك، كأنك تقول: أعلى من تنزلُ الشياطين، كقولك: أعلى زيدٍ مررت. فإن قلت: ﴿يُلْقُونَ﴾ ما محلُّه؟ قلت: يجوزُ أن يكونَ في محلِّ النَّصبِ على الحال، أي: تنزلُ مُلقينَ السَّمعِ، وفي محلِّ الجرِّ صِفَةً لـ ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ﴾؛ لأنه في معنى الجَمعِ، وأن لا يكونَ له محلٌّ بأن يُستأنفَ، كأنَّ قائلاً قال: لِمَ تنزلُ على الأفَّاكينَ؟ فقيل: يفعلون كَيْتَ وكَيْت. فإن قلت: كيف قيل: ﴿وَكَثُرُهُمْ كَذِبُوتٌ﴾ بعدما قُضِيَ عليهم بأن كلَّ واحدٍ منهم أفَّاك؟ قلت:

قوله: (أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم؟)، أوَّله:

سائلُ فوارسَ يربوعَ بشدِّتنا^(١)

يربوعٌ: أبو حيٍّ من تميم، بشدِّتنا، بفتح الشَّين: حملتِنا وصدمتِنا. وقد شدَّ عليه في الحرب يشدُّ شدًّا، ويروى بكسرِها، أي: قوتِنا، وسفحُ الجبلِ: أسفله، والقاع: المُستوي من الأرضِ، والأكمةُ: التلُّ، والجَمعُ: آكامٌ وأكَمٌ، ولا يجوزُ أن يُجعلَ «هل» للاستفهام؛ لأنَّ حرفَ الاستفهام لا يدخلُ على حرفِ الاستفهام.

قوله: (فإذا أدخلتَ حرفَ الجرِّ على «من» فقدَّرتِ الهمزةَ قبلَ حرفِ الجرِّ)، قال صاحبُ «الفرائد»: يشكُّلُ ما ذكَّرَ بقولهم: من أين أنتَ ومن أين جئتَ؟ وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾، وقولهم: فيم، وبم، ومم، وحتام، ونحوها. ويمكنُ أن يُقال: لا اعتبارَ لتقدُّمِ حرفِ الجرِّ، وقولهم: له صدرُ الكلام المرادُ: تقدُّمه على ما كان، وكذا في الكلام، كقولك: أين زيدٌ، لا يجوزُ أن تقول: زيدٌ أين، أو مفعولاً من المفاعيل، كقولك: أزيداً صرَّبتَ، ولا تقول: صرَّبتَ زيدا، ولا: صرَّبتَ متى، ولا: صرَّبتَ أين؟

(١) البيت لزيد الخير كما في «مشاهد الإنصاف» (٣: ٣٤٢).

الأفَّاكُونَ هم الذين يُكثرون الإفك، ولا يدلُّ ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك، فأراد أن هؤلاء الأفَّاكين قلَّ مَنْ يصدقُ منهم فيما يحكي عن الجنِّيِّ؛ وأكثرهم مُفترٍ عليه. فإن قلت: ﴿وإِنَّهُمْ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، ﴿هَلْ أُنثِيَتْكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ لِمَ فَرَّقَ بَيْنَهُنَّ وَهَنَّ أَخَوَاتٍ؟

قوله: (ولا يدلُّ ذلك على أنهم لا ينطقون إلا بالكذب^(١))، يُريدُ أن «فعالاً» فيه دلالة على التكثير لا الاستغراق، فنسبه أولاً بقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ * ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ * على أن الشياطينَ ينزلون على مَنْ دأبه الإفكُ والكذبُ. ثم بيَّن ثانياً بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُوثٌ﴾ * على أن أكثر هؤلاء الأفَّاكين بناءً على دأبهم وعادتهم يفترون على الشياطين فيما يتلقون منهم؛ لأنهم يزيدون على ما يسمعون كما سبق في حديث عائشة رضي الله عنها، فيخلطون فيها أكثر من مئة كذبة.

ويجوز أن يرجع الضميرُ في «أكثرهم» إلى الشياطين، والحديثُ يحتمله أيضاً، قال القاضي: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُوثٌ﴾ * فيما يُوحون به إليهم، أو يُسمعونهم لا على وجه ما تكلمت به الملائكة عليهم السلام؛ لشرايرهم، أو لقصور فهمهم^(٢).

قوله: (لم فَرَّقَ بَيْنَهُنَّ وَهَنَّ أَخَوَاتٍ)، يعني: أن هذه الآيات الثلاث نازلة في شأن القرآن، وفيما ينبغي أن يُقال فيه وما لا ينبغي، فلم لم تجيء على نسقٍ واحد ولم يقل: ﴿وإِنَّهُمْ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ *، ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيمُونَ *، ﴿هَلْ أُنثِيَتْكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ * نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ *، فإنها واردة على وتيرة واحدة؟ ولم فَرَّقَ بَيْنَهُنَّ بآياتٍ متباعدة المعاني؟ وحاصلُ المعنى: أنها كالتراجع للمعاني التي تحللت بيهنَّ، فإن قوله تعالى: ﴿لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ * كالتراجع من قصص الأنبياء عليهم السلام إلى ما بُدئ منه في فاتحة السورة من ذكر الكتاب وتكذيب القوم له. وقوله: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ * مذكورٌ بعد إهلاك القرى المنذرة. وقوله: ﴿هَلْ أُنثِيَتْكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ﴾ * مسوقٌ بعد النهي عن ادعاء غير الله

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «بالإفك».

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٥٦).

قلت: أريد التفريق بينهما بآيات ليست في معانها، ليرجع إلى المحيي بهن وتطرية ذكر ما فيهن كرامة بعد كرامة، فيدل بذلك على أن المعنى الذي نزلن فيه من المعاني التي اشتدت كراهة الله لخلافها. ومثاله: أن يحدث الرجل بحديث، وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه.

[﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ٢٢٤ - ٢٢٦]

﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ مُبتدأ، و﴿يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ خبره، ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم، وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء، وتمزيق الأعراض، والقذح

تعالى إلهاء، وكل هذه الآيات مُدانيّة المعاني في نفسها، لكنها تبتعد مناسبتها ظاهراً عن معنى تلك الآيات الثلاث، والترجيح كما علم يستدعي شدة الاتصال بما رجع به إليها، فدل ذلك على شدة الكراهية لما نزلت الآيات فيه، وهو إنكار قريش أن القرآن ليس من عند الله، وأنه من جنس ما كان ينزل على الكهنة والشعراء. وروى عن المصنّف: أن العبارة المتداولة في قولنا: اشتدت كراهة الله تعالى لخلافها، أي: لأجل خلافها اشتدت العناية بذكره، فاحترز عنها في حق الله تعالى.

قوله: (وتطرية ذكر)، تطرية السيف: محادثته بالصقل وتعهده به، قال زهير:

أحادثه بصقل كل يوم وأعجمه بهامات الرجال^(١)

قوله: (أن يحدث الرجل بحديث، وفي صدره اهتمام بشيء منه وفضل عناية، فتراه يعيد ذكره ولا ينفك عن الرجوع إليه)، وقلت: هذا المعنى هو الذي اعتمدنا عليه في أكثر ما تصدّينا لنظم السور، فليكن على ذكر منك، والله تعالى أعلم.

قوله: (ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم... إلا الغاؤون)، هذا الحصر يفيد بناء

(١) لم أجده في «ديوان زهير».

في الأنساب، والنسب بالحرم، والغزل، والابتهار، ومدح من لا يستحق المدح، ولا

﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ على «الشعراء» على تقوي الحكم، واللام في «الشعراء» و﴿الغاون﴾: للجنس، فإن مثل هذا التركيب عند المؤلف يفيد الاختصاص. وقال في المزمّل في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمْدِدُ أَيْلًا وَالنَّهَارَ﴾ [المزمّل: ٢٠]: «وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه، يُقدَّر: هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير»^(١) وقد سبق مراراً. ويعضده قراءة عيسى بن عمّار: «الشعراء» بالنصب على شريطة التفسير^(٢)، فإنها تدل على التكرير والتأكيد، وربما دل على التخصيص لتقدير العامل بعد المنصوب، وإلى معنى هذا الحضر يُنظر قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، ومن ثم ناسب أن يُعقّب بهذه الآية قوله تعالى: ﴿هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ * نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾؛ لأنه حديث أمر الوحي كما سبق، وجل منصب الرسالة عن الشعر، وعظم منزلة أمته من الغواية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾.

قوله: (والنسب بالحرم والغزل)، الجوهري: نسب الشاعر بالمرأة، ينسب - بالكسر - نسيباً: إذا شَبَبَ بها، ومغازلة النساء: محادثتهن ومراودتهن، تقول: غازلتها وغازلتني، والاسم الغزل. وحُرمة الرجل: أهله، والحرم: النساء، قال:

والموت أكرم نزالٍ على الحرم^(٣)

قوله: (والابتهار)، الجوهري: الابتهاؤ: ادعاء الشيء كذباً، قال:

وما بي أن مدحتهم ابتهاؤ^(٤)

وابتهر فلان بفلانة: اشتهر بها.

(١) انظر: «الكشاف» (١٦: ١٠٣).

(٢) انظر: «مختصر شواذ القرآن» ص ١٠٨، و«البحر المحيط» (٨: ٢٠٠).

(٣) لم أهد إلى قائله.

(٤) ذكره الجوهري في «الصحاح» (بهر) من غير عزو لأحد.

يَسْتَحْسِنُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَلَا يَطْرَبُ عَلَى قَوْلِهِمْ إِلَّا الْغَاوُونَ وَالسُّفَهَاءُ وَالشُّطَّارُ. وقيل: الْغَاوُونَ: الرَّاؤُونَ. وقيل: الشياطين. وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزُّبَيْرِي، وهُبَيْرَةُ بن أَبِي وَهْبٍ المَخْزُومِيُّ، ومُسَافِعُ بن عَبْدِ مَنَافٍ، وأبو عَزَّةَ الجُمَحِيُّ. ومن ثَقِيفٍ: أُمَيَّةُ بنُ أَبِي الصَّلْتِ، قالوا: نحنُ نقولُ مِثْلَ قولِ مُحَمَّدٍ، وكانوا يهْجُونَهُ، ويَجْتَمِعُ إليهِم الأعرابُ من قومِهِم يَسْتَمْعُونَ أشعارَهُم وأهاجِيهِم. وقرأ عيسى بنُ عُمَرَ: (والشعراء) بالنصب على إضمارِ فعلٍ يفسِّره الظاهر. قال أبو عُبَيْدٍ: كان الغالبُ عليه حَبُّ النَّصْبِ؛ قرأ: ﴿حَمَّالَةَ أَحْطَبٍ﴾ [المسد: ٤]، ﴿وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ﴾ [المائدة: ٣٨]، و(سورة أنزلناها) [النور: ١]. وقرئ: (يَتَّبِعُهُم) على التخفيف، و(يَتَّبِعُهُم) بسُكُونِ العَيْنِ تشبيهاً لـ «بَعَّة» بـ «عَضْد».

قوله: (إلا الغاوون والسُّفَهَاءُ)، قال: الزجَّاجُ: يتبعُهُمُ الغاوونَ من الناس، فإذا هَجَا الشاعرُ بما لا يجوزُ، هَوِيَ قومٌ ذلك فأحَبُّوه، وإذا مَدَحَ بما ليس في الممدوحِ أَحَبَّ ذلك قومٌ وتابَعُوهُ، فهُمُ الغاوون^(١).

قوله: (الغاوون: الرَّاؤُونَ)، رَوَى مُحْيِي السُّنَّةِ: الغاوونَ هُمُ الرُّوَاةُ الذين يَرُوونَ هجاءَ المسلمين^(٢).

قوله: (وَقُرئ: «يَتَّبِعُهُم» على التخفيف)، نافع: «يَتَّبِعُهُم» بتخفيفِ التاء وفتحِ الباء، والباقون: بفتحِ التاء وتشديدها وكسرِ الباء^(٣).

قوله: (تشبيهاً لـ «بَعَّة»)، بفتحِ الباءِ أو كسرِها وضمِّ العَيْنِ، حكايةً لبعضِ حروفِ يَتَّبِعُهُم. ويُرَوَى عن المصنِّفِ أنه قال: لَمَّا غَيَّرُوا الضَّمَّةَ في «عَضْد» واقعةً بعدَ الفتحِ، فلأنَّ يُعَيِّرُها واقعةً بعدَ الكسرةِ أولى.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٠٤).

(٢) «معالم التنزيل» (٦: ١٣٥).

(٣) انظر: «حجة القراءات» ص ٥٢٢.

ذُكِرَ الوادي والهَيوم فيه تمثيلٌ لذهابهم في كلِّ شعبٍ من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلُو في المنطق ومجاورة حدِّ القصد فيه، حتى يفضُّلوا أجبَنَ الناس على عنترة، وأشحَّهم على حاتم، وأن يبهتوا البريِّ، ويفسِّقوا التقِيَّ. وعن الفرزدق: أن سليمان بن عبد الملك سمِعَ قوله:

فَبِتْنِ بَجَانِيَّيْ مُصَرَّرَاتِ وَبِتُّ أَفْضُ أَغْلَاقِ الْخِتَامِ

فقال: قد وَجَبَ عليك الحدُّ، فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحدَّ بقوله:
﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

[﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢٧)]

استثنى الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يُكثرون ذكْرَ الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلبَ عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعراً قالوه في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة، والموعظة، والزهد، والآداب الحسنة، ومدح رسول الله ﷺ والصَّحابة

قوله: (ذُكِرَ الوادي والهَيوم فيه تمثيلٌ لذهابهم في كلِّ شعبٍ من القول)، قال القاضي: وذلك أن أكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها، وأكثر كلماتهم في النسيب والابتهاج وتمزيق الأعراض والوعد الكاذب والافتخار بالباطل^(١).

قوله: (فَبِتْنِ بَجَانِيَّيْ)، البيت^(٢)، أوَّلُه:

دُفِعْنَ إِلَيَّ لَمْ يُطْمَئِنَّ قَبْلِي وَهُنَّ أَصْحُ مِنْ بِيضِ النَّعَامِ
ثَلَاثٌ وَاثْتَانِ فَهِنَّ خَمْسٌ وَسَادِسَةٌ تَمِيلُ إِلَى سِهَامِ

طمَّت الجارية، أي: افتضَّها.

(١) «معالم التنزيل» (٤: ٢٥٦).

(٢) للفرزدق، ولم أجده في «ديوانه». انظر: «مشاهد الإنصاف» (٣: ٣٤٤).

وَصُلَحَاءِ الْأُمَّةِ، وَمَا لَا بَأْسَ بِهِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي لَا يَتَلَطَّخُونَ فِيهَا بِذَنْبٍ وَلَا يَتَلَبَّسُونَ بِشَائِنَةٍ وَلَا مَنَّقِصَةٍ، وَكَانَ هِجَاؤُهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْإِنْتِصَارِ مِمَّنْ يَهْجُوهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ اعْتِدَاءٍ وَلَا زِيَادَةٍ عَلَى مَا هُوَ جَوَابٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبِيدَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعُلُوِيَّةِ قَالَ لَهُ: إِنَّ صَدْرِي لَيَجِيئُ بِالشُّعْرِ، فَقَالَ: فَمَا يَمْنَعُكَ مِنْهُ فِيمَا لَا بَأْسَ بِهِ؟ وَالْقَوْلُ فِيهِ: أَنَّ الشُّعْرَ بَابٌ مِنَ الْكَلَامِ، فَحَسَنُهُ كَحَسَنِ الْكَلَامِ، وَقَبِيحُهُ كَقَبِيحِ الْكَلَامِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمُسْتَشْتَيْنِ: عَبْدُ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَالَّذِينَ كَانُوا يُنَافِحُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيُكَافِحُونَ هُجَاةَ قُرَيْشٍ. وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «اهْجُؤْهُمْ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبْلِ»، وَكَانَ يَقُولُ لِحَسَّانٍ: «قُلْ وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ».

خَتَمَ السُّورَةَ بِآيَةٍ نَاطِقَةٍ بِمَا لَا شَيْءَ أَهْيَبُ مِنْهُ وَأَهْوَلُ،

قَوْلُهُ: «يُنَافِحُونَ»، بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ. النَّهْيَةُ: فِي الْحَدِيثِ: «نَافِحٌ عَنِّي»^(١)، أَي: دَافِعٌ عَنِّي، وَالْمُنَافِحَةُ وَالْمُكَافِحَةُ: الْمُدَافَعَةُ. يُرِيدُ بِمُنَافِحَتِهِ: هِجَاةَ الْمُشْرِكِينَ وَمُجَابَوَتَهُمْ عَنْ أَشْعَارِهِمْ.

قَوْلُهُ: (وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ)، رُوِيَ فِي «شَرْحِ السُّنَنِ» عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بِسَيْفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَكَأَنَّهَا تَرْمُوهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ»^(٢).

قَوْلُهُ: «قُلْ وَرُوحُ الْقُدُسِ مَعَكَ»، رَوَيْنَا عَنْ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ، عَنْ عَائِشَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَّانَ بِرُوحِ الْقُدُسِ مَا نَافَحَ أَوْ فَاحَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٣).

(١) هو جزءٌ من حديث أخرجه الترمذي (٢٨٤٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٢: ٣٧٨)، وهو في «مسند أحمد» (٢٧٢١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٣) ومسلم (٢٤٨٥) والترمذي (٢٨٤٦).

ولا أنكى لقلوب المتأملين، ولا أصدع لأكباد المتدبرين؛ وذلك قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه من الوعيد البليغ، وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وإطلاقه، وقوله: ﴿أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ وإبهاؤه، وقد تلاها أبو بكرٍ لعمر رضي الله عنهما حين عهد إليه، وكان السلف الصالح يتواعظون بها ويتناذرون شدتها.

وتفسير الظلم بالكفر تليل، ولأن تخاف فتبلغ الأمن خير من أن تأمن فتبلغ الخوف. وقرأ ابن عباس: (أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) ومعناها: إن الذين ظلموا يطمعون

قوله: (ولا أنكى)، النهاية: يقال: نكيت في العدو أنكى نكايه؛ إذا كثرت فيه الجراح والقتل، فوهنوا لذلك، وقد يهمز، يقال: نكأت القرحة أنكأها؛ إذا قشرتها.

قوله: (وقد تلاها أبو بكر لعمر حين عهد إليه)، روي أنه لما أيس أبو بكر من حياته استكتب عثمان رضي الله عنه كتاب العهد؛ هذا ما عهد ابن أبي قحافة إلى المؤمنين في الحال التي يؤمن فيه الكافر، ثم قال بعدما غشي عليه وأفاق: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن عدل فذلك ظني فيه، وإن لم يعدل فسيعلم الذين ظلموا^(١).

قوله: (ويتناذرون)، بالذال المعجمة. الأساس: هو نذيرة القوم: طليعتهم الذي يندرهم العدو، وتناذروا: خوف بعضهم بعضاً، قال النابغة:

تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سَوْءِ سُمِّهَا^(٢)

قوله: (وتفسير الظلم بالكفر تليل)، يعني: أن الذي فسّر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالذين كفروا يتعلل بـ«عسى»، ولعله يريد أهل السنة لأنه يُسميهم المُرَجِّثَة، كما أنهم يُسمونهم بالوعيدية، ويقال: وعَلُّه بالشيء، أي: لهاؤه به، كما يُعلل الصبي بشيء من الطعام يتجزأ به من اللبن، يقال: فلان يُعلل نفسه بتعلة، وتعلل به، أي: تلهى وتجزأ، يريد: أن تفسير الظلم بالكفر ليس بجيد، لأدائه إلى سهولة أمر الظالم.

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣: ٢٠٠).

(٢) يقصد الحية. انظر: «ديوان النابغة» ص ٣٤.

أَنْ يَنْفَلِتُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَسَيَعْلَمُونَ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ وَجْهٌ مِنْ وَجْهِهِ الْإِنْفِلَاتِ؛ وَهُوَ النِّجَاةُ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ جَعَلَ هَذِهِ الْآيَةَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ فَلَمْ يَغْفُلْ عَنْهَا، وَعَلِمَ أَنَّ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَهُوَ مِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الشُّعْرَاءِ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ صَدَّقَ بَنُوْحَ وَكَذَّبَ بِهِ وَهُودٍ وَشُعَيْبٍ وَصَالِحٍ وَإِبْرَاهِيمَ، وَبَعْدَ مَنْ كَذَّبَ بَعِيسَى وَصَدَّقَ بِمُحَمَّدٍ».

وقلتُ: سياقُ الآية بعدَ ذِكْرِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ آذَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَا لَقِيَ مِنْهُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ كَمَا مَرَّ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ يُؤَيِّدُ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَرَوَى مُحْيِي السُّنَّةِ: «الَّذِينَ ظَلَمُوا»: أَشْرَكُوا وَهَجَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (١). وَقَالَ الْإِمَامُ: إِنَّهُ تَعَالَى لَمَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا يُزِيلُ الْحُزْنَ عَنِ قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدَّلَائِلِ وَمِنْ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثُمَّ ذَكَرَ مَقَالَاتِ الْمُشْرِكِينَ فِي تَسْمِيَّتِهِ تَارَةً بِالْكَاهِنِ، وَأُخْرَى بِالشَّاعِرِ، بَيْنَ الْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَاهِنِ، ثُمَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّاعِرِ، ثُمَّ خَتَمَ السُّورَةَ بِهَذَا التَّهْدِيدِ الْعَظِيمِ (٢). وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

تمت السورة

حامداً لله ومُصلياً على رسوله (٣)

* * *

(١) «معالم التنزيل» (٦: ١٣٩).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ١٧٦).

(٣) قوله: «تمت السورة حامداً لله ومُصلياً على رسوله» أثبتته من (ف)، ولم يرد في (ح) و(ط).

سورة النمل

مكيّة، وهي ثلاث وتسعون آية، وقيل: أربع وتسعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [١-٣]

﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ﴾ قُرئ بالتفخيم والإمالة، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة. والكتاب المبين: إما اللوح؛ وإبانتة: أنه قد حُطَّ فيه كل ما هو كائن؛ فهو يُبينه للنّاظرين فيه إبانة. وإما السورة، وإما القرآن، وإبانتها: أنّها يُبينان ما أُودِعَهُ من العُلُومِ والحِكمِ والشّرّاعِ،

سورة النمل

مكيّة، وهي ثلاث وتسعون آية، وقيل: أربع وتسعون آية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿طَسَّ﴾^(٢) قُرئ بالتفخيم والإمالة، أبو بكرٍ وحمزة والكسائي: بالإمالة، والباقون: بالتفخيم^(٣).

(١) في (ط): «مكيّة، وهي تسعون وثلاث آيات».

(٢) في (ح): ﴿طَسَّرَ﴾. والصواب ما أثبتناه.

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» لأبي عمرو الداني ص ١١٠.

وَأَنَّ إِعْجَازَهُمَا ظَاهِرٌ مَكْشُوفٌ، وَإِضَافَةُ الْآيَاتِ إِلَى الْقُرْآنِ وَالكِتَابِ الْمُبِينِ: عَلَى سَبِيلِ التَّفْخِيمِ لَهَا وَالتَّعْظِيمِ؛ لِأَنَّ الْمُضَافَ إِلَى الْعَظِيمِ يَعْظُمُ بِالِإِضَافَةِ إِلَيْهِ. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ تَكَرَّرَ الْكِتَابُ الْمُبِينُ؟ قُلْتَ: لِيُبْهَمَ بِالتَّنْكِيرِ فَيَكُونُ أَفْخَمَ لَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ [القمر: ٥٥].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ عَطْفِهِ عَلَى الْقُرْآنِ إِذَا أُرِيدَ بِهِ الْقُرْآنُ؟ قُلْتَ: كَمَا تُعْطَفُ إِحْدَى الصِّفَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى فِي نَحْوِ قَوْلِكَ: هَذَا فِعْلٌ السَّخِيَّ وَالْجَوَادِ الْكَرِيمِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْمُنْزَلُ الْمُبَارَكُ الْمُصَدَّقُ لِمَا بَيَّنَّ يَدْبِهِ؛ فَكَانَ حُكْمُهُ حُكْمَ الصِّفَاتِ الْمُسْتَقَلَّةِ بِالْمَدْحِ،

قَوْلُهُ: (وَأَنَّ إِعْجَازَهُمَا ظَاهِرٌ مَكْشُوفٌ)، قَبْلَ قَوْلِهِ: «أَتَمَّهَا بَيِّنَاتٍ» مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ «أَبَانَ» بِمَعْنَى: أَظْهَرَ. وَقَوْلُهُ: «ظَاهِرٌ مَكْشُوفٌ» عَلَى أَنَّهُ بِمَعْنَى: بَانَ وَظَهَرَ. وَقُلْتَ: إِذَنْ يَلْزِمُ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ الْوَاحِدِ فِي كِلْتَا لُغَتَيْهِ: الْمُتَعَدِّي وَاللَّازِمَ، إِلَّا أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الْوَاحِدَ بِمَعْنَى «أَوْ». وَالظَّاهِرُ أَنَّ دَلَالََةَ ﴿مُبِينٍ﴾ عَلَى الثَّانِي بِطَرِيقِ اللَّزُومِ؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ مُظْهِرًا لِجَمِيعِ الْعُلُومِ الْفَائِئِقَةِ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ظَاهِرًا فِي الْإِعْجَازِ، وَعَكْسُهُ سَبَقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(١) [الفرقان: ٤٨].

قَوْلُهُ: ﴿عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، أَيُّ: مَلِكٍ مُبْهَمٍ أَمْرُهُ فِي السُّمْلِكِ وَالِاقْتِدَارِ، فَلَا شَيْءَ إِلَّا وَهُوَ تَحْتَ مُلْكِهِ وَتَصْرَفِهِ وَقُدْرَتِهِ، فَيُقَالُ: أَيُّ: كِتَابٌ مُبْهَمٌ أَمْرُهُ فِي كَوْنِهِ كِتَابًا، فَلَا شَيْءَ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشُّيَمِ، إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمَلٌ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (لِأَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْمُنْزَلُ الْمُبَارَكُ)، تَعْلِيلٌ لِتَنْزِيلِ لَفْظِ ﴿الْقُرْآنِ﴾ مِنْزَلَةَ الْوَصْفِ، ثُمَّ عَطَفَ ﴿وَكِتَابٍ﴾ عَلَيْهِ؛ لِهَذَا قَالَ: «كَأَنَّهُ قِيلَ: تِلْكَ الْآيَاتُ آيَاتُ الْمُنْزَلِ الْمُبَارَكِ، وَأَيُّ كِتَابٍ»، وَدَلَالَةُ هَذَا الْأَسْلُوبِ عَلَى اسْتِقْلَالِ كُلِّ صِفَةٍ فِي تَمْيِيزِ الْمُوصُوفِ، وَأَنَّهَا إِذَا انْفَرَدَتْ كَفَتْ بِهَا عِمْرَةً قَدْ عَلِمَ فِي مَوْضِعِهِ، وَلَوْ حَمَلَهُ عَلَى بَابِ التَّجْرِيدِ كَمَا فِي قَوْلِهِمْ: مَرَرْتُ بِالرَّجُلِ الْكَرِيمِ وَالنَّسَمَةِ الْمُبَارَكَةِ، كَمَا ذُكِرَ فِي ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ﴾ [ص: ١] لَجَازَ أَيْضًا^(٢).

(١) انظر: «الكشاف» (١١: ٢٥١ - ٢٥٣).

(٢) انظر: «الكشاف» (١٣: ٢٢٩).

فكأنه قيل: تلك الآيات آيات المنزّل المبارك؛ وأي كتاب مبین.

وقرأ ابنُ أبي عبّلة: «وكتاب مبین» بالرفع على تقدير: وآيات كتاب مبین، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

فإن قلت: ما الفرقُ بينَ هذا وبينَ قوله: ﴿الرَّيَّةُ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١]؟ قلت: لا فرقُ بينهما إلا ما بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ من التّقدّمِ والتّأخّر؛ وذلك على ضربين:

والثّاني: قوله في الحجر: «والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل» في كونه كتابًا، وأي قرآن مبین» على الاستفهام، وهو معنى التّفخيم في التّنكير.

قوله: (بينَ هذا وبينَ قوله: ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١])^(١)، أي: مَطَّلَعُ سُورَةِ الْحَجْرِ.

قوله: (وذلك على ضربين)، يعني: التّقديمُ يبيّنُ لمعنيين:

أحدهما: جار مجرى التّثنية فقط؛ فلا يتفاوتُ المعنى فيهما، سواءً قدّم في موضعٍ وأخر في آخر؛ كما في نحو: ﴿حِطَّةٌ﴾ في الآيتين [البقرة: ٥٨، والأعراف: ٦١]. وقولك: «رجلان جاء» لا ترجيحٌ لمجيء أحدهما على الآخر. هذا هو معنى التّثنية.

قال شارح «الهادي»: الواو دلالتها على الجمع أقوى من دلالتها على العطف؛ فإنها قد تُعرى عن العطف ولا تُعرى عن معنى الجمع، وفي المختلفين بمنزلة التّثنية، والجمع في المتفقين، وإذ لم يمكنهم التّثنية في المختلفين فعُدُّوا إلى الواو^(٢).

وثانيهما: ما فيه رعاية الرّتبة؛ كما في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، فإن شهادة الله مقدّمة على شهادة الملائكة وأولي العِلْم؛ لأنّ شهادته كالأصل،

(١) من قوله: «على الاستفهام» إلى هنا سقط من (ح).

(٢) انظر: «الإنصاف في مسائل الخلاف» لأبي البركات الأنباري (٢: ٤٤٩-٤٥٠).

وشهادتهم كالتابع لشهادته. ومن ثمَّ فُصل بين المعطوف والمعطوفِ عَلَيْهِ بالفعلِ به.
قال القاضي: تأخيرُ «كتاب» هاهنا باعتبارِ تعلقِ علمنا به، وتقديمه في الحجرِ باعتبارِ
الوجود^(١)؛ أي: الخارجِي.

قال صاحبُ «الفرائد»: الفخامةُ فيما نحنُ بصدده للكتاب، فإن كان المرادُ به: اللوحُ،
فهو اللوحُ. وفي الحجرِ الفخامةُ للقرآن؛ فافتراقًا. وإن كان المرادُ من الكتابِ القرآنُ في
السورتين؛ فالفخامةُ للقرآن من حيثُ إنَّه كتابٌ هاهنا، وفي الحجرِ من حيثُ إنَّه قرآنٌ.

وقلتُ: قد ذهبَ إلى أن التَّنكيرَ في الموضعين هو الفارقُ؛ لأنَّه للتفخيمِ، وذهبَ عنه
أن التَّعريفَ في القرآنِ للعهد، وأن المرادَ منه: «المنزَّلُ المباركُ المصدَّقُ لما بينَ يديه» كما قال،
فهو أشدُّ فخامةً منه؛ لأنَّه من بابِ قولِه:

أنا أبو النجمِ وشعري شعري^(٢)

أي: هذا المنزَّلُ هو الذي اشتَهَرَ في الكائنات، وتُعرفُ بينَ الأسودِ والأحمرِ، الموصوفُ
بالكلماتِ التي لا نهايةَ لها. والمصنَّفُ اقتصرَ على معنى واحدٍ، وهو كونهُ مصدَّقًا لما بينَ يديه.

ويمكنُ أن يُقالَ: إن التَّنكيرَ في ﴿كَتَبَ﴾ دلٌّ على تفخيمه، ووصفه بـ ﴿مُتَّيِّنٍ﴾ دلٌّ
على أنَّه ظاهرٌ في نفسه في الإعجازِ، مُظهِرٌ لغيره، فصَحَّتِ الموازنةُ بينهما؛ ولهذا استشهدَ
بقوله: «فَعَلُ السَّخِيِّ والجوادِ الكريمِ». ولم يفرِّقْ بين التَّقديمِ والتَّأخيرِ هاهنا وفي الحجرِ،
فإن مؤدَى الصَّفَتَيْنِ إلى معنى واحدٍ.

فإن قلتُ: فلمَ جعلَ التَّعريفَ في الحجرِ للجنسِ حيثُ قال: «تلك آياتُ الكتابِ
الكامِلِ في كونه كِتَابًا»، وهاهنا للعهدِ حيثُ قال: «المنزَّلُ المباركُ المصدَّقُ لما بينَ يديه»؟
قلتُ: إذا رجَعَ المعنيانِ إلى التَّعظيمِ والتَّفخيمِ فلا بأسَ بمثلِ هذا الاختلافِ.

(١) في (ح): «الخارج».

(٢) سبق تخريجه.

ضَرْبٍ جَارٍ مَجْرَى التَّشْبِيهِ لَا يَتَرَجَّحُ فِيهِ جَانِبٌ عَلَى جَانِبٍ، وَضَرْبٍ فِيهِ تَرَجُّحٌ، فَالْأَوَّلُ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨، الأعراف: ١٦٦]، ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨، الأعراف: ١٦٦]، وَمِنْهُ مَا نَحْنُ بِبَصْدِهِ. وَالثَّانِي: نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ فِي مَحَلِّ النَّصْبِ أَوْ الرَّفْعِ؛ فَالنَّصْبُ عَلَى الْحَالِ، أَي: هَادِيَةٌ وَمُبَشِّرَةٌ؛ وَالْعَامِلُ فِيهَا؛ مَا فِي ﴿تِلْكَ﴾ مِنْ مَعْنَى الْإِشَارَةِ، وَالرَّفْعُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ، عَلَى: هِيَ هُدًى وَبُشْرَى، وَعَلَى الْبَدَلِ مِنَ الْآيَاتِ، وَعَلَى أَنْ يَكُونَ خَبْرًا بَعْدَ خَبَرٍ؛ أَي: جَمَعَتْ أُنْهَا آيَاتٍ، وَأَنَّهَا هُدًى وَبُشْرَى. وَالْمَعْنَى فِي كَوْنِهَا هُدًى لِلْمُؤْمِنِينَ: أَنَّهَا زَائِدَةٌ فِي هُدَاهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَزَادَتْهُمْ إِيْعَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤] فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ كَيْفَ يَنْصَلُّ بِهَا قَبْلَهُ؟ قُلْتَ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ صِلَةِ الْمُوصُولِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَتِمَّ الصَّلَةُ عِنْدَهُ، وَيَكُونَ جُمْلَةً اعْتِرَاضِيَّةً، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَيَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ؛ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ: هُمْ بِالْآخِرَةِ الْمُوقِنُونَ؛ وَهُوَ الْوَجْهَ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ عَقْدَ جُمْلَةٍ ابْتِدَائِيَّةٍ وَكَرَّرَ فِيهَا الْمُبْتَدَأَ الَّذِي هُوَ ﴿وَهُمْ﴾

قَوْلُهُ: (وَعَلَى الْبَدَلِ مِنَ الْآيَاتِ)، قَالَ الرَّجَّاجُ: تَقْدِيرُهُ: تِلْكَ هُدًى وَبُشْرَى، وَحَسُنَ أَنْ يَكُونَ خَبْرًا بَعْدَ خَبَرٍ لـ ﴿تِلْكَ﴾ عَلَى نَحْوِ: هُوَ حُلُوٌّ حَامِضٌ. وَقَدْ جَمَعَ الطَّعْمَيْنِ، فَتُجْمَعُ أُنْهَا آيَاتٌ، وَأَنَّهَا هَادِيَةٌ مُبَشِّرَةٌ^(١)، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «جَمَعَتْ أُنْهَا آيَاتٍ، وَأَنَّهَا هُدًى»، أَي: جَمَعَتْ ﴿طَسَّ﴾ أَنْ السُّورَةَ آيَاتٍ، وَأَنَّهَا هُدًى وَبُشْرَى.

قَوْلُهُ: (أَنَّهَا زَائِدَةٌ فِي هُدَاهُمْ)، قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى كَمَا مَرَّرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُدًى يُشْفِقِينَ﴾ [البقرة: ١].

قَوْلُهُ: (وَكُرَّرَ فِيهَا الْمُبْتَدَأَ الَّذِي هُوَ ﴿وَهُمْ﴾)، الْإِنْتِصَافُ: تَكَرَّرَ مِنَ الرَّخْمَشِرِيِّ أَنْ يُقَاعَ الضَّمِيرِ مُبْتَدَأً يُفِيدُ الْحَصْرَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿هُمَّ يُبْشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١]، وَعَدُّ الضَّمِيرِ مِنَ الْآيَاتِ الْحَصْرُ لَيْسَ يَثْبُتُ، وَهَاهُنَا الضَّمِيرُ مُكَرَّرٌ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ: «وَهُمَّ يُوقِنُونَ بِالْآخِرَةِ»،

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٠٨).

فقدّم المجرور للعناية، فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر، فأريد أن يلي المبتدأ خبره، وقد حال المجرور بينهما، فطوي ذكره، ولم يقف العناية بالمجرور حيث بقي مقدماً^(١).

وقلت: هذا كلامٌ من لم يشم رائحة علم البيان، فإنهم أجمعوا على أن مثل: «أنا عرفت» تحتلّ التقوي والتخصيص، أمّا التقوي: فلتكرير الإسناد، وأمّا التخصيص: فلا اعتبار تقدم الفاعل المعنوي على عامله، ولما تقدم ضمير ﴿مَرَّ﴾ على ﴿يُوقِنُونَ﴾ وأكد بالتكرير، أفاد التخصيص والتوكيد؛ ولهذا قال: «ما يُوقِنُ بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون».

ولما كان جدوى الاعتراض تأكيد معنى المعترض فيه، ودلّ مفهوم قوله^(٢): ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ على أن من يقن بالآخرة حق الإيقان لا بد أن يخاف تبعاتها، ومن خاف تحمّل المشاق والمتاعب، وكان بهذا الاعتبار مؤكداً لقوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ؛ فصحّ كونه معترضاً.

روينا عن الترمذي، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»^(٤).

ثمّ في قوله: «إلا هؤلاء الجامعون» إشارة إلى أن الضمير الأول وُضِعَ موضع اسم الإشارة، وصار مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٣-٥]، وفائدته الإشعار بأن ما يرد عقيب اسم الإشارة المذكورون قبله أهل لاكتسابه من أجل الخصال التي عدت لهم، فالمعنى: هم أحقّاء بأن يوقنوا بالآخرة؛ لأنهم

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٤٧).

(٢) سقط من (ح).

(٣) في (ح): «المؤمنون». وفي (ف): «المؤمنين». والصواب ما أثبتناه من (ط) موافقة للآية الكريمة.

(٤) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٤٥٠) وحسنه، وهو في «المستدرک» للحاكم (٤: ٣٤٣) وصحّحه على

شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

حتى صارَ معناها: وما يُوقنُ بِالْآخِرَةِ حَقَّ الْإِيْقَانِ إِلَّا هَؤُلَاءِ الْجَامِعُونَ بَيْنَ الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّ خَوْفَ الْعَاقِبَةِ يَحْمِلُهُمْ عَلَى تَحْمُلِ الْمَشَاقِّ.

[﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسُونَ﴾ ٤-٥]

فإن قلت: كيف أسندتَ تزيينَ أعمالِهِم إلى ذاته، وقد أسندهُ إلى الشَّيْطَانِ في قوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤، العنكبوت: ٣٨]؟ قلت: بينَ الإسنادَيْنِ فرق؛ وذلك أنَّ إسنادَهُ إلى الشَّيْطَانِ حَقِيقَةٌ، وإسنادُهُ إلى الله عزَّ وجلَّ مجاز، وله طريقان في علمِ البيان: أحدهما: أن يكونَ من المَجَازِ الَّذِي يُسَمَّى الاستعارة. والثاني: أن

هُمُ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيْمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. هذا معنى قوله: «وهؤلاء الذين يوقنون ويعملون الصَّالِحَاتِ، هُمُ الْمُوقِنُونَ بِالْآخِرَةِ».

هذه المعاني من التَّخْصِيصِ وَالتَّوَكُّيدِ وَالتَّعْلِيلِ إِنَّمَا يَفِيدُهَا التَّرْكِيبُ إِذَا جُعِلَ مَعْتَرِضًا لِاسْتِقْلَالِهِ، وَأَمَّا إِذَا أُدْخِلَ فِي حَيْزِ^(١) الصَّلَةِ بِأَنْ جُعِلَ حَالًا أَوْ عَطْفًا عَلَى ﴿يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [النمل: ٣] عَلَى التَّأْوِيلِ؛ لَمْ يَحْتَجْ إِلَى هَذِهِ الْعِبَارَةِ؛ فَتَفَوَّتْ تِلْكَ الْفَوَائِدُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: «وَهُوَ الْوَجْهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ عَقْدَ جَمَلَةٍ ابْتِدَائِيَّةٍ» إِلَى آخِرِهِ. يَرِيدُ أَنَّهُ لَوْ أُرِيدَ غَيْرُ ذَلِكَ لَقِيلَ: «وَهُمْ بِالْآخِرَةِ يُوقِنُونَ» عَلَى تَقْدِيرِ الْحَالِ، «وَبِالْآخِرَةِ يُوقِنُونَ» عَلَى تَقْدِيرِ الْعَطْفِ.

قوله: (من المَجَازِ الَّذِي يُسَمَّى الاستعارة) وهي الاستعارة المَصْرُوحَةُ التَّبَعِيَّةُ، اسْتِعَارَ زَيْنَ لـ «مَتَّعَ» بَعْدَ اسْتِعَارَةِ التَّزْيِينِ لِلتَّمَتِّعِ. وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «لَمَّا مَتَّعَهُمْ بِطُولِ الْعُمُرِ»، فَكَأَنَّهُ زَيْنَ لَهُمْ بِذَلِكَ أَعْمَالَهُمْ.

قال صاحبُ «الفرائد»: قال أهلُ السُّنَّةِ: زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ بِأَرْكَبْنَا فِيهِمْ^(٢) مِنَ الشَّهَوَاتِ

(١) في (ح): «خبر».

(٢) في (ف): «فيها».

يَكُونُ مِنَ الْمَجَازِ الْحُكْمِيِّ، فَالطَّرِيقُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَسَمَا مَتَّعَهُمْ بِطُولِ الْعُمُرِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ. وَجَعَلُوا إِنْعَامَ اللَّهِ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ ذَرِيعَةً إِلَى اتِّبَاعِ شَهَوَاتِهِمْ، وَبَطْرِهِمْ وَإِثَارِهِمُ الرُّوحَ وَالتَّرَفَةَ، وَنِفَارِهِمْ عَمَّا يَلْزَمُهُمْ فِيهِ التَّكَالِيفُ الصَّعْبَةُ وَالْمَشَاقُّ الْمُتَعَبَةُ؛ فَكَانَتْ زَيْنَ لَهُمْ بِذَلِكَ أَعْمَاهُمْ. وَإِلَيْهِ أَشَارَتِ الْمَلَائِكَةُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ:

وَالْأَمَانِي، حَتَّى رَأَوْا ذَلِكَ حَسَنًا، وَهُوَ كَالْحَتْمِ وَالطَّبْعِ. وَفِيهِ إِثْبَاتُ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى أفعالِ الْعِبَادِ.

وقال صاحبُ «الانتصاف»: قولُ الزَّخَشَرِيِّ مَبْنِيٌّ عَلَى قَاعِدَةٍ: «رِعَايَةُ الْأَصْلِحِ»^(١)، وَلَوْ عَكْسَ فَقَالَ: «الْإِسْنَادُ إِلَى اللَّهِ حَقِيقَةٌ»؛ لَكَانَ أَصُوبَ، وَاخْتَارَ مَا رَوَاهُ الْحَسَنُ لِمُوافِقَتِهِ، [وَأَتَى لَهُمْ ذَلِكَ]^(٢) وَقَدْ أَتَى اللَّهُ بِنَبِيَانِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ بِهَا قَدْ وَرَدَ التَّزْيِينُ غَالِبًا فِي الشَّرِّ ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: ١٤] ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢١٢] ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٧] وَوَرَدَ فِي الْخَيْرِ قَلِيلًا؛ كَقَوْلِهِ: ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] وَيُبْعَدُ الْخَيْرَ هُنَا إِضَافَةً الْأَعْمَالِ إِلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَعْمَلْتَهُمْ﴾، وَهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا الْخَيْرَ أَصْلًا.

وقلت: الَّذِي يُؤَيِّدُ قَوْلَ صَاحِبِ «الْفَرَائِدِ» أَنَّ وَزَانَ فَاتِحَةِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى هَاهُنَا وَزَانَ فَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَلْتَهُمْ﴾ كَقَوْلِهِ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وَقَدْ سَبَقَ وَجْهٌ دَلَّالٌ عَلَيْهَا عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَنِ هُنَاكَ، وَأَنَّ التَّرْكِيبَ مِنْ بَابِ تَحْقِيقِ الْخَبْرِ، وَأَنَّ الْمَعْنَى اسْتِمْرَارُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَأَنَّهُمْ بَحِيثٌ لَا يُتَوَقَّعُ^(٣) مِنْهُمْ الْإِيْمَانُ سَاعَةً فَسَاعَةً، أَمَارَةٌ لِرَقْمِ^(٤) الشَّقَاوَةِ عَلَيْهِمْ فِي الْأَزْلِ، وَالْحَتْمِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَنَّهُ تَعَالَى زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ عَمَلِهِمْ، فَهُمْ

(١) وقد سبق توضيحها، ولتمام الفائدة انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني (١: ٦٢).

(٢) زيادة لازمة من «الانتصاف» لتوضيح سياق الكلام.

(٣) في (ج): «يُتَوَقَّعُ».

(٤) والرَّقْمُ: الحَتْمُ، «اللسان» (رقم).

﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَاءِبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ [الفرقان: ١٨] والطَّرِيقُ الثَّانِي: أَنَّ إِمهَالَهُ الشَّيْطَانِ، وَتَحْلِيَّتَهُ حَتَّى يَزِينَهُمْ؛ مُلَابَسَةً ظَاهِرَةً لِلتَّزْيِينِ، فَأُسْنِدًا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ

لِذَلِكَ فِي تِيهِ الضَّلَالَةِ يَتَرَدَّدُونَ، وَفِي بَيِّنَاتِ الْكُفْرِ يَغْمَهُونَ.

دَلَّ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ إِيقَاعُ لَفْظِ الْمُضَارِعِ فِي صِلَةِ الْمَوْصُولِ، وَالْمَاضِي فِي خَيْرِ الْمَوْصُولِ، وَتَرْتُّبُ ﴿فَهُمْ يَغْمَهُونَ﴾ بِالْفَاعِلِيَّةِ، وَاخْتِصَاصُ الْخَطَابِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الْكِبْرِيَاءِ وَالْجَبْرَوْتِ، وَمِنْ بَابِ تَحْقِيقِ الْخَيْرِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

إِنَّ الْبَسِيَّ ضَرَبَتْ بَيْتًا مُهَاجِرَةً بِكُوفَةِ الْجُنْدِ غَالَتْ وَدَهَا عُورًا^(١)

يعني: هذا التبريزُ أَمَارَةٌ لِقَطْعِهَا الْحُبَّ وَهَجْرَانِهَا، وَأَنَّهُ مِمَّا لَا يُشْكُ فِيهِ. وَيَنْصُرُ هَذَا التَّأْوِيلَ مَا رَوَيْنَا عَنِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَأَبِي دَاوُدَ: عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْلِمَ أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ^(٢): فَفَيْمَ يَعْمَلُ الْعَامِلُونَ؟ قَالَ: «كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٣).

وعَنِ التِّرْمِذِيِّ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَا نَعْمَلُ فِيهِ، أَمْرٌ مُبْتَدَعٌ أَوْ مُبْتَدَأٌ^(٤)، أَوْ فِيمَا فُرِغَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: «فِيمَا قَدْ فُرِغَ مِنْهُ يَا ابْنَ الْخِطَّابِ، وَكُلُّ مَيْسَرٍ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلسَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُ يَعْمَلُ لِلشَّقَاءِ»^(٥). انظر أَيُّهَا الْمَتَأَمِّلُ إِلَى هَذِهِ الْأَسْرَارِ.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سقط من (ح).

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٢٣)، ومسلم (٢٦٤٩)، وأبو داود (٤٧١١).

(٤) في (ح) و(ف): «أبتدأ». والصواب ما أثبتناه من «سنن الترمذي».

(٥) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢١٣٥) وصححه، وهو في «مسند البزار» (١٢١) وصححه ابن حبان

(١٠٨) وفيه تمام تخريجه.

المَجَازَ الحَكِيمِي يُصَحِّحُهُ بَعْضُ المَلَابِسَاتِ، وَقِيلَ: هِيَ أَعْمَالُ الخَيْرِ الَّتِي وَجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوهَا: زَيْنُهَا هُمْ اللهُ فَعَمَّهَوا عَنْهَا وَضَلُّوا، وَيُعْزَى إِلَى الحَسَنِ. وَالْعَمَّةُ: التَّحْيِيرُ وَالتَّرَدُّدُ، كَمَا يَكُونُ حَالُ الضَّالِّ عَنِ الطَّرِيقِ. وَعَنْ بَعْضِ الأَعْرَابِ: أَنَّهُ دَخَلَ الشَّرْقُ وَمَا أَبْصَرَهَا قَطًّا، فَقَالَ: رَأَيْتُ النَّاسَ عَمَّهينَ، أَرَادَ: مُتَرَدِّدينَ فِي أَعْمَالِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ. ﴿سُوهُ أَعْدَابٌ﴾ القَتْلُ وَالْأَسْرُ يَوْمَ بَدْرٍ. وَ﴿الْأَخْسَرُونَ﴾: أَشَدُّ النَّاسِ خُسْرَانًا؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا لَكَانُوا مِنَ الشُّهَدَاءِ عَلَى جَمِيعِ الأُمَّمِ، فَخَسِرُوا ذَلِكَ مَعَ خُسْرَانِ النَّجَاةِ وَثَوَابِ اللهِ.

[وَرَبِّكَ لِلْقُرْآنِ لَخَبِيرٌ عَلِيمٌ ﴿٦﴾]

﴿لِنَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ لِتَوَاتُوهُ وَتَلَقُّنَهُ ﴿مِنَ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ مِنْ عِنْدِ أَيِّ ﴿حَكِيمٍ﴾ وَأَيِّ ﴿عَلِيمٍ﴾ وَهَذَا مَعْنَى مَجِيئِهَا نَكْرَتَيْنِ. وَهَذِهِ الآيَةُ بِسَاطٌ وَتَمْهِيدٌ لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَسُوقَ بَعْدَهَا

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: هِيَ أَعْمَالُ الخَيْرِ)، هَذَا جَوَابٌ آخَرُ عَنِ السُّؤَالِ مَبْنِيٌّ عَلَى المَنْعِ مِنْ أَنْ إِسْنَادَ هَذَا التَّزْيِينِ مَحْظُورٌ، وَ«هِيَ» أَيُّ: الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا نُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

قَوْلُهُ: (وَتَلَقُّنَهُ)، عَنْ بَعْضِهِمْ: هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَقَّحْنَاهُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]؛ أَيُّ: تَلَقَّنَ. وَمَعْنَى يَلْقُنُهُ الكَلِمَاتِ: أَنَّ اللهُ تَعَالَى الأَهْمَةُ التَّنَصُّلَ لَهْفُوتِهِ.

قَوْلُهُ: (وَهَذِهِ الآيَةُ بِسَاطٌ وَتَمْهِيدٌ)، أَيُّ: مَجْمَلٌ لِمَا يَأْتِي بَعْدَهَا مِنَ التَّفْصِيلِ، وَإِنَّ المَفْصَلَ مَتَضَمِّنٌ لِلطَّائِفِ حِكْمَتِهِ وَدِقَاتِي عِلْمِهِ. وَمِنْ لَطَائِفِ حِكْمَتِهِ اِقْتِصَاصُ مَا مَضَى (١) مِنَ الأُمَّمِ السَّالِفَةِ؛ لِثَبَّتِ بِهَا نَفْسَكَ، وَنَسَلِيكَ نَمَا يَلْحَقُكَ مِنَ المَكَارِهِ ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُوثِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] وَأَكْمَلُ القِصَصِ وَأَتَمُّهَا قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) فِي (ف): «مَعْنَى».

من الأَقاصيص، وما في ذلك من لطائفِ حِكْمَتِهِ، ودقائقِ عِلْمِهِ.

[إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِني أَنسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَعَلَّكُمْ

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾]

﴿إِذْ﴾ منصوبٌ بِمُضَمَّرٍ، وهو: اذْكَرُ، كأنه قال على أثرِ ذلك: خُذْ من آثارِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ قِصَّةَ مُوسَى. ويجوزُ أن يَنْتَصِبَ بِعَلِيمٍ. وَرُوي أَنه لم يكن مع مُوسَى عليه السَّلَامُ غيرُ امرَأته، وقد كَتَبَ اللهُ عنها بالأهل، فَتَبَعَ ذلك وَرُودُ الخِطَابِ على لَفْظِ الجَمْعِ وهو قوله: ﴿أَتَكُونُوا﴾.

الشُّهَابُ: الشُّعْلَةُ. والقَبْسُ: النَّارُ المَقْبُوسَةُ، وَأضَافَ الشُّهَابَ إلى القَبْسِ؛ لأنَّه يَكُونُ قَبْسًا، وَغيرَ قَبْسٍ.

وفيه أيضًا نوعٌ مِنَ التَّخْلِصِ والانتقالِ إلى نوعٍ آخَرَ مِنَ الإعْجَازِ، وَهُوَ الإخْبَارُ عَنِ المُنْجِيَّاتِ، وَمِن مَذْحِ الكِتَابِ إلى قِصَصِ الأنبياءِ.

قوله: (وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَتَكُونُوا﴾)، لَيْسَ في هذِهِ الآيَةِ، وَإِنَّمَا هِيَ في طه والقِصَصِ^(١)، فورُودُ الخِطَابِ بالجَمْعِ وإِطْلَاقُ الأهلِ على امرَأته تعظِيمٌ لَشَأْنِهَا، ونحوهُ قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَى وَآءَالُ هَارُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، والمرادُ بهما موسى وهارون رفَعًا لمنزلتهما^(٢).

قوله: (وأضَافَ الشُّهَابَ إلى القَبْسِ؛ لأنَّه يَكُونُ قَبْسًا وَغيرَ قَبْسٍ)، قال مَكِّيٌّ: ﴿بِشُهَابٍ قَبْسٍ﴾ من إِضَافَةِ النُّوعِ إلى جَنْسِهِ؛ نحو: ثوبٌ خَزٌّ^(٣).

وقال الفَرَّاءُ^(٤): وَهُوَ إِضَافَةُ الشَّيْءِ إلى نَفْسِهِ؛ كصلاةِ الأُولَى، وَلَيْسَ مثله؛ لأنَّ صلاةَ

(١) يعني الآية: «من سورة طه، والآية ٢٩ من سورة القصص».

(٢) من قوله: «فورود الخطاب» إلى هنا سقط من (ح) و(ف).

(٣) انظر: «مشكل إعراب القرآن» لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (٢: ٥٣١).

(٤) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢: ٢٨٦).

وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّنْوِينِ: جعل القبس بدلاً، أو صفة؛ لما فيه من معنى القبس. والخبر: ما يُخبرُ به عن حال الطريق؛ لأنه كان قد ضلَّه. فإن قلت: سأتيكم منها بخبر، ولعلِّي آتيكم منها بخبر: كالتدافعين؛ لأنَّ أحدهما ترجَّح والآخر يتيقن. قلت: قد يقول الرَّاَجِي

الأولى إنما هي في الأصل موصوفٌ وصفة، فأضيف الموصوفُ إلى صفته، وأصلها: الصلاة الأولى.

وَمَنْ نَوَّنَ جَعَلَ قَبْسًا بَدَلًا مِنْهُ. وقيل: هي صفة له. والشَّهَابُ: كلُّ ذي نُورٍ. والقَبْسُ: كلُّ ما يُقْتَبَسُ مِنْ جَمْرٍ وَنَحْوِهِ.

الراغب: القبس: المتناول من الشُّعْلَةِ. قال تعالى: ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبْسٍ﴾. والقَبْسُ والاقْتَبَاسُ: طلبُ ذلك، ثُمَّ يُسْتَعَارُ لَطَلْبِ الْعِلْمِ وَالْهُدَايَةِ. قال تعالى^(١): ﴿انظُرُوا نَفْسًا مِّنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣] وأقبسته نارا أو علما: أعطيته. والقَبْسُ: فحلُّ سريع الإلقاح؛ تشبيهاً بالنار في السرعة^(٢).

وعنه: الشَّهَابُ: الشُّعْلَةُ السَّاطِعَةُ مِنَ النَّارِ الْمَوْقَدَةِ، وَمِنَ الْعَارِضِ فِي الْجَوِّ. قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]. والشُّهْبَةُ: بياضٌ مختلطٌ بالسواد؛ تشبيهاً بالشَّهَابِ الْمُخْتَلِطِ بالدُّخَانِ. ومنه: كتيبةٌ شهباء؛ اعتباراً بسوادِ القومِ وبياضِ الحديد^(٣).
قوله: (وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّنْوِينِ)^(٤)، عاصمٌ وحمزةٌ والكسائيُّ^(٥).

(١) من قوله: ﴿أَوْ آتِيكُمْ...﴾ إلى هنا سقط من م.

(٢) انظر: «المفردات في غريب القرآن» ص ٦٥٢.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ٤٦٥.

(٤) أي: قوله تعالى: ﴿بِشَهَابٍ قَبْسٍ﴾ [النمل: ٤٧]. يقرأ بالتنوين والإضافة، فالْحِجَّةُ لِمَنْ أَضَافَ أَنَّهُ جَعَلَ الشَّهَابَ غَيْرَ الْقَبْسِ فَأَضَافَهُ، أَوْ يَكُونُ أَرَادَ: «بشهاب من قبس» فأسقط من وأضاف، أو يكون أضاف، والشهاب هو القبس لاختلاف اللفظين. والحجَّةُ لِمَنْ نَوَّنَ أَنَّهُ جَعَلَ الْقَبْسَ نَعْتًا لَشَهَابٍ؛ فَأَعْرَبَهُ بِأَعْرَابِهِ. انظر: «الحجة في القراءات» لابن خالويه ص ٢٦٩.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» لابن مجاهد ص ٤٧٨.

إِذَا قَوِيَّ رَجَاؤُهُ: سَأَفْعَلُ كَذَا، وَسَيَكُونُ كَذَا؛ مَعَ تَجْوِيزِهِ الْحَيِّبَةِ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَاءَ بِسِينِ التَّسْوِيفِ؟ قُلْتَ: عِدَّةٌ لِأَهْلِهِ؛ أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ بِهِ وَإِنْ أُبْطَأَ، أَوْ كَانَتْ الْمَسَافَةُ بَعِيدَةً. فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ جَاءَ بِأَوْ دُونَ الْوَاوِ؟ قُلْتَ: بُنِيَ الرَّجَاءُ عَلَى أَنَّهُ إِنْ لَمْ يَطْفُرْ بِحَاجَتِيهِ جَمِيعًا؛ لَمْ يَعْدَمْ وَاحِدَةً مِنْهُمَا: إِمَّا هِدَايَةَ الطَّرِيقِ، وَإِمَّا اقْتِبَاسُ النَّارِ؛ ثِقَةً بِعَادَةِ اللَّهِ؛ أَنَّهُ لَا يَكَادُ يَجْمَعُ بَيْنَ حِرْمَانَيْنِ عَلَى عَبْدِهِ، وَمَا أَدْرَاهُ حِينَ قَالَ ذَلِكَ أَنَّهُ ظَافِرٌ عَلَى النَّارِ بِحَاجَتِيهِ الْكُلِّيَّتَيْنِ جَمِيعًا؟ وَهُمَا الْعِزَّانِ: عِزُّ الدُّنْيَا، وَعِزُّ الْآخِرَةِ.

[﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٨]

﴿أَنْ﴾ هِيَ الْمَفْسَّرَةُ؛ لِأَنَّ النَّدَاءَ فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ. وَالْمَعْنَى: قِيلَ لَهُ بُورِكَ. فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَتَقْدِيرُهُ: نُودِيَ بِأَنَّهُ بُورِكَ. وَالضَّمِيرُ ضَمِيرُ الشَّأْنِ؟ قُلْتَ: لَا؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ﴿قَدْ﴾. فَإِنْ قُلْتَ: فَعَلَى إِضْهَارِهَا؟ قُلْتَ: لَا يَصِحُّ؛

قَوْلُهُ: (وَمَا أَدْرَاهُ)، «مَا» اسْتِفْهَامِيَّةٌ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْإِنْكَارِ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ، وَ«أَدْرَاهُ» الْحَبْرُ، وَضَمِيرُ الْفَاعِلِ رَاجِعٌ إِلَى «مَا»؛ أَي: أَيُّ شَيْءٍ أَعْلَمَهُ حِينَ قَالَ: ﴿أَوْ مَا تَبِيحُكُمْ بِشَهَابٍ﴾ «أَنَّهُ ظَافِرٌ بِحَاجَتِيهِ الْكُلِّيَّتَيْنِ»؟ انظُرْ أَيُّهَا الْمُتَأَمِّلُ إِلَى الْعِنَايَةِ الْأَبَدِيَّةِ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَلَبَ الدَّلَالََةَ عَلَى الطَّرِيقِ وَالنَّارَ لِحَاجَةِ الْأَهْلِ؛ فَفَارَزَ بَعْزُ الدَّارَيْنِ!

قَوْلُهُ: (لَا يَصِحُّ)، أَي: لَا يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَ«قَدْ» مُضْمَرَةٌ.

قَالَ فِي «الْمَفْصَلِ»^(١): وَالْمَفْتُوحَةُ يُعَوِّضُ عَمَّا ذَهَبَ مِنْهَا أَحَدُ الْأَحْرَفِ الْأَرْبَعَةِ: حَرْفُ النَّفْيِ، وَقَدْ، وَسَوْفَ، وَالسَّيْنِ؛ نَحْوُ: عَلِمْتُ أَنْ لَا يَخْرُجُ زَيْدٌ، وَأَنْ قَدْ خَرَجَ، وَأَنْ سَوْفَ يَخْرُجُ، وَأَنْ سَيَخْرُجُ.

قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: وَفِيهِ نَظَرٌ؛ لِحَوَازِ ﴿أَوْ جَاءَكُمْ وَكُنْتُمْ حَصْرْتُمْ﴾ [النِّسَاءُ: ٩٠] بِإِضْهَارِ «قَدْ»، وَ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٦٣]، وَيُمْكِنُ تَعَسُّفُ فَرْقِ.

(١) انظر: «المفصل في صنعة الإعراب» للزنجشيري ص ٣٩٥.

لأنَّهَا علامةٌ لا تُحَدَفُ. ومعنى ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: بُورِكَ مَنْ فِي مَكَانِ النَّارِ، وَمَنْ حَوْلَ مَكَانِهَا. وَمَكَائِهَا: البُقْعَةُ الَّتِي حَصَلَتْ فِيهَا؛ وَهِيَ البُقْعَةُ الْمُبَارَكَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُودِيَكَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] وَتَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ أَبِي: «تَبَارَكْتَ الْأَرْضُ وَمَنْ حَوْلَهَا». وَعَنْهُ: «بُورِكَتِ النَّارُ»؛ وَالَّذِي بُورِكَتَ لَهُ البُقْعَةُ، وَبُورِكَ مَنْ فِيهَا وَحَوْلِهَا؛ حَدُوثُ أَمْرٍ دِينِيٍّ فِيهَا؛ وَهُوَ: تَكْلِيمُ اللَّهِ مُوسَى وَاسْتِنْبَاؤُهُ لَهُ، وَإِظْهَارُ الْمُعْجِزَاتِ عَلَيْهِ؛ وَرُبَّ خَيْرٍ يَتَجَدَّدُ فِي بَعْضِ الْبِقَاعِ،

وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ هِيَ خَفِيفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَجَازَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ عَوْضٍ؛ لِأَنَّ ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ دَعَاءٌ، وَالِدُّعَاءُ مُخَالِفٌ غَيْرُهُ فِي أَحْكَامٍ كَثِيرَةٍ^(١).

وَقَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: التَّقْدِيرُ: أَنَّهُ بُورِكَ، وَلَمْ يَأْتِ بِعَوْضٍ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢] وَقَوْلِهِ: ﴿أَنْ قَدْ أُبْلِغُوا﴾ [الجن: ٢٨]؛ لِأَنَّهُ دُعَاءٌ^(٢).

قَوْلُهُ: (وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ أَبِي)، أَي: تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعْنَى ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٨] بُورِكَ مَنْ فِي مَكَانِ النَّارِ، إِظْهَارُ الْأَرْضِ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ الشَّاذَّةَ لَيْسَتْ فِي الدَّلَالَةِ أَقَلَّ مِنْ تَفْسِيرِ مُفَسِّرٍ.

قَالَ ابْنُ جَنِّي: تَبَارَكَ: تَفَاعَلَ مِنَ الْبَرَكَةِ، وَهُوَ تَوْكِيدٌ لِمَعْنَاهُ؛ كَقَوْلِكَ: تَعَالَى اللَّهُ، فَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ: عَبَّأَ كَمَا أَنَّ «اعْشَوْسَبَ» أَبْلَغُ مِنْ: اعْشَبَ؛ وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ الْحُرُوفِ^(٣).

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: وَإِسْنَادُ التَّبَارُكِ إِلَى الْأَرْضِ كِإِسْنَادِ التَّعَالَى إِلَى الضُّوئِ فِي قَوْلِ الْمُعَرِّي:

نَشَأَانَ كَضَوْءِ الْبَارِقِ الْمُتَعَالَى بِيَعْدَادٍ وَهَنَا مَا لَهْنَ وَمَالِي؟^(٤)

(١) انظر: «التيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٠٤).

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٠٠١).

(٣) انظر: «المحتسب» (٢: ١٣٣).

(٤) لم أجده في «ديوان المعري».

فَيَنْشُرُ اللَّهُ بَرَكَهَ ذَلِكَ الْحَيْرِ فِي أَقَاصِيهَا، وَيُبَيِّتُ آثَارَ يَمِينِهِ فِي أَبْعَادِهَا، فَكَيْفَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ؛ الَّذِي جَرَى فِي تِلْكَ الْبُقْعَةِ.

وقيل: المراد بالمبارك فيهم: موسى والملائكة الحاضرون. والظاهر أنه عامٌّ في كل من كان في تلك الأرض، وفي ذلك الوادي وحواليهما من أرض الشام، ولقد جعل الله أرض الشام بالبركات مؤسومة في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]؛ وحُقِّقَ أن تكون كذلك؛ فهي مبعث الأنبياء صلوات الله عليهم، ومهبط الوحي إليهم، وكفاتهم أحياء وأمواتاً.....

قوله: (وقيل: المراد بالمبارك فيهم موسى والملائكة)، الضمير في «فيهم» راجع إلى اللام. وقيل: عطف على قوله: «بورك من في مكان النار ومن حول مكانها»، فذكر في المعطوف عليه أن ذلك المكان أي مكان هو، والذي بُوركت به البقعة ما هو، وهو حدوث أمر ديني، ثم بين في المعطوف أن المراد بالذي بُوركت فيه (١) من هو، وهو إما موسى والملائكة وما أعم منه. وعن بعضهم: البقعة من الأبقع؛ كالحُمرة من الأحمر، وهي قطعة فيها سوادٌ وبياضٌ؛ من الغراب الأبقع، والبُقعان جمع أبقع؛ كالحُمران جمع أحمر، ثم قيل لقطعة من الأرض: بقعة، ومنه قولهم: إن للبقاع دولا. وهذا من التعميم بعد التخصيص.

قوله: (وكفاتهم أحياء وأمواتاً)، قال: الكفات من: كفت الشيء: إذا ضمته وجمعه، وهو اسم ما يكفت؛ كقولهم: الضمائم والجماع لما يضم ويجمع (٢)، كأنه قيل: كافتنا أحياء وأمواتاً، والمعنى: يكفت أحياء على ظهرها وأمواتاً في بطنها.

الراغب: الكفت: القبض والجمع. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]؛ أي: تجمع الناس أحياءهم وأمواتهم. وقيل: معناه: تضم الأحياء التي هي الإنسان والحيوانات والنبات، والأموات التي هي الجمادات من التراب والماء

(١) قوله: «بالذي بورك فيه» سقط من (ف).

(٢) انظر: «الكشاف» (١٦: ٢٢٨).

فإن قلت: فما معنى ابتداءِ خطابِ الله موسى بذلك عند مجيئه؟ قلت: هي إشارة له؛ بأنه قد قُضِيَ أمرٌ عظيمٌ تنتشرُ منه في أرضِ الشَّامِ كُلِّها البركة. ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تعجيبٌ لموسى عليه السَّلامُ من ذلك، وإيدانٌ بأنَّ ذلك الأمر؛ مُرِيدُهُ ومُكَوِّنُهُ ربُّ العالمين، تنبيهاً على أنَّ الكائنَ من جلائلِ الأمورِ وعظائمِ الشؤون.

وغير ذلك. والكيفاتُ قيل: هو الطَّيرانُ السَّريعُ، وحققيقته: قبضُ الجناحِ للطَّيران؛ كما قال تعالى: ﴿أَوْلَتْرِوًّا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَقَتْ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]، فالقبضُ هنا كالكيفاتِ هناك، والكفَّت: السَّوقُ الشَّدِيدُ، واستعمالُ الكفَّتِ في سوقِ الإبلِ كاستعمالِ القَبْضِ فيه؛ كقولهم: قَبِضَ الراعي الإبل، وراع قُبْضَةً. وكفَّت اللهُ فلاناً إلى نفسه؛ كقولهم: قَبِضَهُ. وفي الحديث: «اكفِّتُوا صبيانَكُم بالليل»^(١).

قوله: (فما معنى ابتداءِ خطابِ الله موسى بذلك؟)، جاء بالفاءِ في السُّؤال؛ لأنَّ السُّؤالَ وارِدٌ على قوله: «والظَّاهرُ أنَّه عامٌّ في كلِّ مَنْ كانَ في حِوَالِي أرضِ الشَّامِ» يعني: إذا أُريدَ بِمَنْ^(٢) بورك من في النارِ: العُموْمُ، فما معنى ابتداءِ الخطابِ لموسى عليه السَّلام؛ لآتِه وغيره سِوَاءِ في ذلك. وأجابَ بأنَّه بِشارةٌ لموسى عليه السَّلام بتجديدِ بركةٍ أُخرى إلى تلكِ البركات، وبِواسِطِته تنتشرُ تلكِ البركةُ في تلكِ الأراضِي، وتَتَّصِلُ إلى ساكنِها.

قوله: (﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تعجيبٌ لموسى)، يعني: في ذِكرِ موسى: «سُبْحَانَ اللَّهِ»، في هذا المقامِ فائدَتان:

إحداهُما: تعجيبٌ لموسى من ذلكِ الأمرِ العظيم، وهو إحداثُ أمرٍ دينيٍّ من تكليمه واستنباثه.

وثانيتهما: إعلامٌ له بأنَّ مُريدَ ذلكِ الأمرِ هو ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما، فأعظِمُ بأمرٍ مُريدُهُ مَنْ هو ربُّ العالمين! وإليه الإشارةُ بقوله: «تنبيهاً على أنَّ الكائنَ من

(١) «مفردات القرآن» ص ٧١٣ - ٧١٤، والحديث أخرجه البخاري (٣١٣٨) بلفظ: «اكفِّتُوا صبيانَكُم عند العشاء».

(٢) في (ن): ممن.

[﴿يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٩]

الهاء في ﴿إِنَّهُ﴾ يجوز أن يكون ضمير الشأن. والشأن ﴿أَنَا اللَّهُ﴾ مبتدأ وخبر. و﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ صفتان للخبر. وأن يكون راجعاً إلى ما دل عليه ما قبله، يعني: أن مُكَلِّمَكَ أَنَا، و﴿اللَّهُ﴾ بيان لأننا. و﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: صفتان للمبين؛ وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة، يريد: أنا القويُّ القادرُ على ما يبعدُ من الأوهام؛ كقلب العصا حية، الفاعلُ كلُّ ما أفعله بحكمةٍ وتدبير.

[﴿وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرًّا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الْمُرْسَلُونَ﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ١٠-١١]

فإن قلت: علام عطف قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ﴾؟ قلت: على بُورك؛ لأن المعنى: نودي أن بُورك من في النار، وأن ألق عصاك: كلاهما تفسيرٌ لنودي. والمعنى: قيل له:

جلائل الأمور، نحوه قول الفرزدق:

إن الذي سمك الساء بنى لنا
بيتا دعائمه أعز وأطول^(١)

والحاصل أن قوله^(٢): ﴿وَسُبِّحْنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ كالتذليل والتأكيد لما تضمن قوله: ﴿بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من المعاني التي أشير إليها فيما سبق.

قوله: (وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره)، اعلم أنه تعالى كما جعل ﴿وَسُبِّحْنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ تذيلاً للكلام السابق تنبيهاً على جلاله الأمر الحادِث، جعل قوله: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تمهيداً للكلام اللاحق تنبيهاً على فخامته، وأن مظهره الله العزيز الحكيم. وإليه الإشارة بقوله: «أنا القويُّ القادرُ على ما يبعدُ من الأوهام».

(١) انظر البيت وشرحه في «خزانة الأدب» لعبد القادر البغدادي (٨: ٢٤٥).

(٢) قوله: «أن قوله» سقط من (ح).

«بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ»، وقيل له: ﴿أَلَيْعَصَاكَ﴾. والدليل على ذلك قوله عز من قائل: ﴿وَأَنْ أَلَيْعَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١] بعد قوله: ﴿أَنْ يَمْوِسَّ إِفْتِ أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] على تكرير حرف التفسير، كما تقول: كتبت إليك أن حُجَّ وأن اعتمر، وإن شئت: أن حُجَّ واعتمر.

وقرأ الحسن: (جأن) على لغة من يجد في الهرب من التقاء الساكنين، فيقول: شأبة ودأبة. ومنها قراءة عمرو بن عبيد: ﴿وَلَا الصَّالِينَ﴾.

﴿وَلَمْ يَعْقَبْ﴾: لم يرجع، يقال: عقب المقاتل، إذا كثر بعد الفرار. قال:

فما عقبوا إذ قيل: هل من معقب؟ ولا نزلوا يوم الكريهة منزلاً

وإنما رعب لظنه أن ذلك لأمر أريد به، ويدل عليه: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾

قوله: (والدليل على ذلك)، أي: على أنه معطوف على قوله: ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ مجيء في القصص: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِفْتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ * وَأَنْ أَلَيْعَصَاكَ [القصص: ٣٠-٣١] وإن كرر فيه حرف التفسير.

قوله: (فما عقبوا إذ قيل) البيت^(١)، يوم الكريهة: يوم الحروب. يصف فرار قوم من المحاربة بحيث لا يرجعون بعده، ولا ينزلون منزلاً من الخوف.

قوله: (رعب)، رعب الرجل: ملئ خوفاً. رعب السيل الوادي: ملاءه. وامرأة رعبوبة: ملئت شحماً ولحماً.

قوله: (لأمر أريد به)، يعني: إنما ﴿وَلَنْ مُدْرِكًا وَلَمْ يَعْقَبْ﴾؛ لخوف عظيم واستشعار ظن أن في قلب العصا حياةً أمراً أريد به هلاكه.

(١) سبق تحريجه.

و﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن)؛ لأنه لما أُطْلِقَ نَفْيُ الْخَوْفِ عَنِ الرَّسْلِ، كَانَ ذَلِكَ مَظْنَةً لَطَرُوشِ الشُّبْهَةِ،

قوله: (و﴿إِلَّا﴾ بمعنى «لكن»)، يريد أن الاستثناء منقطع، و﴿من﴾ منصوب المحل؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَمُودَ نَبِيًّا * إِذْ آتَاهُمُ الْوَيْلُ﴾ [الحجر: ٥٨-٥٩] قال: ﴿آءَال لُوطٍ﴾^(١) استثناء منقطع؛ لأن القوم مؤصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنس، وهأهنا بالعكس؛ لأن المُستدرك جنس غير المعصومين استدرك^(٢) من المعصومين، وإليه الإشارة بقوله: «ولكن من ظلم منهم؛ كالذي قرط من آدم ويونس وداود وسليان وإخوة يوسف، ومن موسى عليهم السلام، وأما فرطه آدم وإخوة يوسف وموسى فظاهرة، وأما فرطه يونس فما دل عليها: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصفات: ١٤٠]، وفرطه داود ما يُشعرُ به قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص: ٢٤] وفرطه سليمان قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤].

الكواشي: المعنى على الانقطاع؛ أي: من أمتته من عذابي لا ينبغي أن يخاف من حية. قوله: (لما أُطْلِقَ نَفْيُ الْخَوْفِ عَنِ الرَّسْلِ كَانَ ذَلِكَ مَظْنَةً لَطَرُوشِ الشُّبْهَةِ)، هذا إشارة إلى الخلاف بين الناس في جواز الذنب على الأنبياء أو عدمه. قال الإمام: فيه خمسة أقوال: أولها: قول الحشوية؛ فإنهم يقولون بجواز صدور الكبائر عنهم عمداً. وثانيها: المعتزلة؛ فإنهم لا يجوزون عليهم الكبائر، ويجوزون الصغائر إلا ما يُنفر؛ كالكذب والتطفييف، وإلى هذا أشار المصنف بقوله: «مما يجوز على الأنبياء». وثالثها: الجبائي أنه قال: لا تجوز الصغيرة ولا الكبيرة على جهة العمد، بل على التأويل. ورابعها: لا يقع منهم ذنب قط، وأنهم معصومون من وقت مولدهم. وهذا قول الرافضة.

(١) قوله: «قال: ﴿آءَال لُوطٍ﴾ سقط من (ف).

(٢) في (ف): «استدراك».

ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ: وَالْمَخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّهُ لَمْ يَصْدُرْ عَنْهُمْ ذَنْبٌ حَالَ النُّبُوَّةِ لَا الصَّغِيرَةَ وَلَا الْكَبِيرَةَ^(١). وَفِي تَضَاعِيفِ كَلَامِهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ تَرْكَ الْأَوْلَى مِنْهُمْ كَالصَّغِيرَةِ مَنَّا؛ لِأَنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقْرَبِينَ.

وَإِذَا عَلِمَ هَذَا فَقَوْلُ الْمَصْنُفِ: «لَمَّا أَطْلَقَ نَفْيَ الْخَوْفِ عَنِ الرَّسْلِ كَانَ ذَلِكَ مَظْنَنَةً لَطُرُوكِ الشُّبْهَةِ» مَعْنَاهُ: لَطُرُوكِ شُبْهَةٍ مِّنْ يَنْفِي عَنْهُمْ الْكِبَائِرَ وَالصَّغَائِرَ، وَأَنْ لَيْسَ لَهُمْ خَوْفُ الْبِتَّةِ، لَا مِنْ جِهَةِ الصَّغَائِرِ، وَلَا مِنْ جِهَةِ الْكِبَائِرِ، فَاسْتَدْرَكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ هَذَا الظَّنَّ، وَأَثْبَتَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ «فَرَطَتْ مِنْهُ صَغِيرَةٌ مَّا يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ؛ كَالَّذِي فَرَطَ مِنْ آدَمَ...» إِلَى آخِرِهِ. وَقُلْتُ: وَجْهُ التَّوِيلِ عَلَى رَأِينَا ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، ثُمَّ بَدَّلَ بَعْدَهَا حُسْنًا. وَيُؤَيِّدُهُ لَفْظَةٌ: ﴿تَرَى﴾؛ فَإِتْمَانُهَا لِلتَّرَاخِي.

وَقَالَ صَاحِبُ «الْمَطْلَعِ»: وَالْمَعْنَى: وَلَكِنْ مَن ظَلَمَ مِنَ الْعِبَادِ ثُمَّ تَابَ؛ فَإِنِّي أَعْفِرُ لَهُ. وَعَلَى هَذَا لَا يَخَافُ الْأَنْبِيَاءُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الزَّجَّاجِ^(٢). تَمَّ كَلَامُ «الْمَطْلَعِ».

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْإِسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلًا، وَمَوْضِعُ ﴿مَنْ﴾ رَفَعَ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ الْفَاعِلِ؛ كَمَا قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ^(٣).

وَالْمَعْنَى: إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيْي الْمُرْسَلُونَ، إِلَّا الَّذِي فَرَطَ مِنْهُ مَا عُفِرَ لَهُ ثُمَّ تُرْحِمَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يَخَافُ، وَقَدْ عَلِمَ وَتَحَقَّقَ أَنَّ الْمَغْفُورَ لَهُ وَالْمَرْحُومَ عَلَيْهِ لَا يَخَافُ اللَّهُ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي عُفِرَ لَهُ الْبِتَّةُ، فَإِذَنْ لَا يَخَافُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ عَلَى الْبِتَّةِ وَالْقَطْعِ. وَالْمَقَامُ يَقْتَضِي هَذَا الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ مَقَامَ تَلْقَى الرِّسَالَةَ وَابْتِدَاءِ الْمَكَالِمَةِ مَعَ الْكَلِيمِ يُوجِبُ إِزَالَةَ الْخَوْفِ بِالْكَلِمَةِ، لَا سَيِّمًا الْخَوْفِ مِنَ قَبِيلِ مَا يَعْتَرِي الْبَشَرِيَّةَ مِنْ تَوْهَمِ مَكْرُوهِ نَفْسَانِي.

(١) مِنْ قَوْلِهِ: «عَلَى جِهَةِ الْعَمْدِ» إِلَى هُنَا سَقَطَ مِنْ (ح). وَانظُرْ كَلَامَ الْإِمَامِ الرَّازِيِّ فِي «مِفْتَاحِ الْغَيْبِ» (٣): (٤٥٥).

(٢) انظُرْ: «مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابِهِ» (٤: ١١٠).

(٣) «التَّبْيَانُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» (٢: ١٠٠٥).

فاستدرك ذلك. والمعنى: ولكن من ظلم منهم أي: فرطت منه صغيرة مما يجوز على الأنبياء؛ كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف، ومن موسى عليه السلام بوكزة القبطي، ويوشك أن يقصد بهذا التعريض بما وجد من موسى، وهو من التعريضات التي يلفظ مأخذها. وسماه ظلماً، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، والحسن والسوء: حسن التوبة، وقبح الذنب. وقرئ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ»، بحرف التنبيه. وعن أبي عمرو في رواية عزيمة: «حَسَنًا».

﴿وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِمَّنْ غَيْرِ سَوِيٍّ فِي تَوْبَةٍ﴾ [التوبة: ١٢]

وروى الإمام عن بعضهم: إني إذا أمرت المرسلين^(١) بإظهار معجز، فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك، وإلا فالمرسل قد يخاف لا محالة^(٢).

قوله: (وسماه ظلماً؛ كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص: ١٦])، لما سمي^(٣) موسى عليه السلام فعله ظلماً قابله تعالى بالمُشَاكَلَة.

قوله: (وقرئ: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ» بحرف التنبيه^(٤))، قال ابن جني: وهي قراءة زيد بن أسلم وأبي جعفر القاري. ومن مرفوعة بالابتداء، وخبره: ظلم؛ كقولك: مَنْ يَقُمُ أَضْرِبُ زَيْدًا. ف«يَقُمُ» خبر «مَنْ» حيثُ كَانَ شرطاً؛ كأنه قال: هذا حق. وعليه معنى انقطاع الاستثناء في القراءة الفاشية. المعنى: لا يخاف لدي المرسلون، لكن من ظلم كان كذا^(٥).

(١) في (ف): «المسلمين».

(٢) انظر: «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٥٤٥).

(٣) قوله: «سمى» سقط من (ف).

(٤) في (ف): «الثنية».

(٥) انظر: «المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» (٢: ١٣٥).

﴿تَسِعَ آيَاتِي﴾ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ، وَحَرْفُ الْجَزْرِ فِيهِ يَتَعَلَّقُ بِمَحذُوفٍ. وَالْمَعْنَى: اذْهَبْ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ؛ وَنَحْوَهُ:

فَقُلْتُ: إِلَى الطَّعَامِ، فَقَالَ مِنْهُمْ فَرِيْقٌ نَحْسُدُ الْإِنْسَ الطَّعَامَا

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: وَاللَّيْ عَصَاكَ، وَأَدْخَلَ يَدَكَ، فِي تِسْعِ آيَاتٍ، أَي: فِي جُمْلَةٍ تِسْعِ آيَاتٍ وَعِدَادِهِنَّ. وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: كَانَتِ الْآيَاتُ إِحْدَى عَشْرَةَ: ثِنْتَانِ مِنْهَا الْيَدُ

قَوْلُهُ: (وَالْمَعْنَى: اذْهَبْ فِي تِسْعِ آيَاتٍ)، أَي: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ فِي شَأْنِ تِسْعِ آيَاتٍ بِأَنْ تَتَحَدَّى بِهِنَّ، وَتُظْهِرَ بِهَا بُتُوكَ، وَتَلْزَمَ عَلَيْهِ حُجَّةَ اللَّهِ.

قَوْلُهُ: (وَأَدْخَلَ يَدَكَ، فِي تِسْعِ آيَاتٍ)، فَعَلَى هَذَا هُوَ حَالٌ مِنَ الْمَفْعُولِ، وَهُوَ يَدَكَ؛ أَي: أَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيضَاءَ مُسْفِرَةٍ^(١) فِي تِسْعِ آيَاتٍ مَعْدُودَةٍ فِي جُمْلَتِهِنَّ.

قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: ﴿يَبْصَاءٌ﴾ حَالٌ، وَ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ حَالٌ أُخْرَى، وَ﴿فِي تِسْعِ آيَاتِي﴾ [النمل: ١٢] حَالٌ ثَالِثَةٌ، وَالتَّقْدِيرُ: آيَةٌ فِي تِسْعِ آيَاتٍ، وَ﴿إِلَى﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحذُوفٍ؛ أَي: مُرْسَلًا إِلَى فِرْعَوْنَ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً لـ ﴿تِسْعٍ﴾ أَوْ لـ ﴿آيَاتِي﴾، أَي: وَاصِلَةٌ إِلَى فِرْعَوْنَ^(٢).

قَوْلُهُ: (وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: كَانَتِ الْآيَاتُ إِحْدَى عَشْرَةَ)، عَنْ بَعْضِهِمْ: كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَيْسَ بِبَلَاغٍ أَنْ يُقَالَ: هَذَا دَاخِلٌ فِيهَا.

قَالَ صَاحِبُ «التَّقْرِيبِ»: وَلَعَلَّ الطَّمْسَةَ وَالْجَذْبَ فِي بُوَادِيهِمْ، وَالتَّقْصَانَ فِي مَزَارِعِهِمْ يَرْجِعُ إِلَى وَاحِدٍ.

وَقَالَ صَاحِبُ «الفَرَايِدِ»: يُمَكَّنُ أَنْ يُقَالَ: الْجِرَادُ وَالْقُمَّلُ وَاحِدَةٌ، وَالْجَذْبُ وَالتَّقْصَانُ وَاحِدَةٌ؛ لِأَنَّهَا مُتَقَارِبَانِ.

(١) فِي (ط): «مُسْتَفْرَةٌ».

(٢) انْظُرْ: «التَّبْيَانُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ» (٢: ١٠٠٥).

والعصا، والتَّسْع: الفَلَق، والطُّوفان، والجَراد، والقُمَّل، والضَّفادع، والدَّم، والطَّمْسة،
والجَذْب في بَوادِيهِم، والنَّقْصان في مَزَارِعِهِم.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [١٣]

المُبْصِرَة: الظَّاهِرَة البَيِّنَة. جُعِلَ الإبصارُ لها وهو في الحَقِيقَة لَمُتَأَمِّلِيهَا؛ لأنهم لا يَبْصُرُونَهَا
وكانوا بسببِ منها يَنْظُرُهُم وتَفَكَّرُهُم فيها. ويجوزُ أن يُرادَ بِحَقِيقَة الإبصارِ: كُلُّ
ناظرٍ فيها من كافَةِ أولي العَقْل، وأن يُرادَ إبصارُ فرعونَ ومَلِئِهِ؛ كقولهِ: ﴿وَأَسْتَيْقِنَتَهَا
أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] أو جعلتْ كَأَتْهَا تُبْصِرُ فَتَهْدِي، لأنَّ العُمِّي لا تَقْدِرُ على الاهْتِداءِ،

وقال القاضي: ولمن عَدَّ العصا واليدَ مِنَ التَّسْعِ أن يَعُدَّ الأخيرينِ واحداً، ولا يَعُدَّ
الفَلَقَ^(١)؛ لأنَّهُ لم يُبعثْ به إلى فرعون^(٢).

قولُهُ: (وكانوا بسببِ منها)، قيل: كُلُّ ما يكونُ وُضْلَةً بَيْنَ شَيْئَيْنِ يَسْمَى سَبَبًا؛ تشبيهاً
بالسببِ الذي هو الحَبْلُ.

و«من» - في قولهِ: ﴿مِنَهَا﴾ - اتِّصَالِيَّةٌ، يعني: لَمَّا كان المتأَمِّلونَ مُلابسينَ مُتَّصِلينَ مِنَ
الآياتِ بسببِ نظريهِم وتَفَكُّرِهِم فيها، جُعِلت الآياتُ مُبْصِرَةً. وهذا الوجهُ مِنَ الإسنادِ
المجازيِّ، أسبَدَ الإبصارَ إلى الآياتِ، وهو في الحَقِيقَة لِذَوِي البصائرِ، وهم إِمَّا كُلُّ أَحَدٍ، أو
فرعونُ ومَلَأَهُ بِقَرِينَةٍ: ﴿وَأَسْتَيْقِنَتَهَا﴾.

قولُهُ: (أو جُعِلتْ كَأَتْهَا تُبْصِرُ فَتَهْدِي)، وعلى هذا الوجهُ هو استعارَةٌ مَكْنِيَّةٌ، شُبِّهتْ
الآياتُ في جَلالِها في نَفْسِها وأَتْها بحيث يَهْتَدِي بها النَّاسُ، كأنها الشَّخْصُ تُبْصِرُ بِنَفْسِها
فتَهْدِي النَّاسَ، والهادي يَنْبَغِي أن يكونَ قادراً على الاهْتِداءِ لِتَهْدِي غَيْرَها، فَإِنَّ العُمِّي لا
تَقْدِرُ على الاهْتِداءِ، فَضْلاً أن تَهْدِي غَيْرَها.

(١) في (ح): «الفرق».

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٦٠).

فضلاً أن تهدي غيرها. ومنه قولهم: كلمة عينا، وكلمة عوراء، لأن الكلمة الحسنة تُرشد، والسّيئة تُغوي. ونحوه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فوصفها بالبصارة، كما وصفها بالإبصار. وقرأ عليُّ ابنُ الحسين رضي الله عنهما وقتادة: (مبصرة)، وهي نحو: مجبنة ومبخلة ومجفرة، أي: مكاناً يكثر فيه التبصر.

قال القاضي: ﴿مبصرة﴾ مُبَيَّنَةٌ: اسمُ فاعل، أُطْلِقَ للمفعول، وإشعاراً بأنها لفرط اجتلائها للأبصار بحيث تكاد تبصر نفسها لو كانت مما يبصر، أو ذات تبصر من حيث إتها تهدي، والعمي لا تهدي فضلاً عن أن تهدي، أو: مبصرة كل من نظر إليها وتأمل فيها^(١). قوله: (وكلمة عوراء) أي: سقطة لا اعتداد فيها. قال حاتم:

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرماً^(٢)

قوله: (ومجفرة)، النهاية: «صوموا ووفروا أشعاركم؛ فإنها مجفرة»^(٣)، أي: مقطعة للنكاح ونقص للماء. ومنه حديث علي رضي الله عنه: أنه رأى رجلاً في الشمس، فقال: قم عنها فإنها مجفرة. أي: تذهب شهوة النكاح. يقال: جفر الفحل يجفر جفوراً: إذا انقطع^(٤) عن الضراب وعدل عنه وتركه وانقطع.

وقال ابن جنّي: وقد كثرت المفعلة بمعنى الشباع والكثرة في الجواهر والأحداث جميعاً؛ نحو: أرض مذببة: كثيرة الضباب ومنعلة كثيرة الشعالي، ونحياة كثيرة الحيات، وفي الأحداث نحو البطنة مؤسنة، وأكل الرطب مؤرودة^(٥).

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٦١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٥٥٦٨).

(٤) تحرف في (ح) و(ف) إلى: «أكثر»، وصوابه ما أثبتناه موافقاً لما ثبت في معاجم اللغة، انظر «لسان العرب» و«تاج العروس» (جفر).

(٥) «المحتسب» (٢: ١٣٥).

[وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾]

[١٤]

الواو في ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا﴾ واو الحال، و«قد» بعدها مُضْمَرَةٌ، والعُلُوُّ: الكِبَرُ والتَّرَفُّعُ عن الإيِّانِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقرئ: (عَلِيًّا) و(عَلِيًّا) بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ؛ كَمَا قُرِئَ: ﴿عَتِيًّا﴾ و(عَتِيًّا) [مريم: ٨]، وفائدة ذِكْرِ الْأَنْفُسِ: أَنَّهُمْ جَحَدُوا بِهَا بِالسِّيْتِمْ، وَاسْتَيْقَنُوا فِي قُلُوبِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ، وَالْإِسْتَيْقَانُ أبلغُ من

قوله: (كما قرئ: ﴿عَتِيًّا﴾ [مريم: ٨])، الجوهرى: يُقَالُ: عَتَوْتَ تَعْتُو عَتْوًا وَعَتِيًّا وَعَتِيًّا. الْأَصْلُ عَتُوٌّ، ثُمَّ أَدْلَوْا إِحْدَى الضَّمَّتَيْنِ كَسْرَةً، فَانْقَلَبَتِ الْوَاوُ يَاءً، فَقَالُوا: عَتِيًّا، ثُمَّ أَتَبَعُوا الْكَسْرَةَ الْكَسْرَةَ، فَقَالُوا: عَتِيًّا لِيُوَكِّدُوا الْبَدَلَ.

قوله: (جحدوا^(١) بالسيتهم)، الراغب: الْجَحَدُ: نَفْيُ مَا فِي الْقَلْبِ ثَبَاتُهُ، وَإِثْبَاتُ مَا فِي الْقَلْبِ نَفْيُهُ. يُقَالُ: جَحَدَ جُحُودًا وَجَحَدًا ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾، وَتَجَحَّدَ: تَخَصَّصَ بِفِعْلٍ ذَلِكَ، يُقَالُ: رَجُلٌ جَحَدٌ: شَحِيحٌ قَلِيلُ الْخَيْرِ يُظْهِرُ الْفَقْرَ، وَأَرْضٌ جَحْدٌ: قَلِيلُ النَّبْتِ. يُقَالُ: جَحَدًا وَنَكَدًا^(٢).

وقال أيضًا: اليقينُ من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأحواتها، يُقَالُ: عِلْمٌ يَقِينٌ، وَلَا يُقَالُ: مَعْرِفَةٌ يَقِينٌ، وَهُوَ: سُكُونُ النَّفْسِ مَعَ ثَبَاتِ الْحُكْمِ، يُقَالُ: أَيْقَنَ وَاسْتَيْقَنَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَلْبُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]؛ أَي: مَا قَتَلُوهُ قَتْلًا تَيْقَنُوهُ، بَلْ إِنَّمَا حَكَمُوا بِهِ تَحْمِينًا وَوَهْمًا^(٣).

(١) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي المطبوع: «جحدوها».

(٢) «مفردات القرآن» ص ١٨٧ بتصرفٍ يكاد يُخِلُّ بِالْمَقْصُودِ.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٨٩٢-٨٩٣.

الإيقان، وقد قُوبِلَ بين «المُبَصَّرَةِ» و«المُبِينِ»، وأيُّ ظلمٍ أفحشٍ من ظلمٍ من اعتقدَ واستيقنَ أنَّها آياتٌ بيِّنَةٌ واضِحَةٌ جاءتْ من عندِ الله، ثمَّ كابرَ بِتَسْمِيَّتِهَا سِحْرًا بَيِّنًا مكشُوفًا لا شُبُهَةَ فِيهِ.

[﴿وَلَقَدْ ءَايَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ

الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٥]

﴿عِلْمًا﴾ طائفةٌ من العلم، أو علماً سَنِيًّا عَزِيزًا. فإن قلت: أليس هذا موضعَ الفاءِ دُونَ الواوِ، كقولِكَ: أعطيتُهُ فشكر، وَمَنَعْتُهُ فصَبَرَ؟ قلت: بلى، ولكنَّ عَطْفَهُ بِالْوَاوِ إِشْعَارٌ بَأَنَّ مَا قَالَاهُ بَعْضُ مَا أَحَدَثَ فِيهَا إِيْتَاءُ الْعِلْمِ،

قوله: (وقد قوبلَ بينَ «المُبَصَّرَةِ» و«المُبِينِ»)، لم يُردْ أنه من بابِ المُقَابَلَةِ التي هي الجَمْعُ بينَ المتضادِّين، بل أراد أنه كما وَصَفَ ﴿ءَايَيْنَا﴾ بقوله: ﴿مُبَصَّرَةٌ﴾، قوبلَ وَصْفُ السِّحْرِ بِالْمُبِينِ دَوْمًا لِلتَّطَابِقِ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ. ويجوزُ أن يُعْتَبَرَ معنى التَّضَادِّ مِنْ كَوْنِهَا وَصْفَيْنِ لِلْمُتَضَادِّينِ: الآياتِ وَالسِّحْرِ، فيُفِيدُ بُلُوغَ كُلِّ مِنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ غَايَتَهُ.

قوله: (طائفةٌ من العلم أو علماً سَنِيًّا)، الانتصاف: والظاهرُ أن التَّكْرِيْرَ فِي ﴿عِلْمًا﴾ لِلتَّعْظِيمِ؛ لِأَنَّهُ فِي سِيَاقِ الْاِمْتِنَانِ^(١).

قوله: (ولكنَّ عَطْفَهُ بِالْوَاوِ إِشْعَارٌ بَأَنَّ مَا قَالَاهُ^(٢)) بعضُ ما أَحَدَثَ فِيهَا إِيْتَاءُ الْعِلْمِ)، يعني: أن إِيْتَاءَ الْعِلْمِ مِنْ جَلَائِلِ النَّعْمِ وَفَوَاضِلِ الْمِنَحِ، يَسْتَدْعِي إِحْدَاثَ الشُّكْرِ أَكْثَرَ مِمَّا ذُكِرَ، فَجِيءَ بِالْوَاوِ لِأَنَّهَا تَسْتَدْعِي مَعْطُوفًا عَلَيْهِ مُضْمَرًا، فيَقْدَرُ بِحَسْبِ مَا يَقْتَضِيهِ مَوْجِبُ الشُّكْرِ مِنْ قَوْلِهِ: «فَعَمِلَا بِهِ وَعِلْمَاهُ»؛ لِأَنَّهَا مِنَ الشُّكْرِ بِالْجَوَارِحِ، «وَعَرَفَا حَقَّ النِّعْمَةِ فِيهِ وَالْفَضِيلَةَ»، فَإِنَّهُ مِنَ الشُّكْرِ بِالْقَلْبِ، ﴿وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ فَإِنَّهُ مِنَ الشُّكْرِ اللَّسَانِيِّ، فيَسْتَوْعِبُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الشُّكْرِ، وَيُوَازِي قَوْلَ الشَّاعِرِ:

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٥٢).

(٢) في (ط): «لاقاه».

وشيءٌ من مَواجِبِهِ، فأضمرَ ذلك ثم عطفَ عليه التَّحْمِيدَ، كأنه قال: ولقد آتيناها علماً فَعَمِلًا به، وعلماً، وعرَفًا حقَّ النِّعْمَةِ فيه والفضيلة، ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾. والكثيرُ المُفْضَلُ عليه: مَنْ لم يُؤتَ علماً، أو مَنْ لم يُؤتَ مثلاً عَلمِهَا. وفيه: أَنَّهُمَا فَضَّلَا على كثير، وَفُضِّلَ عليهما كثير.

وفي الآية دليلٌ على شرفِ العلم، وإِنَافَةِ محلِّه، وتقدُّمِ حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجلِّ النعم. وأجزَلَ القِسَم، وأنَّ مَنْ أُوتِيَهُ فقد أُوتِيَ فَضْلاً على كثيرٍ من عِبَادِ اللَّهِ، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]،

أفادتكمُ النِّعماءُ مِنِّي ثلاثةٌ يدي ولساني والصَّمِيرَ المُحَجَّباً^(١)

ولو نصَّ بالفاءِ لاقتصرَ على المذكورِ وفاتَ المقصودُ.

وبهذا التقرير ظهر أن ما ذهب إليه المصنّفُ فَمِينٌ أن يُتَّبَعَ ويُؤَثَّرَ على ما اختاره صاحبُ «المفتاح» حيث قال: ويحتمل عندي أنه أخبر تعالى عما صنع بهما، وأخبر عما قال، فكأنه قال: نحن فعلنا إيتاء العلم، وهما فعلا الحمد تفويضاً لاستفادة ترتب الحمد على إيتاء العلم إلى فهم السامع^(٢)؛ لأن الشكر على هذا يختص بالقول وحده والنعمة خطيرة.

قوله: (وشيءٌ من مَواجِبِهِ)، قيل: المَواجِبُ: جمعُ مُوجِبٍ، بضم الميم وفتح الجيم، و«ذلك» إشارةٌ إلى ما دلَّ عليه قوله: «بعض» و«شيء»، وهو البعض الآخر والشيء الآخر الذي لم يُذكر.

قوله: (دليلٌ على شرفِ العلم وإِنَافَةِ محلِّه)، قال القاضي: لأنهما شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل، ولم يعتبرا دونه مما أوتيا من الملك الذي لم يُؤتَ غيرهما^(٣).

(١) سبق تحريجه.

(٢) «مفتاح العلوم» ص ١٢٣.

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٦١).

وما ساء لهم رسول الله ﷺ: «ورثة الأنبياء» إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة، لأنهم القوام بما بعثوا من أجله.

وفيها أنه يلزمهم هذه النعمة الفاضلة لوازيم، منها: أن يحمّدوا الله على ما أوتوه من فضلهم على غيرهم. وفيها التذكير بالتواضع، وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير؛ فقد فضل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر:

قوله: (وما ساءهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء)، روي عن أبي داود والترمذي عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(١).

قوله: (لأنهم القوام)، والقوام: الأمر عليهم، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]؛ أي: أمراء عليهن، أي: لا يجري القصاص بالضرب بين الزوجين.

قوله: (وأن يعتقد العالم أنه وإن فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم)، قال صاحب «التقريب»: وفيه نظر، إذ يدل بالمفهوم على أنها لم يُفضّل على القليل، فأما أن يُفضّل القليل عليها أو يساويها فلا.

قلت: ولعله أشعر بأن المصنّف رمز إلى أن المُفضّل عليهما الملائكة، كما قال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ... وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]^(٢).

وأما الفرق بين المقامين فهو أن مقام المدح خلاف مقام الشكر والتواضع، وذلك أنه تعالى في ذلك المقام كما ذكر كرامة أبيهم من جعله مسجودا للملائكة المقربين، وما منحوا من نعمة الدارين، عقبه بذكر كرامتهم وفضلهم على كثير من المخلوقين؛ أي: جمعهم كما

(١) هو جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٧١٥) والترمذي (٢٦٨٢) وأبو داود (٣٦٤٢) وغيرهم بإسناد حسن لغيره، وانظر تمام تنقيده في التعليق على «مسند أحمد».

(٢) انظر: «الكشاف» (٩: ٣٣٨).

«كَلَّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ».

[«وَوَرِثَ سَلِيمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمَيِينُ» ﴿١٦﴾]

وَرِثَ مِنْهُ النَّبُوءَةَ وَالْمُلْكَ دُونَ سَائِرِ بَنِيهِ، وَكَانُوا تِسْعَةَ عَشَرَ، وَكَانَ دَاوُدُ أَكْثَرَ تَعْبُدًا، وَسَلِيمَانُ أَفْضَى وَأَشْكَرَ لِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴿وَقَالَ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ تَشْهِيرًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ، وَتَنْوِيهَا بِهَا، وَاعْتِرَافًا بِمَكَانِهَا، وَدَعَاءً لِلنَّاسِ إِلَى التَّصَدِيقِ بِذِكْرِ الْمُعْجِزَةِ الَّتِي هِيَ عِلْمُ مَنْطِقِ الطَّيْرِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا أُوتِيَهُ مِنْ عِظَائِمِ الْأُمُورِ.

وَالْمَنْطِقُ: كُلُّ مَا يَصَوَّتُ بِهِ مِنَ الْمَفْرَدِ وَالْمُؤَلَّفِ، الْمُفِيدِ وَغَيْرِ الْمُفِيدِ. وَقَدْ تَرَجَمَ يَعْقُوبُ بْنُ السَّكِّيتِ كِتَابَهُ بِإِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ، وَمَا أَصْلَحَ فِيهِ إِلَّا مَفْرَدَاتِ الْكَلِمِ، وَقَالَتِ الْعَرَبُ: «نَطَقَتِ الْحَمَامَةُ، وَكَلَّ صِنْفٍ مِنَ الطَّيْرِ يَتَفَاهَمُ أَصْوَاتَهُ»، وَالَّذِي عُلِّمَهُ سَلِيمَانُ مِنْ مَنْطِقِ الطَّيْرِ: هُوَ مَا يُفْهَمُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ؛ مِنْ مَعَانِيهِ وَأَعْرَاضِهِ.

سَبَقَ، وَهَاهُنَا، ذَكَرَ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنَ الشُّكْرِ عَلَى كِرَامَةِ اللَّهِ إِيَّاهُمَا وَفَضْلِهِ، وَمَقَامِ التَّوَاضُعِ فِيهِ تَوْسِعَةً؛ كَمَا قَالَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَى»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (١).

قَوْلُهُ: (كَلَّ النَّاسِ أَفْقَهُ مِنْ عُمَرَ)، قَالَهُ حِينَ خَطَبَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تُغَالُوا بِصُدُقِ النِّسَاءِ، فَقَامَتِ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لِمَ تَمْنَعُنَا حَقًّا جَعَلَهُ اللَّهُ لَنَا، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَا آتَيْتُمُوهُنَّ مِنْ نِكَاحٍ فَآتَيْنَهُنَّ مِنْ نِكَاحٍ قِنْطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]! فَقَالَ عُمَرُ: كُلُّ أَحَدٍ أَعْلَمُ مِنْ عُمَرَ. أوردته المصنّف في «النساء» (٢).

قَوْلُهُ: (هُوَ مَا يُفْهَمُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ؛ مِنْ مَعَانِيهِ وَأَعْرَاضِهِ)، قَالَ الْقَاضِي: وَالنُّطْقُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٩٥) وَمُسْلِمٌ (٢٣٧٧) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٢١٠٦) وَالتِّرْمِذِيُّ (١١١٤)، وَالنَّسَائِيُّ (١١٧: ٦) وَابْنُ مَاجَةَ (٢١٠٦)، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ (٤٦٢٠)، وَفِيهِ تَمَامٌ تَحْرِيجِهِ.

ويُحكى أَنَّهُ مَرَّ عَلَى بُلْبُلٍ فِي شَجَرَةٍ يُحْرِكُ رَأْسَهُ وَيُمِيلُ ذَنْبَهُ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ؟» قَالُوا: «اللَّهُ وَنَبِيُّهُ أَعْلَمُ». قَالَ: «يَقُولُ: أَكَلْتُ نِصْفَ ثَمَرَةٍ فَعَلَى الدُّنْيَا العَفَاءُ». وَصَاحَتْ فَاحْتَه، فَأَخْبَرَ أَنَّهَا تَقُولُ: «لَيْتَ ذَا الحَلَقِ لَمْ يُخْلَقُوا». وَصَاحَ طَاوُوسٌ، فَقَالَ: «يَقُولُ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ». وَصَاحَ هُدْهُدٌ، فَقَالَ: «يَقُولُ: اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ

وَالْمَنْطِقُ فِي الْمُتَعَارَفِ: كُلُّ لَفْظٍ يُعْبَّرُ بِهِ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ، مُفْرَدًا كَانَ أَوْ مُرَكَّبًا، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ مَا يُصَوِّتُ بِهِ عَلَى التَّشْبِيهِ أَوْ التَّبَعِ؛ كَقَوْلِهِمْ: نَطَقَتِ الحِمَامَةُ، وَمِنَ النَّاطِقِ وَالصَّامِتِ لِلحَيَوَانِ وَالجِبَادِ، فَإِنَّ الأصْوَاتِ الحَيَوَانِيَّةَ - مِنْ حَيْثُ إِنَّمَا تَابِعَةٌ - مُنَزَّلَةٌ مُنَزَّلَةً العِبَارَاتِ، سَيِّمًا وَفِيهَا مَا يَتَفَاوَتُ بِاخْتِلَافِ الأَعْرَاضِ، بِحَيْثُ يَفْهَمُهَا مَا هُوَ مِنْ جِنْسِهِ، وَلَعَلَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا صَوَّرَتْ حَيَوَانٌ عَلِمَ بِقَوَّتِهِ الحَدَسِيَّةِ المُخَيَّلِ الذي صَوَّتَهُ وَالعَرَضُ الذي تَوَخَّاهُ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُحْكَى أَنَّهُ مَرَّ بِبُلْبُلٍ، إِلَى آخِرِهِ (١).

الراغب: النُّطْقُ فِي التَّعَارُفِ: الأصْوَاتُ المُقَطَّعَةُ التي يُظْهِرُهَا اللِّسَانُ وَتَعْبِيهَا الأَذَانُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَأَنْتُمْ لَنْتَقُونَ﴾ [الصافات: ٩١، ٩٢]، وَلَا يَكَادُ يُقَالُ إِلَّا لِلإنْسَانِ، وَلَا يُقَالُ لِغَيْرِهِ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ التَّسْبِيحِ؛ نَحْوُ: النَّاطِقُ وَالصَّامِتُ، فَيُرَادُ بِالنَّاطِقِ: مَا لَهُ صَوْتُ، وَبِالصَّامِتِ: مَا لَا صَوْتَ لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾: سَمِيَ أصْوَاتِ الطَّيْرِ نَطْقًا اعْتِبَارًا بِسَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي كَانَ يَفْهَمُهُ، فَمَنْ فَهَمَ مِنْ شَيْءٍ مَعْنَى، فَذَلِكَ الشَّيْءُ بِالإِضَافَةِ إِلَيْهِ نَاطِقٌ وَإِنْ كَانَ صَامِتًا، وَبِالإِضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يَفْهَمْ عَنْهُ صَامِتٌ وَإِنْ كَانَ نَاطِقًا. وَقِيلَ: حَقِيقَةُ النُّطْقِ اللَّفْظُ الذي هُوَ كَالنُّطْقِ لِلْمَعْنَى فِي ضَمِّهِ وَحَضْرِهِ (٢).

قَوْلُهُ: (فَعَلَى الدُّنْيَا العَفَاءُ)، النِّهَايَةُ: وَفِي حَدِيثِ صَفْوَانَ: إِذَا دَخَلْتُ بَيْتِي فَأَكَلْتُ رَغِيفًا، وَشَرِبْتُ عَلَيْهِ؛ فَعَلَى الدُّنْيَا العَفَا؛ أَي: الدَّرُوسُ وَذَهَابُ الأَثَرِ، وَقِيلَ: العَفَا: التَّرَابُ.

قَوْلُهُ: (كَمَا تَدِينُ تُدَانُ)، المَرْزُوقِيُّ: الدِّينُ لَفْظٌ مُشْتَرِكٌ فِي عِدَّةِ مَعَانٍ: الجِزَاءُ، وَالعَادَةُ،

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٦١).

(٢) «مفردات القرآن» ص ٨١١-٨١٢.

يا مُذْنِبُونَ». وصاح طَيْطَوَى، فقال: «يقول: كُلُّ حَيٍّ مَيِّتٌ، وَكُلُّ جَدِيدٍ بَالٍ». وصاح خُطَّافٌ، فقال: «يقول: قَدُمُوا خَيْرًا تَجِدُونَهُ». وصاحت رَحْمَةُ، فقال: «تقول: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى مِلءَ سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ». وصاح قُمْرِيٌّ، فأخبر أنه يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى». وقال: «الْحَدَأُ» يقول: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا اللَّهَ»، والقَطَاةُ تقول: «مَنْ سَكَتَ سَلِمَ»، والْبَيْغَاءُ تقول: «وَيْلٌ لِمَنْ الدُّنْيَا هَتْمَةٌ»، والْدَيْكُ يقول: «اذْكُرُوا اللَّهَ يَا غَافِلُونَ»، والنَّسْرُ يقول: «يا ابن آدم عِشْ مَا شِئْتَ آخِرُكَ الْمَوْتُ»، والعُقَابُ تقول: «في البُعْدِ مِنَ النَّاسِ أُنْسٌ»، والْضَّفَدْعُ يقول: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْقُدُّوسِ». وأراد بقوله: ﴿مَنْ كَلَّمَ شَيْئًا﴾: كَثْرَةُ مَا أُوتِيَ، كما تقول: «فَلَانٌ يَقْصِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ، وَيَعْلَمُ كُلُّ شَيْءٍ»، تُرِيدُ: كَثْرَةُ قُضَائِهِ، وَرُجُوعُهُ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْعِلْمِ وَاسْتِكْتَارٍ مِنْهُ. ومثله قوله: ﴿وَأُوْتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]. ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُمِينُ﴾: قَوْلٌ وَارِدٌ عَلَى سَبِيلِ الشُّكْرِ وَالْمَحْمَدَةِ، كما قال رسول الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»، أي: أقول هذا

والطاعة، والحساب. وهو قَوْلُهُمْ: دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا الْجَزَاءَ^(١)، ويقولون: كما تدين تُدان؛ أي: كما تصنع يُصنع بك. قيل: سَمِيَ الْأَوَّلُ بِاسْمِ الثَّانِي مُشَاكَلَةً.

قوله: (رحمة)، الجوهري: الرَّحْمَةُ: طَائِرٌ أَبْقَعَ يُشْبِهُ النَّسْرَ فِي الْخِلْقَةِ، يُقَالُ لَهُ: الْأَثْوَقُ، والجمع: رَحَمٌ.

قوله: (البيغاء)، والبيغى: بالتشديد مقصورٌ يُكْتَبُ بِالْيَاءِ، والْبَيْغَاءُ: بالتخفيف ممدودٌ، كالباقلا والباقلي.

قوله: («أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»)، الحديث على ما رواه الترمذي، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبيّ يومئذٍ - آدم فَمَنْ سِوَاهُ - إِلَّا تَحْتَ لِيَوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ

(١) انظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١: ٢٩).

القول شكرًا، ولا أقوله فخرًا. فإن قلت: كيف قال: عَلَّمْنَا وَأَوْتَيْنَا؛ وهو من كلام المتكبرين؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يريد نفسه وأباه. والثاني: أن هذه النون يُقال لها نون الواحد المطاع. وكان ملكاً مطاعاً، فكلم أهل طاعته على صفتيه وحاله التي كان عليها، وليس التكبر من لوازم ذلك، وقد يتعلّق بتجمل الملك وتفخمه، وإظهار آيينه وسياسته مصلح، فيعود تكلف ذلك واجباً. وقد كان رسول الله ﷺ يفعل نحواً من ذلك إذا وفد عليه وفد، أو احتاج أن يدحج في عين عدو.

ولا فخر»^(١)، أي: أقول هذا القول ليعلم الناس فيتبعوني ويقتدوا بي؛ فيحصل لهم النجاة والسعادة في الدارين، ولا أقوله فخرًا.

وقال صاحب «الفرائد»: ويمكن أن يُقال إنه صلوات الله عليه أراد بذلك إظهار مرتبته واختصاصه بمزيد فضل من الله تعالى من بين الناس، حتى حصل له استحقاق أن يقول مثل ذلك، وهذا من باب الشكر.

وقلت: يجوز أن يُقال: إن هذا الإخبار كسائر ما تفضل الله عليه من نعم الدارين، وأنه صلوات الله عليه مأمور بتبليغها إلى الأمة، يشهد له قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، ﴿بَيِّنَاتٍ لِّلرَّسُولِ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

قوله: (أبهته)، الجوهري: الأبهه: العظمة والكبرياء.

وفي بعض النسخ^(٢): «آيينه»، أي: مراتبه وبهائه^(٣). وقيل لذي القرنين: بيئت على العدو، فقال: ليس من آيين الملوك استراق الظفر. وقيل: ليس البيان من آيين الملوك، ما وجدت في الأصول لهذا اللفظ ذكراً.

(١) «سنن الترمذي» (٣٦١٥)، وأصله في «صحيح مسلم» (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهي ما بين أيدينا من «الكشاف».

(٣) كذا في (ط)، وهو الصواب، وفي (ح) و(ف): «وفي بعض النسخ: أبهته بكذا؛ زارنته به، أي: اهتمته به»، وهي عبارة مضطربة جداً.

ألا ترى كيف أمر العباس بأن يجبس أبا سفيان حتى تممر عليه الكتاب.

﴿وَحَيْسَرَ لَسَلَيْمَنَ جُنُودُهُ مِنَ الْإِجْنِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [١٧]

رُوي أن معسكره كان مئة فرسخ في مئة: خمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش، وكان له ألف بيت من قوارير على الحشب، فيها ثلاثمائة منكوحة، وسبعمائة سرية، وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم؛ فرسخاً في فرسخ، وكان يوضع منبره في وسطه، وهو من ذهب، فيقعد عليه، وحوله ستمائة ألف كرسي من ذهب وفضة، فيقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحوهم الناس، وحو الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع

قوله: (ألا ترى كيف أمر العباس بأن يجبس أبا سفيان)، وذلك عند فتح مكة على ما روينا عن البخاري، عن عروة بن الزبير بعد ذكر نبيذ من أخبار أبي سفيان: فأسلم أبو سفيان، فلما سار قال ﷺ للعباس: «احبس أبا سفيان عند حطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين»، فحبسه، فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان، فمرت كتيبة فقال: يا عباس، من هذه؟ فقال: هذه غفار، قال: مالي ولغفار، ثم مرت جھينة فقال مثل ذلك، ثم مرت سعد بن هذيم فقال مثل ذلك، ثم مرت سليم فقال مثل ذلك، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، قال أبو سفيان: من هذه؟ فقال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية. ثم جاءت كتيبة وهي من أجل الكتاب، وفيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية النبي ﷺ مع الزبير. الحديث (١).

قوله: (حتى لا تقع) بالرفع؛ أراد الحال، كقوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ (٢)

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨٠).

(٢) يريد قراءة نافع ﴿حَتَّى يَقُولَ﴾ بالرفع. وحجته أنها بمعنى «قال» على الماضي وليست على المستقبل، وإنما ينصب من هذا الباب ما كان مستقبلاً مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١]، ورفع «يقول» ليعلم أنه ماضٍ. انظر: «حجة القراءات» ص ١٣١.

رِيحُ الصَّبَا الْبِسَاطِ فَتَسِيرُ بِهِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ. وَيُرْوَى أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ الرِّيحَ الْعَاصِفَ تَحْمِلُهُ، وَيَأْمُرُ الرِّخَاءَ تُسِيرُهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ: أَنِّي قَدْ زِدْتُ فِي مُلْكِكَ؛ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ إِلَّا أَلْقَتْهُ الرِّيحُ فِي سَمْعِكَ، فَيُحْكِي أَنَّهُ مَرَّ بِحَرَاثٍ فَقَالَ: لَقَدْ أُوتِيَ آلُ دَاوُدَ مُلْكًا عَظِيمًا، فَأَلْقَتْهُ الرِّيحُ فِي أُذُنِهِ، فَتَزَلَّ وَمَشَى إِلَى الْحَرَاثِ وَقَالَ: إِنَّمَا مَشَيْتُ إِلَيْكَ لِثَلَا تَتَمَنَّى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: لَتَسِيحَةُ وَاحِدَةٌ يَقْبَلُهَا اللَّهُ، خَيْرٌ مِمَّا أُوتِيَ آلُ دَاوُدَ. ﴿يُوزَعُونَ﴾: يُجْبَسُ أَوْ هُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، أَي: يُوقَفُ سُلَافُ الْعَسْكَرِ حَتَّى يَلْحَقَهُمُ التَّوَالِي، فَيَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ لَا يَتَخَلَّفُ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَذَلِكَ لِلْكَثْرَةِ الْعَظِيمَةِ.

[حَتَّى إِذَا تَوَازَا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ أَدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

سَلِيمِينَ وَجُنُودَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾]

قيل: هو واد بالشام كثير النمل. فإن قلت: لِمَ عُدِّي ﴿تَوَازَا﴾ بعلی؟ قلت: يتوجه على معنيين؛ أحدهما: أن إتيانهم كان من فوق، فأتي بحرف الاستعلاء، كما قال أبو الطيب:

[البقرة: ٢١٤]، «لا» لا تمنع العامل، و«ما» تمنعه، تقول: زيدًا لا أضرب، ولا تقول: زيدًا ما ضربت^(١).

قوله: ﴿يُوزَعُونَ﴾ مجبَس أَوْ هُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، الرَّاعِبُ: ﴿يُوزَعُونَ﴾ إشارة إلى أنهم مع كثرتهم [وتفاوتهم]^(٢) لم يكونوا مُهْمَلِينَ وَمُبْعَدِينَ كما يكون الجيش الكثير المتأذي بمعرتهم، بل كانوا مَسُوسِينَ وَمَقْمُوعِينَ وقيل: لا بد للسلطان من وَرَعَةٍ^(٣). يقال: وَرَعْتُهُ عَنْ كَذَا: كَفَفْتُهُ. قوله: (سُلاَفُ الْعَسْكَرِ)، الْأَسَاسُ: وَسَلَفُ الْقَوْمِ: تَقَدَّمُوا سُلُوفًا، وَهُمْ سَلَفٌ لِمَنْ وَرَاءَهُمْ، وَهُمْ سُلاَفُ الْعَسْكَرِ.

(١) كذا في الأصول الخطية، ولعل الصواب: «أضرب».

(٢) سقط من الأصول الخطية، واستدركناه من «مفردات القرآن».

(٣) «مفردات القرآن» ص ٨٦٨.

وَلَشَدَّ مَا قَرَّبَتْ عَلَيْكَ الْأَنْجُمُ

لَمَّا كَانَ قُرْبًا مِنْ فَوْقِ. وَالثَّانِي: أَنْ يُرَادَ قَطْعُ الْوَادِي وَبَلُوغُ آخِرِهِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَتَى عَلَى الشَّيْءِ إِذَا أَنْفَذَهُ وَبَلَغَ آخِرَهُ؛ كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوا عِنْدَ مَقْطَعِ الْوَادِي، لِأَنَّهُمْ مَا دَامَتِ الرِّيحُ تَحْمِلُهُمْ فِي الْهَوَاءِ لَا يُخَافُ حَطْمَهُمْ. وَقُرِي: (نُمْلَةٌ)، (يَا أَيُّهَا النَّمْلُ)، بِضَمِّ الْمِيمِ، وَبِضَمِّ النُّونِ وَالْمِيمِ، وَكَانَ الْأَصْلُ: النَّمْلُ، بِوَزْنِ الرَّجُلِ، وَالنَّمْلُ الَّذِي عَلَيْهِ الْاسْتِعْمَالُ: تَخْفِيفٌ عَنْهُ، كَقَوْلِهِمْ: «السَّبْعُ» فِي السَّبْعِ. قِيلَ: «كَانَتْ تَمْشِي وَهِيَ

قَوْلُهُ: (وَلَشَدَّ مَا قَرَّبَتْ عَلَيْكَ الْأَنْجُمُ)، أَوَّلُهُ:

فَلَشَدَّ مَا جَاوَزَتْ قَدْرَكَ صَاعِدًا^(١)

يَهْجُو رَجُلًا طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَمْدَحَهُ، يَقُولُ: مَا أَشَدَّ تَجَاوُزَكَ قَدْرَكَ حِينَ تَطْلُبُ مِنِّي الْمَدْحَ، وَعَنَى بِـ«الْأَنْجُمُ» آيَاتِ شِعْرِهِ.

قَوْلُهُ: (عِنْدَ مَقْطَعِ الْوَادِي)، الْوَادِي: مِنْ وَدَى؛ إِذَا سَأَلَ، وَإِطْلَاقُهُ عَلَى الْمَكَانِ مَجَازٌ؛ كَقَوْلِهِمْ: جَرَى النَّهْرُ.

قَوْلُهُ: (وَقُرِي: «نُمْلَةٌ»)، قَالَ ابْنُ جَنِّي: قَرَأَ سَلِيمَانُ التَّيْمِيُّ: «نُمْلَةٌ»، «يَا أَيُّهَا النَّمْلُ» بِضَمِّ النُّونِ وَالْمِيمِ، وَهُوَ تَثْقِيلُ النَّمْلَةِ^(٢).

الرَّاعِبُ: طَعَامٌ مَنْمُولٌ، فِيهِ النَّمْلُ، وَالنَّمْلَةُ: قَرْحَةٌ تَخْرُجُ بِالْجَنْبِ تَشْبِيهًا بِالنَّمْلِ فِي الْهَيْئَةِ وَشَقِّ فِي الْحَافِرِ، وَمِنْهُ: فَرَسٌ نَمْلٌ الْقَوَائِمِ، وَاسْتِعَارَ النَّمْلَ لِلنَّمِيمَةِ تَصَوُّرًا لِدَبِيحِهِ، فَيُقَالُ: هُوَ نَمْلٌ وَذُو نَمْلَةٍ وَنَمَالٌ؛ أَي: نَمَامٌ، وَتَنَمَّلَ الْقَوْمُ: تَفَرَّقُوا لِلْجَمْعِ تَفَرُّقَ النَّمْلِ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ: هُوَ أَجْمَعٌ مِنْ نَمْلَةٍ^(٣).

(١) «ديوان المتنبي» بشرح الواحدي (١: ١٧٤).

(٢) «المحتسب» (٢: ١٣٧).

(٣) «مفردات القرآن» ص ٨٢٥، وانظر المثل في «مجمع الأمثال» (١: ١٨٨).

عَرَجَاءُ تَتَكَوَّسُ، فَنَادَتْ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ﴾: الآية، فَسَمِعَ سُلَيْمَانُ كَلَامَهَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ.

وقيل: «كان اسمها طاخية». وعن قتادة أنه دَخَلَ الكُوفَةَ فَالتَفَّ عَلَيْهِ النَّاسُ، فقال: «سَلُّوا عَمَّا سِئْتُمْ»، وكان أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ حَاضِرًا وَهُوَ غُلَامٌ حَدَّثَ. فقال: سَلُّوهُ عَنْ نَمْلَةِ سُلَيْمَانَ، أكانت ذَكَرًا أَمْ أُنْثَى؟ فَسَأَلُوهُ فَأَنْجَحِمَ، فقال أبو حنيفة: كانت أُنْثَى، فقيل له: مِنْ أَيْنَ عَرَفْتَ؟ فقال: مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ ولو كانت ذَكَرًا لَقَالَ: قَالَ نَمْلَةٌ.

قوله: (تَتَكَوَّسُ)، الجوهري: يقال: كاسَ البعيرُ: إذا مشى على ثلاثِ قوائمٍ وهو مُعْرَقَبٌ.

قوله: (وعن قتادة)، قال صاحب «الجامع»: هو أبو الخطابِ قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ السَّدُوسِيُّ البَصْرِيُّ الأعمى، يُعَدُّ فِي الطَّبَقَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ تَابِعِي البَصْرَةِ، روى عن أنس بن مالك كثيرًا^(١).

قوله: (وهو قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾، ولو كانت ذَكَرًا لَقَالَ: قَالَ نَمْلَةٌ)، الانتصاف: العَجَبُ مِنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِنْ ثَبِتَ ذَلِكَ عَنْهُ؛ لِأَنَّ النَّمْلَةَ كَالْحَمَامَةِ وَالشَّاةِ تَقَعُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، فيقال: نَمْلَةٌ ذَكَرٌ وَنَمْلَةٌ أُنْثَى، وشاةٌ وحمامةٌ؛ كذلك فَلَفْظُهَا مُؤنَّثٌ، ومعناها مُحْتَمَلٌ، وتَأْنِيْهَا لِأَجْلِ لَفْظِهَا، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا ذَكَرًا وَهُوَ الْأَفْصَحُ الْمُسْتَعْمَلُ قَالَ ﷺ: «لَا تُضَحُّ بَعَوَاءٌ وَلَا عَمِيَاءٌ وَلَا عَجَفَاءٌ» أَجْرَى الصِّفَاتِ عَلَى اللَّفْظِ الْمُؤنَّثِ، وَلَا يَعْنِي الْإِنَاثَ مِنَ النَّعَمِ خَاصَّةً، كَذَا هَاهُنَا، وَكَيْفَ يَسْأَلُ أبا حَنِيفَةَ بِهَذَا وَيَفْجِمُ بِهِ قَتَادَةَ مَعَ غِزَارَةِ عِلْمِهِ^(٢). وَالْأَشْبَهُ أَنْ هَذَا لَا يَصِحُّ عَنْهَا.

قال ابن الحاجب: التَأْنِيْثُ اللَّفْظِيُّ: هُوَ أَنْ لَا يَكُونُ بِلِزَامِهِ ذَكَرٌ فِي الْحَيَوَانِ؛ كَطَلْمِيَّةٍ وَعَيْنٍ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ حَيَوَانًا أَوْ غَيْرَهُ؛ كَدَجَاجَةٍ وَحَمَامَةٍ إِذَا قُصِدَ بِهِ مَذَكَّرٌ، فَإِنَّهُ

(١) «جامع الأصول» لابن الأثير (١٢: ٧٩٤).

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٥٦).

مؤنث لفظي، ولذلك كان قول مَنْ زَعَمَ أَنْ النَّمْلَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [النمل: ١٨] أنثى لورود تاء التأنيث في ﴿قَالَتْ﴾ وهما لجواز أن يكون مذكراً في الحقيقة، وورود تاء التأنيث كورودها في الفعل المؤنث اللفظي؛ نحو: جاءت الظلّمة^(١).

وأجابّه بعض فضلاء ما وراء النهر، وقال: لعمري إن ابن الحاجب تعرّف هاهنا وترك الواجب، حيث اعترض^(٢) على إمام أهل الإسلام، واعتراضه بقوله: «وورود تاء التأنيث كورودها في الفعل المؤنث اللفظي وهو مذكّر»، ليس بشيء، إذ لو كان جائزاً أن يؤتى بتاء التأنيث في الفعل بمجرد صورة التأنيث في الفاعل المذكّر الحقيقي، لكان ينبغي أن يقال: جاءتني طلحة، وهو غير جائز.

وجوابه عن ذلك في «شرحه» بقوله: «وليس ذلك كتأنيث أسماء الأعلام، فإنها لا يُعتبر فيها إلا المعنى دون اللفظ، خلافاً للكوفيين. والسرّ فيه هو أنهم نقلوها عن معانيها إلى مدلول آخر، فاعتبروا فيها المدلول الثاني، ولو اعتبروا تأنيثها لكان اعتباراً للمدلول الأول، فيفسد المعنى، فلذلك لا يقال: أعجبتني طلحة» تناقض محض^(٣)، كأنه نسي ما أمضى في صدر كتابه من قوله: «فإن سُمِّيَ به مذكّر فشرطه الزيادة» يعني: فإن سُمِّيَ بالمؤنث المعنوي، فشرطه الزيادة على ثلاثة أحرف.

فلا يخفى على مَنْ له أدنى مُسكة أن عقرب مع أنّ علامة التأنيث فيها مقدرة، فالعلمية لا تمنعها عن اعتبار تأنيثها، حتّى لا تمتنع من الصّرف، فكيف تُمنع العلميّة عن اعتبار التأنيث في طلحة مع أنّ علامة التأنيث فيها لفظيّة؟! فإذاً ليس طرح التاء عن الفعل إلا لأنّ التاء إنّما يُجاء بها علامة لتأنيث الفاعل، فالفاعل هاهنا مذكّر حقيقي؛ فكذا النملة لو كان مذكراً لكان هو مع طلحة حدوّ القُدّة بالقُدّة.

(١) انظر كلام ابن الحاجب في «الكافية» بشرح الرضي الاسترابادي (٣: ٣٣٨).

(٢) في (ف): «اعترض».

(٣) قوله: «تناقض محض» متعلّق بقوله: «وجوابه» وقد طال الفصل بينها.

وَيَنْصُرُ قَوْلَ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَا نُقِلَ عَنْ ابْنِ السُّكَيْتِ حَيْثُ قَالَ: هَذَا بَطَّةٌ ذَكَرَ، وَهَذَا حَمَامَةٌ، وَهَذَا شَاةٌ، إِذَا عَنَيْتَ كَبْشًا، وَهَذَا بَقْرَةٌ، إِذَا عَنَيْتَ ثَوْرًا. فَإِنْ عَنَيْتَ أَنْثَى قُلْتَ: هَذِهِ بَقْرَةٌ^(١).

وَقُلْتُ: نَظَرُ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ وَتَفْسِيرُ الْمَصْنُفِ رَاجِعٌ إِلَى أَنْ مِثْلَ: حَمَامَةٌ وَشَاةٌ وَنَمْلَةٌ، أَلْفَاظٌ مَشْتَرَكَةٌ تَقَعُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالتَّاءُ لِبَيَانِ الْوَحْدَةِ مُفْتَقِرَةٌ فِي تَعْيِينِهَا، لِأَحَدٍ مَفْهُومِهَا إِلَى نَصْبِ قَرِينَةٍ، إِمَّا صِفَةً مُمَيِّزَةً؛ نَحْوَ: حَمَامَةٌ ذَكَرَ، وَشَاةٌ أَنْثَى، أَوْ عَلَامَةً تَلْحَقُ الْفِعْلَ؛ نَحْوَ: قَالَتْ نَمْلَةٌ، وَقَالَ نَمْلَةٌ، أَوْ جَعَلَهَا خَبْرًا لِاسْمِ الْإِشَارَةِ؛ نَحْوَ: هَذَا بَقْرَةٌ، وَهَذِهِ بَقْرَةٌ.

وَمِمَّا يَقْوِي هَذَا الْمَذْهَبَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ [البقرة: ٦٩] وَصَفَّيْهَا بِالصَّفْرَاءِ بَعْدَ إِجْرَاءِ ﴿عَوَانُ بَيْنَكَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨] عَلَيْهَا، وَهِيَ مِنْ أَوْصَافِ النِّسَاءِ.

فَظَهَرَ أَنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامٌ^(٢)، وَالْمَذْهَبُ مَا سَلَكَهُ الْإِمَامُ.

وَفِي «جَامِعِ الْأَصُولِ» قَالَ: لَوْ ذَهَبْنَا إِلَى شَرْحِ مَنَاقِبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبَسَطَ فِضَائِلِهِ لِأَطْلَانِ الْحُطْبِ، وَلَمْ نَصِلْ إِلَى الْغَرَضِ مِنْهَا، فَإِنَّهُ كَانَ عَالِمًا وَرِعًا، زَاهِدًا، عَابِدًا تَقِيًّا، إِمَامًا فِي عُلُومِ الشَّرِيعَةِ مَرْضِيًّا.

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَبَحَّرَ فِي الْفِقْهِ فَهُوَ عِيَالٌ عَلَى أَبِي حَنِيفَةَ. وَقَالَ: قِيلَ لِمَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَلْ رَأَيْتَ أَبَا حَنِيفَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ. رَأَيْتُ رَجُلًا لَوْ كَلَّمْتُكَ فِي هَذِهِ السَّارِيَةِ أَنْ يَجْعَلَهَا ذَهَبًا لِقَامِ بِحُجَّتِهِ^(٣).

(١) «إصلاح المنطق» لابن السُّكَيْتِ ص ٢٥٣.

(٢) فِيهِ إِيْبَاءٌ إِلَى الْمِثْلِ الْمَشْهُورِ:

إِذَا قَالَتْ حَذَامٌ فَصَدَّقُوهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامٌ
قُلْتُ: حَذَامٌ: اسْمٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الْكَثْرِ. انْظُرْ: «مجمع الأمثال» (٢: ١٠٦).

(٣) «جامع الأصول» (١٢: ٩٥٢).

وذلك أَنَّ النَّمْلَةَ مثلَ الحمامَةِ والشَّاةِ في وَقوعِها على الذَّكْرِ والأنثى، فيُمَيِّزُ بينهما بِعلامةٍ، نَحْوُ قَوْلِهِم: حَمَامَةٌ ذَكَرٌ، وَحَمَامَةٌ أَنْثَى، وهو وهى. وَقَرِئَ: (مَسْكَنُكُمْ) و(لا يَحْطِمْكُمْ)، وَقَرِئَ: (لا يَحْطِمْكُمْ) بفتح الحاءِ وَكسْرِها. وَأصلُهُ: يَحْطِمْكُمْ. ولَمَّا جَعَلَهَا قَائِلَةً والنَّمْلَ مَقُولًا لَهُم؛ كما يَكُونُ في أُولي العَقْلِ: أَجْرَى خِطابِهِمْ مَجْرَى خِطابِهِمْ. فَإِنْ قُلْتَ: لا يَحْطِمْكُمْ ما هو؟ قُلْتَ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جِوابًا للأمرِ، وَأَنْ يَكُونَ نَهْيًا بَدَلًا مِنَ الأمرِ،

قوله: (والنَّمْلَ مَقُولًا لَهُم)، أي: لأَجْلِهِمْ، فَجَعَلَهُم كالمُخاطَبِينَ، واللامُ في «لهم» مثلُها في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [مریم: ٧٣]؛ أي: لأَجْلِهِمْ، فَجَعَلَهُم كالمُخاطَبِينَ^(١).

قوله: (يحتمل أن يكون جوابًا للأمر، وأن يكون نهيًا بدلًا من الأمر)^(٢)، روى صاحبُ «الفرائد»، عنِ الفراءِ: هو نَهْيٌ فيه طَرَفٌ مِنَ الجِزاءِ^(٣). وعن الأَخْفَشِ: بل هذا على تقديرِ الواوِ العاطِفةِ يَكُونُ نَهْيًا بعدَ أمرٍ. والتقدير: ادخُلوا مساكنَكُمْ لا يَحْطِمْكُمْ سَليانُ، وعلى قولِ الفراءِ التَّقْدِيرُ: إن دَخَلْتُمْ مساكنَكُمْ لا يَحْطِمْكُمْ سَليانُ.

وقال صاحبُ «الكشف»: هذا وإن كان في المعنى صحيحًا إلا أَنَّ اللَّفْظَ يَمْنَعُ مِنَ فصاحتهِ، ولو حُجِلَ عليه؛ لأنَّ النُّونَ لا تَدْخُلُ في الجِزاءِ إلا في ضَرورةِ الشُّعْرِ^(٤).

وقال صاحبُ «الفرائد»: يُمكنُ أَنْ يُقالَ: لَمْ يُعْطَفْ؛ لأنَّهُ توكيدٌ لِلطَّلَبِ، فهو كما في الحَبْرِ؛ نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] لقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ أَنْ كَتَبْتُ﴾ [البقرة: ٢].

(١) قوله: «فجعلهم كالمُخاطَبِينَ» سقط من (ط) و(ف).

(٢) في (ف): «نَهْيًا بعدَ أمرٍ»، وسقط هذا التركيب من (ح).

(٣) قاله الفراءُ في تفسيرِ قَوْلِهِ تعالى ﴿أَبَتْ لَنَا مِلْكَاً نُقِيلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. انظر: «معاني القرآن» (١: ١٦٢) وعبارته ثَمَّة: «والمعنى والله أعلم: إن تَدْخُلْنَ حُطْمَتَنَّ، وهو نَهْيٌ مُحْضٌ، لأنَّهُ لو كان جِزاءً لَمْ تَدْخُلْهُ النُّونُ الشَّدِيدَةُ ولا الخَفِيفَةُ». انتهى.

(٤) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٠٠٣-١٠٠٤).

وَالَّذِي جَوَزَ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْهُ: أَنَّهُ فِي مَعْنَى: لَا تَكُونُوا حَيْثُ أَنْتُمْ فَيَحْطِمَكُمُ، عَلَى طَرِيقَةٍ: لَا أُرَيْتَكَ هَاهُنَا، أَرَادَ: لَا يَحْطِمَنَّكُمْ جُنُودُ سُلَيْمَانَ، فَجَاءَ بِهَا هُوَ أَبْلَغُ، وَنَحْوُهُ:

عَجِبْتُ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ إِشْفَاقِهَا

[﴿فَنَبَسَمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾] ١٩

ومعنى ﴿فَنَبَسَمَ ضَاحِكًا﴾ تَبَسَّمَ شَارِعًا فِي الضَّحِكِ وَأَخِذًا فِيهِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ

قَوْلُهُ: (فِي مَعْنَى: لَا تَكُونُوا حَيْثُ أَنْتُمْ فَيَحْطِمَكُمُ)، وَمَعْنَى هَذَا الْأَسْلُوبِ وَهُوَ أَنْ يَنْهَى الْغَيْرَ، وَالْمَرَادُ: تَهَيُّ الْمُخَاطَبِ النَّهْيَ عَنْ أَنْ يَكُونَ الْمُخَاطَبُ عَلَى وَصْفٍ هُوَ مَلْزُومٌ الْمُنْهَى عَنْهُ، فَمَالَ الْمَعْنَى: لَا تَكُونُوا خَارِجِينَ عَنْ مَسَاكِينِكُمْ فَيَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ، وَلِلذَلِكَ صَحَّ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ ﴿أَدْخُلُوا مَسَكِينَكُمُ﴾.

قَوْلُهُ: (عَجِبْتُ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ إِشْفَاقِهَا)، بَعْدَهُ:

ومن طرادى الطير عن أرزاقها
 حمراء تبزى اللحم عن عراقيها^(١) في سنة قد كشفت عن ساقها

كَشَفُ السَّاقِ: عِبَارَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَصَابَتْهُ شِدَّةٌ شَمَّرَ عَنْ سَاقِهِ، وَالْعِرَاقُ: الْعَظْمُ الَّذِي لَا لَحْمَ عَلَيْهِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ لَحْمٌ فَهُوَ عَرَقٌ يَفْتَحُ الْعَيْنَ. بَزَى اللَّحْمَ: قَشَرَهُ؛ أَي: عَجِبْتُ مِنْ إِشْفَاقِ نَفْسِي، فَجَاءَ بِقَوْلِهِ: «مِنْ نَفْسِي وَمِنْ إِشْفَاقِهَا»، كَمَا كَانَ الْأَصْلُ: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ جُنُودُ سُلَيْمَانَ، فَجَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [النمل: ١٨]؛ لِيَكُونَ أَبْلَغَ لِلْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ وَالتَّكْرِيرِ مَعَ التَّبْيِينِ^(٢).

قَوْلُهُ: (تَبَسَّمَ شَارِعًا فِي الضَّحِكِ)، قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: ﴿ضَاحِكًا﴾، حَالٌ مَوْجِدَةٌ^(٣).

(١) لم أهدى إلى قائل هذا الرجز.

(٢) من قوله: «بري اللحم: قشره» إلى هنا، سقط من (ط).

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٠٦) وزاد: وقيل: مُقَدَّرَةٌ، لِأَنَّ التَّبَسُّمَ مَبْدَأُ الضَّحِكِ.

قد تَجَاوَزَ حَدَّ التَّبَسُّمِ إِلَى الضَّحِكِ، وَكَذَلِكَ ضَحِكُ الْأَنْبِيَاءِ. وَأَمَّا مَا رَوَى: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ فَالغَرَضُ الْمُبَالِغَةُ فِي وَصْفِ مَا وُجِدَ مِنْهُ مِنَ الضَّحِكِ النَّبَوِيِّ، وَإِلَّا فَبَدُّ النَّوَاجِذِ عَلَى الْحَقِيقَةِ؛ إِنَّمَا يَكُونُ عِنْدَ الْاسْتِغْرَابِ، وَقَرَأَ ابْنُ السَّمِيفَعِ: (ضَحِكًا). فَإِنْ قُلْتَ: مَا أَضْحَكُهُ مِنْ قَوْلِهَا؟ قُلْتَ: سَيِّئَانِ: إِعْجَابُهُ بِمَا

وقال صاحب «الكشف»: هي حال مقدرة؛ أي: فتبسّم مقدّرًا الضحك، ولا يكون معمولًا على الحال المطلق؛ لأن التبسم غير الضحك، وأنه ابتداء الضحك، وإنما يصير التبسم ضحكًا إذا اتصل ودام^(١)، فلا بدّ من هذا التقدير^(٢).

قوله: (إن رسول الله ضحك حتى بدت نواجذُهُ)، مذكورٌ في حديث القيامة؛ آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا الجنة. أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود^(٣).

النهاية: النَّوَاجِذُ مِنَ الْأَسْنَانِ: الضَّوَاجِجُ، وَهِيَ الَّتِي تَبْدُو عِنْدَ الضَّحِكِ، وَالْأَكْثَرُ الْأَشْهُرُ أَنَّهَا أَقْصَى الْأَسْنَانِ، وَالْمَرَادُ: الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّهُ مَا كَانَ يَبْلُغُ بِهِ الضَّحِكُ حَتَّى يَبْدُو آخِرُ أَضْرَاسِهِ، وَلَوْ أُرِيدَ الثَّانِي لَكَانَ مَبَالِغَةً فِي ضَحِكِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرَادَ ظَهْرُ نَوَاجِذِهِ فِي الضَّحِكِ، وَهُوَ أَقْبَسُ لِاسْتِهَارِ النَّوَاجِذِ بِأَوَاخِرِ الْأَسْنَانِ. وَإِلَيْهِ أَشَارَ الْمَصْنُفُ بِقَوْلِهِ: «فَالغَرَضُ الْمُبَالِغَةُ فِي وَصْفِ مَا وُجِدَ مِنْهُ مِنَ الضَّحِكِ النَّبَوِيِّ».

قوله: (عند الاستغراب)، النهاية: وفي الحديث: إنه ضحك حتى استغرب^(٤)؛ أي: بالغ فيه. يقال: أغرب في ضحكك واستغرب، وكأنه من الغرب: البعد، وقيل: هو القهقهة. قوله: (وقرأ ابن السميفع: ضحكًا)، السميفع: بفتح السين والفاء، وقد يضم.

(١) في (ج): «وداوم»، وهما بمعنى قريب.

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٠٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦) والترمذي (٢٥٩٥).

(٤) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٥٣٣)، و(٣٥٣٤) من حديث أبي الطفيل رضي الله عنه، ولفظه: «ضحك رسول الله ﷺ حتى استغرب»، وفيه قصة.

دَلَّ مِنْ قَوْلِهَا عَلَى ظُهُورِ رَحْمَتِهِ وَرَحْمَةِ جُنُودِهِ وَشَفَقَتِهِمْ، وَعَلَى شَهْرَةِ حَالِهِ وَحَالِهِمْ فِي بَابِ التَّقْوَى؛ وَذَلِكَ قَوْلُهَا: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: تعني: أتهم لو شعروا لم يفعلوا. وسروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحداً: من إدراكه بسمعه ما همس به بعض الحُكَل الذي هو مثل في الصغر والقلة، ومن إحاطته بمعناه، ولذلك اشتمل دُعاؤه على استيزاع الله

قال ابن جنِّي: «صَحِحًا» منصوبٌ على المصدر بفعل مضمر يدلُّ عليه «تبسم»، كأنه قيل: ضحك ضحكًا. هذا مذهب صاحب «الكتاب»^(١)، وقياس قول أبي عثمان^(٢) في قولهم: تَبَسَّمْتُ وَمِیْضُ الْبَرْقِ، آتة منصوبٌ بنفس «تبسمت»؛ لأنه في معنى: أومضت^(٣). وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون اسم فاعلٍ مثل: نصب؛ لأن ماضيه: ضحك، فهو لازم^(٤).

قوله: (الحُكَلُ)، الحُكَلُ: ما لا يُسمع له صوتٌ. وقال رؤبة:

لَوْ كُنْتُ قَدْ أُوتِيتُ عِلْمَ الْحُكَلِ عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامَ النَّمْلِ^(٥)

قوله: (ولذلك اشتمل دُعاؤه)، أي: ولأجل أن قوله: ﴿فَبَسَّسَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ كان مبنياً على أمرين: على شهرة^(٦) حاله وحال جنوده في باب التقوى، وعلى إحاطته بمعنى ما أدركه سمعه ما همس به الحُكَلُ، أردفه بقوله: ﴿رَبِّ أَوْزَعِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ لأنها نعمتان جليلتان موجبتان شكر مُنعميها.

قوله: (على استيزاع الله)، الراغب: قيل: الوزوعُ: الولوعُ بالشيء، ورجلٌ وزوعٌ،

(١) يعني سيبويه.

(٢) يعني المازني.

(٣) «المحتسب» (٢: ١٣٩) وقد رجح ابن جنِّي مذهب سيبويه في توجيه القراءة.

(٤) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠٠٦).

(٥) ذكره الجوهري في «الصحاح» (حكَل).

(٦) لفظة «شهوة» سقط من (ط).

شُكْرَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ، وَعَلَى اسْتِيفَائِهِ لِرِزْقِهِ الزَّيَادَةَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالتَّقْوَى.
وَحَقِيقَةُ ﴿أَوْزَعِي﴾: اجْعَلِي أَرْغَ شُكْرِ نِعْمَتِكَ عِنْدِي، وَأَكْفُهُ وَأَرْتَبْهُ لَا يَنْفَلِتُ
عَنِّي، حَتَّى لَا أَنْفَكُ شَاكِرًا لَكَ. وَإِنَّمَا أُدْرَجَ ذِكْرُ وَالِدَيْهِ؛

وقوله: ﴿أَوْزَعِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، قيل: أَلْهَمْنِي، وَتَحْقِيقُهُ: أَوْلِعْنِي ذَلِكَ وَاجْعَلِي بَحِيثُ
أَرْغَ نَفْسِي عَنِ الْكُفْرَانِ^(١).

وقال الزجاج: ﴿أَوْزَعِي﴾: أَلْهَمْنِي، وَتَحْقِيقُهُ وَتَأْوِيلُهُ فِي اللُّغَةِ: كُفِّنِي عَنِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
تُبَاعِدُ عَنْكَ^(٢).

فعلى هذا هو كناية تلوحيية، فإنه طلب أن يكفّه عما يؤدي إلى كفران النعمة بأن يلهمه
ما به يقيد تلك النعمة من الشكر، وعلى تقدير المصنّف: استعارة مكنية بحيث جعل شكر
النعمة كالناقية، فطلب أن يجعله كعقاله^(٣) مرتباً إياه. وإليه الإشارة بقوله: «لا ينفلت
عني»، والمراد: فيد النعمة باستدامة الشكر والمحافظة عليها. ومنه الحديث: «النعمة وحشية
فيدوها بالشكر، فإنها إذا شكرت قرّت، وإذا كفرت قرّت»^(٤). وقوله: «احذروا نفاة النعم
بقلة الشكر، فما كل شارٍ بمرود».

قوله: (وعلى استيفائه)، الجوهرى: واستوفقت الله؛ أي: سألته التوفيق. وقال أبو
القاسم القشيري: التوفيق ما يتفق به الطاعة، وهو القدرة التي تصلح للطاعة^(٥)، واختص
هذا الاسم بما يتفق به الخير دون الشر عرفاً شرعياً.

(١) «مفردات القرآن» ص ٨٦٨.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١١٢) ووقع فيه: «تباعد عن شكر نعمتك».

(٣) في (ف) و(ط): «يجعله كعقاله».

(٤) ذكره الإمام الغزالي، وعزاه لبعض السلف في «إحياء علوم الدين» (٤: ١٢٧).

(٥) قاله في «لطائف الإشارات» (٢: ١٥٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

لأنَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْوَالِدِ نِعْمَةٌ عَلَى الْوَالِدَيْنِ؛ خُصُوصاً النِّعْمَةُ الرَّاجِعَةُ إِلَى الدِّينِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ تَقِيًّا نَفَعَهَا بِدُعَائِهِ وَشَفَاعَتِهِ، وَبِدُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ هَهُمَا كَلَّمَا دَعَا لَهُ، وَقَالُوا: رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ وَعَنْ وَالِدَيْكَ.

وَرُوِيَ أَنَّ النَّمْلَةَ أَحْسَتْ بِصَوْتِ الْجُنُودِ وَلَا تَعْلَمُ أَنَّهُمْ فِي الْهَوَاءِ، فَأَمَرَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الرِّيحَ فَوَقَفَتْ لِثَلَا يُدْعَرْنَ حَتَّى دَخَلْنَ مَسَاكِينَهُنَّ، ثُمَّ دَعَا بِالذَّعْوَةِ. وَمَعْنَى ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾: واجعلني من أهل الجنة.

قوله: (لأنَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْوَالِدِ نِعْمَةٌ عَلَى الْوَالِدَيْنِ)، هذا إذا قُيِّدَتِ النِّعْمَةُ الْمُطْلَقَةُ فِي ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بِمَا سَبَقَ مِنَ النِّعْمَتَيْنِ، وَأَمَّا إِذَا تَرَكْتَ عَلَى إِطْلَاقِهَا لِتَدْخُلَ فِيهَا هَاتَانِ النِّعْمَتَانِ دُخُولًا أَوْ لِيًّا يَكُونُ الْحُكْمُ بِالْعَكْسِ؛ أَي: النِّعْمَةُ عَلَى الْوَالِدِ نِعْمَةٌ عَلَى الْوَالِدِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَءِيلَ بِلِأَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٧] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ بَخَّيْنَاكُمْ مِّنْ آءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، وَيَعُضِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا آءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلًا مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣] بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ [سبأ: ١٢] إِلَى آخِرِهِ، وَلِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِنِعْمَتِكَ﴾ [النمل: ١٩] مُطَابِقٌ لِقَوْلِهِ: ﴿اعْمَلُوا آءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] لِإِرَادَةِ الْمُبَالَغَةِ، فَلْيَتَأَمَّلْ.

قوله: (ثَلَا يُدْعَرْنَ)، دَعَرْتُهُ: أَفْرَعْتُهُ، دُعِرَ فَهُوَ مَذْعُورٌ. قَالَ:

دَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا وَبَقِيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذُّبِّ كَالرَّجْلِ اللَّعِينِ^(١)

وَمَعْنَى: ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾: واجعلني من أهل الجنة؛ أَي أَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنْهُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٩، ٣٠]؛ أَي: ادْخُلِي فِي جُمْلَةِ عِبَادِي الصَّالِحِينَ، وَانْتِظِمِي فِي سَلْكِهُمْ، وَادْخُلِي جَنَّتِي مَعَهُمْ.

(١) للشَّيْخِ بْنِ ضِرَّارِ الذَّبْيَانِيِّ فِي «دِيْوَانِهِ» ص ٣٢١، وَقَبْلَهُ:

وَمَا قَدِ وَرَدَتْ لَوْضِلِ أَرْوَى عَلَيْهِ الطَّبِيرُ كَالْوَرَقِ اللَّعِينِ

[«وَتَمَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لِأَعْدَبْتَهُ، عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحْتَهُ أَوْ لِأَتَيْتَنِي بِسُلْطَنِ مَبِينٍ » ٢٠-٢١]

﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة: نَظَرَ إِلَى مَكَانِ الْهُدُودِ فَلَمْ يُبْصِرْهُ، فقال: «مَا لِي لَا أَرَاهُ» على معنى أَنَّهُ لَا يَرَاهُ وَهُوَ حَاضِرٌ لِسَاتِرِ سِتْرِهِ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، ثُمَّ لَاحَ لَهُ أَنَّهُ غَائِبٌ، فَأَضْرَبَ عَنِ ذَلِكَ وَأَخَذَ يَقُولُ: «أَهُوَ غَائِبٌ؟» كَأَنَّهُ يَسْأَلُ عَنِ صِحَّةِ مَا لَاحَ لَهُ. وَنَحْوُهُ قَوْلُهُمْ: إِنَّمَا لِإِبِلٍ أَمْ شَاءَ؟ وَذَكَرَ مِنْ قِصَّةِ الْهُدُودِ أَنَّ سَلِيمَانَ حِينَ تَمَّ لَهُ بِنَاءُ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ

قَوْلُهُ: (وَنَحْوُهُ قَوْلُهُمْ: إِنَّمَا لِإِبِلٍ أَمْ شَاءَ)، قِيلَ: لَوْ قَالَ وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ: «أَزِيدُ عِنْدَكَ أَمْ عِنْدَكَ عَمْرُو» كَانَ أَوْلَى؛ لِأَنَّ «أَمْ» الْمُنْقَطِعَةَ تَقَعُ فِي الْاسْتِفْهَامِ وَالْحَبْرِ، وَمَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ قَبِيلِ الْاسْتِفْهَامِ، وَأَنْتَ فِي الْاسْتِفْهَامِ تَكُونُ مُسْتَفْهِمًا عَنْ وَاحِدٍ بَعَيْنِهِ بَعْدَ إِضْرَابِكَ عَنِ الْآخِرِ، فَكَأَنَّكَ قُلْتَ: أَزِيدُ عِنْدَكَ؟ ظَانًّا أَنَّهُ عِنْدَ الْمُخَاطَبِ؛ لِوُقُوفِكَ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ بِلَا وَنَعَمَ، ثُمَّ بَدَأَ لَكَ وَصِرْتَ ظَانًّا أَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ هُوَ عَمْرُو، وَأَرَدْتَ أَنْ تَتْرَكَ الْاسْتِفْهَامَ عَنْ زَيْدٍ إِلَى الْاسْتِفْهَامِ عَنْ عَمْرُو، فَقُلْتَ: أَمْ عِنْدَكَ عَمْرُو؟ وَلِلذَلِكَ ذَكَرْتَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَبْرَهُ؛ لِإِضْرَابِكَ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ، وَاسْتِفْهَامِكَ عَنِ الْكَلَامِ الْآخِرِ.

وَأَمَّا الْخَبْرُ الثَّابِتُ فَأَنْتَ فِي قَوْلِكَ: «إِنَّمَا لِإِبِلٍ» جِئْتَ بِالْإِخْبَارِ الْمُخَصِّصِ، ثُمَّ جِئْتَ بَعْدَهَا بِالْاسْتِفْهَامِ، كَأَنَّ قَائِلَ هَذَا سَبَقَ بِبَصْرِهِ إِلَى شَبَحِ فَظْنِهِ إِبِلًا فَأَخْبَرَ عَنْ مَقْتَضَى ظَنِّهِ، ثُمَّ اعْتَرَاهُ الشَّكُّ فَأَعْرَضَ عَنْهُ، فـ«أَمْ» هَذِهِ مُتَضَمِّنَةٌ الْهَمْزَةَ «وَبِلَ»، فـ«بِلَ» تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ أَضْرَبَ عَمَّا سَبَقَ مِنَ الْكَلَامِ، وَالْهَمْزَةُ عَلَى أَنَّهُ يَسْتَفْهَمُ كَلَامًا آخَرَ.

وقلت: معنى قوله: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ﴾ الإخبار وإن كان لفظه الطلب، وإليه الإشارة بقوله: ﴿مَا لِي لَا أَرَى﴾ على معنى أنه لا يراه وهو حاضرٌ لساتِرِ سِتْرِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ فِي الْجَزْمِ كَوْنُهُ حَاضِرًا مِثْلَ قَوْلِهِ: «إِنَّمَا لِإِبِلٍ»، وَلَيْسَ مِثْلَ: «أَزِيدُ عِنْدَكَ»؛ لِأَنَّهُ يُنَكِّرُ عَلَى نَفْسِهِ إِنْكَارًا بَلِيغًا عَدَمَ رُؤْيَيْهِ، وَهُوَ حَاضِرٌ، وَكَذَا الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ تَقْرِيرٌ لِإِبْرَاهِيمَ، وَأَنَّهُ غَائِبٌ قَطْعًا لِمَجِيءِ «كَانَ» وَإِيْقَاعِ «مِنَ الْغَائِبِينَ» خَبْرًا لَهُ لِدَلَالَتِهَا عَلَى أَنَّهُ مُتَوَعَّلٌّ فِي الْغَيْبَةِ. قَالَ: بُعِيدَ، هَذَا فِي قَوْلِهِ: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]: «إِنْ كُنْتَ مِنْ

تَجَهَّزَ لِلْحَجِّ بِحَشْرَةٍ، فَوَافِيَ الْحَرَمَ وَأَقَامَ بِهِ مَا شَاءَ، وَكَانَ يُقَرِّبُ كُلَّ يَوْمٍ، طُولَ مُقَامِهِ، بِخَمْسَةِ آلَافِ نَاقَةٍ، وَخَمْسَةِ آلَافِ بَقْرَةٍ، وَعِشْرِينَ أَلْفَ شَاةٍ، ثُمَّ عَزَمَ عَلَى السَّيْرِ إِلَى الْيَمَنِ، فَخَرَجَ مِنْ مَكَّةَ صَبَاحًا يَوْمٌ سَهِيلاً؛ فَوَافِيَ صَنْعَاءَ وَقَتَ الزَّوَالِ؛ وَذَلِكَ مَسِيرَةٌ شَهْرٌ، فَرَأَى أَرْضاً حَسَنَاءَ أَعْجَبَتْهُ خُضْرَتُهَا، فَزَلَّ لِيَتَغَدَّى وَيُصَلِّيَ فَلَمْ يَجِدُوا الْمَاءَ، وَكَانَ الْهُدُودُ فُنَاقِنَهُ، وَكَانَ يَرَى الْمَاءَ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ كَمَا يَرَى الْمَاءَ فِي الرَّجَاجَةِ؛ فَيَجِيءُ الشَّيَاطِينُ فَيَسْلُخُونَهَا كَمَا يُسْلَخُ الْإِهَابُ، وَيَسْتَخْرِجُونَ الْمَاءَ؛ فَتَفْقَدُهُ لِذَلِكَ، وَحِينَ نَزَلَ سُلَيْمَانُ حَلَقَ الْهُدُودَ فَرَأَى هُدُوداً وَأِقْعَاءَ، فَانْحَطَّ إِلَيْهِ، فَوَصَفَ لَهُ مُلْكَ سُلَيْمَانَ، وَمَا سُخِّرَ لَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَذَكَرَ لَهُ صَاحِبَهُ مُلْكَ بَلْقَيْسٍ، وَأَنَّ تَحْتَ يَدَيْهَا اثْنَا

الكاذبين» أبلغ من: كذبت؛ لأنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة، فالهمزة للتقرير^(١)، وإليه أو ما بقوله: «كأنه يسأل عن صحة ما لاح له».

قوله: (بحشرة)، فعلٌ بمعنى مفعول، كالنقص والحطب، وقيل: جمع حاشير؛ كالحرس في جمع حارس، إذا كانت الرواية «بحشرة» بفتح الشين.

قوله: (قناقنه)، الجوهرية: القنقن: الدليل الهادي والبصير بالماء في حفر القنبي، وكذلك القنائق بالضم، والجمع القنائق بالفتح، كالجلاجل جمع الجلاجل. ونظير القنائق - بالضم - في أنه نعت فرد: العذافر، وهو الجممل القوي، وتحليق الطائر: ارتفاعه في طيرانه.

قوله: (فتفقده)، الفقْد: عَدَمُ الشَّيْءِ بَعْدَ وُجُودِهِ، وَهُوَ أَخْصُّ مِنَ الْعَدَمِ، فَإِنَّ الْعَدَمَ يُقَالُ فِيهِ وَفِيهَا لَمْ يُوجَدْ بَعْدُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ * قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ ﴿[يوسف: ٧١، ٧٢]، وَالتَّفْقُدُ: التَّعَهُدُ، لَكِنْ حَقِيقَةُ التَّفْقُدِ تَعْرِفُ فُقْدَانَ الشَّيْءِ، وَالتَّعَهُدُ: تَعْرِفُ الْعَهْدَ الْمُتَقَدِّمَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَفْقَدُ الظَّيْرَ﴾. الْفَاقِدُ: الْمَرْأَةُ تَفْقَدُ وَلَدَهَا أَوْ زَوْجَهَا.

قوله: (ملك بلقيس)، بالعربية بكسر الباء، وبالعجمية: بفتح الباء؛ وهي بيت قريقيس.

(١) في (ط): «فالمهمزة في «أم» للتقرير».

عَشْرَ أَلْفَ قَائِدٍ، تَحْتَ يَدِ كُلِّ قَائِدٍ مِئَةُ أَلْفٍ، وَذَهَبَ مَعَهُ لِيَنْظُرَ فَمَا رَجَعَ إِلَّا بَعْدَ الْعَصْرِ. وَذَكَرَ أَنَّهُ وَقَعَتْ نَفْحَةٌ مِنَ الشَّمْسِ عَلَى رَأْسِ سُلَيْمَانَ، فَنَظَرَ فَإِذَا مَوْضِعُ الْهُدُودِ خَالٍ؛ فَدَعَا عِفْرِيَةَ الطَّيْرِ، وَهُوَ النَّسْرُ، فَسَأَلَهُ عَنْهُ؛ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ عِلْمَهُ، ثُمَّ قَالَ لِسَيِّدِ الطَّيْرِ وَهُوَ الْعُقَابُ: عَلَيَّ بِهِ، فَارْتَفَعَتْ فَانْظَرْتُ، فَإِذَا هُوَ مُقْبِلٌ فَقَصَدْتُهُ، فَنَاشَدَهَا اللَّهُ، وَقَالَ: «بِحَقِّ اللَّهِ الَّذِي قَوَّالِكُ وَأَقْدَرُكَ عَلَيَّ إِلَّا رَحِمْتَنِي»، فَتَرَكَتُهُ وَقَالَتْ: «تُكَلِّمُكَ أُمُّكَ، إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ حَلَفَ لِيُعَذِّبَنَّكَ»؛ قَالَ: «وَمَا اسْتَشْنَى؟» قَالَتْ: «بلى قال: أَوْلِيَايَتِي بِعُذْرٍ مُبِينٍ»، فَلَمَّا قَرَّبَ مِنْ سُلَيْمَانَ أَرْخَى ذَنَبَهُ وَجَنَاحَيْهِ يَجْرُهَا عَلَى الْأَرْضِ تَوَاضِعًا لَهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ أَخَذَ بِرَأْسِهِ فَمَدَّهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ اذْكَرْ وَقُوفَكَ بَيْنَ يَدَيَّ اللَّهُ»؛ فَارْتَعَدَ سُلَيْمَانُ وَعَفَا عَنْهُ؛ ثُمَّ سَأَلَهُ. تَعَذُّبُهُ: أَنْ يُؤَدَّبَ بِهَا يَحْتَمِلُهُ حَالُهُ؛ لِيَعْتَبَرَ بِهِ أَبْنَاءَ جَنْسِهِ. وَقِيلَ: «كَانَ عَذَابُ سُلَيْمَانَ لِلطَّيْرِ؛ أَنْ يَنْتَفِ رِيشُهُ وَيُسَمِّسَهُ». وَقِيلَ: «أَنْ يُطْلَى بِالْقَطِرَانِ وَيُسَمِّسَ». وَقِيلَ: «أَنْ يُلْقَى لِلنَّمْلِ يَأْكُلُهُ». وَقِيلَ: «إِنْدَاعُهُ الْقَفْصَ». وَقِيلَ: «التَّفْرِيقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِفْهِ». وَقِيلَ: «لَأَلْزَمْتُهُ صُحْبَةَ الْأَضْدَادِ». وَعَنْ بَعْضِهِمْ: «أَضِيقُ السُّجُونَ مِعَاشِرَةَ الْأَضْدَادِ». وَقِيلَ: «لَأَلْزَمْتُهُ خِدْمَةَ أَقْرَانِهِ». فَإِنْ قُلْتَ: مَنْ أَيْنَ حَلَّ لَهُ تَعَذُّبُ الْهُدُودِ؟ قُلْتَ: يَجُوزُ أَنْ يُبَيِّحَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ؛ لِمَا رَأَى فِيهِ مِنَ الْمَصْلُحَةِ وَالْمَنْفَعَةِ، كَمَا أَبَاحَ ذَبْحَ الْبُهَائِمِ وَالطُّيُورِ لِلْأَكْلِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَإِذَا سُخِّرَ لَهُ الطَّيْرُ وَلَمْ يَتَمَّ مَا سُخِّرَ مِنْ أَجْلِهِ، إِلَّا بِالتَّأْدِيبِ وَالسِّيَاسَةِ؛ جَازَ أَنْ يُبَاحَ لَهُ مَا يُسْتَصْلَحُ بِهِ.

وَقُرِّي: (لِيَأْتِيَنِّي) و(لِيَأْتِيَنَّ)، وَالسُّلْطَانُ: الْحُجَّةُ وَالْعُذْرُ. فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ حَلَفَ

قَوْلُهُ: (عِفْرِيَةُ الطَّيْرِ)، نَقَلَ صَاحِبُ «النِّهَايَةِ» عَنِ الْمَصْنُوفِ: الْعِفْرُ وَالْعِفْرِيَّةُ وَالْعِفْرِيَّةُ وَالْعِفْرِيَّةُ وَالْعِفْرِيَّةُ: الْقَوِيُّ الْمُتَسَيِّطُنُ الَّذِي يَعْفِرُ قَرْبَنَهُ، وَالْبِيَاءُ فِي عِفْرِيَّةٍ وَعِفْرَارِيَّةٍ لِلْإِلْحَاقِ، وَالتَّاءُ فِي عِفْرِيَّةٍ لِلْإِلْحَاقِ بِقَنْدِيلٍ. وَفِي بَعْضِ النُّسخِ: «عَرِيفُ الطَّيْرِ»، الْعَرِيفُ: التَّقِيْبُ، وَهُوَ دُونَ الرَّئِيسِ عَرَفَ عَرَاةً بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ: صَارَ عَرِيفًا.

قَوْلُهُ: ((لِيَأْتِيَنِّي)) و((لِيَأْتِيَنَّ))، قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ: «لِيَأْتِيَنِّي» بِنُونَيْنِ، الْأُولَى مَفْتُوحَةٌ

على أَحَدِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: فَحَلِفُهُ عَلَى فِعْلِيهِ لَا مَقَالَ فِيهِ، وَلَكِنْ كَيْفَ صَحَّ حَلِفُهُ عَلَى فِعْلٍ
الهُدْهُدُ؟ وَمِنْ أَيْنَ دَرَى أَنَّهُ يَأْتِي بِسُلْطَانٍ، حَتَّى يَقُولَ: «وَاللَّهِ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ؟» قُلْتُ:
لَمَّا نَظَّمِ الثَّلَاثَةَ بـ(أَوْ) فِي الْحُكْمِ الَّذِي هُوَ الْحَلْفُ: آلَ كَلَامُهُ إِلَى قَوْلِكَ: لِيَكُونَنَّ أَحَدُ
الْأُمُورِ، يَعْنِي: إِنْ كَانَ الْإِتْيَانُ بِالسُّلْطَانِ؛ لَمْ يَكُنْ تَعْدِيبٌ وَلَا ذَبْحٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَانَ
أَحَدَهُمَا، وَلَيْسَ فِي هَذَا ادِّعَاءُ دِرَايَةٍ، عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَقَّبَ حَلْفُهُ بِالْفِعْلَيْنِ وَحَيِّ

مَشَدَّدَةٌ، وَالباقون: بِوَاحِدَةٍ مَكْسُورَةٍ مَشَدَّدَةٍ، وَالأصلُ قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ، لَكِنْ حُذِفَتِ النُّونُ
الَّتِي قَبْلَ يَاءِ الْمُتَكَلِّمِ لِاجْتِمَاعِ النُّونَاتِ (١).

قَوْلُهُ: (لَمَّا نَظَّمِ الثَّلَاثَةَ بـ«أَوْ» فِي الْحُكْمِ الَّذِي هُوَ الْحَلْفُ)، يَعْنِي: إِنْ كَانَ الْعَطْفُ جَمَعَ
الْأُمُورَ الثَّلَاثَةَ فِي حُكْمِ الْحَلْفِ ظَاهِرًا، لَكِنْ «أَوْ» الثَّانِيَةُ لِلتَّرْدِيدِ، وَالأولى لِلتَّخْيِيرِ، فَيَكُونُ
قَوْلُهُ: ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِي﴾ مَعْطُوفًا عَلَى ﴿لَأَعْدِبَنَّهُ﴾، لَا عَلَى ﴿لَأَذِيعَنَّهُ﴾، لِيُؤْوَلَ مَعْنَى الثَّلَاثَةِ
إِلَى الْآيَتَيْنِ، فَكَانَتْ قِيلَ: إِنْ كَانَ الْإِتْيَانُ بِالسُّلْطَانِ لَمْ يَكُنْ تَعْدِيبٌ وَلَا ذَبْحٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَانَ
أَحَدَهُمَا مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ، فَلَيْسَ حِينْتِذٍ فِي الْكَلَامِ ادِّعَاءُ دِرَايَةٍ مِنْ سَلْيَانٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِانْبِنَاءِ
الْكَلَامِ عَلَى التَّخْيِيرِ وَالتَّرْدِيدِ.

قال القاضي: وَالْحَلْفُ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى أَحَدِ الْأَوَّلَيْنِ (٢) بِتَقْدِيرِ عَدَمِ الثَّالِثِ (٣).

قَوْلُهُ: (أَنْ يَتَعَقَّبَ حَلْفُهُ)، الْجَوْهَرِيُّ: عَاقَبَهُ أَي جَاءَهُ بِعَقْبِهِ، فَهُوَ مُعَاقَبٌ وَعَقِيبٌ،
والتَّعْقِيبُ مَثَلُهُ، يَعْنِي قَوْلُهُ: ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أَوْحِيَ إِلَيْهِ بَعْدَ حَلْفِهِ بِالْفِعْلَيْنِ؛
أَي: فَلَمَّا أتمَّ كَلَامَهُ عَقَّبَهُ بِأَوْحِيَ إِلَيْهِ، وَمَا أَوْحِيَ إِلَيْهِ لَا يَكُونُ إِلَّا يَقِينًا عَنْ دِرَايَةٍ (٤).

الدِّرَايَةُ: عِلْمٌ يَحْصُلُ بِالتَّكَلُّفِ، وَلهَذَا لَا يَجُوزُ إِطْلَاقُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى.

(١) لِتَمَامِ الْفَائِدَةِ انظُرْ: «حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» ص ٥٢٤.

(٢) فِي النِّسْخَةِ (ف): «الْقَوْلَيْنِ»، وَالْجَادَّةُ مَا أَتْبَتْنَاهُ، وَهُوَ الْمَوَافِقُ لِكَلَامِ الْبِيضَاوِيِّ.

(٣) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» (٤: ٢٦٣).

(٤) قَوْلُهُ: «دِرَايَةُ» سَقَطَ مِنْ (ح).

من الله؛ بآته سيأتيه بسُلطانٍ مُبين، فثَلَّثَ بقوله: ﴿أَوْلِيَاتِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ عن
دِرَايَةِ وَإِيْقَانِ.

[﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِثَّتْكَ مِنْ سَبَابٍ بِبَلَرٍ يَقِينٍ﴾

[٢٢]

﴿فَمَكَتْ﴾ قُرئ بِفَتْحِ الْكَافِ وَضَمِّهَا. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ غَيْرَ زَمَانٍ بَعِيدٍ، كَقَوْلِكَ:
عن قَرِيبٍ. وَوَصَفُ مُكَّتِهِ بِقَصْرِ الْمُدَّةِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى إِسْرَاعِهِ خَوْفًا مِنْ سُلْطَانٍ، وَلِيُعْلَمَ
كَيْفَ كَانَ الطَّيْرُ مُسْخَرًا لَهُ، وَلِيَبَيِّنَ مَا أُعْطِيَ مِنَ الْمُعْجِزَةِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَعَلَى
قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

﴿أَحَطْتُ﴾: بِإِدْغَامِ الطَّاءِ فِي التَّاءِ؛ بِإِطْبَاقٍ وَبِغَيْرِ إِطْبَاقٍ: أَلْهَمَ اللَّهُ الْهُدْهُدَ

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَاللَّهِ لَا أَدْرِي وَأَنْتَ الدَّارِي

فَشَادُ، يُقَالُ: دَرَيْتُهُ وَدَرَيْتُهُ بِهِ دَرِيًّا، وَدَرِيَّةٌ وَدِرَايَةٌ.

قَوْلُهُ: ﴿﴿فَمَكَتْ﴾ قُرئ بِفَتْحِ الْكَافِ وَضَمِّهَا﴾، بِالْفَتْحِ عَاصِمٌ، وَبِالضَّمِّ الْبَاقُونَ^(١).

قَوْلُهُ: ﴿﴿أَحَطْتُ﴾ بِإِدْغَامِ الطَّاءِ فِي التَّاءِ بِإِطْبَاقٍ وَبِغَيْرِ إِطْبَاقٍ﴾، قِيلَ: ذَهَبَ بَعْضُهُمْ
إِلَى أَنَّ الْحُرُوفَ الْمُطَبَّعَةَ تُدْغَمُ فِي غَيْرِهَا مَعَ بَقَاءِ الْإِطْبَاقِ، وَرَدَّهُ ابْنُ الْحَاجِبِ بِأَنَّ الْإِطْبَاقَ
صِفَةٌ لِلْمُطَبَّعَةِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِهَا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِهَا يُنَاقِضُ الْإِدْغَامَ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ إِيدَاؤُهَا إِلَى
الْمُدْغَمِ فِيهِ، فَيُؤَدِّي إِلَى أَنَّ تَكُونَ مَوْجُودَةً غَيْرَ مَوْجُودَةٍ وَهُوَ مُتَنَاقِضٌ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِطْبَاقَ
رَفْعُ اللَّسَانِ إِلَى مَا يُجَاذِبُهُ مِنَ الْحَنَكِ لِلتَّصْوِيتِ بِصَوْتِ الْحَرْفِ الْمُخْرَجِ عِنْدَهُ، فَلَا يَسْتَقِيمُ

(١) وَهِيَ لِقَتَانٌ مِثْلُ: كَمَلٌ وَكَمُلَ. وَالَّذِي اخْتَارَهُ أَبُو زُرْعَةَ هُوَ «مَكَتٌ» بِالْفَتْحِ؛ لِأَنَّ فَعْلًا بِالضَّمِّ أَكْثَرُ مَا
يَأْتِي الْأِسْمُ مِنْهُ عَلَى (فَعِيلٍ)، نَحْوُ: ظَرَفٌ وَكَرْمٌ فَهُوَ ظَرِيفٌ وَكَرِيمٌ وَمِنْ «فَعَلٌ» بِالْفَتْحِ يَأْتِي الْأِسْمُ عَلَى
فَاعِلٍ، قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿﴿مَنْكِبِينَ فِيهِ أَبْدًا﴾﴾ [الكهف: ٣]. انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٢٥.

فَكَافَحَ سُلَيْمَانَ بِهَذَا الْكَلَامِ عَلَى مَا أُوتِيَ مِنَ فَضْلِ النُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْعُلُومِ الْجَمَّةِ،

إِلَّا بِنَفْسِ الْحَرْفِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالتَّحْقِيقُ أَنَّ نَحْوَ: ﴿فَرَطْتُ﴾ [الزُّمَرُ: ٥٦]، و«أَغْلَطْتُ»، و«أَحَطْتُ» بِالْإِطْبَاقِ لَيْسَ مَعَهُ إِدْغَامٌ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا اشْتَدَّ التَّقَارُبُ وَأَمَكْنَ النَّطْقُ بِالثَّانِي مَعَ الْأَوَّلِ مِنْ غَيْرِ نَقْلِ اللِّسَانِ كَانَ كَالنَّطْقِ بِالْمِثْلِ بَعْدَ الْمِثْلِ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ الْإِدْغَامُ.

وَأَيْضًا الْإِنْسَانُ يُحْسُّ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿أَحَطْتُ﴾ النَّطْقَ بِالطَّاءِ خَفِيفَةً وَبِالذَّاءِ بَعْدَهَا، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الطَّاءَ مُدْغَمَةٌ؛ لِأَنَّ إِدْغَامَهَا يُوجِبُ قَلْبَهَا^(١) إِلَى مَا بَعْدَهَا.

قَوْلُهُ: (فَكَافَحَ سُلَيْمَانَ)، الْأَسَاسُ: كَافَحَهُ لِقَاؤُهُ مُوَاجَهَةً عَنْ مَفْجَأَةٍ، وَلَقَبِيئَتُهُ كِفَاحًا وَكَافَحُوهُمْ فِي الْحَرْبِ: ضَارَبُوهُمْ تَلْقَاءَ الْوُجُوهِ. الْجَوْهَرِيُّ: أَي لَيْسَ دُونَهَا تُرْسٌ وَلَا غَيْرُهُ.

وَكَافَحَ هَاهُنَا مُسْتَعَارًا لِمُوَاجَهَةِ الْكَلَامِ وَسُلُوكِ طَرِيقِ التَّصْرِيحِ، دُونَ الْإِيْمَاءِ وَالتَّلْوِيحِ كَمَا هُوَ عَادَةٌ الْمُتَسْفِلِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْ الْمُسْتَعْلِيِّ، لِأَسِيْمَا الْمُخَاطَبِ نَبِيِّ اللَّهِ، وَمَنْ ثَمَّ قَالَ مُحْمِي السُّنَّةِ: الْإِحَاطَةُ: الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، يَقُولُ: عَلِمْتُ مَا لَمْ تَعْلَمْ، وَبَلَغْتُ مَا لَمْ تَبْلُغْهُ أَنْتَ وَلَا جُنُودُكَ^(٢)، وَجِتَّتْكَ ﴿مَنْ سَيِّئًا يَبْتَلِي يَقِينٍ﴾. وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمَكَافَحَةُ مِنْ قَبِيلِ رَفْعِ الصَّوْتِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الْحُجُرَاتُ: ٢] حَتَّى تُعَارِضَ بِهِ، وَيُقَالُ: كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْمُهْدِدِ الْمَكَافِحَةَ وَهُوَ أضعفُ مَخْلُوقٍ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَشْرَفُ الْخَلَائِقِ بِخَفْضِ الصَّوْتِ عِنْدَ نَبِيِّهِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ [الْحُجُرَاتُ: ٢]؛ لِأَنَّ هَذَا تَأْذِيبٌ وَتَهْذِيبٌ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذَلِكَ تَعْظِيمٌ لَجَلَالَةِ حَضْرَةِ الرِّسَالَةِ وَرَفْعِ مَنْزِلَتِهَا، وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ.

فَعَلَى الْخَائِضِ فِي الطَّعْنِ إِلقاءُ الْبَالِ، وَذَلِكَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ حِينَمَا رَأَى سِوَابِغَ نِعَمِ اللَّهِ - وَالْآيَةِ فِي حَقِّهِ وَفِي حَقِّ أَبِيهِ - مُلْكًا وَعِلْمًا وَاسْتِبْدَادَهُمَا بِالزِّيَةِ وَالْفَضْلِ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ، حَتَّى قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَعَقَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَتَأَيَّهَا

(١) فِي النِّسْخَةِ (ح): «قَلْبَهَا»، وَهُوَ خَطَأٌ.

(٢) «مَعَالِمُ التَّنْزِيلِ» (٦: ١٥٥).

والإحاطة بالمعلومات الكثيرة؛ ابتلاء له في علمه،.....

النَّاسُ عِلْمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿ [النمل: ١٦]، وأراد الله تعالى أن يُثَبِّتَهُ عَلَى هَذَا الشُّكْرِ، وَلَا تُؤَدِّيهِ تِلْكَ النَّعْمُ إِلَى الْعُجْبِ وَالطُّغْيَانِ، أَهْلِمِ الْهُدَاهُ لِمُكَافَحَتِهِ تَهْيِيجًا لَهُ وَإِلَهَابًا وَابْتِلَاءً وَتَنْبِيهَاً.

وقريبٌ منه قوله تعالى في حقِّ أفضل الخلق: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ [يونس: ٩٤، ٩٥]؛ أي: دُمَّ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ انْتِفَاءِ الْمُرِيَةِ عَنْكَ وَالتَّكْذِيبِ بِآيَاتِ اللَّهِ.

ونظيرٌ هذا الابتلاءِ ابتلاءُ الكلِّيمِ بالخِضِرِ عليهما السَّلَامُ. رويَنا عن البخاريِّ ومسلمٍ والترمذيِّ، عن سعيد بن جبْرِ، عن ابن عباسٍ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قَامَ مُوسَى خَطِيْبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ. قَالَ: فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ أَنْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ». الحديثُ بتأمله^(١).

ولعلَّ المصنِّفَ نظرَ في كلامِ سليمانَ عليه السلامَ وافتخاره بالعلمِ والمُلْكِ فبنَى كلامه عليهما، فقوله: «لِتَتَحَاقَرَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ»، ينظر إلى المُلْكِ، و«يَتَصَاغَرُ إِلَيْهِ عِلْمُهُ» إلى العِلْمِ، فعلى هذا قوله: «ابتلاء له في علمه»، مفعولٌ له لقوله: «أهلم الله»، و«تنبيها» عطفٌ عليه.

وقوله: «لِتَتَحَاقَرَ»، تعليلٌ لقوله: «تنبيها»، وإنما أتى باللام فيه؛ لأنه ليس فعلاً للمُنْبِيهِ، بخلافه في قوله: «تنبيها»؛ لأنه فعلٌ للمُلهِمِ، والضَّميرَانِ فِي «إِلَيْهِ» وَ«نَفْسِهِ» فِي الصَّيغَتَيْنِ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال في «الأساس»: تحاقرت إليه نفسه، وقد حقر في عيني حقارةً، وتصاغرت إليه نفسه: صارت صغيرة الشأن ذلاً ومهانةً، والله سبحانه وتعالى أن يمتحن أفضل الخلق بأحقره بناءً على المشيئة المحضة أو المصلحة على الخلاف.

(١) أخرجه البخاري (١٢٣) ومسلم (٢٣٨٠) والترمذي (٣١٤٩).

وَتَنْبِيهَا عَلَى أَنْ فِي أَدْنَى خَلْقِهِ وَأُضْعِفَهُ مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِهَا لَمْ يُحِطْ بِهِ، لِتَحَقَّقَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ، وَيَتَصَاغَرَ إِلَيْهِ عِلْمُهُ، وَيَكُونُ لُطْفًا لَهُ فِي تَرْكِ الإِعْجَابِ؛ الَّذِي هُوَ فِتْنَةُ الْعُلَمَاءِ، وَأَعْظَمُ بِهَا فِتْنَةً، وَالإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ عِلْمًا: أَنْ يُعْلَمَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ، لَا يَخْفَى مِنْهُ مَعْلُومٌ. قَالُوا: وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ الرَّافِضَةِ إِنَّ الإِمَامَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَكُونُ فِي زَمَانِهِ أَحَدٌ أَعْلَمَ مِنْهُ.

قوله: (في أدنى خلقه وأضعفه)؛ لأن الهدمه من البعث لا من العتاق، قال:

سُلَيْبَانُ ذُو مُلْكٍ تَفَقَّدَ هُدًى وَإِنْ أَحْسَسَ الطَّائِرَاتِ الْهَدَاهِدَ^(١)

قوله: (قالوا: فيه^(٢) دليل على بطلان قول الرافضة)، يعني: دلّ بإشارة النص والإدماج على أن ما قالوا: إن الإمام ينبغي أن لا يخفى عليه شيء من الجزئيات باطل؛ لأن هذا الهدمه قد اطلع على ما خفي على نبي الله سليمان، ولا يلزم من ذلك فضل أحاد الناس على سيدنا صلوات الله عليه.

روينا عن الإمام أحمد وابن ماجه، عن طلحة بن عبيد الله قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل، فقال: «ما يصنع هؤلاء؟» قالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى تلقح، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظن ذلك يُغني شيئاً» فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله ﷺ، فقال: «فإن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإنني إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا مني، فإنني لن أكذب على الله»^(٣). وفي رواية أحمد: فقال: «إذا كان شيئاً من أمر دنياكم فشانكم به»^(٤).

وأما تحقيق المسألة: فقد ذكره الإمام في «نهاية العقول» قال: اتفقت الإمامية على أن

(١) لم أهدت إليه فيما بين يدي من مصادر التخريج.

(٢) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «وفيه».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٤٧١)، وهو في «صحيح مسلم» (٢٣٦٣).

(٤) «مسند الإمام أحمد» (٢٤٩٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿سَبِيًّا﴾ قُرئِ بِالصَّرْفِ وَمَنْعِهِ. وَقَدْ رُوِيَ بِسُكُونِ الْبَاءِ. وَعَنْ ابْنِ كَثِيرٍ فِي رِوَايَةٍ:

الإمام يجب أن يكون عالمًا بكلِّ الدين، فإن كان مرادهم بذلك أنه يجب أن يكون عالمًا بجميع القواعد الشرعية وضوابطها، وبكثير من الفروع الجزئية لتلك القواعد، بحيث لو حدثت حادثة ولا يعلم حكمها يكون متمكنًا من استنباط الحكم فيها على الوجه الصحيح، فذلك مذهبنا، وهو الذي نعني بقولنا: الإمام يجب أن يكون مجتهدًا، وإن عَنَوَا به أن الإمام يجب أن يكون عالمًا على التفصيل بأحكام جميع الحوادث الجزئية التي يمكن وقوعها، فليس الأمر عندنا كذلك.

والمعتمد في إفساده: أن الجزئيات التي يمكن وقوعها غير متناهية، فيستحيل حصوله للإنسان. قالوا: يجب للإمام أن يحكم في كل الأمور؛ لأنه لا يحسن من الملك أن يفوض سياسة جُنده ورعيته إلى من لا يعرف السياسة وأحكام الملك، ولأنه لو لم يعلم الأحكام كلها لجاز أن يحدث حادث لا يعرف حكمها^(١)، ولا يؤدي اجتهاده إليه، ولا يتسع الزمان لمراجعة الاجتهاد، ولأن الجهل بكلِّ الشريعة منفر، ولا يجوز ثبوته للإمام قياسًا على النبي. ويعني بكونه منفرًا أن الناس إذا علموا أنه يخفى على إمامهم شيء من الأحكام استنكفوا منه.

وأجاب الإمام عن الأسئلة بأجوبة شافية، فليُنظر هناك.

وعن بعضهم أنهم تمسكوا بقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] أرادوا به الإمام الذي يستخلف، والصحيح أنه يجوز استخلاف المفضول عند وجود الفاضل؛ فلهذا ترك عمر رضي الله عنه الخلافة شوري بين ستة نفر وفيهم الفاضل والمفضول^(٢)، والحق أن المراد بقوله: ﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]: اللوح المحفوظ؛ لقوله: ﴿وَنَكَّشْتُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]، والله أعلم.

قوله: ﴿سَبِيًّا﴾ قرئ بالصرف ومنعه، البري أبو عمرو: «سبأ» هاهنا، وفي سبأ: بفتح

(١) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب: «حُكْمَهُ».

(٢) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣: ٣٤٢).

(سبا)، بِالْأَيْفِ كَقَوْلِهِمْ: ذَهَبُوا أَيْدِي سَبَا. وَهُوَ سَبَا بْنُ يَشْجُبَ بْنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطَانَ؛ فَمَنْ جَعَلَهُ اسْمًا لِلْقَبِيلَةِ لَمْ يَصْرِفْ، وَمَنْ جَعَلَهُ اسْمًا لِلْحَيِّ أَوْ الْأَبِّ الْأَكْبَرَ صَرَفَ. قَالَ:

مِنْ سَبَا الْحَاضِرِينَ مَأْرِبَ إِذْ يَبْنُونَ مِنْ دُونِ سَيْلِهِ الْعَرَمَا

الهمزة من غير تنوين، وقُنبُل: بإسكانها على نيّة الوقف، والباقون: بالخفض مع التنوين^(١).
قوله: (ذهبوا أيدي سبا)، الجوهريُّ: ذهبوا أيدي سبا، وأيادي سبا؛ أي: متفرقين، وهما اسمان جُعلا واحداً؛ مثل: مَعْدِي كَرَبَ.
الرَّاعِب: سَبَا: اسْمٌ بَلَدٌ تَفَرَّقَ أَهْلُهُ، وَلِهَذَا يُقَالُ: ذَهَبُوا أَيَادِي سَبَا؛ أَي: تَفَرَّقُوا تَفَرَّقَ أَهْلُ هَذَا الْمَكَانِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ^(٢).

روينا في «مسند الإمام أحمد» وفي «سنن الترمذي» و«أبي داود»، عن فروة بن مُسيك، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: وَمَا سَبَا: أَرْضٌ أَوْ امْرَأَةٌ؟ قَالَ: «لَيْسَ بِأَرْضٍ وَلَا امْرَأَةً، وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ وَلَدَ عَشْرَةَ مِنَ الْعَرَبِ، فَتِيَامَنَ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَتَشَاءَمَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ تَشَاءَمُوا فَلَخْمٌ وَجُدَامٌ وَعَسَانٌ وَعَامِلَةٌ، وَأَمَّا الَّذِينَ تِيَامَنُوا فَالْأَزْدُ وَالْأَشْعَرُونَ وَهَمِيرٌ وَكِنْدَةُ وَمَذْحِجٌ وَأَنَارٌ»، فَقَالَ رَجُلٌ: وَمَا أَنَارٌ؟ فَقَالَ: «الَّذِينَ مِنْهُمْ خَنَعُمْ وَبَجِيلَةٌ»^(٣).

قوله: (من سبا الحاضرین)، البيت^(٤). «الحاضرین»: صِفةٌ سَبَا، و«مأرب» مَفْعُولُ «الحاضرین»، و«إذ» ظَرْفُهُ، وَقِيلَ: «مَأْرِبَ» ظَرْفٌ لـ«الحاضرین» و«إذ» أَيضاً. و«العَرْمُ»: السَّدُّ يُصْنَعُ فِي الْوَادِي لِتَحْيِيسِ الْمَاءِ.

يَمْدَحُ رَجُلًا هُوَ مِنْ قَبِيلَةِ سَبَا الْحَاضِرِينَ مَدِينَةَ مَأْرِبَ الَّذِينَ بَنَوْا الْعَرَمَ دُونَ السَّيْلِ،

(١) ولتتام الفائدة انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٢٥.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٣٩٦، وانظر المثل في «مجمع الأمثال» (١: ٢٧٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣٩: ٥٢٧)، وأبو داود (٣٩٨٨) والترمذي (٣٢٢٢) والطبري في «جامع البيان» (٧٦: ٢٢) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨: ٨٣٤) وغيرهم.

(٤) البيت لأمية بن أبي الصلت في «ديوانه» ص ٥١، ويُنسب للنابغة الجعدي أيضاً.

وقال:

الْوَارِدُونَ وَتَيْمٌ فِي ذُرَى سَبِيَا قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ

ثم سُمِّيَتْ مَدِينَةُ مَآرِبٍ بِسَبِيَا، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ صَنْعَاءَ مَسِيرَةٌ ثَلَاثٌ، كَمَا سُمِّيَتْ مَعَاوِرُ بِمَعَاوِرِ بْنِ أَدَّ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ الْمَدِينَةُ وَالْقَوْمُ. (والنبا): الْحَبْرُ الَّذِي لَهُ شَأْنٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿مَنْ سَبَا بِبَنِي﴾ مِنْ جِنْسِ الْكَلَامِ الَّذِي سَمَّاهُ الْمُحَدَّثُونَ: الْبَدِيعُ؛ وَهُوَ مِنْ مَحَاسِنِ الْكَلَامِ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِاللَّفْظِ، بِشَرَطِ أَنْ يَجِيءَ مَطْبُوعاً، أَوْ يَصْنَعُهُ عَالِمٌ بِجَوْهَرِ الْكَلَامِ؛ يُحْفَظُ

وقيل: الْعَرِمُ الْمُسْتَأْتَةُ الَّتِي بَنَتْهَا بَلْقَيْسُ سَكْرًا وَسَدًّا، وَالْمَعْنَى: يَبْنُونَ مِنْ دُونِ السَّبِيلِ السَّدَّ.

قَوْلُهُ: (الْوَارِدُونَ)، الْبَيْتَ (١). الذَّرَى - بِالْفَتْحِ -: كُلُّ مَا اسْتَثَرَتْ بِهِ، يُقَالُ: إِنَّا فِي ظِلِّ فُلَانٍ وَفِي ذَرَاهُ؛ أَيْ: كَنَفِهِ وَسِثْرِهِ. وَذُرَى كُلِّ شَيْءٍ: أَعَالِيهِ، الْوَاحِدَةُ: ذُرْوَةٌ، يَقُولُ: الْوَارِدُونَ هُمْ وَتَيْمٌ فِي أَعْلَى أَرْضِ سَبَا مَغْلُولِينَ بِأَغْلَالٍ مِنْ جِلْدِ الْجَوَامِيسِ، بِحَيْثُ تَعَضُّ أَعْنَاقَهُمْ.

وَصَرَفَ «سَبَا» إِذْ جَعَلَهُ بِمَعْنَى الْحَيِّ أَوْ الْأَبِ الْأَكْبَرِ.

قَوْلُهُ: (مَعَاوِرُ)، قِيلَ: مَعَاوِرُ حَيٍّ مِنْ هَمْدَانَ، وَإِلَيْهِ تُنْسَبُ الشُّبَابُ الْمَعَاوِرِيَّةُ.

الْأَسَاسُ: الْمَعَاوِرِيَّةُ: ثِيَابٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَى بَلَدٍ نَزَلَ فِيهِ مَعَاوِرُ بْنُ أَدَّ.

قَوْلُهُ: (الَّذِي سَمَّاهُ الْمُحَدَّثُونَ: الْبَدِيعُ)، أَيْ: الْمَتَأَخَّرُونَ، جَعَلُوهُ مِنْ قِسْمِ الْبَدِيعِ، وَاسْمُ هَذِهِ الصَّنْعَةِ فِي الْبَدِيعِ: تَضْمِينُ الْمَزْدَوَجِ، وَهُوَ أَنْ يَقَعَ فِي أَثْنَاءِ الْقَرَائِنِ فِي النَّظْمِ أَوْ النَّثْرِ لَفْظَانِ مُسْتَجْعَانِ بَعْدَ رِعَايَةِ حُدُودِ الْأَسْجَاعِ وَالْقَوَافِي، وَقَدْ جَاءَ فِي الشَّعْرِ:

مضى الصاحب الكافي ولم يبق بعده كريمٌ يروى الأرض فيئض غمامه
فقدناه لما تممنا بالعلما كذاك خسوف البدر عند تمامه (٢)

(١) لجرير في «ديوانه» ص ٣٢٥ من قصيدة يهجو بها عمرو بن لجا التيمي. ومنها البيت المشهور:

وابن اللبون إذا ما لَزَّ في قرني لم يستطع صولة البزل القناعيس

(٢) ذكرهما الإمام الطيبي في كتابه «التبيان في البيان» ص ٢٤٢، وذكر أنها في رثاء الصاحب بن عباد.

مَعَهُ صِحَّةُ الْمَعْنَى وَسَدَادُهُ، وَلَقَدْ جَاءَ هَاهُنَا زَائِدًا عَلَى الصَّحَّةِ فَحَسُنَ وَبَدَعَ لَفْظًا وَمَعْنَى. أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ وُضِعَ مَكَانَ ﴿بِنَبَأٍ﴾ «بِخَبَرٍ»، لَكَانَ الْمَعْنَى صَحِيحًا، وَهُوَ كَمَا جَاءَ أَصَحُّ؛ لِمَا فِي النَّبَأِ مِنَ الزِّيَادَةِ الَّتِي يُطَابِقُهَا وَصْفُ الْحَالِ.

[﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ٢٣]

المرأة بلقيس بنت شراحيل، وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، وقد وكده

قوله: (وهو كما جاء أصح؛ لِمَا فِي النَّبَأِ مِنَ الزِّيَادَةِ الَّتِي يُطَابِقُهَا وَصْفُ الْحَالِ)، وهي ما في الإنباء من معنى الإخبار الذي يُنَبِّه السامع على الشيء من حيث لا يدري.

الراغب: النَّبَأُ: خَبْرٌ ذُو فَائِدَةٍ عَظِيمَةٍ يَحْضُلُ بِهِ عِلْمٌ أَوْ غَلَبَةٌ ظَنٌّ، وَلَا يُقَالُ لِلْخَبَرِ فِي الْأَصْلِ: نَبَأٌ حَتَّى يَتَضَمَّنَ لِمَا ذَكَرَ، وَحَقُّ الْخَبَرِ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ نَبَأٌ أَنْ يَتَعَرَّى عَنِ الْكُذْبِ كَالْتَوَاتُرِ، وَخَبَرَ اللَّهُ تَعَالَى وَخَبَرَ النَّبِيُّ ﷺ، وَلِتَضَمَّنِ النَّبَأُ الْمَعْنَى الْخَيْرِ يُقَالُ: أَنْبَأْتَهُ بِكَذَا؛ أَي: أَخْبَرْتَهُ بِهِ، وَلِتَضَمَّنِهُ مَعْنَى الْعِلْمِ قِيلَ: أَنْبَأْتَهُ كَذَا، وَيُقَالُ: أَنْبَأْتَهُ وَنَبَأْتَهُ؛ وَنَبَأْتَهُ أَبْلَغُ^(١).

الأساس: أتاني نبأ من الأنباء، وأنبئت بكذا وكذا، ورجلٌ نابعٌ وسيلٌ نابعٌ طارئٌ من حيث لا يدري، وهل عندكم نابتةٌ خبير. وقال الشاعر:

ألا فاسقَياني وإنفيا عنكما القدى فليس القدى بالعود يسقط في الحمر
ولكن قذاها كلُّ أشعث نابعٍ آتتنا به الأقدارُ من حيث لا ندرى^(٢)

والخبرُ الذي يكون هذه المثابَّةُ يُعْتَنَى بِشَأْنِهِ، وَمَنْ تَمَّ قَالَ: «النَّبَأُ: الْخَبْرُ الَّذِي لَهُ شَأْنٌ»، فَيَكُونُ قَدْ أَدْمَجَ فِيهِ تَتْمِيمٌ مَعْنَى الْمُكَافَحَةِ الَّذِي يُعْطِيهِ قَوْلُهُ: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، كَمَا قَالَ: «فَكَافَحَ سَلِيمَانُ بِهَذَا الْكَلَامِ... ابْتِلَاءً وَنَبْهًا بِهِ عَلَى أَنْ فِي أَدْنَى خَلْفِهِ مَنْ أَحَاطَ عِلْمًا بِهَا لَمْ يُحِطْ بِهِ».

(١) «مفردات القرآن» ص ٧٨٨.

(٢) ذكره ابن منظور في «لسان العرب» (نبأ) وعزاه للأخطل، وكذا الزبيدي في «تاج العروس» (نبأ)، ولم أجده في «ديوانه».

أرْبَعُونَ مَلِكًا، ولم يكن له وَلَدٌ غَيْرَهَا، فَغُلِبَتْ عَلَى الْمَلِكِ، وَكَانَتْ هِيَ وَقَوْمُهَا مَجُوسًا يَعْْبُدُونَ الشَّمْسَ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿تَمَلِكُهُمْ﴾ رَاجِعٌ إِلَى سَبَا، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْقَوْمُ فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ، وَإِنْ أُرِيدَتِ الْمَدِينَةُ فَمَعْنَاهُ: تَمَلَّكَ أَهْلَهَا. وَقِيلَ فِي وَصْفِ عَرْشِهَا: «كَانَ ثِنَايِنَ ذِرَاعًا فِي ثِنَايِنَ، وَسَمُّكَ ثِنَايِنَ». وَقِيلَ: «ثَلَاثِينَ؛ مَكَانَ ثِنَايِنَ»، وَكَانَ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، مُكَلَّلًا بِأَنْوَاعِ الْجَوَاهِرِ، وَكَانَتْ قَوَائِمُهُ مِنْ يَاقُوتِ أَحْمَرَ وَأَخْضَرَ، وَدُرٌّ وَزُمُرْدٌ، وَعَلَيْهِ سَبْعَةُ آيَاتٍ، عَلَى كُلِّ بَيْتٍ بَابٌ مُغْلَقٌ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَعْظَمَ عَرْشُهَا مَعَ مَا كَانَ يَرَى مِنْ مُلْكِ سُلَيْمَانَ؟ قُلْتَ: يَجُوزُ أَنْ يَسْتَصْغِرَ حَالَهَا إِلَى حَالِ سُلَيْمَانَ، فَاسْتَعْظَمَ لَهَا ذَلِكَ الْعَرْشَ. وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَكُونَ لِسُلَيْمَانَ مِثْلُهُ، وَإِنْ عَظُمَتْ مَمْلَكَتُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا يَكُونُ لِبَعْضِ أَمْرَاءِ الْأَطْرَافِ شَيْءٌ؛ لَا يَكُونُ مِثْلَهُ لِلْمَلِكِ الَّذِي يَمْلِكُ عَلَيْهِمْ أَمْرَهُمْ وَيَسْتَخْدِمُهُمْ. وَمَنْ نَوَى الْقِصَاصِ مِنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾، ثُمَّ يَتَدَيَّءُ ﴿عَظِيمٌ وَجَدَّتْهَا﴾، يُرِيدُ: أَمْرٌ عَظِيمٌ أَنْ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ، فَرَّ مِنْ اسْتِعْظَامِ الْهُدْهِدِ عَرْشِهَا، فَوَقَعَ فِي عَظِيمَةٍ، وَهِيَ مَسْخُ كِتَابِ اللَّهِ.

قَوْلُهُ: (نَوَى الْقِصَاصِ)، الْجَوْهَرِيُّ: النَّوَى - بِالضَّمِّ - الْحُمُقُ. قَالَ:

وداء النوك ليس له دواء^(١)

وَالنَّوَاكَةُ: الْحِمَاقَةُ، وَقَوْمٌ نَوَى وَنُوكٌ أَيْضًا عَلَى الْقِيَاسِ؛ مِثْلُ: أَهْوَجَ وَهُوجَ.

قَوْلُهُ: (فَرَّ مِنْ اسْتِعْظَامِ الْهُدْهِدِ عَرْشِهَا فَوَقَعَ فِي عَظِيمَةٍ)، قَالَ صَاحِبُ «الْمَرْشَدِ»: وَلَا

(١) هُوَ عَجْزُ بَيْتٍ تُسَبِّ لَقَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ، وَصَدْرُهُ:

وداء الجسم مُلتَمِسٌ شِفَاءٌ

انظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١: ٨٣٥) و«الحماسة البصرية» (٢: ٩)، ولم أجده في «ديوان قيس بن الخطيم».

فإن قلت: كيف قال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مع قولِ سُلَيْمَانَ: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]؛ كأنه سوى بينهما؟ قلت: بينها فرقٌ بين؛ لأنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَطَفَ قَوْلَهُ عَلَى مَا هُوَ مُعْجِزٌ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ: تَعْلِيمُ مَنْطِقِ الطَّيْرِ، فَرَجَعَ أَوَّلًا إِلَى مَا أُوتِيَ مِنَ التَّبَوُّةِ وَالْحِكْمَةِ وَأَسْبَابِ الدِّينِ، ثُمَّ إِلَى الْمُلْكِ وَأَسْبَابِ الدُّنْيَا، وَعَطَفَهُ الْهُدْهُدَ عَلَى الْمُلْكِ، فَلَمْ يُرِدْ إِلَّا مَا أُوتِيَتْ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا اللَّائِقَةِ بِحَالِهَا؛ فَبَيْنَ الْكَلَامَيْنِ بَوْنٌ بَعِيدٌ. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ خَفِيَ عَلَى سُلَيْمَانَ مَكَائِهَا وَكَانَتْ الْمَسَافَةُ بَيْنَ مَحَطِّهِ وَبَيْنَ بَلَدِهَا قَرِيبَةً، وَهِيَ مَسِيرَةٌ ثَلَاثِ بَيْنَ صَنْعَاءَ وَمَأْرَبَ؟ قُلْتَ: لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْفَى عَنْهُ ذَلِكَ؛ لِمُضْلِحَةِ رَأْيَا، كَمَا أَخْفَى مَكَانَ يُوسُفَ عَلَى يَعْقُوبَ.

[﴿وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٢٤-٢٦]

يُوقِفُ عَلَى ﴿عَرْشٍ﴾، وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ جَوَازَهُ، وَقَالَ: مَعْنَاهُ: عَظِيمٌ عِنْدَ النَّاسِ، وَقَدْ أَنْكَرَ هَذَا الْوَقْفَ أَبُو حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَنَسَبُوا الْقَائِلَ بِهِ إِلَى الْجَهْلِ^(١).

وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ عَظِيمٌ عِبَادَتُهُمْ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، قَوْلٌ رَكِيكٌ لَا يُعْتَدُّ بِهِ، وَلَيْسَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَالْوَقْفُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿عَظِيمٌ﴾ حَسَنٌ.

قَوْلُهُ: (فَلَمْ يُرِدْ إِلَّا مَا أُوتِيَتْ مِنْ أَسْبَابِ الدُّنْيَا اللَّائِقَةِ بِحَالِهَا)، قَالَ صَاحِبُ «الْكَشْفِ»: قِيلَ: التَّقْدِيرُ: وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ شَيْئًا، وَقِيلَ: وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْتَاهَا؛ أَي: يُؤْتِي الْمَرْأَةَ. أَلَا تَرَى أَنَّهَا لَمْ تُؤْتِ الذَّكَرَ^(٢).

(١) يوضحه قولُ الأشموني في «منار الهدى» ص ٥٦٩: «وقد أغربَ بعضهم وزعم أن الوقف على ﴿عَرْشٍ﴾ وابتدئ بـ ﴿عَظِيمٌ﴾ * وَجَدْتُمَا»، وليس بشيء، لأنَّ جَعَلَ الْعِبَادَةَ لِغَيْرِ اللَّهِ عَظِيمَةً، وَكَانَ قِيَاسُهُ عَلَى هَذَا أَنْ يَقُولَ: عَظِيمَةً وَجَدْتُمَا، إِذِ الْمُسْتَعْظَمُ إِنَّمَا هُوَ سَجُودُهُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَأَمَّا عَرْشُهَا فَهُوَ أَذَلُّ وَأَحْفَرُّ أَنْ يَصِفَهُ اللَّهُ بِالْعَظَمِ وَفِيهِ أَيْضًا قَطْعُ نَعْتِ النُّكْرَةِ، وَهُوَ قَلِيلٌ. انتهى.

(٢) «كشف المشكلات» للباقولي (١٠٠٦: ٢).

فإن قلت: من أين للهُدُودِ التَّهْدِي إلى مَعْرِفَةِ الله، ووُجُوبِ السُّجُودِ له، وإنكارِ سُجُودِهِمَ لِلشَّمْسِ، وإِضَافَتِهِ إِلَى الشَّيْطَانِ وَتَزْيِينِهِ؟ قُلْتُ: لَا يَبْعُدُ أَنْ يُلْهِمَهُ اللهُ ذَلِكَ؛ كَمَا أَلْهِمَهُ وَغَيْرُهُ مِنَ الطُّيُورِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ الْمَعَارِفَ اللَّطِيفَةَ الَّتِي لَا يَكَادُ الْعُقَلَاءُ الرَّجَاحُ الْعُقُولِ يَهْتَدُونَ لَهَا، وَمَنْ أَرَادَ اسْتِقْرَاءَ ذَلِكَ فَعَلَيْهِ بِكِتَابِ «الْحَيَوَانِ»، خُصُوصًا فِي زَمَنِ نَبِيِّ سُحْرَتْ لَهُ الطُّيُورُ، وَعُلِّمَ مَنْطِقَهَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ مُعْجِزَةً لَهُ.

من قرأ بالتشديد أراد: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ لِئَلَّا يَسْجُدُوا فَحَذَفَ الْجَارَ مَعَ أَنْ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ ﴿لَا﴾ مَزِيدَةً، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: فَهَمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى أَنْ يَسْجُدُوا.

قوله: (الرَّجَاحُ الْعُقُولِ)، الْأَسَاسُ: وَمَنْ الْمَجَازُ: رَجُلٌ رَاجِعُ الْعَقْلِ، وَفَلَانٌ فِي عَقْلِهِ رَجَاحَةٌ، وَفِي خُلُقِهِ سَجَاحَةٌ، وَقَوْمٌ مَرَاجِيحُ الْعِلْمِ.

قوله: (استقراء ذلك)، الجوهريُّ: قروت البلادَ قَرَوًا وَقَرَيْتُهَا وَأَقْرَيْتُهَا وَاسْتَقْرَيْتُهَا: إِذَا تَبَعْتَهَا نَحْرُجُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ. وَقِيلَ: أَلْفَ الْجَاحِظِ كِتَابًا سَمَّاهُ «كِتَابَ الْحَيَوَانِ»^(١)، وَقِيلَ: «طَبَاعِ الْحَيَوَانِ».

قوله: (وَمَنْ قرأ بالتشديد)، قرأ الكسائيُّ: «أَلَا يَا اسْجُدُوا» بِتَخْفِيفِ اللَّامِ، وَيَقِفُ عَلَى «أَلَا يَا»، وَيَبْتَدِئُ «اسْجُدُوا» عَلَى الْأَمْرِ؛ أَي: أَلَا يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْجُدُوا. وَالْبَاقُونَ يُشَدِّدُونَ اللَّامَ لِإِدْغَامِ النُّونِ فِيهَا، وَيَقْفُونَ عَلَى الْكَلِمَةِ بِأَسْرِهَا.

قال الزَّجَّاجُ: مَنْ قرأ بالتشديد فالمعنى: وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾؛ أَي: فَصَدَّهُمْ لِأَنْ لَا يَسْجُدُوا، وَمَوْضِعُ «أَنْ» نَصْبٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَصَدَّهُمْ﴾، أَوْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَقْضًا، وَإِنْ حَذَفَتِ اللَّامُ. وَمَنْ قرأ بالتخفيف فهو موضعُ سَجْدَةٍ، وَمَنْ قرأ بالتشديد فلا^(٢).

(١) وهو مطبوعٌ مشهورٌ مُتداول.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١١٥)، ولتأملِ الفاتدة انظر: «حجة القراءات» ص ٥٢٥.

ومن قرأ بالتخفيف، فهو (ألا يا اسجدوا)، (ألا) لِلتَّنْبِيهِ، و(يا) حَرَفُ النَّدَاءِ، ومُنَادَاهُ مَحذُوفٌ، كما حَذَفَهُ مَنْ قَالَ:

ألا يا اسلمي يا دارمي على البلي

وفي حَرَفِ عَبْدِ اللَّهِ وَهِيَ قِرَاءَةُ الْأَعْمَشِ: (هَلَا) و(هَلَا)؛ بِقَلْبِ الْهَمْزَتَيْنِ هَاءٍ. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ: (هَلَا تَسْجُدُونَ) بِمَعْنَى: أَلَا تَسْجُدُونَ؛ عَلَى الْخِطَابِ. وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي: (أَلَا تَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَمَا تَعْلَمُونَ)، وَسَمِّيَ الْمَخْبُوءُ بِالْمَصْدَرِ: وَهُوَ النَّبَاتُ وَالْمَطَرُ وَغَيْرُهُمَا مِمَّا خَبَاهُ عَزَّ وَعَلَا مِنْ غُيُوبِهِ.

قوله: (ألا يا اسلمي يا دارمي على البلي)، تمامه لذي الرمة:

ولا زال مُنْهَلًا بِجَرَعاتِكِ الْقَطْرِ^(١)

انْهَلَّ الْقَطْرُ انْهَالًا؛ أَي: سَالَ بِشِدَّةٍ، وَالْجَرَءَاءُ: الرَّمْلَةُ الْمُسْتَوِيَّةُ الَّتِي لَا تُنْبِتُ شَيْئًا.

قوله: («هَلَا» و«هَلَا»)، بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ، بِقَلْبِ الْهَمْزَةِ هَاءٍ.

وفي «المطلع»: فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ جَاءَ فِي قِرَاءَةِ التَّخْفِيفِ مَكْتُوبًا فِي الْمَصْحَفِ ﴿تَسْجُدُوا﴾ كَمَا يُكْتَبُ الْمَضَارِعُ، وَحَرَفُ النَّدَاءِ لَا يُوَصَّلُ بِالْفِعْلِ كِتَابَةً؟!

قلت: رَسَمُ الْكِتَابَةِ الْأُولَى كَانَ عَلَى مُوَافَقَةِ اللَّفْظِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦] وَأَشْبَاهَهُ؛ فَلَمَّا وُصِلَتِ الْيَاءُ مِنْ حَرَفِ النَّدَاءِ بِيَسِينِ «اسجدوا» لَفْظًا كُتِبَتِ الْيَاءُ مُوَصُولَةً بِهَا، عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنَّ الْإِمَامَ بَنَاهُ عَلَى الْقِرَاءَةِ بِالتَّشْدِيدِ، وَهَذَا هُوَ الْعُدْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَوْمٌ فَرِحَتُونَ أَلَا يَنْقُوتُونَ﴾ [الشعراء: ١١] لَمَنْ فَسَّرَهُ بِ«أَلَا يَا نَاسُ اتَّقُونِ».

قوله: (مِمَّا خَبَاهُ عَزَّ وَعَلَا مِنْ غُيُوبِهِ)، الرَّاعِبُ: الْحَبَّاءُ: يُقَالُ لِكُلِّ مُدْخِرٍ مَسْتُورٍ، وَمِنْهُ:

(١) «ديوان ذي الرمة» ص ٢٠٦.

وَقُرِي: (الْحَبَّ)، على تَخْفِيفِ الهمزة بِالْحَذْفِ. وَالْحَبَّاءُ، على تَخْفِيفِهَا بِالْقَلْبِ، وهي قراءة ابن مسعود ومالك بن دينار. وَوَجْهَهَا: أَنْ تُخْرَجَ على لُغَةٍ من يَقُولُ في الْوَقْفِ: هذا الْحَبُّو، ورأيتُ الْحَبَّاءُ، وَمَرَرْتُ بِالْحَبِّي، ثم أَجْرِي الْوَصْلُ مَجْرَى الْوَقْفِ، لا على لُغَةٍ مَن يَقُولُ: الْكَمَاءُ وَالْحَمَاءُ؛ لِأَنَّهَا ضَعِيفَةٌ مُسْتَرْدَلَةٌ. وَقُرِي: (يُخْفَوْنَ وَيُعْلَنُونَ) بِالْيَاءِ وَالنَّاءِ.

وَقِيلَ: مِنْ ﴿أَحَطْتُ﴾ إِلَى ﴿الْعَظِيمِ﴾ هُوَ كَلَامُ الْهُذُودِ. وَقِيلَ: كَلَامُ رَبِّ الْعِزَّةِ.

جارية مُجَبَّاةٌ، وَالْحَبَّاءُ: هي التي تَظْهَرُ مَرَّةً، وَتُخْبَأُ أُخْرَى، وَالْحَبَّاءُ: سِمَةٌ في مَوْضِعِ خَفِيِّ^(١).

قَوْلُهُ: (لا على لُغَةٍ من يَقُولُ: الْحَمَاءُ وَالْكَمَاءُ^(٢))، أَي: يَقُولُونَ في الْحَمَاءِ وَالْكَمَاءِ بِالْهَمْزِ: الْحَمَاءُ الْكَمَاءُ؛ لِأَنَّهَا مُسْتَرْدَلَةٌ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ في تَخْفِيفِ الهمزة - إِذَا سُكِّنَ ما قَبْلَهَا - الْحَذْفُ، لا الْقَلْبُ، كَالْحَمَّةِ وَالْكَمَّةِ.

الْجَوْهَرِيُّ: الْحَمَاءُ: الطَّيْنُ الْأَسْوَدُ، وَكَذَلِكَ الْحَمَاءُ بِالتَّسْكِينِ، وَالْكَمَاءُ واحِدُهَا كَمٌّ على غير قياسٍ، وَكَمَّاتٌ [القوم]^(٣) كَمًّا: أَطْعَمْتُهُمُ الْكَمَاءَ.

قَوْلُهُ: (وَقُرِي: «يُخْفَوْنَ» وَ«يُعْلَنُونَ» بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ)، بِالنَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ: حَفْصٌ^(٤)، وَالباقون: بِالْيَاءِ.

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: مِنْ ﴿أَحَطْتُ﴾ إِلَى ﴿الْعَظِيمِ﴾ هُوَ كَلَامُ الْهُذُودِ. وَقِيلَ: كَلَامُ رَبِّ الْعِزَّةِ)، قال رحمه الله: معناه: أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ الْقَوْمِ، حكايتُهُ على لسان الْهُذُودِ.

قال صاحب «التقريب»: وفي الثاني نظرٌ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَحَطْتُ﴾ إِلَى آخِرِهِ، ظاهرٌ أَنَّهُ من كَلَامِ الْهُذُودِ، فَلَعَلَّ الْخِلَافَ من قَوْلِهِ: «أَلَا يا اسْجُدُوا» على التَّخْفِيفِ، كما هو في

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٧٤.

(٢) وفي «الكشاف»: «الكماء والحماء»، والأمر فيه هيئن.

(٣) زيادة من «الصحاح».

(٤) والكسائي أيضاً، لأن الكلام قد دخله الخطابُ على قراءة الكسائي. ومن قرأ بالياء فعلى سياق

الإخبار عنهم. انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٢٨.

وفي إخراج الحَبِّء: أمانةٌ على أنه من كلام الهذهد؛ لهندسته ومعرفة الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الحَبِّء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا تكاد تخفى على ذي الفراسة النَّظَار بنور الله

«اللُّباب»، وفيه: مَنْ قرأ بلفظ الأمر؛ أي: «ألا يا اسجدوا»، فهو^(١) استئنافٌ كلامٍ من اللُّو تعالى، وقيل: متَّصلٌ بكلام الهذهد، وقيل: من كلام سليمان.

وقلت: الواجبُ التَّوافقُ بين القراءتين الثابتين.

قوله: (وفي إخراج الحَبِّء: أمانةٌ على أنه من كلام الهذهد)، يريد أن المناسب من حال الهذهد. وكونه فُناقِنَ نبيِّ الله، وصاحبِ وضوئه أن يعظَّم الله ويسبِّحه بما تكرَّر عنده في خزانة خياله من إخراج الحَبِّء، وإلا فالله عزَّ وجلَّ له الأساءُ الحسنى، وإليه الإشارة بقوله: «ما عملَ عبدٌ عملاً إلا ألقى الله عزَّ وجلَّ عليه رداءً عمِّله»^(٢).

قوله: (لهندسته)، الجوهريُّ: المهندسُ: الذي يقدر مجاري القننيِّ حيث تُحفر، وهو مشتقٌّ من الهنداز، وهي فارسيَّةٌ فصِّرت الزايِّ سينا؛ لأنه ليس في شيءٍ من كلام العرب زايٌّ بعد الدالِّ، والاسم الهندسة^(٣).

قوله: (ذي الفراسة النَّظَار بنور الله)، من قوله ﷺ: «أتقوا فِرَاسَةَ المؤمن؛ فإنه ينظر بنور اللُّو»^(٤)، ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، أخرجه الترمذيُّ عن أبي سعيد.

الجوهريُّ: الفِرَاسَةُ من قولك: تَفَرَّسْتُ فيه خيراً، وهو يَتَفَرَّسُ؛ أي: يَتَبَيَّنُ وَيَنْظُرُ.

(١) في الأصول الخطية: «وهو». ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٧: ٢)، وابن شيبه في «المصنف» (٣٥٢١٩) عن عثمان رضي الله عنه من قوله.

(٣) وهذا الذي قاله الجوهري قد نقله بتامه الإمام الجواليقي في «المعرب» ص ٣٥٢.

(٤) سبق تخريجه.

مَخَائِلُ كُلِّ مُخْتَصِّ بِصِنَاعَةٍ أَوْ فَنَّ مِنَ الْعِلْمِ فِي رُؤَايِهِ وَمَنْطِقِهِ وَشَمَائِلِهِ، ولهذا ورد: «ما عَمِلَ عَبْدٌ عَمَلًا إِلَّا أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ رِداءً عَمَلِهِ».

فإن قلت: أسجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعاً أم في إحداهما؟ قلت: هي

وقال المصنّف: وحقيقة المتوسّمين: النظارُ المُتَبَيَّنون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء، ومعنى قوله: «ولا يكاد يخفى...» إلى آخره: أن صاحب الفراسة لا يخفى عليه إذا توسّم في منظر شخص، أو منطِقِهِ، أو شمائله، ما أبطن^(١) به اختصاصه بصنعة أو فعل، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤].

قوله: (مخائل)، الجوهرية: يقال: أخلت فيه خالاً من الخير، وتحوّلت فيه خالاً، أي: رأيت فيه محيّلته.

الأساس: أخطأت في فلانٍ محيّلتي، أي: ظنّني، ورأيت في السماء محيّلته، وهي السحابة، فخالها ماطرة لِرَعْدِها وبرقها، ورأيت فيها مخايل.

وعن بعضهم: يقال: ما أحسن محيّلته السحاب وخالته؛ أي: خلاقته للمطر، ويقال: محيّل للخير، أي: خليق له، والخال: السحاب الذي فيه مخايل المطر، أي: مظانّه.

قوله: (رؤاياه)، أي: منظره البهيّ، يُقال: من الرئي، يقال: رجل له رؤاء؛ بالضم، ونظيره قولهم: إن الجواد عينه فرائه^(٢)، أي: يُغنيك ظاهره عن اختبار باطنه، كقول عبد الله ابن رواحة في رسول الله ﷺ حين رآه: «ما هذا بوجه كذاب»^(٣)، ثم قال لنفسه:

لو لم يكن فيه آيات مبيّنة كانت بدهته تنيك بالحير

ويُروى: «تغنيك».

(١) في (ط): «ما نظن».

(٢) ويُروى بكسر الفاء. وهو النظرُ إلى أسنان الدابة لمعرفة قدر سنّها. انظر: «مجمع الأمثال» (١: ٩).

(٣) ليس هذا من كلام عبد الله بن رواحة، بل هو من كلام عبد الله بن سلام، وهو ثابتٌ صحيحٌ أخرجه أحمد في «المسند» (٢٣٧٨٤) وابن ماجه (١٣٣٤) والترمذي (٢٤٨٥) وقال: حديثٌ صحيح.

واجبةٌ فيهما جميعاً، لأنّ مواضع السجدة؛ إمّا أمرٌ بها، أو مدحٌ لمن أتى بها، أو ذمٌّ لمن تركها، وإحدى القراءتين أمرٌ بالسُّجود، والأخرى ذمٌّ للتَّارِك. وقد اتَّفَقَ

قوله: (وإحدى القراءتين أمرٌ بالسُّجود، والأخرى ذمٌّ للتَّارِك)، يريدُ القراءةَ بتخفيف ﴿الْأَيْسُجُدُوا﴾ وبتثقيها، وقلت: أمّا المعنى على التثقيل وبيانِ الذمِّ، فإنّ الهدهدَ أخبرَ نبيَّ الله أنه وجد قومًا مُرتكبينَ أمرًا فظيعًا؛ حيث يسجدون لِمَا لا ينبغي السُّجودُ له، ويمتنعون عن سُجودٍ من يجبُ عليهم سُجودُه^(١)، ثمَّ بينَ لهم بعضَ وجهِ امتناعهم عن السُّجودِ لله تعالى إلى السُّجودِ للغير بقوله: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ لأنّ الواوَ تقتضي مَعطوفًا عليه هو سببٌ لِمَا تقدّم، المعنى: ذلك بأنّ الله رَقَمَ عليهم الشقاوةَ وحرَمَهُمُ التَّوْفِيقَ، وسلَطَ عليهمُ الشَّيْطَانَ حتّى زَيَّنَ لهمُ الكُفْرَ؛ فسجدوا لِمَنْ لا يَسْتَحِقُّه؛ لكونه مخلوقًا مسخرًا؛ فصَدَّهُم عن الطَّريقِ المستقيمِ بأنِ امتنعوا عن السُّجودِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّه؛ لتفَرُّده بكمالِ القُدرةِ من إخراجِ الحَبِّ من الأرضِ والسَّمَاوَاتِ، وشمولِ العلمِ بالحَقِيقَاتِ.

والمعنى على التَّخفيف: إذا كان «الْأَيْسُجُدُوا» من كلامِ الهدهدِ، فالمخاطبون إمّا بلقيسُ وقومُها، وهم غيِّبٌ، فإنّ الهدهدَ عند هذا التَّقريرِ احتَمَى وَغَضِبَ عليهمُ الله تعالى، فجعلهم حُضَارًا، والتفت إليهم فكافحهم به، وواجههم، أو نبّه من بحضرةِ نبيِّ الله؛ ليثبتوا على ما هم فيه، ويغتنموا فرصةَ الإسلامِ.

وأما قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فكالاستدراك والترقي؛ فإنّ الهدهدَ لَمَّا وَصَفَ الله تعالى بها في خِزَانَةِ خَيَالِهِ من إخراجِ الحَبِّ رأى بعد ذلك تقصيره في ذلك الرُّتْبِ؛ لأنّ السُّجودَ غايةَ الحُضُوعِ والتَّذَلُّلِ، ولا يَسْتَوْجِبُهُ إِلَّا مَنْ له غايةُ الجلالِ والعظمةِ والكبرياءِ، فثنى إلى قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، ولذلك قطعهُ من الأوصافِ الجاريةِ على الله، وأتى باسمِ الذاتِ الجامعةِ، وقرنه بكلمةِ التَّوْحِيدِ، وأردفَهُ بقوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

قال الجوهريُّ: المعنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا. وقال بعضهم: إن «يا» في هذا الموضع

(١) كذا في النسخ الخطية، وهي لغة ركيكة، فإن «سجد» فعل لازم لا يتعدى بنفسه.

أبو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيَّ رَحِمَهُمَا اللهُ عَلَى أَنْ سَجَدَاتِ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ عَشْرَةٌ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَا فِي سَجْدَةِ ﴿ص﴾ - فَهِيَ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ سَجْدَةٌ تِلَاوَةٌ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ: سَجْدَةٌ شُكْرٌ - وَفِي سَجْدَتِي سُورَةِ الْحَجِّ، وَمَا ذَكَرَهُ الرَّجَّاجُ مِنْ وُجُوبِ السَّجْدَةِ مَعَ التَّخْفِيفِ دُونَ التَّشْدِيدِ، فَغَيْرُ مَرْجُوعٍ إِلَيْهِ. فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَفْرُقُ الْوَاقِفُ بَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ؟ قُلْتَ: نَعَمْ إِذَا خَفَّفَ وَاقِفٌ وَقَفَّ عَلَى: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ثُمَّ ابْتَدَأَ (أَلَا يَا اسْجُدُوا)، وَإِنْ شَاءَ وَقَفَّ عَلَى (أَلَا يَا)، ثُمَّ ابْتَدَأَ (اسْجُدُوا) وَإِذَا شَدَّدَ لَمْ يَقِفْ إِلَّا عَلَى ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾. فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَوَّى الِهُدُودَ بَيْنَ عَرْشِ بَلْقَيْسَ وَعَرْشِ اللهِ فِي الْوَصْفِ بِالْعِظَمِ؟ قُلْتَ: بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ بَوْنٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ وَصْفَ عَرْشِهَا بِالْعِظَمِ: تَعْظِيمٌ لَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى عُرُوشِ آبَائِ جِنْسِهَا مِنَ الْمُلُوكِ. وَوَصْفُ عَرْشِ اللهِ بِالْعِظَمِ: تَعْظِيمٌ لَهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى

إِنَّمَا هُوَ لِلتَّنْبِيهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: «أَلَا اسْجُدُوا» فَلَمَّا أَدْخَلَ عَلَيْهَا «يَا» لِلتَّنْبِيهِ سَقَطَتِ الْأَلْفُ الَّتِي فِي «اسْجُدُوا»؛ لِأَنَّهَا أَلْفٌ وَضَلَّ، وَذَهَبَتِ الْأَلْفُ الَّتِي فِي «يَا» لِاجْتِمَاعِ السَّاكِنِينَ؛ لِأَنَّهَا وَالسَّيْنُ سَاكِنَانِ.

قال ذو الرُّمَّة: «أَلَا يَا اسْلَمِي» الْبَيْتَ.

قال الإمام: قال أهل التَّحْقِيقِ: قَوْلُهُ: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيُوضِّفْهُ تَعَالَى بِهَا يَوْجِبُ أَنْ يَكُونَ السُّجُودُ لَهُ، وَهُوَ كَوْنُهُ قَادِرًا عَلَى إِخْرَاجِ الْحَبِّ عَالِمًا بِالْأَسْرَارِ مَعْنَى (١).

قَوْلُهُ: (فَغَيْرُ مَرْجُوعٍ إِلَيْهِ)، قِيلَ: لِأَنَّ الرَّجَّاجَ تَوَهَّمُ أَنَّ مَعَ التَّخْفِيفِ صَيغَةَ أَمْرٍ، وَهُوَ لِلْوُجُوبِ، وَمَعَ التَّشْدِيدِ لَيْسَ كَذَلِكَ، وَفِي كَلَامِ الْمَصْنُفِ ذَمُّ التَّارِكِ إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِمُ: الْوَاجِبُ مَا يُدْمُ تَارِكُهُ شَرْعًا، وَرَدُّ لِقَوْلِ الرَّجَّاجِ قَالَ الْقَاضِي: وَعَلَى الْوَجْهَيْنِ يَقْتَضِي وُجُوبَ السُّجُودِ فِي الْجُمْلَةِ لَا عِنْدَ قِرَاءَتِهَا (٢).

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٥٥٢).

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٦٤).

سائر ما خَلَقَ من السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَقُرِئَ: ﴿الْمَعْطِيمَ﴾ بِالرَّفْعِ.

[﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ * أَذْهَبَ بِكَتْمِي هَكَذَا فَأَلْفَنَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ٢٧-٢٨]

﴿سَنَنْظُرُ﴾ من النَّظَرِ الَّذِي هُوَ التَّأْمُلُ وَالتَّصَفُّحُ. وَأَرَادَ: أَصَدَقْتَ أَمْ كَذَبْتَ، إِلَّا أَنَّ ﴿كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أْبْلَغَ، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعْرُوفًا بِالْأَنْخِرَاطِ فِي سَلْكِ الْكَاذِبِينَ؛ كَانَ كَاذِبًا لَا مَحَالَةَ، وَإِذَا كَانَ كَاذِبًا أَتَمَّهُم بِالْكَذِبِ فِيمَا أُخْبِرَ بِهِ فَلَمْ يُوثِقْ بِهِ. ﴿تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾

قوله: (من النَّظَرِ الَّذِي هُوَ التَّأْمُلُ وَالتَّصَفُّحُ)، وعن بعضهم: النَّظَرُ تَقْلِيْبُ الْحَدَقَةِ إِلَى الْمَرْثِيِّ، وَيُعَدَى بِـ«إِلَى».

قال الشاعر:

إِنِّي إِلَيْكَ لِسَمَا وَعَدَتَ لِنَاظِرٍ نَظَرَ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنِيِّ الْوَاجِدِ^(١)

وَالنَّظَرُ: تَأْمُلُ الشَّيْءَ بِالْعَيْنِ، وَيُعَدَى بِـ«فِي»، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وَمِنْهُ نَظَرَ فِي الْكِتَابِ، وَيُقَالُ: نَظَرَ لَهُ، أَي: تَعَطَّفَ، وَمِنْ كَلَامِ الْمَأْمُونِ: مَا أَحْوَجَنِي [إِلَى] ثَلَاثِ: صَدِيقٍ أَنْظَرَ إِلَيْهِ، وَفَقِيرٍ أَنْظَرَ لَهُ، وَكِتَابٍ أَنْظَرَ فِيهِ.

الرَّاعِبُ: النَّظَرُ تَقْلِيْبُ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرَةُ لِإِدْرَاكِ الشَّيْءِ وَرُؤْيِيهِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ التَّأْمُلُ وَالْفَحْصُ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْمَعْرِفَةُ الْحَاصِلَةُ بَعْدَ الْفَحْصِ. وَاسْتِعْمَالُ النَّظَرِ فِي الْبَصَرِ أَكْثَرُ عِنْدَ الْعَامَّةِ، وَفِي الْبَصِيرَةِ أَكْثَرُ عِنْدَ الْخَاصَّةِ، وَالنَّظِيرُ: الْمَثِيلُ، وَأَصْلُهُ الْمُنَاطِرُ وَكَأَنَّهُ يَنْظُرُ كُلُّ صَاحِبِهِ قِيَابَرِيهِ، وَالْمُنَاطِرَةُ: الْمُبَاحَثَةُ وَالْمُبَارَاةُ فِي النَّظَرِ، وَاسْتِحْضَارُ كُلِّ مَا يَرَاهُ بِبَصِيرَتِهِ، وَالنَّظَرُ: الْبَحْثُ، وَهُوَ أَعْمٌ مِنَ الْقِيَاسِ^(٢).

(١) لم أهدئ إلى قائله.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٨١٢-٨١٤ بتصرف ملحوظ.

تَنَحَّ عَنْهُمْ إِلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ تَتَوَارَى فِيهِ، لِيَكُونَ مَا يَقُولُونَهُ بِمَسْمُوعٍ مِنْكَ. ﴿وَيَرْجِعُونَ﴾
 مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١] فَيُقَالُ: دَخَلَ عَلَيْهَا مِنْ
 كَوَّةٍ فَأَلْقَى الْكِتَابَ إِلَيْهَا وَتَوَارَى فِي الْكَوَّةِ. فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ، عَلَى لَفْظِ
 الْجَمْعِ؟ قُلْتَ: لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَجَدْتُهُمْ وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾؛ فَقَالَ: فَأَلْقَاهُ إِلَى الَّذِينَ
 هَذَا دِينُهُمْ؛ اهْتِمَاماً مِنْهُ بِأَمْرِ الدِّينِ، وَاشْتِغَالاً بِهِ عَنْ غَيْرِهِ. وَبُنِيَ الْخِطَابُ فِي الْكِتَابِ
 عَلَى لَفْظِ الْجَمْعِ؛ لِذَلِكَ.

[﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِنَّيَأَلْقِي إِلَيْكُم كَرِيْمًا﴾ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
 الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُوْا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ٢٩-٣١]

﴿كَرِيْمًا﴾ حَسَنَ مَضْمُونُهُ وَمَا فِيهِ، أَوْ وَصَفْتُهُ بِالْكَرَمِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ مَلِكٍ كَرِيْمٍ، أَوْ

قَوْلُهُ: (حَسَنَ مَضْمُونُهُ وَمَا فِيهِ)، أَي: أَنْ مَعْنَاهُ حَسَنٌ، وَكِتَابَتُهُ وَتَرْتِيبُهُ، وَمَا يُتَوَخَّى
 فِي مِثْلِهِ الْحَسَنُ مَجْمُوعٌ فِيهِ؛ لِأَنَّ مَرَّ فِي «الشُّعْرَاءِ» أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا وُصِفَ بِالْكَرَمِ، كَانَ الْمُرَادُ
 أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ فَاتِقٌ^(١) فِي بَابِهِ فَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ إِلَى ﴿مُسْلِمِينَ﴾
 بَيَانٌ لِمَا فِي الْكِتَابِ، كَمَا صَرَحَ بِهِ الزَّجَاجُ، كَأَنَّهَا لَمَّا قَالَتْ: ﴿إِنَّيَأَلْقِي إِلَيْكُم كَرِيْمًا﴾ أَي: حَسَنَ
 مَضْمُونَهُ وَمَا فِيهِ، اتَّجَهَ لِسَائِلِ أَنْ يَقُولَ: بَيَّنِّي لِي مَضْمُونَهُ وَمَا فِيهِ، أَجَابَتْ: فِيهِ ﴿إِنَّهُ مِنْ
 سُلَيْمَانَ﴾، فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ مَبْتَدَأٌ خَبَرَهُ مَحذُوفٌ، أَمَا عَلَى الْفَتْحِ فَظَاهِرٌ، وَأَمَا عَلَى
 الْكَسْرِ فَعَلَى تَأْوِيلٍ: فِيهِ هَذَا اللَّفْظُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ﴾ عَلَى قِرَاءَةِ الْفَتْحِ
 وَالْكَسْرِ، فَعَلَى هَذَا «أَنْ» فِي ﴿أَلَا تَعْلَمُوْا﴾ نَاصِبَةٌ، أَي: فِيهِ أَنْ لَا تَعْلَمُوا، وَإِنَّمَا لَمْ يَأْتِ بِحَرْفِ
 النِّسْقِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْجَمْلَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ كَالْتَمَهِيدِ لِلثَّلَاثَةِ، لِأَنَّهَا الْمَقْصُودَةُ بِالذَّاتِ، وَلِذَلِكَ
 عَطَفَ الْأَمْرَ عَلَى النَّهْيِ عَلَى سَبِيلِ الطَّرْدِ وَالْعَكْسِ تَأَكِيدًا، فَعَلِمَ مِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ أَنَّ مَا فِي
 كَلَامِ اللَّهِ الْمَجِيدِ مَخْتَصَرٌ مِمَّا فِي كِتَابِ نَبِيِّ اللَّهِ، وَذَكَرَ مَا هُوَ أَهَمُّ وَأَعْنَى، وَيَعْضُدُهُ جَوَابُ
 جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى حِينَ سَأَلَ عَنْ أَوْجَزِ كَلَامٍ فَتَلَا آيَةً، فَقَالَ: جَمَعَ اللَّهُ فِيهَا الْعُنْوَانَ وَالْكِتَابَ

(١) فِي (ط): «أَنَّ ذَلِكَ الشَّيْءَ وَصَفَ فَاتِقٌ»، وَلَهَا وَجْهٌ صَحِيحٌ أَيْضًا.

مُحْتَمٍ. قَالَ ﷺ: «كَرُمَ الْكِتَابِ حَتْمُهُ». وَكَانَ ﷺ يَكْتُبُ إِلَى الْعَجَمِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ إِلَّا كِتَابًا عَلَيْهِ خَاتَمٌ، فَاصْطَنَعَ خَاتَمًا. وَعَنْ ابْنِ الْمُفَفَّعِ: مَنْ كَتَبَ إِلَى أَخِيهِ كِتَابًا وَلَمْ يَحْتَمِهِ فَقَدْ اسْتَحَفَّ بِهِ. وَقِيلَ: مُصَدَّرٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

هُوَ اسْتِثْنَاءٌ وَتَبْيِينٌ لِمَا أَلْقَى إِلَيْهَا، كَأَنَّهَا لَمَّا قَالَتْ: إِنِّي أَلْقِي إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ، قِيلَ لَهَا: مَمَّنْ هُوَ؟ وَمَا هُوَ؟ فَقَالَتْ: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ: كَيْتٌ وَكَيْتٌ.

وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: (وَإِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ) عَطْفًا عَلَى: ﴿إِنِّي﴾. وَقُرِيَ: (أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ) وَأَنَّهُ) بِالْفَتْحِ؛ عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ ﴿كَيْتٌ﴾، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَلْقَى إِلَيَّ أَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ. وَيَجُوزُ أَنْ تُرِيدَ: لِأَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَلِأَنَّهُ، كَأَنَّهَا عَلَّلَتْ كَرَمَهُ بِكُونِهِ مِنْ سُلَيْمَانَ، وَتَصْدِيرَهُ بِاسْمِ اللَّهِ.

وَالْحَاجَةُ، وَهَذَا أَوْلَى مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُصَنِّفُ، فَإِنَّهُ وَإِنْ أَصَابَ فِي قَوْلِهِ: «اسْتِثْنَاءٌ وَتَبْيِينٌ»، لَكِنَّهُ ذَهَلَ عَنِ طَرِيقِ السُّؤَالِ، حَيْثُ قَالَ: «مَمَّنْ هُوَ وَمَا هُوَ؟»، وَلَمْ يَقُلْ: «مَا فِيهِ؟»؛ لِمَا يَشْعُرُ مِنْ قَوْلِهِ أَلَّا يَكُونُ ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ مَكْتُوبًا فِي الْكِتَابِ، عَلَى أَنَّهُ صَرَحَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوبًا فِيهِ: مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ إِلَى بَلْقَيْسَ، وَكَذَا عَنِ الرَّجَاجِ (١)، وَقَالَ: لِذَا كَتَبَ النَّاسُ: «مِنْ عَبْدِ اللَّهِ»، احْتِدَاءً بِكِتَابِ سُلَيْمَانَ (٢).

قَوْلُهُ: (وَكَانَ ﷺ يَكْتُبُ إِلَى الْعَجَمِ)، الْحَدِيثُ، مِنْ رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ عَنِ أَنَسِ قَالَ: أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهِمْ؛ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لَا يَقْرَأُونَ كِتَابًا إِلَّا مَحْتَمًا؛ فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ، وَنَقَشَهُ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ. وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: أَرَادَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى الْعَجَمِ، قِيلَ لَهُ: إِنَّ الْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ إِلَّا كِتَابًا عَلَيْهِ خَاتَمٌ، فَاصْطَنَعَ خَاتَمًا (٣).

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١١٨).

(٢) مِنْ قَوْلِهِ: «فَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ إِلَى هُنَا، سَقَطَ مِنْ (ح) وَ(ف).

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥) وَمُسْلِمٌ (٢٠٩٢) وَأَبُو دَاوُدَ (٤٢١٤) وَالنَّسَائِيُّ (٨: ١٧٤).

وَقَرَأَ أَبِي: (أَنْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَأَنْ بِسْمِ اللَّهِ)، عَلَى أَنْ الْمَفْسَّرَةَ. وَ (أَنْ) فِي ﴿أَلَا تَعْلَمُونَ﴾ مَفْسَّرَةٌ أَيْضًا. (لَا تَعْلَمُونَ): لَا تَتَكَبَّرُوا كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِالْغَيْنِ مُعْجَمَةً؛ مِنَ الْغُلُوبِ: وَهُوَ مُجَاوِزَةٌ الْحَدِّ. يَرُودُ أَنْ نُسخَةَ الْكِتَابِ: مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ إِلَى بَلْقَيْسَ مَلِكَةِ سَبَأَ: السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَا بَعْدَ: فَلَا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَاتَّوْبَنِي مُسْلِمِينَ. وَكَانَتْ كُتِبَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَمَلًا لَا يُطِيلُونَ وَلَا يُكْثِرُونَ، وَطَبَعَ الْكِتَابَ بِالْمَسْكِ وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ، فَوَجَدَهَا الْهُدُودُ رَاقِدَةً فِي قَصْرِهَا بِمَأْرَبَ، وَكَانَتْ إِذَا رَقَدَتْ غَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَوَضَعَتْ الْمَفَاتِيحَ تَحْتَ رَأْسِهَا، فَدَخَلَ مِنْ كُوَّةٍ وَطَرَحَ الْكِتَابَ عَلَى نَحْرِهَا وَهِيَ مُسْتَلْقِيَةٌ. وَقِيلَ: «نَقَرَهَا فَانْتَبَهَتْ فَرِزَعَةً». وَقِيلَ: أَتَاهَا وَالْقَادَةُ وَالْجُنُودُ حَوَالِيهَا، فَرَفَرَفَ سَاعَةً وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ حَتَّى رَفَعَتْ رَأْسَهَا، فَأَلْقَى الْكِتَابَ فِي حِجْرِهَا، وَكَانَتْ قَارِئَةً كَاتِبَةً عَرَبِيَّةً مِنْ نَسْلِ تَبَعِ بْنِ شُرَاحِيلَ

قَوْلُهُ: (وَكَانَتْ كُتِبَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَمَلًا لَا يُطِيلُونَ، وَلَا يُكْثِرُونَ)^(١)، وَقَالَ الْقَاضِي: هَذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ الْوَجَازَةِ، مَعَ كِمَالِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقْصُودِ؛ لِاسْتِثْنَائِهِ عَلَى الْبَسْمَلَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَاتِ الْإِلَهِ^(٢) وَصِفَاتِهِ، صَرِيحًا أَوْ التِّزَامًا، وَالنَّهْيِ عَنِ التَّرْفُّعِ الَّذِي هُوَ أُمَّ الرَّدَائِلِ، وَالْأَمْرِ بِالْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ الْجَامِعُ لِأُمَّهَاتِ الْفَضَائِلِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ فِيهِ بِالْإِنْقِيَادِ قَبْلَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى رِسَالَتِهِ حَتَّى يَكُونَ اسْتِدْعَاءً لِلتَّقْلِيدِ، فَإِنْ إِقَاءَ الْكِتَابَ إِلَيْهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ مِنْ أَعْظَمِ الدَّلَالَةِ^(٣)، وَهُوَ تَلْخِيصُ كَلَامِ الْإِمَامِ^(٤).

قَوْلُهُ: (فَرَفَرَفَ)، الْجَوْهَرِيُّ: رَفَرَفَ الطَّائِرُ: إِذَا حَرَّكَ جَنَاحَيْهِ حَوْلَ الشَّيْءِ يَرِيدُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ.

(١) زاد في (ح) و(ف) هنا: «روي أنه سئل جعفر بن يحيى عن أوجز كلام... الحاجة»، فذكر ما تقدم قبل قليل، وقد أثبتته من (ط)، كما سلف التنبيه إليه.

(٢) وفي «أنوار التنزيل»: «في ذات الصانع تعالى».

(٣) «أنوار التنزيل» (٢: ٢٦٦).

(٤) يعني الفخر الرازي في «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٥٥٤).

الْحَمِيرِي؛ فَلَمَّا رَأَتْ الْخَاتَمَ ارْتَعَدَتْ وَخَضَعَتْ، وَقَالَتْ لِقَوْمِهَا مَا قَالَتْ: ﴿مُسْلِمِينَ﴾ مُتْقَادِينَ، أَوْ مُؤْمِنِينَ.

[﴿قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ ٣٢]

الْفَتْوَى: الْجَوَابُ فِي الْحَادِثَةِ، اسْتُتْقَتْ عَلَى طَرِيقِ الْاسْتِعَارَةِ مِنَ الْفَتَاءِ فِي السَّنِّ. وَالْمُرَادُ بِالْفَتْوَى هَاهُنَا: الْإِشَارَةُ عَلَيْهَا بِهَا عِنْدَهُمْ فِيمَا حَدَّثَ لَهَا مِنَ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ، وَقَصِدَتْ بِالْانْقِطَاعِ إِلَيْهِمْ وَالرُّجُوعِ إِلَى اسْتِشَارَتِهِمْ وَاسْتِطْلَاعِ آرَائِهِمْ: اسْتِعْطَافُهُمْ وَتَطْيِيبِ نَفُوسِهِمْ لِيُثَوِّمُوا وَيَقُومُوا مَعَهَا. ﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾: فَاصِلَةٌ. وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ

قَوْلُهُ: (اسْتُتْقَتْ عَلَى طَرِيقِ الْاسْتِعَارَةِ مِنَ الْفَتَى فِي السَّنِّ)، الْمَغْرِبُ: وَاسْتِشْقَاقُ الْفَتْوَى مِنَ الْفَتَى؛ لِأَنَّهَا جَوَابٌ فِي حَادِثَةٍ، أَوْ إِحْدَاثٍ حُكْمٍ، أَوْ تَقْوِيَةٍ لِبَيَانِ مُشْكِلٍ^(١).

الْجَوْهَرِيُّ: فَتَى - بِالْكَسْرِ - يَفْتِي فَتَى فَهُوَ فَتَى السَّنِّ بَيْنَ الْفَتَاءِ. عَنْ بَعْضِهِمْ: الْفَتَاءُ: هُوَ الْحَادِثَةُ وَاللَّدَاذَةُ، قَالَ:

إِذَا عَاشَ الْفَتَى مَثْبِينَ عَامًا فَقَدْ ذَهَبَ اللَّذَاذَةُ وَالْفَتَاءُ^(٢)

وَقُلْتُ: فَعَلَى هَذِهِ الْجِهَةِ الْجَامِعَةَ بَيْنَ الْمُسْتَعَارِ وَالْمُسْتَعَارِ لَهُ، إِذَا الْإِحْدَاثُ كَمَا يُقَالُ لِلْفَتَى: هُوَ حَدِيثُ السَّنِّ، أَوْ الْقُوَّةُ، فَإِنَّ فِي الْفَتَى مَظَنَّةَ الْقُوَّةِ وَالشَّدَّةِ.

وَفِي كَلَامِ الْمَصْنُفِ أَيْضًا إِشَارَةٌ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنِيَيْنِ؛ فَقَوْلُهُ: «فِيمَا حَدَّثَ لَهَا مِنَ الرَّأْيِ» إِشَارَةٌ إِلَى الْأَوَّلِ، وَقَوْلُهُ: «لِيُثَوِّمُوا وَيَقُومُوا مَعَهَا»، إِشَارَةٌ إِلَى الثَّانِي، وَقَالَ صَاحِبُ «المَطْلَعِ»: فَكَأَنَّ الْإِفْتَاءَ الْإِشَارَةَ عَلَى الْمُسْتَفْتَى فِيمَا حَدَّثَ لَهُ مِنَ الْحَادِثَةِ، بِهَا عِنْدَ الْمُفْتَى مِنَ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ، وَهُوَ إِزَالَةُ مَا حَدَّثَ لَهُ مِنَ الْإِشْكَالِ، كَالْإِشْكَاءِ: إِزَالَةُ الشُّكُوفِ.

قَوْلُهُ: (لِيُثَوِّمُوا)، الْجَوْهَرِيُّ: قَالَ أَبُو زَيْدٍ: مَا لَأْتَهُ عَلَى الْأَمْرِ مُمْلَأَةً: سَاعَدْتُهُ عَلَيْهِ، وَشَايَعْتُهُ.

(١) «المغرب في ترتيب المعرب» (٢: ١٢٢).

(٢) «للربيع بن صبيح الفزاري كما في «لسان العرب» (فتى).

مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (قَاضِيَةٌ) أَي: لَا أَبْتُ أَمْرًا إِلَّا بِمَحْضَرِكُمْ. وَقِيلَ: كَانَ أَهْلُ مَشُورَتِهَا ثَلَاثِمِثَةً وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا: كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى عَشْرَةِ آلَافٍ.

﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَيِّنْ شَدِيدُوا وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [٣٣]

أَرَادُوا بِالْقُوَّةِ: قُوَّةَ الْأَجْسَادِ وَقُوَّةَ الْأَلَاتِ وَالْعُدَدِ. وَبِالْبَاسِ: النَّجْدَةَ وَالبَلَاءَ فِي الْحَرْبِ ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ ﴾ أَي: هُوَ مَوْكُؤَلٌ إِلَيْكَ، وَنَحْنُ مُطِيعُونَ لَكَ، فَمُرِينَا بِأَمْرِكَ نُطِيعُكَ وَلَا نُخَالِفُكَ؛ كَأْتَمُّهُمْ أَشَارُوا وَعَلَيْهَا بِالْقِتَالِ. أَوْ أَرَادُوا: نَحْنُ مِنْ أَبْنَاءِ الْحَرْبِ لَا مِنْ أَبْنَاءِ الرَّأْيِ وَالْمَشُورَةِ، وَأَنْتِ ذَاتُ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ، فَانظُرِي مَاذَا تَرِينِ: تَتَّبِعِ رَأْيَكَ.

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَازَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ أَنْفَرُونَ ﴿ ٣٤-٣٦ ﴾

لَمَّا أَحْسَسَتْ مِنْهُمْ الْمَيْلَ إِلَى الْمُحَارَبَةِ، رَأَتْ مِنَ الرَّأْيِ الْمَيْلَ إِلَى الصُّلْحِ وَالابْتِدَاءِ بِمَا هُوَ أَحْسَنُ، وَرَتَّبَتْ الْجَوَابَ، فزَيْفَتْ أَوْ لَأ مَا ذَكَرُوهُ، وَأَرْتَمَهُمُ الحِطْأَ فِيهِ؛ بـ ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ

ابْنُ السَّكَيْتِ: تَمَالَّوْا عَلَى الْأَمْرِ: اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَتَعَاوَنُوا^(١).

قَوْلُهُ: (قُوَّةُ الْأَجْسَادِ وَقُوَّةُ الْأَلَاتِ)، الرَّاعِبُ: الْقُوَّةُ تُسْتَعْمَلُ تَارَةً فِي مَعْنَى الْقُدْرَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة: ٦٣]، وَتَارَةً لِلتَّهَيُّؤِ الْمَوْجُودِ فِي الشَّيْءِ، نَحْوُ أَنْ يُقَالَ: النَّوَى بِالْقُوَّةِ نَحَلٌّ، وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْبَدَنِ نَحْوُ: ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، وَفِي الْقَلْبِ نَحْوُ: ﴿ بَيِّنْ حَيْثُ خُذَ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢]، وَفِي الْمَعَاوِنِ مِنْ خَارِجِ نَحْوُ: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ [هود: ٨٠]، وَفِي الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ نَحْوُ: ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٨]^(٢).

(١) «إصلاح المنطق» لابن السكيت ص ١١٥.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٩٣-٦٩٤.

إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴿١﴾ عُنُوًّا وَقَهْرًا ﴿٢﴾ أَفْسَدُوهَا ﴿٣﴾ أَي: خَرَّبُوهَا - وَمِنْ ثَمَّ قَالُوا لِلْفَسَادِ: الْخَرْبَةَ - وَأَذَلُّوا أُعِزَّتْهَا، وَأَهَانُوا أَشْرَفَهَا؛ وَقَتَلُوا وَأَسْرَوْا، فَذَكَرَتْ لَهُمْ عَاقِبَةَ الْحَرْبِ وَسُوءَ مَغْيَبَتِهَا، ثُمَّ قَالَتْ: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٤﴾ أَرَادَتْ: وَهَذِهِ عَادَتُهُمُ الْمُسْتَمِرَّةُ الثَّابِتَةُ الَّتِي لَا تَتَّعَيَّرُ، لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي بَيْتِ الْمَلِكِ الْقَدِيمِ، فَسَمِعَتْ نَحْوَ ذَلِكَ وَرَأَتْ، ثُمَّ ذَكَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ حَدِيثَ الْهَدْيَةِ وَمَا رَأَتْ مِنَ الرَّأْيِ السَّيِّدِ. وَقِيلَ: هُوَ تَصْدِيقٌ مِنَ اللَّهِ لِقَوْلِهَا،

قوله: (قالوا للفساد: الخربة)، الأساس: وبلد خراب، وهو صاحب خربة، أي: فساد، وريبة، قال قيس بن النعمان:

لَسَى اللَّهُ أَدْنَانًا إِلَى كُلِّ خَرْبَةٍ وَأَبْطَانًا فِي سَاحَةِ الْمَجْدِ أَقْدَحًا^(١)

وما رأينا من فلانٍ خربةً في دينه.

قوله: (وسوء مغيبتها)، الجوهري: وقد غببت الأمور، أي: صارت إلى أواخرها.

قوله: (أرادت: هذه^(٢) عادتهم المستمرة الثابتة)، يُشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] الجملة كالتذييل للكلام السابق والتقرير له.

قوله: (وقيل: هو تصديق من الله لقولها)، قال الراغب في «غرة التنزيل»^(٣): ويجوز أن يكون خبراً عن الله تعالى بخبر نبينا صلوات الله عليه فيعترض بين جمل ما يحكى تصديقاً لها، ثم قال عائداً إلى حكاية قولها: ﴿وَأَيُّ مُرْسَلَةٍ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٣٥] ويجوز أن يكون من الحكاية على معنى أن الملوكة تأثروهم في القرى التي يدخلونها تخريبها، وكذلك يفعل هؤلاء، يعني: سليمان عليه السلام وخيله.

(١) ذكره الزمخشري في «أساس البلاغة» (خرب).

(٢) كذا في الأصول الخطية، وكذا هو في نص «الكشاف» من (ط)، لكن في الأصل الخطي من «الكشاف» وفي المطبوع: «وهذه».

(٣) يعني: «درة التنزيل وغرة التأويل»، وقد وقع الاختلاف في نسبه هذا الكتاب، هل هو للراغب الأصفهاني أم للخطيب الإسكافي، وقد حقق القول في هذه المسألة الدكتور محمد مصطفى أيدين في مقدمته الحافلة للكتاب (١: ٩٣) فما بعدها، وانتهى إلى أنه للخطيب الإسكافي، فانظره فإنه محرر مفيد.

وقد يتعلّق الساعون في الأرض بالفسادِ بهذه الآية ويجعلونها حجةً لأنفسهم. ومن استباح حراماً فقد كفر، فإذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين.

﴿مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ أي: مُرْسِلَةٌ رُسُلًا بهديّةٍ أصانِعُهُ بها عن مُلْكِي ﴿فَنَاطِرَةٌ﴾؛ ما يَكُونُ مِنْهُ حَتَّى أَعْمَلَ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، فَرَوِي: أَتَمَّا بَعَثَتْ خَمْسَمِئَةَ غُلَامٍ عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الْجَوَارِي، وَحُلِيِّهِنَّ الْأَسَاوِرُ وَالْأَطْوَاقَ وَالْقِرَطَةَ، رَاكِبِي خَيْلٍ مُغَشَّاةٍ بِالذَّبْيَاجِ، مُحَلَّاةٍ اللَّجْمِ وَالشَّرُوجِ بِالذَّهَبِ الْمُرْصَعِ بِالْجَوَاهِرِ، وَخَمْسَمِئَةَ جَارِيَةٍ عَلَى رِمَاكِ فِي رَيِّ الْغِلْمَانِ، وَأَلْفَ لَبَنَةٍ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَتَاجًا مُكَلَّلًا بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ الْمُرْتَفِعِ وَالْمَسْكِ وَالْعَنْبَرِ، وَحَقًّا فِيهِ دُرَّةٌ عَذْرَاءٌ، وَجَزَعَةٌ مُعْوجَةٌ الثَّقْبِ، وَبَعَثَتْ رَجُلَيْنِ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهَا: الْمُنْدَرِ بْنِ عَمْرٍو، وَآخَرَ ذَا رَأْيٍ وَعَقْلٍ، وَقَالَتْ: إِنْ كَانَ نَبِيًّا مَيِّزًا بَيْنَ الْغِلْمَانِ وَالْجَوَارِي، وَنَقَبَ الدُّرَّةَ نَقْبًا مُسْتَوِيًا، وَسَلَّكَ فِي الْحَزْرَةَ حَيْطًا، ثُمَّ قَالَتْ لِلْمُنْدَرِ: «إِنْ نَظَرَ إِلَيْكَ نَظَرَ غَضْبَانٍ فَهُوَ مَلِكٌ؛ فَلَا يَهْوُلَنَّكَ، وَإِنْ رَأَيْتَهُ بَشَأً لَطِيفًا فَهُوَ نَبِيٌّ»، فَأَقْبَلَ

وقلت: على هذا الوجه ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] ليس بتذييل، وعلى ما ذكره المصنّف في الوجهين السابقين تذييل.

قيل: على أن يكون من كلام الله تعالى الوقف على ﴿أَدَلَّةٌ﴾ لاختلاف القائلين، وعلى أن يكون من كلامها لا يُوقَفُ.

قوله: (أصانِعُهُ بها)، الأساس: ومن المجاز: صانعتُ فلانًا: إذا داريته^(١)، ومنه: المُصانعةُ بالرشوة، وفَرَسَ مُصانِعًا: لا يُعْطِيكَ جَمِيعَ ما عِنْدَهُ مِنَ السَّرِّ كَأَنَّهُ يُرَافِقُكَ بِمَا يُبْذَلُ مِنْهُ، وَيَصُونُ بَعْضَهُ.

قوله: (والقِرَطَةُ)، الجوهريُّ: القِرَطُ: الذي يُعَلَّقُ فِي شَحْمَةِ الْأُذُنِ، وَالْجَمْعُ قِرَطَةٌ، وَقِرَاطٌ أَيْضًا، مِثْلُ: رُمِحَ وَرِمَاحٍ.

(١) في (ط): «صاريته»، وهو خطأ.

الْمُهْدُ فَأَخْبَرَ سُلَيْمَانَ، فَأَمَرَ الْجِنَّ فَضَرَبُوا لَيْنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَفَرَشُوهُ فِي مَيْدَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِ طُولُهُ سَبْعَةُ فَرَاسِخٍ، وَجَعَلُوا حَوْلَ الْمَيْدَانِ حَائِطًا شَرَفُهُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَمَرَ بِأَحْسَنِ الدَّوَابِّ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَزَبَطُوهَا عَنْ يَمِينِ الْمَيْدَانِ وَيَسَارِهِ عَلَى اللَّيْنِ، وَأَمَرَ بِأَوْلَادِ الْجِنَّ؛ وَهُمْ خَلَقَ كَثِيرًا فَأَقِيمُوا عَنِ الْيَمِينِ وَالْيَسَارِ، ثُمَّ قَعَدَ عَلَى سَرِيرِهِ وَالْكَرَاسِيِّ مِنْ جَانِبَيْهِ، وَاصْطَفَتِ الشَّيَاطِينُ صُفُوفًا فَرَاسِخٍ، وَالْإِنْسُ صُفُوفًا فَرَاسِخٍ، وَالْوَحْشُ وَالسَّبَاعُ وَالْهَوَامُّ وَالطُّيُورُ كَذَلِكَ، فَلَمَّا دَنَا الْقَوْمُ بُهِتُوا، وَرَأَوْا الدَّوَابَّ تَرُوثُ عَلَى اللَّيْنِ، فَتَقَاصَرَتْ إِلَيْهِمْ نُفُوسُهُمْ وَرَمَوْا بِهَا مَعَهُمْ، وَلَمَّا وَقَفُوا بَيْنَ يَدَيْهِ نَظَرَ إِلَيْهِمْ بِوَجْهِ طَلْقٍ وَقَالَ: مَا وَرَاءَكُمْ؟ وَقَالَ: «أَيْنَ الْحَقُّ؟» وَأَخْبَرَهُ جَبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا

قوله: (فَتَقَاصَرَتْ إِلَيْهِمْ نُفُوسُهُمْ)، الأساس: اقْتَصَرَ الْمَطْرُ: أَقْلَعَ، وَقَصَرَ فِي حَاجَتِهِ، وَقَصَرَ عَنِ مَنزِلَتِهِ، وَقَصَرَ بِهِ عَمَلُهُ، وَأَقَصَرَ عَنِ الْأَمْرِ: كَفَّ عَنْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَقَصَرَ قُصُورًا: عَجَزَ عَنْهُ، وَلَمْ يَنْلُهُ، وَتَعَدَّيْتُهُ بـ«إِلَى» فِي الْكِتَابِ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى: نَظَرَ، أَي: نَظَرُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ مُتَقَاصِرِينَ، مِنْ قَوْلِهِ: قَصَرَ عَنِ مَنزِلَتِهِ، وَقَصَرَ بِهِ عَمَلُهُ، أَوْ مِنَ الْقُصُورِ: الْعَجْزُ.

قوله: (مَا وَرَاءَكُمْ؟)، قيل: يَعْنِي: مَا كَانَ مَعَكُمْ وَرَمَيْتُمُوهُ خَلْفَكُمْ، وَقِيلَ: أَي: مَا فِي خَاطِرِكُمْ، وَمَا مُرَادِكُمْ، وَقَالَ الْمِيدَانِيُّ: قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: سَأَلَ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِي عَصَامَ بْنَ شَهْرِبْرِ حَاجِبَ^(١) النَّعْمَانَ - وَكَانَ النَّعْمَانُ مَرِيضًا - مَا وَرَاءَكَ يَا عَصَامُ؟ أَي: مَا خَلَفْتَ مِنْ أَمْرِ الْعَلِيلِ، وَمَا أَمَّاكَ مِنْ حَالِهِ؟ وَوَرَاءَ مِنَ الْأَضْدَادِ^(٢).

وقال المفضل^(٣): أَوَّلَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرِو مَلِكٍ كِنْدَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَهُ جَمَالُ ابْنَةِ عَوْفٍ وَكَمَالُهَا وَقُوَّةُ عَقْلِهَا، دَعَا امْرَأَةً يُقَالُ لَهَا: عَصَامُ، فَقَالَ: اذْهَبِي حَتَّى تَعْلَمِي

(١) فِي (ح) وَ(ف): «صَاحِب».

(٢) وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى «وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا» [الكهف: ٧٩]، وَقَالَ الْمَرْقُشُ الْأَكْبَرُ:

لَيْسَ عَلَى طَوْلِ الْحَيَاةِ نَدَمٌ وَمِنْ وَرَاءِ الْمَرَّةِ مَا يَغْلَمُ

أَي: مِنْ أَمَامِهِ. انْتَهَى. وَلِتِمَامِ الْفَائِدَةِ انْظُرْ: «الْأَضْدَاد» لابن الأنباري ص ٦٨.

(٣) الضَّبِّيُّ، كَبِيرُ رِوَاةِ الْكُوفَةِ فِي زَمَانِهِ.

فيه فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ فِيهِ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ أَمَرَ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْ شَعْرَةً وَنَفَذَتْ فِيهَا، فَجُعِلَ رِزْقُهَا فِي الشَّجَرَةِ. وَأَخَذَتْ دُودَةً بَيَضاءَ الْخَيْطِ بِفِيهَا وَنَفَذَتْ فِيهَا، فَجُعِلَ رِزْقُهَا فِي الْفَوَاكِه. وَدَعَا بِالْمَاءِ فَكَانَتْ الْجَارِيَةُ تَأْخُذُ الْمَاءَ بِيَدِهَا، فَتَجْعَلُهُ فِي الْأُخْرَى، ثُمَّ تَضْرِبُ بِهِ وَجْهَهَا، وَالْغُلَامُ كَمَا يَأْخُذُهُ يَضْرِبُ بِهِ وَجْهَهُ، ثُمَّ رَدَّ الْهَدْيَةَ، وَقَالَ لِلْمَنْذَرِ: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ، فَقَالَتْ: هُوَ نَبِيٌّ وَمَا لَنَا بِهِ طَاقَةٌ، فَشَخَّصْتُ إِلَيْهِ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ، تَحْتَ كُلِّ قَيْلٍ أَلُوفٍ. وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (فَلَمَّا جَاءَ وَ)،

لِي عِلْمَ ابْنَةِ عَوْفٍ، فَمَضَتْ فَتَنْظَرَتْ إِلَى مَا لَمْ تَرِ مِثْلَهُ قَطُّ؛ فَلَمَّا أَقْبَلَتْ قَالَ الْحَارِثُ: مَا وَارِءُكَ يَا عَصَامُ؟ قَالَتْ: صَرَّحَ^(١) الْمَخْضُضُ عَنِ الزُّبَيْدَةِ، الْقِصَّةَ إِلَى آخِرِهَا^(٢).

قَوْلُهُ: (ثُمَّ أَمَرَ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْ شَعْرَةً وَنَفَذَتْ فِيهَا)، أَي: فِي الدَّرَّةِ الْعَذْرَاءِ، وَالْفَاءُ فِي «فَأَخَذَتْ» فَصِيحَةٌ، أَي: فَتَقَبَّطَهَا، وَأَخَذَتْ شَعْرَةً وَنَفَذَتْ فِيهَا، وَلِذَلِكَ تَرَكَ الْفَاءَ فِي قَوْلِهِ: «وَأَخَذَتْ دُودَةً بَيَضاءَ الْخَيْطِ بِفِيهَا، وَنَفَذَتْ فِيهَا»، أَي: فِي الْجُرْزَعَةِ الْمُعَوَّجَةِ الثُّقْبِ.

قَوْلُهُ: (فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَيْلٍ)، النِّهَايَةُ: الْأَقْيَالُ: جَمْعُ قَيْلٍ، وَهُوَ أَحَدُ مَلُوكِ حِمْيَرَ دُونَ

الْمَلِكِ الْأَعْظَمِ.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: الْقَيْلُ: الْمَلِكُ الَّذِي لَهُ الْقَوْلُ وَالْأَمْرُ، وَأَصْلُهُ: الْقَيْلُ، فَحُقِّفَ، وَقِيلَ: مِنَ التَّقْيِيلِ: وَهُوَ التَّسْبُحُ كَمَا قِيلَ لَهُ: تَبَّعْ.

وَفِي الدُّعَاءِ: «سُبْحَانَ مَنْ تَعَطَّفَ بِالْمَجْدِ وَقَالَ بِهِ»، أَي: مَلَكٌ مِنَ الْقَيْلِ، وَفِي «النِّهَايَةِ» عَنِ الْأَزْهَرِيِّ: مَعْنَاهُ: غَلَبَ بِهِ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْقَيْلِ: الْمَلِكُ، لِأَنَّهُ يَنْفُذُ قَوْلَهُ^(٣).

(١) فِي (ج) وَ(ف): «خَرَجَ»، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ.

(٢) «مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ» (٢: ٢٦٢).

(٣) فِي النِّسْخِ الْخَطِيئَةِ: «لَا يَنْفُذُ» وَهُوَ خَطَأٌ. وَعِبَارَةُ ابْنِ الْأَثِيرِ فِي «النِّهَايَةِ» (٤: ١٢٢): «وَهُوَ الْمَلِكُ النَّافِذُ

الْقَوْلِ وَالْأَمْرِ». انْتَهَى.

﴿أَتَمِدُّونَ﴾ و﴿قُرَى﴾: بِحَذْفِ الْيَاءِ وَالْاِكْتِفَاءِ بِالْكَسْرِ وَبِالْإِدْغَامِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَتَحَجَّجُوتِي﴾^(١) وَبَنُونَ وَاحِدَةٌ: «أَتَمِدُّونِي». الْهَدِيَّةُ: اسْمُ الْمُهْدَى؛ كَمَا أَنَّ الْعَطِيَّةَ اسْمُ الْمُعْطَى، فَتُضَافُ إِلَى الْمُهْدَى وَالْمُهْدَى إِلَيْهِ، تَقُولُ: هَذِهِ هَدِيَّةُ فُلَانٍ، تَرِيدُ؛ هِيَ الَّتِي أَهْدَاهَا أَوْ أَهْدَيْتَ إِلَيْهِ، وَالْمُضَافُ إِلَيْهِ هَاهُنَا هُوَ الْمُهْدَى إِلَيْهِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَا عِنْدِي خَيْرٌ مِمَّا عِنْدَكُمْ،

قَوْلُهُ: ﴿أَتَمِدُّونَ﴾ قُرَى^(١) بِحَذْفِ الْيَاءِ وَالْاِكْتِفَاءِ بِالْكَسْرِ (ابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَالْكَسَائِيُّ، وَبِالْإِدْغَامِ حَمَزَةٌ^(٢)).

قَالَ الْقَاضِي: ﴿أَتَمِدُّونَ﴾ خَطَابٌ لِلرَّسُولِ وَمَنْ مَعَهُ، أَوْ لِلرَّسُولِ وَالْمُرْسَلِ عَلَى تَغْلِيْبِ الْمُخَاطَبِ عَلَى الْغَائِبِ^(٣).

قَالَ صَاحِبُ «الْمَطْلَعِ»: «تَمِدُّونَ» فِيهِ حَذْفُ النَّونِ الثَّانِيَةِ الَّتِي يَصْحَبُهَا ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ كَمَا فِي «قَدِي»^(٤) وَحَذْفُ الْأُولَى لِحُنٍّ؛ لِأَنَّهَا عَلَامَةٌ، وَمَنْ قَرَأَ بِنُونَيْنِ جَمَعَ بَيْنَ الْمِثْلَيْنِ، وَلَمْ يُدْغِمْ؛ لِأَنَّ الثَّانِيَةَ لَيْسَتْ بِلَازِمَةً، فَإِنَّهَا تَزَادُ مَعَ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ.

قَوْلُهُ: (وَالْمُضَافُ إِلَيْهِ هَاهُنَا هُوَ الْمُهْدَى إِلَيْهِ)، تَقْدِيرُهُ: بَلْ أَنْتُمْ بِالْإِهْدَاءِ إِلَيْكُمْ تَفْرَحُونَ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «فَلذَلِكَ تَفْرَحُونَ بِهَا تَزَادُونَ وَيُهْدَى إِلَيْكُمْ» وَفِيهِ تَعْرِيفٌ بِأَنَّ حَالَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى خِلَافِ حَالِهِمْ، وَلذَلِكَ قِيلَ: هَدِيَّةُ الْأَمْرَاءِ غُلُولٌ^(٥)، وَجِيءَ بِكَلِمَةِ

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «الْكَشَافِ»: «وَقُرَى».

(٢) يَعْنِي بَنُونَ وَاحِدَةٌ مُشَدَّدَةٌ، وَالْيَاءُ مُثَبَّتَةٌ فِي الرَّصْلِ وَالرَّوْقِ، وَالْأَصْلُ: «أَتَمِدُّونِي»: النَّونُ الْأُولَى عَلَامَةٌ الرَّفْعِ، وَالثَّانِيَةُ ضَمِيرُ الْمُتَكَلِّمِ الْمَنْصُوبِ، فَادْغَمَ النَّونَ فِي النَّونِ وَلَمْ يَحْذَفِ الْيَاءَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِفَاصِلٍ. انْتَهَى مِنْ «حِجَّةِ الْقِرَاءَاتِ» ص ٥٢٨.

(٣) «أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ» (٤: ٢٦٧).

(٤) يَرِيدُ النَّونَ السَّاقِطَةَ مِنْ «قَدْنِي»، وَنَحْوَهُ قَطْنِي بِمَعْنَى حَسْبِي. انظُرْ: «الْأَصُولُ فِي النَّحْوِ» لِابْنِ السَّرَّاجِ (٢: ١٢٢).

(٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ» (٢١٩٥٨) مَوْقُوفًا عَلَى أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَخْرَجَهُ أَبُو عَوَانَةَ فِي «الْمُسْتَخْرَجِ» (٧٠٧٣) مَوْقُوفًا عَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وذلك أن الله آتاني الدين الذي فيه الحظُّ الأوفرُّ والغنى الأوسع، وآتاني من الدنيا ما لا يُستزادُ عليه، فكيف يرضى مثلي بأن يُمدَّ بهالٍ ويصانعَ به؟

﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ قومٌ لا تعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا؛ فلذلك ﴿نَفَرَحُونَ﴾ بما تزدون ويهدى إليكم، لأن ذلك مبلغٌ همَّتكم وحالي خلافَ حالِككم؛ وما أرضى منكم بشيءٍ ولا أفرحُ به إلا بالإيمان وتركِ المجوسية. فإن قلت: ما الفرقُ بين قولك: أُمِدُّني بهالٍ وأنا أغنى منك، وبين أن تقولَه بالفاء؟ قلت: إذا قلته بالواو، فقد جعلتُ مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى واليسار، وهو مع ذلك يُمدُّني بالمال. وإذا قلته بالفاء، فقد

الإضراب، وأولى بها الضمير، وجعل مبتدأً ليُفيد، إِمَّا تَقْوِي الْحُكْمَ، أو الاختصاص، نحو: أنت عرفت.

قوله: (إذا قلته بالواو، فقد جعلتُ مخاطبي عالماً بزيادتي عليه في الغنى)^(١)؛ لأن الواو للحال، وذو الحال فاعلٌ «يُمدُّني» والحال مقيدة؛ فيكون فاعل المقيد^(٢) عالماً بالمقيد بخلاف الفاء؛ لأنها لتعليل الإنكار، فالمتكلم يُشير بها إلى تعليل إنكاره.

قال صاحب «الفرائد» الفاء هاهنا مستعملٌ للترتيب والتعقيب، كأنه قال: لا أقبلُ إمدادك بهالٍ؛ فقال المخاطبُ: لِمَ لا تقبلُ؟ فأجيب: لأنِّي أغنى منك، فلما كان هذا الجواب مرتباً على السؤال، ومُعقباً له^(٣)، ترك السؤال وجيء بالفاء، وأما الواو فإنها تُفيد الجمع، وهو للحال، فكأنه قال: لا أقبلُ منك إمدادك بهالٍ في هذه الحال، وهي كوني أغنى منك.

وقلت: الواو في مثل هذا التركيب تكون للحال، وتُسمى بالحال المقررة لجهة الإشكال؛ أي: أُمِدُّونني بهالٍ وأنتم تعلمون أنّي غنيٌّ! كقول الملائكة: ﴿أَجْمَعُلْ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقولهم:

(١) في (ح) و(ف): «المعنى».

(٢) قوله: «فيكون فاعل المقيد عالماً بالمقيد» سقط من (ط).

(٣) في (ف): «ومتعقباً» وكلاهما مُتَّجِه.

جعلته مِّنْ خَفِيَّتْ عَلَيْهِ حَالِي، فَأَنَا أُخْبِرُهُ السَّاعَةَ بِمَا لَا أَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى إِمدَادِهِ، كَأَنِّي أَقُولُ لَهُ: أَنْكِرْ عَلَيْكَ مَا فَعَلْتَ، فَإِنِّي غَنِيٌّ عَنْهُ. وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُهُ: ﴿فَمَاءَ آتَيْنَاهُ اللَّهُ﴾. فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا وَجْهُ الإِضْرَابِ؟ قُلْتَ: لَمَّا أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الإِمْدَادَ وَعَلَّلَ إِنْكَارَهُ، أَضْرَبَ عَنْ ذَلِكَ إِلَى بَيَانِ السَّبَبِ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ، وَهُوَ: أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ سَبَبَ رِضَا وَلَا

أُحْسِنُ إِلَى أَعْدَائِكَ، وَأَنَا الصَّادِقُ الْمُحْتَاجُ! وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «فَقَدْ جَعَلْتُ مُحَاطِبِي عَالِمًا بِزِيَادَتِي عَلَيْهِ»، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُمِدُّنِي بِالْمَالِ! وَأَمَّا الْفَاءُ فَهِيَ لِلتَّسْبِيبِ، فَالْمُنْكَرُ الْجُمْلَةُ الْأُولَى، وَالثَّانِيَةُ عِلَّةُ الْإِنْكَارِ، وَلَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْعِلَّةُ مَعْلُومَةً عِنْدَ الْمُخَاطَبِ؛ فَيَجِبُ الْإِعْلَامُ وَالتَّوْبِيحُ عَلَى الْجَهْلِ بِهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا أَحْتَاجُ إِلَى مَا آتَيْتُمُونِيهِ؛ لِأَنِّي غَنِيٌّ، كَمَا قَالَ: أَنْكِرْ عَلَيْكَ مَا فَعَلْتَ، فَإِنِّي غَنِيٌّ عَنْهُ.

قَوْلُهُ: (فَمَا وَجْهُ الإِضْرَابِ؟)، يَعْنِي: أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ نَبِيُّ اللَّهِ إِمدَادَهُمْ بِالْمَالِ، وَعَلَّلَ الْإِنْكَارَ بِكَوْنِهِ غَنِيًّا عَنْهُ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي الإِضْرَابِ عَنْهُ [إِنْ] كَانَ ذَلِكَ غَيْرَ مُنْكَرٍ؟

وَأَجَابَ أَنْ إِنْكَارَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى إِمدَادِهِمْ بِالْمَالِ مَالُهُ إِلَى تَجْهِيلِهِمْ، وَأَنَّهُمْ غَيْرُ عَالِمِينَ بِحَالِهِ، وَأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ تَرَقَّى إِلَى الْأَخْذِ فِيهَا هُوَ الْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ الْإِنْكَارِ، وَهُوَ الْإِعْلَامُ بِأَنْ مَا جَعَلُوهُ سَبَبًا لِلْإِمْدَادِ أَقْبَحُ مِنْ ذَلِكَ الْجَهْلِ، وَذَلِكَ أَنْ قُصَارَى أَمْرِهِمُ الْفَرْحُ بِمَا يُهْدَى إِلَيْهِمْ، فَقَاسُوا حَالَ نَبِيِّ اللَّهِ بِحَالِهِمْ فِي أَنْ لَيْسَ لَهُ الرِّضَا وَالْفَرْحُ إِلَّا بِالْحُظُوظِ الْعَاجِلَةِ، هَذَا إِذَا قَدَّرَ الْإِضَافَةَ إِلَى الْمُهْدَى إِلَيْهِ، أَمَا إِذَا جُعِلَتِ الْإِضَافَةُ إِلَى الْمُهْدَى؛ أَيِ: الْفَاعِلِ؛ بِأَنْ يُقَالَ: وَأَنْتُمْ بَهْدِيَّتِكُمْ هَذِهِ تَفْرَحُونَ فَرَحَ افْتِخَارٍ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: الَّذِي مَنَحَنِي اللَّهُ مِنَ الدِّينِ وَالْمُلْكِ الْوَاسِعِ خَيْرًا مِّمَّا آتَاكُمْ؛ فَلَا أَفْرَحُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُحَقَّرَاتِ الَّتِي تَفْتَخِرُونَ بِهَا، فَأَوْلَى الضَّمِيرِ حَرَفَ الإِضْرَابِ؛ لِئُقَيَّدَ: أَنْتُمْ خُصُوصًا تَفْرَحُونَ، فَأَتَى بِهِذِهِ لِئُقَيَّدَ التَّحْقِيرَ.

وَيَجُوزُ عَلَى هَذَا أَنْ يُعْتَبَرَ مَعْنَى تَقْوِي الْحُكْمِ مِنَ التَّرْكِيبِ؛ فَيُقَيَّدُ مَطْلَقَ الرَّدِّ؛ أَيِ: أَنْتُمْ لَا بَدَّ لَكُمْ أَنْ تَفْرَحُوا بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُحَقَّرَاتِ؛ أَيِ: تُمِدُّونَنِي بِبَالٍ وَتَرْعُمُونَ أَنَّ مِنْ عَادَتِي أَنْ أَفْرَحَ بِأَخْذِ الْهَدِيَّةِ! بَلْ أَنْتُمْ مِنْ حَقِّكُمْ أَنْ تَفْرَحُوا بِهِ؛ فَخَذُّوْهَا وَافْرَحُوا.

هُوَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ كِنَايَةٌ.

فرح؛ إلا أن يُهدى إليهم حظٌّ من الدنيا التي لا يعلمون غيرها. ويجوز أن تجعل الهدية مضافة إلى المهدي، ويكون المعنى: بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون فرح افتخارٍ على الملوك، بأنكم قد رُثتم على إهداءٍ مثلها. ويحتمل أن يكون عبارة عن الردِّ، كأنه قال: بل أنتم من حَقُّكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها.

[**﴿ ارجع إليهم فلنأينهم بمخوذة لا قبل لهم بها ولنخرجهن منها أذلة وهم صغرون ﴾** [٣٧]

﴿ ارجع ﴾ خطابٌ للرَّسول. وقيل: للهدد محملاً كتاباً آخر **﴿ لا قبل ﴾**: لا طاقة. وحققة القبل: المقاومة والمقابلة، أي: لا يقدر أن يقابلوهم. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: (لا قبل لهم بهم). الضمير في **﴿ منها ﴾** لسبأ. والذُّلُّ: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العزِّ والملك. والصغار: أن يقعوا في أسرٍ واستعباد، ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقاً بعد أن كانوا ملوكاً.

قوله: **﴿ ارجع ﴾** خطابٌ للرَّسول، وقيل: للهدد، أي: المأمور في «ارجع» مفرد، والمقدم ذكرهم جماعةً، بدليل قوله: **﴿ يم يرجع المرسلون ﴾**، فيحمل إماماً على المصدر، كقولها: **﴿ فقولاً إنار رسول رب العالمين ﴾** [الشعراء: ١٦]، أو أن يجعل الخطاب للهدد كما في قوله: **﴿ أذهب بكتبي هكذا ﴾**، أي: ارجع إليهم بكتابي **﴿ فلنأينهم بمخوذة ﴾**، ويعضد الأول قوله: **﴿ فناظرة يم يرجع المرسلون ﴾**؛ لأن المعنى: إني مرسلٌ إليهم بهدية، أصانعه بها عن ملكي؛ فناظرة ما يكون منه إما سلماً، وإما حرباً، حتى أعمل على حسب ذلك، فإن نبي الله عليه السلام لما وقف على أن الهدية كانت مُصانعةً منها، وأنها خالفت ما أراد منها بقوله: **﴿ ألا تعلوا على وأتوق مسلمين ﴾**، احتدَّ وغضب حميةً للإسلام، ولذلك عقب الأمر بالرجوع بالجملة القسمية المثبتة للذُّلِّ والصغار، جزاءً على ذلك الصنيع بالفاء؛ يعني: والله لا يتخلف إتياني كذلك عن رجوعك.

قوله: (ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقاً بعد أن كانوا ملوكاً)، الجوهرية: الاختصار على الشيء: الاكتفاء به، وتسوق القوم: إذا باعوا واشتروا، والسوق: خلاف الملك، وقال الحريري في «درة العواصم»: توهموا أن السوق: اسم لأهل السوق، وليس كذلك، بل

[﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ٣٨]

يُروى: أنها أَمَرَتْ عِنْدَ خُرُوجِهَا إِلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَجُعِلَ عَرْشُهَا فِي آخِرِ سَبْعَةِ آيَاتٍ، بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، فِي آخِرِ قَصْرِ مِنْ قُصُورِ سَبْعَةِ لَهَا. وَغَلَقَتْ الْأَبْوَابَ، وَوَكَلَتْ بِهِ حِرْسًا يَحْفَظُونَهُ، وَلَعَلَّهُ أُوحِيَ إِلَى سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاسْتِثْنَائِهَا مِنْ عَرْشِهَا، فَأَرَادَ أَنْ يُغْرِبَ عَلَيْهَا وَيُرِيهَا بِذَلِكَ بَعْضَ مَا خَصَّه اللَّهُ بِهِ مِنْ إِجْرَاءِ الْعَجَائِبِ عَلَى يَدِهِ، مَعَ إِطْلَاعِهَا عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَعَلَى مَا يَشْهَدُ لِنُبُوءَةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيُصَدِّقُهَا. وَعَنْ قَتَادَةَ: أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَهُ قَبْلَ أَنْ تُسَلِّمَ، لِعَلِّمِهِ أَنَّهَا إِذَا أَسْلَمْتَ لَمْ يَحِلَّ لَهُ أَخْذُ مَا لَهَا. وَقِيلَ: أَرَادَ أَنْ يُؤْتَى بِهِ فَيُنْكَرَ وَيُعَيَّرَ، ثُمَّ يَنْظُرُ أَتَشْبَهُهُ أَمْ تُنْكَرُهُ؟ اخْتِبَارًا لِعَقْلِهَا.

[﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ ٣٩]

وَقُرِي: (عِفْرِية). وَالْعِفْرُ، وَالْعِفْرِيتُ، وَالْعِفْرِيةُ، وَالْعِفْرَاءُ، وَالْعِفْرَاءِيةُ مِنَ الرِّجَالِ:

السُّوقَةُ الرَّعِيَّةُ؛ سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ يَسُوقُهُمْ إِلَى إِرَادَتِهِ، وَيَسْتَوِي لَفْظُ الْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ فِيهِ، قَالَتْ حُرْقَةُ بِنْتُ النِّعْمَانِ:

فَبِينَا نَسُوسُ النَّاسِ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوْقَةٌ نَسْتَنْصَفُ

وَأَمَّا أَهْلُ السُّوقِ، فَهُمُ السُّوقِيُّونَ، وَاحِدُهُمْ: سُوْقِيٌّ^(١).

قَوْلُهُ: (بِاسْتِثْنَائِهَا)، اسْتَوْتَقْتُ مِنْ فُلَانٍ: اتَّخَذْتُ مِنْهُ وَثِيقَةً، أَوْ اسْتَوْتَقَّ بِمَعْنَى أَوْتَقَّ؛ كَاسْتَوْقَدَ بِمَعْنَى أَوْقَدَ.

قَوْلُهُ: (أَنْ يُغْرِبَ عَلَيْهَا)، أَي: يُطْلِعُهَا عَلَى أَمْرٍ غَرِيبٍ.

الْأَسَاسُ: تَكَلَّمَ فَأَغْرَبَ: إِذَا جَاءَ بِغَرَائِبِ الْكَلَامِ وَنَوَادِرِهِ.

(١) «درة الغواص في أوهام الخواص» ص ٢٤٤.

الخبِيثُ الْمُنْكَرُ، الَّذِي يَعْفِرُ أَقْرَانَهُ. وَمِنَ الشَّيَاطِينِ: الْخَبِيثُ الْمَارِدُ. قِيلَ: كَانَ اسْمُهُ ذِكْوَانٌ. ﴿لَقَوِيٌّ﴾ عَلَى حَمَلِهِ، ﴿أَمِينٌ﴾ آتَى بِهِ كَمَا هُوَ لَا أُخْتَرِلُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا أُبَدَّلُهُ.

[﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [٤٠]

﴿الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ رَجُلٌ كَانَ عِنْدَهُ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، وَهُوَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، وَقِيلَ: يَا إلهَا وَإِلهَ كُلِّ شَيْءٍ إلهَا وَاحِدًا لَا إلهَ إِلَّا أَنْتَ. وَقِيلَ: يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَعَنِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اللَّهُ، وَالرَّحْمَنُ. وَقِيلَ: هُوَ آصِفُ بْنُ بَرَخِيَا كَاتِبُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ صَدِيقًا عَالِمًا، وَقِيلَ: اسْمُهُ أُسْطُومُ، وَقِيلَ: هُوَ جَبْرِيْلُ، وَقِيلَ: مَلَكٌ أَيْدَى اللَّهُ بِهِ سُلَيْمَانَ، وَقِيلَ: هُوَ سُلَيْمَانُ نَفْسُهُ، كَأَنَّهُ اسْتَبْطَأَ الْعِفْرِيْتِ فَقَالَ لَهُ: أَنَا أُرِيكَ مَا هُوَ أُسْرَعُ مِمَّا تَقُولُ. وَعَنِ ابْنِ هَلِيْعَةَ: بَلَّغَنِي أَنَّهُ الْحَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾: مِنَ الْكِتَابِ الْمُنْزَلِ، وَهُوَ عِلْمُ الْوَحْيِ وَالشَّرَائِعِ. وَقِيلَ: هُوَ اللَّوْحُ. وَالَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنْهُ: جَبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَأَتِيكَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ؛ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِعْلًا وَاسْمَ فَاعِلٍ. الطَّرْفُ: تَحْرِيكُكَ أَجْفَانَكَ إِذَا نَظَرْتَ، فَوَضِعَ مَوْضِعَ النَّظَرِ.....

قَوْلُهُ: (يَعْفِرُ أَقْرَانَهُ)، الْأَسَاسُ: عَفَرَ قِرْنَهُ، وَعَافَرَهُ فَأَلَزَقَهُ بِالْعُفْرِ، أَي: صَارَعَهُ، فَاعْتَفَرَهُ؛ أَي: ضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ.

قَوْلُهُ: (مَا هُوَ أُسْرَعُ مِمَّا تَقُولُ)، أَي: مَدَّةَ أَقْلٍ مِمَّا يَقُولُهُ.

قَوْلُهُ: (الطَّرْفُ: تَحْرِيكُكَ أَجْفَانَكَ إِذَا نَظَرْتَ، فَوَضِعَ مَوْضِعَ النَّظَرِ)، كَانَ التَّطَرَّفُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّظَرِ، كَالنَّظَرِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الرَّؤْيَةِ.

الْأَسَاسُ: وَطَرَفَ إِلَيْهِ طَرْفًا: وَهُوَ تَحْرِيكُ الْجُفُونِ، وَمَا يُفَارِقُنِي طَرْفَةً عَيْنٍ، وَشَخَصَ بَصَرَهُ فَمَا يَطْرَفُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ النَّاطِرَ إِذَا أَرَادَ النَّظَرَ إِلَى شَيْءٍ حَرَّكَ الْأَجْفَانَ إِلَى نَحْوِهِ، فَهُوَ إِرْسَالُ الطَّرْفِ، وَإِذَا أَرَادَ الْإِمْسَاكَ عَنْهُ رَدَّ الْأَجْفَانَ إِلَى مَكَانِهَا الْأَوَّلِ.

قَالَ الْإِمَامُ: الطَّرْفُ: تَحْرِيكُ الْأَجْفَانِ عِنْدَ النَّظَرِ، فَإِذَا فَتَحَتِ الْجُفُنَ فَقَدْ يُتَوَهَّمُ أَنَّ نُورَ

ولمّا كان الناظرُ موصوفاً بإرسالِ الطّرفِ في نحوِ قوله:

وَكُنْتَ إِذَا أُرْسِلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعَبْتَكَ الْمَنَاظِرُ

العين امتدّت إلى المرئيّ، وإذا أغمضت فقد يتوهّم أنّ ذلك النور ارتدّ إلى العين^(١)، فكما وصف الشاعر النظّر بالإرسال، ووصف العالم^(٢) الانتهاء بالرّد، ثم أسند الارتداد إلى الطّرف على المجازي^(٣)، وقال: يرتدّ إليك طرفك؛ لأنّ الأصل: تَرُدُّ طَرْفَكَ.

قوله: (وكنّت إذا أرسلت) البيت، بعده:

رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلَّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلَا عَن بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ^(٤)

قال المرزوقي: «رائداً حالاً، وجواب «إذا»: «أتعبتك المناظر»، وقوله: «رأيت الذي»، تفصيلٌ لِمَا أجمَله «أتعبتك المناظر»، والرائد: الذي يتقدّم القومَ لطلبِ الكلالِ لهم. المعنى: إذا جعلت عينك رائداً لقلبك تطلب له هواهم، فتتعبك^(٥) مناظرها، وأوقعتك مواردُها في أشقّ المكارِه، وذلك أتمّها تهجم بالقلب في ارتيادها له على ما لا يصبرُ في بعضه على فراقه مع مهيّجات اشتياقه، ولا يقدرُ على السُّلُو عن جميعه، فهو مُتَمَحِّنُ الدَّهْرِ ببلوى ما لا يقدرُ على كَلِّه، ولا يصبرُ عن بعضه^(٦).

وعن بعض الحكماء: مَنْ أُرْسِلَ طَرْفَهُ اسْتَدْعَى حَتْفَهُ، وَفِي الْمَثَلِ: الرَّائِدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ^(٧)؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَذَبَ هَلَكَ مَعَهُمْ.

(١) «مفاتيح الغيب» (٢٤: ٥٥٧).

(٢) يعني الذي عنده علمٌ من الكتاب.

(٣) يعني الإسنادَ المجازي.

(٤) ذكره ابن حمدون في «التذكرة الحمدونية» (٦: ١٦٥)، والمرزوقي في «شرح الحماسة» (١: ٨٦٨).

(٥) في (ط): «فيتبعك».

(٦) «شرح الحماسة» (١: ٨٦٨-٨٦٩).

(٧) انظر: «مجمع الأمثال» (٢: ٢٣٣).

وُصِفَ بِرَدِّ الطَّرْفِ، وَوُصِفَ الطَّرْفُ بِالْإِرْتِدَادِ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أَنَّكَ تُرْسِلُ طَرْفَكَ إِلَى شَيْءٍ، فَقَبْلَ أَنْ تَرُدَّهُ أَبْصَرْتَ الْعَرْشَ بَيْنَ يَدَيْكَ: وَيُرْوَى: أَنَّ آصِفَ قَالَ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مُدِّ عَيْنَيْكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ طَرْفُكَ، فَمَدَّ عَيْنَيْهِ فَنَظَرَ نَحْوَ الْيَمِينِ. وَدَعَا آصِفُ فَعَارَ الْعَرْشَ فِي مَكَانِهِ بِمَارِبٍ، ثُمَّ نَبَعَ عِنْدَ مَجْلِسِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالشَّمَامِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ، قَبْلَ أَنْ يَرُدَّ طَرْفَهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مَثَلًا لِاسْتِقْصَارِ مُدَّةِ الْمَجِيءِ بِهِ، كَمَا تَقُولُ لِصَاحِبِكَ: افْعَلْ ذَلِكَ فِي لِحْظَةٍ، وَفِي رَدَّةِ طَرْفِ، وَالتَّفْتُّ تَرْنِي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ: تَرِيدُ السَّرْعَةَ. ﴿يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾؛ لِأَنَّهُ يَحِطُّ بِهَا عِبَاءَ الْوَاجِبِ، وَيَصَوِّمُهَا عَنِ سِمَةِ الْكُفْرَانِ، وَتَرْتَبُطُ بِهِ النِّعْمَةُ وَيُسْتَمَدُّ الْمَزِيدُ. وَقِيلَ: الشُّكْرُ قَيْدٌ لِلنِّعْمَةِ الْمَوْجُودَةِ، وَصَيْدٌ لِلنِّعْمَةِ الْمَفْقُودَةِ. وَفِي كَلَامِ بَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ: إِنَّ كُفْرَانَ النِّعْمَةِ بَوَارٍ، وَقَلْبًا أَقْسَعَتْ نَافِرَةٌ فَرَجَعَتْ فِي نِصَابِهَا، فَاسْتَدْعَى شَارِدَهَا بِالشُّكْرِ، وَاسْتَدِيمَ رَاهِنَهَا بِكَرَمِ الْجَوَارِ. وَاعْلَمْ أَنَّ سُبُوغَ سِتْرِ اللَّهِ مُتَقَلِّصٌ عَمَّا قَرِيبٌ.....

قيل: الشعر لعبد الله بن طاهر بن الحسين^(١).

قوله: (أقسعت نافرة)، الأساس: انقشع الغيم، وتقصع، وأقشع، وقشعته الریح، ومن المجاز: انقشع الظلام والبرد، واجتمعوا عليه ثم انقشعوا، وانقشعوا عن الماء، وتقصعوا: تفرقوا.

قوله: (فرجعت في نصابها)؛ أي: أضلها. الأساس: وهو يرجع إلى منصب صدق، ونصاب صدق، وهو أصله الذي نصب فيه وركب، ومنه نصاب السكين، وهو أصله الذي نصب فيه وركب.

قوله: (واستديم راهنها)، الأساس: نعمة الله راهنة: دائمة، وهذا الشيء راهن لك: معد، وطعام راهن، وكأس راهنة: دائمة لا تنقطع، وأرهن لضيفه الطعام والشراب: أدامها، وفي كلامهم: النعمة إذا سمعت نعمة الشكر تهبأت للمزيد.

(١) وقيل لأعرابية كما في «مشاهد الإنصاف» (٣: ٣٦٨).

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْجُ لِيهِ وَقَارًا. ﴿غَفِيُّ﴾ عَنِ الشُّكْرِ. ﴿كَرِيمٌ﴾ بِالْإِنْعَامِ عَلَى مَنْ يَكْفُرُ نِعْمَتَهُ، وَالَّذِي قَالَهُ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَرْشِ شَاكِرًا لِلرَّبِّهِ؛ جَزِيٌّ عَلَى شَاكِلَةِ أَبْنَاءِ جَنَسِهِ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَالْمُخْلِصِينَ مِنْ عِبَادِهِ، يَتَلَقَّوْنَ النُّعْمَةَ الْقَادِمَةَ بِحُسْنِ الشُّكْرِ، كَمَا يُشَيِّعُونَ النُّعْمَةَ الْمُوَدَّعَةَ بِجَمِيلِ الصَّبْرِ.

[﴿تَكَرُّوا﴾ لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرَ أَنْهَدِي أَمْرًا تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ ٤١ - ٤٣]

﴿تَكَرُّوا﴾ اجعلوه مُتَنَكِّرًا مُتَغَيِّرًا عَنْ هَيْئَتِهِ وَشَكْلِهِ، كَمَا يَتَنَكَّرُ الرَّجُلُ لِلنَّاسِ لِثَلَاثِ يَغْرِفُوهُ، قَالُوا: وَسَعَوْهُ وَجَعَلُوا مُقَدَّمَهُ مُؤَخَّرَهُ، وَأَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ. وَقُرِي: ﴿نَنْظُرُ﴾ بِالْجَزْمِ عَلَى الْجَوَابِ، وَبِالرَّفْعِ عَلَى الْاسْتِنَافِ. ﴿أَنْهَدِي﴾ لِمَعْرِفَتِهِ، أَوْ لِلجَوَابِ الصَّوَابِ إِذَا سُئِلْتُ عَنْهُ، أَوْ لِلدَّيْنِ وَالْإِيَابِ بِنُبُوَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إِذَا رَأَتْ تِلْكَ الْمُعْجِزَةَ الْبَيْتَةَ، مِنْ تَقَدُّمِ عَرْشِهَا وَقَدْ خَلْفَتْهُ وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ، وَنَصَبَتْ عَلَيْهِ الْحُرَّاسَ. هَكَذَا ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ: حَرْفُ التَّنْبِيهِ، وَكَافُ التَّشْبِيهِ، وَاسْمُ الْإِشَارَةِ. لَمْ يَقُلْ: أَهَذَا عَرْشُكَ،

وفي الحديث: «النُّعْمَةُ وَحَشِيَّةٌ قِيدُوهَا بِالشُّكْرِ»^(١).

قَوْلُهُ: (إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْجُ لِلَّهِ وَقَارًا)، مُقْتَبَسٌ مِنْ قَوْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَعْنَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ﴾ [نوح: ١٣] عَلَى مَعْنَى: مَا لَكُمْ تَكُونُونَ عَلَى حَالٍ تَأْمَلُونَ فِيهَا تَعْظِيمَ اللَّهِ إِيَّاكُمْ؛ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْرَمَكَ بِأَنْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَشْكُرْهَا أَهَانَكَ، فَيَكْشِفُ ذَلِكَ السِّتْرَ عَنْكَ، فَتَزُولُ تِلْكَ النُّعْمَةُ، أَوْ عَلَى مَعْنَى: مَا لَكُمْ لَا تَخَافُونَ اللَّهَ جَلِيمًا، وَتَرْكُ مُعَاجَلَةٍ؛ يَعْنِي: أَنَّكَ تَمَادَيْتَ فِي الْمَعَاصِي، وَأَنَّ اللَّهَ سَتَرَ عَلَيْكَ بِجِلْمِهِ، فَعَنْ قَرِيبٍ يَتَقَلَّصُ ذَلِكَ السِّتْرَ، فَتَهْلِكُ، وَالْأَوَّلُ أَنْسَبُ لِلْمَقَامِ.

(١) ذكره الإمام الغزالي، وعزاه لبعض السلف في «إحياء علوم الدين» (٤: ١٢٧).

ولكن: أمثل هذا عرشك؛ لثلاً يكون تلقيناً ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ ولم نقل: هو هو، ولا: ليس به، وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقطع في المحتمل. ﴿وَأُوَيْنَا الْعِلْمَ﴾ من كلام سُلَيْمَانَ وَمَلِكِهِ: فإن قلت: علام عطف هذا الكلام، وبِمَ اتَّصل؟ قلت: لَمَّا كان المقام الَّذِي سُئِلَتْ فِيهِ عَنْ عَرْشِهَا وَأَجَابَتْ بِهَا أَجَابَتْ بِهِ مَقَاماً أُجْرِي فِيهِ سُلَيْمَانُ وَمَلَكُهُ مَا يَنَاسِبُ قَوْلَهُمْ: ﴿وَأُوَيْنَا الْعِلْمَ﴾ نَحْوُ أَنْ يَقُولُوا عِنْدَ قَوْلِهَا كَأَنَّهُ هُوَ: قَدْ أَصَابَتْ فِي جَوَابِهَا وَطَبَّقَتِ الْمَفْصِلَ، وَهِيَ عَاقِلَةٌ لَبِيَّةٌ، وَقَدْ رُزِقَتْ الْإِسْلَامَ، وَعَلِمَتْ قُدْرَةَ اللَّهِ

قوله: (لثلاً يكون تلقيناً)، يعني: إنما عدل نبيُّ الله عَنِ السُّؤَالِ الَّذِي فِيهِ إِيْهَامٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ [النمل: ٤٢]؛ لِيُوقِعَهَا فِي وَرْطَةِ الْحَيْرَةِ، إِذْ لَوْ صَرَّحَ بِقَوْلِهِ: أَهَذَا (١) عَرْشُكَ؟ كَأَنَّ قَدْ لَقِّنَهَا بِذَلِكَ، وَحِينَ كَانَتْ جَازِمَةً بِأَنَّ ذَلِكَ عَرْشُهَا، وَكَانَ لَهَا أَنْ تَقُولَ: بَلْ هُوَ هُوَ، فَعَدَلَتْ إِلَى قَوْلِهَا: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ لِرَجَاحَةِ عَقْلِهَا، لِتُبْقِيَ الْإِحْتِمَالَ الَّذِي قَصَدَهُ نَبِيُّ اللَّهِ.

قوله: (ولم تقل: هو هو، ولا: ليس به، وذلك من رجاحة عقلها، حيث لم تقطع في المحتمل). الانتصاف: وفيه نُكْتَةٌ حَسَنَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ كَافُ التَّشْبِيهِ فِي السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ، فَحِكْمَتُهُ أَنَّ «كَأَنَّهُ» عِبَارَةٌ مِنْ قَوِيٍّ عِنْدَهُ الشَّبَهُ، وَكَادَتْ تَقُولُ: هُوَ هُوَ، وَ«هَكَذَا هُوَ» عِبَارَةٌ جَازِمَةٌ بِتَغَايِيرِ الْأَمْرَيْنِ، حَاكِمٌ بِوُقُوعِ الشَّبهِ بَيْنَهُمَا، فَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ بِحَالِ بَلْقَيْسٍ (٢).

واعلم [أن] (٣) «كَأَنَّ» مَرْكَبَةٌ مِنْ كَافِ التَّشْبِيهِ وَ«أَنَّ»، عَلَى مَا قَالُوا: «الْأَصْلُ فِي قَوْلِكَ: كَأَنَّ زَيْدًا الْأَسَدُ»: أَنَّ زَيْدًا كَالْأَسَدِ، فَلَمَّا قُدِّمَتِ الْكَافُ فَتَحَتْ الْهَمْزَةَ؛ لِيَكُونَ دَاخِلًا عَلَى الْمَفْرَدِ لَفْظًا، وَالْمَعْنَى عَلَى الْكَسْرِ، بِدَلِيلِ جَوَازِ السُّكُوتِ عَلَيْهِ، فَلَا يَكُونُ قَوْلُكَ: «كَأَنَّ زَيْدًا أَسَدٌ» غَيْرَ التَّشْبِيهِ؛ لِتَوْكِيدِ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ بِ«أَنَّ» الْمَوْكَدَةِ، بِخِلَافِ «زَيْدٌ كَالْأَسَدِ».

قوله: (وطبقت المفصل)، وعن بعضهم: الرَّجُلُ إِذَا أَصَابَ الْحُجَّةَ يُقَالُ: طَبَّقَ

(١) فِي النسخ الخَطِيئة: «أَهَكَذَا» وَلَعَلَّ الْجَاذَةَ مَا أَثْبَتْنَاهُ وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِمَا فِي «الْكَشَافِ».

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٦٩).

(٣) زيادة يقتضها السياق.

وصحّة النبوة بالآيات التي تقدّمت عند وفدة المنذر، وهذه الآية العجيبة من أمر عرشها عطفوا على ذلك قولهم: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته، وبصحّة ما جاء من عنده قبل علمها، ولم نزل على دين الإسلام؛ شُكراً لله على فضلهم عليها وسبقهم إلى العلم بالله والإسلام قبلها. ﴿وَصَدَّهَا﴾ عن التقدّم إلى الإسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهري الكفرة؛ ويجوز أن يكون من كلام بلقيس موصولاً بقولها: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ والمعنى: وأوتينا العلم بالله وبقدرته وبصحّة نبوة سليمان عليه السلام قبل هذه المعجزة، أو قبل هذه الحالة، تعني: ما تبيّنت من الآيات عند وفدة المنذر ودخلنا في الإسلام، ثم قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا﴾ قبل ذلك عمّا دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل. وقيل:

المفصل، مُستعارٌ من طَبَقِ السَّيْفِ: إذا أصاب المفصل فأبانه، فأما إذا أصاب العظم فقطعه، فإنه يُقال: صَمَمَ؛ أي: ثبت ولم ينب.

قوله: (عطفوا على ذلك)، جوابُ «لَمَّا» في قوله: «لَمَّا كَانَ الْمَقَامُ»، وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ [النمل: ٤٢] مَقُولٌ قَوْلِهِمْ، ويجوز أن يكون «يقولوا»، بيان «ما»، وقوله: «قد أصابت في جوابها» مَقُولٌ «أَنْ يَقُولُوا» والحاصل: أَنْ قَوْلَ سُلَيْمَانَ وَمَلَيْتِهِ: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ معطوفٌ على مقدّر، ويدلُّ عليه سياق الكلام ومقتضى المقام، وهو أن بلقيس لما سُئِلت عمّا سُئِلت، وأجابت بها أجابت، قال سليمان وملؤه عند ذلك: هل أصابت بلقيس في جوابها، وكَيْتَ وَرَيْتَ^(١)، ونحن أيضاً ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾، وهو معنى قول المصنّف: «وأوتينا نحن العلم» إلى آخر قوله: «بين ظهري الكفرة» يعني: أنها وإن أصابت في جوابها، ورزقت الإسلام، وأمنت بالآيات السابقة واللاحقة، لكن نحن أعلم، وأقدم في الإسلام، فالضمير في قولهم لسليمان وملته: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ﴾ [النمل: ٤٢] مَقُولٌ الْقَوْلِ، ونحو: أن يقولوا: بيان ما.

قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ قبل ذلك عمّا دخلت فيه ضلالها عن سواء السبيل، فاعل «صدّ»

(١) في (ح) و(ف): «وكننت ووارت».

﴿وَصَدَّهَا﴾ الله أو سليمان، و(عما كانت تعبد) بتقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقُرئ: ﴿أنها﴾ بالفتح؛ على أنه بدلٌ من فاعلِ «صدّ»، أو بمعنى لآئها.

[﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٤٤]

الصَّرْح: القَصْر. وقيل: صحنُ الدار. وقرأ ابنُ كثير: (سَاقِيهَا) بالهمزة. ووجهه؛ أنه سمع: سُؤوقًا، فأجرى عليه الواحد. والمُمرَّد: المُملَّس، وروي أن سليمان عليه

«ضلالها». و«عن سواء السبيل» متعلقٌ بـ «ضلالها» أي: صدّها عن الدخول في الإسلام قبل وفدة المنذر بن عمرو ورسولها إلى سليمان عليه السلام «ضلالها عن سواء السبيل»؛ أي: جهلها بدين الإسلام.

قوله: (الصَّرْح: القَصْر)، الراغب: الصَّرْحُ: بيتٌ عالٍ مُرَوِّقٌ، سُمِّيَ به اعتبارًا بكونه صرْحًا عن الشُّوبِ، أي: خالصًا، ولَبِنٌ صرِيحٌ، بَيْنُ الصَّرَاحَةِ^(١).

قوله: (ووجهه أنه سمع «سُؤوقًا»، فأجرى عليه الواحد)، الكواشي: القراءةُ بهمزة «سَاقِيهَا» و«السُّوقِ» و«السُّوقَةِ» لجواز أن من العرب من يهزُ مُفَرَّدَ «ساقٍ» وجمعه، ويدلُّ على ذلك صحَّةُ هذه القراءة، بل تواترها^(٢)، ورزعم بعضهم أن همز هذه الكلمات الثلاث بعيدٌ في العربية، إذ لا أصلَ لهنَّ في الهمزة^(٣)، وهذا تحكُّمٌ كما تراه؛ لأنه لم يذكر على ذلك دليلًا، بل جعل ما وصل إليه من كلام العرب دليلًا يُعتبر به، بل المُعتبر صحَّةُ ما يصحُّ، بل تواتر عن النبي ﷺ.

قوله: (والمُمرَّد: المُملَّس)، الراغب: المارِدُ والمريدُ من شياطين الجنِّ والإنسِ: المُتعرِّي من الخيراتِ، من قولهم: شجرٌ امرُدٌ: إذا تعرَّى من الورق. ومنه قيل: رَمْلَةٌ مرْداءٌ: إذا لم

(١) «مفردات القرآن» ص ٤٨٢.

(٢) لأن العرب تهمز ما لا يهمز تشبيهاً بما يهمز. انظر: «حجة القراءات» ص ٥٣٠.

(٣) في (ف): «العربية»، ولعل الصواب ما أثبتناه.

السَّلَامُ أَمَرَ قَبْلَ قَدُومِهَا فَبُنِيَ لَهُ عَلَى طَرِيقِهَا قَصْرٌ مِنْ زُجَاجٍ أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه من دوابِّ البحرِ السَّمَكُ وغيره، ووُضِعَ سَرِيرُهُ فِي صَدْرِهِ، فجلس عليه، وعكفَ عليه الطَّيْرُ والجنُّ والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظاماً لأمره، وتحققاً لنبوته، وثباتاً على الدين.

وزعموا أنَّ الجنَّ كرهوا أن يتزوَّجها فتُضَيَّ إليه بأسرارهم؛ لأنها كانت بنتَ جِنِّيَّة. وقيل: خافوا أن يُؤلِّدَ له منها ولدٌ يجتمع له فطنةُ الجنِّ والإنس، فيخرجون من مُلكِ سليمان إلى مُلكِ هو أشدُّ وأفظع، فقالوا له: إن في عقلها شيئاً، وهي شعراءُ السَّاقِين، ورِجْلُها كحافرِ الحِمار؛ فاخْتَبَرَ عقلها بتكبيرِ العرش، واتَّخَذَ الصَّرحَ ليتعرَّفَ ساقها. ورِجْلُها، فكشفتُ عنها فإذا هي أحسنُ النَّاسِ ساقاً وقَدَمًا؛ إلا أنها شعراء، ثمَّ صرفَ بصره وناداهما: ﴿إِنَّهُ صَرَخٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ﴾ وقيل: هي السَّبَبُ في اتِّخَاذِ الثُّورَةِ: أمر بها الشَّيَاطِينُ فاتَّخَذُواها، واستنكحها سليمانُ عليه السَّلَام، وأحبَّها وأقرَّها على مُلكِها، وأمر الجنَّ فَبَنَوْا لها سَيْلِحِينَ وَعُمدان، يزورُها في الشَّهرِ مرَّةً، فيقيمُ عندها

تُنبِتُ شيئاً. ومنه: الأَمَرْدُ؛ لَتَجَرَّدِهِ مِنَ الشَّعْرِ، و﴿صَرَخٌ مُمَرَّدٌ﴾ [النمل: ٤٤] من قولهم: شَجَرَةٌ مَرْدَاءٌ، وكان الممرَّدُ إشارةً إلى قول الشاعر:

فِي مَجْدَلٍ شَيْدٌ بُنْيَانُهُ يَزِلُّ عَنْهُ ظَفَرُ الطَّائِرِ^(١)

قولُهُ: (فَبَنَوْا لها سَيْلِحِينَ)، المغرب: وأما السَّيْلِحُونَ فهو مدينةٌ باليمن^(٢).

وقول الجوهري: سَيْلِحُونَ قريةٌ، والعامَّةُ تقولُ: ساحون، فيه نظرٌ، وأما عُمدان ففي «النهاية»: بضمِّ الغين، وسكونِ الميم؛ البناءُ العظيم^(٣)، بناحية صنعاءِ اليمن، قيل: هو من بناء سليمان عليه السَّلَام.

(١) «مفردات القرآن» ص ٧٦٤-٧٦٥. وانظر البيت في «ديوان الأعشى» ص ٩٦.

(٢) «المغرب في ترتيب المعرب» (١: ٤٠٧).

(٣) في (ط): «الصغير»، وهو خطأ.

ثلاثة أيام، وولدت له. وقيل: بل زوجها ذائبع ملك همدان، وسلطه على اليمن، وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه، فبنى له المصانع، ولم يزل أميراً حتى مات سليمان.

﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾: تريد: بكفرتها فيما تقدم، وقيل: حسبت أن سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت: ظلمت نفسي بسوء ظني بسليمان عليه السلام.

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ قَالَ يَنْقُورِ لِمَ سَتَعْمَلُونَ بِلِسَانِكُمْ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٤٥-٤٦]

وقري: ﴿أَنْ اعْبُدُوا﴾، بالضم على إتباع النون الباء. ﴿فَرِيقَانِ﴾: فريق مؤمن وفريق كافر. وقيل: أريد بالفريقين صالح عليه السلام وقومه قبل أن يؤمن منهم أحد. ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ يقول كل فريق: الحق معي. السيئة: العقوبة، والحسنة: التوبة، فإن قلت: ما معنى استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة؟ وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقعتين إحداهما قبل الأخرى؟ قلت: كانوا يقولون لجهلهم: إن العقوبة التي يعدها صالح عليه السلام إن وقعت على زعيمه، تبنا حينئذ واستغفرنا؛ مُقدِّرين أن التوبة مقبولة في ذلك الوقت. وإن لم تقع؛ فنحن على ما نحن عليه، فخطبهم صالح عليه السلام

قوله: (ذا تبع)؛ أي: زوجها سليمان من ذي تبع.

الأذواء: ملوك اليمن من قضاة، المسمون بذي يزن وذي نواس.

قوله: (مُقدِّرين أن التوبة)، حال من قوله: «يقولون» حاصل السؤال أن الاستعجال بإحدى العديتين قبل الأخرى إنما يصح إذا اعتقدوهما وتوقَّعوهما، والقوم كفرة.

وتلخيص الجواب: أن السيئة التي هي العقوبة، والحسنة التي هي التوبة، لم تكونا ثابتين عندهما، فقدروهما على قول صالح عليه السلام، فخطبهم نبي الله على حسب اعتقادهم.

على حَسْبِ قَوْلِهِمْ واعتقادِهِمْ، ثم قال لهم: هَلَّا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ قَبْلَ نُزُولِ الْعَذَابِ؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿تَنْبِيهَا لَهُمْ عَلَى الْخَطَا فِيمَا قَالُوهُ؛ وَتَجْهِيلاً فِيمَا اعْتَقَدُوهُ.

[﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَيَمَن مَعَكَ قَالَ طَّيَّرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [٤٧]

وكان الرَّجُلُ يَخْرُجُ مَسَافِراً فَيَمُرُّ بِطَائِرٍ فَيَزُجُّهُ، فَإِنْ مَرَّ سَانِحاً تِيَمَّنَ، وَإِنْ مَرَّ بَارِحاً تَشَاءَمَ، فَلَمَّا نَسَبُوا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ إِلَى الطَّائِرِ، اسْتَعِيرَ لِمَا كَانَ سَبَبَهُمَا مِنْ قَدْرِ اللَّهِ

قَوْلُهُ: (تَنْبِيهَا لَهُمْ عَلَى الْخَطَا فِيمَا قَالُوهُ وَتَجْهِيلاً فِيمَا اعْتَقَدُوهُ)، أَنْكَرَ أَوْلاً بِقَوْلِهِ: ﴿لَمَّا سَتَعَجِلُونَ بِاللَّيْتِنَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْعُقُوبَةَ إِنْ وَقَعَتْ تُبْنَا حِينِئذٍ، ثُمَّ تَبَّهَهُمْ بِقَوْلِهِ: لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَلَى خَطِيئَتِكُمْ^(١)، وَأَنَّ الْاسْتِغْفَارَ إِنَّمَا يَنْفَعُ قَبْلَ نُزُولِ الْعَذَابِ، وَأَنَّ ذَلِكَ الْاِعْتِقَادَ إِنَّمَا صَدَرَ مِنَ الْجَهْلِ.

قَوْلُهُ: (فَإِنْ مَرَّ سَانِحاً)، الْجَوْهَرِيُّ: السَّنِيحُ [وَالسَانِحُ]^(٢): مَا وَلَاكَ مِيَامِنَهُ مِنْ ظَنِّي أَوْ طَائِرٍ أَوْ غَيْرِهِمَا، وَبَرَاحَ الظَّنِّيِّ بَرَوْحاً^(٣). إِذَا وَلَاكَ مِيَا سِرَّهُ يَمُرُّ مِنْ مِيَامِنِكَ إِلَى مِيَا سِرِّكَ، وَالْعَرَبُ تَتَطَيَّرُ بِالْبَارِحِ، وَتَتَفَاءَلُ بِالسَّانِحِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُكَ أَنْ تَرْمِيَهُ حَتَّى تَنْحَرِفَ.

قَوْلُهُ: (اسْتَعِيرَ لِمَا كَانَ سَبَبَهُمَا مِنْ قَدْرِ اللَّهِ)، أَي: اسْتَعِيرَ لِلَّذِي كَانَ سَبَبَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَهُوَ قَدْرُ اللَّهِ وَقِسْمَتُهُ، يَعْنِي: اسْتَعِيرَ لِقَدْرِ اللَّهِ وَقِسْمَتِهِ لَفْظُ الطَّائِرِ؛ لِأَنَّ السَّبَبَ فِي تَحْصِيلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ حَقِيقَةٌ هُوَ قَدْرُ اللَّهِ، وَأَنَّ السَّانِحَ وَالْبَارِحَ - كَمَا زَعَمُوا - إِنْ دَلَّ عَلَى حُصُولِهَا فَهِيَ أَيْضاً مُسَبِّبَانِ عَنِ تَقْدِيرِ اللَّهِ، فَأُطْلِقُوا الْمُسَبَّبَ وَهُوَ الطَّائِرُ عَلَى السَّبَبِ، وَهُوَ قَدْرُ اللَّهِ وَقِسْمَتُهُ، وَقَالُوا: طَائِرُ اللَّهِ لَا طَائِرُكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَسْلُوبُ الْآيَةِ وَالِاسْتِشْهَادِ مِنْ بَابِ الْمَشَاكَلَةِ لَا الْاِسْتِعَارَةِ.

(١) في الأصول الخطية: «خطئهم»، ولا يستقيم.

(٢) زيادة من «الصحاح» للجوهري، مادة (سنح).

(٣) كذا في النسخ الخطية. والذي ذكره الجوهري في «الصحاح» (سنح): سَنَحَ لِي الظَّنِّيُّ يَسْنَحُ سُنُوحاً: إِذَا مَرَّ مِنْ مِيَا سِرِّكَ إِلَى مِيَامِنِكَ. انتهى. وهو الأشبه بالصواب. قلت: البارح: ما وَلَاكَ مِيَا سِرَّهُ، وَهُوَ مِمَّا كَانَتْ تَشَاءَمُ بِهِ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا، ثُمَّ أَبْطَلَهُ الْإِسْلَامُ بِإِبْطَالِ التَّطَيُّرِ وَالتَّشَاؤَمِ.

وَقِسْمَتِهِ: أو من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة. ومنه قالوا: طائر الله لا طائر لك، أي: قدر الله الغالب الذي ينسب إليه الخير والشر، لا طائر لك الذي تتشاءم به وتتيمن، فلما قالوا: اطيّرنا بكم، أي: تشاءمنا؛ وكانوا قد فحطوا. ﴿قَالَ طَطِيرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله، وهو قدره وقسمته، إن شاء رزقكم وإن شاء حرّمكم. ويجوز أن يريد: عملكم مكتوب عند الله، فمنه نزل بكم ما نزل؛ عقوبة لكم وفتنة. ومنه قوله: ﴿طَطِيرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]، ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَطِيرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

وقربى: ﴿نَطِيرْنَا بِكُمْ﴾، على الأصل. ومعنى: تطير به: تشاءم به. وتطير منه: يفر منه. ﴿تَفْتَنُونَ﴾ تختبرون، أو تُعَذِّبُونَ، أو يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة.

[﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ * قَالَُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا أَهْلَهُ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ * وَمَكْرُأً مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ * فَبِئْسَ مَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ٤٨-٥٣]

المدينة: الحجر. وإنما جاز تمييز التسعة بالرهط لآته في معنى الجماعة، فكأنه قيل:

قوله: (أو من عمل العبد)، عطف على «من قدر الله» وهو من قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَطِيرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]. فقوله: «ويجوز أن يريد: عملكم مكتوب عند الله» متفرع على هذا الوجه، وعند أهل السنة عملكم مكتوب عند الله ومقدر من عنده.

قوله: (المدينة: الحجر)، الراغب: الحجر: ما سُورَ بالحجارة، وبه سُمِّيَ حِجْرُ الكعبة وديارُ ثمود^(١).

(١) «مفردات القرآن» ص ٢٢٠.

تسعة أنفس. والفرق بين الرَّهْطِ والنَّفَرِ: أَنَّ الرَّهْطَ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ، أَوْ مِنَ السَّبْعَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ. وَالنَّفَرُ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى التَّسْعَةِ، وَأَسْمَاؤُهُمْ عَنْ وَهْبٍ: الْهَدَيْلُ بْنُ عَبْدِ رَبِّ، غُنْمُ بْنُ غُنْمٍ، رِثَابُ بْنُ مِهْرَجٍ، مِصْدَعُ بْنُ مِهْرَجٍ، عُمَيْرُ بْنُ كُرْدُبَةَ، عَاصِمُ بْنُ مَحْرَمَةَ، سُبَيْطُ بْنُ صَدَقَةَ، سَمْعَانُ بْنُ صَفِيٍّ، قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ. وَهُمْ الَّذِينَ سَعَوْا فِي عَقْرِ النَّاقَةِ، وَكَانُوا عُنَاةَ قَوْمٍ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانُوا مِنْ أَبْنَاءِ أَشْرَافِهِمْ.

﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؛ يعني: أَنْ شَأْنَهُمُ الْإِفْسَادُ الْبَحْتُ الَّذِي لَا يُخْلَطُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّلَاحِ؛ كَمَا تَرَى بَعْضَ الْمُفْسِدِينَ قَدْ يَنْدُرُ مِنْهُ بَعْضُ الصَّلَاحِ. ﴿تَقَاسَمُوا﴾ يُجْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَمْرًا وَخَبْرًا فِي مَحَلِّ الْحَالِ بِإِضْمَارِ قَدْ، أَيْ: قَالُوا مُتَقَاسِمِينَ: وَقُرِي: (تَقَسَّمُوا) وَقُرِي: ﴿لَنْبَيْتَنَّهُ﴾ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ وَالنُّونِ،

قوله: (لَا يُخْلَطُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّلَاحِ)، الراغب: الصَّلَاحُ ضِدُّ الْفِسَادِ، وَهِيَ مُخْتَصَّانِ فِي أَكْثَرِ الْأَسْتِعْمَالِ بِالْأَفْعَالِ، وَقُوبِلَ فِي الْقُرْآنِ تَارَةً بِالْفِسَادِ، وَتَارَةً بِالسَّيِّئَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿خَاطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وَالصَّلَاحُ يَخْتَصُّ بِإِزَالَةِ النَّفَارِ، وَإِصْلَاحُ اللَّهِ تَعَالَى الْإِنْسَانَ تَارَةً يَكُونُ بِخَلْقِهِ إِيَّاهُ صَالِحًا، وَتَارَةً بِإِزَالَةِ مَا فِيهِ مِنْ فِسَادٍ مِنْ بَعْدِ وُجُودِهِ، وَتَارَةً يَكُونُ بِالْحُكْمِ لَهُ بِالصَّلَاحِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، أَيْ: الْمُفْسِدُ يُضَادُّ اللَّهَ تَعَالَى فِي فِعْلِهِ، فَإِنَّهُ يُفْسِدُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَحَرَّى فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ^(١) الصَّلَاحَ، فَهُوَ إِذَنْ لَا يُصْلِحُ عَمَلَهُ.

قوله: (وَقُرِي: ﴿لَنْبَيْتَنَّهُ﴾، بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ وَالنُّونِ]، بِالْيَاءِ التَّحْتَانِي: شَاذَةٌ^(٢)، وَبِالنَّاءِ: هَمْزَةٌ وَالْكَسَائِيُّ، وَالْبَاقُونَ: بِالنُّونِ^(٣).

(١) كَذَا فِي النُّسخِ الْخَطِيئَةِ، وَفِي «مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ»: «أَفْعَالُهُ».

(٢) وَقُرِأَ بِهَا مَجَاهِدٌ كَمَا فِي «مَخْتَصَرِ شَوَاذِ الْقُرْآنِ» ص ١١٠.

(٣) وَحُجَّةٌ مَنْ قَرَأَ بِالنَّاءِ أَنَّهُ جَعَلَ «تَقَاسَمُوا» أَمْرًا أَيْضًا فَكَانَهُ قَالَ: احْفَلُوا التَّفْعَلْنَ، فَكَانَهُ أَخْرَجَ نَفْسَهُ مِنَ اللَّفْظِ، وَالنُّونُ أَجْوَدٌ. انْتَهَى مِنْ «حُجَّةِ الْقِرَاءَاتِ» ص ٥٣١.

﴿تَقَاسَمُوا﴾ مع التَّوْنِ والتَّاءِ؛ يَصِحُّ فِيهِ الْوَجْهَانِ. ومع الياء لا يَصِحُّ فِيهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَبْرًا. والتَّاسِمُ، والتَّقَسُّمُ: كالتَّظَاهِرِ، والتَّظَهُّرِ: التَّحَالُفِ. واليَّاتُ: مِباغِتُهُ

قوله: ﴿تَقَاسَمُوا﴾ مع التَّوْنِ والتَّاءِ؛ يَصِحُّ فِيهِ الْوَجْهَانِ؛ أي: الأمرِ والخبرِ، يعني: تقاسموا إذا كان أمرًا ف﴿لُنُبَيْتِنَهُ﴾ بالتَّوْنِ، جوابٌ له؛ لأنَّ هذه الألفاظُ التي تكونُ من الألفاظِ القَسَمِ تُتَلَقَى بِمَا تُتَلَقَى بِهِ الْأَيَّانُ، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩]، والمعنى: احلفوا لُنُبَيْتِنَهُ، وبالتَّاءِ الفوقانية: احلفوا لُنُبَيْتِنَهُ أَنْتُمْ، وعلى هذا الخبرِ.

وأما إذا كان الخبرُ مع الياء، فمعناه: قالوا: لُنُبَيْتِنَهُ مُتَقَاسِمِينَ، كقولك: حَلَفَ بِاللَّهِ لَيَفْعَلَنَّ؛ بالياء التَّحْنَانِيَّةِ، وأما قوله: مع الياء، لا يَصِحُّ فِيهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَبْرًا، فَعَلَّلَ بِأَنَّ الْيَاءَ لِلغَيْبَةِ، وَالْأَمْرَ لِلْمُخَاطَبِ، وَلَا مَعْنَى لِقَوْلِهِ: احلفوا لُنُبَيْتِنَهُ، وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ: لَيُقْسِمُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا لُنُبَيْتِنَهُ.

وقال صاحب «الكشف»: ﴿تَقَاسَمُوا﴾ [النمل: ٤٩]، يجوز أن يكون أمرًا، أمر بعضهم بعضًا بالتقاسم على التَّبْيِيتِ (١).

وقال الرَّجَاجُ: فَمَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ فَكَأَنَّهُ قَالَ: احلفوا لُنُبَيْتِنَهُ، كَأَنَّهُ أَخْرَجَ نَفْسَهُ مِنَ اللَّفْظِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدْخَلَ نَفْسَهُ فِي التَّاءِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَالَ: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [النمل: ٤٩] فَقَدْ قَالَ: تَحَالَفُوا، فَلَا يُخْرِجُ نَفْسَهُ مِنَ التَّحَالُفِ، وَمَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ، فَالْمَعْنَى: قالوا: لُنُبَيْتِنَهُ مُتَقَاسِمِينَ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ تَحَالَفُوا أَنْ يُبَيِّتُوا صَالِحًا وَيَقْتُلُوهُ وَأَهْلَهُ فِي بِيَاتِهِمْ، ثُمَّ يُنْكِرُونَ عِنْدَ أَوْلِيَاءِ صَالِحٍ أَنَّهُمْ شَهِدُوا مَهْلِكَةَ وَمَهْلِكَ أَهْلِهِ، وَيَحْلِفُونَ أَنَّهُمْ لَصَادِقُونَ، فَهَذَا مَكْرٌ عَزَمُوا عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠] (٢).

قوله: (والتقاسمُ)، مبتدأ، والخبرُ: «التَّحَالُفُ».

(١) «كشف المشكلات» للباقولي (٢: ١٠١٢).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٢٣-١٢٤).

العدو ليلاً. وعن الإسكندر أنه أُشِيرَ عليه بالبياتِ فقال: ليس من آيينِ الملوكِ استِراقُ الظَّفَرِ، وقُرئ: ﴿مَهْلِكٌ﴾ بفتح الميم واللام وكسرها من (هَلِكٌ)، و(مُهْلِكٌ) بضم الميم من أهلك. ويُحتملُ المَصْدَرُ والزَّمانُ والمكان، فإن قلت: كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا، فأتوا بالخبيرِ على خلافِ المُخْبِرِ عنه؟ قلت: كأنتهمُ اعتقدوا أنهم إذا بيَّتوا صالحاً وبيَّتوا أهله؛ فجمعوا بينَ البياتينِ، ثم قالوا: ما شهدنا مُهْلِكَ أهله، فذكروا أحدهما؛ كانوا صادقين، لأنهم فعلوا البياتينِ جميعاً لا أحدهما، وفي هذا دليلٌ قاطعٌ على أن الكَذِبَ قبيحٌ عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرعَ ونواهيهِ ولا تخَطُرُ

قوله: (وقرئ: ﴿مَهْلِكٌ﴾ بفتح الميم واللام وكسرها)، أبو بكر: «مَهْلِكٌ»، بفتح الميم واللام، وحفص: بفتح الميم وكسر اللام، والباقون: بضم الميم وفتح اللام^(١).

قال أبو البقاء: (مُهْلِكٌ) - بفتح اللام، وضم الميم - فيه وجهان، أحدهما: هو مصدرٌ بمعنى الإهلاكِ، نحو: المُدْخَلِ. والثاني: هو مفعولٌ؛ أي: لِمَنْ أهْلِكُ، أو لِمَا أهْلِكُ منها، ويُقرأ بفتحها، وهو مصدرٌ: هَلَكَ يَهْلِكُ، ويُقرأ بفتح الميم، وكسر اللام، وهو مصدرٌ أيضاً، ويجوزُ أن يكونَ زماناً، وهو مضافٌ إلى الفاعلِ، أو إلى المفعولِ على لغةٍ من قال: هَلَكْتُه أهْلِكُهُ، والموعِدُ: زمانٌ^(٢).

وفي الحواشي: والأعرَفُ في المصدرِ الفتحُ، والكسرُ قليلٌ، والكسرُ جاء في المكانِ مثل: المَرْجِعِ، قيل: المَهْلِكُ والمَرْجِعُ والمَحِيصُ، والمَكِيلُ أربعةٌ لا يوجد لها خامسٌ.

قوله: (وفي هذا دليلٌ قاطعٌ على أن الكَذِبَ قبيحٌ عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرعَ ونواهيهِ)، قال صاحبُ «الانتصاف»: حيلته لِتَضْحِيحِ قاعدةِ التَّحْسِينِ والتَّضْبِيحِ بالعقلِ قريبٌ من حِيلَتِهِم التي سَمَّاها اللهُ تعالى مَكْرًا، وعَرَضَهُ أن يَسْتَشْهَدَ على صَحَّةِ مَذْهَبِهِ، وأتى

(١) انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٣١.

(٢) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ٨٥٣) قاله في تفسير قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا لِهَيْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف]:

ببإلهم. ألا ترى أنهم قصدوا قتل نبي الله، ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين حتى سَوَّوا للصدق في خبيرهم حيلة يتفصّون بها عن الكذب. مكرهم: ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة. زوي أنه كان لصالح مسجد في

يتم له ذلك وهم كاذبون، فإن من فعل الأمرين، وجحد أحدهما فلا مزية في فزيته، وإنما يتم الحيلة لو فعلوا أمراً، وادعى عليهم فعل أمرين فجحدوا المجموع، فلم تختلف العلماء في أن من حلف أن لا أضرب زيداً، فضرب زيداً وعمراً كان حائثاً، بخلاف من حلف أن لا أضرب زيداً أو عمراً، فضرب زيداً، فهو محلّ خلاف العلماء في الحنث وعدمه^(١).

وقال صاحب «التقريب»: لعل المراد: ما شهدنا مهلك أهله وحده، وإلا فمن شهد البياتين فقد شهد أحدهما.

وقال القاضي: ما شهدنا مهلك أهله فضلاً أن تولينا إهلاكهم، ونخلف: ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، أو: والحال ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما ذكرنا؛ لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفاً، أو: لأننا ما شهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم، كقولك: ما رأيت ثمّة رجلاً بل رجلين^(٢).

وقلت: التقدير الأول، وهو: نخلف إننا لصادقون؛ كما نصّ عليه الزجاج؛ ليكون عطفًا على ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ يدخل في حيز التقاسم أولى وأوجه، فلا يلزم صدقهم، ولا يحتاج إلى تلك التكلفات، وعليه قول إخوة يوسف: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢].

قوله: (يتفصّون بها)، الجوهري: يقال: تفصّى الإنسان: إذا تخلّص من المضيق والبليّة.

قوله: (شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة)، التمثيلية، شبه إهلاك الله إياهم،

(١) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٧٢-٣٧٣).

(٢) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٧١).

الحِجْر فِي شُعْبٍ يُصَلَّى فِيهِ، فَقَالُوا: زَعَمَ صَالِحٌ أَنَّهُ يَفْرُغُ مِنَّا إِلَى ثَلَاثٍ، فَنَحْنُ نَفْرُغُ مِنْهُ وَمِنْ أَهْلِهِ قَبْلَ الثَّلَاثِ. فَخَرَجُوا إِلَى الشُّعْبِ وَقَالُوا: إِذَا جَاءَ يُصَلِّي قَتَلْنَا، ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى أَهْلِهِ فَقَتَلْنَاهُمْ، فَبَعَثَ اللَّهُ صَخْرَةً مِنَ الْهَضْبِ حِيَالَهُمْ، فَبَادَرُوا، فَطَبَقَتِ الصَّخْرَةُ عَلَيْهِمْ فَمَ الشُّعْبِ. فَلَمْ يَدْرِ قَوْمُهُمْ أَيْنَ هُمْ، وَلَمْ يَدْرُوا مَا فَعَلَ بِقَوْمِهِمْ، وَعَذَّبَ اللَّهُ كَلًّا مِنْهُمْ فِي مَكَانِهِ، وَنَجَّى صَالِحًا وَمَنْ مَعَهُ. وَقِيلَ: جَاءُوا بِاللَّيْلِ شَاهِرِي سَيُوفِهِمْ، وَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ مَلَاءَ دَارِ صَالِحٍ فَدَمَغُوهُمْ بِالْحِجَارَةِ: يَرُونَ الْحِجَارَةَ وَلَا يَرَوْنَ رَامِيًا. ﴿إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ﴾ استئناف. وَمَنْ قَرَأَ بِالْفَتْحِ رَفَعَهُ؛ بَدَلًا مِنَ الْعَاقِبَةِ، أَوْ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: هِيَ تَدْمِيرُهُمْ.

وهم لا يشعرون، يفعل مَنْ يريد مَكْرُوهَ صَاحِبِهِ، وَيُزَاوِلُ إِيْصَالَ^(١) الضَّرْرَ إِلَيْهِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، وَإِنَّمَا اخْتَارَ الِاسْتِعَارَةَ عَلَى الْمُشَاكَلَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧]؛ إِذْ لَوْلَا لَكَانَ مُشَاكَلَةً؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَمَكْرًا لِلَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قوله: (فِي شُعْبٍ)، الشُّعْبُ - بِالْكَسْرِ -: مَا انْفَلَجَ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ، وَقِيلَ: الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ، وَالْجَمْعُ: شِعَابٌ، وَفِي الْمَثَلِ: شَغَلَتْ شِعَابِي جَدْوَايَ؛ أَي: شَغَلَتْ كَثْرَةُ الْمُؤُونَةِ عَطَائِي عَنِ النَّاسِ^(٢).

قوله: (مِنَ الْهَضْبِ)، الْهَضْبَةُ: الْجَبَلُ الْمُنْبَسِطُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَالْجَمْعُ: هِضَابٌ، وَهَضْبٌ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ.

قوله: (مَنْ قَرَأَ بِالْفَتْحِ)، الْكُوفِيُّونَ: ﴿إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ﴾، بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ، وَالْبَاقُونَ: بِكَسْرِهَا^(٣).

(١) قوله: «إيصال» سقط من (ط).

(٢) «جمع الأمثال» (١: ٣٥٨).

(٣) لتمام الفائدة انظر: «حجة القراءات» ص ٥٣٢.

أَوْ نَصَبَهُ عَلَى مَعْنَى: لَأَنَا. أَوْ عَلَى أَنَّهُ خَبِرُ كَانَ، أَيْ: كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمُ الدَّمَارُ. ﴿خَاوِيَةً﴾ حَالٌ عَمِلَ فِيهَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ (تلك). وقرأ عيسى بنُ عمر: (خاوية) بِالرَّفْعِ عَلَى خَيْرِ الْمَبْتَدَأِ الْمَحذُوفِ.

[﴿وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ * أَيْتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بَجَاهِلُونَ﴾ ٥٤ - ٥٥]

واذكر لوطاً أو وأرسلنا لوطاً لدلالة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عليه. و﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ عَلَى الْأَوَّلِ؛ ظَرَفٌ عَلَى الثَّانِي. ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ من بَصَرَ الْقَلْبَ، أَيْ: تَعْلَمُونَ أَنَّهَا فَاحِشَةٌ لَمْ تُسَبِّحُوا إِلَيْهَا، وَأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا خَلَقَ الْأُنْثَى لِلذَّكْرِ وَلَمْ يَخْلُقِ الذَّكْرَ لِلذَّكْرِ، وَلَا الْأُنْثَى لِلأُنْثَى، فِيهَا مُضَادَّةٌ لِلَّهِ فِي حِكْمَتِهِ وَحُكْمِهِ، وَعِلْمُكُمْ بِذَلِكَ أَعْظَمُ لِذُنُوبِكُمْ وَأَدْخَلٌ فِي الْقُبْحِ وَالسَّاجَةِ. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْقَبِيحَ مِنَ اللَّهِ أَقْبَحُ مِنْهُ مِنْ عِبَادِهِ؛ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ الْعَالِمِينَ وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. أَوْ تُبْصِرُونَ بِهَا بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي نَادِيهِمْ يَرْتَكِبُونَهَا مُعَالِنِينَ بِهَا، لَا يَتَسَتَّرُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ خِلَاعَةً وَبِحِجَابَةٍ، وَإِنَّمَا كَأَنَّ فِي

قوله: (أَوْ نَصَبَهُ عَلَى مَعْنَى: لَأَنَا)، أَيْ: مَنْصُوبًا عَلَى أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لَهُ عَلَى حَذْفِ اللَّامِ، وَهِيَ لَامُ الْعَاقِبَةِ.

قوله: (للدلالة) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ [النمل: ٤٥] عليه، يُرِيدُ أَنْ قِصَّةَ لُوطٍ مَعْطُوفَةٌ عَلَى قِصَّةِ نُوحٍ، وَقَدْ ذَكَرَ فِي فَاتِحَتِهَا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ نُوحٍ أَخَاهُ صَالِحًا﴾ فَيُقَدَّرُ لَهَا مِثْلُهُ، وَ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ ظَرَفٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا، إِذْ لَا يَسْتَقِيمُ «أَرْسَلْنَا» وَقْتُ قَوْلِهِ. قوله: (خِلَاعَةً)، الْأَسَاسُ: وَمَنْ الْمَجَازِ: خَلَعَ فَلَانٌ رَسَنَهُ وَعِذَارَهُ، فَعَدَا عَلَى النَّاسِ بِشَرِّهِ.

قوله: (وبِحِجَابَةٍ)، الْجَوْهَرِيُّ: الْمُجُونُ: أَنْ لَا يُبَالِي الْإِنْسَانُ مَا صَنَعَ، وَقَدْ مَجَّنَ بِالْفَتْحِ يَمَجِّنُ مَجُونًا، وَبِحِجَابَةٍ فَهُوَ مَا جَنَّ، وَالْمَجَانُ.

قوله: (وإنها كما)، يُقَالُ: انْهَمَكَ الرَّجُلُ فِي الْأَمْرِ: لَجَّ وَجَدَّ.

المعصية، وكانَ أبا نُوَاسٍ بنى على مذهبيهم قوله:

وَبُخٍ بِاسْمِ مَا تَأْتِي وَذَرْنِي مِنَ الْكُنْيِ فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ

أو: تبصرون آثارَ العُصَاةِ قبلكم وما نزل بهم. فإن قلت: فسرتَ تبصرون بالعلم، وبعده ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ فكيف يكونون علماء جهلاء؟ قلت: أراد: تفعلون فعلَ الجاهلين بأنها فاحشةٌ مع علمكم بذلك. أو تجهلون العاقبة. أو أراد:

قولُهُ: (وَبُخٍ بِاسْمِ مَنْ تَهْوَى)^(١)، البيت، قبله:

أَلَا فَاسَقْنِي^(٢) خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَّنَ الْجَهْرُ^(٣)

البُوحُ: ظهورُ الشيء، يُقال: باحَ ما كتمه؛ أي: ظهر، وباح به صاحبه، أي: أظهره، يقال: كنى فلانٌ عن أمرٍ يعني: إذا تكلم بغيره مما يستدل به عليه، كما أن الله سبحانه وتعالى كنى عن الجماع بالمسِّ والغشيان؛ لأنه حَيٌّ كريمٌ.

قولُهُ: (أراد: تفعلون فعلَ الجاهلين بأنها فاحشةٌ مع علمكم بذلك)، هذا الجوابُ غيرُ مرضِيٍّ تأبأه كلمة الإضرابِ، بل إنَّه تعالى لَمَّا أنكرَ عليهم فعلهم على الإجمالِ، وسماه فاحشةً، وقيدَه بالحالِ المُقرَّرةِ لجهة الإشكالِ تَمِيمًا للإنكارِ بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ أراد مزيدَ ذلك التوبيخِ والإنكارِ، فكشَفَ عن حقيقة تلك الفاحشةِ مفصلاً، وصرَّحَ بذكر الرِّجالِ محليَّ بلامِ الجنسِ، مشيراً به إلى أن الرُّجولِيَّةَ مُنافيةٌ لهذه الحالةِ، وقيدَه بالشهوة التي هي أخصُّ أحوالِ البهيميةِ.

وقد تفرَّرَ عند ذَوي البصائرِ أن إتيانَ النساءِ لمجردِ الشهوةِ مُستَرَدَّلٌ، فكيف بالرجالِ! وضَمَّ إليه «مِن دُونِ النِّسَاءِ»، وأذِنَ له بأن ذلك ظلمٌ فاحشٌ، ووضَعُ للشيء في غير

(١) كذا في الأصول الخطية، وفي نصِّ «الكشاف» من (ط): «باسم ما تهوى»، وفي الأصل الخطي من

«الكشاف» والمطبوع: «باسم ما تأتي».

(٢) في (ف): «اسقنتي»، وهو خطأ.

(٣) «ديوان أبي نواس» ص ٢٨.

بالجهل السَّفَاهةَ والمجانةَ التي كانوا عليها. فإن قلت: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ صفةٌ لقوم، والموصوفُ لفظُهُ لغزٌ الغائب، فهلاً طابقتِ الصِّفَةُ الموصوفَ فقريءٌ بالياءِ دونَ التاء؟ وكذلك ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾؟ قلت: اجتمعتِ الغيبةُ والمخاطبةُ، فغلبتِ المخاطبةُ؛ لأنها أقوى وأرسخُ أصلاً من الغيبة.

[﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ * فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَدِيرِيتِ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ﴾ ٥٦-٥٨]

وقرأ الأعمش: «جوابُ قومه»، بالرفع. والمشهورُ أحسنُ. ﴿يَنْظَهُرُونَ﴾ يتنزَّهُون عن القاذوراتِ كُلِّها، فيُنكرونها هذا العملُ القدر، ويُغيظنا إنكارُهم. وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: هو استهزاء. ﴿قَدَرْنَاهَا﴾ قدرنا كونها. ﴿مِنَ الْغَدِيرِيتِ﴾: كقوله: ﴿قَدَرْنَا إِنَّهَا لِحَنِ الْغَدِيرِيتِ﴾ [الحجر: ٦٠] فالتقديرُ واقعٌ على الغبورِ في المعنى.

مَوْضِعِهِ، ثم أَضْرَبَ عن الكلِّ بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ أي: كيف يُقال لمن يرتكبُ هذه السَّنْءَاءَ: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟! فأولى حَرْفِ الإِضْرَابِ ضَمِيرٌ ﴿أَنْتُمْ﴾ وجعلهم قوماً جاهلين، والتفت في ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مَوْبِخًا مُعَيَّرًا^(١).

قوله: (وقرأ الأعمش: «جوابُ قومه» بالرفع)، قال ابن جني: والحسنُ أيضاً، والنَّصْبُ أقوى بأن يُجعل اسم «كان» قوله ﴿أَنْ قَالُوا﴾ لِشِبْهِ «أَنْ» بالمُضْمَرِ من حيث كانت لا تُوصف، كما لا يُوصَفُ المُضْمَرُ، والمُضْمَرُ أَعْرَفُ من هذا المَظْهَرِ^(٢).

قوله: (فالتقدير واقعٌ على الغبورِ)، أي: قَدَرُ اللّهِ وقضاؤه واقعٌ على الغبورِ؛ أي: كونها من رُمَّةِ الباقيين في العذاب؛ لأنَّ الدَّوَاتَ لا تُعَدَّدُ. قال الواحديُّ: جعلنا تقديراً وقضاءً عليها أنها من الباقيين في العذاب^(٣).

(١) في (ف): «ومُعَيَّرًا»، وليس بشيء.

(٢) «المحتسب» (٢: ١٤١).

(٣) «الوسيط» للواحد (٣: ٣٨١).

[قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾]

أمر رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه، والمصطفين من عباده. وفيه تعليم حسن، وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين، والتبرك بهما، والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه، وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المسمع. ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرأ عن كابر هذا الأدب، فحمدوا الله عز وجل، وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتذكرة، وفي مُفتتح كل خطبة، وتبعهم المترسلون؛ فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني، وغير ذلك من الحوادث التي لها شأن. وقيل: هو متصل بما قبله، وأمر بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم، والصلاة على الأنبياء عليهم السلام وأشياهم الناجين. وقيل: هو خطاب للوط عليه السلام، وأن يحمده الله على هلاك كفار قومه، وسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعصمه من ذنوبهم.

قوله: (وقيل: هو متصل بما قبله)، عطف على قوله: «أمر رسول الله ﷺ» يعني: قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إِمَّا اقْتِضَابٌ، وَهُوَ أَنْ يَفْتَضِبَ خُطْبَةً، وَيَجْعَلُهَا تَحْمِيدَةً لِتَلَاوَتِهِ الْآيَاتِ النَّاطِقَةَ بِالْبِرَاهِينِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يَشْرِكُونَ﴾ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ ﴿الآيَاتِ، أَوْ تَحْلُصُ؛ أَي: جَعَلَ التَّحْمِيدَ عَلَى الْهَالِكِينَ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ، وَالصَّلَاةَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَشْيَائِهِمْ ذَرِيعَةً إِلَى الشُّرُوعِ فِي قَضَائِهِ مَعَ مُشْرِكِي قَوْمِهِ، وَأَنَّ لَهُ وَلَهُمْ أَسْوَةٌ بِالْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِيَةِ، وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ.

قوله: (وأن يحمده الله على هلاك كفار قومه)، كما قال: ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿، أَي: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى هَلَاكِ الْأَعْدَاءِ وَنَجَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَجْلِ النِّعَمِ، وَأَجْزَلِ الْقَسَمِ.

معلومٌ أن لا خيرَ فيما أشركوه أصلاً.....

قوله: (معلومٌ أن لا خيرَ فيما أشركوه) إلى آخره، كالتعليل للخير، والتفني مُنصبٌ على العِلَّةِ والمعلولِ معاً؛ أي: ليس فيه خيرٌ لكي يُوازَنَ به بينه وبينَ الله، نحوهُ قوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]، وفيه (١) إشارةٌ إلى أن ذلك واردٌ على سبيل الاستدراج، وإرخاء العنان ليُعتبروا حيث يراود تَبَكُّيتهم. الانتصاف: كلامٌ مرَضِيٌّ، ولكن وَضَعَ مكانَ ﴿خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: «خالِقُ كُلِّ خيرٍ» فإنه مذهبٌ قَدَرِيٌّ (٢).

وقال الرَّاعِبُ في «عُرَّةَ التنزيلِ»: قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بُنِيَتْ عليه الآياتُ التاليةٌ من قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وتكلَّم أهلُ النَّظَرِ في قولك: هذا أفضلُ من هذا، وهذا خيرٌ من هذا، فقال بعضهم: يقال للخير الذي لا شرَّ فيه، والشرُّ الذي لا خيرَ فيه بالتأول؛ لأنَّ الأصلَ في باب: «أفعلٌ من كذا» التفضيل، فمعنى الآية: أنهم مشغولون بعبادة الأوثان عن عبادة الرَّحْمَنِ، وفعلُهُم يُنبئُ عن أنها تنفعُهُم فوق ما ينفعُهُم خالقُهُم، فكأثمهم قالوا: إن تلك أنفعُ لهم منه تبارك وتعالى، فقوَّروهم أولاً بقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ أي: إذا عرفتم بأنَّ الله تعالى سنَّ لكم المصالحَ، ويسرَّ لكم المنافعَ، وأنزلَ لكم المطرَ من فوق، فأنبَت ما به قوائمُ الناسِ من تحت، الله أنفعُ لكم أم الأوثان، فوضع موضعَهُ قوله: ﴿أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ أي: احتاجَ مَنْ يفعلُ هذا إلى عَضِدٍ ومُعِينٍ؟! بل الكُفَّارُ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ عن الحقِّ، وقيل: يَعْدِلُونَ بِمَنْ يفعلُ هذا غيره، تعالى الله عن ذلك، فهذا موضعُ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (٣)؛ لأنَّ أوَّلَ الذُّنُوبِ العُدُولُ عن الحقِّ وردُّه.

(١) من قوله: «كالتعليل للخير» إلى هنا، سقط من (ط).

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٧٥).

(٣) في (ح) و(ف): «فهذا من واقعه»، وفي (ط): «وهو من واقعه»، دون قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، وصوبناه من «درة التنزيل» للخطيب الإسكافي (٢: ٩٢٣).

ثُمَّ نَتَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ فَوَصَفَ مَا بَنَى مِنْ قُدْرَتِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا بِهِ مِسَاكُ الْأَرْضِ، وَخَتَمَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ﴾، أَي: أَمَعَ اللَّهُ مَنْ يَفْعَلُ مِثْلَ فِعْلِهِ؟! ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مَا لَهُمْ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَإِخْلَاصِهَا، وَ[مَا] ^(١) عَلَيْهِمْ فِي إِشْرَاكِ غَيْرِهِ فِيهَا؛ أَي: لَوْ عَلِمُوا مَا تَنْتَهَى إِلَيْهِ عَوَاقِبُ هَذَيْنِ لِمَا عَدَلُوا عَمَّا هُوَ أَنْفَعُ لَهُمْ إِلَى مَا هُوَ لَهُمْ أَضْرُّ.

ثُمَّ ثَلَاثَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ﴾، ذَكَرَهُمْ بِمَا لَا يَكَادُ يَخْلُو مِنْهُ أَحَدٌ إِذَا دُفِعَ إِلَى شِدَّةٍ أَنْ يَضْطَرَّ إِلَى الْإِنْقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ مَوْضِعٌ يَنْسَى فِيهِ الْإِنْسَانُ سَالِفَ شِدَّتِهِ بِرَاهِنِ نِعْمَتِهِ، فَفَصَّلَ بِقَوْلِهِ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أَي: مَا تَذَكَّرُونَ مَا مَرَّ مِنْ ذَهْرِكُمْ مِنْ بِلَاتِكُمْ وَشُرُورِكُمْ ^(٢).

ثُمَّ رَبْعَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، أَي: مَنْ يُنَجِّيكُمْ بِهَدَايَتِهِ وَمَا نَصَبَ لَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ بِالنُّجُومِ الَّتِي تُعَوَّلُونَ عَلَيْهَا فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ إِذَا لَمْ تَهْتَدُوا فِي الظُّلُمَاتِ؟ وَلَمَّا كَانَتْ هَدَايَتُهُ فِي الْبَحْرِ وَتَسْيِيرُهُ الْجَوَارِي بِالرِّيْحِ، ضَمَّ إِلَيْهِ الرِّيْحَ الْأُخْرَى الْمُبَشِّرَةَ بِالْقَطْرِ، فَلَمَّا خَتَمَ الْآيَةَ الَّتِي هِيَ فِي مَعْنَاهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤] خَتَمَ هَذِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿تَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لِأَنَّ الْمَذْكُورِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمَذْكُورُونَ فِي تِلْكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فَكَالْخَاتِمَةِ وَالتَّيْمِيمِ لِلسَّوَابِقِ، وَلِلذَلِكَ ضَمَّ مَعَ قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قُلُّ هَاكِنًا يَرَاهُنَّكُمْ﴾؛ أَي: مَنْ يَعْدِلُ رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي هَذَا شَأْنُهُ؟ هَلُمُّوا بُرْهَانَكُمْ وَمَا يَظْهَرُ فِي النُّفُوسِ أَنَّ مَا يَقُولُونَهُ حَقٌّ، وَأَنَّ مَا عَدَاهُ بَاطِلٌ.

(١) زيادة من «درة التنزيل».

(٢) في النسخ الخطية: «وسروركم» بالسين المهملة، وفي «درة التنزيل»: «وشركم» على الإفراد.

حتّى يوازنَ بينه وبينَ من هو خالقُ كُلِّ خيرٍ ومالكه، وإِنما هو إلزامٌ لهم وتبكيّتٌ وتَهكُّمٌ بحالهم، وذلك أثمر آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله، ولا يؤثّرُ عاقلٌ شيئاً على شيءٍ إلا لِداعٍ يدعوه إلى إيثاره؛ من زيادةٍ خيرٍ ومنفعةٍ، فقليلٌ لهم، مع العلمِ بأنّه لا خيرَ فيما آثروه، وأنهم لم يؤثروه لزيادةٍ الخيرِ ولكن هوىً وعبثاً، لِيُنَبِّهوا على الخطأِ المفرطِ والجَهْلِ المورطِ، وإضلالهم التَّمييزِ، ونبذهم المَعقُولِ، وليُعَلِّموا أنّ الإيثارَ يَجِبُ أن يكونَ للخيرِ الزائدِ. ونحوه ما حكاه عن فرعون: ﴿أمرأنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ﴾ [الزخرف: ٥٢] مع علمه أنّه ليسَ لموسى مثلَ أنهاره التي كانت تجري تحته. ثم عدّد سبحانه الخيراتِ والمنافعَ التي هي آثارُ رحمتهِ وفضلِهِ، كما عدّدَها في موضعٍ آخرِ

فقد بانَ وَوَصَحَ أنّ كلّ خاتمةٍ لائقةٍ بمكانها. هذا تلخيصُ كلامه (١).

الأساس: نعمةُ اللهِ رِهنَةٌ دائمةٌ، وهذا الشيء رِهنٌ لك: مُعدٌّ، وطعامٌ رِهنٌ.

قوله: (والجهل المورط)، الأساس: ورَّطه، وتورَّطتِ الماشيةُ: وقعت في موحلٍ، ومكان لا يُتخلَّصُ منه، وتورَّط فلانٌ ببيئتهِ، ورَّطه فيها، وأورَّطه شرَّ مورطٍ.

قوله: (ونحوه ما حكاه عن فرعون)، وهو: ﴿قالَ يَنْقُرُوا النَّاسَ لِي مُلْكٍ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أمرأنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]، فإنَّ اللعينَ لما عدَّ ما عدَّ مما اختصَّ به، وقد عَلِمَ أنّ موسى عليه السلام لم يكن عنده من ذلك شيءٌ قال: ﴿أمرأنا خيرٌ﴾ للتبكيّتِ والتَهكُّمِ؛ يعني: ثَبَّتْ عندكم واستقرَّ أنّي خيرٌ مع هذه المملكةِ البسيطةِ من هذا الضَّعيفِ الحقيرِ الذي ليس له شيءٌ منها.

قوله: (ثم عدّد سبحانه وتعالى الخيراتِ والمنافعَ)، يعني: في قوله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكََ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الروم: ٤٠].

والحاصلُ أنّ هذا الأسلوبَ من إنكارِ الشيءِ ونفيهِ على وجهِ يعرف (٢) به الخصمُ،

(١) «درة التنزيل» (٢: ٩٢٤ - ٩٢٧).

(٢) في (ط): يعترف.

ثم قال: ﴿هَذَا مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِمَّنْ شَيْءٍ﴾. وقرئ: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالتاء والياء. وعن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَرَأَهَا قَالَ: «بِاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى وَأَجَلُّ وَأَكْرَمُ».

[﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُرَّانٍ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ آءَلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾] فإن قلت: ما الفرق بين أم وأم في ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ و﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾؟ قلت: تلك متصلة؛ لأنَّ المعنى: أيها خير. وهذه مُنْقَطَعَةٌ بمعنى بل والهمزة، لَمَّا قَالَ تَعَالَى: اللَّهُ خَيْرٌ أَمِ الْآلِهَةِ؟ قال: بل أمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَيْرٌ؟ تقريراً لهم بأنَّ مَنْ قَدَّرَ

ولا ياباه فإنه تعالى أثبت لوازم الألوهية لنفسه سبحانه وتعالى ونفاها عما اتَّخَذُوهُ شُرَكَاءَ لَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا، مُؤَكِّدًا بِالْإِنْكَارِ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْبُرْهَانُ وَالْعِيَانُ، وَوَقَعَ عَلَيْهِ الْوِفَاقُ وَالِاتِّفَاقُ، وَلَفْظَةُ «أَمَّنْ» فِي كَلَامِ الْمَصْنُفِ: «ثُمَّ عَدَّدَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى» عَطْفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ؛ يَعْنِي: ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ آيَاتٍ وَدَلَائِلَ، ثُمَّ عَدَّدَ الْخَيْرَاتِ.

قوله: (وقرئ: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء والتاء)، عاصمٌ وأبو عمرو: بالياء التَّحْتَانِيَّةِ، وَالْبَاقُونَ: بِالتَّاءِ^(١).

قوله: (قال: بل أمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)، بتخفيف الميم تفسير ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ بِتَثْقِيلِ الْمِيمِ؛ لِأَنَّ «أَمَّنْ» مُنْقَطَعَةٌ، وَهِيَ عَلَى تَقْدِيرِ: بِلِ وَالْهَمْزَةِ، وَ«مَنْ» مُوَصُولَةٌ، فَكَأَنَّ الْمَعْنَى: بِلِ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَيْرٌ.

قوله: (تقريراً لهم)، يعني: أَضْرَبَ عَنِ السُّؤَالِ الْأَوَّلِ إِلَى تَقْرِيرِ الْمَعْنَى الثَّانِي؛ أَي: دَعَا

(١) وَحُجَّتُهُمْ أَنَّ الْكَلَامَ أَمَّا عَقِبَ الْمَخَاطَبَةِ، وَحِجَّةٌ مَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ أَنَّهُ جَعَلَ الْكَلَامَ خَبْرًا عَنِ أَهْلِ الشَّرِكِ وَهُمْ عُقِبٌ، فَجَرَى الْكَلَامَ عَلَى لَفْظِ الْخَيْرِ عَنْهُمْ لِعَيْبَتِهِمْ. وَلِتِمَامِ الْفَائِدَةِ انظُرْ: «حِجَّةُ الْقِرَاءَاتِ» ص ٥٣٣.

على خَلْقِ الْعَالَمِ خَيْرٌ مِنْ جَمَادٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ. وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ: (أَمَنْ) بِالْتَّخْفِيفِ. وَوَجْهُهُ أَنْ يُجْعَلَ بَدَلًا مِنْ ﴿ءَاللهُ﴾، كَأَنَّهُ قَالَ: أَمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ خَيْرٌ أَمْ مَا تُشْرِكُونَ؟ فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ نَكْتَةٍ فِي نَقْلِ الْإِخْبَارِ عَنِ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ عَنْ ذَاتِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾؟ قُلْتَ: تَأْكِيدُ مَعْنَى اخْتِصَاصِ الْفِعْلِ بِذَاتِهِ، وَالْإِيدَانُ بِأَنَّ إِنْبَاتَ الْحَدَائِقِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَصْنَافِ وَالْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ وَالرَّوَائِحِ وَالْأَشْكَالِ مَعَ حُسْنِهَا وَبِهَجَّتِهَا بِمَاءٍ وَاحِدٍ. لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ. أَلَا تَرَى كَيْفَ رَشَّحَ مَعْنَى الْاِخْتِصَاصِ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا

ذَلِكَ، أَلَسْتُمْ تُقْرُونَ^(١) أَنَّهُ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَأَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ جَمَادٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ.

قَوْلُهُ: (أَلَا تَرَى كَيْفَ رَشَّحَ مَعْنَى الْاِخْتِصَاصِ)، الْأَسَاسُ: أَصْلُ الرَّشْحِ: تَرْشِيحُ الظَّبْيَةِ وَلَدَهَا تُعَوِّدُهُ الْمَشْيَ فَيَرْشَحُ، وَرَشَحَتِ الْقِرْبَةُ الْمَاءَ، وَرَشَّحَ الْكَوْزُ، وَكُلُّ إِنَاءٍ يَرْشَحُ بِهَا فِيهِ^(٢).

وَفِي الْاِصْطِلَاحِ: هُوَ أَنْ يَعْقَبَ الْاِسْتِعَارَةَ بِصِفَةِ مُثَلَّثَةٍ لِلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ، مَبَالِغَةٌ لِتَنَاسِيِ التَّشْبِيهِ، وَأَنَّ الْمُسْتَعَارَ لَهُ دَخَلَ فِي جِنْسِ الْمُسْتَعَارِ مِنْهُ، حَيْثُ تَفَرَّعَ عَلَيْهِ مَا تَفَرَّعَ عَلَى الْمُسْتَعَارِ مِنْهُ.

وَالْخُلَاصَةُ: أَنَّ التَّرْشِيحَ كَالْتَّرْبِيَةِ لِفَائِدَةِ كَلَامٍ يُوَلِّغُ فِيهِ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «رَشَّحَ مَعْنَى الْاِخْتِصَاصِ» لَا أَنَّهُ تَرْشِيحٌ اِصْطِلَاحِيٌّ، أَمَّا الْاِخْتِصَاصُ فَهُوَ مُسْتَفَادٌ مِنَ الْإِضْرَابِ، وَنَقْيِ الْحَيْرِيَّةِ عَنِ الشُّرَكَاءِ، وَإِثْبَاتِهَا لِلَّهِ تَعَالَى بَعْدَمَا أُثْبِتَ لَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ءَاللهُ خَيْرٌ﴾ عَلَى سَبِيلِ التَّبْكِيكِتِ.

وَأَمَّا التَّأْكِيدُ فِيهِ، فَمِنْ نَقْلِ الْخَطَابِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى التَّكَلُّمِ؛ لِأَنَّهُ أَقْوَى وَأَرْسَخُ أَصْلًا مِنْهُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يَكُونَ الْخَطَابُ بَيْنَ الْحَاضِرِينَ، وَلِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِخْبَارِ^(٣) أَنْ يُخْبِرَ الْإِنْسَانَ عَنِ نَفْسِهِ، ثُمَّ عَنِ نَفْسِهِ وَعَمَّنْ مَعَهُ، ثُمَّ عَنِ الْمُخَاطَبِ، ثُمَّ عَنِ الْغَائِبِ، ثُمَّ مِنْ

(١) فِي (ح) وَ(ف): «مُقْرُونَ»، وَلَا يَصِحُّ.

(٢) فِي (ف): «يَرْشَحُ».

(٣) فِي (ح) وَ(ف): «الْاِخْتِبَارُ».

كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴿ وَمَعْنَى الْكَيْنُونَةِ: الْإِنْبِغَاءُ. أَرَادَ أَنْ تَأْتِيَ ذَلِكَ مُحَالًا مِنْ غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿بَلْ هُمْ﴾ بَعْدَ الْخِطَابِ: أَبْلَغُ فِي تَخْطِئَةِ رَأْيِهِمْ. وَالْحَدِيثُ: الْبُسْتَانُ عَلَيْهِ حَائِطٌ؛ مِنَ الْإِحْدَاقِ، وَهُوَ: الْإِحَاطَةُ. وَقِيلَ: ﴿ذَاتُ﴾؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى: جَمَاعَةُ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ، كَمَا يُقَالُ: النَّسَاءُ ذَهَبَتْ. وَبِالْبَهْجَةِ: الْحُسْنُ،

إِثَارَ صَيْغَةِ الْجَمْعِ الدَّالُّ عَلَى الْكِبْرِيَاءِ وَالْعِظَمَةِ، ثُمَّ رَشَّحَ هَذِهِ الْمُبَالَغَةَ وَالتَّأَكِيدَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ عَلَى أَنَّ مَعْنَى ﴿مَا كَانَ﴾: مَا يَنْبَغِي؛ يَعْنِي: لَا يَنْبَغِي وَلَا يَصِحُّ، وَلَا يَسْتَقِيمُ مِنْهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهَا، بَلْ هُوَ مِنْ خِصَائِصِ مَنْ عَظَّمَ شَأْنَهُ، وَجَلَّ سُلْطَانُهُ، فَإِنَّهُمْ أَحَقُّرٌ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ الْمَرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «مَعْنَى الْكَيْنُونَةِ: الْإِنْبِغَاءُ»، ثُمَّ رَشَّحَ هَذَا التَّحْقِيرَ بِالنَّقْلِ مِنَ الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَكُمْ﴾ إِلَى الْغَيْبَةِ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] لِعَكْسِ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ، وَهُوَ الطَّرْدُ وَالْبُعْدُ وَالتَّحْقِيرُ.

فَانظُرْ إِلَى هَذِهِ الرَّمُوزِ الَّتِي تَسْلُبُ الْعُقُولَ، ثُمَّ انظُرْ إِلَى إِدْرَاكِ الْمَصْنُفِ مَكَاتِمَهَا، وَاللَّهُ قَوْلُهُ فِي الْخُطْبَةِ: «دَرَاكًا لِلْمَحَاةِ وَإِنْ لَطْفٌ شَأْنُهَا».

قَوْلُهُ: (مِنَ الْإِحْدَاقِ وَهُوَ الْإِحَاطَةُ)، الرَّاعِبُ: الْحَدِيثُ: قَطْعَةُ مِنَ الْأَرْضِ ذَاتُ مَاءٍ سَمِّيَتْ تَشْبِيهًا بِحَدَقَةِ الْعَيْنِ فِي الْهَيْئَةِ، وَحُصُولِ الْمَاءِ فِيهَا، وَجَمْعُ الْحَدَقَةِ: حَدَاقٌ وَأَحْدَاقٌ، وَحَدَقٌ مُحَدِّقًا: شَدَّدَ النَّظْرَ، وَحَدَقُوا بِهِ: أَحَاطُوا بِهِ تَشْبِيهًا بِإِدَارَةِ الْحَدَقَةِ (٤).

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: ﴿ذَاتُ﴾، لِأَنَّ الْمَعْنَى: جَمَاعَةُ حَدَائِقَ)، قَالَ صَاحِبُ «الْفَرَائِدِ»: لَا ضَرُورَةَ فِي زِيَادَةِ لَفْظِ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ «حَدَائِقَ» مُؤَنَّثَةٌ وَاحِدَةً، مِنْ حَيْثُ إِتْمَانُ جَمْعِ، وَهِيَ كَالنِّسَاءِ، فَيُقَالُ: إِنَّ الْمَصْنُفَ يُحَقِّقُ الْأَصْلَ، وَيُقَرِّرُ وَجْهَ الْإِفْرَادِ.

قَالَ الرَّجَّاحُ: وَيَجُوزُ فِي غَيْرِ وَجْهِ الْقِرَاءَةِ: «ذَوَاتُ بَهْجَةٍ»؛ لِأَنَّهَا جَمَاعَةٌ، كَمَا تَقُولُ: نَسُوْتُكَ ذَوَاتُ حُسْنٍ، وَإِنَّمَا جَازَ ﴿ذَاتُ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]؛ لِأَنَّ الْمُؤَنَّثَ يُجَبَّرُ عَنْهُ فِي الْجَمْعِ بِلَفْظِ الْوَاحِدَةِ إِذَا أُرِدَتِ الْجَمَاعَةُ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: جَمَاعَةُ ذَاتُ بَهْجَةٍ (٥).

(٤) «مفردات القرآن» ص ٢٢٣.

(٥) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٢٨).

لأنَّ الناظر يبتهجُّ به.

﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾: أغيره يُقرَنُ به ويُجعلُ شريكاً له. وقرئ: (أولها مع الله)، بمعنى: أتدعون، أو أتشركون. ولك أن تُحقِّقَ الهمزتين، وتوسِّطَ بينهما مدَّة، وتُخرِجَ الثانيةَ بينَ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ به غيره، أو يعدِّلون عن الحقِّ الذي هو التَّوحيد.

[﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦١]

﴿أَمَّنْ جَعَلَ﴾ وما بعده بدلٌ من ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ فكان حكمها حكمه.

قوله: (لأنَّ الناظر يبتهجُّ به)، الراغب: البهجة: حُسْنُ اللَّوْنِ، وظهورُ الشُّرورِ فيه، وقد بهجَّ فهو بهيجٌ، وقد ابتهج بكذا: سرَّ به سُورًا بان أثره على وجهه، وأبهجه كذا^(١).

قوله: (وقرئ: «أولها مع الله»)، فهي شاذة^(٢)، وأما تحقُّقُ الهمزتين بينهما مدَّة فقرأه هشامٌ عن ابنِ عامرٍ^(٣).

قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ به غيره، أو يعدِّلون عن الحقِّ، عن بعضهم: عدَل فلانًا بفلان، أي: سَوَّى بينهما، والعدِلُ المشركُ يعدُّلُ بربه، وقالتِ امرأةٌ للحجاج: إنك لقايسطٌ، عادِلٌ، وعدَل عن الطريق وانعدَل: حادَ.

قوله: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ﴾ وما بعده بدلٌ من ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾، يعني: إذا أخذت مجموعَ الآيتين وخلاصتهما، وكوئهما دالِّين على اختصاصِ الله بهذه الأفعال التي لا يقدرُ عليها

(١) «مفردات القرآن» ص ١٤٨.

(٢) في (ح) و(ف): «نافع وابن كثير وأبو عمرو» بدل قوله: «فهي شاذة»، ولا يستقيم، فقراءة نافع وأبي عمرو: «أيلة»؛ بهمزة واحدة طويلة، استثقلوا الجمع بين الهمزتين. فادخلوا بينها الألف لإبعاد هذه عن هذه، ثم لبَّينا الثانية. أما قراءة ابن كثير فهي «أله» بتحقيق الهمزة من غير مدِّ وتخفيف الثانية، دون إدخال ألفٍ بينهما. انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٣٣.

(٣) وغايته تخفيفُ اللفظِ بالهمزتين مع الحائلِ بينهما.

﴿قَرَارًا﴾ دحاهها وسواها للاستقرارِ عليها ﴿حَاجِرًا﴾ كقولهِ: برزخاً.

[﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [٦٢]

الضَّرورة: الحالةُ المُحوجَّةُ إلى اللِّجأ. والاضطرار: افتعالٌ منها. يقال: اضطرَّه إلى كذا، والفاعلُ والمفعول: مُضْطَرَّ. والمُضْطَرُّ: الذي أُحوجَّه مَرَضٌ أو فَقْرٌ أو نازِلَةٌ من نوازلِ الدَّهرِ إلى اللِّجأ والتَّضَرُّعِ إلى الله. وعن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: هو المَجْهُود. وعن السُّدِّيِّ: الذي لا حَوْلَ له ولا قُوَّةَ. وقيل: المُذنبُ إذا استغفر. فإن قلت: قد عمَّ المضطربين بقوله: ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.....

غيره، وأنها دالةٌ على التَّوْحِيدِ، ونفي الضَّدِّ والنَّدِّ، كان حُكْمُ الثَّانِي حُكْمَ الأوَّلِ، فيصحُّ الإبدالُ، ولا ينبغي أن يُعتبر مُفرداتُهما في الإبدالِ لِعَدَمِ استقامةِ المعنى.

ومَّا يؤيدُ أن الإبدالَ من المعنى تذييلُ الآيتين بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، وأن الثاني بيانٌ للأوَّلِ تجهيلُهم بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]؛ أي: جاهلونٌ في أن يعدلوا^(١) به غيره، أي: يُسَوِّونَ به غيره، أو يعدلُون عن الحقِّ الذي هو التَّوْحِيدُ، ولأنَّ الآثارَ السُّفليَّةَ أظهرُ من الآثارِ العُلويَّةِ، وأقربُ خطأً^(٢) عند الأغبياء، ولأنَّ الدلائلَ كلِّها كانت أسهلَ مأخذًا كان أبينَ وأوضحَ، فصَحَّ إبدالُ الثانيةِ من الأولى، والله أعلم.

قوله: ﴿قَرَارًا﴾: دحاهها وسواها للاستقرارِ، وقال القاضي: المعنى: بإبداءِ بعضها من الماءِ، وتَسويتِها بحيثُ يتأتَّى استقرارُ الإنسانِ والدَّوابِّ عليها^(٣).

قوله: (قد عمَّ المضطربين بقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾)، يُريدُ أن المُضْطَرَّ من لَزَّتُهُ الضَّرورةُ إلى اللِّجأِ إلى الله تعالى، وقد حُكي بلامِ الاستغراقِ فيفيدُ العمومَ، وقد يوجدُ الدُّعاءُ من المُضْطَرِّ والإجابةُ مُتخلِّفةً.

(١) في (ف): «في أن يعدلون» ولا يصح، وفي (ط): «في أن يعدلوا» وله وجه صحيح.

(٢) في (ط): «خطوراً».

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٧٣).

وخلصه الجواب: أن مدخول اللام مُطلق، واللام للجنس لا للاستغراق، والمُطلق يَحْتَمِلُ الكُلَّ والبَعْضَ كاللَّفْظِ المُشْتَرَكِ، كما سَبَقَ في أوَّلِ الكِتَابِ، فَيَحْتَاجُ في تَعْيِينِ أَحَدِ مَفْهُومَيْهِ إلى القَرِينَةِ، وقَامَتِ قَرِينَةُ شَرِيحَةِ رِعَايَةِ المَصْلِحَةِ في الإِجَابَةِ فُقِيِدَتِ بِهَا.

قال صاحب «الفرائد»: ما من مُضْطَرَّرٍ دَعَاهُ إِلَّا أُجِيبَ، وَأَعِيدَ نَفْعُ دُعَائِهِ إِلَيْهِ، إِمَّا فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا فِي الآخِرَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الدُّعَاءَ: طَلِبُ شَيْءٍ، فَإِنْ لَمْ يُعْطَ ذَلِكَ الشَّيْءَ بِعَيْنِهِ يُعْطَى مَا هُوَ أَجَلٌ مِنْهُ، أَوْ إِنْ لَمْ يُعْطَ هَذَا الوَقْتَ يُعْطَى بَعْدَهُ^(١).

وقال صاحب «الانتصاف»: الإجابة مقرونة بالمشيئة لا بالمصلحة^(٢).

والقَدَرِيَّةُ يُوقِفُونَهَا عَلَى المَصْلِحَةِ لِإِجَابِهِم رِعَايَةَ المَصَالِحِ، وَقَوْلُهُ: «لَا يَحْسُنُ الدُّعَاءُ مَنْ العَبْدِ إِلَّا شَارِطًا فِيهِ المَصْلِحَةَ» غَلَطٌ، فَإِنَّ المَشِيئَةَ شَرْطٌ بِاتِّفَاقٍ، وَمَعَ ذَلِكَ كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ^(٣).

وقلت: التَّعْرِيفُ لِلْعَهْدِ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الكَلَامِ فِي المُشْرِكِينَ يَدُلُّ عَلَيْهِ الخِطَابُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ﴾، وَالْمِرَادُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُمْ عِنْدَ اضْطِرَارِهِمْ فِي تَوَازِلِ الدَّهْرِ وَخُطُوبِ الزَّمَانِ كَانُوا يَلْجَأُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى دُونَ الشُّرَكَاءِ، وَالْأَصْنَامِ، وَيَدُلُّ عَلَى التَّنْبِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مِمَّا تَدَّكَّرُونَ﴾.

قال صاحب «المفتاح»: كانوا إذا حزبتهم أمرٌ دعوا الله دون أصنامهم^(٤).

(١) لتمام الفائدة انظر كتاب «الدعاء المأثور وآدابه» للإمام الطرطوشي، فيه بحث نافع محرر.

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشف» (٣: ٣٧٧).

(٣) أخرج البخاري في «صحيحه» (٦٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدُكم: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمَ المَسْأَلَةَ، فَإِنَّهُ لَا مُكْرَهَ لَهُ»، وَهُوَ فِي «صحيح مسلم» (٢٦٧٩)، و«سنن الترمذي» (٣٤٩٧) وانظر تمام تحريجه في «صحيح ابن حبان» (٩٧٧).

(٤) «مفتاح العلوم» ص ٢٧٢.

وكم من مُضْطَرٍّ يدعوه فلا يُجَاب؟ قلت: الإجابة موقوفة على أن يكون المدعُوُّ به مصلحة، ولهذا لا يُحْسَنُ دعاءُ العبدِ إلا شارباً فيه المصلحة. وأما المضطَّرُّ فمُتَنَاوِلٌ للجنسِ مُطلقاً، يصلحُ لِكُلِّهِ ولبعضه، فلا طريقَ إلى الجزم على أحدهما إلا بدليل، وقد قام الدليلُ على البعض؛ وهو الذي أجابته مصلحة، فَبَطَلَ التَّنَاوُلُ على العموم. ﴿خُلْفَاءَ الْأَرْضِ﴾: خلفاءُ فيها، وذلك توارثُهُم سُكْنَاهَا والتَّصَرُّفُ فيها قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ. أو أَرَادَ بِالْخِلَافَةِ الْمُلْكَ والتَّسْلُطَ. وقُرئ: (يذُكَّرُونَ) بالياءِ مع الإدغام، وبالتاء

والمعنى: إذا حَزَبَكُمْ أُمَّرٌ أو قارعةٌ من قوارِعِ الدَّهْرِ إلى أن تَصِيرُوا آيِسِينَ مِنَ الْحَيَاةِ، مَنْ يُجِيبُكُمْ إلى كَشْفِهَا، وَيَجْعَلُكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ تَتَصَرَّفُونَ فِي الْبِلَادِ كَالْخُلَفَاءِ ﴿إِنَّ لَهُ مَعَ اللَّهِ﴾؟ فلا يكونُ الْمُضْطَرُّونَ عَامًّا، ولا الدُّعَاءُ؛ فَإِنَّهُ مَخْصُوصٌ بِمِثْلِ قَضِيَّةِ الْفُلْكِ، وقد أُجِيبُوا إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ بِهَمِّمِ﴾ الآية [يونس: ٢٢].

وقوله: (إلا شارباً)، استثناءٌ مفرَّغٌ؛ أي: لا يُحْسَنُ دُعَاءُ الْعَبْدِ كائناً على حالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إلا هذه الْحَالِ. وعليه دُعَاءُ الاستخارة: «إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَعَاقِبَةِ أَمْرِي» إلى قوله: «فَيَسِّرْهُ لِي»^(١) الحديث.

قوله: (أو أَرَادَ بِالْخِلَافَةِ الْمُلْكَ والتَّسْلُطَ)، الجوهريُّ: الخليفةُ: السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ، وقد يُوَثِّتُ، وأنشد القراءُ:

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى وَأَنْتَ خَلِيفَةُ ذَاكَ الْكَمَالِ^(٢)

قوله: (وقُرئ: «يذُكَّرُونَ» بالياءِ) أبو عمرو وهشام: بالياءِ التحتانية، والباقون: بالتاء^(٣).

(١) وهو ثابتٌ في «الصحيح» أخرجه البخاري (١١٦٢) من حديثِ جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) انظر: «معاني القرآن» للقراء (١: ٢٠٨).

(٣) وحُجَّتُهُمْ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ مِنَ الْمُخَاطَبَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، فَأَجْرُوا بِلَفْظِ الْمُخَاطَبَةِ إِذْ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ و﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾. انتهى من «حجّة القراءات»

مع الإدغام والحذف. وما مَزِيدَة، أي: يذكرون تذكراً قليلاً. والمعنى: نفِي التذكُّر، والقِلَّةُ تستعملُ في معنى النَّفْيِ.

[﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾
أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾]

﴿يَهْدِيكُمْ﴾ بالنُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، وَالْعَلَامَاتِ فِي الْأَرْضِ: إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ عَلَيْكُمْ مُسَافِرِينَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

[﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٦٤﴾]

فإن قلت: كيف قيل لهم: ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وهم مُنْكَرُونَ لِلإِعَادَةِ؟ قلت: قد أُزِيحَتْ عَنْهُمْ بِالتَّمَكِينِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالإِقْرَارِ، فَلَمْ يَبْتَقِ لَهُمْ عُذْرٌ فِي الإِنْكَارِ،

قوله: (وَالْقِلَّةُ تُسْتَعْمَلُ فِي مَعْنَى النَّفْيِ)، وَأَنْشُد:

قَلِيلٌ بِهَا الْأَصْوَاتُ إِلَّا بُغَامُهَا^(١)

أي: ليس بها صوتٌ إلا صوتُ الطُّبَّاءِ، البُّغَامُ - بالباءِ الموحدة والغينِ المُعْجَمَةِ - صوتُ الطَّبَّيَّةِ، وعليه يُجْمَلُ قَوْلُ زُهَيْرٍ^(٢):

قَلِيلُ الْأَلْيَا حَافِظٌ لِيَمِينِهِ وَإِنْ سَبَقَتْ مِنْهُ الْأَلْيَةُ بَرَّتْ^(٣)

(١) لذي الرمة في «ديوانه» ص ٧١٦ وصدّره:

أُنِيخَتْ فَالْفَتْ بَلْدَةٌ بَعْدَ بَلْدَةٍ

(٢) كذا قال الإمام الطيبي رحمه الله، ولعله مما سبق إليه الوهم، وإلا فإنّ قائل ذلك هو كَثِيرٌ عَزَّةٌ، كما سيأتي بيانه.

(٣) «ديوان كَثِيرٍ عَزَّة» ص ٣٨. والبيت من قصيدته الشهيرة:

خَلِيلِي هَذَا رُبْعُ عَزَّةٍ فَاعْقِلَا قَلُوصَيْكُمَا ثَمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتْ

قلت: الألياء: جَمْعُ أَلْيَةٍ وَهِيَ الْيَمِينُ يَحْلِفُ بِهَا الرَّجُلُ. وَلْتَمَامِ الْفَائِدَةِ انظر «لسان العرب» (الو).

﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ الماء، ومن ﴿الْأَرْضِ﴾ النبات. ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنْ مَعَ اللَّهِ إلهًا
فأين دليلكم عليه؟

[﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ٦٥]

فإن قلت: لم رَفَع اسمَ الله، والله يتعالى أن يكونَ مَن في السمواتِ والأرضِ؟
قلت: جاء على لغةِ بني تميم،

قوله: (جاء على لغة بني تميم)، قال المالكي^(١) في «التسهيل»: وأجاز التميميون إتياع
المنقطع إن صحَّ إغناؤه عن المُستثنى منه، وليس من تغليب العاقل على غيره فيختصُّ بأحد
وشبهه، وقال في الشرح: لغة بني تميم إعطاء المنقطع المؤخر من مُستثنيات «إلا» في غير
الإيجاب من الإتياع ما للمتصل، فيقولون: ما فيها أحدٌ إلا زيدٌ، كما يقول الجميع، وعلى
لُغتهم قولُ الرَّاجِزِ:

وبلدة ليس بها أنيسٌ إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ^(٢)

ويلحق بهذا إتياع أحد المتباينين الآخر؛ نحو: ما أتاني زيدٌ إلا عمرو، وما أعانته
إخوانكم إلا إخوانه، وهما من أمثلة سيبويه. والأصل: ما أتاني أحدٌ إلا عمرو، وما أعانته
أحدٌ إلا إخوانه، فجعل مكان «أحد» بعض مدلوله، وهو زيدٌ وإخوانكم، ولو لم يُذكر
الدُّخلاء فيمن نفي عنه الإتيان والإعانة، لكن ذكراً توكيداً لقسطهما من النفي دفْعاً لتوهم
المُخاطَب أن المتكلم لم يعترض عليه هذا الذي أكد به، فذكره توكيداً، وشرط الإتياع في هذا
النوع أن يستقيم حذفُ المُستثنى منه، والاستغناء عنه بالمُستثنى، فإن لم يوجد هذا الشرط
تعيَّن النَّصْبُ عند الجميع، كقوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود:
٤٣] «فمن رحِم» في موضع نصبٍ على الاستثناء، ولا يجوز فيه الإتياع؛ لأن الاستغناء

(١) يعني ابن مالك النحوي صاحب «الألفية» المشهورة في «النحو».

(٢) لجران العوذ في «ديوانه» ص ٥٣. وهو من شواهد «الكتاب» لسيبويه (٢: ٣٢٢)، ولتمام الفائدة انظر:

«خزانة الأدب» للبغدادي (٤: ١٢٣).

به عما قبله ممتنع إلا بتكلف. وزعم المازني: أن إتباع المنقطع من تغليب ما يعقل على ما لا يعقل.

قال ابن خروف: وهذا فاسد، لأنه لا يتوهم ذلك إلا في لفظ واحد، والذي يُبدل منه في هذا الباب ليس بلفظ واحد، بل أكثر من أن يُحصى.

ثم قال المالكي: زعم الزمخشري أن قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع جاء على لغة تميم؛ لأن الله تعالى، وإن صحَّ الإخبار عنه بأنه في السماوات والأرض، وإنما ذلك على المجاز، لأنه مقدس عن الكون في مكان، بخلاف غيره، فإنه إذا أُخبر عنه بأنه في السموات أو في الأرض، فإنه كائن فيها حقيقة، ولا يصح حمل اللفظ في حال واحد على الحقيقة والمجاز، والصحيح عندي أن الاستثناء في الآية متصل، وفي متعلقه بغير «استقر» من الأفعال المنسوبة على الحقيقة إلى الله تعالى، وإلى المخلوقين كذكر ويذكر، فكأنه قيل: لا يعلم من يذكر في السماوات والأرض الغيب إلا الله تعالى.

ويجوز تعليق «في» بـ«استقر» مسندًا إلى مضاف حذف، وأقيم المضاف إليه مقامه؛ أي: لا يعلم من استقر ذكره في السماوات والأرض الغيب إلا الله، ثم حذف الفعل والمضاف، واستتر الضمير لكونه مرفوعًا، هذا على تسليم امتناع إرادة الحقيقة والمجاز في حالة واحدة، وليس عندي ممتنعًا كقولهم: القلم أحد اللسانين، والخال أحد الأبوين، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ويُمكن أن يكون ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في موضع نصب و﴿الغيب﴾ بدل الاشتغال، والفعل مُفرغ لِمَا بَعْدَ إِلا. أي: لا يعلم غيب من في السماوات والأرض إلا الله.

وقلت: المصنف ما اختار المذهب التسمي اضطرارًا إليه، بل مُراعاة لتلك النكتة، وتحققها على ما ذكره صاحب «الفتاح»، ومن البناء على هذا التنوع؛ أي: على الدعوى قوله: «نحية بينهم ضرب وجيع»^(١).

(١) سبق تخريجه، وأنه من شعر عمرو بن معدى كرب الزبيدي.

وقوله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩] وقوله:

وبلدة ليس بها أنيسُ إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ^(١)

قال في فصل المستثنى منه، أي: أنيسها ليسوا إلا إياها. وقال فيه:

وقفتُ فيها أصيلاً لا أسألُها عييتُ جواباً وما بالرَّبِّعِ من أحدٍ
إلا أواري^(٢).....

أراد إن كان الأواري يُعدُّ أحدًا، فلا أحدَ فيه بها إلا إياه^(٣).

وعليه كلامُ المصنّف: «إن كان الله ممّن في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، فهم يَعْلَمُونَ الغَيْبَ»، أي: المقصودُ من إدخالِ رَبِّ العِزَّةِ في المُسْتَثْنَى منه بالدَّعْوَى، وجَعَلَهُ جِنْسًا مِنْهُمْ كَمَا سَبَقَ، ثم الإخراجُ بالمُسْتَثْنَى قَطْعَ القَوْلِ بِنَفْيِ مَعْرِفَةِ الغَيْبِ مِمَّنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وَأَنَّ اسْتِحَالَةَ عِلْمِهِمُ الغَيْبَ كاستِحَالَةِ أَنْ يَكُونَ اللهُ مِنْهُمْ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الآيَةِ وَالْمَثَالِ: أَنَّهُ فِي الآيَةِ ادْخَلَ اللهُ عِزًّا وَجَلَّ فِيمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ؛ لِيَجْعَلَ غَيْرَهُ مِثْلَهُ فِي مَعْرِفَةِ الغَيْبِ ادِّعَاءً، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: «فَهُمْ يَعْلَمُونَ الغَيْبَ»، وَفِي الْمَثَالِ عَكْسُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ عِلْمَ اللهِ غَامِزٌ لِكُلِّ عَالِمٍ، وَسُلْطَانُ الْإِنْسِ غَالِبٌ عَلَى كُلِّ مَنْ دُونَهُ، وَكَذَا الْمَثَالَانِ؛ أَعْنِي: «الْقَلَمُ أَحَدُ اللِّسَانِينَ» وَ«الْخَالُ أَحَدُ الْأَبْوِينِ» أَيْضًا مِنَ الْبِنَاءِ عَلَى الدَّعْوَى، كَقَوْلِهِ: «مُحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ». وَقَوْلُ الْفِرْزَدِقِ:

أبي أحمد العَيْشِيْنَ صَعَصَعَةُ الَّذِي مَتَى تُخْلِفُ الْجُوزَاءُ وَالنَّجْمُ يُمَطِّرُ^(٤)

(١) «مفتاح العلوم» ص ٢٧٢.

(٢) للنابغة الذبياني، وقد سبق تحريجه، وتامم البيت:

..... لأبى ما أبيضها والنسوي كالحوض بالمظلومة الجلد

(٣) «مفتاح العلوم» ص ٥٠٩. ووقع فيه: «إلاهو» بدلًا من «إلاه». «

(٤) لم أجدّه في «ديوانه»، ولم أهد إليه فيما بين يدي من مصادر التخريج.

حيث يقولون: ما في الدارِ أحدٌ إلا حمار، يريدون: ما فيها إلا حمار، كأنَّ أحدًا لم يُذكَر. ومنه قوله:

عَشِيَّةٌ مَا تُغْنِي الرَّمَاحُ مَكَائِهَا وَلَا النَّبْلُ إِلَّا الْمَشْرِفِيُّ الْمُصَمَّمُ

فهو إلى باب عُمومِ المَجازِ أقربُ من إرادةِ الحقيقةِ والمجازِ معًا.

ومما يقوِّي هذا التأويلَ ما ذَكَرَهُ صاحبُ «التقريب»، وفي الكلامِ تَعقيدٌ يَنْحَلُّ ببيانِ أمرين: الأول: تَوَقَّفُ النُّكْتَةِ على لغةِ التَّميميِّ، والثاني: موازنةُ الآيةِ بالبيتِ. أمَّا الأوَّلُ، فتلخيصُه: إن كان اللهُ مَنَّ فِيهَا، وهو يَعْلَمُ الغَيْبَ فِيهَا مَنْ يَعْلَمُ الغَيْبَ؛ أي: استحالتُه كاستحالتِه. وأمَّا الثاني: فِلْتَوَقَّفُهَا على تقديرِ شَرْطِيَّةٍ مثل: إن كان اليعافيرُ أنيسًا ففيها أنيسٌ، وهذا إنما يَصِحُّ على التَّميميِّ، وَجَعَلَهُ بَدَلًا من جنسِ الأوَّلِ على سبيلِ الفَرَضِ والتَّقديرِ لِتَصِحَّ تلكِ الشَّرطِيَّةِ، وأمَّا على الحجازيِّ وَنَصَبِهِ على آتِه مستثنى مُنْقَطِعٌ؛ أي: مذكورٌ بعدَ «إلا» غيرُ مُخْرَجٍ، فليس فيه أنه من جنسِ الأوَّلِ، لا حقيقةً ولا فَرَضًا، فَقَدِ انْكَشَفَ المقصودُ، واللهُ الحمد.

قوله: (عَشِيَّةٌ مَا تُغْنِي الرَّمَاحُ) البيت^(١)، النَّبْلُ: اسمُ السَّهَامِ العربيةِ، والمَشْرِفِيُّ: السَّيْفُ، قال أبو عبيدة: نُسِبَ إلى مَشَارِفٍ، وهي قرى من أرضِ العربِ^(٢) تَدْنُو مِنَ الرَّيْفِ، يُقَالُ: سَيْفٌ مَشْرِفِيٌّ، وَلَا يُقَالُ: مَشَارِفِيٌّ؛ لأنَّ الجَمْعَ لَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ.

مكائِها، أي: مكانِ الرَّمَاحِ، وهي الحربُ، وقيل: مكائِها، أي: نَفْسُهَا، وهو الوجهُ. والمُصَمَّمُ: المُحَدَّدُ الذي يُصِيبُ المَفْصَلَ، وعادةُ المُحَارِبِينَ أن يَتَنَاضَلُوا أوَّلًا، فإذا تَقَارَبُوا حاربوا بالرِّمَاحِ، وإذا التَّقَوَّأ ضارَبُوا بالسُّيُوفِ.

يَصِفُ التِّحَامَ الحربِ، والتقاءَ الصَّفِّينِ، بحيث لا يُغْنِي النَّبْلُ ولا الرَّمَاحُ، ولم يَبَقْ إلا الضَّرْبُ بالسُّيُوفِ، أي: ما يُغْنِي إلا السَّيْفُ.

(١) البيت لضرار بن الأزور قاله في حروب الردة، كما في «خزانة الأدب» (٣: ٣١٨) وهو من شواهد «الكتاب» لسيبويه (٢: ٣٢٤-٣٢٥).

(٢) في (ط): «العراق».

وقولهم: ما أتاني زيدٌ إلا عمرو، وما أعانهُ إخوانكم إلا إخوانهُ، فإن قلت: ما الداعي إلى اختيار المذهب التيممي على الحجازي؟ قلت: دعت إليه نُكْتَةُ سَرِيَّة. حيثُ أُخْرِجَ المُسْتَنَى مَخْرَجَ قَوْلِهِ: إلا العافير، بعدَ قَوْلِهِ: ليسَ بها أنيس؛ لِيُؤوَلَ المعنى إلى قولك: إن كانَ اللهُ مَنَّ في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، فَهُمُ يَعْلَمُونَ الغيبَ، يعني: أنَّ عِلْمَهُمُ الغيبَ في استحالته كاستحالة أن يكونَ اللهُ منهم، كما أنَّ معنى ما في البيت: إن كانت العافيرُ أنيساً ففيها أنيس؛ بتأ للقولِ بِخُلُوقِهَا عن الأنيس. فإن قلت: هلا زعمتَ أنَّ اللهُ مَنَّ في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، كما يقولُ المُتَكَلِّمُونَ: اللهُ في كلِّ مكان، على معنى أنَّ عِلْمَهُ في الأماكنِ كُلِّهَا، فكانَ ذَاتَهُ فيها حتَّى لا تحمِلُهُ على مذهبِ بني تميم؟ قلت: يأبى ذلك أن علمه في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ مجاز، وكونهم فيهنَّ حقيقة، وإرادةُ المتكلمِّ بعبارةٍ واحدةٍ حقيقةً ومجازاً غيرُ صحيحة، على أنَّ قولك: من في السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، وجمَعَكَ بينه وبينَهُم في إطلاقِ اسمٍ واحد: فيه إيهامٌ تسوية، والإيهاماتُ مُزَالَةٌ عنه وعن صفاته تعالى. ألا ترى كيف قال ﷺ - لمن قال: ومن يعصهما فقد غوى -:

قوله: (نُكْتَةُ سَرِيَّة)، الجوهريُّ: واسترَيْتُ الغنمَ والنَّاسَ، أي: اخترتُهم، وهي سَرِيٌّ إبله وسرأة ماله^(١).

قوله: (ومن يعصهما فقد غوى)، رويناه عن مسلم وأبي داود والنسائي عن عدي بن حاتم: أن رجلاً خطبَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ فقال: ومن يُطِيعِ اللهُ^(٢) ورسوله فقد رَسَدَ، ومن يعصهما فقد غَوَى، فقال له رسولُ اللهِ ﷺ: «بئسَ الخطيبُ أنتَ، قل: ومن يعصِ اللهُ ورسوله»^(٣) وذلك أن في الجمعِ بالضَّمير ما يُوهِمُ التَّسْوِيَةَ، والعطفُ بالواو وإن دَلَّ على الجمعِ والتَّسْوِيَةَ في الفعل، لكن في الإفرادِ وجعل أحدهما مُتَّبِعاً والآخِرَ تابِعاً ما يُزِيلُ

(١) فالسريَّة هنا: الشريفة المستجادة.

(٢) لفظ الجلالة «الله» غير موجود في (ف).

(٣) أخرجه مسلم (٨٧٠)، وأبو داود (١٠٩٩)، والنسائي (٦: ٩٠).

ذلك التَّوَهُّمَ، هذا ما يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ كَلَامِ الْمُصَنِّفِ، وَلَكِنَّهُ يُشَكِّلُ بِهَا رِوَاةَ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمَ وَالتِّرْمِذِيَّ وَالنَّسَائِيَّ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بَهْنَ طَعْمَ الْإِيْمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا» الْحَدِيثُ (١).

وَوَجَّهَهُ الْقَاضِي: ثَنَى الضَّمِيرَ هَاهُنَا إِيمَاءً إِلَى أَنَّ الْمُعْتَبَرَ هُوَ الْمَجْمُوعُ الْمَرْكَبُ مِنَ الْمُحَبِّتَيْنِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا وَحْدَهَا ضَائِعَةٌ لِأَغْيَةِ، وَأَمْرٌ بِالْإِفْرَادِ فِي حَدِيثِ عَدِيٍّ إِشْعَارًا بِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْعِضْيَانِ مَسْتَقِلٌّ بِاسْتِزْمَامِ الْغَوَايَةِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ فِي تَقْدِيرِ التَّكْرِيرِ، وَالْأَصْلُ فِيهِ الْاسْتِقْلَالُ فِي كُلِّ مِنَ الْمَعْطُوفِينَ فِي الْحُكْمِ (٢).

وَقَلْتُ: يُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:

٣١] حَيْثُ جَعَلَ مَتَابَعَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَبْنِيَّةً عَلَى حُبِّهِ اللَّهِ، وَسَبَبًا لِمُحَبَّتِهِ تَعَالَى (٣).

وَالثَّانِي قَوْلُهُ ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوْا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ». أَخْرَجَهُ مَالِكٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (٤).

وَقَالَ ﷺ: «لَا أَعْرِفَنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي، إِذَا (٥) أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، وَهُوَ مُتَكَيِّئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ فَيَقُولُ: مَا نَذَرِي مَا هَذَا، عِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ، وَلَيْسَ هَذَا فِيهِ، وَمَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَقُولَ مَا يُخَالِفُ الْقُرْآنَ، وَبِالْقُرْآنِ هَدَاهُ اللَّهُ». أَخْرَجَهُ رَزِينٌ عَنْ أَبِي رَافِعٍ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٦)، وَمُسْلِمٌ (٦٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٦٢٤)، وَالنَّسَائِيُّ (٨: ٩٤).

(٢) لَمْ أَجِدْهُ فِي «أَنْوَارِ التَّنْزِيلِ»، فَلَعَلَّ مَطْبَعَتَهُ «شَرْحُ مَصَابِيحِ السَّنَةِ» لِلْإِمَامِ الْبَيْضَاوِيِّ.

(٣) لِتِمَامِ الْفَائِدَةِ انظُرْ: «الْمُحَرَّرُ الْوَجِيزُ» لِابْنِ عَطِيَّةٍ ص ٢٩١.

(٤) أَخْرَجَهُ هَذَا اللَّفْظَ الْإِمَامُ مَالِكٌ بِلَاغًا فِي «الْمَوْطَأِ» (٢: ٨٩٩)، وَوَصَلَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٧٨٨) بِلَفْظِ:

«كِتَابُ اللَّهِ ... وَعَتَرْتِي أَهْلَ بَيْتِي» وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٥) فِي (ط): «أَنَا»، وَالْمَثْبُوتُ هُوَ الْمَوْافِقُ لِمَا فِي «جَامِعِ الْأَصُولِ» (١: ٢٨٣)، وَلَفْظُ الْحَدِيثِ فِي أَكْثَرِ مَصَادِرِهِ:

«مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ...».

«بئس خطيب القوم أنت»؟ وعن عائشة رضي الله عنها: «من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية»، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾. وعن بعضهم: أخفى غيبه عن الخلق ولم يُطلع عليه أحداً؛ لئلا يأمن أحدٌ من عباده مكّره. وقيل: نزلت في المشركين حين سألوا رسول الله ﷺ عن وقت الساعة. ﴿إِيَّانَ﴾ بمعنى متى، ولو سُمِّيَ: لكان فعلاً؛ من أن يئین، ولا نصرف. وقُرئ: (إِيَّان) بكسر الهمزة.

وقد روى الترمذي وأبو داود عنه نحوه^(١).

وأما حديث عائشة رضي الله عنها فقد رواه البخاري ومسلم والترمذي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها وأولها: من زعم أنه يُخبر ما في غد^(٢).

النهاية: الفرية على الله: الكذب، يُقال: قرى يفري فرياً، وافتري يفترى افتراءً: إذا كذب، وهو افتعال منه.

قوله: (لِكَانَ فَعَالًا)، أي: لا تكون الألف والنون زائدتين^(٣)، فيكون مُنصَرَفًا، قيل: أورد هذه المسألة لئلا يُظنَّ أنه من باب حَسَنان، حيث يجوز صرْفُه وعدْمُه، لو جعل من الحُسْن أو الحِسِّ.

الجوهري: إِيَّان، معناه: أي حين، وهو سؤال عن زمانٍ مثل: متى، وإِيَّان بكسر الهمزة: لغة سُلَيْم، حكاها الفراء^(٤)، وبه قرأ السُّلَمي^(٥) «إِيَّانَ يُبْعَثُونَ» [النحل: ٢١].

(١) وأخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٨٦١) وأبو داود (٣٠٥٠) والترمذي (٢٦٦٦٣) وابن ماجه (١٣) وصححه ابن جبان (١٣) وانظر تمامَ تحريجه في «مسند أحمد».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٥) ومسلم (١٧٧) والترمذي (٣٠٦٨).

(٣) في النسخ الخطية: «زائدتان» وهو خطأ.

(٤) في «معاني القرآن» (٢: ٩٩) وزاد: وقد سمعتُ بعضَ العرب يقول: متى إيوان ذلك.

(٥) يعني أبا عبد الرحمن كما صرح به الفراء.

[﴿ بَلِ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ ٦٦]

وَقُرِّي: (بل أدرك)، ﴿ بَلِ أَدْرَكَ ﴾، (بل أدرك)، (بل تدارك)، (بل أدرك) بهمزتين.

قوله: (وقرئ: بل أدرك)، إلى قوله: (فهذه ثنتا عشرة قراءة)، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «بل أدرك» بقطع الهمزة، وإسكان الدال من غير ألفٍ على وزن أفعل، والباقون بوصل الألف وتشديد الدال وألف بعدها.

قال ابن جنِّي: قرأ سليمان وعطاء ابنا يسار^(١) ﴿ بَلِ أَدْرَكَ ﴾ بفتح اللام ولا همزة ولا ألف. ورؤي عنها: ﴿ بَلِ أَدْرَكَ ﴾ بفتح اللام، ولا همز وتشديد الدال، وليس بعد الدال ألف، وقرأ: ﴿ بَلِ أَدْرَكَ ﴾ الحسن وابن محيَّصن.

وقرأ: «بلي» بياء «أدرك» ممدوداً ابن عباس، وقرأ ﴿ بَلِ أَدْرَكَ ﴾ مخفوض اللام، مشددة الدال الحسن، وقرأ: ﴿ بَلِ تَدَارَكَ ﴾ أبي بن كعب^(٢).

وقال الزجاج: من قرأ: «بل أدرك علمهم» فعلى التقرير والاستخبار، كأنه قيل: لم يدرك علمهم في الآخرة، أي: ليس يقفون في الدنيا على حقيقتها ثم بين ذلك بقوله: ﴿ بَلِ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾. والقراءة الجيدة ﴿ أَدْرَكَ ﴾ على معنى: تدارك، بإدغام التاء في الدال فتصير دالاً ساكنة، فلا يبتدأ بها، فيأتي بالف الوصل ليصل إلى التكلم بها. وإذا وقفت على «بل» وابتدأت قلت: «أدرك»، فإذا وصلت كسرت اللام في «بل» لسكونها وسكون الدال، وسقطت الألف؛ لأنها ألف ووصل^(٣).

وقال ابن جنِّي: أما «بل أدرك» فعلى تخفيف الهمزة بحذفها، وإلقاء حركتها على اللام الساكنة قبلها كقولك في ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ﴾، وأما «بَلِ أَدْرَكَ» بفتح اللام، فكان قياسه ﴿ بَلِ أَدْرَكَ ﴾ بكسر اللام لسكونها وسكون الدال بعدها، إلا أنه فتحت اللام؛ لأن في ذلك

(١) في (ج) (ف): «بشار» وليس بشيء.

(٢) «المحتسب» (٢: ١٤٢).

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٢٧-١٢٨).

(بَلْ آذْرِكْ)، بِالْفِ بَيْنَهُمَا. (بَلْ آذْرِكْ) بِالْتَّخْفِيفِ وَالتَّنْقِيلِ. (بَلْ آذْرِكْ) بِفَتْحِ اللَّامِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِ. وَأَصْلُهُ: بَلْ آذْرِكْ؟ عَلَى الِاسْتِفْهَامِ. (بَلَى آذْرِكْ)، (بَلَى آذْرِكْ)، (أَمْ تَدَارِكْ)، (أَمْ آذْرِكْ) فَهَذِهِ ثَلَاثَةُ قِرَاءَةٍ، وَ(آذَارِكْ): أَصْلُهُ: تَدَارِكْ، فَادْغَمْتَ التَّاءَ فِي الدَّالِ. وَآذْرِكْ: افْتَعَلَ. وَمَعْنَى آذْرِكْ عِلْمُهُمْ: انْتَهَى وَتَكَامَلَ. ﴿آذْرِكْ﴾ تَتَابَعُ وَاسْتَحْكَمَ. وَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّ أَسْبَابَ اسْتِحْكَامِ الْعِلْمِ وَتَكَامُلِهِ بِأَنَّ الْقِيَامَةَ كَائِنَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، قَدْ حَصَلَتْ لَهُمْ وَهُمْ مُكْتَنُوا مِنْ مَعْرِفَتِهِ، وَهُمْ شَاكُونَ جَاهِلُونَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ﴾: يَرِيدُ الْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا فِي جُمْلَتِهِمْ نُسِبَ فَعْلُهُمْ إِلَى الْجَمِيعِ، كَمَا يُقَالُ:

إِزَالَةَ لِقَاءِ السَّاكِنِينَ، وَعُدُولًا إِلَى الْفَتْحَةِ لِحَفَّتِهَا كَمَا رَوَيْنَا عَنْ قُطْرِبَ: أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: ﴿قَمَّ اللَّيْلُ﴾، وَبِعَ الثُّوبِ.

وَأَمَّا «بَلْ آذْرِكْ» فَإِنَّ «بَلَى» اسْتِثْنَاءٌ، وَمَا بَعْدَهَا اسْتِفْهَامٌ، كَمَا تَقُولُ: أَزِيدُ عِنْدَكَ؟ بَلْ أَجْعَلُ عِنْدَكَ؟ تَرْكَاً لِلأَوَّلِ إِلَى غَيْرِهِ لَا تَرَاجُعًا عَنْهُ^(١).

وَأَمَّا «بَلَى» فَكَانَتْ جَوَابًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فَكَانَ قَائِلًا قَالَ: مَا الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ: «بَلَى»، ثُمَّ اسْتَوْفَ^(٢) فَقِيلَ: «آذْرِكْ» عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ^(٣).

قَوْلُهُ: (يُرِيدُ الْمُشْرِكِينَ مِمَّنْ فِي السَّمَاوَاتِ)، يَعْنِي: الضَّمَاثِرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿عِلْمُهُمْ﴾، ﴿بَلْ هُمْ﴾، وَ﴿هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦] لِلْمُشْرِكِينَ، وَكُلُّهَا رَاجِعَةٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٥] وَفِيهَا الْمُؤْمِنُونَ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْمُشْرِكُونَ فِي جُمْلَتِهِمْ نُسِبَ فَعْلُهُمْ إِلَى الْجَمِيعِ.

(١) وزاد ابن جنبي: «ولكن للانتحاء عنه من بعده إلى غيره».

(٢) قوله: «فقيل له: بلى، ثم استوفى» سقط من (ح) و(ف).

(٣) «المحتسب» (٢: ١٤٣).

بنو فلان فعلوا كذا؛ وإنما فعله ناسٌ منهم. فإن قلت: إن الآية سبقت لاختصاص الله بعلم الغيب، وأن العباد لا علم لهم بشيء منه، وأن وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به، فكيف لآءم هذا المعنى وصف المشركين بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتَّمكُّن من المعرفة؟ قلت: لِمَا ذَكَرَ أَنَّ العبادَ لا يعلمون الغيب، ولا يشعرون بالبعث الكائن ووقته الذي يكون فيه، وكان هذا بياناً لعجزهم ووصفاً لقصور علمهم: وصلَّ به أن عندهم عجزاً أبلغ منه، وهو أنهم يقولون للكائِن الذي لا بُدَّ أن يكون، وهو وقت جزاء أعمالهم لا يكون، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه، واستحكام العلم به. والوجه الثاني: أن وصفهم باستحكام العلم وتكامله تهكُّمٌ بهم، كما تقول لأجهل الناس: ما أعلمك على سبيل الهُرُّو، وذلك حيث شكوا وعموا عن إثباته الذي الطريقُ إلى علمه مسلوك، فضلاً أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريقَ إلى معرفته:

قوله: (إن الآية سبقت)، تلخيص السؤال: أن قوله: «لَا يَعْلَمُونَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ» الآية، دلَّ على أنه تعالى هو وحده يعلم الغيب، وقوله: «بل أدرك علمهم» دلَّ على تكامل علمهم واستحكامه في أن القيامة كائنة، وأنهم مع ذلك مُنكرون؛ فأبي مناسبة بينهما حتى تَوَسَّطت بينهما كلمة الإضراب؟

وأجاب بجوابين:

أحدهما: أن الثانية وردت مُسْتَطَرَّةً، والمناسبة بينهما إثبات العجزين، الثاني أبلغ من الأول.

وثانيهما: أن الآية الأولى نافية لمعرفة علم الغيب العام عنهم مُطلقاً، والثانية نافية لمعرفة العلم الخاص على وجه أبلغ؛ لأن إثبات العلم على التهكُّم لإرادة التفي أبلغ من نفيه مُطلقاً، وإليه الإشارة بقوله: «فضلاً أن يعرفوا وقت كونه الذي لا طريقَ إلى معرفته» فجاء الترفي من الأدون إلى الأغلظ.

وفي «أدرك علمهم» و﴿أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ﴾: وجه آخر، وهو أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفني، من قولك: أدركت الثمرة؛ لأن تلك غابتها التي عندها تُعَدَّم، وقد فسره الحسن رضي الله عنه باضمحل علمهم. وتدارك: من: تدارك بنو فلان؛ إذا تتابعوا في الهلاك. فإن قلت، فما وجه قراءة من قرأ: بل أأدرك على الاستفهام؟ قلت: هو استفهام على وجه الإنكار لإدراك علمهم، وكذلك من قرأ: أم أدرك. وأم تدارك؛ لأنها أم التي بمعنى بل والهمزة. فإن قلت: فمن قرأ: بل أدرك، وبل أدرك؟ قلت: لما جاء بلي، بعد قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ كان معناه: بلي يشعرون، ثم فسّر الشُّعُورَ بقوله: أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التَّهَكُّمِ الَّذِي معناه: المُبَالِغَةُ في نفي العِلْمِ، فكأنه قال: شعورهم بوقت الآخرة أنهم لا يعلمون كونها، فيرجعُ إلى نفي الشُّعُورِ على أبلغ ما يكون. وأما

قوله: (وفي «أدرك علمهم» و﴿أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ﴾: وجه آخر)، عطف على قوله: «ومعنى «أدرك علمهم في الآخرة»: انتهى وتكامل».

ويجوز أن يكون متفرعاً على الجواب الثاني، أي: أن «أدرك» و«أدارك» إما متفيان على التَّهَكُّمِ، أو معناهما: انتهى وفني؛ ليحصل التَّرقِّي من النَّفْيِ إلى النَّفْيِ.

قوله: (من: تدارك بنو فلان؛ إذا تتابعوا في الهلاك)، ومنه بيت الحماسة:

أبعَدَ بَنِي أُمِّي الَّذِينَ تَتَابَعُوا أَرْجِي الحَيَاةَ أَمْ مِنَ المَوْتِ أَجْرُعُ^(١)

قوله: (فما وجه قراءة من قرأ: «بل أدرك»؟)، الفاء دلّت على الإنكار، يعني: هب أنك فسرتَها بمعنى: انتهى وفني، فما تفعل بالاستفهام الوارد على التقرير؟ وأجاب: أ جعله إنكارياً، وهو نفي أيضاً.

قوله: (فمن قرأ: «بلي»)، إنكار آخر على التأويل بالنفي، وأجاب بما يوافق النفي بالتَّهَكُّمِ لقراءة، وبالإنكار على وجه بُرْهَانِيٍّ لِأُخْرَى.

(١) للبراء بن ربيعي الفُقَيْمِي، انظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (١: ٦٠١).

من قرأ: بلى أدرك؟ على الاستفهام فمعناه: بل يشعرون متى يُبعثون، ثم أنكّر علمهم بكونها، وإذا أنكّر علمهم بكونها لم يتحصّل لهم شعورٌ بوقت كونها؛ لأنّ العلم بوقت الكائن تابعٌ للعلم بكون الكائن. ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ في شأن الآخرة ومعناها. فإن قلت: هذه الإضراباتُ الثلاثُ ما معناها؟ قلت: ما هي إلا تنزيلٌ لأحوالهم: وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون وقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة، ثم بأنهم يخبّطون في شكٍّ ومرية؛ فلا يُزيلونَه، والإزالةُ مُستطاعة. ألا ترى أنّ من لم يسمع اختلاف المذاهب وتضليل أربابها بعضهم لبعض: كان أمره أهونَ ممّن سمع بها وهو جاثمٌ لا يَشخِصُ به طلبُ التمييز بين الحقِّ والباطل، ثم بما هو أسوأ حالاً وهو العمى، وأن يكونَ مثلَ البهيمةِ قد عكفَ همّه على بطنه وفرجه، لا يخطرُ بباله حقّاً ولا باطلاً، ولا يُفكّرُ في عاقبة. وقد جعل الآخرة مبدأ عمائمهم ومنشأه؛ فلذلك عداه بـ«من» دون «عن»؛

قوله: (ثم أنكّر علمهم بكونها)، أي: قال: «أدرك علمهم في الآخرة»، بمعنى: ما أدرك علمهم في نفس الآخرة، والمراد: نفى علمهم بمعرفة وقتها بالطريق البرهاني، وإليه الإشارة بقوله: «لأنّ العلم بوقت الكائن تابعٌ للعلم بكون الكائن».

قوله: (ما هي إلا تنزيلٌ لأحوالهم)، أي: لجهلهم بأحوال القيامة، المعنى: كيف يشعرون وقتها، وهم لا يعلمون كيف كونها، وأنّ البعث والحشر ثابتٌ في نفسه؟ فإنّ الأوّل تابعٌ للثاني، بل كيف يشعرون كونها، وهم خابطون في ظلّماء الشكِّ؟ فإنّ الجاهل أهونُ حالاً من الشاك الذي يتخبّط في شكّه لِمَا يحتاج الثاني إلى إزالة الشكِّ، ثم تحصيل العلم بخلاف الجاهل، وكيف يُزيلون الشكِّ وهم كالبهائم في العمى؟ فقوله: «ثم بما هو أسوأ حالاً» عطفٌ على قوله: «ثم بأنهم يخبّطون»، وقوله: «فلا يُزيلونَه» إلى قوله: «بين الحقِّ والباطل» متفرّع على قوله: «ثم بأنهم يخبّطون» والأسلوب من باب الترقّي من الأهون إلى الأغلظ.

قوله: (وقد جعل الآخرة مبدأ عمائمهم ومنشأه)، يُريد أنّ معنى «من» في «منها» في الموضعين الابتداء، ومرجعهُ الصدورُ والإنشاء، وفيه سائبةٌ من معنى السببية، وأنّ الكفر بالآخرة سببٌ للعمى.

لأنَّ الكُفْرَ بالعاقبةِ والجزاءِ هو الذي جعلهم كالبهائم لا يتدبرون ولا يتبصرون.

[وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَاَبَاؤُنَا أَيْنَا لِمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا مَحْنُ وَاَبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٧-٦٨﴾]

العامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلَّ عليه ﴿أَيْنَا لِمُخْرَجُونَ﴾ وهو «تُخْرَجُ»؛ لأنَّ بينَ يَدَيَّ عملِ اسمِ الفاعلِ فيه عقاباً، وهي همزة الاستفهام و«إِنَّ» ولأُمُّ الابتداء، وواحدةٌ منها كافية، فكيف إذا اجتمعن؟ والمراد: الإخراجُ من الأرض، أو من حالِ الفناءِ إلى الحياة، وتكريرُ حرفِ الاستفهامِ بإدخاله على (إذا) و﴿إِنَّ﴾ جميعاً إنكارٌ على إنكار، وجحودٌ عَقِيبَ جُحود، ودليلٌ على كُفْرٍ مُؤَكِّدٍ مُبَالِغٍ فيه. والصَّمِيرُ في ﴿أَيْنَا﴾ هُمُ والآبائهم؛ لأنَّ كَوْنَهُم تراباً قد تناوَاهُم وآبَاءُهُم. فإن قلت: قدَّم في هذه الآية ﴿هَذَا﴾ على ﴿مَحْنُ وَاَبَاؤُنَا﴾، وفي آيةٍ أُخْرَى قدَّم ﴿مَحْنُ وَاَبَاؤُنَا﴾ على ﴿هَذَا﴾؟ قلت: التقديمُ دليلٌ على أنَّ المُقدَّم هو الغرضُ المُتعمَّدُ بالذِّكْر، وأنَّ الكلامَ إنما سيقَ لأجلِهِ، ففي إحدى الآيتين

قال صاحب «التقريب»: معناه: أنَّ الكُفْرَ بالجزاءِ مَبْدَأُ عَمَاهُم، وَسَبَبُ عَدَمِ تَدَبُّرِهِمْ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَصْرِفْهُ خَوْفُ الْعَاقِبَةِ فَعَلَّ مَا يَقْتَضِيهِ هَوَاهُ وَشَهْوَتُهُ، ودخل في زُمرَةِ البهائم.

قال:

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النَّفْسِ فَإِنْ نَجِدَ ذَا عِقْفَةٍ فَلِعَلَّةٍ^(١) لَا يَظْلِمُ^(٢)

قوله: (بين يَدَيَّ عملِ اسمِ الفاعلِ)، أي: المفعول، وهو «مُخْرَجُونَ»، سُمِّيَ به مجازاً؛ لأنه بُنيَ مِن: يُخْرَجُ.

قوله: (التقديمُ دليلٌ على أنَّ المُقدَّم هو الغرضُ)، تلخيصُهُ: أنَّ التقديمَ إنما يُتعمَّدُ به لاقتضاءِ المقامِ، وكونِ المُقدَّم مهتمّاً بشأنه، ولَمَّا كان الإنكارُ في هذه السُّورةِ أبلَغَ منه في تلك السُّورةِ قدَّمَ المُنكَرَ هنا، وأقره في تلك السُّورةِ في مكانه.

(١) في (ف): «فِعْلَةٌ»، والصواب ما أثبتناه.

(٢) للمتنبّي في «ديوانه» بشرح الواحدي (١: ١٧٣).

دَلَّ عَلَى أَنَّ اتِّخَاذَ الْبَعْثِ هُوَ الَّذِي تُعَمَّدُ بِالْكَلامِ، وَفِي الْأُخْرَى عَلَى اتِّخَاذِ الْمَبْعُوثِ بِذَلِكَ الصَّدَدِ.

وبيأته: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا وَبَّخَ الْمُشْرِكِينَ إِنْكَارَهُمُ الْحَشَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ نُرِيدُهُمْ﴾، ثُمَّ جَهَّلَهُمْ بِوَقْتِ الْبَعْثِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، وَتَرَقَّى فِيهِ ذَلِكَ التَّرَقِّي الْمَذْكُورُ؛ حَكَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَتَفَوَّهُونَ بِهِ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنَّا كُنَّا تَرَبًّا وَمَا أَبَاؤُنَا﴾، وَضَعُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ؛ لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ إِنَّمَا صَدَرَ عَنْهُمْ لِتِمَادِيهِمْ فِي الْكُفْرِ، حَيْثُ ضَمُّوا مَعَ ذِكْرِهِمْ ذِكْرَ آبَائِهِمْ، وَجَعَلُوهُمْ تُرَابًا صِرْفًا لِأَجْزَاءِ هُنَاكَ عَلَى صُورَةِ نَفْسِهِ، وَقَدَّمُوا الْمَنْصُوبَ عَلَى الْمَرْفُوعِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا لَكُمْ لَوِئَلَّا نَكْفُرُ﴾، وَهُوَ الْمَرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «دَلَّ عَلَى أَنَّ اتِّخَاذَ الْبَعْثِ»، وَأَمَّا فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ يَسْبِقْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

نَعَمْ حَكَى عَنْهُمْ قَوْلَهُمْ لِيُنْبَسَ بِهِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ جَرَى مِنْ مَحْضِ التَّقْلِيدِ، وَمُتَابَعَةِ أَسْلَافِهِمْ فِي تَكْذِيبِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْبَعْثِ، فَأَقْرَبَ كَلَامًا مِنَ الْمَرْفُوعِ وَالْمَنْصُوبِ فِي مَكَانِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ آبَاءَهُمْ، وَصَرَّحَ بِذِكْرِ الْعِظَامِ، وَهُوَ الْمَرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «دَلَّ عَلَى أَنَّ اتِّخَاذَ الْمَبْعُوثِ» يَعْنِي: إِنَّمَا قَدَّمُوا هَذَا هُنَا، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ الْبَعْثُ لِيُؤْذَنَ بِأَتَمِّهِمْ إِنَّمَا اتَّخَذُوا الْبَعْثَ مَنكَرًا، وَقَدَّمُوا «نَحْنُ» فِي الْمُؤْمِنِينَ لِيَعْلَمَ بِأَتَمِّهِمْ إِنَّمَا اتَّخَذُوا «الْمَبْعُوثَ بِذَلِكَ الصَّدَدِ»، أَي: هُوَ الَّذِي يَعَمَّدُ بِالْكَلامِ اتِّخَاذَ الْمَبْعُوثِ.

وَكَلَامُ صَاحِبِ «الْمِفْتَاحِ» يَجِبُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى هَذَا الْمَحْمُولِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: فَالْجِهَةُ الْمَنْظُورُ فِيهَا هُنَاكَ هِيَ كَوْنُ أَنْفُسِهِمْ تُرَابًا وَعِظَامًا، وَالْجِهَةُ الْمَنْظُورُ فِيهَا هَاهُنَا هِيَ كَوْنُ أَنْفُسِهِمْ وَكَوْنُ آبَائِهِمْ تُرَابًا لِأَجْزَاءِ هُنَاكَ مِنْ بِنَاهُمْ عَلَى صُورَةِ نَفْسِهِ، وَلَا شُبُهَةَ أَتَمَّا أَدْخَلَ عِنْدَهُمْ فِي تَبْعِيدِ الْبَعْثِ، فَاسْتَلْزَمَ زِيَادَةَ الْإِعْتِنَاءِ بِالْقَصْدِ إِلَى ذِكْرِهِ (١).

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَفِي آيَةِ أُخْرَى قَدَمَ ﴿نَحْنُ وَمَا أَبَاؤُنَا﴾»، فَمِنْ بَابِ الْمُسَاكَلَةِ، إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ تَقْدِيمٌ اصْطِلَاحِيٌّ.

قَوْلُهُ: (دَلَّ عَلَى أَنَّ اتِّخَاذَ الْبَعْثِ)، عَنْ بَعْضِهِمْ: «عَلَى» فِي الْمَوْضِعَيْنِ فَاعِلٌ «دَلَّ»؛ أَي: دَلَّ عَلَى جَعْلِ اللَّهِ الْبَعْثَ مَعْتَمَدًا فِي الْكَلامِ، وَعَلَى جَعْلِ الْمَبْعُوثِ مَعْتَمَدًا فِيهِ فِي الْأُخْرَى.

(١) «مفتاح العلوم» ص ٢٣٨.

﴿قَدْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٦٩-٧٠﴾

لم تلحق علامة التأنيث بفعل العاقبة؛ لأن تأنيثها غير حقيقي؛ ولأن المعنى: كيف كان آخر أمرهم؟ وأراد بالمجرمين: الكافرين، وإنما عبر عن الكفر بالإجرام ليكون لطفاً للمسلمين في ترك الجرائم وتخوف عاقبتها؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿فَدَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الشمس: ١٤] وقوله: ﴿وَمَا خَطِئْتَنَّهُمْ أَغْرَقُوا﴾ [نوح: ٢٥]. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لأنهم لم يتبعوك، ولم يسلموا فيسلموا وهم قومه قريش، كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِجْعِ نَفْسِكَ عَلَيَّ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]. ﴿فِي ضَيْقٍ﴾ في حرج صدر من مكرهم وكيدهم لك، ولا تبال بذلك؛ فإن الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق الشيء ضيقاً وضيقاً، بالفتح والكسر. وقد قرئ بها، والضيق أيضاً: تخفيف الضيق. قال الله تعالى: ﴿ضَيْقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] قرئ مخففاً ومثقلاً،

وقلت: هذا تلخيص المعنى؛ لأجل التركيب؛ لأن «أخذ» يقتضي مفعولاً ثانياً كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ [البقرة: ٢٣١]، فالتقدير دَلَّ على أن أخذ البعث أصلاً هو الذي يعتمد في الكلام^(١)، أي: الذي قصد في الكلام جعل البعث أصلاً ومقدماً، ويعضده قوله: إن المقدم هو الغرض المعتمد^(٢) بالذكر.

قوله: (ضَيْقًا وَضَيْقًا، بالفتح والكسر)، ابن كثير: بالكسر، والباقون: بفتحها^(٣).

(١) قوله: «أي: الذي قصد في الكلام» سقط من (ط).

(٢) في (ح): «المتعمد» وهي جيدة محتملة.

(٣) وقرئ بينها الفراء بقوله: «فالضيق ما ضاق عنه صدرك، والضيق ما يكون في الذي يتسع مثل الدار

والثوب وأشبه ذلك». انتهى من «معاني القرآن» (٢: ١١٥)، ولتمام الفائدة انظر: «حجة القراءات»

ويجوز أن يراد: في أمر ضيقٍ من مكرهم.

[«وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي

سَتَعَجِلُونَ» ﴿٧١-٧٢﴾]

استعجلوا العذاب الموعودَ فليل لهم: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ﴾ رَدْفُكُمْ بَعْضُهُ وهو عذابُ يومِ بَدْرٍ، فزيدت اللَّامَ للتأكيد؛ كالباءِ في ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٥] أو ضُمَّنْ معنى فعلٍ يتعدى باللَّامِ نحو: دنا لَكُمْ وَأَزِفَ لَكُمْ، ومعناه: وتبعكم ولحقكم، وقد عُدِّي بـ«مِنْ»، قال:

فَلَمَّا رَدَفْنَا مِنْ عُمَيْرٍ وَصَحْبِهِ تَوَلَّوْا سِرَاعاً وَالْمَنِيَّةُ تُعْنِقُ

يعني: دَنَوْنَا مِنْ عُمَيْرٍ، وقرأ الأعرج: (رَدَفَ لَكُمْ)، بوزن ذَهَبٍ، وهما لُغْتَانُ، وَالكَسْرُ أَفْصَحُ. وَعَسَى وَلَعَلَّ وَسَوْفَ فِي وَعْدِ الْمَلُوكِ وَوَعِيدِهِمْ يَدُلُّ عَلَى صَدَقِ الْأَمْرِ

قوله: (ويجوز أن يُراد: في أمر ضيقٍ)، عطفٌ على قوله: «في حَرَجِ صَدْرٍ»، يعني: ﴿ضَيْقٍ﴾ هنا مُطْلَقٌ يَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَ: ضَيْقُ صَدْرٍ؛ لاشتغاره فيه، أو يُتْرَكُ عَلَى إِطْلَاقِهِ، فَيُحْمَلُ عَلَى الْعُمُومِ، فَالْأَمْرُ بِمَعْنَى الشَّانِ وَالْحَالِ.

قوله: (فلما رَدَفْنَا مِنْ عُمَيْرٍ)، البيت^(١)، تُعْنِقُ مِنَ الْعَنْقِ: وهو السَّيرُ السَّرِيعُ السَّهْلُ، يُقَالُ: دَابَّةٌ مِغْنَاقٌ، وَمِغْنِقٌ، يَقُولُ: لَمَّا دَنَوْنَا مِنْ عُمَيْرٍ وَصَحْبِهِ لِلْمُحَارَبَةِ، أَذْبَرُوا مُسْرِعِينَ مُنْهَزِمِينَ، وَالْمَنِيَّةُ تُسْرِعُ خَلْفَهُمْ.

قوله: (وعسى ولعلَّ)، الرَّاعِبُ: عَسَى طَمَعٌ وَتَرَجٌّ، وكثيرٌ من المفسرين فسَّروا عَسَى وَلَعَلَّ بِاللَّازِمِ، وَقَالُوا: إِنْ الرَّجَاءُ وَالطَّمَعُ لَا يَصْحُحُ مِنَ اللَّهِ، وَفِي هَذَا قُصُورٌ نَظْرًا، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا ذَكَرَ ذَلِكَ يَذْكُرُهُ لِيَكُونَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ عَلَى رَجَاءٍ لَا أَنْ يَكُونَ هُوَ تَعَالَى

(١) لم أهد إلى قائل البيت فيما بين يدي من مصادر التخريج.

وجِدَّه، وما لا مجال للشك بعده، وإنما يعنون بذلك إظهارَ وقارِهِم وأتَمِّم لا يعجلون بالانتقام؛ لإدلالهم بقهرِهِم وغلبَتِهِم ووثوقِهِم بأن عدوَّهم لا يفوتُهُم، وأن الرَّمْزَةَ إلى الأغراضِ كافيةً من جهَتِهِم؛ فعلى ذلك جرى وعدُ الله ووعيدُهُ.

[وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾]

الفضلُ والفاضلة: الإفضال. ولفلانٍ فواضِلٌ في قومه وفُضُول. ومعناه: أنه مُفْضِلٌ عليهم بتأخير العقوبة، وأنه لا يعاجِلُهُم بها، وأكثرُهُم لا يعرفونَ حقَّ النُّعْمَةِ فيه، ولا يشكرونه؛ ولكنَّهُم بجَهْلِهِم يستعجلونَ وقوعَ العقاب؛ وهم قُرَيْشٌ.

[وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾]

قُرَيْ (تَكُنُّ). يقال: كَنَنْتُ الشَّيْءَ وَأَكَنْتُهُ: إذا سترته وأخفيتُهُ، يعني: أنه يعلمُ ما

راجياً. قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، أي: كُونُوا راجينَ في ذلك، ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: ٥٢]^(١).

قولُهُ: (لإدلالهم بقهرِهِم)، أي: لِوُثُوقِهِم، يُقال: هو يُدِلُّ بفلانٍ؛ أي: يَتَّقُ به.

الأساس: وأدَلَّ على قَرِيْبِهِ، ومنه: أَسَدٌ مُدِلٌّ.

قولُهُ: (الفضلُ والفاضلة: الإفضال)، الراغب: الفضلُ: الزيادةُ عن الاقتصاد، وذلك إما محمودٌ كفضلِ العلم والحلم، وإما مذمومٌ كفضلِ الغضبِ على ما يجب أن يكونَ عليه، والفضلُ في المحمودِ أكثرُ استعمالاً، والفضُولُ في المذمومِ^(٢).

قولُهُ: (قُرَيْ: «تَكُنُّ»)، قال ابن جنِّي: قراءة ابن السَّمِيعِ، وابن مُحِيصِن «تَكُنُّ» بفتح التاء، وضمَّ الكافِ، والمألوفُ أَكَنْتَ الشَّيْءَ: إذا أخفيتَهُ في نَفْسِكَ، وكَنْتُهُ: إذا سترته

(١) «مفردات القرآن» ص ٥٦٦-٥٦٧.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٦٣٩.

يُخْفُونَ وما يُعلنون من عداوة رسول الله ﷺ ومكائدهم، وهو مُعاقِبُهُم على ذلك بما يَسْتَوْجِبُونَهُ.

[﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ٧٥]

سُمِّيَ الشَّيْءُ الَّذِي يَغِيبُ وَيُخْفَى: غَائِبَةً وَخَافِيَةً، فَكَانَتِ التَّاءُ فِيهَا بِمَنْزِلَتِهَا فِي الْعَافِيَةِ وَالْعَاقِبَةِ. وَنِظَائِرُهُمَا: النَّطِيحَةُ، وَالرَّمِيَّةُ، وَالذَّبِيحَةُ، فِي أَتَمَّهَا أَسْمَاءٌ غَيْرُ صِفَاتٍ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَفَتَيْنِ وَتَأْوُهُمَا لِلْمِبَالِغَةِ، كَالرَّأْوِيَةِ فِي قَوْلِهِمْ: وَيَلُّ لِلشَّاعِرِ مِنْ رَأْوِيَةِ

بشيء، فَأَكْنَنْتُ كَأَصْمَرْتُ، وَكَنْنْتُ كَسَرْتُ، فَهَذَا الْقَارِئُ أَجْرَى الضَّمِيرِ جَرَى الْجِسْمِ السَّاتِرِ لَهَا^(١) مِبَالِغَةً، وَنَحْوُ قَوْلِ الْقَائِلِ:

وَحَاجَةٌ دُونَ أُخْرَى قَدْ عَرَضْتُ لَهَا^(٢) جَعَلْتُهَا لِلَّتِي أَخْفَيْتُ عَنْوَانَا^(٣)

وقول الحماسي:

تَغْلَغَلَ حُبُّ عَثْمَةَ فِي فُؤَادِي قَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ^(٤)

أَلَا تَرَاهُ كَيْفَ وَصَفَهُ بِمَا تُوصَفُ بِهِ الْجَوَاهِرُ مِنَ السَّرُوبِ وَالتَّغْلَغَلِ^(٥).

قَوْلُهُ: (وَ نِظَائِرُهُمَا: النَّطِيحَةُ)، الْجَوْهَرِيُّ: نَطَحَهُ الْكَبْشُ يَنْطِئُهُ وَيَنْطِئُهُ نَطْحًا، وَالنَّطِيحَةُ الْمَنْطُوحَةُ الَّتِي مَاتَتْ مِنْهُ، وَإِنَّمَا جَاءَتْ الْهَاءُ لِعَلْبَةِ الْأَسْمِ عَلَيْهَا، وَكَذَلِكَ الْفَرِيْسَةُ، وَالْأَكْبِيلَةُ، وَالرَّمِيَّةُ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ عَلَى نَطْحَتِهَا، فَهِيَ مَنْطُوحَةٌ، وَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْءُ فِي نَفْسِهِ مِمَّا يُنْطِئُ، وَالشَّيْءُ مِمَّا يُفْرَسُ.

(١) زيادة من «المحتسب».

(٢) لفظة «لها» سقطت من (ط)، و(ح) و(ف): «بها»، والمثبت من «المحتسب».

(٣) البيت لسوار بن المضرب، كما في «لسان العرب» (سنح).

(٤) البيت لعبيد الله بن عتبة بن مسعود. انظر «زهر الآداب» للحصري القيرواني (١: ٢١٢).

(٥) «المحتسب» (٢: ١٤٤).

السُّوء، كَأَنَّهُ قَالَ: وما من شيءٍ شديد الغَيْبِيَّةِ والخَفَاءِ إِلَّا وقد عَلِمَهُ اللهُ وأحاطَ به وأثبتَهُ في اللُّوحِ. المِئين: الظَّاهِرُ البَيِّنُ لمن ينظُرُ فيه من الملائكة.

[﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ * وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٧٦-٧٧ ﴾]

قد اختلفوا في المسيح فتحزَّبوا فيه أحزاباً، ووقع بينهم التناكُرُ في أشياء كثيرة حتى لَعَنَ بعضهم بعضاً، وقد نزل القرآنُ بيان ما اختلفوا فيه لو أنصفوا وأخذوا به وأسلموا، يريد: اليهود والنصارى. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: لمن أنصفَ منهم وآمن، أي: من

قوله: (يُرِيدُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى)، أي: يريد بقوله: بني إسرائيل: اليهود والنصارى لا اليهود وحدهم كما الظاهر.

والمراد بالاختلاف ما شَجَرَ بينهم في المسيح عليه السَّلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مریم: ٣٧]، وهم اليهود والنصارى في وَجِهٍ دُونَ الْوَجِهِ الْآخِرِ، وهم فِرْقُ النَّصَارَى مِنَ الْيَعْقُوبِيَّةِ وَالنُّسْطُورِيَّةِ، وَالْمَلِكَانِيَّةِ.

والمَقَامُ يقتضي العموم؛ لأنه تعالى لما وَبَّخَ المشركين ووَعَدَهُمْ وهَدَّدَهُمْ بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وبين شُمُولَ عِلْمِهِ المَعْلُومَاتِ كُلِّهَا، وَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ فِي اللُّوحِ المَحْفُوظِ، ذَكَرَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نُسخَةٌ مِنْ بَعْضِ مَا هُوَ مُثَبَّتٌ فِي اللُّوحِ المَحْفُوظِ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨].

أَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ لَوْ أَنْصَفُوا وَأَخَذُوا بِهِ وَأَسْلَمُوا، لَكِنْ هُمْ شِرْذِمَةٌ مُكَابِرَةٌ مِثْلَكُمْ أَيُّهَا الْمَشْرُكُونَ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿بِحُكْمِهِ﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴿فِي انتِقَامِهِ مِنَ الْمُبْطِلِينَ﴾ ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِالْفَضْلِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُحْقِقِينَ.

والدليل على استطراد هذا الكلام العَوْدُ إِلَى تَسْلِيَةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، وَإِلَى تَسْمِيَةِ الْمَشْرُكِينَ بِالْمَوْتَى فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾.

بني إسرائيل. أو منهم ومن غيرهم.

[﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾]

﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين من آمن بالقرآن ومن كفر به. فإن قلت: ما معنى يقضي بحكمه؟ ولا يقال: زيد يضرب بضره ويمنع بمنعه؟ قلت: معناه: بما يحكم به وهو عدله، لأنه لا يقضي إلا بالعدل، فسُمي المحكوم به حكماً. أو أراد بحكمته، ويدل عليه قراءة من قرأ: ﴿بِحُكْمِهِ﴾؛ جمع حكمة. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾؛ فلا يردُّ قضاؤه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بمن يقضي له، وبمن يقضي عليه، أو ﴿الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من المبطلين، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالفصل بينهم وبين المحققين.

[﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ * إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدَّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٩-٨١﴾]

أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين، وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلّق به الشك والظن. وفيه بيان أن صاحب الحق حقيق بالوئوق بضع الله وبنصرته، وأن مثله لا يُحذَل. فإن قلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ يُشبهه أن يكون تعليلاً آخر للتوكل، فما وجه ذلك؟ قلت: وجهه أن الأمر بالتوكل جعل مسبباً عما كان يعيظ رسول الله ﷺ من جهة المشركين وأهل الكتاب: من ترك أتباعه وتشيع ذلك بالعداوة.....

قوله: (أو منهم ومن غيرهم)، هذا أولى من الأول؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾، وقد فسر بقوله: «مَنْ آمَنَ بِالْقُرْآنِ وَمَنْ كَفَرَ بِهِ» ولما قرّره من بيان النظم، ولأن قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعريض كالتهديد، فيدخل فيه بنو إسرائيل دخولاً أولياً.

قوله: (وتشيع ذلك بالعداوة)، الأساس: ومن المجاز: شيعنا شهر رمضان بصوم

والأذى، فلام ذلك أن يُعلَّلَ توكلٌ متوكلٍ مثله، بأن اتباعهم أمرٌ قد يُبس منه، فلم يبقَ إلا الاستنصارُ عليهم لعداوتهم واستكفاءِ شُرورهم وأذاهم، وشُبِّهوا بالموتى وهم أحياءٌ صحاحُ الحواسِّ؛ لأنهم إذا سمعوا ما يُتلى عليهم من آياتِ الله فكأنوا أقماعٌ القول لا تعيه أذانهم، وكان سماعُهُم كلا سماعٍ: كانت حالهم لانتهاءِ جدوى السماعِ؛

السَّتَةِ وشيعةُ النارِ بالخطب، وشيعةٌ هذا بهذا: قواه به. المعنى: ويُقويهِ تركُ اتباعِهِ بالعداوة والأذى.

قوله: (توكلٌ متوكلٍ مثله)، كنايةٌ عنه صلوات الله عليه كأنه قيل: توكلٌ متوكلٌ ممن هو بضدِّك في بذلِ جهيدته في إيمان القوم حتى قيل له: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ﴾ [الكهف: ٦]، ومن هو له ناصرٌ، مثل ناصرِكَ، كأنه قيل له صلوات الله عليه: أعرض عنهم وتاركهم؛ لأنك بالغت في الإنذارِ، وأعدرت، وإنهم لا يؤمنون بالله، ولم يبقَ لك إلا الاستنصارُ، والتوكلُ على الغالبِ القاهرِ لأعدائه، الناصرِ والمتوليِّ لأولياته؛ لأن الأصل: فتوكلٌ عليه؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾، فوضع اسمَ الذاتِ موضعَ الضميرِ، فأفادَ في هذا المقام هذا المعنى.

الراغب: التوكلُ يُقال على وجهين: يُقال: توكلت لفلانٍ بمعنى: توليت له، ويُقال: وكنته فتوكل لي، وتوكلت عليه: اعتمدته^(١).

قوله: (أقماعُ القولِ)، النهاية: الأقماع: جمع قَمْع، كضلعٍ وأضلاع: وهو الإناء الذي يُترك في رؤوسِ الطُروفِ لثملاً بالمناعاتِ من الأشرية والأذهان، شبه أسماعَ الذين يستمعون القولَ ولا يعونه ويحفظونه ويعملون به بالأقماعِ التي لا تعي شيئاً مما يُفرغُ فيها، فكأنه يمرُّ عليها كما يمرُّ الشرابُ في الأقماعِ.

قيل: إضافةُ أقماعٍ إلى القولِ بمعنى اللام، كأن أذانهم للأقوال كالطُروفِ التي لا يبقى فيها شيءٌ من المظروفِ.

(١) «مفردات القرآن» ص ٨٨٢.

كحال الموتى الَّذِينَ فَقَدُوا مُصَحَّحَ السَّمَاعِ؛ وكذلك تشبيهُهُمَّ بِالصَّمِّ الَّذِينَ يُنْعَقُ بِهِمْ
فلا يسمعون. وَشُبِّهُوا بِالْعُمِيِّ؛ حَيْثُ يَضِلُّونَ الطَّرِيقَ وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَنْزِعَ ذَلِكَ
عَنَّهُمْ، وَيَجْعَلُهُمْ هُدَاةَ بُصْرَاءَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَإِن قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا
وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾؟ قُلْتَ: هُوَ تَأْكِيدٌ لِحَالِ الْأَصْمِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَبَاعَدَ عَنِ الدَّاعِي بَأَنْ يُؤَيِّ عَنهُ
مُدْبِرًا كَانَ أَبْعَدَ عَنِ إِدْرَاكِ صَوْتِهِ. وَقُرِي: (وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ) (وما أنت بهادِ العُمِّي)،
على الأصل. وتهدي العُمِّي. وعن ابن مسعود:

قوله: (فقدوا مُصَحَّحَ السَّمَاعِ)، أي: الحياة.

قوله: (ولا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَنْزِعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَيَجْعَلُهُمْ هُدَاةَ بُصْرَاءَ إِلَّا اللَّهُ)، الحَصْرُ
مَسْتَفَادٌ مِنْ تَقْدِيمِ الصَّمِيرِ وَإِبْلَاغِهِ حَرْفَ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُمِّي﴾.

قوله: (هو تَأْكِيدٌ لِحَالِ الْأَصْمِ)، وهو من باب التَّمِيمِ، كقول امرئ القيس:

حَمَلْتُ رُدَيْنِيَا كَانَ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ^(١)

فإن قوله: «لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ» تَمِيمٌ.

قوله: (وقرئ: «وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ»)، ابن كثير: «يَسْمَعُ» بِالْيَاءِ التَّحْتَانِيَّةِ مَفْتُوحَةٌ وَفَتْحُ
المِيمِ، وَ«الصَّمُّ» بِالرَّفْعِ^(٢)، وَالباقون: بالياء مضمومة وكسير الميم، وَ«الصَّمُّ» بِالنَّصْبِ.

قوله: (بهادِ العُمِّي، على الأصل)، أي: بالتَّنْوِينِ.

قال الرَّجَاجُ: هَذَا يَجُوزُ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَإِن لَمْ يَثْبُتْ رَوَايَةٌ^(٣).

(١) لم أجده في «ديوان امرئ القيس». والصواب أنه لعميزة بن جعل، من شعراء المفضليات، والبيت من
قصيدة له مطلعها:

أَلَا يَا دِيَارَ الْحَيِّ بِالسَّبْرَدَانِ حَلَّتْ حِجَجٌ بَعْدِي لَهْنِ ثَمَانِ

انظر: «المفضليات» ص ٢٥٩.

(٢) جعلهم الفاعلين على معنى أنهم لا ينقادون للحق لعنادهم كما لا يسمع الأصم ما يقال له. ومن قرأ
بالياء فعلى الخطاب لرسول الله ﷺ، وحجتهم أنه أشبه بها قبله. انظر: «حجة القراءات» ص ٥٣٦.

(٣) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٢٩) وزاد: ولا أعلم أحدا قرأ به.

(وما إن تهدي العمي)، وهداهُ عن الضلال، كقولك: سقاهُ عن العيمة؛ أي: أبعدهُ عنها بالسقي، وأبعده عن الضلال بالهدى.

﴿إِنْ تَسْمِعْ﴾ أي ما يجدي إسماعك إلا على الذين عَلِمَ اللهُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ، أي: يُصَدِّقُونَ بها؛ ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: مُخْلِصُونَ من قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] يعني: جَعَلَهُ سالماً لله خالصاً له.

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [٨٢]

سُمِّيَ معنى القولِ ومؤداهُ بالقول، وهو ما وُعدوا من قيامِ السَّاعَةِ والعذاب، ووقوعه: حصوله. والمراد: مشارفَةُ السَّاعَةِ وظهورُ أشراطها، وحينَ لا تنفعُ التَّوبَةُ. ودابَّةُ الأرض: الجساسة. جاء في الحديث: أن طولها ستون ذراعاً، لا يُدركُها طالب،

قوله: (وما إن تهدي العمي)، «إن» مُقحمةٌ كقول امرئ القيس:

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ حَلْفَةَ فَاجِرٍ
لَنَا مَوْافَا إِنِّ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالِي^(١)

قوله: (عن العيمة)، وهي شدة شهوة اللبن، عام عيمة فهو عيمان، والمرأة عيمي، وعلى هذا: رَمِيَتْ عَنِ الْقَوْسِ؛ لأنه يُبْعَدُ السَّهْمَ عنها بالرَّمي.

قوله: (الجساسة)، النهاية: في حديث تميم الداري: «أنا الجساسة»^(٢)، والجساسة: الدابة التي رآها في جزيرة البحر، سميت بذلك؛ لأنها تجس الأخبار للدجال، يُقال: جسّه واجتسه، مثل: جسّه، واجتسه، أي: مسّه، والمجسة: الموضع الذي يجسّه الطيب، وفي المثل: أفواؤها مجاسها، أي: الإبل، إذا أحسنت الأكل اكتفى الناظر بذلك في معرفة سمنها من أن يجسها^(٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «مجمع الأمثال» (٢: ٧١).

ولا يفوتها هارب. وروى: لها أربع قوائم وزَعَبٌ ورِيْشٌ وجناحان. وعن ابن جريج في وصفها: رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن أيل، وعنق نعامة، وصدْرُ أسد، ولون نمر، وخاصرة هرة، وذنب كبش، وخف بعير، وما بين المفصلين: اثنا عشر ذراعاً بذراع آدم عليه السلام. وروى: لا تُخْرِجُ إِلَّا رَأْسَهَا، ورأسها يبلغ أعنان السماء، أو يبلغ السحاب. وعن أبي هريرة: فيها من كل لون، وما بين قرنيها فرسخ للراكب. وعن الحسن رضي الله عنه: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام. وعن علي رضي الله عنه: أنها تُخْرِجُ ثلاثة أيام، والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها. وعن النبي ﷺ: أنه سُئِلَ: من أين تُخْرِجُ الدابة؟ فقال: «من أعظم المساجد حرمة على الله» يعني المسجد الحرام. وروى: أنها تُخْرِجُ ثلاث خراجات: تخرج بأقصى اليمن ثم تتكمن، ثم تُخْرِجُ بالبادية ثم تتكمن دهرأ طويلاً، فبينما الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله، فما يهولهم إلا خروجها من بين الركنين حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من

قوله: (وزَعَبٌ)، النهاية: الزُعْبُ: جمع الأزعَب، من الزَعَبِ: صغار الرِيْشِ أَوْلَ ما يَطْلَعُ، شبه به ما في القِثَاءِ من الزُعْبِ، وهو كالشُعَيْرَاتِ الصُّفْرِ على ريش الفَرخِ، والفَرَاخُ زُعْبٌ، وقد زَعَبَ الفَرخُ، قال الفَرزدقُ^(١) يخاطبُ عمرَ رضي الله عنه:

ماذا تقول لأفراخِ بذي مَرخٍ زُعْبِ الحَوَاصِلِ لا ماءً ولا شَجَرٍ
أَلْقَيْتُ كاسِبَهُمْ في قَعْرِ مَظْلَمَةٍ فاغْفِرْ لِيكِ سلامُ الله يا عمرُ^(٢)

قوله: (وَقَرْنُ أَيْلٍ)، الجوهريُّ: الأَيْلُ - بضمِّ الهمزة، وتشديد الياء - : الذَّكْرُ من الأَوْعَالِ، وكذلك بكسرِ الهمزة.

قوله: (أعنان السماء)، الجوهريُّ: أعنانُ السَّماءِ: صفائِحُها، وما اعترَصَ من أقطارِها، كأنه جمعُ عَنَنِ، وقيل: أعالي السَّماءِ وأفاقها.

(١) كذا قال المصنف رحمه الله، والصوابُ أنه للحطية.

(٢) «ديوان الحطية» ص ٦٦.

المسجد، فقومٌ يهربون وقومٌ يقفون نظارةً. وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية بلسانٍ ذلِقٍ فتقول: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بَيْنَنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ يعني: أن الناس كانوا لا يوقنون بخروجي؛ لأنَّ خروجها من الآيات، وتقول: ألا لعنةُ الله على الظالمين. وعن السُّدِّيِّ: تَكَلَّمُهم ببُطْلانِ الأديانِ كُلِّها سوى دينِ الإسلام. وعن ابنِ عُمَرَ رضيَ اللهُ عنه: تَسْتَقْبِلُ المَغْرِبَ فتصرخُ صرخةً تُنفِذهُ، ثم تستقبلُ المَشْرِقَ، ثم الشامَ ثم اليمنَ فتفعلُ مثلَ ذلك. وروي: تخرج من أجياد. وروي: بينا عيسى عليه السلام يطوفُ بالبيتِ ومعه المسلمون، إذ تضطربُ الأرضُ تحتهمُ تحركُ القنديلَ، وينشقُّ الصفا مما يلي المَسْعَى، فتخرجُ الدَّابةُ من الصفا ومعها عصا موسى وخاتمُ سُلَيْمانَ، فتضربُ المؤمنَ في مَسجِدِهِ، أو فيما بينَ عَيْنَيْهِ بعصا موسى عليه السلام، فتنكُتُ نكتةً بيضاءً

قولُه: (بلسانِ ذَلِقٍ)، النهاية: في الحديث: تَكَلَّمْتُ بلسانِ ذَلِقٍ طَلَقٌ؛ أي: فَصِيحٌ بليغٌ. وذَلِقٌ كُلُّ شيءٍ: حَدٌّ.

قولُه: «تنفذه»، أي: تنفذُ الصَّرخةَ من المَغْرِبِ. وفي «المعالم»: فَتَصْرُخُ ثلاثَ صَرَخاتٍ يَسْمَعُها من بينَ الخافِقِينَ^(١).

قولُه: (أجياد)، النهاية: بفتح الهمزة وسكون الجيم، وبالياءِ المُنْتَهيةِ مِن تحت: جبلٌ بمكة، وأكثرُ الناسِ يقولون: جِياد، بحذف الهمزة وكسرِ الجيم، وقيل: اسمٌ وادٍ بمكة من شِقِّ اليمنِ، وأنشدَ المصنِّفُ لنفسه:

أوادي إبراهيم بُورِكتَ من وادٍ وحُيِّتَ من دارِ علي بابِ أجياد^(٢)

قولُه: (مَسجِدِهِ)، «مَسجِدٌ» بفتح الجيم: موضعُ سُجودِ الرِّجْلِ، وهو الجِبْهةُ حيثُ يُصَيِّه نَدْبُ السُّجودِ، والآرابُ السَّبْعَةُ: مساجِدُ، والنَّدْبُ: الأثرُ إذا لم يَرْتَفِعْ عن الجِلْدِ.

(١) «معالم التنزيل» (٦: ١٨٠).

(٢) المعروف من سيرة الزمخشري أن منزله كان على باب أجياد حين كان مجاوراً لبيت الله الحرام في مكة المكرمة.

فتفسو تلك النُّكْتَةَ في وجهه حتَّى يُضِيءَ لها وجهه، أو فتتركُ وجهه كأنه كوكبٌ ذُرِّيٌّ، وتكتبُ بينَ عَيْنَيْهِ: مؤمن، وتنتكُ الكافرَ بالخاتمِ في أنفه، فتفسو النُّكْتَةَ حتَّى يَسْوَدَّ لها وجهه وتكتبُ بينَ عَيْنَيْهِ: كافر. وروي: فتجلو وجهَ المؤمنِ بالعصا وتخطُمُ أنفَ الكافرِ بالخاتمِ، ثم تقولُ لهم: يا فلان، أنت من أهلِ الجنة، ويا فلان، أنت من أهلِ النار.

وَقُرِي: (تَكَلِمُهُمْ) من الكَلِمِ: وهو الجرح. والمرادُ به: الوسمُ بالعصا والخاتمِ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿تَكَلِمُهُمْ﴾ من الكَلِمِ أيضاً، على معنى التَّكثيرِ، يقالُ: فلانٌ مُكَلِّمٌ، أي: مُجْرِحٌ. ويجوزُ أن يُسْتَدَلَّ بالتَّخْفِيفِ على أن المرادَ بالتَّكَلِيمِ: التَّجْرِيحُ، كما فسَّرَ: ﴿لَنَحْرِقَنَّهُ﴾ [طه: ٩٧]، بقراءة عليٍّ رضي الله عنه: «لَنَحْرِقَنَّهُ»، وأن يُسْتَدَلَّ بقراءة أبي: «تَنْبِئُهُمْ».

والحديثُ من رواية الإمام أحمدَ والترمذيِّ وابنِ ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تُخْرِجُ الدَّابَّةَ وَمَعَهَا خَاتَمٌ سُلَيْمَانَ وَعَصَى مُوسَى، فَتَحْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ، وَتَحْطُمُ وَجْهَ الْكَافِرِ، حَتَّى إِذَا أَهَلَ الْخِوَانِ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ هَذَا: يَا مُؤْمِنُ، وَيَقُولُ هَذَا: يَا كَافِرُ»^(١). وبقِيَّةُ الرِّوَايَاتِ اللهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا.

قوله: (فتخلو)، بالتاء المثناة وسكون الحاء المَهْمَلَةِ وفتح اللام وَصَمَّ الهمزة؛ صحَّ من المُحدِّثِينَ.

وفي نُسْخِ «الكشاف»: «فتجلو»، بالجيم، وكذا في «المطلع» و«المغرب»^(٢): جَلَأَ بالتَّحْرِيكِ: إِذَا صَارَ فِيهِ التَّحْلِيءُ، عَلَى مَفْعَلٍ بِالْكَسْرِ: مَا أَفْسَدَهُ السَّكِينُ مِنَ الْجِلْدِ إِذَا قُبِّرَ. تقول: حَلَأْتُ الْجِلْدَ: إِذَا قَشَرْتَهُ، وَأما «فتجلو» بالجيم غيرُ مهموز، فمن: جَلَوْتُ السَّيْفَ، جَلَاءً، أَي: صَفَلْتَهُ. قوله: (كما فسَّرَ): ﴿لَنَحْرِقَنَّهُ﴾ [طه: ٩٧]، وقد فسَّرَه في موضعه، قال: ذَكَرَ أَبُو عَلِيٍّ فِي

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٧٩٣٧) وابن ماجه (٤٠٦٦) والترمذي (٣١٨٧) وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

(٢) كذا قال المصنِّفُ رحمه الله، وهو وهمٌ منه، فإن المطرزي لم يذكر هذه المادة في «المغرب»، والصوابُ أنه ينقلُ عن «الصحيح» للجوهري، وانظر كلامه في «الصحيح» (حلا) (١: ٤٤-٤٥).

وبقراءة ابن مسعود: «تُكَلِّمُهُمْ بِأَنَّ النَّاسَ»، على أنه من الكلام. والقراءة بـ«إن» مكسورة: حكاية لقول الدابة، إما لأن الكلام بمعنى القول. أو بإضمار القول، أي: تقول الدابة ذلك. أو هي حكاية لقوله تعالى عند ذلك. فإن قلت: إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف تقول بآياتنا؟ قلت: قولها حكاية لقول الله تعالى، أو على معنى آيات ربنا، أو لاختصاصها بالله وأثرتها عنده، وأنها من خواص خلقه: أضافت آيات الله إلى نفسها، كما يقول بعض خاصة الملك: خيلنا وبلادنا، وإنما هي خيل مولاه وبلادها. ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار، أي: تُكَلِّمُهُمْ بَأَنَّ.

[﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [٨٣].

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُجْبَسُ أَوْهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ حَتَّى يَجْتَمِعُوا فَيُكَبِّبُوا فِي النَّارِ. وهذه

﴿لَنَحْرِقَنَّهُ﴾ أنه يجوز أن يكون «حَرَقَ» مبالغة في «حَرَقَ»، إذا بُرِدَ بِالْمَبْرَدِ، وعليه قراءة علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «لَنَحْرِقَنَّهُ»^(١).

قوله: (وبقراءة ابن مسعود: «تُكَلِّمُهُمْ بِأَنَّ النَّاسَ»)، أي: يستدلُّ بقراءته على أن المراد بقوله: «تُكَلِّمُهُمْ» بالتشديد: القول؛ لِتَعْدِيَّتِهِ بِالْبَاءِ، وذلك أن «تُكَلِّمُهُمْ» بالتشديد كان يحتمل الكلام على حذف الباء، ويحتمل التَّكْلِيمَ - أي: التجريح - على حذف اللام؛ أي: تُجَرِّحُهُمْ؛ لِأَنَّ النَّاسَ مَا كَانُوا يُوقِنُونَ بِخُرُوجِهَا، فإِتْيَانُ الْبَاءِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْكَلَامَ.

قوله: (والقراءة بـ«إن» مكسورة)، الكوفيون: ﴿أَنَّ النَّاسَ﴾ بفتح الهمزة، والباقون: بكسرها^(٢).

قوله: (وأثرتها عنده)، الأثر: البقية من الشيء المختار، يقال: استأثر الله بفلان. قوله: (فِيُكَبِّبُوا)، عن بعضهم: كَبَّهَ: صَرَعَهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَأَصْلُهُ «تُكَبِّبُوا»، فَجُعِلَتْ إِحْدَى الْبَاءَاتِ كَافًا.

(١) في الأصول الخطية: «ولنحرقنه» بالواو، والصواب ما أثبتناه.

(٢) على الاستئناف، جعلوا الكلام عند قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ تَامًا.

عبارة عن كثرة العدد وتباعده أطرافه، كما وصفت جنود سليمان بذلك. وكذلك قوله: ﴿فَوَجًّا﴾، فإن الفوج الجماعة الكثيرة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أبو جهل والوليد بن المغيرة، وشيبة ابن ربيعة: يساقون بين يدي أهل مكة، وكذلك يُحْشَرُ قَادَةُ سَائِرِ الْأُمَمِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إِلَى النَّارِ. فإن قلت: أي فرق بين من الأولى والثانية؟ قلت: الأولى للتبعيض، والثانية للتبيين، كقوله: ﴿مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾.

[﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِنَائِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمْنَا أَنَّمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ٨٤-٨٥].

الواو للحال، كأنه قال: أكذبتُم بها بادئ الرأي من غير فكر ولا نظر يُؤدِّي إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق أو بالتكذيب؟ أو للعطف، أي: أجددتموها ومع جحودكم لم تُلْقُوا أذهانكم لتَحَقِّقِهَا وَتَبْصُرِهَا؟ فإن المكتوب إليه قد يجحد أن يكون الكتاب من عند من كتبه، ولا يدع مع ذلك أن يقرأه ويفهم مضامينه، ويحيط بمعانيه. ﴿أَمَّا أَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بها للتبكي لا غير. وذلك أنهم لم يعملوا إلا

قوله: (الواو للحال)، أي: في ﴿وَلَمْ تُحِطُوا﴾ أو للعطف.

فإن قلت: ما الفرق بينهما؟

قلت: على الحال يكون المنكر التَّكْذِيبَ المَقْيَدَ بَقِيْدِ عَدَمِ التَّدْبِيرِ^(١)، فلا يكون كل واحد من التَّكْذِيبِ وَعَدَمِ النَّظَرِ مُنْكَرًا عَلَى الْإِسْتِقْلَالِ، بِخِلَافِهِ فِي الْعَطْفِ؛ أي: لم جمعتم بين هذين المنكرين؟ فإن أنكرتموه فهلاً تفكرتم فيها لِمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ يُؤَدِّيْكُمْ إِلَى التَّصْدِيقِ؟ فإن من جحد كتاباً فلا يَمْنَعُهُ الْجَحْدُ مِنْ قِرَاءَتِهِ.

قوله: (وذلك أنهم لم يعملوا)، تعليل لتفسيره قوله: ﴿أَمَّا أَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤] بأنه للتبكي لا غير؛ لأن التبكي لَزُ الْحُضْمِ إِلَى الْإِقْرَارِ بِالْمُدَّعَى، وأن ليس لهم جواب

التكذيب، فلا يقدرون أن يكذبوا ويقولوا قد صدقنا بها، وليس إلا التصديق بها أو التكذيب. ومثاله أن تقول لراعيك وقد عرفته زويعي سوء: أتأكل نعمي، أم ماذا تعمل بها؟ فتجعل ما تبتدئ به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صح عندك من أكليه وفساده، وترمي بقولك: أم ماذا تعمل بها؟ مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل؛ لتبتهته وتعلمه علمك بأنه لا يجيء منه إلا أكلها، وأنه لا يقدّر أن يدعي الحفظ والإصلاح؛ لما شهّر من خلاف ذلك. أو أراد: أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله، أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك؟ يعني أنه لم يكن لهم عمل

﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤] إلا الإقرار بالتصديق أو التكذيب، إذ لا ثالث.

ولما كان المقام مقام الصدق لا يقدرون أن يقولوا: قد صدقنا بها، فلا بد لهم أن يقولوا: كذبنا بها؛ لأنهم لم يعملوا إلا بالتكذيب، فقولته في المثال: «لا يقدّر أن يدعي الحفظ والإصلاح لِمَا شَهَرَ من خلاف ذلك» تعيين^(١) لِمَقَامِ الصِّدْقِ.

قوله: (أو أراد: أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب)، عطف على قوله: «أَكْذَبْتُمْ بِهَا» إلى قوله: «﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾» بها للتبكي، و«أم» على الأول: متصلة، وقوله: «ماذا كنتم تعملون؟» عبارة عن التصديق؛ يدل عليه قوله: «وليس إلا التصديق بها أو التكذيب» والسؤال سؤال توبيخ في مقام يضطرّ المخاطب إلى الصدق كما مرّ، فإنك إذا جعلت في مثل هذا المقام ما صحّ وثبتّ عندك يلي الهمزة «ما»، وليس بثابت يلي «أم»؛ فلا بدّ أن يوافقك المخاطب فيما هو الأصل، وعلى الثاني منقطعة، والهمزة في «أَكْذَبْتُمْ» للتقرير، وفي «أم» للإنكار.

ولهذا قال: أما كان لكم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب، ثم أضرّب عنه، وابتدأ: «﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾» سائلاً عن العمل سوى التكذيب؛ لأنه هو المهتمّ بشأنه، فنفاه عن أصله، وإليه أشار بقوله: «لم يكن لهم عمل غيره» فإذا قرّر التكذيب والكفر أولاً، ونفى غيرهما ثانياً، انحصر عملهم فيهما، وإليه أشار بقوله: «كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية»

(١) في (ط): «تبيين».

غيره، وكأثمهم لم يُخْلَقُوا إِلَّا لِلْكَفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَإِنَّمَا خُلِقُوا لِلْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، يَخَاطَبُونَ بهذا قبل كِبْهَم في النار، ثُمَّ يُكَبُّونَ فِيهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب ظلمهم، وهو التَّكْذِيبُ بِآيَاتِ اللَّهِ، فَيَسْغَلُهُمْ عَنِ النَّطْقِ وَالِاعْتِدَارِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥].

[﴿الْمَرِيرُوا أَنَا جَعَلْنَا أَيْلَ لَيْسَ كُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ﴾ ٨٦]

جُعِلَ الْإِبْصَارُ لِلنَّهَارِ وَهُوَ لِأَهْلِهِ. فَإِنْ قُلْتَ: مَا لِلتَّقَابُلِ لَمْ يُرَاعَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كُنُوا﴾ و﴿مُبْصِرًا﴾ حَيْثُ كَانَ أَحَدُهُمَا عَلَةً وَالْآخَرُ حَالًا؟ قُلْتَ: هُوَ مُرَاعَى مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، وَهَكَذَا النَّظْمُ الْمَطْبُوعُ غَيْرُ الْمُتَكَلِّفِ؛ لِأَنَّ مَعْنَى مُبْصِرًا: لِيُبْصِرُوا فِيهِ طُرُقَ التَّقَلُّبِ فِي الْمَكَاسِبِ.

[﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ

أَنفُوه دَاخِرِينَ﴾ ٨٧]

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ: ﴿فَفَزِعَ﴾ دُونَ فَيَفْزِعُ؟ قُلْتَ: لِنُكْتَةِ؛ وَهِيَ الْإِشْعَارُ بِتَحْقِيقِ

وَالْوَاوِ فِي «وَإِنَّمَا خُلِقُوا» لِلْحَالِ، وَفِيهِ تَقْرِيرٌ لِمَذْهَبِهِ.

وَقَدَّرَ بَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، أَيْ: مَاذَا أَطَقْتُمْ^(١) مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ حَتَّى تَعْلَمُوا، نَزَّهَمُ مَنْزِلَةَ الْعَجْزَةِ عَنْ خِلَافِ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ؛ لِأَنَّهُمْ مَطْبُوعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

قَوْلُهُ: (هُوَ مُرَاعَى)، أَيْ: التَّقَابُلُ مُرَاعَى مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، وَسَيَجِيءُ تَقْرِيرُهُ فِي سُورَةِ «حَمِّ الْمُؤْمِنِ» فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَوْلُهُ: (لَمْ قِيلَ: ﴿فَفَزِعَ﴾)، الرَّاعِبُ: الْفَزَعُ: انْقِبَاضٌ وَنْفَارٌ يَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنَ الشَّيْءِ

(١) فِي (ح) وَ(و) (ف): «أَطَقْتُمْ».

الفرع وثبوتَه وآتِه كائنٌ لا محالة، واقعٌ على أهلِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ؛ لأنَّ الفعلَ الماضيَ يدلُّ على وجودِ الفعلِ وكونه مقطوعاً به. والمرادُ فرَعُهُم عندَ النَّفْخَةِ الأولى حينَ يُصعِقون ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ إِلَّا مَنْ نَبَتَ اللَّهُ قَلْبَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَالُوا: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملَكُ الموتِ عليهمُ السَّلَام. وقيل: الشُّهداء. وعن الصَّحَّاح: الحور، وخزنةُ النَّارِ، وحَمَلَةُ العَرْشِ. وعن جابر: منهم موسى عليه السَّلَام؛ لأنه صَعِقَ مرَّةً. ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي

المخيف، وهو من جنس الجزع، ولا يقال: فرَعْتُ من الله، كما يُقال: خِفْتُ منه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَخْزِيهِمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، أي: الفرعُ من دخول النار، وقوله تعالى: ﴿إِذَا فُرِغَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ أي: أزيل، يُقال: فرَعَ إليه: إذا استغاث به عند الفرع، وفرَعَ له: أغاثه، وقولُ (١) الشاعر:

كنا إذا ما أتانا صارخُ فرَعٍ (٢)

أي: صارخُ أصابه فرَعٌ، ومن فسَّره بأن معناه: المُستغيث، فإنَّ ذلك تفسيرٌ للمقصود من الكلام، لا للفظِ الفرع (٣).

قوله: (وعن جابر: منهم موسى عليه السلام لأنه صَعِقَ مرَّةً)، أشار إلى حديث أبي سعيد في حديث لطم الأنصاري اليهودي، قال ﷺ: «لا تُخَيِّرُونِي مِنْ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصعِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائمِ العرشِ، فلا أدري أفاق قبلي، أو جُوزي بصعقةِ الطُّورِ». أخرجه البخاريُّ ومسلم (٤).

(١) في (ج) و(ف): «قول»، وصوبناه من «مفردات القرآن».

(٢) لسلامة بن جندل في «ديوانه» ص ١٢٣، وتمام البيت:

كان الصراخُ له قرَعُ الظنابيبِ

قلت: الظنوب: الساق. وهو كناية عن الجِدِّ والتشمير في النجدة والطلب.

(٣) «مفردات القرآن» ص ٦٣٥.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٩٨) ومسلم (٢٣٧٤) وانظر تمامَ تحريجه في «مسند الإمام أحمد» (١١٢٨٦).

الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿ [الزمر: ٦٨]. وَقُرِي: (أَتَوْهُ) و(أَتَاهُ) و(دَخِرِينَ)، فالجمع على المعنى والتَّوْحِيدُ على اللَّفْظِ. والدَّاخِرُ والدَّخِرُ: الصَّاغِرُ. وقيل: معنى الإتيان حضورهم الموقف بعد النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ. ويجوز أن يُرادَ رُجوعهم إلى أمره وانقيادهم له.

[﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ لِذِي الْأَنْفِ كُلِّ شَيْءًا إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ * مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا نَحْنُ وَهُمْ مِنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٨٨-٩٠]

﴿جَامِدَةً﴾ من جمَدٍ في مكانه إذا لم يَبْرَحْ. تُجْمَعُ الجِبَالُ فَتُسَيَّرُ كَمَا تُسَيَّرُ الرِّيحُ السَّحَابُ، فإذا نَظَرَ إليها النَّاطِرُ حَسَبَهَا واقفة ثابتة في مكانٍ واحدٍ ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ مرًّا حيثما كما يمرُّ السَّحَابُ. وهكذا الأجرامُ العظائمُ المتكاثرةُ العدد: إذا تحرَّكت لا يُكَادُ يُتَبَيَّنُ حركتها، كما قال النَّابِغَةُ في صِفَةِ جيش:

بأزَعَنَ مِثْلَ الطَّوْدِ تَحْسِبُ أَنَّهُمْ
وَقُوفٌ لِحَاجٍ وَالرَّكَّابُ تُهْمَلِجُ

قوله: (وقري: «أَتَوْهُ»)، حفصٌ وحمزة: ﴿أَتَوْهُ﴾ بقصر الهمزة وفتح التاء، والباقون: بمد الهمزة وضم التاء^(١).

قوله: (ويجوز أن يُرادَ رُجوعهم إلى أمره)، عطفٌ على قوله: «وقيل: مع الإتيان حُضورهم الموقف»، فعلى هذا يصحُّ أن يكونَ هذا النَّفْخُ في الصُّورِ والفِرْعِ.

قوله: (بأزَعَنَ مِثْلَ الطَّوْدِ)، البيت^(٢)، الرَّعْنُ: أنْفُ الجبلِ المتقدِّمِ، والجمع الرَّعُونُ، والرَّعَانُ، ثم يُشَبَّهُ به الجيشُ، فيقال: جيشٌ أزعنٌ، وهو المُضْطَرَبُ لِكثرتِه. والطَّوْرُ: الجبلُ العظيمُ.

قوله: (لِحَاجٍ)، الحَاجُّ: جمع الحَاجَّةِ، والرَّكَّابُ لا واحدَ له من لفظه، والهَمْلَجُ من

(١) وحجَّتهم قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٦]، وحفصٌ وحمزةٌ جعلاه فِعْلًا ماضيًا. انظر: «حجَّة القراءات» ص ٥٣٨-٥٣٩.

(٢) للنابغة الجعدي. انظر «لسان العرب» (صدر) و«تاج العروس» (صدر).

﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ من المصادر المؤكّدة، كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٢٢، الروم: ٦]، و﴿صَبَغَةَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٨]، إلا أن مؤكّده محذوف، وهو النَّاصِبُ لـ «يَوْمَ يُنْفَخُ»، والمعنى: ويوم يُنْفَخُ في الصُّورِ فكان كَيْتَ وكَيْتَ أثنابِ الله المُحْسِنِينَ وعاقِبِ المُجْرِمِينَ، ثم قال: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾، يُريدُ به: الإِثَابَةَ والمُعَاقِبَةَ.....

البراذين، واحد الهماليج، ومشيتها الهملجة فارسيٌّ مُعَرَّبٌ^(١)، وهي مُثَيِّ سَهْلٌ، يقول: حاربنا العدوَّ بجيشٍ مثل الجبلِ العظيمِ تُحْسِبُ أنهم وقوفٌ لحاجٍ، والحالُ أن الرُّكَّابَ تُهْمَلِجُ وتُسْرَعُ.

قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ من المصادر المؤكّدة)، الراغب: الصُّنْعُ: إجادَةُ الفعلِ، ولا يُنسَبُ إلى الحيواناتِ كما يُنسَبُ إليها الفعلُ، قال الله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾. وللإِجَادَةُ يقالُ للحاذِقِ المُجِيدِ: صَنَعَ، وللمرأة: صَنَاعٌ، قال الله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٢).

قوله: (والمعنى: يوم يُنْفَخُ في الصُّورِ فكان كَيْتَ وكَيْتَ، أثنابِ الله المُحْسِنِينَ، وعاقِبِ المُجْرِمِينَ، ثم قال: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ يريدُ به: الإِثَابَةَ والمُعَاقِبَةَ)، قلتُ: هذا يؤدِّنُ بأنَّ قبلَ ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ إضمارًا، وهو أثنابِ المُحْسِنِينَ وعاقِبِ المُجْرِمِينَ. و﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مصدرٌ مؤكّدٌ للمعنى المقدَّر.

وقوله: «وكان كَيْتَ وكَيْتَ»، كناية عن قوله: ﴿فَفَرِّعْ مَنَ فِي السَّمَوَاتِ﴾ إلى آخره، وأن قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ إلى آخر الآيتين، تلخيصٌ لمعنى ذلك المقدَّرِ وقريته له.

وقال أبو البقاء: العاملُ في ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ﴾، و﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾: اذْكَرُ، و﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مصدرٌ عَمِلَ فيه ما دلَّ عليه. ﴿تَمْرٌ﴾؛ لأنَّ ذلك من صُنِعِ الله، كأنه قال: صَنَعَ ذلك صُنْعًا^(٣).

وقال الزَّجَّاجُ: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ نصب على المصدر؛ لأنَّ قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾

(١) ذكره الجواليقي في «المُعَرَّب من الكلام الأعجمي» ص ٣٥٠.

(٢) «مفردات القرآن» ص ٤٩٣.

(٣) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠١٥).

وَهِيَ تَمْرُ مَرَّ السَّحَابِ ﴿ دليلٌ على الصَّنعةِ، كأنه قيل: صَنَعَ اللهُ ذلكَ صُنْعًا ^(١). وهذا أقربُ مما ذكره المصنّف، لكن يُحتاج في تقريره إلى بيان النَّفْخَتَيْنِ وَتَسْيِيرِ الجبالِ، وَتَبْدِيلِ السَّمَاوَاتِ والأرضِ، والذي يفهم من الكتاب والسُّنة: أَنَّ النَّفْخَةَ الأولى كائنةٌ في الدُّنيا.

روينا عن مسلم عن ابن عمرَ في حديثٍ طويلٍ: «وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فلا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إلا أَصْغَى لَيْتًا، وأوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، قال: فيَضَعُو وَيَضَعُو النَّاسُ، ثم [يُرْسِلُ اللهُ - أو] قال: ينزل اللهُ - مَطْرًا كأنه الطَّلُّ أو الظَّلُّ، فَتَنْبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثم يُنْفَخُ فيه أُخرى، فإذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» ^(٢).

وروى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهُما عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» ^(٣). قيل: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قال أبو هريرة: أَيْبُت. قالوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قال: أَيْبُت. قالوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قال: أَيْبُت. الحديث.

وأما تَسْيِيرُ الجبالِ ومُرُورُها فبعَدَ النَّفْخَةَ الثانيةِ عندَ قيامِ القيامةِ.

قال محييُ السُّنة: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمَادَةً ﴾ وهي تَسِيرُ سَيْرَ السَّحَابِ حَتَّى تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ، فَتَسْتَوِي بِهَا.

وقال: سَيْرُ الجبالِ لا يُرى يومَ القيامةِ لِعِظَمِها، كما أَنَّ سَيْرَ السَّحَابِ لا يُرى لِعِظَمِهِ ^(٤).

وَيَنْصُرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ [الواقعة: ١] إلى قوله: ﴿ إِذَا رَحَّتِ الأَرْضُ رَجًا * وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ [الواقعة: ٤-٦] وقال: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَها ﴾ [الزلزلة: ١] إلى قوله: ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا مَآءُهَا ﴾ [الزلزلة: ٣].

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥).

(٤) «معالم التنزيل» (٦: ١٨٣) بتصرفٍ ملحوظ.

وَجَعَلَ هَذَا الصَّنْعَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي أُتِقَنَهَا وَأَتَى بِهَا عَلَى الْحِكْمَةِ وَالصَّوَابِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يعني أن مُقَابِلَتَهُ الْحَسَنَةَ بِالثَّوَابِ وَالسَّيِّئَةَ بِالْعِقَابِ؛ مِنْ جُمْلَةِ إِحْكَامِهِ لِلْأَشْيَاءِ وَإِتْقَانِهِ لَهَا، وَإِجْرَائِهِ لَهَا عَلَى قَضَايَا الْحِكْمَةِ، إِنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَفْعَلُ الْعِبَادَ وَبِمَا يَسْتَوْجِبُونَ عَلَيْهِ، فَيَكْفِئُهُمْ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ. ثُمَّ لَخَّصَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ، فَانظُرْ إِلَى بَلَاغَةِ هَذَا الْكَلَامِ، وَحُسْنِ نَظْمِهِ وَتَرْتِيبِهِ، وَمَكَانَةِ إِضْرَارِهِ، وَرِصَانَةِ تَفْسِيرِهِ، وَأَخِذْ بَعْضَهُ بِحُجْرَةِ بَعْضٍ، كَأَنَّهَا أُفْرَعٌ إِفْرَاعًا

وَإِذَا عَلِمَ هَذَا فَالْحَقُّ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَعُ فِي الصُّورِ فَنَزِعَ﴾ هُوَ النَّفْخَةُ الْأُولَى، وَأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَكُلُّ أُنُوفِهِ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] وَقَعَّ بَعْدَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى مَا قَالَ الْمَصْنُفُ، وَكَذَا عَنْ مُحْيِي السُّنَّةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مُصَدَّرٌ مُؤَكَّدٌ عَمَلٌ فِي مَا دَلَّ عَلَيْهِ ﴿تَمْرٌ﴾، كَمَا قَالَ أَبُو الْبَقَاءِ وَالزَّجَّاجُ.

وقوله: ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تَنْبِيهُ عَلَى الشَّرُوعِ فِي الْحِسَابِ، وَالْأَخْذِ فِي الْجَزَاءِ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْتِنَافِ، وَأَنَّهُ جَوَابٌ لِقَوْلِ مَنْ يَسْأَلُ: فَمَاذَا يَكُونُ بَعْدَ هَذِهِ الْقَوَارِعِ؟ فَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِعَمَلِ الْعَامِلِينَ، فَيُجَازِيهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، حَسَنًا وَسَيِّئًا، فَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُتِبَتْ وُجُوهُهُمُ فِي النَّارِ، هَذَا هُوَ النَّظْمُ الَّذِي أُفْرَعُ إِفْرَاعًا وَاحِدًا، وَرُصَّ تَرْصِيصًا مَتِينًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ.

قوله: ﴿إِنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَفْعَلُ الْعِبَادَ﴾، الرَّاعِبُ: الْحَبِيرُ: الْعِلْمُ بِالْأَشْيَاءِ الْمَعْلُومَةِ مِنْ جِهَةِ الْحَبِيرِ، وَخَبْرَتُهُ خُبْرًا وَخِبْرَةً، وَأَخْبِرْتُ: أَعْلَمْتُ بِمَا حَصَلَ لِي مِنَ الْحَبِيرِ، وَقِيلَ: الْحَبِيرَةُ: الْمَعْرِفَةُ بِبُؤَاطِنِ الْأُمْرِ، وَالْحَبَارُ وَالْحَبْرَاءُ: الْأَرْضُ اللَّيْنَةُ، وَقَدْ يُقَالُ ذَلِكَ لِمَا فِيهَا مِنَ الشَّجَرِ، وَالْمُخَابَرَةُ: مُزَارَعَةُ الْحَبَّارِ بِشَيْءٍ مَعْلُومٍ، وَالْحَبِيرُ: الْأَكْثَارُ فِيهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أَي: عَالِمٌ بِأَخْبَارِ أَعْمَالِكُمْ، وَقِيلَ: أَي: عَالِمٌ بِبُؤَاطِنِ أُمُورِكُمْ، وَقِيلَ: خَبِيرٌ بِمَعْنَى مُحْبِرٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

واحدًا، ولأمرٍ ما أعجز القوى وأخرس الشقاشق. ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام، جاء كالشاهد بصحته والمنادي على سداذه، وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان. ألا ترى إلى قوله: ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾، و﴿صَبَغَةَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٨]، و﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٢٢، الروم: ٦]، و﴿فَطَرَتَ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠]: بعدما وسمها بإضافتها إليه بسمَةِ التعظيم، كيف تلاها بقوله: ﴿الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبَغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] ﴿لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ [الروم: ٦] ﴿لَا يُبَدِّلُ لِيَخْلُقِ اللَّهُ﴾ [الروم: ٣٠] و﴿قُرَى﴾: ﴿تَفْعَلُونَ﴾، على الخطاب. ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ يريد الأضعاف وأن العمل يتقضى والثواب يدوم، وشتان ما بين فعل العبد وفعل السيد. وقيل: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾،

قوله: (الشقاشق)، النهاية: الشَّقِيقَةُ: الجِلْدَةُ الحمراء التي يُجْرِجُهَا الجَمَلُ العربيُّ من جَوْفِهِ، يَنْفُخُ فِيهَا فتنظهُرُ من شدقه، شَبَّهَ الفَصِيحُ المِنْطِيقُ بالفحل الهادر، ولسانه بشقشيقته، وفي حديث علي رضي الله عنه: «إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الخُطْبِ مِنَ شِقَاشِقِ الشَّيْطَانِ» نَسَبَهَا إِلَى الشَّيْطَانِ لِمَا يَدْخُلُ فِيهَا مِنَ الكَذِبِ والباطلِ، وكونه لا يُبَالِي بما قال. هكذا أخرجه الهروي^(١) عن علي^(٢).

وفي كتاب أبي عبيد وغيره من كلام عمر رضي الله عنه: ومنه حديث علي: «تلك شقشيقه هدرت ثم قرأت».

قوله: ﴿أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبَغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، متوافقان من حيث إن من حُسن الصَّنعة إتقانه وإحكامه، وتسويته على ما ينبغي.

قوله: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ يريد الأضعاف وأن العمل يتقضى، قال القاضي: ﴿فَلَهُ خَيْرٌ﴾ إذ ثبت له الشَّرِيفُ بالحسيس، والباقي بالفاني، وسبع مئة بواحدة^(٣).

(١) يعني الإمام الجليل أبا عبيد القاسم بن سلام الهروي.

(٢) كذا قال المصنف، والصواب: «عمر»، وهو على الجادة في «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣: ٢٩٧).

والحديث أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٧٦)، وله أصل.

(٣) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٨٠).

أي: له خيرٌ حاصلٌ من جهتها وهو الجنة، وعن ابن عباس: الحسنة كلمة الشهادة. وقرئ: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مفتوحاً مع الإضافة؛ لأنه أضيف إلى غير مُتمكّن، ومنصوباً مع تنوين ﴿فَرَجٍ﴾. فإن قلت: ما الفرق بين الفرعَيْن؟ قلت: الفرع الأول: هو ما لا يخلو منه أحدٌ عند الإحساسِ بشدّةِ تقعُّ وهولِ يَفْجَأْ؛ من رُعبٍ وهيبة، وإن كان المُحسِنُ يأمنُ لحاقَ الضّررِ به؛ كما يدخلُ الرَّجُلُ على المَلِكِ بِصدْرِ هَيَابٍ وقلبٍ وحبّاب، وإن كانت ساعةٌ إعزازٍ وتكرمةٌ وإحسانٍ وتولية. وأمّا الثاني: فالخوفُ من العذاب. فإن قلت: فمن قرأ ﴿مِن فَرَجٍ﴾ بالتّنين ما معناه؟ قلت: يَحْتَمِلُ معنيين: من فرجٍ واحدٍ وهو خوفُ العِقَابِ، وأمّا ما يلحقُ الإنسانَ من التَّهَيُّبِ والرُّعبِ لما يرى من الأهوالِ والعظائمِ، فلا يَحْتَلُونَ منه؛ لأنّ البشريّة تقتضي ذلك، وفي الأخبارِ والآثارِ ما يدلُّ عليه.

قوله: (أي: له خيرٌ حاصلٌ من جهتها)، قال أبو البقاء: ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، أي: أفضلٌ منها، فـ«من» في موضع نصبٍ، ويجوز أن يكون بمعنى فضل، وموضع «منها» رفعٌ صفةٌ لـ«خيرٍ»، أي: له خيرٌ حاصلٌ بسببها^(١).

قوله: (وقلبٍ وحبّاب)، النهاية: سمعتُ وَجِبَةً قَلْبِهِ، أي: خَفَقَانَهُ، يُقال: وَجَبَ القَلْبُ يَجِيبُ وَجِيبًا؛ إذا خَفَقَ.

قوله: (وفي الأخبارِ والآثارِ ما يدلُّ عليه)، أي: على المعنى الأولِ في الجواب، أمّا الأخبارُ، فمنها حديثُ الشَّفاعةِ، روينا عن البخاريِّ ومسلمٍ والثّرْمَذيِّ عن أبي هريرة في حديثٍ طويلٍ، وفيه: «يَجْمَعُ اللهُ الأوّلِينَ والآخِرِينَ في صَعِيدٍ واحدٍ فَيُبْصِرُهُمُ النَّاطِرُ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَتَذُنُّوهُمْ الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يُطَبِّقُونَ ولا يَحْتَمِلُونَ»^(٢)، ثم ساق الراوي الحديث، إلى أن آدم يقول: «نَفْسِي نَفْسِي»، وكذا إبراهيم وموسى وعيسى.

(١) «التبيان في إعراب القرآن» (٢: ١٠١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤).

ومن فرع شديد مُفرط الشدة لا يكتنهُه الوصف: وهو خوف النار. «أَمِنْ»: يُعدى بالجارِّ وبنفسه، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]. وقيل: السَّيِّئَةُ: الإِشْرَاكُ. يُعبَّرُ عن الجملة بالوجه والرَّأس والرَّقَبَة، فكأنه قيل: فكبُّوا في النار، كقوله تعالى: ﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا﴾ [الشعراء: ٩٤] ويجوزُ أن يكونَ ذِكْرُ الوُجُوهِ إِذْنا نَأْتِيهِمْ يُكَبِّبُونَ على وجوههم فيها منكوسين. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ يجوزُ فيه الالْتِفَاتُ وحكاية ما يقال لهم عند الكبِّ بإضمارِ القول.

[﴿إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٩١-٩٣]

أمر رسوله بأن يقول: ﴿أَمَرْتُ﴾ أن أُحْصَى اللهُ وحده بالعبادة، ولا أتخذ له شريكاً كما فعلت قريش، وأن أكون من الخُفَاءِ الثَّابِتِينَ على ملة الإسلام. ﴿وَأَنْ أَتْلُوا﴾

قوله: (ومن فرع شديد مُفرط الشدة)، هو المعنى الثاني في الجواب، والتَّنْكِيرُ على الأوَّلِ للوحدة شخصاً، وعلى هذا التَّهْوِيلُ والتَّعْظِيمُ.

وقوله: «وأما ما يلحق الإنسان» إلى آخره، فمعناه: لا بدَّ من حمل التَّنْكِيرِ على هذا النوع من الخوف؛ لأن سائر الأهوال والأفزع البسُّ لا يخلون منه، أي: وهم من فزع العقاب، أو من خوف النار آمنون، لا مما يلحق الإنسان من التَّهْيِيبِ، فقوله^(١): «أما ما يلحق» إلى آخره، اعتراض من الوجهين، وهو متعلِّقُ بهما، أو استغني به عن تكريره، بعد الوجه الآخر؛ لأنه بين قوله: «من فرع شديد» بقوله: «وهو خوف النار» ومأل قراءة الإضافة أيضاً إلى هذين الوجهين؛ لأن الفزع الذي يختصُّ بذلك اليوم هو العقاب، والنار وسائر الأفزع مشترك. قوله: (﴿أَمَرْتُ﴾ أن أُحْصَى اللهُ وحده)، اقتبس معنى التَّخْصِيصِ من لفظة: «إنما».

(١) في (ح) و(ف): «بقوله».

أَلْقُرْآنَ ﴿ من التَّلَاوَةِ أَوْ التَّلَوِّ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ [يونس: ١٠٩، الأحزاب: ٢].
والبلدة: مَكَّةُ حَرَسَهَا اللهُ تَعَالَى: اِخْتَصَّهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْبِلَادِ بِإِضَافَةِ اسْمِهِ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّهَا
أَحَبُّ بِلَادِهِ إِلَيْهِ، وَأَكْرَمُهَا عَلَيْهِ؛ وَأَعْظَمُهَا عِنْدَهُ. وَهَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ
خَرَجَ فِي مُهَاجِرَتِهِ، فَلَمَّا بَلَغَ الْحَزْوَرَةَ اسْتَقْبَلَهَا بِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ فَقَالَ: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ
أَحَبُّ بِلَادِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مَا خَرَجْتُ» وَأَشَارَ إِلَيْهَا إِشَارَةً
تَعْظِيمًا لَهَا وَتَقْرِيبًا، دَالًّا عَلَى أَنَّهَا مَوْطِنُ نَبِيِّهِ وَمَهْبِطُ وَحْيِهِ.

قوله: (فلما بلغ الحزورة)، روينا عن الترمذي، عن عبد الله بن الحمراء قال: رأيت
رسول الله ﷺ واقفاً على الحزورة، وهو يقول: «والله إنك لحقير أرض الله، ولولا آتي
أخرجت منك ما خرجت»^(١).

النهاية: الحزورة: موضعٌ من مَكَّةَ عِنْدَ بَابِ الْحَطَّائِينَ، وَهُوَ بوزن قَسُورَةَ، قال الشافعي
رضي الله عنه: الناس يُشَدُّونَ الْحَزْوَرَةَ وَالْحُدَيْيَةَ، وَهُمَا مُحَقَّفَانِ.

«مهاجره» أي: زمان هجرته.

قوله: (إشارة تعظيم لها وتقريب)، أي: الإشارة بلفظ «هذه» إلى البلدة على طريقة
قول القائل:

هذا أبو الصقر فردًا في محاسنه^(٢)

إِيدَانٌ بِتَعْظِيمِهَا وَشَرَفِهَا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهَا مَوْطِنُ نَبِيِّهِ وَمَهْبِطُ وَحْيِهِ، وَلِذَلِكَ نَزَلَتْ
﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] تَسْلِيَةً لِقَلْبِهِ، وَتَسْرِيَةً
لِكُرْبِهِ، أَيْ: الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْكَ الْعَمَلَ بِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَكَّةَ.

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨) وصححه ابن حبان (٣٧٠٨) وانظر تمام تخريجه في
«مسند أحمد» (١٨٧١٥).

(٢) سبق تخريجه.

وَوَصَفَ ذَاتَهُ بِالتَّحْرِيمِ الَّذِي هُوَ خَاصٌّ وَصِفِهَا، فَأَجْزَلَ بِذَلِكَ قَسَمَهَا فِي الشَّرْفِ
وَالْعُلُوِّ، وَوَصَفَهَا بِأَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ لَا يَنْتَهِك حُرْمَتَهَا إِلَّا ظَالِمٌ مُضَادٌّ لِرَبِّهِ ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ
بِالْحَاكِمِ يَظْلَمْ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] لَا يُخْتَلَى خِلَافُهَا، وَلَا يُعْصَدُ شَجَرُهَا،
وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهَا، وَاللَّاجِئُ إِلَيْهَا آمِنٌ.

قوله: (وَوَصَفَ ذَاتَهُ بِالتَّحْرِيمِ الَّذِي هُوَ خَاصٌّ وَصِفِهَا)، أي: وَصَفَ الْبَلَدَةَ؛ يعني:
كَانَ مِنْ حَقِّ الظَّاهِرِ أَنْ يَصِفَ الْبَلَدَةَ، وَيَقُولُ: الْبَلَدَةُ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ، فَوَصَفَ نَفْسَهُ بِقَوْلِهِ:
الَّذِي حَرَّمَهَا، لِيُؤْذِنَ بِتَعْظِيمِهِ.

فإن قلت: ما الفرق بين الوصفين؟

قلت: إذا قلت: رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَ مَكَّةَ، أَعْلَمْتَ أَنَّ مَكَّةَ مِنْ جَلَالَةِ قَدْرِهَا،
وَعُلُوِّ مَرْتَبَتِهَا بِحَيْثُ يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بِتَحْرِيمِهَا ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَأَنَّ الْوَصْفَ بِهِ
كَالْوَصْفِ بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «فَأَجْزَلَ بِذَلِكَ قَسَمَهَا فِي الشَّرْفِ
وَالْعُلُوِّ»، وَإِذَا قُلْتَ: رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ، لَمْ يَقَعْ هَذَا الْمَوْقِعَ.

قوله: (قَسَمَهَا)، الْأَسَاسُ: أَعْطَيْتُهُ قَسَمَهُ وَمَقَسَمَهُ: نَصَبْتَهُ، وَأَعْطَيْتُهُمْ أَقْسَامَهُمْ
وَمَقَاسِمَهُمْ، وَأَنْشَدَ أَبُو زَيْدٍ^(١):

وَمَا لَكَ إِلَّا مَقْسِمٌ لَيْسَ فَائِتًا بِهِ أَحَدٌ فَاعْجَلْ بِهِ أَوْ تَأَخَّرَا

قوله: (لَا يُخْتَلَى خِلَافُهَا)^(٢)، النِّهَايَةُ: الْخِلَافُ مَقْصُورٌ: النَّبَاتُ الرَّطْبُ الرَّقِيقُ مَا دَامَ رَطْبًا،
وَاخْتِلَاؤُهُ: قَطْعُهُ، فَإِذَا بَيَسَ فَهُوَ حَشِيشٌ. لَا يُعْصَدُ: لَا يُقَطَّعُ، يُقَالُ: عَصَدْتُ الشَّجَرَ،
أَعْصَدْتُهُ عَصْدًا، وَالْعَصْدُ - بِالتَّحْرِيمِ - الْمَعْصُودُ.

(١) فِي النِّسْخِ الْخَطِيئَةِ: «يَزِيدٌ»، وَهُوَ خَطَا، وَالصَّوَابُ مَا أُثْبِتْنَاهُ، وَهُوَ عَلَى الْجَادَّةِ فِي «أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ»
وَالْمَرَادُ بِهِ أَبُو زَيْدٍ سَعِيدُ بْنُ أَوْسِ الْأَنْصَارِيِّ، مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ بِاللُّغَةِ: رَوَايَةٌ وَدَرَايَةٌ.

(٢) هَذَا جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ صَحِيحِ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٤٩) وَمُسْلِمٌ (١٣٥٣) وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ
عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَجَعَلَ دُخُولَ كُلِّ شَيْءٍ تَحْتَ رُبُوبِيَّتِهِ وَمَلَكَوْتِهِ كَالتَّابِعِ لِدُخُولِهَا تَحْتَهُمَا، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَلِكًا مَلَكَ مِثْلَ هَذِهِ الْبَلَدَةِ لِعَظِيمِ الشَّأْنِ قَدْ مَلَكَهَا وَمَلَكَ إِلَيْهَا كُلَّ شَيْءٍ. اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي سُكْنَاهَا، وَأَمَّا فِيهَا شَرٌّ كُلُّ ذِي شَرٍّ، وَلَا تَنْقُلْنَا مِنْ جِوَارِ بَيْتِكَ إِلَّا إِلَى دَارِ رَحْمَتِكَ. وَقُرِي: «الَّتِي حَرَّمَهَا»، و«اتْلُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقُرْآنَ»: عَنْ أَبِي ﴿ وَأَنْ أَتْلُوًا ﴾: عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ. ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ بِاتِّبَاعِهِ إِيَّايَ فِيمَا أَنَا بِصِدْدِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَنَفْيِ الْأَنْدَادِ

قوله: (وَجَعَلَ دُخُولَ كُلِّ شَيْءٍ تَحْتَ رُبُوبِيَّتِهِ وَمَلَكَوْتِهِ كَالتَّابِعِ لِدُخُولِهَا تَحْتَهُمَا)، يَعْنِي: أَضَافَ الرَّبَّ إِلَى الْبَلَدَةِ إِضَافَةً تَمْلِيكٍ، وَهُوَ بِمَعْنَى: مَالِكٍ، ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينُ اللَّهِ﴾ عَلَى وَجْهِ التَّمْيِيمِ، لِيُؤْذَنَ بِالْفَرَقِ بَيْنَ الْمُلْكَيْنِ، وَأَنَّ أَحَدَهُمَا كَالتَّابِعِ، وَالْآخَرُ كَالْمَتَّبِعِ.

قوله: (وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ)، أَي: فِي وَصْفِ ذَاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّحْرِيمِ الَّذِي هُوَ وَصَفَ خَاصًّا لِلْبَلَدَةِ، وَجَعَلَ كُلَّ الْأَشْيَاءِ تَابِعًا لَهَا فِي الْمُلْكِيَّةِ إِشْعَارًا بِأَنَّ مَالِكَهَا عَظِيمُ الشَّأْنِ، قَاهِرُ السُّلْطَانِ، يَرْفَعُ مَنْ مَرْتَبَةً مَا أَرَادَ رَفَعْتَهُ، وَيُخَطِّطُ مَنْ مَنزَلَةً مَا أَرَادَ حَطَّهُ، يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قوله: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ بِاتِّبَاعِهِ، يَرِيدُ أَنَّ «أَهْتَدَى» مُطْلَقٌ غَيْرُ مَقْيَدٍ، بِشَيْءٍ، وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْخِلَالَ الْأَرْبَعِ، فَوَجِبَ تَقْيِيدُهُ بِهَا.

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ خَاتِمَةٌ شَرِيفَةٌ وَارِدَةٌ عَلَى نَمَطٍ غَرِيبٍ، وَتَرْتِيبٍ أُنِيقٍ.

قَالَ الْقَاضِي: أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ ذَلِكَ بَعْدَمَا بَيَّنَّ الْمَبْدَأَ وَالْمَعَادَ، وَشَرَحَ أَحْوَالَ الْقِيَامَةِ إِشْعَارًا بِأَنَّهُ قَدْ أَتَمَّ الدَّعْوَةَ فَكَمَّلَتْ وَمَا عَلَيْهِ بَعْدُ إِلَّا الْاِسْتِغْثَالُ بِشَأْنِهِ، وَالِاسْتِغْرَاقُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ^(١). يُرِيدُ أَنَّ هَذِهِ الْخَاتِمَةَ كَالْمُتَارِكَةِ لِلْمَشْرُوكِينَ.

وَلَعَمْرِي إِنَّهَا مِنَ الْخَاتِمَةِ الَّتِي تُدْهِشُ الْعُقُولَ، وَتُحَيِّرُ الْأَفْهَامَ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا خَتَمَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةَ فِي أَمْرِ الْبَعْثِ وَالْحَشْرِ عَلَى أَتَمِّ مَا يَنْبَغِي بِقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(١) «أنوار التنزيل» (٤: ٢٨١).

عنه، والدُّخُولُ فِي الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ، وَاتِّبَاعِ مَا أُنزِلَ عَلَيَّ مِنَ الْوَحْيِ؛ فَمَنْفَعَةٌ اهْتِدَائِهِ رَاجِعَةٌ إِلَيْهِ لَا إِلَيَّ، ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ وَلَمْ يَتَّبِعْنِي فَلَا عَلَيَّ، وَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ مُنذِرٌ، وَمَا عَلَيَّ الرَّسُولُ إِلَّا الْبَلَاغُ. ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَحْمَدَ اللَّهَ عَلَى مَا حَوَّلَهُ مِنْ نِعْمَةِ النُّبُوَّةِ الَّتِي لَا تُؤَاذِيهَا نِعْمَةٌ، وَأَنْ يُهَدِّدَ أَعْدَاءَهُ بِمَا سَيُرِيهِمُ اللَّهُ مِنْ آيَاتِهِ الَّتِي تُلْجِئُهُمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ، وَالْإِقْرَارِ بِأَتْيَا آيَاتِ اللَّهِ، وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْمَعْرِفَةُ؛ يَعْنِي فِي الْآخِرَةِ عَنِ الْحَسَنِ، وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: الدُّخَانَ، وَانْشِقَاقَ الْقَمَرِ. وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ نِقَمَاتِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا. وَقِيلَ: هُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]. وَكُلُّ عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ،

عَلَى الْحَضْبِ، وَوَضَعَ مَوْضِعَ حَرْفِ النَّفْيِ الْاسْتِفْهَامَ؛ تَأْكِيدًا، أَمَرَ حَبِيبَهُ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ بِخَوِيصَةِ نَفْسِهِ مِنَ الْاسْتِغَالِ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ، فَاخْتَارَ لَهُ مِنَ الْأَمْكِنَةِ أَفْضَلَ الْبِقَاعِ، وَخَصَّهَا مِنَ الْأَوْصَافِ مَا كُلُّ وَصْفٍ ذُوئَهَا كَمَا قَالَ، وَجَعَلَ دُخُولَ كُلِّ شَيْءٍ تَحْتَ مَلَكُوتِهِ كَالتَّابِعِ لِدُخُولِهَا تَحْتَهُ.

وَمِنَ الْمِلَّةِ ^(١) خَيْرِ الْمِلَلِ وَأَقْوَمَهَا، ﴿وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وَمِنَ الْكُتُبِ أَسْمَى الْكُتُبِ وَأَسْنَاهَا، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ثُمَّ أَمَرَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِالتَّحْمِيدِ حَمْدًا عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنْ نِعَمِ التَّبْلِيغِ، وَاسْتِفْرَاحِ الطُّوقِ وَالْجُهْدِ فِيهِ، وَمِنْ اخْتِصَاصِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ فِي أَشْرَفِ الْبِقَاعِ، وَمِنَ الدُّخُولِ فِي الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ، وَمِنْ تَلَاوَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ، ثُمَّ طَبَعَ الْكِتَابَ بِالتَّهْدِيدِ بِقَوْلِهِ: ﴿سَرُّبِكُمْ آيَاتِهِ، فَتَعْرِفُونَهَا﴾، يَعْنِي: حِينَ أَعْرَضُوا عَنِ وَعَظِ اللَّهِ، وَأَمَرْنَا الرَّسُولَ بِالتَّارِكَةِ، سَنَفَرُغُ لَهُمْ وَحُدْنَا، وَتُلْجِئُهُمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ وَالْإِقْرَارِ بِآيَاتِنَا حِينَ لَا تَنْفَعُهُمُ الْمَعْرِفَةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَنَفَرُغُ لَكُمْ آيَةَ الثَّقَلَانِ * يَا أَيُّهَا آلَاءَ رَبِّكُمَا نَكِّدْ بَانَ﴾ [الرحمن ٣١-٣٢]، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ.

قَوْلُهُ: (وَقِيلَ: هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَرُّبِهِمْ﴾)، أَي: لَا يَكُونُ لِلتَّهْدِيدِ بَلِّ لِلْاسْتِدْلَالِ.

(١) قَوْلُهُ: «وَمِنَ الْمِلَّةِ»: مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: «فَاخْتَارَ».

فَاللَّهُ عَالِمٌ بِهِ غَيْرُ غَافِلٍ عَنْهُ؛ لِأَنَّ الْغَفْلَةَ وَالسَّهْوَ لَا يَجُوزَانِ عَلَى عَالَمِ الذَّاتِ، وَهُوَ مِنْ وَرَاءِ جِزَاءِ الْعَامِلِينَ. قُرِي: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ.

قال الزجاج: أي: سَيُرِيكُمْ اللهُ آيَاتِهِ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ^(١).

والحمد على هذا التفسير على نعمة المعرفة التي دُونَهَا كُلُّ النَّعْمِ. وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعد بإيصالِ الثَّوَابِ إِلَى مَنْ شَكَرَ تِلْكَ النَّعْمَةَ.

وعلى الأوَّل: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ كَانَ وَعِيدًا وَتَهْدِيدًا، وَقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، تَذِيلٌ لِلْوَعِيدِ، وَتَأْكِيدٌ لَهُ.

قوله: (على عالم الذات)، الانتصاف: سبق له جَحْدُ صِفَةِ الْعِلْمِ، وَإِبْهَامٌ أَنَّ سَلْبَهَا دَاخِلٌ فِي تَنْزِيهِ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ يَجْعَلُ اسْتِحَالَةَ الْغَفْلَةِ عَلَيْهِ مُعَلَّلَةً بِأَنَّ عِلْمَهُ بِالذَّاتِ لَا بِالْعِلْمِ.

والْحَقُّ أَنَّ اسْتِحَالَةَ الْغَفْلَةِ عَلَيْهِ تَعَالَى، لِأَنَّ عِلْمَهُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ، بَلْ هُوَ عَالِمٌ بِعِلْمٍ قَدِيمٍ، عَامُّ التَّعَلُّقِ فِي الْكَائِنَاتِ وَالْمُمَكِّنَاتِ وَالْمُمْتَنِعَاتِ، وَلَا يَتَوَقَّفُ تَنْزِيهُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى تَعْطِيلِ صِفَاتِ كِبَالِهِ وَجَلَالِهِ تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوقًا كَبِيرًا^(٢).

قوله: (وراء جزاء العاملين)، هذا مثل، يعني: أنه تعالى لا بدَّ أن يُجَازِيَ عَامِلَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا أَنَّ سَائِقَ الشَّيْءِ لَا بدَّ أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَى مَا يَرِيدُ مِنْهُ.

قوله: ﴿قُرِي: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالنَّاءِ^(٣)﴾، بِالنَّاءِ الْفَوْقَانِيَّةِ: نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ وَحَفْصٌ^(٤)، وَالباقون: بِالْيَاءِ.

(١) «معاني القرآن وإعرابه» (٤: ١٣٠).

(٢) «الانتصاف بحاشية الكشاف» (٣: ٣٩٠).

(٣) كذا في الأصول الخطية، وفي «الكشاف»: «بالتاء والياء»، والأمر فيه سهل.

(٤) وَحُجَّتُهُمْ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، وَحُجَّةٌ مِنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ أَنَّ الْكَلَامَ انْقَطَعَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أَي: عَمَّا يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ. انظر: «حجّة القراءات» ص ٥٤١.

عن رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ طَس سُلَيْمَانَ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بَعْدَ مَنْ صَدَّقَ سُلَيْمَانَ وَكَذَّبَ بِهِ وَهُودٍ وَشُعَيْبٍ وَصَالِحٍ وَإِبْرَاهِيمَ، وَيَخْرُجُ مِنْ قَبْرِهِ وَهُوَ يُنَادِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

قوله: (وهود) عطف على «مَنْ صَدَّقَ»، كأنه قيل: بعدد قوم سليمان وهود.

تَمَّتِ السُّورَةُ

حَامِدًا لِلَّهِ، وَمُصَلِّيًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

* * *

فهرس زُمر الآيات المُفسّرة

الآيات	الصفحة
	سورة النور
[١]	٧-٥
[٢]	١٣-٧
[٣]	١٨-١٣
[٥-٤]	٢٦-١٨
[٩-٦]	٣١-٢٦
[١٠]	٣١
[١١]	٣٤-٣١
[١٢]	٣٥-٣٤
[١٣]	٣٧-٣٥
[١٥-١٤]	٤٠-٣٧
[١٦]	٤١-٤٠
[١٨-١٧]	٤٢-٤١
[١٩]	٤٢
[٢٠]	٤٣
[٢١]	٤٤-٤٣

الصفحة	الآيات
٤٥-٤٤	[٢٢]
٤٦-٤٥	[٢٣]
٥٠-٤٦	[٢٥-٢٤]
٥٤-٥٠	[٢٦]
٥٧-٥٤	[٢٧]
٥٩-٥٧	[٢٨]
٦٠-٥٩	[٢٩]
٦٢-٦٠	[٣٠]
٧٢-٦٢	[٣١]
٧٧-٧٢	[٣٢]
٨٥-٧٨	[٣٣]
٨٦-٨٥	[٣٤]
١٠٤-٨٦	[٣٥]
١١٠-١٠٥	[٣٨-٣٦]
١١٢-١١٠	[٣٩]
١١٤-١١٢	[٤٠]
١١٤	[٤٢-٤١]
١١٩-١١٥	[٤٤-٤٣]
١٢١-١١٩	[٤٥]
١٢٢-١٢١	[٤٧-٤٦]
١٢٤-١٢٢	[٤٩-٤٨]
١٢٥-١٢٤	[٥٠]

الصفحة	الآيات
١٢٦-١٢٥	[٥١]
١٢٨-١٢٧	[٥٢]
١٣٠-١٢٨	[٥٣]
١٣١-١٣٠	[٥٤]
١٣٦-١٣١	[٥٥]
١٣٧	[٥٦]
١٤٠-١٣٨	[٥٧]
١٤٥-١٤٠	[٥٨]
١٤٨-١٤٥	[٥٩]
١٥٠-١٤٩	[٦٠]
١٥٦-١٥٠	[٦١]
١٦٠-١٥٧	[٦٢]
١٦٤-١٦٠	[٦٣]
١٦٥-١٦٤	[٦٤]
سورة الفرقان	
١٧٠-١٦٦	[٢-١]
١٧٢-١٧١	[٣]
١٧٢	[٤]
١٧٦-١٧٢	[٥]
١٧٧-١٧٦	[٦]
١٨١-١٧٧	[٨-٧]
١٨١	[٩]

الصفحة	الآيات
١٨٣-١٨٢	[١٠]
١٨٨-١٨٣	[١٤-١١]
١٩٠-١٨٨	[١٦-١٥]
٢٠٠-١٩٠	[١٨-١٧]
٢٠٣-٢٠٠	[١٩]
٢٠٧-٢٠٣	[٢٠]
٢٠٩-٢٠٧	[٢١]
٢١٣-٢٠٩	[٢٢]
٢١٥-٢١٣	[٢٣]
٢١٧-٢١٥	[٢٤]
٢١٩-٢١٧	[٢٥]
٢٢٠-٢١٩	[٢٦]
٢٢٣-٢٢٠	[٢٩-٢٧]
٢٢٤-٢٢٣	[٣١-٣٠]
٢٣٣-٢٢٤	[٣٤-٣٢]
٢٣٤-٢٣٣	[٣٦-٣٥]
٢٣٦-٢٣٥	[٣٧]
٢٣٨-٢٣٦	[٣٩-٣٨]
٢٣٩-٢٣٨	[٤٠]
٢٤١-٢٣٩	[٤٢-٤١]
٢٤٢-٢٤١	[٤٣]
٢٤٤-٢٤٢	[٤٤]

الصفحة	الآيات
٢٤٨-٢٤٤	[٤٦-٤٥]
٢٥٠-٢٤٨	[٤٧]
٢٥٥-٢٥٠	[٤٨]
٢٥٧-٢٥٥	[٤٩]
٢٥٩-٢٥٨	[٥٠]
٢٦٢-٢٦٠	[٥٢-٥١]
٢٦٦-٢٦٢	[٥٣]
٢٦٦	[٥٤]
٢٦٨-٢٦٧	[٥٥]
٢٦٩-٢٦٨	[٥٧-٥٦]
٢٧٠-٢٦٩	[٥٨]
٢٧٥-٢٧٠	[٥٩]
٢٧٦-٢٧٥	[٦٠]
٢٧٧-٢٧٦	[٦١]
٢٨٠-٢٧٧	[٦٢]
٢٨٣-٢٨٠	[٦٣]
٢٨٤-٢٨٣	[٦٤]
٢٨٥-٢٨٤	[٦٦-٦٥]
٢٨٩-٢٨٦	[٦٧]
٢٩٥-٢٩٠	[٧٠-٦٨]
٢٩٧-٢٩٥	[٧١]
٢٩٩-٢٩٧	[٧٢]

الصفحة	الآيات
٣٠١-٣٠٠	[٧٣]
٣٠٣-٣٠١	[٧٤]
٣٠٥-٣٠٣	[٧٦-٧٥]
٣٠٩-٣٠٥	[٧٧]
سورة الشعراء	
٣١١-٣١٠	[٢-١]
٣١٢-٣١١	[٣]
٣١٦-٣١٢	[٤]
٣٢٠-٣١٧	[٦-٥]
٣٢٣-٣٢٠	[٩-٧]
٣٢٦-٣٢٣	[١١-١٠]
٣٢٩-٣٢٦	[١٣-١٢]
٣٣٠-٣٢٩	[١٤]
٣٤٠-٣٣٠	[٢٢-١٥]
٣٤٤-٣٤٠	[٢٣]
٣٤٥	[٢٤]
٣٤٧-٣٤٦	[٢٨-٢٥]
٣٤٧	[٢٩]
٣٤٩-٣٤٧	[٣٠]
٣٥٠-٣٤٩	[٣٣-٣٢]
٣٥٢-٣٥٠	[٣٥-٣٤]
٣٥٤-٣٥٢	[٣٧-٣٦]

الصفحة	الآيات
٣٥٥-٣٥٤	[٤٠-٣٨]
٣٥٥	[٤٢-٤١]
٣٥٧-٣٥٥	[٤٤-٤٣]
٣٥٨-٣٥٧	[٤٨-٤٥]
٣٥٨	[٤٩]
٣٦٠-٣٨٥	[٥١-٥٠]
٣٦٣-٣٦٠	[٥٥-٥٢]
٣٦٥-٣٦٤	[٦٠-٥٧]
٣٦٧-٣٦٥	[٦٤-٦١]
٣٦٨-٣٦٧	[٦٦-٦٥]
٣٦٨	[٦٨-٦٧]
٣٦٩-٣٦٨	[٧١-٦٩]
٣٧٠-٣٦٩	[٧٣-٧٢]
٣٧٥-٣٧٠	[٨٢-٧٤]
٣٨٣-٣٧٥	[٨٩-٨٣]
٣٨٤-٣٨٣	[٩٥-٩٠]
٣٨٧-٣٨٤	[١٠٤-٩٦]
٣٨٨-٣٨٧	[١١٠-١٠٥]
٣٩٠-٣٨٩	[١١١]
٣٩٢-٣٩٠	[١١٥-١١٢]
٣٩٤-٣٩٣	[١٢٢-١١٦]
٣٩٦-٣٩٤	[١٣١-١٢٣]

الصفحة	الآيات
٣٩٧-٣٩٦	[١٣٥-١٣٢]
٣٩٨-٣٩٧	[١٤٠-١٣٦]
٤٠٢-٣٩٩	[١٥٢-١٤١]
٤٠٣-٤٠٢	[١٥٤-١٥٣]
٤٠٤-٤٠٣	[١٥٦-١٥٥]
٤٠٥-٤٠٤	[١٥٩-١٥٧]
٤٠٦-٤٠٥	[١٦٦-١٦٠]
٤٠٧	[١٦٧]
٤٠٩-٤٠٧	[١٧٥-١٦٨]
٤١١-٤١٠	[١٨٠-١٧٦]
٤١٣-٤١١	[١٨٤-١٨١]
٤١٤-٤١٣	[١٨٦-١٨٥]
٤١٥	[١٨٧]
٤١٥	[١٨٨]
٤١٨-٤١٥	[١٨٩]
٤٢٠-٤١٨	[١٩٦-١٩٢]
٤٢١-٤٢٠	[١٩٧]
٤٢٦-٤٢١	[٢٠٧-١٩٨]
٤٢٨-٤٢٧	[٢٠٩-٢٠٨]
٤٢٩-٤٢٨	[٢١٢-٢١٠]
٤٣٢-٤٣٠	[٢١٤-٢١٣]
٤٣٣-٤٣٢	[٢١٦-٢١٥]

الصفحة	الآيات
٤٣٦-٤٣٣	[٢٢٠-٢١٧]
٤٤٣-٤٣٦	[٢٢٣-٢٢١]
٤٤٦-٤٤٣	[٢٢٦-٢٢٤]
٤٤٩-٤٤٦	[٢٢٧]
سورة النمل	
٤٥٦-٤٥٠	[٣-١]
٤٥٩-٤٥٦	[٥-٤]
٤٦٠-٤٥٩	[٦]
٤٦٢-٤٦٠	[٧]
٤٦٥-٤٦٢	[٨]
٤٦٦	[٩]
٤٧٠-٤٦٦	[١١-١٠]
٤٧٢-٤٧٠	[١٢]
٤٧٣-٤٧٢	[١٣]
٤٧٥-٤٧٤	[١٤]
٤٧٨-٤٧٥	[١٥]
٤٨٢-٤٧٨	[١٦]
٤٨٣-٤٨٢	[١٧]
٤٨٩-٤٨٣	[١٨]
٤٩٣-٤٨٩	[١٩]
٤٩٨-٤٩٤	[٢١-٢٠]
٥٠٥-٤٩٨	[٢٢]

الصفحة	الآيات
٥٠٧-٥٠٥	[٢٣]
٥١٥-٥٠٧	[٢٦-٢٤]
٥١٦-٥١٥	[٢٨-٢٧]
٥١٩-٥١٦	[٣١-٢٩]
٥٢٠-٥١٩	[٣٢]
٥٢٠	[٣٣]
٥٢٨-٥٢٠	[٣٦-٣٤]
٥٢٨	[٣٧]
٥٢٩	[٣٨]
٥٣٠-٥٢٩	[٣٩]
٥٣٣-٥٣٠	[٤٠]
٥٣٦-٥٣٣	[٤٣-٤١]
٥٣٨-٥٣٦	[٤٤]
٥٣٩-٥٣٨	[٤٦-٤٥]
٥٤٠-٥٣٩	[٤٧]
٥٤٦-٥٤٠	[٥٣-٤٨]
٥٤٨-٥٤٦	[٥٥-٥٤]
٥٤٨	[٥٨-٥٦]
٥٥٣-٥٤٩	[٥٩]
٥٥٦-٥٥٣	[٦٠]
٥٥٧-٥٥٦	[٦١]
٥٦٠-٥٥٧	[٦٢]

الصفحة	الآيات
٥٦٠	[٦٣]
٥٦١-٥٦٠	[٦٤]
٥٦٧-٥٦١	[٦٥]
٥٧٣-٥٦٨	[٦٦]
٥٧٤-٥٧٣	[٦٨-٦٧]
٥٧٦-٥٧٥	[٧٠-٦٩]
٥٧٧-٥٧٦	[٧٢-٧١]
٥٧٧	[٧٣]
٥٧٨-٥٧٧	[٧٤]
٥٧٩-٥٧٨	[٧٥]
٥٨٠-٥٧٩	[٧٧-٧٦]
٥٨٠	[٧٨]
٥٨٣-٥٨٠	[٨١-٧٩]
٥٨٧-٥٨٣	[٨٢]
٥٨٨-٥٨٧	[٨٣]
٥٩٠-٥٨٨	[٨٥-٨٤]
٥٩٠	[٨٦]
٥٩٢-٥٩٠	[٨٧]
٥٩٨-٥٩٢	[٩٠-٨٨]
٦٠٤-٥٩٨	[٩٣-٩١]

